



نَفْحَاتُ الرَّحْمَنِ

فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

تأليف الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندي

تحقيق قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة قم

المجلد الثالث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



نفحات الرحمن في تفسير القرآن

تأليف
الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندي
(١٢٩١-١٣٧١هـ)

الجزء الثالث

تحقيق
قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم

جميع الحقوق محفوظة و مسجلة لمؤسسة البعثة

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ
وَأْمُرَ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأَوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ [١٤٥]

ثُمَّ بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى فضائل التَّوْرَةِ بَيَّانَ مَا فِيهَا مِنَ الْعُلُومِ إجمالاً بقوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ﴾ التي كانت من زَبْرٍ جَدِّ الْجَنَّةِ - على رواية^١ -، أو زمرد أخضر - على أخرى^٢ - ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وعلم يحتاج إليه، وَكَتَبْنَا فِيهَا ﴿مَوْعِظَةً﴾ كثيرةً ﴿وَتَفْصِيلًا﴾ وشرحاً وافياً ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْأَحْكَامِ، وَقُلْنَا: يَا مُوسَى، إِذَا عَلِمْتَ مَا فِي الْأَلْوَابِ ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ فِي الْقَلْبِ، أَوْ بِجِدٍّ وَعَزِيمَةٍ ﴿وَأْمُرْ﴾ وَحَتَّى ﴿قَوْمَكَ﴾ وَمَنْ تَبِعَكَ ﴿يَأْخُذُوا﴾ وَيَعْمَلُوا ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ مِنْ عَزَائِمِ أَحْكَامِهَا. وَقِيلَ: إِنَّ الشَّرَادَ مِنَ الْأَحْسَنِ: هُوَ الْحَسَنُ؛ وَهُوَ كُفْلُهَا^٣.

ثُمَّ وَعَظَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿سَأَوْرِيكُمْ دَارَ﴾ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَسَائِرِ الْأُمَمِ الْمُهْلَكَةِ الَّذِينَ كَانُوا هُمْ ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ وَالْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ أَحْكَامِي، كَيْفَ خَرِبَتْ وَعَفِيتْ آثَارُهَا بِعِصْيَانِي لَتَعْتَبَرُوا بِهَا. قِيلَ: يَعْنِي سَادَخَلَكُمْ أَرْضُ مِصْرَ وَأَرْضُ الْجَبَابِرَةِ وَالْعَمَالِقَةِ بِالشَّامِ. وَعَلَيْهِ يَكُونُ فِيهِ وَعْدٌ وَتَرْغِيبٌ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي تَفْسِيرِ ﴿دَارِ الْفَاسِقِينَ﴾ قَالَ: هِيَ جَهَنَّمُ، أَيْ فَلْيَكُنْ ذِكْرُ جَهَنَّمَ حَاضِرًا فِي خَوَاطِرِكُمْ^٤.

عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا أَنْزَلَ الْأَلْوَابَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْزَلَهَا وَفِيهَا بَيَّانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، فَلَمَّا انْقَضَتْ أَيَّامُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَسْتَوْدِعَ الْأَلْوَابَ - وَهِيَ زَبْرٌ جَدَّةٌ مِنَ الْجَنَّةِ - جِبَلًا يُقَالُ لَهُ زَيْنَةُ، فَأَتَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْجِبَلَ فَانْشَقَّ لَهُ الْجِبَلُ، فَجَعَلَ فِيهِ الْأَلْوَابَ مَلْفُوفَةً، فَلَمَّا جَعَلَهَا [فِيهِ] انْطَبَقَ الْجِبَلُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَلْ فِي الْجِبَلِ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ، فَأَقْبَلَ رَكْبٌ مِنَ الْيَمَنِ يُرِيدُونَ الرُّسُولَ ﷺ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى الْجِبَلِ انْفَرَجَ الْجِبَلُ وَخَرَجَتْ الْأَلْوَابُ مَلْفُوفَةً كَمَا وَضَعَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخَذَهَا الْقَوْمُ فَلَمَّا وَقَعَتْ فِي أَيْدِيهِمْ أَلْقَى فِي قُلُوبِهِمْ أَنْ لَا يَنْظُرُوا إِلَيْهَا وَهَابُوهَا حَتَّى يَأْتُوا بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ [اللَّهُ] جَبْرَائِيلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِأَمْرِ الْقَوْمِ وَبِالَّذِي أَصَابُوهُ.

١. تفسير العياشي ٢: ١٦٠/١٦١٩، تفسير الصافي ٢: ٢٣٦.

٢. بصائر الدرجات: ١٦١/٦، تفسير الصافي ٢: ٢٣٧. ٣. تفسير روح البيان ٣: ٢٤٠.

٤. تفسير الرازي ١٤: ٢٣٨.

٦ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٣

فلَمَّا قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ ابْتَدَأَهُمْ فَسَأَلَهُمْ عَمَّا وَجَدُوهُ، فَقَالُوا: وَمَا عَلَّمَكُ بِمَا وَجَدْنَا؟ قَالَ: أَخْبَرَنِي بِهِ رَبِّي، وَهُوَ الْأَوَّلُ، قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ. فَأَخْرَجُوهَا فَدَفَعُوهَا إِلَيْهِ، فَظَنِرَ إِلَيْهَا وَقَرَّأَهَا وَكَانَتْ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، ثُمَّ دَعَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيًّا فَقَالَ: ذُوْنكَ هَذِهِ فِيهَا عِلْمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَهِيَ الْأَوَّلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ أَدْفَعَهَا إِلَيْكَ، فَقَالَ: لَسْتُ أَحْسِنُ قِرَاءَتَهَا، قَالَ: إِنْ جَبَرْتَنِي أَمَرَنِي أَنْ أَمُرَكَ أَنْ تَضَعَهَا تَحْتَ رَأْسِكَ لَيْلَتَكَ هَذِهِ، فَإِنَّكَ تُصْبِحُ وَقَدْ عُلِّمْتَ قِرَاءَتَهَا قَالَ: فَجَعَلَهَا تَحْتَ رَأْسِهِ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ عَلَّمَهُ [اللَّهُ] كُلَّ شَيْءٍ فِيهَا، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِنَسْخِهَا، فَنَسَخَهَا فِي جِلْدٍ، وَهُوَ الْجَفَرُ، وَفِيهِ عِلْمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَهُوَ عِنْدَنَا، وَالْأَوَّلُ عِنْدَنَا، وَعَصَا مُوسَى عِنْدَنَا، وَنَحْنُ وَرَثَةُ النَّبِيِّينَ أَجْمَعِينَ».

قال: «قال أبو جعفر: تلك الصخرة التي حفظت ألواح موسى عليه السلام تحت شجرة في وادٍ يعرف بكذا»^١.

وفي رواية: «أن الباقر عليه السلام عرف تلك الصخرة ليماني دخل عليه»^٢.

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ [١٤٦]

ثُمَّ هَدَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْكَفَّارَ الْمُنْكَرِينَ لِلتَّوْرَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ﴾ التَّفَكُّرِ فِي ﴿آيَاتِي﴾ الدَّالَّةِ عَلَى تَوْحِيدِي وَكَمَالِ قُدْرَتِي - مِنْ إِهْلَاكِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ بِكُفْرِهِمْ وَعِصْيَانِهِمْ، وَعَنِ النَّظَرِ فِي مُعْجَزَاتِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكِتَابِهِ - الْكَفَّارَ ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ وَيَتَرَفَّعُونَ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وَاشْتِحَاقَ، وَيَرُونَ أَنْفُسَهُمْ أَفْضَلَ وَأَشْرَفَ مِنَ الرُّسُلِ، مَعَ أَنَّهُ لَا فَضْلَ لَهُمْ وَلَا شَرَفَ ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ وَحُجَّةَ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، أَوْ مُعْجَزَةً دَالَّةً عَلَى رِسَالَةِ رُسُلِهِ، أَوْ مِنْ آيَاتِ التَّوْرَةِ ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ وَلَا يَصْدَقُوهَا وَلَا يَتَقَادُوا لَهَا ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ وَيَطْلَعُوا عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ﴾ وَلَا يَخْتَارُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ ﴿سَبِيلًا﴾ وَمَسْلَكًا لِنَطْبَاقِ قُلُوبِهِمْ، وَاسْتِيْلَاءِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَتَمَرُّنِهِمْ عَلَى الْإِنْحِرَافِ ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ وَطَرِيقَ الضَّلَالِ وَالْمَذْهَبِ ﴿يَتَّخِذُوهُ﴾ لِسُلُوكِ أَنْفُسِهِمْ ﴿سَبِيلًا﴾ لَا يَعْدِلُونَ عَنْهُ لِمُؤَافَقَتِهِ لَأَهْوَانِهِمِ الزَّائِغَةِ، وَإِفْضَانِهِ إِلَى مُشْتَهَاتِهِمِ الْبَاطِلَةِ.

١. تفسير العياشي ٢: ١٦٠/١٦٩، تفسير الصافي ٢: ٢٣٧.

٢. بصائر الدرجات: ٧/١٦٢، تفسير الصافي ٢: ٢٣٨.

عن القمّي رحمه الله: إذا رأوا الإيمان والصدق والوفاء والعمل الصالح لا يتخذونه سبيلاً، وإن يروا الشرك والزنا والمعاصي يأخذوا بها ويعملوا بها^١.

﴿ذَلِكَ﴾ الجزي والتكبير والانحراف عن الحق حصل لهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا﴾ وكفروا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على الذين الحق وسبيل الرشد ﴿وكانوا عنها﴾ معرضين كأنهم كانوا عنها ﴿غَافِلِينَ﴾.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٤٧]

ثم بالغ سبحانه في تهديد عموم المكذبين بآياته من الأولين والآخرين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من التوراة والإنجيل والقرآن ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ والحشر إلى دار الجزاء ﴿حَبِطَتْ﴾ وبطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الحسنة التي عملوها مدة أعمارهم في الدنيا؛ من صلة الأرحام، والإحسان إلى الفقراء والأيتام، وغيرها من الخيرات، فلا يصلون بها إلى الصواب، ولا يتخلصون بها من العذاب، لاشتراط قبولها بالإيمان بالمبدأ والمعاد ورسالة الرسل.

ثم نبه سبحانه على أن عقوبته وجزيه إنما يكون اشتقاقهما بسبب سيئات الأعمال، لا للتشقي وغيره من الأغراض، بقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ هؤلاء المكذبون جزاء ﴿إِلَّا﴾ على ﴿مَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ وهل يعاقبون إلا على ما كانوا يرتكبون من الكفر والمعاصي ومعارضة الرسل ومعاداة الحق، لا والله لا يجزون إلا على أعمالهم السيئة وعقائدهم الفاسدة.

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلُمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ [١٤٨]

ثم أنه تعالى بعدما بين غاية جهل بني إسرائيل بشؤالهم من موسى عليه السلام - بعد عبورهم في بلاد العمالة، وإطلاعهم على عبادتهم الأصنام - أن يجعل لهم صنماً يعبدونه، ذكر أنهم لغاية جهلهم آل أمرهم إلى أن عبدوا العجل واتخذوه إلهاً، بقوله: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى﴾ وأغلب قبيلة بني إسرائيل؛ وهم كانوا سبعمائة ألف أو ستمائة ألف ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ وبعد ذهابه إلى الميقات، لغاية جهلهم ﴿مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾ قيل: سمي ولد البقر به لاشتعال بني إسرائيل عبادته. وكان ذلك العجل ﴿جَسَدًا﴾ ذا لحم ودم ﴿لَهُ خُورٌ﴾ وصوت كصوت البقر.

٨ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٣

قيل: إن موسى ﷺ وعد قومه بالانطلاق إلى الجبل ثلاثين يوماً، فلما تأخر رجوعه قال لهم السامري - وكان رجلاً من قرية يقال لها سامرة، وكان مطاعاً في بني إسرائيل ذا قَدْرٍ -: إنكم أخذتم الحلي من آل فرعون فعاقبكم الله بترك الخيانة، ومنع موسى عنكم. وذلك أن بني إسرائيل كان لهم عيد يتزينون فيه ويستعبدون الحلي من القبط، فاشتعاروا حلي القبط لذلك، فلما أغرق الله القبط بقيت تلك الحلي في أيدي بني إسرائيل، فقال لهم السامري: اجتمعوا الحلي حتى أحرقها لعل الله يرؤد علينا موسى^١.

وقيل: سألوه إلهاً يعبدونه، وقد كان لهم ميلاً إلى عبادة البقر منذ مرّوا على العمالة الذين كانوا يعبدون تماثيل البقر، فجعل السامري الحلي بعد جمعها في النار، وصاغ لهم من ذلك عجلاً لأنه كان صانعاً، وألقى في فمه ثراباً أخذه من أثر فرس جبرئيل؛ وكان ذلك الفرس فرس الحياة ما وضع حافره على شيء إلا اخضر، وكان قد أخذ ذلك الثراب عند فلق البحر، أو عند توجهه إلى الطور، فانقلب ذلك الجسد لحماً ودماً، وظهر منه خوار وحركة ومشي، فقال السامري: هذا إلهكم وإله موسى، فعبدهوا إلا اثني عشر ألفاً من ستمائة ألف^٢.

وقيل: إنه جعل ذلك العجل مجوّفاً، وجعل في جوفه أنابيب على شكل مخصص، وكان [قد] وضع التمثال على مهبّ الريح، تدخل من تلك الأنابيب، فظهر منه صوت مخصوص يشبه خوار العجل، فأوهم بني إسرائيل أنه هو يخور^٣. أقول: هذا مخالف للقرآن والأحاديث.

ثم ويخ الله بني إسرائيل على عبادتهم ذلك العجل وقولهم بألوهيته بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ﴾ بكلام البشر ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ﴾ إلى الخير ﴿سَبِيلًا﴾ ولا يرشدهم إلى الحق طريقاً، مع أن الله يكلم موسى ﷺ ويشرع الشريعة الموصلة إلى كل خير، وهم مع الوصف لغاية جهلهم ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ إلهاً وحسبوه خالقاً معبوداً ﴿وَكَانُوا﴾ في عبادتهم تلك ﴿ظَالِمِينَ﴾ على الله بتضييع حقه وخطأ شأنه، وعلى أنفسهم بتعريضها للهلاك.

وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِشْمَا حَلَفْتُ لَكُمْ أَنِّي بَعْدِي أَعِجِّلْتُكُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ

يَجْزُئُهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِيَّانَ الْقَوْمَ اسْتَصَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِي
الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا
فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ [١٤٩-١٥١]

ثم أنهم ندموا من عملهم الشنيع بسعي هارون ومواظبه البليغة ﴿وَلَمَّا سَقَطَ﴾ رؤوسهم ﴿فِي
أَيْدِيهِمْ﴾ وندموا. قيل: إن السقوط في اليد كناية عن شدة الندامة؛ لأن النادم يضع غالباً رأسه على
يده^١ ﴿وَرَأَوْا﴾ وتبينوا ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ عن الطريق الحق بعبادتهم العجل حتى كأنهم لشدة
وضوحه عابوه بأبصارهم ﴿قَالُوا﴾ تحسراً وندامة: والله ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا﴾ ويتفضل علينا ﴿رَبُّنَا﴾
بإنعامه ﴿وَيَغْفِرَ لَنَا﴾ ويتجاوز عن خطيئتنا بكرمه ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ ألبتة ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ والهاكبين.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى مِنَ الْمُيَقَاتِ إِلَى قَوْمِهِ﴾ حال كونه ﴿غَضَبَانٌ﴾ عليهم لعبادتهم العجل
﴿أَسِفًا﴾ شديد الحزن، لأن الله فتنهم، ثم وبخهم و﴿قَالَ﴾: يا قوم ﴿بِشَسْمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ وساء ما
عملتم ﴿مِن بَعْدِي﴾ وفي زمان غيبي وذهابي إلى ميقات ربي، حيث عبدتم العجل وأشركتكم بالله، أو
بعد ما رأيتم مني التوحيد ونفي الشريك عن الله.

ثم لامهم على ترك انتظارهم رجوعه بقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾ وتركتم ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ بتوحيده وحفظ
عهدي وانتظار رجوعي ﴿وَأَلْقَى﴾ من يده ﴿الْأَلْوَابُ﴾ وطرحها على الأرض من شدة غضبه لله،
وفرط انزعاجه من قومه حمية للدين.

رؤي أنه لما ألقاها انكسرت فذهب بعضها^٢.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أن منها ما تكسر، ومنها ما بقي، ومنها ما ارتفع»^٣.

وعن الباقر عليه السلام: أنه عرف يمانني صخرة باليمن، ثم قال: «تلك الصخرة التي التقيت ما ذهب من
التوراة حين ألقى موسى عليه السلام الألواح، فلما بعث الله رسوله ﷺ أذته إليه وهي عندنا»^٤.

وروي أنها كانت سبعة أسباع، فلما ألقى الألواح تكسرت فزفع منها ستة أسباع وبقي سبع [واحد]،
وكان فيما رفع تفصيل كل شيء، وفيما بقي الهدى والرحمة^٥.

وعن النبي ﷺ: «رحم الله أخي موسى، ليس المخبر كالمعابين، لقد أخبره الله بفينة قومه، ولقد
عرف أن ما أخبر به حق، وأنه على ذلك لمتمسك بما في يديه، فرجع إلى قومه ورآهم، فغضب

١. تفسير الرازي ١٥: ٨. ٢. تفسير الصافي ٢: ٢٣٩.

٣. بصائر الدرجات: ٦/١٦٦، تفسير الصافي ٢: ٢٣٩. ٤. بصائر الدرجات: ٧/١٥٧، تفسير الصافي ٢: ٢٣٩.

٥. تفسير الرازي ١٥: ١١.

والقى الألواح»^١.

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هارون وبشعره ﴿يَجْرُؤُا إِلَيْهِ﴾ عن الصادق عليه السلام: «وذلك لأنه لم يفارقهم لما فعلوا ذلك، ولم يلحق بموسى عليه السلام، وكان إذا فارقهم ينزل بهم العذاب»^٢. وقيل: إنه جرّه إلى نفسه ليُساره ويستكشف كيفية تلك الواقعة.

إذن اعتذر هارون و﴿قَالَ﴾ استعطافاً له: يا ﴿ابْنَ أُمِّ﴾ لا تأخذ بليحتي ولا برأسي ﴿إِنَّ الْقَوْمَ﴾ لشدة حرصهم على عبادة العجل ﴿اسْتَضَعُّوْنِي﴾ واستحقروني ولم يعتنوا إلى قولي ﴿وَكَاذُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ إن منعته عنها، ولم يكن لي من العدة ما أقهرهم على تركها وأدفعهم عن نفسي، ومع ذلك لم أقصر في إنذارهم وعظهم ﴿فَلَا تُشْمِثْ بِنِ الْأَعْدَاءِ﴾ بإظهار الغضب علي ﴿وَلَا تُجْعَلْنِي﴾ في استحقاق العقوبة شريكاً ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بعبادة العجل.

عن الصادق عليه السلام: «لم يقل يا بن أبي؛ لأن بني الأب إذا كانت أمهاتهم شتى لم تستبعد العداوة بينهم إلا من عصمه الله منهم، وإنما تستبعد العداوة بين بني أم واحدة»^٣.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنه كان أخاه لأبيه وأمه»^٤.

وقيل: إنه كان أكبر من موسى عليه السلام بثلاث سنين، وكان حمولاً^٥ لبناء.

فقبل موسى عليه السلام عذره وتلطّف به و﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ ما صدر مِنِّي من الغضب على هارون ﴿وَلِأَخِي﴾ هارون ما صدر منه من الإقامة في القوم، وترك التشديد على عبدة العجل ﴿وَأَدْخَلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ الواسعة والجنة ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ [١٥٢]

ثم أعلن الله سبحانه بغضبه على عبدة العجل وشؤ عاقبة عملهم الشنيع بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلهاً ومعبوداً لأنفسهم من دون الله ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ ويصيبهم ﴿غَضَبٌ﴾ شديد ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ومالك أمورهم. قيل: هو ما أمروا به من قتل أنفسهم ﴿وَذَلَّةٌ﴾ وخزي ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قيل: هو خروجهم من ديارهم، وقيل: هي الجزية ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ علينا القائلين بأننا شاركنا العجل في الألوهية.

٢ و ٣. علل الشرائع: ١/٦٨، تفسير الصافي ٢: ٢٤٠.

٥. الحمول: الحليم الصبور.

١. مجمع البيان ٤: ٧٤١، تفسير الصافي ٢: ٢٣٩.

٤. الكافي ٨: ١/٢٧، تفسير الصافي ٢: ٢٤٠.

٦. تفسير الصافي ٢: ٢٤٠.

قِيلَ إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ: هُمُ الَّذِينَ أَصْرَوْا عَلَى عِبَادَتِهِ وَلَمْ يَتُوبُوا عَنْهَا؛ كَالسَّامِرِيِّ وَأَصْرَابِهِ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَبُوهُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَمِنَ الْغَضَبِ: عَذَابُ الْآخِرَةِ، وَمِنَ الذِّلَّةِ: الْإِغْتِرَابُ وَالْمَسْكَنَةُ الدَّائِمَةُ.

رَوَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَمَّ بِقَتْلِ السَّامِرِيِّ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: لَا تَقْتُلْهُ فَإِنَّهُ سَخِيٌّ، وَلَكِنْ أَخْرِجْهُ مِنْ عِنْدِكَ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَادْهَبْ مِنْ بَيْنِنَا مَطْرُوداً فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ - أَيْ فِي عُمْرِكَ - أَنْ تَقُولَ لِمَنْ أَرَادَ مُخَالَطَتَكَ جَاهِلاً بِحَالِكَ: [لَا مَسَاسَ، أَيْ] لَا يَمَسِّنِي أَحَدٌ^١.

وَفِي (الْكَافِي): عَنْ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ آيَةَ فَقَالَ: «فَلَا نَرَى صَاحِبَ دِعْدَةٍ إِلَّا ذَلِيلًا، وَلَا مُقْتَرِبًا عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا ذَلِيلًا»^٢.

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ
رَحِيمٌ * وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى
وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِزُبُهِمْ يَزْهَبُونَ [١٥٣ و ١٥٤]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِظْهَارِ الْغَضَبِ عَلَى غَيْرِ التَّائِبِينَ مِنْ عَبْدَةِ الْعِجْلِ، أَعْلَنَ بِرَحْمَتِهِ عَلَى الْعِصَاةِ التَّائِبِينَ بِقَوْلِهِ: «وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ» كَبِيرَةٌ كَانَتْ أَوْ صَغِيرَةٌ «ثُمَّ تَابُوا» مِنْهَا «مِنْ بَعْدِهَا» مَا دَامَتْ حَيَاتِهِمْ بَاقِيَةً «وَأَمَنُوا» بِرَبِّهِمْ إِيْمَانًا خَالِصًا مِنْ شُوبِ الشُّرْكِ وَالنَّفَاقِ، وَعَمِلُوا بِمُقْتَضَى الْإِيْمَانِ «إِنَّ رَبَّكَ» وَرَاءَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، أَوْ التَّوْبَةِ «مِنْ بَعْدِهَا» وَاللَّهُ «لَغَفُورٌ» لِلذُّنُوبِ وَإِنْ كَثُرَتْ وَجَلَّتْ «رَحِيمٌ» بِعِبَادَةِ التَّائِبِينَ، مُغْفِضٌ عَلَيْهِمُ الْخَيْرَاتِ الدُّنْيَوِيَّةَ وَالْآخِرَوِيَّةَ.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ غَضَبِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى عَبْدَةِ الْعِجْلِ وَعَمَلِهِ حَالَهُ، بَيَّنَّ شُكُونَ غَضَبِهِ، وَاعْتَذَارَ هَارُونَ، وَتَوْبَةَ قَوْمِهِ مِنْ عِصْيَانِهِمْ وَعَمَلِهِ حِينَ يَقُولُ: «وَلَمَّا سَكَتَ» وَسَكَنَ «عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ» لَاعْتَذَارِ أَخِيهِ، وَتَوْبَةِ قَوْمِهِ «أَخَذَ الْأَلْوَاحَ» الَّتِي أَلْقَاهَا حِينَ الْغَضَبِ مِنْ يَدِهِ، وَاسْتَنْسَخَ مِنْهَا التَّوْرَةَ «وَفِي نُسْخَتِهَا» وَالْكِتَابَ الَّذِي كَتَبُوا مِنْهَا «هُدًى» وَإِرْشَادًا إِلَى كُلِّ حَقٍّ «وَرَحْمَةٌ» وَخَيْرٌ عَظِيمٌ «لِلَّذِينَ هُمْ لِزُبُهِمْ يَزْهَبُونَ» وَمِنْ عِصْيَانِهِ يَتَّقُونَ، وَمِنْ عَذَابِهِ يَخَافُونَ.

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ
شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي أَتَهَلِّكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ

تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ

الْكَافِرِينَ [١٥٥]

ثم أن الله تعالى أمر موسى ﷺ أن يأتي بسبعين من خيار بني إسرائيل للاعتذار عن عصيان قومهم، وفي الوقت الذي عينه الله ﴿و﴾ أن ﴿أَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ وانتخب منهم ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ من خيارهم ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ والموعد الذي وعدناهم فيه، ليعتذروا من عبادة قومهم العجل.

قيل: إن موسى ﷺ اختار من كل سبط - وكانوا اثني عشر - ستة رجال، فزاد اثنان على السبعين، فقال موسى ﷺ: ليتخلف منكم رجلان فأني أمرت بسبعين، فتنازعا فقال: إن لمن قعد أجر من خرج، فبعد كالب ويوشع وذهب موسى ﷺ مع الباقيين..

عن الرضا ﷺ: «أَنَّ السَّبْعِينَ لَمَّا صَارُوا [معه] إِلَى الْجَبَلِ قَالُوا لَهُ: إِنَّكَ قَدْ رَأَيْتَ اللَّهَ، فَأَرِنَاهُ كَمَا رَأَيْتَهُ، فَقَالَ: إِنِّي لَمْ أَرَهُ، فَقَالُوا: «لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ» فاحترقوا عن آخرهم» الخبر^٢.

وقيل: أخذتهم الرحمة فصعقوا وماتوا.

﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ بما أجتروا على الله من طلب الرؤية، واحترقوا وماتوا، وبقي موسى ﷺ وحيداً فقال: يا رب، اخترت سبعين رجلاً من بني إسرائيل وجئت بهم، فإن أرجع إليهم وحدي كيف يُصَدِّقُونِي بما أخبرهم به؟ ﴿قَالَ﴾ تَذَكَّرُوا لِلْعَوِّ السَّابِقِ لاشْتِجَابِ الْعَوِّ الْلَّاحِقِ: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ حين مخالفتهم النهي عن عبادة العجل ﴿وَأَيَّائِي﴾ حين سألتك الرؤية.

وقيل: إنه تَمَنَّى لهلاكهم وهلاك نفسه قبل أن يرى ما أرى، لخوفه من تهمة بني إسرائيل بقتلهم. ثم استعطف من الله بإنكار إهلاكهم عليه مع غاية لطفه وسعة رحمته بقوله: ﴿أَتَهْلِكُنَا﴾ يا رب ﴿بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا﴾ من سؤالهم رؤيتك ﴿إِنْ هِيَ﴾ وما هذه الفتنه والبلية ﴿إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ وابتلاء من يَمْلِكُ؛ حيث إنك أسمعتهم كلامك فافتتنوا بذلك، فطمعوا في رؤيتك، وأنت مُتَحَنِّنٌ لعبادك بالفتن و﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ بِحَسَبِ حُبِّ ذَاتِهِ - ضَلَّالَتِهِ ﴿وَتَهْدِي﴾ وثبت على الحق ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾ - لطيف ذاته - هِدَايَتِهِ وَثَبَاتِهِ، فلا تزل قدمه بفتنتك، بل يزيد إيمانه ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا﴾ والمُدَبِّرُ لأمرنا بحكمتك ولطفك لا تدبر لنا غيرك، إذن ﴿فَاعْفِرْ لَنَا﴾ ما فرطنا في جنبك من الخطايا والزَّلَلِ ﴿وَارْحَمْنَا﴾ بإفازة الخيرات علينا ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْكَافِرِينَ﴾ تغفر الذنوب وتبدل السيئات بالحسنات.

وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ [١٥٦]

فلما رأى موسى ﷺ أن الله تعالى أحيا السبعين بدعائه، بالغ في الدعاء بقوله: ﴿وَأَكْتُبْ﴾ يا رب وأوجب عليك ﴿لَنَا﴾ بكرمك ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ ما دُمنا فيها أموراً ﴿حَسَنَةً﴾ من السَّعة في الرِّزق، والرَّغد في العيش، والتوفيق للطاعة ﴿وَفِي﴾ عالم ﴿الْآخِرَةِ﴾ أيضاً الأمور الحسنة من النجاة من العذاب، والفوز بالجنة والنعم الدائمة يا مولاي ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾ وعرفناك بكمال الصفات، وسعة الرحمة والمغفرة، وسؤال الحوائج منك، وإننا نرجو منك العفو عن زلاتنا ونعتذر إليك من خطيئتنا. فأوحى الله إلى موسى ﷺ بقوله: ﴿قَالَ عَذَابِي﴾ في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما ﴿أُصِيبُ بِهِ﴾ وأنزله على ﴿مَنْ أَشَاءُ﴾ تعذيبه على حسب استحقاقه، ﴿و﴾ لكن ﴿رَحْمَتِي﴾ ونيعمتي وإحساني في الدنيا ﴿وَسِعَتْ﴾ وشملت ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من الجمادات والنباتات والحيوانات، والمؤمنين والكفار بعد موتهم ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ وأثبتها وأديمها في الآخرة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشُّرك والمعاصي ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ من أموالهم إلى الفقراء والمصارف المقررة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا﴾ ودلائل نوحيدنا، ورسالة رسولنا ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [١٥٧]

ثم أنه تعالى بعد بيان اختصاص رحمته في الدارين بالمتقين المرتكبين بالآيات، بين اختصاص المؤمنين بخاتم الأنبياء ب تلك الصفات بقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ مختصون بالرحمة الدائمة، فلا تشمل اللاحقين من بني إسرائيل إلا إذا التزموا باتباعه. وعن (الكافي): عن أحدهما ﷺ: «الرسول: الذي يظهر له الملك فيكلمه، والنبي: هو الذي يرى

في منامه، وربما اجتمعت النبوة والرسالة في واحد^١.

وقيل: في توصيفه به الرسول إشعاراً بأنه صاحب كتاب، وبـ«النبى» إيماءً إلى أنه صاحب المعجزة. وقيل: إنما سماه رسلاً بالإضافة إلى الله، نبياً بالإضافة إلى الخلق^٢.

وعن الزجاج: معنى الأمي الذي هو على صفة أمه العرب، قال عليه السلام: «إِنَّا أُمَمٌ أُمِيَّةٌ؛ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ» فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرأون^٣.

ومن المعلوم أن كونه أمياً بهذا المعنى من أعظم معجزاته، فإنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار مثهماً بأنه ربما طالع كتب الأولين والآخرين. فحصل هذه العلوم بتلك المطالعة، فلما أتى بالقرآن العظيم المشتمل على علوم الأولين والآخرين من غير تعلم ومطالعة، كان ذلك من جملة معجزاته الباهرة.

وقيل: إن المراد من الأمي: المنسوب إلى أم القرى.

عن (المجمع): عن الباقر عليه السلام أنه سئل لِمَ سَمِيَ النَّبِيُّ بِالْأُمِيِّ؟ قال: «سُبَّ إِلَى مَكَّةَ، وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾^٤ وَأُمُّ الْقُرَىٰ مَكَّةُ، فَقِيلَ أُمِّي لِذَلِكَ»^٥.

وعن الجواد عليه السلام أنه سئل عن ذلك، فقال: «ما يقول الناس؟» قيل: يزعمون أنه إنما سمي بالأمي لأنه لم يحسن أن يكتب الخط، فقال: «كذبوا لعنهم الله، أتى ذلك والله يقول: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^٦ فكيف كان يعلمهم ما لا يحسن، والله لقد كان رسول الله يقرأ ويكتب باثنين وسبعين - أو قال: ثلاثة وسبعين - لساناً، وإِنَّمَا سَمِيَ الْأُمِّيَّ لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَمَكَّةُ مِنْ أُمَمَاتِ الْقُرَىٰ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾^٧.

ثم استدلَّ سبحانه على صحة نبوته بقوله: «الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ» عن الباقر عليه السلام: «يعني اليهود والنصارى، صفة محمد عليه السلام واسمه [﴿مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ﴾ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ]»^٨.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «قال يهودي لرسول الله عليه السلام: إِنِّي قَرَأْتُ نَعْتَكَ فِي التَّوْرَةِ (محمد بن عبدالله موله بمكة، ومهاجره بطيبة، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سحار ولا متزين بالفحش ولا قول

٢. تفسير روح البيان ٣: ٢٥١.

٤. الأنعام: ٩٢/٦.

٦. الجمعة: ٢/٦٢.

٨. تفسير العياشي ٢: ١٦٤/١٦٣٠، تفسير الصافي ٢: ٢٤٢.

١. الكافي ١: ١٣٥/٤، تفسير الصافي ٢: ٢٤٢.

٣. تفسير الرازي ١٥: ٢٣.

٥. مجمع البيان ٤: ٧٤٩، تفسير الصافي ٢: ٢٤٢.

٧. علل الشرائع: ١/١٢٤، تفسير الصافي ٢: ٢٤٢.

٩. في أمالي الصدوق ولا صحاب.

الْعَنَّا) وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنتَ رَسُولُ الله، هذا مالي فأحكم فيه بما أنزل الله»^١.

عن الباقر عليه السلام: «لما أنزلت التوراة على موسى عليه السلام بشر بمحمد عليه السلام» قال: «فلم تزل الأنبياء تُبشِّر به حتى بعث الله المسيح عيسى بن مريم فبشّر بمحمد، وذلك قوله: ﴿يَجِدُونَهُ﴾ يعني اليهود، [والنصارى] ﴿مَكْتُوباً﴾ يعني صفة محمد عليه السلام في التوراة والإنجيل، وهو قول الله عز وجل يُخْبِر عن عيسى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾»^٢.

رؤي «أن موسى ناجاه ربُّه تعالى فقال له في مناجاته: أوصيك يا موسى وصية الشفيق المشفق بابن البتول عيسى بن مريم، ومن بعده؛ بصاحب الجمل الأحمر، الطيب الطاهر المطهر، فمثله في كتابك أنه مهيمن على الكتب كلها، وأنه رакع ساجد راجب راهب، إخوانه المساكين، وأنصاره قوم آخرون»^٣.

أقول: لو فرضنا أنه لم توجد رواية في وجود اسمه في الكتابين لعلنا بوجوده فيها؛ لأنه لو لم يكن مع صراحة القرآن بوجوده ووجود نعوته فيهما لأنكر عليه أهل الكتاب، وصار كذبه أظهر من الشمس في رابعة النهار.

ثم عدَّ سبحانه من صفاته الكريمة المكتوبة في الكتابين أنه عليه السلام ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ ويحُثُّهم على العمل بالمحسّنات العقلية ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ويزجرهم عن القبائح ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ واللذائذ التي لا خساسة فيها ولا ضرر؛ من المأكولات والمشروبات ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ وما تنفّر منه الطباع، وما يتضرر منها ﴿وَيَضَعُ﴾ ويرفع ﴿عَنْهُمْ﴾ باتيان الخفيفة السهلة السمحة ﴿إِصْرَهُمْ﴾، والتكاليف الوجوبية الشاقة عليهم؛ كوجوب قرض موضع النجاسة من الثوب والبدن ﴿وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ والمحرّمات الشاقة؛ كحرمة العمل يوم السبت، وأخذ الدية في القتل، وحرمة التصرف في الغنائم، وحرمة الشحوم ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ وبما جاء به ﴿وَعَزَّزُوهُ﴾ وعظّموه بإطاعة أوامره ونواهيته والتسليم لأحكامه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ وأعانوه على أعدائه وفي ترويج دينه ﴿وَاتَّبَعُوا الْتَوْرَ﴾ وهو القرآن ﴿الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ﴾ وعن الصادق عليه السلام: «التور في هذا الموضع عليّ والأئمة عليهم السلام»^٤، وقيل: إنه الهدى والبيان والرّسالة^٥، و[قيل: الحق الذي ظُهوره في القلوب كظهور

١. أمالي الصدوق: ٧٣٧/٥٥٢، تفسير الصافي ٢: ٢٤٣.

٢. الكافي ٨: ٩٢/١١٧، تفسير الصافي ٢: ٢٤٣، والآية من سورة الصف: ٦١/٦.

٣. الكافي ٨: ٨/٤٣، تفسير الصافي ٢: ٢٤٣.

٤. في النسخة: رابعة.

٥. تفسير الرازي ١٥: ٢٥.

النور^١.

﴿أَوَلَيْكَ﴾ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّبِعُونَ ﴿هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بأعلى المقاصد مِنَ النَّجَاةِ مِنَ النَّارِ والدُّخُولِ فِي الْجَنَّةِ.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُخَيِّئُ وَيُعِيْتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [١٥٨]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى - بَعْدَ إِثْبَاتِ رِسَالَةِ رَسُولِهِ بِالْإِخْبَارِ بِوُجُودِ اسْمِهِ وَصِفَاتِهِ فِي الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، وَبِكَوْنِ شَرِيعَتِهِ أَكْمَلَ وَأَسْهَلَ مِنَ الشَّرَائِعِ السَّابِقَةِ، وَبَيَانَ أَفْضَلِيَّةِ تَابِعِيهِ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ، وَالْوَعْدِ بِالْفَلَاحِ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَالْعَمَلِ بِكَلَامِهِ - أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِإِعْلَامِ النَّاسِ هُمُومَ رِسَالَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، وَالْأَبْيَضِ وَالْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ أَرْسَلَنِي ﴿إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾.

عَنِ الْحَسَنِ الْمَجْتَبَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ جَاءَ نَفَرٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنْتَ الَّذِي يُوحَى إِلَيْكَ كَمَا يُوحَى إِلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، فَسَكَتَ النَّبِيُّ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ، أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ، وَرَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. قَالُوا: إِلَى مَنْ، إِلَى الْعَرَبِ، أَمْ إِلَى الْعَجَمِ؟ أَمْ إِلَيْنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ»^٢.

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِإِظْهَارِ كَمَالِ مَعْرِفَتِهِ بِهِ بِالْصِّفَاتِ الَّتِي فِيهَا دَلِيلُ صِحَّةِ دَعْوَاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يُعْزِزُ مَنْ يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُعْطِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ حَتَّى يُزَاحِمَهُ فِي إِنْفَاذِ إِرَادَتِهِ، وَلَا يَنْدُلُهُ حَتَّى يَقْهَرَهُ فِي سُلْطَانِهِ، الْقَادِرِ الْحَيِّ الَّذِي ﴿يُخَيِّئُ﴾ الْأُمُوتَ ﴿وَيُعِيْتُ﴾ الْأَحْيَاءَ.

فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ عَلَيْهِ إِحْيَاءُ الْقُلُوبِ بِمَعَارِفِهِ، وَتَرْبِيَةِ الْأَرْوَاحِ بِالْأُمُورِ بِالْعِبَادَاتِ وَتَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ، كَيْ يَسْتَعِدَّوْا لِقَبُولِ فَيُؤْثَرِهِ، وَلَا يَمْكُنَ ذَلِكَ إِلَّا بِإِرْسَالِ رَسُولٍ يَهْدِيهِمْ إِلَى الْحَقِّ وَمَا بِهِ الْحَيَاةِ الرُّوحَانِيَّةِ وَالْكَمَالَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ، وَأَنَا ذَلِكَ الرَّسُولُ ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ﴾ وَبِرَّحْدَانِيَّةِ ﴿وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ وَمَرَّ تَفْسِيرُهُ^٣ ﴿الَّذِي﴾ هُوَ لِكَمَالِ عَقْلِهِ وَعِلْمِهِ ﴿يُؤْمِنُ﴾ بِشَرَاذِرِهِ^٤ ﴿بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ الَّتِي أَنْزَلَتْ إِلَيْهِ وَهِيَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ. وَقِيلَ: مُعْجَزَاتِهِ الْكَثِيرَةُ ﴿وَآتَّبِعُوهُ﴾ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَاتَّقَادَاوِ

١. تفسير الرازي ١٥: ٢٥.

٢. أمالي الصدوق: ١/٢٥٤، تفسير الصافي ٢: ٢٤٣.

٣. تقدم في الآية (١٥٧) من تفسير هذه السورة.

٤. الشَّرَاشِرُ: الْجِسْمُ بِجَمْلَتِهِ.

لأوامره ونواهيهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى خير، وتشتدون في الدنيا والآخرة.

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ [١٥٩]

ثم بين سبحانه حسن اتباع طائفة من بني إسرائيل للدين موسى عليه السلام ترغيباً لأمة خاتم النبيين ﷺ في اتباعه بقوله: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ﴾ وجماعة مهتدون يتبعون موسى عليه السلام، وهم مع اهتدائهم في أنفسهم ﴿يَهْدُونَ﴾ غيرهم من سائر الناس ﴿بِالْحَقِّ﴾ وبكتابهِ الناطق به إلى الحق، والدين المَرْضِي عند الله ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ في الأحكام الجارية بينهم.

قيل: إن الأشهر بين المفسرين أن هذه الأمة قوم من بني إسرائيل وراء الصين بأقصى المشرق، وذلك أن بني إسرائيل لما بالغوا في الثن والطغيان بعد وفاة موسى عليه السلام وخليفته يوشع حتى اجترأوا على قتل الأنبياء، ووقع الهرج والمرج، تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا، وسألوا الله تعالى أن يفرق بينهم وبين أولئك الطاغين، ففتح الله لهم - وهم في بيت المقدس - نفقاً في الأرض، وجعل أمامهم المصاييح فساروا ومعهم نهر من ماء يجري، وأجرى الله عليهم أرزاقهم، فساروا فيه على هذا الوجه سنة ونصف سنة حتى خرجوا من وراء الصين [إلى أرض] بأقصى المشرق طاهرة طيبة فنزلوها، وهم مختلطون بالسباع والوحوش والهوام لا يضرب بعضهم بعضاً، وهو مئسكون بالتوراة مشتاقون إلى الإسلام، لا يعصون الله طرفه عين أبداً، تصافحهم الملائكة، وهم في متقطع من الأرض لا يصل إليهم أحد منا ولا أحد منهم إلينا؛ إما لأن بينهم وبين الصين وادياً جارياً من رمل يمنع الناس من إتيانهم، كما عن ابن عباس. أو نهراً من شهد، كما عن الشدي. فانهم كبنِي أب واحد ليس لأحد [منهم] مال دون صاحبه، يُمطرون بالليل ويضحون بالنهار، ويزرعون ويحصدون جميعاً فيضعون الحاصل في أماكن من القرية، فيأخذ كل منهم قدر حاجته ويدع الباقي^١.

روي أن رسول الله ﷺ قال لجبرئيل ليلة المعراج: «إني أحب أن أرى القوم الذين أثنى الله عليهم بقوله: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾». فقال: إن بينك وبينهم مسيرة ست سنين ذهاباً، وست سنين إياباً، ولكن سل ربك حتى يأذن لك، فدعا النبي ﷺ وأمن جبرئيل، فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل أنه أجيب إلى ما سأل، فركب البراق فخطا خطوات فإذا هو بين أظهر القوم، فسلم عليهم وردوا عليه سلامه، وسألوه: من أنت؟ فقال: «أنا النبي الأمي»، قالوا: أنت الذي بشر بك موسى

١. ضحى يضحو: برز للشمس، ضحى يضحى: أصابه حر الشمس.

٢. تفسير روح البيان ٣: ٢٥٩.

وأوصانا بأن قال لنا: مَنْ أدرك منكم أحمد فليقرئ عليه مِنِّي السَّلام فَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ سَلَامُهُ، وقالوا: فَمَنْ مَعَكَ؟ قال: «أو ثَرون»، قالوا: نعم، قال: «هُوَ جَبْرئيلُ». قال: «فَرَأَيْتُمْ قُبُورَهُمْ عَلَى أَبْوَابِ دُورِهِمْ فَقُلْتُ: فَلِمَ ذَلِكَ؟» قالوا: أَجَدَرُ أَنْ نَذْكُرَ الْمَوْتَ صَبَاحاً وَمَسَاءً، فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ بَيْنَانَكُمْ مُسْتَوِيًّا؟» قالوا: ذَلِكَ لِثَلَاثِ شَرَفٍ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ، وَلِثَلَاثِ يَسَدٍ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ الرِّيحِ وَالْهَوَاءِ. قال: «فَمَا لِي لَا أَرَى لَكُمْ قَاضِيًّا وَلَا سُلْطَانًا؟» قالوا: إِذَا أَنْصَفَ بَعْضُنَا بَعْضًا، وَأَعْطَيْنَا الْحَقَّ فَلَمْ نَحْتِجْ إِلَى قَاضٍ يُنْصِفُ بَيْنَنَا. قال: «فَمَا لِي أَرَى أَسْوَاقَكُمْ خَالِيَةً؟» قالوا: نَزَرَ جَمِيعًا وَنَحْصَدُ جَمِيعًا، فَيَأْخُذُ كُلُّ أَحَدٍ مِمَّا يَأْكُفِيهِ وَيَدَعُ الْبَاقِيَ لِأَخِيهِ، فَلَا نَحْتَاجُ إِلَى مُرَاجَعَةِ الْأَسْوَاقِ. قال: «فَمَا لِي أَرَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ يَضْحَكُونَ؟» قالوا: مَاتَ لَهُمْ مَيِّتٌ فَيَضْحَكُونَ شُرُورًا بِمَا قَبِضَهُ اللَّهُ عَلَى التَّوْحِيدِ. قال: «فَمَا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ يَبْكُونَ؟» قالوا: وُلِدَ لَهُمْ مَوْلُودٌ، [فَهُمْ] لَا يَدْرُونَ عَلَى أَيِّ دِينٍ يَقْبِضُ فَيَغْتَمُونَ عَلَى ذَلِكَ.

قال: «فَإِذَا وُلِدَ لَكُمْ ذَكَرٌ، فَمَاذَا تَصْنَعُونَ؟» قالوا: نَصُومُ لِلَّهِ شُكْرًا شَهْرًا. قال: «فَالْأَثْنَى؟» قالوا: نَصُومُ لِلَّهِ شُكْرًا شَهْرَيْنِ. قال: «وَلَمْ؟» قالوا: لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخْبَرَنَا أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى الْإِثْنَى أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الذَّكَرِ. قال: «أَفْتَزِنُونَ؟» قالوا: وَهَلْ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَحَدٌ، لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ أَحَدٌ حَصْبَتَهُ السَّمَاءَ، وَخَسِفَتْ بِهِ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِ. قال: «أَفْتَرَابُونَ؟» قالوا: إِنَّمَا يُرَابِي مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِرِزْقِ اللَّهِ. قال: «أَفْتَمْرَضُونَ؟» قالوا: لَا نَمْرَضُ وَلَا نَذْنُبُ، إِنَّمَا نَذْنُبُ أَمْتِكَ فَيَمْرَضُونَ لِيَكُونَ كَفَّارَةً لَذُنُوبِهِمْ. قال: «هَلْ فِي أَرْضِكُمْ سِبَاعٌ وَهَوَامٌّ؟» قالوا: نعم، تَمْرَبْنَا وَنَمْرَبُهَا، وَلَا تُوْذِنَا وَلَا تُوْذِيهَا. فَعَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَرِيعَتَهُ وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ عَلَيْهِمْ، وَعَلَّمَهُمُ الْفَاتِحَةَ وَشُورَا مِنَ الْقُرْآنِ.

وعن الحدادي: أقرأهم عَشْرَ سُورٍ مِنَ الْقُرْآنِ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ، وَلَمْ يَكُنْ يَوْمُئِذٍ نَزَلَتْ فَرِيضَةٌ غَيْرُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَأَمَرَهُمُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَأَنْ يَتَزَكَّوْا تَحْرِيمَ السَّبْتِ وَيُجْمَعُوا، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُقِيمُوا مَكَانَهُمْ. فَهُمُ الْيَوْمَ هُنَاكَ حُنَفَاءُ مُسْلِمُونَ مُسْتَقْبِلُونَ قِيَلْتَنَا^١.

أقول: هَذَا يُؤَيِّدُ الْقَوْلَ بِأَنَّ قَبِيلَةَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ قَبْلَ الْهَجْرَةِ هِيَ الْكَعْبَةُ.

وعن الباقر عليه السلام: «أَنَّ هَذِهِ آيَةُ فِي قَوْمٍ مِنْ وَرَاءِ الصَّيْنِ، بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الصَّيْنِ وَادٍ جَارٍ مِنَ الرَّمْلِ، لَمْ يَغْيَرُوا وَلَمْ يُبَدِّلُوا، لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ مَالٌ دُونَ صَاحِبِهِ، يُمَطَّرُونَ بِاللَّيْلِ وَيَضْحَكُونَ بِالنَّهَارِ وَيَزْرَعُونَ، لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنَّا وَلَا مِنْهُمْ إِلَيْنَا أَحَدٌ، وَهُمْ عَلَى الْحَقِّ»^٢.

قال في (المجمع): وقيل: إِنَّ جَبْرئيلَ انْطَلَقَ بِالنَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ إِلَيْهِمْ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ عَشْرَ سُورٍ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ فَأَمَّنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُقِيمُوا مَكَانَهُمْ وَيَتَزَكَّوْا السَّبْتِ، وَأَمَرَهُمْ

بالصلاة والزكاة، ولم تكن نزلت فريضةً غيرهما، ففعلوا^١.

قال: وروى أصحابنا أنهم يخرجون مع قائم آل محمد ﷺ. وروى أن ذا القرنين رآهم^٢.

وعن الصادق عليه السلام، في هذه الآية: «قومٌ موسى هم أهل الإسلام»^٣.

وقيل: إنهم قومٌ مشوا على دين الحق الذي جاء به موسى عليه السلام، ودعوا الناس إليه، وصانوه عن التحريف والتبديل في زمن تفرق بني إسرائيل وإحداثهم البدع، ويجوز أن يكونوا أقاموا على ذلك إلى أن جاء المسيح فدخلوا في دينه، ويجوز أن يكونوا هلكوا قبل ذلك^٤.

وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ
أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ
مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [١٦٠]

ثم أنه تعالى بعد بيان حسن حال متبعي موسى عليه السلام من بني إسرائيل، بين سوء حال بقيةهم وكفرانهم النعم التي أنعمها عليهم بقوله: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ﴾ وصيرناهم شعباً، فصاروا ﴿أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ وقبائل، كل قبيلة منهم من نسل ولدٍ من أولاد يعقوب، يُسمون باسم أبيهم الأعلى، وجعلناهم ﴿أُمَمًا﴾ وجماعات متميزة.

قال: إنه تعالى سمى كل سبط أمةً لكثرة عددهم. وقيل: لأن كل سبط يؤم غير الذي يؤم الأسباط الأخر، بحيث لا يكاد توافقهم في أمر لتباغظهم وتعصبهم، فأنعم الله عليهم بهذا التفريق والتقطيع لتنظم أمورهم ويتيسر عيشهم^٥.

ثم ذكر سبحانه نعمته الأخرى عليهم بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ في التيه ﴿إِذِ اسْتَسْقَاهُ﴾ وطلب ﴿قَوْمَهُ﴾ منه الماء حين اشتد بهم العطش ﴿أَنْ﴾ يا موسى ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ - المعهود الذي مرّ بيانه وأوصافه في سورة البقرة^٦ - فضربه بها ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ ونبعث ﴿مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ بعدد أسباط بني إسرائيل.

قال: إن انهباس الماء: خروجه قليلاً، وانفجاره: خروجه واسعاً، وكان خروجه من الحجر في

١. مجمع البيان ٤: ٧٥٣، تفسير الصافي ٢: ٢٤٤.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٦٥/١٦٣، تفسير الصافي ٢: ٢٤٤.

٣. تفسير الرازي ١٦: ٣٣، تفسير روح البيان ٣: ٢٦١.

٤. تقدّم في تفسير الآية (٦٠) من سورة البقرة.

٥. مجمع البيان ٤: ٧٥٣، تفسير الصافي ٢: ٢٤٤.

٦. تفسير الرازي ١٥: ٣١.

الابتداء قليلاً ثم واسعاً.

ثم حَصَّ موسى ﷺ كُلَّ عَيْنٍ بَسِيطٍ، وَ«قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ» وَسِيطٌ «مُشْرِبُهُمْ» والعين التي حُصِّتْ بِهِمْ، حَتَّى لَا يَخَالُطَهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ، وَلَا يَقَعُ النِّزَاعُ بَيْنَهُمْ لَغَايَةِ الْعَصِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ «وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ» وجعلنا فوقه السَّحَابَ يسير في التَّيِّهِ بِسِيرِهِمْ وَيَقِفُ بِوُقُوفِهِمْ، كَيْلًا يُؤْذِيهِمْ حَرُّ الشَّمْسِ «وَأَنْزَلْنَا» مِنَ السَّمَاءِ «عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى» - وقد سبق تفسيرهما في البقرة^١ - ثم قلنا لهم بلسان موسى: «كُلُوا» يا بني إسرائيل «مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» ومُسْتَلَذَاتٍ مَا أَنْعَمْنَا عَلَيْكُمْ. ثم ظلموا بأن كفروا هذه النعم الجليلة، وَعَصَوْا أَحْكَامَنَا «وَمَا ظَلَمُونَا» بكفرانهم وعِصْيَانِهِمْ «وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» حيث انقطع عنهم الرِّزْقُ الطَّيِّبُ الذي كان يَأْتِيهِمْ بِلا اكْتِسَابٍ وَكُلْفَةٍ، واستحقَّقوا العذاب في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا
الْبَابَ سَجْدًا تَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَظْلِمُونَ [١٦٦ و ١٦٧]

ثم بَيَّنَّ الله سبحانه نعمته الأخرى عليهم وكُفْرَانَهُمْ إِيَّاهَا بعِصْيَانِهِمْ وتمرُّدَهُمْ عن أمر ربِّهِمْ بقوله: «وَإِذْ قِيلَ» مِنْ قِبَلِ اللهِ «لَهُمْ» حين نَجَّوْا مِنَ التَّيِّهِ وَقَرَّبُوا مِنَ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ أَوْ بَلَدَةِ أَرِيحَا، وَكَانَتْ فِيهَا بَقِيَّةٌ مِنْ عَادٍ يُقَالُ لَهُمُ الْعَمَالِقَةُ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ «اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ» الكثيرة النِّعَمِ وَالْثَمَارِ «وَكُلُوا مِنْهَا» وَتَمَتَّعُوا بِهَا «حَيْثُ شِئْتُمْ» وفي أَيِّ نَاحِيَةٍ أَرَدْتُمْ بِلا تَعَبٍ وَعَنَاءٍ «وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سَجْدًا» - وقد مرَّ تفسيره في البقرة^٢ - فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ «تَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ» الَّتِي سَلَفَتْ مِنْكُمْ.

ثم كَأَنَّهُ قِيلَ: فَمَاذَا لَهُمْ بَعْدَ التَّغْفِرَةِ؟ أَوْ قِيلَ: هَذَا لِلْعَصَاةِ، فَمَاذَا لِلْمُطِيعِينَ؟ فَأَجَابَ سُبْحَانَهُ بقوله: «سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ» وَالْمُطِيعِينَ إِحْسَانًا وَتَوَابًا «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا» أَنْفُسَهُمْ «مِنْهُمْ» مَا أَمَرُوا بِهِ مِنْ قَوْلِ (حِطَّةٍ) وَالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَقَالُوا «قَوْلًا» آخَرَ «غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ» مِنْ قَوْلِ (حِطَّةٍ) اسْتِهْزَاءً بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ» بَعْدَ تَبْدِيلِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ «رِجْزًا» وَعَذَابًا شَدِيدًا «مِنْ

٢. تقدَّم في تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

١. تقدَّم في تفسير الآية (٥٧) من سورة البقرة.

السَّمَاءِ رُوي أَنَّهُ مَاتَ بِالطَّاعُونَ مِنْهُمْ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرُونَ أَلْفًا ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

وَسَلَّمْتُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ [١٦٣]

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بأن يسأل يهود عصره عن اضطهاد أجدادهم السمك وطغيانهم، لتبكيهم وتسليه قلب نبيه ﷺ من إصرار الحاضرين منهم على الكفر والطغيان بقوله: ﴿وَسَلَّمْتُمْ﴾ يا محمد ﴿عَنِ﴾ قضية ﴿الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ﴾ وقريبة منه؛ اسمها إيلة، أو مدين، أو طبرية، وفيها اليهود ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ ويتجاوزون حدود الله ﴿فِي﴾ يوم ﴿السَّبْتِ﴾ الذي كان الصيد محرماً عليهم فيه ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ والسمكات التي كانت في ذلك البحر ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ الذي كان عليهم أن يعظموه ولا يعصون الله فيه بالصيد، حال كون الحيتان ﴿شُرْعًا﴾ فيه، ظاهرة على الماء، قريبة من الساحل ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ ولا يراعون حرمة السبت فيه كيوم الأحد ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ الحيتان، كما كانت تأتيتهم يوم السبت حذراً من صيدهم ﴿كَذَلِكَ﴾ البلاء والاختبار العظيم ﴿نَبْلُوهُمْ﴾ ونختبر طاعتهم وعصيانهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ويعصون من الأحكام؛ ليظهر خُبث ذاتهم وشدة طغيانهم، أو المراد: فتعاقبهم بما كانوا يفسقون على الاستمرار.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ
عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا
عَنْ مَا نَهَاوْا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ [١٦٤-١٦٦]

ثم بالغ سبحانه في توضيح غاية كفرهم وعتوهم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ﴾ وطائفة مؤمنون ﴿مِنْهُمْ﴾ صلحاء القرية الذين كانوا يبالغون في نصح الغصاة والفساق ويعظونهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ أيها الصلحاء ﴿قَوْمًا﴾ لا يرتدعون عن فسقهم ولا يرجئ صلاحهم ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ ألبتة بعذاب الاستئصال ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون الاستئصال لتماديهم في الطغيان؟ فاجابهم الصلحاء و﴿قَالُوا﴾: إنما نعظهم ليكون وعظنا ﴿مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ولا نأخذ بالتفريط في

النهي عن المنكر، ﴿وَلَا جُلُودَ لَكُمْ أَنْ الْعَصَا﴾ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ الْعِصْيَانِ بَوْعُنَا لاحتِمال اتِّعَاطِهِمْ عِنْدَنَا ﴿فَلَمَّا تَسَوَّأُوا﴾ وَتَرَكَوْا أُولَئِكَ الطُّغَاةَ ﴿مَا دُكِّرُوا﴾ وَوُعِظُوا ﴿بِهِ﴾ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى وَعْظِ الْوَاعِظِينَ وَنَهْيِ النَّاهِيْنَ ﴿أَتَجِدُنَا﴾ وَخَلَصْنَا مِنَ الْعَذَابِ الصُّلَحَاءِ ﴿الَّذِينَ﴾ كَانُوا ﴿يُنْهَوْنَ﴾ الْعِصَاةَ وَالْمُسِيئِينَ ﴿عَنِ السُّوءِ﴾ وَالْعِصْيَانِ ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَنْفُسَهُمْ وَطَغَوْا عَلَى رَبِّهِمْ ﴿بِعَذَابٍ بَشِيسٍ﴾ وَشَدِيدٍ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ لِيَرْتَدَّعُوا عَنِ الْعِصْيَانِ ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ وَتَأَبَّأُوا اسْتِكْبَاراً ﴿عَنْ﴾ تَرْكِ ﴿مَا تُهْوَا عَنْهُ﴾ مِنَ الْعِصْيَانِ، أَرَدْنَا إِرَادَةَ تَكْوِينِيَّةَ مَسْخِهِمْ كَانَا ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا﴾ أَيُّهَا الْعَتَاةُ ﴿قِرْدَةً﴾ وَكُونُوا، أَوْ حَالِ كُونِهِمْ ﴿حَاسِبِينَ﴾ ذَلِيلِينَ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ النَّاسِ، أَوْ مَطْرُودِينَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، أَوْ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ. فَكَانُوا كَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ رَيْثٍ.

في قصة أصحاب السبت رُوي أَنَّ الْيَهُودَ أَمَرُوا بِالْيَوْمِ الَّذِي أَمَرْنَا بِهِ، وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فَتَرَكَوْهُ وَاخْتَارُوا السَّبْتَ، وَهُوَ الْمَعْنَى يَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^١ وَابْتِلَاوْا بِهِ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمُ الصَّيْدَ وَأَمَرُوا بِتَعْظِيمِهِ، فَكَانَتِ الْجِيتَانُ تَأْتِيهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ كَأَنَّهَا الْمَخَاضُ^٢ وَالْكِبَاشُ الْبَيْضُ السَّمَانُ تَنْتَطِحُ، لَا يَرَى وَجْهَ الْمَاءِ لِكَثْرَتِهَا، وَلَا تَأْتِيهِمْ فِي سَائِرِ الْأَيَّامِ، وَكَانُوا عَلَى ذَلِكَ بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ، ثُمَّ جَاءَهُمْ إِبْلِيسُ فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّمَا تُهَيِّئُ عَنْ أَخْذِهَا يَوْمَ السَّبْتِ، فَاتَّخَذُوا حَيَاضاً سَهْلاً الْوُرُودِ صَعْبَةً الصُّدُورِ فَفَعَلُوا، فَجَعَلُوا يَسُوقُونَ الْجِيتَانَ إِلَيْهَا يَوْمَ السَّبْتِ فَلَا تَقْدِرُ عَلَى الْخُرُوجِ، وَيَأْخُذُونَهَا يَوْمَ الْأَحَدِ.

وَأَخَذَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَوْتاً وَرَبَطَ فِي ذَنْبِهِ خَيْطاً إِلَى خَشْبَةٍ فِي السَّاحِلِ ثُمَّ شَوَاهُ يَوْمَ الْأَحَدِ، فَوَجَدَ جَارَهُ رِيحَ السَّمَكِ، فَتَطَلَّعَ عَلَى تَوْرِهِ، فَقَالَ لَهُ: إِنِّي أَرَى اللَّهَ سَيُعَذِّبُكَ، فَلَمَّا [لَمْ] يَرِهِ عَذَابٌ أَخَذَ فِي السَّبْتِ الْقَابِلِ حَوْتِينَ.

فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّ الْعَذَابَ لَا يُعَاجِلُهُمْ اسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ، فَصَادُوا وَأَكَلُوا وَمَلَحُوا وَبَاعُوا، وَكَانُوا نَحْواً مِنْ سَبْعِينَ أَلْفاً، فَكَانَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ أَثَلَاثاً: ثَلَاثٌ اسْتَمَرُّوا عَلَى النَّهْيِ، وَثَلَاثٌ مَلَّوْا التَّذْكِيرَ وَسَأَمُوهُ وَقَالُوا لِلوَاعِظِينَ: ﴿لَمْ تَعُظُونَا﴾ إِلَى آخِرِهِ، وَثَلَاثٌ بَاشَرُوا الْخَطِيئَةَ، فَلَمَّا لَمْ يَتَّهَبُوا قَالَ الْمُسْلِمُونَ: نَحْنُ لَا نُسَاكِنُكُمْ، فَبَاعُوا الدُّورَ وَالْمَسَاكِينَ وَخَرَجُوا مِنَ الْقَرْيَةِ، فَضَرَبُوا الْخِيَامَ خَارِجاً مِنْهَا، أَوْ اقْتَسَمُوا الْقَرْيَةَ بِيَدَارٍ؛ لِلْمُسْلِمِينَ بَابٌ، وَلِلْمُعْتَدِينَ بَابٌ، وَلِعَنِهِمْ دَاوُدُ.

فَاصْبَحَ النَّاهُونَ ذَاتَ يَوْمٍ فَخَرَجُوا مِنْ أَبْوَابِهِمْ وَانْتَشَرُوا لِمَصَالِحِهِمْ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنَ الْمُعْتَدِينَ أَحَدٌ

١. النحل: ١٦/١٢٤.

٢. المخاض: الحوامل من النوق، وابن المخاض: ولد الناقة أو البقرة إذا لقيت أمه. والانشئ بنت مخاض.

فقالوا: لعلَّ الخمر غلبتهم أو لهم شأنٌ من خَسَفٍ أو مَسَحٍ أو رَمَيَ بالحجارة، فَعَلُوا الجُدْرَ فنظروا فإذا هم قردة، أو صار الشُّبان قردة والشُّيوخ خَنَازير، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القردة أنسابهم من الإنس وهم لا يعرفونها، فجعل القرد يأتي نسيبه فيشتمُّ ثيابه فيبكي، ويقول له نسيبه: ألم نَهَكْكُمْ؟ فيقول القردة برأسه: بلى، وذمُّوعه تسيل على خَدِّه، ثم ماتوا عن مكث ثلاثة أيام^١.

وعن علي بن الحسين عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: «كان هؤلاء قومًا يسكنون على شاطئ بحرٍ، نهاهم الله وآتيناوَهُ عن اصطياد السمك في يوم السبت، فتوسلوا^٢ إلى حيلة لِيَحْلُوا بها لأنفسهم ما حَرَّمَ الله، فاتخذوا أخاديد وعليلوا طَرَفًا تُؤدِّي إلى حياض يتهدى للحيتان الدُّخول فيها من تلك الطُّرق ولا يتهيأ لها الخُروج إذا هَمَّت بالرجوع، فجاءت الحيتان يوم السبت جاريةً على أمان لها، فدخلت الأخاديد وحصلت في الحياض والغدران، فلما كانت عَشية اليوم هَمَّت بالرجوع منها إلى اللَّجج لتأمن من صاندها فلم تقدر، وبقيت ليلها في مكان يتهيأ أخذها بلا اصطياد لاشرسالتها فيه وعجزها عن الامتناع لَمَنع المكان لها.

وكانوا يأخذون يوم الأحد ويقولون: ما اضطلنا في السبت، إنما اضطلنا في الأحد، وكذب أعداءُ الله، بل كانوا آخذينها بأخاديدهم التي عملوها يوم السبت، حتَّى كثر من ذلك ما لَهم وثرأوهم وتنعموا بالنساء وغيرهن لا تساع أيديهم به، وكانوا في المَدِينَةِ نِيَقًا وثمانين ألفًا، فعل هذا [منهم] سبعون ألفًا وأنكر عليهم الباقون، كما قصَّ الله ﴿وَسُئِلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ الآية.

وذلك أن طائفةً مِنْهم وعظومهم وزجروهم، ومن عذاب الله خوْفوهم، ومن انتقامه وشدائد بأسه حَذَرُوهم، فأجابوهم من وعظهم: ﴿لَمْ نَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ بذنوبهم هلاك الاصطلام، ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فأجاب القائلين [لهم] هذا القول: مِنَّا ﴿مُعَذِّزَةٌ إِلَيْنَا رَبُّكُمْ﴾ إذ كُلُّنَا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنحن ننهي عن المنكر ليعلم ربُّنا مخالفتنا لهم وكرهتنا لِفعلهم، قالوا: ﴿وَلَكَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ونعظهم أيضًا لعلَّه تنجع^٣ فيهم الموعظ فيتقوا هذه الموبقة، ويحذروا عقوبتها.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ حادوا وأعرضوا وتكبروا عن قَبُولِ الزَّجْرِ ﴿عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ مُعِيدِينَ مِنَ الْخَيْرِ مُبْغِضِينَ، فلَمَّا نظر العشرة آلاف والنِّيف أن السبعين ألفًا لا يقبلون موعظهم ولا يخافون بتخويفهم إياهم وتحذيرهم لهم، اعزلوهم إلى قرية أخرى قريبة من قريتهم، وقالوا: نكره أن ينزل بهم عذاب الله ونحن في خيالهم، فأمسوا ليلةً فمسخهم الله كُلَّهم قردة،

٢. في تفسير العسكري: فتوصلوا.

١. تفسير روح البيان ٣: ٢٦٥.

٣. أي تزور.

وبقي باب المدينة مغلَقاً، لا يخرج منه أحدٌ ولا يدخله أحدٌ، وتسامع بذلك أهل القرى قصدوهم وتَسَمَّوا حيطان البلد فاطَّلَعوا عليهم، فإذا هُم كُلُّهم رجالهم وناؤهم قردة يمجج بعضهم في بعض، يعرف هؤلاء الناظرون معارفهم وقرباتهم وخُصَّاءهم، يقول المطَّلَع لبعضهم: أنت فلان، أنت فلانة، فتدمع عينه ويومئ برأسه أو بقمه بلا أو نعم، فما زالوا كذلك ثلاثة أيام، ثم بعث الله تعالى مطراً وريحاً فجرفهم إلى البحر وما بقي مَسْخ بعد ثلاثة أيام، وإِنما الذين تَرَوْنَ مِن هذه المَصَوِّرَات بَصُورها فَإِنَّمَا هي أشباهها، لا هي بأعيانها ولا مِن نسلها^١.

والقَمِي عليه السلام [عن أبي جعفر عليه السلام] قال: «وجدنا في كتاب علي عليه السلام أَنَّ قوماً مِن أهل إيلة مِن قوم يهود^٢، [وإن] الحيتان كانت سَبَقَتْ إليهم يومَ السَّبْت ليختبر الله طاعتهم في ذلك، فشرعت إليهم يوم سَبْتهم في ناديتهم وقَدَّام أبوابهم في أنهارهم وسواقيتهم، فبادروا إليها فأخذوا يصطادونها، فلبثوا في ذلك ما شاء الله لا ينهاتهم عنها الأخبار ولا يمنعهم العلماء مِن صيدها، ثم إِنَّ الشَّيْطَان أوحى إلى طائفةٍ منهم: إِنَّمَا تُهَيِّتُم عن أكلها يومَ السَّبْت ولم تُثَبِّتُوا عن صيدها، فاضطادوها يومَ السَّبْت وكُلُّوها فيما سِوَى ذلك مِن الأيام.

فقال طائفة منهم: الآن نصطادها فعَتَتْ، وانحازت طائفة [أخرى] منهم ذات اليمين فقالوا: نهاكم عن عَقُوبَةِ الله أَن تَعْرِضُوا بِخِلَاف أمره، واعتزلت طائفة منهم ذات الشمال فسكتت فلم تَعْظُمَ فقالت للطائفة التي وعظتْهم: ﴿لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فقالت الطائفة التي وعظتْهم: ﴿مُعَذِّبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

قال: فقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني: لَمَّا تركوا ما وَعُظُوا به وَمَضُوا على الخطيئة، فقالت الطائفة التي وعظتْهم: لا والله لا تُجامعكم ولا تُبَايِتكم الليلة في مدينتكم هذه التي عصيتم الله فيها مخافةً أَن يُنْزِلَ الله بكم البلاء فيَعُثُّنا معكم.

قال: فخرجوا [عنهم] مِن المدينة [مخافة أَن يُصِيبهم البلاء، فنزلوا قريباً من المدينة]، فباتوا تحت السماء، فلَمَّا أصبح أولياء الله المطيعون لأمر الله تعالى غَدُوا لينظروا ما حَالُ أَهْلِ المَعْصِيَةِ، فَأَتُوا باب المدينة فإذا هو مُصَمَّتٌ، فدَقُّوه فلم يُجَابُوا، ولم يَسْمَعُوا منها جِسَّ أحدٍ، فوضعوا سُلماً على سور المدينة ثم أَصْعَدُوا رَجُلًا منهم، فأشرف على المدينة، فنظر فإذا هُوَ بالقوم قردةٌ يَتَعَاوَنُونَ، فقال الرَّجُل لأصحابه: [يا قوم] أَرَأَيْتُمْ الله عَجَبًا، قالوا: وما تَرَى؟ قال: أَرَأَيْتُمُ القوم [قد] صاروا قردةً يَتَعَاوَنُونَ ولها

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٣٦/٢٦٨، تفسير الصافي ٢: ٢٤٦.

٢. في تفسير القمي وتفسير الصافي: ثمود.

أَذْنَاب، فَكْسَرُوا الْبَابَ وَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ. قَالَ: فَعَرَفْتُ الْقِرْدَةَ أَنْسَابَهَا مِنَ الْإِنْسِ وَلَمْ تَعْرِفِ الْإِنْسَ أَنْسَابَهَا مِنَ الْقِرْدَةِ، فَقَالَ الْقَوْمُ لِلْقِرْدَةِ: أَلَمْ نَنْهَكُم.

قَالَ: فَقَالَ عَلِيٌّ: وَاللَّهِ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنِّي لِأَعْرِفُ أَنْسَابَهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَنْكِرُونَ وَلَا يُغَيِّرُونَ، بَلْ تَرَكُوا مَا أَمَرُوا بِهِ فَتَفَرَّقُوا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ: ﴿فَبَعْدُ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^١، فَقَالَ اللَّهُ: ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزِّهِمْ نَبِّيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^٢.

وَعَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «كَانُوا ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ انْتَمَرُوا وَأَمَرُوا فَنَجَّوْا، وَصِنْفٌ انْتَمَرُوا وَلَمْ يَأْمُرُوا فَهَلَكُوا»^٣.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ إِذَا قُرِئَ هَذِهِ الْآيَةُ بَكَى وَقَالَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَكَتُوا عَنِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَهَلَكُوا، وَنَحْنُ نَرَى أَشْيَاءَ تُنْكَرُهَا ثُمَّ نَسَكَّتْ وَلَا تَقُولُ شَيْئاً^٤.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ [١٦٧]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ قَبَائِحِ أَعْمَالِ الْيَهُودِ وَإِزْالِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ، نَبَّهَ أَنَّ مِنْ عُقُوبَتِهِمْ ابْتِلَاءَ تَسْلِيمِهِم بِالذَّلِّ وَالصَّغَارِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ وَقَضَى «رَبُّكَ» أَنَّهُ تَعَالَى «لَيَبْعَثَنَّ» وَلَيَسْلُطَنَّ «عَلَيْهِمْ» الْبَتَّةَ «إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» وَآخِرَ الدَّهْرِ «مَنْ يَسُومُهُمْ» وَيُعَذِّبُهُمْ «سُوءَ الْعَذَابِ» وَشَدِيدِهِ مِنَ الْإِذْلَالِ، وَالْإِجْلَاءِ عَنِ الْأَوْطَانِ، وَضَرْبِ الْجِزْيَةِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الشَّدَائِدِ كَبِخْتِ نَصْرِ فَإِنَّهُ غَلَبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَتْلَ مُقَاتِلِهِمْ، وَسَبْيِ نِسَاءِهِمْ، وَخَرْبِ دِيَارِهِمْ، وَضَرْبِ عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ، وَكَالْمَجْرُسِ ضَرَبُوا عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ وَأَخَذُوهَا مِنْهُمْ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ خَاتِمَ النَّبِيِّينَ ﷺ فَعَمِلَ بِهِمْ مَا فَعَلَ، فَلَا تَرْفَعُ لَهُمْ رَايَةً أَبَدًا «إِنَّ رَبَّكَ» يَامُحَمَّدُ «لَسَرِيعُ الْعِقَابِ» يُعْجَلُ فِي عُقُوبَةِ الْعَصَاةِ فِي الدُّنْيَا «وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ» لِمَنْ تَابَ وَ«رَحِيمٌ» بِمَنْ أَطَاعَ.

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [١٦٨]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَمِّ عَامَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ نَبَّهَ عَلَى وَجُودِ الصَّالِحِينَ فِيهِمْ، وَأَنَّهُ يُعَامَلُ مَعَ بَقِيَّتِهِمْ مُعَامَلَةً

١. المؤمنون: ٤١/٢٣. ٢. تفسير القمي ١: ٢٤٤، تفسير العياشي ٢: ١٦٦/١٦٣، تفسير الصافي ٢: ٢٤٧.
٣. الذُّرُّ: صِغَارُ التَّمَلِّ. ٤. الكافي ٨: ١٥٨/١٥١، تفسير الصافي ٢: ٢٤٨. ٥. تفسير الرازي ١٥: ٣٩.

المختبر، وببتليهم بما يوجب تنبهم بقوله: ﴿وَقَطَعْنَاَهُمْ﴾ وشتانهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حال كونهم ﴿أُمَمًا﴾ وفرقاً متباعدة في العقائد والآراء ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾ وهم الذين قدسوا الله عن الشريك والولد، وآمنوا بجميع الأنبياء وبخاتمهم عن صميم القلب، عن ابن عباس: هم الذين أدركوا النبي ﷺ وآمنوا به^١، ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أناس ﴿ذُونَ ذَلِكَ﴾ المقام؛ وهم الذين ثبتوا على اليهودية ﴿وَبَلَّوْنَاهُمْ﴾ وعاملناهم مُعاملة المُختبر حالهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ﴾ الموجبة للشكر؛ من العافية، وسعة الرزق، والخصب، والأمن ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ الموجبة للندم على الكفر والعصيان؛ من الأمراض، والجذب، والشدائد ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بسبب تلك الحوادث المرغبة للطاعة المرعية عن المخالفة والمعصية ﴿يَزْجَعُونَ﴾ عن الكفر واللجاج إلى الإسلام والالتقياد لله ورسوله، ويتوبون إلى الله عما هم عليه من الطغيان والعصيان.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذْنَى وَيَقُولُونَ
سَيَغْفِرَ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ
لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْأَفْرَءُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ [١٦٩]

ثم بين الله سبحانه أن الصالحين لما انقضوا صار جميع بني إسرائيل على نهج واحد من الكفر والعصيان، ولم ينفذ الابتلاء في تربية أكثرهم ورجوعهم إلى الهدى والصلاح بقوله: ﴿فَخَلَفَ﴾ الصالحون ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وغيب موتهم ﴿خَلَفَ﴾ وذرية طالحة رديئة؛ وهم الذين كانوا في عصر النبي ﷺ و﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ الذي جاء به موسى عليه السلام من أسلافهم وقرأوه ووقفوا على ما فيه من الأحكام والعلوم والتزهد من الدنيا، وهم مع ذلك يتركون العمل به ويرغبون في جمع الأموال، بل ﴿يَأْخُذُونَ﴾ من الناس ﴿عَرَضَ هَذَا الْأَذْنَى﴾ وخطام هذه الدنيا الدنية، للحكم بغير الحق، وتحريف كلام الله، وتغيير علائم النبي ﷺ المذكورة في التوراة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ غروراً وافتراءً على الله: ﴿سَيَغْفِرُ لَنَا﴾ ذنبنا ذلك ولا يعدنا به، بل ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ﴾ من أعراض الدنيا ومتاع من أمتعتها بجهة الرشوة والمجمل على التحريف والتغيير نظير ما أتوا به و﴿مِثْلُهُ﴾ في الحرمة ﴿يَأْخُذُوهُ﴾ أيضاً حرصاً على الدنيا وزخارفها، وإصراراً على العصيان.

ثم أنكر الله عليهم عملهم ذلك، ووبخهم على مخالفة حكم التوراة بقوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ

مِيثَاقُ الْكِتَابِ ﴿وَالْعَهْدُ الْمُؤَكَّدُ فِي التَّوْرَةِ؛ وَهُوَ ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾ قَوْلًا ﴿إِلَّا﴾ الْقَوْلُ ﴿الْحَقُّ﴾ وَالصَّدْقُ، وَلَا يَعْمَلُوا عَمَلًا إِلَّا مَا وَفَّقَ أَحْكَامُ التَّوْرَةِ، فَلَيْمَ يَقُولُونَ لِلنَّاسِ: إِنَّ الْعَلَامَنَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ تُخَالِفُ صِفَاتِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَإِنَّهُ سَيَغْفِرُ اللَّهُ لَنَا ذُنُوبَنَا، وَيُصَرِّحُونَ عَلَى الْعِصْيَانِ وَالْبَاطِلِ، ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُمْ ﴿دَرَسُوا﴾ الْكِتَابَ وَقَرَأُوا ﴿مَا فِيهِ﴾ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَعَلَامَنَ النَّبِيِّ، وَالْعَهْدُ الْمُؤَكَّدُ عَلَى أَنْ يَعْمَلُوا بِهِ وَلَا يُخَالِفُوهُ وَلَا يُحَرِّفُوهُ.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الْعِتَابِ وَالتَّوْبِيخِ وَجَهَ الْخُطَابِ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمُحَرِّفِينَ الرَّاغِبِينَ إِلَى الدُّنْيَا، وَوَعظهم بقوله: ﴿وَالذَّارُ الْآخِرَةُ﴾ وَالْجَنَّةُ الْعَالِيَةُ، وَالتَّعَمُّ الْبَاقِيَةُ فِيهَا ﴿خَيْرٌ﴾ وَأَنْفَعُ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا وَجَمْعُ مَا فِيهَا، وَمَنْ الْوَاضِحُ أَنَّهَا ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وَيَحْتَرِزُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وَلَا تُدْرِكُونَ تِلْكَ الْخَيْرِيَّةَ وَالِاخْتِصَاصَ.

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ [١٧٠]

ثُمَّ لَمَّا مَدَحَ اللَّهُ الْيَهُودَ الَّذِينَ عَمِلُوا بِالتَّوْرَةِ وَلَمْ يُحَرِّفُوهُ، وَأَمَّنُوا بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، وَعَدَّاهُمْ بِالنُّزُوبِ بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ وَيَعْمَلُونَ ﴿بِالْكِتَابِ﴾ وَيَلْتَزِمُونَ بِجَمِيعِ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَعَلَامَنَ النَّبِيِّ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَعَمِلُوا بِأَحْكَامِ شَرِيعَتِهِ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ الَّتِي هِيَ عَمَدَتُهَا، تُعْطِيهِمْ أَجُورَهُمْ ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ﴾ وَلَا نُبْطِلُ ﴿أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ وَتَوَابِهِمْ.

قِيلَ: هُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَأَصْرَابُهُ، فَإِنَّهُمْ تَمَسَّكُوا بِالتَّوْرَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُوسَى ﷺ فَلَمْ يُحَرِّفُوها، وَلَمْ يَكْتُمُوهَا، وَلَمْ يَتَّخِذُوهَا مَأْكَلَةً^١.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ: أَنَّهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالْكِتَابُ: الْقُرْآنُ^٢.

وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [١٧١]

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ كَيْفِيَّةَ اخْتِذِ الْمِيثَاقَ بِالْعَمَلِ بِالتَّوْرَةِ بقوله: ﴿وَإِذْ تَتَقْنَا﴾ وَقَلَعْنَا ﴿الْجَبَلَ﴾ - وَهُوَ الطُّورُ - مِنْ مَوْضِعِهِ، وَرَفَعْنَاهُ ﴿فَوْقَهُمْ﴾ وَأَوْقَفْنَاهُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ وَسَقِيفَةٌ - كَمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^٣ - ﴿وَظَنُّوا﴾ وَقَوَّى فِي نَفْسِهِمْ ﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ وَسَاقَطَ عَلَيْهِمْ إِنْ لَمْ يَلْتَزِمُوا بِالتَّوْرَةِ وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهَا،

١. تفسير أبي السعود ٣: ٢٨٨، تفسير روح البيان ٣: ٢٧٠.

٢. تفسير الرازي ١٥: ٤٥.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٢٧٠.

وقلنا لهم: ﴿خُذُوا﴾ يا بني إسرائيل ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الكتاب والأحكام التي فيه ﴿يَقْوَةٌ﴾ وجدٌ وعزيمة على تحمُّلِ المشاقِّ ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ واحتفظوا ﴿مَا فِيهِ﴾ من الأحكام والعهود، بالعمل والوفاء بها، ولا تنزكوها كالمَنسَى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ رذائل الخصال، وسيئات الأعمال، وعذاب الله المتعال.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ *
أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نَقُصُّ لَكَ آيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [١٧٢ - ١٧٤]

ثمَّ أنه تعالى بعد ذكر أخذ الميثاق من بني إسرائيل على العمل بالتَّوراة، ذكر أخذه الميثاق من بني آدم في عالم الذَّر على الإقرار بتوحيده ورسالة رُسُلِهِ بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ وأخرج ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ أعني ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ وأصلابهم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وسَلَّمهم طبقةً، بعد طبقة كما يتوالدون في الدُّنيا ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ وأخذ الإقرار منهم ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ بتوحيده وربوبيته، بأن قال لهم تقريراً: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ومالك أمركم، والمُتَصَرِّف فيكم إيجاباً وإعداداً وتدبيراً، لا شريك لي ولا ند؟ ﴿قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ وأعترفنا ربوبيتك ووَحدانيتك.

فسي أخذ الإقرار عن النبي ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسْمَةٍ مِنْ
بِالتَّوْحِيدِ فِي عَالَمِ الذَّر ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^١.

وعن مقاتل: أن الله مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فخرجت منه ذُرِّيَّةٌ بيضاء كهنية الذَّر تتحرك، ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فخرجت منه ذُرِّيَّةٌ سوداء كهنية الذَّر، فقال: يا آدم، هؤلاء ذُرِّيَّتُكَ. ثم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ فقال للبيض: هؤلاء في الجنة برحمتي، وهم أصحاب اليمين، وقال للسود: هؤلاء في النار ولا أبالي، وهم أصحاب الشمال وأصحاب المشيمة. ثم أعادهم جميعاً في صلب آدم، فأهل القبور محبوسون حتَّى يخرج أهل الميثاق كُلُّهُمْ مِنْ أَصْلَابِ الرِّجَالِ وأرحام النساء، وقال تعالى في مَنْ نَقَضَ الْعَهْدَ الْأَوَّلَ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ»^٢.

وعن ابن عباس: أنه أبصر آدم في ذُرِّيَّتِهِ قوماً لهم نُور فقال: يا رب، مَنْ هُمْ؟ فقال: الأنبياء^٣ الصَّخِر. وعن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية، فقال وأبوه يسمع: «حدثني أبي أن الله عز وجل قبض

١. تفسير الرازي ١٥: ٤٦.

٢. تفسير الرازي ١٥: ٤٦، والآية من سورة الأعراف: ١٠٢/٧.

٣. تفسير الرازي ١٥: ٤٧.

قبضةً من ثراب التُّربة التي خلق منها آدم، فصَبَّ فيها الماء العَذْبُ القُرَات، ثم تركها أربعين صباحاً، [ثم صَبَّ عليها الماء المالح الأجاج فتركها أربعين صباحاً]، فلَمَّا اختمرت الطِّينة أخذها فَعَرَكها عَرَكاً شديداً، فخرجوا كالذَّرِّ من يمينه وشماله، وأمرهم جميعاً أن يقعوا في النَّار، فدخل أصحاب اليمين فصارَتْ عليهم بَرْداءٌ وسلاماً، وأبى أصحاب الشَّمال أن يدخلوها^١.

وعن الباقر (عليه السلام) أَنَّهُ سُئِلَ عن هذه الآية، فقال: «أخرج من ظهر آدم ذُرِّيَّتَه إلى يوم القيامة؛ فخرجوا كالذَّرِّ، فَعَرَفَهُمْ نَفْسُهُ، [وأراهم صُنْعَهُ]^٢ ولولا ذلك لَم يَعْرِف أَحَدٌ رَبَّهُ»^٣.

وعن الصادق (عليه السلام) أَنَّهُ سُئِلَ: كيف أجابوا وَهْمَ ذَرٍّ؟ فقال: «جعل فيهم ما إذا سألهم أجابوه»^٤.
وعنه (عليه السلام): «لَمَّا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ نَزَّهَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فقال لهم: مَنْ رَبِّكُمْ؟ فأَوَّلُ من نطق رَسول الله ﷺ وأمير المؤمنين والأئمة (عليهم السلام) فقالوا: أنت ربُّنا، فحمَلَهُم العِلْمَ والدِّينَ. ثم قال للملائكة: [هؤلاء حملة ديني وعلمي وأمنائي في خلقي وهم المسؤولون. ثم قال لبيّ آدم: أَقِرُّوا الله بالربوبية ولهؤلاء النفر بالولاية والطاعة، فقالوا: نعم ربنا أقررنا، فقال الله للملائكة: [اشهدوا، فقال الملائكة: شهدنا [على أن لا يقولوا غداً: إنا كنّا عن هذا غافلين، أو يقولوا: إنما أشرك أبائنا]]»^٥.

وعن القمّي (عليه السلام) عنه (عليه السلام) في هذه الآية، أَنَّهُ سُئِلَ: مُعَايِنَةٌ كان هذا؟ قال: «نَعَمْ، فثَبَّتِ المعرفة، ونسوا الموقف وسيدَكرُونه، ولولا ذلك لَم يَذَر أَحَدٌ مَنْ خالقه ورازقه، فمنهم مَنْ أَقَرَّ بِلِسَانِهِ فِي الذَّرِّ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بقلبه فقال الله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾»^٦.

أقول: نفاظر هذه الأخبار كثيرة بحيث لو ادَّعى أَحَدٌ نواترها المعنوي أو الإجمالي لا يَعَدُّ مُجَازَفاً، فلا مَنَاص من الالتزام والقول بوجود عالم الذَّرِّ، وعليه عامّة المُفسِّرين وأهل الأثر كما ادَّعاه الفخر الرازي، ولا مجال لإنكاره وتأويل الأخبار بما نقله الفخر عن أصحاب النُّظر وأرباب المَعقولات من أَنَّهُ تعالى أخرج الذرية من أصلاب آبائهم، وذلك الإخراج أَنَّهُم كانوا نُطفَةً، فأخرجها الله تعالى في أرحام أمهاتهم، وجعلها عَلقَةً ثُمَّ مُضْغَةً، ثُمَّ جعلهم بشراً سوياً وَخَلَقَ كاملاً، ثُمَّ أشهدهم على أنفسهم بما رَكَّبَ فيهم من دلائل وَحدانيّته وعجائب خلقه وغرائب صُنْعِهِ، فبالإشهاد صاروا كأنَّهُم قالوا: بلى،

١. تفسير العياشي ٢: ١٧٣/١٦٥٢، الكافي ٢: ٢/٢٠٥، تفسير الصافي ٢: ٢٥٢.

٢. في تفسير العياشي: وأراهم نفسه، وفي الكافي: فَعَرَفَهُمْ وأراهم نفسه.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٧٣/١٦٥٤، الكافي ٢: ١٠/٤، التوحيد: ٩/٣٣٠، تفسير الصافي ٢: ٢٥٢.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٧٠/١٦٤٧، تفسير الصافي ٢: ٢٥٢.

٥. الكافي ١: ١٠٣/٧، تفسير الصافي ٢: ٢٥٢.

٦. تفسير القمّي ١: ٢٤٨، تفسير الصافي ٢: ٢٥٢، والآية من سورة يونس: ١٠/٧٤.

وإن لم يكن هناك قولاً باللسان، ولذلك نظائر منها قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^١، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^٢ فهذا النوع من المجاز والاستعارة مشهورة في الكلام، فوجب حمل الكلام عليه^٣.

وقال بعض آخر من العامة في توجيه الآية: إنه من باب التمثيل والتخييل، نزل تمكينهم من العلم بربوبيته بنصب الدلائل الآفاقية والأنفسية، وخلق الاستعداد فيهم منزلة الإلهاد، وتمكينهم من معرفتها والإقرار بها منزلة الاعتراف، فلم يكن هناك أخذ وإشهاد وسؤال وجواب، وباب التمثيل باب واسع في القرآن والحديث وكلام البلغاء، قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^٤.

وقال الفيض رحمته في (الصابي): إن المراد بالإشهاد إقامة الدلائل والحجج على التوحيد والربوبية، ومن قولهم «بلى شهدنا على أنفسنا» أنه ركب في عقولهم ما يدعوههم إلى الإقرار بها، حتى صار بمنزلة الإشهاد على طريقة التمثيل، نظير قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وقوله جل وعلا: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^٥.

أقول: وإن كان يشعر بذلك قول الصادق عليه السلام: «أنه جعل فيهم إذا سألهم أجابوه»^٦ إلا أن قوله عليه السلام في رواية القمي: «فمنهم من أقر بلسانه في الذرّ، ولم يؤمن بقلبه»^٧ كالصريح في خلافه، ويمكن القول بخلق ذريته في صلبه بصور كالذرّ في الصغر، ولا مادة لها، وكان السؤال بلسان الملك، والجواب بلسان مناسبت لخلقهم، أو بلسان الحال؛ لكون عقولهم في ذلك العالم سليمة عن شوب الشهوات والأهواء. وكانت الحكمة في ذلك كون تذكاره في عالم الدنيا موجباً لتهييج رغبتهم إلى الإيمان.

ثم علل سبحانه هذا العهد بكرامته تعالى من «أَنْ تَقُولُوا» عند مواخذتهم على إنكار الربوبية والتوحيد احتجاجاً علينا «يَوْمَ الْقِيَامَةِ»: رَبَّنَا «إِنَّا كُنَّا» في الدنيا «عَنْ هَذَا» الأمر «غَافِلِينَ» وبه جاهلين، ولا يجوز مواخذة الجاهل والغافل «أَوْ تَقُولُوا» يوم القيامة اغذاراً من شرككم: رَبَّنَا «إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا» الأقدمون «مِنْ قَبْلُ» وأخترعوا هذا الدين وسوّه في الدنيا قبل ولادتنا «وَكُنَّا ذُرِّيَّةً» جاهلة «مَنْ بَعْدَهُمْ» لم يكن لنا طريق إلى معرفتك بالربوبية والوحدانية، ولم تقدر على الاستدلال

١. فصلت: ١١/٤١. ٢. النحل: ١٦/٤٠. ٣. تفسير الرازي ١٥: ٥٠.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٢٧٣. ٥. تفسير الصافي ١: ٢٥١.

٦. تقدم أنفاً. ٧. تقدم أنفاً.

عليهما، ولذا اقتدينا بهم وقلدناهم ﴿أ﴾ تأخذنا ﴿فَتَهْلِكُنَا﴾ بالعذاب ﴿بِمَا فَعَلَ﴾ قدامونا ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ الْمُضِلُّونَ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ التفصيل والشرح البليغ البديع النافع ﴿نُقْضِلُ﴾ ونشرح ﴿الآيَاتِ﴾ الدالة على صدق القرآن وصحة نبوة محمد ﷺ، ليقفوا على ما فيها ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن الكفر إلى الإسلام، وعن الباطل إلى الحق.

وَأَثَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ

الْغَاوِينَ [١٧٥]

ثم أنه تعالى بعد تنبيه اليهود على نعمه العظيمة الجسمانية والروحانية وأخذ العهد منهم على العمل بالتوراة، بين أن أزهدهم وأعلمهم عصي وأعرض عن الهدى فضلاً عن غيره بقوله: ﴿وَأَثَلْ عَلَيْهِمْ﴾ يا محمد ﴿نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ﴾ وعلمناه ﴿آيَاتِنَا﴾ المنزلة والكُتُب السماوية والاسم الأعظم، بحيث شَمَلَتْه تلك الشَّمْلَةُ^١، بل كالجلد على بدنه ﴿فَانْسَلَخَ﴾ وانخلع ﴿مِنْهَا﴾ بالكُتُب لغلبة النفس عليه ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ وأدركه ﴿الشَّيْطَانُ﴾ بعد أن كان ساعياً في لحوقه وإدراكه ﴿فَكَانَ﴾ ذلك العالم - بانسلاخه من العلم وغلبة النفس والشيطان عليه - ﴿مِنَ الْغَاوِينَ﴾ والراسخين في الغواية والضلال.

قصصة بلعم بن وعن ابن عباس وابن مسعود قالوا: كان هو عابداً من عبادة بني إسرائيل، وكان في المدينة التي قصدها موسى ﷺ، وكان أهل تلك المدينة كفاراً، وكان عنده اسم الله الأعظم، فسأله مَلِكُهُمْ أن يدعوا على موسى ﷺ بالاسم الأعظم ليدفعه عن تلك المدينة فقال لهم: دينه وديني واحد، وهذا شيء لا يكون، وكيف أدعو عليه وهو نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون؟ وأنا أعلم من الله ما أعلم، وإني إن فعلت ذلك أذهبت دنيائي وآخرتي. فلم يزالوا به يفتنون به بالمال والهدايا حتى فتنوه، فافتن^٢.

قيل: كانت لهذا الرجل الذي اسمه بلعم امرأة يُحِبُّهَا وَيُطِيعُهَا، فجمع قومه هدايا عظيمة فأتوا بها إليها وقبَلَتْهَا، فقالوا لها: قد نزل بنا ما تَرَيْنَ، فكلمني بلعم في هذا، فقالت لبلعم: إن لهؤلاء القوم حقاً وجِواراً عليك، وليس مثلك يخذل جيرانه عند الشدائد، وقد كانوا مُحْسِنِينَ إِلَيْكَ، وأنت جديرٌ أن تُكَافِئَهُمْ وتهتم بأمرهم، فقال لها: لولا أنني أعلم أن هذا الأمر من عند الله لأجبتهم. فلم تزل به حتى صرفته عن رأيه، فركب أتاناً له متوجّهاً إلى الجبل ليدعوا على موسى ﷺ، فما سار على الأتان إلا

١. الشَّمْلَةُ: نوب يُتَوَشَّح به، أو كساء من صرف أو شعر يُغَطَّى به.

٢. تفسير روح البيان ٣: ٢٧٦.

قليلاً فربّصت، فنزل عنها فضربها حتّى كاد يهلكها فقامت فركبها، فربّصت [فضربها]، فأنطقها الله تعالى فقالت: يا بلعم، ويحك أين تذهب، ألا ترى إلى هؤلاء الملائكة أمامي يؤدّوني عن وجهي، فكيف تُريد أن تذهب لتدعو على نبي الله وعلى المؤمنين؟! فخلّى سبيلها، وانطلق حتّى وصل إلى الجبل وجعل يدعو، فكان لا يدعو بشيء إلا صرف الله به لسانه على قومه، ولا يدعو بخير إلا صرف به لسانه إلى موسى. فقال له قومه: يا بلعم، إنّما أنت تدعو علينا وتدعو له، فقال: هذا والله الذي أمليكه، وأنطق الله به لساني.

ثم امتدّ لسانه حتّى بلغ صدره فقال لهم: والله قد ذهب يني الآن الدنيا والآخرة، فلم يبقَ إلا المكر والحيلة، فسأمر لكم وأحتال، خلّوا النساء وزينوهنّ وأعطوهنّ الطيب، وأرسلوهنّ إلى العسكر، وأمروهنّ لا تمنع امرأة نفسها عن رجل أرادها، فإنهم إن زنى منهم رجل واحد كفّيثمّوهم؛ ففعلوا. فلما دخلت النساء العسكر مرّت امرأة منهم برجلٍ من عظماء بني إسرائيل، فقام إليها وأخذ بيدها حين أعجبته بخسنها، ثم أقبل بها إلى موسى عليه السلام فقال له: إني لأظنك أن تقول: هذه حرام، قال: نعم، هي حرام عليك، لا تقرّنها، قال: فوالله لا تطيعك في هذا. ثم دخل بها قُبته فوقع عليها، فأرسل الله على بني إسرائيل الطّاعون في الوقت.

وكان فحاص بن عازورا^١ صاحب أمر موسى عليه السلام رجلاً له بسطة في الخلْق وقوّة في البطش، وكان غائباً حين صنع ذلك الرجل بالمرأة ما صنع، فجاء والطاعون يجرّوس في بني إسرائيل، فأخبر الخبر، فأخذ حربته وكانت من حديد كلّها، ثم دخل القبة فوجدهما متضاجعين، فدقّهما بحربته حتّى انتظمهما بها جميعاً، فخرج بهما يحملهما بالحربة وأعقابهما^٢ إلى السماء، والحربة قد أخذها بذراعه، واعتمد بمرّفته، وأسند الحربة إلى لحيته، وجعل يقول: اللهم هكذا تفعل بمن يعصيك، فرفع الطاعون من حيثنّهم عنهم، فحسب من هلك من بني إسرائيل في ذلك الطّاعون، فوجدهم سبعين ألفاً في ساعة من نهار، وهو ما بين أن زنى الرجل بها إلى أن قُتل.

ثم أن موسى عليه السلام وفتاه يوشع بن نون حاربوا أهل تلك البلدة وغلبوهم، وقتلوا منهم وأسروا، وأتوا ببلعم أسيراً فقتل، وجاءوا بما قُبل من العطايا الكثيرة وغنّموها^٣.

عن القمي عليه السلام: نزلت في بلعم بن باعورا، وكان من بني إسرائيل، أوتي علم بعض الكتب^٤.

وفي (المجمع): عن الباقر عليه السلام: «الأصل فيه بلعم، ثم ضربه الله مثلاً لكلّ مؤثر هواه على هدّئ الله

١. في تفسير روح البيان: فحاص بن العيزار.

٢. في تفسير روح البيان: فحاص بن العيزار.

٣. تفسير القمي ١: ٢٤٨، تفسير الصافي ٢: ٢٥٣.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٢٧٧.

من أهل القبلة»^١.

والعباشي، عنه عليه السلام: «مثل المغيرة بن سعيد^٢ مثل بلعم الذي أوتي الاسم الأعظم الذي [قال الله]: ﴿أَتَيْنَا آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا﴾^٣».

عن القمي عليه السلام: عن الرضا عليه السلام: «أنه أعطى بلعم بن باعورا الاسم الأعظم، وكان يدعو به فيستجاب له، فمال إلى فرعون، فلما مرَّ فرعون في طلب موسى عليه السلام وأصحابه قال فرعون لبلعم: ادعُ الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا، فلما ركب حمارته ليتمرَّ في طلب موسى عليه السلام فامتنعت عليه حمارته، فأقبل يضربها فأنطقها الله عزَّ وجلَّ فقالت: ويلك على ماذا تضربني، أتريد أن أحيي معك لتدعو على نبي الله وقوم مؤمنين؟! فلم يزل يضربها حتى قتلها، وأنسلخ الاسم الأعظم من لسانه، وهو قوله تعالى: ﴿فَانْسَلَخْ مِنْهَا﴾^٤».

وعن ابن عباس، بعد أن ذكر نزول الآية في بلعم قال: كان مُجاب الدعوة وعنده اسم الله الأعظم، وأنه دعا على موسى عليه السلام فاستجيب له، ووقع موسى عليه السلام وبنو إسرائيل في التَّيه بدعائه، فقال موسى عليه السلام: يا رب، بأي ذنب وقعنا في التَّيه؟ فقال: بدعاء بلعم، فقال: كما سمعتُ دعاءه عليَّ فاستمعُ دعائي عليه، ثم دعا موسى عليه أن يُنزَعَ منه اسم الله الأعظم والإيمان، فسلخه الله ممَّا كان عليه، ونزع منه المعرفة، فخرجت من صدره كحمامة بيضاء^٥.

أقول: مُخالفة هذه الرواية لكتاب الله واصله، حيثُ إنَّه ناطق بأن سبب وقوع بني إسرائيل في التَّيه عصيانهم أمر موسى عليه السلام، وعدم دخولهم بلد العمالقة.

وقيل: إنَّ الآية نزلت في أمية بن أبي الصلت، وكان قد قرأ الكتب، وعلم أن الله مُرسل رَسولاً في ذلك الوقت، ورجا أن يكون هو، فلما أرسل الله محمداً عليه السلام حسده، ثم مات كافراً ولم يؤمن بالنبي، وهو الذي قال فيه النبي عليه السلام: «أمن شَعْرُهُ، وكفر قلبُهُ»^٦.

وقيل: نزلت في أبي عامر الزاهب الذي سمَّاه النبي عليه السلام الفاسق، كان يترهب في الجاهلية، فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام، وأمر المنافقين باتِّخاذ مسجد ضيرار، [وأُتِيَ قيصراً] واستنجده على

١. مجمع البيان ٤: ٧٦٩، تفسير الصافي ٢: ٢٥٣.

٢. المغيرة بن سعيد: خبيث ملعون، كان يكذب على الإمام الباقر عليه السلام، فلغنه الإمام الصادق عليه السلام، وأذاه الله حرَّ الحديد، قتله خالد بن يزيد القسري، والقصة المذكورة في مستدركات علم الرجال ٧: ١٥١٢٢/٤٧٠، سير أعلام النبلاء

٥: ٢٦٦. ٣. تفسير العبَّاشي ١٧٦/١٦٦، تفسير الصافي ٢: ٢٥٣.

٤. تفسير القمي ١: ٢٤٨، تفسير الصافي ٢: ٢٥٣. ٥. تفسير الرازي ١٥: ٥٤.

٦. تفسير الرازي ١٥: ٥٤.

النبي ﷺ فمات هناك طريداً وحيداً. وقيل: نزلت في منافقي أهل الكتاب، كانوا يعرفون النبي ﷺ. وقيل: هو عام فيمن غرض عليه الهدى فأعرض عنه^١.

أقول: الحق أن الآية نزلت في بلعم، وجرت على كل عالم متبع للهوى، معرض عن الهدى.

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلَهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ
إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا
فَاقْصِصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا
وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلُمُونَ [١٧٦ و ١٧٧]

ثم أنه تعالى بعد بيان انسلاخ بلعم من الآيات وانسلاكه في الراسخين في الضلال، بين أن تلك الآيات كانت مقتضية لرفع مقامه، إلا أن حبه الدنيا واتباعه الهوى أهواه في أسفل الدركات بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾، وإيصاله إلى جميع السعادات الدنيوية والأخروية ببركة تلك الآيات ﴿لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ إليه، وأوصلناه إلى أعلى درجة السعادة والكرامة ﴿وَلَكِنَّهُ﴾، لخبث ذاته وبسوء اختياره ﴿أَخْلَدَ﴾ ومال ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ والدنيا الدنية وأطمأن بها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ووافق شهوته في إثارة الحطام والزخارف الفانية، واسترضاء قومه، فانحط غاية الإنحطاط، وهوى في أسفل الدركات.

﴿فَمَثَلَهُ﴾ وحاله العجب في حرصه على الدنيا، وهلمه إلى حطامها، وعدم اتعاضه بالموعظة، وعدم احتدانه، إن ترك ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ في أسوأ أحواله وأخس صفاته، وهو أنه ﴿إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ﴾ أيها المخاطب بالزجر والطرْد ﴿يَلْهَثُ﴾ ويخرج لسانه ويتنفس بشدة ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ﴾ ولا تعرض له ﴿يَلْهَثُ﴾ أيضاً، فكما أنه دائم اللهث، كذلك هذا العالم المتبع لهواه لا يتغير حاله إن وعظ أو ترك ﴿ذَلِكَ﴾ المثل السيء ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ﴾ علموا بصفات محمد ﷺ المذكورة في التوراة وبشارة موسى عليه السلام بظهوره وبخبرته، فحرفوها وغيروا اسمه و﴿كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة في الكتب السماوية ﴿فَاقْصِصْ﴾ يا محمد وأتل عليهم تلك ﴿الْقَصَصَ﴾ والأمثال ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها ويتعظون ويحذرون سوء عاقبة أعمالهم السيئة ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة في الكتب السماوية من التوراة والإنجيل والقرآن، وساء الوصف الذي اتصفوا به من إنكارها ومن جحود الآيات، وتكذيب الرسل مع قيام الحجة عليهم، وما ظلمونا بسوء أعمالهم ﴿و﴾ لكن ﴿أَنْفُسُهُمْ

كَانُوا يَظْلِمُونَ» لَأَن وَبَالَهَا لَا يَتَخَطَّاهُمْ.

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [١٧٨]

ثم نبه سبحانه على أن الهداية والضلال بتوفيق الله وبخذلانه لا بالعلم بقوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ ويُرْشده إلى الحق وطريق الصواب بتوفيقه، كاننا من كان ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ لا غيره ﴿وَمَنْ يُضِلِّ﴾ الله عن الهدى ويبعده عن الحق ويحرفه عن سبيله بخذلانه وإيكاله إلى النفس والهوى المُردي والشيطان المغوي ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الضالون ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ والمتضررون في الدنيا والآخرة غاية الضرر.

قيل: في إفراد الضمير في الأول باعتبار اللفظ، والجمع في الإشارة في الثاني باعتبار المعنى، إشعاراً باتحاد المهتدين لاتحاد طريقتهم، وتشتت الضالين لتشتت مذاهبهم.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [١٧٩]

ثم أنه تعالى بعد بيان أن الهداية بتوفيقه، والضلالة بخذلانه، نبه على أن إعطاء التوفيق ومنعه إنما يكون لاختلاف ذوات الناس وطيناتهم في الطيب والخبيث، وتفاوت استعداداتهم في بدو الخلقة لقبول الفيض بقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ وخلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ وللتعذيب فيها ﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ لكون طيبتهم من السجين والماء المالح الأجاج، فلا يختارون إلا العمل الذي يناسب ذاتهم وطينتهم، ولذا يكون ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ يعقلون بها تدبيرات أمور دنياهم، ولكن ﴿لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ آيات الله ومواعظه، ولا يعقلون ﴿بِهَا﴾ براهين التوحيد والمعاد، ولا يدركون قبح الكفر والمعاصي وشوء عاقبتها ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ﴾ يبصرون بها مرئيات هذا العالم، ولكن ﴿لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ صنائع الله، وخسن نظام عالم الوجود الدالين على وجود الصانع الفرد القادر الحكيم، ومُعْجَزَات الأنبياء الدالات على صدقهم، وسبيل الهداية الموصلة إلى السعادة الأبدية ﴿وَلَهُمْ أَذَانٌ﴾ يسمعون بها المسموعات الدنيوية، ولكن ﴿لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ كلمات الله، ودعوة الرُّشُل وإنذارهم ونصيحهم.

عن القمي رحمه الله: عن الباقر عليه السلام: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ يقول: «طبع الله عليها فلا تعقل، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ﴾ عليها غطاء عن الهدى ﴿لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ جعل في أذانهم وقرأ فلم

يَسْمَعُوا الْهَدَى^١.

﴿أُولَئِكَ﴾ الْمُتَصَفُونَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ الْخَسِيسَةِ ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ وَالْبَهَائِمِ لِمُشَارَكَتِهِمْ لَهَا فِي الثَّقَلِ الْخَمْسِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالْحَوَاسِ الْخَمْسِ الظَّاهِرَةِ، وَافْتِقَادَهُمْ مَا يُمَيِّزُ بِهِ الْإِنْسَانَ مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّفَكُّرِ فِي الْعَوَاقِبِ ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ وَأَخْسَ مِنَ الْبَهَائِمِ؛ لِأَنَّهُ لَا قُدْرَةَ لَهَا عَلَى تَحْصِيلِ الْمَعَارِفِ وَالْفَضَائِلِ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهِ وَمُكَلَّفُونَ بِهِ، وَعَاصُونَ لَهُ وَمُعْرَضُونَ عَنْهُ.

عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «أَنَّ اللَّهَ رَكَّبَ فِي الْمَلَائِكَةِ عَقْلاً بِلا شَهْوَةٍ، وَرَكَّبَ فِي الْبَهَائِمِ شَهْوَةً بِلا عَقْلٍ، وَرَكَّبَ فِي بَنِي آدَمَ كِلَيْهِمَا، فَمَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ شَهْوَتَهُ فَهُوَ خَيْرٌ الْمَلَائِكَةِ، وَمَنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَقْلَهُ فَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْبَهَائِمِ»^٢.

وَقِيلَ: لِأَنَّ الْأَنْعَامَ مُطِيعَةٌ لِلَّهِ، وَالْكَافِرَ غَيْرَ مُطِيعٍ لَهُ^٣.

وَقِيلَ: لِأَنَّ الْأَنْعَامَ تَعْرِفُ رَبَّهَا وَتَذْكُرُهُ، وَالْكَافِرَ لَا يَعْرِفُ رَبَّهُ وَلَا يَذْكُرُهُ^٤.

وَقِيلَ: لِأَنَّ الْأَنْعَامَ تَعْرِفُ مَنَافِعَهَا وَمَضَارَّهَا، فَتَسْعَى فِي تَحْصِيلِ مَنَافِعِهَا، وَتَحْتَرِزُ عَنْ مَضَارِّهَا، وَالْكَفَّارَ أَكْثَرُهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُعَانِدُونَ لِلْحَقِّ، وَالْعِينَادَ يَجْرُهُمْ إِلَى النَّارِ، وَمَعَ ذَلِكَ يُصِرُّونَ عَلَيْهِ وَيُلْقُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي النَّارِ وَالْعَذَابِ^٥.

وَقِيلَ: إِنَّ الْأَنْعَامَ تَفِرُّ إِلَى رَبِّهَا وَمَنْ يَقُومُ بِمَصَالِحِهَا أَبَدًا، وَالْكَافِرَ يَهْرُبُ عَنْ رَبِّهِ وَاللَّهِ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِنِعَمٍ لَا حَدَّ لَهَا^٦.

وَقِيلَ: لِأَنَّهُ تَضِلُّ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهَا مُرْشِدٌ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ مَعَهَا مُرْشِدٌ قَلِمًا تَضِلُّ، وَأَمَّا الْكَفَّارُ فَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُرْشِدٌ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَزْدَادُونَ فِي الضَّلَالِ^٧.

و﴿أُولَئِكَ﴾ الْمَخْلُوقُونَ لْجَهَنَّمَ ﴿هُمْ الْغَافِلُونَ﴾ عَنْ سُوءِ عَاقِبَتِهِمْ وَسُوءِ عَاقِبَةِ أَعْمَالِهِمْ، وَعَمَّا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الدَّائِمِ، وَلَأُولِيَانِهِ مِنَ النِّعَمِ الدَّائِمَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَالرُّوحَانِيَّةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُمْ حُرِّمُوا مِنْهَا، وَلَوْ كَانُوا مُتَلَفِّتِينَ إِلَى ذَلِكَ لَمَا طَابَ لَهُمُ الْعَيْشُ، بَلْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ.

وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ

سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٨٠]

١. علل الشرائع: ١/٤، تفسير الصافي ٢: ٢٥٤.

٢. تفسير القمي ١: ٢٤٩، تفسير الصافي ٢: ٢٥٤.

٣- ٥. تفسير الرازي ١٥: ٦٥.

٤ و ٣. تفسير الرازي ١٥: ٦٥.

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى أَنَّ الْهِدَايَةَ بِتَوْفِيقِهِ وَالضَّلَالَةَ بِخِذْلَانِهِ، وَأَنَّ سَبَبَ الضَّلَالِ وَالْخِذْلَانِ الْغَفْلَةُ عَنْهُ وَعَنِ سُوءِ عَاقِبَةِ عَمَلِهِمْ، أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنْ يَأْمُرَ الْعِبَادَ بِأَنْ يَذْكُرُوهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْأَوْقَاتِ، وَأَنْ يَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ وَيَسْأَلُوهُ الْهِدَايَةَ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى كُلِّ خَيْرٍ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ وَالصِّفَاتُ الْعُلْيَا.

عن الصادق عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْأَسْمَاءِ، فَقَالَ: «صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ»^١، وَعَنِ الْقَمِيِّ: قَالَ: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ^٢.

﴿فَادْعُوهُ﴾ وَسَمُّهُ أَوْ اسْأَلُوهُ ﴿بِهَا﴾ وَلَا تُسَمِّهِ أَوْ لَا تَسْأَلُوهُ بِغَيْرِهَا، وَلَا تَذْكُرُوا بِهَا غَيْرَهُ. عَنِ الرِّضَاءِ عليه السلام: «إِذَا نَزَلَتْ بِكُمْ شَيْدَةٌ فَاسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللَّهِ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ فَادْعُوهُ بِهَا» قَالَ: «قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: نَحْنُ وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى الَّتِي لَا تُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ [طَاعَةً] إِلَّا بِمَعْرِفَتِنَا - قَالَ: - «فَادْعُوهُ بِهَا»^٣.

﴿وَذَرُّوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ وَاتَّزَكُوا مَنْ يَمِيلُونَ فِيهَا وَيَعْدِلُونَ بِهَا عَمَّا هِيَ عَلَيْهِ، بِأَنْ يُسَمُّوا بِهَا غَيْرَهُ كَمَا سَمَّى الْمُشْرِكُونَ أَصْنَامَهُمْ آلِهَةً.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ: ذَرُّوا الَّذِينَ يَصِفُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَيُسَمُّونَهُ بِمَا لَا يَجُوزُ تَسْمِيَتُهُ بِهِ. فِي (الْكَافِي): عَنِ الرِّضَاءِ عليه السلام: «أَنَّ الْخَالِقَ لَا يُوصَفُ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَأَنَّى يُوصَفُ [الَّذِي] تَعَجَّزَ الْحَوَاسُّ أَنْ تُدْرِكَهُ، وَالْأَوْهَامُ أَنْ تُثَالِهَ، وَالْخَطَرَاتُ أَنْ تُحَدِّثَهُ، وَالْأَبْصَارُ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِهِ، جَلَّ عَمَّا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ، وَتَعَالَى عَمَّا يَنْعَتُهُ النَّاعِتُونَ»^٤.

وَعَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الَّتِي لَا يُسَمَّى بِهَا غَيْرُهُ، وَهِيَ الَّتِي وَصَفَهَا فِي الْكِتَابِ فَقَالَ: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُّوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ جَهْلًا بِغَيْرِ

عِلْمٍ، [فَالَّذِي يُلْحِدُ فِي أَسْمَائِهِ غَيْرُ عِلْمٍ يُشْرِكُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، وَيَكْفُرُ بِهِ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ يُحْسِنُ، فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^٥] وَهُمُ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَيُضَعِّفُونَهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا»^٦.

ثُمَّ هَدَدَ الْمُشْرِكِينَ الْمُلْحِدِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ الْعَذَابَ عَلَى «مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» مِنَ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

١. الْكَافِي ١: ٣/٨٨، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ٢٥٤. ٢. تَفْسِيرُ الْقَمِيِّ ١: ٢٤٩، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ٢٥٤.

٣. تَفْسِيرُ الْعِيَّاشِيِّ ٢: ١٦٦٢/١٧٦، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ٢٥٤.

٤. الْكَافِي ١: ٣/١٠٧، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ٢٥٥. ٥. يَوْسُفُ ١٢/١٠٦.

٦. التَّوْحِيدُ: ١/٣٢٤، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ٢٥٥.

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ^[١٨١]

ثم أنه تعالى بعد الإخبار بخلق كثير من الجن والإنس للنار، أخبر بخلق جماعة منهم للجنة، بقوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً﴾ وجماعة خلقوا للجنة، وهم مع كونهم مهتدين بأنفسهم ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ويرشدونهم إلى كل خير وسعادة ﴿بِالْحَقِّ﴾ والبرهان المتين، أو إلى الحق ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ في أحكامهم بين العباد.

وفي إعادة هذا الإخبار بعد ذكره في قوم موسى عليه السلام دلالة على وجود هذا الصنف في أمة خاتم الأنبياء عليه السلام أيضاً.

قال الجبائي المعتزلي: إن الآية تدل على أنه لا يخلو زمان ألبيته عمن يقوم بالحق، ويعمل به، ويهدي إليه، وأنهم لا يجتمعون في شيء من الأزمنة على الباطل؛ لأنه لا يخلو أن يكون المراد زمان وجود محمد عليه السلام، أو أحد الأزمنة على الإجمال، أو جميع الأزمنة. أما الأول فباطل؛ لقطع الخلق بأن محمد عليه السلام وأصحابه كانوا على الحق، فلا فائدة في الإخبار به، وأما الثاني فباطل أيضاً؛ لقطع الناس بوجودهم في زمان من الأزمنة، فتعين الثالث وهو الإخبار بوجودهم في جميع الأزمنة.

قال الفخر الرازي: أكثر المفسرين على أن المراد منه قوم محمد عليه السلام. وروى قتادة وابن جريج عن النبي صلى الله عليه وآله: «أنها هذه الأمة». وروى عنه عليه السلام قال: «هذه فيهم، وقد أعطى الله قوم موسى مثلها». وعن الربيع بن أنس: أن النبي صلى الله عليه وآله قرأ هذه الآية فقال: «إن من أممي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم»^١.

وعن الباقر عليه السلام، في هذه الآية: «هم الأئمة»^٢.

وفي (المجمع): عن أحدهما عليه السلام قالوا: «نحن هم»^٣.

وعن القمي: هذه الآية لآل محمد عليه السلام وأتباعهم^٤.

والعياشي: عن أمير المؤمنين عليه السلام: «والذي نفسي بيده لتتفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فهذه التي تنجو من هذه الأمة»^٥.

وعن (المجمع): عن النبي صلى الله عليه وآله: «هذه لكم، وقد أعطى قوم موسى مثلها»^٦.

١. تفسير الرازي ١٥: ٧٢، مجمع البيان ٤: ٧٧٣. ٢. تفسير العياشي ٢: ١٧٦/١٦٦٣، تفسير الصافي ٢: ٢٥٥.

٣. مجمع البيان ٤: ٧٧٣، تفسير الصافي ٢: ٢٥٥. ٤. تفسير القمي ٩: ٣٤٩، تفسير الصافي ٢: ٢٥٥.

٥. تفسير العياشي ٢: ١٧٧/١٦٦٥، تفسير الصافي ٢: ٢٥٥.

٦. تقدم نحوه في تفسير الرازي ١٥: ٧٢، ولم يرد في (مجمع البيان) بهذا اللفظ، لكن ورد في (تفسير الصافي)

أقول: الظاهر أن المراد من قوله: «هذه لكم» أن من نعم الله عليكم أنه جعل فيكم جماعة بهذه الصفات، كما أعطي قوم موسى مثل هذه النعمة من أنه جعل منهم هداة مهدين، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فإن الظاهر أن المراد من قوله: ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أن لهم ملكة العدل والهداية بحيث لا يمكن تخلفهم عنهما، ومن المعلوم أن جميع الأمة لا يكونون كذلك، بل ولا جميع المهاجرين والأنصار، لوضوح كثرة العصاة والجائرين فيهم، فلا بد من القول بأن المراد بعضهم، وقد أجمعت الأمة على أن علياً والمعصومين من ذريته عليه السلام كانوا على تلك الصفات، وهم الباقون إلى نزول عيسى، ولولا هؤلاء لساخت الأرض بأهلها.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ [١٨٢]

ثم أنه تعالى بعد الإخبار بوجود أمة يهدون إلى الحق بآياته، هدد المكذبين بالآيات بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من أمة محمد صلى الله عليه وآله المرفوع عنهم عذاب الاستئصال ببركة نبيهم ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ ونقر بهم إلى الهلاك متدرجاً بآثار النعم عليهم، وإغراقهم في اللذات والشهوات وإنسانهم التوبة حتى يقعوا في العذاب ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ به ولا يدركون ما يراد بهم. عن الصادق عليه السلام أنه شغل عن هذه الآية، فقال: «هو العبد يذنب الذنب فتجد له النعمة، ثلثه تلك النعمة عن الاستغفار من ذلك الذنب»^١.

وعنه عليه السلام: «إذا أراد الله بعيد خيراً فأذن ذنباً أتبعه بيقمة ويذكره الاستغفار، وإذا أراد بعيد شراً فأذن ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها، وهو قول الله عز وجل: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بالنعم عند المعاصي»^٢.

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ [١٨٣]

ثم بين سبحانه أن من جملة أنحاء استدراجهم إطاعة أعمارهم بقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم في الدنيا بإطالة أعمارهم ليمادوا في العصبان والغفلة، ويزدادوا كفراً وعتواً ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ وأخذني

→ منسوباً إلى (المجمع)، والذي في (مجمع البيان): «هي لأمتي، بالحق يأخذون، وبالحق يعطون، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها» ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّؤَسَّسٍ أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩/٧]. مجمع البيان ٤: ٧٧٣، تفسير الصافي ٢: ٢٥٦. ١. الكافي ٢: ٣٢٧/٣، تفسير الصافي ٢: ٢٥٦. ٢. الكافي ٢: ١٣٢٧، تفسير الصافي ٢: ٢٥٦.

العصاة خفية وغفلة منهم ﴿مُتَيْنٌ﴾ قوي بحيث لا يقدرّون على دفعه.

أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِجَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ [١٨٤]

ثم أنه تعالى بعد ذم الكفار بغاية الغفلة وعدم الشعور، وبخهم على ترك التفكير في كمال عقل النبي ﷺ الذي هو كالشمس في رابعة النهار؛ بقوله: ﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ قيل: إن التقدير: أكذبوا ولم يتفكروا في البراهين العقلية التي يقيمها محمد ﷺ على صحة دعواه، والعلوم التي تظهر منه ببيان يعجز عن مثله مهرة الفصاحة والبلاغة، ومعجزاته القاهرة، وحسن خلقه، وطيب عشرته، ونقاوة سيرته، ومثانة آرائه، وغاية أمانته، حتى يعلموا أنه ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ ونبينهم الذي نشأ فيهم، شيء وشائبة ﴿مِنْ حِجَّةٍ﴾ واختلال عقل، لامتناع أن يكون المتصف بتلك الصفات ناقص العقل فضلاً عن فاقده، بل هو قدوة عقلاء العالم.

قيل: إن كفار قريش لما رأوا النبي ﷺ معرضاً عن الدنيا، مقبلاً إلى الآخرة، مبالغاً في الدعوة إلى التوحيد، متغيراً لونه عند نزول الوحي عليه، نسبوه إلى الجنون، فردّهم الله بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ لكم ولأهل العالم، ومن شأنه أن يكون بتلك الصفات ﴿مُبِينٌ﴾ ومبالغ في الإنذار، مظهر له غاية الإظهار.

رُوي أنه ﷺ كان كثيراً ما يحذر قريشاً عقوبة الله ووقائعه النازلة في الأمم الماضية، فقام ليلاً على الصفا وجعل يدعوهم إلى عبادة الله تعالى قبيلة قبيلة: يا بني فلان، يا بني فلان، إلى الصباح، يحذرهم بأس الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا - يعني محمداً - لمجنون، بات يهوت^٢ إلى الصباح^٣.

أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ [١٨٥]

ثم أنه تعالى بعد توبيخهم على عدم التفكير في حال النبي ﷺ حتى يعلموا صِدْقَهُ، وبخهم على ترك النظر والتأمل في شواهد التوحيد بقوله: ﴿أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا﴾ قيل: إن التقدير: أكذبوا محمداً ﷺ في دعوته إلى التوحيد، ولم ينظروا بنظر الاعتبار ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولم يتأملوا في مملكة الله الوسيعة، وآثار قدرته وحكمته وحدانيته الظاهرة فيها، ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وموجودٍ حقيرٍ أو جليل، صغيرٍ أو عظيم، حتى يطلعوا على غاية عظّمته وقدرته وتوحيده.

ثُمَّ أَنَّهُ حَذَّرَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْعُقُوبَةِ عَلَى تَرْكِ النَّظَرِ بقوله: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ قيل: إِنَّ الْمَعْنَى: أَلَمْ يَنْظُرُوا فِي أَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَوْتُهُمْ قَرِيبًا؛ فَيَمُوتُونَ عَلَى الضَّلَالِ وَيَسْتَلُونَ بِالْعَذَابِ، فَإِنَّ الْعَقْلَ عِنْدَ ذَلِكَ حَاكِمٌ بِوُجُوبِ الْمُسَارَعَةِ فِي النَّظَرِ وَتَحْقِيقِ الْحَقِّ، كَيْ يَأْمَنُوا مِنَ الْعَذَابِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ.

فَإِذَا لَمْ يَكْتَفُوا فِي تَحْقِيقِ الْحَقِّ بِالْقُرْآنِ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ مَعَ اشْتِمَالِهِ عَلَى الْبَرَاهِينِ الْمُتَقَنَةِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالرَّسَالَةِ وَالْمَعَادِ، مَعَ إِعْجَازِ الْبَيَانِ ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ﴾، وَكَلَامٍ أَوْ كِتَابٍ ﴿بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ مَعَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ حَدِيثٌ أَبِينٌ لِلْحَقِّ وَأَحْسَنُ مِنْهُ، فَإِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ فَلَا يُرْجَى مِنْهُمْ الْإِيمَانُ أَبَدًا.

مَنْ يُضِلِلِ اللَّهَ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [١٨٦]

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ لَا يُؤْمِنُونَ بغيره مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، بَيَّنَّ غَايَةَ ضَلَالَتِهِمْ بقوله: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهَ﴾ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ، وَيَحْزِفُهُ عَنْهَا إِلَى الْبَاطِلِ بِسَلْبِ تَوْفِيقِهِ عَنْهُ، وَإِكْثَالِهِ إِلَى نَفْسِهِ ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، لِعَدَمِ تَأْثِيرِ الْمَوَاعِظِ وَالْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ فِي هِدَايَتِهِ ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ وَيَتْرَكُهُمْ ﴿فِي﴾ حَالِ ﴿طُغْيَانِهِمْ﴾ وَمُشَاقَقَتِهِمْ مَعَ اللَّهِ وَالرُّسُولِ وَهُمْ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ وَيَتَجَبَّرُونَ فِي جَمِيعِ شُؤْنِهِمْ، لَا يَصِلُونَ إِلَى خَيْرٍ أَبَدًا.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [١٨٧]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ عَدَمِ عِلْمِهِمْ بِوَقْتِ الْمَوْتِ لِإِجَابِ الْمُسَارَعَةِ فِي تَحْصِيلِ الدِّينِ الْحَقِّ؛ لِثَلَاثٍ يُدْرِكُهُمُ الْمَوْتُ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ، بَيَّنَّ جَهْلَ جَمِيعِ الْخَلْقِ أَيْضًا بِوَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَإِخْتِصَاصِ الْعِلْمَ بِهِ بِذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ وَالْقِيَامَةِ ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ وَأَيَّ وَقْتٍ يَكُونُ إِتْيَانُهَا وَاسْتِقْرَآءُهَا؟.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْيَهُودِ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنَا مَتَى السَّاعَةُ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا، فَإِنَّا نَعْلَمُ مَتَى هِيَ؟ وَكَانَ ذَلِكَ امْتِحَانًا مِنْهُمْ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ تَعَالَى اسْتَأْثَرَ بِعِلْمِهَا، فَنَزَلَتْ^١.

وَقِيلَ: إِنَّ قُرَيْشًا قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ قَرَابَةً، فَادْكُرْ لَنَا مَتَى السَّاعَةُ؟ فَنَزَلَتْ^٢.

وعن القمي: أن قريشاً بعثت العاص بن وائل السهمي، والنضر بن الحارث بن كلدة، وعقبة بن أبي معيط إلى نجران، ليتعلموا من علماء اليهود مسائل يسألونها رسول الله ﷺ، وكان فيها: سلوا محمداً متى تقوم الساعة، فإن ادعى علم ذلك فهو كاذب، فإن قيام الساعة لم يُطلع الله عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا، فلما سألوه نزلت^١.

﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ استأثر به، لم يُطلع عليه أحداً من خلقه وإن كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلًا ﴿لَا يَجْلِيهَا﴾ ولا يظهرها ﴿لِوَقْتِهَا﴾ وفي زمانها أحد ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى شأنه، وإنما يعلمها غيره تعالى حين وقوعها، فإذا وقعت ﴿ثَقُلَتْ﴾ وعظمت ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على أهلها من الملائكة والجن والإنس، لشدة أهوالها، وعظم ما فيها من الشدائد.

وقيل: لأن فيها فناءهم وهلاكهم. وقيل: ثقل على قلوبهم لأنهم يعلمون أنهم يصيرون فيها إلى البعث والحساب والسؤال^٢.

وقيل: ثقلت وقتها على السماوات؛ لأن عندها تشقق السماوات، وتكورت الشمس والقمر، وانتثرت النجوم، وثقلت على الأرض؛ لأن فيها تبدل الأرض غير الأرض، وتبطل الجبال والبحار^٣. وقيل: يعني خفيت في السماوات والأرض؛ أي لا يعلم أحد من الملائكة الأقربين والأنبياء المرسلين متى يكون وقوعها^٤.

ثم أنه أكد سبحانه خفاءها على غيره بقوله: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ﴾ أيها الناس ﴿إِلَّا بَغْتَةً﴾ وفجأة وعلى حين غفلة.

عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ السَّاعَةَ تَغْجَأُ النَّاسَ، فَالرَّجُلُ يُصْلِحُ مَوْضِعَهُ، وَالرَّجُلُ يَسْقِي مَا شِئِهِ، وَالرَّجُلُ يَقُومُ بِسِلْعَتِهِ فِي سَوْقِهِ، وَالرَّجُلُ يَخْفِضُ مِيزَانَهُ وَيَرْفَعُهُ»^٥.

وعنه ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيرْفَعُ الْقُمَّةَ إِلَى فِيهِ حَتَّى تَحُولَ السَّاعَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ»^٦.

ثم أشار سبحانه إلى علة سؤالهم بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ عن الساعة ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ﴾ ومبالغ في السؤال ﴿عَنْهَا﴾ شديد الطلب لمعرفة ما علمتها، أو كأنك بارٌّ لطيف بهم بحيث لا تمنعهم من علمها.

ثم بالغ تعالى في جهل غيره بها بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لم يعلم بها أحداً من خلقه

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ اختصاص علمها، أو سبب اختصاص علمها به.

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ
لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ [١٨٨]

ثم لما كان الناس يطلبون منه الإخبار بالمغيبات وإعطاءهم الأموال الكثيرة والدولة العظيمة، أمره الله بإظهار قصور قدرته الذاتية، وعدم علمه بالمغيبات إلا بإعلام الله، بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿لَا أَمْلِكُ﴾ ولا أقدر ﴿لِنَفْسِي﴾ على أن أجلب ﴿نَفْعًا﴾ من المنافع الدنيوية والأخروية ﴿وَلَا﴾ على أن أدفع ﴿ضَرًّا﴾ وضرًا من المضار والشُّرور ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن أملكه منهما، ولا أعلم لي بشيءٍ منهما إلا بإعلامه تعالى.

قيل: إن المراد: ولكن ما شاء الله منهما كائن.

فمن كان بهذه الدرجة من العجز والجهل الذاتيين، كيف يعلم وقت قيام الساعة؟ وكيف يقدر على إخباركم به من قبل نفسه؟

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ ولا زددت في قوتي ومالي وصحتي القمي: كنت أختار لنفسي الصحة والسلامة^١ ﴿وَمَا مَسَّنِيَ﴾ وما أصابني ﴿السُّوءُ﴾ من الفقر - كما عن الصادق عليه السلام^٢ - أو المكارِه من العدو والفقر والمرض وغيرها، بل ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا﴾ عبد أرسلني الله إليكم؛ والرَّسول ﴿نَذِيرٌ﴾ ومُحَذِّرٌ من الكُفْر ومُخَالَفَةٌ أَحْكَامِ اللَّهِ ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بِنَوَابِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وبرسالي، فإنَّهم المستفَعون بمواعظي.

ومن شأن النذير والبشير العلم بأحكام الله وما يُرضيه ويُسخطه، وما يترتب على طاعته ومُخَالَفَتِهِ، لا العلم بالمغيبات التي لا نفع فيها.

رُوي أنَّ أهل مكة قالوا: يا محمد، ألا تخبرك ربك بالرخص والغلاء حتى نشري فنربح، وبالأرض التي تجذب لنترحل إلى الأرض الخُضبة، فنزلت^٣.

وقيل: لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة بني المصطلق، جاءت ريحٌ في الطريق فتفرق الدواب منها، فأخبر النبي ﷺ بموت رفاعة في المدينة، وكان فيه غيظٌ للمنافقين، ثم قال: انظروا أين ناقتي؟

٢. معاني الأخبار: ١/١٧٢، تفسير الصافي ٢: ٢٥٨.

٤. في تفسير الرازي: ففرت.

١. تفسير القمي ١: ٢٥٠، تفسير الصافي ٢: ٢٥٨.

٣. تفسير الرازي ١٥: ٨٣.

فقال عبدالله بن أبي مع قومه: ألا تعجبون من هذا الرجل، يخبر بموت رجل بالمدينة ولا يعرف أين ناقته؟! فقال عليه السلام: «إِنَّ نَاسًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَالُوا كَيْتَ وَكَيْتَ، وَنَاقَتِي فِي هَذَا الشَّعْبِ قَدْ تَعَلَّقَ زِمَانُهَا بِشَجَرَةٍ»، فوجدوها على ما قال^١.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ [١٨٩ و ١٩٠]

ثم أنه عليه السلام بعد ادعاء الرسالة دعا الناس إلى التوحيد بالبرهان القاطع بقوله: ﴿هُوَ﴾ الإله القادر ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ جميعاً بقدرته ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو آدم ﴿وَجَعَلَ﴾ وأنشأ من ضلع ﴿وَمِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء ﴿لِيَسْكُنَ﴾ آدم ويطمنن ﴿إِلَيْهَا﴾ اطمئناناً مُصْحِحاً للزواج، ويستأنس بها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ وجامعها ﴿حَمَلَتْ﴾ وحبلت^٢ في البدء ﴿حَمْلًا خَفِيًّا﴾ بحيث لم تكتثر به ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ وتحركت بالقيام والقعود، والذهاب والإياب، بشهولة وراحة كما كانت قبله، [كما] قيل^٣.
﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ حواء لكُتِبَ الْجَنِينَ في بطنها، استوحشت حواء واستوحش آدم من مأل الحمل الذي لم يعهدها، فلذا ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ وتضرعا إليه وقالوا: يا رب، وعِزَّتِكَ ﴿لَئِنْ آتَيْنَا وَأَعْطَيْنَا وَلَدًا﴾ صَالِحًا سَوِيًّا في الخلقة، أو في أمر الدين، أو فيهما ﴿لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك هذه النعمة الجليلة الجديدة.

قيل: لما رأى آدم حين أخذ الميثاق على ذُرِّيَّتِهِ أَنْ مِنْهُمْ سَوِيٌّ الْأَعْظَاءُ وَمِنْهُمْ غَيْرُ سَوِيٍّ، وَأَنْ مِنْهُمْ التَّقِيُّ وَمِنْهُمْ غَيْرُ التَّقِيِّ، سألَا أَنْ يَكُونَ هَذَا الْوَلَدُ سَوِيًّا الْأَعْظَاءُ تَقِيًّا نَقِيًّا مِنَ الْمَعْصِيَةِ ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

عن ابن عباس قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهي نفس آدم، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي حواء خلقها [الله] من ضلع آدم من غير أذى، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ آدم ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا... فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أي ثقل الولد في بطنها، آتاهَا إِبْلِيسُ في صورة رجل وقال: ما هذا يا حواء؟ إني أخاف أن يكون كلباً أو بهيمة، وما يُدْرِيكَ من أين يخرج، أَمِنْ دُبُرِكَ فَيَقْتُلُكَ، أو تَنَشَقُّ بِطْنُكَ؟ فخافت حواء

وذكرت لآدم ذلك، فلم يزل في همٍّ من ذلك. ثم أتاها وقال: إن سألت الله أن يجعله صالحاً سويّاً مثلك ويُسَهِّلْ خروجه من بطنكِ تسميه عبد الحارث؛ وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا أَتَاهُمَا﴾ أي لما أتاهما الله ولدأ سويّاً صالحاً جعلاه شركاء، أي جعل آدم وحواء له شريكاً، والمراد به الحارث^١.
أقول: فيه ما لا يخفى من الإشكال.

وقيل: إن ضمير (جعلاً) راجع إلى صنفين من أولاد آدم وحواء؛ الذكور والإناث، وكذا ضمير التثنية في قوله: ﴿فِيمَا أَتَاهُمَا﴾^٢.

وعن الرضا عليه السلام أنه قال له المأمون: يا ابن رسول الله، أليس من قولك إن الأنبياء معصومون؟ قال: «بلى»، قال: فما معنى قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا أَتَاهُمَا﴾؟ فقال الرضا عليه السلام: «إن حواء ولدت لآدم خمسمائة بطن، في كل بطن ذكر وأنثى، وإن آدم وحواء عاهداهما الله تعالى ودعواه وقال: ﴿لَئِنْ أَتَيْتَنَّا صَالِحاً لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ * فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَالِحاً من النسل خلقاً سويّاً بريئاً من الرِّمَانَةِ والعاهة، كان ما أتاهما صنفين [صنفاً ذكراً، و] صنفاً إناثاً، فجعل الصنفان لله شركاء فيما أتاهما، ولم يشكراه كشكر أبيهما له عز وجل، قال الله عز وجل: «فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ». فقال المأمون: أشهد أنك ابن رسول الله^٣.

وقيل: إن الآية ردٌ على المشركين القائلين بأن آدم كان يعبد الأصنام ويرجع في الخير والشر إليهما^٤. وقوله: ﴿جَعَلَهُ شُرَكَاءَ﴾ في معنى الاستيفهام الإنكاري، والمراد: ما جعلاه شركاء^٥، وقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين القائلين بالشرك، وينسبونه إلى آدم عليه السلام^٦.

وقيل: إن آدم وحواء جعلاهما على أنفسهما إن أتاهما الله صالحاً أن يجعلاه وقفاً على خدمة الله وطاعته وعبوديته على الإطلاق، ثم بدا لهما في ذلك فتارة كانوا يستفعلون به في مصالح الدنيا ومنافعها، وتارة كانوا يأمرونه بخدمة الله وطاعته^٧، فلهذا قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.
عن الباقر عليه السلام: «هما آدم وحواء، وإنما كان شريكهما شرك طاعة وليس شرك عبادة»^٨.

وقيل: إن الله تعالى ذكر هذه القصة على طريق ضرب المثل، وتقديره كأنه تعالى يقول: هو الذي

١. تفسر الرازي ١٥: ٨٥. ٢. راجع: تفسير الرازي ١٥: ٨٨.

٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٦، تفسير الصافي ٢: ٢٥٩.

٤. في تفسير الرازي: التقدير: فلما أتاهما صالحاً أجعلاه لشركاء.

٥. في تفسير الرازي ١٥: ٨٨.

٦. تفسير الرازي ١٥: ٨٨.

٧. تفسير الرازي ١٥: ٨٨.

٨. تفسير الرازي ١٥: ٨٨.

٤٦ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٣

خلق كُلَّ واحدٍ منكم من نفسٍ واحدة، وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويها في الإنسانية، فلما تغشَى الزوج زوجته وظهر الحمل دعا الزوجَ والزوجةَ ربُّهما: لننْ أتينَا ولدًا صالحًا سويًا لنكوننْ من الشَّاكرين لآلائِكَ وتَمَنَّاكَ، فلما آتاها الله ولدًا صالحًا سويًا، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاها، فتارةً ينشبون هذا الولد إلى الطَّبائع كقول الطَّبائعين، وتارةً إلى الكواكب كما هو قول المُنجِّمين، وتارةً إلى الأصنام كما هو قول عبدة الأصنام، ثم قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله عن ذلك الشُّرك^١.

وقيل: إن المُرَاد من النفس الواحدة وزوجها غير آدم وحواء، بل المُرَاد منها قُصَيٍّ، والخطاب لقُرَيْش الذين كانوا في عهد رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وجعل من جنسها زوجها قرشية ليسكن إليها، فلما آتاها ما طلبها من الولد الصالح السوي جعل له شركاء فيما آتاها، حيث سَمَيَا أولادهما الأربعة بعد مَناف وعبد العزَّى وعبد قُصَيٍّ وعبد اللَّات، وجعل الضمير في (يشركون) لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشُّرك^٢.

وفيه: أن آباء النبي ﷺ كُلُّهم كانوا مُوحِّدين.

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ [١٩١]

ثم ونَحِ الله المُشركين على عبادة الجَمَاد العاجز من كُلِّ شيء بقوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ هؤلاء الجُهال بالله في الألوهية والعبادة ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ من الأشياء ولو كان في غاية القِلَّة والحَقارة، مع أن المُستَحَقَّ للعبادة لا بُدَّ أن يكون خالقٌ عابده.

ثم أكَّد عَدَمَ استِحِقاق الأصنام للعبادة بقوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ بقدرة الغير، والمخلوقية في غاية المُبَاينة مع الألوهية واستِحِقاق العبادة.

قيل: إن إتيان الضمير الراجع إلى العقلاء للأصنام إنما هو باعْتِقاد المُشركين، فإنهم كانوا يُصَوِّرونها بصورة العقلاء ويزعمون أنها تُدرك وتُشعر.

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا

يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ [١٩٢ و ١٩٣]

ثم أنه تعالى بعد سلب القدرة على الخلق عنها، نفى عنها القدرة على إيصال النفع لعبادتها بقوله:

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إذا طرأ على عِبَدَتِهَا أَمْرٌ مِّنْهُمْ ﴿لَهُمْ﴾ جَزَاءٌ لِّعِبَادَتِهَا ﴿تَضُرُّ﴾ وإعانةً بَجَلْبٍ نَفْعٍ أَوْ دفعٍ ضَرَرٍ، بَلْ ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ﴾ إذا أصابهم شَوْءٌ ﴿يَنْصُرُونَ﴾ بدفعٍ ما يعترِيها من الشَّوْءِ، كما إذا أراد أحدٌ كسرَها أو لَطَخَها بالألوان.

قيل: إنَّ المشركين كانوا يَلْتَطِّخُونَ أفواهَ أصنامهم بالخَلْقِ^١ والعسل، [وكان] يجتمع عليها الذُّباب، فلا تَقْدِرُ على دفعِ الذُّبابِ عن أنفُسِها^٢.

ثمَّ بالغَ سُبْحانَهُ في سَلْبِ أهْلِيَةِ الأصنامِ للعبادة بِسَلْبِ الحياة والشُّعُورِ منها، وأهْلِيَّتِها لكونِها تابعة لِعَبَدَتِها فيما هو صلاحُها، بقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أيُّها المشركون ﴿إِلَى﴾ شيءٍ مِّنْ ﴿الْهَدْيِ﴾ والصوابِ ﴿لَا تَسْعَوْكُمْ﴾ ولا يُوافقُكم في مُرادكم لَعَدَمِ حَيَاتِهِمْ وشُعُورِهِمْ وعِلْمِهِمْ بِدَعْوَتِكُمْ.

ثمَّ أكَّدَ سُبْحانَهُ ذلكَ بقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ ولا تَفَاوَتْ في حَقِّكم ﴿أَدْعَوْتُهُمْ﴾ إلى إِنْجَاحِ حَوَائِجِكُمْ، أو إلى ما فيه صَلَاحُكم وخَيْرُكم ﴿أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ وساكِتُونَ عن دَعْوَتِها.

قيل: إنَّ المشركين كانوا إذا وقعوا في أمرٍ مِّنْهُمْ ومُعْضِلٍ تَضَرَّعُوا إلى الأصنامِ، فإذا لَمْ يَحْدُثْ منها في تلكِ الواقعة شيءٌ بَقُوا ساكِنينَ، فقيلَ لهم: لا فرقَ بين دُعائِكُمْ وبين أن تَسْتَمِرُّوا في صَمَتِكُمْ^٣.

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ [١٩٤]

ثمَّ بالغَ سُبْحانَهُ في بَيانِ عَدَمِ صلاحيةِ الأصنامِ للعبادة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومِمَّا سِوَاهِ، على فَرَضِ حَيَاتِهِمْ وشُعُورِهِمْ كما تعتقدون ﴿عِبَادٌ﴾ لله ﴿أَمْثَلُكُمْ﴾ مملوكون مُسَخَّرُونَ تحت قُدْرَةِ خالقِهِم، والحالُ أنَّها جَمادات لا شُعُورَ لها ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ إلى كَشْفِ مَضَارِكِمْ وقضاءِ حَوَائِجِكُمْ ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا﴾ دُعاءَكُم، ويقضُوا ﴿لَكُمْ﴾ حَوَائِجَكُم، ويكشِفُوا عنكُم مَضَارِكَكُم، ويدفعُوا عنكُم الشَّدائدَ والبَلايا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تَدْعُونَ من كَوْنِهِمْ أحياءَ شاعرينَ قادرينَ، فإنَّ ثَبِتَ كَوْنِهاا فاقِداً للحَيَاةِ والشُّعُورِ، عاجِزاتٌ عن إيصالِ النَّفْعِ، فلا يجوزُ بِحُكْمِ العقلِ عِبَادَتُها والالتِفَاتُ إليها.

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ * إِنَّ وَلِيِّيَ

١. الخَلْقُ: ضُرْتُ مِنَ الطَّبِّ أعظمَ أَجْزائِهِ الرِّعْفان. ٢. تفسِير روح البیان ٣: ٢٩٥.

٣. تفسیر الرازي ١٥: ٩١.

الله الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ [١٩٥ و ١٩٦]

ثم نبه سبحانه على أن الأصنام أدون من الإنسان، بل من سائر الحيوانات، ولا يجوز عبادة الأشرف للأدون، بقوله تقريراً لهم: ﴿الَّذِينَ أَجْلَلُ يَنْشُؤْنَ بِهَا﴾ كما أنها لكم، بل لسائر الحيوانات ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ﴾ ويعملون أو يأخذون ﴿بِهَا﴾ ما يريدون عمله أو أخذه، كما أن لكم أيدياً كذلك ﴿أَمْ لَكُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ﴾ المبصرات ﴿بِهَا﴾ كما أن للحيوانات أعيناً كذلك ﴿أَمْ لَكُمْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ﴾ الأصوات ﴿بِهَا﴾ كما أن للحيوانات آذاناً كذلك، فإذا لم يكن للأصنام هذه الجوارح الحية الفاعلة التي تكون لكم بل لسائر الحيوانات، فأنتم بل سائر الحيوانات أفضل وأشرف منها، ولا يجوز عبادة الأفضل والأشرف للمفضول والأوضع.

ثم لما كان المشركون يخوفون النبي ﷺ بألهتهم، أمره بأن يعلن بعدم قابليتها لأن يخاف منها بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركون: ﴿أَدْعُوا﴾ الأصنام التي تعتقدون أنها ﴿شُرَكَاءُكُمْ﴾ في أموالكم، وأنها أنادأ الله في الألوهية ليعينوكم على الإصرار بي ﴿تُمْ﴾ أنتم وشركاءكم ﴿كِيدُونَ﴾ واسعوا فيما تقدرون عليه من الإساءة إلي ﴿فَلَا تَنْظُرُونَ﴾ ولا تمهلوني ساعة فإني لأبالي بكم.

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ﴾ وناصري عليكم، وحافظي من كل شوء هو ﴿الله﴾ الواحد القادر القاهر حيث إنه ﴿الَّذِي﴾ أكرمني بأن ﴿نَزَّلَ﴾ علي ﴿الْكِتَابَ﴾ العزيز، وأوحى إلي القرآن المجيد ﴿وَهُوَ﴾ بلفظه ﴿يَتَوَلَّى﴾ وينصر ﴿الصَّالِحِينَ﴾ من عباده على أعدائهم فضلاً عن أنبيائه، فكيف يخذلني بينكم؟

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ

لَا يُبْصِرُونَ [١٩٧ و ١٩٨]

ثم بالغ في إظهار عدم المبالاة بأصنامهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتعبدونهم مما سوى الله ﴿وَمِنْ دُونِهِ﴾ أيها المشركون بالفن من العجز إلى الغاية، حيث إنهم ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ﴾ على أحد، ولا يقدرّون على إعانتكم في أمر، بل ﴿وَأَنْفُسَهُمْ﴾ إن تأتيهم نائبة ﴿يَنْصُرُونَ﴾ بدفعها.

ثم أنه تعالى بعد نفي الحواس والقوى عن الأصنام، فاعهما عن جميع المشركين لتأمين النبي ﷺ والمؤمنين عن إساءتهم إليهم بقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أيها الرّسول والمؤمنون ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ وما فيه خيرهم من الإقرار بدين الحق لا يهتدوا، كأنهم ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ دعاءكم فضلاً عن أن يكيدوا بكم ويتعاونوا على الإصرار عليكم ﴿وَتَرَاهُمْ﴾ يا محمد أنهم ﴿يَنْظُرُونَ﴾ بأعينهم ﴿إِلَيْكَ وَهُمْ﴾ عمي

قلوبهم، ولعدم^١ انتفاعهم برؤية أبصارهم كأنهم ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾.

وقيل: إن ضمائر الجمع كلها راجعة إلى الأصنام، والمراد المُبالغة في عجزها وعدم استفادة المشركين بالاستيعانة منها في الإساءة إلى النبي ﷺ، والمعنى: إن تدعوا أيها المشركون أصنامكم إلى أن يهدوكم إلى إمدادكم في تحصيل مقاصدكم لا يسمعون دُعاءكم، وترى أيها الزاني وتخيّل أن الأصنام ينظرون إليك - لما أن المشركين صنعوا لها أعيناً مركبة من الجواهر المضيئة المتألّفة، وصوّروها بصورة من قلب حدّفته إلى الشيء ينظر إليه - والحال أنهم لا يبصرون، فلا سمع لهم ولا بصر.

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ [١٩٩]

ثم لما آمن الله نبيه ﷺ من كيد المشركين مع كونهم مُهدّدين له ومُسيئين إليه، أمره الله بالعفو عنهم والمُداواة معهم بقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ عمن أساء إليك، ولا تُجاوزه بالسوء، ولا تغلظ عليه، وعاشر بحسن الخلق، والتزم به.

روي عن النبي ﷺ [أنه] سأل جبرئيل: «ما الأخذ بالعفو؟» فقال: لا أدري حتّى أسأل، ثم رجع فقال: يا محمد، إن ربك أمرك أن تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، وتحسّن إلى من أساء إليك^٢.

وقيل: إن المراد: اقبل من أفعال الناس ما سهل عليهم، ومن أموالهم ما تيسر لهم، ولا تحمل عليهم الكلفة، ولا تطلب منهم ما يشقّ عليهم^٣.

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال لرجلٍ من قَيف: «إياك أن تضرب مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً في دزهم خراج، أو تتبع دابةً عملٍ في دزهم، فإنّا أمرنا أن نأخذ منه العفو»^٤.

وعن الصادق عليه السلام: «أن الله أدب رسولَه بذلك، أي أخذ منهم ما ظهر وتيسر». قال: «والعفو: الوسط»^٥.

﴿وَأْمُرْ﴾ يا محمد أمتك ﴿بِالْعُرْفِ﴾ وبالجميل من الأفعال، والحميد من الأخلاق. ويدخل فيه غَضُّ البصر عن المحارم، وكُفُّ الجوارح عن المآثم، والقيام بالواجبات والمستحبات ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ سَيِّئَاتِ الْجَاهِلِينَ﴾ والسفهاء، ولا ثمارهم ولا ثكائبهم بمثل سَفَههم.

عن الرضا عليه السلام: «أن الله أمر نبيه ﷺ بمُداواة الناس فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

١. في النسخة: وعدم. ٢. تفسير الرازي ١٥: ٩٦، تفسير روح البيان ٣: ٢٩٨. ٣. تفسير الصافي ٢: ٢٦٠.

٤. من لا يحضره الفقيه ٢: ٣٤/١٣، تفسير الصافي ٢: ٢٦١.

٥. تفسير العياشي ٢: ١٧٨/١٦٦٩، تفسير الصافي ٢: ٢٦١.

الْجَاهِلِينَ»^١.

وعن الصادق عليه السلام: «أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها»^٢.

وعن سعيد بن هشام قال: دخلت على عائشة فسألتها عن أخلاق النبي ﷺ، فقالت: أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، فقالت: [كان] خلق رسول الله القرآن، وإنما أذبه بالقرآن بحيث قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^٣، وقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾^٤.

وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [٢٠٠]

ثم أنه روي أنه لما نزلت الآية^٥، قال رسول الله ﷺ: «كيف يا رب والغضب؟» فنزل ﴿وَمَا يَنْزَعَنَّكَ﴾^٦ وبيعتك إلى الشر ﴿مِنْ﴾ قِيلَ «الشَّيْطَانِ» وبوسسته ﴿نَزْغٌ» وباعث، ويهيجك سفيه بإظهار سفيهه ﴿فَاسْتَعِذْ» والتجنى ﴿بِاللَّهِ» من شر الشيطان ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ» يسمع اشتعاذتك والنجاءك به ﴿عَلِيمٌ» يعلم حالك وما فيه صلاحك. وهذا من باب إياك أعني واسمعي يا جارة، حيث إن الخطاب للنبي ﷺ والمقصود أمته.

روي أن النبي ﷺ رأى رجلاً يخاصم أخاه قد أحمر وجهه وانفخت أوداجه من الغضب، فقال ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان، لذهب عنه ما يجد»^٧.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ *

وَأَخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ [٢٠١ و ٢٠٢]

ثم بين الله حال عباده المتقين ترغيباً لغيرهم إلى الاستيعادة، بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الله وخافوا عقابه ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ وأصابهم ﴿طَائِفٌ» ونازلة خفيفة ﴿مِنْ﴾ وسوسة ﴿الشَّيْطَانِ» واقتربوا من الوقوع في الشر والعصيان ﴿تَذَكَّرُوا» وأشعروا قلوبهم عظمة الله وشدة عقابه، أو الاستيعادة به والتوكل عليه ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ بسبب هذا التذكّر ﴿مُبْصِرُونَ» مكائد الشيطان، وطريق السلامة من شره

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٥٦/٩، تفسير الصافي ٢: ٢٦١.

٢. جوامع الجامع: ١٦٣، تفسير الصافي ٢: ٢٦١. ٣. لقمان: ١٧/٣١.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٢٩٨، والآية من سورة المائدة: ١٣/٥. ٥. أي الآية المتقدمة.

٦. تفسير روح البيان ٣: ٢٩٨. ٧. تفسير روح البيان ٣: ٢٩٩.

فيسلكونه.

القَمِي: إذا ذكَّره الشَّيْطَانُ المعاصِيَّ وحَمَلَهُمْ عَلَيْهَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ، فإذا هُمْ مُبْصِرُونَ^١.

وعن الصادق عليه السلام: «هُوَ الْعَبْدُ بِهِمُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ يَتَذَكَّرُ فَيُمْسِكُ»^٢.

ويمكن أن [يكون] المراد من الطَّائِف جمعاً من الشَّيَاطِين يَطُوفُونَ حوله ويُوسِوْشُونَ في قلبه،

ففيه مدحهم بقوة العقل بحيث لا يقدر على مسهم، والشيطان واحد.

وأما أتباع الشَّيَاطِين «وَإِخْوَانُهُمْ» من الإنس؛ وهُم الَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ، يُعِينُونَ الشَّيَاطِين، وَ«يُمَدُّوهُمْ

فِي الْغَيِّ» وإضلال النَّاس، وإيقاعهم في المعاصي بالتزوين والتَّغْيِيب إليها، أو المراد أنَّ الشَّيَاطِين

يُمَدُّون إِخْوَانَهُمْ وَأَتْبَاعَهُمْ مِنَ الْإِنْسِ فِي الْغَيِّ وَالضَّلَالِ «ثُمَّ» الشَّيَاطِين وَإِخْوَانَهُمْ «لَا يَقْصِرُونَ»

وَلَا يَسَامُونَ مِنْ عَمَلِهِمْ، بَلْ يَجِدُونَ فِي الْغَيِّ غَايَةً.

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا

بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [٢٠٣]

ثم لما بين سبحانه سعي الشَّيَاطِين وأتباعهم من الإنس في الْغَيِّ والإضلال ذكر نوعاً من إضلالهم

بقوله: «وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَآيَةٌ» مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ مِمَّا اقترحوها عليك وسألوها تَعْتَبُ عَنْكَ، وَلَمْ تُجِبْهُمْ إِلَى

مَا سَأَلُوا «قَالُوا لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهَا» وَهَلَّا فَعَلْتَهَا بِنَفْسِكَ أَوْ بِاقْتِرَاحِكَ عَلَى رَبِّكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً فِي

دَعْوَى بُيُوتِكَ؟ «قُلْ» لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ: «إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي» وَلَا اقترح عليه أمراً من

الأمر، وَلَا أَسْأَلُهُ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا أَقْدِمُ عَلَى عَمَلٍ إِلَّا بِإِجَازَتِهِ، فَإِنْ كَانَ غَرَضُكُمْ مِنْ سُؤَالِ الْمُعْجِزَةِ

ثُبُوتُ بُيُوتِي فَإِنَّهُ يَكْفِيكُمْ «هَذَا» الْقُرْآنُ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْمَعَاجِزِ، حَيْثُ يَكُونُ فِيهِ «بَصَائِرُ» وَأَدَلَّةٌ

وَاضِحَةٌ عَلَى صِدْقِي، نَازِلَةٌ إِلَيْكُمْ «مِنْ رَبِّكُمْ وَ» يَكُونُ لَكُمْ «هُدًى» وَرِشَاداً إِلَى كُلِّ حَقٍّ وَخَيْرٍ

«وَرَحْمَةً» وَتَفَضُّلٌ عَلَيْكُمْ مِنْهُ، وَلَكِنْ يَكُونُ نَفْعُهُ الْمُتَّبِعُ «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» بِهِ؛ لِأَنَّهُم الْمُتَدَبِّرُونَ فِيهِ،

الْمُسْتَفِيدُونَ مِنْهُ الْعُلُومَ وَالْمَعَارِفَ وَالسَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ، وَمَا فِيهِ صَلَاحٌ دُنْيَاهُمْ وَعُقْبَاهُمْ.

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [٢٠٤]

ثم أنه تعالى بعد بيان إعجاز القرآن ومنافعه، أمر بالاستماع والإنصات له حين تلاوته بقوله: «وَإِذَا

١. تفسير القمي ١: ٢٥٣، تفسير الصافي ٢: ٢٦٢.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٧٨/١٦٧، الكافي ٢: ٣١٥/٧، تفسير الصافي ٢: ٢٦٢.

قُرِئَ الْقُرْآنُ بِمَسْمَعٍ مِنْكُمْ ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ بِأَذَانِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ ﴿وَأَنْصِتُوا﴾ لَهُ حِينَ قِرَاءَتِهِ، وَلَا تَتَكَلَّمُوا بِشَيْءٍ تَعْظِيمًا لَهُ وَتَكْمِيلًا لِلسَّمَاعِ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تَفُوزُونَ بِأَعْظَمِ فَوَائِدِهِ وَمَنَافِعِهِ وَتُرْحَمُونَ بِالرَّحْمَةِ الْخَاصَّةِ الْإِلَهِيَّةِ.

عن ابن عباس قال: كان المسلمون قبل نزول هذه الآية يتكلمون في الصلاة، ويأثرون بحوانجهم، ويأتي الرجل الجماعة وهم يُصلُّون فيسألهم: كم صليتم، وكم بقي؟ فيقولون: كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآية وأمرهم بالإنصات عند الصلاة، فأريد من قراءة القرآن الصلاة لكونها معظم أجرائها^١.
وعنه أيضاً قال: قرأ رسول الله ﷺ في الصلاة المكتوبة، وقرأ أصحابه وراءه رافعين أصواتهم فخلطوا عليه، فنزلت الآية^٢.

وعن الباقر عليه السلام: «إِنْ كُنْتَ خَلْفَ إِمَامٍ فَلَا تَقْرَأْ شَيْئًا فِي الْأَوَّلَيْنِ، وَأَنْصِتْ لِقِرَاءَتِهِ، وَلَا تَقْرَأْ شَيْئًا فِي الْآخِرَتَيْنِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ^٣: «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ» يَعْنِي فِي الْفَرِيضَةِ، خَلْفَ الْإِمَامِ ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» وَالْآخِرَتَانِ تَتَّبِعُ لِلأَوَّلَيْنِ»^٤.

وعن الصادق عليه السلام: «إِذَا كُنْتَ خَلْفَ إِمَامٍ تَتَوَلَّاهُ وَتَتَّقِي بِهِ فَإِنَّهُ يُجْزِيكَ قِرَاءَتَهُ، وَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تَقْرَأَ فَاقْرَأْ فِيمَا يُخَافُ بِهِ، فَإِذَا جَهَرَ فَأَنْصِتْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾»^٥.

وعن أحدهما عليه السلام قال: «إِذَا كُنْتَ خَلْفَ إِمَامٍ تَأْتُمُّ بِهِ فَأَنْصِتْ وَسَجِّ فِي نَفْسِكَ»^٦.
أقول: فيه دلالة على اجتماع الإنصات مع الذكر الخفي، فعلم أن في الجماعة يجب الإنصات لقراءة الإمام، وأما في غير الجماعة فلا إشكال في استحبابه، وأما الصلاة خلف الإمام غير المرضي فحكمه حكم غير الجماعة.

عن الصادق عليه السلام أنه سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَوْمَ الْقَوْمِ وَأَنْتَ لَا تَرْضَى بِهِ فِي صَلَاةٍ يَجْهَرُ فِيهَا بِالْقِرَاءَةِ، فَقَالَ: «إِذَا سَمِعْتَ كِتَابَ اللَّهِ يُتْلَى فَأَنْصِتْ لَهُ». قِيلَ: فَإِنَّهُ يَشْهَدُ عَلَيَّ بِالشَّرْكِ، قَالَ: «إِنْ عَصَى اللَّهُ فَاطْعِ اللَّهَ». فَرَدَّدْتُ عَلَيْهِ فَأَبَى أَنْ يُرَخَّصَ لِي. قِيلَ: أَصْلِي إِذَنْ فِي بَيْتِي ثُمَّ أَخْرَجَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: «أَنْتَ وَذَلِكَ».
وقال: «إِنْ عَلَيًّا عليه السلام كَانَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ فَقَرَأَ ابْنُ الْكَوَاءِ وَهُوَ خَلْفَهُ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٠٣. ٢. تفسير الرازي ١٥: ١٠٢.

٣. زاد في من لا يحضره الفقيه وتفسير الصافي: للمؤمنين.

٤. من لا يحضره الفقيه ١: ٢٥٦/١١٦٠، تفسير الصافي ٢: ٢٦٢.

٥. التهذيب ٣: ١٢٠/٣٣، تفسير الصافي ٢: ٢٦٣. ٦. تفسير العياشي ٢: ١٧٩/١٦٧٧، تفسير الصافي ٢: ٢٦٣.

مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرُكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ^١ فأنصت علي ﷺ تعظيماً للقرآن، حتى فرغ من [الآية ثم عاد في] قراءته، ثم أعاد ابن الكواء الآية، فأنصت علي ﷺ أيضاً، ثم قرأ فأعاد ابن الكواء، فأنصت علي ﷺ، ثم قال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ﴾^٢.

وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ
عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ [٢٠٥ و ٢٠٦]

ثم أنه تعالى بعد الأمر بالإنصات عند تلاوة القرآن، أمر نبيه ﷺ والمؤمنين بإخفات ذكر الله لكونه أقرب إلى الإخلاص، بقوله: ﴿وَأَذْكُرْ﴾ يا محمد ﴿رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ وفي الخفية بحيث لا يسمع ذكرك غيرك، حال كونك تتضرع إليه وتخاف منه ﴿تَضَرُّعاً وَخِيفَةً﴾.

قيل: معنى الذكر في النفس: كون الإنسان عارفاً بمعاني الأذكار التي يقولها باللسان، مستحضراً لصفات الله الكمالية وعِزِّه وعُلُوِّه وجلاله وعظمته.

وفي توصيف ذاته المقدسة بصفة الرئوبية في المقام إشعاراً بكمال رحمته وقربه من الذكر، وفضله وإحسانه إليه.

وقيل: إن الخطاب في الآية إلى الإنسان، لا خصوص النبي ﷺ.

ثم رخص شبحانه في ترك المبالغة في الإخفات، وأن يذكر بصوت فوق الأخفات بقوله: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وفوق الإخفات، فيكون متوسطاً بينهما.

وعن ابن عباس: إن المعنى أن يذكر ربه على وجه يسمع نفسه^٣. ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ والصباح والمساء؛ لكونهما أفضل الأوقات ﴿وَلَا تَكُنْ﴾ في وقت من الأوقات ﴿مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن ربك وذكره واللاهين عنه.

عن النبي ﷺ: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً﴾ يعني: مستكيناً ﴿وَخِيفَةً﴾ يعني: خوفاً من عذابه ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يعني: دون الجهر من القراءة ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ يعني: بالغداة والعشي^٤.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «من ذكر الله في السر فقد ذكر الله كثيراً، إن المنافقين كانوا يذكرون الله

١. الزمر: ٦٥/٣٩. ٢. التهذيب ٣: ١٢٧/٣٥، تفسير الصافي ٢: ٢٦٣، والآية من سورة الروم: ٦٠/٣٠.

٣. تفسير الرازي ١٥: ١٠٨. ٤. تفسير العياشي ٢: ١٧٩/١٦٨، تفسير الصافي ٢: ٢٦٤.

علانية ولا يذكرونه سرّاً، فقال الله: ﴿يَرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^١.

وعن أحدهما عليه السلام: «لا يكتب الملك إلّا ما يسمع، وقال الله: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ فلا يعلم ثواب ذلك الذكر في نفس الرجل إلّا الله لمطمته»^٢.

وعنه عليه السلام، في هذه الآية قال: «تقول عند المساء لا إله إلّا هو^٣ وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، [ويميت ويحيي] وهو على كلّ شيء قدير».

قيل: بيده الخير؟ قال: «إن بيده الخير، ولكن قل كما أقول لك عشر مرّات. وأعوذ بالله السميع العليم [من همزات الشياطين، وأعوذ بك ربّ ان يحضّرون إن الله هو السميع العليم]. حين تطلع الشمس وحين تغرب عشر مرّات»^٤.

ثم لما رغب الله سبحانه الرّسول صلى الله عليه وآله وعامة النّاس في الذكر باللسان صباحاً ومساءً وفي تذكّره تعالى، وإنّما قوى داعيتهم إليه ببيان حال المقرّبين عنده، بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة مع نهاية شرفهم، وكمال طهارتهم وعصمتهم، ونزاهتهم عن بواعث الشهوة والغضب وعوارض الحقد والحسد. وعن القمّي يعني: الأنبياء والرّسل والأئمة^٥، مع عصمتهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ولا يتأنّفون ﴿عَنْ﴾ الخضوع لله و﴿عِبَادَتِهِ﴾ بل هم مستغرقون فيها آناء الليل وأطراف النهار و﴿يُسَبِّحُونَهُ﴾ ويُنْزِهونه من النقائص الإمكانية ﴿وَلَهُ﴾ وحده ﴿يَسْجُدُونَ﴾.

فإذا كانت الأنبياء والملائكة والمقرّبون حالهم كذا، فالإنسان المبتلى بظلمات الطّبيعة، المنهمك في اللذات النّفسانية والشّهوات الحيوانية، أولى بالمواظبة على العبادة والذكر والطاعة، وأن لا يخلو من ذكره وتسبيحه وتقدّيسه.

١. الكافي ٢: ٢/٣٦٤، تفسير الصّافي ٢: ٢٦٤، والآية من سورة النساء: ١٤٢/٤.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٧٩/١٦٧، تفسير الصّافي ٢: ٢٦٤.

٣. في تفسير العياشي وتفسير الصّافي: إلّا الله. ٤. تفسير العياشي ٢: ١٨٠/١٦٧، تفسير الصّافي ٢: ٢٦٤.

٥. تفسير القمّي ١: ٢٥٤، تفسير الصّافي ٢: ٢٦٤.

في تفسير سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [١]

ثم لما ختم سورة الأعراف التي عمدة مطالبها إبطال الشرك، وتهديد أهله بالعذاب، وبيان غاية عجز الأصنام، وأمر النبي ﷺ بالأعلان بوثوقه بالله تعالى في دفع كيدهم، والعفو عمن ظلمه، والإعراض عن الجاهلين، ومداواة الناس، والاستيعادة بالله عند نزع الشيطان، ومدح المتقين بتذكّر الله عند ذلك، أردفت بشورة الأنفال التي أهم مطالبها إثبات صحة نبوة النبي ﷺ، وإيجاب طاعته، وملازمة التقوى، وبيان كيفية نزع الشيطان، وإيجاب رفع التنازع بالصّلح، وغير ذلك من الأمور المرتبطة بها في السور السابقة، فابتدأ بذكر الأسماء المباركات على حسب دأبه تعالى في كتابه بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم افتتحها ببيان حكم الغنيمة التي وقع بين المسلمين التنازع فيها في وقعة بدر بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا رسول الله ﴿عَنِ﴾ حكم ﴿الْأَنْفَالِ﴾ ويستفتونك فيها ﴿قُلِ﴾ في جوابهم: ﴿الْأَنْفَالُ﴾ كلها ﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ليس لغيرهما فيها حق.

رؤي أن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر وفي تقسيمها، فسألوا رسول الله ﷺ: كيف تُقسّم، وإلى أين تُصرف، ومن الذين يتولون قسمتها؛ أهم المهاجرون أم الأنصار؟ فنزلت^١.

وعن عبادة بن الصامت قال: فبينا معشر أصحاب بدر نزلت، حين اختلفنا في النّفل، وساءت فيه أخلأنا، فنزع الله من أيدينا وجعله لرسوله، فقسّمه بين المسلمين على السواء^٢.

ورؤي أن الشّبان يوم بدر قتلوا وأسروا، والأشياخ وقفوا مع رسول الله ﷺ في المصاف، فقال الشّبان: الغنائم لنا؛ لأنّا قتلنا وهزّمنا، وقال الأشياخ: كنّا رداء لكم، ولو انهزّمتم لانهزّمتم إلينا، فلا تذهبوا

بالغنائم دوننا. فوقعت المخاصمة، فنزلت^١.

وروي أن النبي ﷺ قَسَمَ ما غنموه يوم بَدْرٍ على مَنْ حضر، وعلى أقوامٍ لَمْ يَحْضَرُوا أيضاً؛ وهُم ثلاثة من المهاجرين، وخَمسة من الأنصار، أما المهاجرون فأحدهم عثمان؛ فإنه ﷺ تركه على ابنته لأنها كانت مريضة، وطلحة، وسعيد بن زيد؛ فإنه ﷺ كان بعثهما للتجسس عن خبر العير، وخرجاً في طريق الشام. وأما الخمسة [من] الأنصار فأحدهم أبو لُبابة مروان بن عبد المُنذر، خلفه النبي ﷺ على المدينة، وعاصم خلفه على العالية، والحارث بن حاطب رَدَّه من الرُّوحاء إلى عَمرو بن عوف لشيءٍ بلغه عنه، والحارث بن الصمة أصابته علةٌ بالرُّوحاء، وخوات بن جبير، فهؤلاء لَمْ يَحْضَرُوا وضرب لهم النبي ﷺ في تلك الغنائم بِسَمٍ، فوقع من غيرهم فيه مُنازعة^٢.

وعن الصادق عليه السلام: «نزلت يوم بَدْرٍ لَمَّا انهزم الناس، وكان أصحاب رسول الله ﷺ على ثلاث فرق؛ فصنَّف كانوا عند خِيمة النبي ﷺ، وصنَّف أغاروا على النَّهب، وفرقة طلبت العَدُوَّ وأسروا وغنموا، فلَمَّا جَمَعُوا الغنائم والأسارى تكلَّمَت الأنصار في الأسارى، فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَى حَتَّى يُنْجَى فِي الْأَرْضِ﴾^٣، فلَمَّا أباح الله لهم الأسارى والغنائم تكلم سعد بن معاذ - أو سعد بن عثمان، على نسخة - وكان مِمَّنْ أقام عند خِيمة النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما منعنا أن نطلب العَدُوَّ زُهادةً في الجهاد، ولا حُبناً من العَدُوِّ، ولكننا خِفْنَا أن يعرَى موضعك فتَمِيلَ عليك خِيَلُ المُشركين، وقد أقام عند الخِيمة وجوهُ المهاجرين والأنصار، ولَمْ يَشْكُ أَحَدٌ مِنْهُمْ، والناس كثيرٌ يا رسول الله والغنائم قليلة، ومتى يُعطى هؤلاء لَمْ يَبْقَ لأصحابك شيءٌ.

وخاف أن يُقَسَمَ رسول الله ﷺ الغنائم وأسلاب القتلى بين مَنْ قاتل ولا يُعطي مَنْ تخلف عند خِيمة رسول الله ﷺ شيئاً، فاختلفوا فيما بينهم حتى سألوا رسول الله فقالوا: لِمَنِ الغنائم؟ فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فرجع الناس وليس لهم في الغنيمة شيء، ثم أنزل الله بعد ذلك ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾^٥ الآية، فقَسَمَهُ رسول الله ﷺ بينهم، فقال سعد بن [أبي] وقاص: يا رسول الله، أتعطي فارس القوم الذي يحميهم مثل ما تُعطي الضعيف؟ فقال النبي ﷺ: ثكلتك أمك، وهل تُنصرون إلا بضعفائكم؟!^٦.

قال: «لَمَّا يُخَمَسَ رسول الله ببَدْرٍ، وقَسَمَ بين أصحابه، ثم استقبل بأخذ الخمس بعد بدر»^٦.

٢. تفسير الرازي ١٥: ١١٥.

٥. الأنفال: ٤١/٨.

١. تفسير الرازي ١٥: ١١٥.

٣. الأنفال: ٦٧/٨. ٤. في النسخة: على.

٦. تفسير القمي ١: ٢٥٤، تفسير الصافي ٢: ٢٦٧.

وأما الأنفال، فعن ابن عباس وجَماعة أَنَّها غنِمة بَدْر^١. وقيل: هي أنفال السَّرايا^٢. وقيل: هي ما شَدَّ من المشركين من عبدٍ أو جارية من غَيْرِ قتال^٣.

وعن الباقر والصادق عليهما السلام: «الفيء والأنفال ما كان من أرض لم يكن فيها هِرَاقَة دم، أو قوم صُولِحوا وأعطوا بأيديهم، وما كان من أرض خَرِبَة أو بَطُون أودية، فهو كُلُّه من الفيء والأنفال، فهذا كُلُّه لله ولرَسُوله، فما كان فهو لرسوله يضعه حيث يشاء، وهو للإمام بعد الرسول^٤».

وعن الصادق عليه السلام: «الأنفال ما لَمْ يُوجِف عليه بخَيْلٍ ولا رِكاب، أو قوم صُولِحوا، أو قوم أعطوا بأيديهم، وكُلُّ أرض خَرِبَة وبَطُون الأودية فهو لرسول الله، وهو للإمام من بعده يضعه حيث يشاء^٥». وعنه عليه السلام: «مَنْ مات وليس له وارث، فماله من الأنفال^٦».

وعن الباقر عليه السلام: «لنا الأنفال»، قيل: وما الأنفال؟ قال: «منها المعادن والآجام، وكُلُّ أرض لا رَبَّ لها، وكُلُّ أرض باد أهلها فهو لنا^٧».

وقال: «ما كان للملوك فهو من الأنفال^٨».

أقول: لا شك أَنَّ المراد بالسؤال في الآية الغنائم؛ كما عن ابن عباس وعن الصادق عليهما السلام، لوضوح أَنه لَمْ يَكُنْ في غنائم بَدْر شيءٌ من الأمور المذكورة في الروايات، وإنَّما هو المقصود من الأنفال الذي أُطلق في غير الآية، أو معناه الأعم من الأمور المذكورة والغنائم، وإن وقع السؤال في بَدْر من الغنائم. ولَمَّا كان التنازع مُحَرِّماً أمر المؤمنين بالتقوى بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوا عقابه أَيُّها البَدْرِيُّونَ، ولا تُقَدِّمُوا على معصية واتَّركوا التنازعة، وارضَوْا بما حَكَمَ به الرسول ﷺ ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ من الأحوال بالتمساسة فيما رزقكم الله والأقوال، ولا تنازَعُوا.

ثم أكد الأمر بالتقوى بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في أوامره ونواهيه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بهما عن صميم القلب، فإنَّ الإيمان لا يَتِمُّ إِلَّا بالطاعة.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

٢. مجمع البيان ٤: ٧٩٦.

١. مجمع البيان ٤: ٧٩٥.

٣. تفسير الرازي ١٥: ١١٥.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٦٨٧/١٨٢، التهذيب ٤: ٣٧٦/١٣٤، تفسير الصافي ٢: ٢٦٦.

٥. الكافي ١: ٤٥٣/٣، تفسير الصافي ٢: ٢٦٦.

٦. تفسير الصافي ٢: ٢٦٦.

٨. تفسير الصافي ٢: ٢٦٧.

٧. تفسير العياشي ٢: ١٦٩١/١٨٣، تفسير الصافي ٢: ٢٦٧.

يُنْفِقُونَ [٢ و ٣]

ثم بين علة ملازمة الإيمان للطاعة ببيان الصفات النفسانية التي لا ينفك المؤمن الكامل منها بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الصادقون في الإيمان، الكاملون فيه هم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ عندهم، أو ذكروه ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وخافت أفئدتهم من عظمتهم ومهابته، ومن احتمال التقصير في طاعته؛ فيستحقوا عتابه أو عقابه ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ﴾ وقرنت ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وبمسمع منهم ﴿آيَاتُهُ﴾ القرآنية البالغة أعلى درجة الفصاحة، المشحونة بالعلوم والمعارف والمواعظ والحكم ﴿زَادَتْهُمْ﴾ تلك الآيات بالتفكير والتدبر فيها ﴿إِيمَانًا﴾ على إيمانهم لزيادة معرفتهم بعظمته وقدرته وحكمته وصدق رسوله ﴿وَمِنْ﴾ المعلوم بأن من آثار ازدياد المعرفة وقوة اليقين بصفاته الكمالية أنهم ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ومالك أمورهم، اللطيف بهم ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ وعليه يعتمدون في أمورهم، وإليه يتووضون جميع شؤنهم من حفظهم ورزقهم وتدبير معاشهم، فلا يخافون ولا يرجون غيره.

وَرُوي أَنَّهُ «لا يكمل إيمان المرء حتى يرى الناس كالأباعير»^١.

فإذا حصل للمؤمنين هذه الصفات لا يكون نظرُهُ إِلَّا إلى تحصيل رضا الله، فيقوم بطاعته ويبدل نفسه وماله في سبيله، ولذا وصفهم بعد تلك الصفات الحميدة النفسانية بقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ التي هي أهم العبادات البدنية مراعيًا لشرائطها المعتبرة في صحتها وكمالها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وأعطيناهم من القوى والعلم والجاه والمال ﴿يُنْفِقُونَ﴾ في سبيله، ويبدلون في مرضاته. وإنما خصَّ سبحانه التوكل من بين الصفات النفسانية الباطنية، والصلاة والإنفاق من بين الأعمال الخارجية الظاهرية بالذكر تنبيهاً على شرفها وتبعية سائر الصفات الكمالية والأعمال العبادية لها.

أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ [٤-٦]

١. ورد في (البحار) عن (مكارم الأخلاق) و (عدة الداعي) بلفظ: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى الناس في جنب الله تبارك وتعالى أمثال الأباعير». بحار الأنوار ٧٢: ٣٠٤ و ٧٧: ٨٥.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ حَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ الْكَثَلِينَ بِالوَاجِدِينَ لِتِلْكَ الصِّفَاتِ وَالْأَعْمَالِ، أَكَّدهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ﴾ الْمُوصُوفُونَ بِالصِّفَاتِ الْجَلِيلَةِ الْمَذْكُورَةِ ﴿هُمْ﴾: بِالْخُصُوصِ ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ إِيْمَانًا ﴿حَقًّا﴾ ثَابِتًا لَا يَشُوْبُهُ شِرْكٌ جَلِيٌّ وَلَا خَفِيٌّ؛ لِإِحَاطَةِ نُورِ الْإِيْمَانِ بِقُلُوبِهِمْ وَجَوَارِحِهِمْ، وَظُهُورِ أَثَارِهِ مِنْ بَوَاطِنِهِمْ وَظَوَاهِرِهِمْ.

ثُمَّ بَيَّنَّ شَبَحَانَهُ اخْتِصَاصَهُمْ بِغَايَةِ الْكِرَامَةِ عِنْدَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ رَفِيعَةً مِنَ الْكِرَامَةِ وَالشَّرَفِ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿وَرَبُّهُمْ﴾ لَهُمْ ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ وَسَتْرٌ، أَيْ سَتْرٌ لِدُنُوبِهِمْ وَزَلَّاتِهِمْ ﴿وَرِزْقٌ﴾ وَاسِعٌ هُنَا، ﴿كَرِيمٌ﴾ لَا انْقِطَاعَ لَهُ، وَلَا تَعَبَ، وَلَا كُدُورَةَ فِيهِ فِي الْبَرْزَخِ وَالْآخِرَةِ. عَنْ الْقَمِيِّ رحمته الله: نَزَلَتْ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَبِي ذَرٍّ، وَسَلْمَانَ، وَمِقْدَادٍ.

وَفِي (الْكَافِي) عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «بِتَّامِ الْإِيْمَانِ دَخَلَ الْمُؤْمِنُونَ الْجَنَّةَ، وَبِالزِّيَادَةِ فِي الْإِيْمَانِ تَفَاضَلَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّدَرَجَاتِ عِنْدَ اللَّهِ، وَبِالنَّقْصَانِ دَخَلَ الْمُفْرَطُونَ النَّارَ»^٢.

ثُمَّ أَنَّهُ زَوَى أَنْ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله لَمَّا رَأَى كَثْرَةَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ وَقَلَّةَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ: مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ، وَمَنْ أَسْرَ أَسِيرًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا، لِيُرْغَبَ فِي الْقِتَالِ، فَلَمَّا انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِكَ وَقَوْمِكَ فِدُوكَ بِأَنْفُسِهِمْ وَلَمْ يَتَأَخَّرُوا عَنِ الْقِتَالِ جُبْنًا وَلَا بُخْلًا، بِيَذِلِّ مُهْجِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ أَشْفَقُوا عَلَيْكَ مِنْ أَنْ تُقْتَلَ، فَمَتَى أُعْطِيَتْ هَؤُلَاءِ مَا سَمَّيْتَهُ لَهُمْ بَقِيَ خَلْقٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَغِيرِ شَيْءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ...﴾^٣ فَفَوَّضَ اللَّهُ أَمْرَ الْغَنِيْمَةِ إِلَى رَسُولِهِ يَصْنَعُ فِيهَا مَا يَشَاءُ، فَأَمْسَكَ الْمُسْلِمُونَ عَنِ الطَّلَبِ وَفِي أَنْفُسِ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ مِنَ الْكَرَاهَةِ^٤.

وَكَذَلِكَ حِينَ خَرَجَ الرَّسُولُ صلى الله عليه وآله إِلَى الْقِتَالِ يَوْمَ بَدْرٍ كَانُوا كَارِهِينَ لِتِلْكَ الْمُقَاتَلَةِ، فَشَبَّهَ شَبَحَانَهُ كِرَاهَتَهُمْ اخْتِصَاصَ الْأَنْفَالِ بِالرَّسُولِ بِكَرَاهَتِهِمْ خُرُوجَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وآله إِلَى قِتَالِ بَدْرٍ بِقَوْلِهِ: ﴿كَمَّا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ بِالْمَدِينَةِ، أَوْ مِنَ الْمَدِينَةِ الَّتِي هِيَ دَارُ هِجْرَتِكَ إِلَى قِتَالِ بَدْرٍ إِخْرَاجًا مَقْرُونًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ وَالْحِكْمَةِ وَالصَّلَاحِ ﴿وَرَبُّهُمُ﴾ الْحَالِ ﴿إِنْ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِكَ ﴿لَكَارِهُونَ﴾ خُرُوجِكَ، فَكَمَا أَنَّ كِرَاهَتَهُمْ لَخُرُوجِكَ كَانَتْ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ، كَذَلِكَ كِرَاهَتَهُمْ اخْتِصَاصَكَ بِالْغَنِيْمَةِ تَكُونُ كِرَاهَةً مَا فِيهِ خَيْرٌ لَهُمْ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمَعْنَى: أَنَّ الْمُوصُوفِينَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، كَمَا أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ بِخُرُوجِكَ مِنْ بَيْتِكَ إِلَى الْقِتَالِ حَقٌّ. قِيلَ: إِنَّ جَبْرَيْلَ أَنَاهُ وَأَمْرُهُ بِالْخُرُوجِ.

٢. الْكَافِي ٢: ٣١١، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ٢٦٨.

١. تَفْسِيرُ الْقَمِيِّ ١: ٢٥٥، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ٢٦٨.

٣. الْأَنْفَالُ: ١/٨. ٤. تَفْسِيرُ الرَّازِي ١٥: ١٢٥.

في بيان واقعة روى بعض العامة أن عير قريش - أي قافلته - أقبلت من الشام وفيها تجارة كثيرة بدر

عظيمة، ومعها أربعون راكباً منهم أبو سفيان وعمر بن العاص ومخرمة بن نوفل، وكان في السنة الثانية من الهجرة، فأخبر جبرئيل رسول الله ﷺ بإقبالها، فأخبر المسلمين، فأعجبهم تلقاها لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا سمع أبو سفيان فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفزهم، ويخبرهم أن محمداً قد اعترض ليعيركم فأذركوها، فلما بلغ أهل مكة هذا الخبر نادى أبو جهل فوق الكعبة: يا أهل مكة، النجاء النجاء على كل صعب وذلول، عيركم وأمواكم - أي أدركوها - إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً.

وقد رأت عاتكة أخت العباس بن عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رؤياً فقالت لأخيها: إنني رأيت عجباً، كأن ملكاً نزل من السماء وأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها - أي رمى بها - إلى فوق، فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة، فحدث بها العباس صديقاً له يقال له عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وذكرها عتبة لبيته له، ففشا الحديث. فقال أبو جهل للعباس: يا أبا الفضل، أما يرضى رجالكم أن تنبأوا حتى تنبأت نساؤكم، فخرج أبو جهل بأهل مكة وهم النكير، فقيل له: إن العير أخذت طريق الساحل ونجحت، فارجع بالناس إلى مكة، فقال: لا والله، لا يكون ذلك أبداً حتى ننحر الجزور، ونشرب الخُمور، ونقيم القينات^١ والمعازف ببدر، فتسامع جميع العرب بمخرجنا، وإن محمداً لم يُصب العير، وإننا قد أغضضناه.

فمضى بهم إلى بدر - وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لشوقهم يوماً في السنة - فنزل جبرئيل فقال: يا محمد، إن الله وعدكم إحدى الطائفتين؛ إما العير، وإما قريشاً، فاستشار النبي ﷺ أصحابه فقال: «ما تقولون، إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول؟ فالعير أحب إليكم أم النكير؟» فقالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدو. فتغير وجه رسول الله ﷺ، ثم ردّد عليهم فقال: «إن العير قد مصّت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل» - يريد النبي ﷺ بذلك أن تلقى النكير وتغير وجهه - وجهاً للشركيين أثر عنده وأنفع للمؤمنين من الظفر بالعير، لما في تلقى النكير من كسر شوكة المشركين، وإظهار الدين الحق على الأديان كلها، فقالوا: يا رسول الله، عليك بالعير ودع العدو.

فقام عندما غضب رسول الله ﷺ أبوبكر وعمر، فأحسن الكلام^٢ في اتباع مراد الرسول ﷺ، ثم

١. القينات: جمع فينة، الأمة مغنية كانت أو غير مغنية.

٢. الذي في (صحيح مسلم): فتكلم أبوبكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، ونص كلام أبي بكر وعمر الذي أعرض عن الرسول ﷺ سيأتي برواية القمي، ونقله أيضاً الواقدي في (المغازي) والمقريزي في (الامتناع والمؤاتة). راجع: معالم المدرستين ١: ٢٣٥.

قام سيد الخزرج سعد بن عبادة فقال: انظر في أمرك وامض، فوالله لو سرت إلى عدن أبيين^١ ما تخلف عنك رجل من الأنصار. ثم قال المقداد بن عمرو: يا رسول الله، امض لما أمرك الله فإننا معك حيثما أحببت، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^٢ ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكما مقاتلون ما دامت عين منا تطرف.

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «أشيروا علي أيها الناس» وهو يريد الأنصار، أي يبنوا لي ما في ضميركم في نصرتي ومعاونتي؛ وذلك لأن الأنصار عاهدوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة أن ينصروه مادام في المدينة، وإذا خرج منها لا يكون عليهم معاونته ونصرته، فأراد ﷺ أن يعاهدهم على النصرة في هذه المعركة.

فقام سعد بن معاذ فقال: كأنك تريدنا يا رسول الله، قال: «أجل»، قال: قد آمنا بك وصدفناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا وميثاقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضنا معك، ما تخلف منا رجل، وما نكره أن تلقى بنا عدونا، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسير بنا على بركة الله. ففرح رسول الله ﷺ ونشطه قول سعد ثم قال: «سيروا على بركة الله وابشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم»^٣.

بيان قصة بدر عن القمي رحمه الله: أن عير قريش خرجت إلى الشام فيها خزائنها، فأمر النبي ﷺ أصحابه بالخروج ليأخذوها، فأخبرهم أن الله تعالى قد وعده إحدى الطائفتين؛ إما العير أو قريش إن ظفروا بهم، فخرج في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فلما قارب بدرًا، كان أبو سفيان (لعنه الله) في العير، فلما بلغه أن رسول الله ﷺ قد خرج يتعرض العير خاف خوفًا شديدًا، ومضى إلى الشام، فلما وافى البصرة^٤ أكثرى ضمضم بن عمرو الخزازي بعشرة دنانير، وأعطاه قلوصًا^٥، وقال له: امض إلى قريش: وأخبرهم أن محمدًا^٦ والصبا^٧ من أهل يثرب قد خرجوا يتعرضون لعيركم، فأدركوا العير. وأوصاه أن يخرم^٧ ناقته ويقطع أذنها حتى يسيل الدم ويشق ثوبه من قبل وذئب، فإذا دخل مكة ولّى وجهه إلى ذئب البعير وصاح بأعلى صوته: يا آل غالب يا آل غالب،

١. عدن أبيين: مدينة على ساحل بحر العرب.

٢. المائدة: ٢٤/٥.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٣١٥.

٤. البصرة: الشابة من النوق.

٥. الصبا: جمع صائب، وهو الخارج من دين إلى آخر، وكانت قريش تسمي أصحاب النبي ﷺ الصبا لأنهم خرجوا من دين قريش إلى الإسلام.

٦. أي يشق ما بين منخريها.

اللَّطِيمَةُ^١ اللَّطِيمَةُ، الْعَيْرُ الْعَيْرُ، أَدْرَكُوا أَدْرَكُوا، وَمَا أَرَاكُمْ تُدْرِكُونَ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا وَالصُّبَاةَ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ قَدْ خَرَجُوا يَتَعَرَّضُونَ لِعَيْرِكُمْ. فَخَرَجَ ضَمُضٌ يُبَادِرُ إِلَى مَكَّةَ.

وَرَأَتْ عَاتِكَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ قَبْلَ قُدُومِ ضَمُضٍ فِي مَنَامِهَا بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، كَأَنَّ رَاكِبًا قَدْ وَافَى مَكَّةَ يُنَادِي: يَا آلَ عَدْرِ، يَا آلَ عَدْرِ، اغْدُوا إِلَى مَصَارِعِكُمْ صَبِيحَ ثَالِثٍ. ثُمَّ وَافَى بِحِمْلِهِ إِلَى أَبِي قُبَيْسٍ، فَأَخَذَ حَجْرًا وَهَدَاهُ مِنَ الْجَبَلِ فَمَا تَرَكَ دَارًا مِنْ دُورِ قُرَيْشٍ إِلَّا أَصَابَهُ مِنْهُ فِلْدَةٌ، وَكَانَ وَادِي مَكَّةَ قَدْ سَالَ مِنْ أَسْفَلِهِ دَمًا، فَاتَّبَعَتْهُ ذَعِيرَةٌ فَأَخْبَرَتْ الْعَبَّاسَ بِذَلِكَ، فَأَخْبَرَ الْعَبَّاسُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، فَقَالَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ: تِلْكَ مُصِيبَةٌ تَحْدُثُ فِي قُرَيْشٍ.

فَفَشَتْ الرُّؤْيَا فِي قُرَيْشٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ فَقَالَ: مَا رَأَتْ عَاتِكَةَ هَذِهِ الرُّؤْيَا، وَهَذِهِ نَبِيَّةٌ ثَانِيَةٌ فِي [بَنِي] عَبْدِ الْمُطَّلَبِ، وَاللَّاتُ وَالْعُزَّى لَنْتَنْظُرَنَّ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنْ كَانَ مَارَأَتْ حَقًّا فَهُوَ كَمَا رَأَتْ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ لَنْكُثِبَنَّ بَيْنَنَا كِتَابًا أَنَّهُ مَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ مِنَ الْعَرَبِ أَكْذَبَ رِجَالًا وَنِسَاءً مِنْ بَنِي هَاشِمٍ. فَلَمَّا مَضَى يَوْمٌ قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَذَا يَوْمٌ قَدْ مَضَى، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّانِي قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَذَانِ يَوْمَانِ قَدْ مَضَيَا، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ وَافَى ضَمُضٌ يُنَادِي فِي الْوَادِي: يَا آلَ غَالِبٍ، يَا آلَ غَالِبٍ، اللَّطِيمَةُ اللَّطِيمَةُ، الْعَيْرُ الْعَيْرُ، أَدْرَكُوا [أَدْرَكُوا] وَمَا أَرَاكُمْ تُدْرِكُونَ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا وَالصُّبَاةَ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ قَدْ خَرَجُوا يَتَعَرَّضُونَ لِعَيْرِكُمْ الَّتِي فِيهَا خَزَائِنُكُمْ.

فَتَصَالِحَ النَّاسُ بِمَكَّةَ وَتَهَيَّأُوا لِلْخُرُوجِ، فَقَامَ سَهْلُ بْنُ عَمْرٍو وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ بْنُ هِشَامٍ وَمِنْهُ وَنَبِيهِ ابْنَا الْحَجَّاجِ وَنُوفَلُ بْنُ خُوَيْلِدٍ فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ [وَاللَّهِ] مَا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ، أَنْ يَطْمَعَ مُحَمَّدٌ وَالصُّبَاةُ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ أَنْ يَتَعَرَّضُوا لِعَيْرِكُمْ الَّتِي فِيهَا خَزَائِنُكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا قَرَشْنِي وَلَا قَرَشِيَّةَ إِلَّا وَلَهُمَا فِي هَذِهِ الْعَيْرِ نَشٌّ^٢ فَصَاعِدًا، وَإِنَّهُ لَذَلٌّ وَصَغَارٌ أَنْ يَطْمَعَ مُحَمَّدٌ فِي أَمْوَالِكُمْ وَيُفَرِّقَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مَنَاجِرِكُمْ.

فَأَخْرَجُوا وَأَخْرَجَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ خَمْسَمِائَةَ دِينَارٍ وَجَهَّزَ بِهَا، وَأَخْرَجَ شَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو [خَمْسَ مِائَةٍ]، وَمَا بَقِيَ [أَحَدٌ] مِنْ عِظَمَاءِ قُرَيْشٍ إِلَّا أَخْرَجُوا مَالًا، وَحَمَلُوا وَقَوَّاءَ، وَخَرَجُوا عَلَى الصَّعْبِ وَالذَّلُولِ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِطَرَأٍ وَقَرَاءٍ النَّاسِ^٣﴾، وَخَرَجَ مَعَهُمُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ، وَنُوفَلُ بْنُ الْحَارِثِ، وَعَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَخْرَجُوا مَعَهُمُ الْقِيَانَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَضْرِبُونَ بِالْأُفُوفِ^٤.

١. اللَّطِيمَةُ: الْعَيْرُ الَّتِي تَحْمِلُ الطَّيْبَ وَبَزَّ التَّجَارَةُ وَقَوْلُهُ: يَا آلَ غَالِبِ اللَّطِيمَةُ، أَيُّ أَدْرَكُوا.

٢. النَّشُّ: نَصْفُ أَوْقِيَّةٍ، وَيَعَادِلُ عَشْرِينَ دِرْهَمًا.

٣. الْأَنْفَالُ: ٤٧/٨.

٤. فِي النُّسخَةِ: بِالْأُفُوفِ.

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فلما كان بقرب بدر على ليلة منها بعث بشير بن أبي الزغباء ومحمد بن عمرو يتجسسان خبر العير، فأتيا ماء بدر فأناخا راحلتيهما واشتعدبا من الماء، وسمعا جارتين قد تشبثت إحداهما بالأخرى، وتطالبها بدرهم كان لها عليها، فقالت: عير قريش نزلت أمس في موضع كذا، وهي تنزل غداً هاهنا، وأعمل لهم وأفضيك.

فرجعا فأخبراه بما سمعا، فأقبل أبو سفيان بالعير، فلما شارف بدرًا تقدم العير وأقبل وحده حتى انتهى إلى ماء بدر، وكان بها رجل من جبهة يقال له الكسب الجهني فقال له: يا كسب، هل لك علم بمحمد وأصحابه؟ قال: لا، قال: واللآلئ والعزى لئن كتمنا أمر محمد، لا تزال قريش. لك معادية آخر الدهر، فإنه ليس أحد من قريش إلا وله في هذه العير نَسْ فصاداً، فلا تكتمني، فقال: والله مالي علم بمحمد، وما بال محمد وأصحابه بالتجار، إلا أتني رأيت في هذا اليوم راكبين أقبل فاستعدبا من الماء، وأناخا راحلتيهما ورجعا، ولا أدري من هما. فجاء أبو سفيان إلى موضع مناخ إبلهما، ففت أبعاد الإبل، فوجد فيها النوى فقال: هذه علانف يثرب، هؤلاء والله عيون محمد، فرجع مسرعاً وأمر بالعير فأخذ بها نحو ساحل البحر، وتركوا الطريق ومزوا مسرعين.

ونزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فأخبره أن العير قد أفلتت، وأن قريشاً قد أقبلت ل تمنع عن عيرها، وأمر بالقتال ووعده النصر، وكان نازلاً ماء الصفراء^١، فأحب أن يلو الأنصار، لأنهم إنما وعدوه أن ينصروه إذا كان في الدار، فأخبرهم أن العير قد أفلتت، وأن قريشاً قد أقبلت ل تمنع عن عيرها، وأن الله قد أمرني بمحاربتهم، فجزع أصحاب رسول الله ﷺ من ذلك، وخافوا خوفاً شديداً. فقال رسول الله ﷺ: «أشيروا علي» فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله، إنها قريش وخيلاؤها، ما آمننت منذ كفرت، ولا دلت منذ عزت، ولم تخرج على هيئة الحرب.

فقال رسول الله ﷺ: «اجلس» فجلس، فقال: «أشيروا علي»، فقام عمر فقال مثل مقالة أبي بكر، فقال: «اجلس»، ثم قام المقداد فقال: يا رسول الله، إنها قريش وخيلاؤها، وقد آمن بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به حق من عند الله، ولو أمرتنا أن نخوض جمر الغضى وشوك الهراس^٢ لخضنا معك، ولا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^٣ ولكننا نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فجزاء النبي ﷺ خيراً فجلس.

١. الصفراء: وإد من ناحية المدينة، كثير النخل والزرع، بينه وبين بدر مرحلة.

٢. الغضى: جمع غصاة، وهي شجرة الأثل صلبة الخشب، وجمره يبقى زماناً طويلاً، والهراس: شجر كبير من

٣. المائدة: ٢٤/٥.

الفصيلة الغزبية، وله شوك كأنه الحسك.

ثم قال: «أشيروا عليّ»، فقام سعد بن معاذ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، كأنك أردتنا، قال: «نعم»، قال: فلعلك خرجت على أمرٍ قد أمرت بغيره، قال: «نعم»، قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إننا قد آمنّا بك وصدّقناك وشهدنا أنّ ما جئت به حقٌّ من عند الله، فمَرْنَا بما شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، واترك منها ما شئت، والذي أخذت منه أحبّ إليّ ممّا تركت، والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضنا معك.

ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، والله ما خُضت هذا الطريق قطّ، ومالي به علم، وقد خَلَفْنَا بالمدينة قوماً ليس نحرُّ بأشدّ جهاداً لك منهم، ولو علموا أنّه الحرب لَمَا تَخَلَّفُوا، ولكن تُعِدُّ لك الرّواحل ونلقَى عدونا، فإنّا صَبَرْنَا عند اللقاء أنجاد في الحرب، وإنّا لَنرجو أن يُقَرَّ الله عينك بنا، فإن يَكْ ما تُحبّ فهو ذاك، وإن يَكْ غير ذلك فقدت على رواحلك فلجِئت بقومنا.

فقال رسول الله ﷺ: «أَوْ يُحَدِّثُ اللهُ غَيْرَ ذَلِكَ، كَأَنِّي بِمَصْرَعِ فَلَانِ هَاهُنَا، [وَبِمَصْرَعِ فَلَانِ هَاهُنَا] وَمَصْرَعِ أَبِي جَهْلٍ، وَغَتَبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَمُثَنَّبَةَ وَثَيْبَةَ ابْنِي الْحِجَّاجِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَلَنْ يُخْلَفَ اللهُ الْمِعَادَ» فنزل جبرئيل [على رسول الله ﷺ] بهذه الآية ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾^١ الآية.

قيل: إنّ المعنى (أخرجك ربك) كان^٢ تزكّ التوجّه إلى العير وتؤثر عليه مقاتلة النّفير في حال كراهة فريق من أصحابك ما أثرته من مُحاربة النّفير^٣.

وَهُمْ ﴿يَجَادِلُونَكَ﴾ وَيُخَاصِمُونَكَ ﴿فِي الْحَقِّ﴾ الَّذِي هُوَ تَلَقَّى النّفير لِإِيثارهم عليه تَلَقَّى العير ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ وَظَهَرَ لَهُمْ بِإِعْلَامِكَ أَنَّهُمْ يَنْصَرُونَ أَيْنَمَا تَوَجَّهُوا، قِيلَ: كَانُوا يَقُولُونَ: مَا كَانَ خُرُوجُنَا إِلَّا لِلْعِيرِ، وَهَلَّا قُلْتُ إِنَّ الْخُرُوجَ لِمُقَاتَلَةِ النّفير لَنَسْتَعِدَّ وَنَتَأَهَّبَ؟ فَخَرَجُوا كَارْهِينَ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ﴾ بِالْعَنْفِ ﴿إِلَى الْمَوْتِ﴾ وَالْقَتْلِ ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إِلَى أَمَارَاتِ الْمَوْتِ وَأَسْبَابِهِ وَيُشَاهِدُونَهَا عِيَاناً، وَمَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَرْئِيَّةُ مِنَ الْخَوْفِ إِلَّا لِقِلَّةِ عَدَدِهِمْ وَعَدَمِ تَأْهِبِهِمْ. وَقَدْ مَرَّ أَنَّهُ كَانَ عَدَدُهُمْ ثَلَاثِمِائَةً وَثَلَاثَةَ عَشَرَ، وَأَمَّا تَأْهِبُهُمْ فَقَدْ رُوي أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ إِلَّا فَارَسَانِ: الزُّبَيْرُ وَالْمِقْدَادُ، وَلَهُمْ سَبْعُونَ بَعِيرًا، وَسِتُّ أَدْرَعٌ، وَثَمَانِيَةُ أَسْيَافٌ^٤.

وَإِذْ يَبْعِدُكُمْ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَهِ

٢. في تفسير روح البيان: أخرجك ربك من بيتك لأن.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٣١٦.

١. تفسير القمي ١: ٢٥٦، تفسير الصافي ٢: ٢٧١.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٣١٦.

تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ
الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ * إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ
لَكُمْ أَنَّى مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْدِفِينَ [٧ و ٩]

ثم شرع سبحانه في بيان وقعة بدر وكراهة قومه إياها، وكيفية نصرته نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ
اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ العير أو الثمير ﴿أَنَّهُا﴾ تكون ﴿لَكُمْ﴾ ومختصة بكم ﴿و﴾ أنتم ﴿تَوَدُّونَ﴾
وتحبون ﴿أَنَّ عَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ﴾ والقوة من الطائفتين، وهي العير ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ حيث لم يكن فيها
إلا أربعون رجلاً، وذات الشوكة منهما، وهي الثمير، فإنه كان عددهم ألفاً، أو قريباً منه ﴿و﴾ لكن
﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ إرادة تكوينية من توجيهكم إلى ذات الشوكة ﴿أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ ويثبت ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾
وآياته الدالة عليه ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ويستأصلهم ويهلكهم بشيوف المسلمين.

ثم أكد سبحانه التعليل بقوله: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ ويظهر دين الإسلام والتوحيد ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾
ويمحو من أرض الحجاز الباطل ومذهب الشرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ ذلك ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ والطغاة
العاصون.

قيل: إن المراد من الأول بيان سبب اختلاف الإرادتين، ومن الثاني بيان حكمة توجيه الرسول ﷺ
إلى الثمير.

وفي رواية الثمري: فأمر رسول الله ﷺ بالرحيل حتى نزل عشاء ماء بدر، وهي الغدوة^١ الشامية،
وأقبلت قريش فنزلت بالغدوة اليمنية، وبعثت عبيدها تستعذب من الماء، فأخذهم أصحاب رسول
الله ﷺ وحبسوهم، فقالوا [لهم]: من أنتم؟ قالوا: نحن عبيد قريش، قالوا: فأين العير؟ قالوا: لا علم لنا
بالعير، فأقبلوا يضربونهم، وكان رسول الله ﷺ يصلي، فانفث من صلاته فقال: «إن صدقكم
ضربتموهم، وإن كذبوكم تركتموهم، علي بهم»، فأتوا بهم، فقال لهم: «من أنتم؟» قالوا: يا محمد، نحن
عبيد قريش، قال ﷺ: «كم القوم؟» قالوا: لا علم لنا بعددهم، قال: «كم ينحرون في كل يوم جزواً؟»
قالوا: تسعة إلى عشرة، فقال رسول الله ﷺ: «القوم تسعمائة إلى ألف» قال: «فمن فيهم من بني
هاشم؟» قالوا: العباس بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب، فأمر رسول الله ﷺ
بهم فحبسوا.

وبلغ قريشاً ذلك، فخافوا خوفاً شديداً، ولقي عتبة بن ربيعة أبا البختري بن هشام فقال [له]: أما

١. الغدوة: المكان المرتفع أو شاطئ الوادي وجانبه.

ترى هذا البغي، والله ما أبصر موضع قدمي، خرجنا لنمنع عيرنا وقد افلثت، فجئنا بغياً وعدواناً، والله ما أفلح قوم قط بغوا، ولَوَدِدْتُ أَنْ ما في العير من أموال بني عبد مناف ذهب كله ولم نسير هذا المسير. فقال له أبو البَخْرِي: إِنَّكَ سَيِّدٌ من سادات قُرَيْش، فَيَسِرُ في النَّاسِ وتحمل العير التي أصابها محمد وأصحابه بنخلة، ودَمَ ابن الحَضْرَمي فَإِنَّهُ حليفك.

فقال عتبة: أنت تُشير عليّ بذلك ولا لأحد^١ مِنَّا خلاف إلا ابن حنظلة - يعني أبا جهل - فسير إليه وأعلمه أَنِّي تحمَلْتُ العير التي أصابها محمد ودَمَ بن الحَضْرَمي.

فقال أبو البَخْرِي: فقصدت خيابه، فإذا هو قد أخرج دِرْعاً له فقلت له: إِنَّ أبا الوليد بعثني إليك برسالة، فغضب ثم قال: أما وجد عتبة رسولاً غيرك؟ فقلت: أما والله لو أرسلني غيره ما جئت، ولكن أبا الوليد سَيِّدُ العشيرة، فغضب غضباً آخرى فقال: تقول سَيِّدُ العشيرة، فقلت: أنا أقول وقُرَيْش كلها تقول إِنَّهُ [قد] تحمَلُ العير ودَمَ ابن الحَضْرَمي.

فقال: إِنَّ عتبة أطول الناس لساناً، وأبلغهم في الكلام، ويتعصب لمحمد، فَإِنَّهُ من بني عبد مناف، وابنه معه، ويُريد أن لا يخذله بين الناس، لا واللَّاتِ والعَزَى حتَّى تُقْحَمَ عليهم بيثرب، ونأخذهم أسارى، فتدخلهم مكة، وتتسامع العرب بذلك، فلا يكون بيننا وبين متجنرا أحد نكرهه. وبلغ أصحاب رسول الله كثرة قُرَيْش، ففرعوا فرعاً شديداً، وشكوا وبكوا واستغاثوا الخبر^٢.

وفي رواية عامية: أَنَّهُمْ لَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُ لا بُدَّ مِنَ الْقِتَالِ، جعلوا يدعون الله قائلين: أَيُّ رَبٍّ انصُرنا على عدوك، يا غياث المستغيثين أغثنا^٣.

وروي أَنَّ رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو ويقول: اللَّهُمَّ أَنْجِرْ [لي] ما وعدتني، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ لا تُعْبَدُ في الأرض. فما زال كذلك حتَّى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفَّاكَ مُنَاشَدَتَكَ رَبِّكَ، فَإِنَّهُ سَيَنْجِزُ ما وعدك^٤.

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ الْتُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ

٢. تفسير القمي ١: ٢٦٠، تفسير الصافي ٢: ٢٧٥.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٣١٨.

١. في المصدر: بذلك وما على أحد.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٣١٧.

بِهِ الْأَقْدَامَ [١٠ و ١١]

فذكرهم سبحانه ذلك الوقت بقوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ وتسالونه النصر والغلبة على عدوكم ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وأنجح مسألتكم بأن أوحى إلى رسوله ﷺ ﴿أَنْتُمْ مُجِدُّكُمْ﴾ ومُؤَيِّدُكُمْ ﴿بِالْغَلَبِ﴾ مقاتل ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ حال كونهم ﴿مُؤَيِّدِينَ﴾ ومتابعين بعضهم إثر بعض، أو متابعين للمسلمين.

ثم نبه سبحانه على غناه في نصر المسلمين عن الملائكة، وإنما كان إنزالهم ليراهم المسلمون فتطمئن بهم قلوبهم، ويفرحوا برؤية أنصارهم، بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ﴾ أيها المسلمون وما أنزلهم ﴿إِلَّا﴾ ليكون نزلهم ﴿بُشْرَى﴾ لكم وموجباً لشرور قلوبكم بمشاهدة سبب نصركم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ بإمدادهم وتستقر ﴿بِهِ﴾ من التزلزل الحاصل من الوجل من كثرتهم وشوكتهم، وقلة عددكم وعدتكم ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ فإن نظركم إلى الأسباب ﴿وَمَا النَّصْرُ﴾ والغلبة لأحد ﴿إِلَّا مِنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وبقدرته وإرادته ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ وغالب على خلقه، وقوي على إنفاذ إرادته بلا حاجة إلى شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في فعله، شراع للمصالح فيها.

قيل: إن الملائكة لم يقاتلوا مستدلاً بهذه الآية، وقيل: إنهم قاتلوا وقتلوا مستدلاً بالروايات. روي عن ابن مسعود أنه قال له أبو جهل: من أين الصوت الذي كنا نسمع ولا نرى شخصاً؟ قال: هو من الملائكة، فقال أبو جهل: هم غلبونا لا أنتم^١.

وروي أن رجلاً من المسلمين بينما هو يشتد في أثر رجل من المشركين إذ سمع صوت ضربه بالسوط فوقه، فنظر إلى المشرك وقد خرّ مستلقياً وقد شقّ وجهه، فحدث الأنصاري رسول الله ﷺ فقال: صدقت، ذاك من مدد السماء^٢.

ثم أنه روى بعض أصحابنا أن رسول الله ﷺ نزل في موضع لا تثبت فيه القدم لكثرة الزل، فلما أمسى رسول الله ﷺ وجّه الليل ألقى على أصحابه النعاس حتى ناموا، وأختمل في تلك الليلة بعضهم، فأنزل الله عليهم السماء، فذكرهم الله سبحانه تلك المنة بقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمْ...﴾^٣.

وعن بعض العامة: أن رسول الله ﷺ سار بأصحابه حتى نزلوا في كتيب أعفر - أي في تل من الزل الأحمر - تشوخ فيه الأقدام - أي تدخل فيه وتغيب - وعلى غير ماء، بالجانب الأقرب من المدينة من الوادي، ونزل المشركون بجانبه الأبعد من المدينة الأقرب إلى مكة والوادي بينهما، ثم

٢. تفسير الرازي ١٥: ١٣٠.

١. تفسير الرازي ١٥: ١٣٠.

٣. تفسير القمي ١: ٢٦١.

باتوا ليلتهم وناموا، ثم استيقظوا وقد أجنب أكثرهم، وغلب المشركون على ماء بدر وليس معهم ماء، فتمثل لهم الشيطان فوسوس إليهم وقال: أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق، وأنكم أولياء الله وفيكم رسوله، وأنكم تصلون على غير وُضوء وعلى الجنابة، وقد عطشتم، ولو كنتم على الحق ما سبقكم المشركون إلى الماء، وما غلبوكم عليه، وما ينتظرون إلا أن تضعفكم العطش، فإذا قطع أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة: فحزنوا حزناً شديداً وأشفقوا، فأنزل الله عليهم المطر ليلاً حتى سال الوادي وامتلاً من الماء، فاغتسل المسلمون وتوضأوا وشربوا وسقوا دوابهم، وبنوا على عُدوته - أي جانبه - حياضاً، واشتد الرَّمْل وتلبدت بذلك أرضهم - وأوحلت أرض عدوهم - حتى ثبَّت عليها الأقدام، وزالت وسوسة الشيطان، فطابت نفوسهم، وقيت قلوبهم. وتهيأوا للقتال من الغد^١.

فذكرهم الله ذلك بقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمْ﴾ ويحيط بكم ﴿الْغَمَاسُ﴾ والنوم الخفيف العارض في البدء؛ لأنه وجدث قلوبكم ﴿أَمَنَةً﴾ من ضرر العدو لا كلاً ولا إعياء، وتلك الأمانة كانت ﴿مِنْهُ﴾ تعالى وبلطفه، لا بالآمارات والأسباب العادية ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ الله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ حال كونكم نائمين ﴿مِنْ السَّمَاءِ مَاءً﴾ نافعاً مباركاً ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ من حدث الجنابة وغيره ﴿وَيَذْهَبَ﴾ ويزيل ﴿عَنْكُمْ﴾ ذلك المطر ﴿رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ وسوسته المخوفة لكم، والشكوك العارضة لقلوبكم - وقيل: أريد بالرَّجْز الجنابة - ﴿وَلِيُزِيلَ عَنْ قُلُوبِكُمْ﴾ ويقوِّمها بالثقة بلطفه وتأيده ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ منكم على الأرض حتى تتمكنوا وتقدرُوا على المشي والكرّ بشهوله، وقيل: يعني يثبت أقدامكم في الحرب.

عن القمي رحمته الله: ﴿وَيَذْهَبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ وذلك أن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله احتلم - إلى أن قال - وكان المطر على قریش مثل الغزالي^٢، وكان على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله رذاذاً بقدر ما تلبّد به الأرض، وخافت قریش خوفاً شديداً فأقبلوا يتحارسون ويخافون البيات، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود فقال: «ادخلوا في القوم وآتونا بأخبارهم». فكانا يجولان بعسكرهم فلا يرون إلا خائفاً ذعيراً، إذا صهل الفرش وثب على جحفلة^٣، فسمِعوا مُنْبَةَ بن الحجاج يقول:

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٢٠.

٢. الغزالي: جمع غزلاء، وهي مصب الماء من القرية، كناية عن شدته.

٣. الجحفلة: شفة الفرس، بمعنى أنه يريد إسكانه عن الصهيل.

لَا يَتْرُكُ الْجُوعُ لَنَا مَبِيتًا لَا يَبْدُ أَنْ نَمُوتَ أَوْ نُحْيَا

قالوا: ^١ والله كانوا شيباعاً، ولكنهم من الخوف قالوا هذا، وألقى الله في قلوبهم الرعب، كما قال الله تعالى: ﴿سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ ^٢.

فلما أصبح رسول الله ﷺ عباً أصحابه، وكان في عسكر رسول الله ﷺ فرسان، فرس للزبير بن العوام، وفرس لِمُقَدَّاد، وكان في عسكره سبعون جملًا يتعاقبون عليها، وكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب عليه السلام ومُرْتَد بن أبي مُرْتَد العنوي على جمل يتعاقبون عليه والجمل لمرثد، وكان في عسكر قُرَيْش أربعمائة فرس، فعَبَّ رسول الله ﷺ أصحابه بين يديه فقال: «غَضُوا أَبْصَارَكُمْ، وَلَا تَبْدُرُوهُمْ بِالْقِتَالِ، وَلَا يَتَكَلَّمَنَّ أَحَدٌ».

فلما نظرت قُرَيْش إلى قِلَّة أصحاب رسول الله قال أبو جهل: ما هم إلا أَكَلَةُ رَأْسٍ ^٣، لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد، فقال عتبة بن ربيعة: أترى لهم كميناً ومَدَدًا؟ فبعثوا عمرو بن وهب الجحفي، وكان فارساً شجاعاً، فجال بفروسه حتى طاف [على] عسكر رسول الله، ثم صَعِدَ في الوادي وصَوَّت، ثم رجع إلى قُرَيْش فقال: ما لهم كمين ولا مَدَد، ولكن نواضح يثرب قد حملت الموت الناقع، أما ترونهم خُرُوساً لا يَتَكَلَّمُونَ يَلْمِظُونَ الْأَفَاعِي، ما لهم ملجأ إلا سيوفهم، وما أراهم يولّون حتى يُقْتَلُوا، ولا يُقْتَلُونَ حَتَّى يَقْتُلُوا بَعْدَهُمْ، فارتأوا رأيكم. فقال له أبو جهل: كَذَبْتَ وَجَبْتِ وانتفخ سخرُك ^٥ حين نظرت إلى سيوف أهل يثرب.

وفزع أصحاب رسول الله حين نظروا إلى كَثَرَةِ قُرَيْش وَقُوَّتِهِمْ، فأنزل الله على رسوله ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ^٦، وقد علم الله أنهم لا يجنحون ولا ينجييون إلى السلم، وإنما أراد بذلك تطيب قلوب أصحاب النبي، فبعث رسول الله ﷺ إلى قُرَيْش فقال: «يا مَعْشَرَ قُرَيْش، ما أحد [من العرب] أبغض إليّ من أن أبدأكم، فخلّوني والعرب، فإن ألك صادقاً فأنتم أعلا بيّ عينا، وإن ألك كاذباً فكفّتم دُوبان العرب أمري؛ فارجعوا».

فقال عتبة: والله ما أفلح قطّ الذين رَدُّوا هذا. ثم ركب جملاً له أحمر، فنظر إليه رسول الله ﷺ وهو يجول في العسكر وينهى عن القتال، فقال: «إِنْ يَكُنْ عِنْدَ أَحَدٍ خَيْرٌ، فَعِنْدَ صَاحِبِ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ، إِنْ يُطِيعُوهُ يَرْضُدُّوهُ».

١. في تفسير القمي: قال ﷺ.

٢. الأنفال: ١٢/٨.

٣. أي قليل يُشبههم رأس واحد.

٤. في القمي: عمر.

٥. الأنفال: ٦١/٨.

٦. السخر: كل ما تعلق بالحلوم من قلب ورتة، بمعنى: خِفْتُ وَجَبْتُ.

فأقبل عُتْبَةُ يقول: يا معشر قُرَيْشٍ، اجتمعوا واسمَعُوا، ثُمَّ خَطَبَهُمْ فقال: يُنَمُّنُ مع رَحْبٍ، وَرَحْبٌ مع يُنَمْنٍ، يا معشر قُرَيْشٍ أطيعوني اليومَ وأغصوني الدَّهْرَ، وازجِعُوا إلى مَكَّةَ و[اشربوا] الخُمُورَ وعانقُوا الخُورَ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا لهُ إِلٌّ وَذِمَّةٌ وَهُوَ ابْنُ عَمِّكُمْ، فارجِعُوا وَلَا تَزِدُوا قَوْلِي^١، وَإِنَّمَا تُطَالِبُونَ مُحَمَّدًا بِالْبَيْرِ التي أَخَذَهَا بَنُخْلَةَ، وَدَمَ ابْنُ الْحَضْرَمِيِّ وَهُوَ حَلِيفِي وَعَلِيَّ عَقْلُهُ^٢.

فلَمَّا سَمِعَ أَبُو جَهْلٍ ذلك غَاظَهُ وقال: إِنَّ عُتْبَةَ أطولَ النَّاسِ لِسَانًا وَأبلغَهُمْ كَلَامًا، ثُمَّ قال: يا عُتْبَةُ، نَظَرْتُ إلى شُيُوفِ بَنِي عَبْدِ الْمُطَلِّبِ وَجِبْنَثُ وَانْتَفَخَ شَحْرُوكَ، وَتَأَثَّرَ النَّاسُ بِالرُّجُوعِ وَقَدْ رَأَيْنَا نَارَنَا بِأَعْيُنِنَا، فَنَزَلَ عُتْبَةُ عَنْ جَمَلِهِ وَحَمَلَ عَلَى أَبِي جَهْلٍ، وَكَانَ عَلَى فَرَسٍ، فَأَخَذَ بِشَعْرِهِ فَقَالَ النَّاسُ: يَقْتُلُهُ^٣، فقال: أَتُمْلِي يَجِبْنَ؟! وَسَتَعْلَمُ قُرَيْشُ الْيَوْمَ أَتَيْنَا أَلَامَ وَأَجِبْنَ، وَأَتَيْنَا الْمُفْسِدَ لِقَوْمِهِ، لَا يَمْشِي إِلَّا أَنَا وَأَنْتَ إِلَى الْمَوْتِ عِيَانًا، ثُمَّ قال:

هَذَا جَنَائِي وَخِيَارُهُ فِيهِ وَكُلُّ جَانٍ يَدُهُ فِيهِ.

ثُمَّ أَخَذَ بِشَعْرِهِ يَجْرُهُ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْوَلِيدِ، اللَّهُ [الله] لَا تَقُتْ فِي أَعْضَادِ النَّاسِ، تَنْهَى عَنْ شَيْءٍ وَتَكُونُ أَوَّلُهُ، فَخَلَصُوا أَبَا جَهْلٍ مِنْ يَدِهِ.

فَنَظَرَ عُتْبَةُ إِلَى أَخِيهِ شَيْبَةَ وَنَظَرَ إِلَى ابْنِهِ الْوَلِيدِ فقال: قُمْ يَا بَنِي، فَقَامَ ثُمَّ لَبَسَ دِرْعَهُ، وَطَلَبُوا لَهُ بَيْضَةً تَسَعُ رَأْسَهُ فَلَمْ يَجِدْهَا لِعِظَمِ هَامَتِهِ، فَاعْتَمَ بِعِمَامَتَيْنِ، ثُمَّ أَخَذَ سَيْفَهُ وَتَقَدَّمَ هُوَ وَأَخُوهُ شَيْبَةُ وَابْنُهُ الْوَلِيدُ وَنَادَى: يَا مُحَمَّدُ أَخْرِجْ إِلَيْنَا أَكْفَاءَنَا مِنْ قُرَيْشٍ، فَبَرَزَ إِلَيْهِ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: عَوْذٌ وَمُعَوَّذٌ وَعُوفٌ [مِنْ] بَنِي عَفْرَاءٍ فَقَالَ عُتْبَةُ: مَنْ أَنْتُمْ؟ انْتَسِبُوا لِنَعْرِفَكُمْ. فَقَالُوا: نَحْنُ بَنُو عَفْرَاءٍ أَنْصَارُ اللَّهِ وَأَنْصَارُ رَسُولِ اللَّهِ، فقال: ارْجِعُوا فَإِنَّا لَسْنَا بِإِيَّاكُمْ تُرِيدُ، إِنَّمَا تُرِيدُ الْأَكْفَاءَ مِنْ قُرَيْشٍ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «أَنْ ارْجِعُوا» فَرَجِعُوا، وَكَرِهَ أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ الْكِرَّةِ بِالْأَنْصَارِ، فَرَجِعُوا وَوَقَفُوا مَوْقِفَهُمْ.

ثُمَّ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ؛ وَكَانَ لَهُ سَبْعُونَ سَنَةً، فَقَالَ لَهُ: «قُمْ يَا عُبَيْدَةُ»، فَقَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالسَّيْفِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى حِمْزَةِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ فقال: «قُمْ يَا عَمُّ»، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ فقال له: «قُمْ يَا عَلِيٌّ»؛ وَكَانَ أَصْغَرُ الْقَوْمِ سِنًا فقال: «اطْلُبُوا بِحَقِّكُمْ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لَكُمْ، فَقَدْ جَاءَتْ قُرَيْشٌ بِخَيْلَانِهَا وَفَخَّرَهَا تُرِيدُ أَنْ تُطْفِئَ نَوْرَ اللَّهِ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نَوْرُهُ».

ثُمَّ قال: «يَا عُبَيْدَةُ عَلَيْكَ بِشَيْبَةَ»، وَقَالَ لِحِمْزَةَ: «عَلَيْكَ بِشَيْبَةَ»، وَقَالَ لِعَلِيِّ ﷺ: «عَلَيْكَ بِالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ»، فَمَرُّوا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْقَوْمِ، فَقَالَ عُتْبَةُ: مَنْ أَنْتُمْ انْتَسِبُوا لِنَعْرِفَكُمْ. فقال عُبَيْدَةُ: أَنَا عُبَيْدَةُ بْنُ

٣. زاد في المصدر: فعزب فرسه.

١. في المصدر: رأيي. ٢. أي دَيْتُهُ.

٤. في مغازي الواقدي ١: ٦٨ مُعَاذٌ، بدل: عَوْذ.

الحارث بن عبد المطلب، فقال: كُفُّوا كَريم. [فقال:] فَمَنْ هَذَا؟ فقال: حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب، فقال: كُفُّوا كَريمان، لعن الله مَنْ أوقفنا وإياكم هذا الموقف، فقال شَيْبة لحمزة: مَنْ أنت؟ فقال: أنا حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسود رسوله، فقال له شَيْبة: لقد لقيتَ أسدَ الحُلَفاءِ، فانظُر كيف تكون صَوَلتُك يا أسد الله؟

فحمل عُبيدة على عُتبة فضربه على رأسه ففلق هامته، وضرب عُتبة عُبيدة على ساقه فقطعها وسقطا جميعاً، وحمل حمزة على شَيْبة فتضاربا بالسيفين حتَّى انثما وكل واحد منهما يتقي بدرقته، وحمل أمير المؤمنين عليه السلام على الوليد بن عُتبة فضربه على حبل عاتقه فأخرج السيف من إبطه. فقال علي عليه السلام: «فأخذ يمينه المقطوعة بيَّساره فضرب بها هامتي، فظننت أن السماء وقعت على الأرض». ثم اعتنق حمزة وشيعة فقال المسلمون: يا علي أمارى الكلب قد بهر^١ عمك، فحمل عليه علي عليه السلام ثم قال: «يا عم طاطى رأسك» وكان حمزة أطول من شَيْبة، فأدخل حمزة رأسه في صدره، فضربه أمير المؤمنين عليه السلام على رأسه فطير نصفه، ثم جاء إلى عُتبة وبه رمق فأجهز عليه، وحمل عُبيدة بين حمزة وعلي حتَّى أتوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاستعبر، فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ألسْتُ شهيداً؟ قال: «بلى، أنت أول شهيد من أهل بيتي»، فقال: أما لو أن عمك كان حيّاً لعَلِمَ أني أولى بما قال منه، قال صلى الله عليه وآله وسلم: وأي أعمامي تعني؟ قال: أبو طالب، حيث يقول:

كذبتم وبيت الله نُبزى^٢ محمداً
ولما تُطاعن دونه وتُناضل
وتُسليمه حتَّى تُصرع حوله
ونذهل عن أبنائنا والحلائل^٣

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أمارى ابنه كاللث العادي بين يدي الله ورسوله، وابنه الآخر في جهاد الله بأرض الحبشة؟» فقال: يا رسول الله، أسخِطت علي في هذه الحالة؟ فقال: «ما سخِطت عليك، ولكن ذكرتَ عمي فانقبضتَ لذلك».

وقال أبو جهل لقريش: لا تعجلوا ولا تبطروا كما عجل وبطروا أبناء ربيعة، عليكم بأهل يثرب فأجزؤهم جزراً، وعليكم بقریش فخذوهم أخذاً حتَّى تُدخلهم مكة، فنعرَفهم صلاتهم التي كانوا عليها.

وكان فئة^٤ من قُريش أسلموا بمكة فحبسهم آباؤهم، فخرجوا مع قُريش إلى بدر وهم على الشك والازتياب والتناق؛ منهم: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكهة، والحارث بن ربيعة،

١. بهر: أي أجهدته حتَّى تنابع نفسه.

٢. أي تُسلب، وأراد لا يُبزى.

٣. أي تُسلب، وأراد لا يُبزى.

٤. أي تُسلب، وأراد لا يُبزى.

٥. أي تُسلب، وأراد لا يُبزى.

وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن المنبة، فلما نظروا إلى قلة أصحاب محمد ﷺ قالوا: مساكين هؤلاء غرهم دينهم فيقتلون الساعة.

إلى أن قال: فجاء إبليس إلى قریش في صورة شراقة بن مالك فقال لهم: أنا جاز لكم، ادفعوا إلي رايتمكم؛ فدفعوها إليه، وجاء بشياطينه يهول بهم على أصحاب رسول الله، ويخيل إليهم ويفزعهم، وأقبلت قریش يقدمها إبليس معه الزاية، فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال لأصحابه: «عصوا أبصاركم وعصوا على التواجد، ولا تسئلوا سيفاً حتى أذن لكم» ثم رفع يده إلى السماء فقال: «يا رب إن تهلك هذه العصابة لم تعبد، وإن شئت أن لا تعبد» لا تعبد، ثم أصابه الغشي فشرى عنه وهو يسئل العرق عن وجهه ويقول: «هذا جبرئيل قد أتاكم في ألف من الملائكة مردفين». قال: فنظرنا فإذا بسحابة [سوداء] فيها برق لانه قد وقعت على عسكر رسول الله ﷺ وقائل يقول: أقدم حيزوم، أقدم حيزوم [وسمينا قعقة السلاح من الجؤ. الخبر].^٢

إِذْ يُوحِي رُؤُوكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَتَىٰ مَعَكُمْ فَتَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ
الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *
ذَلِكُمْ قَدْ وُقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ [١٢-١٤]

ثم ذكر الله المسلمين وقت الربط على قلوبهم وثبتت أقدامهم بقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رُؤُوكَ﴾ قيل: إن التقدير: أذكر وقتاً يوحى ربك^٣ ﴿إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ المأمورين بنصرة المؤمنين ﴿أَتَىٰ مَعَكُمْ﴾ بالنصر والعون، وقيل: إن التقدير: أن قولوا للمؤمنين بالإلهام أو بتوسط الرسول: إن الله معكم ﴿فَتَبَّتُوا﴾ أيها الملائكة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في معركة القتال والنزال بتقوية قلوبهم وإيمانهم، وبشارتهم بالنصر، وتكثير سوادهم، وقولوا لهم: إني ﴿سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ منهم، والخوف من سطوتهم ﴿فَاضْرِبُوا﴾ أيها الملائكة، أو المؤمنون ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ وأعالها التي هي المذابح ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وأصابع. وقيل: إن المراد ضرب جميع الأعضاء من أعالها وأسافلها. ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من إلقاء الرعب في قلوب الكفار، وضرب أعضائهم ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا﴾ وعاندوا ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وعارضوهما ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ﴾ ويعاند ويعارض ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ويسعى في إطفاء

١. أي بمسحه وبزيله. ٢. تفسير القمي ١: ٢٦١، تفسير الصافي ٢: ٢٧٧.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٣٢١.

نُورهما ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ يُعَاقِبُهُ عِقَاباً شَدِيداً، لكونه تعالى ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على مَنْ أَشْرَكَ بِهِ وَعَادَهُ، وَعَادَى أَوْلِيَاءَهُ، وما نزل بهم في [هذا] اليوم قليل [إذا قيس] بما أَعَدَّ لَهُمْ وَحَكَمَ فِي حَقِّهِمْ.
﴿ذَلِكُمْ﴾ العذاب العاجل من القَتْلِ والخِزْي، أَيْهَا الْكَفَّار ﴿فَذُوقُوهُ﴾ واطْعَمُوا طَعْمَهُ فِي الدُّنْيَا
﴿وَعَلَّمُوا﴾ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ عَذَابٌ أَلَّارٌ الذي يكون ما نزل بكم بالنسبة إليه يسيراً في الغاية.

القَمِي ﷺ: وخرج أبو جهل بين الصَّفَيْنِ فقال: اللَّهُمَّ إِنَّ مُحَمَّدًا قَطَعْنَا الرَّحِمَ وَأَتَانَا بِمَا لَا نَعْرِفُهُ فَأَهْنِهِ الْغَدَاةَ - إلى أن قال القَمِي: - ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَفًّا مِنْ حَصَى فَرَمَى بِهِ فِي وَجْهِهِ قُرَيْشٍ وقال: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ»، فَبَعَثَ اللَّهُ رِيحاً تَضْرِبُ وَجْهَهُ قُرَيْشٍ، فَكَانَتِ الْهَزِيمَةُ^١، فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ وَأَسِرَ سَبْعُونَ.

والتقى عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ مع أَبِي جَهْلٍ، فَضْرَبَ [عَمْرُو] أَبَا جَهْلٍ عَلَى فَخْذِهِ، وَضْرَبَ أَبُو جَهْلٍ عَمْرًا عَلَى يَدِهِ، فَأَبَانَهَا مِنَ الْعَصْدِ فَتَعَلَّقَتْ بِجِلْدَةٍ، فَاتَّكَأَ عَمْرُو عَلَى يَدِهِ بِرَجْلِهِ، ثُمَّ نَزَا^٢ فِي السَّمَاءِ حَتَّى انْقَطَعَتِ الْجِلْدَةُ وَرَمَى بِيَدِهِ.

وقال عبد الله بن مسعود: انتهيتُ إلى أَبِي جَهْلٍ وهو يَتَشَحَّطُ بِدَمِهِ، فَقُلْتُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَاكَ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: إِنَّمَا أَخْرَى عَبْدُ بْنُ أُمِّ عَبْدِ^٣، وَلَمَنْ الدِّينَ، وَلَمَنْ الْمُلْكَ [وَيْلَكَ]؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَلِرَسُولِهِ، وَإِنِّي قَاتِلُكَ، وَوَضَعْتُ رِجْلِي عَلَى عُنُقِهِ، فَقَالَ: لَقَدْ ارْتَقَيْتُ مَرْتَقَى صَعْباً يَا زَوْيَعِي الْغَنَمَ، أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَشَدَّ مِنْ قَتْلِكَ إِنِّي فِي هَذَا الْيَوْمِ، لَا يُؤْلِي قَتْلِي إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُطَلْبِيِّينَ^٤ أَوْ رَجُلٌ مِنَ الْأَحْلَافِ، فَقُلْعْتُ بِيضَةً كَانَتْ عَلَى رَأْسِهِ فَقَتَلْتُهُ، وَأَخَذْتُ رَأْسَهُ وَجِئْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْبَشْرَى، هَذَا رَأْسُ أَبِي جَهْلٍ، فَسَجَدَ اللَّهُ شُكْرًا.

وَأَسَرَ أَبُو بَشْرٍ الْأَنْصَارِيُّ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَعَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَجَاءَ بِهِمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ ﷺ: «هَلْ أَعَانَكَ عَلَيْهِمَا أَحَدٌ؟» قَالَ: نَعَمْ، رَجُلٌ عَلَيْهِ ثِيَابٌ بَيْضُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ذَاكَ مِنَ الْمَلَانِكَةِ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْعَبَّاسِ: «أَفِدِ نَفْسَكَ وَابْنَ أَخِيكَ»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ

١. زاد في المصدر: فقال رسول الله ﷺ: «اللهم لا يفلتن فرعون هذه الأمة أبو جهل بن هشام».

٢. نزا: وف. ٣. في المصدر: إِنَّمَا أَخْرَى عَبْدُ بْنُ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ.

٤. في المصدر: هذا اليوم ألا تؤلي قتل رجل من المظننين، ولعل الصواب: الْمُطَلْبِيِّينَ، وحلف المطبئين: اجتمع بثو هاشم وبثو زهرة وبثم في دار ابن جُذَعَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَجَعَلُوا طَبِيباً فِي جَنْفَةٍ وَغَمَسُوا أَيْدِيَهُمْ فِيهِ، وَتَحَالَفُوا عَلَى التَّنَاصُرِ وَالْأَخْذِ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ فَسَمُوا الْمُطَلْبِيِّينَ، وَتَعَاقَدَتْ بَنُو عَبْدِ الدَّارِ مَعَ جَمْعٍ وَمَخْزُومٍ وَعُذِيٍّ وَكُثْبٍ وَسَهْمٍ هَلِفًا آخَرَ مُؤَكِّدًا، فَسَمُوا الْأَحْلَافَ لِذَلِكَ. النهاية ٣: ١٤٩.

الله، قد كنتُ أسلمتُ، ولكنَّ القوم استكروهوني، فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، إن يكن ما تذكر حقاً فالله يجزيك عليه، فأما ظاهر أمرك فقد كنتُ علينا». ثم قال: «يا عباس، إنكم خاصمتُم الله فخصمكم»، ثم قال: «أفد نفسك وابن أخيك» وقد كان العباس أخذ معه أربعين أوقية من ذهب، فغنمها رسول الله ﷺ، فلما قال رسول الله [للعباس]: «أفد نفسك وابن أخيك» قال: يا رسول الله، احسبها من فدائي، فقال رسول الله: «لا، ذاك شيء أعطانا الله منك، فأفد نفسك وابن أخيك»، فقال العباس: ليس لي مالٌ غير الذي ذهب مِنِّي، قال: «بلى، المال الذي خلّفته عند أم الفضل بمكة، وقلتُ لها: إن حدث عليَّ حدثٌ فاقسموه بينكم»، فقال له: تتركني^١ وأنا أسأل الناس بكفِّي؟!!

ثم قال رسول الله ﷺ لعقيل: «قد قتل الله أبا جهل بن هشام، وعُتْبة بن ربيعة، وثبّية بن ربيعة، ومُتَبِّة وبَيْتة ابني الحجاج، ونوفل بن خويلد، وأسير سهيل بن عمرو، والنضر بن الحارث بن كَلْدَةَ، وعُقبَةُ بن أبي مَعِيْط، وفلان وفلان»، فقال عقيل: إذا لا تنازع في يهامة، فإن كنت أنخنتُ القوم وإلا فاركب أكتافهم، فتبسم رسول الله ﷺ.

إلى أن قال القمي رحمه الله: فجمعوا الأسارى وفرّقوهم في الجمال^٢، وساقوهم على أقدامهم، وجمّعوا الغنائم. وقتل من أصحاب رسول الله تسعة رجال؛ فيهم سعد بن خَيْثَمَة، وكان من النّبأ.

فرحل رسول الله ﷺ ونزل الأثيل عند غروب الشمس، وهو من بدر على سِتَّة أميال، فنظر رسول الله ﷺ إلى عُقبَة بن أبي معيط وإلى النضر بن الحارث، وهما في قران واحد، فقال النضر لعقبَة: أنا وأنت مقتولان، فقال عُقبَة: من بين قريش؟ قال: نعم، لأنَّ محمداً قد نظر إلينا نظرةً رأيتُ فيها القتل. فقال رسول الله ﷺ: «يا عليّ عليّ بالنضر وعُقبَة» وكان النضر رجلاً جميلاً، عليه شعر، فجاء عليّ عليه السلام فأخذ بشعره، فجزّاه إلى رسول الله ﷺ، فقال النضر: يا محمداً أسألك بالرحم التي بيني وبينك إلا أجريتي كرجلٍ من قريش إن قتلتهُم قتلتي، وإن فاديتهم فاديتني، وإن أطلقتهم أطلقتني، فقال رسول الله ﷺ: لا رَحِمَ بيني وبينك، قطع الله [الرحم] بالإسلام. قدّمه يا عليّ فاضرب عُقبَة. [فقدّمه وضرب عُقبَة].

فقال عُقبَة: [يا محمداً] ألم تقل: «لا تُضَبِّر قريش» - أي لا يقتلون صبِراً - قال: «أو أنت من قريش؟! إنما أنت عِلْجٌ من أهل صَفُورِيَّة^٣، لأنت في الميلاد أكبر من أبيك الذي تدعى له، قدّمه يا عليّ

١. في المصدر: ما تتركني إلا.

٢. كذا في النسخة والصابي، وفي تفسير القمي: وقرنهم في الجمال، ولعله تصحيف: وقرنهم في الحبال.

٣. صَفُورِيَّة: بلدة بالأردن.

فاضرب عُنقه»، فَقَدَّمَهُ فاضرب عُنقه^١.

وعن ابن عباس: سَوَى أصحابِ رسول الله صُغُوفَهُمْ وَقَدَّمُوا رِايَاتَهُمْ، فَوَضَعُوا مَوَاضِعَهَا، فَوْقَ رسول الله ﷺ على بَعِيرٍ لَهُ يَدْعُو الله وَيَسْتَغِيثُ، فَهَبَطَ جَبْرِئِيلُ فِي خَمْسَمِائَةِ عَلَى مِيمَتِهِمْ، وَمِكَائِيلُ فِي خَمْسَمِائَةِ عَلَى مِيسَرَتِهِمْ، فَكَانَ الْمَلَكُ يَأْتِي الرَّجُلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صُورَةِ رَجُلٍ وَيَقُولُ لَهُ: دَنُوتُ مِنْ عَسْكَرِ الْمُشْرِكِينَ فَسَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ: وَالله لَئِنْ حَمَلُوا عَلَيْنَا لَا نَنْتَبِثَ لَهُمْ أَبَدًا، فَأَلْقَى اللهُ فِي قُلُوبِ الْكُفْرَةِ الرُّعْبَ بَعْدَ قِيَامِهِمْ لِلصَّفِّ^٢.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآذِينَ * وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [١٥ و ١٦]

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ اللهُ نِعْمَتَهُ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ بِالنَّبَاتِ وَالِاسْتِقامَةِ فِي الْحَرْبِ، أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ كَافَّةً بِالنَّبَاتِ فِي مُطْلَقِ جِهَادِ الْكُفَّارِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ﴾ وَصَادَفْتُمُ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فِي أَيِّ وَقْتٍ وَأَيِّ مَكَانٍ، حَالُ كَوْنِهِمْ ﴿زَحَفًا﴾ وَمُتَبَلِّينَ إِلَيْكُمْ لِلْقِتَالِ ﴿فَلَا تُولُوهُمُ الْآذِينَ﴾ وَلَا تَجْعَلُوا ظُهُورَكُمْ نُحُومَهُمْ فَضْلًا عَنِ الْفِرَارِ، وَإِنْ كَانُوا أضعَافَكُمْ.

ثُمَّ هَدَّاهُمْ سُبْحَانَهُ عَلَى الْفِرَارِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وَحِينَ التَّقَانُهِمْ ﴿دُبرَهُ﴾ وَجَعَلَ ظَهْرَهُ نُحُومَهُمْ بِأَيِّ دَاعٍ مِنَ الدَّوَاعِي ﴿إِلَّا﴾ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْلَى ﴿مَتَحَرِّفًا﴾ وَمَانِلًا إِلَى طَائِفَةِ أُخْرَى ﴿لِقِتَالٍ﴾ أَوْ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى لِيَتَخَيَّلَ الْكَافِرُ أَنَّهُ انْهَزَمَ فَيَتَعَاقِبَهُ وَيُبْعِدُ عَنْ أَعْوَانِهِ، ثُمَّ يَكْزُرُ عَلَيْهِ وَحْدَهُ ﴿أَوْ﴾ يَكُونَ ﴿مَتَحَيِّرًا﴾ وَمُتَوَجِّهًا ﴿إِلَى فِتْنَةٍ﴾ وَجَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِيَسْتَعِينَ بِهِمْ، فَلَيْسَ الْمُؤْلَى فِي هَاتَيْنِ الصُّورَتَيْنِ فَارًّا مِنَ الْقِتَالِ، بَلْ هُوَ مُتَهَيِّئٌ وَمُتَقَوٌّ لِلْحَرْبِ، وَمَنْ تَوَلَّى لِغَيْرِ هَذَيْنِ الْغَرَضَيْنِ ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ﴾ شَدِيدٍ كَانَتْ مِنْهُ ﴿مِنْ أَقْبَى﴾ الْقَاهِرِ الْغَالِبِ، وَأَثَرُ هَذَا الْغَضَبِ أَنْ يَكُونَ مَنْزِلُهُ ﴿وَمَاوَاهُ﴾ فِي الْآخِرَةِ النَّارَ الْمُوقَدَةَ بِذَلِكَ الْغَضَبِ، تَسْمَى ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وَالْمَرْجِعُ تِلْكَ، فَلَا تَرْجِعُوا مِنْ مُقَابِلِ الْكُفَّارِ إِلَى مَاوَى تَأْمَنُونَ فِيهِ مِنَ الْقَتْلِ حَتَّى لَا تَبْتَغُوا بِالرُّجُوعِ إِلَى مَاوَى مِنَ النَّارِ.

عَنِ الْكَاسِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، ﴿إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ قَالَ: «مُتَطَرِّدًا يُرِيدُ الْكَزَّةَ عَلَيْهِمْ ﴿أَوْ مَتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾ يَعْنِي مُتَأَخِّرًا إِلَى أَصْحَابِهِ مِنْ غَيْرِ هَزِيمَةٍ، فَمَنْ انْهَزَمَ حَتَّى يَجُوزَ صَفَّ أَصْحَابِهِ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ»^٣.

١. تفسير القمي ١: ٢٦٧، تفسير الصافي ٢: ٢٨٣.

٢. تفسير روح البيان ٣: ٣٢٢.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٨٨/١٧١١، تفسير الصافي ٢: ٢٨٦.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ
الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَلِكَمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوْهِنُ كَيْدِ
الْكَافِرِينَ [١٧ و ١٨]

ثم قوى سبحانه قلوب المؤمنين في الجهاد ببيان أنه هو القاهر للأعداء وقاتلهم وهزمهم كما
قتلهم وهزمهم بيدر، بقوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ في غزوة بدر بقوتكم وقدرتكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ بقدرته
﴿قَتَلَهُمْ﴾ حيث قوى قلوبكم، وأزال عنكم الخوف، وأيدكم بالملائكة، وألقى في قلوبهم الرعب
﴿وَمَا رَمَيْتُ﴾ الحصى أو الثراب في وجوه قريش يوم بدر ﴿إِذْ رَمَيْتُ﴾ الحصى أو الثراب يا محمد
﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ في الحقيقة ﴿رَمَى﴾ حيث إنه أمرك بالرمي، وأوصل الحصاة إلى عيون المشركين.

رؤي أنه لما طلعت قريش من العتقل - وهو الكتيب الذي جاءوا منه إلى الوادي - قال ﷺ: «اللهم
هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها، يكذبون رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدتني» فأتاه جبريل
فقال: خذ قبضة من ثراب فازمهم بها، فلما التقى الجمعان قال لعلي عليه السلام: «أعطني من صباء الوادي»،
فرمى بها في وجوههم وقال: «شاهت الوجوه» - أي قُبِحت - فما من المشركين أحد إلا أصاب عينه
ومِنْخَرِه ثراب، فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، ثم لما انصرفوا من المعركة غالبين
غانمين، أقبلوا على التفاوض يقولون: قتلنا وأسرت وفعلت وتركنا، فنزلت^١.

فحاصل الآية أن الرمي وإن كان بيدك، إلا أن إيصال ذرات الحصى في وجوه جميع المشركين؛
بحيث لم يبق فيهم عين إلا أصابها منه، لم يكن إلا بقدرة الله تعالى وعلى خلاف العادة.

وإنما فعل ذلك ليمحق الكافرين ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ويمتحنهم ﴿مِنْهُ بَلَاءً﴾ وامتحاناً ﴿حَسَنًا﴾
ليعلم أنهم يقومون بشكره أم لا. وقيل: يعني: لينعم عليهم نعمة عظيمة من النصر والغلبة ومشاهدة
الآيات ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم واستغاثتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ ببيئاتهم وصفاء ضمائرهم، وانقطاعهم عن
الأسباب.

﴿ذَلِكَ﴾ البلاء الحسن للمؤمنين إحدى العلل، والثانية: أن يعلم المؤمنون أن الله مؤيدهم ﴿وَأَنَّ
اللَّهَ مُوْهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ ومبطل حيلهم في إطفاء نور الحق، والإخلال في أمر نبيه ﷺ.

وقيل: نزل قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتُ﴾ في يوم خيبر، فأخذ رسول الله ﷺ قوساً وهو على باب خيبر
فرمى سهماً، فأقبل السهم حتى قتل ابن أبي الحقيق، فنزلت^٢.

وقيل: نزلت في أحد، وذلك أنه أتى النبي ﷺ خلف بعظم رميم وقال: يا محمد، من يحيي هذا وهو رميم؟ فقال ﷺ: يحييه الله [ثم يميتك، ثم يحيك]، ثم يدخلك النار. فأير يوم بدر، فلما افتدي قال لرسول الله ﷺ: إن عندي فرساً أعتقها كل يوم فرقاً^١ من ذرة كي أقتلك عليها، فقال ﷺ: «بل أنا أقتلك إن شاء الله».

فلما كان يوم أحد أقبل أبي بكر رضي الله عنه على ذلك الفرس حتى دنا من رسول الله ﷺ، فاعترض له رجال من المسلمين ليقتلوه، فقال ﷺ: «استأخروا»، ورماه بحربة فكسر ضلعاً من أضلاعه، فحمل فمات ببعض الطريق، فنزلت^٢.

ثم أنه روي أن أهل مكة لما أرادوا الخروج إلى بدر تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الجزين، وأفضل الديتين^٣.

وروي أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم انصر أفضل القرين وأحقهما بالنصر، اللهم أينما أقطع للرجم وأفسد للجماعة فاقته^٤.

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ [١٩]

فبين الله استجابة دعائهم في حق المؤمنين بقوله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ وتسنبروا يا أهل مكة لأعلى الجندين ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ من قبل الله ﴿الْفَتْحُ﴾ والنصرة. وذلك على سبيل التهكم. وقيل: إن التهكم في إطلاق الفتح على الهزيمة والخزي.

ثم وعظهم بقوله: ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ وتردعوا عن الكفر والعناد والعصيان ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من البقاء عليها والابتلاء بالحرب ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ إلى محاربة الرسول ﴿نَعُدْ﴾ إلى نصرته وتأييده، ويخذلانكم وقهركم ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ﴾ ولن تكف، أو لن تدفع ﴿عَنْكُمْ فِتْنَتَكُمْ﴾ وجماعتكم التي تجمعونها ﴿شَيْئاً﴾ من الإغناء ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ الفتنة عدداً وعدة ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ أن الله بالنصر والعون ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بتوحيده وبرسوله وكتابته.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ

٢. تفسير الرازي ١٥: ١٤٠.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٣٢٨.

١. الفرق: مكبال بالمدينة يسع ثلاثة أصح.

٣. تفسير الرازي ١٥: ١٤٢.

أَلْبِكُمْ الَّذِينَ لَا يَفْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ
لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ [٢٣-٢٠]

ثم أنه تعالى بعد الأمر بالثبات في جهاد الكفار والتهديد على التولي عنهم، أمر بالثبات في طاعة الرسول، وعدم التولي عنه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في جميع أوامره ونواهيه ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾ ولا تعرضوا ﴿عَنَّهُ﴾ ولا تخالفوه في شيء من الأمور ﴿وَأَتْتُم تَسْمَعُونَ﴾ القرآن الذي أنزله الله عليه، الدال على ثبوته بأشيماله على معاجز كثيرة، الناطق بوجوب طاعته ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿كَالَّذِينَ﴾ إذا ثلث عليهم آيات الله ﴿قَالُوا﴾ بالسستهم: ﴿سَمِعْنَا﴾ تلك الآيات سماع فهم وقبول ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع القبول عن صميم القلب، ولا يتفغون بها شيئاً، بل يستهزئون بها سراً ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ والحيوانات التي تدب وتتحرك في الأرض، أو البهائم التي تمشي على أربع، وأحسها ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي حكمه ﴿الْأَسْمُ﴾ الذين لا يسمعون الحق و﴿أَلْبِكُمْ﴾ الذين لا ينطقون به ﴿الَّذِينَ لَا يَفْقِلُونَ﴾ الحق ولا يدركونه ولا يميزون بينه وبين الباطل، فمن لم يسمع الآيات الإلهية سماع القبول، ولم يفهمها حق الفهم، فهو شر منهم عند الله، وإنما كان اتصافهم بذلك الرذائل لعدم الخير فيهم أصلاً ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ سيما من جهة قابلية الذات وطيب الطينة ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ الآيات والمواظ، وفهمهم معانيها وحقائقها ﴿وَو﴾ لكن خبث ذاتهم وطبعتهم بحيث ﴿لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾ عن قبولها، وما انتفعوا من سماعها ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عنها غير مُعتنين بها لعنادهم. عن الباقر عليه السلام: نزلت في بني عبد الدار، لم يكن أسلم منهم غير مُصعب بن عُمير، وخليف لهم يقال له سويبط^١.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [٢٤]

ثم أكد سبحانه الأمر بإجابة دعوة الرسول وطاعته بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ وبادروا إلى قبول دعوتهما ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الرسول المبلغ عن الله ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ حياة الأبد من المعارف الإلهية، والعلوم الحقة، ومحاسن الأخلاق، والأعمال الصالحة، فإن جميعها سبب حياة القلب التي لا موت بعدها.

١. مجمع البيان ٤: ٨١٨، تفسير الصافي ٢: ٢٨٨، وفي النسخة: سويط، بدل سويبط، راجع: أسد الغابة ٢: ٣٧٦، قاموس الرجال ٥: ٣٤٦٥/٣٣٩.

وقيل: هو الدعوة إلى الإيمان وقيل: إلى القرآن: وقيل: إلى الجهاد الذي هو سبب الشهادة التي بها الحياة الأبدية.

وعن الصادق عليه السلام: «نزلت في ولاية علي عليه السلام»^١.

وعن الباقر عليه السلام: «ولاية علي عليه السلام، فإن أتباعكم إياه وولايته أجمع لأمركم وأبقى للعدل فيكم». والقمي: الحياة: الجنة^٢.

ثم هدّد على ترك الأجابة بالخذلان في الدنيا بقوله: «وَأَعْلَمُوا» أيها المؤمنون «أَنَّ اللَّهَ قَرِيبٌ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي قَبْضَةِ قُدْرَتِهِ بَحِثْ» يَحْوُلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ونفسه وإرادته، بأن يصرفه عنها. القمي: أي يحول بينه وبين ما يريد^٣.

وعن الباقر عليه السلام: «يحول بين المؤمن ومعصيته أن تقوده إلى النار» وبين الكافر وبين طاعته أن يستكمل بها الإيمان، واعلموا أن الأعمال بخواتيمها»^٤.

وعن الصادق عليه السلام: «يحول بينه وبين أن يعلم أن الباطل حق»^٥.

وعنه عليه السلام: «معناه لا يستيقن القلب أن الحق باطل أبداً، ولا يستيقن القلب أن الباطل حق أبداً»^٦.

وعنه عليه السلام: «هو أن يشتهي الشيء، بسمعه وبصره ولسانه ويده، فإن هو غشي شيئاً مما يشتهي فإنه لا يأتيه إلا وقلبه منكراً لا يقبل الذي يأتيه لأنه يعرف أن الحق ليس فيه»^٧.

أقول: كان في عبارة الرواية - بنظري - الاغتشاش، فغيرتها إلى ما فهمت من معناها.

وعن الباقر عليه السلام: «هذا الشيء يشتهي الرجل بقلبه وسمعه وبصره، لا تتوق نفسه إلى غير ذلك، فقد حيل بينه وبين قلبه، فلا يتوجه إلى ذلك الشيء»^٨.

أقول: الظاهر أن التهديد فيه بالخذلان وصرف القلب عن إرادة الخير.

ثم هدّدهم بعذاب الآخرة بقوله: «وَأَنَّ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» يوم القيامة من القبور فيجازيكم على أعمالكم، ويُعاقبكم على عصيانكم وأمر الرسول ونواهيه، وعدم إجابته دعوته، فسارعوا إلى طاعته، وبادروا إلى إجابته.

١. الكافي ٨: ٣٤٩/٢٤٨، تفسير الصافي ٢: ٢٨٩.

٢. تفسير القمي ١: ٢٧١، تفسير الصافي ٢: ٢٨٩.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٨٩/١٧١٦، التوحيد: ٦/٣٥٨، تفسير الصافي ٢: ٢٨٩.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٩٠/١٧١٩، مجمع البيان ٤: ٨٢٠، تفسير الصافي ٢: ٢٨٩.

٥. في تفسير العياشي: أما إنه لا يغشى شيئاً منها، وإن كان.

٦. في تفسير العياشي: الذي يأتي.

٧. تفسير العياشي ٢: ١٨٩/١٧١٧، تفسير الصافي ٢: ٢٨٩.

٨. تفسير العياشي ٢: ١٨٩/١٧١٨، تفسير الصافي ٢: ٢٨٩.

وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ [٢٥]

ثُمَّ هَدَّاهُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. ﴿٢٥﴾

عن الصادق عليه السلام - في هذه الآية - قال: «أصاب الناس فِتْنَةً بعد ما قبض الله نبيه ﷺ، حتى تركوا علياً وبيعوا غيره، وهي الفِتْنَةُ التي فتنوا بها، وقد أمرهم رسول الله بأُتباع علي والأوصياء من آل محمد»^١.

وعن ابن عباس: لما نزلت قال النبي ﷺ: «مَنْ ظَلَمَ عَلِيًّا مَقْعَدِي هَذَا بَعْدَ وَفَاتِي، فَكَأَنَّمَا جَحَدَ نُبُوتِي وَنُبُوتَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي»^٢.

وعن القمي: نزلت في طلحة والزبير لما حاربا علياً عليه السلام [وظلموه]^٣.

وعن الحسن: نزلت في علي وعمار، وطلحة والزبير، وهو يوم الجمل خاصة^٤.

روى الفخر الرازي: أَنَّ الزُّبَيْرَ كَانَ يُسَامِرُ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمًا، إِذْ أَقْبَلَ عَلِيٌّ فَضَجَّكَ إِلَيْهِ الزُّبَيْرُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ حُبُّكَ لِعَلِيٍّ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحَبَّهُ كَحُبِّي لَوْلَدِي أَوْ أَشَدَّ، فَقَالَ: «كَيْفَ أَنْتَ إِذَا سِرَتْ إِلَيْهِ ثِقَاتُكَ؟»^٥

وقيل: نزلت في أهل بدر اقتتلوا يوم الجمل^٦.

وعن الحدادي في تفسيره: نزلت في عثمان وعلي عليه السلام، أخبر الله تعالى النبي ﷺ بالفِتْنَةِ التي تكون بسببهما، قال: إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدَكَ تَلَقَّاهَا أَصْحَابُكَ، تُصِيبُ الظَّالِمَ وَالْمَظْلُومَ، وَلَا تَكُونُ لِلظَّالِمَةِ وَحْدَهُمْ خَاصَّةً، وَلَكِنِهَا عَامَّةٌ. فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِذَلِكَ أَصْحَابُهُ^٧.

ثم بالغ في تهديدهم بعذاب الآخرة بقوله: ﴿اعْلَمُوا﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على مَنْ خالف الله ورسوله، وأهاج الفتن بعد النبي ﷺ كالأول والثاني والثالث.

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ

١. تفسير العياشي ٢: ١٩٠/١٧٢٠، تفسير الصافي ٢: ٢٨٩.

٢. مجمع البيان ٤: ٨٢٢، تفسير الصافي ٢: ٢٩٠.

٣. تفسير القمي ١: ٢٧١، تفسير الصافي ٢: ٢٩٠.

٤ و ٥. تفسير الرازي ١٥: ١٤٩.

٦ و ٧. تفسير روح البيان ٣: ٣٣٣.

فَاَوَاكُمُ وَيَايُذُكُمُ يَنْصُرُهُ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [٢٦]

ثمَّ أنه تعالى بعد التهديدات البليغة الأكيدة، رَغَّبهم في الطَّاعة بقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ أيها المزمنون المهاجرون ﴿إِذْ أَنتُمُ﴾ في بدء إسلامكم ﴿قَلِيلٌ﴾ من حيث العدد والعدة ﴿مُسْتَظْعِقُونَ﴾ ومقهورون تحت أيدي كُفَّار قُرَيْش ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي كنتم متوطنين فيها؛ وهي مكَّة، في حال ﴿تَخَافُونَ﴾ مِن ﴿أَن يَخْطِفَكُمْ﴾ ويستليكم ﴿النَّاسُ﴾ ويذهبوا بكم ويقتلوكم ﴿فَاَوَاكُمُ﴾ الله بلطفه ورحمته، وأسكنكم في المدينة ﴿وَأَيُّدُكُمْ﴾ وقواكم ﴿يَنْصُرُهُ﴾ إياكم على الكُفَّار ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ﴾ الغنائم ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ المُحلَّلات لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النُّعمة الجليلة بالقيام بطاعة الرُّسول ﷺ، وإجابة دَعَوته.

القَمي: نزلت في قُرَيْش خاصة^١.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ

تَعْلَمُونَ [٢٧]

ثمَّ أنه تعالى بعد الأمر بطاعته وطاعة رسوله وإجابتهما، نهى عن خيانتهما وغشهما بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ ولا تَغُشُّوهما.

رُوي أن النبي ﷺ حاصر بني قُرَيْظَةَ إحدى وعشرين ليلة، فسأله الصُّلح كما صالح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذِرعَات وأريحا من بلاد الشام، فأبى ﷺ إلا أن ينزلوا على حُكم سعد بن مُعَاذ، فأبوا وقالوا: أُرسل إلينا إلبنا أبا لُبَابَةَ بن عبد المنذر، وكان مُناصِحاً لهم لأنَّ عياله [وماله] كانت في أيديهم، فبعثه إليهم فقالوا: ماترى، هل نزل على حُكم سعد؟ فأشار [بيده] إلى حلقه [بالذبح]؛ أي إن حُكم سعد فيكم أن تُقتلوا صبراً، فلا تنزلوا على حُكمه^٢.

وَرُوي عن الباقر عليه السلام قريب منه: ثم قال: «فأتاه جبرئيل فأخبره بذلك، قال أبو لُبَابَةَ: فَو الله ما زالت قَدَمَاي من مكانهما حتَّى عرفتُ أَنِّي خُنْتُ الله ورسوله. فنزلت الآية [فيه]، فلما نزلت شدَّ نفسه على سارية من سَواري المسجد وقال: والله ما أذوق طعاماً ولا شرباً حتَّى أموت أو يتوب الله عليّ؛ فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شرباً حتَّى خرَّ مَغشياً عليه، ثم تاب الله عليه»^٣.

١. تفسير القمي ١: ٢٧١، تفسير الصافي ٢: ٢٩٠.

٢. مجمع البيان ٤: ٨٢٣، تفسير روح البيان ٣: ٣٣٥، تفسير الصافي ٢: ٢٩٠.

٣. مجمع البيان ٤: ٨٢٤، تفسير الصافي ٢: ٢٩١.

القَمِي: عن الباقر عليه السلام: «فَخِيَانَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَعْصِيَتُهُمَا»^١.

ثم أنه تعالى بعد النهي عن خيانة نفسه وخيانة رسوله، نهى عن خيانة الناس بقوله: ﴿وَلَا تَخُونُوا﴾ ولا تَصِيْعُوا ﴿أَمَانَاتِكُمْ﴾ ولا تَغْرَبُوا فيها فيما بينكم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حقيقة الخيانة وقبحها.

ومن المعلوم أن من الأمانات أحكام الله وفرائضه التي انتمن الله عياده عليها، كما عن الباقر عليه السلام قال: «وَأَمَّا خِيَانَةُ الْأَمَانَةِ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ مَأْمُونٍ عَلَى مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ»^٢.

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [٢٨ و ٢٩]

ثم لما كان الباعث إلى الخيانة حُب المال والأولاد، كما كان ذلك في نفس أبي لُبَابَةَ، ذمهما سبحانه بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لَمَنْ آثَرَ رَضَى رَبَّهُ عَلَى هَوَى نَفْسِهِ، وَأَطَاعَ حُكْمَ اللَّهِ، وَرَاعَى حُدُودَهُ وَإِنْ كَانَ عَلَى ضُرِّهِ وَضُرَّرَ أَقْرَبَهُ.
عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ، وَلَكِنْ مَنْ اسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضَلَّاتِ الْفِتَنِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾»^٣.

ثم بالغ سبحانه في التَّغْيِيبِ إلى طاعته وطاعة رسوله والنُّصْحِ له بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ بالمُواظَبَةِ عَلَى طاعته وطاعة رسوله، والنُّصْحِ لهما وترك الخِيَانَةِ فِي أَمَانَاتِهِمَا وَأَمَانَاتِ النَّاسِ ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ﴾ بِسَبَبِ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ﴿فُرْقَانًا﴾ وَتُوراً تُمَيِّزُونَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، أَوْ يُعَرِّفُكُمْ أُمُوراً تُفَرِّقُونَ بِهَا بَيْنَ الْمُحَقِّ وَالْمُبْطِلِ. عَنِ الْقَمِي: يَعْنِي الْعِلْمَ الَّذِي بِهِ تُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ^٤.

﴿وَيُكَفِّرْ﴾ وَيَسْتُرْ ﴿عَنْكُمْ﴾ فِي الْيَقِيَامَةِ ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وَزَلَّاتِكُمْ بِأَنْ يُبَدِّلَهَا بِالْحَسَنَاتِ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذُنُوبَكُمْ وَمَعَاصِيَكُمْ بِالْعَفْوِ وَالتَّجَاوُزِ عَنْهَا ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وَالْإِحْسَانِ الْجَسِيمِ، وَلِذَا يُعْطِي الْكَثِيرَ بِالْقَلِيلِ، وَيَزِيدُكُمْ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى مَا وَعَدَكُمْ بِهِ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّعْمِ الدَّائِمَةِ، وَالْمَقَامَاتِ

١. تفسير القمي ١: ٢٧٢، تفسير الصافي ٢: ٢٩١.

٢. تفسير القمي ١: ٢٧٢، تفسير الصافي ٢: ٢٩١، وفيهما: مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ.

٣. مجمع البيان ٤: ٨٢٤، تفسير الصافي ٢: ٢٩١. ٤. تفسير القمي ١: ٢٧٢، تفسير الصافي ٢: ٢٩٢.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ

اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ [٣٠]

ثم ذكر سبحانه خيانة الناس برسوله، وحفظه منها ليشكر نعمته، بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مشركي قريش ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ويوقفوك في موضع لا تقدر [على] الخروج منه، ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بأسياهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة إلى غيرها ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ ويبدرون خفية في شأنك ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ ويبدر في رد مكرهم عليهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ﴾ لا يرد مكره شيء، ولا يعاب بمكر غيره عند مكره.

روث العامة أنه لما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد كانت له شيعه وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا سعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة؛ وهي الدار التي بناها قصي بن كلاب بمكة، وكانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها، وسُميت دار الندوة لأنهم يتتدون فيها، أي يجتمعون للمشاورة، فتشاوروا في أمر النبي ﷺ، منهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل، وأبو سفيان والضمر بن الحارث، وأبو البختر بن هشام، وأبي بن خلف، وزمعة بن الأسود، وغيرهم من الرؤساء والأكابر.

فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ كبير عليه ثياب أظمار فجلس بينهم، فقالوا: ما لك يا شيخ، دخلت في خلوتنا بغير إذننا؟ فقال: أنا رجل من أهل نجد قدمت مكة، فأراكم حسنة وجوهكم، طيبة روائحكم، فأحببت أن أسمع حديثكم فاتيس منكم خيراً فدخلت، وإن كرهتم مجلسي خرجت، وما جئكم إلا لأتني سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضر معكم، وأن لا تغدوا مني رأياً وتصحاً. فقالوا: هذا رجل لا بأس عليكم منه.

فتكلموا فيما بينهم، فبدأ عمرو بن هشام فقال: أما أنا فأرى أن تأخذوا محمداً فتجعلوه في بيت تشدون عليه بابه، وتشدون عليه وثاقه، وتجعلون له كوة تدخلون عليه طعامة وشربه، فيكون محبوساً إلى أن يموت، فقال إبليس: بش الرأي، يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم، فقالوا: صدق والله الشيخ.

ثم تكلم أبو البخري بن هشام فقال: أرى أن تحملوه على بعير فتشدوا وثاقه عليه، ثم تخرجوه من أرضكم حتى يموت أو يذهب حيث شاء، فقال إبليس: بش الرأي، تعمدون إلى رجلٍ أفسد جماعتكم، ومعه منكم طائفة، فتخرجونه إلى غيركم، فيأتيهم فيفسد منهم أيضاً جماعة بما يزون من خلاوة كلامه وطلاقة لسانه، وتجتمع إليه العرب وتستمع إلى حسن حديثه، ثم ليأتيكم بهم فيخرجكم من دياركم ويقتل أشرافكم. فقالوا: صدق والله الشيخ.

فتكلم أبو جهل فقال: أرى أن يجتمع من كل بطن منكم رجلٌ يأخذون السيوف فيضربونه جميعاً ضربة رجلٍ واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا يدري قومه من يأخذون به، ولا يقومون على حرب قریش كلهم، وإذا طلبوا العقل عقلناه واشترحنا، فقال إبليس: صدق والله [هذا] الشاب، وهو أجدكم رأياً، القول قوله، فتفرقوا على رأيه، فنزل جبرئيل فأخبر النبي ﷺ بذلك، وأمره أن لا يبيت في مَضْجَعِهِ الذي كان يبيت فيه، وأمره بالهجرة إلى المدينة، فبيت علياً عليه السلام على مَضْجَعِهِ، وخرج هو وأبو بكر إلى الغار^١.

وعن العياشي: عن أحدهما عليه السلام: «أن قریشاً اجتمعت فخرج من كل بطن أناس، ثم انطلقوا إلى دار الندوة ليتشاوروا فيما يصنعون برسول الله ﷺ، فإذا شيخ قائم على الباب، فإذا ذهبوا ليدخلوا قال: أدخلوني معكم، قالوا: ومن أنت يا شيخ؟ قال: أنا شيخ من مَضْرٍ، ولي رأيٌ أشير به عليكم، فدخلوا وجلسوا وتشاوروا وهو جالس، وأجمعوا أمرهم على أن يخرجوه، فقال: ليس هذا لكم برأي، إن أخرجتموه أجلب عليكم^٢ الناس فقاتلوكم، قالوا: صدقت، ما هذا برأي.

ثم تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يؤتقوه، قال: ليس هذا برأي، إن فعلتم هذا ومحمد رجلٌ خلو اللسان، أفسد عليكم أبناءكم. وخدمكم، وما يستفيع أحدكم إذا فارقه أخوه وابنه وامراته.

ثم تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يقتلوه؛ يخرجون من كل بطن منهم بشاهر فيضربونه بأسيا فهم جميعاً عند الكعبة». ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَإِذْ يَمْكُورُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ^٣».

وعن القمي: نزلت بمكة قبل الهجرة، وكان سبب نزولها أنه لما أظهر رسول الله ﷺ الدعوة بمكة قدمت عليه الأوس والخزرج، فقال لهم رسول الله ﷺ: «تمنعوني وتكونون لي جاراً حتى أتلو عليكم كتاب ربي وتؤابكم على الله الجنة»، فقال سعد بن زرارة والبراء بن معرور وعبد الله بن حزام: يا رسول الله، اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال لهم: «موعدكم العقبة في الليلة الوسطى من ليالي

٢. أجلب عليكم: جمع الناس عليكم وآلهم.

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٣٨.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٩٠/١٧٢٢، تفسير الصافي ٢: ٢٩٢.

الشَّريقَ. فحُجُّوا وَرَجَعُوا إِلَى مِنَى، وَكَانَ فِيهِمْ مِمَّنْ قَدْ حَجَّ بِشْرُ كَثِيرٍ، فَلَمَّا كَانَ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ الشَّريقِ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كَانَ اللَّيْلُ فَاحْضَرُوا دَارَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَى الْعَقَبَةِ، وَلَا تُنَبِّهُوا نَائِمًا، وَلْيَنْسَلْ وَاحِدٌ فَوَاحِدًا».

فَجَاءَ سَبْعُونَ رَجُلًا مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فَدَخَلُوا الدَّارَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَمْنَعُونِي وَتُجِيرُونِي حَتَّى أَتْلُوَ عَلَيْكُمْ كِتَابَ رَبِّي وَثَوَابَكُمْ عَلَى اللَّهِ الْجَنَّةَ»، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ زُرَّارَةَ وَالْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ حِزَامٍ: «نَعَمْ» يَا رَسُولَ اللَّهِ، اشْتَرَطَ لِرَبِّكَ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ، فَقَالَ: «أَمَّا مَا اشْتَرَطُ لِرَبِّي، فَإِنْ تَعَبَدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاشْتَرَطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ أَنْفُسَكُمْ، وَتَمْنَعُونَ أَهْلِي مِمَّا تَمْنَعُونَ أَهْلِيكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ».

فَقَالُوا: فَمَا لَنَا عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: «الْجَنَّةُ فِي الْآخِرَةِ، وَتَمْلِكُونَ الْعَرَبَ، وَيَدِينُ لَكُمْ الْعَجَمُ فِي الدُّنْيَا، وَتَكُونُونَ مُلُوكًا فِي الْجَنَّةِ». فَقَالُوا: قَدْ رَضِينَا.

فَقَالَ: أَخْرِجُوا إِلَيَّ [مِنْكُمْ] اثْنِي عَشَرَ نَقِيبًا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ، كَمَا أَخَذَ مُوسَى ﷺ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ اثْنِي عَشَرَ نَقِيبًا، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ جَبْرِئِيلُ فَقَالَ: هَذَا نَقِيبٌ وَهَذَا نَقِيبٌ؛ تِسْعَةٌ مِنَ الْخَزْرَجِ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوْسِ، فَمِنْ الْخَزْرَجِ: سَعْدُ بْنُ زُرَّارَةَ، وَالْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ حِزَامٍ - أَبُو جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ -، وَرَافِعُ بْنُ مَالِكٍ، وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَالْمَنْذَرُ بْنُ عَمْرِو، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، وَسَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ، وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ وَمِنْ الْأَوْسِ: أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيْهَانِ، وَهُوَ مِنَ الْيَمَنِ، وَأَسِيدُ بْنُ حُصَيْرٍ^١، وَسَعْدُ بْنُ خَيْثَمَةَ.

فَلَمَّا اجْتَمَعُوا وَابْيَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَاحِبَ إِبْلِيسَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ وَالْعَرَبِ، هَذَا مُحَمَّدٌ وَالصُّبَاءُ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ عَلَى جِمْرَةِ الْعَقَبَةِ يَبَايَعُونَهُ عَلَى حَرْبِكُمْ، فَاسْمَعِ أَهْلَ مِنَى، وَهَاجَتْ قُرَيْشٌ فَأَقْبَلُوا بِالسَّلَاحِ، وَسَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّدَاءَ فَقَالَ لِلْأَنْصَارِ: «تَفَرَّقُوا»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَمِيلَ عَلَيْهِمْ بِأَسْيَافِنَا، [فَعَلْنَا]. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمْ أَوْمَرْ بِذَلِكَ، وَلَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ لِي فِي مُحَارَبَتِهِمْ»، قَالُوا: أَفَتُخْرِجُ مَعْنَا؟ قَالَ: «انْتَظِرُوا أَمْرَ اللَّهِ»، فَجَاءَتْ قُرَيْشٌ عَلَى بَكْرَةِ أَبِيهَا^٢، قَدْ أَخَذُوا السَّلَاحَ، وَخَرَجَ حَمْزَةُ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ وَمَعَهُمَا السَّيْفُ، فَوَقَفَا عَلَى الْعَقَبَةِ، فَلَمَّا نَظَرَتْ قُرَيْشٌ إِلَيْهِمَا قَالُوا: مَا هَذَا الَّذِي اجْتَمَعْتُمْ لَهُ؟ فَقَالَ حَمْزَةُ: مَا تَجَمَّعْنَا وَمَا هَآئِنَا أَحَدٌ، وَاللَّهِ لَا يَجُوزُ هَذِهِ الْعَقَبَةُ أَحَدٌ إِلَّا ضَرْبَتْهُ بِالسَّيْفِ. فَرَجَعُوا إِلَى مَكَّةَ وَقَالُوا: لَا نَأْمَنُ أَنْ يَفْسُدَ أَمْرُنَا وَيَدْخُلَ وَاحِدٌ مِنْ مَشَايِخِ قُرَيْشٍ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ،

١. فِي النُّسخَةِ: أُسَيْدُ بْنُ حَصِينٍ، تَصْحِيفٌ، رَاجِعْ: اسْدُ الْغَابَةِ ١: ٩٢، مَعْجَمُ رِجَالِ الْحَدِيثِ ٣: ٢١٢.

٢. أَيُّ جَاءُوا جَمِيعًا.

فاجتمعوا في دار الندوة، وكان لا يدخل في دار الندوة إلا مَنْ أتى عليه أربعون سنة، فدخل أربعون رجلاً من مشايخ قُريش، فجاء إبليس في صورة شيخ كبير، فقال له البواب: مَنْ أنت؟ قال: أنا شيخ من أهل نجد لا يعدكم مِنِّي رأيٌ صائب، إِنِّي حيثُ بلغني اجتماعكم في أمر هذا الرجل، فجنث لأشير عليكم. فقال: ادخل، فدخل إبليس.

فلما أخذوا مجلسهم قال أبو جهل: يا معشر قُريش، إِنَّه لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ من العرب أعزَّ منَّا، نحنُ أهل الله، تَبَدُّ إلينا العربُ في السَّنةِ مرَّتين ويكرمونا، ونحنُ في حَرَمِ الله لا يطمعُ فينا طامعٌ، فلمْ نزل كذلك حتَّى نشأ فينا مُحَمَّدٌ بن عبد الله، فكُنَّا نسميه الأمين لصلاحه وسكونه وصدق لهجته، حتَّى إذا بلغ ما بلغ وأكرمناه ادَّعى أَنه رسول الله، وأن أخبار السماء تأتيه، فسَفَّه أحلامنا، وسبَّ آلَها، وأفسد شُبَّاننا، وفرَّق جماعتنا، وزعم أَن من مات من أسلافنا ففي النَّار، فلمْ يرِدْ علينا شيءٌ أعظم من هذا، وقد رأيتُ [فيه] رأياً، قالوا: ما رأيتُ؟ قال: رأيتُ أن نُدسَ إليه رجلاً منَّا ليقْتله، فإن طلبتُ بنو هاشم بدمه أعطيتناهم عشر ديات.

فقال الخبيث: هذا رأيٌ خبيث، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأن قاتل مُحَمَّدٍ مقتولٌ لا محالة، فمن هذا الذي يبذل نفسه للقتل منكم، فإنَّه إذا قُتل [مُحَمَّدٌ] تعصبتُ بنو هاشم وحلفاؤهم من خزاعة، وإن بني هاشم لا ترضى أن يمشی قاتل مُحَمَّدٍ على الأرض، فتقع بينكم الحرب في حرِّمكم وتتفانون. فقال آخرٌ منهم: فعندي رأيٌ آخر، قال: وما هو؟ قال: نُثبته في بيتٍ وثُلقي إليه قوته حتَّى يأتي عليه رَيْبُ المَنون فيموت كما مات زهير والنابعة وامرئ القيس.

فقال إبليس: هذا أخبث من الآخر، قال: كيف ذلك؟ قال: لأن بني هاشم لا ترضى بذلك، فإذا جاء موسمٌ من مواسم العرب استغاثوا بهم واجتمعوا عليكم فأخرجوه.

وقال آخر: لا، ولكنَّا نُخرجه من بلادنا، ونتفرَّغ نحن لعبادة آلَها، قال إبليس: هذا أخبث من الرأيين المُتقدِّمين، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأنكم تعبدون إلى أصبح النَّاس وجهاً، وأنطق النَّاس لساناً وأفصحهم لهجةً، فتحملونه إلى بوادي العرب فيخذعهم ويسحرهم بلسانه، فلا يفجأكم إلَّا وقد ملأها عليكم خيلاً ورَجُلًا. فبقوا حائرين.

ثم قالوا لإبليس: فما الرأي فيه يا شيخ؟ قال: ما فيه إلَّا رأيٌ واحد. قالوا: وما هو؟ قال: يجتمع من كُلِّ بطنٍ من بَطون قُريش واحدٌ، يكون معهم من بني هاشم رَجُلٌ، فيأخذون سِكِّينةً أو حَدَّيدةً أو سيفاً، فيدخلون عليه فيضربونه كُلَّهم ضربةً واحدة، حتَّى يتفرَّق دمه في قُريش كُلِّها، فلا يستطيع بنو هاشم أن يطلبوا بدمه وقد شاركوا فيه، وإن سألوكم أن تُعطوا الدِّيةَ فأعطوهم ثلاث ديات. فقالوا: نعم، عشر

ديات.

ثم قالوا: الرأي رأي الشيخ النجدي. فاجتمعوا ودخل معهم في ذلك أبو لهب عم النبي ﷺ، ونزل جبرئيل على رسول الله ﷺ، وأخبره أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة يدبرون عليك، وأنزل عليه في ذلك ﴿وَإِذْ يَمْكُؤُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ إلى آخره. واجتمعت قريش أن يدخلوا عليه ليلاً فيقتلوه، وخرجوا إلى المسجد يصفرون ويصفقون.

إلى أن قال: فلما أمسى رسول الله ﷺ جاءوا ليدخلوا عليه، فقال أبو لهب: لا أدعكم أن تدخلوا عليه بالليل، فإن في الدار صبياناً ونساءً، ولا نأمن أن تقع بهم يد خاطئة، فنحرسه الليلة، فإذا أصبحنا دخلنا عليه، فناموا حول حجرة رسول الله، وأمر رسول الله ﷺ أن يُقرش له فُقرش له، فقال لعلي بن أبي طالب عليه السلام: «أفديني بنفسك»، قال: «نعم يا رسول الله»، قال: «ثم على فراشي، والتحف ببردي». فنام علي عليه السلام على فراش رسول الله ﷺ والتحف ببرده، وجاء جبرئيل فأخذ بيد رسول الله ﷺ فأخرجه على قريش وهم نيام، وهو يقرأ عليهم ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^١، وقال له جبرئيل: خذ على طريق [أور، وهو جبل على طريق] مني له سنّام كسّنام الثور، فدخل الغار وكان من أمره ما كان.

فلما أصبحت قريش وثبوا إلى الحجرة وقصدوا الفراش، فوثب علي عليه السلام في وجوههم فقال: ما شأنكم؟ قالوا: أين محمد؟ قال: «أجعلتموني عليه رقيباً؟ ألسنتم قلتم تخرجه من بلادنا؟ فقد خرج عنكم»، فأقبلوا يضربون أبالهب ويقولون^٢: أنت تخذعنا منذ الليلة، فتفرقوا في الجبال، وكان فيهم رجل من خزاعة يقال له أبو كرز يقفو الآثار، فقالوا: يا أبا كرز، اليوم اليوم. فوقف بهم على باب حجرة رسول الله ﷺ فقال: هذه قدم محمد، والله لأخت القدم التي في المقام، وكان أبو بكر استقبل رسول الله ﷺ فردّه معه، فقال أبو كرز: وهذه قدم ابن أبي قحافة أو أبيه، ثم قال: وهاهنا عبر ابن أبي قحافة، فما زال بهم حتى أوقفهم على باب الغار، ثم قال: [ما] جاوزا هذا المكان، إما أن يكونا صعيداً إلى السماء أو دخلاً تحت الأرض. وبعث الله العنكبوت فنسجت على باب الغار، وجاء فارس من الملائكة حتى وقف على باب الغار، ثم قال: ما في الغار أحد، فتفرقوا في الشُعاب، فصرّهم عن رسول الله^٣.

وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا

١. بس: ٩/٣٦. ٢. في النسخة: يضربونه ويقولون.

٣. تفسير القمي ١: ٢٧٢، تفسير الصافي ٢: ٢٩٢.

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْزِلْ عَلَيْنَا آيَةً مِنْ رَبِّكَ [٣١ و ٣٢]

ثم أنه تعالى بعد بيان مكرهم بالرسول ﷺ، بين مكرهم بآيات الله وفي دينه بقوله: ﴿وَإِذْ تَتْلُو وَتُفَرِّغُونَ عَلَيْهِمُ آيَاتِنَا﴾ القرآنية ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ هذه الكلمات الملققة. ولكن ما سيعوها في الحقيقة، لكونهم أظهر مصاديق شرِّ الدواب الذين قال الله في حقهم: ﴿وَلَوْ أَسْمَعْتَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾^١ ولذا قالوا مكابرةً وعناداً: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ الكلام.

كيف لم يكن مكابرةً وأنه لم يمنهم من مشيئته شيء، مع أن النبي ﷺ تحداهم به مدة ثلاث عشرة سنة حتى قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ آفِئَةٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^٢. ثم أعلن بعجزهم عن ذلك بقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾^٣ ومع ذلك لم يأتوا بسورة قصيرة، بل ولا بآية مع جرحهم على تكذيبه وتذليله والغلبة عليه، خصوصاً فيما يتعلق بالفصاحة والبلاغة التي هم مهرة تلك الصنعة.

قيل: إن قائل هذا الكلام النضر بن الحارث من بني عبد الدار، فإنه كان يختلف تاجراً إلى فارس والروم والحيرة، فيستمع أخبار رستم واسفنديار وأحاديث العجم، واشترى أحاديث كليله ودمنة، وكان يمرُّ باليهود والنصارى فيراهم يقرأون التوراة والإنجيل ويركعون ويسجدون، فجاء مكة فوجد رسول الله ﷺ يصلي ويقرأ القرآن، فطفق يقعد مع المستهزئين، ويقرأ عليهم أساطير الأولين، وكان يزعم أنها [مثل] ما يذكره رسول الله ﷺ من قصص الأنبياء والأمم الماضية^٤. ويقول: ﴿إِنْ هَذَا﴾ الكلام الذي جاء به محمد، وما هو ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ والأباطيل المسطورة في دفاتر السابقين. ثم أنه روي أنه قال له النبي ﷺ: «ويلك إنه كلام الله»^٥ فذكر الله تحاشيه عن قبوله بقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا﴾ حسداً للنبي ﷺ على نزول الكتاب عليه، أو إظهاراً لليقين بعدم كونه كلام الله: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ﴾ النازل ﴿مِنْ عِنْدِكَ﴾ وصدقاً وصحياً انتسابه إليك ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ عقوبة لتكذیبنا إياه ﴿حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ كما أمطرت على قوم لوط ﴿أَوْ أُنْزِلْ عَلَيْنَا آيَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ آخر تهلكنا به.

قيل: نزل في النضر بن الحارث بضع عشرة آية^٦.

١. الأنفال: ٢٣/٨. ٢. البقرة: ٢٣/٢. ٣. البقرة: ٢٤/٢. ٤. تفسير روح البيان ٣: ٣٤٠. ٥. تفسير روح البيان ٣: ٣٤١. ٦. تفسير روح البيان ٣: ٣٤١.

وعن (الكافي): قاله الحارث بن عمرو الفهري^١.

وعن الثُمَيِّ بْنِ لَهَّاجٍ: نَزَلَتْ لَمَّا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَقُرَيْشٍ: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي أَنْ أَقْتُلَ جَمِيعَ مُلُوكِ الدُّنْيَا وَأَجْرُ الْمَلِكِ إِلَيْكُمْ، فَأَجِيبُونِي إِلَى مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ تَمْلِكُوا بِهَا الْعَرَبَ، وَتُدِينَ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمَ، وَتَكُونُوا مُلُوكًا فِي الْجَنَّةِ». فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَقُولُ مُحَمَّدٌ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ [فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ] حَسَدًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ^٢.

وعن المجمع: عن الصادق عليه السلام، عن آبائه: «لَمَّا نَصَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍ قَالَ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَا فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ. طَارَ ذَلِكَ فِي الْبِلَادِ، فَقَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ النُّعْمَانُ بْنُ الْحَارِثِ الْفَهْرِيُّ فَقَالَ: أَمَرْتَنَا مِنَ اللَّهِ أَنْ نَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَمَرْتَنَا بِالْجِهَادِ وَالْحَجِّ وَالصُّومِ وَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ فَقَبِلْنَاهَا، ثُمَّ لَمْ تَرْضَ حَتَّى نَصَبْتَ هَذَا الْغُلَامَ فَقُلْتَ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَا فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ، فِهَذَا شَيْءٌ مِنْكَ أَوْ أَمَرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنَّ هَذَا مِنْ اللَّهِ، فَوَلَّى النُّعْمَانُ بْنُ الْحَارِثِ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ، فَرَمَاهُ اللَّهُ بِحَجَرٍ عَلَى رَأْسِهِ فَقَتَلَهُ^٣.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ [٣٣]

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عِلَّةَ عَدَمِ إِنْزَالِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ مَعَ غَايَةِ اسْتِحْقَاقِهِمْ لَهُ، يَقُولُ: «وَمَا كَانَ اللَّهُ» وَلَيْسَ مُنَاسِبًا لَطَفُهُ بِكَ «لِيُعَذِّبَهُمْ» بِمَا عَذَّبَ بِهِ الْأُمَمَ الْمَاضِيَةَ «وَأَنْتَ» مَعَ كَوْنِكَ رَحِمَةً لِلْعَالَمِينَ وَأَمَانًا لِأَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ «فِيهِمْ» وَحَيِّ بَيْنَهُمْ، بَلْ لَمْ يُعَذِّبْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ إِلَّا بَعْدَ خُرُوجِ نَبِيِّهِمْ مِنْ بَيْنِهِمْ.

ثُمَّ ذَكَرَ عِلَّةَ أُخْرَى يَقُولُ: «وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ» وَفِيهِمْ، أَوْ فِي أَصْلَابِهِمُ الْمُزْمِنُونَ «وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ».

وَقِيلَ: إِنَّ مَرْجِعَ الضَّمِيرِ الْكُفَّارَ، وَالْمَعْنَى: أَتَاهُمْ لَوْ اسْتَغْفَرُوا لَمْ يُعَذِّبُوا، وَالْمَقْصُودُ حَثُّهُمْ عَلَى الْاسْتِغْفَارِ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالِاسْتِغْفَارِ الْإِسْلَامَ، وَالْمَعْنَى: وَهُمْ يَسْلِمُونَ فِيمَا بَعْدَ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ يَسْلَمُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ: كَأَبِي سَفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ، وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ،

٢. تفسير القمي: ١: ٢٧٦، تفسير الصافي ٢: ٢٩٨.

١. الكافي ٨: ١٨/٥٧، تفسير الصافي ٢: ٢٩٧.

٣. مجمع البيان ١٠: ٥٣٠، تفسير الصافي ٢: ٢٩٩.

وأضربهم.

عن ابن عباس أنه قال: كان فيهم أمانان؛ نبي الله، والاستغفار، أما النبي ﷺ فقد مضى، وأما الاستغفار فهو باقٍ إلى يوم القيامة^١.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في (نهج البلاغة): «كان في الأرض أمانان من عذاب الله، فزُفِعَ أحدهما، فدُونكم الآخر فتمسكوا به، أما الأمان الذي رُفِعَ فرَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وأما الأمان الباقي فالاستغفار»^٢.

وعن الصادق عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ: إن لكم في حياتي خيراً، وفي مماتي خيراً. فقبل: يا رسول الله، أما حياتك فقد علمنا، فما لنا في وفاتك؟ فقال: أما في حياتي فإن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، وأما في مماتي فتعرض علي أعمالكم فاستغفر لكم»^٣.

وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ
إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [٣٤]

ثم صرح شبحانه بغاية استحقاقهم العذاب، ووعدهم بالعذاب الأخروي أو الدنيوي يوم بدر، أو يوم الفتح بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ من السبب ﴿إِلَّا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ ويسلمهم منه بالكلية ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُمْ يَصُدُّونَ﴾ أولياءه والمؤمنين به ﴿عَنِ﴾ دخول ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ والقرب منه عام الحديبية بأداء أنهم أولياؤه وأولياء بيته ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُمْ﴾ ما كانوا أولياءه ﴿بَلْ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم ليسوا بأوليائه، وإنما يعلمه بعضهم، ومع ذلك يدعي أنه ولي البيت، ويقول نصد من نشاء وندخل من نشاء.

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْفُرُونَ [٣٥]

ثم استشهد شبحانه على عدم كونهم أولياءه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ دعاء المشركين ﴿وَصَلَاتُهُمْ﴾ الله ﴿عِنْدَ الْبَيْتِ﴾ الحرام ﴿إِلَّا مُكَاءً﴾ وصفيراً ﴿وَتَصَدِيَةً﴾ وتصفيقاً بضرب إحدى الكفين بالأخرى، فإنهم كانوا يفعلونهما عوض التسبيح والدعاء.

١. تفسير الرازي ١٥: ١٥٨.

٢. نهج البلاغة: ٨٨/٤٨٣، تفسير الصافي ٢: ٣٠٠.

٣. الكافي ٨: ٣٦١/٢٥٤، تفسير الصافي ٢: ٣٠٠.

عن ابن عباس قال: كانت قُريش يطوفون بالبيت عُرة الرجال والنساء، مُشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها، ويصفقون^١.

وعن الرضا عليه السلام: «سُميت مكة مكة لأنَّ النَّاسَ يَمَكُون فيها، وكانوا يقولون لَمَن قصدها: قد مكا، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ فالْمُكَاءُ: الصَّفير، والتَّصَدِيَةُ: صفق اليدين»^٢.

وعن مقاتل: كان النبي ﷺ إذا صَلَّى في المسجد قام رَجُلَان من بني عبد الدار عن يمينه وَرَجُلَان عن يساره، فيصفرون كما يصفر المَكَاءُ، ويصفقون بأيديهم لِيُخَلِّطُوا على النبي ﷺ صلاته وقراءته، وكانوا يفعلون كذلك بصلاة مَنْ آمَن به^٣.

وعن مُجاهد: كانوا يُعارضون النبي ﷺ في الطواف، ويستهنئون به، ويصفرون وَيُخَلِّطُونَ عليه طوافه وصلاته^٤.

ثم هددهم الله تعالى بقوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ بالسيف يوم بدر، أو بالنار يوم الحشر ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وتُشْرِكُونَ.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [٣٦ و ٣٧]

ثم أنَّه تعالى بعد دَمَّهم على عبادتهم البدنية، دَمَّهم وهَدَّهم على طاعتهم المالية بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأشركوا من قُريش ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ويصرفون ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ لِيُخَلِّطُوا في أمر رسالة الرُّسُولِ ﴿وَلِيَصُدُّوا﴾ النَّاسَ ويمنعوهم ﴿عَنْ﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والدُّخُولِ في دين الإسلام، وقَبُولِ اتِّبَاعِ الرُّسُولِ.

ثم نبه شبحانه على غاية خسارتهم بقوله: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾ بِتَمَامِهَا ﴿ثُمَّ تَكُونُ﴾ تِلْكَ الْأَمْوَالِ ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ وَندامة لذهابها مِنْ أيديهم من غير حُصُولِ المقصود ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ في قتال

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٤٣.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٠٩، تفسير الصافي ٢: ٣٠١.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٣٤٣. ٤. تفسير الرازي ١٥: ١٦٠.

المسلمين آخر الأمر.

قيل: نزلت في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من أشرف قريش^١، يطعم كل واحد منهم عسكر الكفار عشر جزراً^٢.

وعن سعيد بن جبير: نزلت في أبي سفيان وإنفاقه المال على حرب النبي ﷺ يوم أحد، وكان قد استأجر ألفين من الأحابيش سيوى من استجاش [من] العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية، والأوقية اثنان وأربعون مثقالاً^٣.

ثم هددهم الله بعذاب الآخرة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصروا واستمروا على كفرهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ لا إلى غيرها ﴿يُخْشَوْنَ﴾ ويساقون في القيامة، ويكون ذلك الحشر ﴿لِيَسْمِرَ اللَّهُ﴾ ويفرق ﴿الْخَبِيثَ﴾ الذي هو الكافر ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الذي هو المؤمن، فإنهم يحشرون إلى الجنة ﴿وَيُجْعَلُ﴾ ويضع ﴿الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ﴾ ويجمعه ﴿جَمِيعاً﴾ قيل: إن المراء من الخبيث: نفقة الكافر على عداوة محمد ﷺ، ومن الطيب: نفقة المؤمن في نصرته^٤، فيضم الله ذلك المال الخبيث بعضه إلى بعض ﴿فَيُجْعَلُهُ﴾ ويلقيه ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ ليعذبهم به ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الكافرون المُنْفِقُونَ أموالهم فيما يسخط الله ﴿هُمُ﴾ بالخصوص ﴿الْخَاسِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

عن الباقر عليه السلام: «أن الله مزج طينة المؤمن حين أراد خلقه بطينة الكافر؛ فما يفعل المؤمن من سيئة فإنما هو من أجل ذلك المزاج، وكذلك مزج طينة الكافر حين أراد خلقه بطينة المؤمن؛ فما يفعل الكافر من حسنة فإنما هو من أجل ذلك المزاج». قال: «فإذا كان يوم القيامة ينزع [الله] من العدو الناصب سينخ المؤمن ومزاجه وطيبته وجوهره وعنصره مع جميع أعماله الصالحة، ويؤذه إلى المؤمن، وينزع الله من المؤمن سينخ الكافر^٥ ومزاجه وطيبته وجوهره وعنصره مع جميع أعماله السيئة، ويؤذه إلى الناصب، عدلاً منه جل جلاله وتقدست أسماؤه، ويقول للناصب: لا ظلم عليك، هذه الأعمال الخبيثة من طينتك ومزاجك فانت أولى بها، وهذه الأعمال الصالحة من طينة المؤمن ومزاجه وهو أولى بها ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾»^٦.

ثم قال: أريدك في هذا المعنى من القرآن [أليس الله عز وجل] يقول: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ

١. تفسير الرازي ١٥: ١٦٠.

٢. الجزر: جمع جزور، هو ما يصلح لأن يذبح من الابل.

٣. تفسير الرازي ١٥: ١٦١.

٤. غافر: ١٧/٤٠.

٥. تفسير الرازي ١٥: ١٦٠.

٦. في تفسير الصافي: الناصب.

وَرَزَقَ كَرِيمًا^١، وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ * لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ^٢.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ [٣٨]

ثم أنه تعالى بعد ذمّ المشركين وتهديدهم على عباداتهم البدنية والمالية، أمر نبيه ﷺ بترغيبهم إلى قبول الإسلام، وتهديدهم على تركه بقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ ويرتدعوا عن الشرك وعداوة الرسول وقبائح الأعمال، ويدخلوا في دين الإسلام وتبعية الرسول ﷺ، ويلتزموا بالصالحات من الأعمال ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ منهم ويُعفى عن عقوبة ما ارتكبوا في حال كفرهم؛ من العقائد الفاسدة، والأعمال السيئة وتبعاتها من الحدود والقصاص والضمان وقضاء الفوائد، كما روي أن الإسلام يجب ما قبله^٣. ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ ويرجعوا إلى قتالك، وإلى ما كانوا عليه من الأعمال السيئة، وأصرّوا على ما هم عليه من الكفر والشقاق ﴿فَقَدْ مَضَتْ﴾ وتبينت ﴿سُنَّتُ﴾ الله ومعاملته مع الأمم ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ والقرون السابقين الذين عارضوا الأنبياء، وتحزّبوا عليهم، وسيعوا كيف دمرهم الله وأهلكهم بعذابه، وجعل الأنبياء غالبيين عليهم، فليتظنّوا لأنفسهم مثل تلك المعاملة. عن العياشي: عن الباقر عليه السلام أنه قال له رجل: إني كنتُ عاملاً لبني أمية، فأصبحتُ مالاً كثيراً، فظننتُ أن ذلك لا يجلّ لي، فسألتُ عن ذلك فقيل [لي]: إن أهلك ومالك وكلّ شيء لك حرام. فقال عليه السلام: «ليس كما قالوا لك»، قال: فلي توبة؟ قال: «نعم، توبتك في كتاب الله ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾»^٤.

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ اللَّهُ فِيكُمْ فَإِنْ آنْتَهُوَا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ [٣٩ و ٤٠]

ثم أنه تعالى بعد تهديد الكفار بما أنزل على الأمم الماضية من العذاب، أمر المؤمنين بقتالهم بقوله:

١. النون: ٢٤/٢٦. ٢. بحار الأنوار ٦٧: ١٠٦/٢١، تفسير الصافي ٢: ٣٠٢. ٣. تفسير الرازي ١٥: ١٦٣. ٤. تفسير العياشي ٢: ١٩٣/١٧٧، تفسير الصافي ٢: ٣٠٢.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ وَاغْلُظُوا عَلَيْهِمْ ﴿حَتَّى﴾ أَنْ لَا تَكُونَ فِي الْأَرْضِ فِتْنَةٌ ﴿وَفَسَادٌ مِنَ الشَّرِّ﴾ وَقَبَاحٌ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَيُضْمَلُ دِينَ الْوَثْنَةِ وَسَائِرَ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ بِسَبَبِ انْقِرَاضِ أَهْلِهَا أَوْ رُجُوعِهِمْ إِلَى الْحَقِّ ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ﴾ الَّذِي بَيْنَ النَّاسِ ﴿كُلَّهُ﴾ خَالِصاً ﴿فِيهِ﴾ وَحده ﴿فَإِنْ أَتَيْتُمُوهُمْ﴾ وَارْتَدَعُوا عَنِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ، وَدَخَلُوا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فَيُجَازِيهِمْ عَلَى انْتِهَائِهِمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَرُجُوعِهِمْ إِلَى الْحَقِّ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وَأَعْرَضُوا عَنْ قَبُولِ دِينِ الْحَقِّ ﴿فَاعْلَمُوا﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ وَحَافِظُكُمْ فِي قِيَالِهِمْ، فَلَا تَبَالُوا بِعَدَوَاتِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ وَشَوْكَتِهِمْ، وَهُوَ ﴿يَنْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَالْحَافِظُ لِلصَّلَاحِ، فَإِنَّهُ لَا يُضَيِّعُ مَنْ تَوَلَّاهُ وَاعْتَمَدَ عَلَيْهِ ﴿وَيَنْصُرُ الْمُتَّقِينَ﴾ وَالْمُعِينُ لَا يَغْلِبُ مَنْ نَصَرَهُ وَأَعَانَهُ.

الكافي: عن الباقر عليه السلام: «لَمْ يَجِءْ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَخَّصَ لَهُمْ لِحَاجَتِهِ وَحَاجَةَ أَصْحَابِهِ، فَلَوْ قَدْ جَاءَ تَأْوِيلُهَا لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْتُلُونَ حَتَّى يُوحِّدُوا اللَّهَ، وَلَا يَكُونُ شِرْكَ»^١.

أقول: الظاهر أَنَّ المراد: رَخَّصَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَخْذَ الْفِدَاءِ وَالْجَزِيَّةِ، لِحَاجَتِهِ وَحَاجَةَ أَصْحَابِهِ. وعن العياشي: عن الصادق عليه السلام: «لَمْ يَجِءْ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ، وَلَوْ قَامَ قَائِمَانِ بَعْدَ، سِيرَى مَنْ يَدْرِكُهُ مَا يَكُونُ مِنْ تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَلِيَبْلُغَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ، حَتَّى لَا يَكُونَ شِرْكَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾»^٢.

وقيل: إِنَّ المراد مِنْ كَوْنِ الَّذِينَ كُلَّهُمُ اللَّهُ فِي خُصُوصِ أَرْضِ الْحِجَازِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَجْتَمِعُ دِينَانَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»^٣.

وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَهْلِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ اتَّفَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ
الَّذِينَ هُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصُوءِ وَالرَّكْبِ أَشْفَلُ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِ
فِي الْبَيْعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ
وَيَحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ [٤١ و ٤٢]

١. الكافي ٨: ٢٤٣/٢٠١، تفسير الصافي ٢: ٣٠٣.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٧٢٨/١٩٣، مجمع البيان ٤: ٨٣٤، تفسير الصافي ٢: ٣٠٣ والآية من سورة النور: ٥٥/٢٤.

٣. تفسير الرازي ١٥: ١٦٤.

في بيان خمس ثم لما أمر الله سبحانه بقتال الكفار أردفه ببيان حكم الغنيمة بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ أيها الغنائم

المؤمنون ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ وكُلَّ الذي أصبتم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ قليل أو كثير من أموال

الكفار بالقهر والغلبة، ومن التجارات والصناعات والزراعات، والكُنُوز والمعادن،

والغوص في البحار، على تفصيلٍ مذكور في الفقه، وعن الصادق عليه السلام: «هي والله الإفادة يوماً بيوم»^١

﴿فَأَنَّ اللَّهَ﴾ قيل: إن التقدير: فحكمه أن الله ﴿خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وهو الإمام إجماعاً

﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ من آل هاشم.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «نحن والله [الذين] عنى [الله] بذي القربى الذين قرنهم الله بنفسه وبرسوله

فقال: ﴿ف...﴾... وللرسول ولذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ» مِثْلَ خَاصَّةٍ. قال: «وَلَمْ

يجعل لنا في سهم الصدقة نصيباً»^٢. أكرم الله نبيه ﷺ وأكرمنا أن نطعمنا أو سَخ [ما في] أيدي

الناس»^٣.

وعن الرضا عليه السلام أنه سُئِلَ عن هذه الآية فقيل له: فما كان الله فلمن هو؟ فقال: «لرسول الله ﷺ، وما

كان لرسول الله فهو للإمام». فقيل له: أرايت إن كان صِنْفٌ من الأصناف أكثر وصنف أقل، فما يصنع

به؟ قال: «ذلك إلى الإمام، أرايت رسول الله ﷺ كيف يصنع، أليس إنما كان يُعْطَى على ما يرى؟

كذلك للإمام»^٤.

عن أحدهما عليه السلام: «خمس الله وخمس الرسول للإمام، وخمس ذي القربى لقراءة الرسول وهي

لِلإمام^٥، واليتامي يتامى آل الرسول، والمساكين منهم، وأبناء السبيل منهم، فلا يخرج مِنْهُمْ إلى

غيرهم»^٦.

وعن القمي: فمن الغنيمة يُخْرَجُ الخُمُسُ، ويُقَسَّمُ على سِتَّةِ أَسْهُمٍ: سهمٌ لله، [وسهم لرسول الله]

وسهمٌ للإمام. فسهم الله وسهم الرسول يرثه الإمام؛ فيكون للإمام ثلاثة أَسْهُمٍ من سِتَّةٍ، والثلاثة

الأَسْهُمُ لِأَيَّامِ آلِ الرُّسُولِ وَمَسَاكِينِهِمْ وَأَبْنَاءِ سَبِيلِهِمْ. وإنَّما صارت للإمام وَاحِدَةً من الخُمُسِ ثلاثة

أَسْهُمٍ، لأنَّ الله تعالى قد أَلْزَمَهُ بما أَلْزَمَ النَّبِيَّ ﷺ من تربية الأيتام، و[مُؤَن] المسلمين، وقضاء

ديونهم، وحملهم في الْحَجِّ وَالْجِهَادِ، وذلك قول رسول الله ﷺ لَمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿النَّبِيُّ أَوْلىٰ

بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾^٧، وَهُوَ أَبْ لَهِمْ، فَلَمَّا جَعَلَهُ اللهُ أَباً لِلْمُؤْمِنِينَ لَزِمَهُ مَا يَلْزَمُ الْوَالِدَ وَلَدَهُ، فقال

٢. في الكافي: لنا سهماً في الصدقة.

١. الكافي ١: ٤٥٧، تفسير الصافي ٢: ٣٠٣.

٤. الكافي ١: ٤٥٧، تفسير الصافي ٢: ٣٠٤.

٣. الكافي ١: ٤٥٣، تفسير الصافي ٢: ٣٠٤.

٦. التهذيب ٤: ٣٦١/١٢٥، تفسير الصافي ٢: ٣٠٤.

٥. في التهذيب: الرسول والإمام.

٧. الأحزاب: ٣٣/٦.

عند ذلك: «مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلَوْ رِثْتَهُ، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيَاعًا فَعَلَى الْوَالِي»^١.

أقول: هذه الروايات قد عُمِلَ بها الأصحاب، وما خالفها مؤول أو مطروح. ومما يجب فيه الخمس: المال الحلال المختلط بالحرام، ولا يتميز صاحب الحرام أصلاً، والأرض التي اشتراها الذمي من مسلم، وإنما ثبت هذان الحكمان بالروايات المعتبرة المعمول بها.

ثم لما كان قُطِعَ المُجاهدين أطعمتهم عن خمس الغنيمة صعباً عليهم، رغبهم في الالتزام به، وبين أنه من لوازم الإيمان، وأن التسليم له شكر لنعمة العظام، بقوله: «إِنْ كُنْتُمْ»، والمعنى: فسلّموا لهذا الحكم وارضوا به إن كنتم «أنتم» عن صميم القلب وخالص النية «بإلحاق» الواحد المالك لجميع الأشياء «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا» مُحَمَّدٌ ﷺ من النصر والآيات «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» الذي فُزِقَ فيه بين الحق والباطل، بظهور خوارق العادات والمعجزات الباهرات، الدالة على صدق نبينا وصحة دين الإسلام، وكان ذلك اليوم «يَوْمَ أَلْتَقَى» فيه «الْجَمْعَانِ» وتقابل الفريقان؛ فريق المؤمنين، وفريق الكفار والمشركين، بوادي بدر، فنصر الله المؤمنين مع ضعفهم وقلة عددهم وعُدَّتْهم على الكافرين مع كثرتهم وشوكتهم وقوتهم بقدرته «وَأَلَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ» من الأشياء، وإيجاد كل ممكن من الممكنات التي منها غلبة الفئة القليلة على الفئة الكثيرة «قَدِيرٌ» لا يعجزه عن إنفاذ إرادته شيء، ولا يمنعه عنه مانع.

فجِدُوا في الجهاد، وتوكلوا عليه، واطمئنوا بنصره، وقد أراكم قدرته على نصركم وغلبتكم على أعدائكم يوم بدر «إِذْ أَنْتُمْ» كنتم نازلين «بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا» والجانب الأقرب إلى المدينة من ذلك^٢ الوادي «وَهُمْ» كانوا نازلين «بِالْعُدْوَةِ الْبُعْدَى» والجانب الأبعد من المدينة والأقرب إلى مكة «وَالرَّكْبُ» والغير المقبل من الشام الذي كنتم في طلبه، نازل في مكان هو «أَسْفَلَ مِنْكُمْ» وقريب من ساحل البحر، بينه وبين المشركين ثلاثة أميال، وكان أهله مستظهِرين بهم «وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ» أنتم وأعداؤكم على القتال «لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ» وتخلفتم عنه، وخالفتم الوعد؛ لقلتكم وضعفكم وكثرة عدوكم وقوتهم، واشتظهاهم بالركب الذي كان قريباً منهم، وكونهم بالعدوة القصوى القريبة من الماء «وَلَكِنْ» ما تواعدتم، بل جمع الله بينكم وبينهم بلا سابقة وعد «لِيَقْضِيَ اللَّهُ» ويقيم «أَمْرًا» كان^٣ حقيقةً بأن يكون «مُتَعَوِّلًا» وواقعاً من نصر أوليائه، وخزي أعدائه، وظهور آثار وحدانيته ورسالة رسوله. «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ» بالكفر والطغيان «عَنْ بَيِّنَةٍ» وحجة واضحة عظيمة، وظهور دليل قوي على بطلان عقائدهم، وبعد مشاهدة الآيات الباهرة على كون معارضتهم للرسول ﷺ

١. تفسير القمي ١: ٢٧٨، تفسير الصافي ٢: ٣٠٤. ٢. في النسخة: تلك. ٣. في النسخة: حقيقياً.

مُعارضةً للحَقِّ ﴿وَيَخَيِّى مَنْ حَقَّ﴾ بَرُوح الإيمان، وتَنَوَّر قلبه بَنُور الإسلام ﴿عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ وَحُجَّة واضحة على الحَقِّ، وصدق الرُّسُول، وصحَّة دينه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لِمَقَال الفريقين ﴿عَلِيمٌ﴾ بِصَمَانِهم وأحوالهم وتَدبِير أُمُورهم على حَسَبِ اسْتِحْقَاقِهم.

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَتَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [٤٣]

ثُمَّ أَنَّهُ زُوي أَنَّهُ أَرى الله نَبِيَّهٗ ﷺ كَفَّار قُرَيْشٍ فِي مَنَامِهِ قَلِيلًا، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ أَصْحَابَهُ فَقَالُوا: زُويَا النَّبِيَّ حَقًّا، وَالْقَوْمَ قَلِيلًا، فَصَارَ ذَلِكَ سَبَبًا لِقُوَّةِ قُلُوبِهِمْ^١. فَذَكَرَهُمُ اللَّهُ تِلْكَ النُّعْمَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ لِتَخْبِيرِ بِهِ أَصْحَابِكَ، فَيَكُونُ تَثْبِيثًا لِقُلُوبِهِمْ، وَتَشْجِيعًا لَهُمْ عَلَى قِتَالِ عَدُوِّهِمْ ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ﴾ فِي مَنَامِكَ ﴿كَثِيرًا﴾ وَأَخْبِرَتْ بِكَثْرَتِهِمْ أَصْحَابَكَ ﴿لَفَشَلْتُمْ﴾ وَحَبِطَتْ فِي حَرْبِهِمْ ﴿وَلَتَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ مِنْ قِتَالِهِمْ، وَاخْتَلَفَتْ آرَاؤُكُمْ فِي الثَّبَاتِ فِي حَرْبِهِمْ وَالْفِرَارِ مِنْهُمْ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِأَنْ «سَلَّمَ» جَمَعَكُمْ مِنَ الْفُشْلِ وَالْاخْتِلَافِ فِي الرَّأْيِ وَالتَّنَازُعِ وَالْفِرَارِ ﴿إِنَّهُ﴾ تَعَالَى ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وَالْمَكُونَاتِ فِي الْقُلُوبِ، مِنْ قُوَّةِ الْإِيمَانِ وَضَعْفِهِ، وَالْجَرَأَةِ وَالْخَوْفِ، وَالصَّبْرِ وَالْجَزَعِ.

الْقَمِي ﷺ: الْمُخَاطَبَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالْمَعْنَى لِأَصْحَابِهِ^٢.

عَنْ الْبَاقِرِ ﷺ: «كَانَ إِبْلِيسُ يَوْمَ بَدْرٍ يُقَلِّلُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَعْيُنِ الْكُفَّارِ، وَيُكَثِّرُ الْكُفَّارَ فِي أَعْيُنِ الْمُسْلِمِينَ، فَشَدَّ عَلَيْهِ جَبْرِئِيلُ [بِالسَّيْفِ] فَهَرَبَ مِنْهُ وَهُوَ يَقُولُ: يَا جَبْرِئِيلُ، إِنِّي مُؤَجَّلٌ»^٣.

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ [٤٤]

ثُمَّ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ نِعْمَتَهُ الْآخَرَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ﴾ وَحِينَ بَارَزْتُمُوهُمْ ﴿فِي أَعْيُنِكُمْ﴾ مَعَ كَثْرَتِهِمْ ﴿قَلِيلًا﴾ مِنْ حَيْثُ الْعَدَدُ تَصْدِيقًا لَزُويَا النَّبِيِّ ﷺ، وَتَقْوِيَةً لِقُلُوبِكُمْ. عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: لَقَدْ قُلُّوا فِي أَعْيُنِنَا حَتَّى قُلْتُ لِرَجُلٍ إِلَى جَنْبِي: أَتَرَاهُمْ سَبْعِينَ؟ قَالَ: أَرَاهُمْ مِائَةً، فَاسْرَأْنَا رَجُلًا مِنْهُمْ، فَقُلْنَا: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: أَلْفًا^٤.

٢. تفسير القمي ١: ٢٧٨، تفسير الصافي ٢: ٣٠٦.

٤. جوامع الجامع ١٧٠، تفسير الصافي ٢: ٣٠٦.

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٥٠.

٣. الكافي ٨: ٢٧٧/٤١٩، تفسير الصافي ٢: ٣٠٦.

﴿وَيَقْلَلْكُمْ﴾ الله ﴿فِي أَغْيِيهِمْ﴾ لِيَجْتَرِبُوا عَلَيْكُمْ قَبْلَ الْقَاءِ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: إِنَّمَا هُمْ أَكَلَةٌ جَزُور. ثُمَّ كَثَّرَهُمْ فِي أَعْيُنِ الْكُفَّارِ لِنَفْجَاهُمْ الْكَثْرَةَ وَيَقْتَرِهِم الرُّعْبَ عَنِ الْقِتَالِ ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ قيل: إن التكرار لاختلاف الفعل المُعَلَّل، وهو الجمع بين الفريقين على الحالة المذكورة في الأول، وتقليل كُلِّ فريق في أَعْيُنِ الْفَرِيقِ الْآخَرِ فِي الثَّانِي ﴿وَالَى اللَّهُ تَرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ويده تصريفها يَغْلِبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَخْذُلُ مَنْ يَشَاءُ، لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاقْبِثُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الصَّابِرِينَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ [٤٥-٤٧]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ نِعْمِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَتُصْرَتِهِمْ عَلَى الْكُفَّارِ، أَمَرَهُم بِالنِّبَاتِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَطَلَبِ النِّصْرِ مِنْهُ، بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً﴾ وَجَمَاعَةً مِنَ الْكُفَّارِ فِي مَعْرَكَةِ الْقِتَالِ ﴿فَاقْبِثُوا﴾ وَوُطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الصَّبْرِ وَالتَّزَالِ، وَلَا تَخْذَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِالْفِرَارِ ﴿وَادْكُرُوا اللَّهَ﴾ بِالتَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ فِي مَوَاقِعِ الشَّدَةِ ﴿كَثِيرًا﴾ وَاطْلُبُوا مِنْهُ الصَّبْرَ وَالنِّبَاتَ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وَتَفُوزُونَ بِالنِّصْرِ وَالْعَلَّةِ، وَالتَّوْبَةِ الْآخِرِيَّةِ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَمَرَ اللَّهُ أَوْلِيَاءَهُ بِذِكْرِهِ فِي أَشَدِّ الْأَحْوَالِ، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَخْلِيَ قَلْبَهُ وَلِسَانَهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا أَقْبَلَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ يَتَّقُ الْأَمْوَالَ سَخَاءً، وَالْآخَرُ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ يَضْرِبُ بِسَيْفِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَانَ الذِّكْرُ أَعْظَمَ أَجْرًا^١.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْجِهَادُ غَيْرَ نَافِعٍ إِلَّا لِمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَتِهِمَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فِي جِهَادِ الْكُفَّارِ وَغَيْرِهِ.

ثُمَّ نَهَى عَنِ التَّنَازُعِ وَاخْتِلَافِ الْكَلِمَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ فِي أَمْرِ الْجِهَادِ، وَلَا تَخْتَلَفْ أَرَاؤَكُمْ فِيهِ كَمَا اخْتَلَفَتْ^٢ بَبْدَرٍ ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ وَتَفْشَرُوا فِيهِ وَتَضَعُفُوا عَنْهُ ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وَشَوْكُكُمْ، وَتَزُولَ دَوْلَتُكُمْ، ﴿وَأَصْبِرُوا﴾ عَلَى شِدَائِدِ الْحَرْبِ وَمَشَاقِّ مُنَازَلَةِ الْكُفَّارِ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فِي جِهَادِ أَعْدَائِهِ بِالنُّصْرَةِ وَالْحِفْظِ ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وَأَوْطَانِهِمْ إِلَى حَرْبِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿بَطَرًا﴾ وَافْتِخَارًا بِكَثْرَةِ الْعُدَّةِ وَالْعَدَدِ وَالنَّعَمِ، وَشَرَفِ الْأَبَاءِ ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾

لِيَتَنَبَّأُوا عَلَيْهِم بِالشَّجَاعَةِ وَالْمَسَاحَةِ وَالْغَلَبَةِ عَلَى الْخَصْمِ ﴿وَيُضْذَوْنَ﴾ النَّاسَ وَيَمْنَعُونَهُمْ ﴿عَنْ﴾ السُّلُوكِ فِي ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَالْذُّخُولِ فِي دِينِهِ.

ثُمَّ هَدَّاهُمُ اللَّهُ عَلَى تِلْكَ الْقَبَائِحِ يَقُولُ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْبَطْرِ وَالرِّئَاءِ وَالصَّدِّ وَغَيْرِهَا مِنَ الْقَبَائِحِ ﴿مُحِيطٌ﴾ وَمُطَّلَعٌ، فَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا أَسْوَأَ الْجَزَاءِ.

رُوي أَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا بَلَغُوا الْجُحْفَةَ^١، أَتَاهُمْ رَسُولُ أَبِي سَفْيَانَ وَقَالَ: ارْجِعُوا فَقَدْ سَلِمَتْ عَيْزُكُمْ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ وَتَهَبُ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَا وَاللَّهِ، حَتَّى نَقْدَمَ بَدْرًا وَنَشْرَبَ بِهَا الْخُمُورَ، وَتَعْرِفَ عَلَيْنَا [فِيهَا] الْقِيَانِ، وَنُطْعِمَ بِهَا مَنْ حَضَرْنَا مِنَ الْعَرَبِ؛ فَوَافَوْهَا وَلَكِنْ شَقُوا كَأْسَ الْمَنَايَا بِدَلِّ كَأْسِ الْخُمُورِ، وَنَاحَتْ عَلَيْهِمُ التَّوَانِجُ مَكَانَ تَغْنِي الْقِيَانِ، فَهَيَّاهُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ^٢.

وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمَّا بَلَغَتْ^٣ قُرَيْشُ الْجُحْفَةَ، بَعَثَ الْحَقَافَ الْكِنَانِيَّ - وَكَانَ صَدِيقًا لِأَبِي جَهْلٍ إِلَيْهِ يَهْدِيهِمْ مَعَ ابْنِ لَهٍ، فَلَمَّا أَتَاهُ قَالَ: إِنَّ أَبِي يُنْعِمُكَ صَبَاحًا، وَيَقُولُ لَكَ: إِنْ شِئْتَ أَنْ أَمُدَّكَ بِالرَّجَالِ أَمَدَ ذَلِكَ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ أَزْحِفَ إِلَيْكَ بِمَنْ مَعِيَ مِنْ قُرَابَتِي فَعَلْتُ.

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: قُلْ لِأَبِيكَ جَزَاكَ اللَّهُ وَالرَّحِمَ خَيْرًا، إِنْ كُنَّا نَقَاتِلُ اللَّهَ كَمَا يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ؛ فَوَاللَّهِ مَا لَنَا بِاللَّهِ مِنْ طَاقَةٍ، وَإِنْ كُنَّا نَقَاتِلُ النَّاسَ؛ فَوَاللَّهِ إِنْ بَنَّا عَلَى النَّاسِ لَقَوَّةً، وَاللَّهُ لَا نَرْجِعُ عَنْ قِتَالِ مُحَمَّدٍ حَتَّى نَرُدَّ بَدْرًا فَنَشْرَبَ فِيهَا الْخُمُورَ، وَتَعْرِفَ عَلَيْنَا فِيهَا الْقِيَانِ؛ فَإِنْ بَدْرًا مَوْسِمَ مِنَ مَوَاسِمِ الْعَرَبِ، وَشَوْقَ مَنْ أَسْوَاقَهُمْ، حَتَّى تَسْمَعَ الْعَرَبُ بِهَذِهِ الْوَاقِعَةِ^٤.

قِيلَ: إِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ الْعِلَتَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ - وَهُمَا الْبَطْرُ وَالرِّئَاءُ - بِصِيغَةِ الْمَصْدَرِ؛ لِأَنَّ الْأِسْمَ دَالٌّ عَلَى التَّمَكُّنِ وَالثَّبُوتِ، وَكَانَ الْوَصْفَانِ الْمَذْكُورَانِ مُتَمَكِّنَيْنِ فِيهِمْ وَمَلَكَتَيْنِ لَهُمْ، وَذَكَرَ الْعِلَّةَ الثَّالِثَةَ - وَهِيَ الصَّدُّ - بِصِيغَةِ الْمُضَارَعِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالْحُدُوثِ. لِأَنَّهَا حَصَلَتْ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ^٥.

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ أَلْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرْهُ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [٤٨ و ٤٩]

١. الجُحْفَةُ: قرية كبيرة على طريق مكة، على أربع مراحل.

٢. تفسير روح البيان ٣: ٣٥٤.

٣. في النسخة: بلغ.

٤. تفسير الرازي ١٥: ١٧٣ «نحوه».

ثُمَّ بَيَّنْ سُبْحَانَهُ أَنَّ مِنْ عِلَلِ خِذْلَانِ قُرَيْشٍ إِغْوَاءَ الشَّيْطَانِ لَهُمْ يَقُولُ: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ الفبيحة من مُعَادَاةِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَحْزِيْبِهِمْ لِقِتَالِهِ.

رُوي أَنَّ الْمُشْرِكِينَ حِينَ أَرَادُوا الْمَسِيرَ إِلَى بَدْرٍ، خَافُوا مِنْ بَنِي بَكْرِ بْنِ كِنَانَةَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَتَلُوا مِنْهُمْ وَاحِدًا، فَلَمْ يَأْتُوا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْقَوْمُ مِنْ وَرَائِهِمْ، فَتَصَوَّرَ الشَّيْطَانُ لَهُمْ بِصُورَةِ سُرَاقَةِ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ؛ وَهُوَ مِنْ بَنِي بَكْرِ بْنِ كِنَانَةَ، وَ[كَانَ] مِنْ أَشْرَافِهِمْ، فِي جُنْدٍ مِنَ الشَّيَاطِينِ^١، وَمَعَهُ رَايَةٌ^٢ ﴿وَقَالَ لِأَعْمَالِكُمْ لَكُمْ الْيَوْمَ﴾ وَلَا قَاهِرَ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ ﴿مِنْ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾ وَدَافَعَ عَنْكُمْ بَنِي كِنَانَةَ وَغَيْرِهِمْ.

﴿فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِئَتَانِ﴾ وَالْفَرِيقَانِ؛ فَرِيقَ الْمُسْلِمِينَ، وَفَرِيقَ الْمُشْرِكِينَ، وَرَأَى إِبْلِيسَ نُزُولَ الْمَلَانِكَةِ. قِيلَ: كَانَتْ^٣ يَدُهُ فِي يَدِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ^٤ ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ وَرَجَعَ الْقَهْقَرَى وَأَرَادَ الْفِرَارَ، وَقَالَ لَهُ الْحَارِثُ: أَتُخَذِلُنَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ؟! فَأَعْرَضَ عَنْهُ ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ وَمُعْرَضٌ عَنْكُمْ ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ مِنْ جُنُودِ الْمَلَانِكَةِ، فَقَالَ الْحَارِثُ: مَا نَرَى إِلَّا جَعَاشِيَشَ^٥ أَهْلَ يَثْرِبَ^٦، فَدَفَعَ الشَّيْطَانُ فِي صَدْرِ الْحَارِثِ وَانْهَزَمَ وَقَالَ: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ مِنْ أَنْ يُهْلِكَني ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

قَالَ قَتَادَةُ: صَدَقَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ وَكَذَبَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾. قِيلَ: لَمَّا رَأَى الْمَلَانِكَةُ يَنْزِلُونَ مِنَ السَّمَاءِ خَافَ أَنْ الْوَقْتَ الَّذِي أَنْظَرَ إِلَيْهِ قَدْ حَضَرَ^٧. قِيلَ: إِنْ قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ إِبْلِيسَ، وَإِنَّمَا هُوَ كَلَامُ اللَّهِ^٨. قِيلَ: لَمَّا رَجَعَتْ قُرَيْشٌ إِلَى مَكَّةَ قَالَتْ: هَزَمَ النَّاسُ سُرَاقَةَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ سُرَاقَةَ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا شَعَرْتُ بِمَسِيرِكُمْ حَتَّى بَلَغْتَنِي هَزِيمَتُكُمْ. فَعِنْدَ ذَلِكَ تَبَيَّنَ لِلْقَوْمِ أَنَّ ذَلِكَ الشَّخْصَ لَمْ يَكُنْ سُرَاقَةَ، بَلْ كَانَ شَيْطَانًا^٩.

وَعَنِ الْبَاقِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالصَّادِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا يَقْرُبُ مِنْهُ، إِلَى قَوْلِهِ: حَتَّى بَلَغْتَنِي هَزِيمَتُكُمْ. وَزَادَ: «فَقَالُوا: إِنَّكَ أَتَيْتَنَا يَوْمَ كَذَا، فَحَلَفَ لَهُمْ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ كَانَ شَيْطَانًا»^{١٠}.

٢. تفسير الرازي ١٥: ١٧٤.

١. في النسخة: الشيطان.

٣. في النسخة: كان.

٤. تفسير الرازي ١٥: ١٧٤.

٥. الجعاشيش: جمع جعشوش، وهو الرجل القصير الذميمة.

٧. تفسير الرازي ١٥: ١٧٦.

٦. تفسير روح البيان ٣: ٣٥٦.

٩. تفسير الرازي ١٥: ١٧٤.

٨. تفسير الرازي ١٥: ١٧٦.

١٠. مجمع البيان ٤: ٨٤٤، تفسير الصافي ٢: ٣٠٨.

عن العياشي: عن السَّجَّاد عليه السلام: «لَمَّا عَطِشَ الْقَوْمُ يَوْمَ بَذْرَ، انْطَلَقَ عَلَيَّ عليه السلام بِالْقِرْبَةِ يَسْتَسْقِي وَهُوَ عَلَى الْقَلْبِ^١، إِذْ جَاءَتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ ثُمَّ مَضَتْ فَلَيْتَ مَا بَدَأَ لَهُ، ثُمَّ جَاءَتْ رِيحٌ أُخْرَى [ثُمَّ مَضَتْ، ثُمَّ جَاءَتْ أُخْرَى] كَادَتْ أَنْ تَشْغَلَهُ وَهُوَ عَلَى الْقَلْبِ، ثُمَّ جَلَسَ حَتَّى مَضَتْ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا الرِّيحُ الْأُولَى فَبِهَا جَبْرِئِيلُ مَعَ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالثَّانِيَةِ فِيهَا مِيكَائِيلُ مَعَ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالثَّلَاثَةِ فِيهَا إِسْرَافِيلُ مَعَ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَقَدْ سَلَمُوا عَلَيْكَ، وَهُمْ مَدَّدُوا لَنَا، وَهُمْ الَّذِينَ رَأَاهُمْ إِبْلِيسُ فَكَصَّ عَلَى عَقْبَيْهِ يَمْشِي الْفَهْقَرَى حِينَ يَقُولُ: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾»^٢.

ثُمَّ قِيلَ: إِنَّ قَوْمًا مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْجِ كَانُوا مُتَافِقِينَ، وَأَسْلَمَ قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَكَانَ فِي قُلُوبِهِمْ شَكٌّ، وَلِذَا لَمْ يُهَاجَرُوا. ثُمَّ لَمَّا حُتَّ^٣ قُرَيْشٌ إِلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ أُولَئِكَ: نَخْرُجُ مَعَ قَوْمِنَا، فَإِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِي كَثْرَةِ خَرْجِنَا إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ فِي قِلَّةٍ أَقْمَنَّا فِي قَوْمِنَا^٤.

فَحَكَى اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُمْ حِينَ رَأَوْا قِلَّةَ الْمُسْلِمِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْجِ ﴿وَوَيْلٌ لِقُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ الشَّكُّ مِنْ قُرَيْشٍ، حِينَ رَأَوْا كَثْرَةَ الْمُشْرِكِينَ وَقِلَّةَ الْمُسْلِمِينَ: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءُ﴾ الْمُسْلِمِينَ ﴿وَيُنْهَمُ﴾. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: مَعْنَاهُ أَنَّهُ خَرَجَ بِثَلَاثِمِائَةٍ وَثَلَاثَةِ عَشَرَ يُقَاتِلُونَ أَلْفَ رَجُلٍ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُمْ اعْتَمَدُوا عَلَى دِينِهِمْ^٥.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ يَسْعَوْنَ فِي قَتْلِ أَنْفُسِهِمْ رَجَاءً أَنْ يُجْعَلُوا أَحْيَاءَ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيُثَابُونَ عَلَى هَذَا الْقَتْلِ^٦.

وَقِيلَ: إِنَّهُمْ قَالُوا: هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ خَرَجُوا مَعَ قِلَّةٍ عَدَّاهُمْ لِحَرْبِ قُرَيْشٍ مَعَ كَثْرَتِهِمْ وَشَوْكَتِهِمْ، وَلَا شَكَّ أَنَّ قُرَيْشًا تَغْلِبُهُمْ. فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وَيُثِقْ بِهِ، وَيُسَلِّمْ إِلَيْهِ أُمُورَهُ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ وَغَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، لَا يَخْذُلُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَاسْتَجَارَ بِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي فِعَالِهِ، يَفْعَلُ مَا فِيهِ صَلَاحُ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ خَارِقًا لِلْعَادَةِ.

وَقَدْ سَبَقَ عَنِ الْقُشَيْرِيِّ: أَنَّ فَتْيَةً مِنْ قُرَيْشٍ أَسْلَمُوا بِمَكَّةَ فَاحْتَسِبَهُمْ آبَاؤُهُمْ، فَخَرَجُوا مَعَ قُرَيْشٍ إِلَى بَذْرَ وَهُمْ عَلَى الشَّكِّ وَالْارْتِيَابِ وَالتَّخَافِ؛ مِنْهُمْ قَيْسُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَأَبُو قَيْسِ بْنِ الْفَاكِهِ، وَالْحَارِثُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَعَلِيُّ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ خُلْفٍ، وَالْعَاصِمُ بْنُ الْمُنَبِّهِ، فَلَمَّا نَظَرُوا إِلَى قِلَّةِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالُوا: مَسَاكِينُ هَؤُلَاءِ غَرَّاهُمْ دِينُهُمْ، فَيَقْتُلُونَ السَّاعَةَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ [عَلَى رَسُولِهِ]: ﴿إِذْ يَقُولُ

٢. تفسير العياشي ٢: ٢٠٣/١٧٥٠، تفسير الصافي ٢: ٣٠٨.

١. القليب: البشر.

٦. تفسير الرازي ١٥: ١٧٧.

٤ و ٥. تفسير الرازي ١٥: ١٧٦.

٣. في النسخة: حث.

الْمُنَافِقُونَ^١ إلى آخره.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ
وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ
لِّلْعَبِيدِ [٥١ و ٥٠]

ثم بين سبحانه كيفية موت المشركين في بدر وتعذيبهم، بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا محمد ﴿إِذْ يَتَوَفَّى
الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويقبض أرواحهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون على قبض الأرواح، وهم بعد قبض
أرواحهم ﴿يَضْرِبُونَ﴾ بمقامع من حديد تلتهم منها النار - على ما قيل - ﴿وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ﴾
وظهورهم - وعن العياشي: إنما أراد أستاذهم^٢، إن الله كريم يُكَيِّسُ^٣ - ﴿وَقُلُوبُهُمْ﴾ يقولون: ﴿ذُوقُوا﴾
وأطعموا أيها المشركون بعد القتل والخزي في الدنيا ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ وألم النار المحرقة.
عن ابن عباس: قول الملائكة: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ إنما صح لأنه كان مع الملائكة مقامع كلما
ضربوا بها التهبّت النار في الأجزاء والأعضاء^٤.

ثم بين سبحانه علة استحقاقهم بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من الضرب، وذوقهم عذاب النار، يكون
﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ وما كسبت جوارحكم باختياركم؛ من الشرك والمعاصي، ومعارضة الرسول
﴿وَقُلُوبُهُمْ﴾ بسبب ﴿أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ يعطي كل ما يستحقه، فلا يدخل المطيع النار، ولا
المسيء الجنة.

كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ
اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ [٥٢]

ثم بين سبحانه أن عادة قريش ودأبهم في معاندة الحق، ومعارضة الرسول ﷺ ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ
وَالْكُفَّارِ﴾ الَّذِينَ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ وسيرتهم في تكذيب آيات الله ومعجزات الرسول، تكون
كسيرتهم.

ثم كأنه قيل: ما كان دأب آل فرعون وأضرابهم؟ فأجاب بقوله: ﴿كَفَرُوا﴾ وكذبوا ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾
ومعجزات رُسله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ وعذبهم بالغرق والريح والصاعقة ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ الموثقة، كما أخذ

٢. الاست: العجز.

١. تفسير القمي ١: ٢٦٦.

٤. تفسير الرازي ١٥: ١٧٨.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٧٥١/٢٠٤، تفسير الصافي ٢: ٣٠٩.

هؤلاء المشركين بالقتل والخزي، بشرکہم ومعارضتهم الرسول ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ لا يعجزه شيء ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على المشركين به، المعارضين لرسله. وفيه تسلية النبي ﷺ، وتهديد سائر الكفار.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [٥٣]

ثم نبه سبحانه على علة عدم ابتلاء العاصي قبل المعصية بالعذاب، وعدم أخذه بالشقاوة الذاتية التي تكون له في بطن أمه، بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ التعذيب بعد النعمة، والأخذ بعد الاشترسال، مُلَلٌّ ﴿بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ﴾ من دأبه ومقتضى حكمته أن يكون ﴿مُغَيِّرًا﴾ ومبدلاً ﴿نِعْمَةً أَنْعَمَهَا﴾ وتفضل بها ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ من العقل والصحة، والراحة وسعة العيش، وغيرها ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من الأحوال والأخلاق والأعمال التي كانوا عليها حين وجدان تلك النعمة، إلى أسوأها، كما غيرت قريش حالها في صلة الرِّحِم وعدم التعرض للآيات، إلى قطع الرِّحِم والتكذيب بالآيات ومُعجزات الرسول، ﴿وَ﴾ نظائرها ﴿أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون في السابق واللاحق، فيرتب على كل منها ما يليق به من إبقاء النعمة عليه وتغييرها.

كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَآلِزَيْنِ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ [٥٤-٥٦]

ثم أكد سبحانه مشابهة دأب مشركي قريش بدأب كفار الأمم السابقة بقوله: ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَ﴾ الكفار ﴿آلِزَيْنِ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كقوم نوح وعاد وسمود، من حيث إنهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنعم عليهم، وجحدوها ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أهلكنا عتاة قريش ﴿وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ ومن معه من القبط في البحر ﴿وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ على الله^٢ بتضييع حقوق نعمه، وعلى أنفسهم بتعريضها للهلاك.

قيل: هذه الآية تفصيل للآية الأولى^٣.

ثم أنه تعالى بعد بيان مساواة الكفار في الظلم، بين أن شرهم الناقضون للعهد، بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ

الذَّوَابِّ» والحيوانات المتحركة^١ على وجه الأرض «عِنْدَ أَقْعٍ» وفي حكمه «الَّذِينَ كَفَرُوا» بالله «فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» أبداً، لُحِثَ ذاتهم، وشِدةً عنادهم ولجاجهم «الَّذِينَ عَاهَدْتَ» بعضاً «بِهِمْ» مرّات «ثُمَّ يَنْقُضُونَ» ويخالفون «عَهْدَهُمْ» الذي أخذت منهم «فِي كُلِّ مَرَّةٍ» من مرّات المعاهدة «وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ» الله، ولا يحترزون سيّنة العَدْرِ، ولا يبالون العارَ والتَّارَ.
عن ابن عباس: هُم يَهُودُ قَرْيَظَةَ^٢.

قيل: إِنَّهُمْ عَاهَدُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَنْ لَا يَعِينُوا عَلَيْهِ عَدُوًّا، فَنَقَضُوا [العهد] وأعانوا أهل مَكَّةَ يَوْمَ بَدْرٍ بِالسَّلاحِ، ثُمَّ قالوا: نَسِينَا وَأَخْطَأْنَا، ثُمَّ عَاهَدَهُمْ عَلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى فَنَكَّثُوا وأعانوا المشركين عليه يَوْمَ الْخَنْدَقِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا غَلْبَةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمَشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ قالوا: إِنَّهُ هُوَ النَّبِيُّ الْمَوْعُودُ، بَعَثَهُ [الله] فِي آخِرِ الزَّمَانِ، فَلَا جَرَمَ يَتِمُّ أَمْرُهُ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى مُحَارَبَتِهِ، ثُمَّ [أنهم] لَمَّا رَأَوْا يَوْمَ أُحُدٍ مَا وَقَعَ مِنْ نَوْعِ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ شَكُّوا، وَقَدْ كَانَ احْتَرَقَ كَيْدُهُمْ بِنَارِ الْحَسَدِ مِنْ ظُهُورِ دِينِهِ وَقُوَّةِ أَمْرِهِ، فَرَكِبَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ سَيْدَ بَنِي قَرْيَظَةَ مَعَ أَصْحَابِهِ إِلَى مَكَّةَ، وَوَاتَّقُوا الْمَشْرِكِينَ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ^٣.
وعن القمّي: هُم أَصْحَابُهُ الَّذِينَ فَرَّوْا يَوْمَ أُحُدٍ^٤.

فَإِذَا تَثَقَّفْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ * وَإِنَّمَا تَخَافَنَ
مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ [٥٧ و ٥٨]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَمِّ الْكُفَّارِ النَّاقِضِينَ للعهد بِأَنَّهُمْ شَرَّهُمْ، أَمْرَ نَبِيِّهِ ﷺ بِالْتَّعْلِيلِ وَالتَّشْدِيدِ عَلَيْهِمْ، بِقَوْلِهِ: «فَإِذَا تَثَقَّفْتَهُمْ» وَتَطَفَّرَ بِهِمْ «فِي» تَضَاعِيفِ «الْحَرْبِ» وَالْقِتَالِ «فَشَرَّدَ بِهِمْ» وَفَرَّقَ بِسَبَبِ قَتْلِهِمْ وَتَنكِيلِهِمْ «مَنْ» يَكُونُ «خَلَقَهُمْ» وَمَنْ وَرَانَهُمْ مِنْ أَعْدَانِكَ، وَأَوْقَعَ بِالنَّاقِضِينَ مِنَ النِّكَايَةِ وَالْقَهْرِ مَا يَضْطَرُّ بِهِ حَالُ غَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَيَخَافُ مِنْكَ أَمْثَالَهُمْ، بِحَيْثُ يَذْهَبُ عَنْهُمْ بِالْكَلْبَةِ مَا يَخْطِرُ بِإِلَهُمْ مِنْ مُعَادَاتِكَ وَمُحَارَبَتِكَ «لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ» وَيَتَعَطَّوْنَ بِمَا شَاهَدُوا مِنْ مُعَامَلَتِكَ مَعَ النَّاقِضِينَ، فَيَرْتَدُّوا مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ «وَإِنَّمَا تَخَافَنَ» وَتَعْلَمَنَّ بِالْأَمَارَاتِ «مِنْ قَوْمٍ» عَاهَدُوكَ عَلَى أَمْرِ «خِيَانَةٍ» وَنَقَضَ عَهْدَ «فَانْذِرْ» وَاطْرَحَ «إِلَيْهِمْ» عَهْدَهُمْ «عَلَى سَوَاءٍ» وَبَطَرِيقِ الْاِقْتِصَادِ، بِأَنْ تُخْبِرَهُمْ إِخْبَارًا وَاضِحًا بِأَنَّكَ أَلْغَيْتَ عَهْدَهُمْ، وَقَطَعْتَ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْوُضْلَةِ، وَلَا

٢. تفسير الرازي ١٥: ١٨٢.

٤. تفسير القمّي ١: ٣٧٩، تفسير الصافي ٢: ٣١١.

١. في النسخة: المتحركين.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٣٦٢.

تَقْدِم على حربهم في حال كونهم على توهم بقاء العهد، كي لا يتوهم في حَقك شائبة الخيانة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ وفي هذا التذييل^١ دلالة على قُبْح الخيانة ومَبْغُضِيَّتِهَا لله مُطْلَقاً، سواء كانت في العهد أو غيره، مع الرَسُول أو مع غيره. الثَّمِي: نزلت في معاوية لما خان أمير المؤمنين عليه السلام^٢.

وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ [٥٩]

ثم أنه تعالى بعد الأمر بتَشْدِيد النبي ﷺ على الناقضين للعهد ومعاملتهم معهم مُعاملة يعتبر بها غيرهم، وقد فاتته تعالى يومٌ يدر بعض من بلغ في أذية النبي ﷺ ونقض عهده مَبْلَغاً عظيماً، سَلَاه سُبْحانه ووعده بِالظَّفَر بهم، لثَلَا يبقى في قلبه الشَّرِيف حَسرة، بقوله: ﴿وَلَا يَخْسِبَنَّ﴾ ولا يتوهم^٣ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ونقضوا عهد النبي ﷺ، وَلَمْ يظَفَر بهم أَنَّهُمْ ﴿سَبَقُوا﴾ وأفلتوا من أن يُعاقبوا، فَلْيَعْلَمُوا ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ الله من أن يظهر بعد، أو المُراد: لا يجدون الله الذي هو طالبهم عاجزاً من إدراكهم.

وقيل: إن المُراد أَنَّهُمْ لا يحسبوا بتخلُّصهم من الأسر والقَتْل أَنَّهُمْ يخلُصون من عقاب الله وعَذابه في الآخرة، إِنَّهُمْ لا يعجزون الله بهذا السَّبِق والتخلُّص، من الانتقام منهم في الآخرة.

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِمُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ [٦٠]

ثم أنه تعالى لما أمر النبي ﷺ بتَشْدِيد الناقضين للعهد، ونقض عهد من يخاف منه النقص، أمر المؤمنين بالإعداد لهؤلاء الكُفَّار والتهيز لِقِتَالهم، بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ لِقِتَال الكُفَّار وهَيِّئُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ. وما بلغ وسُعُكم ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ وعُدَّة، كأننا ما كان من سلاح وقِيَّ وثَرَس وغيرها. قيل: إنه لما اتَّفَق لأصحاب النبي ﷺ في قضية^٥ بدر أن قَصَدُوا الكُفَّار بِلا آلَةٍ ولا عُدَّة، أمرهم الله أن لا يعودوا لِمِثْلِه، وأن يَعُدُّوا [لِلْكَفَّار] ما يُمْكِنهم من آلَةٍ وقُوَّة^٦.

عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ آيَةَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَقَالَ «أَلَا أَنَّ الْقُوَّةَ الرِّمِي» ثلاثاً^٧. وقيل: هي الحُصُون^٨.

١. في النسخة: التذليل. ٢. تفسير القمي ١: ٢٧٩، تفسير الصافي ٢: ٣١١. ٣. في النسخة: ولا يتوهم.

٤. في تفسير الرازي: أصحاب.

٥. في تفسير الرازي: قصة. ٦. تفسير الرازي: ١٨٥/١٥.

٧. تفسير الرازي: ١٨٥/١٥.

٨. تفسير أبي السعود ٤: ٣٢.

وعن الصادق عليه السلام: «سيف وثرس»^١. وفي الفقيه: عنه عليه السلام: «منه الخضاب بالسواد»^٢.

وعن القمي: السلاح^٣.

وقيل: عام، في كل ما يتقوى به على حرب العدو من الآلات، والحصون، والعلوم المرتبطة به.

«وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ» وأفراس مرتبطة في سبيل الله. وعن عكرمة: الإناث منه^٤.

وزوي: عليكم بآيات الخيل، فإن ظهورها حرراً وبطونها كنزاً^٥.

وفي الحديث: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً به وتصديقاً بوعده، فإن شيعه ورثه وزوته ونزله في ميزانه [يوم القيامة]»^٦.

ثم بين سبحانه علة إيجاب الإعداد للحرب بقوله: «تَزْهِيُونَ» بالإعداد وشرعون «بِهِ» كفار قریش الذين يكونون «عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» لكونكم أولياء الله «وَأَعْدَاءُ» آخرين من دُونِهِمْ «وَيَمْنَعُهُمْ مِنَ الْكُفْرَةِ: كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُنَافِقِينَ لَا تَعْلَمُونَهُمْ» ولا تعرفونهم جميعاً ليفاقهم «اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ» ويعرفهم.

ثم أنه تعالى بعد الأمر بتحصيل القوة للحرب، رغب المسلمين ببدل المال [بقوله]: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ووجه الخير التي أهمها الجهاد «يُؤْتِ» ويوصل «إِلَيْكُمْ» جزاءه كاملاً في الآخرة «وَأَنْتُمْ لَا تَنْظُرُونَ» بترك الإثابة أو تنقيصها.

عن ابن عباس قال: «يُؤْتِ إِلَيْكُمْ» أي لا يضع في الآخرة أجره، ويُعَجِّلَ الله عوضه في الدنيا، «وَأَنْتُمْ لَا تَنْظُرُونَ» أي لا تنفقون من الثواب.

وزوي أنه «من أعان مجاهداً في سبيل الله، أو غارماً في عشرته، أو في مكاتباً في رقبته، أظله الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه»^٧.

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [٦١]

ثم أنه تعالى بعد الأمر بالإعداد للحرب، أمر بإجابة الكفار إذا سألوا الصلح بقوله: «وَإِنْ جَنَحُوا» ومالوا «لِلْسَّلْمِ» والمصالحة وطلبوها منك «فَاجْنَحْ لَهَا» ويل إليها إن رأيت الصلاح فيها «وَتَوَكَّلْ

١. تفسير العياشي ٢: ١٧٥٣/٢٠٤، تفسير الصافي ٢: ٣١٢.

٢. من لا يحضره الفقيه ١: ٢٨٢/٧٠، تفسير الصافي ٢: ٣١٢.

٣. تفسير القمي ١: ٢٧٩، تفسير الصافي ٢: ٣١٢.

٤ و ٥. تفسير الرازي ١٥: ١٨٥.

٦. تفسير روح البيان ٣: ٣٦٥.

٧. تفسير روح البيان ٣: ٣٦٦.

٨. تفسير الرازي ١٥: ١٨٧.

عَلَى اللَّهِ، وَفُرضَ الأمرُ في مُعاهدتك معهم إليه، فَإِنَّهُ يَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ إِذَا تَقَضَوْهَا وَعَدَلُوا عَنِ الْوَفَاءِ بِهَا ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لمقاتلتهم الحَقِيَّةَ الجِداعية، وبضماثرهم السيئة مِن إبطائهم المكر في الصلح.

قيل: إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بقوله: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^١، وقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^٢.

وعن الثَّمَنِي: أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بقوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾^٣.

أقول: في الجميع نظر.

وعن الصادق عليه السلام أَنَّهُ سَثَلَ: مَا السَّلَمُ؟ قال: «الدُّخُولُ فِي أَمْرِنَا»^٤.

أقول: الرواية مُناسبة لقوله: ﴿ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كُلَّكُمْ﴾^٥، ولا رِبْطُ لَهَا بهذه الآية.

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ

* وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ

وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [٦٢ و ٦٣]

ثُمَّ أَكَّدَ شَبَاحَهُ وَجُوبَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ عِنْدَ الْخَوْفِ مِنْ تَقْضِهِمُ الْعَهْدَ بقوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ في طلب الصلح، ويمكروا بك بقبض العهد، فلا تبال بهم ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ وكفاك من شرهم، وينصرك عليهم، فإنه تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ﴾ وقواك ﴿بِنَصْرِهِ﴾ يوم بدر وغيره من أيام عَمْرِكَ ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ من المهاجرين والأنصار بعد بعثتك ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بعد أن كان بينها من التباعد والبغضاء قبل الإيمان بك، بحيث ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لتؤلف قلوبهم ﴿مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لا ممتناعه بالأسباب العادية ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ بقدرته الكاملة ﴿أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ قلباً وقالباً، فصاروا بقدرته وتوفيقه كنفس واحدة ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ وغالب على أمره، لا يستعصي شيءٌ مما يُريد ﴿حَكِيمٌ﴾ وعالم بمصالح الأمور وتدبيرها.

الثَّمَنِي: كان بين الأوس والخزرج حَرْبٌ شديدة وعداوة في الجاهلية، أَلَّفَ الله بين قلوبهم ونصر بهم نبيه ﷺ.

١. التوبة: ٥/٩. ٢. تفسير الرازي ١٥: ١٨٧، والآية من سورة التوبة: ٢٩/٩.

٣. تفسير القمي ١: ٢٧٩، تفسير الصافي ٢: ٣١٢، والآية من سورة محمد ﷺ: ٤٧/٣٥.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٧٥٥/٢٠٤، تفسير الصافي ٢: ٣١٢.

٥. البقرة: ٢٠٨/٢.

٦. تفسير القمي ١: ٢٧٩، تفسير الصافي ٢: ٣١٣.

قيل: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بُعِثَ إِلَى قَوْمٍ أَنْفَعَتُهُمْ شَدِيدَةٌ، وَحَمَيْتَهُمْ عَظِيمَةٌ، حَتَّى لَوْ لَطِمَ رَجُلٌ مِنْ قَبِيلَةٍ لَطْمَةً، قَاتَلَ عَنْ قَبِيلَتِهِ حَتَّى يُدْرِكُوا ثَأْرَهُ، ثُمَّ انْقَلَبُوا مِنْ تِلْكَ الْحَالَةِ حَتَّى قَاتَلَ الرَّجُلُ [أَخَاهُ وَ] أَبَاهُ وَابْنَهُ وَاتَّقُوا عَلَى طَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَصَارُوا أَنْصَارًا، وَعَادُوا أَعْوَانًا^١.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [٦٤]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ مَا وَعَدَ نَبِيَّهُ ﷺ بِالنَّصْرِ عِنْدَ خَدِيعَةِ الْأَعْدَاءِ، وَعَدَهُ بِالنَّصْرِ فِي جَمِيعِ الْأَوَاقَاتِ، وَعَلَى جَمِيعِ الْكُفَّارِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ وَكَافِيكَ فِي دَفْعِ شَرِّ أَعْدَاكَ، ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وَقِيلَ: إِنَّ الْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ كَافِيكَ وَكَافِي أَتْبَاعِكَ^٢.
قِيلَ: نَزَلَتْ بِالْبَيِّنَةِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ قَبْلَ الْقِتَالِ تَقْوِيَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ وَتَسْلِيَةً لِأَصْحَابِهِ^٣.
وَقِيلَ: لَمَّا أَسْلَمَ عُمَرُ وَبَلَغَ بِإِسْلَامِهِ عَدَدَ الْمُؤْمِنِينَ أَرْبَعِينَ نَزَلَتْ الْآيَةُ^٤.
وَفِي (نَهْجِ الْحَقِّ): رَوَى الْجُمْهُورُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ^٥. وَذَكَرَهُ^٦ صَاحِبُ (كَشْفِ الْغُمَةِ) عَنْ كِتَابِ عِزِّ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ الْمُحَدِّثِ الْحَنْبَلِيِّ^٧.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ [٦٥]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ تَقْوِيَةِ قَلْبِ نَبِيِّهِ ﷺ أَمْرَهُ بِتَحْرِيزِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَحُثَّنَهُمْ ﴿عَلَى الْقِتَالِ﴾ مَعَ أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَبَالَغَ فِي تَرْغِيهِمْ إِلَيْهِ بِوَعْدِ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ عَلَى فِعْلِهِ، وَالْعِقَابِ الشَّدِيدِ عَلَى التَّعُودِ عَنْهُ، وَقُلْ لَهُمْ: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿عَشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ عَلَى الشَّازِلَةِ فِي مَعْرَكَةِ الْقِتَالِ ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ﴾ صَابِرَةٌ ﴿يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَهَذَا الضَّعْفُ فِي الْكُفَّارِ مُعَلَّلٌ ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وَلَا يُدْرِكُونَ الْحَقَّ، وَلَا يَعْرِفُونَ اللَّهَ، وَلَا يَعْتَقِدُونَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ حَتَّى يَقَاتِلُوا اقْتِرَابًا^٨ إِلَى اللَّهِ، وَتَوَكَّلًا^٩ عَلَيْهِ، وَرَجَاءً لِلثَّوَابِ، بَلْ يَقَاتِلُونَ بِهَوَى النَّفْسِ، وَبِالْأَغْرَاضِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَلِذَا يَسْتَحَقُّونَ الْجِزْيَةَ وَالْقَتْلَ، وَلَا يَسْتَحَقُّونَ النَّصْرَ.

٢. تفسير الرازي ١٥: ١٩١.

١. تفسير الرازي ١٥: ١٨٩.

٦. في النسخة: وذكر.

٥. نهج الحق: ١٨٥.

٣ و ٤. تفسير روح البيان ٣: ٣٦٨.

٩. في النسخة: ومتوكلاً.

٧. كشف الغمة ١: ٣١٢. ٨. في النسخة: متفرجاً.

وقيل: إذا كانوا يقاتلون لهذه الأغراض الفاسدة يشحون على أنفسهم وحياتهم، ولا يعرضونها للزوال؛ ولذا أمر المسلمون بالثبات في مقابل عشر أمثالهم منهم.

الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين [٦٦]

ثم لما شق التكليف على المسلمين حتى صبح المهاجرون - كما عن ابن عباس - وقالوا: يا رب، نحن جباة وأعداؤنا شباة، ونحن في غربة وأعداؤنا في أهلهم، ونحن قد أخرجنا من ديارنا وأموالنا وأولادنا وأعداؤنا ليسوا كذلك. وقال الأنصار: شغلنا بعدونا، وإسبنا إخواننا، فنزل التخفيف بقوله: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ برفع التكليف السابق ﴿وعلم أن فيكم ضعفاً﴾ عن المقاومة في قبال عشر أمثالكم بأن يقاتل الواحد عشرًا، والعشرة مائة، والمائة ألفاً ﴿فإن يكن﴾ من بعد ﴿منكم مائة صابرة﴾ على مشاق الحرب، ثابتة الأقدام في معركة الزلزال ﴿يغلبوا﴾ ويقهروا ﴿مائتين﴾ من الكفار ﴿وإن يكن منكم ألف﴾ في ميدان القتال ﴿يغلبوا ألفين﴾ من الكفار ﴿بإذن الله﴾ وقدرته وتيسيره وتسهيله ﴿والله﴾ بنصره وتأييده ﴿مع الصابرين﴾ في جهاد أعدائه.

رُوي أن النبي ﷺ كان يبعث العشرة إلى وجه المائة، وبعث حمزة رضي الله عنه في ثلاثين راكباً قبل بدر إلى قوم، فلقيهم أبو جهل في ثلاثمائة راكب، وأرادوا قتالهم فمنعهم حمزة، وبعث رسول الله ﷺ عبدالله بن أنيس إلى خالد بن صفوان الهذلي وكان في جماعة، فابتدر عبد الله وقال: يا رسول الله، صفه لي، فقال: «إنك إذا رأيته ذكرت الشيطان، ووجدت لذلك قشعريرة، وقد بلغني أنه جمع لي، فاخرج إليه واقتله»، قال: فخرجت نحوه، فلما دنوت منه وجدت القشعريرة، فقال لي: من الرجل؟ قلت له: من العرب، سمعت بك وبجمعك. ومشيت معه حتى إذا تمكنت منه قتلتها بالسيف، وأسرعني إلى رسول الله ﷺ وذكرت أنني قتلتها، فأعطاني عصاً وقال: «أمسكها، فإنها آية بيني وبينك يوم القيامة»^٣.

ثم إن هذا التكليف شق على المسلمين فأزاله الله بهذه الآية. وقال ابن عباس: أيما رجل فر من ثلاثة فلم يفر، فإن فر من اثنين فقد فر^٤. وعن أمير المؤمنين رضي الله عنه:

٣. تفسير الرازي ١٥: ١٩٤.

٢. تفسير الرازي ١٥: ١٩٤.

٤. تفسير الرازي ١٥: ١٩٤.

«مَنْ قَرَّ مِنْ رَجُلَيْنِ فِي الْقِتَالِ مِنَ الرَّحْفِ فَقَدْ قَرَّ مِنَ الرَّحْفِ، وَمَنْ قَرَّ مِنْ ثَلَاثَةِ رِجَالٍ [فِي الْقِتَالِ مِنَ الرَّحْفِ] فَلَمْ يَفِرْ»^١.

وعن الصادق عليه السلام، في حديث ذكر فيه هذه الآية فقال: «نَسَخَ الرَّجُلَانِ الْعَشْرَةَ»^٢.

قيل: كان فيهم قلة أولاً، فأمرُوا بذلك، ثم لما كثروا خفف الله عنهم.

أقول: يُشَمُّ ذلك من الآيتين، حيث ذكر في الآية الأولى غلبة العشرين على مائتين، ومائة على ألف، وفي الثانية غلبة مائة على مائتين، وألف على ألفين.

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا
وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [٦٧]

ثم أنه تعالى بعد بيان حكم الجهاد، والأمر بالمسالمة إذا طلبها الكفار، بين حكم الأسارى والغنائم بقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَمَا صَحَّ لَهُ أَنْ يَكُونَ﴾ ويثبت ﴿لَهُ أَسْرَى﴾ وسبباً ﴿حَتَّى يُفْخَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ ويكثر القتل ويبلغ فيه، حتى يدل الكفر ويقل حزبه ويعز الإسلام.

رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى يَوْمَ بَدْرٍ بِسَبْعِينَ أَسِيرًا فِيهِمُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَعَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَاسْتَشَارَ فِيهِمْ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: [هَمْ] قَوْمُكَ وَأَهْلُكَ، اسْتَبَقْتَهُمْ لَعَلَّ اللَّهَ يَهْدِيهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَخَذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً تُقَوِّي بِهَا أَصْحَابَكَ. وَقَالَ عُمَرُ: كَذَّبُوكَ، وَأَخْرَجُوكَ مِنْ دِيَارِكَ، وَقَاتَلُوكَ، فَاضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ، فَإِنَّهُمْ أَمَّةُ الْكُفْرِ، مَكَّنِي مِنْ فُلَانٍ؛ نَسِيبَ لِي، وَ[مَكَّنَ] عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ، وَحِمَزَةً مِنَ الْعَبَّاسِ، فَلْنَضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ فَلَمْ يَهْوِ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لِلثَلَاثِينَ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَلْفَيْنِ مِنَ اللَّبَنِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُشَدِّدُ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْجِجَارَةِ، وَإِنْ مَثَلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ كَغُفُورٍ رَحِيمٍ﴾^٣، وَمِثْلَكَ يَا عُمَرُ مِثْلَ نُوحٍ قَالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^٤.

فَخَيَّرَ أَصْحَابَهُ بِأَن يَقُولَ لَهُمْ: «إِنْ شِئْتُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَطْلَقْتُمُوهُمْ، بِأَن تَأْخُذُوا مِنْ كُلِّ أَسِيرٍ عِشْرِينَ أَوْقِيَةً - وَالْأَوْقِيَةُ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا فِي الدَّرَاهِمِ، وَسِتَّةَ دَنَانِيرٍ فِي الدَّنَانِيرِ - عَلَى^٥ أَنْ يَسْتَشْهَدَ مِنْكُمْ بِعِدَّتِهِمْ»، فَقَالُوا: بَلْ نَأْخُذُ الْفِدَاءَ وَنَدْخُلُ مِثْلَ الْجَنَّةِ سَبْعُونَ، فَاسْتَشْهَدُوا يَوْمَ أَحَدٍ بِسَبَبِ قَوْلِهِمْ هَذَا وَأَخَذَهُمُ الْفِدَاءَ، فَتَلَّتْ الْآيَةَ فِي فِدَاءِ أُسَارَى بَدْرٍ، فَدَخَلَ عُمَرُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ أَبُو بَكْرٍ

١. تفسير العياشي ٢: ١٧٥٨/٢٠٧، تفسير الصافي ٢: ٣١٣.

٢. الكافي ٥: ١٧/٦٩، تفسير الصافي ٢: ٣١٣. ٣. إبراهيم: ٣٦/١٤. ٤. نوح: ٢٦/٧١.

٥. في تفسير روح البيان: إلا.

يُكَيِّبَانِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي، فَإِنْ أَجَدْتُ بَكَاءَ أَبِيكَ وَإِلَّا تَبَاكَيْتُ، فَقَالَ: «أَبُكِي عَلَى أَصْحَابِكَ فِي أَخْذِهِمُ الْفِدَاءِ، وَلَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ»^١.

وَرَوَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ: «لَا تَخْرُجُوا أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا بِفِدَاءٍ، أَوْ بِضَرْبِ عِقْ»، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «إِلَّا سَهِيلًا^٢ بِنَ بَيْضَاءَ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَذْكُرُ الْإِسْلَامَ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَام وَاشْتَدَّ خَوْفِي، ثُمَّ قَالَ مَنْ بَعْدَ: «إِلَّا سَهِيلٌ بِنَ بَيْضَاءَ»^٣.

وَعَنْ ابْنِ سِيرِينَ: كَانَ فِدَاؤُهُمْ مِائَةَ أَوْقِيَّةٍ^٤.
وَقِيلَ: أَنَّ الْأَسْرَى مِنْهُمْ مَنْ قُدِّي، وَمِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ، وَمِنْهُمْ مَنْ خُلِّيَ سَبِيلُهُ مِنْ غَيْرِ فِدَاءٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَاتَ^٥.

ثُمَّ لَمْ يَلْهِمْ شُبْحَانَهُ عَلَى اخْتِذِ الْفِدَاءِ بِقَوْلِهِ: «تُرِيدُونَ» أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِأَسْرِهِمْ وَأَخْذِ الْفِدَاءِ مِنْهُمْ «عَرَضَ الدُّنْيَا» وَزَخَارِفُهَا الَّتِي تَزُولُ وَلَا تَبْقَى «وَاللَّهُ يُرِيدُ» لَكُمْ «الْآخِرَةَ» وَتَوَابِهَا الَّذِي يَكُونُ قَلِيلَهُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، فَعَلَيْكُمْ بِطَلَبِ الْآخِرَةِ «وَاللَّهُ عَزِيزٌ» وَقَادِرٌ يَجْمَعُ لَكُمْ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَيُغْلِبْكُمْ عَلَى أَعْدَانِكُمْ «حَكِيمٌ» بِحِكْمَتِهِ يُدَبِّرُ مَصَالِحَ عِبَادِهِ وَأَوْلِيَانَهُ.

قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنَا بِالْإِثْنَانِ وَمَنْعَ عَنِ الْإِفْتِدَاءِ حِينَ كَانَتِ الشُّوْكَةُ لِلْمُشْرِكِينَ، وَلَمَّا تَحَوَّلَتْ الْحَالُ وَصَارَتْ الْعَلَّةُ لِلْمُسْلِمِينَ، خَيْرٌ بَيْنَ الْمَنِّ وَالْفِدَاءِ^٦.

فِي الرَّدِّ عَلَى الْقَوْلِ قَالَ بَعْضُ الْعَامَّةِ: الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مُجْتَهِدُونَ، لِأَنَّ اللَّوْمَ لَا يَكُونُ عَلَى مَا يَسْمَعُ الْأَنْبِيَاءُ
بِمَعْمَلِ الْأَنْبِيَاءِ صدر عن الوحي، وَلَا عَلَى فِعْلٍ مَا هُوَ صَوَابٌ، بَلْ يَكُونُ عَلَى مَا كَانَ خَطَأً^٧.
بِاجْتِهَادِ

وَفِيهِ: أَنَّهُ بَعْدَ مَا ثَبِتَ عِصْمَةُ النَّبِيِّ بِالْأَدَلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْقَلْبِيَّةِ عَنِ الْخَطَا لَا يُحْتَمَلُ نِسْبَتُهُ إِلَيْهِ، فَلَا يَدَّ مِنَ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ عَالِمًا بِخَطَا الصَّحَابَةِ فِي الْإِصْرَارِ بِأَخْذِ الْفِدَاءِ، وَلَكِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَام لَمَّا كَانَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ كَانَ مَأْمُورًا بِمُؤَافَقَتِهِمْ وَعَدَمَ تَخَطُّطِهِمْ، كَيْ تَنْزِلَ آيَةٌ فِيهَا تَخَطُّطُهُمْ وَالْعِتَابُ عَلَيْهِمْ، وَيُظْهِرُ لِلْمُسْلِمِينَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَأَصْرَابَهُ كَانُوا طَالِبِينَ لِلدُّنْيَا دُونَ الْآخِرَةِ.

لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ

١. تفسير الرازي ١٥: ١٩٧، تفسير روح البيان ٣: ٣٧٢.

٢. في النسخة: إسماعيل، وكذا ما بعدها. ٣ و ٤. تفسير الرازي ١٥: ١٩٨.

٥. تفسير روح البيان ٣: ٣٧٣.

لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ

مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [٦٨-٧١]

ثم عاتبهم الله على أخذ الفداء بقوله: ﴿أَوَلَا كِتَابٌ﴾ وحكم وقضاء ﴿مِنْ أَمْرِ سَبَقَ﴾ بحل الغنائم، أو بأن لا يُعَذَّب مَنْ أذنب بجهالة، أو بأن يمهّل طالبي الدنيا حتى يقوم بهم الاسلام ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ ولأصابعكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء وبسببه ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم روي أن الصحابة لما غوتوا على أخذ الفداء أمسكوا عن الغنائم^١، حتى صرح الله سبحانه بحلها لهم بقوله: ﴿فَكُلُّوا﴾ أيها المؤمنون ﴿فِيمَا غَنِمْتُمْ﴾ واستفدتم من أمتعة الكفار وأموالهم في الحرب، حال كونه ﴿حَلَالًا﴾ ومباحاً لكم من الله و﴿طَيِّبًا﴾ وغير مكروه لطباعكم ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أحكامه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن فرط منكم في استباحة الفداء قبل إذنه ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم بإحلاله الغنائم لكم، مع أنها كانت محرمة على الأمم الذين من قبلكم.

عن ابن عباس: كانت الغنائم حراماً على الأنبياء، فكانوا إذا أصابوا مغنماً جعلوه للقرآن، فكانت تنزل النار من السماء فتأكله، والله عنايات بهذه الأمة لا تحصى^٢.

ثم أنه روي أنه أمير العباس بن عبد المطلب يوم بدر، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا إطعام من خرج من مكة لحماية العير، وكان قد خرج بعشرين أوقية من ذهب لطعم بها الكفار، فوقع القتال قبل أن يطعم بها، وبقيت العشرين أوقية معه، فأخذت منه في الحرب، فكلم النبي ﷺ في أن يحتسب العشرين أوقية من فداءه، فأبى ﷺ وقال: «إنما هو شيء خرجت به لتستعين به علينا، فلا أتركه لك». فكلفه أن يفدي نفسه بمائة أوقية زائداً على فداء غيره لقطع الرّجيم، وكلفه أن يفدي ابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، كل واحد بأربعين أوقية، فقال: يا محمد، تتزكني أنكف قريشاً ما بقيت!

فقال ﷺ: «فأين [الذهب] الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة، وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله والفضل وقثم؟» فقال العباس: وما يدريك؟ قال: «أخبرني به ربي»، قال: أشهد أنك صادق، وأن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل، ولقد كنت مرتاباً في أمرك، وأما إذ أخبرني بذلك فلا ريب^٣.

١. تفسير الرازي ١٥: ٢٠٣.

٢. تفسير روح البیان ٣: ٣٧٤.

٣. تفسير روح البیان ٣: ٣٧٥.

فَنَزَلَتْ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ كَالْعَبَّاسِ وَغِيْرِهِ: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ من الإيمان والخلوص والنصح للرَّسُولِ ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ ويُعطِيكم في الدُّنْيَا وفي الآخرة، أو فيهما من الثَّوَابِ ما يكون ﴿خَيْرًا﴾ وأفضل ﴿مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ من الفداء والغنيمة ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ ذُنُوبَكُمْ التي سَلَفَتْ مِنْكُمْ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لِذُنُوبِ الْمُذْنِبِينَ ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده المؤمنين.

عن السَّجَّاد عليه السلام قال: «أتى النبي ﷺ بمالٍ دراهم^١ فقال: يا عباس ابسط رِداءك وخذ من هذا المال طَرَفًا، فبسط رِداءه وأخذ طائفةً منه، ثم قال رسول الله: هذا من الذي قال الله: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا... مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾»^٢.

وَرُوي أَنَّ الْعَبَّاسَ قال: فأبدلني الله خيرًا مما أخذ مني، لي الآن عشرون عبدًا، وإن أدناهم ليضرب - أي يتجر - في عشرين ألف درهم، وأعطاني سبَاية زَمَزَمَ، ما أحبُّ أن لي بها جميع أموال أهل مكة، أنجز الله لي أحد الوَعْدَيْنِ، وأنا أرجو أن يُنْجِزَ لي الوَعْدَ الثَّانِي^٣.

وَرُوي أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَالُ الْبَحْرَيْنِ ثَمَانُونَ أَلْفًا، فَنَوَّضًا لصلَاةِ الظُّهْرِ وما صَلَّى حَتَّى فَرَغَهُ، وَأَمَرَ الْعَبَّاسَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ، فَأَخَذَ مَا قَدَّرَ عَلَى حَمْلِهِ، وَكَانَ يَقُولُ: «هذا خيرٌ مما أخذ مني، وأنا أرجو المغفرة»^٤.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ بَأَن عَزَمُوا عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى الْكُفْرِ، وَعَدَمَ الْوَفَاءِ بِمَا ضَمِنُوا مِنَ الْفِدَاءِ، أَوْ بِمَا عَاهَدْتَهُمْ^٥ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ الْعَوْدِ إِلَى مُحَارِبَتِكَ، وَإِلَى مُعَاهَدَةِ الْمُشْرِكِينَ، فَلَيْسَ بِذَعَا مِنْهُمْ ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ بما أَقْدَمُوا عَلَيْهِ مِنْ مُحَارِبَتِكَ يَوْمَ بَدْرٍ ﴿فَأَمَّا كُنْ﴾ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿مِنْهُمْ﴾ قَتْلًا وَأَسْرًا. وَفِيهِ بَشَارَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ بِتَمَكِينِهِ مِنْ كُلِّ مَنْ يَخُونُهُ وَيَنْقُضُ عَهْدَهُ. وَعَنِ الْقَسَمِيِّ ﷺ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ في عليٍّ، فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَيْكَ^٦ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِضَمَانِهِمْ مِنْ إِبْطَانِ الْخُلُوصِ وَالصِّدْقِ، وَالْخِيَانَةِ وَالْعَدْرِ ﴿حَكِيمٌ﴾ في فِعَالِهِ، يُرَاعِي مَا هُوَ صَلَاحٌ مَمْلَكَتِهِ، وَيُجَازِيهِمْ عَلَى حَسَبِ اسْتِحْقَاقِهِمْ.

وَفِي رِوَايَةٍ عَامِيَّةٍ: أَنَّ الْعَبَّاسَ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، وَلَكِنْ لَمْ يُظْهَرْ إِسْلَامُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ لَهُ ذِيُونٌ مُتَفَرِّقَةٌ فِي قُرَيْشٍ، وَكَانَ يَخْشَى إِنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ ضَيَاعَهَا، وَإِنَّمَا كَلَّفَهُ النَّبِيُّ ﷺ الْفِدَاءَ، لِأَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِ ظَاهِرًا لَا لَهْ، وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ وَقَهَرَهُمُ الْإِسْلَامَ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ، وَلَمْ يُظْهَرْ النَّبِيُّ ﷺ إِسْلَامَهُ رِفْقًا

٢. قرب الإسناد: ٧٣/٢١، تفسير الصافي ٢: ٣١٥.

٤. تفسير الرازي ١٥: ٢٠٤.

١. في النسخة: بمائتي درهم.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٣٧٦.

٥. في النسخة: عاهدتهم.

٦. تفسير القمي ١: ٢٦٩، تفسير الصافي ٢: ٣١٥.

به، كيلا يضيع ماله عند قرش، وكان قد استأذن النبي ﷺ في الهجرة، فكتب إليه: «يا عم أقم مكانك الذي أنت فيه، فإن الله يخيم بك الهجرة كما ختم بي النبوة» فكان كذلك^١.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ
أَوَّوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ
مِنْ وَلَا يَتِيهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ
النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [٧٢]

ثم أنه تعالى بعد بيان قضية بدر وثبات المؤمنين فيها، وبيان أحكام الجهاد والغنيمة والأشر، شرع في مدح المؤمنين وذكر أقسامهم، بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله وكتابه ﴿وَهَاجَرُوا﴾ أوطانهم وأهليهم للالتزام بخدمة الرسول ﷺ، والقيام بطاعته ﴿وَجَاهَدُوا﴾ أعداء الله ﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾ بأن صرفوها إلى المحتاجين ولوازم الجهاد ﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾ بأن باشروا القتال، وخاضوا في المهالك ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطلباً لنصرة دينه، وحباً لرسوله ﴿وَالَّذِينَ أَوَّوْا﴾ وأسكنوا النبي ﷺ والمهاجرين في بلدهم ومأواهم ﴿وَنَصَرُوا﴾ هم على أعدائهم، وعاونوهم على مقاصدهم ﴿أُولَئِكَ﴾ المؤمنون بتلك الصفات الفارقة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ووارث ﴿بَعْضٍ﴾.

القمي: لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة آخا بين المهاجرين والمهاجرين، وبين الأنصار والأنصار، وبين المهاجرين والأنصار، وكان إذا مات الرجل يرثه أخوه في الدين ويأخذ المال، وكان له ما ترك دون ورثته، فلما كان بعد بدر أنزل الله: ﴿الَّذِينَ أَوَّلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾^٢ فنسخت آية الأخوة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾^٣.

وفي (المجمع) عن الباقر عليه السلام: «أنهم كانوا يتوارثون بالمواخاة الأولى^٤، دون التقارب، حتى نسخ ذلك [بقوله]: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾»^٥.

وعن ابن عباس: المراد هو الولاية في الميراث، وقال: جعل الله تعالى سبب الإرث الهجرة والنصرة دون القرابة، وكان القريب إذا آمن ولم يهاجر لم يرث، من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر^٦. كما بين الله ذلك بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ كسائر المؤمنين ﴿مَا لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٧٦.

٢. مجمع البيان ٤: ٨٦٢، تفسير الصافي ٢: ٣١٦.

٣. تفسير الرازي ١٥: ٢٠٩.

٤. تفسير الصافي ٢: ٣١٥.

٥. تفسير الصافي ٢: ٣١٦.

﴿مِنْ وَلَايَتِهِمْ﴾ في الميراث ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ وإن كانوا أقرب أقاربكم ﴿حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا﴾.

ثم لما كان مجال توهم وجوب القطع منهم في جميع الجهات كالكفار، دفعه الله سبحانه بقوله: ﴿وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ^١﴾ واستعانوا بكم^١ على من يُعاديهم ﴿فِي الدِّينِ﴾ من الكفار ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ لهم، وليس لكم أن تخذلوه ﴿إِلَّا﴾ إذا استنصروكم ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ من الكفار الذين ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ وعهد على أن لا تقاتلوه، فإنه لا يجوز لكم نصر المؤمنين عليهم في هذه الصورة؛ لأن حرمة نقض الميثاق مانعة منه ﴿وَأَلَّهِ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة والعصيان لأحكامه ﴿بَصِيرٌ﴾ ومطلع فيجازيكم على ما صدر عنكم على حسب استحقاقكم.

وَرُوي أَن لَّمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا﴾ قام الزبير وقال: فهل نعينهم على أمرٍ إن استعانوا بنا؟ فنزل ﴿وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ﴾ الآية^٢.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ

كَبِيرٌ [٧٣]

ثم نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار ومعاونتهم بأي وجه، وإن كانوا أقرب الأقارب بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ليسوا أولياءكم لانقطاع العلاقة بينكم وبينهم بالإسلام، بل ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ لاشتراكهم في السخية، واتفاقهم على الباطل ومعاداة الرسول ومعارضته، فيجب عليكم التباعد منهم والتعاند معهم ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ بأن تخالطوهم وتوالوهم ﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾ عظيمة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وهي ضعف المؤمنين وقوة الكفار ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ من جهة رغبة المسلمين إلى الكفار، ورجوعهم عن الإسلام إلى الكفر بسبب المخالطة والمؤادة.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ

هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا

وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي

كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [٧٤ و ٧٥]

ثم مدح الله سبحانه المؤمنين من المهاجرين والأنصار بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا﴾ الكفار بأموالهم وأنفسهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا﴾ هم على الكفار ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ

الْمُؤْمِنُونَ» إيماناً «حَقّاً» وصدقاً وخالصاً لقيامهم بلوازمه، وعملهم بمقتضاه «لَهُمْ» بسبب الإيمان الخالص، والعمل الصالح «مَغْفِرَةً» وسِتْرَ لذنوبهم السابقة «وَرِزْقٌ كَرِيمٌ» واسع كثير بلا من ولا تَعَب في الآخرة «وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ» - عن ابن عباس: بعد الحُدُيَّة، وقيل: بعد نزول الآية^١ - ولحقوا بالسابقين من المؤمنين في اعتقاد التوحيد، وتبعية الرسول ﷺ، وطاعة أوامره «وَهَاجَرُوا» من أوطانهم إلى الرسول ﷺ «وَجَاهَدُوا» أعداءه «مَعَكُمْ» وفي جماعتكم «فَأُولَئِكَ يَجْعَلُونَ» يَجْعَلُونَ «مِنْكُمْ» ويَحْسِبُونَ مِنْ زُمْرَتِكُمْ، ويكون لهم ما لكم.

ثم نسخ شحانه حكم التوارث بالهجرة والنصرة بقوله: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ» وذوو القربات النسبية من المؤمنين «بَعْضُهُمْ أَوْلَى» وأحق في الإرث «بِبَعْضٍ» الأقرب إليهم «فِي كِتَابِ اللَّهِ» وحكمه المنزل في القرآن، أو المكتوب في اللوح المحفوظ «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ» من الأشياء، ومصلحة من المصالح «عَلِيمٌ» بذاته، ومطلع بإحاطته.

عن الصادق عليه السلام: «كان علي عليه السلام إذا مات مولى له وترك قرابة، لم يأخذ من ميراثه شيئاً، ويقول: «أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ»^٢.

القمي، قال: هذه الآية نسخت: [قوله]: «وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصيبَهُمْ»^٣. أقول: نسخت إطلاقه.

عن الصادق عليه السلام: «لا تعود الإمامة في أخوين بعد الحسن والحسين عليه السلام أبداً، إنما جرت من علي بن الحسين عليه السلام كما قال الله: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ»، فلا تكون بعد علي بن الحسين عليه السلام إلا في الأعقاب بعد الأعقاب»^٤. أقول: لعل المراد أن قضاء الله في نصب الأئمة طابق حكمه في الميراث؛ لأن الإمامة داخلية في حكم الإرث.

نقل الفخر الرازي أن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب تمسك بهذه الآية في كتابه إلى [أبي] جعفر المنصور على أن الإمام بعد رسول الله هو علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: قوله تعالى «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ» يدل على ثبوت الأولوية^٥.

١. تفسير الرازي ١٥: ٢١٣.

٢. الكافي ٧: ٥/١٣٥، تفسير الصافي ٢: ٣١٧، والآية من سورة الأحزاب: ٦/٣٣.

٣. تفسير القمي ١: ٢٨١، تفسير الصافي ٢: ٣١٧، والآية من سورة النساء: ٣٣/٤.

٤. الكافي ١: ١/٢٢٥، تفسير الصافي ٢: ٣١٧، وفيهما: إلا في الأعقاب وأعقاب الأعقاب.

٥. في المصدر: الولاية.

وليس في الآية شيءٌ مُعَيَّن في ثُبُوت هذه الأولوية، فوجب حمله على الكلِّ إلّا ما خصّه الدليل، وحينئذٍ يندرج فيه الإمامة، ولا يجوز أن يقال أن أبا بكر كان من أولي الأرحام، لما ثقل أنه ﷺ أعطاه سورة براءة ليُبلّغها إلى القوم، ثم بعث عليّاً خلفه، وأمر بأن يكون المبلّغ هو عليٌّ ﷺ وقال: «لا يؤدّيها إلّا رجُلٌ مني» وذلك يدلّ على أن أبا بكر ما كان منه.

ثم أجاب الفخر عنه: بأنّه إن صحّت هذه الدلالة، كان العباس أولى بالإمامة؛ لأنّه كان أقرب إلى رسول الله [من عليّ]. ثم قال: وبهذا الوجه أجاب المنصور عنه^١.

أقول: بالوجه الذي استدللّ محمد بن عبدالله على أن أبا بكر ما كان منه، له الاستدلال على أن العباس ما كان منه، وإلّا لبعث العباس ليكون هو المبلّغ لبراءة، على أن آية ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ ثبتت الإمامة للرّجيم إذا كان واجداً لشرائط الإمامة من العلم والعصمة وغيرهما، فإذا فرض أن عليّاً ﷺ وأبا بكر كانا واجدين للشرائط كان عليٌّ ﷺ أولى بالآية، كما أن شرط الإرث الإسلام، وعدم كون الوارث قاتلاً، مع أن الآية تنفي الإمامة عن أبي بكر وثبته في أرحام رسول الله ﷺ، فيدور أمرها بين عليٍّ ﷺ والعباس، فإذا قارنها الإجماع على أن العباس لم يكن إماماً، دلّت الآية على إمامة عليٍّ ﷺ، وعلى أي تقدير أبطلت الآية إمامة أبي بكر، وتجعلها في أرحام رسول الله ﷺ، وإذا بطلت إمامة أبي بكر كان عليٌّ ﷺ إماماً بالإجماع الثركب، على أنه ثبت بالنص والإجماع عند أصحابنا أن ابن العمّ الأبويني أولى في الميراث من العمّ الأبي^٢.

الحمد لله المتعال على التوفيق لإتمام تفسير سورة الأنفال، نسأله أن يجعله ذخراً ليوم لا بيع فيه ولا خيال.

١. تفسير الرازي ١٥: ٢١٣.

٢. يريد أن العباس أخو عبدالله (والد رسول الله ﷺ) لأبيه فقط، بينما أبو طالب (والد عليٍّ ﷺ) أخو عبدالله لأُمّه ولأبيه.



في تفسير سورة براءة

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ [١]

ثم لما ختمت سورة الأنفال أردفت بسورة البراءة لكونهما في الجهاد، وما روي عن الصادق عليه السلام وسعيد بن المسيب من أنهما واحد^١، محمول على وحدتهما مطلباً، لوضوح كونهما شورتين. وقيل: إن في الأنفال ذكر العهود، وفي البراءة نبذها، فوضعت بجنب الأنفال^٢. وقيل: إنه تعالى ختم سورة الأنفال بإيجاب أن يؤالي المؤمنون بعضهم بعضاً، وأن يكونوا متقطعين عن الكفار^٣، وفي البراءة التصريح به.

ومن أسمائها سورة التوبة؛ لذكر توبة المهاجرين والأنصار، والثلاثة الذين خلفوا عن رسول الله عليه السلام. وعن حذيفة: إنكم تسمونها سورة التوبة، والله ما تركت أحداً إلا نالت منه^٤. ومنها الفاضحة؛ عن ابن عباس قال: إنها الفاضحة، ما زالت تنزل فيهم وتنال منهم حتى حسبناه^٥ أن لا تدع أحداً^٦.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «لم تنزل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ على [رأس] سورة براءة؛ لأن ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ للأمان والرحمة، ونزلت براءة لرفع الأمان بالسيف^٧. وعن ابن عباس قال: سألت علياً عليه السلام لم لم يكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ بين الأنفال والبراءة؟ قال: «لأن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أمان، وهذه السورة نزلت بالسيف ونُذِرَ العهود، وليس فيها أمان^٨».

وحاصل الروایتين عدم المناسبة بين الرحمة التي تدل عليها البسملة، والإعلان بالحرب ونُذِرَ العهود للذين يدل عليها الإعلان بالبراءة بقوله: ﴿بَرَاءَةٌ﴾ وقطعة عظيمة، ونُذِرَ عهد كائنة ﴿مِّنَ﴾ قِبَلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، مرسلة أو موصولة ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مَّعَهُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ من أهل مكة،

٤. تفسير الرازي ١٥: ٢١٥.

١. مجمع البيان ٥: ٤. ٢ و ٣. تفسير الرازي ١٥: ٢١٦.

٦. تفسير الرازي ١٥: ٢١٥.

٥. في تفسير الرازي: خشيته.

٨. تفسير الرازي ١٥: ٢١٦.

٧. مجمع البيان ٥: ٤، تفسير الصافي ٢: ٣١٨.

لظهور الخيانة منهم.

قيل: إن المسلمين كانوا عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم بإذن الله وأمر الرسول، فنكثوا إلا بني ضمرة وبني كنانة، فأمر الله المسلمين ببذ العهد إلى الناكثين.

وقيل: إن عهدهم كان مشروطاً بعدم أمر الله بقطعه.

وقيل: إنه قد انقضت مدة عهدهم، وإنما أعلن الله بعدم إعادة العهد معهم، وأن الرسول مأمور بمحاربتهم.

فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ [٢]

ثم أخبرهم الله بإمهالهم في القتال أربعة أشهر بقوله: ﴿فَسِيحُوا﴾ وسيروا أيها المشركون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ آمنين من القتل والغارة: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ غير خائفين فيها من قتال واغتيال، وأما بعد انقضاء المدة فليس إلا الإسلام أو السيف ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ﴾ بسياحتكم في أقطار الأرض ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ وغير فائتين منه بالهرب والتحصين ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ ومذلهم في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بعذاب أليم.

قيل: نزلت في أول شوال، وكانت^١ الأشهر: شوال وذو القعدة وذو الحجة ومحرّم، وكان الإمهال صيانة للأشهر الحرم^٢.

وقيل: كان أولها عاشر ذي الحجة، وآخرها عاشر ربيع الآخر؛ لأن التبليغ كان في يوم النحر^٣. روى الفخر الرازي: أن فتح مكة كان سنة ثمان، وكان الأمير فيها عتاب بن أسيد، ونزول هذه السورة سنة تسع، وأمر رسول الله ﷺ أبابكر سنة تسع بأن يكون على الموسم، فلما نزلت هذه السورة أمر علياً أن يذهب إلى أهل الموسم ليقراها عليهم، فقيل له: لو بعثت [بها] إلى أبي بكر؟ فقال: «لا يؤذي عني إلا رجل مني».

فلما دنا على سماع أبوبكر الرغاء، فوقف وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله، فلما لحقه قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور، ثم ساروا، فلما كان قبل التروية خطب أبوبكر وحدثهم عن مناسكهم، وقام علي يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: «يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم» فقالوا: بماذا؟ فقرأ

١. في النسخة: وكان. ٢. تفسير الرازي ١٥: ٢١٩.

٣. تفسير الرازي ١٥: ٢٢٠، تفسير روح البيان ٣: ٣٨٣.

عليهم ثلاثين أو أربعين آية - وعن مجاهد: ثلاث عشرة آية - ثم قال: «أمرت بأربع: أن لا يقرب هذا البيت بعد هذا العام مشركاً، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده».

فقالوا عند ذلك: يا علي، أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيف^١.

وعن الصادق عليه السلام: «نزلت هذه الآية بعدما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، في سنة تسع من الهجرة، وكان رسول الله ﷺ لما فتح مكة لم يمنع المشركين من الحج في تلك السنة، وكان سنة العرب في الحج أنه من دخل مكة وطاف بالبيت في ثيابه لم يحل له إمساكها، وكانوا يتصدقون بها، ولا يلبسونها بعد الطواف، فكان من وافى مكة يستعير ثوباً ويطوف فيه ثم يردّه، ومن لم يجد عارية أكثرى ثياباً، ومن لم يجد عارية ولا كراءاً ولم يكن له إلا ثوب واحد طاف بالبيت عرياناً، فجاءت امرأة من العرب وسيمة جميلة فطلبت عارية أو كراءاً فلم تجده، فقالوا لها: إن طفت في ثيابك احتجبت إلى أن تصدقي بها، فقالت: وكيف أتصدق بها وليس لي غيرها فطافت بالبيت عريانة، وأشرف عليها الناس، فوضعت إحدى يديها على قبلها والأخرى على ذبرها، وقالت:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدّا منه فلا أحله

فلما فرغت من الطواف خطبها جماعة، فقالت: إن لي زوجاً.

وكانت سيرة رسول الله ﷺ قبل نزول سورة براءة أن لا يقاتل إلا من قاتله، ولا يحارب إلا من حاربه وأراده، وقد كان نزل عليه في ذلك من الله عز وجل: ﴿فَإِنْ اعْتَزَلُواكُمْ فَلَمْ يَغَايِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾^٢، فكان رسول الله ﷺ لا يقاتل أحداً قد تنحى عنه واعتزله حتى نزلت عليه سورة براءة، وأمر بقتل المشركين من اعتزله ومن لم يعتزله إلا الذين قد عاهدهم يوم فتح مكة إلى مده؛ منهم صفوان بن أمية، وشهيل بن عمرو، فقال الله عز وجل: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، ثم يقتلون حيثما وجدوا. فهذه أشهر السياحة: عشرون من ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشر من ربيع الآخر.

فلما نزلت الآيات من أول براءة، دفعها رسول الله ﷺ إلى أبي بكر وأمره بأن يخرج إلى مكة ويقراها على الناس بجنى يوم النحر، فلما خرج أبو بكر نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال: يا

محمد، لا يؤذي عنك إلا رجل منك. فبعث رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليه في طلبه، فدلجقه بالروحاء وأخذ منه الآيات، فرجع أبو بكر إلى رسول الله فقال: يا رسول الله [الله]، أنزل في شيء؟ قال: إن الله أمرني أن لا يؤذي عني إلا أنا أو رجل مني^١.

وعنه عليه: «أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر مع براءة إلى الموسم ليقراها على الناس، فنزل جبرئيل عليه فقال: لا يبلغ عنك إلا علي، فدعا رسول الله ﷺ علياً عليه فأمره أن يركب ناقته العضباء، وأمره أن يلحق أبا بكر فيأخذ منه براءة ويقراها على الناس بمكة، فقال أبو بكر: أسخطه؟ فقال: لا، إلا أنه أنزل عليه أنه لا يبلغ إلا رجل منك، فلما قدم علي مكة، وكان يوم النحر بعد الظهر؛ وهو يوم الحج الأكبر، قام ثم قال: إني رسول رسول الله إليكم، فقرأها عليهم ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ عشرين من ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وربيع الأول، وعشر من ربيع الآخر، قال: لا يطوف بالبيت عريان ولا غريانة ولا مشرك إلا من كان له عهد عند رسول الله، فمذته إلى هذه الأربعة أشهر^٢.

وفي رواية محمد بن مسلم: «قال أبو بكر: يا علي، هل نزل في شيء منذ فارقت رسول الله؟ قال: لا، ولكن أبي الله أن يبلغ عن محمد إلا رجلاً منه. فوافي الموسم، فبلغ عن الله وعن رسوله بعرفة والمزدلفة، ويوم النحر عند الجمار، وفي أيام التشريق كلها يتنادي ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية، ويقول: لا يطوفن بالبيت عريان^٣.

وفي (المجمع): روى أصحابنا «أن النبي ﷺ ولأه أيضاً الموسم، وأنه حين أخذ براءة من أبي بكر رجع أبو بكر^٤.

ثم أعلم أن الظاهر مما رواه العامة، فضلاً عما رواه الخاصة، أن وجه تخصيص أمير المؤمنين عليه بتبليغ براءة وقراءتها على الناس، أنه مرتبة من الرسالة من الله، لأن نقض عهد المشركين كان من الله لا من الرسول نفسه، ولا يتنافي ذلك قوله عليه: إني رسول رسول الله.

ومن المعلوم أن إنذار الكفار بالخزي، وتبشيرهم بعذاب أليم، كان وظيفة الرسول، أو وظيفة من هو قائم مقامه وممثلته منه منزلة هارون من موسى، ولذا لم يقل جبرئيل عليه: «أو رجل من أقاربك» كما لم يقل ذلك رسول الله ﷺ، بل قال جبرئيل عليه: «أو رجل منك» وقال الرسول ﷺ: «أو رجل مني»

١. تفسير القمي ١: ٢٨١، تفسير الصافي ٢: ٣١٩. ٢. تفسير العياشي ٢: ١٧٧١/٢١٣، تفسير الصافي ٢: ٣٢٠.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٧٧٢/٢١٤، تفسير الصافي ٢: ٣٢٠.

٤. مجمع البيان ٥: ٦، تفسير الصافي ٢: ٣٢١.

كما قال: «عليّ منّي وأنا منه».

وكفى هذا في فضيلة عليّ وإثبات خلافته للرّسول، وعَدَم قابلية أبي بكر لها، خصوصاً على ما في روايات أصحابنا من أنّه ﷺ أعطى أبا بكر الآيات أولاً، ثمّ بعث عليّاً وراءه بأمر الله، وأمره بأخذها منه. فإنّ الدّلالة التي ذكرنا فيه أوضح، والإعلان أظهر.

قال الفخر الرازي بعد نقل الرواية السابقة: اختلفوا في السبب الذي لأجله أمر عليّاً ﷺ بقراءة هذه السورة عليهم، وتبلغ هذه الرسالة إليهم، فقالوا: السبب فيه أنّ عادة العرب أن لا يتولّى تقرير العهد ونقضه إلّا رجلٌ من الأقارب، فلوّ تولّاه أبو بكر لجاز أن يقولوا: هذا خلاف ما نعرف فينا من نقض العهد، فربّما لم يقبلوا فأزيحت عليهم بتولية ذلك عليّاً^١.

وقيل: لما خصّ أبا بكر بتولية إمارة الموسم، خصّ عليّاً بهذا التبليغ تطييباً للقلوب ورعاية للجوانب^٢.

وقيل: قرّر أبا بكر على الموسم، وبعث خلفه عليّاً لتبليغ هذه الرّسالة، حتّى يُصليّ عليّ خلف أبي بكر، ويكون ذلك جارياً مجرى التّنبية على إمارة أبي بكر^٣.

أقول: في الوجوه المُلَمَّقة ما لا يخفى من الوهن:

أما الأول: ففيه أنّ إلغاء العهد لم يكن من الرّسول ﷺ، بل كان من الله، وعلى ما ذكره كان اللّزم أن يكون مُبلّغه هو الله أو رسوله أو من هو بمنزلة نفس الرّسول وهو عليّ ﷺ لآية «أَنْفُسَنَا»^٤، مع أنّه لو كان عادة العرب أن لا يتولّى نقض العهد إلّا أقارب المُعاهد، لم يقل أصحابه المُطلعون على تلك العادة: لو بعثت إلى أبي بكر، مُضافاً إلى احتمال انقضاء مُدّة عهد المسلمين، وكان المقصود من البراءة المنع من العود إلى العهد وتجديده، فلم يكن نقض عهدٍ حتّى يحتاج إلى أن يكون مُبلّغه الأقارب.

وأما الوجه الثاني: ففيه أنّه ﷺ أراد تطييب قلب عليّ ﷺ أو قلب غيره؟ فإن قلّتم إنّّه أراد تطييب قلب عليّ ﷺ، فمن المعلوم عنده ﷺ وعند أصحابه أنّ قلب عليّ ﷺ كان طيباً بما كان يفعله رسول الله ﷺ، ولم يكن يخطر في قلبه خطور شيء بفعله ﷺ، ولو أهانه عند الأصحاب غاية التوهين فإنّه لا يرى نفسه^٥ في مقابل مرضاة النبي ﷺ. وإن أرادوا تطييب قلب غير عليّ ﷺ، فمن المعلوم أنّ بعث عليّ ﷺ بشوْرة براءة كان أثقل على قلوب كثير من الصحابة من تنصيب أبي بكر

أميراً على الموسم.

وأما الوجه الثالث: فإن القول بصلاة علي عليه السلام خلف أبي بكر تخرّص بالغيّب، وعلى فرض التسليم لانتبيه فيه على إمامة أبي بكر، ولأنّ كان في إمارة أسامة على الجيش الذي فيه أبو بكر وعمر وسائر أعيان الصحابة يسوى علي عليه السلام، تنبيه على إمامة أسامة بعد الرسول صلى الله عليه وآله، مع أنّه عليه السلام كان عالماً بأن أكثر أصحابه وأمتّه لا يعتنون بالنصوص الجليّة الصريحة على الإمامة، فكيف يعتمدون بالتنبّهات والإشعارات^١.

فتبين أنّ الوجوه الثلاثة لم تخرج إلّا من القلوب المشحونة بالعصبية وبغض علي عليه السلام وحُب أبي بكر، حشرهم الله معه.

وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُمْ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد التبرّي عن المشركين المتعاهدين، أعلن بالبراءة من جميع المشركين بقوله: ﴿وَأَذَانٌ﴾ وإعلان عام كانن ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ مرسل ﴿إِلَى﴾ جميع ﴿النَّاسِ﴾ من المسلمين والمشركين وغيرهم من الكفار ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ - عن ابن عباس: هو يوم عرفة^٢، وقيل: يوم النحر^٣، وقيل: جميع أيام منى^٤ - ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ومنقطعة عصمته وعلقته ولايته منهم ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فلا عصمة بينه وبينهم ولا عهد، وليس لهم إلّا الإسلام أو السيف، فإذا كان كذلك ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ أيها المشركون إلى الله، ودخلتم في حصن الإسلام ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأنفع في الدنيا والآخرة من البقاء على الكفر، والإصرار على الغدر ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن التوبة وقبول دين الاسلام ﴿فَاعْلَمُوا﴾ وأيقنوا ﴿أَنَّكُمْ﴾ بسياحتكم في الأرض مدة قليلة، وتديركم وإعدادكم للحرب ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ وغير فائتين منه هرباً، وغير غالبين عليه قدرة وحرباً ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمد ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصروا على الشرك والغدر، وقُلْ لهم تهكّماً: أبشروا ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ من القتل والأسر والخزي في الدنيا، ومن الدخول في النار في الآخرة.

عن العياشي: عن السجّاد: «الأذان أمير المؤمنين عليه السلام»^٥.

١. كذا، والظاهر: الاشارات.

٢. تفسير الرازي ١٥: ٢٢١.

٣. تفسير الرازي ١٥: ٢٢١.

٤. تفسير الرازي ١٥: ٢٢١.

٥. تفسير العياشي ٢: ٢١٧/١٧٨١، تفسير الصافي ٢: ٣٢١.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في رواية: «كنْتُ أنا الأذان في الناس»^١.

وهذا التأويل مروى عن الصادق عليه السلام أيضاً وفيه: فقيل له: فما معنى هذه اللفظة «الْحَجَّ الْأَكْبَرِ»؟ فقال: «إنما سُمِّيَ الْحَجَّ الْأَكْبَرِ لأنها كانت سَنَةً حَجَّ فيها المسلمون والمشركون، ولم يَحْجِ المشركون بعد تلك السَّنة»^٢.

وعنه أيضاً: «الْحَجَّ الْأَكْبَرِ»: الوقوف [بعرفة]^٣ ورَمَى الجِمار، والأصغر: العَمرة^٤.

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ
أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ [٤]

ثمَّ أنَّه تعالى بعد الإعلان بالبراءة عن كلِّ المشركين الذي لازمه إلغاء عهد جميعهم، استثنى عهد غير التاكثين بقوله: «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ» معهم «مِنَ الْمُشْرِكِينَ»، وقيل: إنَّ الاستثناء مُنقطع والمعنى: لا تمهلوا التاكثين فوق أربعة أشهر، ولكنَّ الذين عاهدتوهم «ثُمَّ» بعد العهد «لَمْ يَنْقُصُوكُمْ» من شرائط العهد الذي يكون بينكم «شَيْئًا» ولم ينكثوه «وَلَمْ يُظَاهِرُوا» ولم تعاونوا «عَلَيْكُمْ أَحَدًا» من أعدائكم «فَأَتِمُّوا» أيها المسلمون وأدوا «إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ» كاملاً «إِلَى» تمام «مُدَّتِهِمْ» ولا تجعلوا الوافين كالتاكثين والغادرين «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» والمتحرزين عن مخالفة أمره وتضييع الحقوق.

عن ابن عباس قال: بقي لِحَيٍّ من كِنانة من عهدهم تسعة أشهر^٥.

رُوي أنَّه عَدَّتْ بنو بكر على خُرَاعة في حال غيبة رسول الله ﷺ، وظاهرهم قريش بالسَّلاح، حتَّى وفد عمرو بن سالم الخُزاعي على رسول الله ﷺ فأنشده:

لَا هُمْ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدًا	حِلَفٌ أَبِينَا وَأَبِيكَ أَلَا تَلِدَا
إِنْ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا	وَنَقَضُوا ذِمَامَكَ الْمُؤَكَّدَا
هَمْ يَبْتُونَا بِالْحَطِيمِ هَجْدَا	وَقَتْلُونَا زُكْعًا وَشَجْدَا

فقال ﷺ: لَا نُصِرْتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرْكُمْ^٦.

١. تفسير القمي ١: ٢٨٢، تفسير الصافي ٢: ٣٢١.

٢. معاني الأخبار: ٥/٢٩٦، علل الشرائع: ١/٤٤٢، تفسير الصافي ٢: ٣٢١.

٣. في تفسير العباسي: الوقوف بعرفة وبجمع.

٤. تفسير العباسي ٨: ١٧٨٥/٢١٨، تفسير الصافي ٢: ٣٢١.

٥. تفسير الرازي ١٥: ٢٢٤.

٦. تفسير الرازي ١٥: ٢٢٤.

فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ
وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ
فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٥]

ثم أمر الله المسلمين بالتشديد على الكافرين بقوله: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ﴾ وانقضى ﴿الْأَشْهُرُ﴾ التي هي
﴿الْحُرُمُ﴾ لحرمة القتال فيها إمهالاً ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ بأي نحو أمكنكم ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾
وفي أي مكان لقيتموهم من الجبل والحرم، وفي أي حال أدركتموهم ﴿وُخِذُوهُمْ﴾ وأسيروهم
﴿وَأَحْضَرُوهُمْ﴾ في المضائق، واجسوهم في المحابس. وقيل: يعني امنعوهم من البيت الحرام
﴿وَأَقْعُدُوا﴾، منتظرين ﴿لَهُمْ﴾ القتل والأخذ ﴿كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ وطريق ترقبون عبورهم فيه إلى البيت أو
التجارة، وسدوا سبيلهم ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ من الشرك بالدخول في الإسلام ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة
﴿وَاتَّوْا الزَّكَاةَ﴾ الواجبة التي هي من أعظم شعائر الاسلام ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ إلى البيت والذهاب إلى
مهماتهم، ولا تعرضوا لهم بوجه أبداً ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لهم ما سلف من ذنوبهم بعد التوبة والايان
﴿رَحِيمٌ﴾ بهم إذا صدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحات.

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ
مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ [٦]

ثم تبه سبحانه على أن التشديد على الكفار إنما هو لتامة الحجة عليهم، وأما من كان في طلب
الحق وتحقيق صحة دين الاسلام، فلا يجوز التعرض له، بقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين
أمرت بالتشديد عليهم ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ واستأمنك، وطلب الجوار منك والأمان، لسماع القرآن وتحقيق
الحق ﴿فَأَجِرْهُ﴾ وأمنه ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ الذي يتم بسماعه الحجة على كل أحد لوضوح
إعجازه ﴿ثُمَّ﴾ بعد استماعه القرآن ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ من منزله أو قبيلته إن لم يؤمن، ويكون ﴿ذَلِكَ﴾
الحكم بوجوب تأمينه وإيصاله إلى مأمنه معللاً ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الكتاب والدين وحقيقته،
فلا بد من تأمينهم وإمهالهم حتى يفهموا الحق، ويتقطع عنهم العذر.

عن ابن عباس قال: إن رجلاً من المشركين قال لعلي بن أبي طالب عليه السلام: إن أردنا أن نأتي رسول الله
بعد انقضاء الأجل لسماع كلام الله، أو لحاجة أخرى، فهل نقتل؟ فقال علي عليه السلام: «لا، إن الله تعالى قال:
﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إلى آخره»^١.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ [٧]

ثم أنكر سبحانه حسن مراعاة العهد في حق الناكثين بقوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ واجب الرعاية والوفاء ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ لهؤلاء المشركين مع إضمارهم الغدر والنكث ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ - قيل: يعني: ولكن يجب مراعاة العهد للذين عاهدتموهم - وأكدتموه بإيقاعه ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وفي قرب منه، وهم بنو ضمرة وبنو كنانة، فإنهم لم ينقضوا عهدهم، ولم يضرروا الغدر فيه ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾ ووفوا بعهدهم ﴿فَاسْتَقِيمُوا﴾ واثبتوا على الوفاء ﴿لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ والمحتريين عن نقض العهد.

كَيْفَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى
قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ [٨]

ثم أكد سبحانه إنكار حسن الوفاء بعهد الناكثين بقوله: ﴿كَيْفَ﴾ يحسن رعاية عهد المشركين ﴿و﴾ الحال أنهم ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ ويظفروا بكم ﴿لَا يَرْقُبُوا﴾ ولا يراعوا ﴿فِيكُمْ﴾ أبداً ﴿إِلَّا﴾ وحلفاً أو قرابة ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ وعهداً.

ومن الواضح أن وجوب مراعاة العهد على كُلِّ مِنَ الْمُتَعَاهِدِينَ مشروط بمراعاة الآخر، وهم لا يراعون بل يتخادعون، ويغدرونكم بأنهم ﴿يُرْضُونَكُمْ﴾ عن أنفسهم بإظهار الوفاء والصفاء، ووعد الايمان والطاعة، واعلموا أن كل ذلك يكون ﴿بِأَفْوَهِهِمْ﴾ وألسنتهم ﴿وَتَأْبَى﴾ وتمنع ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ مما يقولون لكم ويتفوهون به عندهم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وخارجون عن حدود العقل، ومتمردون عن طاعة أحكام الشرع، ليست لهم عقيدة مانعة ولا مروءة رادعة.

قيل: في تخصيص الأكثر بالحكم بالفسق إشعارٌ بوجود من يتعفف عن فعل ما يحجز إليه المثال والمعائب في المشركين.

أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [٩]

ثم بالغ سبحانه في ذمهم بقوله: ﴿أَشْتَرُوا﴾ هؤلاء الناكثون ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على التوحيد ووجوب الوفاء بالعهود، وأعرضوا عنها، وأخذوا بدلاً منها ﴿ثَمَنًا﴾ وعوضاً ﴿قَلِيلًا﴾ ويسيراً من خطام الدنيا وشهواتها الفانية ﴿فَصَدُّوا﴾ وعدلوا ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أو صرفوا الناس عنها ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾ من الاستبدال والصد.

رَوَى أَبُو شَيْبَانَ بْنِ حَرْبٍ جَمَعَ الْأَعْرَابَ وَأَطْعَمَهُمْ لِيَصُدَّهُمْ بِذَلِكَ عَنْ مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلِيَحِيلَهُمْ عَلَى نَقْضِ الْعَهْدِ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَنَقَضُوهُ بِسَبَبِ تِلْكَ الْأَكْلَةِ^١.

لَا يَزِيدُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفْصَلُ الْآيَاتُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *
وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِيمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ
لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢٩-١٣٠﴾

ثُمَّ ذَمَّهُمْ شَبَحَانَهُ بِعَدَمِ رِعَايَةِ أَحَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَزِيدُونَ﴾ وَلَا يَرْعَوْنَ ﴿فِي﴾ حَقِّ
﴿مُؤْمِنٍ﴾ كَانُوا مِنْ كَانَ ﴿إِلَّا﴾ وَجِلْفًا أَوْ قَرَابَةً ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ وَعَهْدًا أَوْ حَقًّا ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الْمَذْمُومُونَ
﴿هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ وَالْمُتَجَاوِزُونَ عَنْ حُدُودِ الْعَقْلِ وَالدِّينِ، فَبَلَّغُوا غَايَةَ الشَّرَارَةِ وَالظُّلْمِ.
ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الْإِبْلَاحِ فِي ذَمِّ الْمُشْرِكِينَ بَنَيْتُ الْعَهْدَ وَالْعَدْرَ وَالصَّدَّ وَالظُّلْمَ، أَعْلَنَ بَسْعَةَ رَحْمَتِهِ
بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ - مَعَ هَذِهِ الذَّمَامِ - عَنِ الشَّرْكِ وَالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، وَحَقَّقُوا إِيْمَانَهُمْ بِالْإِتِمَامِ بِلَوَازِمِهِ
﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ الَّتِي هِيَ أَهَمُّ شَعَائِرِهِ ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ أَثَارِهِ ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي
الدِّينِ﴾ هَؤُلَاءِ التَّائِبُونَ، فَارْضَوْا لَهُمْ مَا تَرْضَوْنَ لَأَنْفُسِكُمْ، كَمَا تَكُونُونَ كَذَلِكَ فِي حَقِّ إِخْوَانِكُمْ فِي
النَّسَبِ، كَذَلِكَ التَّفْصِيلُ ﴿وَالْإِخْوَانُ﴾ الشَّرْحُ الْبَلِغُ ﴿وَالْآيَاتُ﴾ وَالْأَحْكَامُ ﴿لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ﴾ وَيَفْهَمُونَ الْحُكْمَ وَالْمَصَالِحَ، فَإِنَّهُمْ يُدْرِكُونَ حُسْنَ تِلْكَ الْأَحْكَامِ، وَيَلْتَزِمُونَ بِهَا. وَفِيهِ غَايَةُ
الْحَقِّ عَلَى مُحَافَظَتِهَا^٢.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: حَرَمَتْ هَذِهِ الْآيَةُ دِمَاءَ أَهْلِ الْقَبِيلَةِ^٣.

﴿وَإِنْ نَكَثُوا﴾ وَنَقَضُوا ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾ وَأَحْلَانَهُمْ ﴿مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ الْمُؤَكَّدُ بِهَا، وَتَجَاهَرُوا بِالشَّرِّ
وَالْفَسَادِ ﴿وَطَعَنُوا﴾ وَقَدَحُوا ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ الْحَقِّ، وَعَابُوهُ عِنَادُ لَهُ ﴿فَقَاتِلُوا﴾ هُمْ إِذْنًا، لَكُونَهُمْ ﴿أَتِيمَةُ
الْكُفْرِ﴾ وَرُؤَسَاءُ الضَّلَالِ، وَلَا تَمْهَلُوهُمْ ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ فِي الْحَقِيقَةِ، وَإِلَّا لَمَا نَكَثُوا، أَوْ الْمُرَادُ:
لَا أَمَانَ لَهُمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ وَيُرْتَدِعُونَ عَنِ الْكُفْرِ وَأَعْمَالِهِمُ الشَّنِيعَةِ.
عَنِ الْقَمِّيِّ ﷺ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَصْحَابِ الْجَمَلِ، وَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ يَوْمَ الْجَمَلِ مَا قَاتَلْتُ

٢. كَذَا، وَالظَّاهِرُ: الْمَحَافَظَةُ عَلَيْهَا.

١. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٣: ٣٩٢.

٣. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ١٥: ٢٣٣.

هذه الفئة الناكثة إلّا بآية من كتاب الله، يقول الله: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الآية^١.

عن الصادق عليه السلام قال: «دخل عليّ أناس من أهل البصرة فسألوني عن طلحة والزبير، فقلت لهم: كانا أنعمة الكفر، إن علياً عليه السلام يوم البصرة لما صفّ الخيول قال لأصحابه: لا تعجلوا على القوم حتى أعذر فيما بيني وبين الله وبينهم. فقام إليهم فقال: يا أهل البصرة، هل تجدون عليّ جوراً في حكم؟ قالوا: لا، قال: فحيفاً في قسمة؟ قالوا: لا، قال: فرغبة في دنيا أخذتها لي ولأهل بيتي دونكم، فنقمتم عليّ فنكثتم بيعتي؟ قالوا: لا، قال: فأقمتم فيكم الحدود وعطلتها عن غيركم؟ قالوا: لا، قال: فما بال بيعتي ثنكت وبيعة غيري لا ثنكت؟ إنّي ضربت الأمر أنفه وعينه فلم أجد إلّا الكفر أو السيف. ثمّ ثنى إلى أصحابه فقال: إنّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الآية، ثمّ قال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، واصطفي محمداً ﷺ بالنبوة، إنهم لأصحاب هذه الآية، وما قوتلوا منذ نزلت^٢.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «عذرني الله من طلحة والزبير، إنهما بايعاني طائعين غير مكرهين، ثمّ نكثا بيعتي من غير حدّث أحدثه، والله ما قوتل [أهل] هذه الآية منذ نزلت حتى قاتلتهم ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الآية»^٣.

وعن الصادق عليه السلام: «من طعن في دينكم هذا فقد كفر، قال الله: ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾» الخبر^٤.

أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
أَتُخْشَوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ أَنْ تُخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [١٣]

ثمّ بالغ سبحانه في الحثّ على قتال المشركين الناكثين، بإنكاره التقاعّد عنه على المؤمنين، وبيان استحقاتهم القتل بقوله: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ﴾ أيّها المؤمنون ﴿قَوْمًا نَكَثُوا﴾ ونقضوا ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾ وعهودهم المؤكّدة بها مع الرسول والمؤمنين على أن لا يعاونوا عليهم أعداءهم في الحديبية - على ما قيل - ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ من مكة حين تشاورهم في دار الندوة، وقيل: من المدينة لما أقدموا عليه من المشورة والاجتماع على قتله^٥ ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ﴾ بالقتال والقتل ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في بدر، إذن فما يمنعكم عن قتالهم ﴿أَتُخْشَوْنَهُمْ﴾ من أن يغلبوا عليكم^٦، أو ينالوكم بمكره ﴿فَاللَّهُ﴾ القادر الغالب

١. تفسير القمي ١: ٢٨٣، تفسير الصافي ٢: ٣٢٤.

٢. قرب الإسناد: ٣٢٧/٩٦، تفسير العياشي ٢: ١٧٩٠/٢١٩، تفسير الصافي ٢: ٣٢٤.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٧٩٥/٢٢١، تفسير الصافي ٢: ٣٢٥.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٧٩٣/٢٢٠، تفسير الصافي ٢: ٣٢٤.

٥. تفسير الرازي ١٥: ٢٣٥.

٦. كذا والظاهر: يغلبوكم.

المُدْرِك ﴿أَحَقُّ﴾ وأولى من غيره ﴿أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ وتَخَافُوهُ في مخالفة أمره ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بوحْدانيته، وكمال قدرته، وشِدَّة عقابه على مَنْ خالفه وعَصَاه. ومن المعلوم أن لازم هذا الإيمان أن لا يُخْشَى إلّا منه.

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ [١٤ و ١٥]

ثم أكد سبحانه وجوب قتالهم بقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ بالقتل والأسر ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ وسيوفكم ﴿وَيُخْرِجُهُمْ﴾ ويذلهم ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ جميعاً ﴿وَيَشْفِ﴾ من ألم الحقد وانتظار الفتح ﴿صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ قيل: هم خزاعة، وعن ابن عباس: [هم] بطن من اليمن وسبأ، قديموا مكة [فأسلموا] فلقوا من أهلها أذى كثيراً، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه، فقال: «أبشروا، فإن الفرج قريب»^١ ﴿وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ ويسكن غضبهم.

عن العياشي: عن أبي الأعز التميمي^٢ قال: كنت واقفاً يوم صفين، إذ نظرتُ إلى العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وهو شاك في السلاح، إذ هتف به هاتف من أهل الشام يُقال له عرار بن أدهم: يا عباس هلّم إلى البراز، ثم تكافحا بسيفهما مَلِكاً لا يصل واحد منهما إلى صاحبه لكمال لأَمَتِهِ، إلى أن حطَّ العباس درع الشامي فأهوى إليه بالسيف فانتظم به جوانح الشامي، فخرَّ الشامي صريعاً وكبر الناس تكبيراً ارتجت لها الأرض، فسمعتُ قائلاً يقول: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ الآية. فالتفتُ فإذا هو أمير المؤمنين عليه السلام^٣.

ثم أخبر الله بإسلام بعضهم بقوله: ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ إسلامه وتوبته من السيئات من هؤلاء المشركين ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال خلقه وعواقب أمورهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في فعّاله، يُراعي مصالح عباده.

وفي الأخبار المذكور دلالة واضحة على صدق النبي ﷺ، لوقوع ما أخبر به، فإنه أسلم بعد الآية عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وجمع آخر من المشركين.

٢. في النسخة: أبي الأعز البمني.

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٩٥.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٧٩٧/٢٢١، تفسير الصافي ٢: ٣٢٥. ورواه ابن قتبية في عيون الأخبار ١: ١٧٩، وابن أبي

الحديد في شرح النهج ٥: ٢١٩.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [١٦]

ثم أنكر سبحانه على المؤمنين حساباً عدماً افتتانهم بالجهاد وترك رعاية القرابة والصداقة ترغيباً لهم فيه بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ وهل توهمتم ﴿أَنْ تُتْرَكُوا﴾ على الحالة التي أنتم فيها من الاختلاط ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ ولم يميز ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ ممن لا يجاهد ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ ولم يختاروا لأنفسهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ وبطانة وصاحب سر من غيره ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ﴾ وعالم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الجهاد وتركه، واتخاذ الوليجه وعدمه.
عن الباقر عليه السلام: «يعني بالمؤمنين آل محمد، والوليجه: البطانة»^١.

وعنه عليه السلام: «لا تتخذوا من دون الله وليجة فلا تكونوا مؤمنين، فإن كل سبب ونسب وقرابة ووليجه ويدعه وشبهه منقطع إلا ما أثبتته القرآن»^٢.

وعن أبي محمد العسكري عليه السلام: «الوليجه: الذي يقيم دون ولي الأمر، والمؤمنون في هذا الموضع هم الأئمة الذين يؤمنون على الله فيجيز أمانهم»^٣.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ
حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ
يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ [١٧ و ١٨]

ثم روي أن المشركين كانوا يفتخرون بعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فبين الله أن لا فضيلة في هذين العملين مع الشرك؛ بقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ وما صحّ ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ في حال شركهم ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [سواء] كان المسجد الحرام أو غيره، ولا تقع لهم فيه، مع كونهم ﴿شَاهِدِينَ﴾ ومُعْتَرِفِينَ ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ عملاً حيث ينصبون الأصنام فيها ويعبدونها، وقولاً حيث يقولون: نعبدها ليقربونا إلى الله ﴿أُولَئِكَ﴾ المظرودون عن ساحة رحمة الله ﴿حَبِطَتْ﴾ وبطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الخيرية التي يفتخرون بها ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ في الآخرة لأن الشرك ظلم عظيم، ومعضية غير مغفورة. روي أن المسلمين عبروا أسارى بدر، وبيع علي عليه السلام العباس يقتال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقطيعه الرّجيم،

٢. الكافي ١: ٢٢/٤٨، تفسير الصافي ٢: ٣٢٦.

١. تفسير القمي ١: ٢٨٣، تفسير الصافي ٢: ٣٢٦.

٣. الكافي ١: ٩/٤٢٥، تفسير الصافي ٢: ٣٢٦.

فقال العباس: تذكرون مساونا وتكثمون محاسنا. فقالوا: ولكم محاسن؟! قال: نعم، إنما نعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجاج، ونفك العاني، فنزلت^١.

ثم حصر الله العِمارة النافعة بالمؤمنين بقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ عِمَارَةً نَافِعَةً مِّنْ أَمَرٍ بِاللَّهِ وَبِوَحْدَانِيَّتِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ودار الجِزاء ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ فِي الْيَوْمِ بُزَافٍ دِينَهُ أَحَدًا﴾ ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾.

قيل: من عِمارة المسجد: كُنسه وتَظفيقه، وتَؤنيره بالسراج، وصيَّانته ممَّا لا يليق به؛ كحديث الدنيا والكسب واللغو واللَّهو، والاشتغال فيه بالعبادة والذكر، ودرس العلوم الدينيَّة.

في الحديث القدسي: إِنْ بُيُوتِي فِي الْأَرْضِ الْمَسَاجِدِ، وَإِنْ زُؤَارِي فِيهَا عُمَارُهَا، فَطُوبَى لِعَبْدٍ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ زَارَنِي فِي بَيْتِي، فَحَقٌّ عَلَى الزُّورِ أَنْ يُكْرَمَ زَائِرُهُ^٢.

وفي الحديث النبوي: «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ الْمَسَاجِدَ، يَقْعُدُونَ فِيهَا حَلَقًا، ذِكْرُهُمُ الدُّنْيَا وَحُبُّ الدُّنْيَا، لَا تُجَالِسُوهُمْ فَلَيْسَ [لَهُ] بِهِمْ حَاجَةٌ»^٣.

ثم وعد الله الْمُتَصَفِّينَ بالكلمات العلميَّة والعَمَلِيَّة بالاهْتِدَاءِ إِلَى الْخَيْرِ - بِصِيغَةِ التَّرجِي - قطعاً لطمع المُشْرِكِينَ فِي الْإِنْتِفَاعِ بِعِمَارَتِهَا؛ بقوله: ﴿فَعَسَىٰ﴾ ويُرْجَى فِي حَقِّ ﴿أُولَئِكَ﴾ الْمُؤْمِنِينَ ﴿أَنْ يَكُونُوا﴾ بِأَعْمَالِهِمُ الْحَسَنَةِ ﴿مِنْ الْمُهْتَدِينَ﴾.

قيل: لَمْ يَذْكُرِ الْإِيمَانَ بِالرَّسُولِ ﷺ فِي الْآيَةِ؛ لِاسْتِلْزَامِ الصَّلَاةِ الْمَعْهُودَةِ الْإِيمَانَ بِشَارِعِهَا، وَلَأَنَّ مِنْ أَجْزَائِهَا الشَّهَادَةَ بِالرَّسَالَةِ، لِإِجْهَارِ أَنَّ مَقْصُودَ الرَّسُولِ تَبْلِيغُ مَعْرِفَةِ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ دُونَ رِئَايَةِ نَفْسِهِ، حَتَّى لَا يَتَوَهَّمُوهَا فِي حَقِّهِ.

وقيل: إِنَّ فِي إِقْرَانِ الزَّكَاةِ بِالصَّلَاةِ دَلَالَةً عَلَى عَدَمِ قَبُولِ أَحَدِهِمَا بَدُونَ الْآخَرِ^٤.

أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [١٩]

ثمَّ ثَقُلَ أَنَّهُ افْتَحَرَ طَلْحَةُ بْنُ شَيْبَةَ وَالْعَبَّاسُ وَعَلِيٌّ، فَقَالَ طَلْحَةُ: أَنَا صَاحِبُ الْبَيْتِ وَيَدِي مِفْتَاحُهُ، وَقَالَ الْعَبَّاسُ: أَنَا صَاحِبُ السَّقَايَةِ، وَقَالَ عَلِيٌّ: «أَنَا صَاحِبُ الْجِهَادِ»، فَردَّ اللَّهُ عَلَى طَلْحَةَ وَالْعَبَّاسِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَجْعَلْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْمَفْتَحُونَ ﴿سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فِي الْفَضِيلَةِ وَالْكَرَامَةِ

٢. تفسير الرازي ١٦: ١٠.

١. جوامع الجامع: ١٧٥، تفسير الصافي ٢: ٣٢٧.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٣٩٨.

٣. تفسير الرازي ١٦: ١٠.

عند الله ﴿كَمْ أَمَنَ بِاللَّهِ﴾ وبوحدانيته ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. قيل: إن التقدير: أجمعتم أهل سقاية الحاج كمَّن آمن، أو سقاية الحاج كإيمان من آمن.

ثم أنه تعالى بعد ثقبه التساوي بين المتصفين بتلك الصفات بإنكاره على مدعيه، صرح بعدم تساويهم تأكيداً بقوله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ثم عيّن المفضل بقله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ إلى خير وفضله ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بترك قبول الاسلام، والقيام في الجهاد.

وقيل: إن المشركين قالوا لليهود: نحن سقاة الحاج، وعمر المسجد الحرام، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه؟ فقالت اليهود: أنتم أفضل^١.

وقيل: إن عليّاً قال للعباس بعد إسلامه: يا عمي، ألا تهاجرون، ألا تلحقون برسول الله؟ فقال: ألسن في أفضل من الهجرة؟ أسقي حاج البيت، وأعمر المسجد الحرام. فلما نزلت هذه الآية قال: ما أراني إلا تارك سقائنا، فقال عليٌّ: «أقيموا على سقائكم فإن لكم فيها خيراً»^٢.

وعن ابن عباس: لما أغلظ عليّ الكلام للعباس، [قال العباس]: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، فلقد كنّا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج^٣، فنزلت.

وقال العلامة في (نهج الحق): روى الجمهور في (الجمع بين الصحاح الستة): أنها نزلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام لما افتخر طلحة بن شيبه والعباس، فقال طلحة: أنا أولى بالبيت لأن المفتاح بيدي، وقال العباس: أنا أولى، أنا صاحب السقاية والقائم عليها، فقال عليّ: «أنا أول الناس إيماناً، وأكثرهم جهاداً». فانزل الله هذه الآية^٤.

وقال فضل بن روزبهان: هذا صحيح من رواية الجمهور^٥.

القمي رحمه الله عن الباقر عليه السلام: نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب عليه السلام؛ قوله: ﴿كَمْ أَمَنَ بِاللَّهِ﴾^٦. وعنه: نزلت في عليّ عليه السلام والعباس وشيبه، قال العباس: أنا أفضل لأن سقاية الحاج بيدي، وقال شيبه: أنا أفضل لأن حجابة البيت بيدي، وقال عليّ عليه السلام: «أنا أفضل؛ فإنّي آمنتم قبلكما، ثم هاجرت وجاهدت»، فَرَضُوا بِرَسُولِ اللَّهِ [حكماً]^٧ فانزل الله [الآية].

وزاد في رواية: «وضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما»^٨.

وعن أحدهما عليه السلام: «نزلت في حمزة وعليّ وجعفر والعباس وشيبه، إنهم فخرُوا بالسقاية

١- ٣. تفسير الرازي ١٦: ١١. ٤. نهج الحق: ١٨٢. ٥. دلائل الصدق ٢: ١٥٩.

٦. تفسير القمي ١: ٢٨٤، تفسير الصافي ٢: ٣٢٨. ٧. تفسير القمي ١: ٢٨٤، تفسير الصافي ٢: ٣٢٨.

٨. مجمع البيان ٥: ٢٣، تفسير الصافي ٢: ٣٢٨.

والججابه، فأنزل الله [الآية]، وكان عليّ وحمة وجعفر الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، وجاهدوا في سبيل الله^١.

الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمَ دَرَجَةً
عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ
لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ [٢٠-٢٢]

ثم عيّن الله الفاضل صريحاً بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾، وهم عليّ عليه السلام وأضرابه، فإنهم بسبب تلك الصفات ﴿أَكْظَمَ دَرَجَةً﴾ وأعلى منزلة، وأكثر كرامة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾، مِنّ ليس له هذه الصفات، وإن كان ساقى الحاجّ وعامر المسجد الحرام ﴿وَأُولَئِكَ الْمُتَنَصِّفُونَ﴾ بتلك الصفات الفائقة ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بأعلى المقاصد، وهو أنه ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ في الدنيا بلسان الرّسل، وفي الآخرة بتوسط الملائكة ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنْهُ﴾ تعالى ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ منه تعجز العقول عن إدراكهما ووصفهما ﴿وَجَنّاتٍ﴾ وبساتين عديدة ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ ودائم لا تئدد له، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ في تلك الجنّات، مقيمين ﴿فِيهَا أَبَدًا﴾ ليس لهم خوف الخروج منها ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ على هذه الكمالات النفسانية ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقّ عنه كلّ أجر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ
عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ
وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ
تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي
سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [٢٣ و ٢٤]

ثم أنه تعالى بعد النهي عن اتّخاذ الكفار وليّة وبطانة، نهى عن مواليتهم ولو كانوا أقرب الأقارب، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله عن صميم القلب ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾ مع كمال قربهم إليكم ﴿وَأَوْلِيَاءَ﴾ وأحبّاء لأنفسكم ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ﴾ ورجحوه ﴿عَلَى الْإِيمَانِ﴾. ثم حذّره الله عن مواليتهم ومخالطتهم بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ﴾ ويؤاذهم ﴿مِنْكُمْ﴾ بأيّ مرتبة من

الموالة والموادة ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الموالون لهم ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم بتعريضها للهلاك والعذاب.

عن ابن عباس قال: يريد مشركاً مثلهم؛ لأنه رضي بشركهم، والرضا بالكفر كفر، كما أن الرضا بالفسق فسق.^١

قيل: إنهم ظالمون بوضع الموالة في غير موضعها.^٢

عن الباقر عليه السلام: «الكفر في الباطن، في الآية: ولاية الأول والثاني، والایمان: ولاية علي عليه السلام».^٣

ثم قيل: إن جماعة من المؤمنين قالوا: يا رسول الله، كيف يُمكننا البراءة منهم بالكُفَّة، وإنها تُوجب انقطاعنا عن آبائنا وإخواننا وعشيرتنا، وذهاب تجارتنا، وهلاك أموالنا، وخراب ديارنا؟ وقيل: لما أمروا بالهجرة كان يمنهم أقرباؤهم، فمنهم من كان يتركها لأجلهم.^٥

وعن القمي: لما أذن أمير المؤمنين عليه السلام بمكة: أن لا يدخل المسجد الحرام مشركاً بعد ذلك العام، جَزَعَتْ قُرَيْشٌ وقالوا: ذهبَت تجارتنا وضاع عيالنا، وخرِبَتْ دُورُنَا، فردَّهم الله بقوله: ﴿قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ وأصبتموها ﴿وَتِجَارَةٌ﴾ وأمتعة مهيأة للمعاملة ﴿تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ وفوات أوان رواجها لغيبتكم من سوقها ﴿وَمَسَاكِينُ﴾ ومنازل ﴿تَرْضَوْنَهَا﴾ وتحبونها لأنفسكم ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وطاعتها بالهجرة إلى المدينة، ﴿وَجِهَادٌ﴾ مع أعداء الله ﴿فِي سَبِيلِهِ﴾ وطلباً لمرزاته ﴿فَتَرْضَوْا﴾ وانتظروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ من عقوبة شديدة عاجلة، أو أجلكم؛ لأنكم عصيتم الله بترجيح حب غيره على حبه، وتقديم هوى أنفسكم وشهواتها على مرزاته ومرضاة رسوله، وحب الجطام الغانية الدنيوية على النعم الأخروية الدائمة، وحب المساكين الخربة الزائلة على القصور العالية. فإن ذلك لا يكون إلّا لضعف الإيمان، وعدم المعرفة الصحيحة بالمبدأ والمعاد، والإقبال على الدنيا، والإعراض عن الدين، والخروج عن حدوده ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ إلى الخير، ولا يوصل إليه ﴿الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ والخارجين عن حدود العقل والشرع.

وفيه وعيد شديد لا يتخلص منه إلّا الأوحدي من أهل الإيمان.

في الحديث: «لا يجد [أحدكم] طعم الإيمان حتى يحب في الله ويُبغض في الله».^٧

١. تفسير الرازي ١٦: ١٨.

٢. تفسير روح البيان ٣: ٤٠٣.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢٦٦/١٨٠٣، تفسير الصافي ٢: ٣٢٩.

٥. جوامع الجامع: ١٧٦. ٦. تفسير القمي ١: ٢٨٤، تفسير الصافي ٢: ٣٢٩.

٧. جوامع الجامع: ١٧٦، تفسير الصافي ٢: ٣٢٩.

٤. تفسير الرازي ١٦: ١٩.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ [٢٥ و ٢٦]

ثم لما كان حُبّ الأقارب لتوقُّع النصرة منهم على الأعداء، نبههم على أنه خيرُ الناصرين والحافظين لهم، بقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ بقدرته على الأعداء ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ من الحروب، ومقامات عديدة في الجهاد؛ كيوم بدر، وأحد، والأحزاب، وغيرها ﴿وَيَوْمَ﴾ غزوة ﴿حُنَيْنٍ﴾ وهو - على ما قيل - وادٍ بين مكة والطائف، ويقال لها غزوة أوطاس ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ وسررتكم ﴿كَثْرَتُكُمْ﴾ وزيادة نفوسكم، وقوة شوكتكم، حتى قال أبو بكر لرسول الله ﷺ: لَنْ تُغْلَبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ، فسأته ﷺ مقالته ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ﴾ كثرة عددكم^٢ ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء، ولم تُغْذِّمَ قُوَّةَ شوكتكم فائدة أصلاً ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ﴾ فلا تجدون مأمنًا من بأس العدو فيها ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ ومع سعتها من شدة الرُّعب ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ﴾ الأعداء ظهروكم، حال كونكم ﴿مُدْبِرِينَ﴾ ومنهزمين منهم.

روى بعض العامة: أن النبي ﷺ فتح مكة لثلاثة أيام بقيت من رمضان - وقيل: لثلاثة عشر يوماً^٣ مضت منه - فمكث بها إلى أن دخل شوال، وحين فتحت مكة أطاعه العرب إلا هوازن وثقيف، وكانوا طغاة مرّدة، فخافوا أن يغزوهم رسول الله ﷺ وظنوا أنه ﷺ يدعوهم إلى الاسلام، فنقل ذلك عليهم، فحشدوا وبغوا وقالوا: إن محمداً لاقي أقواماً لا يحسنون القتال، فأجمعوا أمرهم على قتال النبي ﷺ، فأخرجوا معهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم وراءهم، فخرج رسول الله ﷺ يوم السبت السادس من شوال إلى حنين، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد يُصَلِّي بهم، ومعاذ بن جبل يعلمهم السنن والأحكام، وكان عسكر رسول الله ﷺ اثني عشر ألفاً؛ عشرة آلاف من شهد فتح مكة من المهاجرين والأنصار، وألفان من الطلقاء، وهم أهل مكة، وكان هوازن وثقيف أربعة آلاف، بسوى الجَم الغفير من أمداد سائر العرب، وحملوا النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال، ثم جاءوا بالإبل والغنم والدراوي وراء ذلك؛ كي يقاتل كلُّ منهم عن أهله وماله، ولا يفرُّ أحدٌ بزعمهم، فساروا كذلك حتى نزلوا بأوطاس.

٢. في النسخة: كثرة عدو.

١. تفسير الرازي ١٦: ٢١.

٣. في النسخة: لثلاث عشرة أيام.

وقد كان ﷺ بعث إليهم عيناً ليتجسس عن حالهم، وهو عبدالله بن أبي حذَرْدَة^١ من بني سليم، فوصل إليهم فسمع مالك بن عوف أمير هَوازِن يقول لأصحابه: أنتم اليوم أربعة آلاف رجل، فإذا لقيتم العدُو فاحملوا عليهم حملةً واحدة، واكسروا جُفونَ شيوخكم، فوالله لا تضربون بأربعة آلاف سيف شيئاً إلَّا فُرج.

فأقبل العَيْنُ إلى النبي ﷺ فأخبره بما سمع من مقاتلتهم، فقال سلمة بن سلامة الوقسي الأنصاري - أو أبوبكر؛ كما قال الفخر الرازي، وبعض آخر من العامة -: يا رسول الله، لن تُغلبَ اليوم مِن قِلَّةٍ، فسأت رسول الله ﷺ كلمته، فركب رسول الله ﷺ بغلته ذُلْدُل، وليس درع داود التي لبسها حين قتل جالوت، ووضع الأولوية والزيات مع المهاجرين، فلما كان بخين وانحدروا [في الوادي] وذلك عند غَلَس^٢ الصُّبح يومَ الثلاثاء، خرج عليهم القوم وكانوا كَمَنوا لهم في شِعاب الوادي ومضائقه، وكانوا رُماة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم المُشركون وخَلُّوا الدَّاري، فأكبَّ المسلمون عليهم، فتنادى المشركون: يا حملةُ^٣ السَّوء، اذكروا الفضائح، فتراجعوا وحملوا عليهم، فأدركت المسلمين كلمة الإعجاب وشؤمها، فانكشفوا فلم يقوموا لهم بمقدار حَلَب شاة^٤.

قيل: بلغَ منهزمُهم مَكَّة، وسرَّ بذلك قومٌ من المشركين، وأظهروا السَّمتة حتى قال أخو صفوان بن أمية لأمه: ألا قد أبطل الله السَّحر اليوم. فقال له صفوان: وهو يومئذٍ مُشرك: فضَّ الله فاك، والله ليس يملكني رجلٌ من قُرَيْش أحبَّ إليَّ من أن يملكني رجلٌ من هَوازِن. فلما انهزموا بقي رسول الله ﷺ وحده وليس معه إلَّا عمه العباس أخذاً بلجام بغلته، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذاً بركابه، وهو يركُضُ^٥ البغلة نحو المشركين ويقول:

«أنا النبي لا كَذِبَ أنا بن عبد المطلب

وكان يحمل على الكُفَّار فيفرون، ثم يحملون عليه فيقف لهم، فعل ذلك بضع عشرة مرة. قال العباس: كنتُ أكفُّ البغلة لئلا تُسرع [به] نحو المشركين. وناهيك بهذا شهادةً على تناهي شجاعته حيث لم يخفِ اسمه في تلك الحال، ولم يخفِ الكُفَّار على نفسه، وما ذلك إلَّا لكونه مؤيداً من عند الله العزيز الحكيم.

فعند ذلك قال: يا ربَّ انتني بما وعدتني، وقال للعباس - وكان جَهْوَريَّ الصَّوت -: «صبحَ بالنَّاسِ»،

١. في النسخة: جذر، وفي المصدر: حذر، وكلاهما تصحيف، راجع: أسد الغابة ١٤١:٣.

٢. في تفسير روح البيان: غيش، والغَلَس كالغَبَش، وهي ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

٣. في تفسير روح البيان: حُماة.

٤. في تفسير روح البيان ٣: ٤٠٥.

٥. أي يضرب جنبها برجله ليحثها على السير، والضمير عائد إلى رسول الله ﷺ.

١٣٨ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٣

فنادى الأنصار فخذاً فخذاً، ثم نادى: يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، فكبروا عُنْقاً واحدة^١ وهم يقولون: لبيك لبيك، فأخذ رسول الله ﷺ بيده كفاً من الحِصاة فرماهم بها وقال: «شاهت الوجوه».

فأخبره الله سبحانه ب نزول النصر بقوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ ورحمته المسكنة للقلوب ﴿وَعَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقيل: إن تغلته انخفضت حتى كادت بطنها تمس الأرض، ثم قبض قبضةً من ترابٍ فرمى به نحو المشركين وقال: «شاهت الوجوه»، فلم يبقَ منهم أحدٌ إلا امتلأت به عيناه، ثم قال ﷺ: «انهزموا ورب الكعبة»^٢.

﴿وَأَنْزَلَ﴾ الله لنصره من السماء ﴿جُنُوداً﴾ من الملائكة ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾. عن سعيد بن جبیر قال: أيد الله نبيه ﷺ بخمسة آلاف من الملائكة^٣.

وعن سعيد بن المسيب قال: حدّثني رجلٌ كان في المشركين يومَ حُنين، قال: لما كشفنا المسلمين جعلنا نسوقهم، فلما انتهينا إلى صاحب البغلة الشَّهباء تلقَّانا رجالاً بيض الوجوه حسان، فقالوا: شاهت الوجوه، أرجعوا فرجعنا، فركبوا أكتافنا^٤.

نسي ذكر قصة القميّ: كان سبب غزوة حنين أنه لما خرج رسول الله ﷺ إلى فتح مكة، أظهر أنه غزوة حنين يُريد هوازن، وبلغ الخبر هوازن فتهيأوا وجمعوا الجموع والسلاح، واجتمع رؤساؤهم إلى مالك بن عوف النصري فرأسوه عليهم، وخرجوا وساقوا معهم أموالهم ونساءهم وذرايرهم، ومرّوا حتّى نزلوا أوطاس، فبلغ رسول الله ﷺ اجتماعهم بأوطاس، فجمع القبائل ورغّبهم في الجهاد ووعدهم النصر، وأن الله قد وعده أن يُغنمه أموالهم ونساءهم وذرايرهم، فرغّب الناس وخرجوا على راياتهم، وعقد اللواء الأكبر ودفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وكلّ من دخل مكة براية أمره أن يحملها، وخرج في اثني عشر ألف رجل، عشرة آلاف يمين كان معه^٥.

وعن الباقر عليه السلام: «كان معه من بني سليم ألف رجل رئيسهم عباس بن مرداس السلمي، ومن مؤنّته ألف رجل».

١. تفسير روح البيان ٣: ٤٠٦ - ٤٠٧.

٢. تفسير الرازي ١٦: ٢٢

٣. أي حملوا جماعةً واحدة.

٤. تفسير الرازي ١٦: ٢٢.

٥. تفسير القمي ١: ٢٨٥، تفسير الصافي ٢: ٣٣٠.

فمضوا حتَّى كان من القوم مَسيرة بعض ليله، وقال مالك بن عَوف لقومه: لِيُصَيِّرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ أَهْلَهُ وَمَالَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ، وَاكْثِرُوا جُنُوفَ شِوْفِكُمْ، وَاكْمُنُوا فِي شُعَابِ هَذَا الْوَادِي فِي الشَّجَرِ، فَإِذَا كَانَ فِي غَلَسِ الصُّبْحِ فَاحْمِلُوا حِمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَهَيِّدُوا الْقَوْمَ، فَإِنْ مُحَمَّدًا لَمْ يَلْقَ أَحَدًا يُحَسِّنُ الْحَرْبَ.

فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْغَدَاةَ انْحَدَرَ فِي وَادِي حُنَيْنٍ، وَهُوَ وَادٍ لَهُ انْحِدَارٌ بَعِيدٌ، وَكَانَ بَنُو سُلَيْمٍ عَلَى مُقَدَّمَتِهِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ كِتَابُ هَوَازِنٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، فَانْهَزَمَتْ بَنُو سُلَيْمٍ وَانْهَزَمَ مَنْ وَرَاءَهُمْ، وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا انْهَزَمَ، وَبَقِيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يُقَاتِلُهُمْ فِي نَفَرٍ قَلِيلٍ، وَمَرَّ الْمُتَنَهِّمُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا يُلَوِّنُونَ عَلَى شَيْءٍ، وَكَانَ الْعَبَّاسُ أَخَذًا بِلِجَامٍ بَغْلَةً رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ يَمِينِهِ، وَأَبُو سَفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنْ يَسَارِهِ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُنَادِي: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، إِلَى أَيْنَ؟» أَنَا رَسُولُ اللَّهِ. فَلَمْ يَلَوْ أَحَدٌ عَلَيْهِ.

وَكَانَتْ نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبِ الْمَازِنِيَّةِ تَحْتُو فِي وُجُوهِ الْمُتَنَهِّمِينَ الثُّرَابَ وَتَقُولُ: إِلَى أَيْنَ تَفِرُّونَ عَنْ اللَّهِ وَعَنْ رَسُولِهِ؟ وَمَرَّ بِهَا عُمَرُ فَقَالَتْ: وَيْلَكَ، مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتَ؟ فَقَالَ لَهَا: هَذَا أَمْرُ اللَّهِ.

فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْهَزِيمَةَ رَكَضَ نَحْوَهُمْ عَلَى بَغْلَتِهِ وَقَدْ شَهِرَ سَيْفَهُ وَقَالَ: «يَا عَبَّاسُ اصْعَدْ هَذَا الطَّرِبَ^١» وَنَادَى: يَا أَصْحَابَ الْبَقَرَةِ، وَيَا أَصْحَابَ الشَّجَرَةِ، إِلَى أَيْنَ تَفِرُّونَ؟ هَذَا رَسُولُ اللَّهِ.

ثُمَّ رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، وَإِلَيْكَ الْمُنْتَكِي، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ». فَنَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِئِيلُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعَوْتُ بِمَا دَعَا [بِهِ] مُوسَى حَيْثُ فَلَقَ اللَّهَ لَهُ الْبَحْرَ وَنَجَّاهُ مِنْ فِرْعَوْنَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي سَفْيَانَ [بْنِ] الْحَارِثِ: نَاوِلْنِي كَفًّا مِنَ الْحَصَى فَنَاوَلَهُ، فَرَمَاهُ فِي وَجُوهِ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ قَالَ: «شَهِدْتُ الْوُجُوهُ»، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكُ هَذِهِ الْعِصَابَةُ لَمْ تُعْبِدْ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ لَا تُعْبَدَ لِأَتَعْبُدَ».

فَلَمَّا سَمِعَتِ الْأَنْصَارُ نِدَاءَ الْعَبَّاسِ، عَطَفُوا وَكَسَرُوا جُنُوفَ شِوْفِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: لَبَيْكَ، وَمَرَّوَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاسْتَحْيَوْا أَنْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِ، وَلِحِقُوا بِالزَّيَاةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْعَبَّاسِ: «مَنْ هَؤُلَاءِ يَا أَبَا الْفَضْلِ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَؤُلَاءِ الْأَنْصَارُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْآنَ حَمَى الْوَطِيسُ»، وَنَزَلَ النَّصْرُ مِنَ اللَّهِ، وَانْهَزَمَتْ هَوَازِنُ، وَكَانُوا يَسْمَعُونَ قَعْقَعَ السَّلَاحِ فِي الْجَوِّ، وَانْهَزَمُوا فِي كُلِّ وَجْهٍ، وَغَنِمَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَمْوَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَذُرَارِيَهُمْ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَوَعَدَ

حُتَيْنٌ^١.

وقال رجلٌ من بني نضر بن معاوية يُقال له شجرة بن ربيعة للمؤمنين؛ وهو أسير في أيديهم: أين الخيل البلق^٢، والرجال عليهم الثياب البيض؟ فإنما كان قتلنا بأيديهم، وما كنا نراكم فيهم إلا كهينة الشامة، قالوا: هم الملائكة^٣.

وعن الرضا عليه السلام، سئل: ما السكينة؟ فقال: «ريحٌ من الجنة، لها وجهٌ كوجه الإنسان، أطيّب ريحاً من المسك، وهي التي أنزلها الله على رسوله ﷺ بحُتَيْنٍ، فهزم المشركون»^٤.

وعن الصادق عليه السلام: «قتل علي بن أبي طالب عليه السلام يوم حُتَيْن أربعين شهيداً»^٥.

وروي أنه لما هزم الله المشركين بوادي حُتَيْن ولّوا مدبرين، ونزلوا بأوطاس وبها عيالهم وأموالهم، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من الأشعرين يُقال له أبو عامر، وأمره على جيش إلى أوطاس، فسار إليهم فاقتلوا، وهزم الله المشركين، وسبى المسلمون عيالهم، وهرب أميرهم مالك بن عوف^٦.
«وَعَذَّبَ» الله «الَّذِينَ كَفَرُوا» بالقتل والأسر «وَذَلِكَ» العذاب «جَزَاءُ الْكَافِرِينَ» في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر.

ثم روي أن النبي ﷺ أتى الطائف، فحاصر أهله بقية ذلك الشهر، فلما دخل ذو القعدة انصرف عنهم، فأتى الجعرانة^٧ فأحرم منها بعمرة بعد أن قام بها ثلاث عشرة ليلة، وقال: «اعتمر منها سبعون نبياً»، وقسم بها غنائمهم، وكانت ستة آلاف نفس، والإبل أربعة وعشرون ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألفاً، وأربعة آلاف أوتية فضة، وتألف أناساً فجعل يعطي الرجل الخمسين والمائة من الإبل، ولما قسم ما بقي خصّ كل رجلٍ بأربع من الإبل وأربعين شاة، فقالت طائفة: يا للعجب، إن أسيافنا تنقطر من دمانهم، وغنائمنا ترد إليهم! فبلغ ذلك النبي ﷺ فجمعهم فقال: «يا معشر الأنصار، ما هذا الذي بلغني عنكم؟» فقالوا: هو الذي بلغك؛ وكانوا لا يكذبون، فقال: «ألم تكونوا ضاللاً فهداكم الله بي، وكشتم أدلة فأعزكم الله بي، وكشتم وكشتم؟ أما ترضون أن يتقلب الناس بالشيء والإبل، وتتقلبون برسول الله إلى يوتكم؟» فقالوا: بلى رضىنا يا رسول الله، والله ما قلنا ذلك إلا محبةً لله ولرسوله. فقال: «إن الله ورسوله يُصدقانكم ويُعذرانكم»^٨.

١. تفسير القمي ١: ٢٨٦، تفسير الصافي ٢: ٣٣٠.

٢. البلق: جمع أبلق، وهو الذي يُخالط لونه السواد مع البياض.

٣. تفسير القمي ١: ٢٨٨، تفسير الصافي ٢: ٣٣٢.

٤. الكافي ٥: ٣/٢٥٧، تفسير الصافي ٢: ٣٣٢.

٥. تفسير روح البيان ٣: ٤٠٨.

٦. الكافي ٨: ٣٧٦/٥٦٦، تفسير الصافي ٢: ٣٣٢.

٧. تفسير روح البيان ٣: ٤٠٨.

٨. اسم موضع بين مكة والطائف.

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ [٢٧]

ثم أنه أخبر الله بإسلام بعض هوازن بقوله: «ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» توبته بتوفيقه لقبول الإسلام «وَاللَّهُ عَفُورٌ» ومتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصي «رَحِيمٌ» بهم بإعطائهم الثواب الجزيل.

رُوي أن أناساً منهم جاءوا رسول الله ﷺ وبايعوه على الإسلام، وقالوا: يا رسول الله، أنت خيرُ الناس وأبرهم، وقد سبى أهلونا وأولادنا، وأخذت أموالنا. فقال ﷺ: «إِنَّ عِنْدِي مَا تَرَوْنَ، إِنْ خَيْرَ القول أصدق، اختاروا إما ذراريكم ونساءكم، وإما أموالكم». قالوا: ما كنا نعدل بأحسابنا شيئاً.

فقام النبي ﷺ فقال: «إِنْ هَؤُلَاءِ جَاءُوا مُسْلِمِينَ، وَإِنَّا خَيْرُناهم بين الذراري والأموال، فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده سبى وطابث نفسه أن يرده فشأنه [وليُفعل ما طاب له] وَمَنْ لَا فليعطنا ولكن قرضاً علينا، حَتَّى تُصِيبَ شَيْئاً فَنُعْطِيَهُ مَكَانَهُ». قالوا: رضينا وسلمنا.

فقال ﷺ: «إِنَّا لَا نَدْرِي لَعَلَّ فِيكُمْ مَنْ لَا يَرْضَى، فَمَرُوا عُرَفَاءَكُمْ فليرفعوا ذلك إلينا»، فرفعت إليه العرفاء أنهم قد رضوا.

ثم قال لوفد هوازن: «ما فعل مالك بن عوف؟» قالوا: يا رسول الله، هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف، فقال ﷺ: «أخبروه أنه إن أتاني مسلماً رددت إليه أهله وماله، وأعطيته مائة [من] الإبل»، فلما بلغه هذا الخبر نزل من الحصن مستخفياً خوفاً من أن تحبسه ثقيف إذا علموا الحال، وركب فرسه وركضه حتى أتى الدهناء - محلاً معروفاً - وركب راحلته ولحق برسول الله ﷺ فأدركه بالجعرانة فأسلم، فردّ عليه أهله وماله، واشتعمله على من أسلم من هوازن، وكان هو بمن فتح عامة الشام^١.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ [٢٨]

ثم منع الله المشركين من دخول المسجد الحرام بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ»، وقدر، عن ابن عباس قال: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير^٢ «فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» فضلاً عن أن يدخلوا فيه «بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا» الذي أتم فيه.

١٤٢ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٣

ثم قيل: إن أناساً قالوا لأهل مكة: سلتقون الشدة من انقطاع السبل، وقد الحمولات^١، فوعد الله سد خلة^٢ المؤمنين بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ غِيلَةً وَفَقَرًا وَحَاجَةً سَبَبَ مَنَعَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْحَجِّ، وَانْقِطَاعَ مَا كَانُوا يَجْلُبُونَهُ إِلَيْكُمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ، وَتَعْطِيلَ الْمَكَاسِبِ﴾ ﴿فَسَوْفَ يَغْنِيكُمُ اللَّهُ﴾ عنهم في إرزاقكم ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وجوده ﴿إِنْ شَاءَ﴾ غناكم وسعة معاشكم.

وفي تعليق إغنائهم على مشيئته تنبيه على وجوب كونهم راجين بكرمه، متضرعين إليه، وأن ما يصل إليهم يكون بتفضله، وأن الوعد لا يعم جميع الناس وجميع الأمكنة والأزمان، بل هو لبعضهم دون بعض.

في إيجاب الجزية
على أهل الكتاب
قيل: إن الله أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدراراً ووفق أهل تبالة وحريش^٣ للإسلام، واثاروا^٤ لهم، ثم فتح عليهم البلاد، ورزقهم الغنائم الوفيرة، ووجه إليهم الناس من أقطار الأرض^٥.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوال عبادهم ومصالحتهم ﴿حَكِيمٌ﴾ يعطي ويمنع على حسب صلاح الأشخاص ونظام العالم.

فَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ [٢٩]

ثم أنه تعالى بعد الأمر بقتال المشركين حتى يقتلوا أو يسلموا ويتوبوا، أمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية بقوله: ﴿فَاتِلُوا﴾ يا أهل الإسلام ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ حتى الإيمان به ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ كما ينبغي ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ عليهم في كتابه ﴿وَرَسُولُهُ﴾ في شئته ﴿وَلَا يَدِينُونَ﴾ ولا يعتقدون أو لا يقبلون ﴿دِينَ الْحَقِّ﴾ الثابت من الله وهو الإسلام ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ السماوي من التوراة والإنجيل وغيرهما، واستمرؤا على قتالكم ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ والمال المصروب عليهم منكم، حال كون عطايتهم إياه ﴿عَنْ يَدٍ﴾ منهم وبمباشرتهم الإعطاء ﴿وَهُمْ

١. الحمولات: جمع الحمولة، وهي الإبل وغيرها التي تحمل المؤن، وتطلق الحمولة على نفس المؤن المحمولة على الإبل.
٢. الخلة: هي الفقر الحاجة.

٣. في النسخة: تبالة وحريش، وتبالة: موضع ببلاد اليمن، وحريش: من مخاليف اليمن من جهة مكة، قال المهلب: أسلم أهل تبالة وحريش من غير حرب، فأقرها رسول الله ﷺ في أيدي أهلها على ما أسلموا عليه، وجعل على كل حالم ممن بهما من أهل الكتاب ديناراً، واشترط عليهم ضيافة المسلمين. معجم البلدان ٢: ١٠ و١٤٧.

٤. أي جمعوا البيرة لأنفسهم، وهي الطعام والمؤن.
٥. تفسير روح البيان ٣: ٤١١.

صَاغِرُونَ^١ ذَلِيلُونَ عِنْدَكُمْ.

في أحكام الجزية عن الباقر عليه السلام: «بعث الله محمداً بخمسة أشياء»^١ إلى أن قال: «قال الله تعالى:

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^٢ نزلت هذه الآية في أهل الذمة، ثم نسخها قوله سبحانه:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، فمن كان منهم في دار الإسلام

لم يقبل منهم إلا الجزية أو القتل، وما لهم فيء، وذرايعهم سبّ، فإذا قبلوا الجزية على أنفسهم حرّم

علينا سبّهم، وحرّمت أموالهم، وحلّت لنا مناكرتهم، ومن كان منهم في دار الحرب حلّ لنا سبّهم

وأموالهم، ولم تجلّ مناكرتهم، ولم يقبل منهم إلا الدخول في الإسلام أو الجزية أو القتل»^٣.

وعن الصادق عليه السلام، أنه سئل عن المجوس: أكان لهم نبي؟ فقال: «نعم، أما بلغك كتاب رسول

الله عليه السلام إلى أهل مكة: أن أسلموا وإلا فأذنوا بحرب، فكتبوا إلى رسول الله عليه السلام: أن خذ مِنَّا الجزية

ودعنا على عبادة الأوثان، فكتب إليهم النبي عليه السلام: إني لست أخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، فكتبوا

إليه، يريدون تكذيبه: زعمت أنك لا تأخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، ثم أخذت الجزية من مجوس

هَجَر؟! فكتب إليهم النبي عليه السلام: أن المجوس كان لهم نبي فقتلوه، وكتاب أحرقوه»^٤.

وفي (العِلل): عنه عليه السلام، أنه سئل عن النساء: كيف سقطت الجزية ورُفعت عنهن؟ فقال: «الأن رسول

الله عليه السلام نهى عن قتل النساء والولدان في دار الحرب إلا أن تُقاتل، وإن قاتلت [أيضاً] فأمسك عنها ما

أمكنك ولم تخف خلاً، فلما نهى عن قتلهن في دار الحرب كان ذلك في دار الإسلام أولى، ولو

امتنعت أن تؤذي الجزية لم يُمكن قتلها، فلما لم يمكن قتلها رُفعت الجزية عنها، ولو امتنع الرجال

وأبوا أن يؤدوا الجزية كانوا ناقضين للعهد، وحلّت دماؤهم وقاتلهم، لأن قتل الرجال مباح في دار

الشرك، وكذلك المُقعد من أهل الشرك والذمة، [والأعمى] والشيخ الفاني، والمرأة والولدان في

أرض الحرب. ومن أجل ذلك رُفعت عنهم الجزية»^٥.

وعنه عليه السلام: «جرت السنة أن لا تؤخذ الجزية من المتعته، ولا من المغلوب على عقله»^٦.

والقمي عليه السلام: عنه عليه السلام، أنه سئل: ما حد الجزية على أهل الكتاب، وهل عليهم في ذلك [شيء] مؤظف لا ينبغي أن يجوزوا إلى غيره؟

فقال: «ذلك إلى الإمام، يأخذ من كل إنسان منهم ما شاء على قدر ماله وما يطيق، إنما هم قوم فدوا

١. في الكافي: أسياف. ٢. البقرة: ٨٣/٢. ٣. الكافي: ٥: ٢١١/١، تفسير الصافي ٢: ٣٣٤. ٤. الكافي ٣: ٥٦٧/٤، تفسير الصافي ٢: ٣٣٤. ٥. علل الشرائع: ١/٣٧٦، تفسير الصافي ٢: ٣٣٤. ٦. الكافي ٣: ٥٦٧/٣، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٠١/٢٨، تفسير الصافي ٣: ٣٣٥.

١٤٤ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٣

أنفسهم من أن يستعبدوا أو يقتلوا، فالجزية تؤخذ منهم على قدر ما يطيقون له أن يؤخذ منهم بها حتى يسلموا، فإن الله تعالى قال: ﴿حَتَّىٰ يَمِيطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، وكيف يكون وهو لا يكثرث لما يؤخذ منه، لا حتى يجد ذلاً لما يؤخذ منه فيألم لذلك فيسلم^١.

وعن الباقر عليه السلام، في أهل الذمة: أيؤخذ من أموالهم ومواشيهم شيء سوى الجزية؟ قال: «لا»^٢.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ
بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ [٣٠]

ثم بين سبحانه عدم إيمانهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ واعتقدت أنه ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾.

عن ابن عباس: أتى جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ؛ وهم سلام بن مشكم، والنعمان بن أوفى، ومالك بن الصيف، وقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قيلتنا، ولا نزعم أن عُزيراً ابنُ الله؟ فنزلت الآية^٣.

وقيل: إن هذا القول كان شائعاً بينهم في ذلك العصر ثم انقطع، ولا عبرة بإنكار اليهود، فإن حكاية الله عنهم أصدق.

وفي (الاحتجاج): أن النبي ﷺ طالبهم فيه بالحجة، فقالوا: لأنه أحيى [لبنى إسرائيل] التوراة بعدما ذهب، ولم يفعل بها هذا إلا لأنه ابنه.

فقال ﷺ: «كيف صار عُزَيْرُ ابنِ الله دون موسى، وهو الذي جاءهم بالتوراة، ورأوا منه [من] المعجزات ما [قد] علمتم، فإن كان عُزَيْرُ ابنِ الله لما ظهر من إكرامه من إحياء التوراة، فلقد كان موسى بالنبوة أحق وأولى»^٤.

﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ ثم ردهم بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ القول الباطل الذي صدر منهم ﴿قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وألستهم بلا مساعدة برهان عليه، بل البراهين القاطعة على خلافه، وهم في هذا القول ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ ويثابهن، يعني قولهم هذا يشابه ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ بأن الملائكة، أو اللات والعزى بنات الله.

ثم أظهر الغضب بالدعاء عليهم بقوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ وأهلكهم كيف تصدّر من لسانهم هذه الأباطيل، و ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ وإلى أين يُضَرَفُونَ من الحق.

٢. الكافي ٣: ٥٦٨، تفسير الصافي ٢: ٣٣٥.

٤. الاحتجاج: ٢٣، تفسير الصافي ٢: ٣٣٥.

١. تفسير القمي ١: ٢٨٨، تفسير الصافي ٢: ٣٣٥.

٣. تفسير الرازي ١٦: ٣٣.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث: «أي لعنهم، فسَمَى اللَّعْنَةَ قِتَالًا»^١.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «اشتد غضب الله على اليهود حين قالوا: ﴿عُزِّرَ ابْنُ اللَّهِ﴾، واشتد غضب الله على النصارى حين قالوا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾، واشتد غضب الله على من أراق دمي وأذاني في عترتي»^٢.

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا
إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَإِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ [٣١]

ثم قدح الله فيهم بإثبات شرك آخر لهم بقوله: ﴿اتَّخَذُوا﴾ هؤلاء اليهود والنصارى ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ وعلماءهم ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ وزهادهم ﴿أَرْبَابًا﴾ ومطاعين كأنهم معبودون لهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومتجاوزين عنه.

عن الصادق عليه السلام: «أما والله ما دَعَوْهم إلى عبادة أنفسهم، ولو دَعَوْهم إلى عبادة أنفسهم ما أجابوهم، ولكن أحلوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون»^٣.

﴿وَ﴾ اتَّخَذُوا ﴿الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أيضاً رَبًّا وَمَعْبُوداً بعد ما قالوا إِنَّهُ ابْنُ اللَّهِ.

القمي: عن الباقر عليه السلام: «أما المسيح فعصوه، وعظموه في أنفسهم، حتّى زعموا أنّه إله، وأنّه ابنُ الله، وطائفة منهم قالوا: ثالث ثلاثة [وطائفة منهم قالوا: هو الله]، وأما أحبارهم ورهبانهم فإنهم أطاعوهم، وأخذوا بقولهم، وأتبعوا ما أمروهم به، ودانوا بما دَعَوْهم إليه، فاتَّخَذُوهم أرباباً بطاعتهم لهم، وتركهم أمر الله وكُتِبَ ورُسِلَ، فنبذوه وراء ظهورهم». قال: «ولمّا ذكر هذا في كتابه لكي تنعظ بهم»^٤.

﴿وَ﴾ الحال أنّهم ﴿مَا أُمِرُوا﴾ من قِبَلِ اللَّهِ، وبحكم عقولهم، بشيءٍ ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا﴾، وليطيعوا ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ ولا يُطيعون غيره، وأما طاعة غيره بأمره فهي^٥ في الحقيقة طاعته.

ثم أكد سبحانه وحدانيته في الألوهية والربوبية والعبادة بقوله: ﴿لَإِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم نزه ذاته المقدسة عن الشرك بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به في الألوهية والعبادة، وتعالى شأنه عن ذلك.

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نَوْرَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ [٣٢]

١. الاحتجاج: ٢٥٠، تفسير الصافي ٢: ٣٣٦.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٨١٠/٢٢٩، أمالي الطوسي: ٢٣١/١٤٢، تفسير الصافي ٢: ٣٣٦.

٣. الكافي ١: ١/٤٣، تفسير الصافي ٢: ٣٣٦.

٤. تفسير القمي ١: ٢٨٩، تفسير الصافي ٢: ٣٣٦.

٥. زاد في النسخة: بأمره.

ثم أنه تعالى بعد بيان سوء عقيدتهم، بين سوء أفعالهم الموجب لاستحقاقهم القتل والذلة بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا﴾ ويخمدوا ﴿نُورَ اللَّهِ﴾ وييطلوا براهين توحيده وتنزهه عن اتخاذ الولد، ويخفوا أدلة صدق النبي عن عوامهم، ويثبثوا شواهد صحة شريعته بأقاويلهم الباطلة وشبهاتهم الفاسدة التي يقولونها ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ مع عدم اعتقاد صحة معانيها في قلوبهم، كأنهم يسعون أن يطفئوا نور الشمس بنفخهم ﴿وَيَأْتِي اللَّهَ﴾ ويحتج ﴿إِلَّا أَنْ﴾ ثبت دينه، و ﴿يَتِمُّ نُورُهُ﴾ ببلوغه الغاية في الإضاءة والإنارة، ويحق الحق بضرورة رسوله، وظهور معجزاته، وإعلاء كلمته ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ذلك فضلاً عن أن لا يكرهوه.

عن أمير المؤمنين عليه السلام، في هذه الآية: «يعني [أنهم] اثبتوا في الكتاب ما لم يقله الله ليلبسوا على الخليفة، فأعمى الله قلوبهم حتى تركوا فيه ما دلّ على ما أحدثوا فيه وحرفوا منه»^١.
وعنه عليه السلام: «جعل [الله] أهل الكتاب المقيمين به، والعالمين بظاهره وباطنه، من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، أي يظهر مثل هذا العلم لمحتمليه في الوقت بعد الوقت، وجعل أعداءها أهل الشجرة الملعونة الذين حاولوا إطفاء نور الله بأفواههم فأبى الله إلا أن يَتِمَّ نُورُهُ»^٢.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [٣٣]

ثم بين الله إتمام نور ظهور رسوله ﷺ بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ الذي جاءكم ﴿بِالْهُدَىٰ﴾ ودلائل الصّدق من القرآن العظيم، والمعجزات الباهرة الكثيرة ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ المرصّي عند الله، والأحكام الموافقة لصلاح العباد ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ وليُغلبه بالحجة والسيف ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ بحيث لا يبقى على وجه الأرض غيره.

قيل: إن المراد ظهور الإسلام على سائر الأديان في جزيرة العرب، أو غلبته على سائر الأديان في الجملة، فإنه لم يكن أهل دين إلا وقهرهم المسلمون؛ أما اليهود فقد قهرهم المسلمون حتى أخرجوهم من جزيرة العرب، وأما النصارى فقد غلبوهم على بلاد الشام وما والاها إلى ناحية الروم والمغرب، وأما عبدة الأوثان فقد غلبوهم على كثير من بلادهم ممّا يلي الترك والهند، وكذلك سائر الأديان.

٢. الاحتجاج: ٢٥٢، تفسير الصافي: ٢: ٣٣٧.

١. الاحتجاج: ٢٤٩، تفسير الصافي: ٢: ٣٣٧.

وروث العامة عن أبي هريرة أنه قال: هذا وعد من الله بأنه تعالى يجعل الإسلام عالياً على جميع الأديان، وتمام هذا يحصل عند نزول عيسى^١.

وعن السدي قال: ذلك عند خروج المهدي، لا يبقى أحدٌ إلا دخل في الإسلام، أو أدى الخراج^٢.
القمي قال: نزلت في القائم من آل محمد. قال: وهو الذي ذكرناه مما تأويله بعد تنزيله^٣.

وعن الصادق عليه السلام، في هذه الآية: «والله ما نزل تأويلها بعد، وما ينزل حتى يخرج القائم، فإذا خرج القائم لا يبقى كافر بالله العظيم ولا مشرك بالإمام إلا كره خروجه، حتى لو كان كافراً أو مشركاً في بطن صخرة لقالت: يا مؤمن، في بطني كافر فاكسرني واقتله»^٤.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «وإني صاحب هذه الأمر بإيضاح القدر له في ذلك؛ لاشتمال الفتنة على القلوب، حتى يكون أقرب الناس إليه أشدهم عداوة له، وعند ذلك يؤيده الله بخنوده لم تزوها، ويظهر دين نبيه على يديه على الدين كله «وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ»^٥.

وعن الباقر عليه السلام، في هذه الآية: «أن ذلك يكون عند خروج المهدي من آل محمد، فلا يبقى أحدٌ إلا أقر بمحمد عليه السلام»^٦.

وعن العياشي عنه عليه السلام، ما في معناه، قال: وفي خبر آخر قال: «ليظهره الله في الرجعة»^٧.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يبقى على وجه الأرض بيتٌ مدبر ولا وبرٌ إلا أدخله الله الإسلام إما بعزٍّ عزيزٍ أو بدِّل ذليلٍ، إما يعزُّهم فيجعلهم الله من أهله فيعزُّوا به، أو يذلُّهم فيديثون له»^٨.

وعن الباقر عليه السلام: «القائم منا منصورٌ بالرب، مؤيدٌ بالنصر، تطوى له الأرض، وتظهر له الكنوز، ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب، ويظهر الله به دينه على الدين كله، فلا يبقى في الأرض خرابٌ إلا عُمِّر، وينزل روح الله عيسى بن مريم فيصلي خلفه»^٩.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أظهر ذلك بعدد؟» قالوا: نعم، قال: «كلا، فوالذي نفسي بيده، حتى لا تبقى قرية إلا وتنادي بشهادة أن لا إله إلا الله، ومحمد رسول الله، بكرةً وعشياً»^{١٠}.

وعن الكاظم عليه السلام، في هذه الآية: «هُوَ الَّذِي أَمَرَ رَسُولَهُ بِالْوَلَايَةِ لَوْصِيهِ، وَالْوَلَايَةُ هِيَ دِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ عِنْدَ قِيَامِ الْقَائِمِ، وَاللَّهُ مُتِمُّ وَلايَةِ الْقَائِمِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ بَوْلَايَةِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

١ و٢. تفسير الرازي ١٦: ٤٠.

٤. كمال الدين: ١٦/٦٧٠، تفسير الصافي ٢: ٣٣٨.

٦. مجمع البيان ٥: ٣٨، تفسير الصافي ٢: ٣٣٨.

٨. مجمع البيان ٥: ٣٨، تفسير الصافي ٢: ٣٣٨.

١٠. تفسير الصافي ٢: ٣٣٨.

٣. تفسير القمي ١: ٢٨٩، تفسير الصافي ٢: ٣٣٨.

٥. الاحتجاج: ٢٥٦، تفسير الصافي ٢: ٣٣٨.

٧. تفسير العياشي ٢: ١٨١٨/٢٣١، تفسير الصافي ٢: ٣٣٨.

٩. إكمال الدين: ١٦/٣٣١، تفسير الصافي ٢: ٣٣٩.

قيل: هذا تنزيل؟ قال: «نعم، هذا الحرف تنزيل، وأما غيره فتأويل»^١.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ
بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا
يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ
فَتَكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ [٣٤، ٣٥]

ثم أنه تعالى بعد ذم أهل الكتاب باتخاذهم علمانهم أرباباً بالمعنى الذي ذكرنا، ذم علماءهم
وزهادهم بأكل الرشا وغيره من المال الحرام بإضلال الناس؛ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ
الْأَخْبَارِ﴾ وعلماء اليهود ﴿وَالرُّهْبَانِ﴾ وزهاد النصارى والله ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾
وطريق الحرام كالرشوة للحكم بالجور، وتغيير الأحكام الإلهية، وتحريف الكتب السماوية
﴿وَيَصُدُّونَ﴾ ويمنعون الناس بتسويلاتهم وشبهاتهم ﴿عَنْ﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقبول دين الحق.
ولما كان استمرارهم على أخذ الحرام مشعراً بغاية حرصهم على جمع الدراهم والدنانير، هدد
سبحانه من له هذه الرذيلة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ ويذخرون ﴿الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ [سواء أ] كانا
مسكوكين كالدينار والدرهم، أو غير مسكوكين كالسبائك ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والوجوه
الخيرية ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ يا محمد ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الذي يشاقون إليه باستيقاقهم إلى سببه الذي هو جمع
الدراهم والدنانير ﴿يَوْمَ يُخْمَىٰ﴾ ويوقد ﴿عَلَيْهَا﴾ نار ذات لهب وشدة حرارة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ
فَتَكْوَىٰ﴾ وتُحرق ﴿بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾.

قيل: خصَّ الله الكيَّ بثلث المواضع، لأن المقصود من الأموال حصول الفرح الذي يحصل أثره في
الوجه، والشَّعْبُ الذي يتنفخ به الجبان، وتحصيل ثياب فاخرة تُطرح على الظهر^٢.

وقيل: إن البخيل المومِر إذا رأى الفقير قبض جبينه، وإذا جلس بجنبه تباعد منه، وولاه ظهره^٣.

وقيل: لأن في داخل هذه الأعضاء آلات ضعيفة يعظم تألمها إذا وصل أدنى مؤلم إليها^٤.

وقيل: لأن أطفأ أعضاء الإنسان جبينه، ومتوسطها في اللطافة جنبه، وأصلبها ظهره، والمراد بيان
إحاطة الكيَّ بجميع الأعضاء^٥.

وقيل: لأن كمال بدن الإنسان بالجمال والقوة، ومحلَّ الجمال الوجه، وأعزَّ الأعضاء منه الجبهة،

وَمَحَلَّ الْقُوَّةَ الْجَنْبَ وَالظَّهْرَ، فإذا وقع الكَيِّ في تلك الأعضاء ذهب الجمال والقوة^١.

أقول: يُمكن كون العِلَّة جميع الأمور المذكورة.

وعلى أي تقدير، يُقال لهم ازدياداً لتحسُّرهم: ﴿هَذَا﴾ المال هُوَ ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ وَاخْرَجْتُمْ ﴿لَأَنْفُسِكُمْ﴾ لَا تَنْفِقُونَهُ وَتَلْتَدُونَ بِهِ ﴿فَذُوقُوا﴾ وَاطْعَمُوا طَعْمَ ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿تَكْزِبُونَ﴾ مِنَ الدَّنَانِيرِ وَالْدَّرَاهِمِ الْمُحَمَّاةِ بِالنَّارِ.

رَوَى أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَبَّاً لِلذَّهَبِ وَتَبَّاً لِلْفِضَّةِ» قَالَهَا ثَلَاثاً، فَقَالُوا لَهُ: أَيُّ مَالٍ نَتَّخِذُ؟ قَالَ: «لِسَاناً ذَاكِراً، وَقَلْباً خَاشِعاً، وَزَوْجَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى دِينِهِ»^٢.

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ تَرَكَ صَفْراءَ أَوْ بِيضاءَ كُويَ بِهَا».

وَتُوفِّيَ رَجُلٌ فِي مِيزَرِهِ دِينَارٌ، فَقَالَ ﷺ: «كَيْتٌ». وَتُوفِّيَ آخَرُ فُوجِدَ فِي مِيزَرِهِ دِينَارَانِ فَقَالَ ﷺ: «كَيْتَانِ»^٣.

وَعَنْهُ ﷺ: «الدِّينَارُ وَالْدَّرْهَمُ أَهْلَكَا مَنْ كَانَ قَبْلَهُمَا، وَهُمَا مُهْلِكَاكُمْ»^٤.

وَالْقَمِيّ عَنْ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ كَنْزَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَأَمَرَ بِإِنْفَاقِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». قَالَ: «كَانَ أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ يَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ وَهُوَ بِالشَّامِ فَيُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ: بَشِّرْ أَهْلَ الْكُفُوزِ بِكَيٍّْ فِي الْجِبَاهِ، وَكَيٍّْ فِي الْجُنُوبِ، وَكَيٍّْ فِي الظُّهُورِ أَبَداً حَتَّى يَتَرَدَّدَ الْحَرُّ فِي أَجْوَافِهِمْ»^٥.

وَفِي (الْمَجْمَعِ): عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «تَبَّاً لِلذَّهَبِ، تَبَّاً لِلْفِضَّةِ» يَكْرَهُهَا ثَلَاثاً، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَسَأَلُوهُ: أَيُّ الْمَالِ نَتَّخِذُ؟ فَقَالَ: «لِسَاناً ذَاكِراً، وَقَلْباً خَاشِعاً، وَزَوْجَةً مُؤَمِّنَةً، تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى دِينِهِ»^٦. وَفِي (الْخِصَالِ) عَنْهُ ﷺ: «الدِّينَارُ وَالْدَّرْهَمُ أَهْلَكَا مَنْ كَانَ قَبْلَهُمَا، وَهُمَا مُهْلِكَاكُمْ»^٧.

وَالْقَمِيّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَدِيثٍ: «نَظَرَ عُثْمَانُ إِلَى كَعْبِ الْأَحْبَارِ فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ، مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَدَّى زَكَاةَ مَالِهِ الْمَفْرُوضَةَ، هَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ شَيْءٌ؟» فَقَالَ: لَا، وَلَوْ اتَّخَذَ لَبَنَةً مِنْ ذَهَبٍ وَلَبَنَةً مِنْ فِضَّةٍ مَا وَجِبَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَرَفَعَ أَبُو ذَرٍّ عَصَاهُ فَضَرَبَ بِهَا رَأْسَ كَعْبٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا بَنَ الْيَهُودِيَّةِ الْكَافِرَةِ، مَا أَنْتَ وَالنَّظَرُ فِي أَحْكَامِ الْمُسْلِمِينَ، قَوْلُ اللَّهِ أَصْدَقُ مِنْ قَوْلِكَ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...﴾ الْآيَةُ^٨.

عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، بِطَرِيقٍ عَامِيٍّ قَالَ: «كُلُّ مَالٍ زَادَ عَلَى أَرْبَعَةِ آلَافٍ فَهُوَ كَنْزٌ، أَدَيْتَ زَكَاتَهُ أَوْ لَمْ

١. تفسير الرازي ١٦: ٤٨.

٢. تفسير الرازي ١٦: ٤٤.

٣. تفسير القمي ١: ٢٨٩، تفسير الصافي ٢: ٣٤٠.

٤. تقدم آنفاً.

٥. الخصال: ٣٧/٤٣، تفسير الصافي ٢: ٣٤٠.

٦. مجمع البيان ٥: ٤٠، تفسير الصافي ٢: ٣٤٠.

٧. تفسير القمي ١: ٥٢، تفسير الصافي ٢: ٣٤٠.

تؤدّ»^١.

العياشي عن الباقر عليه السلام أنه شتل عن هذه الآية، فقال: «إنما عنى بذلك ما جاوز ألفي درهم»^٢. وفي (الأمالي): «لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كُلَّ مَالٍ تَوَدَّى زَكَاتُهُ فَلَيْسَ بِكَزْرٍ وَإِنْ كَانَ تَحْتَ سَبْعِ أَرْضِينَ، وَكُلَّ مَالٍ لَا تَوَدَّى زَكَاتُهُ فَهُوَ كَزْرٌ وَإِنْ كَانَ فَوْقَ الْأَرْضِ»^٣. عن الصادق عليه السلام: «مُوسِعٌ عَلَى شَيْعَتِنَا أَنْ يُنْفِقُوا مِمَّا فِي أَيْدِيهِمْ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِذَا قَامَ قَائِمُنَا حُرِّمَ عَلَى [كُلِّ] ذِي كَنْزٍ كَنْزُهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ بِهِ، فَيَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى عُدُوِّهِ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...﴾»^٤.

أقول: يُمكن حَمْلُ الْأَخْبَارِ الدَّالَّةِ عَلَى حُرْمَةِ الْكَزْرِ عَلَى جَمْعِ الْمَالِ فِي وَقْتٍ يَجِبُ إِغْفَاةُ فِي الْجِهَادِ، وَحِفْظُ شَوْكَةِ الْإِسْلَامِ وَالنُّفُوسِ الْمُحْتَرَمَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَارِفِ الَّتِي يَجِبُ صَرْفُ الْمَالِ فِيهَا، كَعَصْرِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وَآمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَمَا شَابَهُهُ، وَالْأَخْبَارِ الدَّالَّةِ عَلَى الْجَوَازِ عَلَى غَيْرِهِ.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ [٣٦]

ثُمَّ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، ذَكَرَ الشُّهُورَ الَّتِي يُجُوزُ فِيهَا الْقِتَالُ، وَالَّتِي لَا يُجُوزُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ» الْقَمَرِيَّةَ الَّتِي هِيَ مَا بَيْنَ الْهِلَالَيْنِ «عِنْدَ اللَّهِ» وَفِي حُكْمِهِ وَقَضَائِهِ «إِثْنَا عَشَرَ شَهْرًا» مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَنَقْصَانٍ، مُثَبَّتَةً تِلْكَ الْعِدَّةُ «فِي كِتَابِ اللَّهِ» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: أَنَّهُ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ أَحْوَالُ مَخْلُوقَاتِهِ بِأَسْرَافِهَا عَلَى التَّفْصِيلِ^٥ «يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» وَحِينَ أَبْدَعَ الْأَجْرَامَ اللَّطِيفَةَ وَالْكَثِيفَةَ، لِأَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ الَّذَيْنِ بِهِمَا مَدَارُ الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ جُرْمَانِ فِي السَّمَاوَاتِ «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ» يُحَرِّمُ الْقِتَالَ فِيهَا، وَتُعْظَمُ حُرْمَتُهَا، ثَلَاثَةٌ مِنْهَا سَرْدٌ مُتَعَابِقَةٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ، وَوَاحِدٌ فَرْدٌ وَهُوَ شَهْرُ رَجَبٍ.

قِيلَ: كَانَتْ حُرْمَةُ تِلْكَ الْأَشْهُرِ عِنْدَ الْعَرَبِ بِحَيْثُ لَوْ لَقِيَ الرَّجُلُ فِيهَا قَاتِلَ ابْنِهِ، لَمْ يَكُنْ يَتَعَرَّضُ لَهُ. «ذَلِكَ» الْمَذْكُورُ مِنْ كَوْنِ الْأَشْهُرِ اثْنَيْ عَشَرَ، وَالْحَرَمُ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ مُعَيَّنَةٌ، هُوَ «الدِّينُ الْقَيِّمُ» وَالشَّرْعُ

١. تفسير الرازي ١٦: ٤٥. ٢. تفسير العياشي ٢: ٢٣١/١٨٢٠، تفسير الصافي ٢: ٣٤٠.

٣. أمالي الطوسي: ١١٤٢/٥١٩، تفسير الصافي ٢: ٣٤٠.

٤. تفسير العياشي ٢: ٢٣١/١٨٢١، الكافي ٤: ٤/٦١، تفسير الصافي ٢: ٣٤١.

٥. تفسير الرازي ١٦: ٥١.

٦. السرد: المتتابع والمتعاقب.

الباقي المُستقيم الذي جاء به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، لا يُغَيَّر ولا يُبدَّل ﴿فَلَا تَطْلُمُوا﴾ أيها العرب ﴿فِيهِنَّ أَنْفُسُكُمْ﴾ بتضييع حرمتها وتغيير شهرها.

ثم بين الله حكم قتال المشركين فيها بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ حال كونكم ﴿كَافَّةً﴾ ومُجتَمعين ومُتناصرين، مُستحلين لقتالها^١ ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ حال كونهم ﴿كَافَّةً﴾ ومُجتَمعين على قتالكم، مُستحلين له فيها.

ثم وعد الله المؤمنين النصر بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ بنصره وتأييده ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ والخائفين من الله في مخالفة أوامره.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِثُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ [٣٧]

ثم أن رجلاً من كنانة، كان يقف بالموسم ويقول: قد أحللت دماء المُحلِّين طي وخشم في شهر المُحرَّم وأنسأته، وحرمت بدله صفرًا، فإذا كان العام المقبل يقول: قد أحللت صفرًا وأنسأته، وحرمت بدله شهر المُحرَّم. على رواية القمي^٢.

فردَّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ والتأخير في الشهر الحرام ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ وبدعة مُضافة إليه.

وقيل: إن أول من أحدث ذلك جُنادة بن عوف الكِنَاني، كان يقوم على جملٍ أحمر في الموسم فينادي: إن آلَهتكم قد أحلَّت لكم المُحرَّم فأحلُّوه، ثم ينادي في القابل: إن آلَهتكم قد حرمت عليكم المُحرَّم فحرِّموا^٣.

وهذا التأخير والنسيء ﴿يُضَلُّ بِهِ﴾ من قِبَل الله، أو الشيطان ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

ثم فسّر سبحانه النسيء بقوله: ﴿يُحْلُونَهُ﴾ ويجوزون القتال فيه ﴿عَامًا﴾ ويمنعون عن القتال بدله في شهرٍ حرام ﴿وَيُحَرِّمُونَهُ﴾ ويمنعون القتال في ذلك الشهر الذي أحلَّوه ﴿عَامًا﴾ آخر ﴿لِيُؤَاطِثُوا﴾ ويوافقوا ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ من الأشهر. [فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ]

عن ابن عباس: أنهم ما أحلوا شهرًا من الحرام إلا حرّموا مكانه شهرًا آخر من الحلال، ولم يحرموا

١. كذا، والظاهر: لقتالهم فيها.

٢. تفسير القمي ١: ٢٩٠، تفسير الصافي ٢: ٣٤٢.

٣. تفسير الصافي ٢: ٣٤٢.

شهرًا من الحلال إلا أحلوا مكانه شهرًا آخر من الحرام، لأجل أن يكون عدد الأشهر الحرم أربعة مطابقة لما ذكره الله^١.

ثم نسب سبحانه هذا النسيء المضاف إلى الكفر إلى تزيين الشيطان بقوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ﴾ بتسويلات الشيطان ﴿سُوءَ أَعْمَالِهِمْ﴾ وقبح أفعالهم ﴿وَأَنَّهُ لَا يَهْدِي﴾ إلى خير، ولا يوصل إلى صلاح ﴿الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفَرُوا يَعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٣٨ و ٣٩]

ثم أنه تعالى بعد بيان عقائدهم السيئة وأعمالهم الشنيعة، حث المؤمنين على قتالهم بإنكار النفاق والتواني عليهم فيه؛ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ﴾ من العذر والحالة المانعة عن الامتثال ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ من قبل الله والرسول ﴿أَنْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطلباً لمَرْضَاتِهِ ﴿أَتَأْتَلْتُمْ﴾ وتباطؤكم كأنكم ليقل أبدانكم تمانلون ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ مخلصين فيها حباً للحياة، وطلباً للراحة، وكراهة لمشاق السفر، وخوفاً من العدو ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وأطمأنتم إليها، وسكنت قلوبكم إلى شهواتها ونعيمها، بدلاً ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ ونعيمها الدائم^٢ ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولذا نذرها ونعيمها ﴿فِي﴾ جنب لذناب ﴿الْآخِرَةِ﴾ ونعيمها ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ غير معتد به عند العقل والعقلاء.

عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في غزوة تبوك، وذلك لأنه لما رجع [النبي ﷺ] من الطائف أقام بالمدينة، وأمر بجهاد الروم، وكان ذلك الوقت زمان شدة الحر، وطابت ثمار المدينة وأيسنت، واستعظموا غزو الروم وهابوه. فنزلت^٣.

وفي (الجوامع): كان ذلك في غزوة تبوك في سنة عشر، بعد رجوعهم من الطائف، استنفروا في وقت قحط وقيط، مع بعد الشقة، وكثرة العدو، فشق ذلك عليهم^٤.

القَمِيَّ ﷺ: وذلك أن رسول الله ﷺ لم يسافر سفيراً أبعد ولا أشد منه، وكان سبب ذلك أن

٢. في النسخة: الدائمة. ٣. تفسير الرازي ١٦: ٥٩.

١. تفسير الرازي ١٦: ٥٨.

٤. جوامع الجامع: ١٧٨، تفسير الصافي ٢: ٣٤٢.

الصَّيَافَةِ^١ كانوا يقدّمون المدينة من الشّام معهم الدُّرْمُوكُ^٢ والطَّعَامُ وَهُمْ الْأَنْبِاطُ، فَأَشَاعُوا بِالْمَدِينَةِ أَنَّ الرُّومَ قد اجتمعوا يريدون غزو رسول الله ﷺ في عسكرٍ عظيم، وأن هِرَقل قد سار في جنوده وجلب معهم غَسَّانَ وَجَذَامَ وَبَهْرَاءَ وَعَامِلَةَ، وقد قَدِمَ عساكره البلقاء، ونزل هو جِمَصُ، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ إلى بَنُوكَ، وهي من بلاد الْبَلْقَاءِ، وبعث إلى الْقَبَائِلِ حوله وإلى مَكَّةَ وإلى مَنْ أَسْلَمَ مِنْ خَزَاعَةَ وَمُزَيْنَةَ وَجُهَيْنَةَ، وَحَثَّمَهُمْ عَلَى الْجِهَادِ، وأمر رسول الله ﷺ بعسكره فَضْرِبَ فِي ثَنِيَةِ الْوُدَاعِ، وأمر أهل جُدَّةَ أَنْ يُعِينُوا مَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ عَنْده شَيْءٌ أَخْرَجَهُ، وَحَمَلُوا وَقَوَّوْا وَحَثُّوا عَلَى ذَلِكَ. ثُمَّ خَطَبَ خُطْبَةً وَرَغَّبَ النَّاسَ فِي الْجِهَادِ. قَالَ: وَقَدِمْتُ الْقَبَائِلَ مِنَ الْعَرَبِ مِمَّنْ اسْتَغْفَرَهُمْ، وَقَعَدَ عَنْهُ قَوْمٌ مِنَ الْمُتَافِقِينَ^٣.

فهدّدهم الله سبحانه على التّعاقد عنه بقوله: ﴿إِلَّا تَتَوَفَّوْا﴾ أيها المؤمنون، ولا تخرّجوا إلى الجهاد ﴿يُعَذِّبُكُمْ﴾ الله في الدُّنْيَا ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ويهلككم إهلاكاً فظيماً بالقتل وغلبة العدو والخطأ - كما قيل^٤ - ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾ بكم بعد إهلاككم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ خيراً منكم، وأطوع لأمر الله ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ بتناقلكم عن الجهاد ونصرة دينه ﴿شَيْئًا﴾ يسيراً من الضّرر، لكونه تعالى غنياً عن العالمين، لا يحتاج في إنفاذ إرادته إلى مُعِينٍ، أو المُرَاد: لا تضرّوا النبيّ شيئاً، لأن الله عصمه من الناس، ووعد النّصر. عن ابن عباس قال: المُرَاد من القوم الآخرين التّابعون^٥. وقيل: أهل اليمن^٦. وقيل: أبناء فارس^٧. واحتمل بعض أن يكون المُرَاد: أن يخرج النبيّ ﷺ من بين أهل المدينة وينصره بالملائكة^٨. ثم أكّد غناه بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من التعذيب والتبديل وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فإذا وعد بالعقاب لا يخلف وعده. وهو غاية التهديد.

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ [٤٠]

٢. الدُّرْمُوك: الثياب والبط.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٢٩٩.

٦ و٧. تفسير الرازي ١٦: ٦١، تفسير أبي السعود ٤: ٦٥.

١. أي الذين يأتون في الصيف.

٣. تفسير القمي ١: ٢٩٠، تفسير الصافي ٢: ٣٤٢.

٥. تفسير الرازي ١٦: ٦١.

٨. تفسير الرازي ١٦: ٦١.

ثم بالغ سبحانه في إظهار غناه عن نصرتهم بقوله: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾ في غزوة تبوك، فإن الله ناصره، وليست نصرته من الله تعالى أمراً بديعاً ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ وأعانه على أعدائه ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قُريش من مكة، بأن اجتمعوا على قتله فخرج منها، حال كونه ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ واحد الرجلين، ولم يكن معه إلا أبو بكر.

فسي ذهب الرسول ﷺ إلى الغار

روث العامة: أن بعد تفرق قُريش عن دار الندوة، واتفاقهم على قتل النبي ﷺ في الليل، أتاه جبرئيل عليه السلام فأخبره بمكر قُريش، وأمره بمفارقة مَضْجعه تلك الليلة، فقال ﷺ: لعليّ: ثم على فراشي واتّشح بردائي هذا الحضرمي، وكان ﷺ يشهد العيدين في ذلك الرداء، فلما مضت غَمّة^١ من الليل - يعني ثلثه - اجتمعت قُريش على باب رسول الله ﷺ وكانوا مائة، فجعلوا يتطلعون من شق الباب ويرصدون متى ينام فيبيون عليه ويقتلونه، فخرج ﷺ عليهم وهم ببابه، وقرأ ﴿يَس * وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^٢، فأخذ الله أبصارهم عنه ﷺ فلم يبصروه حتى خرج من بينهم^٣.

وفي رواية: أنه ﷺ أخذ قبضةً من تراب فدّرها عليهم، فاتاهم آتٍ فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمّداً، قال: فقد خيّمك الله، والله خرج من بينكم محمّد، ثم ما ترك رجلاً منكم إلا وضع في رأسه التراب، وانطلق لحاجته، أفما تزون ما بكم، فوضع كلّ رجلٍ منهم يده على رأسه فإذا عليه التراب. فدخلوا على عليّ عليه السلام فقالوا له: يا عليّ، أين محمّد؟ قال: «لا أدري أين ذهب» وكان قد انطلق إلى بيت أبي بكر، فلما دخل عليه قال: «إن الله أذن لي في الخروج» فقال أبو بكر: الصُّحبة يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، قال: نعم، قال أبو بكر: خذ إحدى راحلتي هاتين، فإني أعدّتهما للخروج، فقال ﷺ: «نعم، بالثمن» وهي الناقة القصوى أو الجدعاء، وأما الناقة العضباء فقد جاء أن ابنته فاطمة تحشّر عليها.

ثم استأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدئل ليدلّهما على الطريق للمدينة؛ وكان على دين قُريش، فدفعاً إليه راحلتيهما، ووعداه غارَ جبل ثور بعد ثلاث ليالٍ أن يأتي بالراحتين صباح الليلة الثالثة، فمكث ﷺ في بيت أبي بكر إلى الليلة القابلة، فخرجا إلى طرف الغار، فمشى ﷺ ليلته على طرف أصابعه حتى حَفِثَ رجلاً. إلى أن قالوا: ولما دخل رسول الله ﷺ الغار، أمر الله شجرة - وهي التي يُقال لها القنّاد، وقيل: أمّ غَيْلان - فنبّت في وجه الغار، فسترته بقروعها^٤.

١. في النسخة: مضى قسمة. ٢. في النسخة: اجتمع. ٣. يس: ١/٣٦-٩.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٤٣٢.

١. في النسخة: مضى قسمة.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٤٣١.

وقيل: إِنَّهُ ﷺ دعا تلك الليلة شجرة كانت أمام الغار، فأقبلت حتى وقفت على باب الغار، وكانت مثل قامة الإنسان^١.

وقيل: إِنَّهُ ﷺ مرَّ على ثمامة - وهي شجرة صغيرة ضعيفة - فأمر أبا بكر أن يأخذها معه، فلما صار إلى باب الغار أمره أن يجعلها على باب الغار، وبعث الله العنكبوت فنسجت ما بين قروعيها نسجاً متراكباً كنسج أربعين سنة^٢.

فلما فقد المشركون رسول الله ﷺ شقَّ عليهم وخافوا، وطلبوه بمكة أعلاها وأسفلها، وبعثوا القافة في كلِّ وجه ليقفوا أثره، فوجد الذي ذهب إلى جبل ثور أثره انتهى إلى الغار، فقال: ها هنا انقطع الأثر، ولا أدري ذهب يميناً أو شمالاً، أو صعد على الجبل، فأقبل فتيان قریش من كلِّ بطن ببعضهم وشيؤهم، فلما انتهوا إلى الغار قال قائل منهم: ادخلوا الغار، فقال أمية بن خلف: ما أرى أنه أتى الغار، إنَّ عليه لعنكوباً كان قبل ميلاد محمد، ولو دخل فيه لما نسج العنكبوت، وعند ما حاموا حول الغار حزن أبو بكر خوفاً على رسول الله^٣.

أقول: لم يكن له بحال الخوف على رسول الله ﷺ، إن كان مؤمناً برسائله وصدق أخباره، مع شهادته المعجزات العظيمة منه؛ كمجيء الشجر على باب الغار، ونسج العنكبوت عليه، بل إنَّما كان خوفه دليلاً على عدم إيمانه بالرسول، وحمله معجزاته على السحر، وعليه كان خوفه على نفسه، بحيث كاد أن يعلوَّ صوته ويطلع المشركون على كون الرسول في الغار، فنصر الله رسوله.

﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ والمشركون على بابه ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ الرسول ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ والذي معه فيه وهو أبو بكر: ﴿لَا تَخْزَنَ﴾ ولا تَخَفْ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ يحفظه وعونه ﴿مَعَنَا﴾.

وإنَّما قال: ﴿مَعَنَا﴾ ولم يقل: «معي» لعلَّه بعدم شكون قلبه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ معي﴾، ولو كان خوفه على الرسول ﷺ لكفى في زواله قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ معي﴾، كما أنه كفى في تسكين قلب علي عليه السلام حين نومه في فراش الرسول ﷺ أنه ﷺ بشره بسلامة نفسه.

عن الباقر عليه السلام: «أَنَّ رسول الله ﷺ أقبل يقول لأبي بكر في الغار: اسكن، فإنَّ الله معنا وقد أخذته الرعدة وهو لا يسكن، فلما رأى رسول الله ﷺ حاله قال له: أتريد أن أريك أصحابي من الأنصار في مجالسهم يتحدثون، وأريك جعفر وأصحابه في البحر يغوصون؟ قال: نعم، فسمح رسول الله ﷺ بيده على وجهه، فنظر إلى الأنصار يتحدثون، وإلى جعفر وأصحابه في البحر يغوصون». الخبر^٤.

٢. تفسير روح البيان ٣: ٤٣٣، وفيه: أربع سنين.

٤. الكافي ٨: ٣٧٧/٢٦٢، تفسير الصافي ٢: ٣٤٤.

١. تفسير روح البيان ٣: ٤٣٣.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٤٣٤.

في استدلال العامة
على فضيلة
أبي بكر ورده
ثم أعلم أنه استدلت العامة بهذه الآية على فضيلة أبي بكر، وأن إيمانه كان حقيقياً
بوجوه ضعيفة نقلها الفخر الرازي^١:

الأول: أنه ﷺ إنما ذهب إلى الغار لأجل أنه كان يخاف الكفار من أن يقدموا على قتله، فلولا أنه كان قاطعاً على باطن أبي بكر بأنه كان من المؤمنين المحققين الصادقين الصديقين لما أصبح نفسه في ذلك الموضع؛ لأنه لو جاز أن يكون باطنه بخلاف ظاهره لخافه من أن يدل عليه أعداءه، وأيضاً لخافه من أن يقدم على قتله^٢.

وفيه: أنه يمكن أن النبي ﷺ كان قاطعاً بأنه لو لم يصحبه معه مع استدعائه المصاحبة كان يفيد في أمره، وكان عالماً بأنه يحفظه من أعماله السيئة، ومن أن يخبر الكفار بمكانه إذا صحبه، مع علمه ﷺ بعدم قدرته مع ضعف بدنه وقلبه على الإساءة إليه وإصابته بمكرهه.

الثاني: أن الهجرة كانت^٣ بأمر الله، وكان في خدمة رسول الله ﷺ جماعة من المؤمنين المخلصين، وكانوا في النسب إلى شجرة رسول الله ﷺ أقرب من أبي بكر، فلولا أن الله أمره بأن يستصحب أبا بكر في تلك القضية الهائلة لما كان يستصحبه، ولا يخصه بهذه الصُحبة، وتخصيص الله إياه بهذا التشريف دل على مناصب عالٍ له في الدين^٤.

وفيه: أن صريح روايتهم أنه حين ملاقاته النبي واطّلاعه على هجرته، التمس منه الصُحبة، فأجابه النبي إليها، ولو كان استصحابه بأمر الله لبشره النبي به في تدو ملاقاته، مع أنه يمكن أن الله أمر النبي باستصحابه خاصة لحكم؛ منها أنه لو لم يستصحبه وأبقاه في مكة، لم يكن على إسلامه الظاهري؛ لأنه كان منه على حرف، فاقتضت الحكمة حفظ إسلامه ليقضي [الله] أمراً كان مفعولاً.

الثالث: أن كل من سوى أبي بكر فارقوا رسول الله ﷺ، أما هو فما سبق رسول الله كغيره، بل صبر على مؤانسته وملازمته وخدمته، عند هذا الخوف الشديد الذي لم يبق معه أحد^٥.

وفيه: أن المراد من الخوف الشديد الذي لم يبق معه أحد، هو الحاصل من اتفاق قُرَيش على قتله في دار الندوة، واجتماعهم على باب داره، لذلك فالظاهر أنه لم يطلع عليه أحد من الأصحاب حتى أبي بكر؛ لأن النبي ﷺ أطلع عليه في مساء ذلك اليوم بإخبار جبرئيل، ولم يكن أبو بكر في ملازمته وخدمته، بل ذهب النبي - على ما رَوَوْه - إلى بيت أبي بكر في قرب من نصف الليل، بعد أن أمر علياً عليه السلام بالمبيت على فراشه. وعلى صدق الرواية لعلة كان ذهابه إلى بيته لأجل شِرانه ناقته

والاختفاء عنده.

الزَّايِع: أَنَّهُ تَعَالَى سَمَاءً ﴿ثَانِي أَثْنَيْنِ﴾ فجعله ثاني محمد، حال كونهما في الغار^١. وفيه: أَنَّ الْمُرَادَ بَيَانُ أَنَّ اللَّهَ نَصَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِطَرِيقٍ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ، حَيْثُ أَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِ الْكُفَّارِ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ ثَانِيَهُ. وَعَلَيْهِ،

فَلَا شُبْهَةٌ فِي أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ﴿ثَانِي أَثْنَيْنِ﴾ الثَّانِي فِي الْعَدَدِ لَا الثَّانِي فِي الْفَضِيلَةِ وَالرُّتْبَةِ وَالْمَنْزَلَةِ عِنْدَ اللَّهِ. وَلَعَمْرِي إِنَّ هَذَا فِي الْوُضُوحِ بِمَكَانٍ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ حَتَّى الْأَحْمَقِ الْعَيِّ، فَكَيْفَ بِالْفَاعِلِ الزَّكِيِّ؟ وَالْعَجَبُ مِنَ الْفَخْرِ وَأَضْرَابِهِ أَنَّهُمْ تَخَيَّلُوا أَنَّ الْمُرَادَ الثَّانِي فِي الْمَنْزَلَةِ، مَعَ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِذَا حَضَرَ اثْنَانِ يُقَالُ لِكُلِّ وَاحِدٍ أَنَّهُ ثَانِي اثْنَيْنِ، أَيْ هُوَ أَحَدُهُمَا.

ثُمَّ قَالَ الْفَخْرُ: وَالْعُلَمَاءُ أَثْبَتُوا أَنَّ أَبِي بَكْرٍ كَانَ ثَانِي مُحَمَّدٍ ﷺ فِي أَكْثَرِ الْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ، فَإِنَّهُ ﷺ لَمَّا أُرْسِلَ إِلَى الْخَلْقِ وَعَرَّضَ الْإِسْلَامَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ آمَنَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ ذَهَبَ وَعَرَّضَ الْإِسْلَامَ عَلَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَجَمَاعَةٍ آخَرِينَ مِنْ أَجَلَّةِ الصَّحَابَةِ، وَالْكُلَّ آمَنُوا عَلَى يَدَيْهِ، ثُمَّ إِنَّهُ جَاءَ بِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلٍ، فَكَانَ هُوَ ثَانِي اثْنَيْنِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ^٢.

أَقُولُ فِيهِ: أَوَّلًا: لَا تَسْلَمُ أَنَّهُ آمَنَ بِدَعْوَتِهِ [أَحَدٌ] إِلَّا قَلِيلٌ مِمَّنْ كَانَ إِيمَانُهُ كإِيمَانِهِ؛ كَطَلْحَةَ الَّذِي قَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا يُحَرِّمُ عَلَيْنَا نِسَاءَهُ وَيَتَزَوَّجُ هُوَ بِنِسَائِنَا، لَئِنْ أَمَاتَ اللَّهُ مُحَمَّدًا لَنَرُكُضَنَّ بَيْنَ خَلَائِلِ نِسَاءِهِ، كَمَا رُكُضَ بَيْنَ خَلَائِلِ نِسَائِنَا^٣. وَكُثْمَانُ الَّذِي مَلَأَتْ مِطَاطِعُهُ الدَّفَاتِرَ.

وثَانِيًا: كَانَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَوَّلَى مَنْ بَانَ يَكُونُ ثَانِي اثْنَيْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ، حَيْثُ إِنَّهُ هَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ وَآمَنَ بِدَعْوَتِهِ النَّجَاشِيُّ وَجَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ.

ثُمَّ قَالَ: وَأَيْضًا كُلَّمَا وَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ، كَانَ أَبُو بَكْرٍ يَقِفُ فِي خِدْمَتِهِ وَلَا يُفَارِقُهُ، فَكَانَ ثَانِي اثْنَيْنِ فِي مَجْلِسِهِ^٤.

أَقُولُ فِيهِ: إِنَّ وَقُوفَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْغَزَوَاتِ كَانَ لِحُبْنِهِ وَضَعْفِ قَلْبِهِ، وَعَدَمُ كَوْنِهِ مِنْ رِجَالِ الْحَرْبِ وَابْدَأَ مُهْجَتَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَلِذَا لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمَوْتِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ، مَعَ كَوْنِهِ عِنْدَهُ ﷺ.

ثُمَّ قَالَ: وَلَمَّا مَرِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَامَ مَقَامَهُ فِي إِمَامَةِ النَّاسِ فِي الصَّلَاةِ، فَكَانَ ثَانِي اثْنَيْنِ^٥. أَقُولُ: الْعَجَبُ مِمَّنْ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْقَوْلِ الْبَاطِلِ، كَيْفَ لَمْ يَقُلْ إِنَّهُ أَقَامَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَامَهُ فِي

١. تفسير الرازي ١٦: ٦٤.

٢. ٥ و ٤. تفسير الرازي ١٦: ٦٤.

٣. تفسير الرازي ١٦: ٦٤.

٤. تفسير الرازي ١٦: ٢٧.

٥. تفسير الرازي ١٦: ٦٤.

الإمامة، ليثبت له الفضل؟ فإن قيامه مقامه في الإمامة بغير إذن الرسول لا فضل فيه، مع توهم الناس أنه أرسله الرسول ﷺ للإمامة، بل هو غَضِبَ لمقامه وجُزَأَ عليه ﷺ، كما أنه جلس مجلسه وغَضِبَ محرابه وميبره وخلافته.

ثم قال الفخر: وطعن بعض الحمقى من الروافض في هذا الوجه، وقال: كونه ثاني اثنين للرسول لا يكون أعظم من كون الله تعالى رابعاً لكل ثلاثة في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾^١، ثم أن هذا الحكم عام في حق الكافر والمؤمن، فلما لم يكن هذا المعنى من الله تعالى دالاً على فضيلة الإنسان، فلأن لا يدل من النبي ﷺ على فضيلة الإنسان كان أولى. والجواب: أن هذا تعسف بارز، لأن المراد هناك: كونه تعالى مع الكل بالعلم والتدبير، وكونه مطلعاً على ضمير كل أحد، أما هاهنا فالمراد بقوله تعالى: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ تخصيصه بهذه الصفة في معرض التعظيم، وأيضاً قد دللنا بالوجوه الثلاثة المتقدمة، على أن كونه معه في هذا الموضع، دليل قاطع على أنه ﷺ كان قاطعاً بأن باطنه كظاها، فأين أحد الجانبين من الآخر^٢.

أقول فيه: إنه قد بينا أن المراد من كون النبي ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ كونه أحد الرجلين، ولا دلالة له على أن أبي بكر ثاني النبي وتاليه في الفضيلة والمنزلة عند الله، وإنما كان سوق الكلام في بيان عظمة النبي وأن الله ينصره ولو لم يكن معه أحد؛ كما نصره يوم الغار ولم يكن معه إلا رجل كان وجوده كعدمه، فأين هذا من بيان الفضيلة لأبي بكر؟ وقد أوضحنا أن الوجوه الثلاثة التي ذكرها من الترهات التي لا تصدر من العقلاء.

ولعمري، إن الاعتماد عليها في إثبات الفضيلة لمن له شائبة الفضل من أقوى الشواهد على غاية الحمق، بل الآية دالة على عدم فضيلة لأبي بكر، وكونه ساقطاً من نظر الرحمة حيث خص سبحانه النبي ب نزول السكينة والتأييد بالملائكة بقوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ ورحمته الخاصة التي توجب اطمئنان قلب نبيه ﴿عَلَيْهِ﴾ ﷺ دون صاحبه ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ وقومه في بدر وغيره من المواطن ﴿بِجُنُودٍ﴾ من الملائكة لإعائته على أعدائه، وأنتم ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾.

عن الرضا عليه السلام^٣: [قيل له: إنهم يحتجون علينا بقول الله: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾، [فقال عليه السلام]: «وما لهم في ذلك من حجة، فوالله لقد قال الله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ وما

١. المجادلة: ٥٨/٧. ٢. تفسير الرازي ١٦: ٦٤.

٣. في النسخة: عن الصادق عليه السلام.

ذكره - يعني: أبابكر - فيها بخير». قيل: هكذا تقرأونها؟ قال: «هكذا قرأتها»^١.
وعن الباقر عليه السلام، «فأنزل الله سكينته على رسوله» قال: «الأتري أن السكينة [إنما] نزلت على رسوله»^٢.

أقول: الزوایتان محمولتان على إرادة بيان مرجع ضمير «عَلَيْهِ»، لا بيان أنه كانت في الآية «على رسوله» بدل «عَلَيْهِ» فخرّفت.

ثم بين سبحانه نتيجة نصرته لرسوله بقوله: «وَجَعَلَ» الله بقدرته الكاملة «كَلِمَةً» الشُّرك التي قالها «الَّذِينَ كَفَرُوا» هي «السُّفْلَى» والدُّنيا أبدأ إلى آخر الدنيا «وَكَلِمَةً» الله، وهي توحيد، ورسالة رسوله صلى الله عليه وآله، وصحة دينه «هِيَ» بالخصوص الكلمة «الْعُلْيَا» والأقوى بحيث لا تعلو عليها كلمة باطل «وَاللَّهُ عَزِيزٌ» وغالب على أمره، وقادر على اضمحلال الباطل وتجلية الحق «حَكِيمٌ» في تدبيره وقضائه.

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [٤١]

ثم أكد سبحانه الأمر بالجihad بقوله: «أَنْفِرُوا» أيها المؤمنون، واخرجوا إلى الجهاد جميعاً، حال كونكم «خِفَافًا وَثِقَالًا» وركباناً ومشاةً، أو شباباً وشيوخاً، أو أغنياء وفقراء، أو أصحاء ومرضى، أو نشيطاً وغير نشيط، أو عزاباً ومُتاهلين، أو متعلين لسيلاح أو مكثرين. وقيل يعني: على كل حال^٣. «وَجَاهِدُوا» الكُفَّار «بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ» وابدؤهما «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ونصرة دينه «ذَلِكَ» الجهاد وبذل الأموال والأنفس «خَيْرٌ لَّكُمْ» وأنفع في الدنيا والآخرة من تركه والاستراحة والاستيفال بلذات الدنيا «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» عواقب الأمور ونتائج الأعمال، وتذكر كون الخير والنفع.

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ
وَسَيُخْلِفُونِ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ [٤٢]

ثم أنه تعالى بعد الترغيبات الكثيرة إلى الجهاد، والتهديد على التخلف عنه، وبخ المتخلفين عنه

١. تفسير العياشي ٢: ٢٣٢/١٨٢٥، تفسير الصافي ٢: ٣٤٤.

٢. تفسير العياشي ٢: ٢٣٣/١٨٢٦، تفسير الصافي ٢: ٣٤٤.

٣. تفسير أبي السعود ٤: ٦٧.

والمُتَبَاطِنِينَ فِيهِ يَقُولُ: ﴿لَوْ كَانَ﴾ مَا دُعِيتُمْ^١ إِلَيْهِ مِنْ غَزْوَةِ ثُبُوكَ ﴿عَرَضًا﴾ وَغُنْمًا مِنْ أَمْوَالِ الدُّنْيَا ﴿قَرِيبًا﴾ إِلَيْهِمْ، وَسَهْلًا عَلَيْهِمْ ﴿وَوَ﴾ كَانَ ﴿سَفَرًا قَاصِدًا﴾ وَمُتَوَسِّطًا لَا تَعَبُ فِيهِ ﴿لَا تَتَّبِعُوكَ﴾ فِيهِ، وَأَطَاعُوا أَمْرَكَ بِه طَمَعًا فِي الْغَنِيمَةِ ﴿وَلَكِنْ تَعُدَّتْ﴾ مَسَافَةُ ثُبُوكَ وَكَثُرَتْ ﴿عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ﴾ وَالْكَفَّةُ، وَلِذَا يَتَخَلَّفُونَ عَنْكَ، وَيَتَقَاعَدُونَ فِيهِ ﴿وَسَيَخْلِفُونَ بِأَقْفٍ﴾ اعْتِذَارًا إِلَيْكَ بَعْدَ رُجُوعِكَ إِلَيْهِمْ فَاتِحًا ﴿لَوْ﴾ اسْتَطَعْنَا، وَأَمَكْنَا الْخُرُوجَ مِنْ حَيْثُ التَّهَيُّةِ وَصِحَّةِ الْبَدَنِ ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ إِلَى السَّفَرِ وَالْغَزْوِ، وَمَا تَخَلَّفْنَا عَنْكُمْ. وَهُمْ يَتَخَلَّفُ عَنْ الْغَزْوِ، وَعِصْيَانِهِمُ الرَّسُولَ ﷺ، وَخَلْفَهُمُ الْكَاذِبَ، وَيَمِينُهُمُ الْفَاجِرَةَ ﴿يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بِالْعَذَابِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرِيِّ ﴿وَأَلَّهِ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فِي دَعْوَى عَدَمِ اسْتَطَاعَتِهِمْ لِلْخُرُوجِ.

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ [٤٣]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مَأْمُورًا بِالرَّفْقِ وَالْمُدَارَاةِ مَعَ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، فَلِهَذَا أَذِنَ لِلْمُتَنَاقِضِينَ فِي التَّخَلُّفِ رِفْقًا وَمُدَارَاةً لَهُمْ وَتَقَبُّلًا لِأَعْدَارِهِمْ، أَظْهَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ غَايَةَ الْغَضَبِ عَلَيْهِمْ بِتَوَجُّهِهِ الْعِتَابَ إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ عَلَى الْإِذْنِ، بَعْدَ الْمُبَالَغَةِ فِي تَعْظِيمِ نَبِيِّهِ ﷺ أَوَّلًا يَقُولُ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ حَيْثُ إِنَّ هَذَا الدُّعَاءَ - عَلَى مَا قِيلَ - كَانَ شَانِعًا فِي مَقَامِ تَعْظِيمِ الْأَعَاضِمِ وَالْمُلُوكِ. ثُمَّ وَجَّهَ الْعِتَابَ يَقُولُ: ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ فِي التَّخَلُّفِ عَنْكَ فِي هَذَا الْغَزْوِ، وَلَمْ تَأْتِ فِي الْإِذْنِ ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ﴾ وَيُظْهِرَ ﴿لَكَ﴾ الْمُتَعَذِّرُونَ ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ فِي اعْتِذَارِهِمْ مِنْ عَدَمِ خُرُوجِهِمْ إِلَى السَّفَرِ بَعْدَمِ اسْتَطَاعَتِهِمْ لِلْخُرُوجِ مِنْ حَيْثُ الْمَالِ وَالْبَدَنِ ﴿وَتَعْلَمُ الْكَاذِبِينَ﴾ مِنْهُمْ فِي اعْتِذَارِهِمْ، فَإِنَّكَ لَوْ تَوَقَّفْتَ فِي إِذْنِهِمْ لَعِلِمْتَ أَنَّ جَمِيعَهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ، وَافْتَضَحَ كُلُّهُمْ عِنْدَكَ بِالْثَّقَاقِ.

عن الباقر عليه السلام: «يقول لتعرف أهل العذر^٢، والذين جلسوا بغير عذر^٣».

وفي (الجوامع): هذا من لطيف المُعَاتَبَةِ الَّذِي بَدَأَ بِالْعَفْوِ قَبْلَ الْعِتَابِ، وَيُجَوِّزُ الْعِتَابَ مِنْ اللَّهِ فِيمَا غَيْرِهِ [مِنْهُ] أَوَّلَى لَا سِيَّمَا لِلنَّبِيِّاءِ، وَلَيْسَ كَمَا قَالَ جَارُ اللَّهِ مِنْ أَنَّهُ كِنَايَةٌ عَنِ الْجِنَايَةِ، وَحَاشَا سَيِّدَ الْأَنْبِيَاءِ وَخَيْرِ بَنِي حَوْءَ مِنْ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ الْجِنَايَةُ، انْتَهَى^٤.

وَمِنْ التَّفْسِيرِ الَّذِي ذَكَرْنَا يُعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ الْمَقَامَ إِلَى الْإِلْتِزَامِ بِصُدُورِ خِلَافِ الْأَوَّلَى مِنْهُ ﷺ

٢. في تفسير العياشي والصابي: العذر.

٤. جوامع الجامع: ١٧٩، تفسير الصافي ٢: ٣٤٥.

١. في النسخة: ما دعوتهم.

٣. تفسير القمي ١: ٢٩٤، تفسير الصافي ٢: ٣٤٥.

واستحقاقه العتاب عليه، بل الاستفهام كناية عن بيان عدم قابلية هؤلاء للرفق بهم، وإن كان من شأن النبي هذا الرفق.

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ [٤٤]

ثم نبه سبحانه على علامة الخلوص بقوله: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ عن صميم وخلوص النية ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وليس من دأبهم الاستحجارة في ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ الكفار ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ بل يبادرون إلى الجهاد شوقاً إليه بلا انتظار لإذتك، فضلاً عن أن يستأذنوك في التخلف عنه. وقيل: إن المعنى: ليس من عادتهم أن يستأذنوك في التخلف كراهة أن يجاهدوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ ومطلع على أحوالهم وضمائرهم، ويجازيهم بأحسن الجزاء.

قال الفخر الرازي: كان الأكابر من الصحابة لا يستأذنون رسول الله ﷺ في الجهاد، وكانوا بحيث لو أمرهم رسول الله ﷺ بالعود عنه لشق عليهم ذلك، ألا ترى أن علي بن أبي طالب لما أمره رسول الله ﷺ بأن يبقى في المدينة شق عليه ذلك، ولم يرض إلى أن قال له الرسول ﷺ: «أنت مَنِي بمنزلة هارون من موسى؟»^٢

إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ [٤٥]

ثم بين سبحانه علامة التناق بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ المنافقون ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عن صميم القلب ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ في التخلف عن الجهاد ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وخلجت للشك فيها لا للجزم بعدمها ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ﴾ وشكهم المستقر في قلوبهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ ويتحيرون. وإنما استعمل التردد في التحير؛ لأن عادة المتحير التردد.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من تردد في الرب سببه الأولون، وأدركه الآخرون، ووطئته سنايك الشياطين»^٣.

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ

٢. تفسير الرازي ١٦: ٧٦.

١. مراده عدم استحقاق.

٣. الخصال: ٧٤/٢٣٣، تفسير الصافي ٢: ٣٤٦.

[٤٦] أَفْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ

ثم بين الله سبحانه عدم إرادة المنافقين المعتذرين من أول الأمر الخروج إلى تبوك بقوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ مكل إلى تبوك ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ﴾ وتهاونا لسفرهم في وقته ﴿عِدَّةً﴾ وأهبة، عن ابن عباس: يريد الزاد والماء والراحلة؛ لأن سفرهم بعيد وفي زمان شديد، فتركهم الغدة دليل على أنهم أرادوا التخلُّف^١، ولو أراد الله خروجهم بالإرادة التكوينية، لخرجوا وجاهدوا معكم ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ ونهوضهم للخروج لما فيه من الفساد ﴿فَتَبَيَّنَهُمْ﴾ وحسبهم عن الخروج بإلقاء الحُجُبِ في قلوبهم، والكسل عليهم ﴿وَقِيلَ﴾ لهم من قبل الرسول ﷺ: أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ ﴿أَفْعُدُوا﴾ في أماكنكم ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ في بيوتهم من النساء والصبيان. وفيه غاية ذمهم بإلحاقهم بالعجزة. والظاهر أن هذا القول هو إذنهم الذي عاتب الله عليه بقوله: ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾. وقيل: إن القائل هو الله؛ لأنه كره انبعاثهم، فنزل منزلة الأمر بالعودة^٢. وقيل: إن القائل بعضهم^٣، وقيل: هو الشيطان يوسوسه^٤.

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ
وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ [٤٧]

ثم شرح الله مفاسد خروجهم بقوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا﴾ هؤلاء المنافقون ﴿فِيكُمْ﴾ أيها المسلمون إلى الغزو ﴿مَا زَادُوكُمْ﴾ شيئاً ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ وشرّاً ومكراً وخديعةً، أو غيّاً أو اضطراباً في الرأي، بالتجيين وتهويل أمر الكفار ﴿وَلَأَوْضَعُوا﴾ ومثوا ﴿خِلَالَكُمْ﴾ وفيما بينكم بالنيمة^٥، أو أسرعوا زكائبهم بينكم بإلقاء العداوة، وما يوجب الانهزام فيكم، وهم ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ ويطلبون لكم ﴿الْفِتْنَةَ﴾ واختلاف الكلمة ﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ﴾ ونمامون وجواسيس ﴿لَهُمْ﴾ لينقلوا إليهم ما سمعوه منكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ ومحيط ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾ ظواهرهم وبواطنهم، أقوالهم وأعمالهم.

لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ
وَهُمْ كَارِهُونَ [٤٨]

ثم أخبر الله بأن التفتين هو دأبهم السابق بقوله: ﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا﴾ وطلبوا ﴿الْفِتْنَةَ﴾ والاختلاف بين

٢- ٤. تفسير الرازي ١٦: ٨٠، تفسير أبي السعود ٤: ٧١.

١. تفسير الرازي ١٦: ٧٨.

٥. في النسخة: بالنمام.

أصحابك ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ قيل: هُوَ صَدُّ النَّاسِ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ^١. وقيل: هو ما فعله عبد الله بن أبي يومٍ أحد من انصرافه مع أصحابه عن النبي ﷺ^٢. وقيل: هو أن اثني عشر من المنافقين وقفوا على ثِيْبَةِ الْوَدَاعِ ليلة العقبة ليفتكوأ به، فأخبره الله بذلك^٣. وقيل: هُوَ الْقَاوِمُ شَيْئاً بَيْنَ قَوَائِمِ نَاقَةِ النَّبِيِّ بِاللَّيْلِ حَتَّى تَنْفِرَ وَتُلْقِيَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ظَهْرهَا^٤. وقيل: هُوَ قَوْلُهُمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾^٥ وَالْحَرُّ أَنَّ الْكَلَّ دَاخِلٌ فِي الْفِتْنَةِ.

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ ودَبَرُوا فِي إِطْفَاءِ ثُورِكَ الْحِجْلِ، وَكَانُوا مُصْرِمِينَ وَمُسْتَمِرِينَ عَلَى ذَلِكَ ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ مِنَ النَّصْرِ وَالْتَأْيِيدِ لَكَ ﴿وَوَظَّهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وَثَبَّرَ دَيْنَهُ وَعَلَا شَرْفَهُ، عَلَى رَغْمِ مَنَّهُمْ ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ لذلك.

وحاصل المراد: أَنَّهُ لَمْ يُوَثِّرْ مَكْرَهُمْ وَسَعْيُهُمْ فِي إِثَارَةِ الْفِتْنَةِ شَيْئاً، بَلْ كَلَّمَا مَكَّرُوا رَدَّ اللَّهُ مَكْرَهُمْ فِي نَحْرِهِمْ، وَقَلَّبَ مَرَادَهُمْ، وَأَتَى بِضِدِّ مَقْصُودِهِمْ، وَكَذَلِكَ يَكُونُ فِيمَا بَعْدَ. وفيه تسليية النبي ﷺ وأصحابه.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ [٤٩]

ثُمَّ بَالِغُ سُبْحَانِهِ فِي ذَمِّهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ﴾ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: ﴿أَئِذْنَ لِي﴾ فِي الْإِقَامَةِ فِي الْبَلَدِ، وَالْقُعُودِ عَنِ السَّفَرِ ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ وَلَا تَبْتَلِنِي بِالْوُقُوعِ فِي عَصْيَانِكَ بِالْقُعُودِ بِغَيْرِ إِذْنِكَ، أَوْ لَا تُهْلِكْنِي بِسَبَبِ السَّفَرِ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ مَعَ ضَعْفِ الْحَالِ وَقِلَّةِ الطَّاقَةِ، أَوْ لَا تَبْتَلِنِي بِتَلَفِ الْعِيَالِ وَالْمَالِ. قيل: إِنَّهُ قَالَ الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ: قَدْ عَلِمْتُ الْأَنْصَارَ أَنِّي مُعْرَمٌ بِالنِّسَاءِ، فَلَا تَفْتِنِّي بِنِجَاتِ الْأَصْفَرِ - يَعْنِي: نِسَاءِ الرُّومِ - لَكِنِّي أُعِينُكَ بِمَالِي فَاتَرَكْنِي^٦.

ثُمَّ رَدَّهُمْ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَا﴾ تَنْهَوُا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُمْ ﴿فِي الْفِتْنَةِ﴾ وَالشَّرَّ مِنَ الْكُفْرِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَعَصْيَانِهِمَا ﴿سَقَطُوا﴾ وَفِي الْخَوْفِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْفَضِيحَةِ بَيْنَهُمْ بِظُهُورِ التَّفَاقُ وَالْجُرْمَانِ مِنَ السَّعَادَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ وَقَعُوا فِي الدُّنْيَا ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ لِإِحَاطَةِ أَسْبَابِ دُخُولِهَا بِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ مِنْهُمْ.

الْقَمِي: لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا وَهْبٍ، أَلَا تَنْفِرُ مَعَنَا فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ، لَعَلَّكَ

١. تفسير الرازي ١٦: ٨٣. ٢. تفسير الرازي ١٦: ٨٣، تفسير أبي السعود ٤: ٧١.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٤٤٣.

٤. تفسير الرازي ١٦: ٨٣.

٥. تفسير روح البيان ٣: ٤٤٣، والآية من سورة الأحزاب: ١٣/٣٣.

أَنْ تُخْتَفِدَ مِنْ بَنَاتِ الْأَصْفَرِ^١ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ إِنْ قَوْمِي لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ أَحَدٌ أَشَدَّ عَجَبًا بِالنِّسَاءِ مِنِّي، وَأَخَافُ إِنْ خَرَجْتُ مَعَكَ أَنْ لَا أَصْبِرَ إِذَا رَأَيْتُ بَنَاتِ الْأَصْفَرِ؛ فَلَا تَقْنِيَنِي، وَأُذِّنْ لِي أَنْ أَقِيمَ. وَقَالَ لَجَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ: لَا تَخْرُجُوا فِي الْحَرِّ، فَقَالَ ابْنُهُ: تَزِدُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَتَقُولُ مَا تَقُولُ، ثُمَّ يَقُولُ لِقَوْمِكَ لَا تَغِيرُوا فِي الْحَرِّ! وَاللَّهُ لَيَنْزِلَنَّ اللَّهُ فِي هَذَا قُرْآنًا يَقْرَأُهُ النَّاسُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ فِي ذَلِكَ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنْ لِي وَلَا تَقْنِيَنِي﴾ الآية. ثُمَّ قَالَ الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ: أَيُطْمَعُ مُحَمَّدٌ أَنْ حَرْبَ الرُّومِ كَحَرْبِ غَيْرِهِمْ، لَا يَرْجِعُ مِنْ هُزْلَاءٍ أَحَدٌ أَبَدًا^٢.

إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُوْهُمُ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ
وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ [٥٠]

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ شِدَّةَ عَدَاوَتِهِمْ لِلرَّسُولِ، وَحَسَدَهُمْ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ فِي غَزَوَاتِكَ وَغَيْرِهَا ﴿حَسَنَةً﴾ وَفَائِدَةً مِنْ ظَفَرٍ وَغَنِيمَةٍ وَغَيْرِهَا ﴿تَسُوْهُمُ﴾ وَتَحْزِنُهُمْ، ذَلِكَ لِفِرْطِ عَدَاوَتِهِمْ وَحَسَدِهِمْ عَلَيْكَ ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ﴾ فِي غَزَوَاتِكَ ﴿مُصِيبَةٌ﴾ مِنْ جِرَاحَةٍ، وَشِدَّةٍ، وَقَتْلِ أَصْحَابِكَ كَيَوْمِ أُحُدٍ ﴿يَقُولُوا﴾ فَرَحًا وَشُكْرًا: نَحْنُ بِحَسَنِ أَرَانَا ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ وَرَاعَيْنَا حَزْمَنَا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ بِاعْتِرَالِنَا فِي تِلْكَ الْوَاقِعَةِ فَسَلِمْنَا مِمَّا أَصَابَهُمْ ﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾ وَيُعْرَضُوا عَنْ مَجْلِسِ أَصْحَابِهِمْ إِلَى أَهَالِيهِمْ ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ مَسْرُورُونَ بِمَصَانِيكِ وَسَلَامَةِ أَنْفُسِهِمْ بِقُعُودِهِمْ عَنِ الْحَرْبِ.
الْقَمِي: عَنِ الْبَاقِرِ (ع): «أَمَّا الْحَسَنَةُ فَالْغَنِيمَةُ وَالْعَافِيَةُ، وَأَمَّا الْمُصِيبَةُ فَلِلْبَلَاءِ وَالشِّدَّةِ»^٣.

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ
هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ
بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ [٥١ و ٥٢]

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ بِرَدِّهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا﴾ شَيْءٌ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، أَوْ رَخَاءٍ أَوْ شِدَّةٍ أَبَدًا ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ﴾ فِي اللُّوحِ وَقَدَرَهُ ﴿لَنَا﴾ فَإِنَّهُ مَا مِنْ حَادِثَةٍ إِلَّا وَهِيَ مُتَهَيِّةٌ إِلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ.

قِيلَ: إِنْ الْمُرَادُ: مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا فِي عَاقِبَةِ الْأَمْرِ مِنَ الظَّفَرِ وَالْغَلْبَةِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَإِنْ أَصَابَنَا فِي أَوَّلِ

٢. تفسير القمي ١: ٢٩٢، تفسير الصافي ٢: ٣٤٧.

١. أي تُحَدَّمُ مِنْ بَنَاتِ الرُّومِ بَعْدَ أَسْرِهِنَّ.

٣. تفسير القمي ١: ٢٩٢، تفسير الصافي ٢: ٣٤٨.

الأمر شِدَّةً. فيكون فيه ردّ لفرحهم.

ثم قرّر ذلك بقوله: ﴿هُوَ﴾ تعالى ﴿مَوْلَانَا﴾ ومُدبِرُ أمورنا، وحافظ صَلاحنا، واللّطيف بنا، لا يريد إلّا ما هو خيرُنا وصَلاحنا.

ثم ذكر ما هو لازم معرفته بالولاية بقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ خاصّة ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وليعتمد العارفون في جميع أمورهم علماً منهم بغاية فضله، وسعة رحمته عليهم، وعدم كون أحدٍ وشيءٍ من الموجودات منشأ خيراً أو شراً.

رُوي أنّه «لا يكمل إيمان المرء حتّى يرى الناس كأباعير»^١.

ثم ردّهم ثانياً بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿هَلْ تَرْتَضُونَ﴾ وتنتظرون ﴿بِنَا﴾ أيّها المنافقون شيئاً ﴿إِلَّا إِحْدَى﴾ العاقبتين ﴿الْحُسَيْنَيْنِ﴾. إمّا الثّواب العظيم المُعدّ للشّهداء في الآخرة، والأجر الجزيل على تحمّل الشّدائد إن صرنا مغلوبين، وإمّا النّعمة والشّوكة ورواج الإسلام مع الأجر إن صرنا غالبين، ليس لكم أن تؤدّوا^٢ فينا غير العاقبتين المذكورتين، وكلّ واحدة منهما في غاية الجلالة والرّفعة ﴿وَ﴾ إمّا ﴿نَحْنُ تَرْتَضِ بِكُمْ﴾ ونتنظر في حقكم إحدى العاقبتين السيّتين إمّا ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ﴾ في الدّنيا ﴿بِعَذَابٍ﴾ عظيمٍ كان من عنده من الصّيحة والرّجفة والصّاعقة وغيرها، كما أصاب من قبلكم من الأمم الظّالمة المهلكة ﴿أَوْ﴾ عذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ من القتل والأسر، فإذا كان كذلك ﴿فَتَرْتَضُوا﴾ وانتظروا عاقبتنا وعاقبتكم ﴿إِنَّا﴾ أيضاً ﴿مَعَكُمْ تَرْتَضُونَ﴾ ذلك.

عن (النّهج) و (الكافي): عن أمير المؤمنين عليه السلام: «وكذلك المرء المسلم البريء من الخيانة ينتظر إحدى الحُسنيين؛ إمّا داعي الله، فما عند الله خيرٌ له، وإمّا رزق الله، فإذا هو ذو أهلٍ ومالٍ ومعه دينه وحسبه»^٣.

وعن الباقر عليه السلام، ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ قال: «إمّا موتٌ في طاعة الله، أو إدراك ظُهور الإمام، ﴿وَنَحْنُ تَرْتَضِ بِهِمْ﴾ مع ما نحن فيه من الشّدّة ﴿أَنْ يُصِيبَهُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ قال: هو المسخ ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ وهو القتل، قال [الله عزّ وجلّ]: ﴿فَتَرْتَضُوا...﴾ قال: التّربص انتظار وقوع البلاء بأعدائهم»^٤.

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُم كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ [٥٣]

١. بحار الأنوار ٧٢: ٥١/٣٠٤. «نحوه».

٢. في النسخة: تتوددون.

٣. نهج البلاغة: ٢٣/٦٤، الكافي ٥: ٦/٥٧، تفسير الصافي ٢: ٣٤٨.

٤. الكافي ٨: ٤٣١/٢٨٦، تفسير الصافي ٢: ٣٤٨.

ثم لما بين الله أن المنافقين مستحقين للعذاب، وأن جهنم محيطَةٌ بهم، بين أن ثقاتهم وصدقاتهم غير مقبولة عند الله، وغير نافعة لهم بقوله: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤْلَاءِ الشَّاغِقُونَ: «أَنْفِقُوا» عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمُجَاهِدِينَ إِنْ شِئْتُمْ «طَوَّعًا أَوْ» إِنْ شِئْتُمْ «كَرْهًا» وَاعْلَمُوا أَنَّهَا عَلَى أَيْ التَّقْدِيرِينَ «لَنْ يَتَقَبَّلَ مِنْكُمْ» عِنْدَ اللَّهِ، وَلَنْ تُثَابُوا عَلَيْهَا أَبَدًا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

ثم نبه على العلة بقوله: ﴿إِنَّكُمْ» أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ «كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ» وَخَارِجِينَ عَنْ حُدُودِ الْإِسْلَامِ إِلَى الْكُفْرِ.

عن ابن عباس: نزلت في الجَدَن قيس حين قال للنبي ﷺ: ائذن لي في القُعود، وهذا مالي أعينك به^١.

وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ
الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ [٥٤]

ثم بين سبحانه أن الفسق المانع عن قبول الصدقات هو البالغ حد الكفر بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ» وَحَرَمَهُمْ مِنْ «أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ» وَيُثَابُونَ عَلَيْهَا شَيْئًا «إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» وَبَدَلِ الْإِسْلَامِ، «وَو» لِذَا «لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ» جَمَاعَةً أَوْ فَرَادَى «إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى» وَتُثَابِلُونَ «وَلَا يُنْفِقُونَ» أُمُورَهُمْ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمُجَاهِدِينَ «إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ» لِلإِنْفَاقِ لَعَدَمِ اعْتِقَادِهِمُ النِّفْعَ فِيهِمَا، وَعَدَمِ خَوْفِهِمْ مِنَ الْعِقَابِ عَلَى تَرْكِهِمَا.

رُوي أن الجَدَن بن قيس تاب بعد ذلك من نفاقه، وحسن حاله، ومات في خلافة عثمان^٢.
عن الصادق عليه السلام: «لَا يَصْرُغُ الْإِيمَانُ عَمَلًا، وَلَا يَنْفَعُ مَعَ الْكُفْرِ عَمَلٌ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: «وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ» الْآيَةُ؟»^٣.

فَلَا تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ [٥٥]

ثم بين سبحانه أن أموالهم وأولادهم مع أنهما لا ينفعانهم في الدنيا، يكونان وبالاً عليهم واستدراجاً في الدنيا، بقوله: ﴿فَلَا تُعْجِبُكَ» وَلَا يَحْسُنُ فِي نَظَرِكَ «أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ» الَّتِي يَظُنُّونَ انْتِفَاعَهُمْ بِهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَظُنُّونَ، بَلْ «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ» أَنْ يُعْلِي لَهُمْ فِيهِمَا «لِيُعَذِّبَهُمْ

يُهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ أَمَّا عَذَابُهُمْ بِالْمَالِ فَبَسَبِّ كَثَرِ الثَّعَبِ فِي جَمْعِهَا وَحِفْظِهَا، وَالْخَوْفُ مِنْ تَلْفِهَا، وَالْحُزْنُ عَلَى ذَهَابِهَا؛ وَبِالْأَوْلَادِ فَبَسَبِّ الْإِبْتِلَاءِ بِنَفَقَتِهِمْ، وَأَمْرَاضِهِمْ، وَشَوْءِ أَخْلَاقِهِمْ، وَالْحُزْنَ عَلَى فِرَاقِهِمْ وَمَوْتِهِمْ ﴿وَوَ﴾ لَأَنَّ ﴿تَرْهَقَ﴾ وَتَخْرُجَ ﴿أَنْفُسُهُمْ﴾ وَأَرْوَاحُهُمْ مِنْ أَبْدَانِهِمْ ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ لَكُنْ أَشْتَغَالُهُمْ بِهِمَا سَبَبًا لِنَفَقَتِهِمْ عَنِ التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ التَّوْحِيدِ وَالْمَعَادِ.

روى بعضُ العامة: أَنَّهُ سَأَلَ مُعَاوِيَةَ امْرَأَةً كَانَتْ تَعْرِفُ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ لَهَا: كَيْفَ رَأَيْتِ عَلِيًّا؟ قَالَتْ: كَانَ رَجُلٌ لَمْ يُبْطِرْهُ الْمَلَكُ، وَلَمْ تُعْجِبْهُ النُّعْمَةُ^١.

وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنَكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ
مُلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ [٥٦ و ٥٧]

ثُمَّ يَبَيِّنُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ شِدَّةَ نِفَاقِ الْمُنَافِقِينَ، وَإِظْهَارَهُمُ الْمُوَافَقَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْخُلَصَّ^٢ يَقُولُهُ: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ نِفَاقًا وَكَذِبًا لَكُمْ ﴿إِنْهُمْ لَمِنَكُمْ﴾ وَفِي زُمَرَتِكُمْ، وَإِيمَانِهِمْ كإِيمَانِكُمْ ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ وَمِنْ جُمْلَتِكُمْ لِكُفْرِهِمْ وَخُبْتُ ذَاتَهُمْ ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ وَيَخَافُونَ مِنْكُمْ، وَلِذَا يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ تَقِيَّةً، وَيُؤَكِّدُونَ دَعْوَتَهُمْ بِالْإِيمَانِ الْفَاجِرَةِ الْكَافِرَةِ.

ثُمَّ يَبَيِّنُ اللَّهُ غَايَةَ خَوْفِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُهُ: ﴿لَوْ﴾ كَانُوا ﴿يَجِدُونَ﴾ لَأَنْفُسَهُمْ ﴿مُلْجَأً﴾ وَحِصْنًا حَصِينًا يُلْجَأُونَ إِلَيْهِ، وَيَتَحَصَّنُونَ بِهِ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴿أَوْ﴾ يَجِدُونَ ﴿مَغَارَاتٍ﴾ وَكُهُوفًا فِي الْجِبَالِ يَخْتَفُونَ فِيهَا، وَيَسْتَتِرُونَ مِنْكُمْ ﴿أَوْ مَدْخَلًا﴾ وَتَقْبًا فِي الْأَرْضِ يَدْخُلُونَ فِيهِ، أَوْ قَوْمًا يَدْخُلُونَ فِيهِمْ وَهُمْ يَحْفَظُونَهُمْ، أَوْ لَا يُعْرِفُونَ مِنْ بَيْنِهِمْ.

وَعَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَسْرَابًا فِي الْأَرْضِ»^٣، وَعَنِ الْقَمِيِّ: مَوْضِعًا يُلْجَأُونَ إِلَيْهِ^٤.

﴿لَوْلَوْا﴾ وَفُرُوا ﴿إِلَيْهِ﴾ مِنْكُمْ فَرَقًا وَخَوْفًا ﴿وَهُمْ﴾ فِي فِرَارِهِمْ ﴿يَجْمَحُونَ﴾ وَيُسْرِعُونَ إِسْرَاعًا لَا يُرْهِدُهُمْ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا لَمْ يَفِرُوا مِنْكُمْ، وَبَقُوا فِيكُمْ يُعَاشِرُونَكُمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ الْمَفْرَ، وَلِذَا اضْطُرُّوا إِلَى التَّقَاتِ، وَيَحْلِفُونَ كَذِبًا أَنَّهُمْ لَمِنَكُمْ لِيُؤْمِنُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْأَسْرِ، وَأَمْوَالِهِمْ مِنَ السُّهْبِ، وَلَوْ يَجِدُونَ لَأَنْفُسَهُمْ حِيلَةً غَيْرَ التَّقَاتِ لَمْ يَتَافَقُوا، بَلْ أَظْهَرُوا كُفْرَهُمْ وَشِقَاقَهُمْ.

وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزَكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا
هُمْ يَسْخَطُونَ [٥٨]

١. تفسير روح البيان ٣: ٤٥٠.

٢. في النسخة: الخُلَصِّين.

٣. مجمع البيان ٥: ٦٢، تفسير الصافي ٢: ٣٥٠.

٤. تفسير القمي ١: ٢٩٨، تفسير الصافي ٢: ٣٥٠.

ثُمَّ يَبَيِّنُ شَبْحَانَهُ أَنْ [مَا] فِي بَعْضِهِمْ [مِنْ] الطَّمَعِ فِي الْعَنَانِ وَالصَّدَقَاتِ بَعْتُهُمْ إِلَى التَّفَاقُ مَضَافاً إِلَى الْخَوْفِ، يَقُولُ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ﴾ وَيَعْيَبُكَ ﴿فِي﴾ قِسْمَةِ «الصَّدَقَاتِ» وَيَطْعَنُونَ عَلَيْكَ بِأَنَّكَ تَجُورُ فِيهَا.

قِيلَ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّهُ ﷺ يُؤْثِرُ بِهَا أَقَارِبَهُ وَأَهْلَ مَوْدَتِهِ^١.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: بَيَّنَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ مَالاً، إِذْ جَاءَهُ الْمُقَدَّادُ بْنُ ذِي الْخَوْبِصَةِ التَّمِيمِيُّ؛ وَهُوَ حُرْقُوصُ بْنُ زُهَيْرٍ، أَصْلُ الْخَوَارِجِ، فَقَالَ: اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: وَبَلِّغْ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ! فَتَرَلَّثَ الْآيَةُ^٢.

وَعَنِ الْكَلْبِيِّ: قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ يُقَالُ لَهُ أَبُو الْجَوَاطِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ أَنْ تَضَعَ الصَّدَقَاتِ فِي الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَلَمْ تَضَعْهَا فِي رِعَاءِ الشَّاءِ^٣. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لَا أَبَا لَكَ، أَمَا كَانَ مُوسَى رَاعِياً، أَمَا كَانَ دَاوُدُ رَاعِياً؟» فَلَمَّا ذَهَبَ قَالَ ﷺ: «احْذَرُوا هَذَا وَأَصْحَابَهُ فَإِنَّهُمْ مُنَافِقُونَ»^٤. وَرَوَى أَنَّهُ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ: «مَا عَلِمْتُكَ بِقُلَانٍ؟» فَقَالَ: مَا لِي بِهِ عَلِمْتُ، إِلَّا أَنَّكَ تُذْنِبُهُ فِي الْمَجْلِسِ، وَتُجْزِلُ لَهُ الْعَطَاءَ فَقَالَ ﷺ: «إِنَّهُ مُنَافِقٌ أَدَارِي عَنْ نِفَاقِهِ وَأَخَافُ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيَّ غَيْرَهُ». فَقَالَ: لَوْ أُعْطِيتَ قُلَاناً بَعْضَ مَا تُعْطِيهِ؟ فَقَالَ ﷺ: «إِنَّهُ مُؤْمِنٌ أَكَلَهُ إِلَى إِيْمَانِهِ، وَأَمَّا هَذَا فَمُنَافِقٌ أَدَارِيهِ خَوْفُ إِفْسَادِهِ»^٥.

ثُمَّ تَبَيَّنَ شَبْحَانَهُ عَلَى أَنَّ الْبَاعِثَ لَهُمْ عَلَى لَمَزِ الرَّسُولِ ﷺ كَثْرَةُ طَمَعِهِمْ، يَقُولُ: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا﴾ قَدَرٌ مَا يُرِيدُونَ وَيَطْمَعُونَ ﴿رِضْوا﴾ بِالْقِسْمَةِ وَاسْتَحْسَنُوا ﴿وَلِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا﴾ ذَلِكَ الْيَقْدَارُ، بَلْ أَقَلَّ مِمَّا طَمِعُوا ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ الْقِسْمَةَ وَيَغْضَبُوا مِنْهَا فَوَراً، بَحِثْ لَمْ يُحْكَمْهُمْ التَّحْمُلُ وَالتَّأْخِيرُ لِمَا أَجْبَلُوا عَلَيْهِ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا وَالشَّرِّ فِي تَحْصِيلِهَا.

عَنِ الْقُتَيْبِيِّ: لَمَّا جَاءَتِ الصَّدَقَاتُ جَاءَ الْأَغْنِيَاءَ وَظَنُّوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُهَا بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا وَضَعَهَا فِي الْفُقَرَاءِ تَغَامَزُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَلَمَزُوهُ وَقَالُوا: نَحْنُ الَّذِينَ نَقُومُ فِي الْحَرْبِ، وَنَنْفِرُ مَعَهُ، وَتَقْوَى أَمْرَهُ، ثُمَّ يَدْفَعُ الصَّدَقَاتِ إِلَى الَّذِينَ لَا يُعِينُونَهُ وَلَا يُغْنُونَ عَنْهُ شَيْئاً^٦.

عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «أَهْلُ هَذِهِ الْآيَةِ أَكْثَرُ مِنْ ثُلْثِي النَّاسِ»^٧.

٢. تفسير الرازي ١٦: ٩٧.

٤ و ٥. تفسير الرازي ١٦: ٩٧.

٧. تفسير القمي ١: ٢٩٨، تفسير الصافي ٢: ٣٥٠.

٨. تفسير العياشي ٢: ٢٣٤/١٨٣٠، مجمع البيان ٥: ٦٣، الكافي ٢: ٤/٣٠٢، تفسير الصافي ٢: ٣٥٠.

١. تفسير الرازي ١٦: ٩٧.

٣. في النسخة: وعاء الشاة.

٦. في النسخة: يغضبونها.

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ [٥٩]

ثُمَّ وَيَخُفُّهُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَلَا مَهْمَ عَلَيْهِ سَخَطُهُمْ بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وطابَتْ أَنْفُسُهُمْ بِهِ وَإِنْ قَالُوا ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ وكفى فضله وإحسانه إلينا في جميع الأوقات، [سواء] كان لنا نصيبٌ في الصدقات أو لم يكن، وإن قلتَ قِسْمَتَنَا في هذه الصدقات الحاضرة نرجو أنه ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وإحسانه ﴿وَرَسُولُهُ﴾ في قِسْمَةِ أُخْرَى، وَيُعْطِينَا^١ فيها أَكْثَرَ مِمَّا أُعْطِينَا في هذه الْقِسْمَةِ ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ومتوجهون، ومنه طالبون أَنْ يُغْنِنَا مِنْ فَضْلِهِ، وَيُوسِّعَ عَلَيْنَا بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ، لَكِنْ خَيْرٌ لَّهُمْ وَأَقْوَمُ مِنْ لَمَزِ الرُّسُولِ وَالسُّخْطِ عَلَيْهِ.

وفي تقريرين الله تعالى اسمه العظيم باسمِ رسوله في الموضوعين، دلالة على غاية تعظيم الرسول ﷺ، وتنبية على أَنْ مَا يَفْعَلُهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِأَمْرِهِ.

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [٦٠]

في بيان مصارف الزكاة ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَصَارِفَ الصَّدَقَاتِ لِثَلَاثٍ يُطْعَنُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ فِي صَرْفِهَا فِيهَا بقوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ الواجبة مِنْ قِبَلِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، الْمَوْسُومَةُ بِالزَّكَاةِ تَكُونُ ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ وقد مرَّ تفسيرهما ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ وَالسَّاعِينَ لَجْمَعِهَا وَحَمَلِهَا وَجِفْظِهَا، [سواء أ] كانوا أغنياء أو فقراء، مِنْ بَنِي هَاشِمٍ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿وَفِي﴾ لِلصَّرْفِ ﴿فِي﴾ فَكَ ﴿الرِّقَابِ﴾ وَتَحْرِيرِ السَّمَالِكِ؛ بَأَنْ يُعَانَ الْمُكَاتِبُونَ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَى آدَاءِ مَالِ الْكِتَابَةِ ﴿وَفِي﴾ فِي ﴿الْغَارِمِينَ﴾ وَالْمَدْيُونِينَ؛ بَأَنْ تُؤَدَّى دِيُونُهُمْ إِذَا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى آدَائِهَا، وَلَمْ يَدِنْ^٢ فِي الْمَعْصِيَةِ ﴿وَفِي﴾ يُصْرَفُ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَوُجُوهُ الْخَيْرِ؛ مِنْ تَهْيِئَةِ السَّلَاحِ لِجِهَادٍ، وَالْمَصَارِفِ الْأَلْزَمَةِ لِتَجْهِيزِ الْجَيْشِ، وَعِمَارَةِ الطُّرُقِ وَالشُّوَارِعِ وَالْفَنَاطِرِ وَالْحَمَامَاتِ الْعَامَّةِ وَالرِّبَاطَاتِ^٣ وَأَضْرَابِهَا، وَتَعْظِيمِ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴿وَفِي﴾ فِي ﴿أَبْنِ السَّبِيلِ﴾ وقد مضى تفسيره.

وفي الغدول في الأصناف الأربعة الأخيرة من (اللام) إلى (في) دلالة على عدم صيرورة الزكاة ملكاً

١. في النسخة: ويعطيناني.

٢. كذا، والظاهر: يستدن.

٣. يُرِيدُ بِهِ رِبَاطَ الْخَيْلِ وَمَرَابِطُهَا فِي الثَّغُورِ مِمَّا بَلَى الْعَدُوَّ.

للأربعة الأخيرة.

ثم أكد الله سبحانه وجوب الزكاة وصرفها في المصارف الثمانية دون غيرها بقوله: ﴿فَرِيضَةً﴾ عظمة كائنة «مِنْ» قَبْلَ «الله» تعالى فالتزموا بها «وَأَقْرَبَ عَلَيْهِمُ» بمصالح العباد «حَكِيمٌ» في أفعالها وأحكامها.

القَمِي: عن الصادق عليه السلام أنه سُئل عن المصارف الثمانية، فقال: «الْفُقَرَاءُ: هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْأَلُونَ، وَعَلَيْهِمْ مَزُونَاتٌ مِنْ عِيَالِهِمْ، وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْأَلُونَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ... لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾^١، والمساكين: هُمُ أَهْلُ الرِّمَانَةِ^٢ مِنَ الْعِمْيَانِ وَالْعِرْجَانِ وَالْمَجْدُومِينَ، وَجَمِيعُ أَصْنَافِ الرِّمَانَةِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ، وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا: هُمُ السُّعَاةُ وَالْجَبَاةُ فِي أَخْذِهَا وَجَمْعِهَا وَحِفْظِهَا حَتَّى يُزَادَهَا إِلَى مَنْ يَتَقَسَّمُهَا، وَالثَّوَلَةُ قُلُوبُهُمْ: قَوْمٌ وَحَدُوا اللَّهَ وَلَمْ تَدْخُلِ الْمَعْرِفَةُ فِي قُلُوبِهِمْ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، [فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ] يَتَأَلَّفُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمْ كَيْمَا يَعْرِفُونَ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ نَصِيبًا فِي الصَّدَقَاتِ لِكَيْ يَعْرِفُوا وَيَرْغَبُوا، وَفِي الرِّقَابِ: قَوْمٌ قَدْ لَزِمَهُمْ كَفَّارَاتٌ فِي قَتْلِ الْخَطَا، وَفِي الظُّهَارِ، وَقَتْلِ الصَّبِيِّ فِي الْحَرَمِ، وَفِي الْإِيمَانِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مَا يُكْفَرُونَ وَهُمْ مُؤْمِنُونَ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ سَهْمًا فِي الصَّدَقَاتِ لِيُكْفَرُ عَنْهُمْ، وَالْغَارِمِينَ^٣ قَوْمٌ قَدْ وَقَعَتْ عَلَيْهِمْ دِيُونٌ أَنْفَقُوهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ، فَيَجِبُ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَقْضِيَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَيَكْفِيهِمْ مِنْ مَالِ الصَّدَقَاتِ، وَ«فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قَوْمٌ يَخْرُجُونَ فِي الْجِهَادِ وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مَا يُنْفِقُونَ، أَوْ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مَا يَحْجُونَ بِهِ، أَوْ فِي جَمِيعِ سَبُلِ الْخَيْرِ، فَعَلَى الْإِمَامِ أَنْ يُعْطِيَهُمْ مِنْ مَالِ الصَّدَقَاتِ حَتَّى يَقْتَنُوا بِهِ عَلَى الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَ«ابْنِ السَّبِيلِ» أَبْنَاءُ الطَّرِيقِ الَّذِينَ يَكُونُونَ فِي الْأَسْفَارِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ فَيَقْطَعُ عَلَيْهِمْ وَيَذْهَبُ مَالُهُمْ، فَعَلَى الْإِمَامِ أَنْ يُزِدَهُمْ إِلَى أَوْطَانِهِمْ مِنْ مَالِ الصَّدَقَاتِ. وَالصَّدَقَاتُ تَنْتَجِزُ فِي ثَمَانِيَةِ أَجْزَاءٍ فَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ هَذِهِ الثَّمَانِيَةِ عَلَى قَدَرِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ بِلَا إِسْرَافٍ وَلَا تَقْتِيرٍ، يَقُومُ فِي ذَلِكَ الْإِمَامُ بِعَمَلٍ بِمَا فِيهِ الصَّلَاحُ^٤.

أقول: الظاهر أن تجزئة الزكاة ثمانية أجزاء وظيفته الإمام عند بسط يده.

وعن الباقر عليه السلام: «مَا كَانَتْ الثَّوَلَةُ قُلُوبُهُمْ قَطُّ أَكْثَرَ مِنْهُمْ الْيَوْمَ، وَهُمْ قَوْمٌ وَحَدُوا اللَّهَ وَقَدْ خَرَجُوا مِنَ الشَّرْكِ، وَلَمْ تَدْخُلِ مَعْرِفَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ قُلُوبَهُمْ وَمَا جَاءَ بِهِ، فَتَأَلَّفَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَأَلَّفَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِكَيْمَا يَعْرِفُوا»^٥.

١. البقرة: ٢٧٣/٢. ٢. الرِّمَانَةُ: الْأُمْرَاضُ الْمُزْمِنَةُ.

٣. تفسير القمي ١: ٣٥١، تفسير الصافي ١: ٢٩٨. ٤. الكافي ٢: ٣٠٢/٥، تفسير الصافي ٢: ٣٥٢.

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن مكاتب عجز عن مكاتبته وقد أدى بعضهما، قال: «يؤدى عنه من مال الصدقة، إن الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾»^١.

وفي (الكافي): عنه عليه السلام، قال: «قال رسول الله: أيما مسلم أو مؤمن مات وترك ديناً لم يكن في فساد ولا إسراف، فعلى الإمام أن يقضيه، فإن لم يقضه فعليه إثم ذلك، إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ الآية، فهو من الغارمين، وله سهم عند الإمام، فإن حيسه فائمه عليه»^٢.

وفيه: عنه عليه السلام: «كان رسول الله ﷺ يقسم صدقة أهل البوادي في أهل البوادي، وصدقة أهل الحضر في أهل الحضر، ولا يقسمها بينهم بالسوية وإنما يقسمها على قدر ما يحضرها منهم وما يرى، وليس في ذلك شيء مؤثّر موطف»^٣.

وعنه عليه السلام: «سهم المؤلف قلوبهم وسهم الرقاب عام والباقي خاص». يعني: خاص بالعارف لا يعطى غيره^٤.

وعن الباقر عليه السلام: «لا تجل الصدقة لبني هاشم إلا في وجهين: إن كانوا عطاشى فأصابوا ماء فشربوا، وصدقة بعضهم على بعض»^٥.

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ
كَانُوا مُؤْمِنِينَ [٦١ و ٦٢]

ثم ذم الله تعالى المنافقين: بإيذاء النبي ﷺ وإساءة القول إليه؛ بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ وبعض المنافقين ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ ﷺ بأقوالهم الشنيعة؛ ومنها أنهم يعيبون عليه ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في شأنه ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ وقليل الذكاء، سريع الاغترار بكل ما يسمع.

رؤي أن رجلاً منهم قال لقومه: إن كان ما يقوله محمد حقاً، فنحن شر من الحمير، فسمعها ابن امرأته فقال: والله إنه لحق وإنك شر من حمارك. ثم بلغ ذلك النبي ﷺ، فقال بعضهم: إنما محمد أذن إن لقينته وحلفت له ليصدقنك، فنزلت^٦.

١. تفسير العياشي ٢: ١٨٤٤/٢٣٩، من لا يحضره الفقيه ٣: ٢٥٨/٧٤، تفسير الصافي ٢: ٣٥٢.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٨٤٦/٢٣٩، الكافي ١: ٧/٣٣٦، تفسير الصافي ٢: ٣٥٢.

٣. الكافي ٥: ١/٢٧، تفسير الصافي ٢: ٣٥٢. ٤. الكافي ٣: ١/٤٩٦، تفسير الصافي ٢: ٣٥٣.

٥. الخصال: ٨٨/٦٢، تفسير الصافي ٢: ٣٥٣. ٦. تفسير الرازي ١٦: ١١٦.

وعن ابن عباس: أن جماعة من المنافقين ذكروا النبي ﷺ بما لا ينبغي من القول، فقال بعضهم: لا تفعلوا، فإننا نخاف أن يبلغه ما نقول، فقال الجلاس بن سويد: بل نقول ما نشاء، ثم ذهب إليه ونحلف أنا ما قلنا فيقبل قولنا، وإنما محمد أذن سامعة. فنزلت^١.

وعن القمي قال: كان سبب نزولها أن عبد الله بن نفيل كان منافقاً، وكان يقعد إلى جنب رسول الله ﷺ فيسمع كلامه وينقله إلى المنافقين ويمنع عليه، فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إن رجلاً من المنافقين يمنع عليك وينقل حديثك إلى المنافقين، فقال رسول الله ﷺ: «من هو؟» فقال: الرجل الأسود، الكثير شعر رأسه، ينظر بعينين كأنهما قدران، وينطق بلسانه الشيطان^٢، فدعاه رسول الله ﷺ فأخبره، فحلف أنه لم يفعل، فقال رسول الله ﷺ: «قد قبلت منك فلا تقعد» فرجع إلى أصحابه فقال: إن محمداً أذن، أخبره الله أنني أنم عليه وأنقل أخباره فقيل، وأخبرته أنني لم أفعل فقيل. فأنزل الله على نبيه [الآية]، الخبر^٣.

قيل: أظهر الله للمنافقين وجوه كثرهم التي كانوا يستبرونها لتكون حجة للرسول، ولينزجروا، فقال: «وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ»، ثم قال: «وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ»، ثم قال: «وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ^٤» إلى غير ذلك من الإخبار عن الغيوب، وفي كل ذلك دلائل على كونه نبياً حقاً^٥.

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بردهم بقوله: «قُلْ^٦ لهم يا محمد: نعم، هو أذن، ولكن «أُذُنٌ خَسِيرٌ لَّكُمْ» فَإِنَّ مَن يَسْمَعِ الْعَذْرَ فَيَقْبَلَهُ خَيْرٌ مِّمَّنْ لَا يَقْبَلُهُ: لِأَنَّ قَبُولَ الْعَذْرِ مِنَ الْكَرَمِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ، فحمل سبحانه كلام الناس الصادر منهم على جهة الذم على المدح.

ثم فسر الله سبحانه أذن الخير بقوله: «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» ويصدق وحدانيته وجميع ما أنزل منه إليه «يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» ويصدقهم فيما يقولون، لكونه نافعاً لهم حيث يقبل معاذيرهم، ويتغافل عن جهالاتهم، ولا يؤاخذهم بما يعلم.

القمي: «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» أي يصدق الله فيما يقوله له، ويصدقك فيما تعتذر إليه في الظاهر دون الباطن، وقوله: «يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» يعني: للمقرين بالإيمان من غير اعتقاد^٧.

عن الصادق عليه السلام: «يعني يصدق الله ويصدق المؤمنين؛ لأنه كان رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين»^٨.
«وَمِنْهُمْ لَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» في الظاهر، وإن كانوا كافرين في الباطن، حيث لا يكشف

١. تفسير الرازي ١٦: ١١٦.

٢. في المصدر: بلسان شيطان.

٣. تفسير القمي ١: ٣٠٠.

٤. التوبة: ٧٥/٩.

٥. تفسير الرازي ١٦: ١١٦.

٦. تفسير القمي ١: ٣٠٠.

٧. تفسير الصافي ٢: ٣٥٣.

٨. تفسير العياشي ٢: ١٨٥١/٢٤١، تفسير الصافي ٢: ٣٥٤.

أسرارهم ولا يهتك أستارهم رِقْماً بهم وترحماً عليهم.

ثم هددهم الله سبحانه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ بِالْقَوْلِ أَوِ الْفِعْلِ﴾ **لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** في الآخرة.

ثم قيل: إن المنافقين كانوا يتكلمون بالمطاعن، ثم يأتون المؤمنين فيعتذرون إليهم، ويؤكدون معاذيرهم بالأيمان الفاجرة ليعذرهم ويرضوا عنهم، فذمهم سبحانه ولامهم بفعالهم بقوله: **يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ** هؤلاء المنافقين **لَكُمْ** أيها المؤمنون على أنهم ما قالوا ما ثقل إليكم من الطعن في النبي ﷺ، وما يورث أذيته **لِيُزْضَوْكُمْ** باعتذارهم وحلفهم عن أنفسهم **وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ** أولى و**أَحَقُّ أَنْ يُزْضَوْهُ** عن أنفسهم بالتوبة مما ارتكبه من الطعن والإيذاء - وفي أفراد ضمير **يُزْضَوْهُ** دلالة على أن المقصود بالذات رضى الله، ورضى الرسول تبعاً و لازم له - **إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ** بهما واقعاً كما ادَّعوا.

الْقَمِي: نزلت في المنافقين الذين كانوا يحلفون للمؤمنين أنهم منهم، لكي يرضى عنهم المؤمنون^١.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنِ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ * يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَؤُوا إِنَّ اللَّهَ مَخْرُجٌ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبَايَ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ [٦٣-٦٥]

ثم وبخهم الله على إيذائهم الرسول ﷺ، وإصرارهم على النفاق بقوله: **أَلَمْ يَعْلَمُوا** بعد مبالغة الرسول ﷺ في دعوتهم وتعليمهم ووعظهم مدةً مديدة **أَنَّهُ مَنِ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ويعارضهما بالعصيان والطغيان؛ فيخالف الله^٢ - كما عن ابن عباس - **فَأَنَّ لَهُ** بالاستحقاق غير القابل للعفو **نَارَ جَهَنَّمَ** حال كونه **خَالِداً** ودائماً **فِيهَا** ومن الواضح أن **ذَلِكَ** الخلود في النار هو **الْخِزْيُ** والدَّلُّ **الْعَظِيمُ** والندامة الشديدة.

ثم أنه روى الْقَمِي: أنه كان [قوم] من المنافقين لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك يتحدثون فيما بينهم، ويقولون: أيرى محمد أن حرب الروم مثل حرب غيرهم، لا يرجع منهم أحد أبداً، فقال بعضهم: ما أخلقه أن يخبر الله محمداً بما كُتّافيه، وبما في قلوبنا ويُنزل [عليه] بهذا قرأنا يقرأه الناس!

وقالوا هذا على [حَدِّ] الاستهزاء.^١

فأخبر الله بذلك وهذدهم بقوله: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ ويحترزون^٢ من اطلاع المؤمنين على نفاقهم بسبب ﴿أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ من الله ﴿سُورَةٌ﴾ وقطعة من القرآن، تُخبر المؤمنين، و ﴿تُنَبِّئُهُمْ﴾ تلك السورة ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الشُّرك والُفُاق والاستهزاء بالرسول ﷺ؛ فتفضحهم بين المؤمنين، وتهتك أَسْتَارَهُمْ، ويَحْتَمِلُ رُجُوعَ جميع الضمان إلى المنافقين؛ لأنَّ السُّورَةَ إذا نزلت في شأنهم فهي نازلة عليهم، وهي بِمَضْمُونِهَا تقول لهم: إِنَّ فِي قُلُوبِكُمْ كَذَا وكَذَا، وتُذِيعُ أسرارهم.

ثم أمر الله النبي ﷺ بتهديدهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا مُحَمَّدُ: ﴿أَسْتَهْزِءُوكُمْ﴾ بي وبديني وكنابي ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ من الكُمُونِ إلى البروز ﴿مَا تَحْذَرُونَ﴾ منه من نزول سورة فاضحة لكم.

وفي رواية القُتَيْبِيِّ: قال النبي ﷺ لعمار بن ياسر: «الْحَقَّ الْقَوْمُ، فَإِنَّهُمْ قَدْ احْتَرَقُوا»، فلحقهم عمار فقال: مَا قُلْتُمْ؟ قالوا: مَا قُلْنَا شَيْئاً، إِنَّمَا [كُنَّا] نقول شيئاً على حَدِّ اللَّعِبِ والمِرَاحِ. فنزلت ﴿وَلَكِنَّ سَأَلْتُهُمْ^٣، عَمَّا قَالُوا﴾ لِيَقُولُوا في الجواب: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ﴾ في الكلام، ونتحدث لقطع الطريق بالحديث، كما هو دأب الرُّكْبِ، ﴿وَنَلْعَبُ﴾ كما يلعب الصِّبيان.

وزُوي أَنَّ رجلاً من المنافقين قال في غزوة تبوك: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَرْعَبَ قُلُوباً، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجَبَنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ - يعني: رسول الله ﷺ والمؤمنين - فقال واحد من الصحابة: كَذَبْتَ وَلَأَنْتَ مُنَافِقٌ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيُخْبِرَ رسول الله ﷺ فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وكان قد رَكِبَ ناقته، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا نَلْعَبُ ونَتَحَدَّثُ بِحَدِيثِ الرُّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ الطَّرِيقَ، وكان يقول: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ، الخبر^٤.

وزُوي أَنَّهُ لَمَّا سَارَ رسول الله ﷺ إِلَى تبوك، قال المنافقون: أَتَرَاهُ يَظْهَرُ عَلَى الشَّامِ وَيَأْخُذُ حُصُونَهَا وَقُصُورَهَا؛ هِيَاهُ هِيَاهُ، فَعِنْدَ رُجُوعِهِ دَعَاهُمْ فقال: أَنْتُمْ الْقَائِلُونَ كَذَا وكَذَا؟ فقالوا: مَا كَانَ ذَلِكَ بِالْجِدِّ فِي قُلُوبِنَا، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ^٥.

وزُوي أَنَّ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ رسول الله ﷺ سَلُّوا عَمَّا كَانُوا يَصْنَعُونَ، وَعَنِ سَبَبِ تَخَلُّفِهِمْ، فَقَالُوا هَذَا الْقَوْلُ^٦، فَأَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِتَوْبِيخِهِمْ بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يَا مُحَمَّدُ: ﴿أَبَايَهُ وَأَيَاتِيهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

٢. في النسخة: وبحرزون.

١. تفسير القمي ١: ٣٠٠، تفسير الصافي ٢: ٣٥٤.

٤. تفسير الرازي ١٦: ١٢٢.

٣. تفسير القمي ١: ٣٠٠، تفسير الصافي ٢: ٣٥٤.

٦. تفسير الرازي ١٦: ١٢٢.

٥. تفسير الرازي ١٦: ١٢٢.

قيل: إن المراد بالاستهزاء بقدرته بعد قولهم: كيف يقدر محمد على أخذ حصون الشام؟! وقيل: هو الاستهزاء بتكاليفه^١.

لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ
كَانُوا مُجْرِمِينَ [٦٦]

ثم أنه تعالى بعد اعتذار المنافقين من استهزائهم، ردهم بقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ مما قلتم بتلك المعاذير، فإنه لا يرتفع بها لؤمكم ولا استحقاقكم للعقوبة، لأنه ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ﴾ علانية ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ الذي كنتم تظهرونه باستهزائكم بالرسول.

ثم هددهم بقوله: ﴿إِنَّ نَعْفَ عَنْ ذَنْبِ طَائِفَةٍ وَجَمَاعَةٍ مِنْكُمْ﴾ بسبب إيمانهم وثوبتهم ﴿تُعَذِّبُ طَائِفَةً﴾ أخرى منكم البتة ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ بإصرارهم على الكفر والنفاق، وإيذاء الرسول ﷺ.

قيل: إن الطائفة الأخرى المعذبة هم المستهزون، والطائفة المغفوة عنهم هم الذين ضحكوا عند استهزاء هؤلاء.

وعن الباقر عليه السلام في قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾، قال: هؤلاء قوم كانوا مؤمنين صادقين، ارتابوا وشكوا، وناقضوا بعد إيمانهم، وكانوا أربعة نفر، وقوله: ﴿إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ كان أحد الأربعة مخشي^٢ بن حُمَيْر، فاعترف وتاب، وقال: يا رسول الله، أهلكني اسمي، فسماه رسول الله عبد الله بن عبد الرحمن، فقال: يا رب اجعلني شهيداً حيث لا يعلم أين أنا، فقتل يوم اليمامة، ولم يعلم أحد أين قتل، فهو الذي عفي عنه^٣.

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ
الْأَفَاسِقُونَ [٦٧]

١. تفسير الرازي ١٦: ١٢٣.

٢. في النسخة وتفسير القمي: محتبر، تصحيف، راجع: أسد الغابة ٤: ٣٣٨، وتاريخ الطبري ٣: ١٠٨، ومغازي الوافدي ٣: ١٦٩، وفي مغازي الذهبي: ٦٤٢، وسيرة ابن هشام ٤: ١٦٨: مخشن. ٣. في النسخة: أو.

٤. تفسير القمي ١: ٣٠٠، تفسير الصافي ٢: ٣٥٥.

ثم أنه تعالى بعد حَلَفِ الْمُنَافِقِينَ للمؤمنين على أنهم منهم، رَدَّهُمْ بقوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ ليسوا من المؤمنين، بَلْ ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ لاشتراكهم في الكُفْرِ وعِصْيَانِ الرُّسُولِ، حيث إنهم جميعاً ﴿يَأْمُرُونَ﴾ النَّاسَ ﴿بِالْمُنْكَرِ﴾ من الكُفْرِ ومُخَالَفَةِ الرُّسُولِ وتَكْذِيبِهِ ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ من الإيمان بالرُّسُولِ وطاعته ﴿وَيَقْضِيُونَ﴾ وَيُمْسِكُونَ ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الإنفاق في سبيل الله، وإنما فعلوا ذلك كُلَّهُ لأنهم ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ وَلَهُوا^١ عن ذكره، وتركوا عبادته ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ الله وترك ذكرهم بالرحمة والإحسان والتوفيق للهداية.

ثم بالغ في بيان عدم استحقاقهم للرحمة بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ عُمُوماً ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ والكاملون في الكُفْرِ والطُّغْيَانِ ومَعْصِيَةِ الرُّسُولِ.

وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ [٦٨]

ثم أكد الله سبحانه وعيدهم بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ﴾ المتجاهرين في الكُفْرِ ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ وكافيهم عُقُوبَةً، فإنه لا عُقُوبَةَ فوقها ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وأبعدهم من رحمته، وأخزاهم غاية الخِزْيِ والهوان، وهو العذاب الروحاني. ثم أكد سبحانه خلودهم مع دوام تألمهم بالنار واللَّعْنِ بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ودائم، فلا يَوْتَهُمْ أَنَّهُ يَحْضُلُ لَهُمْ طَبْعٌ سَمْتَدِرِي^٢ بسبب دوامهم في النار فيقطع تألمهم بها.

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَائِقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَائِقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَائِقِهِمْ وَحُصِّنْتُمْ كَالَّذِي خَاصُّوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [٦٩]

ثم بالغ سبحانه في إرعاب المنافقين بتظير حالهم بحال الأتَمِّ السابقة المهلكة، مع الرجوع من الغياب إلى مخاطبتهم بقوله: ﴿كَالَّذِينَ﴾ - قيل التقدير: أشم كالذين كفروا - وكانوا ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ في القرون القريبة من قرنكم.

١. في النسخة: وألهوا.

٢. نسبة إلى السَّمْتَدِرِ أو السَّمْتَدِلِ، وهو دابة أو طائر في الهند والصين، يقال: إنه لا يحترق بالنار، أو نسج من حيوان لا يحترق بالنار.

ثُمَّ كَانَهُ قِيلَ: كَيْفَ كَانَ حَالُهُمْ؟ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ وَأَعْظَمَ قُدْرَةً ﴿وَأَكْثَرَ مِنْكُمْ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ وَأَوْفَرَ مِنْكُمْ ثَرْوَةً وَذُرِّيَّةً ﴿فَاسْتَمْتَعُوا﴾ وَاسْتَلْذَوْا ﴿بِخَلْقِهِمْ﴾ وَنَصَبِيهِمُ الْمُقَدَّرَ لَهُمْ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا.

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ وَجْهَ شَبَهِهِمْ بِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ﴾ وَانْتَفَعْتُمْ ﴿بِخَلْقِكُمْ﴾ وَنَصَبِيكُمْ مِنَ الْأَمْتَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ مَدَّةَ عُمْرِكُمْ، حَالٌ كَوْنَكُمْ كَافِرِينَ طَاغِينَ عَاصِينَ لِلَّهِ، لِأَجْلِ الْغُرُورِ بِاللَّذَاتِ ﴿كَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ﴾ الْأَمَمُ ﴿الَّذِينَ﴾ كَانُوا ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾ حَالٌ كَوْنُهُمْ كَافِرِينَ طَاغِينَ عَاصِينَ لِلَّهِ، لِأَجْلِ الْإِهْمَاكِ فِي الشَّهَوَاتِ ﴿وَحُضْشُمْ﴾ وَانْغَمَرْتُمْ فِي الْبَاطِلِ كَتَكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ، وَالِاسْتِهْزَاءِ وَالْغَدْرِ بِهِمْ ﴿كَالَّذِي﴾ وَمِثْلُ الْبَاطِلِ الَّذِي ﴿حَاضُوا﴾ فِيهِ - وَقِيلَ: إِنَّ التَّقْدِيرَ: كَالْفَوْجِ الَّذِي^١، وَقِيلَ: كَالْقَوْمِ الَّذِينَ، وَحَذَفَ التَّوْنَ لِلتَّخْفِيفِ^٢، وَقِيلَ: كَالْحَوْضِ الَّذِي - ﴿أُولَئِكَ﴾ الْأَمَمُ الْمَذْمُومَةُ ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ وَبَطَلَتْ حَسَنَاتُهُمْ ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بِسَبَبِ الْمَوْتِ وَانْتِقَالِهِمْ مِنَ الْغِنَى إِلَى الْفَقْرِ، وَمِنَ الْعِزِّ إِلَى الذُّلِّ، وَمِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الضَّعْفِ ﴿وَوَ﴾ فِي ﴿الْآخِرَةِ﴾ بِسَبَبِ ضَيَاعِ ثَوَابِهِمْ وَابْتِلَانِهِمْ بِالْعِقَابِ ﴿وَأُولَئِكَ﴾ بِالْخُصُوصِ ﴿هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ وَالتَّضَرُّرُونَ، حَيْثُ ضَيَعُوا عُمْرَهُمُ الَّذِي كَانَ بِمَنْزِلَةِ رَأْسِ مَالِهِمْ، وَاتَّبَعُوا أَنْفُسَهُمْ فِي تَحْصِيلِ الْعِزِّ وَالْجَاهِ وَالتَّعَمُّ، بِالسَّعْيِ فِي تَكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ وَمُعَارَضَتِهِمْ وَالْغَدْرِ بِهِمْ، وَلَمْ يَسْتَفِيدُوا إِلَّا الْحِرْمَانَ مِنَ الْخَيْرَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ، وَالذُّلَّ الدَّائِمَ، وَالْعَقُوبَةَ الْأَبَدِيَّةَ، فَهُمْ مَعَ كَوْنِهِمْ أَقْوَى مِنْكُمْ كَانَتْ حَالُهُمْ تِلْكَ، فَانْتَمَ مَعَ ضَعْفِكُمْ بِسَبَبِ اشْتِرَاكِكُمْ مَعَهُمْ فِي الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ أَوْلَى بِخَبْطِ الْأَعْمَالِ وَغَايَةِ الْخُسْرَانِ.

أَلَمْ يَأْتِيَهُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [٧٠]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ تَشْبِيهِ الْمُنَافِقِينَ بِالْأَمَمِ الْمُهْلَكَةِ فِي الرِّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالتَّمَتُّعِ بِهَا، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْآخِرَةِ وَالْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ، وَتَكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَايَةِ الْخُسْرَانِ، ذَكَرَ طَوَائِفَ مَشْهُورَةٍ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ^٣ مِنْهُمْ، وَابْتِلَانِهِمْ بِعَذَابِ الْاسْتِنْصَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ يَأْتِيَهُمْ﴾ وَهَلْ لَمْ يَبْلُغَهُمْ ﴿نَبَأُ﴾ الْأَمَمِ ﴿الَّذِينَ﴾ كَانُوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وَخَبَّرَهُمُ الَّذِي لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ؟

ثُمَّ كَانَهُ أَجَابَ عَنِ الْاسْتِفْهَامِ وَقَالَ: نَعَمْ، بَلَّغَهُمْ نَبَأُ ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ أَنَّهُمْ أَهْلِكُوا بِالطُّوفَانِ ﴿وَوَ﴾ قَوْمِ

﴿عَادٍ﴾ أَنَّهُمْ أَهْلَكُوا بِالرِّيحِ الْعَقِيمِ ﴿وَقَوْمٌ قَوْمٌ ذَمُّوا﴾ أَنَّهُمْ أَهْلَكُوا بِالصَّبْحَةِ وَالزُّجْجَةِ ﴿وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ﴾ أَنَّهُمْ أَهْلَكُوا بِالْهَدْمِ ﴿وَأَصْحَابَ بَلَدٍ مَّذِينٍ﴾ وَأَهْلَهُ وَهُمْ قَوْمٌ شُعَيْبَ، أَنَّهُمْ أَهْلَكُوا بِالنَّارِ ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ وَالْقُرَى الْمُتَقَلِّبَاتِ عَلَى أَهْلِهَا، بَحِثْ صَارَ عَلَيْهَا سَافِلًا.

عن الصادق عليه السلام أَنَّهُ سَمِعَ عَنْ الْمُؤْتَفِكَاتِ، قَالَ: «أُولَئِكَ قَوْمٌ لَوْطٌ».

ثُمَّ كَانَ قِيلَ: هَلْ تَمَّتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ قَبْلَ هَلَاكِهِمْ؟ فَأَجَابَ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: «أَتَشْتَهُمْ» جَمِيعًا ﴿وَسُئِلُهُمْ﴾ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ ﴿بِالْيَتِيمَاتِ﴾ وَالْحَجَّجِ الظَّاهِرَاتِ، وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَاتِ، فَلَمْ يَعْتَنُوا بِهِمْ، بَلْ كَذَّبُوهُمْ وَاسْتَهْزَأُوا بِهِمْ وَأَذَوْهُمْ، فَأَهْلَكُوا بَعْدَ إِتِمَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ وَالْمُنَاسِبَ لِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ ﴿لِيُظْلِمَهُمْ﴾ وَيُعَذِّبَهُمْ قَبْلَ إِتِمَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَبِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ مِنْهُمْ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا﴾ بِالْمُشَاقَّةِ مَعَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حَيْثُ عَرَضُوهَا لِلْهَلَاكِ بِقَبَاحِ الْأَعْمَالِ، مَعَ قُدْرَتِهِمْ عَلَى تَعْلِيَّتِهَا إِلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ، وَإِصَالِهَا بِطَاعَةِ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى النِّعَمِ الْأَبَدِيَّةِ.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [٧١]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَمِّ الْمُنَافِقِينَ وَعَوْدِهِمُ الْعَذَابَ، مَدَحَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ بِحُسْنِ الْعُقَاوَدِ وَالْأَعْمَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ لِاتِّفَاقِهِمْ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَالْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ وَكُلُّ مُرَاعٍ لَصَلَاحِ الْآخَرِ، وَلِذَا «يَأْمُرُونَ» الْمُؤْمِنِينَ «بِالْمَعْرُوفِ» وَيَسْبِعُونَهُمْ إِلَى الْخَيْرَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ مِنْ تَكْمِيلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ، وَطَاعَتِهِمَا ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنْهُمُ﴾ «عَنِ الْمُنْكَرِ» وَالنَّجَسِ وَالشَّرِّ مِنَ الْكُفْرِ وَسَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ وَيُؤَدُّونَ عَلَيْهَا ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الْوَاجِبَةَ وَيُؤَدُّونَهَا إِلَى الْجُبَّةِ وَالْقُرَاءِ، وَلَا يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ عَنْ أَدَائِهَا كَمَا قَبِضَ الْمُنَافِقُونَ ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ وَنَهَاهُمْ عَنْهُ، وَلَيْسُوا فَاسِقِينَ عَنْ طَاعَتِهِمَا كَالْمُنَافِقِينَ ﴿أُولَئِكَ﴾ الْمَوْصُوفُونَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ وَيَغْفِرُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَرَكَاتِ وَالْقِيُوسَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ مَا لَا يَتَصَوَّرُهُ مُتَصَوِّرٌ، وَلَا يَبْلُغُهُمُ الْوَهْمُ وَالْفِكْرُ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ وَقَادِرٌ عَلَى إِنْجَازِ وَعْدِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ، وَلَا يُعْطِي شَيْئًا غَيْرَ أَهْلِهِ.

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ [٧٢]

ثم شرح الله الرحمة الموعودة بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ على إيمانهم وطاعتهم ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين كثيرة الأشجار ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً﴾ مرضية - روي أنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت^١ - كانت ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ التي هي أبهى الجنات وأعلاها وأسناها ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ يسير ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ تعالى ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم من تلك الجنات ونعمها؛ لأنه مبدأ جميع الخيرات والسعادات، وبه ينال قربه الذي هو أعلى الحُظوظ، وأكمل المثوبات ﴿ذَلِكَ﴾ الرِّضْوَانُ ﴿هُوَ الْفَوْزُ﴾ والحِطُّ ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي يستحقه عنده كُلُّ فَوْزٍ وَحِطٍّ.
عن النبي ﷺ: «عَدْنُ دَارِ اللَّهِ التي لم ترها عينٌ ولم تخطر في قلب بشرٍ، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيين، والصديقين، والشهداء، يقول الله تعالى: طوبى لِمَنْ دخلك»^٢.

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سأله يهودي: أين يسكن نبيكم من الجنة؟ فقال: «في أعلاها درجة، وأشرفها مكاناً، في جَنَّةِ عَدْنٍ». فقال: صدقت^٣.

روى أن الله خلق جنة عدن بيده بغير واسطة، وجعلها [له] كالقلعة للملك، وجعل فيها كثيراً ومقام الوسيلة، وغرس شجرة طوبى بيده في جنة عدن، وأطالها حتى علت فروعها شور جنة عدن وثركت مظلة على سائر الجنات كلها، وليس في أكمامها تمر إلا الحلي والحلل^٤.

وروي أنه تعالى يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: فما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أما أعطيتكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أجل عليكم رضواني، ولا أسخط عليكم أبداً^٥.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ
وَبِشْسِ الْمَصِيرُ [٧٣]

ثم أنه تعالى بعد التغليظ على المنافقين وعدهم بالعقوبة الشديدة، ونصحهم وتهديدهم

١. تفسير روح البيان ٣: ٤٦٤.

٢. مجمع البيان ٥: ٧٧، تفسير الصافي ٢: ٣٥٧.

٣. تفسير الصافي ٢: ٣٥٧.

٤. تفسير الرازي ١٦: ١٣٤.

٥. تفسير روح البيان ٣: ٤٦٤.

بالعقوبات الدنيوية التي أنزلها على الأمم الماضية، أمر النبي بمجاهدتهم بالحجة ما داموا مستترين، وجهادهم بالسيف إذا أظهروا كفرهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ المتجاهرين في كفرهم بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ المستترين لكفرهم بالحجة والنصح ﴿وَاعْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وأغنف^١ بهم ولا ترفق معهم، هذا جزاؤهم في الدنيا، وأما في الآخرة فمزلهم ﴿وَمَا أَوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَ﴾ هي «بئس ألمصير» والمنقلب لهم من الدنيا.

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «فجاهد رسول الله ﷺ الكفار، وجاهد علي عليه السلام المنافقين، فجهاد^٢ علي جهاد رسول الله ﷺ»^٣.

يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا
لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَفَعُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا
لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي
الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ [٧٤]

ثم أكد سبحانه استحقاق المنافقين التغليب بقوله: ﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ﴾ أنهم «ما قالوا» كلمة سوء ﴿وَ﴾ الله «لقد قالوا كلمة الكفر» من سب النبي، وإنكار رسالته ﴿وَكَفَرُوا﴾ بإظهارهم ما في قلوبهم من عداوة النبي، وبغضهم لدين الإسلام ﴿بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ الظاهري.

روى أن النبي ﷺ أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن، ويعيب المنافقين المتخلفين فقال الجلاس بن سويد: والله، لئن كان ما يقوله محمد في إخواننا الذين خلفناهم في المدينة حقاً، مع أنهم أشرافنا، فنحن شر من الحمير، فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس: أجل والله، إن محمداً صادق، وأنت شر من الجمار، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستحضر الجلاس، فحلف بالله أنه ما قال، فرفع عامر يده وقال: اللهم أنزل على عبدك ونيبك تصديق الصادق، وتكذيب الكاذب، فنزلت الآية، فقال الجلاس: لقد ذكر الله التوبة في هذه الآية، ولقد قلت هذا الكلام وصدق عامر، فتاب الجلاس وحسنت توبته^٤.

وروي أنها نزلت في عبد الله بن أبي لهي لما قال: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا

١. في النسخة: واغضب، راجع تفسير روح البيان ٣: ٤٦٥.

٢. في تفسير الصافي: فجاهد.

٣. في تفسير الصافي ٢: ٣٥٨.

٤. تفسير الرازي ١٦: ١٣٦.

الَّذِينَ^١ وأراد به الرسول، فسمع زيد بن أرقم ذلك وبلغه إلى رسول الله ﷺ، فهم عمر يقتل عبدالله بن أبيي^٢ [فجاء عبدالله وحلف أنه لم يقل، فنزلت هذه الآية^٣.

روى قتادة: أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهة الآخر من غفار، فظهر الغفاري على الجهنيني، فنادى [عبدالله بن أبي وقال: يا بني الأوس، انصروا أخاكم، والله ما مثنا ومثل محمد إلا كما قيل: «سَمَنْ كَلَبَكْ يَأْكُلُكَ»، فذكروه لرسول الله ﷺ، فأنكر عبدالله وجعل يحلف^٤.

ثم روي أن المنافقين هموا يقتل النبي ﷺ عند رجوعه من تبوك؛ وهم خمسة عشر، تعاهدوا أن يدفعوه عن راحته إلى الوادي إذا تسم العقبة بالليل، وكان عمار أخذاً بخطام راحته، وحذيفة خلفها يسوقها، فسمع حذيفة وقع خفاف الإبل وقعقة السلاح، فالتفت فإذا قوم متلثمون فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فهربوا^٥، فلأمهم الله بقوله: «وَهُمْوَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا» من قتل النبي ﷺ، ومن المعلوم أنهم حين اجتمعوا على قتل النبي ﷺ طعنوا في نبوته، ونسبوه إلى الكذب.

عن (المجمع): نزلت في أهل العقبة، فإنهم أضمرُوا أن يقتلوا رسول الله ﷺ في العقبة حين مرجعهم من تبوك، وأرادوا أن يقطعوا أنساع^٦ راحته ثم ينحسوا به، فأطلع الله على ذلك، وكان من جملة معجزاته، لأنه لا يمكن معرفة ذلك إلا بوحي من الله، فبادر رسول الله [في العقبة] وحده، وعمار وحذيفة يقود أحدهما راحته والآخر يسوقها، وأمر الناس كلهم بشلوك [بطن] الوادي، وكان الذين هموا يقتله اثني عشر رجلاً، أو خمسة عشر، عرفهم الرسول: سماهم بأسمائهم. قال: وقال الباقر عليه السلام: «كان ثمانية منهم من قریش، وأربعة من العرب»^٧.

وعن الصادق عليه السلام: «لما قال النبي ﷺ ما قال في غدير خم، وصاروا بالأخبية، فمر المِقْدَادُ بِجَمَاعَةٍ مِنْهُمْ يَقُولُونَ^٨: إذا دنا موته وفنيت أيامه وحضر أجله، أراد أن يؤلينا علينا من بعده، أما والله ليعلمن. قال: فمضى المِقْدَادُ وأخبر النبي ﷺ، فقال: الصلاة جامعة. قال: فقالوا: قد رَمَانَا المِقْدَادُ، فقوموا نحلف عليه. قال: فجاءوا حتى جثوا بين يديه فقالوا: بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، والذي أكرمك بالنبوة، ما قلنا ما بلغك، والذي اصطفاك على البشر، قال: فقال النبي ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ

١. المنافقون: ٨/٦٣. ٢. في النسخة: فخافة بدل ما في المعقوفات. ٣. تفسير الرازي ١٦: ١٣٦.

٤ و ٥. تفسير الرازي ١٦: ١٣٦.

٦. الأنساع جمع نسع: وهو ستر عريض طويل تُشدُّ به الرِّحال على الدابة.

٧. مجمع البيان ٥: ٧٩، تفسير الصافي ٢: ٣٥٩.

٨. زاد في تفسير العياشي: والله إن كنا وقبصر لكنا في الخزّ والوشى والديباج والنساجات، وإنّا معه في الأخشنين، نأكل الخشن، ونلبس الخشن حتى.

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * يَخْلُقُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةً الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بِغَدِّ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْوَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴿ليلة العقبة﴾^١.

عن الثَّمَمِي: نزلت في الذين تحالفوا في الكعبة أن لا يردّوا هذا الأمر في بني هاشم، فهي [كلمة] الكفر، ثم قعدوا الرسول ﷺ في العقبة، وهموا بقتله، وهو قوله: ﴿وَهُمْوَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾. وقال في موضع آخر: فلما أطلع الله نبيه ﷺ وأخبره، حلفوا له أنهم لم يقولوا ولم يهّموا به، حتى أنزل الله ﴿يَخْلُقُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا...﴾ الآية^٢.

ثم بين الله أن حق النبي ﷺ أن يشكروه لا أن يهّموا بقتله، بقوله: ﴿وَمَا تَقْهَمُوا﴾ وما كرهوا شيئاً ﴿إِلَّا أَنْ أَعْنَاهُمْ أَنَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وإحسانه، بسبب الغنائم والقطايا، وهذا موجب للمحبة والشكر، لا العداوة والكفر.

قيل: إنهم كانوا حين قدوم رسول الله ﷺ المدينة في غاية شدة العيش؛ لا يركبون الخيل، ولا يحوزون الغنيمة، فأثروا بالغنائم وكثرت أموالهم^٣.

وقيل: كان أحدهم يبيع الرؤوس، وآخر يبيع الكراع ويفتل القرامل^٤.

وقُتِلَ لِلجَلَّاسِ مولى، فأمر رسول الله ﷺ بدينه اثني عشر ألف درهم، فاستغنى^٥.

وقيل: الضمير في ﴿أَعْنَاهُمْ﴾ للمؤمنين، أي غاظهم إغناؤه للمؤمنين^٦.

ثم استعطف قلوبهم ودعاهم إلى التوبة بقوله: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾ من كفرهم وبنفاقهم ﴿يَكُ﴾ ذلك التَّوبُ ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ وأنفع في الدنيا والآخرة ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ ويعرضوا عن قبول الإسلام والتوبة خالصة^٧ لله، واستمروا على ما هم عليه من الكفر والنفاق والعدوَّة ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال - وقيل: عند الموت^٨، وقيل: في القبر^٩ - ﴿وَفِي﴾ الآخرة بالنار وغيرها من أنواع العذاب المعد للكفار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ بسعتها وتباعد أقطارها، وكثرة أهلها ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يحفظهم منه بالشفاعاة ﴿وَلَا تَصِيرُ﴾ يُنجيهم منه بالقدرة والثَّوَّة.

زوي أنه لما تلا رسول الله ﷺ الآية على المنافقين، قال بعضهم: يا رسول الله، لقد عرض الله عليّ التوبة، والله لقد قبلت فتاب^{١٠}.

١. تفسير العياشي ٢: ١٨٥٨/٢٤٦، تفسير الصافي ٢: ٣٦٠.

٢. تفسير القمي ١: ٣٠١، تفسير الصافي ٢: ٣٥٨.

٣. تفسير الصافي ٢: ٣٦٠، والقرامل: جمع القربيل، وهو ضفائر من شعر أو غيره تصل بها المرأة شعرها.

٤. تفسير الصافي ٣: ٤٦٨.

٥. تفسير روح البيان ٣: ٤٦٨.

٦. تفسير الرازي ١٦: ١٣٧.

٧. تفسير روح البيان ٣: ٤٦٨.

٨. تفسير روح البيان ٣: ٤٦٨.

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونُنَّ مِنَ الْفَالِحِينَ *

فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ [٧٥ و ٧٦]

ثم بين الله أن غدر المنافقين لا يختص بالنبي والمؤمنين، بل يجاهرون بالعدر بالله ومخالفة عهده بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ﴾ عهداً مؤكداً بالخلف، حيث قال: والله ﴿لَئِنْ آتَانَا﴾ الله ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وخزائن رحمته مالا ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ ولتؤدين حقوقه الواجبة ﴿وَلَنَكُونُنَّ﴾ البتة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿الْفَالِحِينَ﴾ المتكثرين بالعمل بأحكام الله. عن ابن عباس: يريد الحج^١ ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ﴾ الله وأعطاهم ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وكرمه مالا، منعوا حق الله، و﴿بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن الوفاء بعهدهم^٢ مع الله ﴿وَهُمْ﴾ قوم عادتهم أنهم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن طاعة الله وجميع العهود.

عن ابن عباس: أن حاطب بن أبي بلتعة، أبطأ عنه ماله بالشام. فلججه شدة، فحلف بالله وهو واقف في بعض مجالس الأنصار: لئن آتانا من فضله لأصدقن ولأؤدين منه حق الله^٣.

في حكاية ثعلبة بن حاطب الأنصاري كان ملازماً لمسجد الرسول ليلاً ونهاراً، وكان يُلقب لذلك حَمَامَةُ المسجد، وكانت جبهته كركبة البعير من كثرة السجود على

الأرض والحجارة المَحْمَاةَ بالشَّمْس، ثم جعل يخرج من المسجد كلما فرغ رسول الله ﷺ من الفجر بالجماعة من غير لبث واشتغال بالدعاء، فقال ﷺ له يوماً: «ما لك [صرت] تعمل عمل المنافقين بتعجيل الخروج؟» فقال: يا رسول الله، إني في غاية الفقر بحيث أن لي ولامرأتي ثوباً واحداً، وهو الذي علي وأنا أصلي فيه وهي غريانة في البيت، ثم أعود إليها فأنزعه وهي تلبسه وتُصلي فيه، فاذعُ الله أن يرزقني مالا، فقال ﷺ: «ويلك يا ثعلبة، قليل تؤذي شكره خير من كثير لا تُطيقه». فراجع، فقال ﷺ: «أما ترضى أن تكون مثل نبي الله، فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة لسارت، ولكن أعرف أن الدنيا حطٌّ من لا حظَّ له، وبها يغترَّ من لا عقل له». فراجع وقال: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق نبياً، لو دعوت الله أن يرزقني مالا لأؤدين كل ذي حق حقه، فقال ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالا» - ثلاث مرّات.

فاتخذ غمماً، فتمت كما ينمو الدود حتى ضاقت بها أزقة المدينة، فنزل وادياً حتى فاتته الجماعة، لا يُصلي بالجماعة إلا الظهر والعصر، ثم نمث وكثرت فتتحى مكاناً بعيداً حتى انقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل رسول الله ﷺ عنه، فقل: كثر ماله حتى لا يسعه وادٍ، فخرج بعيداً، فقال ﷺ: «ويح ثعلبة».

فلما نزل قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً...﴾ استعمل النبي ﷺ رجلين على الصدقات؛ رجلاً من الأنصار، ورجلاً من بني سليم، وكتب لهما الصدقة وأسانها، وأمرهما أن يأخذاها من الناس، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومراً بتعلة فسالاه الصدقة، وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ فيه الفرائض، فقال: ما هذه إلا جزية أو أخت الجزية، وقال: أرجعا حتى أرى رأيي، فلما رجعا قال لهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلماه: «ويح ثعلبة» مرتين، فنزلت.

فركب عمر راحلته ومضى إلى ثعلبة وقال: ويحك يا ثعلبة هلكت، قد أنزل الله فيك كذا وكذا، فجاء ثعلبة بالصدقة، فقال ﷺ: «إن الله منعني أن أقبل منك» فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال ﷺ: «هذا عملك».

عن القمي عن الباقر عليه السلام: هو ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عوف، كان محتاجاً فعاذه الله، فلما آتاه بخل به^٢.

أقول: إنما أمر الله أن لا يقبل الرسول ﷺ صدقته لكونه إهانة وعبرة لغيره، أو لكون صدقته رياءً لا خالصاً لوجه الله.

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ [٧٧ و ٧٨]

ثم بين الله أثر البخل والإعراض عن العهد بقوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ الله، وجعل عاقبة أمرهم، أو أثر بخلهم وعقبه ﴿نِفَاقًا﴾ راسخاً ثابتاً ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مستمراً ﴿إِلَى يَوْمِ﴾ يرجعون فيه إلى الله ﴿وَيَلْقَوْنَهُ﴾ عن أمير المؤمنين عليه السلام: اللقاء [هو] البعث^٣. وقيل: يوم خروجهم من الدنيا - ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ وما وفوا بما عاهدوه ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ في أقوالهم وعهودهم. ثم ونحهم الله على إبطانهم النفاق وطغيهم سراً في النبي ﷺ ودينه، بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ وما في قلوبهم من الكفر والنفاق، أو العزم على التخلف ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ وما يتفاوضونه من الطعن في النبي ﷺ ودينه، أو تسمية الزكاة جزية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ والمطلع على الخفايا والأسرار، بحيث لا يخفى عليه خافية، فكيف يجترون على ارتكاب القبائح؟

٢. تفسير القمي ١: ٣٠١، تفسير الصافي ٢: ٣٦٠.

١. تفسير روح البيان ٣: ٤٦٩.

٣. التوحيد: ٥/٢٦٧، تفسير الصافي ٢: ٣٦١.

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا
جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ
لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا
بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [٧٩ و ٨٠]

ثم أنه تعالى بعد ذم المنافقين بلمز النبي ﷺ وتعييبه، ذمهم بلمز المؤمنين والاستهزاء بهم، بقوله: ﴿الَّذِينَ﴾ قيل التمدير: هم الذين ﴿يَلْمِزُونَ﴾ ويعيبون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ والمتنفلين ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ويغتابونهم ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ التي تصدقوا [بها] لتجهيز جيش غزوة تبوك ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ للإفناق ﴿إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ ومقدار طاقتهم من الصدقة، وإن كان في غاية القلة ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ ويستهزئون بهم، أولئك ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ بأن جازاهم جزاء السخرية، كما عن الرضا عليه السلام^١ ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

عن ابن عباس قال: إن رسول الله ﷺ خطبهم ذات يوم وحث على أن يجمعوا الصدقات، فجاءه عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف درهم؛ فأمسكت لنفسي ولعالي أربعة، وهذه الأربعة أقرضتها ربي. فقال ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت، وفيما أمسكت»^٢. قيل: قبل الله دعاءه ﷺ فيه، حتى صالحت امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً.

وجاء عمر بنحو ذلك، وجاء عاصم بن عدي الأنصاري بسبعين وسقاً من ثمر الصدقة، وجاء عثمان بن عفان بصدقة عظيمة، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر، وقال: أجرت الليلة الماضية نفسي من رجل لإرسال الماء إلى نخيله، فأخذت صاعين من ثمر؛ فأمسكت أحدهما لنفسي ولعالي، وأقرضت الآخر ربي، فأمر رسول الله ﷺ بوضعه في الصدقات.

فقال المنافقون على وجه الطعن: ما جاءوا بصدقاتهم إلا رياءً وشمعة، وأما أبو عقيل فإنما جاء بصاعه ليذكر مع سائر الأكابر، والله غني عن صاعه، فأنزل الله هذه الآية^٣.

عن القمي: جاء سالم بن عمير الأنصاري بصاع من تمر، فقال: يا رسول الله، كنت ليلتي أجيراً لجبريت حتى عملت بصاعين من تمر؛ فأما أحدهما فأمسكته، وأما الآخر فأقرضته ربي، فأمر رسول الله ﷺ أن ينشره في الصدقات، فسخر منه المنافقون فقالوا: والله إن الله لغني عن هذا الصاع، ما يصنع الله بصاعه شيئاً، ولكن أبا عقيل أراد أن يذكر نفسه ليعطى من الصدقات، فنزلت^٤.

١. عبون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٢٦/١٩، تفسير الصافي ٢: ٣٦١.

٢. تفسير الرازي ١٦: ١٤٤.

٣. تفسير القمي ١: ٣٢٠، تفسير الصافي ٢: ٣٦١.

٤. تفسير الرازي ١٦: ١٤٥.

وعن الصادق عليه السلام: أجز أمير المؤمنين عليه السلام نفسه على أن يستقي كل دلو بتمره يختارها؛ فجمع تمراً، فأتى [به] النبي صلى الله عليه وآله وعبد الرحمن بن عوف على الباب فلمزه، أي وقع فيه، فأنزلت هذه الآية^١.

ثم أنه روي عن ابن عباس قال: عند نزول الآية الأولى في المنافقين قالوا: يا رسول الله، استغفر لنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أسْتَغْفِرْ لَكُمْ». واشتغل بالاستغفار لهم، الخبر^٢، فردع الله نبيه صلى الله عليه وآله عن الاستغفار بقوله: «أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ» فاختار أيهما شئت، فإنهما متساويان في عدم النفع لهم، بل «إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً» قيل: إن السبعين كناية عن الكثير^٣ «فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» أبدأ لا مitanع المغفرة لهم «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» والكافر غير قابل لأن تناله المغفرة وتشملة الرحمة «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» والمتمردين عن حدود الله وأحكامه.

وروي أنهم كانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وآله فيعتذرون ويقولون: إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً، فنزلت^٤.

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ
كَانُوا يَفْقَهُونَ [٨١]

ثم بالغ سبحانه في ذم المخلفين عن الرسول في غزوة تبوك بقوله: «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ» الذين أجازهم رسول الله صلى الله عليه وآله في تخلفهم رفقا بهم، أو لعلمه بأنهم يفسدون ويشوشون عليه. وقيل: هم المخلفون بغير الإجازة «بِمَقْعَدِهِمْ» وإقامتهم في المدينة، كما عن ابن عباس^٥ «خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ» ولعصيان أمره، أو خلف الرسول صلى الله عليه وآله وبعده «وَكُرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا» أعداء الله «بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ولطلب مرضاته، لاعتقادهم أنه تعريض للمال والنفس للتللف، وترويع للباطل.

ثم بين الله أنهم مع تقاعد أنفسهم عن الجهاد وفرحهم به، سَعَوْا في منع غيرهم من الخروج بقوله: «وَقَالُوا» لإخوانهم وأصدقائهم: «لَا تَنْفِرُوا» ولا تخرجوا إلى سفر الغزو «فِي» زمان «الْحَرِّ» والصيف.

١. تفسير الرازي ١٦: ١٤٦.

٢. تفسير العياشي ٢: ٢٤٨/١٨٦١، تفسير الصافي ٢: ٣٦٢.

٣. تفسير الرازي ١٦: ١٤٦.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٤٧٣.

٥. تفسير الرازي ١٦: ١٤٦.

ثُمَّ رَدَّاهُمْ وَهَدَّاهُمْ يَقُولُهُ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لَهُمْ: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مِنْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ وَالصَّيْفِ فِي الدُّنْيَا، وَقَدْ اخْتَرْتُمُوهَا لِأَنْفُسِكُمْ بِعُودِكُمْ عَنِ الْجِهَادِ، وَمُخَالَفَتِكُمُ الرَّسُولَ ﷺ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ﴾ وَيَفْهَمُونَ بَقْوَةَ الْعَقْلِ أَنْ بَعْدَ هَذِهِ الدَّارِ دَارُ الْجَزَاءِ، وَأَنْ مَشَقَّةَ حَرِّهَا رَاحَةٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَى مَشَقَّةِ حَرَارَةِ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ، مَعَ أَنَّ الْأَوَّلَى سَرِيعَةُ الزَّوَالِ، وَالثَّانِيَةُ بَاقِيَةٌ.

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [٨٢]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ فَرْحِ الْمُنَافِقِينَ بِالْقُعُودِ، وَكَانَ الضُّحْكُ مِنْ لَوَازِمِ شِدَّةِ الْفَرْحِ، هَدَّاهُمْ بِغَايَةِ الْحُزْنِ فِي الْآخِرَةِ عَلَى مَعَاصِيهِمْ وَابْتِلَانِهِمْ بِالْعَذَابِ يَقُولُهُ: ﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ فِي الدُّنْيَا ضِحْكَاً ﴿قَلِيلًا﴾ وَإِنْ كَانَ ضِحْكَهُمْ مَدَّةَ عُمرِهِمْ، فَإِنَّ مَدَّةَ عُمرِ الدُّنْيَا قَلِيلَةٌ، فَكَيْفَ بِمَدَّةِ عُمرِهِمْ؟ ﴿وَلْيَبْكُوا﴾ فِي الْآخِرَةِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِابْتِلَانِهِمْ بِالْعَذَابِ بُكَاءً ﴿كَثِيرًا﴾ حَيْثُ لَا انْقِطَاعَ لَهُ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿يَكْسِبُونَ﴾ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ.

رُوي أَنَّ أَهْلَ التَّفَاقُ يُبْكُونَ فِي النَّارِ عُمرَ الدُّنْيَا لَا يَرِقُّ لَهُمْ دَمْعٌ، وَلَا يَكْتَجِلُونَ بِنَوْمٍ.^١
وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهُ يُرْسِلُ اللَّهُ الْبُكَاءَ عَلَى أَهْلِ النَّارِ فَيُبْكُونَ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدَّمُوعُ، ثُمَّ يَبْكُونَ الدَّمَّ حَتَّى تَرَى وُجُوهَهُمْ كَهَيْئَةِ الْأَخْدُودِ.^٢
وَقِيلَ: إِنَّ الْقَلَّةَ كِنَايَةً عَنِ الْعَدَمِ، وَالكَثْرَةَ كِنَايَةً عَنِ الدَّوَامِ، وَعَلَيْهِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَقْتُهُمَا فِي الدُّنْيَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي الْآخِرَةِ.^٣

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا.^٤
وَرُوي أَنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَإِذَا قَوْمٌ يَتَحَدَّثُونَ وَيَضْحَكُونَ، فَوَقَفَ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَاتِ، قِيلَ: وَمَا هَادِمُ اللَّذَاتِ؟ قَالَ: الْمَوْتُ.^٥

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ [٨٣]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ تَوْضِيحِ غَايَةِ خُبِّ الْمُنَافِقِينَ وَكُفْرِهِمْ وَتَعْيِيبِهِمُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ وَتَوْهِينِهِمُ

إياهم، أمر نبيه ﷺ بالإعراض عنهم، والاستغناء عن نصرتهم وكونهم في جيش المسلمين، بقوله: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ وأعادك من غزوة تبوك ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ تخلفوا عنك في تلك الغزوة بغير عذر وعلة ﴿فَاسْتَأْذِنُوكَ﴾ واستجازوا منك ﴿لِلْخُرُوجِ﴾ من المدينة إلى غزوة أخرى بعد هذه الغزوة ﴿فَقُلْ﴾ لهم إعراضاً عنهم: إِنَّكُمْ ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ﴾ إلى غزوة ﴿أَبَدًا﴾ ولا تدخلوا في عداد المسلمين ﴿وَلَنْ تَقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ من أعدائي ﴿إِنْكُمْ رَضِيتُمْ﴾ وفرحتهم ﴿بِالْقُعُودِ﴾ عن القتال والتخلف عن جيش المسلمين، والإقامة بالمدينة ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وفي الخرجة السابقة، وهي الخروج إلى تبوك، إِذْ ﴿فَاقْعُدُوا﴾ في مكانكم ﴿مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ والتزموا بيوكم مع المتخلفين من النساء والصبيان، فإنكم مثلهم، لا تلبقون للجهاد. فأخرجهم الله من ديوان الغزاة، ومحا أساميهم من دفتر المجاهدين، ونحاهم عن محفل صحبة النبي ﷺ، عقوبة لهم على تخلفهم وإهانة نبيهم، وإظهاراً لبقائهم وشدة كفرهم.

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ [١٨٤]

ثم أنه تعالى بعدما أمر نبيه ﷺ بإهانتهم وتذليلهم في حال حياتهم، أمر بإهانتهم بعد موتهم بقوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ يا محمد ﴿عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ بعدما ﴿مَاتَ أَبَدًا﴾ لتدعو وتستغفر له ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ ولا تقف عند تربته للزيارة والدعاء.

قيل: كان النبي ﷺ إذا ذفن الميت وقف على قبره ودعا له^١.

ثم علل سبحانه وجوب تذليلهم، وحرمة الاستغفار لهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ مدة حياتهم ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ومتمردون عن طاعة الله، فلذا يستحقون الخذلان والعذاب في الدنيا والآخرة.

عن ابن عباس: لما اشتكى عبدالله بن أبي، عادته رسول الله ﷺ، فطلب منه أن يصلي عليه إذا مات، ويقوم على قبره. ثم إنه أرسل إلى الرسول ﷺ يطلب قميصه ليكفن فيه، فأرسل إليه القميص الفوقاني، فردّه وطلب الذي يلي جلده ليكفن فيه، فقال عمر: لم تعط قميصك الرّجس النّجس؟ فقال ﷺ: «إِنَّ قَمِيصِي لَا يَغْنِي عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُدْخِلَ بِهِ أَلْفًا فِي الْإِسْلَامِ»، وكان المنافقون لا يفارقون عبدالله، فلما رأوه يطلب هذا القميص ويرجوه أن ينفعه، أسلم منهم ألف.

فلَمَّا مَاتَ جَاءَ ابْنُهُ يُعْرِضُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَابْنِهِ: «صَلِّ عَلَيْهِ وَادْفِنْهُ». فَقَالَ: إِنْ لَمْ تُصَلِّ عَلَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، لَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ، مُسْلِمٌ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ عُمَرُ وَحَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ وَبَيْنَ الْقَبِيلَةِ، لِئَلَّا يُصَلِّيَ عَلَيْهِ. فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَأَخَذَ جَبْرِئِيلُ بِثَوْبِهِ، وَقَالَ: «وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا»^١.
 نقل كلام الفخر الرازي: قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِي: إِنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى مَتَابَعَةِ عَظِيمَةٍ مِنْ مَتَابَعِ عُمَرُ؛ لِأَنَّ الْوَحْيَ نَزَلَ الرَّازِي وَرَدَّهُ عَلَى وَفْقِ قَوْلِهِ^٢.

أَقُولُ: مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ رَأْيَ عُمَرَ كَانَ أَصَوْبَ مِنْ رَأْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ كَافِرٌ، وَأَمَّا اعْتِقَادُنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا كَانَ يُرِيدُ إِلَّا مَا أَرَادَ اللَّهُ، وَأَنَّهُ ﷺ كَانَ يَعْلَمُ الْقُرْآنَ جَمِيعَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ مَأْمُورًا بِإِظْهَارِ الرَّفْقِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ حَتَّى يَنْزِلَ الْوَحْيُ بِرَدِّعِهِ، وَيَكُونُ بِذَلِكَ مَعْذُورًا فِي أَنْظَارِ النَّاسِ.

بَلْ نَقُولُ: إِنَّ الرِّوَايَةَ وَأَمْثَالَهَا دَالَّةٌ عَلَى قَدْحِ عَظِيمٍ فِي عُمَرَ، وَغَايَةِ جَسَارَتِهِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ بِاعْتِرَاضِهِ عَلَيْهِ، وَحِيلُولَتِهِ بَيْنَهُ ﷺ وَبَيْنَ الْقَبِيلَةِ، وَاعْتِقَادِهِ أَنَّهُ أَعْقَلَ مِنْهُ ﷺ، وَلِذَا لَمْ يَرِدْ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عِائِشَةَ أَمْثَالُ ذَلِكَ، مَعَ كَوْنِهِ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، وَأَعَزَّهُمْ عَلَيْهِ، وَأَحَبَّهُمْ عِنْدَهُ، وَأَعْقَلَ الصَّحَابَةِ وَأَعْلَمَهُمْ، بَلْ أَعْقَلَ أَهْلَ الْعَالَمِ سِوَى الرَّسُولِ ﷺ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِلَّا لَغَايَةِ مَعْرِفَتِهِ بِشُؤْنِ الرَّسُولِ، وَتَسْلِيمِهِ لَهُ، وَتَبَعِيَّتِهِ لِإِرَادَتِهِ.

عَنِ الْقَعْمِيِّ ﷺ: لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، مَرَضَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَكَانَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ مُؤْمِنًا، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَبُوهُ يَحْجُودُ بِنَفْسِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنَّكَ إِنْ لَمْ تَأْتِ أَبِي كَانَ ذَلِكَ عَارًا عَلَيْنَا، فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُتَأَفِّقُونَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَغْفِرْ لَهُ. [فَاسْتَغْفَرَ لَهُ] فَقَالَ عُمَرُ: أَلَمْ يَنْهَكَ اللَّهُ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِمْ أَوْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: «وَيْلُكَ، إِنِّي خَيْرْتُ فَاخْتَرْتُ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾».

فلَمَّا مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ جَاءَ ابْنُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ رَأَيْتَ أَنَّ تَحْضُرَ جَنَازَتِهِ؟ فَحَضَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَامَ عَلَى قَبْرِهِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَلَمْ يَنْهَكَ اللَّهُ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا، وَأَنْ تَقُومَ عَلَى قَبْرِهِ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيْلُكَ، وَهَلْ تَدْرِي مَا قُلْتُ؟ إِنَّمَا قُلْتُ: اللَّهُمَّ احْشُرْ قَبْرَهُ نَارًا، وَجُوفَهُ نَارًا، وَاضْلِقِ النَّارَ». فَبَدَأَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَمْ يَكُنْ يُحِبُّ^٣.

١. تفسير الرازي ١٦: ١٥٢.

٢. تفسير الرازي ١٦: ١٥٢.

٣. تفسير القعمي ١: ٣٠٢، تفسير الصافي ٢: ٣٦٤.

وعن الباقر عليه السلام: «أن النبي صلى الله عليه وآله قال لابن عبد الله بن أبي: إذا فرغت من أبيك فأعلمني، وكان قد توفى، فاتاه فأعلمه، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله نعليه للقيام، فقال عمر: أليس قد قال الله: ﴿وَلَا تَصَلَّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾؟! فقال له: «وَيْحَكَ - أو ويلك - إنما أقول: اللهم احش قبره ناراً، و[أملأ] جوفه ناراً، واضلِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ناراً»^١.

وفي رواية: «أنه صلى الله عليه وآله أخذ بيد ابنه في الجَنَازَةِ فمضى، فتصدى له عمر ثم قال: أما نهاك ربك عن أن تصلِّي على أحدٍ منهم مات أبداً، أو تقوم على قبره؟! فلم يجبه، فلما كان قبل أن ينتهي إلى القبر أعاد عمر ما قال له أولاً، فقال النبي صلى الله عليه وآله لعمر عند ذلك: ما رأيْتنا صلينا له على جَنَازَةٍ ولا قمنا له على قبر. ثم قال: إن ابنه رجلٌ من المؤمنين، وكان يحقُّ علينا أداءُ حقِّه، فقال عمر: أعودُ بالله من سَخَطِ الله، وسخطِ رسوله»^٢.

وعن الصادق عليه السلام: «كان رسول الله إذا صلى على ميِّت، كَبَّرَ وتشهَّد، ثم كَبَّرَ وصلى على الأنبياء، ثم كَبَّرَ ودعا للمؤمنين، ثم كَبَّرَ الرابعة ودعا للميِّت، ثم كَبَّرَ وانصرف. فلما نهاه الله عن الصلاة على المنافقين، كَبَّرَ وتشهَّد، ثم كَبَّرَ وصلى على النبيين، ثم كَبَّرَ ودعا للمؤمنين، ثم كَبَّرَ الرابعة وانصرف ولم يدع للميِّت»^٣.

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ [٨٥]

ثم أنه تعالى بعد التأكيد في إهانة المنافقين، والإعراض عنهم، والاستيغناء عنهم وعن معاونتهم، ردع المؤمنين عن توهّم أن كثرة مالههم وولدهم موجب لإعزازهم والاعتناء بشأنهم؛ بقوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾ ولا يحسن في نظرك ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ وإن كثرت ﴿وَأَوْلَادُهُمْ﴾ وإن كانوا كثيرين مقتدرين، فإنهما موجبان لخسرانهم لأجل أنه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بتمتعهم بالأموال والأولاد ﴿أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ ما داموا ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بسبب ما يلحقهم من المصائب والهجوم ﴿وَوَ﴾ أن ﴿تَزْهَقَ﴾ وتخرج ﴿أَنْفُسُهُمْ﴾ من أبدانهم أو من الدنيا ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ لاشتغالهم بالتمتعات، وإصلاح مفساد ما أعطوا من الرِّزْنَاتِ الفانيات، وانهماكهم في الشّهوات، والإلهاء عن النظر في الآيات.

١. تفسير العياشي ٢: ٢٤٨/١٨٦٢، تفسير الصافي ٢: ٣٦٤.

٢. تفسير العياشي ٢: ٢٤٨/١٨٦٣، تفسير الصافي ٢: ٣٦٤.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢٤٩/١٨٦٤، تفسير الصافي ٢: ٣٦٥.

٤. في النسخة: أعطى.

وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ [٨٦]

ثم أن الله تعالى بعد ذم المنافقين بالتخلف عن الرسول ومخالفة أمره، ذمهم بمخالفة أمر نفسه الذي هو في القرآن، المشتمل على إعجاز البيان، الدال على كونه من الله بقوله: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ﴾ من قِبَلِ الله ﴿سُورَةٌ﴾ تامة، أو آية منها وكان مضمونها: ﴿أَنْ آمَنُوا﴾ أيها المسلمون عن صميم القلب ﴿بِالله﴾ وآياته ودينه ﴿وَجَاهِدُوا﴾ أعداء الله ﴿مَعَ رَسُولِهِ﴾ تراهم مع ذلك يتناقلون، و ﴿اسْتَأْذَنَكَ﴾ في القعود منه ﴿أُولُوا الطَّوْلِ﴾ والسعة والرئاسة ﴿مِنْهُمْ﴾ بأن جاءوا عندك ﴿وَقَالُوا﴾ لك: ﴿ذَرْنَا﴾ ودعنا ﴿نَكُنْ﴾ في المدينة وتقعّد في بيوتنا ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ والمُعذّرين عن الجهاد من النساء والصبيان والمجانين.

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [٨٧ و ٨٨]

ثم ذمهم الله بقوله: ﴿رَضُوا﴾ حباً للبقاء، وشوقاً إلى الشهوات ﴿بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ والعجزة الذين وظيفتهم التخلف كالنساء والصبيان والمجانين، أو المراد: مع الذين لا خير فيهم ﴿وَطُبِعَ﴾ الله وختم ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بأن أظلمها وأقساها في الغاية ﴿فَهُمْ﴾ لذلك الطبع والختم ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما في الإيمان الحقيقي والجهاد في سبيل الله من الخير وسعادة الدارين، وما في التخلف عنه، وتحمل منافيات المروءة؛ من الدّل والعار، ومن الشقاوة والنكال.

ثم بين الله سبحانه أن حال الرسول والمؤمنين الذين عَقِلُوا أن في الإيمان والجهاد في سبيل الله خير الدارين، بخلاف حال المنافقين وأنهم إن تخلفوا عن الغزو، فقد بادر إليه الذين هم خير منهم وأخلص، بقوله: ﴿لَكِنَّ﴾ إن تخلف المنافقون عن الجهاد فقد بادر ﴿الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله واليوم الآخر ﴿مَعَهُ﴾ وبتبعمهم^١ إليه ﴿وَجَاهَدُوا﴾ في سبيل الله ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ طاعة لله، وشوقاً إلى رضا ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المجاهدون ﴿لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ الدنيوية والأخروية ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ﴾ بالخصوص ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ في الدارين، والفائزون بأعلى المقاصد والحظوظ التي لا تتصورها العقول في الشأتين؛ من النصر والغنيمة، والشرف وحسن الذكر، والجنة والنعم الدائمة، والكرامة

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَفْكَورُ الْعَظِيمِ
* وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ
سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [٨٩ و ٩٠]

ثم ذكر أهم الحُطُوط بقوله: «أَعَدَّ اللَّهُ» وهى «لَهُمْ» فى الآخرة «جَنَّاتٍ» ذوات أشجار كثيرة
شجرة «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» الكثيرة، أو الأربعة المعهودة، حال كونهم «خَالِدِينَ» ومقيمين
«فِيهَا» أبداً دائماً «ذَلِكَ» الفوز بالجَنَّةِ «أَفْكَورُ الْعَظِيمِ» الذى لا فوز وراءه.

ثم أنه تعالى بعد ذم المنافقين الذين كانوا فى المدينة يتناقضون فى الجهاد، وتباطئهم فى الخروج،
ذم أهل البوادي منهم بقوله: «وَجَاءَ» إلى الرسول «الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ» والمُعْتَذِرُونَ من أهل
البادية بالأعذار غير الوجهية «لِيُؤْذَنَ لَهُمْ» فى القعود عن الجهاد «وَقَعَدَ» جمع آخر منهم عنه بلا
استئذان واعتذار، جرأة على الله ورسوله، لظهور أنهم «الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ» فى دعوهم
الإيمان بهما.

قيل: إن أقواماً تكلفوا عُذراً باطل، فهم الذين عنى الله بقوله: «وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ» وتخلّف
الآخرون بلا عُذر ولا شبهة عُذر، جرأة على الله تعالى، فهم المرادون بقوله: «وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا
اللَّهَ».

ثم هددهم سبحانه بقوله: «سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ» واستمرّوا على النفاق «عَذَابٌ أَلِيمٌ» أما
فى الدنيا فبالقتل والأسر، ونهب الأموال والإذلال، وأما فى الآخرة فبالنار، وسائر فنون العذاب المُعَدَّة
للكفار.

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ
خَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *
وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا
وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ [٩١ و ٩٢]

ثم أعذر سبحانه المؤمنين العاجزين عن المسافرة والجهاد بقوله: «لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ» كالهَرَمِ
والزَمَنِ «وَلَا عَلَى الْمَرْضَى» الذين لا يمكنهم السفر لضعف القوى، أو ظَنِّ الضَّرَرِ «وَلَا عَلَى»

الْفُقَرَاءُ ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ﴾ على أنفسهم في السَّفَرِ لَشِدَّةِ فَقرِهِمْ ﴿حَرَجٌ﴾ وبأس في التخلُّف عن السَّفَرِ والغزو، ولكن ذلك ﴿إِذَا نَصَحُوا﴾ وأخلصوا قلوبهم وأعمالهم ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولم يَغشُوا الرِّسُولَ والمؤمنين لأنَّهم المُحْسِنُونَ في أعمالهم، و﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ من أهل الإيمان شيء ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ من العقاب والعتاب ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لذُنُوبِهِمْ ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم، يَنْبِئُهُمْ على إيمانهم وإحسانهم أفضل الثواب ﴿وَلَا﴾ حَرَجٌ أَيْضاً ﴿عَلَى﴾ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا﴾ وحَضَرُوا عندك وَاتَّمَسُوا منك ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ على مَرْكُوبٍ، يُطِيقُونَ السَّيْرَ مَعَكَ، مَعَ وَجْدَانِهِمُ التَّفَقُّةَ على أنفسهم، وَأَنْتَ ﴿قُلْتَ﴾ في جَوَابِهِمْ: إِنِّي ﴿لَأَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، فَلَمَّا يَسُوا منك ﴿تَوَلَّوْا﴾ وَرَجَعُوا مِنْ عِنْدِكَ ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ وتسيل ﴿مِنْ الدَّمْعِ﴾ كَأَنَّ كُلَّهَا دَمْعٌ فَانْصُصَ ﴿حَزَنًا﴾ على جِرْمَانِهِمْ مِنَ الْجِهَادِ لِأَجْلِ ﴿أَلَّا يَجِدُوا﴾ مِنَ الْمَالِ مِقْدَارَ ﴿مَا يَنْفِقُونَ﴾ في شِرَاءِ الْمَرْكُوبِ.

قيل: الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ لَمْ يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ على أنفسهم هُمْ مُزَيْنَةٌ وَجُهَيْنَةٌ وَبَنُو عُدْرَةٍ^١، وَالَّذِينَ لَمْ يَجِدُوا مَا يَحْمِلُونَ عَلَيْهِ سَبْعَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِنَّهُمْ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: نَذَرْنَا الْخُرُوجَ، فَاحْمِلْنَا عَلَى الْخِيفَةِ الْمَرْقُوعَةِ^٢ وَالنَّعَالِ الْمَخْصُوفَةِ، فَغَزَوْا مَعَكَ، فَقَالَ: «لَا أَجِدُ»، فَتَوَلَّوْا وَهُمْ يَبْكُونَ^٣.
وعن ابن عباس: سَأَلُوهُ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى الدَّوَابِّ، فَقَالَ ﷺ: «لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ» لِأَنَّ الشَّقَّةَ بَعِيدَةً، وَالرَّجُلَ يَحْتَاجُ إِلَى بَعِيرٍ يَرْكَبُهُ وَبَعِيرٍ يَحْمِلُ عَلَيْهِ مَاءً وَزَادَهُ^٤.

عن الثَّعْلَبِيِّ: جَاءَ الْبُكَاءُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُمْ سَبْعَةٌ نَفَرٍ؛ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ: سَالِمُ بْنُ عُمَيْرٍ، قَدْ شَهِدَ بَدْرًا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ، وَمِنْ بَنِي وَاقِفٍ: هَرَمِيُّ^٥ بْنُ عَمِيرٍ، وَمِنْ بَنِي حَارِثَةَ: عُثْبَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِعَرَضِهِ^٦، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بِالصَّدَقَةِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَأْتُونَ بِهَا، فَجَاءَ عُثْبَةُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عِنْدِي مَا أَتَصَدَّقُ بِهِ، وَقَدْ جَعَلْتُ عِرْضِي جَلًّا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَدْ قَبِلَ اللَّهُ صَدَقَتَكَ. وَمِنْ بَنِي مَازَنَ بْنِ النَّجَّارِ: أَبُو لَيْلَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ، وَمِنْ بَنِي سُلَيْمَةَ^٨: عَمْرُو^٩.

١. تفسير روح البيان ٣: ٤٨٤. ٢. في النسخة: المدبوعة.

٣. تفسير أبي المسعود ٩٢، تفسير روح البيان ٣: ٤٨٥. ٤. تفسير الرازي ١٦: ١٦٢.

٥. في النسخة: حرَمِي، وفي المصدر: هَدَمِي (هرمي خ ل)، وقد اختلف في اسم أبيه أيضاً، ففي أسد الغابة: هرمي بن عبدالله، وفي طبقات ابن سعد ومغازي الواقدي: هرمي بن عمرو. راجع: أسد الغابة ٥: ٥٨، طبقات ابن سعد ٢: ١٦٥، مغازي الواقدي ٣: ٩٩٤.

٦. في النسخة والمصدر: عليه، تصحيف، راجع: أسد الغابة ٥: ١٠، طبقات ابن سعد ٢: ١٦٥، مغازي الواقدي ٣: ٩٩٤. ٧. تصدَّقَتْ بِعَرَضِهِ، أي تصدَّقَ بِعَرَضِهِ عَلَى مَنْ ذَكَرَهُ بِمَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ عَبِيَّةً.

٨. في النسخة: بني سلمى، وما أثبتناه من المصدر وأسد الغابة ٤: ١٢٣، وطبقات ابن سعد ٢: ١٦٥، ومغازي الواقدي ٣: ٩٩٤.

٩. في النسخة: عمر، وما أثبتناه من المصدر والمصادر المتقدمة، وقد وقع الاختلاف في اسم أبيه، ففي المصدر:

بن غنيمة، ومن بني زريق - أو رزين - سلمة بن صخر، والعرباض^١ بن سارية السلمي. هؤلاء جاءوا إلى رسول الله ﷺ فيكون، فقالوا: يا رسول الله، ليس بنا قوة أن نخرج معك، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ قال: وإنما سأل البكاؤون نعلًا يلبسونها^٢.

وقيل: هم بنو مقرن، وكانوا سبعة إخوة كلهم صحبوا النبي ﷺ، وليس في الصحابة سبعة إخوة غيرهم^٣.

وقيل: إنها نزلت في أبي موسى الأشعري وأصحابه^٤.

وقيل: إنهم ثلاثة إخوة: معقل، وشويد، والنعمان، بنو مقرن، سألوا النبي ﷺ أن يحيلهم على الخفاف المدبوجة والتعال المخصوصة^٥.

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ لَقَدْ لَعَنَّاهُمْ وَلَقَدْ أَخْبَرْنَاكَ اللَّهُ مِنْ خِيبَتِهِمْ وَكَانَ اللَّهُ غَافِلًا عَنْهُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ لِيَرْدُونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [٩٤ و ٩٣]

ثم أنه تعالى بعد ما نفى السبيل عن المؤمنين المعتذرين، أثبتها على غير المعتذرين بقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ من العتاب والعقاب والخزي ثابت ﴿عَلَى﴾ المنافقين ﴿الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ في القعود والتخلف ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ واجدون لأهبة السفر والغزو مع السلامة.

ثم كأنه قيل: ما كانت علة استيذانهم؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ وتحملوا الذناء والذلة والانتظام في عداد النساء والعجزة ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ﴾ لذلك الطبع ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ منافع الجهاد ومضار القعود عنه أبداً، ولذا تنفروا عن الجهاد.

قيل: كانوا ثمانين رجلاً من قبائل شتى^٦، ذمهم سبحانه بالاعتذار بالأعداء الباطلة الكاذبة بقوله:

→ غنمة (عتمه خ ل)، وفي أسد الغابة: غنمة، وفي طبقات ابن سعد: غنمة، وفي مغازي الواقدي: غنمة.

١. في النسخة: ومن بني الغرما ضرة، وفي المصدر: ومن بني العرباض ناصر، تصحيف، راجع: المصادر المتقدمة، وأسد الغابة ٣: ٣٩٩.

٢. تفسير القمي ١: ٢٩٣، تفسير الصافي ٢: ٣٦٧.

٣. تفسير الرازي ١٦: ١٦٢.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٤٨٥.

٥. تفسير القمي ١: ٢٩٣، تفسير الصافي ٢: ٣٦٨.

٦. تفسير الرازي ١٦: ١٦٢.

﴿يُعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ في التخلف عنكم ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ من غزوة تبوك ﴿إِلَيْهِمْ﴾.

ثم لما كان الجواب وظيفه الرسول، أمره الله بأن يجيبهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ فإن فائدة الاعتذار دفع التوهم السوء في حق المعتذر، وهو لا يكون إلا بتصديق المعتذر إليه، ونحن ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ ولا نصدقكم في اعتذاركم أبداً؛ لأنه ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ﴾ وأخبرنا بالوحي بعضاً ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ الموجب للعلم بضمايركم من الكفر والشر والفساد، فلذا لا يمكننا تصديقكم فيما هو معلوم الكذب عندنا ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ﴾ فيما بعد ﴿عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ من التوبة، ونصرة النبي ﷺ، والنصح له، وغيرها مما له شهادة على صدق اعتذاركم، ومن الغدر والكفر والفساد ما هو من أدلة كذبه ﴿ثُمَّ تَرُدُّونَ﴾ وتراجعون بالموت من الدنيا ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ ودار الجزاء المستورة عن الأنظار ﴿وَعَالِمِ الشَّهَادَةِ﴾ وكشف السر عما في الضمائر، ورفع الجباب عن الجنة والنار ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ الله عند ردكم إليه ووقوفكم بين يديه ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من السيئات السابقة والآخرة، والحسنات بما يحكم به عليكم من العتاب والعقاب، ولكم من الإكرام والثواب.

سَيَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أَنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُغَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [٩٥]

ثم بعد بيان كذبهم في الاعتذار، ذمهم سبحانه بخلفهم الكاذب عليه بقوله: ﴿سَيَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ تأكيداً لمعاذيرهم الكاذبة ﴿إِذَا أَنْقَلَبْتُمْ﴾ وانصرفتم من سفر الغزو ﴿إِلَيْهِمْ﴾: إنا ما قدرنا على الخروج، ولو قدرنا ما تخلصنا، كما قيل: إنه مقالة جد بن قيس، ومعتب بن قشير وأصحابهما ﴿لِنُغَرِّضُوا عَنْهُمْ﴾ عن لومهم وتعنيفهم، وتصفحوا عن تقصيرهم. قيل: إنهم طلبوا إعراض الصفح؛ فأمر الله المؤمنين بإعراض المقت^٢ بقوله: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾.

عن ابن عباس: يريد ترك الكلام والسلام^٣.

وقيل: قال النبي ﷺ حين قدم المدينة: «لا تجالسوهم ولا تكلّموهم»^٤.

ثم نبّه سبحانه على علة الإعراض بقوله: ﴿إِنَّهُمْ رَجِسٌ﴾ وقدّر ذاتاً وزَوْحاً، لا ينظرون بالتفريع والنصح ﴿وَمَآوَاهُمْ﴾ ومقرهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ لا ينجون منها ﴿جَزَاءِ بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر وقبائح الأعمال، فإذا كانوا كذلك تكون مجالستهم ومكالمتهم مؤثرة في ظلمة

١. تفسير أبي السعود ٤: ٩٥، تفسير روح البيان ٣: ٤٨٧.

٢. تفسير الرازي ١٦: ١٦٤.

القلب وكُدورة الرُّوح، ومُوجبة للبُعد عن الله.

يَخْلُقُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ [٩٦]

ثم لما كان المنافقون طالبين للإعراض مع الصفح والرضا، نهى الله المؤمنين عن ذلك بقوله: ﴿يَخْلُقُونَ﴾ بالله ﴿لَكُمْ﴾ على صدق معاذيرهم كذباً ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ بخلفهم، وتعاملوا معهم معاملةكم مع المسلمين ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ فقد خالفتم الله في ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ﴾ أبداً ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ والطَّاعِينَ عليه بالكفر وفساد الأعمال، فعليكم أن لا تَرْضَوْا عنهم أيضاً لأن رضا المؤمن تابع لرضا الله.

القَمِي ٱللَّهِ: لما قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المدينة من ثَبُوك، كان أصحابه المَؤْمِنُونَ يتَعَرَّضُونَ لِلْمُنافِقِينَ ويؤذونهم، وكانوا يَخْلُقُونَ لهم أَنَّهُمْ على الْحَقِّ، وليسوا بِمُنافِقِينَ لكي يُعْرِضُوا عَنْهُمْ وَيَرْضَوْا عَنْهُمْ، فَأَنزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ^١.

عن (المجمع): عن النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ التَّمَسَّ رِضَا اللَّهِ بَسَّخَ النَّاسَ رِضَى اللَّهِ عَنْهُ، [وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ]، وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَا النَّاسِ بَسَّخَ اللَّهُ [سَخَطَ] اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ»^٢.

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ
الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [٩٧ و ٩٨]

ثم أنه تعالى بعد ذم المنافقين من أهل المدينة، ذم أهل البادية منهم بقوله: ﴿الْأَعْرَابُ﴾ وأهل البوادي منهم ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر وسكان البلد. قيل: لأنهم يشبهون الوحوش من حيث إنهم مجبولون على الامتناع عن الطاعة والانقياد^٣ ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ من الأحكام والعبادات، لعدم ملازمتهم حضوره، وبعدهم عن استماع القرآن والمواعظ الشافية وشنن الرسول ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده، بدوهم

٢. مجمع البيان ٥: ٩٤، تفسير الصافي ٢: ٣٦٨.

١. تفسير القمي ١: ٣٠٢، تفسير الصافي ٢: ٣٦٨.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٤٨٩.

وَحَضَرِيهِمْ ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يُجَازِي به مُحْسَنِهِمْ وَمُسِيئِهِمْ.

ثم أنه تعالى بعد ذم المنافقين من الأعراب لشدة الكفر والتفارق والجهل، ذمهم بشوء الأعمال بقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ وَيَعْدُ ﴿مَا يَنْفِقُ﴾ من ماله في الظاهر في سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ وخسراناً وضراً على نفسه، لاعتقاده عدم النفع له فيه في الدنيا والآخرة، وإنما ينفقه رياءً واتقاءً من المسلمين ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ﴾ ويتظر في شأنكم ﴿الْدَّوَابِرَ﴾ والمصيبات؛ من الموت والقتل والأسر بأيدي الكفار بعد موت الرسول ﷺ.

ثم دعا عليهم بمثل ما طلبوا للمسلمين بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ والبلية المحيطة المكروهة من الخزي والقتل والأسر في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة، فلا يرون في النبي ﷺ والمؤمنين إلا ما يشاءهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم عند الإنفاق وغيره ﴿عَلِيمٌ﴾ بيناتهم وما في ضمائرهم من الرياء والاتقاء والكفر، وعداوة النبي ﷺ والمؤمنين.

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [٩٩]

ثم مدح المؤمنين الخالص منهم بقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ عن صميم القلب ﴿وَيَتَّخِذُ﴾ وَيَعْدُ ﴿مَا يَنْفِقُ﴾ من أمواله في سبيل الله ﴿قُرْبَاتٍ﴾ ووسائل حصول الكرامة والمثوبة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ تعالى ﴿وَو﴾ ذريعة ﴿صَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ عليهم، ودعانة لهم بالخير والبركة والغفران.

ثم شهد سبحانه بصحة معتقدهم في نفقتهم بقوله: ﴿أَلَا﴾ تنبها أيها المؤمنون ﴿إِنَّهَا قُرْبَةٌ﴾ عظيمة، ووسيلة حصول المنزلة العالية ﴿لَهُمْ﴾ عند الله، ومن آثار قُرْبِهِمْ أنه تعالى ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وجنته، ويحيط بهم فضله ونعمه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لسيناتهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم بأن يوفقهم لطاعته والعمل بمرصاته.

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [١٠٠]

ثم لما مدح الله المؤمنين من الأعراب، ووعدهم الثواب، وأعلن بعدم رضائه عن المنافقين والفاسقين، بين أفضلية الصحابة السابقين في الإيمان والنصرة، ورضاءه منهم بقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ في الإيمان والنصرة ﴿وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ كأمير المؤمنين وحمة. وعنه عليه السلام: «لا يقع اسم الهجرة على أحد إلا بمعرفة الحجة في الأرض، فمن عرفها وأقر بها فهو مهاجر»^١ ﴿وَمِنَ الْأَنْصَارِ﴾ كالسبعة الذين بايعوا الرسول ﷺ في العقبة الأولى والسبعين الذين بايعوه في العقبة الثانية.

والقمي رحمته الله: هم الثقباء، أبو ذر، والمقداد، وسلمان، وعمار، ومن آمن وصدق وثبت على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام^٢.

وفي (نهج البلاغة): «اسم الهجرة لا يقع على أحد إلا بمعرفة الحجة في الأرض، فمن عرفها وأقر بها فهو مهاجر»^٣.

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ﴾ واقتدوا بهم متلبسين ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ من الأخلاق الحسنة، والصفات الكريمة، والأعمال الصالحة.

عن الصادق عليه السلام في حديث: «فبدأ بالمهاجرين الأولين على درجة سبقهم، ثم ثنى بالأنصار، ثم ثلث بالتابعين بإحسان، فوضع كل قوم على قدر درجاتهم ومنازلهم عنده»^٤.

روت العامة: أنه أوحى إلى النبي ﷺ وهو ابن أربعين سنة في مكة، فبايعه جماعة من الناس، فعدا عليهم كفار قريش فظلموهم ليردوهم إلى ما كانوا عليه، فأمرهم النبي ﷺ بالهجرة إلى أرض

في نقل كلام الفخر الحنبلي، فخرجوا نحواً من ثمانين رجلاً، وهذه هي الهجرة الأولى^٥. الرازي ورده

أقول: لا شبهة أنهم السابقون في الهجرة، ولم يكن فيهم أبو بكر، فما ذكر الفخر الرازي - من أن السبق إلى الهجرة إنما حصل لأبي بكر، فكان نصيب أبي بكر من هذه الفضيلة أوفر^٦ - من الأغلاط؛ لأن المهاجرين إلى الحبشة كانوا أسبق في الهجرة من أبي بكر، وإن كان مراده الهجرة إلى المدينة، فمن المعلوم أن مصعب بن عمير كان أسبق منه فيها، ونصيبه أوفر من نصيبه، حيث روي أنه لما انصرف أهل العقبة الثانية إلى المدينة، بعث النبي ﷺ معهم مصعب بن عمير ليشفق أهلها، ويعلّمهم القرآن، وكانت^٧ هجرته في السنة الثانية عشر^٨.

١. نهج البلاغة: ١٨٩/٢٨٠، تفسير الصافي ٢: ٣٦٩. ٢. تفسير القمي ١: ٣٠٣، تفسير الصافي ٢: ٣٦٩.
٣. تقدم آنفاً. ٤. تفسير المياشي ٢: ٢٥٣/١٨٧٢، الكافي ٢: ٣٤/١، تفسير الصافي ٢: ٣٦٩.
٥. تفسير روح البيان ٣: ٩٢٢. ٦. تفسير الرازي ١٦: ١٦٩.
٧. في النسخة: كان. ٨. تفسير روح البيان ٣: ٩٢٢.

ثُمَّ بَشَّرَ شُبْحَانَهُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ بِرِضَائِهِ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بِقَبُولِ طَاعَتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بِمَا نَالُوا مِنْ نِعَمِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ.

قال الفخر الرازي: فإذا ثبت هذا يعني كَوْنُ أَبِي بَكْرٍ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى الْهِجْرَةِ، صَارَ مُحْكَمًا عَلَيْهِ بَأَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَرَضِيَ هُوَ عَنْهُ، وَذَلِكَ فِي أَعْلَى الدَّرَجَاتِ مِنَ الْفَضْلِ، فَذَا ثَبِتَ هَذَا وَجِبَ أَنْ يَكُونَ إِمَامًا حَقًّا بَعْدَ الرَّسُولِ، إِذْ لَوْ كَانَتْ إِمَامَتُهُ بَاطِلَةً لَاسْتَحَقَّ اللَّعْنَ وَالْمَقْتَّ، وَذَلِكَ يُنَافِي مِثْلَ هَذَا التَّعْظِيمِ، فَصَارَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَدَلِّ الدَّلَائِلِ عَلَى فَضْلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَصِحَّةِ إِمَامَتِهِمَا.

ثُمَّ أورد على نفسه: بَأَنَّهُ لَمْ قُلْتُمْ أَنَّهُ بَقِيَ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ، وَلَمْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ أَنَّهُ تَغَيَّرَ عَنْ تِلْكَ الْحَالَةِ، وَزَالَتْ عَنْهُ تِلْكَ الْفَضِيلَةُ، بِسَبَبِ إِقْدَامِهِ عَلَى الْإِمَامَةِ^١.

ثُمَّ أَجَابَ عَنْهُ: بِأَنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ الْأَوْقَاتِ وَالْأَحْوَالِ؛ بِدَلِيلِ أَنَّهُ لَا وَقْتُ وَلَا حَالٌ إِلَّا وَيَصِحُّ اسْتِثْنَاؤُهُ مِنْهُ، فَيُقَالُ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ إِلَّا فِي وَقْتٍ طَلَبَ الْإِمَامَةَ، وَمَقْتَضَى الْاسْتِثْنَاءِ إِخْرَاجُ مَا لَوْلَاهُ لَدَخَلَ تَحْتَ اللَّفْظِ^٢.

أقول: فِيهِ أَنَّ الظَّاهِرَ مِنَ الْآيَةِ رِضَاؤُهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي أَوَّلِ إِيْمَانِهِمْ وَهِجْرَتِهِمْ، وَأَنَّهُ بَاقٍ مَا لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُمْ مَا يُوْجِبُ الْغَضَبَ وَالسُّخْطَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَزِمَ الْقَوْلُ بِرِضَائِهِ تَعَالَى عَنْ عُمَرَ وَعُثْمَانَ حِينَ فِرَارِهِمَا مِنَ الرَّحْفِ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكَوْنِ فِرَارِهِمَا حَقًّا، وَلَا زِمَ ذَلِكَ كَوْنُ ثَبَاتِ الرَّسُولِ ﷺ فِيهِ بَاطِلًا، وَعَنْ جَمِيعِ الصَّحَابَةِ حِينَ مُخَالَفَتِهِمُ الرَّسُولَ ﷺ وَمُعَارَضَتِهِمْ لَهُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ.

وَمَعَ الْقَوْلِ بِذَلِكَ لَا مَعْنَى لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾^٣ لِأَنَّ رِضَاءَهُ حَصَلَ وَلَمْ يَزَلْ، فَكَانَ الْإِخْبَارُ بِخُدُوثِهِ بَعْدَ الْبَيْعَةِ إِخْبَارًا بِحُصُولِ مَا كَانَ حَاصِلًا، وَلَزِمَ الْقَوْلُ بِرِضَائِهِ تَعَالَى عَنْ الزُّبَيْرِ حِينَ خُرُوجِهِ مِنْ بَيْتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ بِالسَّيْفِ، يَوْمَ اجْتِمَاعِ النَّاسِ عَلَى بَابِهِ لِإِخْرَاجِهِ إِلَى بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ، وَكَوْنِهِ حَقًّا، فَكَانَتْ إِمَامَةُ أَبِي بَكْرٍ وَبَيْعَتُهُ بِاطْلَتَيْنِ. وَايضًا لَزِمَ كَوْنُ قِتَالِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ حَقًّا، وَلَا يَقُولُ بِهِ مُسْلِمٌ، وَكَوْنُ تَخَلُّفِ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالسَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ - كَسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَأَضْرَابِهِ، عَنْ بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ، وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى قَتْلِ عُثْمَانَ - حَقًّا، فَكَانَتْ^٤ إِمَامَةُ أَبِي بَكْرٍ وَعُثْمَانُ بَاطِلَةً خُصُوصًا بِنَاءً عَلَى مَا قَالَهُ أَكْثَرُ مُفَسِّرِي الْعَامَةِ مِنْ أَنَّ الْآيَةَ تَتَنَاوَلُ جَمِيعَ الصَّحَابَةِ: لِأَنَّ جَمِيعَهُمْ مَوْصُوفُونَ بِكَوْنِهِمْ سَابِقِينَ أَوَّلِينَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ^٥.

١. تفسير الرازي ١٦: ١٦٩.

٢. تفسير الرازي ١٦: ١٧٠.

٣. الفتح: ١٨/٤٨.

٤. في النسخة: فكان.

٥. تفسير الرازي ١٦: ١٧١.

ثم بشرهم الله بالثواب الآخروي بقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ﴾ المذكور من رضاء الله عنهم، وخلودهم في الجنة هو ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز ولا نجاح أعظم منه.

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ
لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ [١٠١]

ثم أنه تعالى بعد ذم المنافقين المشهورين في المدينة والبوادي، أخبر بيفاق بعض المسلمين المبطنين للنفاق بقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ وفي أطراف بلدكم ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ وأهل البوادي المشهورين بينكم بالإيمان ﴿مُنَافِقُونَ﴾ مستور يفاقهم عنكم. قيل: هم جُهينة ومُزينة وأشجع وغفار، كانوا نازلين حول المدينة^١ ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا﴾ وعَتُوا واستمروا ﴿وَعَلَى النَّفَاقِ﴾ وبلغوا في المهارة فيه إلى درجة ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ مع كمال فطنتك، وقوة فراستك، و﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ ونعرفهم لإحاطتنا بضمائرهم وأسرارهم ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ﴾ قبل يوم القيامة ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ مرة في الدنيا، ومرة في البرزخ والقبر. وقيل: إن المراد من ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ تكرّر عذابهم في الدنيا^٢ ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ في القيامة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ لا يقادر قدره.

وَأَخْرَوْنَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ
عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [١٠٢]

ثم ذكر سبحانه القسم الثالث من أهل المدينة بقوله: ﴿وَأَخْرَوْنَ﴾ منهم ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ قيل: هم المنافقون الذين تابوا من يفاقهم^٣. وقيل: هم جمع من المسلمين تخلّفوا عن غزوة تبوك كسلاً لا يفاقاً وكفراً^٤، ثم أقرّوا على أنفسهم بالعصيان، وأظهروا الندامة، وهم ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا﴾ من حضورهم في الغزوات، واهتمامهم بالعبادات، وندمهم على القعود عن غزوة تبوك، وتوبتهم من التخلّف ﴿وَأَخْرَ سَيِّئًا﴾ من المعاصي السابقة واللاحقة.

رُوي أَنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثَةَ: أَبُو لُبَابَةَ مَرَّانَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، وَأَوْسُ بْنُ ثَعْلَبَةَ، وَوَدِيعَةُ بْنُ حَزَامٍ^٥. وقيل: كانوا عشرة، فسبعة منهم لما بلغهم ما نزل في المتخلّفين وأيقنوا بالهلاك، أوثّقوا أنفسهم

١. تفسير الرازي ١٦: ١٧٣، تفسير أبي السعود ٤: ٩٧، تفسير روح البيان ٣: ٤٩٣.

٢. تفسير أبي السعود ٤: ٩٨، تفسير روح البيان ٣: ٤٩٤.

٣ و٤. تفسير الرازي ١٦: ١٧٤. ٥. تفسير الرازي ١٦: ١٧٥.

على سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، وَكَانَتْ هَذِهِ عَادَتُهُ، فَلَمَّا رَأَاهُم مُّوثِقِينَ سَأَلَ عَنْهُمْ، فَذَكَرَ لَهُ أَنَّهُمْ حَلَفُوا أَنْ لَا يَحْلُوا أَنْفُسَهُمْ حَتَّى يَكُونَ الرَّسُولُ هُوَ الَّذِي يَحْلُهُمْ، فَقَالَ ﷺ: «وَأَنَا أَقْسِمُ أَنْي لَا أَحْلَهُمْ حَتَّى أَمُرَ فِيهِمْ». فَتَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ.

فَأَطْلَقَهُمْ وَعَذَرَهُمْ^١ لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وَيَعُودَ عَلَيْهِمْ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِذُنُوبِ التَّائِبِينَ ﴿رَحِيمٌ﴾ بِهِمْ وَمُفَضَّلٌ عَلَيْهِمْ بِالتَّوْبِ.

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [١٠٣]

رَوَى أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ أَمْوَالُنَا، وَإِنَّمَا تَخَلَّفْنَا عَنْكَ بِسَبَبِهَا، فَصَدَّقَ بِهَا وَطَهَّرْنَا، فَقَالَ: مَا أَمَرْتُ أَنْ أَخْذَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شَيْئاً. فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ٢: ﴿خُذْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ الَّتِي أَعْطَاكَ ﴿صَدَقَةً﴾ حَالُ كَوْنِكَ ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي خَلَطَوهَا بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ وَتُثَمِّنِي بِتِلْكَ الصَّدَقَةِ أَنْفُسَهُمْ بِالْكَمَالِ، وَأَمْوَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِالْبَرَكَةِ وَالتَّوْبِ - وَقِيلَ: يَعْنِي تُبَالِغُ فِي تَطْهِيرِهِمْ^٣، أَوْ تَعْظِيمُ شَأْنِهِمْ وَتُثَمِّنِي عَلَيْهِمْ بِهَا ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ وَادْعُ لَهُمْ بِالْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ وَالْغُفْرَانِ ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ عَلَيْهِمْ وَدُعَاكَ لَهُمْ ﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾ وَطُمَأْنِينَةٌ تَطْمَئِنُّ بِهَا قُلُوبُهُمْ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ دُعَاكَ رَحْمَةً لَهُمْ^٤ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِاعْتِرَافِهِمْ وَتَوْبَتِهِمْ وَمَقَالَتِهِمْ عِنْدَ إِعْطَائِهِمُ الصَّدَقَةَ وَدُعَاكَ لَهُمْ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَا فِي ضَمَائِرِهِمْ مِنَ الصَّدَقِ وَالْخُلُوصِ.

قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ ثُلُثَ أَمْوَالِهِمْ لِتَكْمِيلِ تَوْبَتِهِمْ، وَتَكْفِيرِ ذُنُوبِهِمُ الَّتِي مِنْهَا تَخَلَّفَهُمْ عَنِ الْغَزْوِ^٥.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَتِهِمْ قَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ»^٦.

وَعَنِ الصَّادِقِ عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: أَجَارِيَّةٌ فِي الْإِمَامِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: نَعَمْ^٧.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ

التَّوَابُ الرَّحِيمُ [١٠٤]

١. تفسير الرازي ١٦: ١٧٥.

٢. تفسير الرازي ١٦: ١٧٥.

٣. تفسير الرازي ١٦: ١٧٩، تفسير أبي السعود ٤: ٩٩.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٤٩٥.

٥. مجمع البيان ٥: ١٠٣، تفسير الصافي ٢: ٣٧١.

٦. تفسير العياشي ٢: ١٨٧٩/٢٥٥، تفسير الصافي ٢: ٣٧١.

ثُمَّ لَمَّا لَمْ يَصْرَحِ اللَّهُ شَبَحَانَهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ، صَرَّحَ بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ مِنَ الذُّنُوبِ ﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾ الْمُؤْمِنِينَ الْمَذْنُوبِينَ الثَّانِينَ ﴿وَيَأْخُذُ﴾ مِنْهُمْ ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ الصَّادِرَةِ مِنْهُمْ عَنْ خُلُوصِ النِّيَّةِ. ثُمَّ أَكَّدَ قَبُولَ تَوْبَتِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ عَلَى الْمَذْنُوبِينَ، وَبَالِغٌ فِي قَبُولِ تَوْبَتِهِمْ ﴿الرَّحِيمُ﴾ بِهِمْ.

رُوي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا حَكَمَ بِصِحَّةِ تَوْبَتِهِمْ، قَالَ الَّذِينَ لَمْ يَتُوبُوا: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَابُوا كَانُوا مَعَنَا بِالْأَمْسِ لَا يُكَلِّمُونَ وَلَا يُجَالِسُونَ، فَمَا لَهُمْ؟ فَنَزَلَتْ^١.

وَعَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَقَدْ وَكَلْتُ [بِهِ] مَنْ يَقْبِضُهُ غَيْرِي إِلَّا الصَّدَقَةَ فَإِنِّي أَتَقَلَّبُهَا بِيَدِي تَلَفُّنًا، حَتَّى إِذَا الرَّجُلُ لِيَتَصَدَّقَ بِالثَّمَرَةِ أَوْ بِشِقِّ الثَّمَرَةِ فَأَرَبَيْهَا لَهُ كَمَا يُرَبِّي الرَّجُلُ فَلَوْهٗ^٢ وَفَصِيلَهُ، فَيَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ مِثْلُ أَحَدٍ وَأَعْظَمُ مِنْ أَحَدٍ»^٣.

وَعَنِ السَّجَّادِ عليه السلام: «اضْمَنْتُ عَلَى رَبِّي أَنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَقَعُ فِي يَدِ الْعَبْدِ حَتَّى تَقَعُ فِي يَدِ الرَّبِّ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾»^٤.

وَعنه عليه السلام: أَنَّهُ كَانَ إِذَا أُعْطِيَ السَّائِلُ قَبْلَ يَدِ السَّائِلِ، فَقِيلَ لَهُ: لِمَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «لَأَنَّهَا تَقَعُ فِي يَدِ اللَّهِ قَبْلَ يَدِ الْعَبْدِ». وَقَالَ: «لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَكَلَّ بِهِ مَلَكٌ إِلَّا الصَّدَقَةَ فَإِنَّهَا تَقَعُ فِي يَدِ اللَّهِ»^٥.
وَعَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «كَانَ أَبِي إِذَا تَصَدَّقَ بِشَيْءٍ وَضَعَهُ فِي يَدِ السَّائِلِ ثُمَّ ارْتَدَّ مِنْهُ فَقَبَلَهُ وَشَمَّهُ [ثُمَّ رَدَّهُ فِي يَدِ السَّائِلِ]»^٦.

وَعَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «إِذَا نَاوَلْتُمُ السَّائِلَ شَيْئًا فَاسْأَلُوهُ أَنْ يَدْعُوَ لَكُمْ فَإِنَّهُ يُجَابُ لَهُ فِيكُمْ، وَلَا يُجَابُ فِي نَفْسِهِ - إِلَى أَنْ قَالَ - وَلِيُرْزَ الَّذِي نَاوَلَهُ يَدَهُ إِلَى فِيهِ فَيَقْبَلَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْخُذُهَا قَبْلَ أَنْ تَقَعُ فِي يَدِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾»^٧.

وَعَنِ الصَّادِقِ عليه السلام فِي حَدِيثٍ: «وَالْأَخْذُ فِي وَجْهِ الْقَبُولِ مِنْهُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ أَيِ يَقْبَلُهَا مِنْ أَهْلِهَا وَيُثَبِّبُ عَلَيْهَا»^٨.

وَقِيلَ: إِنَّ قَوْلَهُ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ ذَكَرَ أَنَّ الْآخِذَ هُوَ الرَّسُولُ ﷺ، وَفِي هَذِهِ ذَكَرَ أَنَّ الْآخِذَ

١. تفسير الرازي ١٦: ١٨٥.

٣. الكافي ٤: ٦٧/٦، تفسير الصافي ٢: ٣٧٢.

٥. تفسير العياشي ٢: ٢٥٧/١٨٨٥، تفسير الصافي ٢: ٣٧٢.

٦. تفسير العياشي ٢: ٢٥٦/١٨٨٢، الكافي ٤: ٣/٩، تفسير الصافي ٢: ٣٧٢.

٧. الخصال: ١٠/١٦٩، تفسير الصافي ٢: ٣٧٢.

٢. القُلُوبُ: الْجَحْشُ أَوْ الْمُهْرُ يُفْطَمُ أَوْ يَبْلُغُ السَّنَةَ.

٤. تفسير العياشي ٢: ٢٥٧/١٨٨٦، تفسير الصافي ٢: ٣٧٢.

٨. التوحيد: ٢/١٦٢، تفسير الصافي ٢: ٣٧٢.

هُوَ اللَّهُ، فَيَفْهَمُ مِنَ الْآيَتَيْنِ أَنَّ أَخَذَ الرَّسُولُ أَخَذَ اللَّهُ، فَبِهِ التَّنْبِيهِ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ الرَّسُولِ ﷺ^١.

وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتَرْدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [١٠٥]

ثُمَّ رَغِبَ شَبَّاحُهُ التَّائِبِينَ عَلَى الْعَمَلِ بَعْدَ قَبُولِ تَوْبَتِهِمْ، أَوْ عُمُومِ الْعِبَادِ فِي مُطْلَقِ الْخَيْرَاتِ، وَرَهَبِهِمْ مِنَ الْعِصْيَانِ بِقَوْلِهِ: «وَقُلْ» لِلتَّائِبِينَ، أَوْ لِعُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ: «أَعْمَلُوا» مَا سَيُثَبَّرُ مِنَ الْأَعْمَالِ خَيْرًا أَوْ شَرًّا «فَسَيَرَى اللَّهُ» وَيَعْلَمُ الْبَتَّةَ «عَمَلَكُمْ» خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا، ظَاهِرًا كَانَ أَوْ خَفِيًّا «وَرَسُولُهُ» أَيْضًا يَرَاهُ، بَلْ «وَالْمُؤْمِنُونَ» يَرَوْنَهُ.

عن الباقر عليه السلام: «هُوَ وَاللَّهُ عَلَيَّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^٢.

وعن الصادق عليه السلام: «هُمْ الْأَنْمَةُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^٣.

وعنه عليه السلام قال: «إِنَّا نَا عُنَى»^٤.

وعنه عليه السلام: «تُعْرَضُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْمَالُ الْعِبَادِ كُلِّ صَبَاحٍ، أَبْرَارُهَا وَفُجَّارُهَا؛ فَاخْذَرُوهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى «وَقُلْ أَعْمَلُوا...» الْآيَةَ»^٥.

وعنه عليه السلام أَنَّهُ قَرِئَ عَنْهُ هَذِهِ الْآيَةُ فَقَالَ: «لَيْسَ هَكَذَا هِيَ، إِنَّمَا هِيَ (وَالْمُؤْمِنُونَ)، فَنَحْنُ الْمُؤْمِنُونَ»^٦.

أقول: ليس التَّوْبَةُ تَغْيِيرُ اللَّفْظِ، بَلْ بَيَانُ أَنَّ مَادَّةَ «مُؤْمِنُونَ» الْأَمْنُ لَا الْإِيمَانُ.

وَرُوي: لَوْ أَنَّ رَجُلًا عَمِلَ فِي صَخْرَةٍ لَا بَابَ لَهَا وَلَا كَوْنَهُ، لَخَرَجَ عَمَلُهُ إِلَى النَّاسِ كَانَتْ أَوْ مَا كَانَ^٧.

«وَسَتَرْدُّونَ» وَتَرْجِعُونَ الْبَتَّةَ بَعْدَ الْمَوْتِ «إِلَى» جَزَاءِ أَعْمَالِكُمْ، أَوْ إِلَى دَارِ الْآخِرَةِ الَّتِي هِيَ مَعْنَى «عَالِمِ الْغَيْبِ» لِنِيَابِهِ عَنْ أَنْظَارِ الْعَامَّةِ، «وَقَدْ» عَالِمِ «الشَّهَادَةِ» لِحُضُورِهِ عِنْدَ النَّاسِ، أَوْ لِشُجُودِهِمْ حَقَاقَتِ الْأَعْمَالِ وَالْأَشْيَاءِ فِيهِ «فَيُنَبِّئُكُمْ» وَيُخَبِّرُكُمْ اللَّهُ «بِمَا كُنْتُمْ» فِي الدُّنْيَا «تَعْمَلُونَ» بِإِرَاءَتِكُمْ جَزَاءَهُ.

١. تفسير الرازي ١٦: ١٨٦.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٨٨٩/٢٥٨، الكافي ١: ١٧١/٥، تفسير الصافي ٢: ٣٧٣.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٨٩٣/٢٥٩، الكافي ١: ١٧١/٢، تفسير الصافي ٢: ٣٧٣.

٤. الكافي ١: ١٤٦/٢، تفسير الصافي ٢: ٣٧٣.

٥. تفسير العياشي ٢: ١٨٩١/٢٥٩، الكافي ١: ١٧١/١، تفسير الصافي ٢: ٣٧٣.

٦. الكافي ١: ٣٥١/٦٢، تفسير الصافي ٢: ٣٧٣. ٧. تفسير الرازي ١٦: ١٨٩، تفسير روح البيان ٣: ٥٠١.

وَأَخْرَجُوا مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ [١٠٦]

ثُمَّ بَيَّنَّ شَبَاحَةَ الْقِسْمِ الْآخَرِ مِنَ النَّاسِ بِقَوْلِهِ: «وَأَخْرَجُوا» مِنْهُمْ قَوْمٌ «مَرْجُونَ» وَمُؤَخَّرُونَ فِي جَزَائِهِمْ «لِأَمْرِ اللَّهِ» وَإِلَى تَرْوِيلِ حُكْمِهِ فِي شَأْنِهِمْ، أَوْ إِلَى إِرَادَتِهِ التَّعْذِيبَ أَوْ الْعَفْوَ، فَهُوَ تَعَالَى «إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ» عَلَى ذُنُوبِهِمْ إِنْ سَوَّفُوا التَّوْبَةَ إِلَى أَنْ يَمُوتُوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ «وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ» إِنْ تَابُوا عَنْ خُلُوصِ «وَاللَّهُ عَلِيمٌ» بِأَحْوَالِهِمْ «حَكِيمٌ» فِيمَا يَفْعَلُ بِهِمْ مِنَ التَّعْذِيبِ وَالْعَفْوِ. رُوي عَنْهُمَا عليهما السلام فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «أَتَهُمْ قَوْمٌ مُشْرِكُونَ، قَتَلُوا مِثْلَ حَمْرَةَ وَجَعْفَرَ وَأَشْبَاهَهُمَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ، فَوَحَّدُوا اللَّهَ وَتَرَكَوا الشِّرْكَ، وَلَمْ يَعْرِفُوا الْإِيمَانَ بِقُلُوبِهِمْ فَيَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَجِبَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، وَلَمْ يَكُونُوا عَلَى جُحُودِهِمْ فَيَكْفُرُوا فَتَجِبَ لَهُمُ النَّارُ، فَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ»^١.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ* لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدَ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ [١٠٧ و ١٠٨]

ثُمَّ ذَمَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ عَلَى بِنَاءِ مَسْجِدِ ضِرَارٍ بِقَوْلِهِ: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا» وَبَنَوْا «مَسْجِدًا» بِجَنْبِ مَسْجِدِ قُبَا^٢، لِيَكُونُوا أَوْ لِيُضَرُّوا بِهِ «ضِرَارًا وَكُفْرًا» لِيَفَرِّقُوا بِهِ «تَفْرِيقًا» وَيُوقِعُوا اخْتِلَافًا «بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ» «وَيُتْرَكُوا» وَيَتَرَدَّدُوا وَيَتَنَظَّرُوا «إِزْصَادًا» وَانْتَظَارًا «لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ».

في بيان حلة بناء مسجد ضرار عن ابن عباس وجمع من مفسري العامة قالوا: كانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين، بنوا مسجداً ليضاروا مسجداً قُبَا^٣.

وقيل: إنَّ أبا عامر الزاهد - والد حنظلة، الذي غسلته الملائكة - وسماه رسول الله ﷺ الفاسق، وقد تنصَّر في الجاهلية، وترهب وطلب العلم، فلما خرج رسول الله ﷺ عاداه لأنه زالت رِئاسته،

١. تفسير العياشي ٢: ٢٦١/١٩٠ والكافي ٢: ٢٩٩/١ عن الباقر عليه السلام، تفسير القمي ١: ٣٠٤ عن الصادق عليه السلام، تفسير الصافي ٢: ٣٧٤.

٢. مسجد قُبَا: أصله اسم بئر في قرية تجتمع حولها بنو عمرو بن عوف، على ميلين من المدينة، وفيها مسجد التقوى، وهو أول مسجد صُلِّيت فيه صلاة الجمعة.

٣. تفسير الرازي ١٦: ١٩٣. عن ابن عباس ومجاهد و قتاده وعامة أهل التفسير.

وقال: لا أجد قوماً يُقاتلونك إلا قاتلتك معهم، ولم يزل يُقاتله إلى يوم حُنين، فلما انهزمَتْ هوازن خرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قُوَّة وسلاح، واثبوا لي مسجداً، فإني ذاهب إلى قيصر وآتٍ من عنده بجُنْدٍ فأخرجُ محمداً وأصحابه. فبنوا هذا المسجد، وانتظروا مجيء أبي عامر ليُصلِّي بهم في ذلك المسجد^١.

وعن (الجوامع) قال: زُوي أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قبا، وصلى فيهم رسول الله ﷺ حسدُهم إخوانهم بنو عَتَم بن عوف، وقالوا: نبني مسجداً نُصلي فيه ولا نحضر جماعة محمد. فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قبا، وقالوا للرسول الله ﷺ: وهو يتجهز إلى تبوك: إنا نحب أن تأتينا فتُصلي لنا فيه، فقال: «إني على جناح سفر». ولما انصرف من تبوك نزلت الآية، فأرسل من هدم المسجد وأحرقه، وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة^٢.

ثم أخبر الله تعالى بنفاق البانين للمسجد بقوله: ﴿وَلَيُخْلِفَنَّ﴾ بالله للرسول ﷺ عند سؤاله عن علة بنائه ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ وما قصدنا بينائه ﴿إِلَّا﴾ الفعلة أو الخصلة أو الإرادة ﴿الْحُسْنَى﴾ من الصلاة والتوسعة على ضعفاء المؤمنين وقيل: إنهم قالوا للرسول ﷺ: إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة، والشيخ الفاني، والليلة الممطرة، والليلة الشاتية^٣. فردَّ الله شبحانه عليهم، وكذب قولهم وحلَّهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يقولون.

عن القمي قال: كان سبب نزولها أنه جاء قوم من المنافقين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أأذن لنا أن نبني مسجداً في بني سالم للعليل والليلة الممطرة، والشيخ الفاني؟ فأذن لهم رسول الله ﷺ وهو على جناح الخروج إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، لو أتيتنا وصليت فيه، فقال: «أنا على جناح السفر، فإذا وافيت - إن شاء الله - أتيتُه فصليت فيه».

فلما أقبل رسول الله ﷺ من تبوك نزلت هذه [الآية] في شأن المسجد وأبي عامر الراهب، وقد كانوا خلفوا للرسول ﷺ أنهم يبنون ذلك للصالح والحسن، فأنزل الله على رسوله ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: أبا عامر الراهب، كان يأتيهم ويدكر رسول الله ﷺ وأصحابه^٤.

قيل: إنه كان من أشراف قبيلة الخزرج، وكان له علمٌ بالثورة والإنجيل^٥. وكان يذكر صفات

٢. جوامع الجامع: ١٨٦، تفسير الصافي ٢: ٣٧٥.

١. تفسير الرازي ١٦: ١٩٣.

٣. تفسير البيضاوي ١: ٤٢٠، تفسير الرازي ١٦: ١٩٤.

٤. تفسير القمي ١: ٣٠٥، تفسير الصافي ٢: ٣٧٥.

٥. تفسير روح البيان ٣: ٥٠٥.

النبي ﷺ لأهل المدينة قبل هجرته إليها، فلما هاجر إليها وأمن به أهلها، تركوا ضحية أبي عامر^١، فحسد النبي ﷺ وقال له: ما هذا الذين الذي جئت به؟ قال: «دين إبراهيم الخليل». قال: لا والله، ليس ذلك. فقال النبي: «تَل جئت بها بيضاء نقية». فقال أبو عامر: أمان الله من [هو] كاذب منا طريداً وحيداً غريباً. فقال النبي ﷺ: «أمين»، فهرب بعد غزوة بدر ولحق بكفار مكة^٢.

وعن تفسير الإمام علي^٣: «أن رسول الله ﷺ كان تأتيه الأخبار عن صاحب دومة الجندل، وكان ملك النواحي، له مملكة عظيمة مما يلي الشام، وكان يهدد رسول الله ﷺ بقضده. وقتل أصحابه، وكان أصحاب رسول الله ﷺ خائفين وجلين من قتله... ثم إن المنافقين اتفقوا وبايعوا الأبي عامر الزاهد الذي سمّاه رسول الله ﷺ الفاسق، وجعلوه أميراً عليهم، وبخعوا له بالطاعة، فقال لهم: الرأي أن أغيب عن المدينة لئلا أتهم إلى أن يتم تدبيركم، وكاتبوا أكيدر صاحب دومة الجندل ليقصد المدينة^٤.

فأوحى الله إلى محمد ﷺ وعزفه ما أجمعوا عليه من أمره، وأمره بالمسير إلى تبوك، وكان رسول الله ﷺ كلما أراد غزواً ورى بغيره إلا غزوة تبوك، فإنه أظهر ما كان يريد، وأمر أن يتزودوا لها، وهي الغزاة التي اقتصح فيها المنافقون، وذمهم الله في تثبتهم عنها، وأظهر رسول الله ﷺ ما أوحى إليه أن الله سيظهره بكيدر - أو أكيدر - حتى يأخذه ويصالحه على ألف أوقية من ذهب في رجب ومائتي حلة، وألف أوقية في صفر ومائتي حلة، وينصرف سالماً إلى ثمانين يوماً، وقال لهم رسول الله ﷺ: إن موسى وعد قومه أربعين ليلة، وأنا أعدكم ثمانين ليلة، ثم أرجع سالماً غانماً ظافراً بلا حرب تكون، ولا يستأسر أحد من المؤمنين. فقال المنافقون: لا والله، ولكنها آخر كراته [التي] لا ينجبر بعدها، إن أصحابه ليموت بعضهم في الحرّ ورياح البوادي ومياه المواضع المؤذية الفاسدة، ومن سليم من ذلك فبين أسير في [يد] أكيدر، وقتيل وجريح.

واستأذنه المنافقون بعليّ ذكروها؛ بعضهم يعتلّ بالحرّ، وبعضهم بمرض في جسده، وبعضهم بمرض عياله، وكان يأذن لهم.

فلما صحّ عزّم رسول الله ﷺ على الرحلة إلى تبوك، عمد هؤلاء المنافقون فبنوا خارج المدينة مسجد ضرار، يريدون الاجتماع فيه، ويوهمون أنه للصلاة، وإنما كان ليجتمعوا فيه لعة الصلاة فيتم تدبيرهم وتقع هناك ما يسهل به لهم ما يريدون.

ثم جاء جماعة منهم إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله، إن يئوتنا قاصية عن مسجدك، وأنا

نكره الصلاة في غير جماعة، ويصعب علينا الحضور، وقد بنينا مسجداً، فإن رأيت أن تقصده وتصلّي فيه لتتيمّن وتبترك بالصلاة في موضع مُصلّاك، فلم يُعرفهم رسول الله ﷺ ما عرفه الله من أمرهم وبنافقهم، فقال: انتوني بحماري، فأتي بيعفور فركبه يُريد مسجدهم، فكَلَّمَا بعثه هو وأصحابه لم ينبعث ولم يمشی، فإذا صرف رأسه عنه إلى غيره سار أحسن سيره وأطيبه، قالوا: لعل الحمار رأى من الطريق شيئاً كرهه ولذلك لا ينبعث نحوه.

فقال رسول الله ﷺ: انتوني بفرس فركبه، فلَمَّا بعثه نحو مسجدهم لم ينبعث، وكَلَّمَا حرّكه نحوه لم يتحرك، حتّى إذا قتلوا رأسه إلى غيره سار أحسن سير، فقالوا: لعل هذا الفرس قد كره شيئاً في هذا الطريق، فقال ﷺ: تعالوا نمش إليه، فلَمَّا تعاطى هو ومن معه المشي نحو المسجد جَنَوْا في مواضعهم ولم يقديروا على الحركة، فإذا همّوا بغيره من المواضع خَفَّت حركاتهم، وخَفَّت أبدانهم ونشطت قلوبهم، فقال رسول الله ﷺ: هذا أمرٌ قد كرهه الله، وليس يُريده الآن وأنا على جناح سفرٍ، فأملهوا حتّى أرجع إن شاء الله، ثم أنظرُ في هذا نظراً يرضاه الله.

وجد في العزم على الخروج إلى تبوك، وعزم المنافقون على اصطلام مخلفيهم إذا خرجوا، فأوحى الله تعالى إليه: يا محمد، العلي الأعلى يُقرنك السلام، ويقول: إما أن تخرج أنت وتقيم عليّ، وإما أن يخرج عليّ وتقيم أنت، فقال رسول الله ﷺ: ذلك لعلّي، فقال عليّ عليه السلام: السمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله، وإن كنت أحب أن لا أتخلف عن رسول الله في حالٍ من الأحوال.

فقال رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تكون مَنِي بمنزلة هارون من موسى، إلا أنّه لا نبيّ بعدي. قال: رضيت يا رسول الله، فقال له رسول الله: يا أبا الحسن، إن [لك] أجرَ خروجه معي في مقامك في المدينة، وإن الله قد جعلك أمةً وحدك، كما جعل إبراهيم أمةً، تمنع جماعة المنافقين والكفار هيبتك عن الحركة على المسلمين.

فلَمَّا خرج رسول الله ﷺ وشيَّعه عليّ عليه السلام، خاض المنافقون وقالوا: إنّما خلفه محمد بالمدينة لبغضه له وملاّله منه، وما أراد بذلك إلا أن يُبيته المنافقون فيقتلوه. فاتصل ذلك برسول الله ﷺ، فقال عليّ عليه السلام: أسمع ما يقولون يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: أما يكفيك أنّك جِلْدَةٌ ما بين عينيّ، وثور بصري، وكالروح في بدني.

ثم سار رسول الله ﷺ بأصحابه، وأقام عليّ عليه السلام بالمدينة، فكان كلّما دبر المنافقون أن يُوقعوا بالمسلمين فزعوا من عليّ عليه السلام وخافوا أن يقوم معه عليهم من يدفعهم عن ذلك، وجعلوا يقولون فيما بينهم: هي كربة محمد التي لا يؤوب منها... إلى أن عاد رسول الله ﷺ غانماً ظافراً، وأبطل الله

كيد المنافقين، وأمر رسول الله ﷺ بإحراق مسجد ضرار، وأنزل الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا...﴾ الآيات.

ثم ذكر أن أبا عامر الزاهب كان عجل هذه الأمة كيحل قوم موسى، وأنه دمر الله عليه وأصابه بقولنج وبرص [وفالج] ولقوة^١ وبقي أربعين صباحاً في أشد عذاب، ثم صار إلى عذاب الله^٢. وقيل: إنه مات بالشام طريداً وحيداً^٣.

وقيل: إنه أمر الرسول ﷺ مالك بن الدخشم^٤ ومعن بن عدي بخراب المسجد وإحراقه، فالتقوا فيه النار فاحترق بعض من فيه^٥.

قيل: إن مجمع بن جارية^٦ كان إمام مسجد ضرار، ثم جاء إلى عمر وطلب منه إمامة مسجد قبا، قال عمر: لا، إنك كنت إمام مسجد ضرار، قال مجمع: مهلاً لا تعجل علي، إني كنت في ذلك الزمان شاباً وكان المصلون فيه شيوخاً، وكنت قارئاً للقرآن وهم لا يعلمون منه شيئاً، وما كنت مطلقاً على أحوالهم، ولو كنت مطلقاً ما أقمْتُ معهم ساعة، فقيل عمر عُذرته وأعطاه إمامة مسجد قبا^٧.

ثم قيل: لما رجع النبي ﷺ من تبوك هم أن يذهب إلى مسجد ضرار، فنهاه الله عنه^٨ بقوله: ﴿لَا تَقُمْ﴾ يا محمد للصلاة ﴿فِيهِ أَبَدًا﴾ والله ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ﴾ وبني ﴿عَلَى الثَّقَوَى﴾ وخلوص النية والأغراض الخيرية ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ بني - عنهما (عليهما السلام) - يعني مسجد قبا^٩ - ﴿أَحَقُّ﴾ وأولى ﴿أَنْ تَقُومَ﴾ للصلاة ﴿فِيهِ﴾ من أن تقوم للصلاة في مسجد أُسِّس على العصيان والضَّرَر على المسلمين. روي أن رسول الله ﷺ لما هاجر من مكة وقدم قرية قبا - وهي قرية بقرب المدينة على نصف فرسخ - نزل في بني عمرو بن عوف؛ وهم بطن من الأوس، على كلثوم بن هريم^{١٠}، وكان شيخ بني عمرو بن عوف، أسلم قبل وصول الرسول ﷺ إلى قبا أو بعده - على خلاف فيه - فلما نزل قال عمار بن ياسر: لا بد لرسول الله من أن يُجْعَلَ له مكان يستظل به إذا استيقظ ويصلي فيه، فجمع

١. القولنج: مرض معوي مؤلم يصعب معه خروج البراز والريح، وسببه التهاب القولون، والبرص: بياض يقع في الجسد ليلئة، واللقوة: داء يعرض للوجه، يورج منه الشئذق إلى أحد جانبي العنق، فيخرج البلغم والبصاق من جانب واحد، ولا يحسن التقار الشفتين، ولا تنطبق إحدى العينين.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (عليه السلام): ٤٨٨-٤٨١، تفسير الصافي ٢: ٣٧٦.

٣. تفسير البيضاوي ١: ٤٢١، تفسير روح البيان ٣: ٥٠٦.

٤. في النسخة: مالك بن الدخشم، تصحيف، راجع: أسد الغابة ٤: ٢٧٨.

٥. تفسير مجمع البيان ٥: ١١٠.

٦. في النسخة: مجمع بن حارث، تصحيف، راجع: أسد الغابة ٤: ٣٠٣.

٧. الكشاف ٢: ٣١٢.

٨. في النسخة: مجمع بن حارث، تصحيف، راجع: أسد الغابة ٤: ٣٠٣.

٩. تفسير الرازي ١٦: ١٩٥.

١٠. في النسخة: كلثوم بن الهند، وفي تفسير روح البيان: كلثوم بن الهدم، تصحيف، راجع: أسد الغابة ٤: ٢٥١.

حِجَارَةً فَأُسِّسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَسْجِدًا، وَاسْتَمْتَّ بُنْيَانَهُ عِمَارًا، فَعِمَارَ أَوَّلِ مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِعُمُومِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ مَسْجِدَ قُبَا أَوَّلَ مَسْجِدٍ صَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ جَمَاعَةً ظَاهِرِينَ، فَلَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَقِيَّةَ يَوْمٍ وَرُودَهُ وَهُوَ يَوْمُ الْاِثْنَيْنِ وَيَوْمُ الْثَلَاثَةِ وَيَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ وَيَوْمُ الْخَمِيسِ - وَقِيلَ: يَضَعُ عَشْرَةَ لَيْلَةٍ، وَقِيلَ: أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْمًا - فَلَمَّا تَحَوَّلَ مِنْهُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَانَ يَأْتِيهِ يَوْمَ السَّبْتِ مَا شِئَا أَوْ رَاكِبًا وَيُصَلِّي فِيهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ^١.

وَقِيلَ: إِنَّهُ ﷺ كَانَ يَأْتِيهِ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَيُصَلِّي فِيهِ^٢.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْمَسْجِدِ مَسْجِدَ الرَّسُولِ فِي الْمَدِينَةِ^٣.

وَرُوي أَنَّ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِيهِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: مَسْجِدُ قُبَا، وَقَالَ آخَرُ: مَسْجِدُ الرَّسُولِ، فَسَأَلَهُ ﷺ، فَقَالَ: «هُوَ مَسْجِدِي هَذَا»^٤.

ثُمَّ بَيَّنَّ شُبْحَانَهُ وَجْهَ تَرْجِيحِ مَسْجِدِ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ مُؤْمِنُونَ ﴿يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ مِنَ الْأَقْدَارِ الْجِسْمَانِيَّةِ: كَالْبَوْلِ وَالْغَائِطِ، بِالْمَاءِ وَالْأَحْجَارِ، وَمِنَ الْأَقْدَارِ الرُّوحَانِيَّةِ: كَالذُّنُوبِ وَالْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَأَدْنَسَ الشَّكِّ وَالشَّرْكِ، بِالتَّوْبَةِ وَالرِّيَاضَةِ، وَالْجِدِّ فِي الْقِيَامِ بِوِظَائِفِ الْعِبَادَةِ ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ وَيُحِيطُ بِهِمْ فَضْلُهُ وَرَحْمَتُهُ.

رُوي أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، مَشَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ الْمُهَاجِرُونَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى بَابِ مَسْجِدِ قُبَا، فَإِذَا الْأَنْصَارُ جُلُوسٌ، فَقَالَ: مُؤْمِنُونَ أَنْتُمْ؟ فَسَكَتَ الْقَوْمُ، ثُمَّ أَعَادَهَا، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ لِمُؤْمِنُونَ، وَأَنَا مَعَهُمْ، فَقَالَ: أَتَرْضَوْنَ بَقْضَاءَ اللَّهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: أَتَصْبِرُونَ عَلَى الْبَلَاءِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: أَتَشْكُرُونَ فِي الرِّخَاءِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ ﷺ: مُؤْمِنُونَ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ. ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، إِنَّ اللَّهَ أَثْنَى عَلَيْكُمْ، فَمَا الَّذِي تَصْنَعُونَ فِي الْوُضُوءِ؟ قَالُوا: نَتَّبِعُ الْمَاءَ الْحَجَرَ، فَقَرَأَ النَّبِيُّ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا...﴾ الْآيَةَ^٥.

وَعَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «هُوَ الْاسْتِنْجَاءُ بِالْمَاءِ»^٦.

وَعَنِ الْبَاقِرِ وَالصَّادِقِ عليه السلام: «يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا»: بِالْمَاءِ عَنِ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ^٧.

وَرُوي أَنَّ أَوَّلَ مَنْ اسْتَنْجَى بِالْمَاءِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام^٨.

١. تفسير روح البيان ٣: ٥٠٤. ٢. تفسير الرازي ١٦: ١٩٥.

٣. جوامع الجامع: ١٨٦، تفسير روح البيان ٣: ٥٠٧. ٤. تفسير الرازي ١٦: ١٩٥.

٥. تفسير الرازي ١٦: ١٩٦، تفسير البيضاوي ١: ٤٢١، تفسير روح البيان ٣: ٥٠٨.

٦. تفسير العياشي ٢: ٢٦٣/١٩٠٦، تفسير الصافي ٢: ٣٧٩.

٧. مجمع البيان ٥: ١١١، تفسير الصافي ٢: ٣٧٩. ٨. تفسير روح البيان ٣: ٥٠٨.

أَفَمَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارٍ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [١٠٩]

ثم أنكر سبحانه اعتقاد التساوي بين مسجد قبا ومسجد ضرار، أو فضيلة الثاني على الأول تنبيهاً على فضيلة الأول على الثاني بقوله: ﴿أَفَمَنْ﴾ والتقدير: أبعد ما علم حال المتقين، فمن ﴿أَسَسَ﴾ وأحكم قواعد دينه ومسجده و﴿بُنْيَانَهُ﴾ بوضعه ﴿عَلَى تَقْوَىٰ﴾ وخوف ﴿مِنْ أَقَرٍ﴾ في مخالفته ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ عظيم منه بالاستيغال بطاعته ﴿خَيْرٍ﴾ وأفضل ﴿أَمْ مَنْ أَسَسَ﴾ ووضع أساس دينه ومسجده و﴿بُنْيَانَهُ عَلَى﴾ الباطل الذي هو مثل ﴿شَفَا جُرُفٍ﴾ وسفير طين مجتمع في طرف السيل ﴿هَارٍ﴾ ومشرّف على السقوط، في عَدَم الثبات ﴿فَانْهَارٍ﴾ وأهوى باطل الشبطل، وينفاق المنافق ﴿بِهِ﴾ بعد موته بسرعة ﴿فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾؟ وحاصل المراد، والله أعلم: أن البناء الذي كان بغرض التقوى والخوف من الله، وبقصد تحصيل مرضاته لازم الإبقاء، ولبانيه الفضيلة، والذي كان بغرض الكفر والنفاق لازم الهدم، ولبانيه النار والعقاب ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ ولا يوصل إلى النجاة والنجاح والخير والصلاح ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بمعصية الله والكفر والنفاق.

لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [١١٠]

ثم بين الله سبحانه ضرر بناء مسجد ضرار على أنفس المنافقين بقوله: ﴿لَا يَزَالُ﴾ ويكون دائماً ﴿بُنْيَانُهُمْ﴾ ومسجدهم ﴿الَّذِي بَنَوْا﴾ ضراراً على أنفسهم، لأنه زاد ﴿رِيبَةً﴾ وشكاً ثابتاً ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ حالاً بعد حال، لا خلاص لهم منه ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قطعاً، وتنفق أجزاءهم تفرقاً بحيث لا يبقى لها قابلية إدراك وإضمار، أو قابلية حياة، فما دامت قلوبهم سالمة لا تخلو من الريب. قيل: إن المنافقين عظم فرحهم ببناء المسجد، فلما أمر الرسول ﷺ بتخريبه ثقل ذلك عليهم، وازداد بغضهم له وارتبابهم في نبوته ﷺ.

وقيل: إن الرسول ﷺ لما أمر بتخريب المسجد، ظنوا أنه لأجل الحسد، فارتفع أمانيهم عنه، وعظم خوفهم منه، وصاروا ثرثابين في أنه هل يتركهم أو يقتلهم ويأثر بهم أموالهم.^٣ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يفقههم وشؤون ضمائرهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره بتخريب مسجدهم.

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَغَدَاً عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [١١١]

ثم أنه تعالى بعد بيان تخلّف المنافقين عن الغزو، وإصرارهم على القعود عن الجهاد، وتدبيرهم في تخريب الاسلام ودمهم على ذلك، بين فضيلة المؤمنين الخالص^١، ورغبتهم في الجهاد بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الخالص^٢ ببيعتهم ومعاهدتهم مع الرسول ﷺ على نصرته ﴿أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ كي يبذلوهما في تقوية الاسلام وترويجه، وحفظ الرسول ﷺ ونصرته ﴿بِأَنْ لَهُمْ﴾ بالاستحقاق في الآخرة ﴿الْجَنَّةُ﴾ ونعمها أبداً، فهم وفاء بهذه المعاملة والمبايعة ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ الكفار والمشركين، ويبدلون أموالهم وأنفسهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطلباً لمراضاته ﴿فَيُقْتَلُونَ﴾ أعداءه ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ في نصرة رسوله وحماية دينه.

قيل: لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة الثانية بمكة وهم سبعون - أو أربعة وسبعون - نفساً قال عبد الله بن رواحة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت؟ فقال ﷺ: «اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشرکوا به شيئاً، ولنفسي أن تمنعوني ما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك، فماذا لنا؟ قال: «الجنة»، قالوا: ربح البيع لا تقبل ولا نستقبل، فنزلت^٣.

وفي التعبير عن الأمر بالجهاد باشرائه أنفسهم وأموالهم؛ مع كونه تعالى مالکهما، غاية التلطّف في الدعوة إليه، والتحريض عليه، وإشارة إلى أن المؤمن مادام كونه متعلق القلب بحياته وماله، امتنع وصوله إلى الدرجات العالية من القرب والنعم الأخروية.

ثم أكد سبحانه وعده بالجنة بقوله: ﴿وَعَدَاً﴾ واجب الوفاء ﴿عَلَيْهِ﴾ تعالى وفي عهده ﴿حَقّاً﴾ وثابتاً بحيث لا يمكن تخلّفه عنه وترك وفائه به.

ثم لما كان من لوازم البيع الذي يكون ثمنه مؤجلاً أن يكتب في كتاب، أخبر سبحانه عن الكتاب الذي كتب هذا البيع فيه بقوله: ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ والتقدير: أنه يثبت فيهما ﴿وَفِي الْقُرْآنِ﴾.

وقيل: إن المراد أنه تعالى ذكر في التوراة والإنجيل أنه اشترى من أمة محمد ﷺ أنفسهم وأموالهم،

بأن لهم الجنة، كما بين ذلك في القرآن^١.

وعلى التفسير الأول تكون الآية دليلاً على ثبوت الأمر بالجهاد في الشريعتين السابقتين على الاسلام.

ثم أكد سبحانه وجوب وفائه بهذا العهد بقوله: ﴿وَمَنْ يَكُنْ﴾ «أَوْفَى» وأعمل ﴿يَعْقِدِهِ مِنْ أَفْهِ﴾ والذات المتصف بالالوهية: مع كون الحكمة والعدل المقتضيين للوفاء بالعهد، وامتناع التخلف عنه عيبتها، فإذا كان الأمر كذلك يمتنع أن يساويه أحد في الوفاء فضلاً عن أن يكون أوفى منه، إذن ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ وافرحوا غاية الفرح أيها المؤمنون ﴿بِبَيْعِكُمْ﴾ أنفسكم وأموالكم من الله بالجنة، وقيل: أي بالثمن^٢ ﴿الَّذِي بَايَعْتُمْ﴾ أنفسكم وأموالكم ﴿بِهِ﴾ وفيه غاية التقرير للبيع، وإشعاراً بغاية الربح فيه، حيث إنه مبادلة الفاني بالباقي، والزائل بالدائم، مع كون البدلين له تعالى.

ثم قرّر ذلك بقوله: ﴿وَذَلِكَ﴾ البيع ﴿هُوَ الْقَفْزُ الْعَظِيمُ﴾ والتجاح الأكمل بأعلى المقاصد. روى الخضر الرازي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا يبيعوها إلا بها»^٣. وروى بعض العامة عنه عليه السلام أنه كان يقول: «يا بن آدم اعرف قدر نفسك، فإن الله عرفك قدرك، لم يرض أن يكون لك ثمن إلا الجنة»^٤.

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ [١١٢]

ثم عرّف سبحانه المؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم من الله بقوله: ﴿التَّائِبُونَ﴾ من الشرك - كما عن ابن عباس، أو منه ومن الثفاق؛ كما عن بعض، أو من كلّ معصية؛ كما عن آخرين^٥ - و ﴿الْعَابِدُونَ﴾ لله المثلّمون له في السراء والضراء - وعن ابن عباس: الذين يرون عبادة الله واجبة عليهم^٦ - و ﴿الْحَامِدُونَ﴾ له على كلّ حال، الشاكرون لنعمانه الدنيوية والأخروية، و ﴿السَّائِحُونَ﴾ وهم الصائمون - كما عن ابن عباس^٧، أو الطالبون للعلم، الساترون في الأرض لطلبه؛ كما عن عكرمة^٨، أو المجاهدون والمهاجرون؛ كما عن بعض^٩ - و ﴿الرَّاكِعُونَ﴾ لله ﴿السَّاجِدُونَ﴾ له؛ وهم

٢. تفسير مجمع البيان ٥: ١١٤.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٥١٣.

٧ و ٦. تفسير الرازي ١٦: ٢٠٣.

٩. تفسير الرازي ١٦: ٢٠٤.

١. تفسير الرازي ١٦: ٢٠١.

٣. تفسير الرازي ١٦: ١٩٩.

٥. تفسير الرازي ١٦: ٢٠٢.

٨. تفسير الرازي ١٦: ٢٠٤، تفسير روح البيان ٣: ٥١٩.

الحافظون للصلاة، المديون عليها، و ﴿الْأَمْرُؤَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ من الإيمان بالله والرسول وطاعتها
﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ من الشر والكتمان والعصيان ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ من تكليفه وأحكامه،
المراعون لها، المجدون في العمل بها.

ثم أنه تعالى بعد أمره المؤمنين بالاستيثار في الآية السابقة، أمر نبيه ﷺ بإبشارتهم بأعلى
المتوبات بقوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمد ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِنِوَابٍ يَجَلُّ عَنْ إِحَاطَةِ الْأَفْهَامِ بِهِ، وَيُلَوِّغُ الْأَوْهَامَ
إِلَيْهِ، وَالتَّعْبِيرُ بِالْكَلَامِ عَنْهُ.

عن الصادق عليه السلام: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، يَعْنِي ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إِلَى آخِرِهِ، قَامَ رَجُلٌ
إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَأْخُذُ اللَّهُ سَيْفَهُ فَيُقَاتِلُ حَتَّى يَمُوتَ، إِلَّا أَنَّهُ يَقْتَرِفُ مِنْ هَذِهِ
الْمَحَارِمِ، أَشْهِيْدُ هُوَ؟ فَانْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ الْآيَةَ، فَبَشَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُجَاهِدِينَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هَذِهِ صِفَتُهُمْ وَحِلْيَتُهُمْ بِالشَّهَادَةِ وَالْجَنَّةِ».

وقال عليه السلام: ﴿التَّائِبُونَ﴾ مِنَ الذُّنُوبِ، ﴿الْعَابِدُونَ﴾ الَّذِينَ لَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئاً،
﴿الْحَامِدُونَ﴾ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي الشِّدَّةِ وَالرِّخَاءِ ﴿السَّائِحُونَ﴾ الصَّائِمُونَ
﴿الزَّائِكُونَ السَّاجِدُونَ﴾ الَّذِينَ يُؤَاطِبُونَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، الْحَافِظُونَ لَهَا، وَالْحَافِظُونَ عَلَيْهَا
بِرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا، وَالْخُشُوعِ فِيهَا، وَفِي أَوْقَاتِهَا ﴿الْأَمْرُؤَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بَعْدَ ذَلِكَ، وَالْعَامِلُونَ بِهِ،
﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وَالْمُتَّهِنُونَ عَنْهُ. قَالَ: فَبَشَّرَ مَنْ قَتَلَ وَهُوَ قَائِمٌ بِهَذِهِ الشُّرُوطِ بِالشَّهَادَةِ
وَالْجَنَّةِ^١.

عن العياشي قال: «هُمُ الْأَنْمَةُ»^٢.

وعن القمي قال: نزلت الآية في الأنمة عليه السلام، لأنه وصفهم بصفة لا تجوز في غيرهم، فالأمرون
بالمعروف هم الذين يعرفون المعروف كله، صغيره وكبيره، والناهون عن المنكر هم الذين يعرفون
المنكر كله، صغيره وكبيره، والحافظون لحدود الله هم الذين يعرفون حدود الله، صغيرها وكبيرها،
دقيقها وجليلها، ولا يجوز أن يكون بهذه الصفة غير الأنمة عليه السلام^٣.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ
بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ أَسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا

٢. تفسير العياشي ٢: ١٩١١/٢٦٥، تفسير الصافي ٢: ٣٨١.

١. الكافي ٥: ١١/١٥، تفسير الصافي ٢: ٣٨١.

٣. تفسير القمي ١: ٣٠٦، تفسير الصافي ٢: ٣٨١.

عَنْ مُوعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ
* وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ [١١٣-١١٥]

ثم أنه تعالى بعد الأمر بالتبري عن المشركين، والتأكيد من أول السورة إلى هنا في إظهار عداوتهم والقتال معهم، وبيان عدم فائدة الاستغفار لهم، نهى النبي ﷺ والمؤمنين عن الاستغفار لهم، وإن كانوا أقرب الناس إليهم: بقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ يصحح ﴿لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولا يستقيم لهم في حكمة الله وحكمه ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ المتجاهرين منهم بالشرك، أو المنافقين ﴿وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ﴾ ومتسبين إليهم بالولادة أو المصاهرة ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ وظهر ﴿لَهُمْ﴾ بسبب إصرارهم على الشرك وموتهم عليه ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وأهل النار.

روى الفخر الرازي عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنه سمع رجلاً يستغفر لأبويه المشركين، قال: «افعلتُ له: أتستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: أليس استغفر إبراهيم لأبويه وهما مشركان؟ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية: ^١ ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ ناشئاً عن سبب من الأسباب ^٢ ﴿إِلَّا عَنِ مُوعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾.

قيل: إن إبراهيم كان يرجو إيمان آزر، ولذا وعده أن يستغفر له بقوله: ^٣ ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾، وقوله: ^٤ ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾ لإبراهيم وظهر ﴿لَهُ﴾ بأن رآه مصراً على الشرك ﴿أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ ولا يؤمن به أبداً ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وتنزه عن الاستغفار له.

عن الصادق عليه السلام أنه قال: «ما يقول الناس في قول الله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مُوعِدَةٍ﴾؟ فقيل: يقولون: إن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له، قال: ليس هو هكذا، إن أبا إبراهيم وعده أن يسلم فاستغفر له ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ ^٥.

وفي رواية: «لما مات تبين له أنه عدو لله فلم يستغفر له» ^٥.

وعن القمي عليه السلام: إن إبراهيم عليه السلام قال لأبيه: إن لم تعبد الأصنام استغفرت لك، فلما لم يدع الأصنام

١. تفسير الرازي ١٦: ٢٠٩. ٢. سورة مريم: ٤٧/١٩.

٣. تفسير روح البیان ٣: ٥٢٢، والآية من سورة الممتحنة: ٤/٦٠.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٩١٥/٢٦٦، تفسير الصافي ٢: ٣٨٢.

٥. تفسير العياشي ٢: ١٩١٧/٢٦٦، تفسير الصافي ٢: ٣٨٢.

تبراً منه^١.

أقول: لا منافاة بين التفسيرين لجواز وقوع كلا الزعدين.

ثم بين سبحانه علة استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ وكثير النجوع على خلق الله، وشديد الرأفة والشفقة على الناس ﴿حَلِيمٌ﴾ وصبور على أذاهم، ولذا كان يحلم على أذى أبيه و يترحم له، فيستغفر له.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «الأوَّاه الخاشع المتضرع»^٢. وفي رواية أخرى قال: «الدعاء»^٣.

وقيل: معناه أنه كلما ذكر لنفسه تقصيراً، أو ذكر عنده شيء من شدائد الآخرة كان يتأوه إشفاقاً منه، واستعظماً له^٤. وعليه يكون قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ علة للتبري من أبيه، والمعنى: أنه مع كونه بهذه الصفات، غلط قلبه عليه، وتبراً منه بعدما ظهر إصراره على الشرك، فأنتم أولى بذلك.

ثم قيل: إن المؤمنين لما خافوا على أنفسهم من استغفارهم لأبائهم وأقربائهم ممن مات على الكفر قبل نزول الآية، وعلى المسلمين الذين ماتوا وكانوا في حياتهم يستغفرون للمشركين^٥، أزال الله خوفهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ وليس من شأنه ومقتضى حكمته وعدله ﴿لِيُضِلَّ﴾ ويصرف عن طريق الجنة ﴿قَوْماً﴾ من الأقوام، ويأخذ بالعذاب طائفة من الناس ﴿يَعْتَدُ إِذْ هَذَاهُمْ﴾ للإسلام ووقفهم لقبوله ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ﴾ ويوضح ﴿لَهُمْ﴾ بتوسط الرسول الباطن، أو الرسول الظاهر ﴿مَا يَتَّقُونَ﴾ ويحترزون عنه من المحرمات - وعن الصادق عليه السلام قال: «ما يرضيه ويُسخره»^٦ - فلا عقوبة من الله إلا بعد إعلامهم بتكليفه، وإزالة الغدر عنهم، فإن العقوبة بلا بيان - مع كون الجاهل عن قصور الجاهل عذراً عقلياً - من الجهل، ومن البين ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

في الاستدلال على البراءة في مشكوك الوجوب والحرمة
فالآية دالة على أن الأصل في مشكوك الوجوب والحرمة البراءة. والجواب عنه بأنه - بعد دلالة الأدلة المتعبرة على وجوب الاحتياط عند الشك في الحرمة، لا يكون العقاب عليه عقاباً بلا بيان - فاسد، بأنه مبني على كون وجوب الاحتياط نفسياً، وأما

مع كونه مقدِّماً علمياً ناشئاً عن تنجز الواقع المجهول، فالعقاب يكون على الواقع المجهول الذي تنفي الآية صحته، ويحكم العقل أيضاً ببقائه.

وما قيل من أن الإضلال غير العقوبة فلا ربط للآية بالبراءة المتنازع فيها. ففيه: أن الملاك واحد إن

١. تفسير القمي ٣: ٦١، تفسير الصافي ٢: ٣٨٢. ٢. تفسير الرازي ١٦: ٢١١.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٥٢٢. ٤. تفسير الرازي ١٦: ٢١٢.

٥. تفسير العياشي ٢: ٢٦٧/١٩١٩، الكافي ١: ٣/١٢٤، تفسير الصافي ٢: ٣٨٣.

لَمْ نَقُلْ بِالْأُولَوِيَّةِ، فَلَا بَدَّ مِنْ حَمَلِ مَا دَلَّ عَلَى وُجُوبِ الْإِحْتِيَاظِ فِي الْمَقَامِ عَلَى الْاسْتِحْبَابِ، أَوْ عَلَى الْخُرْمَةِ الْمَعْلُومَةِ بِالْإِجْمَالِ.

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخَيِّى وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ

وَلِيِّ وَلَا نَصِيرٍ [١١٦]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ ارْتِكَابُ الْقَبِيحِ مِنَ الْعَالِمِ بِالْفَحْشِ قَدْ يَكُونُ لِأَجْلِ الْحَاجَةِ، نَفَاها عَنْ نَفْسِهِ بِإِثْبَاتِ سَعَةِ مُلْكِهِ، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فَلَا حَاجَةَ لَهُ إِلَى شَيْءٍ، وَ ﴿يُخَيِّى﴾ بِقُدْرَتِهِ الْمَوْتِ ﴿وَيُمِيتُ﴾ الْأَحْيَاءِ، فَلَيْسَ لَهُ عَجْزٌ عَنْ تَحْصِيلِ مُرَادِهِ.

ثُمَّ اسْتَدَلَّ عَلَى عَدَمِ إِمْكَانِ صُدُورِ الْعِقَابِ مِنْهُ بِإِثْبَاتِ بَغَايَةِ لُطْفِهِ بِعِبَادِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ أَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي عَالَمِ الْمَوْجُودِ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وَمِمَّا سِوَاهِ ﴿مِنْ وَلِيِّ﴾ وَحَافِظِ صَلَاحِكُمْ ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ دَافِعٍ لِلْمَضَارِّ عَنْكُمْ.

وَقِيلَ: إِنَّهُ قَالَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: لَمَّا أَمَرْتَنَا بِالْإِنْقِطَاعِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فَلَا يُمْكِنُنَا مُخَالَطَةُ آبَائِنَا وَأَبْنَائِنَا؛ لِأَنَّهُ زُبْعًا كَانَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ كَافِرِينَ، فَسَلَّى شُبْحَانَهُ قُلُوبَهُمْ: بِأَنَّكُمْ إِنْ صِرْتُمْ مَحْرُومِينَ عَنْ مُعَاوَنَتِهِمْ وَنَصْرَتِهِمْ، فَالْإِلَهَ الَّذِي هُوَ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالْمَحْيِ وَالْمَمِيتِ، نَاصِرُكُمْ وَوَلِيُّكُمْ، فَلَا يَصْرُكُمْ الْإِنْقِطَاعُ عَنْهُمْ^١.

أَوْ الْمُرَادُ: أَنَّكُمْ لَا تَخَافُوا مِنْ ضَرَرِ الْكُفَّارِ بِالتَّبَرُّيِّ مِنْهُمْ، فَإِنَّ مَالِكََ عَالَمِ الْوُجُودِ؛ الْقَادِرَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، هُوَ نَاصِرُكُمْ وَوَلِيُّكُمْ، فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى إِضْرَارِكُمْ. وَعَلَى أَيْ تَقْدِيرِ، فَالْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى كَمَالِ لُطْفِهِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ

الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ قَرِيبٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ

رَحِيمٌ [١١٧]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى أَظْهَرَ غَايَةَ لُطْفِهِ بِخُصُوصِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ، ضَامًّا لِلنَّبِيِّ الْمَعْصُومِ عَنْ كُلِّ ذَنْبٍ بِهِمْ، تَعْظِيمًا لَهُمْ، وَطَبِيبًا لِقُلُوبِهِمْ؛ بِقَوْلِهِ، ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾، قِيلَ: إِنَّ نُكْتَةَ ضَمِّ النَّبِيِّ بِهِمْ، أَنَّ قَبُولَ التَّوْبَةِ فَضَّلَ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ الْمَخْصُوصَةَ بِهِ، وَكُلَّ فَضْلٍ

ورحمة ونعمة يُريد إيصالها إلى العباد لئلا يبد من أن يكون عبورها على ولاية النبوة، ثم يفيض منها على المهاجرين والأنصار وسائر الأمة^١.

أقول: ولعله لتلك الكثرة والحكمة يستحب الابتداء بالصلاة على النبي ﷺ عند طلب الحاجة من الله تعالى، وعليه يحمل ما روي عن الصادق عليه السلام، والرضا عليه السلام من أنهما قرءا: (لقد تاب الله بالنبي ﷺ على المهاجرين والأنصار)^٢، وما في ذيل رواية أبان بن تغلب، عن الصادق عليه السلام من قوله: «إنما تاب الله به على أمته»^٣.

ثم وصف الله المهاجرين والأنصار بما يوجب قبول توبتهم، وإنزال الرحمة عليهم بقوله: ﴿الَّذِينَ أَتَّبَعُوهُ﴾ وخرجوا معه ﴿فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ﴾ ونصروه في زمان الشدة - وهو غزوة تبوك - فإنه قد أصابهم فيها مشقة عظيمة من شدة الحر وقلة المركب؛ حتى روي أنه كانت العشرة تعتقب على بعير واحد، ومن قلة الزاد؛ حتى روي أنه ربما مَصَّ التمرة الواحدة جماعة يتناوبونها حتى لا يبقى منها إلا النواة، وكان معهم شيء من شعير مسوس، فكان إذا وضع أحدهم اللقمة في فيه أخذ أنفه من ثخن تلك اللقمة، ومن قلة الماء^٤.

نسي ذكر بعض روي أن عمر قال: خرجنا في قَيْظٍ شديد، وأصابنا فيه عطش شديد، حتى [أن] المتخلفين في غزوة تبوك عن النبي ﷺ الرجل لينخر بعيره فيعصر قوته ويشربه^٥.

عن الثممي رحمه الله: هم أبو ذر، وأبو خيثمة، وعمر بن وهب، الذين تخلفوا ثم لحقوا برسول الله ﷺ^٦.

قال: وتخلف عن رسول الله ﷺ قوم من أهل نيات^٧ وبصائر، لم يكن يلحقهم شك ولا إرباب، ولكنهم قالوا: نلحق برسول الله، منهم أبو خيثمة وكان قويا، وكان له زوجتان وعريشان^٨، وكانت زوجته قد رشتا عريشيه [وبردتا له الماء، وهيتتا له طعاما، فأشرف على عريشيه، فلما نظر إليهما] قال: والله، ما هذا بإنصاف، فإن رسول الله مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قد خرج في الصخ^٩ والريح، وقد حمل السلاح يجاهد في سبيل الله، وأبو خيثمة قوي قاعد في عريشيه مع

١. تفسير روح البيان ٣: ٥٢٥.

٢. مجمع البيان ٥: ١٢٠، الاحتجاج: ٧٦، تفسير الصافي ٢: ٣٨٣.

٣. الاحتجاج: ٧٦، تفسير الصافي ٢: ٣٨٤.

٤. تفسير الرازي ١٦: ٢١٥.

٥. تفسير الرازي ١٦: ٢١٥.

٦. تفسير القمي ١: ٢٩٧، تفسير الصافي ٢: ٣٨٤.

٧. في المصدر: نيات. ٨. القريش: كل ما يستظل به، وفي المصدر: عريشان، والعريشة: الهودج.

٩. الصخ: وهو الصوت الشديد يقرع السمع، وهو صوت قزع الصخرة، وقرب الحديد على الحديد.

امراتين حسناوين، لا والله ما هذا بإنصاف. ثم أخذ ناقته فشَدَّ عليها رَحْلَهُ فلَجِقَ برسول الله ﷺ، فَنظر النَّاسُ إلى رَاكِبٍ على الطريق، فأخبروا رسول الله، فقال ﷺ: «كُنْ أبا خَيْشَمَةَ»، فكان أبا خَيْشَمَةَ، فأقبل وأخبر النبي ﷺ بما كان [منه]، فجزاه خيراً ودعا له.

وكان أبو ذَرٍّ تَخَلَّفَ عن رسول الله ثلاثة أيام، وذلك أن جَمَلَهُ كان أعجف^١، ووقف عليه في بعض الطَّرِيقِ، فتركه وحمل ثيابه على ظهره، فلَجِقَ برسول الله ﷺ بعد ثلاثة أيام، فلَمَّا ارتفع النَّهَارُ ونظر المسلمون إلى شخص مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «كن أباذر»، فقالوا: هو أبو ذر، فقال رسول الله: «أدركوه بالماء فإنه عطشان»، فأدركوه بالماء، فوافى [أبو ذر] رسول الله ﷺ ومعه إداوة^٢ فيها ماء، فقال رسول الله ﷺ: «يا أباذر، مَعَكَ ماء وعطِشْتَ؟»، قال: نعم يا رسول الله، بأبي أنت وأُمِّي، انتهيتُ إلى صخرة وعليها ماء السماء فدَقَقْتُهُ، فإذا هو عَذِبٌ باردٌ، فقلت: لا أشربه حتَّى يشربَه حبيبي رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «يا أباذر، رَحِمَكَ الله، تعيش وحدك، وتموت وحدك، وثبتت وحدك، وتدخل الجنة وحدك، يسعد بك قوم من العراق يتولون عُشْلَكَ وتجهيزك [والصلاة عليك] ودَفَنَكَ»^٣.

أقول: هؤلاء وإن تَخَلَّفوا عن رسول الله ﷺ إلا أنَّ الظاهر أنَّهم لم يكونوا من أهل الذَّنْبِ الذي أخبر الله عنه بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ وَقَرَّبَ﴾ **يَزِيدُ** وَيُمِيلُ **قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ**، عن الثَّبَاتِ مَعَ الرُّسُولِ ﷺ، بأن همُّوا بالانصراف من الغزو بغير استئذان، لشدائد أصابتهم في ذلك السَّفرِ، فعَصَمَهُمُ الله فصبروا وندموا على ما خَطَرَ ببالهم.

قيل: إنَّه تعالى بشر بقول توبتهم قبل ذكر ذنوبهم تطيباً لقلوبهم^٤.

وقيل: لم يهَمُّوا بالرجوع، وإنَّما خَطَرَ في قلوبهم، فخافوا أن يكون معصية^٥.

ثم أكَّد الله الإشارة بقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ الله **عَلَيْهِمْ**، لِئَلَّا يَبْقَى في قلوبهم شَكٌّ في قَبُولِ توبتهم. ثم بالغ سبحانه في التأكيد بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى **بِهِمْ رَوْوْفٌ**، لا يرضى بضررهم، ولا اضطراب قلوبهم **رَحِيمٌ** بهم بإيصال جميع الخيرات إليهم.

رُوي أنَّ الأصحاب شَكُّوا إلى النبي ﷺ عُسرة الماء [في غزوة تبوك] فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنَّ الله تعالى عودك في الدُّعاء خيراً، فادْعُ لَنَا، قال: «أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟» قال: نعم، فرفع يديه، فلم يرجعهما حتَّى أرسل الله سحابةً، فمَطَرَتْ حتَّى ارتوى النَّاسُ، واحتملوا ما يحتاجون إليه، وتلك السَّحابة لم

١. الأعجف: الهزيل. ٢. الإداوة: الإناء الصغير لحمل الماء.

٣. تفسير القمي ١: ٢٩٤، تفسير الصافي ٢: ٣٨٤. ٤ و ٥. تفسير الرازي ١٦: ٢١٦.

تتجاوز العسكر^١.

ورؤي أنهم نزلوا يوماً في غزوة تبوك بقلادة من الأرض على غير ماء، وكادت عتاق الخيل والركاب تقع عطشاً فدعا ﷺ وقال: «أين صاحب الميضة؟»^٢ قيل: هوذا يا رسول الله، قال: «جنني بميضاك، فجاء بها وفيها شيء من الماء، فوضع أصابعه الشريفة عليها فنبع الماء من أصابعه العشرة، فأقبل الناس واستقوا، وفاض الماء حتى زروا ورووا خيلهم وركابهم، وكان في العسكر من الخيل اثني عشر ألفاً، ومن الإبل خمسة عشر ألف بعير، والناس ثلاثون ألف وقيل: سبعون^٣.

ورؤي أنهم لما أصابهم في غزوة تبوك مجاعة، قالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا نحرنا نواضحناء وركابنا واذهناء، فقال عمر: يا رسول الله، إن فعلت فنى الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، وادعوا الله لهم فيها بالبركة، لعل الله أن يجعلها في ذلك، فقال ﷺ: «نعم» فدعا ببطع^٤ فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يأتي بكف من ذرة، ويحيى الآخر بكف من تمر، ويحيى الآخر بميرة، حتى اجتمع على النطح من ذلك شيء يسير، فدعا ﷺ بالبركة.

ثم قال: «خذوا في أوعيتكم»، فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوه، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة فقال ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بها عبد غير شاك إلا وقاه النار»^٥.

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ
وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ
لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [١١٨]

ثم عطف سبحانه على قبول توبة عموم المهاجرين والأنصار قبول توبة الثلاثة الذين كانوا مارجون لأمره بقوله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ عن رسول الله وأقاموا بالمدينة؛ وهم كعب بن مالك الشاعر، ومرة^٦ بن الزبيع العبيري، وهلال بن أمية.

قيل: كان لأحدهم أرض ثمنها مائة ألف درهم، فقال: يا أرضاه، ما خلقتني عن رسول الله إلا أمرتك، اذهبي فانت في سبيل الله، فلا كابدن المفاوز حتى أصل إلى رسول الله ففعل. وكان للثاني أهل، فقال:

٢. الميضة: إناء يتوضأ به.

١. تفسير روح البيان ٣: ٥٢٩.

٤. التواضع: جمع ناضع، وهو البعير يستقى عليه.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٥٢٦.

٦. تفسير روح البيان ٣: ٥٢٦.

٥. النطح: البساط من جلد.

٧. في النسخة: زارة، وما أثبتناه موافق للمصدرين الآتين، وراجع: اسد الغابة ٤: ٣٤٣.

يا أهلاه، ما خلفني عن رسول الله إلا أمرٌك ولأكابدن المفاوز حتى أصل إليه وفعل. والثالث ما كان له أهل ولا مال، فقال: ما لي سبب إلا الصن بالحياء، والله لأكابدن المفاوز حتى أصل إلى رسول الله، فلجئوا بالرسول، فأنزل الله ﴿وَأَخْرَجُوا مُزَجَّوْنَ لَأَمْرِ اللَّهِ﴾^١.

وأخر قبول توبتهم ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ ومع سعتها؛ لأنهم بسبب إعراض النبي ﷺ والمؤمنين عنهم، صاروا بحيث كأنهم لم يجدوا فيها موضع قرار. وضيق الأرض كناية عن شدة الحيرة والوخشة.

وقيل: إنهم لم يلحقوا بالنبي ﷺ، فهي ﷺ عن مجالستهم ومكالمتهم، وأمر بمبايحتهم حتى أمر نساءهم بذلك، فضاقت عليهم الأرض^٢ ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ﴾ وامتلاذت قلوبهم بالوخشة والعَمَ بحيث لم يبق لهم فيها ما يسع شيئاً من الراحة والسرور، ولخوفهم من الله ومن أن يموتوا ولا يُصلي عليهم النبي والمؤمنون - وقيل: جاءت امرأة هلال إلى النبي ﷺ وقالت: يا رسول الله، لقد بكى هلال حتى خِفْتُ على بصره^٣.

قيل: كانوا على تلك الحالة خمسون يوماً^٤ ﴿وَوَظَّنُوا﴾ واطمأنوا ﴿أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾ ومن سخطه ﴿إِلَّا إِلَيْهِ﴾ ولا مخلص من نعمته إلا الاستغفار والتضرع لذته.

ثم أكد سبحانه قبول توبتهم بقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بفضله ﴿لِيَتُوبُوا﴾ ويرجعوا إلى حالتهم السابقة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ على المذنبين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالتائبين ولو عادوا في اليوم مائة مرة. عن القمي قال: تخلف عن رسول الله ﷺ قوم من المنافقين، وقوم من المؤمنين المستبصرين لم يُعثر عليهم في بفاق؛ منهم كعب بن مالك الشاعر، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية الواقفي، فلما تاب الله عليهم.

قال كعب: ما كنت قط أقوى مني في الوقت الذي خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وما اجتمعت لي راحلتان إلا ذلك اليوم^٥، فكنث أقول: أخرج غداً، أخرج بعد غد، فإني قوي وتوأيبت وبقيت بعد خروج النبي ﷺ أياماً أدخل السوق ولا أقضي حاجة، فليقت هلال بن أمية ومُرارة بن الربيع، وقد كانا تخلفاً أيضاً، فتوافقنا أن نُبكر إلى السوق ولم نقض [حاجة]، فمازلنا نقول: نخرج غداً وبعد غد، حتى بلغنا إقبال رسول الله ﷺ فندمنا.

فلما وافى رسول الله ﷺ واستقبلناه نهته بالسلامة، فسلمنا عليه فلم يؤد علينا السلام فأعرض

١. تفسير الرازي ١٦: ٢١٧، تفسير روح البيان ٣: ٥٢٨.

٥. في النسخة: إلى ذلك اليوم.

٢. تفسير الرازي ١٦: ٢١٨.

عنا، وسَلَّمنا على إخواننا فلم يَرُدُّوا علينا السَّلام، فبلغ ذلك أهلينا فقطعوا كلامنا، وكُنَّا نحضِّر المسجد فلم يَسَلِّمْ علينا أحدٌ ولا يُكَلِّمنا، فجاءت نساؤنا إلى رسول الله ﷺ فقُلن: قد بلغنا سَخَطُكَ على أزواجنا، أفنعتِرُ لهنَّ؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تعتِرُنَّهِنَّ، ولكن لا يَتَرَبَّوْكُنَّ».

فلَمَّا رَأى كعب بن مالك وصاحبه ما قد حَلَّ بهم قالوا: ما يُعَدُّنا بالمدينة ولا يُكَلِّمنا رسول الله ولا إخواننا ولا أهلونا، فهَلَمُّوا نَخْرُجْ إلى هذا الجَبَل، فلا نزال فيه حتَّى يثُوبَ الله علينا أو نموت، فخرَجوا إلى ذِئاب^١ جَبَل بالمدينة، فكانوا يصومون، وكان أهلهم يأتونهم بالطعام فيضعونه ناحية ثم يُولُون عنهم لا يُكَلِّمُونهم، فبقُوا على هذه الحالة أياماً كثيرة، يكون بالليل والنَّهار، ويدعون الله أن يغفر لهم، فلمَّا طال عليهم الأمر قال كعب: يا قوم، قد سَخِطَ الله علينا، ورسوله قد سَخِطَ علينا، وإخواننا سَخِطوا علينا، وأهلونا سَخِطوا علينا فلا يُكَلِّمنا أحدٌ، فلم لا يَسَخِطَ بعضُنا على بعضٍ، فنفرَقوا في اللَّيْلِ، وحلَفُوا أن لا يُكَلِّمَ أحدٌ [منهم] صاحبه حتَّى يموت أو يثُوبَ الله عليه، فبقُوا على هذه الحالة ثلاثة أيام، كُلٌّ [واحد] منهم في ناحية من الجبل، لا يرى أحدٌ منهم صاحبه ولا يكلمه.

فلَمَّا كان في اللَّيْلَةِ الثَّلاثَةِ، ورسول الله ﷺ في بيت أم سلمة، نزلت تَوْبَتُهُمْ على رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا صَاقَبْتِ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ حيث لا يُكَلِّمهم رسول الله ﷺ ولا إخوانهم ولا أهلهم، فضاقت المدينة عليهم حتَّى خرجوا منها، وضاقت عليهم أنفسهم حيث حلَفُوا أن لا يكلم بعضهم بعضاً، فنفرَقوا وتاب الله عليهم لَمَّا عرف صدق نيَّاتهم^٢.

رَوَى بعض العامة عن كعب أنه قال: أنزل الله تَوْبَتنا على نبيِّه ﷺ حين بقي الثُّلث الأخير من اللَّيْلِ، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة، وكانت أم سلمة مُحسنة في شأني مُعينة في أمري، فقال ﷺ: «يا أم سلمة، تيب على كعب»، قالت: أفلا أُرسلُ إليه فأبشِّره؟ قال: «إِذْنُ يَحِطُّمُ^٣ النَّاسَ فيمنعوكم النَّومَ سائر اللَّيْلَةِ»، حتَّى إذا صَلَّى رسول الله ﷺ صلاةَ الفجر أعلم بَتَوْبَةِ الله علينا. قال: فانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ فتلقاني النَّاسُ فوجاً فوجاً يَهْتَنُونِي بالتوبة، حتَّى دخلتُ المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس وحوله النَّاسُ، فقام إليَّ طلحة بن عبدالله يهرو ل حتَّى صافحني وهنَّاني، والله ما قام إليَّ رجلٌ من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، وذلك لأنَّه ﷺ كان أخى بينهما حين قَدِمَ المدينة^٤.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ [١١٩]

٢. تفسير القمي ١: ٢٩٦-٢٩٨، تفسير الصافي ٢: ٣٨٦.

١. الذَّناب من كل شيء: عقبه ومؤخره.

٣. أي يزدحمون. ٤. تفسير روح البيان ٣: ٥٢٩.

ثم أنه تعالى بعد قبول توبة المتخلفين، أمر المؤمنين بطاعة الرسول وملازمته في الجهاد وغيره بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفته ومخالفة رسوله ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وهم الرسول ﷺ، ومن هو بمنزلة في العصمة عن الخطأ وبيان خلاف الواقع.

نقل كلام فخر الرازي في حجة الإجماع قال الفخر الرازي في تفسيره: إنه تعالى أمر المؤمنين بالكون مع الصادقين، ومتى وجب الكون مع الصادقين فلا بد من وجود الصادقين في كل وقت، وذلك يمنع من إطباق الكل على الباطل، ومتى امتنع إطباق الكل على الباطل، وجب إذا أطبقوا على شيء أن يكونوا محقين. فهذا يدل على أن إجماع الأمة حجة^١.

ثم اعترض على نفسه بأنه لم لا يجوز أن يكون الصادق هو المعصوم الذي يمتنع خلو زمان التكليف منه؛ كما تقوله الشيعة^٢. ثم رد ذلك الاعتراض بقوله: نحن نعترف بأنه لا بد من معصوم في كل زمان، إلا أننا نقول: ذلك المعصوم هو مجموع الأمة، وأنتم تقولون: ذلك المعصوم هو واحد منهم. فنقول: هذا الثاني باطل؛ لأنه تعالى أوجب على كل أحد من المؤمنين أن يكون مع الصادقين، وإنما يمكنه ذلك لو كان عالماً بأن ذلك الصادق من هو، لا جاهلاً بأنه من هو، فلو كان مأموراً بالكون معه كان ذلك تكليفاً بما لا يطاق، وأنه لا يجوز، لكننا لا نعلم إنساناً معيناً موصوفاً بوصف العصمة والعلم، [والعلم] بأننا لا نعلم هذا الإنسان حاصل بالضرورة. فثبت أن قوله: ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ليس أمراً بالكون مع شخص معين، ولما بطل هذا، بقي أن المراد منه الكون مع مجموع الأمة، وذلك يدل على أن قول مجموع الأمة حق وضواب، ولا معنى لقولنا «الإجماع حجة» إلا ذلك^٣، انتهى كلامه بطوله المميل.

في إبطال استدلال الفخر على حجة الإجماع وفيه: أن لفظ «الصادقين» كالنص في أن المراد الأشخاص، لا المجموع المركب من الأشخاص، مع كون كل واحد منهم كاذباً، أو من يجوز عليه الكذب. وعدم علم هذا الشخص المتعصب بالشخص الموصوف بالعصمة لا يكون قرينة على إرادة

المجموع من الأمة، مع قيام الأدلة القطعية والروايات المتواترة على تعيينه باسمه ونسبه، في كل زمان وعصر عند من برئ عن التعصب واللجاج، وطابت طيبته، وظهر مولده، مع أن الوجدان القطعي يشهد بعدم تمكن أحد من المؤمنين حتى المجتهدين المتبحرين منهم، من العلم باتفاق مجموع الأمة، بحيث لم يشذ منهم واحد على أمر، حتى في الزمان المتصل بوفاء الرسول ﷺ الذي كان المسلمون بالنسبة إلى الأعصار المتأخرة في غاية القلة، ولو ادعى أحد بالعلم بذلك حساً، نعلم

بحسب العادة بكذبه، مع أنه لا شبهة في أن المراد من ﴿الصَّادِقِينَ﴾ في زمان نزول الآية شخص الرسول ﷺ، وإرادة الشخص المعين منه في زمان، والهيئة المركبة من الأمة في زمان آخر، تستلزم إرادة المعنيين المستقلين الحقيقي والمجازي من استعمال واحد؛ وهو محال، وليس بينهما جامع عرفي بكون اللفظ مستعملاً فيه، ويكون كل واحد منهما مصداقاً.

وفي (الإكمال): عن أمير المؤمنين أنه قال في مجمع من المهاجرين والأنصار، أيام خلافة عثمان: «أسألكم بالله، أتعلمون أنه لما نزلت هذه الآية قال سلمان: يا رسول الله، عامة هذه الآية أم خاصة؟ قال ﷺ: أما المأمورون فعامة المؤمنين أمروا بذلك، وأما الصادقون فخاصة لأخي وأوصيائي من بعده إلى يوم القيامة»، قالوا: اللهم نعم^١.

وعن الباقر عليه السلام: «إيانا عنى»^٢. وعنه عليه السلام قال: «مع آل محمد»^٣.

وعن الرضا عليه السلام: «الصادقون هم الأئمة»، الخبر^٤.

وقال العلامة: روى الجمهور: أنها نزلت في علي عليه السلام^٥. فلا ترتبط الآية بحجية الإجماع، بل هي دالة على عصمة علي عليه السلام وأولاده الطيبين وإمامتهم، رغماً للتواصب.

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَأُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٢٠ و ١٢١]

ثم أنه تعالى بعد الأمر بكون المؤمنين مع الرسول ﷺ في جميع غزواته، أكد به بالنهي عن التخلف عنه بقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ صحيحاً في حكم الله ﴿لَأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ من المؤمنين ﴿وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ والذين في أطرافهم من مؤمني أهل البوادي كجهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ في غزوة من غزواته ﴿وَأَنْ لَا يَرْغَبُوا﴾ ولا يعرضوا ﴿بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ

٢. الكافي ١: ١٦٦، تفسير الصافي ٢: ٣٨٧.

٤. الكافي ٢: ١٦٦، تفسير الصافي ٢: ٣٨٧.

١. كمال الدين: ٢٧٨/٢٥، تفسير الصافي ٢: ٣٨٨.

٣. مجمع البيان ٥: ١٢٢، تفسير الصافي ٢: ٣٨٨.

٥. كشف الحق: ١٩٠.

نَفْسِهِ ﴿وَلَا يُضَايِقُوا مِنْ بَذَلُوا^١ مُهْجَهُمْ ذُوْنَهُ، بَلْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَصْبِرُوا مَعَهُ عَلَى الْبَأْسِ وَالضَّرَاءِ، وَأَنْ يَفْعَلُوا بِأَنْفُسِهِمْ لِنَفْسِهِ بِرَغْبَةٍ وَتَشَاطُ ﴿ذَلِكَ﴾ الثَّابِتُ مَعَهُ، أَوْ الْإِزَامُ مِمَّا عَلَى مُتَابِعَتِهِ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ إِذَا ثَبِتُوا عَلَى الْجِهَادِ مَعَهُ، وَالتَّزَمُوا بِخِدْمَتِهِ ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وَلَا يَنَالُهُمْ عَطَشٌ ﴿وَلَا تَنْصَبُ﴾ وَتَعَبٌ فِي أَبْدَانِهِمْ، وَلَوْ كَانَا يَسِيرِينَ ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وَمَجَاعَةٌ، وَلَوْ كَانَتْ قَلِيلَةً ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَتَرْوِجُ دِينَهُ، وَإِعْلَاءُ كَلِمَتِهِ ﴿وَلَا يَطْأُونَ﴾ بِأَقْدَامِهِمْ وَخَوَافِرِ خِيُولِهِمْ وَأَخْفَافِ رِوَاَحِلِهِمْ ﴿مَوْطِنًا﴾ وَمَكَانًا ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ وَيَسُوءُ هَمْ وَطْءَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ مِنْ أَرْضِيهِمْ ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ﴾ قِتْلٍ ﴿عَدُوٍّ﴾ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ ﴿بَيْلًا﴾ مِنْ أَفَى وَمِحْنَةٍ، مِنْ قَتْلِ وَجْرَاحَةٍ وَأَسْرِ وَخَوْفٍ ﴿إِلَّا كُتِبَ﴾ فِي صَحِيفَةِ أَعْمَالِهِمْ، وَثُبَّتْ لَهُمْ﴾ عِنْدَ اللَّهِ ﴿بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ وَحَسَنَةٌ مَقْبُولَةٌ تَوْجِبُ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ، وَالْأَجْرَ الْعَظِيمَ.

ثُمَّ أَكَّدَ شُبْحَانَهُ وَعَدَهُ وَقَرَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بِكَرَمِهِ وَفَضْلِهِ وَعَدْلِهِ ﴿لَا يُضِيعُ﴾ وَلَا يَطِلُ ﴿أَخْرَجَ﴾ إِحْسَانًا ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ وَثَوَابَ أَعْمَالِ الصَّالِحِينَ ﴿وَلَا يَنْفِقُونَ﴾ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَجِهَادِ أَعْدَائِهِ ﴿نَفَقَةً﴾ سِوَاءَ كَانَتْ ﴿صَغِيرَةً﴾ كَنَعْلٍ فَرَسٍ، بَلْ ثَمَرَةٍ ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ وَكَثِيرَةٍ كَالْفِ دِينَارٍ أَوْ أَزِيدَ ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ﴾ وَلَا يَتَجَاوَزُونَ فِي سَبِيلِهِمْ ﴿وَادِيًا﴾ مِنَ الْأُودِيَةِ ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ فِي دَفْتَرِ أَعْمَالِهِمْ ذَلِكَ الَّذِي فَعَلُوهُ مِنَ الْإِنْفَاقِ وَالسَّيْرِ ﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ﴾ بِذَلِكَ الْعَمَلِ جَزَاءً ﴿أَحْسَنَ﴾ وَأَفْضَلَ مِنْ جَزَاءِ سَائِرٍ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْعِبَادَاتِ، أَوْ أَحْسَنَ مِنْ ذَلِكَ الْعَمَلِ الَّذِي عَمِلَ، وَمِنْ الْمَالِ الَّذِي بَذَلَ.

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي

الَّذِينَ وَلِيْنَدِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ [١٢٢]

ثُمَّ أَنَّهُ زَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ إِذَا خَرَجَ إِلَى الْغَزْوِ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ إِلَّا مُتَافِقٌ أَوْ صَاحِبُ عُدَرٍ، فَلَمَّا بَالِغَ اللَّهِ شُبْحَانَهُ فِي تَعْيِيبِ الْمُتَافِقِينَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، قَالَ الْمُؤْمِنُونَ: وَاللَّهِ لَا نَتَخَلَّفُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْغَزَوَاتِ مَعَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم وَلَا عَنْ سَرِيَّةٍ، فَلَمَّا قَدِمَ الرَّسُولُ الْمَدِينَةَ وَأَرْسَلَ السَّرَايَا إِلَى الْكُفَّارِ، نَفَرَ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا إِلَى الْغَزْوِ وَتَرَكُوهُ وَحْدَهُ بِالْمَدِينَةِ^٢، فَهَمَّى الْمُسْلِمِينَ عَنْ أَنْ يَنْفِرُوا جَمِيعًا إِلَى الْغَزَوَاتِ وَيَتْرَكُوا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فِي الْمَدِينَةِ وَحْدَهُ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وَمَا يَسُوغُ لَهُمْ ﴿لِيَنْفِرُوا﴾ إِلَى الْجِهَادِ ﴿كَافَّةً﴾ وَعَامَةً، وَيَتْرَكُوا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وَحْدَهُ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ وَخَرَجَ إِلَى الْجِهَادِ ﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ وَجَمَاعَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ وَجَمَاعَةٌ قَلِيلَةٌ، وَأَقَامَتْ الْبَقِيَّةَ عِنْدَ

الرَّسُولَ ﷺ ﴿لِيَتَّقَهُوا فِي الدِّينِ﴾ وَيَتَعَلَّمُوا أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ ﴿وَلِيُنْذِرُوا﴾ وَيُخَوِّفُوا بِالْإِشْرَادِ إِلَى مَا تَعَلَّمُوهُ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَيَبَيِّنَ عَقُوبَةَ اللَّهِ عَلَى مُخَالَفَتِهَا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ النَّافِرِينَ ﴿إِذَا رَجَعُوا﴾ مِنَ الْجِهَادِ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وَحَضَرُوا عَنْدهُمْ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بِاطِّلَاعِهِمْ عَلَى الْأَحْكَامِ بِتَوْسِطِ الْمُتَقِيمِينَ الْمُتَفَقِّهِينَ مِنَ الرَّسُولِ ﴿يُحَذِّرُونَ﴾ وَيَحْتَنِبُونَ عِصْيَانَهَا بَعْدَ التَّعَلُّمِ.

عن الباقر عليه السلام: «كان هذا حين كثر الناس، فأمرهم [الله] أن تنفر طائفة منهم، وتقيم طائفة للتفقه، وأن يكون الغزو ثوباً»^١.

وقيل: إن المراد: تفقه الطائفة النافرة بمشاهدة الآيات الإلهية الدالة على صدق النبي ﷺ، وصحة دين الإسلام، من غلبة عدة قليلة من المسلمين؛ مع قلة زادهم وسلاحهم، على أضعافهم من المشركين مع كمال قوتهم وشوكتهم، وغيرها من الآيات الأخرى ﴿لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ النَّافِرِينَ بما شاهدوه من الآيات ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بِاطِّلَاعِهِمْ عَلَى دلائل صدق النبي ﷺ ودين الإسلام ﴿يُحَذِّرُونَ﴾ الْكُفْرَ وَالضَّلَالَ^٢.

وقيل: إن المراد أن المسافرة إلى الرسول لطلب العلم وتعلم الأحكام ليس كالهجرة والجهاد واجباً على جميع المسلمين، بل هو واجب كفاية عليهم، فليخرج من القبائل وسكنة البلاد طائفة قليلة إلى حضرة الرسول ﷺ، ليتفقها في الدين، ويتعلموا الأحكام، ويعودوا إلى قبائلهم وأوطانهم، فينبذوا ويُرشدوا كل طائفة قومهم، لكي يرجعوا عن الكفر ويهتدوا إلى الأحكام المنزلة. وحاصل مفاد الآية وجوب التفرغ لطلب العلم والتفقه على من به الكفاية.

عن الصادق عليه السلام، أنه قيل له: إن قوماً يروون أن رسول الله ﷺ قال: «اختلاف أمتي رحمة»، فقال: «صدقوا»، فقيل: إن كان اختلافهم رحمة، فاجتماعهم عذاب؟

قال: «ليس حيث تذهب وذهبوا، إنما أراد قول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ...﴾ الآية، فأمرهم أن ينفروا إلى رسول الله ﷺ ويختلّفوا إليه، فيتعلموا ثم يرجعوا إلى قومهم فيتعلموهم، إنما أراد اختلافهم من البلدان، لا اختلافاً في دين الله، إنما الدين واحد»^٣.

وعن (الكافي): قيل للصادق عليه السلام: إذا حدث على الإمام حدث، كيف يصنع الناس؟ فقال: «أين قول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ...﴾ الآية» قال: «هم [في غدر] ما داموا في الطلب، وهؤلاء

١. مجمع البيان ٥: ١٢٦، تفسير الصافي ٢: ٣٨٩. ٢. تفسير الرازي ١٦: ٢٢٦.

٣. علل الشرائع ٤/٨٥، تفسير الصافي ٢: ٣٨٩، وزاد في المصدر: إنما الدين واحد.

الَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ هُمْ فِي عَذْرٍ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ أَصْحَابُهُمْ»^١.

وعن الباقر والصادق عليهما السلام: «تَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَتَفَقَّهْ مِنْكُمْ فِي الدِّينِ فَهُوَ أَعْرَابِيٌّ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾»^٢.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ اسْتَدَلَّ كَثِيرٌ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى حُجِّيَّةِ خَيْرِ الْوَاحِدِ فِي الْأَحْكَامِ بِوُجُوهِ، وَالْحَقُّ عَدَمُ دَلَالَتِهَا عَلَيْهَا بِوَجْهِ؛ لِأَنَّ الظَّاهِرَ مِنْهَا بَيَانُ الطَّرِيقِ الْعَادِيِّ الْعَقْلَانِيِّ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ بِالْأَحْكَامِ، لَا الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ التَّعْبُدِيَّ الطَّرِيقِيَّ، وَيَشْهَدُ عَلَى ذَلِكَ اسْتِدْلَالُ الْإِمَامِ عليه السلام بِالْآيَةِ عَلَى وُجُوبِ الْفَحْصِ عَنِ الْإِمَامِ بَعْدَ الْإِمَامِ بِتَوْسِطِ الْمَبْعُوثِينَ مَعَ الْإِجْمَاعِ بِاعْتِبَارِ الْبَقِيَّةِ بِإِمَامَةِ الْإِمَامِ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ [١٢٣]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِرْشَادِ عِبَادِهِ إِلَى طَرِيقِ الْعِلْمِ بِالْأَحْكَامِ، أَرْشَدَهُمْ إِلَى أَصَوِّبِ طَرِيقِ الْجِهَادِ مَعَ الْكُفَّارِ؛ وَهُوَ الْإِبْتِدَاءُ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبُ، يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ﴾ وَيُجَاوِرُونَكُمْ ﴿مِنَ الْكُفَّارِ﴾ وَلَا تَدْعُوا الْجِهَادَ مَعَ الْأَقْرَبِ وَتُجَاهِدُوا الْأَبْعَدَ لِحُكْمٍ وَاضِحَةٍ، عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام قَالَ: «الدِّينُ»^٣. وَعَنِ الثَّمَنِ عليه السلام: يَجِبُ عَلَى كُلِّ قَوْمٍ أَنْ يُقَاتِلُوا مَنْ يَلِيهِمْ مِمَّنْ يَقْرُبُ [بِلَادِهِمْ] مِنَ الْكُفَّارِ وَلَا يَجُوزُوا ذَلِكَ الْمَوْضِعَ^٤ ﴿وَلْيَجِدُوا﴾ وَيُعَانُوا ﴿فِيكُمْ﴾ حِينَ الْجِهَادِ وَقَبْلَهُ ﴿غِلْظَةً﴾ وَخَشُونَةً فِي الْقَوْلِ، وَشَجَاعَةً فِي الْقَلْبِ، وَقِسَاوَةً فِي الْقَتْلِ، فَإِنَّهَا أَرْعَبَ لِقُلُوبِهِمْ، وَأَزْجَرَ لَهُمْ عَنِ الْكُفْرِ وَالْقَبَاحِ، وَلَا زَمُوا التَّقْوَى وَاعْتَمَدُوا فِي نَصْرِهِمْ عَلَيْهِمْ عَلَى اللَّهِ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ بِالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ وَالْحِفْظِ وَالتَّسْدِيدِ ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْتُكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا
فَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ
رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ [١٢٤ و ١٢٥]

١. الكافي ١: ١٠٣/٣٠٩، تفسير الصافي ٢: ٣٨٩.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٩٣١/٢٧١، الكافي ١: ٦/٢٣، تفسير الصافي ٢: ٣٨٩.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٩٣٢/٢٧١، التهذيب ٦: ٣٤٥/١٧٤، تفسير الصافي ٢: ٣٩٠.

٤. تفسير القمي ١: ٣٠٧، تفسير الصافي ٢: ٣٠٩.

ثم أخبر الله عن بعض أقاويل المنافقين المؤثرة في تشييط المؤمنين عن الجهاد بقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ﴾ من الله إلى الرسول ﴿سُورَةٌ﴾ من سَور القرآن وسَمِعَهَا المنافقون ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ﴾ لإخوانهم المنافقين استهزاءً وشخريّةً، أو لبعض المؤمنين صرفاً لهم عن الإيمان، وتشبيطاً لهم عن الجهاد ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة المنزلة ﴿إِيمَانًا﴾ بمحمد ﷺ ودينه.

ثم أجاب الله سبحانه عنهم بقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد، عن صميم القلب، وبرنوا عن التفاف ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ السورة المنزلة ﴿إِيمَانًا﴾ بالله وبرسالة محمد ﷺ، وبقينا بها لظهور كونها كلام الله، الخارج إتيان مثلاً من طوق البشر ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ويفرحون بئزولها لما يعتقدون بأن فيها المنافع الدنيوية والأخروية لأنفسهم وإخوانهم المؤمنين ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ من الكفر والشك والتفاف والكبر والحسد، وغيرها من الرذائل ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ تلك السورة بسماعها ﴿رِجْسًا﴾ وتُكْفَرُ مُنْصَمًا ﴿إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ وتُكْفَرُهم السابق لازدياد حسدهم الرسول ﷺ على ما آتاه الله من فضله، وإصراراً على عنادهم للحق، حتى أحاطت ظلمة الكفر على قلوبهم فطُغِعَ عليها ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

في الحديث: أن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين^١، كما قال: ﴿يُضِلُّ بِهٖ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهٖ كَثِيرًا﴾^٢.

أَوَّلَا يَزُورُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ [١٢٦]

ثم وبخهم الله تعالى وأنكر عليهم الإصرار على الكفر والتفاف على الحق المتقضية للإيمان والخلوص، بقوله: ﴿أَوَّلَا يَزُورُونَ﴾ والتقدير: ألا ينظرون ولا يرون ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ ويبتلون امتحاناً ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً﴾ من أعوام أعمارهم بالأمراض، والشدائد الموجبة لتفكيرهم في العقاب، وتذكُّرهم للموت، وتنبههم لفناء الدنيا مرة واحدة ﴿أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ - قيل: هو كناية عن الكثرة^٣ - ﴿ثُمَّ﴾ مع ذلك ﴿لَا يَتُوبُونَ﴾ ولا يرجعون عن كفرهم ونفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ويتعظون بتلك الفتن، ولا يتنبهون بشيء عاقبة الكفر ومُعَادَةِ الله والرسول.

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا

صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ [١٢٧]

ثم أخبر سبحانه عن غاية خُبث سريرتهم، وحيلهم في إضلال الناس، وأعمالهم الرادعة لغيرهم عن الإيمان بالقرآن بقوله ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ﴾ من الله ﴿سُورَةٌ﴾ من القرآن على النبي ﷺ فيها فضائح المنافقين ضحكوا، ثم ﴿نَظَرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ نظراً مفهماً للطعن فيها والاستهزاء بها، وتغامزوا فيها إنكاراً لها، ويقولون لإخوانهم حين إرادتهم الخروج من المسجد، أو من محضر النبي ﷺ خوفاً من افتضاحهم بالضحك من تلك السورة، بعد غلبته عليهم: يا إخواننا، إن قمتم من المجلس وانصرفتُم منه ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ من المؤمنين أولاً، فإن يراكم أحدٌ منهم لا تخرجوا وانتظروا غفلتهم عنكم، وعدم التفاتهم إليكم، فعند ذلك قوموا واخرجوا، فكانوا يترصدون ذلك، فإن لم يرههم أحدٌ من المؤمنين قاموا ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ وخرجوا وتفردوا مخافة الفضيحة بضحكهم، وذلك الانصراف لأنه ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن قبول الهداية والإيمان، وطبع عليها.

وعن ابن عباس: عن كل رُشدٍ وخيرٍ وهدى^١.

وعن القمي رحمه الله: عن الحق إلى الباطل^٢. ويحتمل كون الجملة دعائية.

ثم علل سبحانه صرف قلوبهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فوائد الإيمان والتسليم، ومضار الكفر والتفارق وسوء عاقبتهم.

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ
رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ

الْعَرْشِ الْعَظِيمِ [١٢٨ و ١٢٩]

ثم أنه تعالى بعد بيان فضائح المنافقين وعنادهم للرسل، أظهر ميته على الناس، وعظمة نعمته عليهم ببعث رسول من جنسهم فيهم، وحُب ذلك الرسول لهم وشَفَقته عليهم، تحبباً لقلوب المنافقين إياه، وجلباً لتوجههم إليه، بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أيها الناس من جانب الله ﴿رَسُولٌ﴾ عظيم الشأن رفيع المنزلة، ومن أفاضل ميته تعالى عليكم أنه جعل ذلك الرسول ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ومن جنسكم، أي من البشر لا من الملائكة. ويحتمل أن يكون الخطاب إلى العرب، ويكون المراد من قوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي من العرب.

عن ابن عباس قال: ليس في العرب قبيلة إلا ولدت النبي ﷺ بسبب الجدات؛ مُصَرَّها وربيعها

وَيَمَانِيهَا، فَاَلْمُضَرِّيُونَ وَالرَّيْعِيُّونَ هُمُ الْعَدْنَانِيَّةُ، وَالْيَمَانِيُّونَ هُمُ الْقَحْطَانِيَّةُ^١.

وَالْجَنَّةُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، لِأَنَّ كُلَّ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْعِزِّ وَالشَّرَفِ فَهُوَ عَائِدٌ إِلَيْهِمْ، مَعَ مَدْخَلِيَّتِهِ التَّامَّةِ فِي الشَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ، وَلِذَا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ شَفَقَتَهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿عَزِيزٌ﴾ وَشَأْئُ ﴿عَلَيْهِ مَاعِزْتُمْ﴾ وَمَشَقَّتْكُمْ، وَثَقِيلٌ عَلَيْهِ تَضَرُّرُكُمْ وَتَحَرُّجُكُمْ، فَحَالُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكُمْ حَالُ الْأَبِ الشَّفِيقِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى وَلَدِهِ ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ وَشَدِيدُ الطَّلَبِ لِإِيمَانِكُمْ، وَتَرْبِيَةِ قُلُوبِكُمْ، وَتَزْكِيَةِ نُفُوسِكُمْ، وَتَهْذِيبِ أَخْلَاقِكُمْ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بِهِ ﴿رَزُوقٌ رَحِيمٌ﴾ كَمَا أَنَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ شَدِيدٌ غَلِيظٌ.

ثُمَّ خَتَمَ سُبْحَانَهُ السُّورَةَ الْمُبَارَكَةَ بِتَسْلِيَةِ قَلْبِ حَبِيبِهِ عَلَى عِنَادِ الْقَوْمِ، بِقَوْلِهِ: ﴿إِن تَوَلَّوْا﴾ وَأَعْرَضُوا مَعَ ذَلِكَ عَنِ الْإِيمَانِ بِكَ، فَلَا تُبَالٍ بِهِمْ ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ﴾ وَكَفَانِي ﴿اللَّهُ﴾ الَّذِي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فِي جَمِيعِ أُمُورِي، وَلِذَا ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فَلَا أَرْجُو غَيْرَهُ، وَلَا أَخَافُ إِلَّا مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ الْقَاهِرُ عَلَى جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

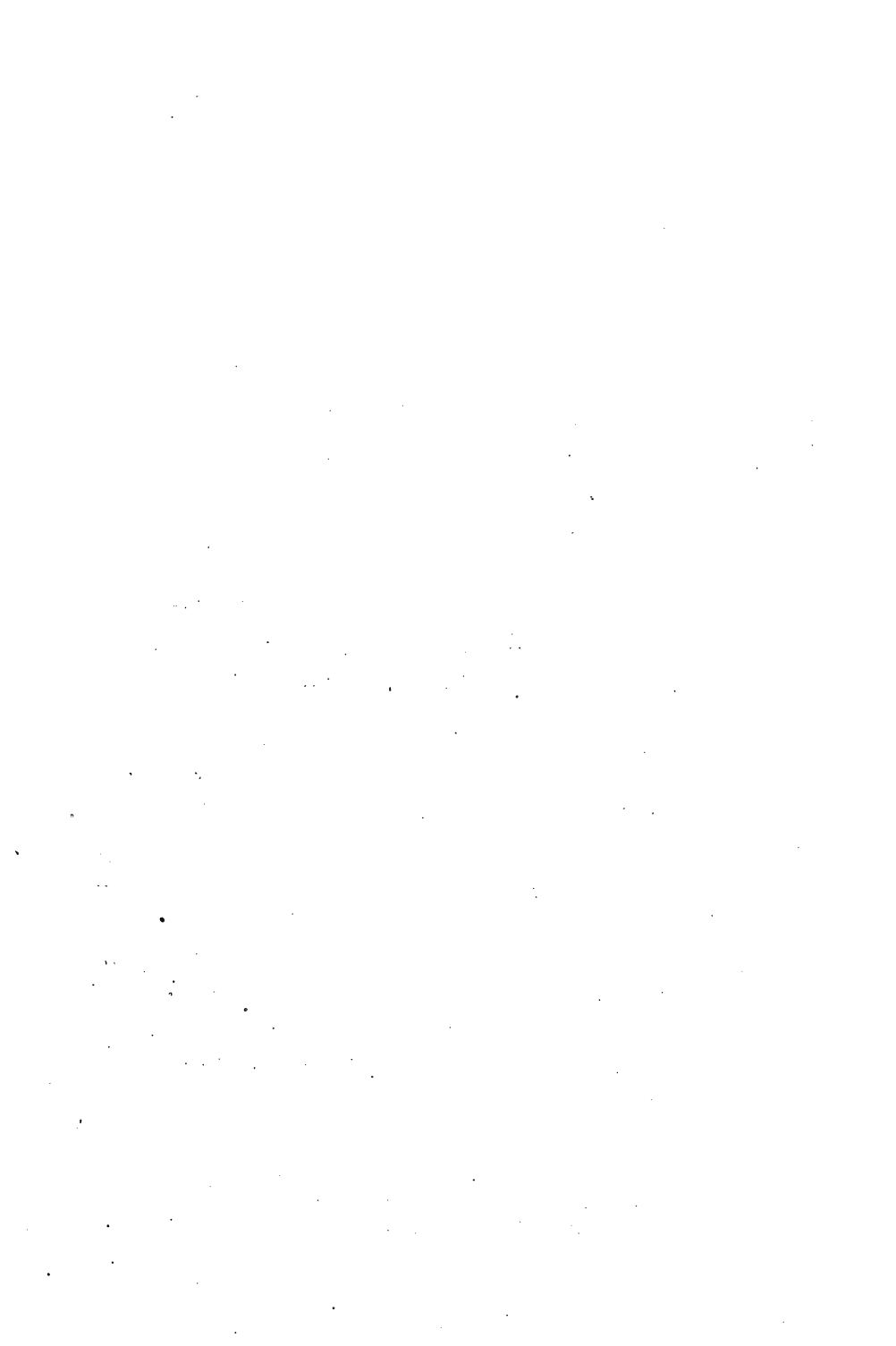
عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «أَيُّ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ»^٢.

رُوي «أَنَّهُ مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْأَنْفَالِ وَبَرَاءَةٍ فِي كُلِّ شَهْرٍ لَمْ يَدْخُلْهُ النَّفَاقُ، وَكَانَ مِنْ شِيعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)^٣، وَيَأْكُلُ مِنْ مَوَائِدِ الْجَنَّةِ مَعَ شِيعَتِهِ حَتَّى يَفْرُغَ النَّاسُ مِنَ الْحِسَابِ»^٤.

٢. تفسير الصافي ٢: ٣٩٢.

١. تفسير الرازي ١٦: ٢٣٦.

٣. نواب الأعمال: ١٠٦. ٤. تفسير العياشي ٢: ١٧٦٨/٢١٣، تفسير الصافي ٢: ٣٩٢.



في تفسير سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ [١]

ثُمَّ لَمَّا ختم شبحانه سورة براءة - بذكر استهزاء المنافقين بالرَّسول وكتابه، وتسلية، وأمره بالتوكل عليه وعدم المبالاة بهم، وبيان استحقاقه العبودية، وكونه مربِّي الموجودات - أردفت بشورة يونس ببيان عظمة القرآن الدال على صدق الرَّسول.

ثُمَّ تَوَيْخِ الْكُفَّارِ عَلَى التَّعَجُّبِ مِنْ رِسَالَةِ رَسولٍ مِنْ جِنْسِهِمْ، وتسلية الرَّسول بذكر توكل نوح وعدم مبالاته بمعارضة قومه، وتصرته عليهم، وتصرة موسى على فرعون وقومه.

ثُمَّ شَرَحَ رُبُوبِيَّتَهُ لِلْعَرْشِ ببيان كونه خالق السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ومُدَبِّرَ الموجودات، ابتداءً فيها بذكر الأسماء المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

وقد مرَّ تفسيره.

ثُمَّ افْتَتَحَهَا بِذِكْرِ الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَاتِ بقوله: ﴿الرَّ﴾ وقد مرَّ تأويلها في بعض الطرائف، وبيان حكمة ذكرها التي منها جلب التوجُّه إلى ما يُذكر بعدها من المطالب المهمة؛ التي منها عظمة شأن القرآن، ولذا ذكرها بعدها رداً على المُستهزئين بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ الآيات التي في هذه السُّورة، أو المنزلة من أول القرآن إلى هنا، أو في القرآن كُلِّهِ ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ والقرآن ﴿الْحَكِيمِ﴾ والمُستحكم المصون من التَّغيير والتَّحريف والمحو والاندِراس في تَحوُّرِ الدَّهْرِ، أو المخزون عند الله، أو المُشتمل على الحُكم غير المُتناهية، أو الحاكم بين النَّاسِ بالحقِّ ومميِّزه عن الباطل، أو الدال على الحكمة والصَّواب، أو المحكوم فيه بالعدل والإحسان وسائر المُحَسِّنَاتِ العقلية، وبمُتَوَبِّهَةِ المُطِيعِينَ وعَقوبة العاصين.

أَكَاَنَّ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنَّ أُوحِيَنا إِلَي رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنَّ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ [٢]

ثم لما أثبت سبحانه ثبوت نبيه ﷺ بتعظيم كتابه وتوصيفه بما لا يمكن أن يكون الموصوف به إلا من الله، أنكر على منكبيه التعجب من رسالة البشر، أو رسالة مثل محمد اليتيم الفقير، بقوله: «أَكَانَ لِلنَّاسِ» وهم كفار مكة - على ما قيل^١ - «عَجَبًا» من «أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ» كان «مِنْهُمْ» جنساً ونسباً، وقلنا له بالوحي: «أَنْ أَنْذِرَ» وخوف «النَّاسِ» بالعذاب على الشرك والعصيان، كي يرتدعوا عنهم «وَيُنْشِرَ الَّذِينَ آمَنُوا» بوحداية الله ورسالتك «أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ» وعملاً صالحاً، أو ثواباً مذكوراً «عِنْدَ رَبِّهِمْ» ومليكهم.

وعن ابن عباس: لهم شفاعة نبيهم، وهو أمامهم إلى الجنة، وهم بالآخر^٢.

وعن الصادق عليه السلام: «أَنْ معنى «قَدَمٌ صِدْقٍ» شفاعة محمد ﷺ»^٣.

وعنه عليه السلام أيضاً: «هو رسول الله ﷺ»^٤.

ثم كانه قال: لا مجال للعجب من رسالة البشر، أو رسالة محمد، إنما العجب في أنه لما أتاهم بالمعجزات وأنذرهم «قَالَ الْكَافِرُونَ» عناداً ولجاجاً: «إِنَّ هَذَا» الرجل المدعي للنبوة، الفاعل لخوارق العادات «لَسَاحِرٌ مُبِينٌ» ومُشْعَبٌ ظاهر.

أقول: فيه دلالة على أنهم رأوا منه معجزة لم يمكنهم معارضته.

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ [٣]

ثم أنه تعالى بعد توبيخ الكفار على إنكار رسالة الرسول، بين أنه تعالى خالق العالم ومُدبره، تنبيهاً على كمال حكيمته المقتضي لبعث الرسول واستحقاقه العبادة بقوله: «إِنَّ رَبَّكُمْ» ومُدبر أموركم هو «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ» بقدرته «السَّمَاوَاتِ» السبع «وَالْأَرْضَ» وما فيهما «فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» وأوقات «ثُمَّ اسْتَوَىٰ» واستولى بالعلم والتدبير «عَلَى الْعَرْشِ» وسرير سلطته، أو على جميع الموجودات، وهو «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ» ويُنظِّم شؤون الخلق على وفق الحكمة، ويهيئ ما فيه صلاح كل شيء، ومن تدبيره في نظام العالم إرسال الرسول، وإنزال الكتب، وجعل القوانين والأحكام والثواب والعقاب «مَا مِنْ شَفِيعٍ» في تدبيره وثوابه وعقابه «إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ» ورضاه؛ لأنه تعالى أعلم بمواضع^٥

١. تفسير روح البيان ٤: ٥.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٦.

٣. مجمع البيان ٥: ١٣٤، تفسير الصافي ٢: ٣٩٣.

٤. تفسير العباسي ٢: ٢٧٤، ١٩٤٠، الكافي ٨: ٣٦٤/٥٥٤، تفسير الصافي ٢: ٣٩٣. ٥. في النسخة: مواضع.

الحِكمة والصَّواب مِن جَمِيع خَلْقِهِ؛ مُلْكًا كَانَ أَوْ نَبِيًّا أَوْ رَسُولًا، فَكَيْفَ بِالْأَصْنَامِ الَّتِي هِيَ جَمَادَاتٌ لَا شُعُورَ لَهَا بِشَيْءٍ، وَلَا إِدْرَاكَ؟ وَأَعْجَبَ مِنْ كُلِّ عَجَبٍ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَتَعَجَّبُونَ مِنْ أَنَّ يَكُونَ الْبَشَرُ رَسُولًا، وَلَا يَتَعَجَّبُونَ مِنْ أَنَّ يَكُونَ الْحَجَرُ الْمَنْحُوتُ أَوْ الْفِلْزُ الْمَصْنُوعُ بِأَيْدِيهِمْ إِلَهًا أَوْ شَفِيعًا عِنْدَ اللَّهِ. ثُمَّ لَمَّا أَثْبَتَ شُبْحَانَهُ كَمَالُ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَعَظَمَتِهِ، خَصَّ الرُّبُوبِيَّةَ وَالْأَلُوْهِيَّةَ، وَاسْتَحَقَّ الْعِبَادَةَ بِذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكُمْ﴾ الموصوف بالصفات الكمالية والجمالية هو ﴿اللَّهُ﴾ المُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ، وَهُوَ ﴿رَبُّكُمْ﴾ وَمَلِيكُمْ وَمُدَبِّرُ أُمُورِكُمْ، لَا غَيْرَهُ كَوَكْبًا كَانَ أَوْ صَنَمًا، أَوْ غَيْرَهُمَا، فَإِذَا عَلِمْتُمْ ذَلِكَ ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وَحْدَهُ، وَاخْضَعُوا لَهُ بِقُلُوبِكُمْ وَجَوَارِحِكُمْ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَنَّ الْإِلَهَ وَالرَّبَّ لَا يَبْدَأُ أَنْ يَكُونَ لَهُ تِلْكَ الصِّفَاتُ، وَأَنَّ الْأَصْنَامَ بِمَعَزَلٍ عَنِ الْأَلُوْهِيَّةِ وَاسْتِحَقَّ الْعِبَادَةِ.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ [٤]

ثُمَّ لَمَّا أَثْبَتَ شُبْحَانَهُ تَوْحِيدَ الْمَبْدَأِ، رَبَّ عَلَيْهِ الْمَعَاد بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ وَمَعَادَكُمْ بَعْدَ خُرُوجِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا ﴿جَمِيعًا﴾ بَحِيثٌ لَا يَشِدُّ مِنْكُمْ أَحَدٌ، وَهَذَا الْوَعْدُ يَكُونُ ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ الَّذِي يَسْتَحِيلُ مِنْهُ الْخُلْفُ فِي وَعْدِهِ، بَلْ يَحَقُّ ﴿حَقًّا﴾ وَيَثْبُتُ ثُبُوتًا لَا مَجَالَ لِلشَّكِّ فِيهِ. ثُمَّ اسْتَدَلَّ عَلَى إِمْكَانِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ﴾ تَعَالَى ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ وَيُوجِدُ الْإِنْسَانَ فِي هَذَا الْعَالَمِ، بِمَا سَبَقَ مِثَالُ، مِنْ نُطْفَةِ أُمِّشَاجٍ، لِلْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ الْبَتَّةَ لِقُدْرَتِهِ عَلَى الْإِعَادَةِ وَالْخَلْقِ ثَانِيًا، لِكُونِهِ أَهْوَنَ عَلَيْهِ.

ثُمَّ اسْتَدَلَّ عَلَى وَجُوبِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَبِرُسُلِهِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿بِالْقِسْطِ﴾ الْمُقْتَضِي لِعَدَمِ تَضْيِيعِ أَجْرِ الْمُحْسِنِينَ، وَعَدَمِ التَّسْوِيَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسِيئِينَ. قِيلَ: إِنَّ الْمَرَادَ: لِيَجْزِيَهُمْ بِقِسْطِهِمْ وَعَدْلِهِمْ^١ فِي حُقُوقِ أَنْفُسِهِمْ؛ حَيْثُ لَمْ يَظْلَمُوا عَلَيْهَا بِالْمَعَاصِي وَتَعْرِضُهَا لِلْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ، وَفِي حُقُوقِ غَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ. وَإِنَّمَا لَمْ يُعَيَّنِ الْجَزَاءُ تَنْبِيْهُاً عَلَى أَنَّهُ بِمَا يَلِيْقُ بِلُطْفِهِ وَكَرَمِهِ، وَكَوْنِهِ مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أَذْنَ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ أَحَدٍ.

ثم قيل: لما لم يكن المقصود الأصلي في الخلق هو العذاب^١، غير سبحانه النظم في بيان جزاء الكفار بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الدنيا بالله ووحدايته ورسله ﴿لَهُمْ﴾ بالاستحقاق ﴿شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ وماء حارٍ متناوٍ [في] حرارته ﴿وَعَذَابٌ﴾ بالنار ﴿أَلِيمٌ﴾ غايته ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَكْفُرُونَ﴾.

وقيل: إن ثكته تغيير النظم، التنبيه على المبالغة في استحقاقهم^٢.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِ
وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [ه]

ثم لما كان الأهم إثبات المبدأ وكونه^٣ ملازماً للقول بالمعاد وسائر العقائد الحقّة، عاد إلى الاستدلال عليه بقوله: ﴿هُوَ﴾ الإله القادر ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ بقدرته ﴿الشَّمْسُ﴾ وخلقه لتكون ﴿ضِيَاءً﴾ للعالم ﴿وَوَقَدَرَهُ﴾ خلق ﴿القَمَرَ﴾ ليكون في الليل ﴿نُورًا﴾ للناس ﴿وَقَدَرَهُ﴾ قيل: إن التقدير: وقدر مسير القمر ﴿مَنَازِلَ﴾ أو قدر القمر ذاً منازل^٤. - وقيل: إن ضمير ﴿قَدَرَهُ﴾ راجع إلى الكوكبين، فاللفظ مفرد والمعنى ثنية، ومنازل الشمس البروج الاثنا عشر، ومنازل القمر ثمانٍ وعشرون، فإذا كان في آخر منزله دق واستقوس^٥. - وذلك التقدير ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ أيها الناس بسيرهما في منازلهما ﴿عَدَدَ السَّيِّنِ وَالْحِسَابِ﴾ للآوقات من الأيام والشهور ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ المذكور من الكوكبين ومنازلهما، بسبب من الأسباب ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والحكمة وصلاح نظام العالم، كذلك التفصيل البديع لتلك الآية ﴿يُفْصَلُ﴾ ونذكر متوالياً واحداً بعد واحد، ونشرح وتبين ﴿الآيَاتِ﴾ والدلائل المتقنة على قدرتنا وحكمتنا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ويعقلون، أو يتفكرون في الموجودات وحكمها، ليطلعوا على شؤون صانعها، فإنهم المتفكرون بها.

إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ
لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ [٦]

ثم أنه تعالى بعد الاستدلال بخلق السماوات والأرض والشمس والقمر، وفاندتهما بفائدة سير الكوكبين، استدلل بفائدة أخرى لسير الشمس وبسائر الموجودات بقوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ

٢. تفسير البيضاوي ١: ٤٢٨، تفسير الصافي ٢: ٣٩٤.

١. تفسير البيضاوي ١: ٤٢٨.

٣. في النسخة: ومكونه. ٤. تفسير أبي السعود ٤: ١٢٠، تفسير الرازي ١٧: ٣٥.

٥. تفسير أبي السعود ٤: ١٢٠.

وَاللَّهَارِ بِالنُّورِ وَالظُّلْمَةِ وَتَغْيِرُهُمَا بِالطُّولِ وَالْقَصْرِ، أَوْ تَعَاقِبُهُمَا وَذَهَابُ أَحَدُهُمَا وَمَجِيءُ الْآخَرِ ﴿و﴾ فِي «مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ» مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ وَالنَّائِبَةِ ﴿و﴾ فِي «الْأَرْضِ» مِنَ الْجِبَالِ وَالْمَعَادِنِ وَالْبَحَارِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ، وَسَائِرِ مَا فِيهَا مِنَ الْمُمَكِّنَاتِ «لَايَاتٍ» عَظِيمَةٍ وَدَلَالَاتٍ وَاضِحَةٍ عَلَى كَوْنِهَا تَحْتَ قُدْرَةِ قَادِرٍ حَكِيمٍ مُتَفَرِّدٍ بِالصَّنْعِ وَالتَّدْبِيرِ، وَإِنَّمَا الْإِنْتِفَاعُ بِهَا يَكُونُ «لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ» سُوءَ الْعَاقِبَةِ، وَلِذَا يَتَذَكَّرُونَ فِيهَا؛ فَيُزَادُونَ مَعْرِفَةً وَيَقِينًا.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَا وَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [٧ و ٨]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ وَالْمَعَادِ، هَدَّدَ مُنْكَرِيهِمَا بِقَوْلِهِ: «إِنَّ الَّذِينَ» يُنْكِرُونَ الْمَعَادَ، وَ«لَا يَرْجُونَ» وَلَا يَطْمَئِنُّونَ «لِقَاءَنَا» وَالبَّعْثَ لِحِزَانِنَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلَا يَخَافُونَ الْحَشَرَ^١، كَمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^٢، أَوْ لَا يَطْمَعُونَ فِي الثَّوَابِ، كَمَا عَنْ غَيْرِهِ^٣ «وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا» وَاخْتَارُوهَا وَانْهَمَكُوا فِي شَهَوَاتِهَا «وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا» وَسَكَنَتْ قُلُوبُهُمْ إِلَى لَذَاتِهَا وَزَخَارِفِهَا، بِحَيْثُ لَا تَوَجَّهَ لَهُمْ إِلَى غَيْرِهَا «وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا» وَدَلَالَتِ تَوْحِيدِنَا «غَافِلُونَ» وَعَنِ النَّظَرِ إِلَيْهَا ذَاهِلُونَ، لِاسْتِغْرَاقِهِمْ فِي التَّفَكُّرِ فِيمَا يُضَادُّهَا، وَاشْتِغَالِ قُلُوبِهِمْ بِمَا يُلْهِمِي عَنْهَا «أُولَئِكَ» الْمُتَصَفُّونَ بِتِلْكَ الرِّذَالِ «مَا وَاهُمُ» وَمُسْكَنُهُمْ فِي الْآخِرَةِ «النَّارُ» الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ «بِمَا كَانُوا» فِي الدُّنْيَا «يَكْسِبُونَ» مِنَ الْكُفْرِ، وَقِسَاوَةِ الْقَلْبِ، وَالتَّبَعْدِ عَنِ اللَّهِ.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّاتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٩ و ١٠]

ثُمَّ بَشَّرَ شُبْحَانَهُ الْمُوَحِّدِينَ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ الَّذِينَ» تَفَكَّرُوا فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَتَذَكَّرُوا فِيهَا بِعُقُولِهِمُ السَّلِيمَةِ، وَلِذَا «آمَنُوا» بِاللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَصِفَاتِهِ الْجَمَالِيَةِ وَالْجَلَالِيَةِ «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» وَقَامُوا بِوُظَانِفِ الْعِبَادَةِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً «يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ» فِي الْآخِرَةِ بَعْدَ بَعْثِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ «بِإِيمَانِهِمْ» وَبِسَبَبِ نُورِهِ إِلَى الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ.

رُوي أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ صَوَّرَ لَهُ عَمَلَهُ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ، يَقُولُ لَهُ: أَنَا عَمَلُكَ، فَيَكُونُ لَهُ

نوراً^١.وقيل: يعني: يُرشدُهم رَبَّهُم في الدُّنيا بسبب إيمانهم إلى جميع الخيرات^٢.

وفي الآخرة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ يعني تحت قُصورهم وسُرُورهم ﴿الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، أو الأربعة ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وبساتين كثيرة النعم ﴿دَعَاؤُهُمْ﴾ في تلك الجنّات، ودُعَاؤهم أو عبادتهم ﴿فِيهَا﴾ أو قولهم، أو طَريقَتهم في تَمجيد الله قولهم: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾.

عن الصادق عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عن التَّسْبِيح، فقال: «اسْمُ من أسماء الله تعالى، ودَعْوَى أَهْلِ الْجَنَّةِ»^٣.قيل: إِنَّهُمْ إِذَا مَرَّ بِهِمْ طَيْرٌ يَشْتَهونه قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ فَيَأْتِيهِم الْمَلَكُ بِذَلِكَ الْمُشْتَهَى^٤.

وقيل: إِنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ تَمَنِّيهِمْ فِي الْجَنَّةِ إِلَّا فِي تَسْبِيحِ اللَّهِ وَتَنْزِيهِهِ وَتَقْدِيسِهِ؛ لِأَنَّ لَدَتَهُمْ وَسُرُورَهُمْ وَكَمَالَ حَالِهِمْ بِهِ.

وقيل: إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوهَا وَوَجَدُوا نِعْمَهَا الْعَظِيمَةَ، عَرَفُوا صِدْقَ وَعْدِهِ تَعَالَى. فعند هذا قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أَي تَسْبِيحُكَ وَتَنْزِيحُكَ عَنِ الْخُلْفِ فِي الْوَعْدِ وَالْكَذِبِ^٥ فِي الْقَوْلِ.

﴿وَتَجِيئُهُمْ﴾ وتكرمتهم من الملائكة في الجنة، أو تحية بعضهم لبعض ﴿فِيهَا﴾ عند المِلاقة ﴿سَلَامٌ﴾ عليكم، إذ فيه إشارة بالأمن من كُلِّ مَكْرُوهٍ ﴿وَأَخِرُ دَعَاؤُهُمْ﴾ وخاتمة دُعَائِهِمْ، أو أَقْوَالِهِمْ، أو عِبَادَتِهِمْ ﴿أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قيل: إِنَّهُمْ إِذَا أَكَلُوا وَشَبِعُوا قالوا ذلك^٦.وعن النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُلْهِمُونَ الْحَمْدَ وَالتَّسْبِيحَ كَمَا تُلْهِمُونَ أَنْفُسَكُمْ»^٧.

وقيل: إِنَّهُمْ يَفْتَحُونَ بِتَعْظِيمِ اللَّهِ وَتَنْزِيهِهِ، وَيَخْتُمُونَ بِشُكْرِهْ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ^٨. وقيل: إِنَّ التَّسْبِيحَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَلِذَا تَأَخَّرَ الْحَمْدُ عَنْهُ، وَخُتِمَ بِهِ الذِّكْرُ^٩.

وَلَوْ يُعَجَّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَنَذَرُ

الَّذِينَ لَا يُزْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [١١]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ تَهْدِيدِ الْكَفَّارِ وَعَوْدِهِم بِالْعَذَابِ الْآخِرِيِّ، نَبَّهَ عَلَى أَنَّ مَصْلَحَةَ الْإِمْهَالِ مَنَعَتْ مِنْ تَزُولِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، مَعَ اسْتِحْقَاقِهِمْ لَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ يُعَجَّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ والعَذَابُ حَسَبَ اسْتِحْقَاقِهِمْ وَاسْتِعْجَالَهُمْ فِيهِ ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ﴾ وَنَحْوُ تَسْرِيعِهِمْ ﴿بِالْخَيْرِ﴾ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالرَّاحَةِ

١. تفسير الرازي ١٧: ٤١، تفسير روح البيان ٤: ١٩.

٢. تفسير أبي السعود ٤: ١٢٣، تفسير روح البيان ٤: ١٩.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢٧٥/١٩٤٤، تفسير الصافي ٢: ٣٩٥.

٤. و٥. تفسير الرازي ١٧: ٤٤.

٥-٧. تفسير الرازي ١٧: ٤٦.

٦. تفسير الرازي ١٧: ٤٥.

وَالْحُطَامَ الذُّبُوبِيَّةَ ﴿لَقَضِيٍّ﴾ وَأَذَى ﴿إِلَيْهِمْ﴾ فِي السَّاعَةِ ﴿أَجَلُهُمْ﴾ الَّذِي عَيْنَ لِعَذَابِهِمْ، وَأَمِيتُوا وَأَهْلَكُوا دَفْعَةً وَبِلَا مُهْلَةٍ، وَلَكِنْ لَا يُعَجَّلُ وَلَا يُقْضَى ﴿فَنَذَرُ﴾ وَنَتْرَكَ الْكَفَرَةَ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَلَا يَتَوَقَّعُونَ ﴿لِقَاءَنَا﴾ وَالْحَشَرَ إِلَيْنَا لِحِزَاءِ أَعْمَالِهِمْ ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ وَعَثَرَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَإِنْكَارِ الْحَشْرِ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ وَبِتَرَدُّونَ، الْإِزَامَ لِلْحُجَّةِ، أَوْ اسْتِدْرَاجًا، أَوْ لُطْفًا بِهِمْ لِأَجْلِ أَنْ يُؤْمِنُوا، أَوْ بِمَنْ فِي أَصْلَابِهِمْ كِي يَخْرُجُوا إِلَى الدُّنْيَا وَيُوقَفُوا لِلْإِيمَانِ.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٢]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ اسْتِحْقَاقِ الْكَفَّارِ لِلْعَذَابِ، بَيَّنَّ أَنَّهُمْ - مَعَ غَايَةِ ضَعْفِهِمْ، وَقِلَّةِ طَاقَتِهِمْ فِي تَحْمُلِ مَكْرُوهِ مِنَ الْمَكَارِهِ الْجَزْئِيَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَتَضَرُّعِهِمْ إِلَى اللَّهِ، وَدَفْعِهِ تَعَالَى ذَلِكَ الْمَكْرُوهِ وَالضَّرَرَ عَنْهُمْ - أَعْرَضُوا عَنْهُ، وَتَجَرَّأُوا عَلَيْهِ، وَعَبَدُوا الْأَصْنَامَ، وَكَفَرُوا بِنِعْمَةِ بَقُولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّ﴾ وَأَصَابَ ﴿الْإِنْسَانَ﴾ الشَّقِيُّ ﴿الضُّرُّ﴾ وَالْمَكْرُوهُ مِنْ فَقْرٍ أَوْ مَرَضٍ، أَوْ غَيْرِهِمَا مِنَ الْمَضَارِّ، جَزَعُ وَ ﴿دَعَانَا﴾ لِكَشْفِهِ مِنْ غَايَةِ عَجْزِهِ وَضَعْفِهِ، وَتَضَرَّعَ إِلَيْنَا لِدَفْعِهِ، فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ [سِوَا أ] كَانَ مُلْقًى ﴿لِجَنبِهِ﴾ عَلَى الْأَرْضِ، أَوْ مُضْطَجِعًا فِي الْفِرَاشِ ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ لَا يَفْتَرُ عَنْ الضَّرَاعَةِ فِي حَالٍ مِنْ حَالَاتِهِ. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ وَدَفَعْنَا ﴿عَنْهُ﴾ لِإِخْلَاصِهِ فِي دُعَائِهِ ﴿ضُرُّهُ﴾ وَأَزَلْنَا عَنْهُ مَا كَرِهَهُ، نَسِيئًا، وَنَسِيَّ ابْتِلَاءً وَتَضَرُّعًا، وَتَفَضُّلًا عَلَيْهِ، وَ ﴿مَرَّةً﴾ وَمَضَى عَلَى الْمَسْلَكِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ تَضَرُّعِهِ؛ مِنْ الشُّرْكِ وَالطُّغْيَانِ ﴿كَأَنَّ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى﴾ كَشَفَ ﴿ضُرُّ مَسَّهُ﴾ وَلَمْ نَمْنَعْ عَلَيْهِ شَيْءٍ مِنَ النِّعَمِ حَتَّى نَسْتَجِبَ عَلَيْهِ الشُّكْرَ ﴿كَذَلِكَ﴾ التَّزْيِينِ الْحَاصِلِ فِي نَظِيرِ هَذَا الْكَافِرِ لِكُفْرَانِ النِّعْمَةِ وَالطُّغْيَانِ عَلَى الْمُنْعَمِ ﴿زَيْنٌ﴾ مِنْ قِبَلِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ وَالتَّجَاوِزِينَ عَنْ حُدُودِ الْعَقْلِ، وَالتَّمْتَعِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِاخْتِيَارِ الشُّرْكِ، وَالْإِنْهَمَاقِ فِي الشَّهَوَاتِ، وَالْعَمَلَةَ عَنْ شُكْرِ الْمُنْعَمِ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنِ اللَّهِ، وَمُعَارَضَةِ الرُّسُلِ، وَارْتِكَابِ الْقَبَاحِ.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ [١٣ و ١٤]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ تَهْدِيدِ الْمُشْرِكِينَ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ، وَإِظْهَارِ مِثْلِهِ عَلَيْهِمْ - بِأَمْهَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا مَعَ

استحقاقهم نُزول العذاب عليهم فيها، والتنبيه على علة استحقاقهم؛ وهي الجُرأة على الله، وكُفرانهم نعمه، بعد تنبيههم على غاية ضعفهم، وعدم طاعتهم على تحمّل أقلّ قليل من المضارّ الدنيوية، فكيف بعذاب الاستئصال في الدنيا، وعذاب النار في الآخرة؟ - وعظّم شبحانه ببيان ما نزل على الأمم السابقة لكُفرهم وعدم إيمانهم بالرُّسل، اعتباراً لهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ بعذاب الاستئصال؛ كالفرق والحُسف والضّيحة والضّاعة وغيرها ﴿الْقُرُونِ﴾ والأمم الذين كانوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ أيها المشركون، وفي الأعصار السابقة على عصركم أيها الظالمون ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ على أنفسهم بتعريضها للهلاك، بسبب الإصرار على الشُّرك، وتكذيب الآيات ﴿وَوَالْحَالُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ﴾ من قِبَل الله ﴿رُسُلُهُمْ﴾ مُستدلّين على دَعَوَاهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجِ الواضحات من المعجزات الباهرات، والبراهين الساطعات ﴿وَمَا كَانُوا﴾ مع ذلك ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ بالله ورُسْله، لِشِدَّة قَسَاوَتِهِمْ، ورُسُوخ حُبِّ الدُّنيا في قُلُوبِهِمْ، وفساد أخلاقهم، فصاروا بحيث لا يُرجى منهم الهداية ﴿كَذَلِكَ﴾ الجزاء القُضيع ﴿تَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ في كلّ عصرٍ وزمان.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ أيها المشركون في هذا العصر ﴿خَلَائِفَ﴾ وأبدالاً لهم في السُّكونة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ والتعيش فيها ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ وبعد إهلاكهم ﴿لِنَنْظُرَ﴾ نظر الاختيار، ونعلم بالشُّهود ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ في أيام حياتكم، أتعلمون خيراً أو شراً؟ فتُجازيكم حسب أعمالكم.

وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَأَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا
أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدَلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [١٥]

ثمّ لما بيّن شبحانه تكذيب الأمم الماضية المهلكة لرُسُلهم، ذكّر تكذيب مُشركي مكة للنبي ﷺ بقوله: ﴿وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ المُنزلة من القرآن، مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وواضحات الدلالات على صِدق النبي، وكونها كلام الله ﴿قَالَ﴾ المشركون ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ ولا يؤمنون باليوم الآخر حتّى يخافوا من التّكذيب والاستهزاء بالقرآن: ﴿أَنْتَ﴾ يا محمّد ﴿بِقُرْآنٍ﴾ آخر ﴿غَيْرِ هَذَا﴾ الذي أنيئت به ترتيباً ونظماً ومطلباً، فإنّ فيما أنيئت به ما نستبعده من أمر البعث، وما نكرهه من ذمّ ألهتنا وتحقيرهم ﴿أَوْ بَدَّلَهُ﴾ وغيره من حيث المطلب وإن أبقيته على ما هو عليه من النّظم والترتيب.

وقيل: إنّ الفرق بين إتيان الغيّر والتبديل أنّ المراد من الأول: إتيان كتاب آخر مُغاير لما أتى به في المطلب، مع إبقاء الأول على حاله، ومن الثاني: تغيير ما أتى به. وعلى أيّ تقدير، كان المقصود إظهار

أنه كلامٌ تقولُه من قِبلِ نفسه، وأنه كاذبٌ فيما يدَّعيه من أنه من الله^١ أو السُّخريَّة والاستهزاء به.

عن ابن عباس: أن خمسة من الكُفَّار كانوا يستهزئون بالنبي ﷺ وبالقرآن: الوليد بن المغيرة المخزومي، والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن حنظلة، فقتل الله كلَّ واحدٍ منهم بطريق آخر، كما قال الله: ﴿إِنَّا كَفَّيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾^٢، فذكر الله أنهم إذا تلى عليهم آيات القرآن، قال الذين لا يرجون لقاءنا: انت بقرآن غير هذا أو بدله^٣.

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بحوايهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمستهزئين: ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ ولا يمكنني ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾ من قبلي و﴿مِنْ تَلْقَآءِ نَفْسِي﴾ لأنه ليس بكلامي وكلام غيري من البشر، بل إنما هو كلام ربي، و﴿إِنْ أَتَّبِعْ﴾ فيما أتلو عليكم ﴿إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ من قِبل ربي، بلا تصرف وتغيير مني فيه ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بالتغيير في كلامه، أو التبديل فيه ﴿عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فإن العاصي مستحق له؛ ولو كان على فرض المحال أحب الخلق إليه.

وإنما اقتصر في الجواب على بيان عدم قدرته على التبديل، لفهم عدم قدرته على التغيير بالأولوية.

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ [١٦]

ثم أمره الله سبحانه بالاستدلال على عدم كون القرآن من تلقاء نفسه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن لا أتلو عليكم القرآن، ما أوحاه إلي، و﴿مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ لعجزني عن إتيان هذا الكتاب المحتوي على العلوم الكثيرة، وتفاصيل المبدأ والمعاد، والمعارف والحكم والأحكام، وتواريخ الأنبياء وأسمهم، وغيرها مما لا يحيط به البشر، مع إعجاز البيان بحيث لا يقدر على إتيان شورة منه جميع الفُصحاء؛ ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، فلا بُدَّ من كونه بوحى الله وتعليمه ﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ لا أدراكم، وأعلمكم، أو أنذرکم ﴿بِهِ﴾ - كما عن ابن عباس^٤ - مع أنكم تعلمون أنني لا أعرف الخط، وما طالعُ الكتب، وما جالسُ عالمٍ قطَّ ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ﴾ ومكثت ﴿فِيكُمْ﴾ وبين ظهريكم ﴿عُمُرًا﴾ طويلاً، ومدةً مديدة ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ ما كنت أتلوه ولا أعلمه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وتذكرون أن من لم يقرأ كتاباً، ولم يجالس عالماً، ولم يمارس بحثاً، لا يمكنه أن يأتي بمثل هذا الكتاب العظيم الشأن، الفائق على الكتب السماوية، فلا بُدَّ أن يكون بتعليم الله ووحيه.

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٣، تفسير الرازي ١٧: ٥٥-٥٦، مجمع البيان ٥: ١٤٧.

٤. تفسير الرازي ١٧: ٥٨.

٣. تفسير الرازي ١٧: ٥٥.

٢. الحجر: ٩٥/١٥.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ [١٧]

ثم أكد تنزيهه عن الاختلاق بإظهار علمه بغاية قبح الافتراء على الله، وشوء عاقبته بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على نفسه بتعرضها للهلاك، وعلى غيره من الناس بإضلالهم ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ﴾ بإسناد ما ليس له إليه ﴿كَذِبًا﴾.

ثم ساوى بين المفتريين على الله والمكذبين لآياته، في كونهم أظلم خلق الله، تهديداً لهم بقوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ المنزلة منه، واستهزأ بها؛ كالمشركين المستهزئين بالقرآن. ثم بالغ في تهديدهم بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾ ولا ينجو ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ من العذاب، ولا يفوزون بمطلوب.

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أُتْنَبِئُوكُمْ اللَّهُ بِمَا لَا تَعْلَمُونَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [١٨]

ثم لما كان التماسهم تغيير القرآن لتضمينه شتم الأصنام وتحقيرها، وتخهم سبحانه على عبادتها بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ويشركون به في العبادة والخضوع ﴿مَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ شيئاً إن لم يعبدوه ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ قليلاً إن عبدوه، لأنه جماد لا شعور له ولا قدرة، واللائق للعبادة هو الحي المدرك القادر على كل شيء، والعجب أنهم مع ذلك كانوا يشيرون إلى أصنامهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عن جهالة وسفاهة: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الأصنام ﴿شُفَعَاؤُنَا﴾ في مهماتنا وحوادثنا ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾.

قيل: إن وجه اعتقاد المشركين شفاعاة الأصنام، أنهم توهموا أنهم ليسوا أهلاً لعبادة الله، وإنما الأهل واللائق لها الأرواح المدبرة لهذا العالم، أو الكواكب المؤثرة في المواليد؛ كالشمس والقمر، وسائر السيارات.

فسي ذكر مبدأ عبادة الأصنام ثم لما كانت الأرواح غير مشاهدة، والكواكب غاربة، وضعوا لكل روح أو لكل كوكب صنماً، فاشتغلوا بعبادته باعتقاد أن ذلك الروح أو الكوكب يشفع لهم عند الله.

وفيه: أن ظاهر الآيات أنهم كانوا يعتقدون أن نفس الأصنام يشفعون لهم، ويمكن أن يكون وجه اعتقاد مبدي هذا المذهب في أول الأمر ذلك، ثم بعد تمادي الزمان غلب الجهل على أتباعهم،

واعتقدوا ذلك في نفس الأصنام باعتقاد أن قداماءهم أيضاً كانوا مُعتقدين لذلك.

قيل: إن أول ما حدثت عبادة الأصنام في قوم نوح، وذلك أن آدم كان له خمسة أولاد صلحاء؛ وهم: ودّ وشواح ويَعُوْث ويَعُوْق ونَشْر، فمات ودّ وحزن الناس عليه حزناً شديداً، فاجتمعوا حول قبره ولا يكادون يُفارِقونه، وذلك بأرض بابل، فلما رأى إبليس ذلك جاء إليهم في صورة إنسان، وقال لهم: [هل] لكم أن أصوّر لكم صورة إذا نظرتم إليها ذكرتموه؟ قالوا: نعم، فصوّر لهم صورته، فصار كلما مات منهم واحد صور صورته، وسمّوا تلك الصور بأسمائهم، ثم لما تقادم الزمن وتناست الآباء والأبناء، وأبناء الأبناء، قال لمن حدث بعدهم: إن الذين كانوا قبلكم يعبدون هذه الصور؛ فعبدوها، فأرسل الله إليهم نوحاً عليه السلام فيهاهم عن عبادتها، فلم يُجيبوه إلى ذلك، وكان بين آدم ونوح عليه السلام عشرة قرون كلّهم على شريعة من الحق، ثم أن تلك الصور دفنها الطوفان في ساحل جدّه، فأخرجها اللعين. وأول من نصب الأوثان في العرب عمرو بن لُحَي بن خُزاعة، وذلك أنه خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فرأى بأرض البلقاء العَماليق^١ وهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه؟ قالوا: هذه أصنام نعبدُها فنستمطرُها فتمطرنا، ونستصيرُها فتنصرنا. فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب، فأعطوه صنماً - يقال له هُبَل - من العقيق، على صورة إنسان، فقدم به مكة فنصبه في بطن الكعبة على يسراها، وأمر الناس بعبادته وتَعْظيمه، فكان الرجل إذا قدم من السفر بدأ به قبل أهله بعد طوافه بالبيت، وحلق رأسه عنده^٢.

فردّهم الله بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، تقريباً لهم، وتهكماً بهم: ﴿أَتُنْبِئُونَ اللَّهَ﴾ وتُخبرونه، وهو علام الغيوب ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ في عالم الوجود، لا ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ وعالم الملكوت ﴿وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وعالم الملك. ومعلوم أن ما لا يعلمه الله لا وجود له.

القَميُّ عليه السلام قال: كانت قريش يعبدون الأصنام، ويقولون: إنّما نعبدُهم ليقربونا إلى الله زُلْفى، فإنّنا لا نقدر على عبادة الله، فردّ الله عليهم فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﴿أَتُنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أي ليس يعلم^٣، فوضع حرفاً مكان حرف، أي ليس له شريك يُعبد^٤.

ثم نزه ذاته المقدّسة عن الشريك بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به، وتبرأ وجَلّ عن هذا النقص.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٥.

١. زاد في تفسير روح البيان: وُلد عَملاق بن لاود بن سام بن نوح.

٣. في النسخة: أي يعلم أنّه ليس، وما أنبتناه من تفسير الصافي.

٤. تفسير القمي ١: ٣١٠، تفسير الصافي ٢: ٣٩٧.

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ

بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [١٩]

ثم أنه تعالى بعد تبرئة نفسه عن اتخاذ الشريك، تبه على أن حدوث مذهب الشرك إنما كان بالاهواء الزائفة والآراء الفاسدة بقوله: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ﴾ من زمان آدم إلى زمان نوح عليه السلام - على ما قيل^١ - ﴿إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وجماعة متفقة على ملة التوحيد والمذهب الحق - كما مر - وعن ابن عباس عليه السلام قال: كانوا على دين الإسلام في عهد آدم عليه السلام وعهد ولده^٢، وقيل: إن المراد من الناس: العرب^٣، فإنهم كانوا على مذهب التوحيد من زمان إبراهيم عليه السلام - ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ - على التفسير الأول - في عهد نوح، وعن ابن عباس: عند قتل قابيل هابيل^٤، وعلى أن المراد من الناس: العرب، عند تغيير عمرو بن لحي دين إسماعيل، فمنهم من بقي على التوحيد ودين الحق، ومنهم من أشرك وكفر. قيل: إن الغرض من بيان بدء حدوث الشرك ترك تعصب العرب لثمرته، بل الاستدلال به على بطلانه، لكون آدم والأطياب من أولاده على دين التوحيد دليل على بطلان مذهب الشرك^٥.

وقيل: إن المراد أن الناس كانوا على فطرة التوحيد فاختلغوا بواسطة الآباء^٦.

وقيل: كانوا على الكفر فاختلغوا بواسطة الأنبياء. وعليه يكون الغرض تسلية النبي صلى الله عليه وآله وقطع رجائه بإيمان الكل^٧.

ثم تبه سبحانه على استحقاق المخالفين لأهل الإيمان التسريع في تعذيبهم، والتعجيل في إهلاكهم، وإنما اقتضت الرحمة وصلاح نظام العالم إمهالهم إلى أجلهم، بقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ من قوله: سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي^٨، ومن قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾^٩ - على قول - ومن إخباره تعالى بأن التكليف باقٍ على العباد وإن كانوا به كافرين - على قول آخر^{١٠} - ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من التوحيد والشرك، وقضائه بإزالة العذاب على المشركين والرحمة على المؤمنين، وإنما الرحمة الواسعة، ومصلحة نظام العالم على الوجه الأتم، وكرامة النبي صلى الله عليه وآله الأكرم اقتضت إمهال المشركين وتأخير تعذيبهم إلى ما بعد الموت ويوم القيامة.

والحاصل: أن الحكمة اقتضت أن تكون هذه الدار الفانية دار بلاء واختيار، والدار الآخرة دار ثواب

١. تفسير الرازي ٦٢/١٧، تفسير أبي السعود ١٣٢/٤. ٢. تفسير الرازي ١٧: ٦١.

٣. تفسير أبي السعود ٤: ١٣٢. ٤. مجمع البيان ٥: ١٤٩، منسوب إلى القيل.

٥. تفسير الرازي ١٧: ٦٢. ٦. تفسير روح البيان ٤: ٢٧.

٧. تفسير الرازي ١٧: ٦٢. ٨. الأحاديث القدسية: ٢٣٠، تفسير الرازي ١٧: ٦٣.

٩. الأنفال/ ٣٣. ١٠. تفسير الرازي ١٧: ٦٣.

وعقاب.

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ [٢٠]

ثم أنه تعالى بعد إبطال مذهب الشرك، وبيان استحقاق المشركين التعجيل في عقوبتهم والتسريع في إهلاكهم، حكى سبحانه تعنتهم على النبي ﷺ، واقتراحهم عليه معجزة أخرى، سوى ما راوه منه من القرآن، وسائر ما نسبوه إلى السحر؛ بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ تعنتاً ولجاجاً: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ ومعجزة سوى القرآن ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ مع كفاية القرآن لإثبات نبوته لما فيه من وجوه الإعجاز. ولما كان إنزال الزائد على الكفاية منوطاً بمصلحة لا يعلمها إلا الله، أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يردهم بقوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ وَالْعِلْمُ بِالْمَصَالِحِ الْوَاقِعَةِ خَاصٌّ لِلَّهِ﴾ لا يشركه فيه غيره ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ مشيئته وفعله ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لذلك.

وقيل: إن المعنى: انتظروا لما يفعل الله بكم بجودكم الآيات المنزلة^١.

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ [٢١]

ثم بين سبحانه أن تكذيبهم المعجزات وتعنتهم إنما يكون لبطوهم بالراحة، وسعة العيش بقوله: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ﴾ قيل: يعني مشركي مكة ﴿رَحْمَةً﴾ من سعة وصحة^٢ ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّهُمْ﴾ من فقر ومرض ﴿إِذَا لَهُمْ﴾ حين إذاقتهم الرحمة ﴿مَكْرٌ﴾ وسعي بليغ ﴿فِي﴾ تكذيب ﴿آيَاتِنَا﴾ ومعجزات نبينا ﷺ.

رؤي أن الله سلط القحط على أهل مكة سبع سنين، ثم أنزل الأمطار النافعة على أراضيهم، ثم أنهم نسبوا تلك الرحمة إلى أصنامهم، وطفقوا يقدحون في آيات الله، ويكيدون الرسول، فقابلوا نعمة الله بالكفران^٣.

ثم أمر الله نبيه ﷺ بتهديدهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ وأعجل عقوبة مما تاتون به في إبطال الحق، فإنه يُزِيل عنكم تلك النعمة بتسليط المسلمين عليكم، وابتلائكم بالقتل

٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٩.

١. تفسير البيضاوي ١: ٤٣١، تفسير روح البيان ٤: ٢٨.

٣. تفسير الرازي ١٧: ٦٥، تفسير روح البيان ٤: ٢٩.

والأسر، أو الانقياد للرسول قبل أن تنالوا بطلوبكم؛ من الإخلال بأمر الرسول ﷺ، والإفساد في دينه.

ثم بالغ في تهديدهم بقوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ من الملائكة الكتبة لأعمال الناس ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ وما تحتلون في تكذيب الآيات، في صحائف أعمالكم، ثم يُعرض عليكم يوم القيامة لتزداد فضيحتكم وخزيكم.

وقيل: إن المراد أن لا يخفى على الحفظة شيء من خفيات أعمالكم، فكيف بالله المطلع على السرائر؟^١

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [٢٢ و ٢٣]

ثم ذكر سبحانه أحد مصاديق الرحمة بعد الضر بقوله: ﴿هُوَ﴾ القادر الرحيم ﴿الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ ويُمَكِّنكم لقطع المسافة ﴿فِي الْبَرِّ﴾ على الأقدام، وظَّهر الدوابَّ ﴿وَفِي الْبَحْرِ﴾ بالسفن والزوارق، لئيل مقاصدكم وأنتم ذاهلون عن لطافه ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ اتَّفَق في التسييرات^٢ أنكم ﴿كُنْتُمْ﴾ مُتَمَكِّنِينَ ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ والسفن، ثم عدل سبحانه عن الخطاب إلى الغيبة مبالغة في تعجيب حالهم وإنكارها عليهم؛ بقوله: ﴿وَجَرَيْنَ﴾ تلك السفن ﴿بِهِمْ﴾ على الماء ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لينة، موافقة لمقصودهم ﴿وَفَرَحُوا﴾ وشرَّوا ﴿بِهَا﴾ لطيبها وموافقتها، فإذا تَلَقَّتْ تلك الريح، أو الفلك، و ﴿جَاءَتْهَا﴾ من الطرف المخالف ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديدة، بحيث استولت على الأولى الطيبة ﴿وَجَاءَهُمْ﴾ لشدة الريح وتلاطم البحر ﴿الْمَوْجُ﴾ كالجبال ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ وجانب ﴿وَظَنُّوا﴾ لذلك ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ الهلاك وشدت عليهم المسالك، فارتعدت قرائصهم من الخوف، وصاروا مُتَقَطِّعِي الرِّجَاء من الخلق، إذن ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ وتضرَّعوا إليه بالفطرة، حال كونهم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ غير مُشركين به، قائلين في دُعائهم: يَا رَبِّ، والله ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ﴾ المَهْلَكَةِ

٢. في النسخة: التسييرات.

١. تفسير البياضوي ١: ٤٣٢، تفسير روح البيان ٤: ٣٠.

﴿لَتَكُونَنَّ﴾ البتة بعد ذلك ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لِنِعْمَتِكَ التي منها نعمة النجاة المسزولة بِتَخْصِيصِكَ بالعبادة والطاعة.

رَوَى الفخر الرازي عن الصادق عليه السلام أَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: اذْكُرْ دَلِيلًا عَلَى إثْبَاتِ الصَّانِعِ؟ فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ جِرْفَتِكَ؟ فَقَالَ: أَنَا رَجُلٌ اتَّجَرَ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ: صِفْ لِي كَيْفِيَّةَ حَالِكَ؟ فَقَالَ: رَكِبْتُ الْبَحْرَ، فَانْكَسَرَتْ السَّفِينَةُ، وَبَقِيَْتُ عَلَى لَوْحٍ وَاحِدٍ مِنَ الْوُاحِهَا، وَجَاءَتِ الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ. فَقَالَ جَعْفَرُ الصَّادِقُ عليه السلام: هَلْ وَجَدْتَ فِي قَلْبِكَ تَضَرُّعًا وَدُعَاءً؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ جَعْفَرُ: فَإِلَهَكَ هُوَ الَّذِي تَضَرَّعْتَ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ^١.

﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ﴾ الله من الزُّرْطَةِ، وما غَشِيَهُمْ مِنَ الْكُرْبَةِ: إِجَابَةً لِدَعْوَتِهِمْ الْخَالِصَةِ، وَوَجَدُوا السَّلَامَةَ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ النِّعَمِ ﴿إِذَا هُمْ﴾ فِي حَالِ السَّلَامَةِ وَالرَّاحَةِ ﴿يَسْتَبِقُونَ﴾ وَيُظَلِّمُونَ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وَيُفْسِدُونَ فِي أَقْطَارِهَا - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ بِهِ الْفَسَادَ وَالتَّكْذِيبَ، وَالْجُرْأَةَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى^٢ - حَالَ كَوْنِهِمْ مُتَدَبِّرِينَ ﴿بِغَيْرِ﴾ دِينٍ ﴿الْحَقُّ﴾ وَهُوَ التَّوْحِيدُ، أَوْ حَالَ كَوْنِهِمْ مُبْطِلِينَ فِي بَغْيِهِمْ لَا مُحَقِّقِينَ: كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ بِنَبِيِّ قَرِيظَةَ، أَوْ مُبْطِلِينَ فِي اعْتِقَادِهِمْ.

ثُمَّ وَعَظَهُمْ شَبَحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الْبَاغُونَ ﴿إِنَّمَا﴾ يَكُونُ ﴿بَغْيُكُمْ﴾ وَظُلْمُكُمْ، أَوْ إِفْسَادُكُمْ فِي الْأَرْضِ، ضَرَّرَ عَظِيمٌ ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ وَجَزَاؤُهُ لَاحِقٌ بِكُمْ، لَا عَلَى مَنْ تَبْغُونَ عَلَيْهِ، أَوْ الْمُرَادُ: إِنَّمَا يَكُونُ بَغْيُكُمْ عَلَى أَمْثَالِكُمْ، وَأَبْنَاءُ نَوْعِكُمُ الَّذِينَ هُمْ كَأَنْفُسِكُمْ، فَتَمَتَّعُوا ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وَانْتَفِعُوا بِلَذَاتِهَا، فَإِنَّهَا لَا تَبْقَى إِلَّا مَدَّةً قَلِيلَةً، ثُمَّ تَزُولُ بِسُرْعَةٍ ﴿ثُمَّ﴾ يَكُونُ ﴿إِلَيْنَا﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾، وَإِلَى مُحَضَّرٍ عَدَلْنَا مَصِيرَكُمْ ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ﴾ وَنُخْبِرُكُمْ ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بِتَعْذِيبِكُمْ أَشَدَّ الْعَذَابِ عَلَيْهِ.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: أَسْرَعَ الْخَيْرِ ثَوَابًا صَلَةُ الرَّحِيمِ، وَأَعَجَلَ الشَّرِّ عِقَابًا الْبَغْيُ وَالْيَمِينُ الْفَاجِرَةُ^٣.

وَرَوَى أَيْضًا: ثَتَانِ يُعْجَلُهُمَا اللَّهُ فِي الدُّنْيَا: الْبَغْيُ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ^٤.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عليه السلام: لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ لَانْدَكَ الْبَاغِي^٥.

وَعَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: ثَلَاثٌ يَرْجِعَنَّ عَلَى صَاحِبَيْهِ: النَّكْتُ، وَالْبَغْيُ، وَالْمَكْرُ. ثُمَّ تَلَاهُ هَذِهِ الْآيَةَ^٦.

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا

٢. تفسير الرازي ١٧: ٧١.

١. تفسير الرازي ١٧: ٦٧.

٤. تفسير الرازي ١٧: ٧١، تفسير روح البيان ٤: ٣٣.

٣. تفسير الرازي ١٧: ٧١.

٦. تفسير العياشي ٢: ٢٧٥/١٩٤٨، تفسير الصافي ٢: ٣٩٩.

٥. تفسير الرازي ١٧: ٧١.

يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنُرْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [٢٤]

ثم لما نبه سبحانه على فناء الدنيا وزوال لذاتها، أوضحه بضرِب المثل بقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وحالها العجيب في سرعة الزوال والفناء، بعد اغترار الناس بها ﴿كَمَاءٍ﴾ نافع ﴿أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بالأمطار على أرض ميتة، فاحضرت بسبب المطر ﴿فَاخْتَلَطَ﴾ وكثف ﴿بِهِ نَبَاتٌ﴾ تلك ﴿الْأَرْضِ﴾ بأنواعه المختلفة النافعة ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ كالزُّرُوع والبقول ﴿وَمَا يَأْكُلُ﴾ ﴿الْأَنْعَامُ﴾ كالحشائش، فيبقى ذلك النبات مختلطاً ومشتبكاً ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ﴾ من ذلك النبات ﴿زُخْرُفَهَا﴾ وغاية حُسْنها كالعُروس التي لبست الثياب الفاخرة، المُختلفة الألوان ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ بجميع الألوان التي تتزين بها ﴿وَوَظَّنَّ﴾ أصحاب تلك الأرض و ﴿أَهْلُهَا أَنَّهُمْ﴾ سُمُكُون من حِصَاد تلك الأرض، و ﴿قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ وعلى رفع غلتها ﴿أَتَاهَا﴾ بَغْتَةً ﴿أَمْرُنَا﴾ وحُكْمنا بِخَرَابِهَا، وهلاك نِمارها بآفةٍ من الآفات ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا﴾ بسبب نزول الآفة أرضاً مَلْسَاء، كأن زرعها وحشيشها صار ﴿حَصِيدًا﴾ من أصله، بل ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنُرْ﴾ ولم يثبت فيها شيء ﴿بِالْأَمْسِ﴾ وفي الزمان السابق ﴿كَذَلِكَ﴾ التوضيح والتفصيل البديع ﴿نُفَصِّلُ﴾ وتوضَّح، أو نذكر واحدة بعد أخرى ﴿الْآيَاتِ﴾ القرآنية التي منها الآيات المُنبِهة على زوال الدنيا، وعدم لياقتها للاغترار بها ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها، ويقفون على دقائقها.

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٢٥]

ثم أنه تعالى بعد تنفير الناس من الدنيا ولذاتها، رَغَّبهم في الآخرة بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا﴾ الناس من دار البلاء ﴿إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ ويرَغِّبهم فيها.

عن الباقر عليه السلام قال: «إِنَّ السَّلامَ هو الله عزَّ وجلَّ، وداره التي خلقها لعباده ولأوليائه الجنة»^١.
 قيل: إِنَّ وَجْهَ تسمية الله نفسه بالسَّلام سلامته - لوجوب ذاته - من الآفات والتغيير والاحتياج، أو سلامة الناس من ظُلمه، أو أَنَّهُ مُعْطِي السَّلامة من الآفات والمكاره والعيوب^٢.
 وقيل: إِنَّ دار السَّلام الجنة، لسلامة مَنْ دخل فيها من الضَّرَر والآفة والمَكروه، أو لأنَّ الله يُسَلِّم على

أهلها^١؛ كما قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾^٢، وتسلم الملائكة عليهم، ويسلم بعضهم على بعض.

عن النبي ﷺ أنه قال: «مثلي ومثلكم شبه سيد بني داراً، ووضع مائدة، وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المائدة، ورضي عنه السيد، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المائدة، ولم يرض عنه السيد، فالله السيد، والدار دار السلام، والمائدة الجنة، والداعي محمد»^٣.

وعنه عليه السلام: «ما من يوم تطلع فيه الشمس إلا ويجئها ملكان يناديان بحيث يسمع كل الخلائق إلا الثقلين: أيها الناس هلموا إلى ربكم، والله يدعو إلى دار السلام»^٤.

ثم أنه تعالى بعد دعوته العامة، خص لطفه وتوفيقه بالذوات الطيبة المستعدة بقوله: ﴿وَيَهْدِي﴾ الله بلطفه وتوفيقه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته وتوفيقه ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وطريق موصل إلى تلك الدار؛ وهو معرفة الله بالتوحيد والصفات الكمالية، ومعرفة ملائكته ورسله وحججه بالرسالة والعصمة، ووجوب الطاعة.

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [٢٦]

ثم لما دعا الله سبحانه عباده إلى الجنة، بشرهم بما أعد لهم فيها من الحظوظ بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ بتحصيل العقائد الحقّة، والمعارف الصحيحة، والأعمال الصالحة في الدنيا، المثوبة ﴿الْخُسْنَىٰ﴾ والجزاء الأوفى ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ عليها من فضله وكرمه.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الزيادة عُرْفَةٌ مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ، لها أربعة أبواب»^٥. وعن الباقر عليه السلام: «أما الحسن ف الجنة، وأما الزيادة في الدنيا، ما أعطاهم الله في الدنيا لم يحاسبهم به في الآخرة»^٦.

وعن القمي عليه السلام: هي النظر إلى رحمة الله^٧. أقول: وعليه يحمل ما روثه العامة من أنه إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تعالى: تُريدون شيئاً

١. تفسير الرازي ١٧: ٥٥. ٢. يس: ٣٦/٥٨. ٣. تفسير الرازي ١٧: ٧٤. ٤. مجمع البيان ٥: ١٥٨، تفسير الصافي ٢: ٤٠٠. ٥. تفسير القمي ١: ٣١١، تفسير الصافي ٢: ٤٠٠. ٦. تفسير القمي ١: ٣١١، وفيه: إلى وجه الله عز وجل، تفسير الصافي ٢: ٤٠٠. ٧.

أزيدكم؟ فيقولون: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، أَلَمْ تُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فما أعطوا شيئاً أَحَبَّ إليهم من النظر إلى رَبِّهم، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخُسْنَ وَزِيَادَةً﴾^١.

ثم بَشَّرهم سبحانه بالصَّون عن المكاره كُلِّها بقوله: ﴿وَلَا يَزْهُقْ﴾ ولا يغشى ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ في الجنة ﴿قَتَرُوْهُ﴾ وغبار فيه سواد ﴿وَلَا ذَلَّةٌ﴾ وهوان. قيل: إِنَّ نَفِي الوُصفين كناية عن نَفِي مَوجبات الخوف والحزن، لِيَعْلَمَ أَنَّ نعيمهم غير مَشَوِّبٍ بِمَكْرُوهٍ يوجب سَلْبَ نَضارة الوجه^٢ ﴿أُولَئِكَ﴾ الْمُحْسِنون هم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ وَأَهْلِهَا، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دَانِمون مَامُونون من الخُروج منها.

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَزْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [٢٧]

ثم أَنه تعالى بعد بَيَان حُسْن حال المُحْسِنين، بَيَّن سوء حال المُسِيئين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا﴾ وحصلوا العقائد والأعمال ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ في الدُّنيا فلهم ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾ صَدَرَتْ مِنْهُمْ بِمِثْلِهَا بلا زيادة لِمُنَافَاتِهَا الْعَدْل. قيل: إِنَّ التَّقْدِيرَ: وَجْزَاء الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا^٣ ﴿وَتَزْهَقُهُمْ﴾ وَتَغْشَاهُمْ ﴿ذِلَّةٌ﴾ ومَهَانة. وفي إسنَاد الذِّلَّةِ إليهم ذُون وُجُوههم، ذِلالةٌ على إحاطتها بهم ﴿مَّا لَهُمْ مِنْ﴾ عَذَابٍ ﴿اللَّهُ﴾ تعالى ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ وحافظ، وَيَسُودُونَ ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾ وَأَلْبَسَتْ ﴿وُجُوهَهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ حال كونه ﴿مُظْلِمًا﴾ لثبَّة سَوَادِهَا بِسَبَبِ سَوَادِ الْجَهْلِ، وَلِظُلْمَةِ الْكُفْرِ وَالضَّلَال. عن الصادق عليه السلام: «أما ترى البيت إذا كان اللَّيْل كان أَشَدَّ سَوَاداً فَكَذَلِكَ^٤ [هم] يزدادون سَوَاداً»^٥ ﴿أُولَئِكَ﴾ الْمُسِيئون ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مقيمون أَبَدًا، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا.

القَمِي عليه السلام، عن الباقر عليه السلام: «هؤلاء أهل الْبِدَعِ والشُّبُهَاتِ والشَّهَوَاتِ، يُسَوِّدُ اللَّهُ وُجُوهَهُمْ ثُمَّ يَلْقَوْنَهُ. قال: وَيُلْبِسُهُمُ اللَّهُ الذِّلَّةَ وَالصَّغَارَ»^٦.

٣. تفسير البضاوي ١: ٤٣٣.

١ و ٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٨.

٤. في الكافي: سَوَادٌ مِنْ خَارِجٍ فَلِذَلِكَ.

٥. تفسير العياشي ٢: ٢٧٧/١٩٥٢، الكافي ٨: ٢٥٢/٣٥٥، تفسير الصافي ٢: ٤٠٠.

٦. تفسير القمي ١: ٣١١، تفسير الصافي ٢: ٤٠٠.

وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا
بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانَا تَعْبُدُونَ [٢٨]

ثم بين الله تعالى زيادة حزني المشركين بقوله: ﴿وَيَوْمَ﴾ تحيي الكفار والمؤمنين، و﴿نَخْشِرُهُمْ﴾ في القبور إلى القيامة ﴿جَمِيعاً﴾ لا يشدّ منهم أحدٌ ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ من بينهم ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ برئهم غيره في الألوهية والعبادة: الرّموا أيها العابدون والمعبودون ﴿مَكَانَكُمْ﴾ ولا تبرحوا عنه ﴿أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ الذين تدعون من دُون الله، حتّى ننظر في أمركم ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ وفرّقنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وبين شركائهم الذين كانوا يعبدونهم، وانقطعت أطماعهم من شفاعتهم. عن القمي: يبعث الله ناراً تُزِيل بين الكفار والمؤمنين^١ ﴿وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ﴾ ومعبودهم من الملائكة والبشر والأصنام وغيرهم، بعدما أنطق الله الجّمادات منهم: أيها المشركون ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿إِيانَا تَعْبُدُونَ﴾ وإنما كنتم تعبدون أهواءكم، وتطيعون الشياطين الأمرين لكم بالشرك.

فَكَفَى بِاللّٰهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [٢٩ و ٣٠]

ثم لا يكتفون بالتبري عن المشركين بالإنكار، بل يستشهدون بالله على قولهم، بقوله: ﴿فَكَفَى بِاللّٰهِ﴾ العالم بحقائق الأمور ﴿شَهِيداً﴾ ومطلعاً ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ في ﴿إِنْ كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ لنا ﴿لَغَافِلِينَ﴾ لعدم الحياة والشّعور للجّماد، ولعدم الرضا بها من غيره ﴿هُنَالِكَ﴾ المقام، وفي ذلك الموقف ﴿تَبْلُوا﴾ وتختبر ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس ﴿مَا أَسْلَفَتْ﴾ وقدمت من العقائد والأعمال، فتعلم خيرها وشرها، وتنعها وضرها، وأعرضوا عن مطاوعتهم الباطل ﴿وَرُدُّوا﴾ وأرجعوا ﴿إِلَى﴾ حكم ﴿اللّٰهِ﴾ الذي هو ﴿مَوْلَاهُمْ﴾ ومطاعهم ﴿الْحَقُّ﴾ وإلى جزائه وعقابه. وقيل: يعني صاروا ملجأين إلى الإقرار بالوهمية الله^٢ ووحدايته ﴿وَضَلَّ﴾ وضاع ﴿عَنْهُمْ﴾ في ذلك المقام ﴿مَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَفْتَرُونَ﴾ على الله بادعاء ألوهيته وشفاعته.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ

فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [٣١-٣٣]

ثم أنه تعالى بعد بيان فضائح المشركين، أمر نبيه ﷺ بإقامة الحجة على فساد مذهبهم بقوله: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ، لِلْمَشْرِكِينَ احتِجَاجاً على صِحَّة التوحيد، وبطلان الشرك﴾ ﴿مَنْ﴾ الذي ﴿يَزُوقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ﴾ بإنزال الأمطار النافعة ﴿وَمَنْ﴾ من ﴿الْأَرْضِ﴾ بإنبات النباتات التي هي غذاؤكم وغذاء الحيوانات التي تأكلونها؟ ﴿أَمَنْ﴾ الذي ﴿يَمْلِكُ﴾ ويخلق لكم ﴿السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ اللذين هما أعظم أعضائكم، وأنفعها لكم؟ وقيل يعني: من يحفظهما من الآفات مع كثرتها؟ ﴿وَمَنْ﴾ الذي ﴿يُخْرِجُ﴾ ويخلق بقدرته الحيوان ﴿الْحَيَّ﴾ ﴿مِنْ﴾ المبدأ ﴿الْمَيِّتِ﴾ كالطُفَّة ﴿وَيُخْرِجُ﴾ ويخلق الشيء ﴿الْمَيِّتِ﴾ كالمَني ﴿مِنْ﴾ الحيوان ﴿الْحَيِّ﴾؟ وقيل: إن المراد من الحي: المؤمن، ومن الميت: الكافر^١ ﴿وَمَنْ﴾ الذي ﴿يُدَبِّرُ﴾ وينظم ﴿الْأُمُورَ﴾ في عوالم الوجود علوياً وسفلياً، وجسمانياً وزوحائياً ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾: إنه ﴿الله﴾ وحده، لاعتقادهم بأنه صانع العالم ومُدبره، وإنما كانوا يعبدون الأصنام لقولهم بأنهم شفعاء.

فإذا اعترفوا بذلك ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله في أن تجعلوا له شركاء في العبادة مع اعترافكم بأن جميع الأمور بيده، وأن الأصنام متهورون تحت قدرته وتديره ﴿فَذَلِكُمُ اللهُ﴾ القادر القاهر المدبر بالخصوص ﴿رَبُّكُمْ الْحَقُّ﴾ الثابتة ربوبيته، لا ما أشركتم به. فإذا ثبت أن التوحيد هو الدين الحق ﴿فَمَآذَا بَعْدَ﴾ دين ﴿الْحَقِّ﴾ وغير ملة التوحيد ﴿إِلَّا الضَّلَالُ﴾ لعدم الوساطة بين الحق والباطل، فمن تخطى أحدهما وقع في الآخر، فإذا عرفتم هذا الأمر الواضح ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ عن الحق؟ وكيف تغدولون عنه إلى الباطل والضلال؟ ﴿كَذَلِكَ﴾ الحق الذي ثبت عند كل أحد له عقل ﴿حَقَّتْ﴾ وثبتت ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وحكمه وقضاؤه ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ وتمردوا عن طاعة الله ورسله، وخرجوا عن قابلية الهداية، وذلك الحكم والقضاء الثابت ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أبداً، لعلهم تعالى بحُب طيبتهم، والطبع على قلوبهم.

وقيل: إن المراد: ثبت عذاب ربك عليهم لأنهم لا يؤمنون^٢، بل يموتون كفاراً.

١. تفسير أبي السعود ٤: ١٤١، تفسير روح البيان ٤: ٤٣.

٢. تفسير الرازي ١٧: ٨٨.

٣. مجمع البيان ٥: ١٦٢، تفسير الرازي ١٧: ٨٦.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ
فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ
أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَمَا لَكُمْ
كَيْفَ تَحْكُمُونَ [٣٥ و ٣٤]

ثم أكد سبحانه الحجة عليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ ومعبوداتكم ﴿مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ﴾ ويوجده أولاً بلا مثال سابق، من تطفة أمشاج ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ويخلقه ثانياً بعد إمامته وصيورته ثراباً.

فلما كان الجواب في القضيتين في غاية الوضوح، لسطوع برهانه، وإن كانوا جاحدين للمعاد، أمر نبيه ﷺ بأن يتوب عنهم في الجواب بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ لا غيره؛ كأننا ما كان، فلما ظهر ذلك ﴿فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾ وإلى أين تقلبون عن سبيل الحق؟

ثم بالغ سبحانه في تأكيد الحجة بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ الذين تدعون من دون الله ﴿مَنْ يَهْدِي﴾ أحداً ﴿إِلَى﴾ الذين ﴿الْحَقُّ﴾ بنصب الحجج والبراهين، وإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وتوفيق النظر والتدبر فيها ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ بلطفه ﴿يَهْدِي﴾ جميع الخلق ﴿لِلْحَقِّ﴾ ويرشدهم إليه بتوسط الهداة، فإذا كان الأمر كذلك ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي﴾ الناس ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾ وهو الله الهادي لعباده إلى كل خير ﴿أَحَقُّ﴾ وأولى ﴿أَنْ﴾ يطاع و﴿يُتَّبَعَ﴾ في أحكامه ﴿أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي﴾ ولا يهدي إلى شيء من منافعه ﴿إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾ بتوسط غيره.

قيل: إن المشركين لما كانوا معتقدين بالوهمية الأصنام عبر الله عن أصنامهم بما يغير عن العاقل العالم^١.

وقيل: إن المراد من قوله: ﴿مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾ هم العقلاء من آلهتهم؛ كالملائكة، وعيسى عليه السلام، وعزير^٢.

فإذا كان أتباع الهادي إلى الصراب واجباً بحكم العقل والوجدان ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ وأي داع يدعوكم إلى اتباع الجماد الذي لا هداية له، و﴿كَيْفَ﴾ وأنتم عقلاء ﴿تَحْكُمُونَ﴾ بما لا يحكم به عاقل، وتلتزمون بما لا يلتزم به شاعر.

وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا

يَفْعَلُونَ * وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي
بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٣٦ و ٣٧]

ثم ذكر سبحانه علة عبادتهم الأصنام بقوله: ﴿وَمَا يَشْعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في اعتقاد ألوهية الأصنام، وكونها
شُععاء لهم ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ ضعيفاً حاصلاً لهم من تقليد آبائهم. وفيه إشعار بأن بعضهم كانوا عالمين
بالتوحيد، وكانوا يُكابرون في إنكاره عناداً.

ثم أبطل سبحانه اتِّباعهم الظَّنَّ بقوله: ﴿إِنَّ الظَّنَّ﴾ وإن كان في غاية القوة ﴿لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾
والواقع ﴿شَيْئاً﴾ من الإغناء، ولا يكفي في التدين بأمر، ولا يقوم مقام العلم واليقين أبداً.
ثم هددهم سبحانه على اتِّباع الظَّنَّ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من اتِّباع الظَّنَّ، والإعراض
عن البرهان.

ثم أنه تعالى بعد إثبات التوحيد، شرع في إثبات النبوة بدفع دعوى المشركين أن القرآن هو كلام
البشر بقوله: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ مع ما هو عليها من وجوه الإعجاز ﴿أَنْ يُفْتَرَى﴾ قيل: إن المعنى:
ليفتري^١، أو افتراءً واختلاقاً ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وصادراً من غيره تعالى، لعدم قدرة غيره على ترتيب
مثله ﴿وَلَكِنْ﴾ يكون ﴿تَصْدِيقَ﴾ الكتاب ﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ومطابقاً لما نزل من الله قبله في
المعارف والمواعظ، وبيان أحوال الأنبياء وقصص الأمم الماضين، مع كون من أتى [به] أمياً لم يقرأ
الخط، ولم يطالع الكتب، ولم يجالس العلماء، ولم يتلمذ عند أحد، فلو لم تكن مطالبه مطابقة لما في
الكتب، لبالغ المعاندون في الطعن والقدح فيه، ولما لم يطعن أحد فيه مع شدة حرص الكفار عليه
وعنادهم له، علم مطابقته.

ثم ثنى سبحانه الدليل على صدق كون القرآن كلام الله بقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ وتبيين ما شرع
من الأحكام الموافقة للعقل وصلاح الكل إلى يوم القيامة، ولذا ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنه نازل ﴿مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ [٣٨]

ثم أنه تعالى بعد الاستدلال على صدق القرآن بالدليلين المتقنين، أنكر على المشركين نسبة
الافتراء إليه بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ إن محمداً اختلق القرآن و﴿افْتَرَاهُ﴾ على الله. ثم أمر نبيه ﷺ

بالتحدي به بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: إن كان القرآن كلام البشر ﴿فَأْتُوا﴾ أيها المَهْرَة في الفصاحة والبلاغة ﴿بِسُورَةٍ﴾ واحدة صغيرة ﴿مِثْلِهِ﴾ في الفصاحة والبلاغة والحلاوة ﴿وَأَدْعُوا﴾ لإعانتكم على ترتيب سورة مثل القرآن ﴿مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ﴾ دعوته ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومِمَّا سِوَاهُ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادعاء أنه كلام البشر، وأني افتريته، فإن ما افتراه أحد من الناس يقدّر على إتيان مثله غيره، فعجز الكل من عملي، مع كثرة المَهْرَة فيه، دليل قاطع على أنه من الله، خصوصاً مع تحدي مدعي النبوة به.

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ [٣٩]

ثم ذكر سبحانه علة تكذيبهم بقوله: ﴿بَلْ﴾ لشدة الغرور عن مخالفة آبانهم في الدين، سارعوا إلى أن ﴿كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ ولم يُطَوِّعُوا حَقَّ النَّظَرِ لِيَفْهَمُوا مَعَانِيَهُ وَحَقَائِقَهُ وَدَقَائِقَهُ، ويقفوا على كُنْهِهِ ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ﴾ ولم يقع بعد ﴿تَأْوِيلُهُ﴾ وما أخبر الله به من الأمور المُسْتَقْبَلَةِ، ليعلموا صِحَّةَ أخباره الغيبية بصدق النبي ﷺ، وكتابهِ ﴿كَذَلِكَ﴾ التَّكْذِيبُ الصَّادِرُ مِنْ قَوْمِكَ بِمَا تَأْمَلُ فِي مُعْجَزَتِكَ ﴿كَذَّبَ﴾ الأَمَمُ ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم.

ثم هدد سبحانه المُكْذِبِينَ بقوله: ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمد نظر الاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ المُكْذِبِينَ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بتعريضها للهلاك بعذاب الاستئصال، أو بإيقاعها في أشدَّ الخُسران، لأنهم طلبوا الدنيا وتركوا الآخرة، فلَمَّا ماتوا فاتتهم الدنيا والآخرة، ووقعوا في أشدَّ العذاب.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ [٤٠]

ثم أنه تعالى بعد تهديد المُكْذِبِينَ بالعذاب، نبه على علة تأخيرهم عنهم، وإمهالهم بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ فيما بعد، أو في قلبه، ويكذب عناداً ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أبداً، لا ظاهراً ولا باطناً، لقرط غباوته، وقلة تدبره. عن الباقر (عليه السلام) هم أعداء محمد وآل محمد [من] بعده. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ والمعاندين الذين أفسدوا فطرتهم الأصلية؛ فِعَاقِبُهُمْ أَشَدُّ الْعِقَابِ.

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِسَرِيِّ

مِمَّا تَعْمَلُونَ [٤١]

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بالمداراة مع المشركين، أو زجرهم ورذعهم، أو إظهاراً لليأس منهم بقوله: ﴿وَأَن كَذَّبُوكَ يَا مُحَمَّدٌ، فِي ادِّعَاءِ الرِّسَالَةِ وَالتَّوْحِيدِ بَعْدَ إِزْهَامِهِمُ بِالْحُجَّةِ﴾ **﴿فَقُلْ﴾** في جوابهم: **﴿يَا عَمَلِي﴾** من الإيمان بالله وطاعته، أو جزاء عملي **﴿وَلَكُمْ﴾** أيها المشركون **﴿عَمَلُكُمْ﴾** من الشرك والطغيان، أو جزاء عملكم **﴿أَنْتُمْ بَرِيثُونَ﴾** وغير مسؤولين **﴿مِمَّا أَعْمَلُ﴾** فلا تؤاخذون به **﴿وَأَنَا﴾** أيضاً **﴿بَرِيءٌ﴾** وغير مسؤول **﴿مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾** فلا أؤاخذ بعملكم.

وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ * وَمِنْهُمْ

مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ [٤٢ و ٤٣]

ثم بالغ سبحانه في بيان شدة عداوة المكذبين بالقرآن بحيث لا يرجى إيمانهم؛ بقوله: **﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾** حين تقرأ القرآن وتعلمه أصحابك؛ وهم كالصم لا يفهمون كلامك، ولا يلتفتون إلى محاسنه لشدة بغضهم لك ونفرتهم من القرآن، فلا تقرأ عليهم القرآن، ولا تجهد نفسك في دعوتهم **﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ﴾** بقدرتك البشرية، وتفهيم كلامك **﴿الصُّمَّ﴾** الذين سدّ أسماع قلوبهم الشهوات، وحُب الدنيا، وشدة العداوة من إدراك الكلام ومحاسنه **﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾** فإن تفهيم الكلام للصم العاقل لو كان ممكناً لفرسته، لا يمكن تفهيمه للصم المجنون **﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ﴾** ببصره الظاهر **﴿إِلَيْكَ﴾** وإلى معجزاتك الواضحة، ولكنهم لعمى قلوبهم لا يرون ثورك وجهات إعجاز معجزاتك **﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى﴾** وفاقد البصر إلى طريق الحق **﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾** بعين قلوبهم الطريق.

وقيل: إن المقصود من الآيتين تسلية النبي ﷺ بتشبيه المكذبين المصيرين على الكفر بالصم الذي لا عقل له، والأعمى الذي لا بصر له، فكما يمنع الصم في الأذن، والعمى في العين عن إدراك محاسن الكلام ومشاهدة محاسن الصورة - خصوصاً إذا انضم إلى الصم عدم العقل، وإلى العمى عدم البصر - كذلك تمنع شدة بغض المكذبين للحق، وعداوتهم للرسل، ونفرتهم عن القرآن، وعن قبولهم الهداية، وكما أن الطبيب إذا رأى مريضاً لا يمكن علاجه، أعرض عنه بلا استيحاش من عدم قبوله العلاج، كذلك يجب على الرسول الإعراض عن هؤلاء المكذبين بلا استيحاش من عدم قبولهم الحق^١.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ * وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ
كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ
آلِهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ [٤٤ و ٤٥]

ثم نبّه سبحانه على أن قطع الرحمة عنهم مع سعتها إنما هو بسبب سيئات أعمالهم؛ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ﴾ ولا يقطع عنهم رحمته، ولا ينقصهم مما يتعلق بمنافعهم الدنيوية والأخروية؛ من السمع والبصر، والعقل والبصيرة، واستعداد الهداية ﴿شَيْئًا﴾ ولو كان يسيراً ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ﴾ بسبب سيئات أعمالهم ﴿أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث إنهم لأنهم كانوا في الشهوات يضيعون استعدادهم، ويفسدون عقولهم، ولذا يحرمون من السعادات الأخروية.

ثم هدّد سبحانه المكذّبين المضيعين لفطرتهم الأصلية وعقولهم السليمة بقوله: ﴿وَيَوْمَ﴾ يحيي الله المكذّبين و ﴿يُحْشَرُهُمْ﴾ فيه، وحالهم أن مدة أعمارهم في الدنيا، أو إقامتهم في الثّبور ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا﴾ ولم يمكثوا فيها ﴿إِلَّا سَاعَةً﴾ وزماناً قليلاً ﴿مِنَ النَّهَارِ﴾.

قيل: إن الساعة كناية عن أقلّ زمان، وتخصيصها بالنهار لكون ساعاته أعرف حالاً من ساعات الليل^١.

ثم بالغ سبحانه في تقليل مكثهم بقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ في ذلك اليوم؛ كما يعرف بعضهم بعضاً في الدنيا، كأنهم لم يفارقوا إلا مدة قليلة، ثم يتقطع التعارف إذا عاينوا الأحوال.

وقيل يعني: يعرف بعضهم بعضاً بما كانوا عليه من الكفر والطغيان^٢.

قيل: إن استقلالهم الأعمار إنما يكون لصرفها فيما لا تنفع فيه، أو لما يشاهدون من أهوال القيامة، أو لطول مقامهم ووقوفهم في المحشر^٣.

ثم أخبر سبحانه بغاية خسارتهم بقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ المشركون ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ وأنكروا الحشر للحساب وجزاء الأعمال ﴿وَمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿مُهْتَدِينَ﴾ إلى منافعهم ومصالحهم.

وقيل: إنه كلام المشركين، والمعنى: ويوم يحشرهم حال كونهم متعارفين وقائلين قد خسر الذين... إلى آخره^٤.

وَأَمَّا تُرِيبُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَاِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ

٢ و ٣. تفسير الرازي ١٧: ١٠٤.

١. تفسير روح البيان ٤: ٤٩.

٤. تفسير الرازي ١٧: ١٠٥.

مَا يَفْعَلُونَ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ [٤٦ و ٤٧]

ثم أنه تعالى بعد تهديد المكذبين، عاد إلى تسليية نبيه بقوله: ﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ في الدنيا ﴿بِقَضِّ الْعَذَابِ﴾ الَّذِي نَعِدُهُمْ عَلَى تَكْذِيبِكَ ﴿أَوْ تَتَوَقَّيَنَّكَ﴾ وَنُخْرِجَنَّكَ مِنَ الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ نُرِيَنَّكَ عَذَابِهِمْ ﴿فَالْيَنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾ وَمَصِيرُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ وَمُطَّلَعٌ عَلَى مَا كَانُوا ﴿يَفْعَلُونَ﴾ مِنْ تَكْذِيبِكَ فَرِيئَكَ إِذَا مُجَازَاتُهُمْ كَمَا تُحِبُّ.

وقيل يعني: أن الله شاهد عليهم، يشهد بأعمالهم القبيحة على رؤس الأشهاد يوم القيامة: ليزداد خزيهم^١.

وقيل: إن كلمة ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الإخبار على الإخبار، أو بمعنى الواو^٢.

ثم بالغ سبحانه في تسليية نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِنَ الْأُمَمِ مِنْ زَمَانِ آدَمَ إِلَى الْيَوْمِ ﴿رَسُولٌ﴾ مَبْعُوثٌ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ: لَهْدَايَتِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْمَعَادِ، عَلَى حَسَبِ حِكْمَتِهِ وَأُطْفَءَ ﴿فَإِذَا جَاءَ﴾ إِلَى كُلِّ أُمَّةٍ ﴿رَسُولُهُمْ﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ الْقَاهِرَاتِ، كَذَبَتْهُ أُمَّةٌ، فَإِذَنْ ﴿قُضِيَ﴾ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ بَيْنَ الرَّسُولِ وَ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بِأَنْ يَحْكُمَ بِنَجَاةِ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَهَلَاكِ الْمُكَذِّبِينَ لَهُ، وَهُوَ الْحُكْمُ ﴿بِالْقِسْطِ﴾ وَالْعَدْلِ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فِي ذَلِكَ الْقَضَاءِ الْمُوجِبِ لِعَذَابِهِمْ، لَكُونَهُ نَتِيجَةُ أَعْمَالِهِمْ بَعْدَ إِتِمَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَقَطْعِ أَعْذَارِهِمْ بِبَيِّنَاتِ الرَّسُولِ، وَإِقَامَةِ الدَّلَائِلِ عَلَى الْحَقِّ. وقيل: إنه تعالى لما قال: ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيَّنَّ أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يَحْضَرُهُمْ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ مَعَ رَسُولِهِمْ، لِيَشْهَدَ عَلَيْهِمْ بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ، حَتَّى يَظْهَرَ عَدْلُهُ تَعَالَى غَايَةَ الظُّهُورِ^٣.

وعن الباقر عليه السلام قال: «تفسيرها في الباطن أن لكل قرن من هذه الأمة رسولا من آل محمد ﷺ يخرج إلى القرن الذي هو إليهم رسول؛ وهم الأولياء وهم الرُّسل. وأما قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ فإن معناه: أن رُسُلَ الله يقضون بالقسط وهم لا يُظْلَمُونَ»^٤.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا

١ و ٢. تفسير روح البيان ٤: ٥٠.

٣. تفسير الرازي ١٧: ١٠٦.

٤. في تفسير العياشي: قال.

٥. تفسير العياشي ٢: ٢٧٨/١٩٥٨، وزاد فيه: كما قال الله، تفسير الصافي ٢: ٤٠٥.

يَسْتَفْهِمُونَ [٤٨ و ٤٩]

ثم أنه تعالى بعد تهديد المكذبين بالعذاب، حكى استهزاءهم به بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لك يا محمد، وللمؤمنين بك استهزاء، أو استبعاداً لما وعدتهم من العذاب: ﴿مَتَى﴾ يكون وقوع ﴿هَذَا الْوَعْدِ﴾ الذي وعدتمونا به ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في وعدكم؟

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بأن يحبيهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: إني ﴿لَأَمْلِكُ﴾ ولا أقدر ﴿لِنَفْسِي﴾ على أن أدفع ﴿ضُرّاً﴾ وإن كان يسيراً ﴿وَلَا﴾ أن أجلب ﴿نَفْعاً﴾ وإن كان حقيراً ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن أدفعه من الضر، أو أجلبه من النفع؛ لأنه تعالى مالهما، وهو لم يعين لوعده وقتاً، إنما المعلوم عندنا١ ﴿لِكُلِّ أَمَةٍ﴾ وعد بتعذيبهم ﴿أَجَلٌ﴾ ووقت معين لعذابهم، خاص بهم في علمه، يحل بهم العذاب الموعود عند حلوله، و﴿إِذَا جَاءَ﴾ كل أمة ﴿أَجَلُهَا﴾ المضروب لهلاكهم، أنجز الله وعده ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ولا يمهلون ﴿سَاعَةً﴾ وزماناً قليلاً ﴿وَلَا يَسْتَفْهِمُونَ﴾ عليه. عن الصادق عليه السلام: «هو الذي سمي لملك الموت في ليلة القدر»٢.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ * أَتُمْ إِذَا مَا وَفَع أَمْتُمْ بِهِ الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ * تُمْ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ [٥٠-٥٣]

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بلوم المكذبين في تعجيلهم العذاب بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني أيها المكذبون ﴿إِنْ أَتَاكُمْ﴾ ونزل بكم ﴿عَذَابُهُ﴾ الموعود ﴿بَيَاتاً﴾ وليلاً ﴿أَوْ نَهَاراً﴾ وأنتم تشتغلون بأمور معاشكم ﴿مَاذَا﴾ وأي نفع تصوّرون للعذاب الذي ﴿يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ﴾ هؤلاء ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ أي مقصود لهم في استيعجاله، مع أن العاقل يستأخره ويفر منه لثقله مرارته وصعوبة تحمله. وفي وضع المجرمين موضع الضمير، تنبيه على علة استحقاقهم العذاب، وعلى مقتضى فرارهم منه، وبإيانة حالهم للاستيعجال فيه.

ثم كأنه قال سبحانه: إن كان غرضهم من الاستيعجال علمهم بصدق النبي، وإيمانهم بتوحيد الله وصدق وعده، فليعلموا أن الإيمان بعد مشاهدة العذاب لا ينفعهم في الخلاص والوصول إلى ثوابه،

١. زاد في النسخة: أن، قبل الآية، وحذفناها لما يترتب عليها من تغيير الموقع الإعرابي للفظ الآية وتفسيرها بحيث

يكون (أجلاً ووقتاً معيناً...) . ٢. تفسير العياشي ٢: ١٩٥٩/٢٧٨، تفسير الصافي ٢: ٤٠٥.

يَلْ يُقَالُ لَهُمْ عِنْدَ إِيْمَانِهِمْ بَعْدَ زُورِيَةِ الْعَذَابِ تَوْبِيخًا وَتَقْرِيعًا لَهُمْ: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ الْعَذَابِ، وَهَلْ بَعْدَ نَزْوِلِهِ عَلَيْكُمْ وَشَقُوطِ الْإِيْمَانِ عَنِ النَّفْعِ فِي حَقِّكُمْ ﴿أَمَنْتُمْ بِهِ﴾ وَصَدَقْتُمُوهُ؟!

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ التَّوْبِيخَ وَالتَّقْرِيعَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَاآنَ﴾ وَهَلْ فِي هَذَا الْحِينِ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَبِرِسَالَةِ الرَّسُولِ، وَتَرْجُونَ الْإِنْتِفَاعَ بِالْإِيْمَانِ وَالْخَلَاصِ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ﴾ قَبْلَ نَزْوِلِهِ ﴿بِهِ تَسْتَغْجِلُونَ﴾ تَكْذِيبًا لَوَعْدِ اللَّهِ، وَاسْتِهْزَاءً بِالرَّسُولِ؟

﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ بَعْدَ نَزْوِلِ الْعَذَابِ ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يَوْضَعُ تَكْذِيبَ الرَّسُولِ مَوْضِعَ تَصْدِيقِهِ، وَالْكَفْرِ مَوْضِعَ الْإِيْمَانِ: ﴿ذُوقُوا﴾ وَاطْعَمُوا ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ وَالذَّائِمِ، كَمَا أَذَقْتُمُ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنِينَ جُرْعَ الْغُصَصِ، وَكَزُوسِ الْكُرُوبِ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ الْيَوْمَ بِسَبَبِ ﴿إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿تُكْسِبُونَ﴾ لِأَنْفُسِكُمْ مِنَ الْكَفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَفِيهِ تَنْبِيْهٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ لِلرَّحْمَةِ، وَإِنَّمَا الْعَذَابُ هُوَ نَتِيجَةُ أَعْمَالِهِمْ.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ حِكَايَةِ اسْتِهْزَاءِ الْمُكْذِبِينَ بِوَعْدِهِم بِالْعَذَابِ، حَكَى عَنْهُمْ السَّوَالَ عَنْ صِدْقِ هَذَا الْوَعْدِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَسْتَنْتِظُونَكَ﴾ وَيَسْتَخْبِرُونَ مِنْكَ يَا مُحَمَّدٌ، بَعْدَ إِخْبَارِكَ إِيَّاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴿أَحَقُّ﴾ هَذَا الْوَعْدِ، وَصِدْقُ ﴿هُوَ﴾ أَمْ صِرْفُ تَخْوِيفٍ لَا وَاقِعَ لَهُ؟ ﴿قُلْ﴾ فِي جَوَابِهِمْ: ﴿إِي وَرَبِّي﴾ وَنَعْمَ وَاللَّهِ ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ حَقِيقٌ بِالْقَبُولِ، وَصِدْقٌ لَا مَجَالَ لِلرَّيْبِ فِيهِ. عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام: «وَيَسْتَنْتِظُكَ أَهْلُ مَكَّةَ عَنِ عَلِيٍّ: أِمَامَهُ هُوَ ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾»^٢ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ رَبُّكُمْ مِنْ إِدْرَاكِكُمْ، وَفَانْتِينَ عَنْهُ بِالْهَرَبِ حِينَ إِرَادَتِهِ تَعْذِيبَكُمْ.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا

الْعَذَابَ وَقَضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [٥٤]

ثُمَّ بَالِغَ سُبْحَانِهِ: بَعْدَ نَفْيِ قُدْرَتِهِمْ عَلَى الْهَرَبِ مِنَ الْعَذَابِ، فِي بَيَانِ عَدَمِ تَمَكُّنِهِمْ مِنَ الْخَلَاصِ بِبَدْلِ الْفِدَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ﴾ فَرَضَ ﴿أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ مِنَ النَّفُوسِ الَّتِي ﴿ظَلَمَتْ﴾ بِالْإِشْرَاكِ - وَعَنِ الْقَمِيِّ: آلُ مُحَمَّدٍ حَقَّهُمْ^٣ - ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ مِنْ خَزَائِنِهَا وَكُنُوزِهَا وَأَمْتَعَتِهَا ﴿لَافْتَدَتْ﴾ تِلْكَ النَّفْسُ ﴿بِهِ﴾ وَبِذَلِكَ بَازَاةَ نَجَاتِهَا مِنَ الْعَذَابِ - عَنِ الْقَمِيِّ: يَعْنِي فِي الرَّجْعَةِ^٤ - لَا يَقْبَلُ مِنْهَا ﴿وَأَسْرُوا﴾ وَأَخْفُوا ﴿النَّدَامَةَ﴾ عَلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الشُّرْكِ وَالْعِصْيَانِ، كَرَاهَةً لَشِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ - كَمَا عَنْ

٢. أمالي الصدوق: ١٠٤٧/٧٧١، تفسير الصافي ٢: ٤٠٦.

١. زاد في الأمالي: يا محمد.

٣ و٤. تفسير القمي ١: ٣١٣، تفسير الصافي ٢: ٤٠٦.

الصادق ﷺ^١ - أو عَجْزاً عن الطُّق لغاية الحيرة والدَّهْشَة ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾. وقيل: إن ﴿أَسْرَوْا﴾ هنا بمعنى أظهروا^٢؛ لأنه ليس بيومٍ تَصْبِرُ ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ جميعاً؛ المشركين منهم وغير المشركين، من سائر فِرَقِ الْكُفَّارِ والطُّغَاةِ، بِالْقِسْطِ، والعدل، ويَحْكَمُ عليهم بالعذاب اللّاتقِ بهم ﴿وَهُمْ لَا يُظَلِّمُونَ﴾ فيما فُعلَ بهم من العذاب، لكونه نتيجة سيئاتهم.

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [٥٦ و ٥٥]

ثم أنه تعالى بعد نفي الكذب في وعده، ونفي قبوله الفداء لرفع العذاب، أعلن بغناه المطلق، وعدم تطرُّق الكذب في وعده بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ﴾ وحده ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يحتاج إلى أخذ الفداء، وليس لكم مال تغدّون به ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ وصدق لا يمكن الخلف فيه، لقبحه المُنَافِي لِحِكْمَتِهِ، وكَمَالِ قُدْرَتِهِ على إنجازه ﴿وَلَكِنَّ﴾ النَّاسَ ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لقصور عقولهم، وكَمَالِ غَفْلَتِهِمْ، بسبب انهماكهم في الشّهوات، فيقولون ما يقولون. ثم أكّد سبحانه كَمَالِ قُدْرَتِهِ بقوله: ﴿هُوَ﴾ القادر الذي ﴿يُحْيِي﴾ الْمَيِّتَ ﴿وَيُمِيتُ﴾ الْحَيَّ، بلا دَخَلٍ لأحدٍ في ذلك ﴿وَإِلَيْهِ﴾ في الآخرة ﴿تُرْجَعُونَ﴾ كما أنكم منه تبدأون.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ [٥٧]

ثم أنه تعالى بعد تحذير النَّاسِ من الكُفْرِ وتكذيب الرُّسُلِ، وَجَهَ خِطَابِهِ إليهم، استيمالةً لهم نحو الْحَقِّ وقَبُولِهِ؛ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ثم دَعَاهُمْ إلى اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ بِذِكْرِ فَوَائِدِهِ الْعَظِيمَةِ بقوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ﴾ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الَّتِي هِيَ ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ لَكُمْ، وتَذَكُّرَةٌ بِعَوَاقِبِ أَعْمَالِكُمْ ﴿مِنْ﴾ قِبَلِ ﴿رَبِّكُمْ﴾ اللَّطِيفِ بِكُمْ ﴿وَرَوْى﴾ هِيَ ﴿شِفَاءٌ﴾ وَبَرَاءٌ ﴿لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ وَالْقُلُوبِ مِنَ الْأَمْرَاضِ الرُّوحَانِيَّةِ كَالْجَهْلِ وَالشَّكِّ، وَذَائِلِ الْأَخْلَاقِ. عن الصادق ﷺ: أَنَّهُ شِفَاءٌ مِنْ أَمْرَاضِ الْخَوَاطِرِ، ومُشْتَبِهَاتِ الْأُمُورِ^٣. وفي رواية: مِنْ نَفْسِ الشَّيْطَانِ^٤ ﴿وَرَوْى﴾ هِيَ ﴿هُدًى﴾ وَرَشَادٌ إِلَى الْحَقِّ وَسَائِرِ الْخَيْرَاتِ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وَفَضْلٌ خَاصٌّ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الْمُتَدَبِّرِينَ فِيهَا، الْمُقْتَسِبِينَ مِنْ أَنْوَارِهَا.

١. تفسير العياشي ٢: ٢٧٩/١٩٦١، تفسير القمي ١: ٣١٣، مجمع البيان ٥: ١٧٥، تفسير الصافي ٢: ٤٠٦.

٢. تفسير الرازي ١٧: ١١١.

٣. تفسير الصافي ٢: ٤٠٧.

٤. الكافي ٨: ٤٤/٨، تفسير الصافي ٢: ٤٠٧.

قيل: شبه الله نبيه ﷺ بالطبيب الحاذق وكتابه بكتاب فيه دستور معالجة المريض^١. ولما كان أول التدبير في معالجته تهيه عن تناول ما يضره، وصف القرآن أولاً بكونه موعظة، وزاجراً عن المعاصي وارتكاب الميبدات والمهلكات عن الله. ثم استعمل الأدوية المثنية لمزاجه من الأخلاط الفاسدة الموجبة للمرض، وصف القرآن ثانياً بكونه شفاءً، والمراد منه المجاهدة في إزالة الأخلاق الرذيلة، فإذا زالت حصل الشفاء للقلب والصفاء للروح. ثم استعمل الأدوية المقوية للمزاج، وصف القرآن ثالثاً بكونه هدياً، والمراد منه تجلية الأنوار القدسية في القلب. ثم استعمل ما يوجب تزايد القوة من مرتبة الصحة إلى مرتبة الكمال القابل، وصف القرآن رابعاً بكونه رحمةً، والمراد منها إيصال جوهر الروح إلى أعلى درجات القرب، وهذا خاص بالمؤمنين الكاملين في الإيمان والعمل.

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ [٥٨]

ثم أنه تعالى بعد الإشارة إلى مراتب تفضله ورحمته بعباده المؤمنين، أمر نبيه بأن يأمر المؤمنين بتخصيص فرحهم وشورهم لهما بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمؤمنين: ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ وهو رسوله ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ وهي القرآن فليفرحوا، وإن فرحوا بشيء في العالم ﴿فَبِذَلِكَ﴾ المذكور من الفضل والرحمة بالخصوص ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ لا بشيء آخر؛ لأن ما ذكر من الفضل والرحمة ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ وأفضل وأنفع ﴿مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من زخارف الدنيا الفانية، وخطامها الكاسد. عن النبي ﷺ: «أفضل الله: ثبوت نبيكم، ورحمته: ولاية علي بن أبي طالب، ﴿فَبِذَلِكَ﴾ قال: بالثبوت والولاية ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ يعني: الشيعة ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يعني: مخالفيهم، من الأهل والمال والولد، في دار الدنيا»^٢.

وعن الباقر عليه السلام: «فضل الله: رسول الله ﷺ، ورحمته: علي بن أبي طالب»^٣. وزاد القمي رحمه الله: فبذلك فليفرح شيعتنا، هو خير مما أعطي أعداؤنا من الذهب والفضة»^٤.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ اللَّهُ أَدْنٰ
لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ [٥٩]

١. تفسير الرازي ١٧: ١١٥.
٢. أمالي الصدوق: ٨٠٣/٥٨٣، تفسير الصافي ٢: ٤٠٧.
٣. مجمع البيان ٥: ١٧٨، جوامع الجامع: ١٩٥، تفسير الصافي ٢: ٤٠٧.
٤. تفسير القمي ١: ٣١٣، تفسير الصافي ٢: ٤٠٧.

ثم أنه تعالى بعد إبطال مذهب الشرك، وتوعيد المشركين على تكذيب الرسول ﷺ واستهزائهم به وبالقرآن، وبخهم على بدعهم ومفترياتهم على الله بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من السماء ﴿مِنْ رِزْقٍ﴾ حلال بسبب الأمطار، وتأثير الشمس وسائر الكواكب، في نضجه وزيادته وتلويته. وقيل: إن الرقاد من الإنزال من السماء: التقدير فيه^١، وقيل: الخلق والإنشاء^٢ ﴿فَجَعَلْتُمْ﴾ بعضاً ﴿مِنْهُ حَرَاماً﴾ على أنفسكم كالسائبة وأخواتها ﴿وَ﴾ بعضاً ﴿حَلَالاً﴾.

ثم أكد سبحانه الأمر بالاستيخار بالتكرار بقوله: ﴿قُلْ﴾ توبخاً لهم: ﴿ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في هذا الجعل والتبعض، فتمثلون أمره تعالى ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ﴾ بأهوانكم ﴿تَفْتَرُونَ﴾ وفي نسبة ذلك إليه تكذيبون؟ فإن تقولوا إن الجعل على سبيل الافتراء، فقد التزمتم بما اتفق العقلاء على بطلانه وقبحه، وتستحقون العقوبة عليه، وإن تقولوا إنه بإذن الله، فمن المعلوم أنه ما شافهكم الله به، فلا بد أن تلتزموا بمجيء رسول منه إليكم، مع أنكم تذكرون الرسالة، وتبالغون في تكذيب مدعيها، فثبت أنكم مفترون.

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ [٦٠]

ثم أظهر سبحانه التعجب من جرأتهم على الله في هذا الافتراء بقوله: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ الحكم ﴿الْكَذِبَ﴾؟ وأي توهّم لهم أن يصنع بهم ويتعامل معهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الذي هو يوم عرض الأعمال والأقوال، والمجازاة عليها مثقالاً بميثقال؟ أيتوهّمون أنهم لا يسألون عن افتراءهم، ولا يجازون عليه، أو يجازون ولكن لا يجازون جزاءً شديداً، ولذا لا يسألون بما يرتكبون؟ كلا بل يعدّون عذاباً شديداً، بل أشدّ العذاب؛ لأن عصيانهم أشدّ المعاصي وفي ذكر الكذب مع الافتراء؛ الذي هو عين الكذب، مبالغة في قبحه.

ثم أكد سبحانه استحقاقهم العذاب بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ جميعاً بإعطائهم القوى والعقل المميز بين الحسن والقيح، والحق والباطل، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وتعليم الشرائع، وبالإرشاد إلى طرق تحصيل المعاش والمعاد ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على تلك النعم بالقيام بوظائف العبودية، وصرف القوى الظاهرية والباطنية فيما خلقت له، ولذا يستحقون العذاب،

١. تفسير أبي المسمود ٤: ١٥٦، تفسير روح البيان ٤: ٥٥.

٢. تفسير الرازي ١٧: ١٢٠.

وَيُتْلُونَ بِأَسَدِ الْعِقَابِ.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ
شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [٦١]

ثم أنه تعالى بعد ذكر إصرار المشركين على الكفر وتكذيب النبي ﷺ واستهزائهم بالقرآن، وأمر
النبي ﷺ بالجواب عن مقالاتهم والمداراة معهم، وتهديدهم بالعذاب، بالغ في تسليية النبي
والمؤمنين، وتهديد الكفار ببيان أن جميع أحوالهم وأعمالهم بعين الله بقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا محمد
﴿فِي شَأْنٍ﴾ من الشؤون، وحال من الأحوال الظاهرة والباطنة والخفية، من أمور الدنيا أو من جميع
الأمر، ثم خص شأن تلاوة القرآن بالذكر تعظيماً له بقوله: ﴿وَمَا تَتْلُوا﴾ تلاوة هي بعض شأنك
والمُعْظَم ﴿مِنْهُ﴾ يكون ﴿مِنْ قُرْآنٍ﴾.

وقيل: إن ضمير ﴿مِنْهُ﴾ راجع إلى القرآن من باب الإضمار قبل الذكر، لتعظيم القرآن^١. ثم جمع في
الخطاب بين النبي ﷺ والمؤمنين بقوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ جليل أو حقير، ظاهر أو خفي
﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾ ورُقباء حافظين له ﴿إِذْ تُفِيضُونَ﴾ وتُخْرُصُونَ ﴿فِيهِ﴾ وتشتغلون به ﴿وَمَا
يَعْزُبُ﴾ ولا يبعد ﴿عَنْ رَبِّكَ﴾ ولا يغيب عن علمه المحيط بجميع الأشياء ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ وما
يساوي وزن نملة صغيرة أو هباء لا ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ وهما كناية عن عالم الوجود
﴿وَلَا﴾ شيء ﴿أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ الذرة ﴿وَلَا أَكْبَرَ﴾ منها ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ و [هو] اللوح
المحفوظ.

وقيل: إن المعنى: لا يعزب عن ربك شيء من الأشياء، ولكن جميع الأشياء في كتاب مبين، فكيف
يعزب عنه شيء؟^٢ فإذا كان كذلك فليخف الكافرون عذاب الله، ولا يخف المؤمن منهم.

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [٦٢]

ثم بالغ سبحانه في تقوية قلب النبي ﷺ والمؤمنين بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ وأحباءه من النبي
والمؤمنين ﴿لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ في الدارين من نيل مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لفوت مأمول
ومطلوب.

عن النبي ﷺ أَنَّهُ شَتَلَ عَنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ يُذَكِّرُ اللَّهُ بِرُؤْيَيْهِمْ»، يَعْنِي فِي السَّمْتِ وَالْهَيْئَةِ^١.

وعن الصادق، عن النبي ﷺ: «مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَعَظَّمَهُ مَنَعَ فَاهُ مِنَ الْكَلَامِ، وَبَطَنَهُ مِنَ الطَّعَامِ، وَعَنَى نَفْسَهُ بِالصَّيَامِ وَالْقِيَامِ. قَالُوا: يَا أَبَانَا وَأَمَهَاتَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَؤُلَاءِ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ؟ قَالَ: إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ سَكَتُوا فَكَانَ شَكْوَتُهُمْ ذِكْرًا، وَنَظَرُوا فَكَانَ نَظَرُهُمْ عِبْرَةً، وَنَطَقُوا فَكَانَ نُطْقُهُمْ حِكْمَةً، وَمَشَوْا فَكَانَ مَشْيُهُمْ بَيْنَ النَّاسِ بَرَكَةً، لَوْلَا أَجَالُ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَقَرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ خَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ^٢، وَشَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ»^٣.

عن الباقر عليه السلام قال: «وَجَدْنَا فِي كِتَابِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إِذَا أَدَّوْا فَرَانِضَ اللَّهِ، وَأَخَذُوا بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ، وَتَوَرَّعُوا عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَزَهَدُوا فِي عَاجِلِ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، وَرَغِبُوا فِيْمَا عِنْدَ اللَّهِ، وَاکْتَسَبُوا الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، لَا يُرِيدُونَ [بِهِ] التَّفَاخُرَ وَالتَّكَاثُرَ، ثُمَّ أَنْفَقُوا فِيْمَا يَلْزَمُهُمْ مِنْ حَقُوقٍ وَاجِبَةٍ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ بَارَكَ اللَّهُ لَهُمْ فِيْمَا اكْتَسَبُوا، وَيُثَابُونَ عَلَى مَا قَدَّمُوا لِآخِرَتِهِمْ»^٤.

وعن الصادق عليه السلام: «طُوبَى لِشِيعَةِ قَائِمِنَا الْمُتَنَظِّرِينَ لظُهُورِهِ فِي غَيْبَتِهِ، الْمُطِيعِينَ لَهُ فِي ظُهُورِهِ، أُولَئِكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»^٥.

اَلَّذِيْنَ اٰمَنُوْا وَكَانُوْا يَتَّقُوْنَ * لَهُمُ الْبُشْرٰى فِى الْحَيٰةِ الدُّنْيَا وَفِى الْاٰخِرَةِ لَا تَبْدِيْلَ لِكَلِمٰتِ اَللّٰهِ ذٰلِكَ هُوَ اَلْقُوْرُ الْعَظِيْمُ [٦٤ و ٦٥]

ثم وصف سبحانه أوليائه بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب بكل ما جاء من عنده الله ﴿وكانوا يتقون﴾ الأعمال السيئة، والأخلاق الذميمة، وحُب الدنيا، وما ألهى عن ذكر الله. وقيل: يتقون مما سوى الله، وهو التقوى الحقيقي^٦.

ثم نبه الله على نتيجة ولايته بقوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ بالسلامة من كل شرٍّ ومكروه ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وبالرحمة الموصولة، والتَّعَمُّع بعد الموت ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

وقيل: إن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بيان لتوليهم الله تعالى^٧، وقوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ بيان لتولي الله إياهم.

٢. في الكافي: العذاب.

١. جوامع الجامع: ١٩٦، تفسير الصافي ٢: ٤٠٩.

٤. تفسير العياشي ٢: ٢٨٠/١٩٦٥، تفسير الصافي ٢: ٤٠٩.

٣. الكافي ٢: ٢٥/١٨٦، تفسير الصافي ٢: ٤٠٩.

٦. تفسير أبي السعود ٤: ١٥٩.

٥. إكمال الدين: ٥٤/٣٥٧، تفسير الصافي ٢: ٤٠٩.

٧. تفسير البيضاوي ١: ٤٤٠.

عن النبي ﷺ: «الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» الرؤيا الحسنة يراها المؤمن، فيُبشِّرُ بها في دنياه^١.
وعنه ﷺ في رواية عامية: «هي في الدنيا الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن لنفسه، أو تُرى له، وفي الآخرة الجنة»^٢.

وفي (الفتحية): وأما قوله ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فإنها إشارة [المؤمن] عند الموت، يُبشِّرُ [بها] عند موته أن الله عز وجل قد غفر لك ولمن يَحْمِلُكَ إلى قبرك^٣.

وعن الباقر عليه السلام: «يُبشِّرهم بقيام القائم ويظهره، ويقتل أعدائهم، وبالنجاة في الآخرة، والورود على محمد وآله الصادقين على الخوض»^٤.

وعن الصادق عليه السلام: «أن الرجل إذا وقعت نفسه في صدره، يرى رسول الله ﷺ، فيقول له: أنا رسول الله، أنبشِر. ثم يرى علي بن أبي طالب عليه السلام، فيقول: أنا علي بن أبي طالب الذي كُنْتُ تُحِبُّهُ، أنا أنفعك اليوم. قال: وذلك في القرآن قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ * لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ»^٥.

وعن الباقر عليه السلام: «إنما أحدكم حين تبلغ نفسه هاهنا ينزل عليه ملك الموت فيقول له: [أما] ما كُنْتُ تَرَجُو فقد أعطيتَه، وأما ما كُنْتُ تخافه فقد أَمِنْتُ منه. ويفتح له باب إلى منزله من الجنة، ويقال له: انظر إلى مسكنك من الجنة، وانظر هذا رسول الله وأمير المؤمنين والحسن والحسين رُفقاءك، وهو قول الله تبارك وتعالى وتقدس: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ إلى آخر الآية»^٦.

ثم أكَّد سبحانه الوعد بقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾ ولا تغيير ﴿لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ ولأقواله، ولا خلف في وعده ﴿ذَلِكَ﴾ التبشير في الدارين ﴿هُوَ الْقُوَى الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز فوقه.

وَلَا يَخْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ أَعْرَضَ اللَّهُ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [٦٥]

ثم أتته تعالى بعد إشارة النبي والمؤمنين بالأمن من كُلِّ مكروه، وكان المشركون في تدبير إهلاك النبي ﷺ وإبطال أمره، نهاه تعالى عن المبالاة بهم والتأثر بأفعالهم وأقوالهم بقوله: ﴿وَلَا يَخْزُنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ وتكذيبهم وتشاؤره في تدبير إهلاكك.

١. من لا يحضره الفقيه ١: ٣٥٦/٨٠، تفسير الصافي ٢: ٤٠٩.

٢. تفسير الرازي ١٧: ١٢٧، تفسير روح البيان ٤: ٦١، جوامع الجامع ١٩٦، تفسير الصافي ٢: ٤١٠.

٣. من لا يحضره الفقيه ١: ٣٥٦/٨٠، تفسير الصافي ٢: ٤٠٩.

٤. الكافي ١: ٨٣/٣٥٦، تفسير الصافي ٢: ٤١٠.

٥. في الكافي: تحبّه تُحب أن.

٦. الكافي ٣: ٨/١٣٣، تفسير الصافي ٢: ٤١٠.

٧. تفسير العياشي ٢: ١٩٦٧/٢٨٠، تفسير الصافي ٢: ٤١٠.

ثم كأنه قيل: لم لا يحزن مع قلة أنصاره وكثرة أعدائه؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ وَالْقُوَّةَ وَالْعَلْبَةَ﴾ **﴿لِلَّهِ﴾** وحده **﴿جَمِيعاً﴾** في مملكته وسلطانه، لا قدرة لأحد غيره، فهو يغلبهم وينصر رُسله والمؤمنين، و **﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾** لمقالات المعاندين **﴿الْعَلِيمُ﴾** بما عزموا عليه، وهو مجازيهم أشد الجزاء. ففيه مع تأمينه من القتل والإيذاء، تبشير له بالعلبة والنصرة.

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ [٦٦]

ثم أكد سبحانه كمال قدرته، وتعود سلطانه بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ﴾ وحده بلا شركة أحد من مخلوقاته **﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾** من الملائكة **﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾** من الجن والإنس، فإن الجميع - مع كونهم شاعرين عاقلين قادرين - مقهورون تحت قدرته وسلطانه، فكيف بغيرهم من الحيوانات والنباتات والجَمادات؟

ثم أنه تعالى بعد إثبات قدرته وتوحيده في الألوهية والسلطنة، ذمَّ المشركين بقوله: **﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾** المشركون **﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾** ويعبدون **﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾** ومِمَّا سواه من الأصنام، بتوهم أنهم **﴿شُرَكَاءُ﴾** لله في الألوهية والعبادة برهاناً وقيناً، بل **﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾** شيئاً **﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾** الحاصل من عمل الآباء والكبراء **﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾** ويخمنون من عند أنفسهم. وقيل: أي يكذبون في قولهم: أنها آلهة.

وقيل: إن (ما) في قوله **﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾** استفهامية، والمعنى: أي شيء يتبع المشركون؟ والجواب: **﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾**^١، وقيل: إنها موصولة^٢، والمعنى: الله ما يتبع المشركون^٣.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ * قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ [٦٧ و ٦٨]

١. تفسير الصافي ٢: ٤١١، تفسير البضاوي ١: ٤٤١.

٢. في تفسير البضاوي: موصولة ومعطوفة على (مَنْ) في الآية **﴿لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ...﴾**.

٣. تفسير الصافي ٢: ٤١١، تفسير البضاوي ١: ٤٤١.

ثم بالغ سبحانه في تقرير قدرته الكاملة الدالة على اختصاص العزة به بقوله: ﴿هُوَ الْقَادِرُ﴾ الَّذِي جَعَلَ، وانشأ ﴿لَكُمْ اللَّيْلَ﴾ وجعله مظلماً ﴿لَتَسْكُنُوا﴾ وتستريحوا ﴿فِيهِ﴾ من تعب طلب المعاش ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ ومضيئاً، لتحركوا فيه لتحصيل معاشكم ومصالحكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الجعل ﴿لآيَاتٍ﴾ بينات، وبراهين ساطعات على التوحيد ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الدلائل، أو آيات القرآن سماع تدبر وتفهم واعتبار.

ثم أنه تعالى بعد إبطال القول بوجود الشريك له، شرع في إبطال القول بوجود الولد له بقوله: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ﴾ واختار لنفسه ﴿وَلَدًا﴾ من الملائكة؛ كما هو قول مشركي العرب، أو من البشر؛ كعيسى وعزير. ثم نزه ذاته المقدسة عن هذه النسبة، أو أظهر التعجب من كلمتهم الحمقاء بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ كيف يكون له الولد و ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ على الإطلاق، واتخاذ الولد من آثار الحاجه؟! ثم أكد غناه بقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وما بينهما، ولا يمكن أن يكون الولد ملكاً لوالده.

ثم أكد بطلان قولهم، بقوله مخاطباً لهم: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ﴾ وما لكم ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وبرهان ﴿بِهَذَا﴾ القول، وكفى في بطلانه عدم البرهان به. ثم وبخهم بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ﴾ وتخلقون ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ العظيم ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من القول ببرهان ساطع! ومن المعلوم أن الالتزام بما لا يعلم عين السفة، ومباين لطريقة العقلاء.

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا

مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيْقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ [٦٩ و ٧٠]

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بتهديدهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ ويقولون عليه ﴿الْكَذِبَ﴾ من اتخذه الشريك والولد ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ ولا يفوزون بنعمة الآخرة، ولا ينجون من عذابها.

ثم كأنه قيل: كيف وكثير منهم ممنعون بالنعم؟ فأجاب سبحانه: ذلك ﴿مَتَاعٌ﴾ وتلذذ يسير ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ زائل بسرعة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا﴾ بعد الموت ﴿مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيْقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي
بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ
عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ [٧١]

ثم ذكر سبحانه معارضة نوح قومه تسليّة للمؤمنين، وتهديداً للكفار بقوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾^١ وخبره الذي له شأن من معارضته لقومه الذين هم أضراب قومك في الكفر والعناد، ليستدبروا وينزجروا عما هم عليه من الشرك والشقاق، وتثبت نبؤك بسبب موافقة ما تحجب به لما ثبت في الكتب السماوية وغيرها، مع علمهم بأنك أمة لم تقرأ كتاباً، وما جالست عالماً ويظهر لهم أن العزة لله، ويطمئن المؤمنون بأن الله ينصر أولياءه، ويقوى قلبك في معارضة قومك وعدم المبالاة بهم وباقوالهم ﴿إِذْ قَالَ﴾ نوح ﴿لِقَوْمِهِ﴾ بعد تكذيبهم قوله وإيدائهم له: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ﴾^٢ ﴿وَشَقَّ عَلَيْكُمْ﴾ ونثّل على قلوبكم ﴿مَقَامِي﴾ فيكم، ومكني بينكم لطول مدته، ونفرتكم عن دعوتي، أو قيامي للوعظ ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ إياكم ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وبراهين ألوهيته ووحدانيته ﴿فَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ وبه وثقت في جميع أموري منذ عرفته، فلا أبالي بكم، ولا أخاف من كيدكم ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ أنتم ﴿أَمْرَكُمْ﴾ اعزموا على السعي في إهلاك الذي هو مطلوبكم، أو اجمعوا ذوي الأمر منكم، أو وجوه كيدكم، وادعوا إلى إعانتكم عليه ﴿شُرَكَاءَكُمْ﴾ وأصنامكم. وقيل: إن الواو بمعنى (مع).^٣

وقيل: إن التقدير: اجمعوا أمر شركائكم^٤. وعلى أي تقدير، هو مبنّي على التهكم. ثم بالغ في دعوتهم إلى مبارزته وإظهار عدم المبالاة بهم بقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ ذلك ومتصودكم هذا ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ ومستوراً، بل اجعلوه ظاهراً مكشوفاً لعدم الداعي إلى ستره مع عدم خوفكم مني، واستحالة هربي منكم عند اطلاعي على تجمعكم على قتلي. وقيل: إن المعنى: لا يكن أمركم وحالكم؛ الذي يعتريكم من كراهة مقامي وتذكيري عليكم، غمة وكربة، بل عجلوا في تخليص أنفسكم بإهلاك^٥. وعن القمي: لا تغتموا^٦ ﴿ثُمَّ اقْضُوا﴾ وأدوا ﴿إِلَيَّ﴾ إهلاك الذي توهمون أنه حقي عليكم، أو المراد: أوصلوه إليّ ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ولا تمهلوني ساعة، بل عجلوا بذلك غاية التعجيل، فإني مع ثقتي بالله وحفظه إياي حسب وعده، أعلم أنكم لن تجدوا إلى ذلك سبيلاً.

١. تفسير الرازي ١٧: ١٣٧، تفسير روح البيان ٤: ٦٦، تفسير أبي السعود ٤: ١٦٤.

٢. تفسير أبي السعود ٤: ١٦٤.

٣. تفسير أبي السعود ٤: ١٦٥.

٤. تفسير القمي ١: ٣١٤، تفسير الصافي ٢: ٤١١.

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَتَبْجِئَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَبَجَاءَ وَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ [٧٢-٧٤]

ثم بين أنه لا علة لإعراضهم عنه، وإرادتهم إهلاكه بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عني وعن نصحي وتذكيري، فقد فعلتم ما لا سبب له ولا باعث، فإن تخيلتم أنني أطمع في أموالكم ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ﴾ بمقابل وعطي وتذكيري ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ وعوض تؤدونه إلي من أموالكم، حتى يؤدي ذلك إلى إعراضكم لثقله عليكم، أو لدلالته على أن قصدي من دعوتي طلب الدنيا لا امتثال أمر الله، واعلموا أن قصدي إطاعة أمر الله ﴿إِنْ أَجَرِيَ﴾ وما عوض عملي ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ لأن العمل له، وعوضه عليه، وهو لا يضع أجر العاملين له، وإن لم تنفعكم دعوتي، وتوليتم عن الإصغاء لكلامي، فإن علي العمل بما أمرت به ﴿وَ﴾ أنا ﴿أُمِرْتُ﴾ من قبل عقلي ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ والشافدين لأوامره، ولذا لا أخالف أمره، ولا أرجو الثواب إلا منه.

وقيل: إن المعنى: وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لما يصيبني من البلاء في طاعته^١.
﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعد إتمام الحجة عليهم، وإيضاح المحجة لهم، كتكذيبهم قبله، فلما ظهر أن توليهم ليس إلا من العتو والطغيان، فلا حزم حقت عليهم كلمة العذاب ﴿فَتَبْجِئَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ كان ﴿مَعَهُ﴾ من المؤمنين ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ الذي صنعه بأمرنا، وكانوا ثمانين ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ في الأرض من الهالكين برحمتنا التي [هي] من شؤون الربوبية ﴿وَأَعْرَفْنَا﴾ بالطوفان الكفار ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ غضباً عليهم بمقتضى جرائمهم الموبقة ﴿فَانْظُرْ﴾ يا محمد، أو أيها الإنسان، نظراً التعجب والاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر ﴿الْمُنْذَرِينَ﴾ وإلى مال أمرهم. وفيه تهويل لما جرى عليهم، وتهديد لمكذبي الرسول وتسليته له.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ بالرسالة ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ وبعد انقضاء رسالته بالموت ﴿رَسُولًا﴾ كثيرة، عظيمة الشأن ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ كهود إلى عاد، وصالح إلى ثمود، وإبراهيم إلى أهل بابل، وشعيب إلى أهل مدين، وغيرهم ممن قص أحوالهم أو لم يقص ﴿فَبَجَاءَ وَهُمْ﴾ وأتوا بينهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات

الباهرات، لا بأن يأتي كلُّ رسول بمُعجزة واحدة، بل لكلِّ واحدٍ منهم مُعجزاتٍ عديدة، خاصّة به حسب اقتضاء الحكمة البالغة ﴿فَمَا كَانُوا﴾ هؤلاء الأقوام ﴿لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أن يروا المُعجزات، ولم يُزجَ منهم أن يُصدّقوهم في رسالتهم التي أنكروها في أوّل بعثتهم، أو في عالم الدّر، لشدّة إصرارهم على العتوّ والتمرد والعناد للحقّ، والطّبع على القلوب ﴿كَذَلِكَ﴾ الطّبع المُحكّم ﴿تَطْبَعُ عَلَى قُلُوبٍ﴾ الكفّار ﴿الْمُفْتَدِينَ﴾ المتجاوزين عن حُدود العقل، المتجافين عن قبول الحقّ وسلوك طريق الرّشد، فلم يُمكن إيمانهم بسوء اختيارهم وانهماكهم في الشّهوات والضلال.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ * قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ [٧٥-٧٧]

ثمّ حكى سبحانه إرسال موسى ﷺ بعد أولئك، ومعارضة قومه معه، وتوكّله على الله بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا بِالرّسالة﴾ من بَعْدِهِم مُوسَى بن عمران ﴿وَ﴾ أخاه هَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وأشراف قومه بِآيَاتِنَا السّبع، فأتياهم وبلغاهم الرّسالة ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن قبول قولهما واتباعهما ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ متمرّنين على العتوّ والطّعيان، ومُعتادين لارتكاب العصيان، فلذا اجترأوا على تكذيبهما ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ﴾ الآيات البينات التي كلّها ﴿الْحَقُّ﴾ الذي عرفوه ﴿مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا﴾ عتوّاً وعناداً: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي جاء به وسمّاه مُعجزة ﴿لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وشعبة ظاهرة، لا مجال للشكّ فيه، فلا يجوز الاعتماد عليه في الإيمان بموسى واتباعه، ولا الاعتراض به.

فلما كذّبوه ونسبوا ما أتى به من المُعجزة الظّاهرة [إلى السحر] ﴿قَالَ مُوسَى﴾ للمُكذّبين تعجباً من قولهم، وتوبيخاً لهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ الذي هو أبعد شيءٍ من السّحر - الذي هو الباطل البحت - ما تقولون، أو تعيبونه وتطمعون فيه ﴿لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ ووقفتم عليه من غير تدبّر وتأمل؟!

ثمّ بالغ في توبيخهم بقوله: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ المُعجز الذي إعجازه في غاية الظّهور، بحيث لا يُمكن أن يرتاب فيه أحد؟ وكيف يُمكن أن أكون من السّاحرين، ﴿وَ﴾ الحال أنّه ﴿لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ ولا يفوزن بمطلوب، ولا ينجون من مكروه، مع أنّي ظافر بكلِّ مطلوب ومضون من كلّ محدور؟

قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُؤْمِنُونَ بِكُلِّ سَاحِرٍ غَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ * فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا

جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضْلِعُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ [٧٨-٨٢]

ثم كأنه قيل: ما قال فرعون وملؤه لموسى في جوابه؟ فأجابهم سبحانه بقوله: ﴿قَالُوا﴾ عَجْزاً عن محاجته: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ يا موسى ﴿لِنُلْقِئَكَ﴾ وتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من عبادة الأصنام، وتمنعنا من تقليدهم في الشرك ﴿وَتَكُونَ﴾ باتباعنا ﴿لَكُمْ﴾ الْكِبْرِيَاءُ، والسلطنة والتفوق علينا ﴿فِي﴾ بلك ﴿الْأَرْضِ﴾ ومملكة مصر ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ﴾ الْبَنَةُ ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ وبكم مصدقين في دَعْوَى الثَّبُوةِ، وتوحيد الإله، ولا تؤثر راسنكما على راسنا. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لخدمه وملائه: ﴿أَتَأْتُونِي﴾ من كل ناحية ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ بالسحر، حاذق فيه، حتى يعارضوا موسى بمثل ما أتى به، فذهب الخدمة وأتوا بهم ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ ووقفوا في مقابل موسى ﷺ لمعارضته ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى﴾ إظهاراً لعدم مبالاته بهم: ﴿أَلْقُوا﴾ أيها السحرة ﴿مَا أَنتُمْ ثَلَاثُونَ﴾ من الجبال والعصي ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ جبالهم وعصيهم، واسترهبوا الناس بسحرهم ﴿قَالَ مُوسَى﴾ لهم وهو غير مكتثرت بهم وبعملهم: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ﴾ وما صنعتموه هو ﴿السَّحَرُ﴾ البين الذي يعرفه كل أحد، واعلموا ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ﴾ ويمحقه، بما يظهره على يدي من المعجزة، أو المراد أن الله يظهر بطلانه للناس ويفضح فاعله.

ثم بين سبحانه علة إبطاله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضْلِعُ﴾ ولا يثبت على حاله ﴿عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سواء أكان سحراً أو غيره، لأنه لا يرضى بالفساد في الأرض ﴿وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ ويثبت ويدبمه ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ ومواعيده التي وعداها على لسان رُسله، أو بما سبق من قضائه ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ ذلك ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ المصرون على العصيان. وفيه تسلية للنبي ﷺ.

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنْ فِرْعَوْنُ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [٨٣-٨٦]

ثم ألقى موسى عصاه، وأبطل سحر السحرة، وأتى بمعجزات كثيرة أخرى ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾ مع ذلك ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ وجماعة قليلة، أو حديثو البين ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ بني إسرائيل، عن ابن عباس قال: لفظ

«الذَّرِيَّةُ» يُعْبَرُ [به] عن القوم على وَجْهِ التَّحْقِيرِ والتَّصْغِيرِ^١. وقيل: أريد بالذَّرِيَّةُ أولاد مَنْ دَعَاهُمْ، وأما الآباء فقد استمروا على الكُفْرِ^٢. وقيل: أريد من «قومه» قوم فرعون: وهُم أَسِيَّةُ، وخازنة، وامرأة خازنة وما شِطَّهَا، ومؤمن آل فرعون^٣. وعلى أي تقدير، كان إيمانهم «عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ» وقيل: إن ضمير الجَمْعِ راجعٌ إلى فرعون لما يُعْتَادُ في ضمائر الأعاظم^٤. وقيل: عبّر عن قوم فرعون باسمه^٥. وقيل: إنّه راجع إلى الذَّرِيَّةِ؛ لأنَّ آبَاءَهُم كانوا يمتنعونهم من الإيمان خوفاً عليهم من فرعون^٦. - «أَنْ يَفْتِنَهُمْ» ويُعَذِّبَهُمْ «وَأَنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ» وغالب، أو مُتَكَبِّرٌ وَعَاتٍ «فِي» تِلْكَ «الْأَرْضِ» التي ملكها «وَأَنَّهُ لَمِنْ الْمُسْرِفِينَ» في الظُّلْمِ والفَسَادِ بِتَعْذِيبِ الضُّعَفَاءِ، وسَفْكِ الدِّمَاءِ، أو في الكِبَرِ والعَتُوِّ حَتَّى ادَّعَى الرُّبُوبِيَّةَ، واسترقَّ أبناء الأنبياء.

«وَقَالَ مُوسَى» للمؤمنين لما اشتدَّ خوفُهُم من فرعون: «يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ» عن صَمِيمِ القلب، وعَرَفْتُمُوهُ بِالْقُدْرَةِ الكاملةِ والرَّحْمَةِ والرَّأْفَةِ «فَعَلَيْهِ» وَحْدَهُ «تَوَكَّلُوا» واعتمدوا في حِفْظِكُمْ، وإن نزل بكم بِلَاءٌ فاصبروا «إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» ومُستسلمين لِقَضَائِهِ، راضين بِرِضَا «فَقَالُوا» مُجِيبِينَ له من غير رِيثٍ إظهاراً لِكَمَالِ الإيمانِ والتَّخْلِوصِ: «عَلَى الله» وَحْدَهُ «تَوَكَّلْنَا» في جميع أمورنا.

ثم قالوا مُتَوَجِّهِينَ إلى الله ومُتَضَرِّعِينَ إليه: «وَرَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا» بِمُقْتَضَى رُبُوبِيَّتِكَ وَلُطْفِكَ «فِتْنَةً» ومُورِدَ عَذَابٍ «لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» أو لَا تُسَلِّطْهُمْ عَلَيْنَا فَيَفْتِنُونَا عن دينك، أو يُفْتِنُوا بِنَا بِتَخْلِيلِهِمْنَا أَنَّا لَوْ كُنَّا عَلَى الْحَقِّ مَا أَصَابَنَا مِنْهُمْ ضَرَرٌ. عنهما عليه السلام: «لَا تُسَلِّطْهُمْ [علينا] فَتَفْتِنَهُمْنَا»^٧. - «وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنْ» صُحْبَةِ «الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» وسوءِ جوارهم، أو من ظلمهم.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْتُوتَا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ

قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ [٨٧]

ثم أنّه تعالى بعد إظهار القوم إيمانهم وتوكلهم عليه وتضرعهم إليه، أمر موسى وهارون بأخذ المساجد لهم، والاهتمام بالصلاة، وتبشير المؤمنين بقوله: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ» هارون «أَنْ تَبَوَّءَا» أو اخِذَا، أو هَيِّئَا «لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْتُوتَا» يسكنون فيها، ويرجعون إليها للعبادة «وَاجْعَلُوا» أنشأ وقومكما «بُيُوتَكُمْ» تِلْكَ «قِبْلَةً» ومُصَلًى، أو مساجد مُتَوَجِّهَةٌ إلى الْقِبْلَةِ - عن

٣. تفسير الرازي ١٧: ١٤٤، تفسير البضاوي ١: ٤٤٤.

٥. تفسير الرازي ١٧: ١٤٥.

٧. مجمع البيان ٥: ١٩٣، تفسير الصافي ٢: ٤١٤.

١ و٢. تفسير الرازي ١٧: ١٤٤.

٤. تفسير البضاوي ١: ٤٤٤.

٦. تفسير أبي السعود ١٧٠: ١٧٠.

ابن عباس: كانت الكعبة قبلة موسى^١. ومن غيره: كانت قبلته جهة بيت المقدس^٢. وقيل: يعني: اجعلوا بيوتكم متقابلة، والمقصود حصول الجمعية، وتعاضد بعضهم ببعض^٣. وقيل يعني: صلوا في بيوتكم لئلا يظهر عليكم الكفار فتؤذوكم ويفتنوكم عن دينكم^٤. وقيل يعني: استقبلوا البيوت لأجل الصلاة^٥: «وَأَقِيمُوا» جميعاً «الصَّلَاةَ وَنَشِّرْ» يا موسى «الْمُؤْمِنِينَ» بالنصرة في الدنيا إجابة لدعائكم، وبالجنة في الآخرة.

وإنما خاطب سبحانه خصوص موسى وهارون في اتخاذ المساجد لأنه وظيفة الرؤساء، وخاطب الكل في الأمر بجعل البيوت مساجد والصلاة فيها، لأنه وظيفة الكل، وخاطب موسى في الأمر بالبشارة لأنه وظيفة الرسول.

عن العياشي: أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال: أيها الناس، إن الله عز وجل أمر موسى وهارون أن يبينا لقومهما بمصر يوتاً، وأمرهما أن لا يبيت في مسجد هما جُنب، ولا يقرب فيه النساء إلا هارون وذريته، وإن علياً مني بمنزلة هارون من موسى، فلا يحل لأحد أن يقرب النساء في مسجدي، ولا يبيت فيه جُنب، إلا علي وذريته، فمن ساء ذلك فها هنا. فضرب^٦ بيده نحو الشام^٧.

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ [٨٨-٨٩]

ثم أنه تعالى بعد أمر موسى ببشارة المؤمنين بالنصر والغلبة على الأعداء إجابة لدعائهم، حكي دعاء موسى ﷺ على الكفار بعد بيان سبب طغيانهم بقوله: «وَقَالَ مُوسَى» غضباً على فرعون وقومه: «رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ» وأعطيت «فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً» ومآخر كثيرة؛ كالجمال والقوة والشوكة ونظائرهما «وَأَمْوَالاً» وفيرة «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» فآلهتهم تلك الزينة والأموال عن ذكرك وذكر الآخرة، فاشتغلوا بإضلال عبادك، كأنك «رَبَّنَا» أعطيتهم تلك «لِيُضِلُّوْا» الناس «عَنْ سَبِيلِكَ» ويَصْرِفُوهم عن تصديق رسولك واتباع دينك.

٥. تفسير الرازي ١٧: ١٤٧.

٤- ١. تفسير الرازي ١٧: ١٤٨.

٦. في المصدر: وأشار. ٧. تفسير العياشي ٢: ٢٨٣/١٩٧٤، تفسير الصافي ٢: ١٤٤.

وعن القمّي: يفتنون الناس بالأموال ليعبدوهم ولا يعبدونك^١. وقيل: إن الكلام على سبيل التعجب المقرون بالإنكار، والمعنى: آتيتهم ذلك ليضلّوا. وقيل: إن ﴿لِيُضِلُّوْا﴾ دُعاء عليهم كما يقال: ليغفر الله للمؤمنين وليعذب الكافرين^٢. وقيل: إن اللام للعاقبة^٣، والمعنى: صار عاقبة إحسانك إليهم إضلالهم. ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ﴾ وأورد الهلاك، أو التغيير ﴿عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ حتى لا يستفيدوا بها ﴿وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ وأقسها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ بشيء من الحق ﴿حَتَّى يَرَوْا﴾ ويعانوا ﴿الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ في الدنيا، أو في الآخرة، فلا ينفعهم الإيمان إذ ذاك.

عن ابن عباس: أن موسى كان يدعو، وهارون كان يؤمن^٤.

عن النبي ﷺ: «دعا موسى وأمن هارون وأمنت الملائكة ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿قَدْ أَجِيبْتُ دَعْوَتُكُمَا﴾ ومن غزا في سبيل الله استجيب له كما استجيب لكما يوم القيامة^٥.

وعن ابن عباس: بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة متوشة كهيئتها^٦.

﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ وأثبتنا على ما أئتما عليه من الدعوة ولا تستعجلا، فإن ما طلبتما كائن ولكن في وقته ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ﴾ ولا تسلكا ﴿سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وطريق الجهال في الاستعجال، وعدم الوثوق بوعده الله، أو لا يعلمون أن عادة الله تعليق الأمور بالحكم والمصالح.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا
أَذْرَكَهُ الْفِرْعَوْنُ قَالَ أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ
الْمُسْلِمِينَ [٩٠]

ثم أخبر سبحانه بإنجازه وعده لموسى والمؤمنين بالنصر، وكيفيّة إهلاك فرعون وقومه بقوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وعبرناهم ﴿الْبَحْرَ﴾ بتجفيفه وحفظهم، حتى خرجوا منه إلى الساحل ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ ولحقهم ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ وذهبوا في أثرهم ليرتكبوا ﴿بَغْيًا﴾ وظلماً عليهم، أو إفراطاً في قتلهم ﴿وَعَدُوًّا﴾ وتجاوزاً في ظلمهم، أو المعنى: حال كونهم باغين في القول، عادين في الفعل، وذلك أن موسى ﷺ لما خرج ببني إسرائيل على حين غفلة من فرعون، سمع بخروجهم فرعون وتبعهم حتى وصل إلى ساحل البحر، وبنو إسرائيل خرجوا منه ومسلكهم باقٍ على حاله يبساً، فسلكه بجنوده أجمعين، فلما دخلوا في مسلكهم الذي كان في البحر غشيهم من اليم ما غشيهم.

١. تفسير القمي ١: ٣١٥، تفسير الصافي ٢: ٤١٥.

٢. تفسير الرازي ١٧: ١٥٠.

٣. تفسير أبي السعود ٤: ١٧٢.

٤. تفسير الرازي ١٧: ١٥٢.

٥. تفسير الرازي ١٧: ١٥٢.

٦. الكافي ٢: ٣٧٠، تفسير الصافي ٢: ٤١٥.

عن العياشي مرفوعاً: «لَمَّا صَارَ مُوسَى عليه السلام فِي الْبَحْرِ أَتَبَعَهُ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، قَالَ: فَتَهَيَّبْ فَرَسُ فِرْعَوْنَ أَنْ يَدْخُلَ الْبَحْرَ، فَتَمَثَّلَ لَهُ جَبْرِئِيلُ عَلَى رَمَكَةٍ^١، فَلَمَّا رَأَى فَرَسَ فِرْعَوْنَ الرَّمَكَةَ أَتَبَعَهَا فَدَخَلَ فِي الْبَحْرِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ فَغَرِقُوا»^٢.

﴿حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ﴾ ووصل به ﴿الْفَرْقُ﴾ وعابن الموت ﴿قَالَ﴾ إِبْجَاءً واضطراباً ﴿أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ وأخلصت له ديني كما أخلصوا له دينهم ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ والمُتْقَادِينَ له كما هُم كذلك. وإنما أظهر تبعيته لهم في الإيمان رجاءً أَنْ يَكُونَ تَبَعاً لَهُمْ فِي النِّجَاةِ. قيل: كَرَّرَ المعنى الواحد بثلاث عبارات، حيث قال أولاً: ﴿أَمَنْتُ﴾، ثم قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، ثم قال: ﴿أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ حرصاً على القَبُولِ الْمُفْضِي إِلَى النِّجَاةِ^٣.

الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ [٩١-٩٢]

ثم وبَّخه الله سبحانه على تأخيرهِ الإيمانَ إلى وقتٍ لا نفعَ له بقوله: ﴿الْآنَ﴾ وهل في هذا الوقت الذي لا يَنْفَعُكَ الإيمانُ فيه ثَوَمٌ وتوبٌ ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ رَبَّكَ ﴿قَبْلَ﴾ وفي زمانٍ يَنْفَعُكَ فيه الإيمانُ والتَّوْبَةُ ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض، المُبَالِغِينَ فِي الضَّلَالِ وَالْإِضْلالِ؟ وفيه غاية التَّوْبِخِ والتَّعْرِيعِ.

عن الصادق عليه السلام: «مَا أَتَى جَبْرِئِيلُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله إِلَّا كَتَبَ حَزِينًا، وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ مُنْذُ أَهْلَكَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا أَمَرَهُ اللَّهُ بِزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ نَزَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ ضَاكِكٌ مُسْتَبْشِرٌ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: مَا أَتَيْتَنِي يَا جَبْرِئِيلُ إِلَّا وَقَدْ تَبَيَّنَ الْحُزْنُ فِي وَجْهِكَ حَتَّى السَّاعَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا مُحَمَّدُ، لَمَّا أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ قَالَ: ﴿أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فَأَخَذْتُ حِمَاءً^٤ فَوَضَعْتُهَا فِي فَمِهِ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: ﴿الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وَعِلِمْتُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَمْرِ اللَّهِ، ثُمَّ خِفْتُ أَنْ تُلْحَقَهُ الرَّحْمَةُ مِنَ اللَّهِ وَيُعَذِّبَنِي اللَّهُ عَلَى مَا فَعَلْتُ، فَلَمَّا كَانَ الْآنَ وَأَمَرَنِي اللَّهُ أَنْ أُوَدِّيَ إِلَيْكَ مَا قُلْتَهُ لِفِرْعَوْنَ، آمَنْتُ وَعِلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى رِضًا»^٥.

أقول: في الرواية بنظري إشكالات لا مجال للذكرها، وإنما يُسَهِّلُ الْخَطْبُ أَنَّهَا مِنَ الْأَحَادِ الَّتِي لَا

١. الرَّمَكَةُ: أُنْثَى الْفَرَسِ تُتَّخَذُ لِلنَّسْلِ.

٢. تفسير العياشي ٢: ٢٨٤/١٩٧٥، تفسير الصافي ٢: ٤١٦.

٣. الحِمَاءُ: الطَّيْنُ الْأَسْوَدُ الْمُنْتَنِ، وَالْقِطْعَةُ مِنْهُ: حِمَاءٌ.

٤. تفسير أبي السعود ٤: ١٧٣.

٥. تفسير القمي ١: ٣١٦، تفسير الصافي ٢: ٤١٦.

توجب علماً ولا عملاً.

وعن الرضا عليه السلام أنه سئل: لأيّ علة أغرق الله فرعون وقد آمن به، وأقرّ بتوحيدهِ؟ قال: «لأنّه آمن عند رؤية البأس، والإيمان عند رؤية البأس غير مقبول، وذلك حكم الله تعالى ذكره في السلف والخلف». الخبر^١.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ وتُنقذك من البحر ﴿بِدَبْدَبِكَ﴾ وجئتك بعد موتك، وتلقي جيفتك الخبيثة على نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، ليتيقن بنو إسرائيل بعد رؤيتك هالكاً بإنجاز الله وعده إياهم بهلاكك، كما عن الشّمي: أخبر موسى عليه السلام بني إسرائيل أنّ الله قد أغرق فرعون فلم يُصدّقوه، فأمر الله عزّ وجلّ البحر فلفظ به على الساحل حتّى رأوه ميتاً^٢.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ﴾ وبقي بعدك من القائلين بالوحيّتك وروبيّتك ﴿آيَةً﴾ ودليلاً على نهاية عجزك؛ كما قيل: أراد الله أن يشاهده الخلق على الذّلّ والمهانة، بعد ما سمعوا منه قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ لينزجروا عن مثله^٣.

قيل: تخصّيصه من بين المُغرّقين بهذه الحالة العجيبة، آية عظيمة على كمال قدرته تعالى، وعلى صدق موسى عليه السلام^٤.

عن الرضا عليه السلام في رواية: «وأما فرعون فنَبَذَهُ اللهُ وحده وألقاه بالساحل لينظروا إليه وليعرفوه، ليكون لمن خلفه آية، ولئلا يشكّ أحدٌ في هلاكه، إنهم كانوا اتّخذوه ربّاً، فأراهم الله إياه جيفةً مُلقاةً على الساحل، ليكون لمن خلفه عبرة وموعظة»^٥.

وعنه عليه السلام: «أنّه كان من قرّنه إلى قدمه في الحديد قد لبسه على بدنه، فلما غرق ألقاه الله تعالى على نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ [ببدنه]، ليكون لمن بعده علامة فيروّنه مع ثقله بالحديد على مُرتفعٍ مِنَ الْأَرْضِ، وسبيل التّقليل أن يرشّب ولا يرتفع»^٦.

وعن ابن عباس: كان عليه درعٌ من ذهب يُعرّف بها، فأخرجه الله [من الماء] مع ذلك الدّرع ليُعرف^٧.

ثم وُيخّ شبحانه النَّاسَ على إعراضهم عن الآيات بقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٧٧/٧، تفسير الصافي ٢: ٤١٧.

٢. تفسير القمي ١: ٣١٦، تفسير الصافي ٢: ٤١٧. ٣. تفسير الرازي ١٧: ١٥٧.

٤. تفسير الرازي ١٧: ١٥٧.

٥. تفسير القمي ١: ٣١٦، تفسير الصافي ٢: ٤١٨ عن الباقر عليه السلام.

٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٧٨/٧، تفسير الصافي ٢: ٤١٧.

٧. تفسير الرازي ١٧: ١٥٧.

لا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون بها مع وفورها.

عن الصادق عليه السلام: «كان بين قول الله: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾، وبين أخذ فرعون أربعين سنة»^١.
عن الباقر عليه السلام: «أملى الله لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة، ثم أخذه الله نكال الآخرة والأولى، وكان بين أن قال الله لموسى وهارون: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ وبين أن عرفهما الله الإجابة أربعين سنة»^٢.

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا
حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ [٩٣]

ثم أنه تعالى بعد ذكر غَضَبه على فرعون بالْعَرَق والإهلاك، بَيَّن رَحْمته على بني إسرائيل بقوله:
﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ وأسكنَّا ﴿بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ بعد إنجائهم من ظَلَم فرعون، وإهلاك أعدائهم ﴿مَبُوءًا
صِدْقٍ﴾ ومنزلًا صالحًا مَرْضِيًّا، وَمَسْكَنًا محمودًا؛ وَهُوَ الشَّام ومصر ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾
كالمَنِّ والسَّلَوى، والأثمار اللذيذة ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في أمور دينهم ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بصحة
جميعها، والاطِّلاع بسبب تلاوة التوراة على جميع الشرائع والأحكام، ووجوب التوحيد واتِّحاد
الكلمة.

عن ابن عباس: المراد ببني إسرائيل بني قُرَيْظَة، وبني النُّضِير، وبني قَيْنَقَاع، الذين كانوا في عصر
النبي عليه السلام، أنزلهم الله بين المدينة والشَّام من أرض يثرب، ورزقهم من الرُّطْب والتَّمَر الذي لا يوجد
مثله في البلاد، فما اختلفوا في أمر محمد عليه السلام إلا من بعد ما علِموا صدقه، فأمن به بعضهم كعبد الله
بن سلام وأضرابه، وكفر به آخرون. والمراد بالعلم: القرآن العظيم^٣.
ثم وعد سبحانه المؤمنين، وأوعد الكافرين منهم بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِي﴾ ويحكم
﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بإثابة المؤمنين، وتعذيب الكافرين.

فَإِنْ كُنْتُ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ
جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ [٩٤ و ٩٥]

١. تفسير العياشي ٢: ٢٨٤/١٩٧٥، بحار الأنوار ١٣: ٥٥/١٤٠.

٢. الخصال: ١١/٥٣٩، بحار الأنوار ١٣: ٢٩/١٢٨. ٣. تفسير روح البيان ٤: ٧٩ عن ابن عباس.

ثم أنه تعالى بعد بيان اختلاف بني إسرائيل في أمور الدين، بين إعجاز القرآن بكونه موافقاً للكتب السماوية، مع كون من أتى به أمياً؛ بقوله مخاطباً لرسوله ﷺ في الظاهر، ولأتمته في الواقع: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القصص التي من جملتها قصة موسى وفرعون، وإنجاء بني إسرائيل وإسكانهم الأرض المقدسة ﴿فَسْأَلْ﴾ عن صحتها العلماء ﴿الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ﴾ السماوي النازل ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ ومن قبل كتابك؛ كعبد الله بن سلام وتميم الداري وأضرابهما من علماء أهل الكتاب، فإن جميع ما نزل عليك مُحَقَّق عندهم، ثابت في كتبهم.

وقيل: إن الخطاب في الظاهر والواقع للرسول ﷺ، ولا يستلزم القضية الشرطية إمكان تحقق مقدمها، بل تصح مع امتناعه وامتناع جزائه؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾^١. فلا دلالة في الآية على إمكان وجود الشك للرسول.

وقيل: إن الخطاب لكل من يسمع، والمعنى: إن كنت أيها الإنسان أو السامع في شك^٢.

وعن الهادي عليه السلام أنه سأله أخوه موسى عن هذه الآية، حين كتب إليه يحيى بن أكنم يسأله عن مسائل فيها: أخبرني من المخاطب بالآية، فإن كان المخاطب هو النبي ﷺ فليس قد شك^٣، وإن كان المخاطب غيره؛ فعلى غيره إذن أنزل الكتاب؟ قال موسى: فسألت أخي - علي بن محمد عليه السلام - عن ذلك، فقال: «المخاطب بذلك رسول الله ﷺ، ولم يكن في شك مما أنزل الله^٤، ولم يكن يسأل، ولكن ليتبينهم كما قال تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^٥، وكذلك عَرَفَ النَّبِيُّ أَنَّهُ صَادِقٌ فِيمَا يَقُولُ، وَلَكِنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ»^٦.

وعن النبي ﷺ قال: «لَا أَشْكُ وَلَا أَسْأَلُ»^٧.

وعن الثماني عليه السلام عن الصادق عليه السلام: «لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ وَأَوْحَى [الله] إِلَيْهِ فِي عِلِّيِّهِ مَا أَوْحَى مِنْ شَرَفِهِ وَمِنْ عَظَمَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ، وَرَدَ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَجَمَعَ لَهُ النَّبِيِّينَ وَصَلُّوا خَلْفَهُ، عَرَضَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ عَظَمِ مَا أَوْحَى إِلَيْهِ فِي عِلِّيِّهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني: الأنبياء، فقد أنزلنا إليهم في

١. الزخرف: ٨١/٤٣. ٢. تفسير روح البيان ٤: ٨٠.

٣. زاد في تفسير العياشي: فيما أنزل الله.

٤. هناك كلام طويل في المصدر أسقطه المؤلف للاختصار، وأبدله بعبارة (ولم يكن يسأل).

٥. آل عمران: ٦١/٣. ٦. تفسير العياشي ٢: ١٩٧٧/٢٨٤، علل الشرائع: ١/١٢٩، تفسير الصافي ٢: ٤١٩.

٧. علل الشرائع: ٢/١٣٠، تفسير الصافي ٢: ٤١٩.

كُتِبَ فِي فَضْلِهِ مَا أُنْزِلْنَا فِي كِتَابِكَ. إِلَى أَنْ قَالَ: فَوَاللَّهِ، مَا شَكَّ وَمَا سَأَلَ^١.
ثُمَّ أَكَّدَ شِبْحَانَهُ صِدْقَ مَا أَخْبَرَ بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ﴾ الَّذِي لَا مَجَالَ لِلزَّيْبِ فِيهِ ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾
لِظَهْوَرِ حَقَّانِيَّتِهِ بِالآيَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ، فَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مُوَافِقٌ لِمَا فِي سَائِرِ
الْكِتَابِ السَّمَاوِيَّةِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَا أَخْبَرَ بِهِ رَبُّكَ مُخَالَفًا لِلْوَاقِعِ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ الْبَتَّةَ ﴿مِنَ
الْمُفْتَرِينَ﴾ وَالشَّاكِّينَ فِيهِ، بَلْ دُمَّ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْيَقِينِ كَمَا كُنْتَ مِنْ قَبْلِ.
ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ النَّهْيِ عَنِ الشَّكِّ، وَبَيَانَ طَرِيقِ تَحْصِيلِ الْيَقِينِ لِلنَّاسِ، أَعْلَنَ بَغَايَةَ قُبْحِ التَّكْذِيبِ بِهِ
بِالنَّهْيِ عَنْهُ مَنْ لَا يَتَصَوَّرُ فِي حَقِّهِ إِمْكَانَ صُدُورِهِ مِنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ الْبَتَّةَ ﴿مِنَ﴾ الْكُفَّارِ ﴿الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُونَ﴾ مَعَ عَظَمِ قُدْرِكَ، وَعُلُوِّ مَقَامِكَ، وَغَايَةِ قُرْبِكَ إِلَى رَبِّكَ ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْفُسًا وَأَعْمَالًا، وَمِنَ الْمُكَذِّبِينَ عُقُوبَةً وَنَكَالًا بِذَلِكَ التَّكْذِيبِ.

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [٩٦ و ٩٧]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ النَّهْيِ عَنِ الشَّكِّ فِي ثُبُوتِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَصِحَّةِ دِينِهِ، وَصِدْقَ مَا أَخْبَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ،
والتَّيْبِيهِ عَلَى طَرِيقِ إِزَالَةِ الشَّكِّ لَوْ قُرِضَ وَجُودُهُ، وَتَحْصِيلِ الْيَقِينِ، وَبَيَانَ غَايَةِ قُبْحِ التَّكْذِيبِ بِآيَاتِ
اللَّهِ وَالتَّهْدِيدِ عَلَيْهِ بِغَايَةِ الْخُسْرَانِ فِي الدَّارَيْنِ، بَيِّنَ شِدَّةَ إِصْرَارِ جَمَاعَةِ مِنَ الْكُفَّارِ مَعَ ذَلِكَ عَلَى كُفْرِهِمْ
بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ وَثَبَّتْ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وَحُكْمَهُ بِأَنْ يَقْبَلُوا
عَلَى الْكُفْرِ وَيُخْلَدُوا فِي الْعَذَابِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بِكَ وَبِكِتَابِكَ أَبَدًا ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ﴾ مِنْ قِبَلِ رَبِّكَ ﴿كُلُّ
آيَةٍ﴾ وَمُعْجَزَةٍ اقْتَرَحُوهَا، بَلْ يُصِرُّونَ عَلَى الْكُفْرِ ﴿حَتَّى يَرَوْا﴾ فِي الدُّنْيَا، أَوْ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ﴾ وَحِينَئِذٍ لَا يَنْفَعُهُمُ الْإِيمَانُ، كَمَا لَمْ يَنْفَعِ فِرْعَوْنَ وَأَصْرَابَهُ.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسُ لِمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ [٩٨]

ثُمَّ لَامَهُمْ وَوَبَّخَهُمْ شِبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ مِنَ الْقُرَى، وَأَهَالِي بَلَدَةٍ مِنَ الْبُلْدَانِ
﴿آمَنَتْ﴾ قَبْلَ رُؤْيَا الْعَذَابِ ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ بِأَنْ يَقْبَلَهُ اللَّهُ مِنْهَا، وَيَكْشِفَ بِسَبَبِهِ الْعَذَابَ عَنْهَا ﴿إِلَّا
قَوْمٌ يُوَسَّسُ﴾ بَيْنَ مَتَى فَإِنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِ الْقُرَى مَخْصُوصُونَ بِهَذَا الْإِيمَانِ النَّافِعِ بَعْدَ التَّكْذِيبِ. وَقِيلَ:

إن الاستثناء مُنقطع، والمعنى: ولكن قوم يونس. ﴿لَمَّا آمَنُوا﴾ حينَ رأوا أمارات العذاب، وبادروا إلى التوبة ﴿كَشَفْنَا﴾ ودفَعْنَا عَنْهُمْ بِإِيْمَانِهِمْ ﴿عَذَابَ﴾ الاستئصال الموقَّع لهم في ﴿الْخِزْيِ﴾ والهوان والفضيحة ونَجَّيْنَاهُمْ مِنْهُ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لكون إيمانهم في وقت الاختيار وبَقَاء التَّكْلِيفِ ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ مَتَاع الدُّنْيَا بعدَ كَشَفِ العذاب عنهم ﴿إِلَى حِينٍ﴾ وزمانٍ قَدَرْنَاهُ لهم في عِلْمِنَا.

روث العامة: أن يونس عليه السلام بُعث إلى يَنْبُؤَى من أرض المَوْصِل فكَذَّبُوهُ، فذهب عنهم مُغَاضِباً، فلَمَّا فُتِدُوهُ خافوا نُزُولَ العذاب، فلبسوا المَشُوحَ وَعَجَّوْا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وكان يونس قال لهم: إنَّ أجلكم أربعون ليلة، فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك آمناً بك. فلَمَّا مضتْ خمس وثلاثون ليلة ظهر في السماء غَيْمٌ أسود شديد السَّواد، فظهر منه دُخان شديد، وهبط ذلك الدُّخان حتَّى وقع في المدينة وسُود سطوحهم، فخرَّجوا إلى الصحراء، وفرَّقوا بين النِّساء والصِّبيان، وبين الدَّواب وأولادها، فحَرَّ بعضُها إلى بعض، فعلَّت الأصوات وكثُرَت التضرُّعات، وأظهروا الإيمان والتَّوبة، وتضرَّعوا إلى الله تعالى، فرجَمهم وكشف عنهم، وكان ذلك اليوم يومَ عاشوراء يومَ الجمعة^١.

وعن ابن مسعود: بَلَغَ من تَوْبَتِهِمْ أَنْ رَدَّوْا الْمَظَالِمَ، حتَّى إنَّ الرجل كان يقطع الحجر بعد أن وضع عليه بناءً أساسه، فيَرُدُّه إلى مالكه^٢.

عن الفضل بن عباس: أَنَّهُمْ قالوا: إنَّ ذُنُوبَنَا قد عَظُمَتْ وَجَلَّتْ، وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهَا وَأَجَلٌ، افْعَلْ بِنَا مَا أَنْتَ أَهْلُهُ، وَلَا تَفْعَلْ بِنَا مَا نَحْنُ أَهْلُهُ^٣.

وقيل: إنَّهُمْ خرجوا إلى شيخٍ من بَقِيَّةِ عُلَمَائِهِمْ، فقالوا: قد نزل بنا العذاب فماترى؟ فقال لهم: قولوا: يَا حَيَّ حِينَ لَا حَيَّ، وَيَا حَيَّ يَا مُحْيِيَ الْمَوْتِ، وَيَا حَيَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ. فقالوا، فكشَفَ اللهُ عَنْهُمْ العذاب^٤.

في قصّة نزول العذاب على قوم يونس ودفَعَهُ بالتَّوبَةِ وعن الباقر عليه السلام يقول: «[وجدنا في بعض] كُتُب أمير المؤمنين عليه السلام، قال: حدَّثني رسول الله صلى الله عليه وآله: أَنَّ جَبْرِئِيلَ حَدَّثَهُ أَنَّ يُونُسَ بنَ مَتَّى عليه السلام بعثه الله إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة، وكان رجلاً تعتر به الجِدَّة، وكان قليل الصَّبْر على قومه والمُداواة لهم،

عاجزاً عَمَّا حُمِّلَ مِنْ ثِقَلِ حِمْلِ أوقار الثُّبُوَّةِ وأعلامها، وإنَّه تفسَّخ تحتها كما يفسَّخ الجِدْع تحت حِمْلِهِ، وإنَّه أقام فيهم يدعُوهم إلى الإيمان بالله والتَّصديق به وأتباعه ثلاثاً وثلاثين سنة، فلم يؤمن به ولم يتبعه من قومه إلَّا رجلان: اسم أحدهما زَوْبِيل، واسم الآخر تنوخا، وكان زوبيل من أهل بيت العلم والثُّبُوَّة والحكمة، وكان قديم الصُّحبة ليونس بن مَتَّى من قَبْلِ أَنْ يبعثه الله بالثُّبُوَّة، وكان تنوخا

رجلاً مُستضعفاً عابداً زاهداً مُتُهَمَكاً في العيادة، وليس له عِلْمٌ ولا حُكْم، وكان روبيل صاحب غَمٍّ يرعاها ويتقوّت منها، وكان تنوحاً رجلاً حَطَّاباً يحتطب على رأسه ويأكل من كسبه، وكان لروبيل منزلة من يونس غير منزلة تنوحا؛ ليعلم روبيل وجِكمته وقَدِيم صُحبته.

فلَمَّا رَأَى يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ أَن قَوْمَهُ لَا يُجِيبُونَهُ وَلَا يُؤْمِنُونَ، صَجِرَ وعرف من نفسه قِلَّةَ الصَّبْرِ، فشكا ذلك إلى رَبِّهِ، وكان فيما شكَا أَن قَالَ: يَا رَبِّ إِنَّكَ بَعَثْتَنِي إِلَى قَوْمِي وَلِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، فَلَبِثْتُ فِيهِمْ أَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِكَ وَالتَّصَدِيقِ بِرِسَالَتِي، وَأَخَوْفُهُمْ عَذَابِكَ وَتَقِمْتُكَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً، فَكَذَّبُونِي وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِي، وَجَحَدُوا بِثُبُوتِي وَاسْتَحْفَوا بِرِسَالَتِي، وَقَدْ تَوَعَّدُونِي وَخَفْتُ أَن يَقْتُلُونِي، فَانزَلَ عَلَيْهِمْ عَذَابَكَ فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ.

قال: فأوحى الله إلى يونس: إِنَّ فِيهِمُ الْحَمَلَ وَالْجَنِينَ، وَالطِّفْلَ وَالشَّيْخَ الْكَبِيرَ، وَالْمَرْأَةَ الضَّعِيفَةَ وَالْمُسْتَضْعَفَ الْمُهِنَ، وَأَنَا الْحَكَمُ الْعَدْلُ، سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي، لَا عَذَابَ الصَّغَارِ بِذُنُوبِ الْكِبَارِ مِنْ قَوْمِكَ، وَهُمْ يَا يونس عِبَادِي وَخَلْقِي، وَبَرِّتَنِي فِي بِلَادِي، وَفِي عَيْلَتِي، أَحَبُّ أَنْ أَتَانَاهُمْ وَأَرْفُقَ بِهِمْ وَانْتَظِرْ تَوْبَتَهُمْ، وَإِنَّمَا بَعَثْتُكَ إِلَى قَوْمِكَ لَتَكُونَ حَفِيفاً عَلَيْهِمْ، تَعْطِفُ عَلَيْهِمْ بِسِجَالِ^١ الرَّحْمَةِ الْمَاسَةِ مِنْهُمْ، وَتَأْتَانَاهُمْ بِرَأْفَةِ الثَّبُوتِ، وَتَصْبِرُ عَلَيْهِمْ بِأَحْلَامِ الرِّسَالَةِ، وَتَكُونَ لَهُمْ كَهَيْئَةِ الطَّيِّبِ الْمُدَارِي الْعَالِمِ بِمُدَارَةِ الدَّاءِ^٢، فَحَرَّجْتَ^٣ بِهِمْ وَلَمْ تَسْتَعْمَلْ قُلُوبَهُمْ بِالرَّفْقِ، وَلَمْ تُشْشِهِمْ بِسِيَاسَةِ الْمُرْسَلِينَ. ثُمَّ سَأَلْتَنِي عَنْ سُوءِ نَظَرِكَ الْعَذَابَ لَهُمْ عِنْدَ قِلَّةِ الصَّبْرِ مِنْكَ، وَعَبَدِي نُوحٌ كَانَ أَصْبَرَ مِنْكَ عَلَى قَوْمِهِ، وَأَحْسَنَ صُحْبَةً، وَأَشَدَّ تَأَنُّياً فِي الصَّبْرِ عِنْدِي، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ، فَغَضِبْتُ لَهُ حِينَ غَضِبَ لِي، وَأَجَبْتُهُ حِينَ دَعَانِي.

فَقَالَ يونس: يَا رَبِّ، إِنَّمَا غَضِبْتُ عَلَيْهِمْ فَيْكَ، وَإِنَّمَا دَعَوْتُ عَلَيْهِمْ حِينَ عَصَوْكَ، فَوَعِزَّتْكَ لَا أَتَعَطَّفُ عَلَيْهِمْ بِرَأْفَةٍ أَبَدًا، وَلَا أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِنَصِيحَةٍ شَفِيقٍ بَعْدَ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ إِنِّي أَوْجَحِدُهُمْ ثُبُوتِي، فَانزَلَ عَلَيْهِمْ عَذَابَكَ، فَإِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا.

فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا يونس، إِنَّهُمْ مِائَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ مِنْ خَلْقِي، يَعْمُرُونَ بِلَادِي وَيَلِدُونَ عِبَادِي، وَمَحَبَّتِي أَنْ أَتَانَاهُمْ لِلَّذِي سَبَقَ [مِنْ] عِلْمِي فِيهِمْ وَفَيْكَ، وَتَقْدِيرِي وَتَدْبِيرِي غَيْرَ عِلْمِكَ وَتَقْدِيرِكَ، وَأَنْتَ الْمُرْسَلُ وَأَنَا الرَّبُّ الْحَكِيمُ، وَعِلْمِي فِيهِمْ يَا يونس بَاطِنٌ فِي الْغَيْبِ عِنْدِي لَا يَعْلَمُ مَا مُسْتَهَاءَ،

١. السَّجَالُ: جَمْعُ سَجَلٍ، وَهِيَ الدَّلِيلُ الْعَظِيمَةُ الْمَمْلُوءَةُ، وَالْمُرَادُ هُنَا: الْمَقْدَارُ الْعَظِيمُ مِنَ الرَّحْمَةِ.

٢. فِي تَفْسِيرِ الْعِيَّاشِيِّ: الْمَدَاوِي الْعَالَمُ بِمَدَاوَاةِ الدَّوَاءِ.

٣. فِي تَفْسِيرِ الْعِيَّاشِيِّ: فَخَرَقَتْ، وَمَعْنَى حَرَّجَ بِهِ: ضَيَّقَ عَلَيْهِ، وَخَرَقَ بِهِ: لَمْ يَرْفُقْ بِهِ، وَلَمْ يَحْسُنْ مُعَامَلَتَهُ.

وَعِلْمُكَ فِيهِمْ ظَاهِرٌ لَا بَاطِنَ لَهُ.

يا يونس، قد أجبْتُكَ إلى ما سألتَ من إنزال العذاب عليهم، وما ذلك يا يونس بأوفر لحظك عندي، ولا أحمد^١ لثألك، وسيأتيهم عذاب في شَوالِ يومِ الأربعاء وَسَطَ الشَّهرِ بعدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، فأَعْلِمُهُمْ ذلك. فَسَرَ [ذلك] يُونُسَ وَلَمْ يَسْؤُهُ، وَلَمْ يَذِرْ مَا عَاقِبَتُهُ.

فانطلق يُونُسَ ﷺ إلى تنوخا العابد فأخبره بما أوحى إليه من نُزولِ العذاب على قومه في ذلك اليوم، وقال له: انطلق حتَّى أَعْلِمَهُمْ بما أوحى الله إليّ من نُزولِ العذاب، فقال تنوخا: فدَعَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ حتَّى يُعَذِّبَهُمُ [الله]. فقال له يُونُسَ: [بل] نلقى روبيل فُتْشاورة، فَإِنَّهُ رَجُلٌ عَالِمٌ حَكِيمٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، فانطلقا إلى روبيل، فأخبره يونس بما أوحى الله إليه من نُزولِ العذاب على قومه في شَوالِ يومِ الأربعاء في وَسَطِ الشَّهرِ بعدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، فقال له: ماترى، انطلق بنا حتَّى أَعْلِمَهُمْ ذلك؟

فقال له روبيل: ارجع إلى رَبِّكَ رَجْعَةً نَبِيٌّ حَكِيمٌ، وَرَسُولٌ كَرِيمٌ، واسأله أن يصرف عنهم العذاب، فَإِنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ عَذَابِهِمْ، وَهُوَ يُحِبُّ الرِّفْقَ بِعِبَادِهِ، وما ذلك بأَصْرَ لَكَ عنده، ولا أسوأ لَمَنْزِلَتِكَ لديه، وَلَعَلَّ قَوْمَكَ بعدَ ما سَمِعَتْ وَرَأَيْتَ مِنْ كُفْرِهِمْ وَجُحُودِهِمْ يُؤْمِنُونَ يَوْمًا، فصارِهم وتأنَاهُم.

فقال له تنوخا: وَيَحْكُ يا روبيل، ما أَشْرَتْ على يُونُسَ وأمرته [به] بعد كُفْرِهِمْ بالله، وَجَحْدِهِمْ لِنَبِيِّهِ، وَتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ، وإِخْرَاجِهِمْ إِيَّاهُ مِنْ مَسَاكِنِهِ، وما هُمُا به مِنْ رَجْمِهِ.

فقال روبيل لتنوخا: اسْكُتْ، فَإِنَّكَ رَجُلٌ عَابِدٌ لَا عِلْمَ لَكَ.

ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَى يُونُسَ ﷺ فقال: أَرَأَيْتَ يا يُونُسَ إِذَا أَنْزَلَ اللهُ الْعَذَابَ عَلَى قَوْمِكَ، أَفَيُهْلِكُهُمْ جَمِيعًا أَوْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيُبْقِي بَعْضًا؟ فقال له يُونُسَ: بَلْ يُهْلِكُهُمْ جَمِيعًا؛ وَكَذَلِكَ سَأَلْتُهُ، ما دَخَلْتَنِي لَهُمْ رَحْمَةً تَعَطُّفٌ، أَرَأَجَعُ اللهُ فِيهِمْ وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ. فقال له روبيل: أَتَدْرِي يا يُونُسَ، لَعَلَّ اللهُ [إِذَا] أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ فَأَحْسَوْا بِهِ، أَنْ يَتُوبُوا إِلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرُوا، فَيَرْحَمَهُمُ اللهُ فَإِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ مِنْ بعدِ ما أَخْبَرْتَهُمْ عَنْ اللهِ تَعَالَى أَنَّهُ يُنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، فَتَكُونُ بِذَلِكَ عَنْدهُمْ كَذَابًا.

فقال له تنوخا: وَيَحْكُ يا روبيل، لَقَدْ قُلْتَ عَظِيمًا، يَخْبِرُكَ النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ أَنَّ اللهُ أَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّ الْعَذَابَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ، فَتَرُدُّ قَوْلَ اللهِ، وَتَشْكُ فِيهِ وَفِي قَوْلِ رَسُولِهِ، اذْهَبْ فَقَدْ حِطَّ عَمَلُكَ.

فقال روبيل لتنوخا: لَقَدْ فَسَدَ رَأْيُكَ.

ثم أقبل إلى يونس عليه السلام فقال: أنزل الوحي والأمر من الله فيهم على ما أنزل عليك فيهم من إنزال العذاب عليهم؟ وقوله الحق، أرايت إذا كان ذلك فهل لك قومك كلهم، وخربت قريتهم، أليس يحمر الله اسمك من الثبوة وتبطل رسالتك، وتكون كبعض ضعفاء الناس، ويهلك على يدك مائة ألف من الناس؟

فأبى يونس عليه السلام أن يقتل وصيته، فانطلق معه تنوخا إلى قومه، فأخبرهم أن الله أوحى إليه أنه منزل العذاب عليهم يوم الأربعاء في شوال في وسط الشهر بعد طلوع الشمس، فردوا عليه قوله [وكذبوه] وأخرجوه من قريتهم إخراجاً عنيفاً.

فخرج يونس عليه السلام معه تنوخا من القرية، وتنحيا عنهم غير بعيد، وأقاما ينتظران العذاب، وأقام روبيل مع قومه في قريتهم، حتى إذا دخل عليهم شوال صرخ روبيل بأعلى صوته في رأس الجبل إلى القوم: أنا روبيل الشقيق عليكم، الرحيم بكم، قد أنكرتم عذاب الله، هذا شوال قد دخل عليكم، وقد أخبركم يونس نبيكم ورسول ربكم أن الله أوحى إليه أن العذاب ينزل بكم في شوال في وسط الشهر يوم الأربعاء بعد طلوع الشمس، ولن يخلف الله وعده، أرسله، فانظروا ماذا أنتم صانعون. فأفزهم كلامه فوقع في قلوبهم تحقيق نزول العذاب، فأقبلوا نحو روبيل وقالوا له: ماذا أنت تشير به علينا يا روبيل؟ فإنك رجل عالم حكيم، لم نزل نعرفك بالبرقة علينا والرحمة لنا، وقد بلغنا ما أشرت به على يونس [فينا]، فمُرنا بأمرك وأشير علينا برأيك.

فقال لهم روبيل: إني أرى لكم وأشير عليكم أن تنظروا وتعمدوا إذا طلع الفجر يوم الأربعاء في وسط الشهر، أن تعزلوا الأطفال عن الأمهات في أسفل الجبل في طريق الأودية، وتوقفوا النساء في سفح الجبل، ويكون هذا كله قبل طلوع الشمس، [فإذا رأيتم ريحاً صفراء أقبلت من المشرق] ففجئوا عجباً، الكبير منكم والصغير بالصراخ والبكاء والتضرع إلى الله، والتوبة إليه والاستغفار له، وارفعوا رؤوسكم إلى السماء وقولوا: ربنا ظلمنا أنفسنا، وكذبنا نبيك، وثبتنا إليك من ذنوبنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين المعدبين [فأقبل توبتنا] وارحمنا يا أرحم الراحمين. ثم لا تملوا من البكاء والصراخ والتضرع إلى الله والتوبة إليه، حتى توارى الشمس بالحجاب، أو يكشف الله عنكم العذاب قبل ذلك. فأجمع رأي القوم جميعاً على أن يفعلوا ما أشار به عليهم روبيل.

فلما كان يوم الأربعاء الذي توقعوا العذاب، تنحى روبيل عن القرية حيث يسمع صراخهم ويرى العذاب إذا نزل، فلما طلع الفجر يوم الأربعاء فعل قوم يونس ما أمرهم روبيل به، فلما بزغت الشمس

أقبلت ريحٌ صفراءٌ مظلمةٌ مُسرعةٌ لها صريرٌ وخفيفٌ [وهدير]، فلَمَّا رآوها عَجَّوا جميعاً بالصُّراخ والبكاء والتضرُّع إلى الله، وتابوا واستغفروا، وصرَّخت الأَطفالُ بأصواتها تطلبُ أمهاتها، وعَجَّت سيخالُ البهائمُ تطلبُ الثدي، وثَغَّتْ^١ الأنعامُ تطلبُ الرُّعي، فلم يزلوا بذلك، ويونس وتنوخا يسمعان صيحتهم وصراخهم، ويدعوان الله بتغليظ العذاب عليهم، وروبيل في موضعه يسمع صراخهم وعجيجهم ويرى ما نزل، وهو يدعو الله بكشف العذاب عنهم.

فلَمَّا أن زالت الشمس، وفتحت أبواب السماء، وسكن غضب الربِّ تعالى، رَحِمَهُم الرَّحْمَنُ، واستجاب دُعاءهم وقَبِلَ تَوْبَتَهُمْ، وأقالهم عَثَرَتَهُمْ. وأوحى إلى إسرَافيل أن اهبط إلى قوم يونس فأَنهَم عَجَّوا إِلَيَّ بالبكاء والتضرُّع، وتابوا إِلَيَّ واستغفروني، فرَحِمْتَهُمْ وثَبَّتَ عليهم، وأنا الله التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، أَسْرَعُ إلى قَبُولِ تَوْبَةِ عِبْدِي التَّائِبِ مِنَ الذَّنْبِ، وقد كان عبيدي يونس ورسولي سألني تُزَلُّ العذاب على قومهم وقد أنزلته عليهم، وأنا الله أَحَقُّ مَنْ وفى بعهده، وَلَمْ يَكُنْ اشترط يونس عَلَيْهِ حين سألني أن أنزل عليهم العذاب أن أهلكهم. فاهبط إليهم واصرف عنهم ما نزل بهم من عذابي.

فقال إسرَافيل: يَا رَبِّ، إِنَّ عَذَابَكَ بَلَغَ اكْتافَهُمْ وكَادَ أَنْ يَهْلِكَهُمْ، وما أراه إِلَّا وقد نزل بساحتهم، فإِين أَصْرِفُهُ؟

فقال الله: كَلَّا، إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ مَلَأَكْتَنِي أَنْ يَصْرِفَهُ وَلَا يُنْزِلُوهُ عَلَيْهِمْ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي فِيهِمْ وَعَزِيمَتِي، فاهبط يا إسرَافيل عليهم واصرف عنهم، واصرف به إلى الجبالِ بناحية مفاض^٢ العيون ومَجَارِي السُّيُولِ، في الجبالِ العاتية العادية المُستَظْلِمَةِ على الجبالِ، فأَذِلَّهَا به وَلِيْنَهَا حَتَّى تُصِيرَ مُثْلَثَمَةً حديدًا جامدًا. فهبط إسرَافيل فنشر أجنحته، فاستاق بها ذلك العذاب حَتَّى ضَرَبَ بِهَا تِلْكَ الجبالِ التي أوحى الله إليه أن يصرفه إليها.

قال أبو جعفر عليه السلام: «وهي الجبال التي بناحية المَوْصِلِ اليوم، فصارت حديدًا إلى يوم القيامة. فلَمَّا رَأَى قومُ يونس أن العذاب قد صُرف عنهم، هَبَطُوا إلى منازلهم من رُؤُسِ الجبالِ، وَضَمُّوا إليهم نِسَاءَهُمْ وأولادَهُمْ وأموالَهُمْ، وحيدوا الله على ما صرف عنهم. وأصبح يونس وتنوخا يوم الخميس في موضعهما الذي كانا فيه، لا يَشْكُانُ أَنَّ العذاب قد نزل بهم وأهلكهم جميعاً لَمَّا خَفِيتْ أَسْوَائُهُمْ عنهم، فأقبلا ناحية القرية يومَ الخميس مع طُلُوعِ الشَّمْسِ ينظُران إلى ما صار إليه القوم، فلَمَّا دَنَوْا من القوم واستقبلتهم الحطَّابون والحَمَّارَةُ^٣ والرُّعَاءُ بأغنامهم، ونظروا إلى أهل القرية

١. أي صاحت. ٢. في تفسير العياشي: الجبال بناحية مفاض.

٣. الحمارة: أصحاب الحمير.

مُطْمَئِنِّينَ، قال يونس لتنوخا: كَذَّبَنِي الْوَحْيُ، وكَذِبَ وَعْدِي لقومي، لا وعِزَّةَ رَبِّي لَا يَرُونَ لِي وَجْهًا
أبدأ بعد ما كَذَّبَنِي الْوَحْيُ.

فانطلق يونس ﷺ هارباً على وجهه مُغاضِباً لربه ناحية بحر إيلة، متنكراً فراراً من أن يراه أحد من
قومه فيقول له: يا كَذَّاب، فلذلك قال الله: ﴿وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ...﴾^١
الآية، ورجع تنوخا إلى القرية فلقى روبيل، فقال له: يا تنوخا، أي الرأيين كان أصوب وأحق، رأيي
أو رأيك؟ فقال تنوخا: بل رأيك كان أصوب، ولقد كنتُ أشرتُ برأي العلماء والحكماء.

وقال تنوخا: أما إني لم أزل أرى أنني أفضل منك لزهدي وفضل عبادتي، حتى استبان فضلك
بفضل علمك، وما أعطاك ربك من الحكمة مع التقوى أفضل من الزهد والعبادة بلا علم. فاصطحبا
فلم يزالا مقيمين مع قومه.

ومضى يونس على وجهه مُغاضِباً لربه، فكان من قصته ما أخبر الله به في كتابه: ﴿فَأَمْتُوا حِينَئِذٍ﴾^٢.

قال أبو عبيدة: قلت لأبي جعفر ﷺ: كم كان غاب يونس عن قومه حتى رجع إليهم بالنبوة
والرسالة، فأمنوا به وصدقوه؟ قال: «أربعة أسابيع؛ سبعا منها في ذهابه إلى البحر، وسبعا في بطن
الحوت، وسبعا تحت الشجرة بالعرء، وسبعا منها في رجوعه إلى قومه».

فقلت له: وما هذه الأسابيع، شهور أو أيام أو ساعات؟ فقال: «يا أبا عبيدة، إن العذاب أتاها يومَ
الأربعاء في النصف من شوال، وصُرف عنهم من يومهم ذلك، فانطلق يونس ﷺ مُغاضِباً فمضى يومَ
الخميس، سبعة أيام في مسيرة إلى البحر، وسبعة أيام في بطن الحوت، وسبعة أيام تحت الشجرة
بالعرء، وسبعة أيام في رجوعه إلى قومه، فكان ذهابه ورجوعه [مسيراً] ثمانية وعشرين يوماً. ثم
أتاها فأمنا به وصدقوه واتبعوه، فلذلك قال الله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ
يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَظَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَعَّمْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾^٣.

أقول: في الرواية إشكالات غامضة لا تنحل إلا بارتكاب التأويل في ظواهرها، والتكلف في
توجيهها، بما لا يتنافى عصمة الأنبياء، وكونهم أعقل أمتهم، وأعلمهم، وأطوعهم لأوامر الله، وأسلمهم
لمرضاته.

وعنه ﷺ: «أَنَّ يُونُسَ لَمَّا آذَاهُ قَوْمُهُ دَعَا اللَّهَ عَلَيْهِمْ، فَأَصْبَحُوا أَوَّلَ يَوْمٍ وَوُجُوهُهُمْ صَفَرٌ، وَأَصْبَحُوا
اليوم الثاني وَوُجُوهُهُمْ سَوْدٌ. قال: وكان الله واعداهم أن يأتيهم العذاب، فأتاها حتى نالوه برماحهم،

فَفَرَّقُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَأَوْلَادَهُنَّ، وَبَيْنَ الْبَقَرِ وَأَوْلَادِهَا، وَلَبَسُوا الْمُسُوحَ وَالصُّوفَ، وَوَضَعُوا الْجِبَالَ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالرَّمَادَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، وَضَجُّوا ضَجَّةً وَاحِدَةً إِلَى رَبِّهِمْ، وَقَالُوا: أَمَّا بِإِلَهِ يُونُسَ، فَصَرَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ، وَأَصْبَحَ يُونُسَ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُمْ هَلَكُوا، فَوَجَدَهُمْ فِي عَاقِيَةٍ^١.

وعن الصادق عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ: لَأَيِّ عِلَّةٍ صَرَفَ اللَّهُ الْعَذَابَ عَنْ قَوْمِ يُونُسَ؟ وَقَدْ أَظْلَمَهُمْ، وَلَمْ يَفْعَلْ كَذَلِكَ بغيرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ؟ قَالَ: «لَأَنَّهُ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ سَيَصْرِفُهُ عَنْهُمْ يَلْتَوِيَّتُهُمْ، وَإِنَّمَا تَرَكَ إِخْبَارَ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّغَهُ لِعِبَادَتِهِ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، فَيَسْتَوْجِبَ بِذَلِكَ ثَوَابَهُ وَكَرَامَتَهُ»^٢.

وعنه عليه السلام: «أَنَّ جَبْرِئِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَشْنَى فِي هَلَاكِ قَوْمِ يُونُسَ، وَلَمْ يَسْمَعْهُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^٣.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ [٩٩]

ثم أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ حِكَايَةِ عَدَمِ نَجْعِ جَهْدِ يُونُسَ فِي إِيمَانِ قَوْمِهِ، وَإِنَّمَا هُمْ آمَنُوا أَخِيرًا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ، يَبَيِّنُ أَنَّ إِيمَانَ جَمِيعِ النَّاسِ مَنُوطٌ بِمَشِئَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ، لَا بِجَهْدِ الرُّسُلِ فِي إِيمَانِهِمْ وَإِكْرَاهِهِمْ لَهُمْ؛ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ إِيمَانُ النَّاسِ بِالْإِكْرَاهِ وَالْإِضْطِرَارِ ﴿لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ﴾ بَحِثْ لَا يَشِدُّ مِنْهُمْ أَحَدٌ حَالِ كَوْنِهِمْ ﴿جَمِيعاً﴾ وَتَتَفَقَّنْ عَلَيْهِ. وَلَكِنْ لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ لِمَنَافَاتِهِ لِلْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ الَّتِي عَلَيْهَا أَسَاسُ التَّكْوِينِ وَالتَّشْرِيعِ، بَلْ مَقْتَضَى الْحِكْمَةِ أَنْ يَشَأَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، حَسَبَ اقْتِضَاءِ طَبِيعَتِهِمْ، تَكْمِيلاً لِحُكْمِ الْقَبْضَتَيْنِ، وَتَحْصِيلاً لِأَهْلِ النَّشَاتَيْنِ.

فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ﴿أَفَأَنْتَ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ عَلَى الْإِيمَانِ الَّذِي لَمْ يَشَأْ اللَّهُ إِكْرَاهَهُمْ عَلَيْهِ ﴿حَتَّى يَكُونُوا﴾ بِإِكْرَاهِكَ عَلَيْهِ ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ لَيْسَ ذَلِكَ عَلَيْكَ وَلَا مَقْدُورُكَ، إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَالْإِنذَارُ وَالنُّصْحُ.

وفيه دلالة على كَمَالِ جِرْصِهِ عَلَى إِيمَانِ قَوْمِهِ، وَتَسْلِيَةِ قَلْبِهِ الشَّرِيفِ بِقَطْعِ رَجَائِهِ فِي إِيمَانِ جَمِيعِهِمْ.

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ [١٠٠]

١. تفسير العياشي ٢: ٢٩٤/١٩٨١، تفسير الصافي ٢: ٤٢٦.

٢. علل الشرائع ١/٧٧، تفسير الصافي ٢: ٤٢٦. ٣. تفسير القمي ٢: ٧٤، تفسير الصافي ٢: ٤٢٧.

ثُمَّ بَيَّنَّ شَبَاحَهُ بِإِنَاطَةِ الْإِيمَانِ بِمُشِيئَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ﴾ وما صَحَّ «لِنَفْسٍ» من النُّفُوسِ ﴿أَنْ تُؤْمِنَ﴾ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وَتَوْفِيقِهِ وَتَسْهِيلِهِ وَلُطْفِهِ، لَا بِالْمُعْجَزَاتِ وَتَقْرِيرِ الدَّلَائِلِ وَدَفْعِ الشَّهَاتِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي الْوَعْظِ وَالنُّصْحِ، وَإِنْ كَانَ لَهَا دَخَلٌ.

ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ الْكُفْرَ أَيْضاً يَكُونُ بِخِذْلَانِهِ، النَّاشِئُ عَنْ قِلَّةِ الْعَقْلِ وَكَثْرَةِ الْجَهْلِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَجْعَلُ اللَّهُ﴾ «الزُّحْسَ» وَالْكَفْرَ الْمُسْتَقْدِرَ لَشِدَّةِ قَبَاحَتِهِ ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ﴾ دَلَائِلَ التَّوْحِيدِ وَالثَّبُوتِ وَالْمَعَادِ، وَلَا يَتَدَبَّرُونَ فِيهَا.

عَنِ الرِّضَاءِ عليه السلام أَنَّهُ سَأَلَهُ الْمَأْمُونُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: «حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ آبَائِهِ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام قَالَ: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: لَوْ أَكْرَهْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنَ النَّاسِ عَلَى الْإِسْلَامِ لَكُنَّا كَثَرٌ عَدَدُنَا وَقَوِينَا عَلَى عَدُوِّنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا كُنْتُ لَأَقْلَى اللَّهِ بِدْعَةٍ لَمْ يُحْدِثْ إِلَيَّ فِيهَا شَيْئاً، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: يَا مُحَمَّدُ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ عَلَى سَبِيلِ الْإِلْجَاءِ وَالْاضْطِرَارِّ فِي الدُّنْيَا، كَمَا يُؤْمِنُونَ عِنْدَ الْمُعَانَةِ وَزُورَةِ الْبَاسِ فِي الْآخِرَةِ، وَلَوْ فَعَلْتُ ذَلِكَ بِهِمْ لَمْ يَسْتَحِقُّوا مِنِّي ثَوَاباً وَلَا مَدْحاً، وَلَكِنِّي أُرِيدُ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا مُخْتَارِينَ غَيْرَ مُضْطَرِّينَ، لِيَسْتَحِقُّوا مِنِّي الرُّزْقَ وَالْكَرَامَةَ، وَدَوَامَ الْخُلُودِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فَلَيْسَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ تَحْرِيمِ الْإِيمَانِ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ عَلَى مَعْنَى أَنَّهَا مَا كَانَتْ تَتُومِنُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَإِذْنِهِ أَمَرُهُ لَهَا بِالْإِيمَانِ مَا كَانَتْ مُتَكَلِّفَةً مُتَعَبِّدَةً، وَالْجَاوِزَ إِلَيْهَا إِلَى الْإِيمَانِ عِنْدَ زَوَالِ التَّكْلِيفِ وَالتَّعَبُّدِ عَنْهَا». فَقَالَ الْمَأْمُونُ: فَرَجَتْ [عَنِي فَرَجَ اللَّهُ عَنْكَ] ١.

قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ [١٠١]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الْكُفْرَ إِنَّمَا يَكُونُ بِسَبَبِ عَدَمِ التَّعَقُّلِ وَالتَّدَبُّرِ فِي الْآيَاتِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ مَوْقُوفٌ عَلَى تَعَقُّلِهَا وَالتَّفَكُّرِ فِيهَا، أَمَرَ نَبِيِّهِ ﷺ بِبَعْثِ النَّاسِ إِلَى النَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي الْآيَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ عَمُوماً، أَوْ لِأَهْلِ مَكَّةَ ﴿أَنْظَرُوا﴾ بِنَظَرِ التَّفَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ ﴿مَاذَا﴾ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّوْحِيدِ ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَأَيُّ شَيْءٍ بِدِيعٍ فِيهِمَا مِنْ عَجَائِبِ الصَّنْعِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ.

عن النبي ﷺ: «تفكروا في الخلق، ولا تفكروا في الخالق»^١.
ثم ذم الكفار الذين لا يتأثرون بالآيات بقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ﴾ وعجائب المصنوعات،
والبراهين الساطعات على التوحيد ﴿وَالنُّذُرُ﴾ والمواعظ، أو الرُّسل المُنذرون ﴿عَنْ قَوْمٍ﴾ عليم الله
أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وحكم عليهم بأنهم أهل النار لحُب طيبتهم، وغاية شقاوتهم، وشدة قساوتهم.
عن الصادق عليه السلام: «﴿الْآيَاتُ﴾ الأئمة عليه السلام، و﴿النُّذُرُ﴾ الأنبياء عليه السلام»^٢.

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَاَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُنْتَظِرِينَ [١٠٢]

ثم ذمهم سبحانه وهذهم على عدم الإيمان بقوله: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ﴾ هؤلاء المصرون على الكفر
في إيمانهم شيئاً ﴿إِلَّا﴾ يوماً ﴿مِثْلَ أَيَّامِ﴾ المشركين المعارضين للرسل من الأمم ﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾
ومضوا من الدنيا بعذاب الاستئصال، وواقعة عظيمة من الوقائع العظام التي كانت للمكذبين الذين
كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وفي الأعصار السابقة على عصرهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد، تهديداً لهم: ﴿فَاَنْتَظِرُوا﴾ ما
هو عاقبة أمركم من الابتلاء بالعذاب أيضاً ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لذلك لأنكم لا تستحقون
غيره. وقيل يعني: انتظروا لهلاككم، وإني معكم من المنتظرين لهلاككم^٣.
عن الرضا عليه السلام: «انتظار الفرج من الفرج، إن الله يقول: ﴿فَاَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾»^٤.

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ [١٠٣]

ثم أنه تعالى بعد بيان إنزال العذاب على الأمم السابقة، بين لطفه بالرسل والمؤمنين بقوله: ﴿ثُمَّ
نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ والمراد: أنا كنا نُنزل العذاب على أممٍ، ثم نُنَجِّي رُسُلَنَا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بهم من ذلك
العذاب حين نزوله ﴿كَذَلِكَ﴾ الإنجاء الذي كان لهم في الأعصار السابقة حق ﴿حَقًّا﴾ وثبت ثبوتاً
﴿عَلَيْنَا﴾ بمقتضى الحكمة والعدل ﴿نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ من الرسل وأتباعهم في كل عصر، من
الشدائد والبلايا. وإنما أدخل الرسل في المؤمنين للإشعار بأن ملاك النجاة هو الإيمان.
عن الصادق عليه السلام: «ما يمنعكم [من] أن تشهدوا على من مات منكم على هذا الأمر أنه من أهل

١. تفسير الرازي ١٧: ١٦٩.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٨٥.

٢. تفسير القمي ١: ٣٢٠، الكافي ١: ١/١٦١، تفسير الصافي ٢: ٤٢٨.

٤. تفسير العباسي ٢: ٢٩٧/١٩٨٥، تفسير الصافي ٢: ٤٢٨.

الجَنَّة، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾^١.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ [١٠٤-١٠٦]

ثم أنه تعالى بعد أمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى التوحيد، وأمر الناس بالنظر في الآيات الدالة عليه، أمر رسوله ﷺ بإعلام الناس بدينه وهو التوحيد والبراءة من الشرك بقوله: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ ما، وترديد ﴿مِنْ دِينِي﴾ الذي اخترته لنفسي، ولا تتيقنوا به ﴿فَلَا أَعْبُدُ﴾ أبداً الآلهة ﴿الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لعلني بعدم قابلية شيء منها للعبادة ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي﴾ بقدرته ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ وبارادته يمينكم.

وقيل: يعني أعبد الذي وعدني بأن يتوفاكم ويهلككم ويقيميني، فإنه الذي يجب أن يخاف منه، دون ما هو بمنزلة عن القدرة على التصرف في موجود من الموجودات كأصنامكم. وإنما قدم ترك عبادة الغير في الذكر على تخصيص عبادته بالله، لتقدم التخليّة، وللإيدان في أول الأمر بالمخالفة^٢.

وقيل: إن المراد: إن كنتم في شكٍّ من صحة ديني، فاعلموا أن ديني الإخلاص في العبادة لمن بيده ناصية كل شيء، ورفض عبادة غيره مما لا يضر ولا ينفع، فانظروا بعقولكم أيهما أولى بالعبادة، فإن تفكرتم علمتم أن لا مجال للشك في صحة ديني فضلاً عن القطع بعدمه، أو إن كنتم في الشك من ثباتي على ديني، فإني لا أتركه أبداً^٣.

﴿وَأَمِرْتُ﴾ من قِبل خالقي وعلمي ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله، الموحدين له ﴿وَقُلْ لِي: ﴿أَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ﴾ وَوَجْهَ عَقْلِكَ وَقَلْبِكَ وَشِرَاشِرِ وجودك ﴿لِلَّذِينَ﴾ الْقِيَمَ، وَأَقْبِلْ بِكُلِّك إِلَيْهِ، حَالُ كَوْنِكَ ﴿حَنِيفًا﴾ وَمُعَرَّضًا عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ الْبَتَّةَ فِي أَنْ مِنْ عَمْرِكَ ﴿مِنْ﴾ الْمُشْرِكِينَ، اعْتِقَادًا وَعَمَلًا ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ وَلَا تَعْبُدُ بَوَجهٍ مِنَ الْوُجُوهِ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وَمِمَّا سِوَاهُ ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ بِإِيصَالِ مَحْبُوبٍ إِلَيْكَ، أَوْ دَفْعِ مَكْرُوهٍ عَنْكَ إِنْ دَعَوْتَهُ ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ بِشَيْءٍ أَبَدًا إِنْ تَرَكْتَهُ، لِعَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَى شَيْءٍ، وَعَدَمِ شُعُورِهِ بِشَيْءٍ ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ مَا نُهِيتَ عَنْهُ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ ﴿فَإِنَّكَ

١. تفسير العياشي ٢: ٢٩٧/١٩٨٦، مجمع البيان ٥: ٢٠٩، تفسير الصافي ٢: ٤٢٨.

٢. تفسير أبي السعود ٤: ١٧٩، تفسير البيضاوي ١: ٤٤٨.

٣. تفسير أبي السعود ٤: ١٧٩.

إِذْهُ لِسْوَ اخْتِيَارِكَ ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ على الله بتضييع حقوقه وكفران نعمه، وعلى نفسك بتعريضها للهلاك والعذاب الدائم.

القَمِي: مخاطبة للنبي ﷺ، والمعني الناس^١.

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ
يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [١٠٧]

ثم أنه تعالى بعد بيان عجز غيره عن الضّر والنفع، بين أن جميع المنافع والمضار بيده تعالى وحده بقوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ﴾ ويصيبك ﴿بِضُرٍّ﴾ ومكروه ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ ولا دافع ﴿لَهُ﴾ أحد ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى شأنه ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ من الخيرات الدنيوية والأخروية ﴿فَلَا رَادَّ﴾ ولا مانع ﴿لِفَضْلِهِ﴾ وإحسانه وإنعامه، لعجز الغير عن معارضته.

قيل: إنما ذكر الإرادة مع الخير والمَسَّ مع الضّر، للإيدان بأن الخير مطلوبه تعالى أولاً وبالذات، والضّر ثانياً^٢ وبالعرض، أو للإشعار بأن الضّر كُله وجودي، وأما الخير فقد يكون عديمياً.

لما نبه سبحانه على أن الخير إنما هو بفضل لا بالاستحقاق، قرّر ذلك بقوله: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يتفضل عليه ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ مؤمناً كان أو كافراً، فتعرضوا له بالمسألة والطاعة، ولا تياسوا منه بسبب العصيان، إذ هو المفضل المحسن ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ
وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ [١٠٨]

ثم بالغ سبحانه في السورة المباركة في إثبات التوحيد والثبوة والمعاد بذكر الدلائل المتقنة، والبراهين المحكمة عليها، الموجبة لاهتداء جميع العقلاء به، ختمها بأمر نبيه ﷺ بالدعوة إلى الإيمان بالقرآن، والاهتداء به، وإعلام الناس بإتمام الحجة به عليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لقومك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قد تمت عليكم الحجة، وانقطعت عنكم المعذرة، حيث إنه ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ القرآن العظيم الذي هو ﴿الْحَقُّ﴾ المشتمل على جميع ما تحتاجون إليه من المعارف والأحكام، والبيّنات والهدى ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ اللطيف بكم ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ إلى الحق بالإيمان به، والعمل بما فيه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي﴾ إلى المنافع الدنيوية والأخروية التي تكون ﴿لِنَفْسِهِ﴾ لا تتعدى إلى غيره ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾

وانخرف عن طريق الحق بالكفر به والإعراض عنه ﴿فَأِنَّمَا يَضِلُّ﴾ عن سبيل كل خير، ووباله ﴿عَلَيْهَا﴾ وضرر راجع إليها، فلا نفع لله ولي في إيمانكم، ولا ضرر عليه وعليكم بكمركم ﴿وَمَا أَنَا﴾ من قيل ربي ﴿عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ وحفيظ حتى أجبركم على الإيمان، وأقهركم على قبول الحق والعمل به، بل إنما تكون وظيفتي التبليغ والإنذار والتبشير، وقد عملت بها.

وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ [١٠٩]

ثم أنه تعالى بعد أمر نبيه ﷺ بدعوة الناس إلى الإيمان بالقرآن والعمل به، وإتمام الحجّة عليهم، أمره تعالى بأن يتبعه بنفسه الشريفة، وإن لم يؤمن ولم يعمل به أحد، والصبر على أذى قومه بقوله: ﴿وَأَتَّبِعْ﴾ يا محمد ﴿مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾ من الآيات القرآنية، والتزم بالإيمان والعمل بها، وإن أعرض عنها جميع الناس ﴿وَأَصْبِرْ﴾ على كل ما أصابك من المكاره والأذى لاتباعك وحي ربك، وذم على ذلك ﴿حَتَّىٰ يَخْكُمَ اللَّهُ﴾ فيهم بما يستحقّون من العذاب والهلاك، ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ وأعدل القاضين، وأصوبهم في الحكم، لا يحجور ولا يخطأ.

رؤي عن النبي ﷺ: «مَنْ قرأ سورة يونس أُعطي له من الأجر عشر حسنات بعدد مَنْ صدّق بيونس وكذّب به، وبعدد مَنْ غرق مع فرعون»^١.

وعن الصادق عليه السلام: «مَنْ قرأ سورة يونس في كل شهرين أو ثلاثة لم يخف [عليه] أن يكون من الجاهلين، وكان يوم القيامة من المقربين»^٢. إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين على إتمام تفسيرها، وأسأله التوفيق لإتمام ما يتلوها.

في تفسير سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكِتَابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ [١]

ثم لما ختمت سورة يونس؛ وكانت سورة هود أنسب السور بها، لاشتراكهما في التصدير بالحروف المقطعة، وبيان كون الآيات محكمة، وفي الدعوة إلى التوحيد، ودفع شبهات المشركين فيه وفي الثبوت والمعاد، والتحدّي بشور القرآن وتهديدهم بالعذاب، وفي بيان هلاك الأمم الماضية به، وفي حاجة الأنبياء، وكمال توكلهم وصبرهم، إلى غير ذلك من المطالب العالية، أردفها بسورة هود فافتتحها بذكر «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ثم بذكر الحروف المقطعة بقوله: «الر» وقد مرّ تفسيرها^١.

ثم شرع في إثبات الثبوت بإثبات عظمة القرآن بقوله: «كِتَابٌ» والتقدير: هذا القرآن العظيم كتاب رفيع الشأن، الذي «أُحْكِمَتْ» ونظمت «آيَاتُهُ» نظماً رصيفاً مُحْكَمًا، بمعنى أنه لا يعتريه النقص والخلل، أو لا يطرأ عليه النسخ^٢ بكتاب بعده، أو بمعنى كثير الحكمة، أو مؤيده بالحجج القاطعة الدالة على صدقه «ثُمَّ فُصِّلَتْ» بفصول من المعارف والأحكام، والقصاص والمواعظ، ومهمات المعاش والمعاد.

وقيل: فُصِّلَتْ يعني فُرِقت في التنزيل مُنْجَمَةً بِحَسَبِ الْمَصَالِحِ^٣، أو فُرِقت بين الحقّ والباطل^٤. وقيل يعني: زُيِّنَتْ بإعجاز البيان، وكثرة الفوائد؛ كما تزين القلائد بالفرائد^٥.
وُنَزِّلَتْ «مِنْ لَدُنْ» إِلَهٍ «حَكِيمٍ» لا نهاية لحكمته «خَبِيرٍ» بخفّيات الأمور. وأما وصف ذاته المقدسة بالوصفين، تنبيهاً على كونه حاوياً للحكم التي لا تحصى، والعلوم التي لا تنتهي.

١. مرّ تفسيرها في الطرف (١٨) من مقدمة التفسير.

٢. في النسخة: لا يطرأه النسخ.

٣. تفسير أبي السعود ٤: ١٨٢.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٩٠.

٥. تفسير الرازي ١٧: ١٧٩.

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا
إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ
تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ [٢-٤]

ثم بين سبحانه أن إنزال هذا الكتاب الذي هو أفضل الكتب السماوية لأجل ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ أيها
الناس شيئاً ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ ولا تَخْصَعُوا إِلَّا له. قيل: إن كلمة (أن) مفسرة لمعنى القول المشرب في
«فُصِّلَتْ»، والتقدير: إن القول المفضل فيه أن لا تعبدوا، أو للأمر، والمعنى: لتأمر الناس يا محمد أن لا
يعبدوا إلا الله، وتقول لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ﴾ تعالى ﴿نَذِيرٌ﴾ ومُخَوِّفٌ من عذابه على ترك عبادته،
والتوجه إلى عبادة غيره ﴿وَوَ﴾ لكم ﴿بَشِيرٌ﴾ بثوابه على عبادته. وإنما قدم الإنذار لكونه أدخل في
الردع من التبشير.

﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ واطلبوا منه ستر ذنوبكم بالتوبة ﴿ثُمَّ تَوَبُّوا﴾ من ذنوبكم ﴿إِلَيْهِ﴾ عن
صدق وخلوص. وقيل يعني: استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة، أو توبوا إليه من
المعاصي^١. إذن ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ ويعيشكم عيشاً رغيذاً مرضياً، لا يفوتكم فيه شيء من
مشترياتكم، ولا ينقصه شيء من الكدورات ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وعمركم المقدور، وموتكم الطبيعي
﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ تائب ﴿ذِي فَضْلٍ﴾ ومزية في الأعمال والأخلاق، والكمالات العلمية ﴿فَضْلَهُ﴾
ومزيته في الجزاء في الدارين ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وتعرضوا عما أَدْعُوكم إليه من التوحيد والاستغفار
والتوبة، ونصروا على ما أنتم عليه من الشرك والعصيان ﴿فَإِنِّي﴾ بمقتضى شفقتي ورحمتي ﴿أَخَافُ
عَلَيْكُمْ﴾ وأتوقع في حَقِّكم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ شأنه، عظيم أهواله وشدائده، وهو يوم القيامة.
والقَمِي: يعني: الدخان والصيحة^٢.

ثم قرّر سبحانه كبر اليوم بقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده بعد الموت ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ ومآبكم في ذلك اليوم؛
فيعاقبكم على أعمالكم ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه تعذيبكم بعد الإماتة والبعث.

أَلَا إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ بِصُدُورِهِمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا
يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [٥]

٢. تفسير أبي السعود ٤: ١٨٤.

١. تفسير الرازي ١٧: ١٨٠.

٣. تفسير القمي ١: ٣٢١، تفسير الصافي ٢: ٤٣١.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ مَجَالٌ لِلسَّوَالِ عَمَّا قَابَلُوا النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الْقَبُولِ وَالْإِعْرَاضِ، أَجَابَ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَا يَأْهَلُ الْعَقْلَ تَعَجُّبُوا مِنْ فِعْلِهِمْ﴾ **﴿إِنَّهُمْ﴾** بعد ما سَمِعُوا الْمَقَالَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تَخْرَ مِنْهُ صُغَمُ الْجِبَالِ **﴿يَتَّقُونَ﴾** وَيُعْطِفُونَ **﴿صُدُّوهُمْ﴾** عَلَى مَا فِيهَا مِنَ الْكُفْرِ وَعَدَاوَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَطَفَ الثِّيَابَ عَلَى مَا فِيهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَسْتُورَةِ **﴿لِيَسْتَسْخَفُوا﴾** مِنَ الرِّسُولِ، أَوْ مِنَ اللَّهِ وَيَسْتَتَرُوا **﴿وَمِنْهُ﴾** لِئَلَّا يَطْلُعَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ.

عن الباقر عليه السلام: «أخبرني جابر بن عبد الله أن المشركين كانوا إذا مروا برسول الله ﷺ حول البيت، طأطأ أحدُهم ظَهْرَهُ ورأسَهُ - هكذا - وغطَّى رأسَهُ بَثْوِيهِ حَتَّى لَا يَرَاهُ رَسُولُ اللَّهِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ١. وَرَوَى أَنْ طَائِفَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: إِذَا أَغْلَقْنَا أَبْوَابَنَا، وَأَرْسَلْنَا سُتُورَنَا، وَاسْتَغَشَيْنَا ثِيَابَنَا، وَثَبَّتْنَا صُدُورَنَا عَلَى عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ، فَكَيْفَ يَعْلَمُ بِنَا؟ ٢

وعن ابن عباس: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيقٍ، وَكَانَ رَجُلًا حُلُوَ الْمَنْطِقِ، حَسَنَ السِّيَاقِ لِلْحَدِيثِ، يُظْهِرُ الْمَحَبَّةَ لِرَسُولِ اللَّهِ، وَيُضْمِرُ فِي قَلْبِهِ مَا يُضَادُّهَا ٣.

وعن ابن شداد: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ، كَانَ إِذَا مَرَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَنَى صَدْرَهُ وَظَهْرَهُ، وَطَاطَأَ رَأْسَهُ، وَغَطَّى وَجْهَهُ، كَيْلَا يَرَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، قِيلَ: إِنَّمَا صَنَعَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ رَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ لَمْ يُمْكِنَ التَّخَلُّفُ عَنْ حُضُورِ مَجْلِسِهِ، وَالْمُصَاحَبَةِ مَعَهُ، وَزَبْمًا يُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى ظُهُورِ مَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّفَاقُ ٤.

ثُمَّ هَدَّدَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَّا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ وَيُغْطَوْنَهَا عَلَيْهِمْ **﴿يَعْلَمُ﴾** اللَّهُ **﴿مَا يُسِرُّونَ﴾** فِي صُدُورِهِمُ مِنَ الْكُفْرِ **﴿وَمَا يُغْلِثُونَ﴾** وَيُظْهِرُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مِنَ الطَّعْنِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَكِتَابِهِ؛ فَيُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ **﴿إِنَّهُ﴾** تَعَالَى **﴿عَلِيمٌ﴾** بِذَاتِهِ **﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾** وَضَمَانِ الْقُلُوبِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالنِّيَّاتِ الَّتِي لَا يَطْلُعُ عَلَيْهَا أَحَدٌ، فَكَيْفَ يَخْفَى عَلَيْهِ ضَمَانُهَا؟

وَمَا مِنْ ذَاتَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي

كِتَابٍ مُبِينٍ [٦]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ مَا نَبَّهَ عَلَى عِلْمِهِ بِالضَّمَانِ وَالظَّوَاهِرِ، أَكَّدَهُ بَيَّانَ تَكْفُلِهِ لِأَرْزَاقِ الْحَيَوَانَاتِ، الْمُتَوَقِّفِ عَلَى عِلْمِهِ بِأَحْوَالِهَا بِقَوْلِهِ: **﴿وَمَا مِنْ ذَاتَةٍ﴾** وَحَيَوَانٍ مُتَحَرِّكٍ **﴿فِي الْأَرْضِ﴾** مِنْ ظَهْرِهَا

١. تفسير العياشي ٢: ٢٩٩/١٩٨٨، الكافي ٨: ١٤٤/١١٥، تفسير الصافي ٢: ٤٣١. ٢. تفسير الرازي ١٧: ١٨٥.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٩٤.

وتخومها، ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، وحشياً أو أهلياً، بَرّاً أو بحرياً، طائراً أو غير طائر ﴿إِلَّا عَلَى أَقْفٍ﴾ الخالق لها ﴿وَرِزْقَهَا﴾ وما تعيش به^١ من الغداء والشراب وغيرهما، مُدَّةَ حَيَاتِهَا، تَفَضُّلاً وإحساناً ﴿وَيَنْغَلِّمُ﴾ قَبْلَ وُجُوها وبعده ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ وَمَسْكَنُهَا فِي الْأَرْضِ ﴿وَمُسْتَوْدَعُهَا﴾ وَمَحَلٌّ تَكُونُ مُودَعَةً^٢ فِيهِ مِنْ أَصْلَابِ الْأَبَاءِ وَأَرْحَامِ الْأُمَمَاتِ، وما يجري مَجْرَاهَا مِنَ الْبَيْضَةِ وَنَحْوِهَا. وقيل: الْمُسْتَقَرُّ: مَحَلُّ التَّعْيِشِ، وَالْمُسْتَوْدَعُ: مَحَلُّ الْمَوْتِ^٣. وقيل: إِنَّ الْأَوَّلَ أَصْلَابُ الْأَبَاءِ، وَالثَّانِي أَرْحَامُ الْأُمَمَاتِ^٤.

ثُمَّ بَالِغُ شَبْحَانِهِ فِي عِلْمِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿كُلُّ﴾ مِنَ الدَّوَابِّ وَأَرْزَاقِهَا وَمُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعِهَا مَكْتُوبٌ ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وَاللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ الَّذِي تَظْهَرُ فِيهِ جَمِيعُ الْمَقْدَرَاتِ لِمَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالتُّفُوسُ الْمَقْدَسَةُ.

فِي (نَهجِ الْبَلَاغَةِ): «قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ، وَأَحْصَى آثَارَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ، وَعَدَّدَ أَنْفَاسَهُمْ، وَخَيَّانَةَ أَعْيُنِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الصَّمِيرِ، وَمُسْتَقَرَّهُمْ وَمُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ الْأَرْحَامِ وَالظُّهُورِ، إِلَى أَنْ تَتَنَاهَى بِهِمُ الْغَايَاتِ»^٥.

رُوي أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ إِلَيْهِ، تَلَقَّى قَلْبُهُ بِأَحْوَالِ أَهْلِهِ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَضْرِبَ بَعْصَاهُ عَلَى صَخْرَةٍ، فَانْشَقَّتْ وَخَرَجَتْ صَخْرَةٌ ثَانِيَةٌ، ثُمَّ ضَرَبَ بَعْصَاهُ عَلَيْهَا فَانْشَقَّتْ وَخَرَجَتْ صَخْرَةٌ ثَالِثَةٌ، ثُمَّ ضَرَبَهَا بَعْصَاهُ فَانْشَقَّتْ وَخَرَجَتْ مِنْهَا دَوْدَةُ كَالذَّرَّةِ، وَفِي فَمِهَا شَيْءٌ يَجْرِي مَجْرَى الْغِدَاءِ لَهَا، وَرُفِعَ الْحِجَابُ عَنْ سَمْعِ مُوسَى فَسَمِعَ الدَّوْدَةَ تَقُولُ: شَبْحَانُ مِنْ يَرَانِي، وَيَسْمَعُ كَلَامِي، وَيَعْرِفُ مَكَانِي، وَيَذْكُرُنِي وَلَا يَنْسَانِي^٦.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَكِنْ قُلْتُ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ [٧]

ثُمَّ أَشَارَ شَبْحَانُهُ إِلَى عِلَّةِ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ: وَهِيَ قِيَمِيَّتُهُ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ ﴿وَهُوَ﴾ اللَّهُ الَّذِي بِقُدْرَتِهِ ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قَدْ مَرَّ تَفْسِيرُهُ^٧.

١. فِي النسخة: وَمَا يَعِيشُ بِهَا.

٢. فِي النسخة: يَكُونُ مُودَعاً.

٣. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٤: ٩٦.

٤. تَفْسِيرُ الرَّازِي ١٧: ١٨٦.

٥. نَهجِ الْبَلَاغَةِ: ١٢٣ الْخُطْبَةُ ٩٠.

٦. تَقْدَمُ فِي الْآيَةِ (٥٤) مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَالْآيَةِ (٣) مِنْ سُورَةِ يُونُسَ.

ثم بالغ سبحانه في إظهار قدرته بقوله: ﴿وَكَانَ﴾ قبل خلقها ﴿عَرْشُهُ﴾ وسريته سلطته؛ مع كونه أعظم الأشياء، مستقراً ﴿عَلَى الْمَاءِ﴾ الذي لا يستقر عليه الثقل، وهو تعالى بقدرته التي لا حد لها أمسكه عليه بغير عمد.

رؤي عن النبي ﷺ: «كان الله ولم يكن معه شيء، وكان عرشه على الماء»^٢.
أقول: في اقتران القضيتين دلالة على أن المراد بالعرش والماء غير معانها الظاهر، وإلا لنافت القضية الأولى.

وعن كعب الأحبار: خلق الله تعالى ياقوته خضراء، فنظر إليها بالهيبة، فصارت ماءً يرتعد من مخافة الله، ثم خلق الريح فجعل الماء على منها، ثم وضع العرش على الماء^٣.

القمي رحمه الله: كان [ذلك] في مبدأ الخلق^٤. [وكان عرشه على الماء و] الماء على الهواء، والهواء لا يحده، ولم يكن يومئذ خلق غيرهما، والماء عذب فترات^٥.

أقول: يمكن أن يكون المراد من العرش: الوجود المنبسط الذي يُعبّر عنه بتقسيم الرحمن، ومن الماء: علمه تعالى بعلاقة كونهما سبب حياة كل شيء.

وعن الباقر عليه السلام: «أن الله عز وجل ابتدع الأشياء كلها بعلمه على غير مثال كان قبله، فابتدع السماوات والأرضين؛ ولم يكن قبلهنّ سماوات ولا أرضون، أما تسمع لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾؟»^٦.

وعن الصادق عليه السلام، أنه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، فقال: «ما يقولون [في ذلك]؟» قيل: يقولون إن العرش كان على الماء، والرب فوقه. فقال: «كذبوا، من زعم هذا فقد صير الله محمولاً ووصفه بصفة المخلوقين، ولزمه أن الشيء الذي يحمله أقوى منه». ثم قال: «إن الله حمل دينه وعلمه الماء، قبل أن تكون سماء أو أرض، أو جن أو إنس، أو شمس أو قمر»^٧.

أقول: يحتمل أن يكون علمه مبتدأ، والماء خبره، والمعنى أن العرش دينه، والماء علمه. ويمكن أن يكون المراد من الماء: الأئمة المعصومين وأشباههم، والمعنى: حمل دينه وعلمه النبي ﷺ وأوصيائه. والحاصل أن هذه الروايات من التشابهات التي يجب ردّ علمها إليهم ﷺ.

ثم بين سبحانه حكمة الخلق بقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ويعامل معكم معاملة الممتحن لأحوالكم بعدد

١. في تفسير الرازي ثم كان.

٢. تفسير الرازي ١٧: ١٨٨.

٣. تفسير الرازي ١٧: ١٨٧.

٤. تفسير القمي ١: ٣٢١، تفسير الصافي ٢: ٤٣٢.

٥. تفسير القمي ٢: ٢٩، تفسير الصافي ٢: ٤٣٢.

٦. الكافي ١: ٢٠٠/٢، تفسير الصافي ٢: ٤٣٢.

٧. الكافي ١: ١٠٣/٧، التوحيد: ١/٣١٩، تفسير الصافي ٢: ٤٣٢.

خلق هذه الدار، وإسكانكم فيها، والإنعام عليكم بثمنون الثَّمْع، وتكليفكم وتعرضكم للثواب والعقاب ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

رُوي أن المعنى: تمتاز درجات أفرادكم في العلم والمعرفة والعقائد الحقّة، وتبين مراتب أعمالكم الجوانحيّة والجوارحيّة؛ فيجازيكم حسب استحقاقكم.

رُوي عن النبي ﷺ، «يعني: أيُّكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله»^١. وعن الصادق عليه السلام: «ليس يعني أكثركم عملاً، ولكن: أصوبكم عملاً، وإنّما الإصابة خشية الله والنية الصادقة»^٢.

ثمّ لما كان لازم الابتلاء بالكاليف وجود عالم آخر للحساب والجزاء، ويخ المشركين على إنكاره بقوله: ﴿وَلَيْنَ قُلْتُ﴾ يا محمد للناس: ﴿إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ لجزاء أعمالكم، مستندلاً على صحّة قولك بالقرآن الناطق، الذي هو أعظم معجزاتك ﴿لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وشعبذة ظاهرة، أو ما قولك هذا إلا خديعة باطلة مثل السحر الظاهر. وقيل: إن وجه تعلق الآية بما قبلها، أن البعث لما كان خلقاً جديداً، كأنه تعالى قال: هو الذي خلق جميع الموجودات ابتداءً لهذه الحكمة، ومع ذلك إن أخبرتهم بأنّه تعالى يُعيدكم تارة أخرى، يقولون ما يقولون، مع أن الإعادة أهون من الابتداء^٣.

وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ أَلَا يَوْمٌ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [٨]

ثمّ أنه تعالى بعد حكاية تكذيبهم الرسول، حكى استهزاءهم بوعده بالعذاب بقوله: ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾ الذي وعدّتهم به ﴿إِلَى أُمَّةٍ﴾ وطائفة من الأيام ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ وقليلة. الثَمَي: عن أمير المؤمنين عليه السلام: يعني به الوقت^٤. وقيل يعني: إلى انقراض جماعة قليلة من المتوعدّين بالعذاب^٥ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ استهزاءً بوعيدك ﴿مَا﴾ ذا ﴿يَحْسِبُهُ﴾ وأي مانع يمنعه من النزول علينا.

ثمّ ردّهم شبحانه بقوله: ﴿أَلَا يَوْمٌ يَأْتِيهِمْ﴾ العذاب الموعود، وحان حينه ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا﴾ ومدفوعاً ﴿عَنْهُمْ﴾ البتّة، بل وقع عليهم ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب. وإنّما أخبر بصيغة الماضي، تنبيهاً على تحقّق وقوعه، ومبالغة في التهديد.

١. تفسير روح البيان ٤: ١٠٠، تفسير الصافي ٢: ٤٣٣. ٢. الكافي ٢: ١٣/٤، تفسير الصافي ٢: ٤٣٢. ٣. تفسير أبي السعود ١: ١٨٨. ٤. تفسير القمي ١: ٣٣٢، تفسير الصافي ٢: ٤٣٣. ٥. تفسير الرازي ١٧: ١٨٩.

عن القمي: يعني: إن متعناهم في هذه الدنيا إلى خروج القائم؛ فنزدهم ونعذبهم ﴿لَيَقُولَنَّ مَا يَخْبِيْهُ﴾ أي يقولون: ألا يقوم القائم، ألا يخرج؟ على حد الاستهزاء.^١

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «الأمّة المعدودة أصحاب القائم الثلاثمائة وبضعة عشر».^٢

وعن الصادق عليه السلام: «هو القائم وأصحابه».^٣

وعنه عليه السلام: ﴿إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ يعني عِدَّة كَعِدَّة بدر ﴿لَيْسَ مَضْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ قال: العذاب.^٤

وعن الباقر عليه السلام: «أصحاب القائم الثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، هم والله الأمّة المعدودة التي قال الله في كتابه»، وتلا هذه الآية. الخبر.^٥

وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوشُ كُفُورًا * وَلَئِن أَذَقْنَاهُ
نِعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّشَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا [١٠ و ٩]

ثم أنه تعالى بعد الإخبار بتحتم العذاب على المستهزئين، بين شدة كفرهم في حال الشدة والرخاء بقوله: ﴿وَلَئِن أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ وأعطيناه نعمة من صحة وجدة وأمن وغيرها، بحيث يجد أقل قليل من لذتها وطعم حلاوتها ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا﴾ وسلبناها ﴿مِنْهُ﴾ مع شدة تعلقه بها وجرحه عليها، بسبب عصيانه وشؤم نفسه ﴿إِنَّهُ لَيَكُوشُ﴾ من تلك النعمة، وشديد القنوط من رَوْحه، ومقطع الرجاء من عود النعمة إليه، لاعتقاده أن سبب النعمة اتفاقي، فإذا انعدم يبعد عودُه، وهو حين وجوده ﴿كُفُورًا﴾ لتلك النعمة لا يؤدّي شكرها، لعدم اعتقاده أنها من الله ﴿وَلَئِن أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءً﴾ من الصحة والراحة والأمن وغيرها ﴿بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّشَتْهُ﴾ وتقلناه من الشدة إلى الرخاء ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ غروراً بدوام تلك النعم: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ﴾ وزال المصائب والمضارّ ﴿عَنِّي﴾ فلا تعود إليّ أبداً، إذن ﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ﴾ وبطّر بتلك النعم، و﴿فَخُورًا﴾ على الناس بها، مشغول عن القيام بشكرها، لكون الدنيا أكبر همّه، والفوز بسعادتها أعظم مطالبه.

وفي التعبير عن نيل النعم بالدوق؛ الذي هو إدراك الطعم، وعن الابتلاء بالضراء بالمس؛ الذي هو مبدأ الوصول، إشعاراً بأن ما يجده الإنسان في هذا العالم أنموذج لما يجده في الآخرة. وفي إضافة الأول إلى ذاته المقدسة دون الثاني، تنبيه على أن الخيرات بتفضله، والشُرور بسينات الأعمال.

١. تفسير القمي ١: ٣٢٢، تفسير الصافي ٢: ٤٣٣. ٢. تفسير القمي ١: ٣٢٣، تفسير الصافي ٢: ٤٣٣.

٣. تفسير العياشي ٢: ٣٠١/١٩٩٥، تفسير الصافي ٢: ٤٣٣.

٤. تفسير العياشي ٢: ٣٠١/١٩٩٣، تفسير الصافي ٢: ٤٣٣.

٥. تفسير العياشي ٢: ٣٠١/١٩٩٤، تفسير الصافي ٢: ٤٣٣.

عن القمّي رحمه الله قال: إذا أغنى الله العبد ثم افتقر، أصابه الإياس والجزع والهلع^١.

إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * فَلَمَلَّكَ
تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ
جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١١ و ١٢)

ثم بين حال المؤمنين الصابرين بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ في البلاء والشدائد ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عند النعمة والراحة شكراً ﴿أُولَئِكَ﴾ الصابرون الشاكرون ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ للذنوب، ونجاة من الشدائد الأخروية ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وثواب عظيم، والنعمة الدائمة بما صبروا في الدنيا على البلاء، وشكروا للنعمة.

ثم لما كان المشركون يكذبون القرآن ويستهزئون به، بحيث كان يضيق صدر النبي ﷺ أن يبلغ إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، هيجه الله سبحانه لأداء الرسالة، وعدم الثبالة باستهزائهم به بقوله: ﴿فَلَمَلَّكَ تَارِكٌ﴾ للقيام بوظيفة الرسالة، ويتوقع منك أن لا تبلغ ﴿بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾ من الآيات الدالة على صدق نبوتك، المتنادية بأنها من عند الله، أو مما يخالف رأي المشركين كإبطال مذهبهم، وذم آلهم وسبها، والزاهم بترك تقليد آبائهم ﴿وَضَائِقٌ﴾ ببليغ قلبك، وعارض لك ﴿بِهِ﴾ من الغم ما لا يسعه ﴿صَدْرُكَ﴾ مع أنك أفسح الناس صدرًا، وأصبرهم في جنب الله، وكان ذلك لأجل ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ تكذيباً لك واستهزاءً بك ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ﴾ إليه، وهكألقى ﴿عَلَيْهِ﴾ من السماء ﴿كَتَابٌ﴾ ومال وافر يتفقه في أموره واستيعاب الناس له كالمملوك، ويستدل به على صدقه ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ من الملائكة يصدقه في دعوى رسالته، ويعينه على عدوه.

قيل: إن القائل عبد الله بن أمية المخزومي^٢.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رؤساء مكة قالوا: يا محمد، اجعل لنا جبال مكة ذهباً إن كنت رسولاً. وقال آخرون: آتينا بالملائكة حتى يشهدوا على نبوتك، فقال: لا أقدر على ذلك. فنزلت^٣، فردهم الله بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ ومأمور من قبل ربك لوعظ الناس، وتخويفهم من الشر والعصيان، بآلاؤه ما أوحى إليك من القرآن عليهم، غير مبالي بتكذيبهم وردهم ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم ﴿وَكَيْلٌ﴾ وحفيظ؛ فيجازيهم عليها أسوأ الجزاء، فتسأل ولا يضيق صدرك.

١. تفسير القمي ١: ٣٢٣، تفسير الصافي ٢: ٤٣٤.

٢. تفسير أبي السعود ٤: ١٩١.

٣. تفسير الرازي ١٧: ١٩٢، تفسير أبي السعود ٤: ١٩١.

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا نَزَلَ قَدْ دَا۟ءَا قَالَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُوَالِيَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ففعل، وسألتُ رَبِّي أَنْ يَجْعَلَكَ وَصِيَّي ففعل. فقال رَجُلَانِ مِنْ قُرَيْشٍ: وَاللهِ لَصَاعٍ [مِنْ] تَمَرٍ فِي شَنْ بَالٍ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا سَأَلَ مُحَمَّدٌ رَبَّهُ، فَهَلَّا سَأَلَ رَبَّهُ مَلَكًا يَعْبُدُهُ عَلَى عَدْوِهِ، أَوْ كَنْزًا يَسْتَعْنِي بِهِ عَنْ فَاقَتِهِ، وَاللهِ مَا دَعَا إِلَى حَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ إِلَّا أَجَابَهُ إِلَيْهِ. فَأَنْزَلَ اللهُ إِلَيْهِ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ...﴾ الآية»^٣.

وزاد العياشي: «وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِرِ صَلَاتِهِ رَافِعًا بِهَا صَوْتَهُ: اللَّهُمَّ هَبْ لِعَلِيِّ الْمَوْدَةَ فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْهَيْبَةَ وَالْعِظَمَةَ فِي صُدُورِ الْمُتَانِقِينَ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^٤ فقال رمع: وَاللهِ لَصَاعٍ [مِنْ] تَمَرٍ فِي شَنْ بَالٍ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا سَأَلَ مُحَمَّدٌ رَبَّهُ، أَفَلَا سَأَلَ رَبَّهُ مَلَكًا يَعْبُدُهُ، أَوْ كَنْزًا يَسْتَعْنِي بِهِ عَنْ فَاقَتِهِ. فَأَنْزَلَ فِيهِ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ هُودٍ أُولَاهَا: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾ الآية»^٥.

عن العياشي: عن زيد بن أرقم، قال: إِنَّ جَبْرِئِلَ الرُّوحِ الْأَمِينَ نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِوِلَايَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ، فَضَاقَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَخَافَةَ تَكْذِيبِ أَهْلِ الْإِفْكَ وَالنَّفَاقِ، فَدَعَا قَوْمًا أَنَا مِنْهُمْ، فَاسْتَشَارَهُمْ فِي ذَلِكَ لِيَقُومَ بِهِ فِي الْمَوْسَمِ، فَلَمْ تَنْدِرْ مَا نَقُولُ لَهُ، وَبَكَى فَقَالَ لَهُ جَبْرِئِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، أَجَزَعْتَ مِنْ أَمْرِ اللهِ؟ فَقَالَ: «كَلَّا يَا جَبْرِئِيلُ، وَلَكِنْ قَدْ عَلِمَ رَبِّي مَا لَقِيتُ مِنْ قُرَيْشٍ إِذْ لَمْ يَقْرَأُوا لِي بِالرَّسَالَةِ حَتَّى أَمْرَنِي بِجِهَادِهِمْ، وَأَهْبَطَ إِلَيَّ جُنُودًا مِنَ السَّمَاءِ فَخَصَرُونِي، فَكَيْفَ يَقْرَءُونَ لِعَلِيِّ بَعْدِي؟» فَانصَرَفَ عَنْهُ جَبْرِئِيلُ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ﴾ الآية^٦.

أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَأَهُ قُلُ فَاَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [١٣]

ثم ضرب سبحانه عن ذكر عدم اعتنائهم بالوحي، وتهاونهم به، واقتراحهم عليه، وذكر ما هو أشدُّ قبحاً وهو نسبة القرآن إلى الافتراء بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾، قيل المعنى: بل يقولون^٧ في شأن القرآن عناداً ولجاجاً: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ ﴿أَفْتَرَأَهُ﴾ ونسبه كذباً إلى الله، مع أنه ليس منه ﴿قُلُ﴾ يا محمد في

١. قَدْ دَا۟ءَا: اسم موضع قرب مكة.

٢. الشَّنُّ: القرية الصغيرة يوضع فيها الماء ليبرد.

٣. الكافي ٨: ٥٧٢/٣٧٨، تفسير الصافي ٢: ٤٣٤.

٤. مريم: ٩٦/١٩.

٥. تفسير العياشي ٢: ١٩٩٧/٣٠٢، تفسير الصافي ٢: ٤٣٥.

٦. تفسير العياشي ٢: ١٩٩٦/٣٠١، تفسير الصافي ٢: ٤٣٥.

٧. تفسير أبي السعود ٤: ١٩١، تفسير روح البيان ٤: ١٠٥.

جوابهم تعجيزاً لهم: إن كان الأمر كما تقولون ﴿فَأْتُوا﴾ أنتم أيضاً؛ مع كونكم مهرة فنَّ الكلام، وخذقة صناعة الفصاحة والبلاغة، ممارسين الخطب والأشعار، مُزاولين أساليب النظم والشعر، مُطلعين على الزقاع والآبام ﴿بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾ في الفصاحة والبلاغة، والخلاوة وحسن النظم ﴿مُفْتَرِيَاتٍ﴾ ومختلقات من عند أنفسكم ﴿وَأَدْعُوا﴾ للاستظهار في المعارضة، وترتيب السور المختلفة ﴿مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ﴾ دعاء والاستعانة به من آلهتكم التي تستمدون بها في أموركم، والكهنة الذين تلتجئون إليهم في مهماتكم، وكل من ترجون منه مساعدتكم، حال كونكم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وشنازين عنه تعالى، لأنه القادر على ذلك دون غيره ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى أنني افتريته، فإن ذلك يستلزم أن يقدر غيري من البشر على إتيان مثل هذا القرآن، ولا أقل من سور قليلة منه.

فَالَّذِينَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [١٤]

ثم خاطب سبحانه رسوله ﷺ بصيغة الجمع تعظيماً له، أو إياه مع المؤمنين بقوله: ﴿فَالَّذِينَ يَسْتَجِيبُوا﴾ هؤلاء الكفار المكذبون ﴿لَكُمْ﴾ ولم يقيدوا على إتيان ما سألتهموه منهم، مع شدة حرصهم على إبطال قولكم، وإظهار افتراكم، وتبيين عجزهم عن المعارضة، ولو مع الاستعانة بغيرهم من الإنس والجن ﴿فَاعْلَمُوا﴾ أن إتيان مثله خارج عن طوق البشر وغيره من المخلوقين، و﴿أَنَّمَا أُنْزِلَ﴾ من القرآن أنزل ﴿بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ وقدرته الكاملة خاصة من دون دخل غيره فيه. واثبتوا على الإيمان به.

وفي التعبير عن الإتيان بالمثل بالاستجابة إشعاراً بل دلالة على أن النبي ﷺ بل والمؤمنين يأثرونهم بالإتيان بعثله، ودعواهم إليه مع إرادتهم منهم وقوعه، مع علمهم بعجزهم عنه.

ثم لما ثبت كون القرآن الناطق بالتحديد وبطلان الشرك، نازلاً من عند الله، ثبت أن الشرك فاسد ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ أيها المؤمنون بعد وضوح ضحّة مذهب التوحيد، وصدق النبي في دعوى النبوة، وصدق كتابه ﴿مُسْلِمُونَ﴾ عن صميم القلب، مخلصون في الإيمان.

وقيل: إن ضمائر الجمع في الآية كلها راجع إلى المشركين، والمعنى: إن لم يستجب لكم آلهتكم في الإعانة على المعارضة، فاعلموا أيها المشركون أن هذا القرآن أنما أنزل بعلم الله، فهل أنتم داخلون في الإسلام بعد لزوم الحجة عليكم، أم تصرّون على الشرك والكفر عناداً ولجاجاً؟

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا

يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا
وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٦ و ١٥]

ثم لما كان غرض الكفار - من معارضة النبي ﷺ، وتكذيب القرآن، واقتراحهم عليه بجعل جبال مكة ذهباً، وتغييره بعدم نزول كنز عليه - طلب الدنيا وحُب زخارفها، لا طلب الحق والآخرة، هذهم بغاية الخسران، وعذاب النيران في الآخرة بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ ويطلب ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ وزخارفها بأعماله الخيرية ﴿تُؤْتِ إِلَيْهِمْ﴾ وتُعطيهم كاملاً ما يساوي ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ من الأجر الدنيوي ﴿فِيهَا﴾ لأنَّ هِمَمَهُمْ مقصورة على تحصيل الدنيا ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ولا يُنقصون شيئاً من أجورهم، بحيث إذا خرجوا منها لم يكن معهم أثرها، حتى لا يستحقّون شيئاً من الثواب الموعود عليها في الآخرة ﴿أُولَئِكَ﴾ الطالبون للدنيا هم ﴿الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ لعدم لياقتهم إلا لها ﴿وَحِطَّ﴾ وفسد ﴿مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ من الأعمال الصالحة، لعدم كونها لوجه الله ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ رياءً وشمعةً، لعدم صلوحه في نفسه لترتيب الأجر عليه.

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا
وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ
فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ [١٧]

ثم أنه تعالى بعد بيان سوء حال الكفار في الآخرة وغاية خسرانهم، وضعة محلهم، بين حسن حال النبي ﷺ والمؤمنين، ورفعة مقامهم، بإنكار التساوي بينهما بقوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ﴾ قادراً ومُستولياً ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ وحقّة واضحة كائنة ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ على صحّة دينه، وبرهان على كلّ حقّ وصواب، ويتّبع ذلك البرهان ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أو يتّبع ذلك الذي كان على بيّنة ﴿شَاهِدٌ﴾ ومصدّق ﴿مِنْهُ﴾ يشهد له على صدقه ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ تشهد له التوراة التي هي ﴿كِتَابٌ مُوسَىٰ﴾ حال كونه ﴿إِمَامًا﴾ وبتبعاً ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونيمة للناس، كمَنْ يُريد الكفر والضلال طلباً للدنيا وزينتها، لا يكون ذلك أبداً، فكيف وبينهما بون بعيد؟

وقيل: إنَّ وجه النظم بين الآيتين وسابقتهما، أنه لما أمر الله المؤمنين بأن يزدادوا يقيناً بقرول القرآن بعلم الله، بعد ظهور عجز البشر عن الإتيان بمثله، وبين أنَّ الكفار لا حظّ لهم في الآخرة، كان مجال توهم الخطّ لهم فيها بسبب الأعمال الخيرية، دفع الله ذلك التوهم بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ

الدُّنْيَا... الآية^١، ثُمَّ عاد سبحانه إلى التَّوْبَةِ في الإيمان بالقرآن والتَّوْحِيد والإسلام بقوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾.

ثُمَّ أَنَّهُ قَدْ كَثُرَ الاختلاف بين مُفسِّري العامة في المراد من الآية، فمنهم مَنْ قال: إِنَّ المراد من ﴿مَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ هُوَ النَّبِيُّ، وَمِنَ البَيِّنَةِ هُوَ الْقُرْآن، وَمِنَ التَّلَاوَةِ قِرَاءَةُ الْقُرْآن، وَمِنَ الشَّاهِدِ جَبْرِئِيلُ^٢، وَقِيلَ: لِسَانُ النَّبِيِّ ﷺ^٣، وَقِيلَ: مُعْجَزَاتُهُ^٤، وَقِيلَ: هُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ^٥؛ كَمَا نَقَلَهُ الْفَخْرُ الرَّازِي، وَقَالَ: الْمُرَادُ بِكَلِمَةِ (مَنْ) تَشْرِيفُ الشَّاهِدِ بِأَنَّهُ بَعْضُ [مَنْ] مُحَمَّدٌ ﷺ^٥، فَيَكُونُ حَاصِلُ الْمُرَادِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى بَيِّنَةٍ عَظِيمَةٍ عَلَى ثُبُوتِهِ، وَصِحَّةِ دِينِهِ وَهُوَ الْقُرْآن، وَيَتْلُوهُ وَيَقْرَأُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ^٥ الَّذِي هُوَ جُزْءٌ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَبِمَنْزِلَةِ نَفْسِهِ.

وَرَوَى الْعَلَمَةُ فِي (نَهْجِ الْحَقِّ)، عَنِ الْجُمْهُورِ: أَنَّ ﴿مَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَالشَّاهِدُ عَلِيٌّ^٦.

وَقَالَ الْقَاضِي فِي (إِحْقَاقِ الْحَقِّ)، بَعْدَ ثَقُلِ انْكَارِ فَضْلِ بْنِ رُوزْبَهَانَ النَّاصِبِيِّ كَوْنَهُ مِنْ تَفَاسِيرِ أَهْلِ السَّنَةِ: إِنَّ مَا نَسَبَ الْمُصَنِّفُ رِوَايَتَهُ إِلَى الْجُمْهُورِ، قَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ، وَذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ، وَكَذَا الْحَافِظُ أَبُو نَعِيمٍ ثَلَاثَةَ طُرُقٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَسَدِيِّ، وَالْفَلَكَيِّ الْمُفَسِّرِ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَادٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ قَدَمَاءِ أَهْلِ السَّنَةِ، وَمِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ فَخَرُ الدِّينِ الرَّازِي، ثُمَّ نَقَلَ عِبَارَةَ الْفَخْرِ الَّتِي مَلَخَصَهَا مَا ذَكَرْنَا.

ثُمَّ قَالَ الْقَاضِي: وَلَا رَيْبَ أَنَّ شَاهِدَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ يَكُونُ أَعْدِلُ الْخَلَائِقِ سَيِّمًا إِذَا تَشَرَّفَ بِكَوْنِهِ بَعْضًا مِنْهُ ﷺ كَمَا ذَكَرَ الرَّازِي، فَكَيْفَ يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ؟ مَعَ كَوْنِ ذَلِكَ الشَّاهِدِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، لِأَنَّ (مِنْ) هَاهُنَا لَتَبْيِينِ الْجِنْسِ، فَيُؤْذَنُ بِأَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ مِنْ جِنْسِ الرَّسُولِ ﷺ وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَسْتَلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ فِيهِ بَيَانٌ لَكَوْنِ عَلِيٍّ^٦ تَالِي الرَّسُولِ مِنْ غَيْرِ فَضْلٍ بَيْنَهُمَا بِتَالٍ آخَرَ، فَحِينَ جَعَلَهُ تَالِيًا بَعْدَ ثَلَاثَةِ فَعْلِيهِ الدَّلَالَةِ، لِأَنَّ التَّالِيَّ هُوَ مَنْ يَتْلِي غَيْرَهُ عَلَى أَثَرِهِ مِنْ غَيْرِ فَضْلٍ بَيْنَهُمَا^٧.

أَقُولُ: الظَّاهِرُ أَنَّ (مِنْ) لِلتَّبْعِيضِ - كَمَا ذَكَرَهُ الْفَخْرُ - وَدَلَالَتُهُ عَلَى فَضْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ^٦ أَقْوَى مِنْ كَوْنِ (مِنْ) لَتَبْيِينِ الْجِنْسِ، وَكَوْنِ عَلِيٍّ^٦ بَعْضًا مِنَ الرَّسُولِ ﷺ لَكَوْنِهِ نَفْسَهُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَةُ الْمُبَاهَلَةِ، فَمَا دَامَ كَوْنُ نَفْسِ النَّبِيِّ - الَّتِي هِيَ بَعْضُ مَجْمُوعٍ مِنْ نَفْسِهِ وَبَدَنِهِ - مَوْجُودًا بَيْنَ النَّاسِ، كَانَ

٢ و ٣. تفسير الرازي ١٧: ٢٠١.

٥. تفسير الرازي ١٧: ٢٠١.

١. تفسير أبي السعود ٤: ١٩٤.

٤. تفسير أبي السعود ٤: ١٩٥.

٦. نهج الحق: ١٩٥. ٧. إحقاق الحق ٣: ٣٥٧ و ٣٥٨.

النبي موجوداً بينهم، فلا معنى لرجوع الناس إلى غيره.

ولو قلنا أن (يتلوه) مأخوذ من تلاوة القرآن وقراءته - كما ذكره الفخر - فمعناه أنه كالرسول وبمَنزَلته في تبليغ كتاب الله إلى الأمة، فيكون مفاده مفاد قوله ﷺ: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى».

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما من رجلٍ من قُرَيْشٍ إلَّا وقد أنزلت فيه آيةٌ أو آيتان من كتاب الله. فقال رجلٌ من القوم: فما نزل فيك يا أمير المؤمنين؟ فقال: أما تقرأ الآية التي هي في هود ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ محمدٌ على بيته من ربه، وأنا الشاهد»^١.

وفي (الأمالي): «وأنا الشاهد، وأنا منه»^٢.

وفي (البصائر): «وأنا الشاهد له فيه، وأنا أتלוه معه»^٣.

وفي (الاحتجاج)، أنه سُئل عن أفضل متَّبعةٍ له، فتلا هذه الآية وقال: «أنا الشاهد من رسول الله ﷺ»^٤.

وفيه، في حديثٍ: قال له بعض الزنادقة: وأجد الله يُخبر أنه يتلو نبيُّه شاهداً منه، وكان الذي تلاه عبدة الأصنام بُرْهَةً من دهره. فقال: «وأما قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ فذلك حجة الله، أقامها الله على خلقه، وعزَّهم أنه لا يستحقُّ مجلس النبيِّ إلَّا مَنْ يقوم مقامه، ولا يتلوهُ إلَّا مَنْ يكون في الطَّهارة مثله وبمَنزَلته، لِئَلَّا يَتَّسِعَ مَنْ مَسَّهُ رِجْسُ الْكُفْرِ في وقتٍ من الأوقات، انتحال الاستحقاق لمقام الرسول». الخبر^٥.

وعن الكاظم والرضا عليه السلام: أمير المؤمنين؛ الشاهد على رسول الله، ورسول الله على بيته من ربه^٦. وعن الصادق عليه السلام: «إنما أنزل ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ إماماً ورحمةً ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾»^٧.

أقول: هذه الرواية محمولة على أن قوله: ﴿إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ حالان للشاهد، لوضوح عدم التحريف في الكتاب المجيد.

١. تفسير العياشي ٢: ١٩٩٩/٣٠٣، تفسير الصافي ٢: ٤٣٧.

٢. أمالي الطوسي: ٨٠٠/٣٧٢، تفسير الصافي ٢: ٤٣٧.

٣. بصائر الدرجات: ٢/١٥٣، تفسير الصافي ٢: ٤٣٧. ٤. الاحتجاج: ١٥٩، تفسير الصافي ٢: ٤٣٧.

٥. الاحتجاج: ٢٤٥ و ٢٥١، تفسير الصافي ٢: ٤٣٨.

٦. الكافي ١: ٣/١٤٧ عن أبي الحسن عليه السلام، تفسير الصافي ٢: ٤٣٧.

٧. تفسير الفقي ١: ٣٢٤، تفسير الصافي ٢: ٤٣٧.

٣٠٤..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٣

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ مِنْ «مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ» أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ وَمِنَ (البينة) الْقُرْآنُ، وَمِنْ (الشاهد) النَّبِيُّ ﷺ.

وقيل: إِنَّ الشَّاهِدَ اشْتِمَالُ الْقُرْآنِ عَلَى أَعْلَى مَرْتَبَةِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ، بِحَيْثُ لَا يَقْدِرُ الْبَشَرُ عَلَى إِتْيَانِ مِثْلِهِ.^٢

عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الشَّاهِدُ مِنْ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ».^٣

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ مِنْ «مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ» مُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْرَابِهِ^٤، وَاسْتَشْهَدُوا لَهُ بِقَوْلِهِ: «أُولَئِكَ» الْمُؤْمِنُونَ بِكَوْنِهِمْ عَلَى بَيِّنَةٍ عَلَى الَّذِينَ الْحَقَّ مِنْ مَذْهَبِ التَّوْحِيدِ وَالْإِسْلَامِ «يُؤْمِنُونَ بِهِ» حَقَّ الْإِيمَانِ، لِتَوَافُقِ الْبَرْهَانِ وَنَصِّ الْقُرْآنِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى إِعْجَازِ الْبَيِّنَانِ، وَذِلَالَةِ تَوْرَةِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَى صِحَّتِهِ، وَصِدْقِ النَّبِيِّ الْجَانِي بِهِ، وَلِذَا بَلَغَ فِي الْقُوَّةِ وَالظُّهُورِ إِلَى مَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ.

ثُمَّ هَذَا شُبْحَانَهُ الْكَافِرِينَ بِالْقُرْآنِ يَقُولُهُ: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ» وَيَجْحَدُهُ «مِنْ الْأَحْزَابِ» وَالْقَبَائِلِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، الَّذِينَ تَحَزَّبُوا وَاجْتَمَعُوا عَلَى إِطْالِ الْحَقِّ وَإِطْفَاءِ ثُورِ الرَّسُولِ، أَوِ الْمُرَادَ حِزْبَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَحِزْبَ الْمُشْرِكِينَ، وَحِزْبَ الْمُنَافِقِينَ «فَالْتَأْتِ مَوْعِدُهُ» يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَسْبَمَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: «لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ».

ثُمَّ بَالِغَ شُبْحَانِهِ فِي تَأْكِيدِ صِدْقِ الْقُرْآنِ، أَوْ صِدْقِ الْوَعْدِ الْمَذْكُورِ يَقُولُهُ: «فَلَا تُكَ» يَا مُحَمَّدُ، أَوْ يَا إِنْسَانَ «فِي مِيزَةٍ» وَشَكَ «مِنْهُ» بَعْدَ ظُهُورِ صِدْقِهِ، وَكَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِالشَّوَاهِدِ الْمَذْكُورَةِ، أَوْ بَعْدَ وَضُوحِ كَوْنِ الْكَافِرِينَ بِالْقُرْآنِ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَمِنْ الْمُتَوَعَّدِينَ بِالنَّارِ. وَعَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فِي مِيزَةٍ» مِنْ وِلَايَةِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ^٥ «إِنَّهُ الْحَقُّ» الثَّابِتُ «مِنْ رِزْقِكَ» اللَّطِيفُ بِكَ «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» لِقُصُورِ عَقْلِهِمْ وَظُهُورِهِمْ، أَوْ لِعِنَادِهِمْ وَلَجَاجِهِمْ.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ

الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ [١٨]

ثُمَّ قِيلَ: إِنَّ بَعْضَ الْكُفَّارِ كَانُوا شَدِيدِي الْجِرْصِ عَلَى الدُّنْيَا، فَرَدَّهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» الْآيَةَ، وَبَعْضُهُمْ كَانُوا قَادِحِينَ فِي مُعْجَزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ، فَرَدَّهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ

٣. مجمع البيان ٥: ٢٢٦، تفسير الصافي ٢: ٤٣٨.

٥. تفسير العياشي ٢: ٣٠٣/١٩٩٧.

١. تفسير الرازي ١٧: ٢٠٢.

٤. تفسير الرازي ١٧: ٢٠١.

مِنْ رَبِّهِ»، وبعضهم كانوا مُفترين على الله بالقول بشفاعة الأصنام، فردّهم الله بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على الله، وعلى نفسه ﴿يَمْنِي أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بقوله: هؤلاء الأصنام شفعاؤنا عند الله. لا والله، لا يكون أحدٌ أظلمَ منه، لأنَّ الشُّركَ ظلمٌ عظيمٌ^١.

ثمَّ هدّهم الله بقوله: ﴿أُولَئِكَ الظَّالِمُونَ يَغْرِضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ويَحْضَرُونَ عنده ﴿وَيَقُولُ﴾ أهل المَوْقف، أو الملائكة الحَفَظَةُ، أو الأنبياء، أو الأئمة الذين هم ﴿الْأَشْهَادُ﴾ على النَّاس يوم القيامة تَقْضِيحاً لهم: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اللطيف بهم، المُحْسِن بِنِعْمه عليهم، المالك لنواصيهم بقولهم: الأصنام شركاءُ الله في الألوهية، وشفعاؤنا عنده ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ وغضبه وعذابه ﴿عَلَىٰ﴾ هؤلاء ﴿الظَّالِمِينَ﴾ على الله بالافتراء عليه، وعلى أنفسهم بتعريضها للهلاك.

رُوي أنَّ الله تعالى يُدني المؤمن يوم القيامة، فيستره من النَّاس فيقول: أي عبادي، أتعرف ذنْبَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم يا رَبِّ. فإذا أَقْرَه بِذُنُوبه قال: فَإِنِّي قد سترتها عليك في الدنيا، وقد غفرتها لك اليوم، ثمَّ يعطى كتاب حسناته. وأما الكُفَّار والمُنافقون، فيقول الأشهاد: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يَفْضَحونهم بما كانوا عليه في الدنيا وَيُبَيِّنون أَنَّهُمْ مَلْعُونون عند الله بِسَبَب ظَلَمِهِمْ^٢.

القَمِّي: يعني بالأشهاد الأئمة عليهم السلام ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ آل محمد حَقَّهم^٣.

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ [١٩]

ثمَّ ذمَّهم سبحانه بأسوأ أعمالهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ ويمنعون النَّاس بشبهاتهم ﴿عَنِ الدُّخُولِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ودين الحقِّ وقوله ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ يطلبون لها ﴿عِوَجًا﴾ وانحرافاً، بأن يصفوها بالبعد عن الحقِّ، أو ييغون أهلها أن ينحرفوا عنها بتعويج دلالتها المُستقيمة. القَمِّي: ﴿يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن طريق الله؛ وهي الإمامة ﴿يَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ حرّفوها إلى غيرها^٤.

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ﴾ بالخصوص ﴿كَافِرُونَ﴾ ليس كُفّر غيرهم في جَنب كُفّرهم بشيء.

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُولَئِكَ

٢. تفسير روح البيان ٤: ١١٢.

١. تفسير الرازي ١٧: ٢٠٤-٢٠٣.

٤. تفسير القمي ١: ٣٢٥، تفسير الصافي ٢: ٤٣٩.

٣. تفسير القمي ١: ٣٢٥، تفسير الصافي ٢: ٤٣٩.

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [٢٠ و ٢١]

ثم عاد إلى تهديدهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ الْمَلْعُونُونَ﴾ «لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ» الله ومانعه من تنفيذ إرادته «فِي الْأَرْضِينَ» بالهرب منه والدفاع عن عذابه «وَمَا كَانَ لَهُمْ» يوم القيامة «مِنْ دُونِ اللَّهِ» ومما سوا بعضاً «مِنْ أَوْلِيَاءَ» وأنصار يتجونهم من العذاب بالقهر، فلا حيلة لهم في الخلاص منه، بل هم لكفرهم بالمبدأ والمعاد، وجمعهم بين ضلال أنفسهم وإضلال غيرهم «يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ» وقيل: تُضَعِفُ الْعَذَابُ حِكْمَةً تأخيره عنهم^١.

ثم بين سبحانه علة شدة كفرهم وتمايدهم في الضلالة بقوله: و «مَا كَانُوا» لقرط نصائهم عن الحق، وامتناعهم عن الإذعان بالقرآن الذي طريق تلقيه السمع «يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ» والإصغاء إليه «وَمَا كَانُوا» لشدة بغضهم للنبي ﷺ «يُبْصِرُونَ» معجزاته «أُولَئِكَ الَّذِينَ» اشتروا الضلالة بالهدى، وعبادة الأصنام بعبادة الله، والعذاب بالمغفرة، فلذا «خَسِرُوا» وأضروا «أَنْفُسَهُمْ» غاية الخسران، وأشد الضرر «وَضَلَّ» وضاع «عَنْهُمْ» في ذلك اليوم «مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» من الآلهة وشفاعتها.

وعن القمي: بطل الذين دعوا [غير] أمير المؤمنين عليه السلام^٢.

لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [٢٢ و ٢٣]

ثم بالغ سبحانه في الإعلام بغاية خسرانهم بقوله: «لَا جَرَمَ» ولا بد، أو لا شك، أو حقاً «أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ» بحيث لا يذانيهم أحد في الخسران.

ثم أنه تعالى بعد بيان سوء حال الكفار في الآخرة وغاية خسرانهم، بين حسن حال المؤمنين وكره ربحهم بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا» وأطمأنوا «إِلَىٰ رَبِّهِمْ» ورحمته، أو خضعوا له «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ» وملازموها، و «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» ومقيمون أبداً لا يخافون الخروج منها.

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ [٢٤]

ثم أوضح سبحانه شوء حال الكفار وحسن حال المؤمنين، بضرب المثل بقوله: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ فريق الكفار وفريق المؤمنين وحالهم العجيبة، ببيان أوضح: أن فريق الكفار ﴿كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ﴾ الذي يكون متحيراً في جميع أموره، لا يهتدي إلى شيء من مصالحه ومنافعه ﴿وَ﴾ فريق المؤمنين مثل ﴿الْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ الذي يهتدي إلى كل خير ﴿هَلْ﴾ الفريقان ﴿يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ وحالاً؟ كلا، لوضوح أن الأول يتخبط في المسالك ويقع في المهالك، والثاني يمشي مطمئناً ويهتدي إلى جميع مطالبه إلى أفطار الأرض ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ قيل: إن التقدير: اتعقلون عن هذا التفاوت بينهما، فلا تذكرون؟ أو فلا تتألمون في هذا المثل، مع أن العاقل لا ينبغي له الغفلة وعدم التذكر. وفي المثل تقرير لعدم التساوي بين من كان على بينة، وغيره^١.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ أَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ [٢٨-٢٥]

في بيان كيفية دعوة نوح ومعارضته قومه
ثم أنه تعالى بعد تهديد الكفار بالعذاب الأخروي، ذكر قصة نوح وهلاك قومه، عبرة
وتهديد أ لهم بالعذاب الدنيوي، وتسلية للنبي ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ فقال: يا قوم ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ ومخوف بالعذاب على الشرك والطغيان
﴿مُبِينٌ﴾ لإبذاري أكمل بيان، وموضح له أوضح تبيان.

وقيل يعني: مبين ما أعد الله للمتطيعين من الثواب^٢.

ثم بين سبحانه كيفية إنذاره، وما أنذر به بقوله: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ ولا تشركوا به شيئاً ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن خالتموني ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ من جهة ما يقع فيه من العذاب ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ والأشراف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكانوا ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ في جوابه، تمادياً في الكفر، وعناداً للحق: ﴿مَا تَرَاكَ﴾ يا نوح ﴿إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ تأكل وتنام وتمشي ﴿وَمَا تَرَاكَ أَتَّبِعَكَ﴾ وآمن بك ﴿إِلَّا﴾ الصعاليك ﴿الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ﴾ وأدانيها ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾ وظاهر الأنظار من غير تعمق، أو بلا حاجة إليه لوضوحه، فلا عبرة باتباعهم لك، لأنهم ليسوا بدوي عقل رزين، ورأي أصيل ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا

من فَضْلٍ ﴿ وَرَبِّهِ مِنَ حَيْثُ الْعَقْلُ وَالشَّرَفُ وَالْمَالُ ﴾، ثُجِبَ اخْتِصَاصُكُمْ بِالنُّبُوَّةِ، وَالْقُرْبُ مِنْ اللَّهِ ﴿بَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ جَمِيعاً ﴿كَأَذْيَبِينَ﴾ فِي دَعْوَى التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ.

﴿قَالَ﴾ لَهُمْ نُوحٌ بَلُطَفٍ وَلِينٍ: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ وَأَخْبِرُونِي عَنْ عَقْلِ وَإِنصَافٍ ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي دَعْوَى نُبُوَّتِي﴾ عَلَى بَيِّنَةٍ عَظِيمَةٍ، وَحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ مِنْ كَمَالِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَالْمُعْجَزَةِ الْبَاهِرَةِ ﴿مِنْ رَبِّي﴾ وَمَلِكِي الَّذِي أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ ﴿وَأَتَانِي رَحْمَةً عَظِيمَةً﴾ وَنِعْمَةً جَسِيمَةً ﴿مِنْ عِنْدِهِ﴾ وَبَلُطَفِهِ وَقُدْرَتِهِ، مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْمُعْجَزَةِ ﴿فَعَمَّيْتُ﴾ وَاسْتَبْهَتْ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لِسَوْءِ اخْلَاقِكُمْ، وَتَقُولُونَ إِنَّهُ لَمْ تَظْهَرْ عِنْدَكُمْ نُبُوَّتِي ﴿أَنْزَلْنَاهُ مَكْمُومًا﴾ وَتَجْبِرُكُمْ عَلَى قَبُولِهِ وَالْإِهْدَاءِ بِهَا ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ وَعَنْهَا مُعْرِضُونَ، لَعَدَمِ إِقْبَالِ قُلُوبِكُمْ إِلَيْهَا، وَعَدَمِ تَأْمَلِكُمْ فِيهَا.

وَحَاصِلُ الْجَوَابِ: أَخْبِرُونِي إِنْ كَانَتْ لِي حُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ، وَأَنْتُمْ لَا تُسَلِّمُونَ لَهَا لَخَفَانِهَا عَنْكُمْ، بِسَبَبِ حَسَدِكُمْ وَعِيَادِكُمْ، هَلْ تَقْدِرُ عَلَى الْإِزَامِكُمْ بِقَبُولِهَا، مَعَ عَدَمِ نَظَرِكُمْ إِلَيْهَا، وَعَدَمِ تَأْمَلِكُمْ فِيهَا، وَإِعْرَاضِكُمْ عَنْهَا؟ كَلَّا، لَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ. وَفِيهِ إِظْهَارٌ غَايَةِ تَمَرُّدِهِمْ، وَالْيَأْسِ عَنْ إِيْمَانِهِمْ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمَقْصُودَ صَرْفَهُمْ عَنِ الْإِعْرَاضِ، وَحُتْمَهُ عَلَى التَّدَبُّرِ فِي حُجَّتِهِ وَمُعْجَزَاتِهِ.

وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ [٢٩]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ مِنْ مُوجِبَاتِ الْإِعْرَاضِ أَوْ تَوْهْمِ الْكَذِبِ تَوْهْمُهُمْ طَمَعُهُ فِي أَمْوَالِهِمْ، أَعْلَمَهُمْ بَبَرَاءَتِهِ عَنْ الطَّمَعِ فِي أَمْوَالِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَا قَوْمِ﴾ إِنْ كَانَ سَبَبُ إِعْرَاضِكُمْ عَنِّي، وَتَكْذِيبِكُمْ قَوْلِي تَوْهْمَ طَمَعِي فِي أَمْوَالِكُمْ، فَاعْلَمُوا أَنِّي مَأْمُورٌ مِنْ قِبَلِ رَبِّي بِتَبْلِيغِ دِينِهِ، وَلِذَا ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ وَإِنْ كَانَ سَبَبُ لَأَنَّ عَمَلِي لَيْسَ لَكُمْ حَتَّى اسْتَحَقَّ عَلَيْكُمْ أَجْرُهُ ﴿إِنْ أَجَرْتُمْ﴾ وَمَا جَزَاءُ عَمَلِي عَلَى أَحَدٍ ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ لِأَنِّي عَامِلٌ لَهُ، فَلَا تَحَرِّمُوا أَنْفُسَكُمْ عَنِ السَّعَادَةِ فِي الدَّارَيْنِ، بِاحْتِمَالِ طَمَعِي فِي أَمْوَالِكُمْ، وَتَضَرُّرِكُمْ بِسَبَبِ قَبُولِ قَوْلِي وَالْإِيْمَانِ بِي، وَأَمَّا إِعْرَاضُكُمْ بِأَنْ أَتْبَاعِي الْفُقَرَاءُ وَأَدَانِي النَّاسُ، فَلَا وَقَعُ لَهُ، لِأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ، وَإِنَّمَا غَرَضِي هِدَايَتَهُمْ، وَلِذَا لَا يَتَفَاوَتْ فِي نَظَرِي كَوْنُ الْمُتَهْتَدِي غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا، شَرِيفًا أَوْ ضَعِيفًا ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِاللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ مِنْ مَجْلِسِي وَمِنْ حَوْلِي، وَإِنْ كَانُوا أَفْقَرُ خَلَقَ اللَّهُ وَأَرَادَهُمْ، حَيْثُ ﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَشْكُونَ إِلَيْهِ طَارِدَهُمْ وَيُخَاصِمُونَهُ.

أو المراد: كيف أطردهم، مع أنهم أعظم الناس قدراً، وأعلاهم منزلة؟ لأنهم ملاقو ربهم، والفاضلون بقرب ملكهم، بسبب إيمانهم وحسن عملهم. ثم أنتم ترون أنفسكم أعقل وأعلم مني ومنهم ﴿وَلَجِئْتُ أَرَآكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ بالواقعيات، وما وراء المحسوسات، وعواقب الأمور، وتغترون بالظواهر لقصور نظركم، وعدم تدبركم، ولذا تدعون أنهم أزدل الناس وتسالون طردهم.

وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِيتُ الظَّالِمِينَ [٣٠ و ٣١]

ثم بالغ في الاعتذار عن عدم طردهم بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي﴾ وينجيني ﴿مِنْ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ ويدفع عني عقابه ﴿إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ وأبعدتهم من حولي، مع أنني مأمور بتقريبهم وإكرامهم؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أن هذا أبلغ الإعذار في ترك طردهم؟

ثم لما كان في قوله: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ﴾ إيهام بغناه المطلق، وفي دعوى رسالته إيهام بكونه ملكاً في اعتقاد القائلين بأنه بشر، وفي قوله: ﴿إِنِّي أَرَآكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ إيهام بكونه عالماً بالبواطن والمغيبات، وفي قوله: ﴿مَا أَنَا بِطَارِدٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إيهام بكونه عالماً بما في أنفسهم من الخلوص في الإيمان، وكل ذلك كان موداً لتكذيبهم؛ لغاية استيعاده في نظرهم، دفع جميع التوهمات بقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ ويدي مقاتيح كنوزه، ولي الغنى المطلق، حتى تحجدوا ذلك وتقولوا: ﴿مَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾، فإن الثبوة لا ثبات بالمال والجاه ﴿وَلَا﴾ أقول: إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبُ حتى تستبعدوه مني ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ من الملانكة، حتى تكذبوني وتقولوا: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ﴾، فإن البشرية من مبادئ الثبوة لا من موانعها ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ وتستزدلهم في أنظاركم: ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ كما تقولون ذلك في شأنهم، أو آتاهم جميع الخيرات بخلوص إيمانهم. وإنما أنظر أنا بظاهر حالهم ومقالاتهم، و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من الخلوص والتمساق ﴿إِنِّي إِذَا﴾ والله ﴿لَمِيتُ الظَّالِمِينَ﴾ على نفسي بادعاء ما ليس لي، وعلى المؤمنين بطردهم وتحقيرهم.

قَالُوا يَأْتِيهِمْ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ [٣٢ و ٣٣]

فلَمَّا رَدَّ نُوحٌ نُسَبَهُم، وألزمهم بالحُجَجِ والْبَيِّنَاتِ الواضحة، ضاقت عليهم الجِلْدُ و﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا وَخَاصَمْتَنَا فِي إثْبَاتِ نُبُوتِكَ﴾ فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا وَأَطْلَعْتَ حَتَّى مَلَلْنَا ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا بَعَدْنَا﴾ من العذاب العاجل، على ثَرْكِ إيماننا بك، وبما ادَّعَيْتَ من التَّوْحِيدِ ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دَعْوَى نُبُوتِكَ وَوَعِيدِكَ، فَإِنْ مَوَاعِظُكَ وَمَنَاطِرُكَ لَا تُؤَثِّرُ فِينَا ﴿قَالَ﴾ نُوحُ: أَنَا لَا أَقْدِرُ عَلَى إِيْتَانِ الْعَذَابِ، بَلِ ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ القادر على كُلِّ شَيْءٍ ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إِيْتَانَهُ عَاجِلًا أَوْ آجَلًا ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ له وَمَانِعِيهِ من تَعَذِّيبِكُمْ بِالْهَرَبِ وَالذَّفَاعِ.

وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ
رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [٣٤]

ثُمَّ نَبِّهَهُمْ بِكَوْنِهِ نَاصِحًا لَهُمْ لَا مُجَادِلًا، وَأظهر يَاسَهُ عن إِيْمَانِهِمْ مُتَأسِفًا عَلَيْهِمْ بقوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ﴾ وَلَا يُؤَثِّرُ فَيْكُمْ ﴿نُصْحِي﴾ وَمَوْعِظَتِي ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ وَأرشدكم بما فيه خَيْرِكُمْ، وَأزجركم عَمَّا فِيهِ ضَرَرُكُمْ وَشَرُّكُمْ، لَا تَسْمَعُوا قَوْلِي، وَلَا تَعْتَنُوا إِلَى نُصْحِي ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ وَيُضِلَّكُمْ عن صِرَاطِ الْحَقِّ لُخْبُ طَيْبَتِكُمْ وشَوْءُ اخْتِيَارِكُمْ وإِعْمَالِكُمْ له ذَلِكَ، إِذْ ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ وَمَالِكُ أَمْرِكُمْ، الْعَالِمُ بِطَيْبَتِكُمْ وشَوْءِ أَخْلَاقِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ، حَيْثُ إِنَّهُ خَلَقَكُمْ أَوَّلًا، وَرَبَّكُمْ فِي مَدَّةِ عُمُرِكُمْ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ آخِرًا؛ فَيَجَازِيكُمْ بما تَسْتَحِقُّونَ.
عن الرضا عليه السلام: (يعني: الأمر إلى الله يهدي من يشاء).^١

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيْ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ [٣٥]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ حِكَايَةِ مُحَاجَّةِ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ - التي [هي] من الأخبار الغيبية بالنسبة إلى النبي الأمي، والدلائل الواضحة على صدق القرآن - وَبَيَّنَّ الْمُشْرِكِينَ بنسبة الافتراء إليه بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ فِي شَأْنِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ: إِنَّ مُحَمَّدًا ﴿افْتَرَاهُ﴾ وَاخْتَلَقَهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُعَانِدِينَ الْمُصْرِينَ عَلَى الْكُفْرِ وَاللَّجَاجِ: ﴿إِنْ افْتَرَيْتُهُ﴾ كما تقولون ﴿فَعَلَيْ إِجْرَامِي﴾ وَعُقُوبَةُ ذَنْبِي، وَإِنْ كُنْتُ صَادِقًا فِي نِسْبَةِ الْقُرْآنِ إِلَى رَبِّي؛ وَأَنْتُمْ تَكْذِبُونِي، فَعَلَيْكُمْ عِقَابُ ذَنْبِكُمْ وَوَبَالَ جُرْمِكُمْ ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ من إِسْنَادِ الْإِفْتِرَاءِ إِلَيَّ، فَلَا وَجْهَ لِمُعَادَاتِكُمْ لِي.
وقيل: هذه الآية تَبَيَّنَةُ قول نُوحٍ، وَالضَّمِيرُ الْمَنْصُوبُ فِي ﴿افْتَرَيْتُهُ﴾ رَاجِعٌ إِلَى الْوَحْيِ الَّذِي ادَّعَاهُ.^٢

وَأَوْحِيْ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [٣٦]

ثم لما كان يئس نوح عليه السلام من إيمان معارضييه دون غيرهم من الكفار ومن في أصلابهم، أخبره سبحانه بعدم إيمان الموجودين في عصره، ولا من في أصلابهم أبداً بقوله: ﴿وَأَوْحِيْ﴾ من قِبَل الله ﴿إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ﴾ ومن في أصلابهم أحد أبداً ﴿إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ بك، فلا تحتمل في حقهم وفي حق نسلهم الإيمان، ثم أنهم إن عصوا وكذبوك ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ولا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ من العيصان والأيذاء، وبما كانوا يركبون من التكذيب والاستهزاء، لأنه قد انتهت مدة إمهالهم، وقربت ساعة مجازاتهم.

عن النبي ﷺ: «أَنْ نُوحاً [كَانَ] إِذَا جَادَلَ قَوْمَهُ ضَرَبُوهُ حَتَّى يَغْشَى عَلَيْهِ، فَإِذَا آفَاقَ قَالَ: اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^١.

قيل: لما جاء هذا الوحي، دعا عليهم فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ...﴾ الآية^٢.
عن الباقر عليه السلام: «أَنْ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ لَبِثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً، يَدْعُوهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً، فَلَمَّا أَبَوْا وَعَتَوْا قَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ...﴾ الآية. فلذلك قال نوح: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِراً كَفَّاراً﴾^٣. الخبر^٤.

وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ *
وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَىٰ مَلَأْ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا
نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ [٣٧ و ٣٨]

ثم أمره الله بصنع الفلك بقوله: ﴿وَأَصْنَعِ﴾ يا نوح ﴿الْفُلْكَ﴾ حال كونك محفوظاً ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وحفظنا إياك من أن يمنعك الكفار من صنعه، أو من الخطأ فيه، أو يحفظ الملائكة المؤمنين لك الموكلين بحفظك وإعانتك، وليكن صنعك إياه بتعليمنا ﴿وَوَحْيِنَا﴾ إليك كيفية صنعه.
عن ابن عباس: لم يعلم نوح كيفية صناعة الفلك، فأوحى إليه أن يصنعها مثل جَوْجَر الطائر، فأخذ القدوم وجعل يضرب ولا يخطأ^٥.

١. تفسير روح البيان ٤: ١٢٢.

٢. سورة نوح: ٧١/٢٦.

٣. تفسير روح البيان ٤: ١٢٢، والآية من سورة نوح: ٧١/٢٦.

٤. تفسير العياشي ٢: ٣٠٥/٢٠٠٤، الكافي ٨: ٢٨٢/٤٢٤، تفسير الصافي ٢: ٤٤٢.

٥. تفسير روح البيان ٤: ١٢٣.

وَرَوَى أَنَّهُ أَمَرَ بَعْرَسَ الْأَشْجَارِ، فَنَمَتْ تِلْكَ الْأَشْجَارُ فِي مُدَّةٍ عِشْرِينَ سَنَةً، فَلَمَّ يُولَدُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ مَوْلُودٌ، وَبَلَغَتْ الْأَطْفَالُ الَّتِي وُلِدَتْ مِنْ قَبْلُ، وَكَفَرُوا وَعَارَضُوا نُوحًا تَبَعًا لِأَبَائِهِمْ^١.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَثِيرَ الشَّفَقَةِ عَلَى قَوْمِهِ، أَوْحَى إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي﴾ وَلَا تُرَاجِعْنِي ﴿فِي﴾ شَأْنٍ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَلَا تَشْفَعْ لَهُمْ فِي دَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ ﴿إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ﴾ بِالطُّوفَانِ لَا مَحَالَةَ فِي حُكْمِي وَقَضَائِي، فَلَا يُمَكِّنْ صَرْفَهُ عَنْهُمْ.

﴿و﴾ كَانَ نُوحٌ ﴿يَضَعُ الْقُلُوكَ﴾ الَّتِي أَمَرَ بِصُنْعِهَا ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ﴾ وَأَشْرَافَ ﴿مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ إِمَّا لَعَدَمَ مَعْرِفَتِهِمْ بِنَفْعِهِ - قِيلَ: إِنْ قَوْمُهُ قَالُوا: مَا تَصْنَعُ يَا نُوحُ؟ فَقَالَ: أَصْنَعُ بَيْتًا يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ، فَتَعَجَّبُوا وَسَخِرُوا مِنْهُ - وَإِنَّمَا لِأَنَّهُ كَانَ يَصْنَعُهَا فِي أَعْدَمِ مَوْضِعٍ مِنَ الْمَاءِ فِي وَقْتِ غَايَةِ عِزَّتِهِ^٢، وَكَانَ الْقَوْمُ يَتَضَحَكُونَ وَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، صِرْتَ نَجَارًا بَعْدَ مَا كُنْتَ نَبِيًّا، وَيَقُولُونَ: أَتَجْعَلُ لِلْمَاءِ إِكَافًا^٣، فَأَيْنَ الْمَاءُ^٤!

وَعَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنْ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا غَرَسَ النَّوَى، مَرَّ عَلَيْهِ قَوْمُهُ فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيَسْخَرُونَ وَيَقُولُونَ: قَدْ قَعَدَ غَرَسًا، حَتَّى إِذَا طَالَ النَّخْلُ، وَكَانَ جَبَارًا طَوَّالًا، قَطَعَهُ ثُمَّ نَحْتَهُ، فَقَالُوا: قَدْ قَعَدَ نَجَارًا. ثُمَّ أَلْفَهُ فَجَعَلَهُ سَفِينَةً، فَمَرَّوْا عَلَيْهِ فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيَسْخَرُونَ وَيَقُولُونَ: قَدْ قَعَدَ مَلَأَحًا فِي فَلَاةِ الْأَرْضِ؛ حَتَّى فَرَّغَ مِنْهَا»^٥.

وَقِيلَ: إِنَّهُ كَانَ يَنْذِرُهُمْ بِالْفَرَقِ، فَلَمَّا طَالَ مَكْتُهُ فِيهِمْ وَلَمْ يُشَاهِدُوا مِنْهُ عَيْنًا وَلَا أَثَرًا، عَدُّوهُ مِنَ الْمُحَالَاتِ، ثُمَّ لَمَّا رَأَوْا اشْتِغَالَهِ بِأَسْبَابِ الْخَلَاصِ مِنْهُ سَخِرُوا مِنْهُ^٦.

فَلَمَّا رَأَى نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ سُخْرِيَتَهُمْ ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي﴾ الْيَوْمَ ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ إِذَا وَقَعَ عَلَيْكُمُ الْفَرَقُ فِي الدُّنْيَا، وَالْحَرَقُ فِي الْآخِرَةِ ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ مِنِّي﴾.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ [٣٩]

ثُمَّ هَدَّاهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وَعَنْ قَرِيبٍ تَشْهَدُونَ ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ عَظِيمٌ فِي الدُّنْيَا ﴿يُخْزِيهِ﴾ وَيُذِلُّهُ، وَهُوَ الطُّوفَانُ ﴿وَيَجِلُّ﴾ وَيَرِدُّ ﴿عَلَيْهِ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿عَذَابٌ﴾ بِالنَّارِ ﴿مُقِيمٌ﴾ دَائِمٌ لَا انْقِطَاعَ لَهُ أَبَدًا.

٢. أَي قِيلَتْهُ.

١. تفسیر روح البیان ٤: ١٢٣.

٣. الإكاف: البردعة أو البردعة، وهي ما يوضع على الحمار أو البغل ليركب عليه كالترج للفرس.

٤. تفسیر روح البیان ٤: ١٢٥.

٥. الكافي ٨: ٢٨٣/٤٢٥، تفسير الصافي ٢: ٤٤٣.

٦. تفسير الرازي ١٧: ٢٢٤.

قيل: صَنَعَ نُوحٌ السَّفِينَةَ فِي سِتِّينَ، وَاشْتَأَجَرَ أَجْرَاءَ يَنْحِتُونَ مَعَهُ^١.

وعن الصادق عليه السلام: «كَانَ مَزَلُ نُوحٍ وَقَوْمِهِ فِي قَرْيَةٍ عَلَى مَزَلٍ مِنَ الْفَرَاتِ مِمَّا يَلِي غَرْبِي الْكُوفَةِ، وَكَانَ نُوحٌ رَجُلًا نَجَارًا، فَجَعَلَهُ اللَّهُ نَبِيًّا وَاتَّجَبَهُ، وَنُوحٌ أَوَّلُ مَنْ عَمِلَ سَفِينَةً تَجْرِي عَلَى ظَهْرِ الْمَاءِ».

قال: «وَلَبِثَ نُوحٌ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى، فَيَمْرُونَ بِهِ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مِنْهُمْ دَعَا عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿وَبِّ لَا تَذَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ ذَبَّارًا...﴾^٢، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا نُوحُ، اصْنَعْ الْفُلَّكَ وَأَوْسِعْهَا وَعَجِّلْ عَمَلَهَا بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا، فَعَمِلَ نُوحٌ سَفِينَتَهُ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ بِيَدِهِ يَأْتِي بِالْحَشَبِ مِنْ بُعْدٍ، حَتَّى فَرَّغَ مِنْهَا.

فَشِيلَ [عليه السلام]: فِي كَمْ عَمِلَ نُوحٌ سَفِينَتَهُ حَتَّى فَرَّغَ مِنْهَا؟ قَالَ: فِي دَوْرَيْنِ. قِيلَ: وَكَمْ الدَّوْرَانِ؟ قَالَ: ثَمَانُونَ سَنَةً. قِيلَ: إِنَّ الْعَامَةَ يَقُولُونَ: عَمِلَهَا فِي خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، فَقَالَ: كَلَّا وَاللَّهِ، كَيْفَ وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَوَحْيِنَا﴾^٣.

قيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْوَحْيِ السَّرْعَةُ وَالْعَجَلَةُ^٤.

وعن (حياة الحيوان): أَنَّ أَوَّلَ مَنْ اتَّخَذَ الْكَلْبَ لِلْحِرَاسَةِ نُوحٌ عليه السلام، قَالَ: يَا رَبِّ أَمَرْتَنِي أَنْ أَصْنَعَ الْفُلَّكَ، وَأَنَا فِي صِنَاعَتِهِ أَصْنَعُ أَيَّامًا فَيُحْسِنُونَ بِاللَّيْلِ فَيُفْسِدُونَ كُلَّ مَا عَمِلْتُ، فَمَتَى يَلْتَمِمْ لِي مَا أَمَرْتَنِي بِهِ، قَدْ طَالَ عَلَيَّ أَمْرِي؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا نُوحُ، اتَّخِذْ كَلْبًا يَحْرُسُكَ. فَاتَّخَذَ نُوحٌ كَلْبًا، وَكَانَ يَعْمَلُ بِالنَّهَارِ وَيَنَامُ بِاللَّيْلِ، فَإِذَا جَاءَ قَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا بِاللَّيْلِ يَنْبَحُهم الْكَلْبُ، فَيَتَبَّهُ نُوحٌ فَيَأْخُذُ الْهَرَاةَ^٥ وَيُثَبِّبُ إِلَيْهِمْ فَيَنْهَضُونَ مِنْهُ، فَالْتَأَمَ مَا أَرَادَ، وَفَعَلَ السَّفِينَةَ^٦.

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

وَأَهْلُكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ [٤٠]

ثُمَّ أَنَّهُ كَانَ مُشْتَغَلًا بِضَعِ الْفُلِّكَ ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ لِلتَّنُّورِ بِالْفُورَانِ، أَوْ عَذَابِنَا ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ وَنَبَعَ الْمَاءُ مِنْهُ بِشِدَّةٍ كَغَلْيَانِ الْقَدْرِ. قِيلَ: كَانَ التَّنُّورُ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ، وَالسَّفِينَةُ أَيْضًا فِيهِ^٧.

وعن الصادق عليه السلام: «كَانَ التَّنُّورُ فِي بَيْتِ عَجُوزٍ مُؤْمِنَةٍ فِي ذُبُرِ قَيْلَةٍ مَيِّمَةِ الْمَسْجِدِ» يَعْنِي مَسْجِدَ الْكُوفَةِ، فَقِيلَ لَهُ: فَإِنَّ ذَلِكَ مَوْضِعَ زَاوِيَةِ بَابِ الْفِيلِ الْيَوْمَ. ثُمَّ سُئِلَ: أَوْ كَانَ بَدْوُ خُرُوجِ الْمَاءِ مِنْ ذَلِكَ

٢. نوح: ٢٧/٧١.

١. تفسير روح البيان ٤: ١٢٣.

٣. تفسير العياشي ٢: ٣٠٥/٢٨٠، الكافي ٨: ٢٨٠/٤٤٦، تفسير الصافي ٢: ٤٤٦.

٦. تفسير روح البيان ٤: ١٢٣.

٥. الهراوة: العصا الضخمة.

٧. تفسير أبي السعود ٤: ٢٠٨.

التَّوْرُ؟ قال: «نعم، إِنَّ اللَّهَ أَحَبُّ أَنْ يُرَى قَوْمُ نُوحٍ آيَةً»^١.

وعنه عليه السلام: «جاءت امرأة نوح إليه، وهو يعمل السفينة، فقالت له: إِنَّ التَّوْرَ قد خرج منه ماء، فقام إليه مُسرِعاً حَتَّى جعل الطَّبَقَ عليه، فحتمه بخاتمه فقام الماء^٢، فلَمَّا فرَغ من السفينة جاءَ إلى خاتمه، ففَضَّه وكشَفَ الطَّبَقَ ففار الماء»^٣.

في بيان ركوب نوح وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَنَّ نُوحاً لَمَّا فرَغ من السفينة، وكان ميعادهُ فيهما بينه وبين ربِّه في إهلاك قومه أَنْ يَتَوْرَ التَّوْرَ، ففَارَ فَقَالَتْ امرأته: إِنَّ التَّوْرَ قَدْ فارَ، فقام إليه فيها فحتمه، فقام الماء». الخبر^٤.

ثُمَّ ﴿قُلْنَا﴾ لنوح: ﴿أَحْمِلْ فِيهَا﴾ مَعَكَ ﴿مِنْ كُلِّ﴾ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ الَّتِي لَا يَبْدُ مِنْ وُجُودِهَا فِي الْأَرْضِ ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى، لِئَلَّا يَنْقَرِضَ نَسْلُهَا. رَوَى أَنَّ نُوحاً عليه السلام قال: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَحْمِلُ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ؟ فَحَسَرَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ السَّبَاعَ وَالطَّيْرَ، فَجَعَلَ يَضْرِبُ يَدَيْهِ فِي كُلِّ جِنْسٍ، فَيَقْعُ الذَّكَرَ فِي يَدِهِ الْيُمْنَى وَالْأُنْثَى فِي الْيُسْرَى، فَيَجْعَلُهَا فِي السَّفِينَةِ^٥.

وقيل: لَمْ يَحْمِلْ فِيهَا إِلَّا مَا يَلِدُ وَيَبِيضُ، دُونَ مَا يَتَوَلَّدُ مِنَ الثَّرَابِ كَالْحَشَرَاتِ^٦. وقيل: أَوَّلَ مَا حَمَلَهُ الذَّرَّةُ^٧، وَآخِرَ مَا حَمَلَهُ الْحِمَارُ، فَلَمَّا دَخَلَ صَدْرُهُ تَعَلَّقَ إِبْلِيسُ بِذَنْبِهِ فَلَمْ تَسْتَقِلْ رِجْلَاهُ، فَجَعَلَ نُوحٌ عليه السلام يَقُولُ: وَيْحَكَ ادْخُلْ، فَيَنْهَضُ فَلَا يَسْتَطِيعُ، حَتَّى قَالَ نُوحٌ عليه السلام ادْخُلْ وَالشَّيْطَانُ مَعَكَ، فَلَمَّا قَالَ نُوحٌ عليه السلام ذَلِكَ خَلَّى الشَّيْطَانُ سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ وَدَخَلَ الشَّيْطَانُ مَعَهُ، فَقَالَ نُوحٌ عليه السلام: مَا أَدْخَلَكَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ؟ قَالَ: أَلَمْ تَقُلْ: ادْخُلْ وَالشَّيْطَانُ مَعَكَ؟ قَالَ: اخْرُجْ عَنِّي يَا عَدُوَّ اللَّهِ. قَالَ: مَا لَكَ بَدُّ مِنْ أَنْ تَحْمِلَنِي مَعَكَ^٨.

وَقُلَّ أَنَّهُ عليه السلام قَالَ لِلْحِمَارِ: ادْخُلْ يَا مَلْعُونُ، فَدَخَلَ الْحِمَارُ [السَّفِينَةَ] وَدَخَلَ مَعَهُ إِبْلِيسُ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ رَأَى نُوحٌ إِبْلِيسَ فِي السَّفِينَةِ، فَقَالَ لَهُ: دَخَلْتَ السَّفِينَةَ بِغَيْرِ أَمْرِي؟ فَقَالَ إِبْلِيسُ: مَا دَخَلْتُ إِلَّا بِأَمْرِكَ، فَقَالَ لَهُ: أَنَا مَا أَمَرْتُكَ، فَقَالَ: أَمَرْتَنِي حِينَ قُلْتُ لِلْحِمَارِ: ادْخُلْ يَا مَلْعُونُ، وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مَلْعُونٍ

١. الكافي ٨: ٢٨١/٤٢١، مجمع البيان ٥: ٢٤٧، تفسير الصافي ٢: ٤٤٣.

٢. قام الماء: إِذَا بَيَّتَ لَا يَجِدُ مَنْفَذاً.

٣. تفسير العياشي: ٢: ٣٠٧/٢٠٨، الكافي ٨: ٢٨٢/٤٢٣، تفسير الصافي ٢: ٤٤٣.

٤. الكافي ٨: ٢٨١/٤٢٢، تفسير الصافي ٢: ٤٤٣. ٥. تفسير روح البيان ٤: ١٢٦.

٧. الذَّرَّةُ: صِغَارُ التَّمَلِّ. ٨. تفسير روح البيان ٤: ١٢٦.

إِلَّا أَنَا فَدَخَلْتُ، فَتَرَكَهُ^١.

عن الصادق عليه السلام: «حَمَل نُوحٌ فِي السَّفِينَةِ الْأَزْوَاجَ الثَّمَانِيَةَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾^٢، فَكَانَ مِنَ الصَّانِّ اثْنَيْنِ؛ زَوْجٌ دَاجِنَةٌ يُرَبِّيهِمَا النَّاسُ، وَالزَّوْجُ الْآخَرُ الَّتِي تَكُونُ فِي الْجِبَالِ وَحْشِيَّةً، أَجَلٌ لَهُمْ صَيِّدُهَا»^٣.

القَمِي: عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ هَلَاكَ قَوْمِ نُوحٍ عَقَمَ أَرْحَامَ النِّسَاءِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمْ يُولَدْ لَهُمْ مَوْلُودٌ، وَلَمَّا فَرَّغَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ إِجْبَادِ السَّفِينَةِ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُنَادِيَ بِالسَّرِيَانِيَّةِ أَنْ تَجْتَمِعَ جَمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ، فَلَمْ يَبْقَ حَيَوَانٌ إِلَّا حَاضِرٌ، فَأَدْخَلَ مِنْ كُلِّ جَنْسٍ مِنْ أَجْناسِ الْحَيَوَانِ زَوْجَيْنِ، مَا خَلَا الْفَأْرَ وَالسُّورَ، وَإِنَّهُمْ لَمَّا شَكُّوا مِنْ سِرِّينِ^٤ الدَّوَابِّ وَالْقَدَرِ، دَعَا بِالْخِزِيرِ فَمَسَحَ جَبِينَهُ فَعَطَسَ، فَسَقَطَ مِنْ أَنْفِهِ فَازَ، فَتَنَاسَلَ، فَلَمَّا كَثُرُوا شَكُّوا إِلَيْهِ مِنْهَا، فَدَعَا بِالْأَسَدِ فَمَسَحَ جَبِينَهُ فَعَطَسَ، فَسَقَطَ مِنْ أَنْفِهِ زَوْجُ سِنُورٍ^٥. وَفِي رِوَايَةٍ: «شَكُّوا الْعَذْرَةَ^٦، فَأَمَرَ اللَّهُ الْفِيلَ فَعَطَسَ فَسَقَطَ الْخِزِيرُ»^٧.

وعنه عليه السلام: «كَانَ طُولُ سَفِينَةِ نُوحٍ أَلْفَ ذِرَاعٍ وَمِائَتِي ذِرَاعٍ، وَعَرَضُهَا ثَمَانِمِائَةَ وَمِائَتِي [ذِرَاعٍ]، وَطَوَّلُهَا فِي السَّمَاءِ ثَمَانِينَ [ذِرَاعًا]»^٨.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «طَوَّلُهَا ثَمَانِمِائَةَ [ذِرَاعٍ] وَعَرَضُهَا خَمْسِمِائَةَ [ذِرَاعٍ]»^٩.

وَعَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اتَّخَذَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْفُلِّكَ تِسْعِينَ بَيْتًا لِلْبَهَائِمِ»^{١٠}.

وَفِي رِوَايَةٍ: «وَكَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ اتَّخَذَ لِكُلِّ صَرْبٍ مِنْ أَجْناسِ الْحَيَوَانِ مَوْضِعًا فِي السَّفِينَةِ، وَجَمَعَ لَهُمْ فِيهَا مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْغِذَاءِ»^{١١}.

وَقِيلَ: كَانَتْ مِنْ خَشَبِ السَّاجِ، وَجُعِلَتْ ثَلَاثَةُ بُطُونٍ؛ حَمَلٌ فِي الْبَطْنِ الْأَوَّلِ الْوَحُوشُ وَالسَّبَاعُ وَالْهَوَامُّ، وَفِي الْبَطْنِ الْأَوْسَطِ الدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامُ، وَفِي الْبَطْنِ الْأَعْلَى هُوَ وَمَنْ مَعَهُ، مَعَ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الزَّادِ، وَحَمَلَ مَعَهُ بَجَسَدِ آدَمَ^{١٢}.

١. تفسير روح البيان ٤: ١٢٧.

٢. الزمر: ٦/٣٩.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠١٢/٣٠٨، الكافي ٨: ٤٢٧/٢٨٣، تفسير الصافي ٢: ٤٤٥.

٤. السَّرْقِين: السَّرْجِين، وَهُوَ زَيْلُ الْحَيَوَانِ.

٥. الْعَذْرَةُ: الْغَائِطُ.

٦. مجمع البيان ٥: ٢٤٢، تفسير الصافي ٢: ٤٤٥، تفسير القمي ١: ٣٢٦ «قطعة منه».

٧. تفسير العياشي ٢: ٢٠٢٢/٣١٠، الكافي ٨: ٤٢٦/٢٨٣، تفسير الصافي ٢: ٤٤٦.

٨. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٢٤٤، تفسير الصافي ٢: ٤٤٦.

٩. الخصال: ١/٥٩٨، عن ابن عباس، تفسير الصافي ٢: ٤٤٥.

١٠. تفسير القمي ١: ٢٢٧، تفسير الصافي ٢: ٤٤٤.

١١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٠٦.

. وقيل: جعل في الأول الدواب والوحوش، وفي الثاني الإنس، وفي الأعلى الطير^١.

﴿وَاحْمِلْ مَعَكَ أَهْلَكَ﴾ وهم: امرأته وبثوه و يساؤهم - عن النبي ﷺ: «كانوا ثمانية: نوح وأهله وبثوه الثلاثة، ونساؤهم»^٢ - ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ﴾ في علمي ﴿عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ والحكم بأنه من الممفرقين، وهو ابنه كنعان، وأمه غائلة، لأنهما كانا كافرين ﴿وَاحْمِلْ مَنْ آمَنَ﴾ بك من سائر الناس ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وعن الصادق عليه السلام، في رواية: «وكان الذين آمنوا به من جميع الدنيا ثمانين رجلاً». الخبر^٣.

وعنه عليه السلام: «آمن مع نوح من قومه ثمانية نفر»^٤.

وعن الباقر عليه السلام: «ليس كل من في الأرض من بني آدم من ولد نوح، قال الله في كتابه: ﴿احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ اثْنَيْنِ...﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ وقال: ﴿ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ...﴾»^٥.

وعن الصادق عليه السلام: «أن نوحاً حمل الكلب في السفينة، ولم يحمل ولد الزنا»^٦.

وعنه عليه السلام: «ينبغي لو ولد الزنا أن لا تجوز له شهادة، ولا يوم الناس، لم يحمله نوح في السفينة، وقد حمل فيها الكلب والخنزير»^٧.

وَقَالَ أَزْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُزْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ أَزْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَاوِيَ إِلَى جِبَلٍ يَفْعَسُ مِنْ أَلْمَاءٍ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُمْفَرِّقِينَ [٤١-٤٣]

ثم أنه روي عن الصادق عليه السلام: «ثم [إن الله] أرسل [عليهم] المطر بغيضاً فيضاً، وفاض القرات فيضاً، والعيون كلها فيضاً»^٨.

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: «وانكسفت الشمس، وجاء من السماء ماء منهمر صب بلا قطر،

٢. تفسير روح البيان ٤: ١٢٨.

٤. مجمع البيان ٥: ٢٤٨، تفسير الصافي ٢: ٤٤٤.

١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٠٦.

٣. تفسير القمي ١: ٣٢٧.

٥. تفسير الصافي ٢: ٤٤٤، والآية من سورة الاسراء: ١٧/٣.

٦. تفسير العياشي ٢: ٢٠١٣/٣٠٩، تفسير الصافي ٢: ٤٤٥.

٧. تفسير العياشي ٢: ٢٠١٤/٣٠٩، تفسير الصافي ٢: ٤٤٥.

٨. تفسير العياشي ٢: ٣٠٧/٢٠٠٧.

وَتَفَجَّرَتِ الْأَرْضُ عُيُونًا ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾^١.

﴿وَقَالَ نُوحٌ لِّمَن مَّعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ حَمَلِ الْأَزْوَاجِ فِي السَّفِينَةِ: ﴿اٰزْكُبُوا﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، وادْخُلُوا فِيهَا﴾ حَالٌ كَوْنَكُمْ مُسْتَعِينِينَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أَوْ قَاتِلِينَ: لَهُ ﴿مَجْرِيهَا﴾ وَحِينَ سَبَرَهَا عَلَى الْمَاءِ ﴿وَمُزْسَاهَا﴾ وَوَقْتُ وَقُوفِهَا عَلَيْهِ.

وعن الصادق عليه السلام: «أَي مَسِيرُهَا وَمَوْقِفُهَا»^٢.

وقيل: إِنْ الْمَعْنَى: بِسْمِ اللَّهِ إِجْرَاؤُهَا وَإِسَاؤُهَا، فَكَانَ عَلَيْهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ تَجْرِيَ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ؛ فَجَرَتْ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ تَرْسُوَ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ؛ فَرَسَتْ^٣.

ثُمَّ بَيَّنَّ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِلَّةَ نَجَاتِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ﴾ لِلذُّنُوبِ ﴿رَحِيمٌ﴾ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَلِذَا أَنْجَاكُمْ مَعَ زَلَّاتِكُمْ وَفَرَطَاتِكُمْ.

قيل: سَارَتْ السَّفِينَةُ لِأَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ رَجَبٍ، أَوْ لِعَشْرِ مِنْهُ^٤.

فَرَكِبَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمُؤْمِنُونَ فِي السَّفِينَةِ مُسَمِّينَ ﴿وَهِيَ﴾ كَانَتْ ﴿تَجْرِي﴾ عَلَى الْمَاءِ، وَتَسِيرُ ﴿بِهِمْ﴾ فِيهِ، خِلَالَ ﴿مَوْجٍ﴾ وَمِيَاهٍ مُرْتَفَعَةٍ عَلَى الْمَاءِ لَشِدَّةِ الرِّيحِ، وَكَانَتْ الْأُمُوجُ فِي عَظَمَتِهَا وَارْتِفَاعِهَا ﴿كَالْجِبَالِ﴾.

عَنِ الرُّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا رَكِبَ السَّفِينَةَ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا نُوحُ، إِنْ خِفْتَ الْغَرَقَ فَهَلِّلْنِي أَلْفًا، ثُمَّ سَلِّنِي النَّجَاةَ، أَنْجِكَ وَمَنْ أَمِنَ مَعَكَ مِنَ الْغَرَقِ. قَالَ: فَلَمَّا اسْتَوَى نُوحُ وَمَنْ أَمِنَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ وَرَفَعَ الْقَلْسَ^٥، عَصَفَتْ الرِّيحُ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَأْمَنْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ [الْغَرَقَ]، وَأَعْجَلَتْهُ الرِّيحُ فَلَمْ يَدْرِكْ أَنْ يَهْلَلَ [اللَّهُ] أَلْفَ مَرَّةٍ، فَقَالَ بِالسَّرِيانِيَّةِ هِيلُولِي^٦ أَلْفًا أَلْفًا، يَا مَارِيَا اتَّقِي^٧. قَالَ: فَاسْتَوَى الْقَلْسُ وَاسْتَقَرَّتِ السَّفِينَةُ، فَقَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنْ كَلَامًا نَجَّانِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْغَرَقِ لَحَقِيقٌ أَنْ لَا يَفَارِقَنِي. قَالَ: فَتَقَشَّ فِي خَاتَمِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَلْفَ مَرَّةٍ، يَا رَبِّ أَصْلَحْ»^٨.

وعن الصادق عليه السلام: «أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا رَكِبَ السَّفِينَةَ وَخَافَ الْغَرَقَ، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِمُحَمَّدٍ^٩ وَآلِ مُحَمَّدٍ لَمَّا أَنْجَيْتَنِي مِنَ الْغَرَقِ، فَنَجِّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^{١٠}.

١. تفسير القمي ١: ٣٢٧، تفسير الصافي ٢: ٤٤٤، والآية من سورة القمر: ١٢/٥٤.

٢. تفسير القمي ١: ٣٢٧، تفسير الصافي ٢: ٤٤٧. ٣. تفسير روح البيان ٤: ١٢٩.

٤. تفسير الرازي ١٧: ٢٢٩. ٥. القلس: العظيم من جبال السفينة.

٦. في تفسير الصافي وعبون أخبار الرضا عليه السلام: هيلوليا.

٧. في عبون أخبار الرضا عليه السلام: أيقن.

٨. عبون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٠٦/٥٥، وفيه: يا رب أصلحني، تفسير الصافي ٢: ٤٤٧.

٩. في الاحتجاج: بحق محمد. ١٠. الاحتجاج: ٤٨، تفسير الصافي ٢: ٤٤٧.

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ كنعان، وقيل: اسمه يام^١.

وقيل: إنه كان زبيبة^٢، ابن واغلة^٣ الكافرة^٤.

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): أنه قرأ: «ابنها»^٥.

وعن الصادق (عليه السلام): «ليس بابني، إنما هو ابن امرأتي، وهو لُعة طيئ، يقولون لابن المرأة: ابنة»^٦.

﴿وَكَانَ فِي مَقَرٍّ﴾ وناحية بعيدة من نوح: ﴿يَا بُنَيَّ أَزْكَبَ مَعَنَا﴾ في السفينة ﴿وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ وتفرق وتهلك. عن الصادق (عليه السلام): «نظر نوح إلى ابنه يقع ويقوم، فقال له: ﴿يَا بُنَيَّ أَزْكَبَ...﴾ الآية»^٧. ﴿قَالَ﴾ ابنة: ﴿سَاوِي﴾ وألتجئ ﴿إِلَى جَبَلٍ﴾ من الجبال العظيمة المرتفعة، فإنه ﴿يُفَصِّسُنِي﴾ ويحفظني بازدياده من الماء والغرق، فلا أحتاج إلى سفيتك ﴿قَالَ﴾ نوح: يا بني ﴿لَا عَاصِمَ﴾ ولا حافظ ﴿أَلْيَوْمَ﴾ لأحد ﴿مِنْ أَمْرِ أَقَرٍ﴾ وعذابه ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ العباد، وهو الله تعالى. قيل: إن المعنى: لا معصوم من العذاب إلا من رحمه الله^٨.

عن الصادق (عليه السلام): «أنه قال حين أشرف على النجف: هو الجبل الذي اعتصم به ابن جدي نوح (عليه السلام)، فقال: ﴿سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يُفَصِّسُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، فأوحى الله إليه: يا جبل، أيعتصم بك مني أحد، فغار في الأرض وتقطع إلى الشام»^٩.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ فانقطع كلامهما بسبب الحيلولة ﴿فَكَانَ﴾ كنعان بن نوح ﴿مِنْ﴾ جملة ﴿الْمُفْرَقِينَ﴾ والمهلكين.

عن ابن عباس أنه قال: أمطرت السماء أربعين يوماً وليلة، وخرج ماء الأرض كذلك، فارتفع الماء على أطول جبل في الأرض بخمسة عشر ذراعاً، أو ثلاثين، أو بأربعين، وطافت بهم السفينة الأرض كلها في خمسة أشهر لا تستقر على شيء، حتى أثت الحرّم فلم تدخله، ودارت حول الحرّم أسبوعاً، وقد اعتق الله البيت من الغرق^{١٠}.

الثماني: عن الصادق (عليه السلام) في حديث: «فدارت السفينة وضربتها الأمواج، حتى وافت مكة وطافت بالبيت، وغرق جميع الدنيا إلا موضع البيت، وإنما سمي البيت العتيق، لأنه أعتق من الغرق، فبقى الماء

١. مجمع البيان ٥: ٢٤٩، تفسير روح البيان ٤: ١٣٠. ٢. الزبيب: ابن امرأة الرجل من غيره.

٣. في تفسير روح البيان: واغلة. ٤. تفسير روح البيان ٤: ١٣٠.

٥. تفسير الرازي ١٧: ٣٣١.

٦. تفسير القمي ١: ٣٢٨، تفسير العياشي ٢: ٢٠١٧/٣٠٩، تفسير الصافي ٢: ٤٤٧، وإبنة: بفتح الهاء، أي: ابنها.

٧. تفسير القمي ١: ٣٢٧، تفسير الصافي ٢: ٤٤٨. ٨. تفسير روح البيان ٤: ١٣٢.

٩. من لا يحضره الفقيه ١: ١٦١٢/٣٥١، تفسير الصافي ٢: ٤٤٨.

١٠. تفسير روح البيان ٤: ١٣٣.

يَنْصَبُ مِنَ السَّمَاءِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، وَمِنَ الْأَرْضِ الْعَيُونَ، حَتَّى ارْتَفَعَتِ السَّفِينَةُ فَسَحَتْ السَّمَاءُ. قَالَ:
 رَفَعَ نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدَهُ فَقَالَ: يَا رَهْمَانُ أَتَقِنُ، وَتَفْسِيْرُهَا: يَا رَبِّ، أَحْسِنُ»^٢.
 وعنه عليه السلام: «ارْتَفَعَ الْمَاءُ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ وَكُلِّ سَهْلٍ خَمْسَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا»^٣.
 وقيل: رُفِعَ الْبَيْتُ الَّذِي بَنَاهُ آدَمُ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ^٤، وَاسْتَوْدَعَ الْحَجْرَ الْأَسْوَدَ أَبَا قُبَيْسٍ إِلَى زَمَنِ
 إِبْرَاهِيمَ^٥.

وعن الكاظم عليه السلام: «أَنَّ نُوحًا كَانَ فِي السَّفِينَةِ، وَكَانَ فِيهَا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَكَانَتِ السَّفِينَةُ مَأْمُورَةً، فَطَافَتْ
 بِالْبَيْتِ، وَهُوَ طَوَافُ النِّسَاءِ»^٦.
 وفي رواية: وَسَعَتْ بَيْنَ الصُّفَا وَالْمَرْوَةِ^٧.

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيَضَ الْمَاءَ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [٤٤]

وعن الصادق عليه السلام، بَعْدَ حِكَايَةِ دُعَاءِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَرْضَ أَنْ تَبْلَعَ مَاءَهَا بِقَوْلِهِ:
 ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾، قَالَ: نَزَلَتْ بِلُغَةِ الْهِنْدِ: اشْرَبِي»^٨. «وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي» وَأَمْسِكِي مَاءَكَ
 «وَغِيَضَ» وَنَقَصَ «الْمَاءَ» مِنْ وَجْهِ الْأَرْضِ «وَقُضِيَ» وَتَمَّ «الْأَمْرُ» وَهُوَ إِنْجَاؤُ مَا وَعَدَ، وَفِرَغَ
 مِنْ إِهْلَاكِ الْكَافِرِينَ وَإِنْجَاءِ الْمُؤْمِنِينَ.

وفي رواية: «فَبَلَعَتِ الْأَرْضُ مَاءَهَا، فَأَرَادَ مَاءُ السَّمَاءِ أَنْ يَدْخُلَ فِي الْأَرْضِ، فَامْتَنَعَتِ الْأَرْضُ مِنْ
 قَبُولِهِ، وَقَالَتْ: إِنَّمَا أَمَرَنِي اللَّهُ أَنْ أَبْلَعَ مَائِي، فَبَقِيَ مَاءُ السَّمَاءِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ «وَاسْتَوَتْ» السَّفِينَةُ،
 وَاسْتَقَرَّتْ «عَلَى» جَبَلٍ «الْجُودِيِّ» وَهُوَ جَبَلٌ عَظِيمٌ بِالْمَوْصِلِ، فَبَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَبْرَائِيلَ، فَسَاقَ
 الْمَاءَ إِلَى الْبَحَارِ حَوْلَ الدُّنْيَا»^٩.

وفي رواية عن الكاظم عليه السلام: «فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْجِبَالِ: إِنِّي وَاضِعٌ سَفِينَةَ نُوحٍ عَبْدِي عَلَى جَبَلٍ مِنْكُمْ،
 فَتَطَاوَلَتْ وَشَمَخَتْ، وَتَوَاضَعَ الْجُودِيُّ، وَهُوَ جَبَلٌ عِنْدَكُمْ، فَضَرَبَتِ السَّفِينَةُ بِجَوْجُوها^{١٠} الْجَبَلِ، قَالَ:

٢. تفسير القمي ١: ٣٢٨، تفسير الصافي ٢: ٤٤٨.

٤. زاد في تفسير روح البيان: وهو البيت المعمور.

٦. الكافي ٢: ١١٢/١٠١، تفسير الصافي ٢: ٤٤٩.

٧. تفسير الصافي ٢: ٤٥٠.

٨. تفسير الصافي ٢: ٤٤٨.

٩. تفسير القمي ١: ٣٢٨، تفسير الصافي ٢: ٤٤٩.

١٠. الجَوْجُوزُ: صدر السَّفِينَةِ.

١. سَحَّتِ السَّمَاءُ صَبَّتِ الْمَاءَ.

٣. الكافي ٨: ٤٢٨/٢٨٤، تفسير الصافي ٢: ٤٥٠.

٥. تفسير روح البيان ٤: ١٣٣.

٧. تفسير العياشي ٢: ٢٠٢٢/٣١٠، الكافي ٨: ٤٢٦/٢٨٣، تفسير الصافي ٢: ٤٥٠.

فقال نوح عند ذلك: يا ماري اتقن، وهو بالسريانية: رَبِّ أَصْلِحْ^١.

وعن الباقر عليه السلام: «سَمِعَ نوحَ صَرِيرِ السَّفِينَةِ عَلَى الْجُودِيِّ، فَخَافَ عَلَيْهَا، فَأَخْرَجَ رَأْسَهُ مِنْ كُوفَةٍ كَانَتْ فِيهَا، فَرَفَعَ يَدَهُ وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَهْمَانُ^٢ اتَّقِنِ، تَأْوِيلُهَا: رَبِّ أَحْسِنِ»^٣.

وعن الصادق عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَى نُوحٍ وَهُوَ فِي السَّفِينَةِ أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ أَسْبُوعاً، فطاف كما أوحى [الله تعالى] إليه، ثُمَّ نَزَلَ فِي الْمَاءِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، فَاسْتَخْرَجَ تَابُوتاً فِيهِ عِظَامُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَحَمَلَهُ فِي جُوفِ السَّفِينَةِ، حَتَّى طَافَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَطُوفَ، ثُمَّ وَرَدَ إِلَى بَابِ الْكُوفَةِ فِي وَسْطِ مَسْجِدِهَا، فَفِيهَا قَالَ اللَّهُ لِلْأَرْضِ: ﴿أَبْلَغِي مَاءَكَ﴾، فَبَلَعَتْ [مَاءَهَا] مِنْ مَسْجِدِ الْكُوفَةِ كَمَا بَدَأَ الْمَاءُ مِنْهُ، وَتَفَرَّقَ الْجَمْعُ الَّذِي كَانَ مَعَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّفِينَةِ» الخبر^٤.

﴿وَقِيلَ﴾ على سبيل اللغز والطرد: «بُعْدُاً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»^٥ قيل: إِنَّ الْقَاتِلَ هُوَ اللَّهُ^٦، وقيل: نُوحٌ^٧. عن الصادق عليه السلام، أَنَّهُ سَمِعَ: كَمَ لَيْثُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ حَتَّى نَضَبَ الْمَاءُ وَخَرَجُوا مِنْهَا؟ فَقَالَ: «لَبِئْسَ فِيهَا سَبْعَةُ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهَا، وَطَافَتْ بِالْبَيْتِ أَسْبُوعاً، ثُمَّ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ، وَهُوَ فِرَاتُ الْكُوفَةِ»^٨.

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ
الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنِ مَا
لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ
أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ
الْخَاسِرِينَ [٤٥-٤٧]

ثم حكى سبحانه اعتراض نوح عليه السلام عند هلاك كنعان بالغرق، مع وعده إياه بإنجاء أهله؛ بقوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ حُرْناً على ابنه ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي﴾ كنعان - أو يام - كان - ﴿مِنْ أَهْلِي﴾ الَّذِينَ وَعَدْتَنِي إِنجَاءَهُمْ فِي قَوْلِكَ: ﴿وَأَهْلُكَ﴾، ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ﴾ هذا، بل جميع وعودك^٩ ﴿الْحَقُّ﴾ والصُّدُق، لَا يُمْكِنُ تَطَرُّقُ الْخُلْفِ إِلَيْهِ ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ وأعدلهم ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿يَانُوحُ إِنَّهُ

١. الكافي ٢: ١٢/١٠١، تفسير الصافي ٢: ٤٤٩. ٢. في تفسير العياشي: ربهمان.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠٢٦/٣١١، تفسير الصافي ٢: ٤٥٠.

٤. التهذيب ٦: ٥١/٢٣، تفسير الصافي ٢: ٤٤٩. ٥. تفسير الرازي ١٧: ٢٣٥.

٦. مجمع البيان ٥: ٢٥٠. ٧. مجمع البيان ٥: ٢٥٠.

٨. تفسير العياشي ٢: ٢٠٠٧/٣٠٧، الكافي ٨: ٤٢١/٢٨١، تفسير الصافي ٢: ٤٥٠. ٩. في النسخة: وعدك.

لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» الَّذِينَ وَعَدْتُكَ بِنَجَاتِهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى دِينِكَ «إِنَّهُ» بذاته «عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» وفيه مبالغة في ذمّه.

عن الصادق عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ قَالَ لَنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» لِأَنَّهُ كَانَ مُخَالَفًا لَهُ، وَجَعَلَ مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ أَهْلِهِ»^١.

وفي رواية: «نَفَاهُ عَنْهُ حِينَ خَالَفَهُ فِي دِينِهِ»^٢.

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ تَنْبِيهِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِخَطَاةِ، وَأَنَّ وَلَدَهُ كَانَ يَمُنُّ سَبْقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ، عَاتَبَهُ عَلَى عَدَمِ تَأْمُلِهِ فِي حَسَنِ مَطْلُوبِهِ بِقَوْلِهِ: «فَلَا تَسْأَلْنِي» وَلَا تَطْلُبْ مِنِّي عَمَلٌ «مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ» وَبَصَاحَةِ وَصَوَابِهِ «عِلْمٌ» أَحَدٌ مِثْلُ هَذَا السُّؤَالِ [لَيْسَ] مِنْ شَأْنِكَ الرَّفِيعِ وَمَقَامِكَ الْمُنِيعِ عِنْدِي، وَ«إِنِّي» لِحُبِّي لَكَ وَشَفَقَتِي عَلَيْكَ «أَعْظُكَ» وَأَنْصَحُكَ كَرَاهَةً «أَنْ تَكُونَ» فِي أَنْ «مِنْ الْجَاهِلِينَ» بَعَلُّو مَزَلَّتْكَ الْمُنَافِي لِلسُّؤَالِ الَّذِي يَكُونُ تَرْكُهُ أَوْلَى وَأَفْضَلُ، فَإِنَّ حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتِ الْمُقَرَّبِينَ.

«قَالَ» نُوحٌ مُعْتَذِرًا مِنْ تَرْكِهِ الْأَوَّلِيِّ، وَمُسْتَغْفِرًا مِنْ زَلَّتِهِ: «رَبِّ إِنِّي» لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي أَنْ أَحْفَظَهَا مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الزَّلَّاتِ، وَ«أَعُوذُ بِكَ» وَأَلْتَجِي إِلَيْكَ وَإِلَى حِفْظِكَ فِي بَقِيَّةِ عُمُرِي مِنْ «أَنْ أَسْأَلَكَ» فِيمَا بَعْدَ «مَا لَيْسَ لِي» بِرِضَاكَ «بِهِ» وَمَا صَوَّبْتَهُ^٣ عِنْدَكَ «عِلْمٌ» فَضْلًا عَمَّا أَعْلَمُ فُسَادَهُ وَعَدَمَ رِضَاكَ بِهِ، فَاغْفِرْ لِي مَا صَدَرَ مِنِّي «وَلَا تَغْفِرْ لِي» زَلَّتِي «وَتَرْحَمْنِي» بِقَبُولِ تَوْبَتِي وَمَعْذِرَتِي «أَكُنْ» أَبْنَةً «مِنْ الْخَاسِرِينَ» أَعْمَالًا، فَإِنَّ الْإِنْصِرَافَ عَنْ شُكْرِ نِعْمِكَ، وَالِاشْتِغَالَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ رِضَاكَ: كَطَلَبِ نَجَاةٍ مَنْ يَسْتَحَقُّ الْعَذَابَ، خُسْرَانٌ ظَاهِرٌ، وَغُبْنٌ فَاحِشٌ. وَفِيهِ غَايَةُ التَّذَلُّلِ وَالِاسْتِكَانَةِ.

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ [٤٨]

وَأَمَّا آخِرُ شَبْحَانِهِ ذِكْرُ نِدَاءِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ ذِكْرِ زَوَالِ الطُّوفَانِ مَعَ كَوْنِهِ فِي بَدْوِهِ، رِعَايَةً لِلتَّرْتِيبِ بَيْنَ تَوْبَتِهِ وَاعْتِزَارِهِ، وَبَيْنَ إِظْهَارِ غَايَةِ لُطْفِهِ بِهِ بِأَمْرِهِ تَعَالَى بِتَزْوُلِهِ مِنَ الْفُلْكِ بِسَلَامٍ وَبَرَكَاتٍ عَلَيْهِ وَعَلَى أَتْبَاعِهِ بِقَوْلِهِ: «قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ» وَانْزِلْ مِنَ الْفُلْكِ عَلَى الْأَرْضِ مُتَلَبِّسًا «بِسَلَامٍ» وَأَمْنٍ مِنَ الْآفَاتِ وَالْمَكَارِهِ، وَحِفْظِ كَامِلِ كَائِنٍ «مِنَّا» أَوْ حَيَّةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ قِبَلِنَا «وَبَرَكَاتٍ» كَثِيرَةٍ وَخَيْرَاتٍ نَامِيَةٍ فَاغْنَاهُ «عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ» وَجَمَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ مُؤْمِنَةٍ مُتَوَلِّدَةٍ وَمُتَشَعِّبَةٍ «مِمَّنْ مَعَكَ».

١. تفسير العياشي ٢: ٣١٢/٢٠٢٨، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٣/٧٥، مجمع البيان ٥: ٢٥٣، تفسير الصافي ٢: ٥٠.

٢. تفسير العياشي ٢/٣١٢/٢٠٢٨، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٣/٧٦، تفسير الصافي ٢: ٥١.

٣. كذا، والظاهر صوابيته.

قيل: لما خرَّج نوح عليه السلام من السفينة خاف من الشدة وضيق المعاش، لعلَّه بفناء ما على الأرض مما يتنفع به البشر، فبشَّره الله بالسَّلامة المستلزمة للأمن من الآفات، والسَّعة في العيش، والبركات وهي الثَّبات والبقاء ببقاء نسله، حيث إنَّه لم يكن معه إلا نسله، أو كان ولكن مات من لم يكن من نسله، ولذا قالوا إنَّه آدم الثاني^١.

وعن الصادق عليه السلام في رواية: «فَنَزَلَ نُوحٌ عليه السلام بِالْمَوْصِلِ مِنَ السَّفِينَةِ مَعَ الثَّمَانِينَ، وَبَنَوْا مَدِينَةَ الثَّمَانِينَ، وَكَانَتْ لِنُوحٍ ابْنَةٌ رَكِبَتْ مَعَهُ السَّفِينَةَ، فَتَنَاسَلَ النَّاسُ مِنْهَا، وَذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: نُوحٌ أَحَدُ الْأَبَوَيْنِ»^٢.

ثمَّ أنه تعالى بعدَ تبشيره بحسن حال المؤمنين من ذريته وذرية من معه، بيَّن حال الكفار منهم بقوله: ﴿وَأَمَّمْ﴾ وجماعات منهم ﴿سَمِعْتَهُمْ﴾ في الدنيا قليلاً ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ﴾ ويصيبهم بعد الموت وفي الآخرة ﴿مِثًّا﴾ عقوبة على كفرهم وشؤ أعمالهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يتقادر قدره.

قيل: إنَّه لما رَسَتْ السفينة على الجودي كشف نوح عليه السلام الطَّبَق الذي فيه الطير، فبعث الغراب لينظر هل غرقت البلاد، وكم بقي من الماء، فيأتيه بخبر الأرض؟ فأبصر جيفةً فوق عليها واشتغل بها ولم يرجع، ثمَّ أرسل الحمامة فلم تجد موضعاً في الأرض، فجاءت بورق الزيتون في مبتارها، فعرف نوح عليه السلام أن الماء قد نقص، وطهرت الأشجار، ثمَّ أرسلها فوقعت على الأرض، فغابت رجلاها في الطين قدَّرت حُمَرتَها، فجاءت إلى نوح عليه السلام فأرثته، فعرف أن الأرض قد ظهرت، فبارك على الحمامة وطوقها الخضرة التي في عنقها، ودعا لها بالأمان، فحينَئذٍ تألَّف البُيُوت، ودعا على الغراب بالخوف، فلذلك لا يألف البُيُوت، وتَشْتَأَمُ العربُ به»^٣.

عن الصادق عليه السلام: «لَمَّا حَسَرَ الْمَاءُ عَنْ عِظَامِ الْمَوْتَى، فَرَأَى ذَلِكَ نُوحٌ عليه السلام جَزِعَ جَزَعاً شَدِيداً وَاعْتَمَ لذلك، فأوحى الله عزَّ وجلَّ [إليه] هذا عَمَلُكَ، أنت دعوتَ عليهم، فقال: يَا رَبِّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ. فأوحى الله إليه أن كُلِ الْعَيْبَ الْأَسْوَدَ لِيَذْهَبَ عَمَّاكَ»^٤.

وقيل: لما ارتفع الطوفان قسَّم نوح عليه السلام الأرض بين أولاده الثلاثة، فأما سام فأعطاه بلاد الحجاز واليمن والشَّام، فهو أبو العرب، وأما حام: فأعطاه بلاد السودان، فهو أبو السودان، وأما يافث فأعطاه بلاد المشرق، فهو أبو التُّرك»^٥.

١. تفسير الرازي ١٨: ٦. ٢. تفسير القمي ١: ٣٢٨، تفسير الصافي ٢: ٤٥١.

٣. تفسير روح البيان ٤: ١٤٢. ٤. زاد في الكافي: بنفسك.

٥. الكافي ٦: ٢/٣٥٠، تفسير الصافي ٢: ٥٥٤. ٦. تفسير روح البيان ٤: ١٤١.

عن الصادق عليه السلام: «كانت أعمار قوم نوح ثلاثمائة سنة»^١.

وعنه عليه السلام: «عاش نوح عليه السلام ألفي [سنة] وثلاثمائة سنة، منها ثمانمائة وخمسون سنة قبل أن يُبعث، وألف سنة إلا خمسين عاماً وهو في قومه يدعوه، وخمسمائة عام بعد ما نزل من السفينة، ونصب الماء فَمَصَرَ الأمصار، وأسكن وَلَدَهُ البلدان. ثم إن ملك الموت جاءه وهو في الشمس، فقال: السَّلامُ عليك، فردَّ عليه نوح فقال: ما جاء بك يا ملك الموت؟ فقال: جئتكَ لأقبِضَ روحَكَ، قال: دَعْنِي أدخُل من الشمس إلى الظلِّ، فقال له، نَعَمْ، فَتَحَوَّلَ ثم قال: يا ملك الموت كُلِّ ما مَرَّيَ من الدُّنيا مثل تحوُّلي من الشمس إلى الظلِّ، فامضِ لِمَا أُمِرْتُ به، فَقبِضَ روحَهُ»^٢.

وعنه عليه السلام: «عاش نوح بعد الطوفان خمسمائة سنة، ثم أتاه جبرئيل فقال: يا نوح، إِنَّه قد انقَضَتْ بُيُوتُكَ، واستكملت أيامُكَ، فانظُرْ إلى الاسمِ الأكبر، وميراثِ العلم، وأثارِ النبوة التي معك، فاذفَعْها إلى ابنِكَ سام، فَإني لا أتُرك الأرضَ إلَّا وفيها عَالِمٌ تُعرَفُ به طاعتي، ويُعرَفُ به هُدايَ، ويكون نِجاةً [فيما] بَيْنَ مَقْبِضِ النَّبِيِّ ومَبْعَثِ نَبِيِّ آخِر، وَلَمْ [أَكُنْ] أَتُركِ النَّاسَ بغيرِ حُجَّةٍ [لي] وداعٍ إليّ وهاديٍّ إلى سَبِيلِي، وعارِفٍ بأمرِي، فَإني [قد] قَضَيْتُ أن أجْعَلَ لِكُلِّ قومٍ هادياً أَهْدِي به السُّعْداءَ، ويكون حُجَّةً لي على الأَشقياء. قال: فدفعَ نوح عليه السلام الاسمَ الأكبر، وميراث العلم، وأثار النبوة إلى سام، وأما حام ويافث فلم يَكُنْ عندهما ما يَسْتَفْعان به. قال: وبشَّرتهم نوح عليه السلام بهودٍ، وأمرهم باتباعه، وأمرهم أن يفتحوا الوصيةَ في كُلِّ عامٍ، وينظروا فيها، ويكون عيداً لهم»^٣.

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا
فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ [٤٩]

ثم نبّه سبحانه على إعجاز القرآن من جهة تضمينه للمغيبات، إثباتاً لصدقه وصدق النبي ﷺ بقوله: ﴿تِلْكَ الْقِصَّةُ الَّتِي قَصَصْنَاهَا عَلَيْكَ مِنْ تَفْصِيلِ دَعْوَةِ نُوحٍ، وَمُحَاجَّتِهِ مَعَ قَوْمِهِ، وَصُنْعِهِ الْقُلُوكَ، وَاشْتِهَاءِ قَوْمِهِ بِهِ، وَغَرَقِهِم بِالطُّوفَانِ، وَمُكَالَمَتِهِ مَعَ ابْنِهِ كِنْعَانَ، إِلَى آخِرِهَا، كُلُّهَا مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ ومن الأخبار التي لا يعلم بها أحدٌ إلَّا بطريق الوحي، ونحن ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ بتوسط جبرئيل ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ﴾ وإن لم تكن أمياً ﴿وَلَا﴾ يعلمها ﴿قَوْمُكَ﴾ بهذا التفصيل ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ نزول ﴿هَذَا﴾ القرآن، وإن علموا بها إجمالاً، فمع هذه المعجزة العظيمة إن أصرُّوا على تكذيبك في النبوة،

٢. الكافي ٨: ٤٢٩/٢٨٤، تفسير الصافي ٢: ٥٥٤.

١. كمال الدين: ٢/٥٢٣، تفسير الصافي ٢: ٥٥٤.

٣. الكافي ٨: ٤٣٠/٢٨٥، تفسير الصافي ٢: ٥٥٤.

وتكذيب كتابك ﴿فَاضِيْرٌ﴾ على تكذيبهم وإيدانهم، كما صبر نوح عليه السلام سِنِينَ مُتَطَوِّلَةً على ذلك، وإشير بأنه كما كانت عاقبة صبر نوح النَّصْرَ وَالظَّفَرَ وَالْفَرْحَ وَالسُّرُورَ، تكون عاقبة صبرك كذلك، بل تقول: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ المحموده في الدنيا والآخرة ﴿لِلْمُتَّقِيْنَ﴾ والمؤمنين الصابرين كافة، [سواء أ كانوا رسلاً أو غيرهم. وفيه تشبيه النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين.

وإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَتَّقُلُونَ [٥٠ و ٥١]

ثم أردف شبحانه قصّة نوح بقصّة هود، ازدياداً للاختيار والتسليه بقوله: ﴿وإِلَى عَادٍ﴾ أرسلنا ﴿أَخَاهُمْ﴾ ومن هو من قبيلتهم، وكان اسمه ﴿هُودًا﴾ وهذه القبيلة كانت من العرب، بناحية اليمن، على ما قيل^١.

ثم أنه صلى الله عليه وآله دعاهم إلى التوحيد، وقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده، فإنه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ وَمَعْبُودٍ مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبَادَةِ﴾ غَيْرُهُ تعالى، لدلالة جميع الموجودات على ألوهيته ووحدانيته ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ وما كنتم ﴿إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ وكاذبون في دعوى كون غيره شريكاً له في الألوهية، لظهور آثار الحدوث في غيره، الدالة^٢ على كونه مخلوقاً مثلكم.

ثم دفع توهم طمعه في أموالهم، استجلاباً لقلوبهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ إن تخترزوا من قبول قولي ليتوهمكم طمعي في أموالكم، فاعلموا أنني بعملتي هذا من الدعوة والهداية إلى التوحيد ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ وعوضاً من أموالكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ وما عوض عملي ﴿إِلَّا عَلَى﴾ الله ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وخلقني بقدرته، أثنكرون توحيدَه ﴿أَفَلَا تَتَّقُلُونَ﴾ أنه حق لا محيص عنه بحكم العقل السليم؟ وإني بريء من الطمع في أموالكم.

وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ [٥٢]

ثم حثهم على ترك الشرك والتوبة منه بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا﴾ واسألوا ﴿رَبَّكُمْ﴾ ستر ما سلف من إشراككم به ﴿ثُمَّ تُوبُوا﴾ وارجعوا ﴿إِلَيْهِ﴾ بالندم على عصيانكم، وبالعزم على عدم العود إلى

مثله، فإن فعلتُم ذلك يقبل الله توبتكم، و﴿يُزِيل﴾ ويمطر ﴿السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ﴾ برحمته، حال كونه ﴿مِدْزَاراً﴾ ومتتابعاً في أوقات الحاجة إليه، فعند ذلك تكثر نعمتكم وتوفّر حظوظكم ﴿وَيَزِدْكُمْ﴾ مع ذلك ﴿قُوَّةً﴾ في الجسم ﴿إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ التي تكون في الحال، فلذا تتمكنون من كمال الانبعاث بترك النعم، فتجتمع لكم السعادة الجسمانية والمالية.

ثم أكد أمره بالمعروف بنهي عن المنكر بقوله: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ ولا تعرضوا عن نصحي وإرشادي لكم إلى خيركم، حال كونكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ وعاصين لرّبكم، مستحقّين لعقوبة ملككم. قيل: إنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات، خراساً عليها أشد الجرس، وكانت بساتينهم في غاية اللطف والبهجة، وكانوا أحوج شيء إلى الماء، وكانوا في غاية القوة والبطش، محفوظين بها من العدو، مهيبين في كل ناحية، متفخرون بكثرة المال والقوة، ولذا وعدهم هود بالزيادة فيها.

قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ

بِمُؤْمِنِينَ [٥٣]

ثم أن القوم بعد ما سمعوا دعوة هود إلى التوحيد، وترغيبهم إلى التوبة من الشرك ﴿قَالُوا﴾ تكذّياً له: ﴿يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ وما أقمت حجة على نبوتك، وصدق قولك ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي﴾ عبادة ﴿آلِهَتِنَا﴾ وأصنامنا التي كنّا نلتزم بها تقليداً لأبائنا، حال كون الشرك صادراً ﴿عَنْ﴾ مجرد ﴿قَوْلِكَ﴾ بلا حجة ولا معجزة دالة على صدقه ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ولقولك بمصدقين.

إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ

مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى

اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ [٥٤-٥٦]

ثم لم يكتفوا بتكذيبه، بل نسبوه إلى الجنون بقوله: ﴿إِنْ نَقُولُ﴾ في شأنك ﴿إِلَّا﴾ قولاً خاصاً وصدقا، وما نعتقد إلا اعتقاداً صائباً، وهو أنه ﴿اعْتَرَاكَ﴾ وأصابك ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا﴾ وأصنامنا ﴿بِسُوءٍ﴾ وجنون، لأنك تشتمهم، وتمنع عن عبادتهم، وتحطهم عن مقام الألوهية بقولك: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، فلا اعتداد بقولك، ولا ينبغي للعاقل تصديقك والإيمان بك.

وفي تنكير السوء، ونسبته إلى بعض آلهتهم، إشعاراً بعدم مبالغتهم فيه، وإن بالقوا في تكذيبه بدعوى عدم قابلية كلامه للتصديق وتظلمه في الهدايات، ولذا بالغ هو ﷺ أيضاً في الإجهار بعدم ألوهية أصنامهم، وقال: يا قوم ﴿إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ وَأَشْهَدُوا﴾ جميعاً ﴿أَنِّي بَرِيءٌ﴾ ما دامت حياتي ﴿مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ صنماً كان أو غيره، فإن اشتغلتم قولي، ونصبتم لي العداوة، وصدقتم في دعوى قدرة أصنامكم على الإساءة بي ﴿فَكِيدُونِي﴾ واختالوا أنتم وأصنامكم ﴿جَمِيعاً﴾ في قتلي ﴿ثُمَّ﴾ بعد اختيالككم ﴿لَا تُنْظِرُون﴾ ساعة ولا تمهلوا في لحظة، فإني لأبالي مع انفرادي منكم مع كثرتكم وقوتكم، وشدة بطشكم وبأسكم ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ ومالكي ومالككم، ووثقت به، والتجأت إليه، فإنه القادر على حفظي فيكم، ودفعكم عني، لوضوح أنه ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ في الأرض ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى مالكها، والقاهر عليها، يصرفها حيث يشاء، كأنه تعالى ﴿أَخِذْ بِنَاصِيَتِهَا﴾ لا تفذر على أن تتحرك إلا بإرادته تعالى ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ من الحق والعدل، ولذا لا يكاد يسألكم عليّ، ويضيق من توكل عليه واعتصم به.

عن أمير المؤمنين ﷺ: «يعني أنه على الحق، يجزي بالإحسان إحساناً، وبالسّيء سيئاً، ويغفو عمن يشاء ويغفر [سبحانه وتعالى]»^١.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ [٥٧]

ثم أعلمهم بتمامية الحجّة عليهم بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وتعرضوا عن قبول قولي، وتصرّوا على تكذبي ﴿فَقَدْ﴾ أتممت عليكم الحجّة، حيث إنني ﴿أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ بلا تغريط مني في أداء رسالتي، وتقصير مني في القيام بوظيفتي، وإنما التريط من قبلكم، حيث إنكم مع وضوح الحق عندكم أنيتم إلا الجحود والتكذيب، فاخذروا من أن يهلككم الله على كفركم عن آخركم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي﴾ في دياركم وأموالكم بعد إهلاككم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وفريقاً سواكم، أطوع له منكم، ﴿وَو﴾ أنتم ﴿لَا تَضُرُّوهُ﴾ بتوليكم وإعراضكم عن قبول دعوة رسوله، والإيمان بتوحيده ﴿شَيْئاً﴾ يسيراً ولا تقيصون من ملكه وسلطانه نقيراً ﴿إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ ومستول ورقبت، فكيف يقدر شيء على الإضرار به؟

وقيل: يعني هو مطلع على كل شيء، فلا يخفى عليه عصيانكم وطغيانكم، فيجازيكم عليه أسوأ

الجزاء. أو هو مُطَّلَع على عَمَلِي وَعَمَلِكُمْ، فيحفظني من مَكْرِكُمْ وَشَرِّكُمْ.

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ
عَذَابٍ غَلِيظٍ [٥٨]

ثمَّ أَنَّهُمْ بَعْدَ تِلْكَ الْمَوَاعِظِ وَالتَّهْدِيدَاتِ، بِالْعَوَا فِي الْإصرار على الكُفْر ومُعارضة الرّسول، فاستحقُّوا عذاب الِاسْتِصال، فأخبر سبحانه بِنزوله عليهم بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ ونَزَلَ عذابنا ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وهم أربعة آلاف - على ما قيل ^١ - ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عَظِيمَةٍ كَانَتْهُ «مِنَّا» وهي التوفيق للإيمان الذي أنعمناه عليهم، والهداية له.

ثمَّ بَيَّنَّ سبحانه المُراد من الأمر، وما نَجَّاهم منه بقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وشديد، أنزلناه على الكافرين.
وقيل: أريدَ بِالنَّجِيَةِ الثَّانِيَةِ عَذَابُ الْآخِرَةِ ^٢.

وإنما ذكره لبيان تَكْمِلَةِ النِّعَةِ عليهم بِالنَّجَاةِ فِي الدَّارَيْنِ، وَتَشْدِيدِهِ فِيهَا عَلَى الْكُفَّارِ.
عن الْقَمِّيِّ رحمته الله: أَنَّ عَادًا كَانَتْ بِإِلَادِهِمْ فِي الْبَادِيَةِ مِنَ الْمَشْرِقِ ^٣ إِلَى الْأَجْفَرِ أَرْبَعَةَ مَنَازِلَ، وَكَانَ لَهُمْ زَرْعٌ وَنَخْلٌ كَثِيرٌ، وَلَهُمْ أَعْمَارٌ طَوِيلَةٌ وَأَجْسَادٌ طَوِيلَةٌ، فَعَبَدُوا الْأَصْنَامَ، وَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ هُودًا يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَخَلَعَ الْأَنْدَادَ، فَأَبَوْا وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِودَ وَأَذَوَّةَ، فَكَفَّتِ السَّمَاءُ عَنْهُمْ سَبْعَ سِنِينَ حَتَّى قَحَطُوا. وَكَانَ هُودًا زَرَّاعًا، وَكَانَ يَسْقِي الزَّرْعَ، فَجَاءَ قَوْمٌ إِلَى بَابِهِ يُرِيدُونَهُ، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِمْ امْرَأَةٌ شَمَطَاءٌ عَوْرَاءُ فَقَالَتْ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ مِنْ بِلَادٍ كَذَا وَكَذَا، أَجَدَبْتَ بِإِلَادُنَا فِجْنًا إِلَى هُودٍ نَسْأَلُهُ أَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ حَتَّى تُمَطَّرَ وَتَخْصَبَ بِإِلَادُنَا، فَقَالَتْ: لَوْ اسْتَجِيبَ لَهُودٌ لِدَعَا لِنَفْسِهِ، فَقَدْ احْتَرَقَ زَرْعُهُ لِقَلَّةِ الْمَاءِ. قَالُوا: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَتْ: فِي مَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا، فَجَاءُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَدْ أَجَدَبْتَ بِإِلَادُنَا وَلَمْ تُمَطَّرْ فَاسْأَلِ اللَّهَ أَنْ تَخْصَبَ بِإِلَادُنَا وَتُمَطَّرَ. فَتَنَّى لِلصَّلَاةِ وَصَلَّى وَدَعَا لَهُمْ فَقَالَ: ارْجِعُوا فَقَدْ أَمْطَرْتُمْ وَأَخْصَبْتُ بِإِلَادِكُمْ، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّا رَأَيْنَا عَجَبًا، قَالَ: وَمَا رَأَيْتُمْ؟ قَالُوا: رَأَيْنَا فِي مَنْزِلِكَ امْرَأَةً شَمَطَاءَ عَوْرَاءَ قَالَتْ لَنَا: مَنْ أَنْتُمْ [وما] تُرِيدُونَ؟ فَقُلْنَا: جِئْنَا إِلَى هُودٍ لِيَدْعُوَ اللَّهَ لَنَا فَنُمَطَّرَ، فَقَالَتْ: لَوْ كَانَ هُودٌ دَاعِيًا لِدَعَا لِنَفْسِهِ، فَإِنْ زَرْعُهُ قَدْ احْتَرَقَ. فَقَالَ هُودٌ: هِيَ أَهْلِي، وَأَنَا أَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَطُولَ لَهَا الْبَقَاءُ. فَقَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ مَا خَلَقَ اللَّهُ مُؤْمِنًا إِلَّا وَلَهُ عَدُوٌّ يُؤْذِيهِ، وَهِيَ عَدُوٌّ لِي، فَلَيْتَ يَكُونَ عَدُوٌّ مِمَّنْ أَمْلِكُهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ عَدُوٌّ مِمَّنْ يَمْلِكُنِي.

فبقي هود عليه السلام في قومه يدعوهم إلى الله، وينهاهم عن عبادة الأصنام حتى أحصيت بلادهم، وأنزل الله عليهم المطر، وهو قوله عز وجل: ﴿يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ...﴾ الآيات.

فلما لم يؤمنوا أرسل الله عليهم الريح الصرصر - يعني: الباردة - وهو قوله تعالى في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكُنِفَ كَانَ عَدَابِي وَتَذَرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُنْتَمِرٍ ١﴾ وحكى في سورة الحاقة فقال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَنِعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ٢﴾، قال: كان القمر منحوساً برحل سبع ليالٍ وثمانية أيام ٣.

وقيل: إن العذاب الغليظ هو السموم ٤، كانت تدخل أنوف الكفرة، وتخرج من أذبارهم، فتقطعهم إزباً إزباً ٥.

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ *
وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ
قَوْمٌ هُودٍ [٥٩ و ٦٠]

ثم ذمهم الله بعد إهلاكهم بقوله: ﴿وَتِلْكَ﴾ القبيلة المهلكة ﴿عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ ودلائل توحيد، ومعجزات نبيه ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ جميعاً بعصيانهم هوداً، لكون جميعهم على قول واحد ﴿وَأَتَّبَعُوا﴾ في الكفر والعصيان ﴿أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ وتمرّد عن الحق ﴿عَنِيدٍ﴾ ومعارض له. قيل: «تلك» إشارة إلى قبورهم ٦.

ثم بين سبحانه سوء عاقبتهم عبرة للناس بقوله: ﴿وَأَتَّبَعُوا﴾ وأردفوا باتباعهم رؤساء الضلال، الدعاة إلى الكفر بالآيات، وتكذيب الرسل ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ وبعداً عن الرحمة وعن كل خير، بحيث لا يفارقهم أبداً بل يدور معهم حيثما داروا ﴿وَقَدْ كَذَّبَ الْقِيَامَةَ﴾ ويكون أثر بُغديهم الدخول في النار، والخلود فيها.

ثم بالغ سبحانه في توضيح حالهم، والحث في الاعتبار بهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ وبعدهم، وجحدوا وخدائبتهم. ثم دعا عليهم بالهلاك تسجيلاً لاستحقاقهم له بقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ وهلاكاً قطعياً ﴿لِعَادٍ﴾. ثم بين المراد من عاد بقوله: ﴿قَوْمٌ هُودٍ﴾ لإلا يشبهه بعد الثانية، وهم عاد بن إرم.

١. القمر: ١٨/٥٤. ٢. الحاقة: ٦٩/٧. ٣. تفسير القمي: ١: ٣٢٩، تفسير الصافي ٢: ٤٥٧.

٤. السموم: هي الريح الحارة، والحر الشديد النافذ في السماء.

٥. تفسير أبي السعود ٤: ٢١٩. ٦. تفسير البضاوي ١: ٤٦١.

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا قَالُوا يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ
 أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَغْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ

مُجِيبٌ [٦١]

ثم أتبع سبحانه قصة ثمود بالقصتين ازدياداً لعبارة المشركين، وتسليةً للنبي ﷺ والمؤمنين بقوله:
 ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا قَالُوا يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾.
 منهم سَمِيَّ «صَالِحاً» قيل: هو ابن عبيد بن اسف بن ماشح بن عتيد بن حادر^٢ بن ثمود^٣ قَالَ يَا
 قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وحده لأنه «مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ».

ثم استدلل على استحقاقه العبادة بِنِعْمَةِ الدَّالَّةِ على كمال قدرته ورحمته حتاً لهم عليها بقوله: ﴿هُوَ
 أَنشَأَكُمْ﴾ وخلقكم بقدرته من آدم، أو مِن الْمَنِيِّ التَّكْوَنُ من الأغذية النَّبَاتِيَّةِ، ومَعْلُومٌ أَنَّ آدَمَ أو
 النَّبَاتَ مَخْلُوقٌ «مِنَ الْأَرْضِ» وراثياً «وَاسْتَغْمَرَكُمْ» واشتباكم مدةً طويلة، أو أقدركم على
 العِمَارَةَ «فِيهَا» أو جعلها لكم نَحْوَ الْعُمَرِ^٤، بَأَنَ اسْكَنْكُمْ فِيهَا مَدَّةَ حَيَاتِكُمْ، ثم جعلها بعد موتكم
 لغيركم، فإذا كان الله بهذه المَرْتَبَةِ من القُدْرَةِ عليكم، والإحسان إليكم، الْمُقْتَضِيْنَ لِلْخَوْفِ مِن عِصْيَانِهِ
 وَالشُّكْرِ لَهُ «فَاسْتَغْفِرُوهُ» عَمَّا صَدَرَ مِنْكُمْ مِنَ الْعِصْيَانِ وَكُفْرَانِ النِّعْمَةِ «ثُمَّ تَوْبُوا» وارجعوا «إِلَيْهِ»
 بالإيمان بوحدانيته، والندم على الشُّرْكِ، والعزم على عَدَمِ الْعَوْدِ إِلَيْهِ «إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ» منكم علماً
 وإحاطةً، يَسْمَعُ اسْتِغْفَارَكُمْ، وَيَرَى تَضَرُّعَكُمْ، أو قَرِيبُ الرَّحْمَةِ مِنْكُمْ «مُجِيبٌ» لدعائكم.
 قيل: إِنَّ قَوْلَهُ: (قَرِيبٌ) ناظرٌ إِلَى أَمْرِهِ بِالْقُوَّةِ، و(مُجِيبٌ) إِلَى أَمْرِهِ بِالِاسْتِغْفَارِ، كَأَنَّهُ قَالَ: ارجعوا إليه
 فَإِنَّهُ قَرِيبٌ، واسألوه المغفرة فإنه مُجِيبٌ^٥.

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِيمَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا
 لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ* قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي
 وَآتَانِي مِنهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ*
 وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسَوْءٍ

١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٠، تفسير روح البيان ٤: ١٥٣.

٢. في تفسير أبي السعود: ماشح بن عبيد بن جادر، وفي تفسير روح البيان: ماسح بن عبيد بن خاور.

٣. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٠، تفسير روح البيان ٤: ١٥٣.

٤. العُمري: من عقود التمليك، كأن تقول: هذه الدار لك عُمرك، أي مادمت حياً.

٥. تفسير روح البيان ٤: ١٥٤.

فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٢﴾ - ﴿٦٤﴾

ثُمَّ أُنِ الْقَوْمَ بَعْدَمَا دَعَاهُمْ صَالِحٌ إِلَى الْقَوْلِ بِالتَّوْحِيدِ ﴿قَالُوا﴾ فِي جَوَابِهِ: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ وَمَحَلًّا لِلْأَمَالِ مِنْ حَيْثُ قُوَّةُ عَقْلِكَ، وَرِزَانَةُ رَأْيِكَ، وَحُسْنُ تَدْبِيرِكَ، وَكَمَالُ شَفَقَتِكَ. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي فَاضِلًا خَيْرًا نَعُدُّكَ عَلَى جَمِيعِنَا^١ ﴿قَبْلَ هَذَا﴾ الْوَقْتُ الَّذِي ادَّعَيْتَ بَطْلَانَ مَذْهَبِنَا وَفَسَادَ عَقَائِدِنَا، وَدَعَوْتَنَا إِلَى التَّوْحِيدِ وَتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، يَاللَّعَجَبُ^٢ أَتُنْهَانَا عَنْ ﴿أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ الْأَقْدَمُونَ، وَتَأْمُرُنَا بِأَنْ نَتْرِكَ تَقْلِيدَ أَسْلَافِنَا الْأَكْرَمِينَ؟! إِذَنْ قَدْ انْقَطَعَ رَجَازُنَا عَنْكَ، وَتَبَيَّنَ خَطْرُنَا فَيْكَ ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا﴾ مِنَ التَّوْحِيدِ وَتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَذَلِكَ الشَّكُّ فِيمَا تَدْعُونَا ﴿إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ وَمَوْقِعٌ لِلْقَلْقِ وَالاضْطِرَابِ فِي قُلُوبِنَا، أَوْ نَحْنُ فِي^٣ رِبِيَّةٍ عَظِيمَةٍ.

وَقِيلَ: إِنَّ الشَّكَّ هُوَ تَسَاوِي الْأَحْتِمَالَيْنِ، وَالرُّبُّ هُوَ رُجْحَانُ اخْتِمَالِ السُّوءِ وَالْفَسَادِ^٤.

﴿قَالَ﴾ صَالِحٌ بِرَفْقٍ وَلِينٍ: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ وَأَخْبِرُونِي ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ فِي ادِّعَائِي ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ وَحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ، أَوْ مَعْرِفَةٍ وَبَصِيرَةٍ كَامِلَةٍ كَانَتْهُ^٥ مِنْ رَبِّي وَمَلِيكِي ﴿وَأَتَانِي مِنْهُ﴾ فِي الْوَاقِعِ وَالْحَقِيقَةِ ﴿رَحْمَةً﴾ وَرِسَالَةً، أَوْ مُعْجَزَةً قَاهِرَةً ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي﴾ وَيَحْفَظُنِي ﴿مِنْ﴾ عَذَابِ ﴿اللهِ﴾ بِأَسِهِ ﴿إِنْ﴾ عَصَيْتُهُ، وَخَالَفْتُ أَمْرَهُ بِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ إِلَيْكُمْ، وَنَهَيْهِ [عَنْ] الْمُسَاهَلَةِ فِيهِ وَالتَّوَدُّدِ مَعَكُمْ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ إِذَنْ بِتَوَقُّعِكُمُ السُّكُوتِ عَنْ دَعْوَتِكُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالتَّوَافُقِ مَعَكُمْ فِي الشَّرْكِ، شَيْئًا ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ وَتَضَرُّرٍ، حَيْثُ إِنَّهُ لَيْسَ فِي مُوَافَقَتِكُمْ إِلَّا التَّعَرُّضَ لِسَخَطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْفِرَادَ: مَا تَزِيدُونَنِي بِمَا تَقُولُونَ غَيْرَ أَنْ [أَنْسِبَكُمْ إِلَى الْخُسْرَانِ وَ] أَقُولُ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَخَاسِرُونَ^٦.

﴿وَيَا قَوْمِ﴾ إِنَّ تَزِيدُونَ مِنِّي آيَةً وَمُعْجَزَةً دَالَّةٌ عَلَى صِدْقِ بُيُوتِي وَصِحَّةِ مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، فَانظُرُوا ﴿هَذِهِ﴾ الْجَنَّةُ الْعَظِيمَةُ ﴿نَاقَةٌ﴾ اللهُ الَّتِي خَلَقَهَا بِقُدْرَتِهِ مِنَ الصَّخْرَةِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ دَفْعَةً مِنْ غَيْرِ وِلَادَةٍ، وَهِيَ ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ عَظِيمَةٌ، وَحُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى بُيُوتِي، وَصِدْقِ قَوْلِي، وَلَا يَثْقُلُ عَلَيْكُمْ كَوْنُهَا فَيْكُمْ، لِأَنَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ عُلُوقُهَا^٧ ﴿فَذَرُوهَا﴾ وَخَلُّوها ﴿تَأْكُلُ﴾ النَّبَاتَاتِ وَالْحَشَائِشَ الَّتِي تَجِدُهَا ﴿فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ وَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تُؤْذَوْهَا ﴿وَلَا تَمْشَوْهَا﴾ وَلَا تُصَيِّبُوهَا ﴿بِسُوءٍ﴾ مِنْ ضَرْبٍ وَقَتْلٍ لِبُغْضِكُمْ إِيَّاهَا ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾ وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ إِذَنْ ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ سَرِيعُ الزُّلُوفِ.

فِي قِصَّةِ نَاقَةِ زُوي عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَمَّا دَعَا صَالِحٌ قَوْمَهُ إِلَى اللَّهِ كَذَّبُوهُ، فَضَاقَ صَدْرُهُ فَسَأَلَ صَالِحٌ

٣. تفسير الرازي ١٨: ١٨.

٢. فِي النسخة: ذُو.

٥. أَيْ عَلَّقَهَا.

١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢١.

٤. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٢.

رَبِّهِ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ فِي الْخُرُوجِ مِنْ عِنْدِهِمْ، فَأَذِنَ لَهُ، فَخَرَجَ فَاتَّهَى إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَإِذَا بِرَجُلٍ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ، فَقَالَ لَهُ صَالِحٌ: وَتَحَكَّ مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، كُنْتُ فِي سَفِينَةٍ كَانَتْ قَوْمُهَا كُفْرًا غَيْرِي، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ وَتَجَانِي مِنْهُمْ، فَخَرَجْتُ إِلَى جَزِيرَةٍ أَعْبَدُ هُنَاكَ، فَأَخْرَجَ أَحْيَانًا وَأَطْلَبُ شَيْئًا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ، ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي.

فَمَضَى صَالِحٌ فَاتَّهَى إِلَى تَلٍّ عَظِيمٍ، فَرَأَى رَجُلًا فَاتَّهَى إِلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَقَالَ لَهُ صَالِحٌ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: كَانَتْ هَاهُنَا قَرْيَةٌ كَانَتْ أَهْلُهَا كُفْرًا غَيْرِي، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ وَتَجَانِي مِنْهَا، فَجَعَلْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ تَعَالَى هَاهُنَا إِلَى الْمَوْتِ، وَقَدْ أَنْبَتَ اللَّهُ لِي شَجَرَةً رُْمَانٍ، وَأَظْهَرَ عَيْنَ مَاءٍ، أَكُلُّ مِنَ الرُّمَانِ، وَأَشْرَبُ مِنَ مَاءِ الْعَيْنِ وَأَتَوَضَّأُ مِنْهُ. فَذَهَبَ صَالِحٌ وَاتَّهَى إِلَى قَرْيَةٍ كَانَتْ أَهْلُهَا كُفْرًا كُلَّهُمْ غَيْرِ الْآخَرِينَ مُسْلِمِينَ يَعْمَلَانِ عَمَلِ الْخَوَاصِ.

فَضْرَبَ النَّبِيُّ ﷺ مَثَلًا وَقَالَ: لَوْ أَنَّ مُؤْمِنًا دَخَلَ قَرْيَةً فِيهَا أَلْفُ رَجُلٍ كُلُّهُمْ كُفْرًا وَفِيهِمْ مُؤْمِنٌ وَاحِدٌ، فَلَا يَسْكُنُ قَلْبُهُ مَعَ أَحَدٍ حَتَّى يَجِدَ الْمُؤْمِنَ. وَلَوْ أَنَّ مُتَافِقًا دَخَلَ قَرْيَةً فِيهَا أَلْفُ رَجُلٍ كُلُّهُمْ مُؤْمِنُونَ وَفِيهِمْ مُتَافِقٌ وَاحِدٌ لَمْ يَسْكُنْ قَلْبُ الْمُتَافِقِ مَعَ أَحَدٍ مَا لَمْ يَجِدِ الْمُتَافِقَ.

فَدَخَلَ صَالِحٌ وَاتَّهَى إِلَى الْآخَرِينَ، فَمَكَثَ عِنْدَهُمَا أَيَّامًا، وَسَأَلَ عَنْ حَالِهِمَا، فَأَخْبَرَا أَنَّهُمَا يَصْبِرَانِ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ، وَأَنَّهُمَا يَعْمَلَانِ عَمَلِ الْخَوَاصِ، وَيُمْسِكَانِ قُوَّتَهُمَا وَيَتَصَدَّقَانِ بِالْفَضْلِ، فَقَالَ صَالِحٌ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرَانِي فِي الْأَرْضِ مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى أَذَى الْكُفْرَانِ، فَأَنَا أَرْجِعُ إِلَى قَوْمِي وَأَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ وَقَدْ كَانُوا خَرَجُوا إِلَى عِيدِ لَهُمْ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، فَسَأَلُوهُ آيَةً، فَقَالَ: أَيُّ آيَةٍ تُرِيدُونَ؟ فَأَشَارَ سَيِّدُهُمْ جَنْدَعُ بْنُ عَمْرِوٍ إِلَى صَخْرَةٍ مُتَفَرِّدَةٍ يُقَالُ لَهَا الْكَائِنَةُ، وَقَالَ لَهُ: أَخْرِجْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ نَاقَةً وَاسِعَةَ الْجَوْفِ، كَثِيرَةَ الْوَبَرِ، عَشْرَاءَ - أَيُّ أَتَتْ عَلَيْهَا مِنْ يَوْمِ أُرْسِلَ الْفَحْلُ عَلَيْهَا عَشْرَةَ أَشْهُرٍ - فَإِنْ فَعَلْتَ صَدَقْنَاكَ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ مَوَاقِفَهُمْ: لَئِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ لَتُؤْمِنَنَّ، قَالُوا: نَعَمْ، فَصَلَّى وَدَعَا رَبَّهُ، فَتَمَخَّضَتِ الصَّخْرَةُ تَمَخُّضَ التَّوَجِّ بَوْلِهَا، فَانْشَقَّتْ عَنْ نَاقَةٍ عَشْرَاءَ جَوْفَاءَ وَبَرَاءَ كَمَا وَصَفُوا، فَقَالَ: ﴿يَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ...﴾، فَأَمَنَ جَنْدَعُ فِي جَمَاعَةٍ وَامْتَنَعَ الْبَاقُونَ^١.

وفي رواية أخرى: «وَمِنَ الْبَاقِينَ [مِنَ الْإِيمَانِ] دَوَابُ بْنُ عَمْرِوٍ، وَالْحَبَّابُ صَاحِبُ أَوْثَانِهِمْ، وَرَبَّابُ كَاهِنُهُمْ، فَمَكَثَتْ النَّاقَةُ مَعَ وَلَدِهَا تَرعى الشَّجَرِ وَتَرِدُ الْمَاءَ غَيًّا^٢، فَمَا تَرَفَعَ رَأْسُهَا مِنَ الْبِئْرِ حَتَّى تَشْرَبَ

٢. وترد الماء غيًّا: أن تشرب يوماً وتترك يوماً.

١. تفسير روح البيان ٤: ١٥٧.

كُلَّ مَا فِيهَا، ثُمَّ تَفْتَحُ^١ فَيَحْلِيُونَ مَا شَاءُوا حَتَّى تَمْتَلِنَ أَوَانِيَهُمْ فَيَشْرَبُونَ وَيَدْخِرُونَ^٢، وَهُمْ تَسْمَعَانِ أَهْلَ بَيْتٍ، وَقِيلَ: أَلْفٌ وَخَمْسَمِائَةِ.

فَمَقَرُّوْهَا فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا
جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ [٦٥ و ٦٦]

ثم أنه ﷺ لما خاف عليها لما شاهد من إصرارهم على الكفر، قال: ﴿لَا تَمَسُّوْهَا بِسُوءٍ﴾ وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه، وتشتو بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فسق عليهم ذلك ﴿فَمَقَرُّوْهَا﴾ واقتسموا لحمها فرقي فصيها^٣ جبلاً اسمه قارة فرعاً ثلاثاً، فقال لهم صالح: أدركوا القصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب، فلم يقدروا عليه، وانفجرت الصخرة بعد رغبته فدخلها^٤ ﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح: ﴿تَمَتُّعُوا﴾ وتعيشوا ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ وسأزلكم، أو في الدنيا ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ بلا نقص وزيادة ﴿ذَلِكَ﴾ الوعد الذي وعدتكم من نزول العذاب بعد ثلاثة أيام ﴿وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ فيه، أو غير كذب لا يتطرق إليه الخلف.

ثم حكى سبحانه إنجاء صالح والمؤمنين بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وحكمنا بنزول العذاب، أو نزل عذابنا ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وأنبهوه ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة فأنصت عليهم من النبوة وخلوص الإيمان، أو برأفة خاصة بهم ﴿مِنَّا﴾ من عذاب الاستئصال ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ وذلة وفضيحة كائنهم حينئذ من الموت بالصيحة، أو من خزي يوم القيامة، وهو أنه ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿هُوَ الْقَوِيُّ﴾ القادر على كل شيء ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على جميع خلقه، المُسلط على إنفاذ إرادته.

وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا
فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ [٦٧ و ٦٨]

ثم أنه تعالى بعد إخباره بما هو الأهم من نجا أوليائه، أخبر بهلاك أعدائه بقوله: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بظلمهم ﴿الصَّيْحَةَ﴾ التي فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء في الأرض - على ما

٢. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٢.

٥. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٢.

١. أي ثباعد ما بين رجلَيْها ليحلبوها.

٣. الفصيل: ولد الناقة. ٤. أي صوت وصح.

قيل^١، وقيل: المراد صيحة جبرئيل^٢ - فتقطعت قلوبهم - وقيل: لما وقع بعدها التموج في الهواء، وقعت بعدها الرجفة التي أخبر الله بها في سورة الأعراف^٣ ﴿فَأَضْبَحُوا﴾ وصاروا ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ ومسكنهم، أو بلادهم ﴿جَائِعِينَ﴾ خامدين، لا صوت لهم ولا حركة ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾ في الدنيا، أو في ديارهم ومسكنهم، ولم يتعيشوا ﴿فِيهَا﴾ أبداً.

ثم أعلن سبحانه بذمهم وشدة استحقاقهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبِّهِمْ﴾ ولم يؤدوا شكر نعمه، ولذا استحقوا أشد العذاب ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ من الرحمة ﴿لِثَمُودَ﴾ وهلاكاً فظيعاً لهم.

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ
بِعِجْلٍ حَنِيزٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَتَبَسَّرْنَاَهَا
بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ [٦٩-٧١]

في ذكر قصة لوط ثم عقب سبحانه قصتهم بقصة قوم لوط بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ﴾ الملائكة الذين هم وقومه

﴿رُسُلُنَا﴾ إلى قوم لوط لإهلاكهم، ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ أولاً ﴿بِالْبُشْرَى﴾ والخبر الموجب

لشروع قلبه، وهو إخباره بولادة إسحاق من سارة؛ كما عن العياشي^٤، أو بولادة

إسماعيل من هاجر؛ كما عن الباقر^٥، أو بسلامة لوط وإهلاك قومهم؛ كما قيل^٦.

وعن ابن عباس: كانوا ثلاثة: جبرئيل، وميكائيل، وإسرافيل^٧.

وعن الصادق^٨: «كانوا أربعة: جبرئيل، وميكائيل، وإسرافيل، وكرويل»^٩.

وقيل: هم جبرئيل، واثنا عشر ملكاً على صورة العلّمان الذين يكونون في غاية الحسن^{١٠}. وقيل:

كانوا تسعة^{١١}.

فلما حضروا عند إبراهيم ﴿قَالُوا﴾: تسلم عليك ﴿سَلَامًا﴾، وقيل: يعني قالوا قولاً ذا سلام، أو ذكروا سلاماً^{١٢} ﴿قَالَ﴾ إبراهيم^{١٣} متحياً لهم: عليكم ﴿سَلَامٌ﴾ كامل تام من ربكم، أو مِنِّي. قيل: إنه^{١٤} كان كثير المحبة للضيافة، ومَرَّ عليه خمس عشرة ليلة لا يأتيه الضيف، فاعْتَمَ لذلك، ثم جاءته

١ و٢. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٣. ٣. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٣، تفسير روح البيان ٤: ١٦٠.

٤. تفسير العياشي ٢: ٢٠٣٢/٣١٤، تفسير الصافي ٢: ٤٥٩.

٥. تفسير العياشي ٢: ٢٠٣١/٣١٣، تفسير الصافي ٢: ٤٥٩.

٦ و٧. تفسير الرازي ١٨: ٢٣.

٨. مجمع البيان ٥: ٢٧٢، تفسير الصافي ٢: ٤٥٩.

٩. تفسير الرازي ١٨: ٢٣.

١٠. تفسير الرازي ١٨: ٢٣، مجمع البيان ٥: ٢٧٢.

١١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٤.

الملائكة في صورة الأضياف لِيَسْرَ بَرُوزُهُمْ، فلما رآهم بصورة لَمْ يَرِ مثلهم ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ وما تَوَقَّفَ حَتَّى ﴿أَنْ جَاءَ﴾ عندهم ﴿بِعِجْلِ حَيِّذٍ﴾ وَشَوِيٍّ فِي حُفْرَةٍ مِنَ الْأَرْضِ بِجِجَارَةٍ مُخَمَّاةٍ بِغَيْرِ تَنَوُّرٍ وَمَسِّنٍ نَارٍ، كَفِغْلٍ أَهْلِ الْبَادِيَةِ^١.

وعن الباقر عليه السلام: يعني: «زَكِيًّا مَشُوبًا نَضِيجًا»^٢.

وعن الصادق عليه السلام: يعني: «مَشُوبًا نَضِيجًا»^٣.

وقيل: يعني: مَشُوبًا يَقْطُرُ مِنْهُ دَسَمُهُ^٤.

وعنه عليه السلام: «قَالَ عليه السلام^٥: كُلُّوْا: لَا نَأْكُلْ حَتَّى تُخْبِرَنَا مَا مَثَلُهُ، فَقَالَ: إِذَا أَكَلْتُمْ فَقُولُوا: بِسْمِ اللَّهِ، وَإِذَا فَرَعْتُمْ فَقُولُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ». قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: «فَالْتَفَتَ جِبْرِئِيلُ إِلَى أَصْحَابِهِ: وَكَانُوا أَرْبَعَةً رُئِيسَهُمْ جِبْرِئِيلُ، فَقَالَ: حَقُّ اللَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ هَذَا خَلِيلًا»^٦.

فَلَمْ يَأْكُلُوا مِنَ الْعِجْلِ، وَلَمْ يَمْدُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَيْهِ ﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام أَنْ ﴿أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ بَلْ كَانُوا يَنْكُتُونَ بِقِدَاحٍ كَانَتْ فِي أَيْدِيهِمْ فِي اللَّحْمِ وَيَأْكُلُونَ مِنْهُ - عَلَى مَا رَوَى^٧ - وَكَانَ تَرَكَ الْأَكْلِ أَمَارَةً إِرَادَةَ السُّوءِ بِالْمُضِيفِ ﴿نَكَرَهُمْ﴾ وَكَرِهَ ذَلِكَ مِنْهُمْ ﴿وَأَوْجَسَ﴾ وَأَدْرَكَ فِي نَفْسِهِ ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لَظَنَهُ مِنْ عَدَمِ أَكْلِهِمُ الطَّعَامَ إِرَادَتَهُمُ السُّوءَ بِهِ، أَوْ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ لِأَمْرِ أَنْكَرِهِ عَلَيْهِ، أَوْ لَتَعَذِيبِ قَوْمِهِ.

فَلَمَّا رَأَتْ الرُّسُلُ تَشْوِيشَ قَلْبِهِ الشَّرِيفِ ﴿قَالُوا﴾ تَسْكِينًا لَهُ: ﴿لَا تَخَفْ﴾ مِنَّا عَلَى نَفْسِكَ وَقَوْمِكَ ﴿إِنَّا﴾ مَلَائِكَةٌ ﴿أُرْسِلْنَا﴾ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ بِالْعَذَابِ ﴿إِلَى قَوْمٍ لَوْطٍ﴾ خَاصَّةً، فَطَبَّ نَفْسًا.

﴿وَأَمْرَاتُهُ﴾ ابْنَةُ عَمِّهِ هَارَانَ بْنِ نَاحُورَ^٨ - عَلَى مَا قِيلَ^٩ - ﴿قَائِمَةٌ﴾ وَرَاءَ السُّتْرِ، أَوْ فِي الْمَجْلِسِ لِلخِدْمَةِ - لَكُونِ خِدْمَةِ الضَّيْفَانِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ - فَسَمِعَتْ كَلَامَهُمْ ﴿فَضَحِكَتْ﴾ سُورَرًا بِزَوَالِ الْخَوْفِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، أَوْ بِالْبَشَارَةِ بِهَلَاكِ أَهْلِ الْفَسَادِ، أَوْ بِهِمَا، أَوْ بِقَوْلِ جِبْرِئِيلَ: حَقُّ لِمِثْلِ هَذَا الرَّجُلِ أَنْ يَتَّخِذَهُ رَبُّهُ خَلِيلًا، أَوْ مُوَافَقَةَ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ لِقَوْلِهَا لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام قَبْلَ مَجِيئِهِمْ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَتْرُكُ قَوْمَ لُوطٍ حَتَّى يُعَذِّبَهُمْ، أَوْ بِرُؤْيَيْهَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَحْيَا الْعِجْلَ الْمَشْوِيَّ حِينَ سَأَلَهُمْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام مُعْجَزَةً دَالَّةً

١. تفسير الرازي ١٨: ٢٤.
٢. تفسير العياشي ٢: ٢٠٣١/٣١٣، تفسير الصافي ٢: ٤٥٩.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠٣٤/٣١٥، تفسير الصافي ٢: ٤٥٩.
٤. تفسير الرازي ١٨: ٢٤، تفسير روح البيان ٤: ١٦٢.
٥. أي إِبْرَاهِيمَ عليه السلام.
٦. تفسير العياشي ٢: ٢٠٣٢/٣١٥، تفسير الصافي ٢: ٤٥٩.
٧. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٤.
٨. في مجمع البيان: هَارَانَ بْنِ يَاحُورَ.
٩. مجمع لبيان ٥: ٢٧٣.

على كونهم رُسل الله، على ما قيل^١.

وقيل: إن معنى «ضحكت» تعجبت، كما عن الباقر عليه السلام^٢. أو حاصت من الفزع. وعن الصادق عليه السلام: «يعني حاضت»^٣. وعن القمي: أي حاضت، وقد كان ارتفع حيضها منذ دهر طويل^٤.
﴿فَبَشِّرْنَاهَا﴾ بتوسط أولئك الرُّسل **﴿يَاسْحَقَ﴾** عقيب شروها أو تعجبها **﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ﴾** وبعده **﴿يَعْقُوبَ﴾**، قيل: لما حاضت بُشِّرَتْ بالولد^٥.

قَالَتْ يَا وَيْلَتَى ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ [٧٢-٧٤]

فَمَا سَمِعَتْ سَارَةَ تِلْكَ الْبِشْرَةَ **﴿قَالَتْ﴾** إظهاراً لقضاة هذا الخبر، وتعجباً منه: **﴿يَا وَيْلَتَى﴾** ويا عجباً **﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾** بنت تسعة وتسعين سنة، كما قيل^٦، أو تسعين سنة، كما عن أحدهما عليه السلام^٧ **﴿وَهَذَا الرَّجُلُ بَعْلِي﴾** وزوجي تزوّته **﴿شَيْخًا﴾** ابن مائة سنة، كما قيل^٨، أو ابن مائة وعشرين سنة، كما عن أحدهما عليه السلام^٩. لا يكون ذلك بحسب العادة **﴿إِنَّ هَذَا﴾** الخبر الذي تخبرون به لو وقع **﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾** وقع بالنسبة إلى عادة الله المسلوكة في عياده. وإنما كان مقصودها استعظام الأمر، لا إظهار الشك في قدرة الله.

فلما رأى الرُّسل تعجبها ممّا بشروها به **﴿قَالُوا﴾** منكرين عليها: **﴿أَتَعْجَبِينَ﴾** يا سارة **﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾** وشأنه بسبب إيجاد الولد من الكبيرين الفاتنين، مع أنّ قدرته أعظم من ذلك، حيث إنّ خلق الإنسان من تراب، وسنّه في عموم الناس غير سنّه في خواص أوليائه إظهاراً للآية. واعلمي أنّه تكون **﴿رَحْمَةُ اللَّهِ﴾** ونعمه الفاضلة **﴿وَبَرَكَاتُهُ﴾** النامية وخيراته المتكاثرة نازلتين محيطتين بكم، لازمتين لكم يا **﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾** ومنها إكرامكم بهذه الولادة.
 قيل: إنّ الرحمة هي الثبوة، والبركات هي الأسباط^{١٠}.

٢. تفسير العياشي ٢: ٣١٣/٢٠٣١، تفسير الصافي ٢: ٤٦٠.

١. تفسير الرازي ١٨: ٢٦.

٣. تفسير العياشي ٢: ٣١٤/٢٠٣١، تفسير الصافي ٢: ٤٦٠.

٥. تفسير الرازي ١٨: ٢٦.

٤. تفسير القمي ١: ٣٣٤، تفسير الصافي ٢: ٤٦٠.

٧. علل الشرائع: ٦/٥٥١، تفسير الصافي ٢: ٤٦٠.

٦. مجمع البيان ٥: ٢٧٣.

٩. علل الشرائع: ٦/٥٥١، تفسير الصافي ٢: ٤٦٠.

٨. مجمع البيان ٥: ٢٧٣.

١٠. تفسير روح البيان ٤: ١٦٤.

ثُمَّ حَتَّوْهَا عَلَى الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ يَقُولُهُ: ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ وَمَحْمُودٌ بِذَاتِهِ، أَوْ مُسْتَحَقٌّ لِلْحَمْدِ مِنْ عِبَادِهِ ﴿مَجِيدٌ﴾ فِيمَا يُنْعِمُ عَلَيْهِمْ. قِيلَ: إِنَّ الْمَجِيدَ الشَّرِيفَ ذَاتَهُ، الْجَمِيلَ أَعْمَالَهُ، الْجَزِيلَ عَطَاؤَهُ.^١

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ﴾ وَزَالَ ﴿عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّؤُوفِ﴾ وَالْخَوْفِ الَّذِي طَرَأَ عَلَيْهِ^٢ مِنْ عَدَمِ أَكْلِ الرُّشْلِ عِنْدَهُ، لَمَّا عَرَفَ أَنَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَلَمْ يَجِئُوا لِلتَّعْذِيبِ قَوْمَهُ ﴿وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَى﴾ بِنَجَاحِ قَوْمِهِ، أَوْ بِالْوُلْدِ، كَانَ ﴿يُجَادِلُنَا﴾ وَيُكَلِّمُنَا بِمُكَالِمَةِ رُسُلِنَا ﴿فِي﴾ شَأْنِ ﴿قَوْمِ لُوطٍ﴾ وَزَفَعَ الْعَذَابَ عَنْهُمْ بِشَفَاعَتِهِ.

قِيلَ: إِنَّهُ قَالَ لَهُمْ - حِينَ قَالُوا: إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهَا خَمْسُونَ رَجُلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، أَتُهْلِكُونَهَا؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَأَرَبِعُونَ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَثَلَاثُونَ؟ قَالُوا: لَا، حَتَّى بَلَغَ الْعَشْرَةَ، قَالُوا: لَا، قَالَ: فَرَجُلٌ وَاحِدٌ مُسْلِمٌ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: إِنْ فِيهَا لُوطًا^٣.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ
وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ * وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ
بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا
يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ
فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ
حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنِّي بِيَدِي قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ *
قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا
يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِنَّا مَوَدُّهُمْ الصُّبْحُ
أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ [٧٥-٨١]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْبَاعَثُ عَلَى الْمُجَادَلَةِ صِفَاتِهِ الْحَمِيدَةِ، مَدَحَهُ اللَّهُ بِهَا يَقُولُهُ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ وَمُسَاهِلٌ فِي الْإِنْتِقَامِ مِنَ الْمُسِيئِينَ ﴿أَوَّاهٌ﴾ وَشَدِيدُ الْأَسَفِ عَلَى الْمُذْنِبِينَ ﴿مُنِيبٌ﴾ وَرَجَّاعٌ إِلَى اللَّهِ، ضَرَّاعٌ إِلَيْهِ.

ثُمَّ قَالَتِ الرُّسُلُ: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ﴾ وَكَفَّ ﴿عَنْ هَذَا﴾ الْجِدَالِ وَالتَّرَحُّمِ بَعْنَ لَيْسَ أَهْلًا لِلرَّحْمَةِ، وَالْإِشْفَاقِ عَلَى مَنْ لَا يَتَلَقَّى بِالشَّقَّةِ ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وَبَلَغَ وَفَتْ جَرِيَانِ قَدْرَهُ عَلَى وَفْقِ قَضَائِهِ فِي حَقِّ قَوْمِ لُوطٍ ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ﴾ وَنَازَلَ عَلَيْهِمْ ﴿عَذَابٌ﴾ شَدِيدٌ ﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ وَلَا مَدْفُوعٍ عَنْهُمْ بِجِدَالٍ أَوْ شَفَاعَةٍ وَدُعَاءٍ.

عن ابن عباس: ثم انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط، وبين القريتين أربعة فراسخ، ودخلوا عليه على صورة شبان مُزْد من بني آدم، وكانوا في غاية الحُسن^١.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا ۖ وَرَأَاهُمْ بَيتَكَ الضَّفَّةَ مِنَ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ﴾ **﴿يَسِيءَ بِهِمْ﴾** وخاف من قومه عليهم، أو على نفسه حيث مَعَوْه من أن يدخل عليه الضيف **﴿وَصَاقَ بِهِمْ دُزْعًا﴾** وفلت بمكانهم طاقة تحمله، أو ضاق صدره أو قلبه وانقبض من وُزودهم عليه، لعلهم يخبث قومه، وعجزه عن دفاعهم عنهم **﴿وَقَالَ﴾** تَلَهَّمًا: **﴿هَذَا﴾** اليوم **﴿يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾** وشديد عَليَّ أمره.

رُوي أن الله تعالى قال للملائكة: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما مشى مُنطلقاً بهم إلى منزله قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرها؟ قال: أشهد بالله أنهم لَشَرُّ قوم في الأرض عملاً - يقول ذلك أربع مرّات - فدخلوا منزله ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته فأخبرت به قومها وقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط^٢.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ﴾ وهو في بيته مع أضيافه، وهم **﴿يَهْرَعُونَ﴾** ويسرعون **﴿إِلَيْهِ﴾** لشدة طلبهم الفاحشة من أضيافه **﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَفْعَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾** ويرتكبون القبائح، ويتمزنون عليها، بحيث لم يبق في نظرهم قبحها^٣، ولذا كانوا متجاهرين بها، غير مستحيين منها. فلما رآهم لوط وعلم بقصدهم **﴿قَالَ﴾** لهم وقاية لأضيافه، وإظهاراً لغاية كرامة نفسه: **﴿يَا قَوْمُ﴾** إن تريدون قضاء الشهوة فانظروا **﴿هَؤُلَاءِ﴾** النسوة **﴿بَنَاتِي﴾** فاقضوا بهن الشهوة **﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾** وأنزله.

قيل: كانوا يطلبونهن من قبل ولا يجيبهن، لخبيثهم وعدم كفاءتهم^٤، ولم يقل ذلك على الجد والحقيقة، وإنما قاله طمعاً في أن يستحيوا أو يرقوا له، فيزجروا عما أرادوا.

وعن القمي: عني به أزواجهم، وذلك أن النبي أبو أمته، فدعاهم إلى الحلال، ولم يكن يدعوهم إلى الحرام^٥.

وحكي ذلك عن مجاهد وسعيد بن جبيرة^٦.

ثم نصحهم بقوله: **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾** في ارتكاب الفاحشة بإتيان الذُّكران، ثم تضرع إليهم بقوله: **﴿وَلَا تُخْزَوْنَ﴾** ولا تفضحوني، أو لا تخجلوني عند الناس **﴿فِي﴾** شأن **﴿ضَيْفِي﴾** هؤلاء **﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾** ومهتد إلى الحق، ومُنَكِّرٌ لفعل القبيح يرد هؤلاء الأوباش.

٢. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٧.

١. تفسير الرازي ١٨: ٣١.

٣. في تفسير روح البيان ٤: ١٦٧ واستمروا حتى لم تعب عندهم فباحتها.

٥. تفسير القمي ١: ٣٣٥، تفسير الصافي ٢: ٤٦١.

٤. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٨.

٦. مجمع البيان ٥: ٢٧٩.

عن أحدهما عليه السلام: «أنه وضع يده على الباب، ثم ناشدهم فقال: «اتقوا الله ولا تحزوني في ضيفي، ثم عرض عليهم بنائه بينكاح»^١.

ثم أنهم مع جميع ذلك «قَالُوا» مُجِيبِينَ له: يَا لُوطُ «لَقَدْ عَلِمْتُمْ» بعد إقامتك فينا مدة طويلة أنه «مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ» وحاجة في رفع الشهوة، أو حَقَّ تَمَتُّعٍ، لَأَنَّهُنَّ لَسْنَ لَنَا بِأَزْوَاجٍ، ولا تَمِيلُ طِبَاعُنَا أَيْضًا إِلَيْهِنَّ «وَأَنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ» وما نشتهي، وهو مَوَاقِعَةُ الذُّكْرَانِ، ولا نَتَصَرَّفُ عنها. فلَمَّا بَيَّنَّ لُوطُ من انصرافهم عما هم عليه «قَالَ» تَمَتُّيًا: «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ» وعلى دفعكم قدرة بنفسي «أَوْ آوِي» وَالتَّجَنَّى «إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» وناصِرٍ قاهرٍ امتنع به عنكم. وقيل: يعني: أو أن لي أحد الأمرين لَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ^٢.

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رَجِمَ اللَّهُ أَخِي لُوطًا، كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»^٣.
عن الباقر عليه السلام: «رَجِمَ اللَّهُ لُوطًا لَوْ يَدْرِي مَنْ مَعَهُ فِي الْحَجَرَةِ لَعَلِمَ أَنَّهُ مَتَّصِرٌ حَيْثُ يَقُولُ: «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» أَي رُكْنٍ أَشَدُّ مِنْ جَبْرِئِيلَ؟»^٤.

رُوي أَنَّهُ أَغْلَقَ أَبْوَابَهُ دُونَ أَصْيَافِهِ، وَأَخَذَ يُجَادِلُهُمْ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ، فَتَسَوَّرُوا الْجِدَارَ، فَلَمَّا رَأَتْ الْمَلَائِكَةُ كَرْبَ لُوطٍ وَعَجْزَهُ عَنْ مُدَافَعَتِهِمْ «قَالُوا» تَسْلِيَةً له: «يَا لُوطُ» لَا تَغْتَمُ وَلَا تُثَالِ بِهِمْ «إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ» وَإِنَّهُمْ «لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ» بِسُوءٍ وَمَكْرِهِ، فَافْتَحَ الْبَابَ وَدَعَا وَإِيَّاهُمْ^٥.

وفي (الجوامع): قَالَ جَبْرِئِيلُ: إِنَّ رُكْنَكَ لِشَدِيدٍ، فَفَتَحَ الْبَابَ وَدَعَا وَإِيَّاهُمْ، فَفَتَحَ الْبَابَ فَدَخَلُوا^٦، فَاسْتَأْذَنَ جَبْرِئِيلُ رَبَّهُ فِي عَفْوِهِمْ فَآذِنَ لَهُ، فَقَامَ جَبْرِئِيلُ فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا، فَنَشَرَ جَنَاحَهُ، وَلَهُ جَنَاحَانِ، وَعَلَيْهِ وَشَاحٌ مِنْ دُرٍّ مَنظُومٍ، وَهُوَ بَرَّاقٌ الثَّنَايَا، فَضَرَبَ بِجَنَاحِهِ وَجُوهَهُمْ فَطَمَسَ أَعْيُنَهُمْ وَأَعْمَاهُمْ، فَصَارُوا لَا يَعْرِفُونَ الطَّرِيقَ، فَخَرَجُوا وَهُمْ يَقُولُونَ: النَّجَاءُ النَّجَاءُ، فَإِنَّ فِي بَيْتِ لُوطٍ قَوْمًا سَحَرَةً^٧.

ثم قالوا للوط: «فَاسْرِ بِأَهْلِكَ» وَعِيَالِكَ «بِقِطْعٍ» وَطَائِفَةٍ «مِنْ اللَّيْلِ» وَاخْرُجُوا جَمِيعًا مِنَ الْقَرْيَةِ «وَلَا يَلْتَفِتْ» وَلَا يَنْظُرْ إِلَى الزَّوَارِ «مِنْكُمْ أَحَدٌ» أَنْتَ وَأَهْلُكَ. قِيلَ: لَيْثًا يَبْطِئُوا فِي السَّيْرِ، أَوْ لَيْثًا يَرَوْنَ مَا يَنْزِلُ بِالْقَوْمِ مِنَ الْعَذَابِ، فَيَرْقُؤْا^٨ لَهُمْ، أَوِ الْمَرَادُ: لَا يَتَخَلَّفُ مِنْكُمْ [أَحَدٌ] «إِلَّا أَمَرَ أَتَكَ».

١. تفسير العياشي ٢: ٣١٨/٢٠٤٠، تفسير الصافي ٢: ٤٦١.

٢. تفسير أبي السعد ٤: ٢٢٩.

٣. تفسير الرازي ١٨: ٣٥، تفسير أبي السعد ٤: ٢٢٩.

٤. الكافي ٥: ٥٤٦/٥، تفسير الصافي ٢: ٤٦٢.

٥. تفسير أبي السعد ٤: ٢٢٩.

٦. جوامع الجامع: ٢٠٨. ٧. تفسير أبي السعد ٤: ٢٢٩، تفسير روح البيان ٤: ١٦٩.

٨. تفسير روح البيان ٤: ١٦٩.

رُوي أَنَّهُ لَمَّا أُسْرِ بِأَهْلِهِ تَبِعْتَهُمْ، فَلَمَّا سَمِعَتْ هَذِهِ الْعَذَابَ التَّفَتَّتْ وَقَالَتْ: يَا قَوْمَاهُ، فَأَدْرَكَهَا حَجَرٌ فَقَتَلَهَا^١.

والظاهر؛ كما عن الأكثر، الاشتناء راجع إلى قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ لا إلى قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾، والمعنى: فأسر بأهلك إلا امرأتك ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ من العذاب لا محالة، فتكون من الهالكين.

ثم ذكروا علة خروجه بالليل بقولهم: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمْ﴾ ووقت نزول العذاب عليهم هو ﴿الصُّبْحُ﴾ رُوي أَنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ قال لوط: أريد أعجل من ذلك، بل الساعة، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾^٢.

قيل: إن علة توقيت العذاب بالصُّبح أَنَّهُ وَقْتُ الدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ، والعذاب فيه أشد^٣.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ
* مُسَوَّمَةٍ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ [٨٢ و ٨٣]

ثم حكى سبحانه كيفية العذاب وشِدَّتَه بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، وعَدَائِنَا، أو وقت نزوله على القرى السبعة^٤، وفيها أربعمائة ألف ألف - على ما قيل^٥ أو أمرنا به بقولنا: (كن)، أو أمرنا للملائكة بإهلاكهم، قلبناها، بأن ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ بتوسط جبرئيل ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ بعد قلبها ﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ قيل: إنه مُعَرَّبٌ «سَجَّ كَلَّ»^٦. وقيل: إنه «سجين» قلبت ثبوته لا ما^٧. وقيل: يعني: من طين، فإن أصل الحجر الطين^٨، وقيل: مأخوذ من (سجل)، والمعنى أَنَّهُ مِمَّا كَتَبَ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهِ^٩. وقيل: إنه اسم سماء الدنيا^{١٠}. وقيل: معناه موضع الحجارة، وهي جبال مخصوصة^{١١}، وذلك السِّجِّيلُ^{١٢} ﴿مَنْضُودٍ﴾ ومَوْضُوعٌ بعضه فوق بعض، ليكون مُعَدًّا للعذاب، أو المعنى كان ذلك المطر متتابعاً بتزول بعضه إثر بعض؛ كقطر الأمطار. وكلَّ حجارة ﴿مُسَوَّمَةٍ﴾ ومُعَلَّمة بخطوط حمراء مثل الجزع^{١٣}، أو ينقطع فيها - كما عن القمّي^{١٤} أو بأمثال الخواتيم، أو بسيماء لا تشارك حجارة الأرض، أو

١. تفسير الرازي ١٨: ٣٦، تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٩. ٢. تفسير الرازي ١٨: ٣٧، تفسير أبي السعود ٤: ٢٣٠.

٣. تفسير أبي السعود ٤: ٢٣٠، تفسير روح البيان ٤: ١٧٠.

٤. في تفسير أبي السعود: قرى قوم لوط، وهي التي عبر عنها بالمؤنفاكات، وهي خمس مدائن.

٥. تفسير أبي السعود ٤: ٢٣٠. ٦- ١١. تفسير الرازي ١٨: ٣٨.

١٢. هذا التعبير لا يتناسب مع قوله: ﴿مَنْضُودٍ﴾ من حيث الإعراب، فهو يقتضي أن يكون (منضودة) بالرفع.

١٣. الجزع: ضرب من العقيق بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان.

١٤. تفسير القمّي ١: ٣٣٦، تفسير الصافي ٢: ٤٦٣.

بأنه كان عليها اسم من رمى بها. وعلى أي تقدير كانت تلك الحجارة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وفي خزانته لا يتصرف فيها غيره.

ثم هدّد سبحانه مشركي عصر النبي ﷺ بقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين هم في هذا العصر ﴿بَبَعِيدٍ﴾.

عن النبي ﷺ أنه سأل جبرئيل عن هذا، فقال: يعني ظالمي أمّتك، ما من ظالم منهم إلا وهو بمعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة^١.

عن الباقر عليه السلام: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ﴾ [من] ظالمي أمّتك، إن عملوا ما عيل قوم لوط^٢. وعن الصادق عليه السلام: «من مات مضراً على اللواط لم يمّت حتى يرميه الله بحجر من تلك الحجارة تكون فيه ميّته، ولا يراه أحد»^٣.

وعنه عليه السلام: «ما من عبد يخرج من الدنيا يستحلّ عمل لوط إلا رمى الله كبّده من تلك الحجارة تكون ميّته فيها، ولكن الخلّ لا يرونه»^٤.

وقيل: إن المراد: ليست القرى المؤفكات من مشركي مكة بعيد، لأنها كانت في الشام، وهو قريب من مكة^٥.

عن الباقر عليه السلام: «كان قوم لوط من أفضل قوم خلقهم الله، فطلبهم إبليس الطلّب الشديد، وكان من فضلهم وخيرهم أنهم إذا خرجوا إلى العمل خرجوا بأجمعهم وتبقى النساء خلفهم، فلم يزل إبليس يعتادهم، وكانوا إذا رجعوا خرب إبليس ما كانوا يعملون، فقال بعضهم لبعض: تعالوا نرصد هذا الذي يخرّب منا، فرصدوه فإذا هو غلام أحسن ما يكون من الغلمان، فقالوا له: أنت الذي تخرّب منا مرة بعد مرة، فاجتمع رأيهم على أن يقتلوه، فجعلوه عند رجل، فلما كان الليل صاح، فقال له: مالك؟ فقال: كان أبي يؤمني على بطنه، فقال له: تعال فتم على بطني، قال: فلم يزل بذلك الرجل حتى علمه أن يفعل بنفسه، فأولاً علمه إبليس والثانية علمه هو، ثم أسلّ ففرّ منهم، وأصبحوا وجعل الرجل يخبر بما فعل الغلام ويّعجبهم منه وهم لا يعرفونه، فوضعوا أيديهم فيه حتى اكتمى الرجال بالرجال بعضهم ببعض، ثم جعلوا يرصدون مارة الطريق فيفعلون بهم، حتى تنكب^٦ مدينتهم الناس، ثم تركوا نساءهم وأقبلوا على الغلمان.

١. تفسير الرازي ١٨: ٣٩. ٢. الكافي ٥: ٥٤٦، تفسير الصافي ٢: ٤٦٣.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠٤٦/٣٢١، الكافي ٥: ٩/٥٤٨، تفسير الصافي ٢: ٤٦٣.

٤. تفسير القمي ١: ٣٣٦، تفسير الصافي ٢: ٤٦٣. ٥. تفسير الرازي ١٨: ٣٩.

٦. أي أعرض عنها وتجنّبها.

فلما رأى أنه قد أحكم أمره في الرجال، جاء إلى النساء فصيرن نساءً، ثم قال: إن رجالكم يفعل بعضهم ببعض، قلن: نعم، قد رأينا ذلك. وكل ذلك يعظمهم لوط ويوصيهم، وإبليس يغويهم حتى اشتغنى النساء بالنساء.

فلما كملت عليهم الحجة بعث الله جبرئيل وميكائيل وإسرافيل في زِي غلمان عليهم أقبية، فمروا بلوط وهو يحترق فقال: أين تريدون؟ ما رأيت أجمل منكم قط، قالوا: إنا أرسلنا سيّدنا إلى ربّ هذه المدينة. قال: أو لم يبلغ سيّدكم ما يفعل أهل هذه المدينة؟ يا بنيّ إنهم والله يأخذون الرجال فيفعلون بهم حتى يخرج الدّم، قالوا: أمرنا سيّدنا أن نمُرَ وسطها، قال: فلي إليكم حاجة، قالوا: وما هي؟ قال: تصيرون هاهنا إلى اختلاط الظلام، فجلسوا، فبعث ابنته فقال: جيئي لهم بخبز وبماء في القرعة^١ وعباء يتغطون بها من البرد.

فلما أن ذهبت الابنة أقبل المطر والوادي، فقال [لوط]: الساعة يذهب بالصبيان الوادي، قال: قوموا حتى نمضي، وجعل لوط يمشي في أصل الحائط، وجعل جبرئيل وميكائيل وإسرافيل يمشون وسط الطريق، فقال يا بنيّ امشوا هاهنا، فقالوا: أمرنا سيّدنا أن نمُرَ في وسطها، وكان لوط يستغني الظلام، ومَرَّ إبليس فأخذ من حجر امرأة صبيّاً فطرحه في البئر، فتصايح أهل المدينة كلّهم على باب لوط، فلما نظروا إلى الغلمان في منزل لوط، قالوا: يا لوط قد دخلت في عملنا، قال: هؤلاء ضيفي فلا تفضحوني في ضيفي، قالوا: هم ثلاثة، خذ واحداً وأعطنا اثنين. قال: فأدخلهم في حجرة، وقال: لو أن لي أهل بيت يمنعوني منكم، فتدافعوا على الباب وكسروا باب لوط وطحروا لوطاً، فقال له جبرئيل: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ فأخذ كفّاً من بطحاء فضرب بها وجوههم وقال: شأب الوجوه فعمر أهل البلد كلّهم، فقال لهم لوط: يا رُسُل ربي فما أمركم ربي فيهم؟ قالوا: أمرنا أن نأخذهم بالسحر، قال: فلي إليكم [حاجة] قالوا: فما حاجتك؟ قال: تأخذونهم الساعة^٢، فقالوا: يا لوط ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ لمن يريد أن يأخذ، فخذ أنت بناتك ودع امرأتك^٣.

وعن الصادق عليه السلام: «أن الله عز وجل بعث أربعة أملاك في إهلاك قوم لوط: جبرئيل، وميكائيل، وإسرافيل وكرويل، فمروا بإبراهيم عليه السلام وهم معتمون، فسلموا عليه فلم يعرفهم، ورأى هيئة حسنة فقال: لا يخدم هؤلاء إلا أنا بنفسي، وكان صاحب ضيافة، فشوى لهم عجلاً سميناً حتى أنضجها، ثم قرّبه إليهم، فلما وضعه بين أيديهم رأى أيديهم لا تصل إليه فكبرهم وأوجس منهم خيفة، فلما رأى

١. القرعة: واحدة القرع: وهو نبات الدباء، تستخدم قشرته كإنباء للماء وغيره.

٢. زاد في الكافي: فإني أخاف أن يبدو لربي فيهم. ٣. الكافي ٥: ٥٥٤، تفسير الصافي ٢: ٤٦٤.

ذلك جبرئيل حَسَرَ العِمامة عن وَجْهِهِ فَعَرَفَهُ إِبْرَاهِيمَ، فقال: أَنْتَ هُوَ، قال: نعم. ومَرَّتْ سَارَةُ امْرَأَتَهُ فَبَشَّرَهَا بِإِسْحَاقَ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، فقالت: مَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَجَابُوهَا بِمَا فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، فقال لهم إِبْرَاهِيمَ: لِمَاذَا جِئْتُمْ؟ قالوا: فِي إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطَ، فقال: إِنْ كَانَ فِيهِمْ مَائَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَتُهْلِكُونَهُمْ؟ قالوا: لَا... إِلَى آخِرِ مَا سَبَقَ مِنْ مُجَادَلَةِ إِبْرَاهِيمَ، بِتَقَاوُفٍ يَسِيرٍ.

قال الراوي: [قال ﷺ]: «لَا أَعْلَمُ هَذَا الْقَوْلَ إِلَّا وَهُوَ يَسْتَبْقِيهِمْ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾، فَأَتُوا لُوطًا وَهُوَ فِي زِرَاعَةٍ قُرْبَ الْقَرْيَةِ، فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ وَهُمْ مُعْتَمِتُونَ، فَلَمَّا رَأَى هَيْئَةً حَسَنَةً، عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ يَبِضُّ، وَعِمَانُهُمُ بَيضٌ، فَقَالَ لَهُمُ: الْمَنْزِلُ؟ فقالوا: نَعَمْ، فَتَقَدَّمَهُمْ وَمَشَا خَلْفَهُ فَتَنَدَّمَ عَلَى عَرَضِهِ الْمَنْزِلَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ صَنَعْتُ، أَنْ أَتِيَ [بِهِمْ] قَوْمِي وَأَنَا أَعْرِفُهُمْ! فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ شِرَارًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، قَالَ جَبْرئِيلُ: لَا نَعْجَلْ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَشْهَدَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَقَالَ هَذِهِ وَاحِدَةٌ، ثُمَّ مَشَى سَاعَةً ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهِمْ وَقَالَ: إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ شِرَارًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، قَالَ جَبْرئِيلُ: هَذِهِ ثِنْتَانِ، ثُمَّ مَشَى فَلَمَّا بَلَغَ الْمَدِينَةَ التَفَتَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ شِرَارًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، فَقَالَ جَبْرئِيلُ: هَذِهِ الثَّلَاثَةُ، ثُمَّ دَخَلَ وَدَخَلُوا مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُمْ امْرَأَتُهُ رَأَتْ هَيْئَةً حَسَنَةً، فَصَعِدَتْ فَوْقَ السَّطْحِ وَصَفَّتْ: فَلَمْ يَسْمَعُوا، فَدَخَنَتْ، فَلَمَّا رَأَوُا الدُّخَانَ أَقْبَلُوا يَهْرَعُونَ حَتَّى جَاءُوا إِلَى الْبَابِ، فَزَلَّتْ إِلَيْهِمْ فَقَالَتْ: عِنْدَهُ قَوْمٌ، مَا رَأَيْتُ قَوْمًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُمْ هَيْئَةً، فَجَاءُوا إِلَى الْبَابِ لِيَدْخُلُوا، فَلَمَّا رَأَاهُمْ لُوطٌ قَامَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ لَهُمُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾، وَقَالَ: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْحَلَالِ، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾، فَقَالَ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، فَقَالَ جَبْرئِيلُ: لَوْ يَعْلَمُ أَيُّ قُوَّةٍ لَهُ.

قال: فَكَاثَرُوا^١ حَتَّى دَخَلُوا الْبَيْتَ، فَصَاحَ بِهِ جَبْرئِيلُ وَقَالَ: يَا لُوطُ دَعِّهِمْ يَدْخُلُونَ، فَلَمَّا دَخَلُوا أَهْوَى جَبْرئِيلُ بِإِصْبَعِهِ نَحْوَهُمْ، فَذَهَبَتْ أَعْيُنُهُمْ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾^٢، ثُمَّ نَادَاهُ جَبْرئِيلُ فَقَالَ لَهُ: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾، وَقَالَ لَهُ جَبْرئِيلُ: إِنَّا بَعْثْنَا فِي إِهْلَاكِهِمْ، فَقَالَ: يَا جَبْرئِيلُ عَجَلْ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، فَأَمَرَهُ فَتَحَمَلَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ، ثُمَّ أَقْتَلَعَهَا - يَعْنِي الْمَدِينَةَ - جَبْرئِيلُ بِجَنَاحِيهِ مِنْ سَبْعَةِ أَرْضِينَ، ثُمَّ رَفَعَهَا حَتَّى سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ^٣ ثَبَاحَ الْكِلَابِ وَصُرَاخَ الدُّيُوكِ، ثُمَّ قَلَبَهَا وَأَمَطَرَهَا عَلَيْهَا وَعَلَى

٣. فِي الْكَافِي: أَهْلُ سَمَاءِ الدُّنْيَا.

٢. الْقَمَر: ٣٧/٥٤.

١. أَيِ غَالَبُوهُ بِالْكَثَرَةِ.

مَنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ جِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ^١.

وعن الباقر عليه السلام: «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ» يا لوط، إذا مضى من يومك هذا سبعة أيام وليالها «يَقْطَعِ مِنَ اللَّيْلِ». قال: فلما كان اليوم الثامن مع طلوع الفجر قدم [الله] رُشْلاً إلى إبراهيم يُبَشِّرُونَهُ بِإِسْحَاقَ وَيَعَزُّونَهُ بِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطَ، وذلك قوله تعالى: «وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى^٢». أقول: لا يخفى ما في روايات هذه القصة من الاختلاف من جهات كثيرة، والذي يهون الخطب أنه لا حجة فيها. ولا بأس بالتبرع بحمل بعضها على الإجمال، وبعضها على التفصيل، وبعضها على اشتباه الراوي.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ [٨٤]

ثم ذكر سبحانه بعد قصة هلاك قوم لوط قصة هلاك قوم شعيب، بعد إتمام الحجة عليهم، وإصرارهم على الكفر والطغيان، إرباباً لقلوب المشركين، وتسلية للنبي عليه السلام بقوله: «وَإِلَىٰ» قَبِيلَةَ «مَدْيَنَ» وهم أولاد مدين بن إبراهيم الخليل، سُمُّوا باسم جدِّهم الأعلى، أو المراد: أهل مدين - وهي بلدة بناها مدين وسميت باسمه^٣ - أرسلنا «أَخَاهُمْ» واحداً منهم، كان اسمه «شُعَيْبًا» ليدعُوهم إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام «قَالَ» لهم بلين ورفق: «يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ» وحده واتركوا عبادة غيره، لأنه «مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ» ومعبود مستحق للعبادة «غَيْرُهُ». ثم أنه عليه السلام بعد رذعهم عن أشنع العقائد التي كانوا عليها، نهاهم عن أقبح الأعمال التي كانوا حريصين عليها بقوله: «وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ» حين تؤدُّون حقوق الناس بالكيل أو الوزن، ولا تظلموهم بالسرقة من أموالهم عند إيفانها.

ثم نصَّحهم بقوله: «إِنِّي أَرَاكُمْ» متلبسين «بِخَيْرٍ» وسعة في المعاش، وثروة مُغْنِيَةً لجميع حوائجكم، فلا تتوسلوا إلى ازديادها بالظلم على الناس، أو المراد: إِنِّي أراكم مُحَاطِينَ بِنِعَمِ اللَّهِ الَّتِي كَانَتْ حَقُّهَا أَنْ تَشْكُرُوهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَىٰ غَيْرِكُمْ، فلا تُزِيلُوهَا بِكُفْرَانِهَا بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ. ثم هدَّدهم عليه بقوله: «وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ» من أن تلاقوا في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما،

١. الكافي ٥: ٦٧/٥٤٦، تفسير الصافي ٢: ٤٦٥.

٢. تفسير العياشي ٢: ٤٣٣/٢٣٣٩، علل الشرائع: ٤/٥٤٩، تفسير الصافي ٢: ٤٦٣.

٣. تفسير أبي السعود ٤: ٢٣١.

بمَلِكُمْ هَذَا ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ بِكُمْ، ذَلِكَ الْيَوْمَ بِمَا فِيهِ مِنَ الشُّرُورِ، إِحَاطَةُ الدَّائِرَةِ بِمَا فِيهَا، بَحِثْ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ.

قيل: إِنَّ التَّهْدِيدَ بِتَوْصِيفِ الْيَوْمِ بِالْإِحَاطَةِ، أُبْلَغُ مِنْ تَوْصِيفِ الْعَذَابِ بِهَا^١.

وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا بِالْمِيزَانِ وَالْمِكْيَالَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [٨٥]

ثُمَّ أَكَّدَ رَدُّعَهُمْ عَنْ عَادَتِهِمُ الشَّيْعَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا بِالْمِيزَانِ وَالْمِكْيَالَ بِالْقِسْطِ﴾ وَالْعَدْلَ عِنْدَ إِيْفَانِكُمُ الْحَقُّوقَ إِلَى صَاحِبِهَا، أَوْ اسْتِيفَانِكُمُ حَقُّوقَ أَنْفُسِكُمْ مِنْ غَيْرِكُمْ. وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ لَزِمَ وَجُوبُ الْوَفَاءِ الْإِحْطَاءُ فِيهِ عِنْدَ الشَّكِّ فِيهِ، حَتَّى يُعْلَمَ بِحُصُولِهِ.

عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام: «وَجَدْنَا فِي كِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا طُفِّفَ^٢ الْمِكْيَالُ وَالْمِيزَانُ أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِالسِّنِينَ وَالْقَصَصِ»^٣.

وَفِي رِوَايَةِ أُخْرَى: «وَشِدَّةُ الْمُؤَنَةِ، وَجُورُ السُّلْطَانِ»^٤.

ثُمَّ عَمَّ النَّهْيُ عَنْ تَقْيِصِ جَمِيعِ الْحَقُّوقِ وَلَوْ كَانَ إِيْفَاؤُهَا بِغَيْرِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ﴾ وَلَا تَقْصُصْهُمْ ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤَدَّوْهَا إِلَيْهِمْ بِالْكَيْلِ وَالْوِزْنِ، أَوْ بِغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْحَقُّوقِ.

ثُمَّ عَمَّ النَّهْيُ لِمُطْلَقِ الْإِضْرَارِ عَلَى الْغَيْرِ، وَالْإِفْسَادِ فِي دِينِهِمْ أَوْ دُنْيَاهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَعْتُوا﴾ وَلَا تَسْعُوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، حَالُ كَوْنِكُمْ ﴿مُفْسِدِينَ﴾ مَصَالِحَ أَنْفُسِكُمْ وَأَنْبَاءَ نَوْعِكُمْ، دُنْيَوِيًّا وَأُخْرَوِيًّا، أَوْ الْفَرَادِ: لَا تَسْعُوا فِي إِفْسَادِ أُمُورِ غَيْرِكُمْ حَالُ كَوْنِكُمْ بِهَذَا الْإِفْسَادِ مُفْسِدِينَ فِي أُمُورِ أَنْفُسِكُمْ.

بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ [٨٦]

ثُمَّ بَالِغٌ فِي النَّصْحِ بِقَوْلِهِ: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ وَمَا رَزَقَكُمْ مِنَ الْحَلَالِ ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وَأَنْفَعُ مِمَّا تَكْتَسِبُونَ بِالطُّغْفِيفِ وَالْبَخْسِ وَغَيْرِهِمَا ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بِأَحْكَامِ اللَّهِ وَتَوَاتُوبِهِ وَعِقَابِهِ فِي الْآخِرَةِ، تُصَدِّقُونَ قَوْلِي، أَوْ الْمُرَادُ: إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِينَ بَأَنِّي نَاصِحٌ لَكُمْ ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ وَرَقِيبٌ حَتَّى أَجْبُرَكُمْ عَلَى تَرْكِ الْقَبَائِحِ، أَوْ حَافِظٌ لِأَعْمَالِكُمْ كَيِّ أَجَازِيكُمْ بِهَا، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ وَاللَّهُ هُوَ الْحَفِيظُ، أَوْ الْمُرَادُ: وَمَا

٢. طَفَّفَ الْمِكْيَالُ: إِذَا بَخَسَهُ وَنَقَصَهُ.

٤. الْكَافِي ٢: ٢٧٧/١، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ٤٦٧.

١. تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ٤: ٢٣١.

٣. الْكَافِي ٢: ٢٧٧/٢، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٢: ٤٦٧.

أنا بحافظٍ عليكم نعم الله إن لم تركوا ما أنتم عليه من الكفران الموجب لزوالها.
عن الباقر عليه السلام: «أُنْ أَوَّلُ مَا يَنْطِقُ [إِلَيْهِ] الْقَائِمُ حِينَ يَخْرُجُ، هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا بَقِيَّةُ اللَّهِ [فِي أَرْضِهِ] وَحُجَّتُهُ وَخَلِيفَتُهُ عَلَيْكُمْ، فَلَا يَسْلَمُ عَلَيْهِ مُسْلِمٌ إِلَّا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا بَقِيَّةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ»^١.

رَوَى أَنَّ الْبَاقِرَ عليه السلام صَعِدَ جَبَلًا يُشْرِفُ عَلَى مَدِينٍ حِينَ أَغْلِقَ دُونَهُ بَابَ مَدِينٍ، وَمُنِعَ أَنْ يُخْرَجَ إِلَيْهِ بِالْأَسْوَاقِ، فَخَاطَبَهُمْ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ الظَّالِمَ أَهْلُهَا، أَنَا بَقِيَّةُ اللَّهِ، يَقُولُ اللَّهُ: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾. وَكَانَ فِيهِمْ شَيْخٌ كَبِيرٌ فَأَتَاهُمْ فَقَالَ لَهُمْ: يَا قَوْمَ، هَذِهِ وَاللَّهِ دَعْوَةُ شُعَيْبِ النَّبِيِّ، وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ تَخْرُجُوا إِلَى هَذِهِ الرِّجْلِ بِالْأَسْوَاقِ لَتُؤْخَذَنَّ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ»^٢.

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ لَكُمْ إِلَى مَا أَنْتَ كُنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ [٨٧ و ٨٨]

ثُمَّ أَنَّ الْقَوْمَ بَعْدَ إِبْلَاجِ الصُّحُحِ وَالْإِنْذَارِ «قَالُوا» لَشُعَيْبٍ عِنَادًا وَاسْتِهْزَاءً: «يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ» وَتَدْعُوكَ إِلَى أَنْ تَأْمُرَنَا «أَنْ نَتْرُكَ» عِبَادَةَ «مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا» مِنَ الْأَصْنَامِ، «أَوْ» نَتْرُكَ «أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ» مِنَ التَّصَرُّفِ بِالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ، وَالْأَخْذِ وَالْإِعْطَاءِ.

قِيلَ: إِنَّهُ عليه السلام كَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ، وَيُعْطَى قَوْمُهُ بِالنَّهَارِ وَيَتَّهَمُهُمْ عَنْ تَقْطِيعِ أَطْرَافِ الدَّرَاهِمِ وَالذَّنَانِيرِ^٣، وَالتَّبَخُسِ وَالتَّطْفِيفِ. وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ يُصَلِّي يَتَغَامَزُونَ وَيَتَضَاحَكُونَ^٤، وَلِذَا أَسْنَدُوا مَوَاعِظَهُ إِلَى الْخَطَرَاتِ الْحَاصِلَةِ لَهُ مِنْ مُوَاطَبَتِهِ عَلَى الصَّلَاةِ.

ثُمَّ وَصَفُوهُ بِالْعَقْلِ وَالرُّشْدِ تَهْكُمًا بِقَوْلِهِمْ: «إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ» وَالْعَاقِلِ الْمُتَهَدِي إِلَى كُلِّ خَيْرٍ. وَالْمَقْصُودُ ضِدُّهُمَا، وَالْإِشْعَارُ بِأَنَّهُ السَّفِيهَ الضَّالَّ. وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ مَا عَنْ الْقَمِي: أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّكَ

١. كما الدين: ١٦/٣٣١، تفسير الصافي ٢: ٤٦٨.

٢. تفسير البيضاوي ٤: ١٧٤.

٣. الكافي ١: ٣٩٢، ٥، تفسير الصافي ٢: ٤٦٨.

٤. تفسير أبي السعود ٤: ٢٣٢.

لَأَنْتَ السَّفِيهَ الْجَاهِلُ، فَحَكَى^١ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُمْ: قَالَ: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ^٢﴾.

وقيل: إِنَّ الْحَلِيمَ الرَّشِيدَ: بَلُغَةُ أَهْلِ مَدِينِ، الْأَحْمَقُ السَّفِيهَ^٣.

وقيل: إِنَّهُ تَعْلِيلٌ لِمَا سَبَقَ مِنْ اسْتِعَادَهُمْ قَوْلَهُ، وَالْمَعْنَى: إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ عَلَى زَعْمِكَ، فَلَا يَنْبَغِي مِنْكَ هَذِهِ الْأَقْوَالُ الْفَاسِدَةُ^٤.

﴿قَالَ﴾ شُعَيْبٌ: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ وَأَخْبِرُونِي ﴿إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ وَحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ عَلَىٰ نُبُوتِي، أَوْ حِكْمَةٍ كَامِلَةٍ أَوْيَتْهَا ﴿مِنْ﴾ قَبْلِ ﴿رَبِّي﴾ وَمَلِكِي ﴿وَرَزَقْتَنِي مِنْهُ﴾ بِفَضْلِهِ ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ وَمَالًا حَلَالًا يَكْفِينِي فِي مَعِيشَتِي وَرَاحَتِي، أَوْ وَهَبَنِي مِنَ النَّبُوءَةِ مَرْتَبَةً عَالِيَةً، فَهَلْ يَسْتَعْنِي مَعَ هَذَا الْإِنْعَامِ الْعَظِيمِ وَتَفَضُّلِهِ عَلَيَّ بِالسَّعَادَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَالرُّوحَانِيَّةِ، أَنْ أَقْصُرَ فِي تَبْلِيغِ وَحْيِهِ، وَأُخَالَفَهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، بَأَنْ أُوَافِقَ مَعَكُمْ وَلَا أَمْرَكُمْ بِتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَقَبَاحِ الْأَعْمَالِ، مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ لَذَلِكَ! ﴿وَمَا أُرِيدُ﴾ بِنُصْحِي لَكُمْ وَرَدْعِكُمْ عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴿أَنْ أَخَالِفَكُمْ﴾ وَمَا أَنَا مَانِلٌ ﴿إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ﴾ وَأَزْجُرَكُمْ ﴿عَنْهُ﴾ مِنَ الْمَشْتَهَاتِ، بَلْ أَخْتَارُ لَكُمْ مَا اخْتَارَ لِنَفْسِي، وَأَزْجُرُكُمْ عَمَّا أَنْزَجَرَ عَنْهُ، وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ مِنْ حَالِي مُدَّةَ عُمُرِي بَيْنَكُمْ أَنِّي ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ وَمَا أَطْلُبُ بِنُصْحِي ﴿إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ لِنَفْسِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ، وَتَنْزِيهِكُمْ عَنِ الْقَبَاحِ بِمِقْدَارِ ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ مِنَ الْإِصْلَاحِ، أَوْ مَا دُمْتُ مُتَمَكِّنًا مِنْهُ، وَمَا أُرِيدُ لِقَاءَ الْفِتْنَةِ فِيكُمْ ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ لِإِنْفَازِ مَقْصُودِي وَتَحْقِيقِ مَرَامِي الْمَذْكُورِ ﴿إِلَّا بِاللَّهِ﴾ الْمَوْفِقَ لِكُلِّ خَيْرٍ. وَفِيهِ تَنْبِيْةٌ عَلَىٰ عَدَمِ جَوَازِ اعْتِمَادِ الْمُؤْمِنِ فِي أَعْمَالِهِ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ.

ثُمَّ قَرَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿عَلَيْهِ﴾ تَعَالَى ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ وَاعْتَمَدْتُ فِي الْقِيَامِ بِوُظُفِيَّتِي عَمَّا سِوَاهُ؛ لِأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَا سِوَاهُ عَاجِزٌ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴿وَالِلَّهِ أُنُبُ﴾ وَأَرْجِعُ فِيمَا أَنَا بِضَدِّهِ مِنَ الْإِصْلَاحِ وَالْإِرْشَادِ، أَوْ إِلَيْهِ أَقْبَلُ بِشَرَّاشِرِي فِي جَمِيعِ أُمُورِي. وَفِيهِ إِعْلَانُ بِكَمَالِ تَوْحِيدِهِ، وَبِعَدَمِ مُبَالَاتِهِ بِعَدَاوَةِ النَّاسِ، وَإِشْعَارٌ بِمَعْرِفَتِهِ بِالْمَعَادِ.

وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمُ نُوحٍ أَوْ قَوْمُ هُودٍ
أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ * وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ
رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا
ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ أُعْزُّ

١. في المصدر: فَنَكَّى. ٢. تفسير القمي ١: ٣٣٧، تفسير الصافي ٢: ٤٦٨.

٣. تفسير أبي السعود ٤: ٢٣٣.

٤. تفسير روح البيان ٤: ١٧٤.

عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَائِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَآزْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ [٨٩-٩٣]

ثم بالغ في نصحه بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ ولا يَحْمِلَنَّكُمْ ﴿شِقَاقِي﴾ وعداوتي على ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ بكنفركم ولجاجكم ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ من العذاب، فإن لم تعتبروا بأولئك الأمم المهلكة؛ لبعدهم مكانهم وزمانهم، فاعبروا بقوم لوط ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ مكاناً لقرب بلادهم من مدين، وزماناً لكون زمان إهلاكهم أقرب إلى زمانكم من زمان هلاك هؤلاء الأقوام ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من الإشراك به ﴿ثُمَّ تَوُوبُوا إِلَيْهِ﴾ من التطفيف وغيره من المعاصي، حتى يغفر لكم، ويثوب عليكم ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ بعباده التائبين ﴿وَدُودٌ﴾ ومحب لهم، يُنجيهم من العذاب، ويُعطيه المواب.

﴿قَالُوا﴾ بعد تلك الموعظ الكافية، إهانة له: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقْنَا﴾ ولا نفهم ﴿كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾. قيل: إنما كانت علة عدم فهمهم غاية نفرتهم عن كلامه^١، أو عدم معرفتهم صحة دلالة التوحيد، وسناعة البخس والتطفيف.

ثم بالغوا في تحقيره بقولهم: ﴿وَأِنَّا لَنَرَاكَ فَيِّنًا﴾ وبيئنا ﴿ضَعِيفًا﴾ في القوى الجسمانية، بحيث لا تقدر على الدفاع إن أدينك وقتلناك، أو مهيناً لا عز لك ﴿وَلَوْلَا زَهْفُكَ﴾ وحرمة أقاربك الذين هم على ديننا ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ وقتلناك بأسوأ القتل، وهو رميتك بالحجارة ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ومكرم، وإنما يحفظك من الرجم حرمة قومك لا حرمتك.

﴿قَالَ﴾ شعيب: ﴿يَا قَوْمِ أَرْهَظِي﴾ وعشيرتي ﴿أَعَزُّ﴾ وأكرم ﴿عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ﴾ العزيز القاهر الذي أرسلني إليكم لتبليغ توحيده وأحكامه، فإن إهانتني وإيداني إهائته وإيدائه ﴿وَ﴾ أنتم ﴿اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ وبذختموه خلف أظهيركم، وجعلتموه منسياً لا تفتنون به أبداً.

ثم إنه بعد توبيخهم على جعل رعاية قومه أولى من رعاية حرمة الله، هددهم بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من القباح والسيئات ﴿مُحِيطٌ﴾ ومطلع، بحيث لا يخفى منه شيء، فيجازيكم عليها أسوأ الجزاء ﴿وَيَا قَوْمِ أَعْمَلُوا﴾ واشعوا في الإضرار بي، وإيصال الشر إلي ﴿عَلَى﴾ قدر ﴿مَكَائِكُمْ﴾ ووسعكم، بلا تقصير وتوان، و﴿إِنِّي﴾ أيضاً ﴿عَامِلٌ﴾ ومجدد قدر وسعي في التبليغ وإتمام الحجة

عليكم، إِذَنْ ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وَعَنْ قَرِيبٍ تَشْهَدُونَ ﴿مَنْ يَأْتِيهِ﴾ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ يُخْزِيهِ﴾ وَيَذِلُّهُ فَوْقَ الذُّلِّ الَّذِي يُلَازِمُهُ الْهَلَاكُ بِمُطْلَقِ الْعَذَابِ ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ فِي دَعْوَاهُ، أَنْتُمْ فِي دَعْوَى الشُّرْكِ، أَوْ أَنَا فِي دَعْوَى التَّوْحِيدِ ﴿وَأَزْتَقِبُوا﴾ وَانْتَظِرُوا عَاقِبَةَ أَمْرِي وَأَمْرَكُمْ ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ وَنْتَظِرُ لَذَلِكَ.

عن الرضا عليه السلام: «[ما] أَحْسَنَ الصَّبْرَ وَاتِّظَارَ الْفَرَجِ! أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَزْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾».

عن النبي صلى الله عليه وآله أَنَّهُ كَانَ إِذَا ذَكَرَ شُعَيْبًا قَالَ: «ذَاكَ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ» لِحُسْنِ مُرَاجَعَتِهِ فِي كَلَامِهِ بَيْنَ قَوْمِهِ.^٢

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُغْدًا لِّمَذِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ [٩٤ و ٩٥]

ثُمَّ حَكَى اللَّهُ لُطْفَهُ بِشُعَيْبٍ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَغَضَبَهُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، وَعَذَابُنَا، أَوْ وَقْتُ أَمْرِنَا مَلَكًا بِإِهْلَاكِهِم بِالصَّيْحَةِ ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ﴾، وَفَضْلٍ ﴿مِنَّا﴾ أَوْ بِإِيمَانٍ وَطَاعَةٍ وَقَنَاقِهِمَا لَهَا ﴿وَأَخَذَتِ﴾ الْكَافِرِينَ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ ﴿الصَّيْحَةَ﴾ السَّمَاءِيَّةَ الْمُهْلِكَةَ ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ أَوْ صَارُوا دَفْعَةً ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ وَمَسَاكِنِهِمْ ﴿جَائِعِينَ﴾ مَيِّتِينَ لَا حَرَاكَ لَهُمْ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾ فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ يَعِيشُوا ﴿فِيهَا﴾ أَبَدًا ﴿أَلَا﴾ يَا أَهْلَ الْعَالَمِ ﴿بُغْدًا﴾ مِنَ الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَهَلَاكًا دَائِمًا ﴿لِّمَذِينٍ﴾ وَأَهْلِهِ ﴿كَمَا بَعْدَتْ﴾ وَهَلَكْتُ ﴿ثُمُودُ﴾.

عن ابن عباس: لَمْ يُعَذِّبِ اللَّهُ تَعَالَى أُمَّتَيْنِ بَعْدَ وَاحِدٍ، إِلَّا قَوْمَ شُعَيْبٍ، وَقَوْمَ صَالِحٍ. فَأَمَّا قَوْمُ صَالِحٍ فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مِنْ تَحْتِهِمْ، وَأَمَّا قَوْمُ شُعَيْبٍ فَأَخَذَتْهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ.^٣

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأَنْصَبُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَبْئِسُ الرَّفْدُ

١. كمال الدين: ٥/٦٤٥، مجمع البيان ٥: ٢٨٨، تفسير الصافي ٢: ٤٧٠.

٣. تفسير الرازي ١٨: ٥١.

٢. تفسير روح البيان ٤: ١٧٩.

الْمَرْفُودُ [٩٦-٩٩]

ثُمَّ خَتَمَ سُبْحَانَهُ قَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ وَهَلَكَ أَمَمُهُمْ بِقِصَّةِ مُوسَى وَهَلَكَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ وهي التوراة والشرائع، كما قيل^١، أو المعجزات الباهرات؛ على قولٍ آخر^٢، ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ والبرهان القاطع، على قولٍ، أو المعجزات التسع، على آخر^٣، ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ﴾ وأشرف قومه، أما فِرْعَوْنُ فَجَحَدَهُ وَعَارَضَهُ، وَأَمَّا مَلَأَهُ ﴿فَاتَّبَعُوا﴾ وامتثلوا ﴿أَمَرَ فِرْعَوْنَ﴾ إِيَّاهُمْ بِالْكَفْرِ وَالْجُحُودِ لَنُبُوءَةِ مُوسَى ﷺ، وَتَكْذِيبِهِ فِيمَا جَاءَ بِهِ ﴿وَمَا أَمَرَ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ وذو صلاحٍ أو محمود العاقبة، بَلْ كَانَ عَيْنَ الْغِيِّ وَالضَّلَالِ.

وَكَمَا كَانَ هُوَ قُدُورَةٌ وَتَبَعًا لَهُمْ فِي الْكُفْرِ وَالْفَسَادِ فِي الدُّنْيَا ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ الأشراف منهم والأراذل ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وَهُمْ يَتَّبِعُونَهُ فِي طَرِيقِ جَهَنَّمَ ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ الموقدة ﴿وَيَسَّسَ الْوُرُودَ الْمَوْزُودَ﴾ وساء المكان الذي يدخلونه ﴿وَأَتَّبَعُوا﴾ وأردفوا، أولئك القوم الذين اتبعوه ﴿فِي هَذِهِ﴾ الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾ عظيمة دائمة، حَيْثُ تَلْعَنُهُمُ الْأُمَمُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حَيْثُ يَلْعَنُهُمْ جَمِيعُ أَهْلِ الْمَوْقِفِ، بِسَبَبِ اتِّبَاعِهِمْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴿يَسَّسَ الرَّفْدَ الْمَرْفُودَ﴾ وساء الْعَطَاءُ الْمَعْطَى، أَوِ الْعَوْنُ الْمُعَانُ بِهِ تِلْكَ اللَّعْنَةُ.

الْقَمِيُّ: ﴿فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ يعني: الهلاك والفرق، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [أي] يرفدهم الله بالعذاب^٤. فإذا كَانَ حَالُ الْإِتْبَاعِ هَكَذَا، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الْمَتَّبِعِ؟!

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ [١٠٠]

ثُمَّ اسْتَدَلَّ سُبْحَانَهُ بِصِدْقِ هَذِهِ الْقِصَصِ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ، مَعَ كَوْنِهِ أَمِينًا، بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى﴾ المهلكة، الذي لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ، وَإِنَّمَا نَحْنُ ﴿نَقْصُهُ﴾ بِالْوَحْيِ ﴿عَلَيْكَ﴾ فَلَا مَجَالَ لِلشَّكِّ فِي نُبُوتِكَ.

وَأَمَّا تِلْكَ الْفَرَى الَّتِي نَزَلَ فِيهَا الْعَذَابُ، فَبَعْضُ ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ وِبَاقٍ إِلَى الْآنَ بِأَسَاسِهِ وَبُنْيَانِهِ كَالزَّرْعِ الْقَائِمِ عَلَى سَاقِهِ، ﴿وَمِنْهَا حَصِيدٌ﴾ وعافي الأثر كالزَّرْعِ الْمَحْصُودِ.

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ

١. تفسير الرازي ١٨: ٥٢.

٢. تفسير الرازي ١٨: ٥٢.

٣. تفسير الرازي ١٨: ٥٣.

٤. تفسير القمي ١: ٣٣٧، تفسير الصافي ٢: ٤٧١.

٥. في النسخة: بأساسها وبنيانها.

دُونَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ
إِذَا أَخَذَ الْفَرْقَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ
خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ [١٠١-١٠٣]

ثم تَبَّه سبحانه على أن تعذيب أهالي القرى كان بمقتضى العدل بقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بتعذيبهم
﴿وَلَكِنْ﴾ هُمْ ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتعريضها للهلاك بسبب اختيارهم الكفر، وإزتيكاهم العصيان.
ثم ويخبرهم على عبادة الأصنام بقوله: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ وما تمنعهم في دفع العذاب عنهم بالقدرة
أو الشفاعة ﴿إِلَهُتَهُمْ﴾ وأصنامهم ﴿الَّتِي﴾ كانوا ﴿يَدْعُونَ﴾ ويعبدونها ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾
يسير ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وعذابه، لعدم قدرتهم ومكانتهم عند الله ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ بعبادتهم ﴿غَيْرَ
تَتْنِيبٍ﴾ وهلاك وتخسير.

ثم بين سبحانه عمومية عذابه لكل أمة ظالمة بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الأخذ الشديد الذي كان للأمم
المذكورة ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ وعذابه ﴿إِذَا أَخَذَ الْفَرْقَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ وعذب أهاليها وهم كفار طغاة ﴿إِنَّ
أَخْذَهُ﴾ وعذابه ﴿أَلِيمٌ﴾ وموجع ﴿شَدِيدٌ﴾ في الغاية.

عن النبي ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ يَمْهَلُ الظَّالِمَ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُغْلِقْهُ». ثم تلا هذه الآية ١.
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الأخذ للأمم الهالكة، أو في المذكور من قصصهم ﴿لَآيَةً﴾ وعبرة كاملة، وموعظة
شافية ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ لأنه المعتبر به، حيث إنه يستدل بما حاق بهم من العذاب في
الدنيا بسبب الكفر والعصيان على شدة عذاب الآخرة. وأما مَنْ يُنْكِر الآخرة، فإنه لا يتأثر بهذه
الحوادث، لأنه يستندها إلى الأوضاع الفلكية والأسباب الاتفاقية.

ثم وصف سبحانه يوم القيامة ترهيباً للقلوب بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ من
الأولين والآخرين، للحساب والجزاء ﴿وَذَلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ ومحصّر فيه جميع الخلاق
من أهل السماوات والأرضين، ليشهدوا أعمال العباد وجزاءهم عليها.
القُمي: يشهد عليهم الأنبياء والرسل ٢.

وعن أحدهما ﷺ، في هذه الآية: «فذلك يوم القيامة، وهو اليوم الموعود» ٣.
عن السجاد عليه السلام: «وَأَعْلَمَ أَنَّ مِنْ وَرَاءِ هَذَا أَعْظَمَ وَأَوْجَعُ لِلْقُلُوبِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ

١. مجمع البيان ٥: ٢٩٢، تفسير الصافي ٢: ٤٧١.

٢. تفسير القمي ١: ٣٣٨، تفسير الصافي ٢: ٤٧٢.

٣. تفسير العياشي ٢: ٣٢٢/٢٠٥٢، تفسير الصافي ٢: ٤٧٢.

مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ» يَجْمَعُ اللهُ عِزَّ وَجَلَّ فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ^١.

وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ [١٠٤-١٠٧]

ثُمَّ بَيَّنَّ شَبَحَانَهُ عِلَّةَ تَأْخِيرِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ﴾ لَعَلَّةٌ مِنَ الْعِلَلِ ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ وَانْقِضَاءَ مُدَّةٍ قَلِيلَةٍ تَقْتَضِيهَا الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ، فَإِذَا انْقَضَتْ فَلَا بُدَّ مِنْ خَرَابِ الدُّنْيَا وَقِيَامِ الْقِيَامَةِ، وَكُلُّ أَنْ قَرِيبٍ. ثُمَّ قَرَّرَ شَبَحَانَهُ عَظَمَةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، بِذِكْرِ بَعْضِ أَحْوَالِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ الْأَمْرُ الْمَهِيْبُ الْهَائِلُ، أَوْ ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ بِتَأْوِيلِ الْيَوْمِ الْمَذْكُورِ بِحِينَ، إِذَنْ ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ وَلَا تَنْطِقُ فِيهِ بِمَا يَنْفَعُهَا مِنَ الْاِغْتِيَارِ وَالشَّفَاعَةِ وَالْجَوَابِ ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وَإِرَادَتِهِ، أَوْ بِتَرْخِيصِهِ لَهَا فِي التَّكَلُّمِ. قِيلَ: إِنَّهُ فِي بَعْضِ الْمَوَاقِفِ^٢. ثُمَّ بَيَّنَّ شَبَحَانَهُ أَحْوَالَ أَهْلِ الْمَوْقِفِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ وَخَبِيثُ النَّفْسِ وَالْعَمَلِ، مُسْتَحَقٌّ لِلْعَذَابِ ﴿وَسَعِيدٌ﴾ مِنْهُمْ «سَعِيدٌ» طَيِّبُ النَّفْسِ وَالْعَمَلِ، مُسْتَحَقٌّ لِلثَّوَابِ وَالْإِكْرَامِ.

ثُمَّ كَانَهُ قِيلَ: مَا حَالُهُمْ وَشَأْنُهُمْ؟ فَأَجَابَ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ﴾ يَدْخُلُونَ وَيَسْتَقَرُّونَ، فَيَشْتَدُّ كَرْبُهُمْ وَبَلَاءُهُمْ، بِحَيْثُ يَكُونُ ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ وَصَوْتُ كَصَوْتِ الْجِمَارِ عِنْدَ رَدِّ نَفْسِهِ ﴿وَشَهِيقٌ﴾ وَصَوْتُ كَصَوْتِهِ عِنْدَ إِخْرَاجِ نَفْسِهِ.

وَقِيلَ: الزَّفِيرُ فِي الْحَقِّقِ، وَالشَّهِيقُ فِي الصَّدْرِ^٣.

وَقِيلَ: الزَّفِيرُ الصَّوْتُ الشَّدِيدُ، وَالشَّهِيقُ الصَّوْتُ الضَّعِيفُ^٤.

وَقِيلَ: الزَّفِيرُ مَا يَجْتَمِعُ فِي الصَّدْرِ مِنَ النَّفْسِ عِنْدَ الْبُكَاءِ الشَّدِيدِ؛ فَيَنْقَطِعُ النَّفْسُ، وَالشَّهِيقُ هُوَ الصَّوْتُ الَّذِي يَظْهَرُ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْكَرْبِ وَالْحُزْنِ، وَرُبَّمَا تَتَّبِعُهُمَا الْعَشْيَةُ، وَرُبَّمَا حَصَلَ عَقِيبُهُمَا الْمَوْتُ^٥. وَالْمُرَادُ وَصْفُ شِدَّةِ كَرْبِهِمْ وَتَشْبِيهِ حَالِهِمْ بِحَالِ مَنْ اسْتَوَلَتْ عَلَى قَلْبِهِ الْحَرَارَةُ، وَانْحَصَرَ فِيهِ رُوحُهُ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ يُرِيدُ نَدَامَةً، وَنَفْسًا عَالِيًا، وَبُكَاءً لَا يَنْقَطِعُ، وَحُزْنَ لَا يَنْدَفِعُ^٦.

وَقِيلَ: الزَّفِيرُ لَهَيْبُ جَهَنَّمَ، يَرْفَعُهُمْ بِقُوَّتِهِ، حَتَّى إِذَا وَصَلُوا إِلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ جَهَنَّمَ وَطَمِعُوا فِي أَنْ

٢. تفسير أبي السعود ٤: ٢٤١.

١. الكافي ٨: ٢٩/٧٣، تفسير الصافي ٢: ٤٧٢.

٤. تفسير الرازي ١٨: ٦٣.

٣. تفسير الرازي ١٨: ٦٢.

٦. تفسير الرازي ١٨: ٦٣.

٥. تفسير الرازي ١٨: ٦٢.

يُخْرِجُوا مِنْهَا أَعْيَدُوا فِيهَا، وَيُزَكُّوهُ إِلَى أَهْلِ دَرَكَاتِهَا، فَالزَّيْفَرُ أَزْيَفَاهُمْ فِي النَّارِ، وَالشَّهْقُ انْحِطَاطُهُمْ فِيهَا،^١ حَالُ كَوْنِهِمْ «خَالِدِينَ» ودانمين «فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ» وَبَقِيَا فِي عَالَمِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّ أَهْلَ الْآخِرَةِ سَمَاوَاتٍ وَأَرْضًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ»^٢، وَلِلرَّوَايَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ لَجَبَهُمْ جِبَالًا وَأودية.

وقيل: إِنَّ الْكَلِمَةَ كِنَايَةٌ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ عَنِ الدَّوَامِ؟ كَقَوْلِهِمْ: مَالَاخَ كَوَكَبٍ، وَمَا اخْتَلَفَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَمَاوَاتٌ وَأَرْضٌ وَكَوَكَبٌ، لِلنُّصُوصِ الْقَاطِعَةِ عَلَى دَوَامِ الْعَذَابِ وَالنُّعْمَةِ فِي الْآخِرَةِ وَأَبْدِيَّتِهِمَا، فَلَا مَجَالَ لِلْقُلُوبِ بِاتِّقَاعِ عَذَابِ الْكُفَّارِ لِلآيَةِ وَبَعْضِ الْوُجُوهِ الْفَاسِدَةِ. وقيل: إِنَّ الرُّادَّ: السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ الدُّنْيَوِيَّةُ^٣.

وعن الْقَمَحِيِّ: هَذَا فِي نَارِ الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ^٤. وقيل: إِنَّ الْأَبَدِيَّةَ مَفْهُومَةٌ مِنْ قَوْلِهِ: «إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ» بِنَاءً عَلَى أَنَّ (إِلَّا) بِمَعْنَى سِوَى، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي النَّارِ فِي مُدَّةٍ بَقَاءِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ سِوَى مَا يُتَجَاوَزُ عَنْ ذَلِكَ مِنَ الزُّبْدَةِ الَّتِي لَا آخِرَ لَهَا^٥. وفيه مِنَ الضَّعْفِ مَا لَا يَخْفَى، وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْاِسْتِثْنَاءَ عَلَى (حَقْبًا)، وَأَنَّ الْآيَةَ فِي بَيَانِ عَذَابِ الْكُفَّارِ فِي الْآخِرَةِ لَا فِي الْبَرَزَخِ، وَالْمَعْنَى: إِلَّا زَمَانًا شَاءَ رَبُّكَ عَدَمَ خُلُودِهِمْ فِيهَا، وَلَمْ يَشَأْ وَلَا يَشَأْ ذَلِكَ أَبَدًا، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ بَيَانُ أَنَّ خُلُودَهُمْ فِيهَا بِإِرَادَةِ اللَّهِ وَلَوْ شَاءَ لَا يُخَلَّدُهُمْ، وَلَكِنْ لَا يَشَأُ ذَلِكَ الْبَيْتَ، لِلدَّلِيلِ الْقَطْعِيِّ عَلَى خُلُودِهِمْ فِيهَا وَعَدَمِ خُرُوجِهِمْ مِنْهَا. وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ تَذْيِيلُ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ»^٦.

وقيل: إِنَّ الرُّادَّ مِنَ الْمُسْتَثْنَى مُدَّةَ أَعْمَارِهِمْ فِي الدُّنْيَا، أَوْ مُدَّةَ مَكْنِيِّهِمْ فِي الْعَبْرِ وَالْبَرَزَخِ، أَوْ فِي الْمَحْشَرِ لِلْحِسَابِ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى النَّارِ^٧. وَالْكَلُّ فَاسِدٌ.

وقيل: زَمَانُ خُرُوجِهِمْ مِنَ النَّارِ، وَاتِّقَالُهُمْ إِلَى الزَّمْهِيرِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ^٨.

وقيل: إِنَّ الرَّمَادَ اسْتِثْنَاءُ أَشْقِيَاءِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، فَإِنَّهُ لَا خُلُودَ لَهُمْ فِيهَا^٩.

وعن الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «هَاتَانِ الْآيَتَانِ - يَعْنِي: هَذِهِ الْآيَةُ، وَمَا بَعْدَهَا - فِي غَيْرِ أَهْلِ الْخُلُودِ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ وَالسُّعْدَاءِ»^{١٠}.

١. تفسير الرازي ١٨: ٦٢. ٢. إبراهيم: ٤٨/١٤. ٣. تفسير الرازي ١٨: ٦٤.

٤. تفسير الصافي ٢: ٤٧٣. ٥. تفسير القمي ١: ٣٣٨، تفسير الصافي ٢: ٤٧٣.

٦. ٧-٩. تفسير الرازي ١٨: ٦٦.

١٠. تفسير العياشي ٢: ٣٢٣/٢٠٥٤، تفسير الصافي ٢: ٤٧٣، وفيهما: مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ وَالسَّعَادَةِ.

وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ
إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ [١٠٨]

ثم بين سبحانه حال السعداء بقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ وَّحَدَّوْا رَبَّهُمْ، وبَدَّلُوا جُهِدَهُمْ في طاعته ﴿فَفِي الْجَنَّةِ﴾ يَدْخُلُونَ وَيَسْتَقَرُّونَ، حَالٌ كَوْنُهُمْ ﴿خَالِدِينَ﴾ ودَانِمِينَ ﴿فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ وهو يعطيهم ذلك ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ وَيُفَضَّلُ عَلَيْهِمْ تَفَضُّلاً غَيْرَ مَقْطُوعٍ عَنْهُمْ أَبَداً.

ويأتي في الآية كُلُّ مَا ذُكِرَ في سابقتها من الوجوه، لدفع المنافاة بين تقييد الدوام فيها بدوام السماوات والأرض والاستثناء، وبين ما عُلِمَ من الأدلة القطعية من الدوام الأبدى بلا استثناء. وقيل في الآية: إِنَّ السُّعْدَاءَ قد يُرْفَعُونَ إلى العرش، ومقام الرضوان، والمنازل الرفيعة التي لا يعلمها إِلَّا الله^١.

وفيه: إِنَّ الخروج من الجنة ولو أنا ما شأفٍ للأدلة القطعية على الخلود فيها. وأما مقام الرضوان والمنازل الرفيعة، فكلُّها في الجنة ليس بخارج منها.

وعن الصادق عليه السلام أَنَّهُ قال: «قال الجاهل بعلم التفسير: إِنَّ هذا الاستثناء من الله إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ دَخَلَ الجنةَ والتَّارَ، وذلك أَنَّ الْفَرِيقَيْنِ جميعاً يَخْرُجَانِ مِنْهُمَا فَتَبَقَيَانِ وليس فيهما أَحَدٌ وَكَذَّبُوا، فَإِنَّ الله تعالى ليس يُخْرِجَ أَهْلَ الجنةَ وَلَا كُلَّ أَهْلِ التَّارِ مِنْهُمَا أَبَداً، كيف يَكُونُ ذلك وقد قال الله في كتابه: ﴿مَا كَيْفِينَ فِيهِ أَبَداً﴾^٢ ليس فيه استثناء؟»^٣.

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ
وَإِنَّا لَمَوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ [١٠٩]

ثم أَنَّهُ تعالى بعد بيان سوء عاقبة المُشْرِكِينَ المَاضِينَ، وإبتلائهم بالعذاب، وعدم انْتِفَاعِهِمْ بِأَلْهَتِهِمْ في دفعه، وذَكَرَ حال الأشقياء والسُّعْدَاءِ في الآخرة، بين مُساواة حال المُشْرِكِينَ المُعَاصِرِينَ للنبي ﷺ وألْهَتِهِمْ، مع السَّابِقِينَ الْمُهْلَكِينَ وألْهَتِهِمْ، في سوء العاقبة وإبتلائهم بالعذاب، وعدم إغناء أَلْهَتِهِمْ عَنْهُمْ، تَسْلِيَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَتَشْهِيراً لَهُ بِالنَّصْرِ، وَتَهْدِيداً لِلْمُشْرِكِينَ بقوله: ﴿فَلَا تَكُ﴾ يا مُحَمَّدُ، بعد ما أنزل إليك من القرآن، وأطلعت بما فيه من قَصَصِ الْأُمَمِ، كَانْنَا ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ وَشَكٍّ ﴿مِنْ﴾ حال

٢. الكهف: ١٨/٣.

١. تفسير الرازي ١٨: ٦٧.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢٢٣/٢٠٥٣، تفسير الصافي ٢: ٤٧٣.

﴿مَا يَغْبُدُ هَؤُلَاءُ﴾ المشركون المعاصرون لك من الأصنام، في أنها لا تدفع عنهم شيئاً من العذاب، واعلم أنهم ﴿مَا يَغْبُدُونَ﴾ الأصنام ﴿إِلَّا كَمَا﴾ كان ﴿يَغْبُدُ﴾ ها ﴿آبَاؤُهُمْ﴾ وكبرائهم الذين بينت لك سوء عاقبتهم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ بلا تَمَآوَتْ، فكما كانت عبادة قُدمانهم إياها عن جَهْلٍ وتقليد بلا تحقيق وبرهان، كانت عبادة هؤلاء المشركين الموجودين في عصرك لها كذلك ﴿وَإِنَّا﴾ كما وَفَّيْنَا نَصِيبَ آبَائِهِمْ مِنَ الرِّزْقِ والسَّعة والعمر، وإرسال الرُّسُل، وإنزال الكُتُب، وإتمام الحُجَّة عليهم في الدنيا، وإنزال العذاب عليهم فيها وفي الآخرة، والله ﴿لَمُوقِفُهُمْ﴾ وسعطوهم كاملاً ﴿نَصِيبُهُمْ﴾ وحظهم المعين لهم من المذكورات، حال كَوْن ذلك النَصِيب ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ منه مثقال ذرَّة، ويكون حال هؤلاء كحال قُدمانهم بدؤاً وختماً بلا تَمَآوَتْ. فَلْيَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ، وكُن أنت على ما أنت عليه من التبليغ، والقيام بوظيفه الرِّسالة.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ [١١٠]

ثم أنه تعالى بعد تسلية نبيه ﷺ في إنكار المشركين التوحيد، ومعارضتهم له فيه، سلاه سبحانه في إنكارهم صدق كتابه بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ فمن قومه مَنْ آمَنَ به، ومنهم مَنْ أنكر صدقه، كما اختلف قومك في شأن كتابك أنه من عند الله أو من اختلاق البشر، فلا بُدَّ يا محمَّد باختلاف قومك وتكذيبهم كتابك، فإنهم على سيرة مَنْ قبلهم، واضرب كما صبر موسى ﷺ. عن الباقر عليه السلام: «اختلفوا كما اختلفت هذه الأمة [في الكتاب]، وسيختلفون في الكتاب الذي مع القائم الذي يأتيهم به، حتَّى يُنْكِرَهُ نَاشٌ مِنْهُمْ، فَيَقْدِمُهُمْ وَيَضْرِبُ أَعْنَاقَهُمْ»^١.

ثم بيّن الله شِدَّةَ استحقاقهم العذاب بقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ مِنْ وَغْدِهِ أو حُكْمِهِ بتأخير عذاب هذه الأمة، أو حُكْمِهِ بين المختلفين إلى القيامة، لحكمة داعية إليه، أو إخباره بسبق رَحْمَتِهِ غَضَبِهِ ﴿لَقَضَى بَيْنَهُمْ﴾ وحكم عليهم في الحال بعذاب الاستئصال، أو بالتمييز بين الْمُحَقِّقِ والمُبْطِلِ من قومك بإهلاك مُكذِّبِي كتابك، مع أنهم ليسوا على يقين من كذبه ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ﴾ عَظِيمٍ مِنْ صِدْقِهِ، وتريد ﴿مِنْهُ﴾ مع وَضُوح دَلَالَتِهِ ﴿مُرِيبٍ﴾ ذلك الشك، وموقع لقلوبهم في اضطرابٍ وتَشْوِيشٍ، مع أن الحقَّ الاطمئنان به.

وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لَيُؤْفِقْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [١١١]

ثم أنه تعالى بعد ذكر الاختلاف في صدق كتابه، وعد المصدقين وأوعد المكذبين بقوله: ﴿وَإِنْ كُلًّا﴾ من المصدقين لكتابك والمكذبين له ﴿لَمَّا لَيُؤْفِقْنَهُمْ﴾ وليعطيهم ﴿رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ وجزاء تصديقهم وطاعتهم، وعقوبة تكذيبهم وعصيانهم، حسبما يستحقون ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من خيرٍ وشرٍ ﴿خَبِيرٌ﴾ ومطلع بحيث لا يخفى عليه جلالته ودقائقه، ومقدار ما يستحقون من الثواب والعقاب، فلا ينقص من حقوق كل منهم شيء.

وقيل: إنه تعالى لما أخبر بتوفية الأجرية، أكده بسبعة أنواع من التأكيدات: كلمة (إِنْ) وكلمة (كُلُّ)، واللام الداخلة على خبر (إِنْ)، وماء الموصولة، والقسم المضمر في (لَيُؤْفِقْنَهُمْ)، واللام الداخلة على جوابه، والثون المؤكدة. فجميع هذه التأكيدات تدل على أن أمر الربوبية والعبودية، لا يتم إلا بالبعث والقيامة والعقاب والثواب^١.

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا تَزْكُتُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَنَمَسْكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ [١١٢ و ١١٣]

ثم أنه تعالى بعد تسليية النبي ﷺ في تكذيب نبوته وكتابته، ومعارضة المشركين له، أمره بالثبات على دينه ودعوته بقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ يا محمد، واثبت على ما أنت عليه من الدين والدعوة إليه. وعن الصادق عليه السلام: «أَيُّ افْتِرَاقٍ إِلَى اللَّهِ بِصِحَّةِ الْغَزْمِ»^٢ ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ به من ربك، وعلى النحو الذي أراد منك، غير عادل عنه، ولا متوانٍ فيه ﴿وَمَنْ تَابَ﴾ كذا ﴿مَنْ تَابَ﴾ من الشرك والعصيان، وكان ﴿مَعَكَ﴾ في الإيمان، وتبعك في العقائد والأعمال.

وعن ابن عباس: ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية أشد عليه من هذه الآية، ولهذا قال ﷺ: «شَيْئَتْنِي سُورَةُ هُودٍ وَأَخَوَاتُهَا»^٣.

وعن بعض أن قال: رأيت النبي ﷺ في النوم، فقلت له: رُوي عنك أنك قلت: «شَيْئَتْنِي سُورَةُ هُودٍ وَأَخَوَاتُهَا». فقال: نعم، فقلت: وبأي آية؟ قال: «بقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾»^٤.

ثم خص سبحانه الخطاب بالمؤمنين بقوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ ولا تتجاوزوا عن حدود الله وأوامره

٢. جوامع الجامع: ٢١١، تفسير الصافي ٢: ٤٧٤.

١. تفسير الرازي ١٨: ٧٠.

٣ و ٤. تفسير الرازي ١٨: ٧١.

وَنَوَاهِيهِ بِطَرَفِي الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ، وَلَا تُدْخِلُوا طَاعَةَ أَهْوَيْتِكُمْ فِي طَاعَةِ رَبِّكُمْ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: تَوَاضَعُوا لِلَّهِ، وَلَا تَتَكَبَّرُوا عَلَى أَحَدٍ^١. وقيل: يعني: لا تعدلوا عن طريق شكره والتواضع له عند عظيم نِعَمِهِ^٢ «إِنَّهُ» تعالى «بِمَا تَعْمَلُونَ» من التَّعَدِّي والتَّقْصِيرِ «بِصِيَرٍ» ومُطْلَعِ غَايَتِهِ، فيجازيكم عليه، فَاتَّقُوا فِي الْمَحَافَظَةِ عَلَى حُدُودِهِ. وفيه غَايَةُ التَّهْدِيدِ «وَلَا تَرْكَبُوا» وَلَا تَسْكُنُوا «إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ والعُصْيَانِ، وَلَا تَمِيلُوا إِلَيْهِمْ بِالْمَحَبَّةِ والنُّصْحِ وَلَوْ قَلِيلًا. وعَنْهُمُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: «الرُّكُونُ الْمَوَدَّةُ وَالنَّصِيحَةُ وَالطَّاعَةُ»^٣.

وعن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «هُوَ الرَّجُلُ يَأْتِي السُّلْطَانَ، فَيُحِبُّ بَقَاءَهُ إِلَى أَنْ يُدْخِلَ يَدَهُ فِي كَيْسِهِ فَيُعْطِيهِ»^٤. أقول: الظَّاهِرُ من السُّلْطَانِ السَّلَاطِينِ الْمُعَاصِرِينَ لَهُمُ الْغَاصِبُونَ لِحَقِّهِمْ. وعن ابن عباس: لَا تُدَاهِنُوا الظَّلْمَةَ^٥. «فَتَمَسَّكُمُ» وَتُصِيبَكُمُ «النَّارُ» فِي الْآخِرَةِ، «وَالْحَالُ أَنَّهُ» «مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» وَمِمَّا سِوَاهُ «مِنْ أَوْلِيَاءٍ» وَأَعْوَانٍ يَدْفَعُونَ عَنْكُمُ الْعَذَابَ «ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ» مِنْ قِبَلِ اللَّهِ، لِشِدَّةِ اسْتِحْقَاقِكُمْ.

عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَمَا أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْهَا خُلُودًا، وَلَكِنْ قَالَ: «فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ»، فَلَا تَرْكَبُوا إِلَيْهِمْ»^٦. قَالَ السَّيِّدِي: إِنَّ الرُّكُونَ [الْمَنْهَى عَنْهُ] هُوَ الرِّضَا بِمَا عَلَيْهِ الظَّلْمَةُ مِنَ الظُّلْمِ، وَتَحْسِينُ طَرِيقَتِهِمْ وَتَرْبِيئُهَا عَنْدهُمْ وَعِنْدَ غَيْرِهِمْ، فَأَمَّا مَدَاخِلَتُهُمْ لِدَفْعِ ضَرَرٍ، أَوْ اجْتِنَابِ مَنَفْعَةٍ عَاجِلَةٍ، فغَيْرُ دَاخِلٍ فِي الرُّكُونَ إِلَيْهِمْ^٧. فإِذَا كَانَ الرُّكُونَ إِلَيْهِمْ مُوجِبًا لِمَسِّ النَّارِ، فَكَيْفَ حَالُ أَنْفُسِهِمْ؟

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ [١١٤]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ أَمْرِهِ بِالِاسْتِقَامَةِ، وَنَهْيِهِ عَنِ التَّعَدِّي عَنْ حُدُودِهِ وَالرُّكُونَ إِلَى الْكُفَّارِ، وَالتَّهْدِيدِ عَلَيْهِ، أَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ الْعِبَادَاتِ، وَأَتَمُّ الرُّكُونَ وَالِاقْتِبَالُ إِلَى اللَّهِ بِقَوْلِهِ: «وَأَقِمِ» يَا مُحَمَّدُ وَأَذِ «الصَّلَاةَ» الَّتِي هِيَ عَمُودُ دِينِكَ، وَمِعْرَاجُ أَمْتِكَ فِي «طَرَفِي النَّهَارِ» وَهُمَا الْعَدَاةُ وَالْعَشِيَّةُ «وَزُلْفَا» وَسَاعَاتُ قَرِيبَةِ مِنَ النَّهَارِ، كَانَتْ «مِنْ اللَّيْلِ».

١. مجمع البيان ٣٠٦، تفسير الصافي ٢: ٤٧٥.

٥. مجمع البيان ٣٠٦، عن السدي.

١. تفسير الرازي ١٨: ٧١.

٤. الكافي ١٢/١٠٨، تفسير الصافي ٢: ٤٧٥.

٦. تفسير العياشي ٢: ٢٠٥٩/٣٢٤، تفسير الصافي ٢: ٤٧٥.

٧. تفسير الرازي ١٨: ٧٢، والقول منسوب إلى المحققين.

أحدهم، فما يظنُّ أحدهم إذا كانَ في جسده دَرَنٌ نَمَّ اغْتَسَلَ في ذلك النَّهْرِ خَمْسَ [مَرَّاتٍ في اليوم] أكانَ يَبْقَى في جسده دَرَنٌ؟ فكذلكَ اللهُ الصَّلَواتُ الخَمْسَ [الْأُمِّيَّة]¹.
وعن عليٍّ عليه السلام: «أَنَّ اللهَ يُكَفِّرُ بِكُلِّ حَسَنَةٍ سَيِّئَةً». [نَمَّ] تلا هذه الآية².

نسي قصة أبي اليسر وروّت العامة في سبب نزول الآية: أن أبا اليسر الأنصاري كان يبيع التمر، فأنته امرأة اليسر فأعجبته، فقال لها: إن في البيت أجود من هذا التمر، فذهب بها إلى داخل البيت، فضمها إلى نفسه وقبلها، وفعل بها كُلَّ شيءٍ إِلَّا الجماع، فقالت له: اتقِ الله، فتركها ونديم، فأتى أبا بكر فأخبره، فقال: اشتر على نفسك وثب إلى الله، فلم يصبر فأتى عمر، فقال له مثل ذلك، فلم يصبر، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما فعل، فقال: «أنتظر أمرَ رَبِّي، فاشتر على نفسك»، فلما صلى العصر نزلت هذه الآية، فقال ﷺ: «صليت العصر معنا؟» قال: نعم، فقال: «أذهب، فإنها كفارة لما فعلت»، فقال الحاضرون: هذا له خاصة أم للناس عامة؟ قال: «بل للناس كافة»³.
ثم حثَّ سبحانه على العمل بالتكاليف بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من الاستقامة على الدين، وترك الركون إلى الظالمين، وإقامة الصلاة ﴿ذُكْرَى﴾ وعِظَةٌ ﴿لِلذَّاكِرِينَ﴾ والمتعطين.

وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ [١١٥ و ١١٦]

ثم أكد سبحانه ذلك بالأمر بالصبر والوعد بالأجر بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ يا محمد، على مشاق التكليف، وأخيل نفسك على الطاعة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ﴾ ولا يبطل ﴿أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل يؤفيهم أجور أعمالهم على حسب استحقاقهم.

ثم أنه تعالى بعد أمر النبي ﷺ والمؤمنين بالاستقامة على الدعوة والإرشاد، وعدم الركون إلى الكفار، والركون إلى الله بالقيام إلى الصلاة، والصبر على مشاق التكليف، نبه على أن رفع الكفر والفساد لا يكون إلا بالدعوة إلى الحق، والنهي عن المنكر بقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهلا وُجد من الأمم الهالكة السابقة على عصركم فريق ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ وأصحاب فضل وخير ﴿يَنْهَوْنَ﴾ المفسدين ﴿عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ والعصاة عن العصيان في الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وغير

شِرْذِمَةٌ^١. والاستثناء راجع إلى النفي المستفاد من كلمة التحضيض، والمعنى: ما كان من القرون غير قليلٍ من ذوي عقلٍ وفُضْلٍ.

وقيل: إن الاستثناء منقطع، والمعنى: ولكن قليلاً ﴿وَمِنْ أَتَجَنَّبُنَا مِنْهُمْ^٢﴾. وعليه يكون حاصل المفاد أنه لم يكن في الأمم السابقة الطاغية رجالاً صلحاء ينهونهم عن المنكر، حتى لا ينزل عليهم العذاب، نعم قليل منهم نهوهم عن المنكر، فنجوا من العذاب، وهم أتباع الأنبياء.

وأما غيرهم فتركوه ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بارتكاب الفساد، وترك النهي عن المنكر ﴿مَا أَتَرَفُوا﴾ وأنعموا، أو أطلقوا وتركوا ﴿فِيهِ﴾ من الشهوات واللذات التي أثروها على رضا الله تعالى والنعم الأخروية ﴿وَكَانُوا﴾ لذلك ﴿مُجْرِمِينَ﴾ وصاروا عصاة طاغين، ومستحقين لعذاب الاستئصال، مبطلين بأشد النكال. أما جهالهم فسبب العصيان والطغيان، وأما علماؤهم فسبب المداواة وترك النهي عن المنكر.

رُوي أن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يزوا المنكر بين ظهرائهم وهم قادرون على أن ينكروا فلا ينكروا، فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة^٣.

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ [١١٧]

ثم تبه سبحانه على أن تعذيبهم كان بمقتضى عدله بقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ وما صح له ﴿لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ بالعذاب ﴿بِظُلْمٍ﴾ منه لهم، أو بظلمهم على أنفسهم بسبب الشرك والعصيان ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فيما بينهم، متصفون في حقوق إخوانهم.

عن النبي ﷺ: «﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ يُنصَفُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ»^٤. حاصل الآية: أن الله لا يهلك قوماً بمجرد الشرك واعتقاد الباطل، وإنما يهلكهم إذا سَعَوْا في الفساد، وظلموا الناس، فإن من رحمته تعالى أن يُسامح في حقوق نفسه دون حقوق الناس.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَجَعَ
رَبُّكَ وَلِلَّهِ خَلْقُهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ

أَجْمَعِينَ [١١٨ و ١١٩]

١. الشِرْذِمَةُ: الجماعة القليلة من الناس.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٢٠٠.

٣. تفسير روح البيان ٢: ٢٠٠.

٤. مجمع البيان ٥: ٣٠٩، تفسير الصافي ٢: ٤٧٧.

ثم نبه سبحانه على أن أمره بدعوة الناس إلى التوحيد ونهيمهم عن المنكر، ليس لعجز نفسه عن حملهم على الإيمان؛ بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ بالمشيئة التكوينية إيمانهم ﴿لَجَعَلَ النَّاسَ﴾ في جميع الأزمنة ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وجماعة متفقة على دين الحق وألزمهم وقهرهم على ملة التوحيد، ولكن لم يشأ ذلك لحكمة داعية إلى إيكالهم إلى اختيارهم ﴿وَقَدْ﴾ لذا ﴿لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في العقائد والأخلاق في القرون والأعصار، فتأهوا في شعب الباطل ومسالك الضلال ﴿إِلَّا مَنْ رَجَعَ رَبُّكَ﴾ ووقفه للاختداء إلى الحق، وأرشده إلى الصراط المستقيم ﴿وَلِذَلِكَ﴾ المذكور من الرحمة ﴿خَلَقَهُمْ﴾ وللإختفاء إلى الحق بفصله أوجدتهم.

عن الصادق عليه السلام^١، في هذه الآية: «الناس مختلفون في إصابة القول، وكلهم هالك، ﴿إِلَّا مَنْ رَجَعَ رَبُّكَ﴾ وهم شيعةنا، ولرحمته^٢ خلقهم، [وهو قوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾]، يقول: لطاعة الامام عليه السلام^٣. وعنه عليه السلام: «خلقهم ليفعلوا ما يستوجبون به رحمته، فيرحمهم»^٤.

وعن الباقر عليه السلام قال: «﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في الدين ﴿إِلَّا مَنْ رَجَعَ رَبُّكَ﴾ يعني: آل محمد و أتباعهم. يقول الله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يعني: أهل الرحمة لا يختلفون [في الدين]»^٥.

وقيل: إن لام (لذلك) لام العاقبة، واسم الإشارة إشارة إلى الاختلاف بمعنى المخالفة^٦ وضمير ﴿خَلَقَهُمْ﴾ راجع إلى عموم الناس، والمعنى: وكان عاقبة خلقهم المخالفة للحق.

وقيل: إن اسم الإشارة راجع إلى المذكور من الرحمة والاختلاف، والمراد: أنه خلق أهل الرحمة للرحمة، وأهل العذاب للاختلاف^٧.

عن ابن عباس قال: خلق [الله] أهل الرحمة لئلا يختلفوا، وأهل العذاب لأن يختلفوا، وخلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النار وخلق لها أهلاً^٨.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وحقت، أو وصل وعيده إلى عباده، أو مضى حكمه وقضاؤه من قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ في القيامة ﴿جَهَنَّمَ﴾ البتة ﴿مِنْ﴾ الشياطين وعصاة ﴿الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

عن القمي عليه السلام: «وهم الذين سبق الشقاء لهم، فحق عليهم القول أنهم للنار خلقوا، وهم الذين حقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون»^٩.

١. في الكافي: عن الباقر عليه السلام.

٢. في النسخة: ولرحمتهم.

٣. التوحيد: ١٠٤/٤٠٣، تفسير الصافي ٢: ٤٧٧.

٤. الكافي ١: ٨٣/٣٥٥، تفسير الصافي ٢: ٤٧٧.

٥. تفسير القمي ١: ٣٣٨، تفسير الصافي ٢: ٤٧٨.

٦. تفسير القمي ١: ٣٣٨، تفسير الصافي ٢: ٤٧٨.

٧. تفسير الرويحي ١٨: ٧٩.

٨. تفسير روح البيان ٤: ٢٠٢.

٩. تفسير القمي ١: ٣٣٨، تفسير الصافي ٢: ٤٧٨.

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا
عَامِلُونَ * وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ [١٢٢-١٢٠]

ثم أنه تعالى بعد بيان كثير من قصص الأنبياء وأمرهم، نبه على فوائده بقوله: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ﴾ ونلوا
﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد شيئاً ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ وبعضاً من أخبارهم ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ وتقوي به
قلبك في القيام بوظيفة الرسالة، وتزيد به يقينك بأنك مؤيد من ربك وتطيب به نفسك، وتعلم أن ما
يفعل بك من التكذيب والإيذاء فقد فعل بغيرك من الأنبياء. وفيه تسلية عظيمة، فإن من رأى لنفسه
شركاء في المصيبة هانت عليه، وسلا قلبه.

﴿وَجَاءَكَ﴾ من قبلنا ووخينا ﴿فِي هَذِهِ﴾ السورة؛ كما عن ابن عباس^١، أو هذه الأنبياء المقتصة
عليك، والوعد والوعيد، أو في هذه الآيات التي ذكرت قبل هذا الموضع، أو في هذه الدنيا ﴿الْحَقُّ﴾
والتيان الصدق الذي هو دليل نبوتك، أو البرهان القاطع على التوحيد وسائر المعارف، أو بيان أن
الخلق يجازون بأنصابتهم المذكورة في قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُؤْتَوُهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾، ﴿و﴾ فيه
﴿مَوْعِظَةٌ﴾ ونصيحة ﴿وَذِكْرَى﴾ ونبيهة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك وبكنايك، لأنهم المتعظون.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك ولا يصدقون كتابك، ولا يستفحون بالإعذار والإنذار، والوعد
والوعيد، والوعظ والتهديد: ﴿أَعْمَلُوا﴾ واجتهدوا في تحركهم، وتكذيب كتاب ربكم، أو في إهلاكهم
والإضرار بي ﴿عَلَى﴾ قذر ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ واشتيطاعتكم، أو المراد: لا تقصروا ولا تتوانوا فيما تعزمون
عليه من الإخلال في أمر رسالتي، على حالكم الذي أنتم عليه ﴿إِنَّا﴾ أيضاً ﴿عَامِلُونَ﴾ ومبالغون في
أداء الرسالة، ومجدون في إحياء الحق وإماتة الباطل، على قدر وسعنا، أو على ما نحن عليه من
الحال. القمي: أي تعاقبكم^٢ ﴿وَانْتَظِرُوا﴾ بنا الدائرة، أو خذلانكم، أو نزول العذاب عليكم كما نزل
على الذين من قبلكم ﴿إِنَّا﴾ أيضاً ﴿مُنْتَظِرُونَ﴾ نصرنا من قتل ربنا، أو نزول العذاب عليكم.

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَاغْبِذْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ
وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [١٢٣]

ثم أنه تعالى بعد ما أخبر نبيه ﷺ بقصص الأنبياء وأمرهم، وأمره بإظهار عدم المبالاة بمكاند
الكفار، أعلن بكمال علمه وسعة قدرته، وأمر نبيه ﷺ بالقيام بوظائف عبوديته ورسالته، والتوكل

عليه بقوله: ﴿وَفِي غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ويختص به العلم بخفائيهما، لا يشركه فيه غيره، ولا تخفى عليه خافية ﴿وَالْيَهِ﴾ تعالى وحده ﴿يُزَجِّعُ الْأَمْرُ﴾ المتعلق بعوالم الوجود ﴿كُلُّهُ﴾ من الإيجاد والإعدام، والإماتة والإحياء، والتنمية والتربية، وإرسال الرُّسل، وتوفيق النَّاس وهدايتهم إلى الحقِّ وإضلالهم عنه، ونُصر الرُّسل وخذلان معارضيههم، أو المراد: أَنَّهُ إِلَيْهِ تَعُودُ عَوَاقِبُ الْأُمُور فِي الْقِيَامَةِ، كما أَنَّهُ مُصَدِّرُ جَمِيعِهَا، فَهُوَ يُثَبِّتُكَ عَلَى طَاعَتِكَ وَتَبْلِيغِكَ، وَيُعَاقِبُ أَعْدَاءَكَ عَلَى عَدَمِ الْإِيمَانِ بِكَ وَمُعَارَضَتِكَ، فَإِذَا كَانَ رَبُّكَ كَذَلِكَ ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ حَقَّ عِبَادَتِهِ، وَأَطِعه حَقَّ طَاعَتِهِ، وَاسْتَقِمَّ عَلَى تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ وَمُكَابَدَةِ أَعْدَائِهِ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وَفَوِّضْ أُمُورَكَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ نَاصِرُكَ وَكَافِيكَ وَعَاصِمُكَ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أَنْتَ وَهَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ، فَإِنَّ الْغَفْلَةَ لَا تَجُوزُ عَلَى الْعَالَمِ بِغَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَيُجَازِيكَ وَإِيَاهُمْ عَلَى حَسَبِ الْأَعْمَالِ وَالْإِسْتِحْقَاقِ.

رُوي أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ خَاتَمَةُ التَّوْرَةِ^١.

عن الباقر (عليه السلام): «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ هُودٍ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ، بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زُمَرَةِ النَّبِيِّينَ، وَلَمْ تُعْرِفْ لَهُ حَظِيئَةُ عَمَلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^٢.

الحمد لله على التوفيق لإتمام تفسير سورة هود، ونسأله التوفيق لتفسير ما يتلوها بمُحمَّدٍ وآله الطَّيِّبِينَ.

في تفسير سورة يوسف عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ [١]

ثُمَّ لَمَّا حَتَمَ اللَّهُ شِجَارَةَ هُودٍ بِذِكْرِ كَمَالِ عِلْمِهِ وَسَعَةِ قُدْرَتِهِ، وَأَمَرَ نَبِيَّهِ ﷺ بِالْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، أَرَدَ فَهَا بِسُورَةِ يُوسُفَ لِمَا فِيهَا مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَمِنْ عِبَادَةِ يُوسُفَ وَتَوَكُّلِهِ وَتَنَاجُجِهَا، فَابْتَدَأَهَا عَلَى دَأْبِهِ بِقَوْلِهِ: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، ثُمَّ افْتَتَحَهَا بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَاتِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿الر﴾ قِيلَ: هِيَ رَمَزٌ مِنْ: أَنَا اللَّهُ أَرَى صَنِيعَ إِخْوَةِ يُوسُفَ، وَمَا جَرَى عَلَيْهِ، أَوْ أَرَى مَا لَا يَرَى الْخَلْقُ^١.

وعن الصادق عليه السلام: «يعني: أنا الله الرؤوف»^٢.

ثُمَّ وَصَفَ كِتَابَهُ الْعَظِيمَ بِقَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ﴾ الْآيَاتُ أَوِ السُّورَةُ ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ وَالْقُرْآنَ الطَّاهَرَ أَمْرَهُ مِنْ كَوْنِهِ كَلَامَ اللَّهِ، لِدَلَالَةِ مَا فِيهِ مِنْ وَجْهِ الْإِعْجَازِ، أَوِ الْمُظْهِرِ لِلْمَعَارِفِ وَالْأَسْرَارِ وَالْأَحْكَامِ، أَوِ الْمُرَادِ: تِلْكَ الْآيَاتُ آيَاتٌ مَكْتُوبَةٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ [٣ و ٢]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ مَدْحِ كِتَابِهِ بِالشَّرَفِ الذَّاتِيِّ، وَصَفَهُ بِالشَّرَفِ الْإِضَافِيِّ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ إِلَى النَّبِيِّ الصَّادِقِ بِتَوْسِطِ جِبْرِيلَ، حَالِ كَوْنِهِ ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بِلُغَتِكُمْ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مَضَامِينَهُ، وَتَفْهَمُونَ مَعَانِيَهُ، حَتَّى تَتِمَّ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةُ، وَلَا يَبْقَى لَكُمْ الْعُذْرُ فِي ضَلَالَتِكُمْ، بَأَنْ تَقُولُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِلُغَتِنَا وَمَا خَاطَبَنَا اللَّهُ بِهِ.

ثُمَّ زُويَ أَنَّ جَمْعًا مِنْ أَجْبَارِ الْيَهُودِ قَالُوا لِلرُّسُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: سَلُوا مُحَمَّدًا لِمَ انْتَقَلَ [أَل] بِعَقُوبٍ مِنْ

الشام إلى مصر، وعن قصة يوسف؟ فنزلت^١.

وعن سعيد بن جبير: لما نزل القرآن على رسول الله ﷺ، وكان يتلوه على قومه، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا فنزل قوله^٢: ﴿تَخُنْ نَقْصُ﴾ وتلوا ﴿عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وأنفع الأخبار، لكثرة ما فيه من العبر والحكم والعجائب والفوائد التي تصلح للدين والدنيا، كسير الملوك والممالك، ومكر النساء، والصبر على أذى الأعداء، والتجاوز عنهم بعد القدرة عليهم، وغير ذلك. وقيل: إن المراد أن هذه القصة ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا﴾ وبسبب إيحائنا ﴿إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾.

ثم علل سبحانه كون علمه بها بسبب الوحي بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ والذاهلين عنها.

قيل: إنما عبر سبحانه عن عدم علمه بالفتلة، إجلالاً لشأنه^٣. ويمكن كون التعبير على وجه الحقيقة، لأن جميع القصة كان بمظهره ومزاة ﷺ في عالم الأشباح، وبعد انتقاله إلى هذا العالم ذهل عنها لاستغراقه في التوجه إلى الله وعبادته، وإرشاد الخلق وهدايتهم.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ [٤]

ثم شرع سبحانه في القصة بقوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ بعد اثنيائه من النوم ﴿لَأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ﴾ في المنام ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾.

ثم كأنه قيل له: كيف رأيتهم؟ فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ وخاضعين.

وإنما ذكر الشمس والقمر، مع كونهما من الكواكب، لإظهار شرفهما. وإنما أخرهما في الذكر للإشارة إلى تأخر رؤيتهما عن رؤية الكواكب كما تأخر ثلثاها أوييه عن ثلثاها أخويه. وإنما أرجع ضمير العقلاء إلى الكواكب لإسناد السجدة: التي هي فغل العقلاء، إليها، أو للإشعار بكون الأجرام الفلكية حية عاقلة؛ كما عليه الفلاسفة.

عن وهب: أنه قال: رأى يوسف؛ وهو ابن سبع سنين، أن إحدى عشرة عصاً طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهية الدائرة، وإذا عصاً صغيرة وثبت عليها وابتلعتها، فذكر ذلك لأبيه، فقال: إنك أن تذكر هذا لإخوتك، ثم رأى وهو ابن اثنتي عشرة سنة - وقيل: ابن عشر سنين ليلة الجمعة والقدر^٤ -

١. جوامع الجامع: ٢١٣، تفسير الصافي ٣: ٧، تفسير الرازي ١٨: ٨٣، تفسير روح البيان ٤: ٢٠٧.

٢. تفسير الرازي ١٨: ٨٤.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٢١٠.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٢١٢.

الشَّمْسُ والقَمَرُ والكَوَاكِبَ تسجد له فقصّها على أبيه^١.

وعن الباقر ﷺ: «رأى الرؤيا وهو ابنُ تسع سنين»^٢.

عن جابر [بن عبدالله] قال: أتى النبي ﷺ رجُلٌ من اليهود يُقال له بشان، فقال: يا محمد، أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف ساجدةً له، ما أسماؤهن؟ فلم يجبه النبي ﷺ يومئذٍ في شيء. فنزل جبرئيل فأخبر النبي ﷺ بأسمائها، فبعث النبي ﷺ إلى بشان، فلما أن جاءه قال النبي ﷺ: «هل أنت مسلمٌ إن أخبرتك بأسمائها؟» قال: نعم، فقال له النبي ﷺ: «جوبان - وفي نسخة: جربان - والطارق، والذبال، وذو الكيفين، وقايس^٣، ووثاب، وعمودان، والفيلق - وفي رواية: والفليق - والمصيح، والصدوح - وفي رواية: والضروح -، وذوالفروج - وفي رواية: والفزع -، والضياء، والنور، رآها في أفق السماء ساجدةً له».

وفي رواية: «أنه رآهن نزلن من السماء وسجدن له». فقال بشان: والله إن هذه لأسماؤها، ثم أسلم^٤. أقول: المراد بالضياء والنور الشمس والقمر.

وقيل: إنه ﷺ رأى أنه على جبلٍ شامخ، حوله أنهار جارية وأشجار خضرة، فرأى الكواكب سجدن له^٥.

قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ

لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ [٥]

فلما ذكرها لأبيه، وكان شديد الحب له ولأخيه بنيامين، وعالمًا بشدة حسد إخوته عليه ﴿قَالَ﴾ إشفاقاً عليه: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ إن هذا أمر مُشْتَتٍ يجمعه الله من بعد - على رواية جابر^٦ - ولكن ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ ولا تخبرهم بها، فإنهم يعرفون تعبيرا ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ﴾ ويحتالوا في إهلاكك ﴿كَيْدًا﴾ عظيماً ويَدْبِرُوا تدبيراً خفياً عنك، لا تقدر على دفعه.

ثم أكد نهيه بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ﴾ كأننا من كان ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداء، فلا تستبعد صدور قتلك من إخوتك الذين هم أولاد الأنبياء ومربوبون في حجر النبي، مع أنك الأخ النسبي والدني لهم.

ثقل أنه لما بلغ إسحاق إلى مائة وثمانين [سنة] من العمر، وصى إلى يعقوب بأن يخرج إلى خاله

١. تفسير الرازي ١٨: ٨٧.

٢. في الخصال وتفسير الصافي: قابس.

٣. الخصال: ٢/٤٥٤، تفسير روح البيان ٤: ٢١٢، تفسير الصافي ٣: ٥.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٢١٢.

٥. الرواية المتقدمة الواردة عن الخصال.

٦. تفسير القمي ١: ٣٤٠، تفسير الصافي ٣: ٦.

في جانب الشَّام حَذَرًا من أن يقتله أخوه عيص حسدًا، لَأنَّه أقسم بالله^١ أن يقتل يعقوب، فانطلق يعقوب إلى خاله ليا بن فاهر وأقام عنده، وكانت لخاله إبتان إحداهما لايا وهي كبراهما، والأخرى راحيل وهي صُغراهما، فخطب يعقوب إلى خاله أن يُزوجه إحداهما، فقال له خاله: هل لك مال؟ قال: لا، ولكن أعمل لك، فقال: نعم، صدأقها أن تخدمني سبع سنين، فقال يعقوب: أخدمك سبع سنين على أن تُزَوِّجني راحيل، قال: ذلك بيني وبينك. فرعى له يعقوب سبع سنين، فزوجه الكبرى وهي لايا، قال يعقوب: [إنك] خدعتني، إنَّما أردتُ راحيل، فقال له خاله: [إنَّا] لا نُكَيِّح الصَّغيرة قبل الكبيرة، فَهَلُمَّ فاعْمَلْ سبع سنين أخرى فَازْوَجْكَ أُخْتَهَا - وكان النَّاسُ يجمعون بين الأختين، إلى أن بعث الله موسى -، فرعى [له] سبع سنين أخرى، فزوجه راحيل فجمعَ بينهما، وكان خاله حينَ جَهَّزَهَا دَفَعَ إلى كُلِّ واحدةٍ منهما أمةً تخدمها، اسمُ إحداهما زلفة والأخرى بلهة، فَوَهَبَها الأُمَتَيْنِ ليعقوب، فولدتُ لايا سِتَّةَ بَنِينَ وَبَتْنًا واحدة اسمُها دينة، واسم البنين: روبيل، وشمعون، ويهوذا، ولاوي، ويسجر، وزيلون. وولدتُ زلفة ابنتين: دان، ويغثالي. وولدت بلهة حاد واشير. وبقيت راحيل عاقراً سَينين، ثم حَمَلَتْ وولدت يوسف.

وليعقوب إحدى وتسعون سنة، وأراد يعقوب أن يُهاجر إلى موطن أبيه إسحاق بكُلِّ الحَواشي، وكان ليوسف خالٌّ له أصنام من ذهب، فقالت لايا ليوسف: اذهب واشترق منه صنماً، لعلنا نستشفق منه، فذهب يوسف فأخذ صنماً. وقيل: إنَّ خاله جَهَّزَهُ، وفي سنة هِجرته حَمَلَتْ راحيل ببنيامين، وماتت في نفاسها ويوسف ابن ستين^٢.

وَكَذَلِكَ يَجْتَنِيكَ رَبُّكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى
أَلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ [٦]

ثم عَبَّرَ يعقوب رُؤْيَاهُ بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الاختباء، ومثل هذا الاضطفاء الذي لك من بين إخوانك، لِمِثْلِ هذه الرُّؤْيَا العظيمة ﴿يَجْتَنِيكَ﴾ ويصطفيك ﴿رَبُّكَ﴾ للنبوة التي هي أعظم منها، أو لِعُلُوِّ الدَّرَجَةِ ﴿وَيَعْلَمُكَ﴾ شيئاً ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وتعبير الرُّؤْيَى - وإنَّما عَبَّرَ عن الرُّؤْيَى بالأحاديث، لكونها أحاديث المَلَكِ إن كانت صادقة، وأحاديث النَّفْسِ والشَّيْطَانِ إن كانت كاذبة - أو العِلْمَ بِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ، أو تفسير كُتُبِ الله المُنزلة، وبيان المُراد من عبارات الأنبياء ﴿وَيُتِمُّ﴾ الله باصطفائك للسُّلْطَةِ

﴿نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ وَيَضُمُّ فِي حَقِّكَ إِلَى الثَّبُوتِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ نِعْمَةٍ الْوَاقِعَةِ الرُّوحَانِيَّةِ، الثَّمَلُكَ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ نِعْمَةٍ الظَّاهِرَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ، أَوْ الْمُرَادُ بِهِ: يُكْمِلُ عَلَيْكَ الْحُظُوظَ الدُّنْيَوِيَّةَ وَالْآخِرَوِيَّةَ ﴿وَعَلَى آلٍ يَفْقُوبَ﴾ وَنَسْلُهُ وَأَشْرَافُ قَوْمِهِ، بَأَن يَصِلَ نِعْمَتُهُمُ الدُّنْيَوِيَّةُ بِالنِّعَمِ الْآخِرَوِيَّةِ، وَيَجْمَعُ لَهُمُ السَّعَادَةَ فِي الدَّارَيْنِ، مِنْ كَثْرَةِ الْأَوْلَادِ وَالْحَدَمِ، وَالتَّوَسُّعِ فِي الْمَالِ وَالْجَاهِ، وَالْوَقْعِ فِي الْقُلُوبِ، وَمَعْرِفَةِ اللَّهِ، وَفُورِ الْعِلْمِ، وَحُسْنِ الْأَخْلَاقِ وَالْعَاقِبَةِ، ذُنُ الثَّبُوتِ فِي أَوْلَادِهِ الصُّلَبِيِّينَ، لَكُونَهُمُ بِالظُّلْمِ عَلَى يُوسُفَ عَصَاءً، وَلَا يَكُونُ النَّبِيُّ إِلَّا مَعْصُومًا مِنَ الْمَعَاصِي وَالْخَطَا وَالزَّلَلِ مِنْ أَوَّلِ عُمُرِهِ، وَلَا دَلَالَةَ لِرُؤُوسِهِمْ فِي الْمَنَامِ بِصُورَةِ الْكَوَاكِبِ الَّتِي يَهْتَدِي بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، عَلَى تَبْلُهُمْ مَنَاصِبَ الثَّبُوتِ، لِكِفَايَةِ صَيْرُورَتِهِمْ ذَوِي الْفَضْلِ وَالْعِلْمِ، بَحِثْ يَسْتَضَاءُ بِهِمْ فِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ كَسَانِرِ الْعُلَمَاءِ الرَّاشِدِينَ، فِي تَعْبِيرِ الْكَوَاكِبِ، وَلَا شُبْهَةٌ فِي صِدْقِ إِتْمَامِ النِّعَمِ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، وَصِحَّةِ التَّشْبِيهِ بِقَوْلِهِ: ﴿كَمَا أَتَمَّمَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَعْنِي ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ حَيْثُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُمَا حَظَّ الدُّنْيَا؛ مِنَ السَّعَةِ فِي الْمَالِ وَالْجَاهِ، وَالْعِظَمَةِ فِي الْقُلُوبِ، وَحَظَّ الْآخِرَةِ؛ مِنَ الثَّبُوتِ وَالرَّسَالَةِ.

وَقِيلَ: يَعْنِي: يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ بِخَلَاصِكَ مِنَ السَّجْنِ وَالْمِحْنِ، كَمَا أَتَمَّمَا عَلَى أَبَوَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَنَجَاتِهِ مِنَ النَّارِ، وَإِسْحَاقَ بِتَخْلِيصِهِ مِنَ الذَّبْحِ^١.

وَفِيهِ: أَنَّهُ قَدْ ثَبَّتَ أَنَّ الْخَلَاصَ مِنَ الذَّبْحِ كَانَ لِإِسْمَاعِيلَ، لَا لِإِسْحَاقَ. وَقِيلَ: إِتْمَامُ النِّعْمَةِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ بِإِنْجَانِهِ مِنَ النَّارِ وَذَّبْحِ الْوَلَدِ، وَاتِّخَاذِهِ خَلِيلًا، وَعَلَى إِسْحَاقَ بِإِخْرَاجِ يَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ مِنْ صُلْبِهِ، وَاتِّخَاذِهِ رَسُولًا^٢.

وَأَمَّا عَبَّرَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ بِالْأَبَوَيْنِ مَعَ كَوْنِهِمَا جَدَّيْهِ، لَكُونِ الْجَدَّ أَبَا حَقِيقَةٍ، وَلِبَيَانِ كَمَالِ ارْتِبَاطِهِ بِالْأَنْبِيَاءِ الْعِظَامِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ اسْتِحْقَاقَهُ لِلْإِجْتِبَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ اسْتِحْقَاقُكَ لِلْإِجْتِبَاءِ وَإِتْمَامِ النِّعْمَةِ، وَ﴿حَكِيمٌ﴾ وَمُعْطِي كُلِّ شَيْءٍ مَا يَسْتَحِقُّهُ، وَفَاعِلٌ لِمَا هُوَ صَلَاحٌ وَصَوَابٌ.

عَنِ الْبَاقِرِ ﷺ: «تَأْوِيلُ رُؤْيَا يُوسُفَ أَنَّهُ سَيَمْلِكُ مِصْرَ، وَيَدْخُلُ عَلَيْهِ أَبَوَاهُ وَإِخْوَاتُهُ، أَمَّا الشَّمْسُ فَإِنَّهَا أُمُّهُ رَاحِيلُ - وَفِي رَوَايَةٍ: خَالَتُهُ - وَالْقَمَرُ يَعْقُوبُ، وَأَمَّا الْأَحَدُ عَشَرَ كَوَكْبًا فَإِخْوَتُهُ. فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ سَجَدُوا لِلَّهِ شُكْرًا لَلَّهِ وَحْدَهُ حِينَ نَظَرُوا إِلَيْهِ». الْخَبَرُ^٣.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٢١٦.

١. تفسير الرازي ١٨: ٩٠.

٣. تفسير القمي ١: ٣٣٩، تفسير الصافي ٣: ٥.

قيل: كان بين رؤيا يوسف ووقوع تعبيره عشرون أو أربعون، أو ثمانون سنة^١.
قال بعض الحكماء: إن الرؤيا الرديئة يقع تعبیرها عن قريب؛ لأن رحمة الله بعباده أن لا يعلمهم بشيء أو شر إلا قريباً من وقوعه لئلا تطول مدة حزنهم، بخلاف الرؤيا الحسنة المباشرة، فإنها تطول مدة وقوع تعبیرها، ليكون السرور الحاصل بها أكثر وأتم^٢.

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَّالِينَ [٧]

ثم نبه سبحانه على أن إخبار النبي ﷺ بقصة يوسف دليل على صدق دعواه في التوحيد [و] النبوة بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي﴾ قصة ﴿يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ الأحد عشر ﴿آيَاتٍ﴾ باهرة، ودلالات ظاهرة على توحيد الله وقدرته وحكمته، وحجج تامة على صحة نبوة محمد ﷺ وصدق كتابه؛ لأنه أمي، وعلى حفظه من شر الأعداء وإن حسده الحاسدون، وعلى نصره عليهم وتغليته قدره وإن طال الزمان ﴿لِلْمُتَّالِينَ﴾ عنها والمستمعين لها.

وعن ابن عباس قال: دخل خبر من اليهود على النبي ﷺ فسمع منه قراءة يوسف، فعاد إلى اليهود فأعلمهم أنه سمعها منه كما في التوراة، فانطلق نقر منهم فسمعوا كما سمع، فقالوا: من علمك هذه [القصة]؟ فقال: «الله علمني»، فنزل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ...﴾ الآية^٣.

إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ

مُبين [٨]

ثم شرح سبحانه قصتهم بقوله: ﴿إِذْ﴾ الإخوة ﴿قَالُوا﴾ فيما بينهم: والله ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين ﴿أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا﴾ يعقوب ﴿مِنَّا﴾، والحال أنهم صبيان ضعيفان ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ ورجال أقوياء وكثافة، قوامون بأموره ومصالحه، قيل: إن العصبه عشرة رجال فصاعداً، وقالوا: إنه لحبه لهما يفضلهما علينا، والله ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ بعمله ذلك ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبين﴾ وخطأ ظاهر. وإنما قالوا ذلك مع اعترافهم بنبوة أبيهم، لقصور معرفتهم بشأن النبي من كونه معصوماً عن الخطأ حتى في العادات. قيل: إن شدة حب يعقوب لهما إنما كان لموت أمهما في صغرهما، وظهور آثار الرشد والتجربة فيهما أزيد مما كان يجده في سائر أولاده^٤، ولعلمه بأن يوسف وارث نبوته.

١. مجمع البيان ٥: ٣٢٠، تفسير الرازي ١٨: ٨٧، تفسير أبي السعود ٤: ٢٥٢. ٢. تفسير الرازي ١٨: ٨٧.

٣. تفسير الرازي ١٨: ٩٢. ٤. تفسير الرازي ١٨: ٩٢، تفسير روح البيان ٤: ٢١٨.

٥. تفسير الرازي ١٨: ٩٣.

أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ
قَوْمًا صَالِحِينَ [٩]

ثُمَّ اسْتَدَّ حَسَدُهُمْ عَلَى يُوسُفَ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ - قِيلَ: إِنَّهُ دَانَ^١، وَقِيلَ: إِنَّهُ شَمْعُونُ^٢، وَقِيلَ: إِنَّهُ يَهُودَا^٣، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ شَاوَرُوا أَجْنَبِيًّا^٤، وَقِيلَ: إِنَّ الْقَاتِلَ الشَّيْطَانَ، فَإِنَّهُ جَاءَهُمْ بِصُورَةِ الشَّيْخِ، فَقَالَ لَهُمْ: -
إِنَّ يُوسُفَ يُرِيدُ أَنْ يَتَّخِذَكُمْ عِبِيداً لِنَفْسِهِ، فَقَالُوا: فَمَا التَّدْبِيرُ^٥؟ فَقَالَ: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ﴾
وَالْقُوَّةَ ﴿أَرْضاً﴾ بَعِيدَةً مِنَ الْعُمَرَانِ حَتَّى يَهْلِكَ فِيهَا مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ، أَوْ تَأْكُلَهُ السَّبَاعُ، إِذَنْ
﴿يَخْلُ﴾ وَيَخْلَصُ ﴿لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ وَيَكُنْ مُجِباً لَكُمْ، مُقْبِلاً عَلَيْكُمْ، مُشْتَغِلاً بِشَأْنِكُمْ، غَيْرَ مُتَوَجِّهِ
إِلَى غَيْرِكُمْ ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ وَوَرَاءَ الْفَرَاغِ مِنْ أَمْرِهِ ﴿قَوْمًا﴾ وَجَمَاعَةً ﴿صَالِحِينَ﴾، حَسَنِي^٦
الْحَالِ عِنْدَ أَبِيكُمْ، أَوْ فِي الدُّنْيَا، أَوْ تَائِبِينَ مِنْ ذَنْبِكُمْ.
عَنِ السَّجَادِ ﷺ: «أَيُّ تَتَوَبُّونَ»^٧.

قَالَ قَاتِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوَّةَ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ
السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ [١٠]

ثُمَّ كَأَنَّهُ قِيلَ: هَلِ اتَّفَقُوا عَلَى هَذَا الرَّأْيِ؟ فَقِيلَ: لَا، بَلِ ﴿قَالَ قَاتِلٌ مِنْهُمْ﴾ - قِيلَ: هُوَ يَهُودَا، وَكَانَ
أَقْدَمُهُمْ فِي السَّنِّ وَالرَّأْيِ وَالْفَضْلِ^٨. وَقِيلَ: هُوَ رُوَيْبِلُ، وَكَانَ ابْنُ خَالَتِهِ، وَأَحْسَنُهُمْ فِي الرَّأْيِ^٩. وَعَنْ
الْقَمِيِّ: أَنَّهُ لَاوِي^{١٠} -: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فَإِنَّ الْقَتْلَ بغيرِ الْجُرْمِ مِنْ أَقْبَحِ الْقَبَائِحِ، وَلَا تَطْرَحُوهُ أَرْضاً
بَعِيدَةً، فَإِنَّهُ مِثْلُ الْقَتْلِ، بَلْ هُوَ عَيْتُهُ لِعَدَمِ احْتِمَالِ السَّلَامَةِ لَهُ ﴿وَالْقُوَّةَ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ﴾ وَقَعَرِ الْبَيْتِ
الَّذِي يُسْتَسْقَى مِنْهُ ﴿يَلْتَقِطُهُ﴾ وَيَأْخُذْهُ إِذَنْ ﴿بَعْضُ﴾ الْقَوَائِلِ ﴿السَّيَّارَةِ﴾ وَالْمَازَةِ، وَيَذْهَبُ بِهِ مَعَهُ
﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ بِمَشُورَتِي، وَعَامِلِينَ بِرَأْيِي، فَافْعَلُوا ذَلِكَ، فَإِنَّ فِيهِ عَرَضَكُمْ وَهُوَ التَّفْرِيقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
أَبِيهِ، وَمَطْلَعَةُ حِفْظِهِ مِنَ التَّلَفِّ. وَإِنَّمَا لَمْ يُحْتَمِ رَأْيُهُ عَلَيْهِمْ لِتَأَلَّفِ قُلُوبِهِمْ وَتَوَجُّهِهِمْ إِلَى رَأْيِهِ.
وَقِيلَ: يَعْنِي: إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ مَا يَفْرَقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ^{١١}.

٢. تفسير أبي السعود ٤: ٢٥٦، تفسير الرازي ١٨: ٩٥.

٤. تفسير الرازي ١٨: ٩٥.

٦. في النسخة: حسن.

٨ و ٩. تفسير الرازي ١٨: ٩٥.

١١. تفسير الصافي ٣: ٧.

١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٥٦.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٢١٩.

٥. تفسير روح البيان ٤: ٢١٩.

٧. علل الشرائع: ١/٤٧، تفسير الصافي ٣: ٧.

١٠. تفسير القمي ١: ٣٤٠، تفسير الصافي ٣: ٧.

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعِ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [١١ و ١٢]

ثم أنه لما اتفقوا على رأي القائل جاءوا أباهم و ﴿قَالُوا﴾ مكرراً واشتغافاً واشتيزالاً له عن تصميمه على تحفظه عنهم: ﴿يَا أَبَانَا مَا الْعَذْرُ لَكَ﴾ وأي داع يدعوك إلى أن ﴿لَا تَأْمَنَّا عَلَى﴾ أخينا ﴿يُوسُفَ﴾ ونحن بتوك؟ ولم نخاف منّا عليه؟ ﴿وَالْحَالُ إِنَّا لَهُ﴾ والله ﴿لَنَاصِحُونَ﴾ وعليه لمشفقون، لا نطلب إلا خيره.

قيل: لَمَّا كَانَ عَادَتُهُمْ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى الرَّغِي^١، قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء ﴿يَزْتَعِ﴾ من القواكه، ويأكل منها كثيراً ﴿وَيَلْعَبُ﴾ بالاشتياق والتناضل، وغيرهما مما يتناسب الصبيان ﴿وَيِنَّا لَهُ﴾ والله ﴿لَحَافِظُونَ﴾ من المكارة والمضار والافات، فأكدوا وعَدَّ حفظه بأنواع التأكيدات.

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَيْشَ أَكَلَهُ الذُّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذْ لَخَاسِرُونَ * فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [١٣-١٥]

ثم كانه قيل: هل قيل يعقوب قولهم وأجاب مسألتهم؟ فقيل: لا، بل ﴿قَالَ﴾ يا بني ﴿إِنِّي﴾ والله ﴿لَيَحْزُنُنِي﴾ فراق يوسف، ويؤلم قلبي ﴿أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ لِقلة صبري عنه ﴿وَمَعَ ذَلِكَ﴾ أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ لاشغالكم بالرعي والرتع واللعب، ونهاؤنكم في حفظه. قيل: إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال ذلك لأن الأرض كانت مذابة^٢. وروى أنه عليه السلام رأى في المنام كأنه على رأس جبل، ويوسف في الصحراء، فهجم عليه أحد عشر ذنباً، فغاب يوسف بينهم^٣. وقد لقنهم عليه السلام بيتك الحجة.

عن النبي ﷺ قال: «لَا تُلْقُوا الكَذِبَ فَيَكْذِبُوا، فَإِنْ بَنَى يَعْقُوبَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الذُّبَّ يَأْكُلُ الْإِنْسَانَ حَتَّى لَقْنَهُمْ أَبُوهُمْ»^٤.

وعن الصادق عليه السلام: «قَرَّبَ يَعْقُوبَ لَهُمُ الْعِلَّةَ فَاعْتَلَوْا بِهَا فِي يُوسُفَ»^٥.

١. تفسير الرازي ١٨: ٩٦.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٢١، والأرض المذابة: الكثيرة الذئاب.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٢١.

٤. مجمع البيان ٥: ٣٣١، تفسير الصافي ٣: ٨.

٥. علل الشرائع: ٥٦/٦٠٠، تفسير الصافي ٣: ٨.

قيل: إِنَّ الْبَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ^١.

ثُمَّ لَمَّا سَمِعَ الْإِخْوَةَ ذَلِكَ الْكَلَامَ مِنْ أَبِيهِمْ، وَكَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْخَوْفَ أَقْوَى السَّبَبِينَ لَا تَتَنَاعَهُ مِنَ الْإِجَارَةِ، اقْتَصَرُوا عَلَى دَفْعِهِ وَ «قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذُّئْبُ» بَيْنَا «وَنَحْنُ عُصْبَةٌ» وَرِجَالُ أَقْرَبَاءٍ حَافِظُونَ لَهُ «إِنَّا إِذَا لَخَّاسِوُونَ» وَهَالِكُونَ ضَعْفًا وَعِزًّا، أَوْ مُسْتَحَقُّونَ لِلْهَلَاكِ لِعَدَمِ الْخَيْرِ فِي حَيَاتِنَا، أَوْ لِأَن يُدْعَى عَلَيْنَا بِالْخَسَارِ وَالْذَّمَارِ، أَوْ مَغْبُونُونَ بِتَرْكِ حُرْمَةِ الْوَالِدِ وَالْأَخِ.

قيل: لَمَّا رَأَى يَعْقُوبَ الْإِحَادَ بَنِيهِ فِي إِخْرَاجِ يُوسُفَ مَعَهُمْ إِلَى الصَّحْرَاءِ، وَمُبَالَغَتِهِمْ بِالْعَهْدِ وَالْيَمِينِ، وَرَأَى مِيلَ يُوسُفَ إِلَى التَّفَرُّجِ وَالتَّفْرِيجِ^٢، رَضِيَ بِالْقَضَاءِ وَأَذِنَ لَهُمْ فِي إِخْرَاجِهِ مَعَهُمْ، فَأَمَرَ أَنْ يُغْسَلَ بَدَنُ يُوسُفَ فِي طَسْتٍ كَانَ أَتَى بِهِ جَبْرِئِيلُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ حِينَ مَجِيءِ الْفِدَاءِ، فَأَجْرَى فِيهِ دَمَ الْكَبْشِ، وَأَمَرَ أَنْ يُرَجَّلَ شَعْرُهُ^٣ وَيُدْهَنَ بِدُهْنِ إِسْمَاعِيلَ الَّذِي جَاءَ بِهِ جَبْرِئِيلُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَنْ يُكْحَلَ فَعْلُوهُ^٤. وَرَوَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ لَمَّا أَلْقَى فِي النَّارِ وَجُرَّدَ عَنْ ثِيَابِهِ، أَنَاةَ جَبْرِئِيلَ بِقَمِيصٍ مِنْ حَرِيرِ الْجَنَّةِ فَأَلْبَسَهُ إِيَّاهُ، فَدَفَعَهُ إِبْرَاهِيمَ إِلَى إِسْحَاقَ، وَإِسْحَاقُ إِلَى يَعْقُوبَ، فَجَعَلَهُ يَعْقُوبَ فِي تَمِيمَةٍ^٥ وَعَلَّقَهَا فِي عُنُقِ يُوسُفَ. ثُمَّ شَايَعَهُ إِلَى شَجَرَةٍ كَانَتْ عَلَى بَابِ كَنْعَانَ تُسَمَّى بِشَجَرَةِ الْوَدَاعِ، فَضَمَّهُ إِلَيْهِ وَوَدَّعَهُ وَبَكَى بُكَاءً شَدِيدًا، فَقَالَ يُوسُفَ: لِمَ تَبْكِي يَا أَبُ؟ فَقَالَ: حُزْنًا عَلَى فِرَاقِكَ، وَمَا أَدْرِي إِلَى مَا تَصِيرُ عَاقِبَةُ أَمْرِكَ. ثُمَّ قَالَ: يَا بَنِي أَوْصِيكَ بِأَرْبَعٍ، فَاجْعَلُهَا نَصَبَ عَيْنِيكَ: يَا بَنِي، لَا تَنْسَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَإِنَّهُ لَا قَرِينَ خَيْرَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَتُكْرِهِ. وَإِذَا وَقَعْتَ فِي بَلِيَّةٍ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ. وَأَكْثِرْ مِنْ قَوْلِ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَإِنَّهُ لَمَّا أَلْقَى جَدُّكَ خَلِيلُ اللَّهِ فِي النَّارِ قَالَهُ، فَدَفَعَ اللَّهُ عَنْهُ ضُرَّ أَصْحَابِ نَمْرُودَ وَشَرَّهِمْ، وَمَا أَصَابَهُ حَرُّ النَّارِ، يَا بَنِي لَا تَنْسَنِي فَإِنِّي لَا أَنْسَاكَ. ثُمَّ بَالِغٌ فِي الْوَصِيَّةِ بِحِفْظِهِ إِلَى بَنِيهِ^٦.

وَعَنِ السَّجَادِ ﷺ: «لَمَّا خَرَجُوا [بِهِ] مِنْ مَنَازِلِهِمْ لِحَقِّقِهِمْ أَبُوهُمْ مُسْرِعًا فَاتَّزَعَهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، فَضَمَّهُ إِلَيْهِ وَاعْتَنَقَهُ وَبَكَى، ثُمَّ دَفَعَهُ إِلَيْهِمْ»^٧.

«فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ» وَهُمْ يَحْمِلُونَهُ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ، وَيَعْقُوبُ ﷺ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَيَبْكِي، فَأَسْرَعُوا فِي الْمَشْيِ مَخَافَةَ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنْهُمْ وَلَا يَدْفَعَهُ إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا بَعُدُوا عَنِ الْعِيُونِ تَرَكُوا وَصَايَا إِبْرَاهِيمَ، فَأَلْقَوْهُ عَلَى الْأَرْضِ وَقَالُوا: يَا صَاحِبَ الرُّؤْيَا الْكَاذِبَةِ، أَيْنَ الْكَوَاكِبُ الَّتِي رَأَيْتَهُمْ لَكَ سَاجِدِينَ حَتَّى يُخَلَّصُوكَ مِنْ أَيْدِينَا الْيَوْمَ؟ قِيلَ: لَمَّا حَكَى يُوسُفَ رُؤْيَاهُ سَمِعَهَا بَعْضُ أَزْوَاجِ إِخْوَتِهِ، فَحَكَّتْهَا لَهُمْ، فَاطَّلَعُوا عَلَى

١. تفسير الرازي ١٨: ٩٧، تفسير روح البيان ٤: ٢٢٢. ٢. في تفسير روح البيان: والتنزه.

٣. رَجُلٌ شَعْرُهُ: سَوَّاهُ وَزَيَّنَهُ وَسَرَّحَهُ. ٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٢.

٥. التَّمِيمَةُ: مَا يَلْعَنُ فِي الْعُنُقِ لِدَفْعِ الْعَيْنِ. ٦. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٢.

٧. تفسير العياشي ٢: ٢٣٥/٢٧٧، علل الشرائع: ١/٤٧، تفسير الصافي ٣: ٨.

زُويَاهُ^١ فجعلوا يؤذونه ويضربونه، وكلّما لجأ إلى واحدٍ منهم ضرّبه، ولا يزدادون عليه إلا غِلظةً وحَقّاً، وهو يبكي ويتأدي: يا ابتاه، ما أسرع ما نسوا عهدك، وضيعوا وصيتك، لو تعلم ما يصنع بآتيك أولاد الإمام^٢!

وقيل: إنهم جرّوه على الأرض جانعاً عطشاناً، حتّى أشرف على الهلاك^٣. وزوي: أنهم أتوا به غِلظةً^٤ أشجار فقالوا: نذبحه ونلقيه تحت [هذه] الشجرة فيأكله الذئب الليلة^٥. وقيل: إنّه أخذه روبيل فجلده به الأرض^٦، ووثب على صدره، وأراد قتله، ولوى عنقه ليكسره، فنادى يوسف: يا يهودا - وكان أرفقهم به - اتّي الله وحلّ بيني وبين من يريد قلتي، فأخذته الرّافة والرحمة، فقال يهودا: ألسنم قد أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه؟ قالوا: بلى^٧، قال: ألقوه في غيابة الجبّ، فسكن غضبهم.

﴿وَأَجْمَعُوا﴾ وعزموا واتفقوا على ﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ﴾ ويُلْقُوهُ ﴿فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ وقفره، فأتوا به على رأس البئر الذي حفره شَدَاد حين عمّر بلاد الأردنّ، وكان على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب بكنعان، وكان عمقها سبعين ذراعاً، وكان رأسها ضيقاً وأسفلها واسعاً - على ما قيل^٨، وقيل: هو بئر بيت المقدس^٩ - فنزّعوا قميصه ليلطّخوه بالدم الكذب، فقال: يا إخوتاه رُدّوا عليّ قميصي أتواري به في حياتي، ويكون كفني بعد ممّاتي، فلم يفعلوا فتعلّق بشبابهم فنزّعوها من يديه، فذلّوه فيها بحبل مربوط على وسطه فتعلّق بشفيرها، فربطوا يديه، فلمّا بلغ نصفها قطعوا الحبل وألقوه فيها ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه، ثمّ أوى إلى صخرة بجانب البئر، فقام عليها وهو يبكي، فنادّوه فظنّ أنّها رحمةً أدركتهم فأجابهم، فأراد أن يرضخوه، فمنعهم يهودا^{١٠}.

وفي روايةٍ عن السجّاد عليه السلام: «والقوه في البئر وهم يظنون أنّه يغرق في الماء، فلمّا صار في قعر الجبّ ناداهم: يا ولد رومين اقرأوا يعقوب مني السلام، فلمّا سَمِعوا كلامه قال بعضهم لبعض: لا تزالوا من هاهنا حتّى تعلموا أنّه قد مات، فلمّ يزالوا يحضّره حتّى أمسوا ورجعوا»^{١١}. وعن القميّ عليه السلام: فأدّوه من رأس الجبّ وقالوا له: انزع قميصك، فبكى وقال: يا إخوتي [لا]

٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٣.

٤. الغلظة: الموضع الكثير الشجر.

١. تفسير روح البيان ٤: ٢١٧.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٣.

٥. تفسير العياشي ٢: ٢٠٧٧/٢٣٥، علل الشرائع: ١/٤٧.

٧ و٨. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٣.

٦. جلد به الأرض: ضربها به.

١٠. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٣.

٩. تفسير الرازي ١٨: ٩٦.

١١. تفسير العياشي ٢: ٢٠٧٧/٢٣٥، علل الشرائع: ١/٤٧، تفسير الصافي ٣: ٨.

تَجَرَدُونِي، فَسَلَّ وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَلَيْهِ السَّكِينُ وَقَالَ: لَيْنَ لَمْ تَنْزِعْهُ لَأَقْتُلَنَّكَ، فَنَزَعَهُ فَذَلَّوْهُ فِي الْبَيْتِ وَتَنَحَّوْا عَنْهُ، فَقَالَ يُوسُفُ فِي الْجُبِّ: يَا إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، ارْحَمْ ضَعْفِي وَقِلَّةَ حِيلَتِي وَصِغْرِي^١. وَرُؤِيَ أَنَّهُ قَالَ: يَا شَاهِدًا غَيْرَ غَائِبٍ، وَيَا قَرِيبًا غَيْرَ بَعِيدٍ، وَيَا غَالِبًا غَيْرَ مَغْلُوبٍ، اجْعَلْ لِي مِنْ أَمْرِي فَرْجًا وَمَخْرَجًا^٢.

وفي رواية أخرى: اجْعَلْ لِي فَرْجًا مِمَّا أَنَا فِيهِ^٣.

وَرُؤِيَ أَنَّهُ ذَكَرَ اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، فَسَمِعَهُ الْمَلَائِكَةُ فَقَالُوا: يَا رَبَّ نَسْمَعُ صَوْتًا حَسَنًا فِي الْأَرْضِ^٤، فَأَمَلْنَا سَاعَةً، فَقَالَ اللَّهُ: أَلَسْتُمْ قُلْتُمْ: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا؟ فَحَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ فَأَنَسَ بِهِمْ^٥.

وقيل: إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى جِبْرِئِيلَ: أَدْرِكْ عَبْدِي قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى قَعْرِ الْبَيْتِ، فَأَدْرَكَهُ جِبْرِئِيلُ وَأَخَذَهُ بِيَدِهِ، وَأَجْلَسَهُ عَلَى صَخْرَةٍ كَانَتْ فِي قَعْرِ الْبَيْتِ، وَأَلْبَسَهُ قَمِيصَ الْخَلِيلِ الَّذِي عَوَّذَهُ بِهِ يَعْقُوبُ، وَأَطْعَمَهُ مِنْ طَعَامِ الْجَنَّةِ وَشَرَّبَهَا^٦.

وَرُؤِيَ أَنَّ هَوَامَّ الْأَرْضِ^٧ قَالَ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ: لَا تَخْرُجْنَ مِنْ مَسَاكِنِكُنَّ، فَإِنَّ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَزَلَ بِسَاحَتِكُنَّ، فَأَنْجَحْنَ إِلَّا الْأَفْعَى، فَإِنَّمَا قَصَدَتْ يُوسُفَ، فَصَاحَ بِهَا جِبْرِئِيلُ، فَصُمَّتْ وَبَقِيَ الصَّمَمُ فِي نَسْلِهَا^٨.

ثُمَّ حَكَى شُبْحَانَهُ أَطَافَهُ بِيُوسُفَ، وَكَأَنَّهُ قَالَ: فَحَفِظْنَاهُ ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ بِتَوْسِطِ جِبْرِئِيلَ ﴿إِلَيْهِ﴾ إِبْنَاءً لَهُ، وَإِزَالَةً لَوْحَشَتِهِ، وَتَبْشِيرًا لَهُ أَنَّ لَا تَخَفَ وَلَا تَحْزَنَ، إِنَّا نَخْلُصُكَ مِنَ الْجُبِّ، وَنَرْفَعُ مَكَانَكَ، وَنُمَكِّنُكَ فِي الْأَرْضِ، وَنُخْرِجُ إِلَيْكَ إِخْوَتَكَ حَتَّى يَجِئِيَنَّكَ خَاضِعِينَ مُتَذَلِّلِينَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ وَاللَّهِ ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ﴾ وَتُخْبِرَنَّهُمْ ﴿بِأَمْرِهِمْ﴾ وَعَمَلِهِمْ ﴿هَذَا﴾ الَّذِي صَدَرَ مِنْهُمْ ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بِأَنَّكَ يُوسُفُ لَتَبَيَّنَ حَالُكَ هَذَا وَحَالُكَ حِينَ مَلَأَقَاتِهِمْ، حَيْثُ إِنَّكَ يَوْمَئِذٍ عَالِي الشَّانِ، عَظِيمُ السُّلْطَانِ، مُتَغَيِّرُ الْهَيْئَةِ وَالصُّورَةِ، لَطُولُ عَهْدِهِمْ بِكَ.

وفيه إشارة إلى دُخُولِهِمْ عَلَيْهِ بِمَصْرِ مُتَمَارِينَ^٩، فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ.

٢. تفسير الرازي ١٨: ٩٩، تفسير روح البيان ٤: ٢٢٤.

٤. في تفسير روح البيان: الجب.

١. تفسير القمي ١: ٣٤٠، تفسير الصافي ٣: ٩.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٤.

٥. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٤.

٦. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٤، وفي النسخة: شرابه، بدل: شرابها.

٨. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٤.

٧. في تفسير روح البيان: البئر.

٩. متارين: طالبين وجامعين للميرة، وهي الطعام.

زُوي أَنَّهُمْ حِينَ دَخَلُوا عَلَيْهِ لَطَلَبَ الْخُطَّةَ عَزَّوَجَلَّ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ، ثُمَّ دَعَا بِصُوعٍ^١ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ ثُمَّ نَفَّرَهُ فَطَنَّ، فَقَالَ: إِنَّهُ لِيُخْبِرُنِي هَذَا الصُّوعُ بِأَنَّهُ كَانَ لَكُمْ أَخٌ مِنْ أَبِيكُمْ يُقَالُ لَهُ يُوسُفُ، فَطَرَحْتُمُوهُ فِي الْبُيْرِ وَقَتَلْتُمْ لِأَبْيَكُمُ الْذَنْبَ^٢.

وعن الباقر عليه السلام: «يقول: لا يشعرون أَنَّكَ أَنْتَ يُوسُفُ، أَنَا جَبْرِئِيلُ فَأُخْبِرُهُ بِذَلِكَ»^٣.

وقيل: يعني: أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِزُولِ الْوَحْيِ إِلَيْهِ، وَإِزَالَةِ الْوَحْشَةِ عَنْهُ^٤.

عن السَّجَّاد عليه السلام: أَنَّهُ سُئِلَ: ابْنُ كَمْ كَانَ يُوسُفُ يَوْمَ الْقَوَّةِ فِي الْجَبِّ؟ قَالَ: «كَانَ ابْنُ تِسْعِ سِنِينَ»^٥.

وعن الصادق عليه السلام: «أَنَّهُ كَانَ ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ»^٦.

أَقُولُ: يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ السَّبْعُ تَحْرِيفُ التَّسْعِ.

وقيل: إِنَّهُ كَانَ ابْنُ اثْنَيْ عَشَرَ سَنَةً^٧. وقيل: سَبْعُ عَشْرَةَ سَنَةً^٨. وقيل ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً^٩.

ثُمَّ قِيلَ: إِنَّهُمْ ذَبَحُوا جَذِيًّا عَلَى قَمِيصِهِ^{١٠}.

وعن الْقَمِّيَّ عليه السلام: فَقَالُوا: نَعْمَدُ إِلَى قَمِيصِهِ فَتَلَطَّخَهُ بِالْدَّمِ، وَتَقُولُ لِأَبْنَا: إِنَّ الذَّنْبَ أَكَلَهُ، فَقَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لَاوِي: يَا قَوْمَ، أَلَسْنَا بَنِي يَعْقُوبَ إِسْرَائِيلَ اللَّهِ، ابْنُ إِسْحَاقَ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ، أَفَتُظَنُّونَ أَنَّ اللَّهَ يَكْتُمُ هَذِهِ الْخَبْرَ عَنْ أَنْبِيَائِهِ؟ فَقَالُوا: مَا الْحِيلَةُ؟ قَالَ: تَقُومُ وَنُغْتَسِلُ، وَتُصَلِّي جَمَاعَةً، وَتُتَضَرَّعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَكْتُمَ ذَلِكَ عَنْ أَبْنَا، فَإِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ، فَقَامُوا وَاغْتَسَلُوا، وَكَانَ فِي سَنَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أَنَّهُمْ لَا يُصَلُّونَ جَمَاعَةً حَتَّى يَبْلُغُوا أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا، فَيَكُونُ وَاحِدًا مِنْهُمْ إِمَامًا وَعَشْرَةً يُصَلُّونَ خَلْفَهُ. فَقَالُوا: كَيْفَ نَصْنَعُ، وَلَيْسَ لَنَا إِمَامٌ؟ فَقَالَ لَاوِي: نَجْعَلُ اللَّهَ إِمَامَنَا، فَصَلُّوا وَتَضَرَّعُوا وَبَكُوا وَقَالُوا: يَا رَبِّ اكْتُمْ عَلَيْنَا هَذَا^{١١}.

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ
عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُوا عَلَى
قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبَّرَ جَمِيلًا وَاللَّهُ
الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ [١٦-١٨]

١. الصُّوعُ: الصَّاع، وَهُوَ الْمِكْيَالُ، أَوْ إِثَاءٌ يَشْرَبُ بِهِ.
٢. تَفْسِيرُ الرَّازِي ١٨: ١٠٠.
٣. تَفْسِيرُ الْقَمِّي ١: ٣٤٠، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٣: ٩.
٤. جَوَامِعُ الْجَامِع: ٢١٤. ٥. عِلَلُ الشَّرَائِع: ١/٤٨.
٦. تَفْسِيرُ الْعَبَّاسِي ٢: ٣٣٦/٢٠٨٠، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٤: ٩.
٧. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَان ٤: ٢٢٣.
٨. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَان ٤: ٢٢٤، تَفْسِيرُ الرَّازِي ١٨: ٩٩.
٩. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَان ٤: ٢٢٤.
١٠. تَفْسِيرُ الْقَمِّي ١: ٣٤١، تَفْسِيرُ الرَّازِي ١٨: ١٠٢.
١١. تَفْسِيرُ الْقَمِّي ١: ٣٤١، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٤: ٩.

فرجعوا إلى كنعان ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾ ودخلوا عليه آخر النهار وهم ﴿يَبْكُونَ﴾ فلما رأى يعقوب بكاءهم فرح وقال: هل أصابكم في غمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فما فعل يوسف؟ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا﴾ من عند يوسف كي ﴿نَسْتَبِقُ﴾ بالتناضل والعدو ﴿وَتَرَكْنَا﴾ وحلبنا ﴿يُوسُفَ﴾ وحده ﴿عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾ وزادنا وثيابنا وأثاثنا ﴿فَأَكَلَهُ الذُّبُّ﴾ بلا ريث وطول زمان يحتاج إلى التعهد ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ يا أبة ﴿بِمُؤْمِنٍ﴾ ومصدق ﴿لَنَا﴾ في ما نذكره، لفرط حبك ليوسف، وشوء ظنك بنا ﴿وَلَوْ كُنَّا﴾ من قبل عندك في سائر أخبارنا ﴿صَادِقِينَ﴾ غير متهمين بالكذب أو المراد: وإن كنا في هذا الذي نقول صادقين في الواقع ﴿وَجَاءُوا﴾ للشهادة على صدقهم بقميص يوسف، حال كونهم صابئين ﴿عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ﴾ مكذوب كأنه عين ﴿كَذِبٍ﴾ بحيث لا يشك فيه كل من يراه. روي أنه لما سمع يعقوب بخبر يوسف صاح بأعلى صوته، ثم قال: أين قميصه؟ فأخذه وألقاه على وجهه، وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص. ثم قال: تالله، ما رأيت إلى اليوم ذنباً أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه^١.

وعن الصادق عليه السلام في رواية قال: «اللهم لقد كان ذنباً رقيقاً حيث لم يشق القميص»^٢. والقمي ﷻ قال [يعقوب]: ما كان أشد غضب ذلك الذنب على يوسف، وأشفقه على قميصه، حيث أكل يوسف ولم يمزق قميصه^٣.

ثم ﴿قَالَ﴾: ليس الأمر كما تقولون ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ وسهلت ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ أو هونت في نظركم ﴿أَمْراً﴾ عظيماً، أما ما عليكم فتدأرك الذنب، وأما ما عليّ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أو المراد: فصبر جميل وظيفتي وتكليفي، وهو ما لا شكوى فيه إلى الخلق - على رواية^٤، أو: ما لا جزع فيه؛ على قول آخر^٥ - ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ والمطلوب منه الإعانة ﴿عَلَى﴾ تحمل ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ وتخبرون به من أمر يوسف، والصبر على فراقه.

عن السجّاد عليه السلام: «أنه لما سمع مقالهم، اشترج واستعبر، وذكر ما أوحى الله إليه من الاستعداد للبلاء»^٦.

قيل: إن الله ابتلى يعقوب بفراق يوسف، لأنه ذبح جدياً بين يدي أمه^٧.

وقيل: إنه استطعمه فقيراً يوماً فما اهتم بإطعامه، فانصرف الفقير حزيناً^٨.

٢. تفسير العياشي ٢: ٢٠٨٢/٣٣٧، تفسير الصافي ٣: ١٠.

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٦.

٣. تفسير القمي ١: ٣٤٢، تفسير الصافي ٣: ١٠.

٤. تفسير الرازي ١٨: ١٠٣، تفسير روح البيان ٤: ٢٢٧، تفسير الصافي ٣: ١٠.

٥. تفسير الرازي ١٨: ١٠٣.

٧ و٨. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٥.

٦. علل الشرائع ١/٤٧، تفسير الصافي ٣: ١٠.

وقيل: لما ولد يوسف اشترى له ظفراً^١، وكان لها ابنٌ رضيع، فباع ابنها تكثيراً للبن على يوسف، فبكت وتضرعت، وقالت: يا رب، إن يعقوب فرق بيني وبين ولدي، ففرق بينه وبين ولده يوسف، فاستجاب الله دعاءها، فلم يصل يعقوب إلى يوسف إلا بعد أن لقيت تلك الجارية ابنها^٢.

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَوْهُ قَالَ يَا بَشْرَى هَذَا غَلَامٌ وَأَسْرُوهُ
بِضَاعَةٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخِيسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ
مِنَ الزَّاهِدِينَ [١٩ و ٢٠]

ثم أنه تعالى بعد ذكر ما جرى بين يعقوب وإخوة يوسف، ذكر كيفية تخلص يوسف من البشر، وما جرى عليه بعد خلاصه بقوله: ﴿وَجَاءَتْ﴾ من طرف مدين قافلة ﴿سَيَّارَةٌ﴾ ومارة من الأرض التي فيها البشر، قاصدين مصر، بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف في البئر، فنزلوا قريباً منها، وكانت البئر معروفة ترد عليها القوافل كثيراً، وإنما ألغوه فيها ليلتقطه السيارة، وليكون أقرب إلى السلامة؛ كما قيل عن ابن عباس: جاءت سيارة - أي قوم يسبيرون - من مدين إلى مصر، فأخطأوا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق، فهبطوا على أرض فيها حبٌ يوسف، وكان الحب في قفرة بعيدة من العمران، لم يكن إلا للرعاة^٣.

وفي رواية: لما دعا يوسف بالدعاء الذي نقلناه سابقاً، ما بات في الحب، وخرج منه بعد رجوع إخوته^٤.

قيل: كان ماؤه ملحاً فعذب حين ألقى فيه^٥.

وعلى أي تقدير احتاجت^٦ القافلة إلى الماء ﴿فَأَرْسَلُوا﴾ رجلاً كان ﴿وَارِدَهُمْ﴾ وسقاءهم الذي يرد الماء - يقال له مالك بن ذعر الخزاعي - ليطلب لهم الماء، فجاء على رأس الحب ﴿فَأَدْلَوْهُ﴾ وأرسل ﴿دَلَّوْهُ﴾ في الحب ليملاها من الماء، وكان يوسف في ناحية من قعره، فتعلق بالحب - وقيل: أوحى إليه بأن يتعلق به^٧ فتعلق به - وخرج منه، فلما نظر مالك، فإذا بغلام وجهه كغفلة القمر، فنادى من فرط الشغف: يا للبشارة، لنفسه وأصحابه، و﴿قَالَ يَا بَشْرَى﴾ أخصري، فهذا أوانك - وقيل: معناه: ابشروا يا أصحابي - ﴿هَذَا غَلَامٌ﴾ لا نظير له، قد أنعم الله به علينا بدل الماء، نبيعه بثمن عال^٨، أو صرنا

١. الظن: المُرْضعة لغير ولدها.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٥.

٣. تفسير الرازي ١٨: ١٠٥.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٤.

٥. تفسير الرازي ١٨: ١٠٥، تفسير أبي السعود ٤: ٢٦١.

٦. في النسخة: احتاج.

٧. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٨.

٨. تفسير الرازي ٧: ١٠٦.

سبباً لحياته.

وقيل: إن البشري كان علماً لصاحبه، ناداه، ليُعينه على نزع الدلو من البئر^١.

وعن الأعمش: أنه دعا امرأة اسمها بشري^٢.

قيل: لما خرج يوسف من البئر بكث أطراف البئر على مفارقه^٣.

ثم أن مالكاً وأصحابه لما خافوا من أهل القافلة أن يشاركوهم في يوسف أخفوه «وَأَسْرَوْهُ» منهم، بأن جعلوه «بِضَاعَةً» ومَتَاعَ تجارة، وقالوا: إن أهل الماء أودعوه عندنا لنبيعه ببصر؛ كذا قيل^٤.

وعن ابن عباس: أن إخوة يوسف لما طرحوه في الجُبَّ ورجعوا إلى كنعان، عادوا بعد ثلاثة أيام ليتعرفوا خبره، فوجدوه عند السيارة^٥.

وقيل: إن يهودا كان يأتيه كل يوم بالطعام، فأتاه يومئذ فلم يجد فيه، فأخبر إخوته فأتوا ورأوا آثار السيارة، فطلبوهم فلما رأوا يوسف قالوا: هذا عبدنا أبق متاً، ووافقهم يوسف على ذلك، لأنهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية^٦.

وعن السجّاد عليه السلام: «أنهم لما أصبحوا قالوا: انطلقوا بنا حتى ننظر ما حال يوسف، أ مات أم هو حي؟ فلما انتهوا إلى الجُبَّ، وجدوا بحضرة الجُبَّ سيارة، وقد أرسلوا واردهم وأدلى دلو، فلما جذب دلوه فإذا هو بعلام متعلق بدلو، فقال لأصحابه: يا بشري هذا غلام، فلما أخرجوه أقبل إليهم إخوته فقالوا: هذا عبدنا سقط [متاً] أمس في هذا الجُبَّ، وجئنا اليوم لتخرجه، فائترعوه من أيديهم وتنحوا به ناحية، فقالوا: إما أن نمر لنا أنك عبدنا فنبيعك [على] بعض هذه السيارة، أو نقتلك، فقال لهم يوسف: لا تقتلوني، واضنعوا ما شئتم، فأقبلوا به إلى السيارة فقالوا: أمنكم من يشتري منا هذا العبد؟^٧ وعن ابن عباس: أسروا شأنه، يعني: أخفوا كونه أخاً لهم^٨.

«وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ» مما يسيرون وما يعلنون «وَشَرَّوْهُ» وباعوه من السيارة - وعن مجاهد: أنهم قالوا للقوم: استوثقوه لئلا يأتى^٩. وقيل: إنهم باعوه ممن استخرجه^{١٠}. وقيل: إن الوارد وأصحابه باعوه^{١١}.

٢. تفسير الرازي ١٨: ١٠٦.

١. تفسير البيضاوي ١: ٤٧٩، تفسير روح البيان ٤: ٢٢٩.

٤. تفسير الرازي ١٨: ١٠٦.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٨.

٦. تفسير أبي السعود ٤: ٢٦١، تفسير الرازي ١٨: ١٠٦.

٥. تفسير الرازي ١٨: ١٠٧.

٨. تفسير الرازي ١٨: ١٠٦.

٧. علل الشرائع: ١/٤٨، تفسير الصافي ٣: ١١.

١١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٦١.

٩ و ١٠. تفسير الرازي ١٨: ١٠٧.

وقيل: إن الشراء بمعنى الإِشراء، والمراد أن القوم اشتروه^١ - «بِشْمَنِ» وعِوَضَ «بِخْسٍ» وناقص من حيث الغش وقلة العيار.

وعن ابن عباس: يعني: بَشْمَن حَرَام، لأن تَمَن الحَرَّ حَرَام^٢. لأن البَخْس بمعنى الناقص، والحَرَام ناقص البركة.

وقيل: يعني: بَشْمَن ظَلَم، لكون الظلم نَقْصاً^٣.

ثم أنه تعالى بعد بيان قلة الثمن في نفسه، يبين قلة من حيث المقدار بقوله: «دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ» قليلة لا تُوزن.

قيل: إنهم كانوا لا يُوزنون الدراهم إلا إذا بلغت أوقية؛ وهي الأربعون^٤.

وقيل: إن قوله «دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ» بيان للثمن البَخْس، بمعنى: ثمن قليل^٥.

وقيل: يعني: ثمن ناقص عن قيمة يوسف نقصاناً ظاهراً^٦، وهو دراهم معدودة.

عن ابن عباس: كانت عشرين درهماً^٧، وهو مروي عن السجادة^٨.

وعن السدي كانت: اثنين وعشرين [درهماً]، والإخوة كانوا أحد عشر، فكل واحد أخذ اثنين إلا يهوذا^٩.

أقول: لا شبهة في وقوع السهو في ذكر عدد الإخوة، لأنهم كانوا عشرة، وكذا في التقسيم.

«وَكَانُوا» بانهو يوسف «فِيهِ مِنَ الرَّاغِبِينَ» وغير الراغبين، أما لو كانوا إخوته فوجه واضح،

وأما لو كانوا ملتقطوه، فلأن الملتقط متهاون لما يلتقطه، أو لخوفهم أن يظهر له مالک أو صاحب،

فينزع من أيديهم، وأما لو كان الشراء القوم الذين اشتروه، فلا يظهرون الرغبة فيه، للتوصل بذلك إلى

تقليل الثمن، أو لطمئنانهم بكذب دعوى رقيقته، واحتيالهم أن يتزع منهم.

قيل: إن يوسف أخذ يوماً امرأة، فنظر إلى صورته، فأعجبه حشته وبهاؤه، فقال: لو كنت عبداً

فباعوني لما وجد لي ثمن، فابتلى بالعبودية، وبيع بثمان بَخْس^{١٠}.

روى بعض العامة: أن الصبيان أخذوا النبي ﷺ في طريق المسجد، وقالوا: كن لنا جَمَلاً، كما

تكون للحسن والحسين، فقال لبلال: اذهب إلى البيت وآت بما وجدته لأشتري نفسي منهم، فأتى

بثمان جِوزَاتٍ، فاشتري بها منهم نفسه، وقال: أخي يوسف باعوه بثمان بَخْس دراهم معدودة،

وباعوني بثمان جِوزَاتٍ^{١١}.

١. ١٠٧: ١٨. تفسير الرازي.

٧. تفسير الرازي ١٠٨: ١٠٨، تفسير أبي السعود ٤: ٢٦١.

٩. تفسير الرازي ١٠٨: ١٠٨.

٨. علل الشرائع: ١/٤٨، تفسير الصافي ٣: ١١.

١١. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٩.

١٠. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٥.

قيل: حَمَلَ القَوْمُ يُوْسُفَ إِلَى مِصْرَ، فَاطَّلَعَ أَهْلُ مِصْرَ بِمَجِيءِ ثَجَّارِ مِدينَ، فَخَرَجُوا لِيَشْتَرُوا مِنْ أَمْتَعَتِهِمْ، وَخَرَجَ فِيهِمْ بَعْضُ خَدَمِ الْعَزِيزِ، فَلَمَّا رَأَوْا يُوْسُفَ تَحَيَّرُوا مِنْ غَايَةِ حُسْنِهِ وَنَعَتْ جَمَالِهِ، فَرَجَعُوا وَأَخْبَرُوا بِهِ الْعَزِيزَ، وَهُوَ كَانَ يَعِشُّهُ لِمَا سَمِعَ مِنْ صِيَّتِ حُسْنِهِ، وَافْتَتَنَ أَهْلُ مِصْرَ بِهِ، وَالتَّمَسُّوا مِنْ مَالِكِهِ أَنْ يُعْرَضَهُ لِلْبَيْعِ، فَزَيَّنَهُ وَأَخْرَجَهُ إِلَى السُّوقِ وَعَرْضَهُ لِلْبَيْعِ مُزَايِدَةً ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ لَشِرَائِهِ، وَفِيهِمْ عَجُوزٌ أَتَتْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعَزَلِ لَتَشْتَرِيَهُ بِهِ، فَتَزَايَدُوا فِي ثَمَنِهِ حَتَّى بَلَغَ إِلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ غَيْرَ الْعَزِيزِ، فَاشْتَرَاهُ بِوَزْنِ مِرَّةٍ مِشْكَأً، وَمِرَّةٍ لَوْلُؤًا، وَمِرَّةٍ ذَهَبًا، وَمِرَّةٍ فِصَّةً، وَمِرَّةٍ حَرِيرًا. وَكَانَ وَزْنُهُ أَرْبَعِمِائَةَ رَطْلٍ، وَسِنِّهِ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً^١.

وقيل: إِنَّهُ اشْتَرَاهُ بِعِشْرِينَ دِينَارًا^٢.

وقيل: [اشْتَرَاهُ الْعَزِيزُ بِأَرْبَعِينَ دِينَارًا] وَزَوْجَ نَعْلٍ، وَتَوْبِينَ أَبْيَضِينَ^٣.

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [٢١]

﴿وَقَالَ الْعَزِيزُ الَّذِي اشْتَرَاهُ﴾ وَكَانَ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ بعد أن ذهب به إلى بيته ﴿لِامْرَأَتِهِ﴾ راعيل، الْمُتَلَقَّبَةُ بِزُلَيْخَابَنَتِ دَعَائِلَ، أَوْ هَيْكَاهُمْ: أَنْ «أَكْرِمِي مَثْوَاهُ» وَسَكَنِهِ، وَاجْعَلِيهِ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ. قيل: هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْمُبَالِغَةِ فِي إِكْرَامِ نَفْسِهِ، وَإِحْسَانِ تَعَهُدِهِ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ، وَغَيْرِهِمَا^٤. ثُمَّ ذَكَرَ عِلَّةَ لَزُومِ إِكْرَامِهِ بِقَوْلِهِ: «عَسَى» وَيُرْجَى «أَنْ يَنْفَعَنَا» فِي أُمُورِنَا، وَيَكْفِينَا مُهِمَّاتِنَا «أَوْ نَتَّخِذَهُ» وَنُخْتَارَهُ لِأَنْفُسِنَا «وَلَدًا» لَمَّا تَفَرَّسَ مِنْهُ الرُّشْدَ وَالتَّجَابَةَ وَكِرَامَةَ النَّفْسِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ. وَلِذَا قَالُوا: هُوَ أَفْرَسُ النَّاسِ.

قيل: إِنَّهُ كَانَ عَلَى خَزَائِنِ مِصْرَ، وَصَاحِبَ جُنُودِ الْمَلِكِ، وَكَانَ اسْمُهُ قُطْفِيرَ - أَوْ أَطْفِيرَ - وَلَقَّبَهُ الْعَزِيزُ، لِقَلْبَتِهِ عَلَى أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، وَقُرْبِهِ مِنَ الْمَلِكِ، وَهُوَ يَوْمُنْزُ رِيَّانَ بْنِ الْوَلِيدِ الْعَمَالِيْقِيِّ^٥.

قيل: إِنَّهُ عَمَرَ إِلَى زَمَانِ مُوسَى، وَكَانَ هُوَ فِرْعَوْنَ مُوسَى^٦.

وقيل: إِنَّهُ كَانَ مِنْ أَجْدَادِ فِرْعَوْنَ مُوسَى، وَأَمِنْ بِيُوسُفَ، وَمَاتَ فِي حَيَاتِهِ، وَمَلِكٌ بَعْدَهُ قَابُوسُ^٧ بْنِ

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٣٠. ٢. تفسير الرازي ١٨: ١٠٩.

٣. جوامع الجامع: ٢١٥. ٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٣١.

٥ و ٦. تفسير الرازي ١٨: ١٠٨، تفسير أبي السعود ٤: ٢٦٢، تفسير روح البيان ٤: ٢٣٠.

٧. في النسخة: قاموس.

مصعب^١.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ التمكن البديع والرفعة التي حصلت ليوسف في قلب العزيز، حتى أمر امرأته بإكرام مناء. أو التمكن الذي حصل له في منزله ﴿مَكْنًا لِيُوسُفَ﴾ وجعلنا له مقاماً عالياً ﴿فِي﴾ أهل تلك الأرض. ووجهة تامة في انظار سكنة تلك المملكة، ومحبوبة كاملة في قلوبهم، ليرتب على تلك المكانة والوجهة ما جرى بينه وبين امرأة العزيز ﴿وَلَعَلَّمَهُ﴾ وتلهمه مقداراً كافياً ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وتعبير الرؤى والمنامات التي عمدها رؤيا صاحبي السجن، ورؤيا الملك. وإنما أراد إخوته إذلاله وإهلاكه، وأراد الله إعزازه ورفعته محلّه ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ وقادر على إنفاذ إرادته، لا دافع لقضائه، ولا مانع عن إجراء حكمه - في أرضه وسمانه - قيل: إن ضمير ﴿أمره﴾ راجع إلى يوسف، والمعنى: أنه تعالى غالب على أمر يوسف^٢ - وببده انظامه، لا بسعيه وإرادته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن زمام جميع الأمور بيد الله، بل يزعمون أن لهم فيها دخلاً، ولتدبيرهم فيها تأثيراً، أو المراد: أنهم لا يعلمون لطائف صنع الله، وخفايا فضله.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَادْنَاهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ [٢٢-٢٤]

ثم أنه تعالى بعد بيان صبر يوسف على البلايا والمحن، ومكافاته بالنعم الجسدية الظاهرية؛ من التمكن في قلب العزيز، وعلو منزله عند أهل مصر، ذكر مكافاته بالنعم الروحية الباطنية بقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ وكمثل قواه الجسدية والروحية ﴿آتَيْنَاهُ﴾ وأعطيناه ﴿حُكْمًا﴾ ونبوة، أو حكمة عملية، التي هي الاستيلاء على النفس، بحيث يسهل عليه منعها عن اتباع الهوى، وارتكاب الرذائل ﴿وَعِلْمًا﴾ كاملاً بجميع ما يحتاج إليه الناس من المعارف والأحكام، جزاءً على حسن صبره ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الجزاء البديع الجزيل ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ جميعاً على أعمالهم الحسنة. قيل: إنه ﷺ صار نبياً وله ثلاث وثلاثون سنة^٣.

١. تفسير الرازي ١٨: ١٠٨، تفسير أبي السعود ٤: ٢٦٢، تفسير روح البيان ٤: ٢٣٠. ٢. تفسير الرازي ١٨: ١١٠.

٣. تفسير الرازي ١٨: ١١٠.

والأشد: سِنَّ الْوَقُوفِ، وهو ما بين ثلاثين وأربعين؛ كما هو مروي عن ابن عباس^١.
وقيل: إنه كان نبياً ألقي في الجُبِّ^٢. وكان له ثماني عشرة سنة، وهو الأشد، لأنه سِنَّ الشَّبَابِ،
وهو ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين.

قيل إن زليخا كانت أجمل نساء عصرها، وكانت بنت جلموس^٣ سلطان المغرب، فرأت ذات ليلة
في المنام غلاماً على أحسن ما يكون من الحسن والجمال، فسألت عنه، فقال: أنا عزيز مصر، فلما
استيقظت افتتنت بما رأت في الرؤيا، وأدى ذلك إلى تغير حالها، ولكنها كتمت حالها عن الأغيار
دوراً. ثم تطفن من في البيت من الجوّاري وغيرهن أن بها أمراً، فقال بعض: أصابتها عين، وبعض:
أصابها سحر، وبعض: مسها الجن، وبعض: ابتلت بالعشق، ففتش عن أمرها، فما وجد فيها غير
العشق، وقد كان خطبها ملوك الأطراف، فابت إلا عزيز مصر، فجهرها أبوها بما لا يحصى من العيب
والجوّاري والأموال، وأرسلها مع حواشيه إلى جانب مصر، فاستقبلها العزيز بجمع كثير في زينة
عظيمة، فلما رآته زليخا علمت أنه ليس الذي رآته في المنام، فأخذت تبكي وتحتسر على ما فات
من المطلوب، فسمعت هاتفاً يقول: لا تحزني يا زليخا، فإن مقصودك يحصل بواسطة هذا.

ثم لما دخلوا مصر أنزلوا زليخا في دار العزيز بالعز والاخترام، وهي في نفسها على آلام الفراق،
وكانت على هذه الحال سنين، وبقيت بكراً لأنّ العزيز كان عتيماً، ثم كان ما كان من حسد إخوان
يوسف عليه، ووصوله إلى مصر بالعبودية، فلما رآته زليخا علمت أنه هو الذي رآته في المنام، فلما
ورد يوسف في دار العزيز ملك سلطان العشق مملكة قلب زليخا^٤.

رؤي أن يوسف كان يأوي إلى بستان في قصر زليخا يعبد الله فيه، وكان قد قسم نهاره ثلاثة أقسام:
ثلثاً لصلواته، وثلثاً لبيكانه، وثلثاً لذكر الله وتسيبته، فلما أدرك يوسف مبالغ الرجال، طلبت منه الوقاع.
﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾ وجاءت وذهبت عنده المرأة ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ لتخادعة ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ وهو يهرب
منها إلى البستان، فلما طال ذلك عليها تغير لونها واصفر وجهها، فدخلت عليها دايتها فأخبرتها
بذلك، فأشارت عليها أن تبني له بيتاً مزيناً بكل ما تقدّر عليه من الزينة والطيب، ليكون وسيلة إلى
صحبة يوسف، فبنته، فلما فرغ الصنّاع من عمله دعّت العزيز، فدخل فيه فأعجبه، لكونه على أسلوب
عجيب، وقال لها: سمّيه بيت السرور ثم فرح، فاستدعت يوسف فزينه بكل ما يمكن من الزينة،

١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٦٣، تفسير روح البيان ٤: ٢٣٢.

٢. تفسير الرازي ١٨: ١١٠، تفسير روح البيان ٤: ٢٣٣.

٣. في تفسير روح البيان: طيموس. ٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٣٤.

وترينت هي أيضاً، وكانت بيضاء حسناء، بين عَيْنَيْهَا خَالٌ يَتَلَأَلُ حُسْنًا، ولها أربع ذَوَائِبٍ قد نَظَمَتْهَا بالدُّرِّ والياقوت، وعليها سبع خُلُلٍ، وأرسلت فَلَانِدها على صَدْرِهَا، فجاءوا يوسُفَ، فلمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ أَغْفَلَتْهُ وَأَغْلَقَتْهُ، وراودته عن نفسه بِكُلِّ حيلة، فلم يُجِبْهَا، ثم أدخلته في البيت الذي يليه، وراودته بِكُلِّ مَا يُمْكِنُ، فلم يُسَاعِدْهَا يوسُفَ، ودَفَعَهَا بِكُلِّ مَا قَوَّرَ عَلَيْهِ، ثم وثمَّ إلى أن انتهى إلى الْبَيْتِ السَّابِعِ^١ ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ السَّبعة كُلَّهَا عَلَيْهِ، بحيث لم يُمْكِنَ فتحها عادةً.

ثم دَعَتْهُ إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ﴾ له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ وأقِيل وأسرِعْ إليّ - قيل: هذه الكلمة بالعِبرية: هيا لج^٢، فعرَّبَه القرآن - فاشتغ يوسُفَ من إجابتها، و﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ والتجئُ إليه من أن أعصيه، وأُضِيعَ حُوقُهُ، وأكثرَ نَعَمَهُ الْعِظَامَ عَلَيَّ.

ثم اغتدر أولاً بأن هذا العمل كُفْرانٌ نِعْمَةِ الْعَزِيزِ بقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ ومُنْعَمِي، وسيدي الذي ﴿أَحْسَنَ مَتَوَائِي﴾ وأكرمني غايةَ الْكَرَامَةِ، ثم اغتدر ثانياً بأن في هذا العمل خُسرانٌ الدَّارِينَ بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾ على أَنفُسِهِمْ بِفِعْلِ الْقَبِيحِ، وعلى مُنْعِمِهِمْ بِالْخِيَانَةِ فِي عِرْضِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ أن تكون كلمة ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ حَقِيقَةً عُرْفِيَّةً فِي إِطْهَارِ الْإِثْنَانِ الشَّدِيدِ، وقوله ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ عِلَّةٌ لَهُ، وقوله ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ﴾ عِلَّةٌ لِلْعِلَّةِ. ويكون حَاصِلُ الْمَعْنَى: لَا يَكُونُ ذَلِكَ الْعَمَلُ مِنِّي أَبَدًا، لأنَّ الْعَزِيزَ رَبِّي أَحْسَنَ إِلَيَّ بِإِكْرَامِ مَتَوَائِي، وَحَقُّهُ أَن لَا أَخُونَهُ فِي عِرْضِهِ، لِأَنَّهُ ظَلَمَ فِي حَقِّهِ، وَلَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ.

ويَحْتَمِلُ أن يكون ضمير ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ راجعاً إلى الله، والمعنى: إنَّ الله رَبِّي ومُنْعَمِي، حيثُ أَكرمني غايةَ الْإِكْرَامِ، وعِصْيَانَهُ كُفْرَانٌ نِعْمَتِهِ، وظَلَمَ فِي حَقِّهِ، وَلَا يَفْلَحُ الظَّالِمُ.

عن ابن عباس قال: كان يوسُفَ إِذَا تَبَسَّمَ رُؤْيَا النَّوْرِ فِي ضَوَائِحِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ رُؤْيَا شُعَاعِ النَّوْرِ فِي كَلَامِهِ يَذْهَبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَدْمِي أن يَنْعَتَ نَعْتَهُ، فقالت له: يا يوسُفَ، إِنَّمَا صَنَعْتَ هَذَا الْبَيْتَ الْمَزِينَ لِأَجْلِكَ، فقال يوسُفَ: يا زَلِيخَا، إِنِّي أَخْشَى أن يَكُونَ هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي سَمَّيْتَهُ بَيْتَ السُّرُورِ بَيْتَ الْأَحْزَانِ وَالنُّبُورِ، وَتَبْعَةٌ مِنْ بَقَاعِ جَهَنَّمَ. فقالت زَلِيخَا: يا يوسُفَ، مَا أَحْسَنَ عَيْنَيْكَ! قال: هُمَا أَوَّلُ شَيْءٍ يَسِيلُ إِلَى الْأَرْضِ مِنْ جَسَدِي. قالت: مَا أَحْسَنَ وَجْهَكَ! قال: هُوَ لِلرُّبَا يَأْكُلُهُ. قالت: مَا أَحْسَنَ شَعْرَكَ! قال: هُوَ أَوَّلُ مَا يَنْتَشِرُ مِنْ جَسَدِي. قالت: إن فِرَاشَ الْحَرِيرِ مَبْسُوطٌ فَتَقُمْ وَأَقْضِ حَاجَتِي، قال: إِذْنٌ يَذْهَبُ نَصِيبِي مِنَ الْجَنَّةِ. قالت: إن طَرَفِي سَكْرَانٌ مِنْ مَحَبَّتِكَ، فَارْفَعْ طَرَفَكَ إِلَى

خسني وجمالي، قال: صاحبك أحق بحسنك وجمالك^١.

«وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ» وعزمت على مخالطته ومجامعته عزماً جزماً بعد تغليق الأبواب، ودعوتها إلى نفسها، والإلحاح في مقاربتها، ومدّ يدها إليه لتعانقه «وَهَمَّ بِهَا» وعزم على إيجابتها بمقتضى الطبيعة البشرية وقوة شهوة الشباب مع وجود أسباب هيجان الرغبة «لَوْلَا أَنْ رَأَى» يوسف «بُزْهَانَ رَبِّهِ» وحجته الباهرة الدالة على قبح الزنى، وكونه مبغوضاً له تعالى، وكمال إيقانه الواصل إلى مرتبة عين اليقين التي تتجلى عندها حقائق الأشياء بصورتها الواقعية التّزخيرية.

وهذه المَرتبة هي العصمة الالهية، ولكن رأى البرهان فلم يهتمّ بها أصلاً، وكان فاقداً الشرط، والمقصود بيان أنه لم يكن امتناعه عن ارتكاب الفاحشة لقصور في قواه الطبيعية ونقص في موجبات الرغبة، بل كان بمقتضى العفة والعصمة الألفية^٢ مع وفور الدواعي النفسانية وتحمية الموجبات الخارجية لظهور أحكام الطبيعة.

عن الرضا ﷺ، وقد سأله المأمون عن عصمة الأنبياء: قال ﷺ: «لقد همّت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها كما همّت به، لكنّه كان معصوماً، والمعصوم لا يهّم بذنّب ولا يأتيه».

قال: «ولقد حدّثني أبي، عن أبيه الصادق ﷺ، أنّه قال: همّت بأن تفعل، وهمّ بأن لا يفعل»^٣. وفي رواية: «أنّها همّت بالمعصية، وهمّ يوسف بقتلها إن أجبرته، لعظم ما تدّخله، فصرف الله عنه قتلها والفاحشة»^٤.

وقيل: إنّ البرهان هو أنّه رأى مكتوباً في جانب البيت: «لَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى»^٥. وقيل: إنّ قال له ملك: أنت تهّم بفعل السفهاء، وأنت^٦ مكتوب في ديوان الأنبياء^٧ وفي هذا القول ما لا يخفى.

وقيل: إنّ انفرج له سقف البيت، فرأى يعقوب عاصاً على يديه^٨.

وقيل: إنّ يعقوب ضرب على صدره، فخرجت شهوته من أنامله^٩.

وقيل: بدت كفّ [فيما بينهما] لا عَصْد لها ولا مِعَصَم، مكتوب فيها: «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ *

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٣٦. ٢. كذا، ولعل مراده المألوفة.

٣. عيون أخبار الرضا ﷺ ١: ٢٠١، تفسير الصافي ٣: ١٣.

٤. عيون أخبار الرضا ﷺ ١: ١٩٣، تفسير الصافي ٣: ١٣.

٥. تفسير روح البيان ٤: ٢٣٨. ٦. زاد في النسخة: واسمك.

٧ و ٨. تفسير روح البيان ٤: ٢٣٨. ٩. تفسير أبي السعود ٤: ٢٦٦.

كِرَامًا كَاتِبِينَ^١ فلم ينصرف، ثم رأى فيها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^٢ فلم ينتبه^٣، ثم رأى فيها: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى آفَاقٍ﴾^٤ فلم يتجع. فقال الله عز وجل لجبرئيل: أدرك عدي قبل أن يصيب الفاحشة^٥. فانحط جبرئيل ﷺ وهو يقول: يا يوسف، اتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء^٦.

في عصمة الأنبياء أقول: لا شبهة في فساد هذا القول وكذبه، وقيل: إنه رأى تمثال العزيز^٧. وقيل: إنه رأى شخصاً يقول له: يا يوسف، انظر إلى يمينك، فنظر [فراى] ثعباناً أعظم ما يكون، فقال: هذا يكون في بطن الزاني غداً^٨.

وقيل: إنه سمع قائلاً يقول: يابن يعقوب، المؤمن كالطير^٩ له ريش، فاذا زنى سقط ريشه^{١٠}. وقيل: إنه رأى جبرئيل عاصاً على يده^{١١}.

عن السجّاد ﷺ: قامت امرأة العزيز إلى الصنم، فألقت عليه ثوباً، فقال لها يوسف: [ما هذا؟] قالت: أستحيي من الصنم أن يرانا، فقال لها يوسف: [أستحيين ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه، ولا يأكل ولا يشرب، ولا أستحيي أنا ممن خلق الإنسان فعلمه، فذلك قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾^{١٢}. ورؤي ذلك عن الباقر ﷺ بعد أن كذب قول الناس إنه رأى يعقوب عاصاً على إصبعه^{١٣}.

وعن الصادق ﷺ: «أن رضا الناس لا يملك، وألستهم لا تضبط، وكيف تشلمون ممّا لا يشلم منه أنبياء الله ورسله وحجج الله ﷺ، ألم يتسبوا يوسف ﷺ إلى أنه هم بالزنا»^{١٤}.

أقول: والعجب أنّه مع ذلك روى بعض العامة عن الصادق ﷺ بإسناده عن عليّ ﷺ أنه قال: «طمعت فيه وطمعت فيها، فكان طمعه فيها أنّه هم أن يحلّ النكّة»^{١٥} بل نقلوا عن ابن عباس أنه قال: حلّ الهيمان^{١٦}، وجلس منها مجلس الخائن^{١٧}. وعنه أيضاً: أنّها استلقت له وجلس بين رجلها ينزع ثيابه^{١٨}. أقول: لا شبهة أن كلّها من الأكاذيب بحكم العقل والنقل وإجماع أهل الحلّ والعقد.

-
١. الإنفطار: ١٠/٨٢.
 ٢. الإسراء: ٣٢/١٧.
 ٣. في تفسير أبي السعود: فلم ينتبه.
 ٤. البقرة: ٢٨١/٢.
 ٥. في تفسير أبي السعود: الخطيئة.
 ٦. في تفسير أبي السعود ٤: ٢٦٦.
 ٧. في تفسير أبي السعود ٤: ٢٦٧.
 ٨. تفسير روح البيان ٤: ٢٣٨.
 ٩. في تفسير الرازي: يا ابن يعقوب لا تكون كالطير يكون.
 ١٠. تفسير الرازي ١٨: ١٢٠.
 ١١. مجمع البيان ٥: ٣٤٥.
 ١٢. عيون أخبار الرضا ﷺ ٢: ١٦٢/٤٥، تفسير الصافي ٣: ١٤.
 ١٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠٩٢/٣٤٠، تفسير الصافي ٣: ١٤.
 ١٤. أمالي الصدوق: ١٦٣/١٦٤، تفسير الصافي ٢: ١٤.
 ١٥. تفسير الرازي ١٨: ١١٥.
 ١٦. الهيمان: شِداد الشراويل.
 ١٧. ١٨. تفسير الرازي ١٨: ١١٥.

قال الفخر الرازي: إن كل من له تعلق بتلك الواقعة، شهد ببراءة يوسف من المعصية، فإن الذين لهم تعلق بتلك الواقعة يوسف والمرأة وزوجها والنسوة والشهود ورب العالمين، وكلهم شهدوا ببراءته، والشیطان أقر أيضاً ببراءته من المعصية، فإذا كان الأمر كذلك لم يبق لمسلم مجال التوقف في هذا الباب.

أما ادعاء يوسف ببراءته فقلوه: ﴿هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾^١ وقوله: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾^٢.

وأما المرأة فإنها اعترفت بذلك بقولها للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾^٣ وبقولها: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾^٤.

وأما زوج المرأة فبقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُمْ إِنَّ كَيْدَكُمُ عَظِيمٌ﴾ * يوسف أغرض عن هذا وأستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين^٥.

وأما الشهود فيقول الشاهد: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^٦.
وأما النسوة فبقولهن: ﴿أَمَرَأْتُ الْغَرِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^٧ وقولهن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾^٨.

وأما شهادة الله فبقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.
وأما اقرار إبليس بذلك فبقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾^٩
فأقر بأنه لا يمكنه إغواء العباد المخلصين.

ثم بين الله ميتة على يوسف بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ الاراءة للبرهان أريناه، ومثل ذلك التبصير بصرناه فيما قيل، أو مثل ذلك الثبوت بثبناه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ كله، ومنه خيانة العزيز، أو قتل زليخا ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ كان هو الزنا، أو ما شابهه في شدة القباحة.
ثم علل ذلك اللطف به بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ أحد من عبادنا المخلصين، والمصطفين لعبادتي وطاعتي.

وَأَسْتَبَقَا أَلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى أَلْبَابٍ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي

١. يوسف: ١٢/٢٦. ٢. يوسف: ١٢/٣٣. ٣. يوسف: ١٢/٣٢. ٤. يوسف: ١٢/٥١.

٥. يوسف: ١٢/٢٨ و ٢٩. ٦. يوسف: ١٢/٢٦. ٧. يوسف: ١٢/٣٠. ٨. يوسف: ١٢/٥١.

٩. تفسير الرازي ١٨: ١١٦، والآية من سورة ص: ٣٨ و ٨٢ و ٨٣.

عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قَبْلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنْ
الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا
رَأَى قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ
عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ [٢٥-٢٩]

ثم بين الله سبحانه شدة طلب زليخا وشدة امتناع يوسف من إجابتها بقوله: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾^١
البراني وتسايقا إليه، أما يوسف فللهرب من زليخا، وأما زليخا فلصد يوسف عن الفرار والخروج.
وفي رواية: كانت الأقفال تتساقط والأبواب تفتح^٢ ليوسف، فلما بلغته زليخا اجتذبت قميصه من
خلفه، لتوقفه وتمنعه من الخروج ﴿وَ﴾ لذا ﴿قَدَّتْ﴾ وشقت ﴿قَمِيصَهُ﴾ طولاً ﴿مِنْ دُبُرٍ﴾ وخلف
بالاجتذاب ﴿وَالْقِيَا﴾ ووجد العزيز الذي كان ﴿سَيِّدَهَا﴾ وزوجها ﴿لَدَى الْبَابِ﴾ وهو يريد أن
يدخل البيت كما قيل، وقيل: إنه كان جالساً عند الباب مع تملیخا ابن عم زليخا، وإنما قال سبحانه
سَيِّدَهَا لأن الزوج سيد المرأة، ولم يكن سيد يوسف لأنه لم يكن مالكه في الواقع.

ثم كأنه قيل: ما قالت زليخا لسيدها عند ذلك؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿قَالَتْ﴾ زليخا لسيدها
تنزيهاً لنفسها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ﴾ وزوجتك ﴿سُوءًا﴾ أو فحشاً، وليس جزاءه وعقوبته ﴿إِلَّا
أَنْ يُسَجَّنَ﴾ ويحبس في المخبس ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كالقتل بالسيف أو الضرب الشديد، وقيل: إن
كلمة ﴿مَا﴾ استفهامية، والمعنى أي شيء جزأه^٣ غير السجن أو العذاب الشديد؟

قال العزيز: من أراد بك سوءاً؟ قالت زليخا: إني كنت نائمة في فراشي، فجاء هذا الغلام العبري،
وكشف عن ثيابه، وراودني عن نفسي. فالتفت العزيز إلى يوسف، وقال: يا غلام، أهذا جزائي منك؟!
أنا أحسنت إليك، وأنت تخونني^٤! ﴿قَالَ﴾ يوسف تنزيهاً لعرضه وتبرئة لنفسه وحفظاً لها من
السجن والتعذيب: ﴿هِيَ رَاوَدَّتْنِي﴾ لتخادعني ﴿عَنْ نَفْسِي﴾ وطالبتني مواقعتها، وأنا امتنعت من
إجابتها حتى فررت منها.

قيل: إن العزيز قال: لا أقبل قولك إلا بالبرهان^٥. وقيل: إنه نظر إلى ظاهر حال زليخا وتظلمها، فأمر
بأن يسجن يوسف، فعند ذلك دعا يوسف بانزال براءته، وكان لزليخا خال له ابن في المهد - ابن ثلاثة
أشهر على رواية، أو ابن أربعة على أخرى، أو ابن ستة أشهر على ثالثة - فهبط جبرئيل إلى ذلك الطفل

١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٦٧، تفسير روح البيان ٤: ٢٤٠.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٤٠.

٣. جوامع الجامع: ٢٦٦، تفسير روح البيان ٤: ٢٤٠.

٤. في تفسير روح البيان: قول.

٥. تفسير روح البيان ٤: ٢٤٠.

وأجلسه في المهد، وقال له: اشهد ببراءة يوسف: فقام الطفل من المهد فجعل يسعى حتى قام بين يدي العزيز^١ **«وَشَهِدَ»** ببراءة يوسف، مع أنه **«شَاهِدٌ»** كان **«مِنْ أَهْلِهَا»** وأقاربها.

وعن ابن عباس: أن الشاهد كان صبيّاً أنطقه الله تعالى في المهد^٢.

وعن الصادق ﷺ: «ألهم الله عز وجل يوسف أن قال للملك: سل هذا الصبي في المهد، فإنه يشهد بأنها راودتني عن نفسي. فقال العزيز للصبي: فأنطق الله الصبي في المهد»^٣.

وقيل: كان لها ابن عم، وكان رجلاً حكيماً، واتفق أنه كان مع العزيز في ذلك الوقت، يريد أن يدخل عليها. فقال: فقد سمعنا الجلبة^٤ من وراء الباب، وشقّ القميص ولا ندري أيكما قُدام صاحبه^٥، ثم قال: انظروا إلى قميص يوسف **«إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ»** وشقّ **«مِنْ قُبُلٍ»** وقُدام **«فَصَدَقَتْ»** زليخا في أن يوسف أراد بها سوءاً **«وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ»** في قوله: هي راودتني عن نفسي **«وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ»** وشقّ **«مِنْ دُبُرٍ»** وخلف **«فَكَذَبَتْ»** زليخا في قولها ورميها يوسف **«وَهُوَ مِنْ»** جملة **«الضَّادِّينَ»** في رمي زليخا بمرآوته عن نفسه، لأنه إن كان يوسف طالباً لها ومقبلاً إليها، فإما أن تقوم زليخا في قبالة وتدفعه عن نفسها، وإما أن تهرب منه، ويتبعها يوسف، ويسرع في المشي، فيعثر بذيله، وعلى أي تقدير لا بد أن ينشق قميص يوسف من قُدام، وأما إن كانت زليخا طالبة له، ويوسف هارباً منها، فلا بد من أن ينشق قميصه من خلف، لأنها تتبعه وتجذب قميصه من خلف.

واعترض عليه بأن شقّ القميص من خلف ليس له دلالة قطعية على براءة يوسف، لاحتمال أنه لما طلب منها الزنا غَضِبَتْ عليه، وأرادت إيذاؤه فهرب منها، وركضت خلفه وجذبت له لتضربه، فخرق قميصه من خلف.

وفيه: أنه كانت على تقدير كون الشاهد ابن عمها أمارات أخرى على صدقه:

منها: أنه ﷺ كان بحسب الظاهر عبداً، والعبد يبعد أن يتجاسر على مولاه وزوجته.

ومنها: أنهم رأوا زليخا زينت نفسها بأكمل الزينة التي لم تتزين بها إلى ذلك اليوم.

ومنها: أن إثار الشهوة كانت فيها متكاملة بصبرها على الزوج سنين متطاوله، لأن زوجها كان غنياً.

ومنها: أنهم رأوا يوسف في غاية العفة مدة مديدة، إلى غير ذلك من القرائن.

ولذا **«قَلَمَّا رَأَى»** العزيز أو ابن عمها **«قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ»** علم ببراءة يوسف وصدقه في قوله

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٤٠.

٢. تفسير الرازي ١٨: ١٢٣.

٤. الجلبة: الضجيج والصخب.

٣. تفسير القمي ١: ٣٤٣، تفسير الصافي ٣: ١٥.

٥. تفسير الرازي ١٨: ١٢٣.

وَقَالَ: لزليخا: إن الأمر قد ظهر ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكَ﴾ ومكركن أيها النساء الماكرات، لا من كيد يوسف ﴿إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ﴾ لأنه أشد تأثيراً في النفوس من كيد الرجال، وأعلق بالقلوب منه، بل من كيد الشيطان لأنه يوسوس مسارقةً، وهن يواجهن به الرجال، فخرجت زليخا بعد انكشاف الأمر، واستحى العزيز وسكت.

ثم لما كان حليماً قليل الغيرة، محباً لزليخا غاية الحب، خائفاً من أن يشتهر الأمر في الناس، قال ليوسف: يا **يُوسُفُ أَغْرِضْ** واغمض **عَنْ هَذَا** الأمر واكتمه عن الناس، ولا تحدث به أحداً، لأنهم يعيرونني إن سمعوا به، وبأ زليخا ثوبي **وَأَسْتَغْفِرِي** الله **لِدُنْيِكَ** الذي ارتكبيته **إِنَّكَ كُنْتَ** وصرت بسببه **مِنْ** جملة القوم **الْخَاطِئِينَ** والمتعمدين لفعل القبيح. قيل: إن تذكير الجمع لتغليب الذكور على الإناث^١.

زوي أن العزيز حلف أن لا يدخل عليها إلى أربعين يوماً، وأخرج يوسف من عندها، وشغله بخدمة نفسه، وبقيت زليخا لاترى يوسف^٢.

وقيل: إن الآية من كلام الشاهد^٣، وكان هو الصبي، أو ابن عمه.

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُباً إِنَّا نَنَازِعُهَا فِي ظُلُلٍ مُبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فاستعصم وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَشْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ [٣٠-٣٢]

ثم قيل: إن امرأة ساقى الملك وامرأة خبازه وامرأة صاحب دوابه وامرأة صاحب سجنه وامرأة حاجبه، كن كثير المراودة مع زليخا، فاطلعن على قضيتها مع يوسف، فأفشين الخبر في نسوة مصر، ﴿وَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَتْ نِسْوَةٌ﴾ كن **فِي الْمَدِينَةِ** وبلدة مصر، أو المراد أن النسوة الخمس في المدينة [قلن] للنساء تشجيعاً ولوماً على زليخا: **امْرَأَتُ الْعَزِيزِ** مع جلالة شأنها وغاية خطرها

١. تفسير الرازي ١٨: ١٢٥، تفسير روح البيان ٤: ٣٤٣.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٤٣.

٣. تفسير الرازي ١٨: ١٢٦.

﴿تَرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ وتطالب مملوكها موافقته لها وتخادعه ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾، وتحتال في تحصيل مقصودها القبيح منه ﴿قَدْ شَغَفَهَا﴾ ووصل ذلك الفتى إلى سويداء قلبها ﴿حُبًّا﴾ وعشقاً، وحاصل المراد أنه تمكن حبه في قلبها بحيث شغلها عن غيره.

وقيل: إن المعنى أحاط بقلبها حبه كإحاطة الشَّغاف، وهو الجلد المحيطة بالقلب.^١

وقيل: إن المعنى أن حبه شقَّ شَغاف قلبها: ودخل فيه.^٢

عن القمي، عن الباقر ﷺ، يقول: «قد حجبتها حبه عن الناس فلا تعقل غيره».^٣

﴿إِنَّا﴾ والله ﴿لَنَرَاهَا﴾ ونعلمها، كعلمنا بالشيء بطريق المشاهدة غائرة ﴿فِي ظَلَالٍ﴾ وانحراف عن طريق العفاف والرشد والصواب ﴿مُبِينٍ﴾ وظاهر ضلالها عند كل أحد، أو مظهر بين الناس.

قيل: إنما قلن: لنراها في ضلال، ولم يقلن: إنها في ضلال، إشعاراً بأن حكمهن بضلالها عن علم ويقين، لا عن ظنٍّ وتخمين، وإعلاناً بتنزههن عما هي عليه.^٤

قيل: لذا ابتلاه الله بما عيروها، لأنه ما عير أحد أخاه بذنب إلا ارتكبه قبل أن يموت.^٥

عن القمي: وشاع الخبر بمصر، وجعلن النساء يتحدثن بحديثها، ويعذلنها^٦ ويذكرنها^٧.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ زليخا ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ وتعيبن إياها في الخفاء والسر، كاخفاء الماكر مكره: وقيل: مكرهن إفشاؤهن سر زليخا، فإن إفشاء السر يسمى مكرًا.

وقيل: إن النسوة كنَّ مشتاقات لأنَّ ينظرن إلى وجه يوسف، فاحتلن تعيب زليخا في ذلك، لأنهن عفرن أنهن إذا قلن ما قلن عرضت زليخا عليهن يوسف ليظهر عذرها عندهن.^٨

ولذا ﴿أَرْسَلْتُ﴾ زليخا خدماها ﴿إِلَيْهِنَّ﴾ لتدعوهن لضيافتها، إكراماً لهن، قيل: دعت أربعين امرأة، منهن الخمس المذكورات.^٩ عن القمي: بعثت إلى كل امرأة رئيسة فجمعتن في منزلها^{١٠}

﴿وَأَعْتَدْتُ﴾ وهيئ ﴿لَهُنَّ مَتَكًّا﴾ ومأرق يعتمدن عليها، وقيل: إن المتكأ هو الطعام، أو الأترج، أو الطعام المحتاج إلى القطع بالسكين.^{١١}

﴿وَأَنْتَ﴾ وأعطت زليخا ﴿كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ﴾ بعد الاتكاء ﴿سَكِينًا﴾: لقطع الفواكه أو الأطعمة

١. تفسير الرازي ١٨: ١٢٦.

٢. تفسير القمي ١: ٣٥٧، تفسير الصافي ٣: ١٦.

٣. تفسير القمي ١: ٣٤٣، تفسير الصافي ٣: ١٦.

٤. تفسير القمي ١: ٣٤٣، تفسير الصافي ٣: ١٦.

٥. تفسير القمي ١: ٣٤٣، تفسير الصافي ٣: ١٦.

٦. تفسير القمي ١: ٣٤٣، تفسير الصافي ٣: ١٦.

٧. تفسير القمي ١: ٣٤٣، تفسير الصافي ٣: ١٦.

٨. تفسير القمي ١: ٣٤٣، تفسير الصافي ٣: ١٦.

٩. تفسير القمي ١: ٣٤٣، تفسير الصافي ٣: ١٦.

١٠. تفسير القمي ١: ٣٤٣، تفسير الصافي ٣: ١٦.

١١. تفسير القمي ١: ٣٤٣، تفسير الصافي ٣: ١٦.

التي حضرت عندهن، روي أن زليخا اتخذت لهن ضيافة عظيمة من أنواع الفواكه وألوان الأطعمة والأشربة ما لا يوصف^١.

قيل: جاءت زليخا عند يوسف، فلبسته حلة خضراء، وأرسلت ذوابته على صدره، وشدت في وسطه منطقة من الذهب، وألبسته نعلين مزينين بالجواهر^٢.

﴿وَقَالَتْ﴾ له حين اشتغالهن باستعمال السكاكين في ما بأيديهن من الفواكه وأضرابها: ﴿أَخْرِجْ﴾ يا يوسف ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ وابزُ لهن، فخرج عليهن لما لم يقدر على مخالفتها.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ﴾ بذلك الحسن الفائق والجمال الرائق الذي يضمحل عنده جمال كل جميل، إذن ﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ وأعظمته، ودهشن من فرط حسنه، بحيث غفلن عن أنفسهن، وخرجت أفعالهن عن اختيارهن، ولم يعلمن ما يفعلن. وقيل: يعني حُسن من شدة الشبق ليوسف^٣ ﴿وَقَطَّعْنَ﴾ بالسكاكين ﴿أَيْدِيَهُنَّ﴾ بدل الفواكه والأطعمة. عن وهب: ماتت جماعة منهن^٤.

عن النبي ﷺ قال: «رأيت في السماء الثانية رجلاً صورته كالقمر ليلة البدر، فقلت لجبرئيل: من هذا؟ قال: أخوك يوسف»^٥.

قيل: كان فضل يوسف على الناس في الفضل والحسن كفضل القمر ليل البدر على سائر الكواكب^٦. وقيل: إنه إذا سار في أزقة مصر، يرى تلالو وجهه على الجدران، كما يرى نور الشمس عليها^٧. وقيل: كان يشبه آدم يوم خلقه ربه^٨.

﴿و﴾ لذا ﴿قُلْنَ﴾ من فرط التعجب من حسنه وكمال قدرة الله على الخلق: ﴿حَاشَ اللَّهُ﴾ ونزهة عن العجز حيث قدر على خلق مثل هذا الغلام الذي لا يتصور له نظير في الجمال والحسن.

ثم لما كان المركوز في الأذهان أن الملك أحسن المخلوقات بالغنى في توصيف حسنه بقولهن: ﴿مَا هَذَا﴾ الذي نراه ﴿بَشَرًا﴾ ومن جنس بني آدم لعدم إمكان وجود هذه الدرجة من الحسن فيهم، بل ﴿إِنْ هَذَا﴾ الجميل الذي لا نظير له، وما هو ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ على ربه.

قيل: إن النساء لما رأين غاية عفته وكرامة نفسه قلن ذلك^٩. فلما رأت زليخا دهشة النساء من رؤية يوسف ﴿قَالَتْ﴾ اعتذاراً من عشقها إياه وحبها له: ﴿فَذَلِكُنَّ﴾ الشاب الذي رأيته افتتن به هو العبد

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٤٦.

٣. تفسير أبي السعود ٤: ٢٧٢، تفسير روح البيان ٤: ٢٤٧.

٥. مجمع البيان ٥: ٣٥٣، تفسير الصافي ٣: ١٦.

٧ و ٨. تفسير الرازي ١٨: ١٢٧، تفسير روح البيان ٤: ٢٤٨.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٤٧.

٦. تفسير الرازي ١٨: ١٢٧.

٩. تفسير الرازي ١٨: ١٢٨، مجمع البيان ٥: ٣٥٣.

الكنعاني ﴿الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ﴾ وَعَدَلْتُنِي عَلَى حَبِّهِ وافتتاني به، ولو رأيته قبل المجلس أو تصوّرته صورته لما كنتم تلوموني على حبّه، بل ظهر أنكنّ أحقّ باللوم لأنكنّ بنظرة واحدة إليه ظهر فيكن ما لم يظهر في المدة المديدة.

قيل: أتما أشارت زليخا إليه بذلك الذي للبعيد لكونها بعد انصرافه من المجلس^١، أو لظهار رفعة منزلته في الحسن.

ثم إنها لما ظهر عذرها عند النسوة، كشفت السرّ عما كانت تستره، وأعلنت بحقيقة الحال بقولها: ﴿وَلَقَدْ رَاودُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ وطلبت منه أن يمكّنني من قربهِ ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ بالله واستجار إليه من إجابتي، ﴿وَالله﴾ ﴿لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ﴾ ولم يجب ما أسأله من المواقعة ﴿لَيَسْجَنَنَّهُ﴾ البتة ﴿وَلَيَكُونَنَّ﴾ لا محالة ﴿مِنْ﴾ جملة ﴿الصَّاعِرِينَ﴾ والمهانين في الناس، وإنما أوعدته بالصغار والدّلّ لعلمها بأن له تأثيراً عظيماً في قلب من كان عزيز النفس رفيع المقام عظيم الخطر كيوسف، فتضيق عليه الجبل، وإنما قالت ذلك بين النساء ليعلم يوسف أنها ليست من أمرها على خيفة وخفية. قيل: إن النسوة لما سمعن منها هذا التهديد اجتمعن على يوسف، وقلن: إنا نرى صلاحك في موافقتها، وإلا توقعك في السجن، وتبتليك بالدّلّ والصغار^٢.

قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لَيَسْجُنَنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ * وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبُنَّا بِنَاءُ وَيْلَهُ إِنَّا تَرَاكَ مِنْ أَلْمُحْسِنِينَ [٣٦-٣٣]

ثم لما رأى يوسف ﷺ موجبات الرغبة في إجابة مسؤولها كثيرة من حسناتها وكثرة أموالها وموافقة النسوة معها، وتوقع شرّها كالقتل والسجن ونظائرهما، التجأ إلى الله واعتصم به بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ السَّجْنَ﴾ الذي تهدّدني به زليخا، وتخوفني به النسوة ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ وأولى بالتحمل لدي ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ من الزنا والفحش لقلّة المحاذير الدنيوية بالنسبة إلى المحاذير الأخروية ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ﴾ ولا تدفع ﴿عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ ومكرهنّ بي في إلقائي في الخطر وبعثي إلى خلاف رضاك

«أَصْبُ» وأميل «إِلَيْهِنَّ» وأوافق ميلهن وأقدم في إجابة مسؤولهن «وَأَكُنْ» بعملِي هذا «وَمِنْ الْجَاهِلِينَ» والسفهاء الذين لا ينظرون إلى سوء عواقب أعمالهم.

القمي رحمه الله: فما أمسى يوسف في ذلك البيت حتى بعثت إليه كل امرأة رآته تدعوه إلى نفسها، فصرح يوسف في ذلك البيت فقال: «رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ»^١ الآية.

قيل: عند ذلك بكى الملائكة رحمة له، وهبط إليه جبرئيل فقال له: يا يوسف، ربك يقرنك السلام ويقول لك: اصبر فإن الصبر مفتاح الفرج، وله عاقبة^٢ محمودة^٣.

قيل: إنه لو قال رب العافية أحب إلي، لعافاه الله^٤، ولم يبتل بالسجن «فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ» دعاءه ومسأله «فَصَرَفَ» ودفع «عَنهُ» برحمته «كَيِّدَهُنَّ» حسب دعائه، وثبته على العصمة والعفة التي كان عليها حتى وطئ نفسه على مقاساة السجن واختيار المحنة والشدة على اللذة والراحة «إِنَّهُ» تعالى «هُوَ السَّمِيعُ» لدعاء الداعين له وتضرع المتضرعين إليه «الْعَلِيمُ» بما في قلوبهم من الخلوص وبما يصلحهم.

في (العلل) عن السجاد عليه السلام: «كان [يوسف] من أجمل أهل زمانه، فلما راهق راودته امرأة الملك عن نفسه، فقال لها: معاذ الله إننا من أهل بيت لا يزنون: فغلقت الأبواب عليها وعليه. وقالت لا تخف، وألقت نفسها عليه، فأفلت منها هارباً إلى الباب ففتحه، فلحقته فجدبت قميصه من خلفه فأخرجته منه، فأفلت منها في ثيابه، وألفيا سيدها لدى الباب، قالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم.

قال: فهم الملك بيوسف ليعذبه فقال له يوسف: وإله يعقوب، ما أردت بأهلك سوءاً، بل هي راودتني عن نفسي، فسل هذا الصبي أيتها راود صاحبه عن نفسه. قال: وكان عندها صبي من أهلها زائر لها، فأنطق الله الصبي لفصل القضاء، فقال: أيها الملك، انظر إلى قميص يوسف، فإن كان مقدوداً من قدامه فهو الذي راودها، وإن كان مقدوداً من خلفه فهي التي راودته.

فلما سمع الملك كلام الصبي وما اقتضى، أفزعه ذلك فزعاً شديداً، فجيء بالقميص فنظر إليه، فلما رآه مقدوداً من خلفه قال لها: إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم. وقال ليوسف: أعرض عن هذا ولا يسمعه منك أحد واكتمه. قال: فلم يكتمه يوسف وأذاعه في المدينة حتى قلن نسوة فيها: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، فبلغها ذلك فأرسلت إليهن وهيات لهن طعاماً ومجلساً، ثم اتتهن بآترج،

٢. في تفسير روح البيان: وعاقبته.

١. تفسير القمي ١: ٣٤٣، تفسير الصافي ٣: ١٧.

٣ و ٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٥٢.

وَأَنْتَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا، ثُمَّ قَالَتْ لِيُوسُفَ: اخْرُجْ عَلَيَّهِنَ: فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ مَا قُلْنَا. فَقَالَتْ لَهُنَّ هَذَا ﴿الَّذِي لَمْ نُنَبِّئْ فِيهِ﴾ يَعْنِي فِي حَبِّهِ، وَخَرَجْنَ النِّسْوَةَ مِنْ عِنْدِهَا فَأَرْسَلْتُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ إِلَى يُوسُفَ سِرًّا مِنْ صَوَاحِبِهَا تَسْأَلُهُ الزِّيَارَةَ، فَأَبَى عَلَيْهِنَّ، وَقَالَ: ﴿إِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فَصَرَفَ اللَّهُ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ^١.

ثُمَّ قِيلَ: لَمَّا ظَهَرَ لِلْعَزِيزِ بَرَاءَةُ يُوسُفَ، لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُ، وَخَصَّه بِخِدْمَةِ نَفْسِهِ، فَاحْتَالَتْ زَلِيخَا بَعْدَ ذَلِكَ بِحِيلٍ تَضَطَّرَّ يُوسُفَ إِلَى مُوَافَقَتِهَا، فَلَمْ تَوْثَرْ فِيهِ، فَلَمَّا أَيْسَتْ مِنْهُ قَالَتْ لَزَوْجِهَا: إِنَّ هَذَا الْعَبْدَ فَضَحْنِي فِي النَّاسِ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى إِظْهَارِ عُدْرِي، فِيمَا أَنْ تَأْذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ لِلْاعْتِذَارِ، أَوْ تَحْبِسَهُ كَمَا حَبَسْتَنِي^٢.

وَقِيلَ: إِنَّ النِّسْوَةَ كُنَّ يَدْعُونَ يُوسُفَ إِلَى أَنْفُسِهِنَّ، فَلَمَّا يَتَسَنَّ مِنْهُ جِئْنَ إِلَى زَلِيخَا، وَقُلْنَ: نَرَى أَنَّ تَحْبِسَهُ أَيَّامًا قَلِيلًا، لَعَلَّهُ بَعْدَ ابْتِلَائِهِ بِذَلِكَ السِّجْنِ وَتَعَبِهِ انْقَادَ لَكَ، فَقَالَتْ زَلِيخَا لِلْعَزِيزِ: أَرَى أَنَّ الْأَصْلَحَ أَنْ تَحْبِسَهُ لِيَنْقَطِعَ عَنِ النَّاسِ ذِكْرُ هَذَا الْحَدِيثِ^٣، أَوْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ الْمَجْرَمُ، وَكَانَ الْعَزِيزُ مُطِيعًا لَهَا، فَاعْتَرَزَ بِقَوْلِهَا ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ﴾ وَتَغَيَّرَ رَأْيُهُمْ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ التَّعَرُّضِ لَهُ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا آيَاتِ﴾ وَالشَّوَاهِدَ عَلَى بَرَاءَةِ يُوسُفَ ﴿لَيْسَ جُنُتُهُ﴾ وَلِيَحْبِسَهُ ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ انْقِطَاعَ قَالَةِ النَّاسِ بِنَظَرِ الْعَزِيزِ، وَإِلَى زَمَانِ انْقِيَادِ يُوسُفَ أَوْ حِسَابِ النَّاسِ أَنَّهُ الْمَجْرَمُ بِنَظَرِ زَلِيخَا.

عَنِ الْبَاقِرِ ﷺ: «الْآيَاتُ: شَهَادَةُ الصَّبِيِّ، وَالْقَمِيصُ الْمَخْرُقُ مِنْ دُبُرٍ، وَاسْتِيقَامُهُمَا الْبَابُ حَتَّىٰ سَمِعَ مَجَازِبَتَهَا إِيَّاهُ عَلَى الْبَابِ، فَلَمَّا عَصَاهَا لَمْ تَزَلْ مُؤَلَّعَةً^٤ بِزَوْجِهَا حَتَّىٰ حَبَسَهُ»^٥.

قِيلَ: كَانَ لِلْعَزِيزِ ثَلَاثَةُ سِجُونٍ: سِجْنُ الْعَذَابِ، وَسِجْنُ الْقَتْلِ، وَسِجْنُ الْعَافِيَةِ، فَأَمَّا سِجْنُ الْعَذَابِ فَهُوَ مُحْفُورٌ فِي الْأَرْضِ وَفِيهِ الْحَيَاتُ وَالْعِقَارِبُ، وَهُوَ مَظْلَمٌ لَا يُعْرَفُ فِيهِ اللَّيْلُ مِنَ النَّهَارِ، وَأَمَّا سِجْنُ الْقَتْلِ فَهُوَ مُحْفُورٌ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، وَكَانَ الْمَلِكُ إِذَا سَخِطَ عَلَى أَحَدٍ يُلْقِيهِ فِيهِ عَلَى أَمِّ رَأْسِهِ فَلَا يَصِلُ إِلَى قَعْرِهِ إِلَّا وَقَدْ هَلَكَ، وَأَمَّا سِجْنُ الْعَافِيَةِ فَإِنَّهُ كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَى جَانِبِ قَصْرِهِ، فَإِذَا غَضِبَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ حَوَاشِيهِ حَبَسَهُ فِي ذَلِكَ السِّجْنِ، فَلَمَّا أَرَادَتْ زَلِيخَا أَنْ يُشَجَّنَ يُوسُفَ أَرْسَلَتْ إِلَى سِجَانِ سِجْنِ الْعَافِيَةِ، وَأَمَرَتْهُ أَنْ يُصَلِّحَ فِيهِ مَكَانًا مُتَفَرِّدًا لِيُوسُفَ، ثُمَّ قَالَتْ لِيُوسُفَ: لَقَدْ أَعْيَيْتَنِي، وَانْقَطَعَتْ فَيْكَ حِيلَتِي، فَلَا سَلَمَ لَكَ إِلَى الْمَعْدِبِينَ يَعَذِّبُونَكَ كَمَا عَذَّبْتَنِي، وَلَأَبْلِسَنَّكَ بَعْدَ الْحُلِيِّ

٢. تفسير الرازي ١٨: ١٣٢.

١. علل الشرائع: ١/٤٨، تفسير الصافي ٣: ١٨.

٤. ولع به: أغري به، في تفسير القمي: ملحمة.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٥٤.

٥. تفسير القمي ١: ٢٤٤، تفسير الصافي ٣: ١٩.

والحلل جبة صوف تأكل جلدك، ولأقيدك بقيد من حديد يأكل رجلك.

ثم نزع ما كان عليه من اللباس، والبسته جبة صوف، وقيدته بقيد من حديد، فلما دنا من باب السجن نكس رأسه، فلما دخل قال: بسم الله^١ ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنُ فُتَيَانٌ﴾ وعبدان من عبيد الملك الأكبر: أحدهما صاحب طعامه، والآخر صاحب شرابه.

قيل إن جماعة من أهل مصر وعدوهما^٢ مالا كثيرا ليسما الملك في طعامه وشرابه فأجاباهم إلى ذلك، ثم أن الساقى نكل عن ذلك، ومضى عليه الخباز فسم الخبز، فلما حضر الطعام قال الساقى: لا تأكل أيها الملك من الخبز فإنه مسموم. وقال الخباز: لا تشرب أيها الملك من الشراب فإنه مسموم، فقال الملك للساقى: اشربه فشربه فلم يضره، وقال للخباز: كله فأبى، فجزه بدابة فهلك، فأمر الملك بحبسهما، فاتفق أن أدخلوا في السجن مع يوسف^٣.

فلما دخل يوسف في السجن جلس في ناحية منه، وأحاط به أهل السجن وهو يبكي، فاتاه جبرئيل فقال له عليه السلام: مِمَّ بكاءك وأنت اخترت السجن لنفسك؟ فقال: إنما بكاني لأنه ليس في السجن مكان طاهر [أصلي فيه] فقال له جبرئيل: صل حيث شئت، فإن الله قد طهر خارج السجن وداخله أربعين ذراعاً لأجلك، فكان يصلي حيث أراد، وكان يصلي ليلة الجمعة عند باب السجن، فطلبت زليخا السجن، وقالت له: ارفع الغل عن يوسف، وألبسه حلل الحرير والاستبرق، وارفق به غاية الرفق.

ثم أثر في قلبها الفراق، واحترقت بنار الاشتياق، فجاءت ليلة مع دأيتها^٤ إلى السجن وطالعت جمال يوسف من بعيد: ثم كانت تنظر إليه من روضة^٥ القصر إلى السجن، وكان يوسف على عادته مشغولاً بالعبادة، ويسلي أهل السجن، ويحسن إليهم بكل ما قدر، فقالوا، بارك الله عليك، ما أحسن وجهك! وما أحسن خلقك! لقد بورك لنا في جوارك. فمن أنت يا فتى؟ فقال عليه السلام: أنا يوسف ابن صفي الله يعقوب بن ذبيح الله إسحاق بن خليل الله إبراهيم. فقال له السجنان: لو استطعت لخليت سبيلك، ولكن أحسن جوارك، فكُن في أي بيت شئت^٦.

وروي أن الفتيين قالوا له: إننا لنحبك من حين رأيناك. فقال: أنشدكما بالله أن لا تحباني، فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل من حبه عليّ بلاء، لقد أحببني عمّي فدخل عليّ من حبه بلاء، ثم أحبني

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٥٤.

٣. تفسير أبي السعود: ٢٧٥، تفسير روح البيان ٤: ٢٥٧.

٤. الدابة: المرضعة الأجنبية، والحاضنة، والقابلة.

٥. الروضة: الكوة.

٦. تفسير روح البيان ٤: ٢٥٥-٢٥٨.

أبي فدخل عليّ من حبّه بلاء، ثمّ أحبّني امرأة صاحبي فدخل عليّ من حبّها بلاء، فلا ثحبّاني بارك الله فيكما^١.

وفي رواية عن الرضا ﷺ، «قال: قال السجنان ليوسف: [إني] لأحبّك. فقال يوسف: ما أصابني [بلاء] إلّا من الحبّ، إن كانت خالتي أحبّني فهي سرقتي، وإن كان أبي أحبّني فقد حسدني إخوتي، وإن كانت امرأة العزيز أحبّني فحبستني»^٢.

وعن القمي رحمه الله: إنّ يوسف شكّا إلى الله في السجن، فقال: يا رب، بما استحققت السجن؟ فأوحى الله إليه: أنت اخترت السجن حين قلت: ربّ السجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه، هلاّ قلت: العافية أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه^٣.

وعن الصادق ﷺ: «البكّاون خمسة» إلى أن قال: «وأما يوسف فبكي على يعقوب حتى تأذّى به أهل السجن، فقالوا له: إمّا أن تبكي الليل وتسكّت بالنهار، وإمّا أن تبكي بالنهار وتسكّت بالليل، فصالحهم على واحدٍ منهما»^٤.

وفي رواية أخرى عنه ﷺ: «ما بكى أحدٌ بكاء الثلاثة إلى أن قال: وأما يوسف فإنّه كان يبكي على أبيه يعقوب وهو في السجن، فتأذّى به أهل السجن، فصالحهم على أن يبكي يوماً ويسكّت يوماً»^٥. قيل: إن زليخا سألت من العزيز بعد أيام أن يُخرج يوسف من السجن، فلم يفعل، فأنساهم الله أمر يوسف فلم يذكره حتّى مضى عليه خمس سنين، وبقي الفتيان اللذان دخلا معه السجن فيه خمس سنين، ثمّ رأيا الرؤيا قبل انقضاء المدة بثلاثة أيام^٦.

ثمّ «قال»: الساقى الذي هو «أَحْدُهُمَا»: وكان اسمه ابروها أو بوقا^٧ على ما قيل «إني أرايني: في المنام كأني في بُستان، فإذا أنا بأصل عنبه^٨ حسنة فيها ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيته، وكأني كأس المَلِك بيدي، وإني «أَعَصِرُ» فيه العنب الذي يكون مصيره «خَمْرًا» وسقيت المَلِك فشربه»^٩.

وقيل: إن أهل عُمان يسمّون العنب بالخمّر، ف وقعت هذه اللفظة إلى أهل مكّة فنطقوا بها^{١٠}.

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٥٨.
٢. تفسير القمي ١: ٣٥٤، تفسير الصافي ٣: ١٩.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢١٠٢/٣٤٤، تفسير الصافي ٣: ١٩.
٤. الخصال: ١٥/٢٧٣، تفسير الصافي ٢: ١٩.
٥. في تفسير روح البيان: بونا.
٦. تفسير روح البيان ٤: ٢٦٤.
٧. في تفسير روح البيان: خَبْلَة، وكلاهما بمعنى، فالحَبْلَة: الكرم.
٨. تفسير روح البيان ٤: ٢٥٧، تفسير الرازي ١٨: ١٣٤.
٩. تفسير الرازي ١٨: ١٣٤.

٣٩٦..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٣

﴿وَقَالَ: الْخَبَازُ هُوَ «الْآخَرُ» مِنْهَا اسْمُهُ غَالِبٌ أَوْ مَخْلَبٌ عَلَى مَا قِيلَ^١: «إِنِّي أَرَانِي» فِي الْمَنَامِ كَأَنِّي فِي مَطْبَخِ الْمَلِكِ، وَأَنَا «أَحْمِلُ قُوْقُ رَأْسِي» ثَلَاثَ سَلَالٍ مِثْلَيْنِ «خُبْرًا» وَأَرَى أَنَّهُ «تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ».

قيل: إن يوسف لما دخل السجن قال لأهله: إِنِّي أُعَبِّرُ الرُّؤْيَا وَالْمَنَامَاتِ^٢. وعن الصادق عليه السلام: «لَمَّا أَمَرَ الْمَلِكُ بِحَبْسِ يَوْسُفَ فِي السِّجْنِ أَلْهَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا، فَكَانَ يُعَبِّرُ لِأَهْلِ السِّجْنِ رُؤْيَاهُمْ، وَإِنَّ فِتْنِينَ أَدْخَلَا مَعَهُ فِي السِّجْنِ يَوْمَ حَبْسِهِ، فَلَمَّا بَاتَا أَصْبَحَا فَقَالَا لَهُ، إِنَّا رَأَيْنَا^٣ الْخَبَرَ. قيل: إِنَّهُمَا لَمْ يَرِيَا شَيْئًا، وَكَذَبَا فِي ذَلِكَ^٤. وقيل: إِنَّ السَّاقِيَّ كَانَ صَادِقًا، وَالْآخَرَ كَاذِبًا^٥.

وعن مجاهد: أَنَّهُمَا كَانَا صَادِقَيْنِ^٦. ثم قال ليوسف استعلاماً واختباراً: يَا يَوْسُفُ «نَبِّئْنَا» وَأَخْبِرْنَا بِتَعْبِيرِ رُؤْيَانَا وَ«بِتَأْوِيلِهِ» وَلَمَّا رَأَاهُ أَنَّهُ يَأْزِلُ رُؤْيَا أَهْلِ السِّجْنِ تَأْوِيلًا حَسَنًا عَلَّلَا سَوَالَهُمُ التَّعْبِيرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِمْ: «إِنَّا نَرَاكَ» وَنَشَاهَدُكَ «مِنَ الْمُحْسِنِينَ» فِي تَأْوِيلِ الرُّؤْيَا. وقيل: يَعْنِي مِنَ الْمُتَخَلِّقِينَ بِالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ، وَالْمُتَزَمِّينَ بِالْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ يَهْتَمُّ بِإِزَالَةِ الْغَمِّ عَنِ الْقُلُوبِ، بِحَسَنِ التَّعْبِيرِ^٧.

عن الصادق عليه السلام: «كَانَ يَوْسُفُ الْمَجْلِسَ، وَيُقْرَضُ^٨ لِلْمَحْتَاجِ، وَيُعِينُ الضَّعِيفَ»^٩. وعنه عليه السلام في رواية أخرى: «كَانَ يَقُومُ عَلَى الْمَرِيضِ، وَيَلْتَمِسُ لِلْمَحْتَاجِ، وَيَوْسَعُ عَلَى الْمَجْبُوسِ^{١٠}.

وقيل: كَانَ يَعَامَلُ مَعَ أَهْلِ السِّجْنِ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَيَحْسَنُ إِلَيْهِمْ غَايَةَ الْإِحْسَانِ^{١١}. وقيل: يَعْنِي مِنَ الْمُحْسِنِينَ فِي أَمْرِ الدِّينِ، وَالْمَوَاطِنِينَ عَلَى الْعِبَادَاتِ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ يُوَثِّقُ بِقَوْلِهِ فِي التَّعْبِيرِ^{١٢}.

قَالَ لَا يَأْتِيكُمْ طَعَامٌ تُزَوِّقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمْ ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ *

٢. تفسير الرازي ١٨: ١٣٤، تفسير روح البيان ٤: ٢٥٧.

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٥٧.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠٩٧/٣٤٢، تفسير الصافي ٣: ٢٠.

٤. تفسير الرازي ١٨: ١٣٤، تفسير أبي السعود ٤: ٢٧٦.

٥. مجمع البيان ٥: ٣٥٦، تفسير روح البيان ٤: ٢٥٧.

٦. مجمع البيان ٥: ٣٥٦.

٨. في الكافي وتفسير الصافي: يستقرض.

٧. تفسير الرازي ١٨: ١٣٥.

١٠. تفسير القمي ١: ٣٤٤، تفسير الصافي ٣: ٢٠.

٩. الكافي ٢: ٣/٤٦٥، تفسير الصافي ٣: ٢٠.

١١ و ١٢. تفسير الرازي ١٨: ١٣٥.

وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ [٣٧ و ٣٨]

ثم أنه أراد دعوتهما إلى التوحيد الذي هو أولى بهما مما سألاه قبل إسعاف حاجتهما على ما هو وظيفة النبوة وطريقة الأنبياء، فبدأ باظهار معجزة دالة على صدقه في الدعوة، وهي الإخبار بالمغيبات^١، حيث ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا﴾ من الخارج ﴿طَعَامٌ﴾ كان مأكولاً أو مشروباً ﴿تُزَوَّيَانِي﴾ وتطعمانه في مقامكما وقتاً من الأوقات ﴿إِلَّا نَبَأْتُكُمَا﴾ وأخبركما ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ وبجميع خصوصياته من جنسه ومقداره وكيفية طعمه ولونه وخواصه ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ ويحضر عندكما قيل: إنه كان يخبرهما بما يؤتى إليهما في السجن ويصفه لهما قبل أن يأتيهما، ويقول: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت، وكما تأكلان منه، فيجدان كما أخبرهما^٢.

وقيل: إنما قال ذلك لاعلامهما بعدم اختصاص علمه بتعبير الرؤيا، بل هو عالم بالمغيبات^٣. وقيل: إن المَلِكَ كان إذا أراد قتل أحد أدخل في طعامه السم وأرسله إليه، ولذا قال ذلك، وأراد من قوله: ﴿نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أخبركما بأنه مسموم أم لا. فتعجبوا من ذلك، وقالوا: من أين لك العلم الذي يكون للغراف والكهنة؟ قال: ﴿ذَلِكُمَا﴾ الإخبار بالتأويل الذي من العلم بالمغيبات ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ بطريق الإلهام والوحي، وليس من التكهّن والتنجيم^٤.

ثم بيّن علّة تفضّل الله عليه بهذه الفضيلة بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ﴾ ورفضت ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ ودين جمع ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ ولا يوحّدونه، بل يعبدون الأصنام ويُسْرِكُونَ به ﴿وَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ ودار الجزاء والجنّة والنار ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ ومنكرون ﴿وَأَتَّبَعْتُ﴾ من بين الملل التي عليها الناس ﴿مِلَّةَ آبَائِي﴾ الكرام، أعني ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وفيه تعريف نفسه بشرف النسب الموجب لازدياد الرغبة في قبول قوله والافتداء به.

ثم بالغ في إظهار بطلان الشرك والتبرئ منه بقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ يصحّ ﴿لَنَا﴾ معاصر الأنبياء ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ﴾ المتفرد بالألوهية ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من الأشياء ملك أو جِنّ أو إنس فضلاً عن الجماد الذي لا روح له ولا شعور ﴿ذَلِكَ﴾ التوحيد ﴿مِنْ فَضْلِ آفِهِ﴾ ورحمته ﴿عَلَيْنَا﴾ حيث أوحاه إلينا لقوة نفوسنا، ووفور عقولنا، وكمال بصيرتنا ﴿وَعَلَى﴾ سائر ﴿النَّاسِ﴾ ببعثنا إليهم لهديتهم إليه ﴿وَلَكِنَّ

٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٦٠.

٤. في النسخة: والتنجيم.

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٥٩.

٣. تفسير الرازي ١٨: ١٣٦.

أَكْثَرَ النَّاسِ ﴿المبعوث إليهم الرسل﴾ «لَا يَشْكُرُونَ» الله على هذه الرحمة العظيمة والفضل الجسيم، فلا يقدمون بقبوله والالتزام به، بل يُعرضون عنه ويُشركون به الأصنام، ويعبدون الأوثان.

يَا صَاحِبِي السَّجْنِ ءَأَزْبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [٣٩]

ثم أخذ عليه السلام في الاستدلال على صحة التوحيد ويطلان الشرك بعد مخاطبتهما بما يوجب تهيج المودة وجلب التوجه بقوله: «يَا صَاحِبِي السَّجْنِ» ومشاركي في الصَّيْق والصَّنَك، أو يا ملازمي السجن «ءَأَزْبَابٌ» وآله كثيرة «مُتَّفَرِّقُونَ» في أطراف العالم على ما تعتقدون، أو متفاوتون في الجنس كالذهب والفضة والخشب والحجارة، وفي المقدار كالطول والعرض والقصر والصغر والكبر «خَيْرٌ» لنظام العالم وتربية الموجودات على الوجه الأنتم «أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» لجميع الأشياء بحيث يكون كل شيء تحت قدرته، ولا يمنعه شيء عن إنفاذ إرادته، فمن البديهي أن الواحد القادر الذي يتم به النظام خيرٌ من الكثير العاجز الذي يختل به النظام.

وقيل: إن المراد أن الواحد القادر الذي لا يقهره شيء وهو يقهر كل شيء خيرٌ، أم الأصنام المتفرقة بالشكل، المصنوعة بيد الغير، المقهورة تحت قدرة الخلق؟ أو المراد: أن الإله الواحد الذي نعلم أنه المنعم علينا والمستحق لعبادتنا خير، أم الآلهة الكثيرة التي لا نعلم أنها خالقنا ورازقنا والمنعم علينا حتى نعبده.

مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ آَلَقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [٤٠]

ثم استدلل ثانياً مخاطباً لهما، ولمن كان على دينهما بقوله: «مَا تَعْبُدُونَ» إذ تعبدون «مِنْ دُونِهِ» ومما سواه شيئاً «إِلَّا أَسْمَاءَ» صِرفه لا مسميات لها، ولا واقعية لمعانيها، ولا وجود لمفاهيمها في الخارج، وإنما «سَمَّيْتُمُوهَا» وجعلتموها «أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ» أسماء لهذه الأجسام بمحض جهلكم وضلالكم، وكانت تسميتها بالآلهة وعبادتها من قبل أنفسكم «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا» شيئاً «مِنْ سُلْطَانٍ» وبرهان يوجب جوازها «إِنْ الْحُكْمُ» وما الأمر في جواز العبادة المتفرعة على التسمية «إِلَّا لِلَّهِ» وحده لأنه المستحق لها بالذات، لكونه الواجب الموجد لجميع الأشياء، المالك لأمرها.

ثم كأنه قيل: ماذا أمره في العباد؟ فقال: ﴿أَمَرَ﴾ أيها الناس بتوسط الأنبياء ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ شيئاً ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وأن لا تضرعوا ولا تخضعوا إلا له ﴿ذَلِكَ﴾ التوحيد والتخصيص للعبادة به، هو ﴿الَّذِينَ﴾ الأئمة، والسنة المرضية الثابتة من أول الخلق إلى آخر الأبد ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فيتبعون بجهلهم هوى أنفسهم.

يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ
الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ [٤١]

ثم أنه ﷺ بعد دعوتهما إلى التوحيد وإقامة البرهان عليه، عبر رؤياهما بقوله: ﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَّا﴾ الساقى الذي هو ﴿أَحَدُكُمَا﴾ فيتحلص من السجن ﴿فَيَسْقَى﴾ عن قريب ﴿رَبَّهُ﴾ ومالكة الذي هو المَلِكُ ﴿خَمْرًا﴾ كما كان يسقيه من قبل.

رُوي أَنَّهُ قَالَ لِلسَّاقِي: مَا أَحْسَنَ مَا رَأَيْتُ! أَمَّا الْكَرْمَةُ فَهُوَ الْمَلِكُ، وَأَمَّا حُسْنُهَا فَهُوَ حَالُكَ عِنْدَهُ، وَأَمَّا الْأَغْصَانُ الثَّلَاثَةُ فَثَلَاثَةُ أَيَّامٍ تَمْضِي عَلَيْكَ فِي السَّجْنِ، ثُمَّ يُرْسِلُ إِلَيْكَ الْمَلِكُ عِنْدَ انْقِضَائِهَا، فَيَرْدُكَ إِلَى عَمَلِكَ، فَتَصِيرُ كَمَا كُنْتَ بَلْ أَحْسَنُ^١.

﴿وَأَمَّا﴾ الْخَبَازُ الَّذِي هُوَ ﴿الْآخَرُ﴾ مِنْكُمَا فَيُخْرِجُكَ مِنَ السَّجْنِ ﴿فَيُصَلِّبُ﴾ وَيَبْقَى مَصْلُوبًا فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ مَخِّ رَأْسِهِ.

رُوي أَنَّهُ قَالَ لِلْخَبَازِ: بِسْمَا رَأَيْتُ، أَمَّا خُرُوجُكَ مِنَ الْمَطِيخِ فَخُرُوجُكَ مِنْ عَمَلِكَ، وَأَمَّا السَّلَالُ الثَّلَاثُ فَثَلَاثَةُ أَيَّامٍ تَمُرُّ عَلَيْكَ، ثُمَّ يُوَجِّهُ إِلَيْكَ الْمَلِكُ عِنْدَ انْقِضَائِهَا فَيُصَلِّبُكَ، فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِكَ^٢.

عن القمي رحمه الله: ولم يكن رأى ذلك وكذب، فقال له يوسف: أنت يَقتُلُكَ الْمَلِكُ وَيُصَلِّبُكَ وَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ دِمَاغِكَ، فجدد الرجل، وقال: إني لم أر ذلك، فقال يوسف ﷺ: ﴿قُضِيَ﴾ وَأَنْتُمْ وَأَحْكَمُ ﴿الْأَمْرُ﴾^٣ والتأويل ﴿الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ وتسلان عنه، فكان كما عبر يوسف حيث أخرج المَلِكُ صاحب الشراب فردّه إلى مكانه وخلع عليه وأحسن إليه لما تبينَّ عنده حاله في الأمانة، وأخرج الخَبَازَ ونزع ثيابه وجلده بالسياط حتى مات لما ظهر عنده خيائته، وصلبه على قارعة الطريق، وأقبلت طيور سود فأكلت من رأسه، وهو أول من استعمل الصلب، ثم استعمله فرعون موسى، أقول: بناءً على أنه لم يكن هو، بل كان من أجداده.

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاءَ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ [٤٢]

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وعلم بحصول مكانه له عند المَلِك، وقيل: إن المراد بمن ظنَّ هو الساقى ﴿اِذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وسيدك، وقل له: غلام محبوب في السجن قد طال حبسه لعله يرحمني ويخلصني منه^١، فلما نجا الساقى وتقرَّب إلى الملك اشتغل بجمع الأموال وانغمر في اللذائذ والحظوظ ﴿فَأَنسَاءَ الشَّيْطَانُ﴾ بصرف قلبه إلى المهام الدنيوية ﴿ذِكْرُ﴾ يوسف عند ﴿رَبِّهِ﴾ وسيده، أو أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه وخالفه حتى توسَّل بغيره في خلاصه ﴿فَلَبِثَ﴾ وأقام ﴿فِي السَّجْنِ﴾ عقوبة على توسُّله بغير الله ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ وسبعة أعوام من يوم التوسَّل.
عن الصادق عليه السلام: «لم يفرغ^٢ يوسف في حاله إلى الله فيدعوه، فلذلك قال الله: ﴿فَأَنسَاءَ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾»^٣.
وفي رواية قال: «سبع سنين»^٤.

قال: «فأوحى الله إلى يوسف في ساعته تلك: يا يوسف، من أراك الرؤيا التي رأيتها؟ فقال: أنت يا ربِّي. قال: فمن حبَّيك إلى أبيك؟ قال: أنت يا ربِّي. قال: فمن وجَّه السيارة إليك؟ قال: أنت يا ربِّي. قال: فمن علمك الدعاء الذي دعوت به حتى جعل لك من الجبِّ فرجاً؟ قال: أنت يا ربِّي. قال: فمن جعل لك من كيد المرأة مخرجاً؟ قال: أنت يا ربِّي. قال: فمن أنطق لسان الصبي بعذرِكَ؟ قال: أنت يا ربِّي. قال: فمن صرف كيد امرأة العزيز والنسوة عنك؟ قال: أنت يا ربِّي. قال: فمن ألهمك تأويل الرؤيا؟ قال: أنت يا ربِّي. قال: فكيف استعنت^٥ بغيري ولم تستعن^٦ بي؟ وتسلَّني أن أخرجك من السجن واستعنت^٧ وأملت عبداً من عبادي ليذكرك إلى مخلوق من خلقي في قبضتي، ولم تغرَّع إليَّ، لبث في السجن بذنبك بضع سنين»^٨.

وفي رواية: «ذكر عند كلِّ وحي^٩ فصاح ووضع خده على الأرض، ثم قال: أنت يا ربِّي»^{١٠}.
عن النبي صلى الله عليه وآله: «رحم الله أخي يوسف، لو لم يَقل اذْكُرْنِي عند ربك، لما لبث في السجن سبعاً بعد

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٦٣.
٢. في تفسير العياشي وتفسير الصافي: يفرغ.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠٩٧/٣٤٢، تفسير الصافي ٣: ٢٢.
٤. تفسير العياشي ٢: ٢١٠٤/٣٤٥، تفسير الصافي ٣: ٢٢.
٥. في تفسير العياشي: استغثت.
٦. في تفسير العياشي: تستغث.
٧. في تفسير العياشي: واستغثت.
٨. تفسير العياشي ٢: ٢٠٩٧/٣٤٣، تفسير الصافي ٣: ٢٢.
٩. في تفسير الصافي: وفي رواية أخرى عنه عليه السلام اقتصر على بعضها وزاد في كل مرة.
١٠. تفسير العياشي ٢: ٢١٠٣/٣٤٥، تفسير الصافي ٣: ٢٢.

الخمسة^١.

قيل: لبث يوسف في السجن اثنتي عشرة سنة عدد حروف اذكرني عند ربك^٢.

وقيل: إن في هذا العدد كمال القوة والتأثير، ولذا كان الأئمة اثني عشر، والبروج اثني عشر، والملائكة الموكلون بالبروج اثني عشر^٣.

أقول: ببالي أنه روي أن القائم يخرج في أولى القوة^٤، قيل: ما أولو القوة؟ قال: اثني عشر ألفاً^٥. وقيل: هو عدد لا إله إلا الله، وعدد محمد رسول الله^٦.

وعن الصادق عليه السلام: «إن يوسف قال: أسألك بحق آبائي [وأجدادي] عليك ألا فرجت عني، فأوحى الله إليه ما يكون^٧ أي حق لأبائك وأجدادك علي، إن كان أبوك آدم فأني خلقتك بيدي، ونفخت فيه من روحي، وأسكتك جسدي، وأمرته أن لا يقرب شجرة منها، فعصاني وسألني فتبت عليه. وإن كان أبوك نوح فأني انتجته من بين خلقي، وجعلته رسلاً إليهم، فلما عصوا دعاني فاستجبت له وأغرقتهم وأنجيتهم ومن معه في الفلك. وإن كان أبوك إبراهيم، فأني اتخذته خليلاً، وأنجيتهم من النار وجعلتها عليه برداً وسلاماً، وإن كان [أبوك] يعقوب فأني وهبت له اثني عشر ولداً، فغيبته عنه واحداً، فما زال يبكي حتى ذهب بصره، وقعد في الطريق يشكوني إلى خلقي، فأني حق لأبائك [وأجدادك] علي».

قال: فقال له جبرئيل: قل يا يوسف أسألك بمنك العظيم، وإحسانك^٨ القديم، فقالها فرأى الملك الرؤيا^٩.

وعنه عليه السلام: «لما انقضت المدة وأذن الله له في دعاء الفرج، وضع خذّه على الأرض، ثم قال: اللهم إن كانت ذنوبي قد أخلقت وجهي عندك فأني أتوجه إليك بوجه الصالحين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ففرج الله عنه»^{١٠}.

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ
خُضِرٍ وَأُخْرٍ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا
تَعْبُرُونَ [٤٣]

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٦٤.

٢. لم نعر عليه.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٦٤.

٤. في تفسير القمي وتفسير الصافي: يا يوسف و.

٥. في تفسير القمي: وسلطانك.

٦. تفسير القمي ١: ٣٥٣، تفسير الصافي ٣: ٢٢.

٧. تفسير القمي ١: ٣٤٥، تفسير الصافي ٣: ٢٣.

٨. تفسير القمي ١: ٣٣٦، تفسير العياشي ٢: ٢٠٤٢/٣١٩.

﴿وَقَالَ أَلَيْكَ﴾ بعد ما رأى رؤيا اضطرب منها قلبه وخاف من رؤيته غلبة الضعيف على القوي ذهاب ملكه وسلطانه، وأحضر العلماء والحكماء والكهنة والمعبرين والسحرة والمنجمين اجتهداً لتحصيل العلم بتعبيرها ﴿إِنِّي﴾ كنت ﴿أَرَى﴾ الباحة - وهي ليلة الجمعة على ما قيل ^١ - في المنام ﴿سَنِعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ خرجن عن النهر اليابس على قول - أو من البحر على آخر ^٢ - ثم أرى سبع بقرات عجاف مهازيل خرجن من المكان الذي خرجت السمّان، ثم رأيت أنه ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَنِعٌ عَجَافٌ﴾ مهازيل وبتلعهن بحيث لم تبق من البقرات السمّان شيء ^٣ ﴿و﴾ أرى أيضاً ﴿سَنِعَ سُنْبُلَاتٍ خُضِرٍ﴾ رطاب قد انعقدت حباتها، ﴿و﴾ سبع ﴿أُخْرَ يَابِسَاتٍ﴾ فالتوت على الخضرة حتى غلبن عليها على ما قيل ^٣.

ثم أمر الحضار بتعبير رؤياه وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ والجماعة الحاضرة من الأشراف ﴿أَفْتُونِي﴾ وأخبروني ممّا تنفّسون وتعتقدون ﴿فِي﴾ تعبیر ﴿رُؤْيَايَ﴾ هذه ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ وعلى تأويلها تقدرون.

ثم لما أراد الله خلاص يوسف من السجن، وكانت الرؤيا من توجّه النفس وتصادعها إلى عالم الملكوت والمثال بعد قلة اشتغالها بتدبير البدن، فكلمّا رأت شيئاً من المعاني الحقيقية في تلك العالم، فإما أن لا تنصرف القوة الخيالية فيه، فتقع عيناه في الخارج، ولا تحتاج إلى التعبير، وإما أن تنصرف فيه القوة الخيالية بتصوير المعاني العقلية بصور مناسبة لها، كتصوير العلم بصورة اللين، والزوجة بصورة النعل، والمال بصورة القاذورات وأمثال ذلك، فهي محتاجة إلى التعبير، وهو الانتقال من الصور إلى ما يناسبها من المعاني، وكلّمّا تلقى النفس الشياطين حين صعودها فيرونها أموراً باطلة مشوّشة مختلطة، أو تطالع الصور الخيالية المرتكزة في الخاطر، فهي الرؤيا الكاذبة، وتسمّى بالأضغاث والأحلام.

قَالُوا أَضْغَاثٌ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُون * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَنِعِ بَقَرَاتِ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَنِعٌ عَجَافٌ وَسَنِعِ سُنْبُلَاتِ خُضِرٍ خُضِرٍ وَأُخْرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ

سَبَّحَ شِدَادًا يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ [٤٤-٤٨]

ولما ذكر من تقدير خلاص يوسف، عجز الحكماء والعلماء والكهنة عن تعبير رؤيا المَلِكِ و «قَالُوا» أيها الملك رؤياك هذه «أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ» وتخالط الرؤى وأباطيلها «وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ» وتعبير أباطيل الرؤى التي هي من الشيطان أو من قوة الخيال «بِعَالَمِينَ» وإنما الذي نعلم هو تعبير الرؤيا الصادقة الحاصلة من رؤية المعاني الحقيقية في عالم الْمَلَكُوتِ.

«و» إذن «قَالَ» الساقى «الَّذِي» كان أحد الفتيين و «تَجَا مِنْهُمَا» من السجن «وَأَذْكُرُ» وتذكر ما أوصاه به يوسف بعد تأويل رؤياه في السجن، أو حين خروجه منه ومفارقه يوسف «بَعْدَ أُمَّةٍ» وأوقات كثيرة من نجاته منه: «أَنَا أَنْبِئُكُمْ» وأخبركم أيها الملأ الحاضرون العاجزون عن تعبير رؤيا الملك «بِتَأْوِيلِهِ» وتعبيره.

قيل: إنه لما رأى الْمَلِكُ متفكراً، تذكر حال يوسف وتأويله رؤياه في السجن، وما وصاه به، فجلس بين يدي الْمَلِكِ على ركبته، وخاطب الملك بقوله: أنا أنبئكم، وإنما أتى في خطاب الْمَلِكِ بضمير الجمع للتعظيم، فان أردتم تعبير الرؤيا «فَأَرْسِلُونِ» وابعثوني إلى السجن، فان فيه رجلاً حكيماً عارفاً بتعبير الرؤيا، فأرسله الْمَلِكُ إلى يوسف، فلما جاء واعتذر إليه من نسيانه قال: يا «يُوسُفُ» ثم عظمه بقوله: «أَيُّهَا الصَّدِيقُ» المبالغ في الصدق في تأويل الرؤيا «أَفَيْتَنَا» وأخبرنا برأيك «فِي» تأويل رؤيا «سَبَّحَ بَقَرَاتٍ سَمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبَّحَ عَجَافٌ وَ» تأويل رؤيا «سَبَّحَ سُنبُلَاتٍ خُضِرَ وَأُخْرَ يَابَسَاتٍ» وعلمني تعبيره «لَعَلِّي أَرْجِعُ» من عندك «إِلَى النَّاسِ» وأهالي مصر وأخبرهم ما أوَلت وعبرت «لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ» تعبيرها بتعليمك، أو يعلمون مكانك وفضلك، وكان من صبر يوسف ومثاقفه أنه لم يعلق إسعاف حاجته بإخراجه من السجن، بل «قَالَ» من غير رِيثٍ وتَوَانٍ قل لهم، أيها الناس «تَنْزَعُونَ» في الأرض من الغلات والحبوب «سَبَّحَ سِنِينَ» حال كونكم «دَابَّاءَ» ومستمرين على الزراعة بجِدٍ واجتهادٍ، أو زراعة متوالية على عاداتكم «فَمَا حَصَدْتُمْ» منها «فَذَرُوهُ» واتركوه «فِي سُنبُلِهِ» ولا تدوسوه حتى لا يفسد ولا يقع فيه السُّوس «إِلَّا» قدراً «قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ» منه في تلك السنة، هذا تعبير سبع بقرات سمان وسبع سنبلات خضر «ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ» السبع سنين الرُّخَص «سَبَّحَ» آخر من السنين «شِدَادًا» وصعباً على الناس لأجل الجَدْبِ والجُوع والغَلَاءِ بحيث أن تلك السنين الشداد «يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ» وادخرتم «لَهُنَّ» من الحبوب والغلات المتروكة في سنابلها «إِلَّا» مقداراً «قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ» وتحجزون للبذر،

وهذه السبع الشداد تأويل سبع بقرات عجاف وسبع شبلات يابسات، وإنما أسند الأكل إلى السنين مع أنه فعل أهل السنين للتطبيق بين المعبر والمعبر به.

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يُفْصَرُونَ [٤٩]

«ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ» المذكور من السنين الشداد «عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ» وَيُحْطَرُونَ أَوْ يُنْقَذُونَ مِنَ الشَّدَةِ «وَفِيهِ يُفْصَرُونَ» ما من شأنه أن يُعَصَّرَ وَيُؤْخَذَ مَاؤُهُ وَهُنَا كَالْعَنْبِ وَالرُّمَانِ وَالزَّيْتُونَ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ، وَهَذَا التَّعْبِيرُ كِتَابِيٌّ عَنْ وَفُورِ النِّعَمِ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ النَّاسُ فِي ضَيْقٍ مِنَ الْمَأْكُولِ يَأْكُلُونَ جَمِيعَ ذَلِكَ وَلَا يُعَصِّرُونَ شَيْئاً لِيُفْسِدَ مَا سِوَى مَانِهِ.

وقيل: يعني يحلبون الصُّرُوعَ^١.

وقيل: أي ينجون^٢ من الشَّدَةِ، أَوْ يُحْطَرُونَ^٣، وَهَذَانِ الْمَعْنَيَانِ عَلَى قِرَاءَةِ «يُفْصَرُونَ» مَبْنِياً لِلْمَفْعُولِ، كَمَا نَسَبَهَا الْعِيَاشِيُّ إِلَى الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^٤.

وَرَوَى عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ «أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: «وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُفْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً»^٥.

وَالْقَمِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قَرَأَ رَجُلٌ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يُفْصَرُونَ» - يَعْنِي عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ - فَقَالَ: وَيْحَكَ وَأَيُّ شَيْءٍ «يُفْصَرُونَ» يُعَصِّرُونَ الْخَمْرَ؟ قَالَ الرَّجُلُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، كَيْفَ أَقْرُوها؟ فَقَالَ: إِنَّمَا أَنْزَلْتَ «عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يُفْصَرُونَ» أَيْ يُنْقَذُونَ بَعْدَ [سِنِينَ] الْمَجَاعَةِ، وَالْدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُفْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً»^٦.

وَأَمَّا كَرَّرَ سَبْحَانَهُ لَفْظَ «فِيهِ» إِمَّا لِلشَّعَارِ بِكَوْنِ الْإِغَاثَةِ وَالْعَصْرِ مُتَغَايِرَيْنِ، أَحَدُهُمَا فَعْلُ اللَّهِ، وَالْآخَرُ فَعْلُ النَّاسِ، وَإِمَّا لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامَ تَعَدَادِ مَنَافِعِ ذَلِكَ الْعَامِ، وَلِذَا قَدَّمَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيمُ لِبَيَانِ الْحَصْرِ، كَأَنَّهُ فَرَضَ أَنَّ الْإِغَاثَةَ وَالْعَصْرَ فِي سَائِرِ السَّنَوَاتِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى تِلْكَ السَّنَةِ كَالْمَعْدُومِ، أَوْ لِمُرَاعَاةِ الْفَوَاصِلِ.

١. تفسير الرازي ١٨: ١٥١، تفسير البيضاوي ١: ٤٨٦.

٢. جوامع الجامع: ٢١٨، تفسير البيضاوي ١: ٤٨٦، تفسير أبي السعود ٤: ٢٨٣.

٣. جوامع الجامع: ٢١٨، تفسير الرازي ١٨: ١٥١، تفسير أبي السعود ٤: ٢٨٣.

٤. تفسير العياشي ٢: ٢١٠٩/٣٤٧، تفسير الصافي ٣: ٢٤.

٥. تفسير الصافي ٣: ٢٥، والآية من سورة النبا: ١٤/٧٨.

٦. تفسير القمي ١: ٣٤٦، تفسير الصافي ٣: ٢٥.

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيَّ رَّبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَأَلُ
النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَافٍ عَلَيْكُمْ [٥٠]

ثم رجع الرسول إلى المَلِك، وحكى له التعبير الذي بينه يوسف للرسول في ضمن الدستور الذي أمر به، فلَمَّا سَمِعَ المَلِكُ التعبير سكن قلبه وفرح ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ لخدمه بعد اطلاعه على فضيلة يوسف في العلم: ﴿أَتُتُونِي بِهِ﴾ وأحضره عندي لأسمع التعبير منه وأكرمه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ من جانب المَلِكِ لِيُخْرِجَهُ مِنَ السَّجْنِ ويذهب به إلى الملك أبي يوسف من إجابته حتَّى تظهر طهارة ذيله ممَّا اتهموه، ومظلوميته في الحبس و﴿قَالَ﴾ للرسول: ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَّبِّكَ﴾ وسيدك ﴿فَسَأَلَهُ﴾ أن يتفحص من أنه ﴿مَا بَأَلُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ في مجلس ضيافة زليخا بالسكاكين، وكيف كان حالهن وحالي؟ حتَّى يتحقَّق عنده واقع الأمر، وأتَّى بريء من التُّهمة والخيانة، ثمَّ استشهد بعلم الله بمكر النسوة واتهامهنَّ له بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ وهو الله وحده لا المَلِكُ ولا العزيز ولا غيرهما، بمكر النساء و﴿يَكِيدُهُنَّ﴾ في حقِّي واتهامهنَّ إياي ﴿عَلَيْكُمْ﴾.

قيل: فيما قاله يوسف للرسول لطائف، منها أنه أمر الرسول أن يسأل المَلِكَ عن حال النسوة، ولم يقل قل له تفحص عن ذلك، لأنَّه يكون في كلامه أمر للمَلِكِ حتَّى يلزم خلاف الأدب^١. ومنها: أنه لم يذكر اسم زليخا تأدباً، ومراعاةً لحقِّها^٢، واحترازاً من أن تبالغ في المكر به مع كونها قادرة على ما لم تقدر عليه غيرها. ومنها: أنه لم يشك من النسوة مع أنَّهنَّ على ما قيل دعيته إلى أنفسهن، وبالغن في ترغيبه إلى موافقة زليخا، بل قيل: إنَّهنَّ اتَّهمنه بالفُحش عند المَلِكِ^٣.

روى بعض العامة عن النبي ﷺ أنه قال: «لقد عَجِبْتُ من يوسف وكرمه وصبره، والله يغفر له، حين سئل عن البقرات السَّمان والعجاف، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتَّى اشترطت عليهم أن يُخْرِجُونِي مِنَ السَّجْنِ، ولقد عَجِبْتُ [منه] حين أتاه الرسول فقال: ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَّبِّكَ﴾ الآية، ولو كنت مكانه ولبثت في السَّجْنِ ما لبثت، لأسرعت الاجابة وبادرتهم إلى الباب وما ابتغيت العُذر، إنَّه كان حليماً ذا أناة»^٤.

قيل: إن هذا الكلام من الرسول على سبيل التواضع لا إظهار أنه كان مستعجلاً في الأمور غير متأنٍ فيها^٥، وإنَّما لم يُسرِع يوسف في الخروج ليزول عن قلب المَلِكِ ما كان متَّهماً به ولا ينظر إليه بعين

١. تفسير الرازي ١٨: ١٥٢.

٢. تفسير الرازي ١٨: ١٥١.

٣. تفسير الرازي ١٨: ١٥٢.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٧٢.

٥. تفسير روح البيان ٤: ٢٧١.

الصَّغَارِ وَالذَّلِّ^١.

عن العياشي عنهما عليه السلام: «أن رسول الله ﷺ قال: لو كنت بمنزلة يوسف حين أرسل إليه المَلِكُ يسأله عن رؤياه ما حدثته حتى اشترط عليه أن يُخْرِجَنِي مِنَ السَّجْنِ، وتعجبت^٢ لصبره عن شأن امرأة المَلِكِ حتى أظهر الله عُذْرَهُ»^٣.

قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاودْتُنْ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ
سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ آلَاَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ
الصَّادِقِينَ [٥١]

ثم قيل: إنه لما رجع الرسول إلى المَلِكِ وأخبره بالتماس يوسف، أمر باحضار النسوة^٤. و «قَالَ»
لهن «مَا خَطْبُكُمْ؟» وأي شأن شأنكن «إِذْ رَاودْتُنْ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ» قيل: إن الخطاب في الواقع
والظاهر للنسوة؛ لأن كل واحدة منهن كن يدعين يوسف إلى نفسه أو كل يراودن^٥ يوسف ليهيجنه
لإجابة زليخا^٦.

وقيل: إن الخطاب وإن كان في الظاهر إليهن إلا أنه أريد به واحدة منهن^٧ وهي زليخا، وعلى أي
تقدير «قُلْنَ» جميعهن في جواب المَلِكِ: «حَاشَ لِلَّهِ» ونزّهه عن العجز من خلق هذا البشر
العفيف «مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ» وذنّب وخيانة، فلما شهدن^٨ كلهن ببراءة يوسف وتنزّهه «قَالَتِ
امْرَأَةُ الْعَزِيزِ» وكانت حاضرة في المجلس بعدما رأت رعايه يوسف حثّها بتركه ذكر اسمها مع
النسوة مع أنها كانت أكثر إساءة إليه، وأنه لا ينفع الكتمان: «آلَاَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ» وانكشفت
حقيقة الواقع «أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ» وطلبت منه القرب «وَإِنَّهُ» - في قوله: هي راودتني - والله
«لَمِنَ الصَّادِقِينَ».

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ [٥٢]

قيل: إن المَلِكِ أرسل إلى يوسف بأن النسوة اعترفن بذنبن وبراءتك، فاحضر حتى أعاقبهن
بحضورك بما تريد. قال يوسف للرسول في جواب الملك: «ذَلِكَ» الالتماس الذي صدر مِنِّي لم

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٧٢.

٢. في تفسير العياشي: وعجبت.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢١٠٦/٣٤٦، تفسير الصافي ٣: ٢٥.

٤. تفسير الرازي ١٨: ١٥٣.

٥. في النسخة: يراودون.

٦. تفسير الرازي ١٨: ١٥٣.

٧. في النسخة: منهم.

٨. تفسير الرازي ١٨: ١٥٣.

٩. في النسخة: شهدت.

يكن لأن أعاقب النسوة بما صدر منهن^١ بل ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز المُنعم علي ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في عرضه ﴿بِالْقَيْبِ﴾ وفي الخطأ منه، أو لم أخن المَلِك، فإنَّ الخيانة بالوزير خيانة بالمَلِك ﴿وَلَعَلَّكَ لَتَعْلَمُ﴾ أن الله لا يَهْدِي، ولا يَنْفِذ ﴿كَتَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ولا يجعله مؤثراً في حصول المقصود، بل يُطله كما أبطل مكائد زليخا حتَّى أقرَّت بأنَّها خانت زوجها.

وقيل: إنه قال هذا الكلام في محضر المَلِك كما روي عن ابن عباس، وإنما ذكره على لفظة الغيبة تعظيماً للمَلِك عن الخطاب^٢.

وقيل: إنَّ الآية من تمة كلام امرأة العزيز، والمعنى أَنِّي وإن بالغت في إثبات الذنب على يوسف في حضوره إلا أن ذلك الاعتراف مِنِّي بذنبي ليعلم يوسف أَنِّي لم أخنه ولم أقل في حَقِّه خلاف الحقِّ وهو في السجن، ثم بالغت في تأكيد الحقِّ بقولها: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾^٣ ولذا افتضحت أنا لأنِّي كنت خائنة، وإنه طهر يوسف من الذنب وأخرجه من السجن، لأنَّه كان بريئاً. أقول: هذا في غاية البعد.

وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ [٥٣]

ثم قال يوسف تواضعاً لله وهضماً للنفس وتحديتاً بانعام الله عليه بالتوفيق والعصمة: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ ولا أنزِّهاها عن سوء ولا أزيكها من الخطأ والذنب من حيث هي ومقتضى طبعها ﴿إِنَّ النَّفْسَ﴾ بجنسها وبذاتها والله ﴿لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ وباعته إلى القبايح والشهوات لميلها إليها والتذاذها بها ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ من النفوس بعصمتها من الوقوع في الهلكات وارتكاب المنكرات، وهي نفوس الأنبياء والأولياء المعصومين، فإنها لا تميل إليها، ولا تأمر بها.

وقيل: إن كلمة ﴿مَا﴾ بمعنى الزمان، والمعنى إلَّا زمان رحمة ربي^٤ وعصمته لها بتقويته القوة العاقلة وإعلامها بحقائق الأشياء والأعمال.

وقيل: إنَّ الاستثناء منقطع، والمعنى ولكن رحمة ربي تصرفها عن سوء^٥.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ وستار لخطايا النفوس ﴿رَّحِيمٌ﴾ لها بعصمتها من الزلل.

قيل: هذه الآية أيضاً بقية كلام زليخا، والمعنى وما أبرئ نفسي من الخيانة بزوجي والإساءة

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٧٣.

٢. جوامع الجامع: ٢١٩.

٣. تفسير أبي السعود ٤: ٢٨٦.

٤. جوامع الجامع: ٢١٩.

٥. تفسير الرازي ١٨: ١٥٤.

يوسف، والمقصود اعتذارها مما صدر منها، أو تأكيد تصديقها إياه.

ثم أنه روي أن جبرئيل أتى يوسف في السجن وقال: قل اللهم اجعل لي من عندك فرجاً ومخرجاً، وارزقني من حيث احتسب ومن حيث لا احتسب^١، فقبل الله دعاءه، فعظم يوسف في عين المَلِك علماً من حيث تعبيره الرؤيا، وصبراً وثباتاً من حيث عدم مبادرته إلى الخروج من السجن، وأدباً من حيث عدم أمره للمَلِك بالتفتيش للحق، ومراعاةً للحقوق من حيث عدم ذكره اسم زليخا مع علم المَلِك بأنها أكثر النسوة إساءة إليه، وعَفَّةً من حيث ظهور براءته من التهمة مع وفور أسباب ارتكابه للزنا بمثل زليخا، ونسيّاً لذكر الساقى نسبةً له، فلذا اشتاق إلى لقائه غاية الاشتياق.

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوتَنِي بِهِ أَشْتَخِلُصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ آلِيَوْمَ لَدَيْنَا
مَكِينٌ أَمِينٌ [٥٤]

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ لخدمته: اذهبوا إلى يوسف و ﴿أَتُوتَنِي بِهِ﴾ واحضروه لدي ﴿أَشْتَخِلُصُهُ لِنَفْسِي﴾ وأخصه بقربي.

روي أن الرسول - وقيل: كان هو الساقى - قال ليوسف: قم إلى المَلِك متنظفاً من ذَرَن السجن بالثياب النظيفة والهيئة الحسنة^٢.

وقيل: إن المَلِك أرسل سبعين حاجباً على سبعين مركباً، ومعهم تاج وثياب فاخرة إلى السجن، فلما أتوه وضعوا التاج على رأسه، وألبسوه الثياب النظيفة، ثم قالوا: أجب المَلِك. فقام وودَّع أهل السجن ودعا لهم، وقال: اللهم اعطف قلوب الصالحين عليهم، ولا تستر الأخبار عنهم، فخرج من السجن وكتب على بابه: هذه منازل البلوى، وقبور الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء. ثم اغتسل وتنظف ولبس ثياباً جديدة، وركب مركباً فارهاً مَكَلَّلاً بالدرّ والجواهر، فلما قَرُب من المَلِك استقبله وأكرمه غاية الإكرام^٣.

رُوي أنه لما دخل على المَلِك قال: اللهم إني سألك بخيرك من خيره، وأعوذ بعزتك وقوتك من شره. ثم سلّم على المَلِك ودعا له بالعبرانية، وكان يوسف يتكلّم باثنين وسبعين لساناً، فلم يفهمها المَلِك فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان أبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب. ثم كَلَّمه بالعربية فلم يفهمها المَلِك، فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمي إسماعيل، وكان المَلِك يتكلّم بسبعين لساناً، فكَلَّمه بها

٢. تفسير الرازي ١٨: ١٥٩، تفسير روح البيان ٤: ٢٧٧.

١. تفسير الرازي ١٨: ١٥٨.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٧٧.

فأجابه بجميعها فتعجب منه^١.

قيل: لما دخل على المَلِك كان ابن ثلاثين سنة، فلما رآه المَلِك شاباً قال للساقى: هذا الذي علم تأويل رؤياي مع أن السحرة والكهنة ما علموها؟ قال: نعم. فأقبل على يوسف وقال: إني أحب أن أسمع التعبير منك «فَلَمَّا» أجابه و«كَلَّمْتُ» وعبر عنه الرؤيا شفاهاً، وشهد قلبه بصحة تعبيره «قَالَ» ليوسف: «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ»^٢ وذو منزلة رفيعة «أَمِينٌ» على كل شيء في مملكتي بحيث لا تتهم.

قيل: لماعتبر يوسف رؤيا المَلِك بين يديه قال له المَلِك: فماترى أيها الصديق؟ قال: أرى أن تزرع في هذه السنين المخبصة زرعاً كثيراً، وتأخذ من الناس خمس زروعهم، وتذر الجميع في سنبله، وتبني الخزان، وتجمع فيها الطعام، فإذا جاءت السنين المُجْدبة تبيع الغلات لأهل مصر، وتحفظهم من المَخْمَصَة، ويحصل لك مال عظيم. فقال المَلِك: من لي بهذا الشغل^٣.

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ [٥٥]

«قَالَ» يوسف: «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ» هذه «الْأَرْضِ» وتلك المملكة، وولني أمرها من الإيراد والحفظ والصرف، وإنما طلب الولاية لكونها وسيلة إلى هداية الناس، ونفوذ قوله، وقبول دعوته إلى الحق، ونشر الأحكام الإلهية، ووضع الحقوق مواضعها، وبسط العدل، وإعانة الخلق وحفظهم من التلف في السنين المُجْدبة شفقة عليهم.

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في هذه الآية، أنه قال: «رَجِمَ الله أخي يوسف، لو لم يَقُل: اجعلني على خزائن الأرض، لاستعمله من ساعته، لكنه لما قال ذلك أخره عنه سنة»^٤.

ثم وصف نفسه بما يوجب أهليته لذلك بقوله: «إِنِّي حَفِيظٌ» لخزائنك من التلف والضَّياع والصرف في غير المصرف «عَلِيمٌ» بوجوه التصرف فيها. عن الرضا ﷺ: «حفيظ لما تحت يدي، عليم بكل لسان»^٥.

جواز تزكية المرء عن الصادق ﷺ: «يجوز أن يزكي الرجل نفسه إذا اضطر إليه، أما سمعت قول نفسه عند الاضطرار يوسف: «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» وقول العبد الصالح:

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٧٧. ٢. تفسير الرازي ١٨: ١٥٩.

٣. تفسير الرازي ١٨: ١٦٠، تفسير روح البيان ٤: ٢٧٨. ٤. تفسير الرازي ١٨: ١٦٠.

٥. تفسير العياشي ٢: ٢٤٨/٢١١٢، عيون أخبار الرضا ﷺ ٢: ١/١٣٩، تفسير الصافي ٣: ٣٧.

﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾^١.

عن ابن عباس: لما انصرفت السنة من يوم سأل يوسف الإمارة، دعاه المَلِكُ فَتَوَجَّهَ وختمه بخاتمه، وردَّاه بسيفه، ووضع له سريراً من ذهب مَكْلَلًا بِالذَّوِّ والياقوت طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشاً، فقال يوسف: أَمَا السَّرِيرُ فَاشْدَّ بِهِ ثَلَاثَ لَيْلٍ، وَأَمَّا الْخَاتَمُ فَأَدْبِرْ بِهِ أَمْرَكَ، وَأَمَّا التَّاجُ فَلَيْسَ مِنِّي لِبَاسِي وَلِبَاسَ آبَائِي، فقال المَلِكُ: فقد وضعتُه إجلالاً لك، وإقراراً بفضلك. فجلس عليه وأتت له الملوك^٢.

وَرَوَى أَنَّ الْمَلِكَ لَمَّا عَيَّنَ يُوسُفَ لِأَمْرِ الْخَزَائِنِ تَوَفَّى قُطْفِيرَ عَزِيزٍ مِصْرَ فِي تِلْكَ اللَّيَالِي^٣.

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [٥٦]

ثم لما كانت رفعة مكان يوسف مستندة في الظاهر إلى الملك، تَبَّهَ الله على أَنَّهَا كانت بقدرته وإنعامه عليه بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ التمكن العظيم، ومثل هذا الإنعام الجسيم الذي على يوسف من تقربنا إياه من الملك، وتحببنا إياه في قلبه ﴿مَكَّنَّا يُوسُفَ﴾ وأقدرناه على إنفاذ ما أراد ﴿فِي﴾ تِلْكَ ﴿الْأَرْضِ﴾ والمملكة، وهي أربعين فرسخاً في أربعين على ما قيل^٤، فهو ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا﴾ وينزل من بلادها ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ وأي مكان يريد، لا يدافعه مدافع^٥، ولا ينازعه منازع، رحمةً مَنَّا عليه، وجزاءً مَنَّا على صبره على البلاء وتسليمه للقضاء وقيامه بوظائف العبودية، فَإِنَّا ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ وفضلنا ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ أن نرحمه ونتفضل عليه على حسب استعداده وقابليته وعمله ﴿وَلَا نُضِيعُ﴾ ولا نبطل ﴿أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وجزاءهم على إحسانهم من الصبر والقيام بوظائف العبودية.

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [٥٧]

ثم يَبَيِّنُ سبحانه أفضلية الأجر الأخروي على الدنيوي بقوله: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ﴾ والثواب الذي نعطيهم فيها ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل بمراتب من أجر الدنيا وثوابه فيها، ولكن إنما يكون أجر الآخرة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وَوَحْدَانِيَّتِهِ ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ السيئات والقبائح، وهم الأنبياء وأتباعهم. قيل: إن يوسف أمر أهل كل قرية وبلدة بالاشتغال بالزَّرع وترك غيره، فلم يدعوا مكاناً إلا زرعوه

١. تفسير العياشي ٢: ٢١١٣/٣٤٨، تفسير الصافي ٣: ٣٧، والآية من سورة الأعراف: ٧/٦٨.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٣.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٧٩.

٤. تفسير أبي السعود ٤: ٢٨٧، تفسير روح البيان ٤: ٢٨٣.

٥. في النسخة: دافع.

حتى بطون الأودية ورؤوس الجبال مدة سبع سنين، وهو يأمرهم أن يدَعُوهُ في سَنَبِلِهِ، وكان يأخذ منهم الثَّمَسَ ويجعله في الأهراء^١، وكذا ما زرعه السلطان وأعوانه وخَدَمَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَتِ السَّنُونُ المجدبة، فحبس الله عنهم القطر من السماء، والنبات من الأرض حتى لم يَنْبُتْ لهم في جميع أراضي مصر حبة واحدة^٢ من المأكولات.

قيل: إن زليخا بعد وفاة قطفير زوجها انقطعت عن كل شيء وسكنت خرابة سنين كثيرة، وكانت لها جواهر كثيرة [جمعت في زمان زوجها] فإذا سَمِعَتْ من أحد خبر يوسف أو اسمه، بذلت منها حباً له حتى نَفَدَتْ، وكانت تبكي شوقاً إلى يوسف.

ثُمَّ لَمَّا اشْتَدَّ حالها لشدائد الخلوة في الخرابة اتخذت بيتاً من القَصَبِ على الطريق التي هي ممر يوسف، وكان يوسف يركب في بعض الأحيان وله فرس لا يصهل إلا وقت ركوبه، ويُسَمِعُ صهيله على ميلين، فيعلم الناس بركوبه، فتقف زليخا على قارة الطريق، فإذا مرَّ بها يوسف تناديه بأعلى صوتها، فلا يسمع لكثرة اختلاط أصوات الناس، فأقبلت يوماً على صنمها الذي كانت تعبده، وقالت له: تَبَّأُ لَكَ وَلِمَنْ يَسْجُدُ لَكَ، أما ترحم كيري وعماي وفَقْرِي وَضَعْفِي، فإنا اليوم كافرة بك ومؤمنة برَبِّ يوسف، وصارت تذكُر الله صباحاً ومساءً.

فبعد ذلك رَكِبَ يوسف يوماً، فلَمَّا صَهَّلَ فرسه اجتمع الناس للنظر إلى جماله واحتشامه، فخرجت زليخا من بيتها، فلَمَّا مرَّ بها يوسف نادى بأعلى صوتها: شَبَحَانِ مِنْ جَعَلَ الْمُلُوكَ بمعصيتهم عبيداً، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً، فأمر الله الريح فألقت كلامها في مسامع يوسف، فآثَر فيهِ فَبِكِي، ثُمَّ التفت فرأها، فقال لغلّامه: اقض حاجت المرأة. فقال: ما حاجتك؟ قالت: إن حاجتي لا يقضيها إلا يوسف. فذهب بها إلى دار يوسف.

فلَمَّا رجع يوسف إلى قصره نزع ثياب المُلْكِ، ولبس مِدْرَعَةً من الشعر، وجلس في بيت عبادته يذكر الله تعالى، فذكر العجوز ودعا بالغلّام وقال له: ما فعلت بالعجوز؟ فقال: إِنَّهَا زَعَمَتْ أَنَّ حاجتها لا يقضيها غيرك. فقال: إئتني بها، فأحضرها فسلمت عليه وهي مُنْكَسَةٌ الرَأْسِ، فرَّقَ لها، وردَّ عليها السلام، وقال لها: يا عجوز، إني سَمِعْتُ مِنْكَ كَلَاماً فَأَعِيدِيهِ. فقالت: إني قلت: شَبَحَانِ مِنْ جَعَلَ الْمُلُوكَ بمعصيتهم عبيداً، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً.

في تزويج يوسف فقال: نَعَمْ مَا قُلْتَ، فما حاجتك؟ قالت: يا يوسف، ما أسرع ما نسيتني! فقال: من يزليخا

١. الأهراء: جمع هُري، وهو بيت كبير ضخم يُجمع فيه طعام السلطان.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٣.

أنت؟ ما لي بك معرفة. قالت: زليخا. فقال يوسف: لا إله إلا الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت، أنت بعد في الدنيا [يا] رأس الفتنة وأساس البلية! فقالت: يا يوسف، أبخلت عليّ بحياة الدنيا! فبكى يوسف وقال: ما صنع حُسنك وجمالك ومالك؟ قالت: ذهب به الذي أخرجك من السجن وأورثك هذا المُلْك. فقال لها: ما حاجتك؟ قالت: أو تفعل؟ قال: نعم وحقّ شعبة إبراهيم. فقالت: لي ثلاث حاجات: الأولى والثانية أن تسأل الله أن يرزّ عليّ بصري وشيبي وجمالي، فأنّي بكيّ عليك حتّى ذهب بصري ونَحَلَ جسمي. فدعا لها يوسف فردّ الله عليها بصرها وشبابها وحسنها. قالت: والثالثة أن تتزوجني. فسكت يوسف وأطرق رأسه، فأناه جبرئيل، وقال: يا يوسف، ربك يُقرنك السلام، ويقول لك: لا تبخل عليها بما طلبت، فتزوِّج بها فإنّها زوجتك في الدنيا والآخرة، فدعا ملك مصر وجميع الأشراف فعدّد عليها لنفسه، ونزلت الملائكة عليه تهنّئ بزواجها، وقالوا: هنّاك الله بما أعطاك، فهذا ما وعدك ربّك وأنت في الحب. فقال يوسف: الحمد لله الذي أنعم عليّ وأحسن إليّ وهو أرحم الراحمين.

ثمّ قال: إلهي وسيدي أسألك أن تُثِمّ هذه النعمة، وتريني وجه يعقوب، وتقرّ عينه بالنظر إليّ، وتسهّل لإخوتي طريقاً إلى الاجتماع بي، فإنك سميع الدعاء، وأنت على كلّ شيء قدير، وأرسل زليخا إلى بيت الخلوة فاستقبلتها الجوّاري بأنواع الحليّ والحُلل، فترنّنت بها، فلما جنّ الليل دخل يوسف عليها، وقال لها: أليس هذا خيراً ممّا كنت تريدين؟ فقالت: أيّها الصديق، لا تلمني فإنّي كنت امرأة حسنة ناعمة في مُلك وديار، وكان زوجي عنيّناً لا يصل إلى النساء، وكنت كما جعلك الله في صورة حسنة، فغلبتني نفسي، فلما بني بها وجدها عذراء^١.

وعن الهادي عليه السلام: «لَمّا مات العزيز في السنين الجديّة، افتقرت امرأة العزيز واحتاجت حتى سألت [الناس] فقالوا لها: لو قعدت للعزيز؟ وكان يوسف يسمّى العزيز. فقالت: أستحي منه، فلم يزالوا بها حتّى قعدت له [على الطريق]، فأقبل يوسف في موكبِهِ، فقامت إليه وقالت: شبحان الذي جعل الملوك بالمعصية عبيداً، وجعل العبيد بالطاعة ملوكاً. فقال يوسف لها: أنت تيك؟ فقالت: نعم. فقال لها: هل لك في رغبة؟ قالت: دَعني بعدما كبرت أنهراني قال: لا، [قالت: نعم] فأمر بها فحوّلت إلى منزله وكانت هَرَمه، فقال لها [يوسف]: أَلَسْتُ فعلت [بي] كذا وكذا؟ فقالت: إني بليت بثلاثة لم يُبلّ بها أحد. قال: وما هي؟ قالت: بليت بحَبّك ولم يخلُق الله لك في الدنيا نظيراً، وبليت [بحسني] بأنّه لم تكن بمصر امرأة أجمل مِنّي ولا أكثر مالا مِنّي، وبليت بزواج عنين. فقال لها يوسف: فما تريدين؟

فقال: تسأل الله أن يرُدَّ عليَّ شبابي. فسأل الله، فردَّ عليها شبابها، فترَوَّجها وهي بكر^١.

وعن الصادق عليه السلام: «استأذنت زليخا على يوسف، فقيل لها: إننا نكره أن تقدم بك عليه لما كان منك إليه قالت: إنِّي لا أخاف ممن يخاف الله. فلمَّا دخلت قال لها: يا زليخا، مالي أراك قد تغيَّر لونك؟ قالت: الحمد لله الذي جعل الملوك بمعصيتهم عبيداً، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً. فقال لها: ما الذي دعاك إلى ما كان منك؟ قالت: حُسن وجهك. فقال: كيف لو رأيت نبياً يقال له محمد يكون في آخر الزمان أحسن مني وجهاً، وأحسن مني خلقاً، واسمح [مني] كذا؟ قالت: صدقت. قال: وكيف علمت أنني صدقت؟ قالت: لأنك حين ذكرته وقع حبه في قلبي فأوحى الله عزَّ وجلَّ إلى يوسف أنها قد صدقت، وأني قد أحببتها لحبها محمداً، فأمره الله عز وجل أن يتزوَّجها»^٢.

قيل: فحملت من يوسف وولدت له ابنتين في بطن واحد، أحدهما افرانيم، والآخر ميثا، وكانا كالشمس والقمر في الحسن والبهاء، وباهى الله بحُسنهما الملائكة في السماوات السبع، وأحبَّ يوسف زليخا حباً شديداً، وتحوَّل عشق زليخا وحُبها الأول إليه حتَّى لم يبق له بدونها قرار، وحوَّل الله تعالى عشق زليخا وميلها إلى الطاعة والعبادة، وراودها يوسف يوماً ففرَّت منه فتنبعا وقد قميصها من دُبر، فقالت: إن قد دثَّ قميصك من قبل، فقد قددت قميصي الآن، فهذا بذلك^٣.

ثمَّ أقبلت السنون المُجْدبة، فحبس الله عنهم قَطْر السماء ونبات الأرض حتَّى لم يثبت لهم حبة واحدة، فاجتمع الناس إليه، وقالوا: يا يوسف، قد فنى ما في أموالنا من الطعام، فبئنا ممَّا عندك، فأمر يوسف بفتح الأهراء^٤، وباع من أهل مصر، ولا يبيع من أحدٍ أكثر من جِمل بعير، تقسيطاً على الناس، وكان لم يشبع مدة القحط مخافة نسيان الجِيع^٥.

عن الصادق عليه السلام: «لَمَّا صارت الأشياء ليوسف بن يعقوب، جعل الطعام في بيوت، وأمر بعض وكلائه ببيعه، وكان يقول: بع بكذا وكذا، والسعر قائم، فلمَّا عَلِمَ أنَّه يزيد في ذلك اليوم كره أن يجري الغلاء على لسانه، فقال له: اذهب وبع، ولم يسمَّ له سعراً، فذهب الوكيل غير بعيد، ثمَّ رجع إليه، فقال له: اذهب وبع، وكرِه أن يجري الغلاء على لسانه، فذهب الوكيل فجاء أول من اُكتال، فلمَّا بلغ دون ما كان بالأمس بمكيال قال المشتري: حسبك إنَّما أردت بكذا وكذا، فعَلِمَ الوكيل أنَّه قد غلا بمكيال، وهكذا»^٦ الخبر.

٢. علل الشرائع: ١/٥٥.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٣.

٦. الكافي ٥: ١٦٣، تفسير الصافي ٣: ٢٧.

١. تفسير القمي ١: ٣٥٧.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٢.

٥. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٤.

عن الرضا عليه السلام: «باعهم في السنة الأولى بالدرهم والدنانير حتى لم يبق في مصر وما حولها دينار ولا درهم إلا صار في ملكية يوسف، وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق بمصر وما حولها حلي ولا جواهر إلا صار في ملكية يوسف، وباعهم في السنة الثالثة بالدواب والمواشي حتى لم يبق بمصر وما حولها دابة ولا ماشية إلا صار في ملكية يوسف. وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا أمة إلا صار في ملكية يوسف، وباعهم في السنة الخامسة بالدور والعقار حتى لم يبق بمصر وما حولها دار ولا عقار إلا صار في ملكية يوسف، وباعهم في السنة السادسة بالمزارع والأنهار حتى لم يبق بمصر وما حولها نهر ولا مزرعة إلا صار في ملكية يوسف، وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا حر إلا صار عبد يوسف [فملك] أحرارهم وعبيدهم وأموالهم، وقال الناس: ما رأينا ولا سمعنا بملك أعطاه الله من الملوك ما أعطى هذا الملك حكماً [وعلماً] وتديراً^١ الخبر.

أقول: إنما صير الله أهل مملكة مصر عبيداً وإماءً له، لأنهم في البدو نظروا إليه بعنوان العبودية، ثم قال يوسف للملك: أيها الملك، ماترى فيما خولني ربي من ملك مصر وأهلها، أثير عليّ برأيك، فأني لم أصلحهم لأفسدهم، ولم أنجهم من البلاء ليكون وبالأعلى عليهم. قال له الملك: الرأي رأيك. قال يوسف: إنني أشهد الله وأشهدك أيها الملك أنني قد اعتقت أهل مصر كلهم، ورددت إليهم أموالهم وعبيدهم، ورددت إليك خاتمتك وسريرك وتاجك على أن لا تسير إلا بسيرتي، ولا تحكم إلا بحكمي. فقال الملك: أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنتك رسوله، فأقم على ما وليتك فإنك لذينا مكين أمين^٢.

قيل: إنه سرى القحط إلى كنعان وبلاد الشام وضاق المعاش على يعقوب وأولاده، فقالوا لأبيهم: إننا سمعنا أن في مصر ملكاً يعين الناس ويبيع الطعام من المحتاجين، فأذن لنا أن نذهب إليه ونشتري منه الطعام بالبضاعة التي عندنا، فأذن لهم جميعاً إلا بنيامين ليقوم بخدمته، فتجهزوا للسفر، وأخذوا معهم أحد عشر بغيراً لكل منهم بغير، وبغير لبنيامين، وحملوا عليها البضاعة^٣، قيل: كانت زعلاً وأدماً^٤. وقيل: دراهم^٥. وقيل: مثقالاً^٦.

١. مجمع البيان ٥: ٣٧٣، تفسير الصافي ٣: ٢٨.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٥.

٣. تفسير الرازي ١٨: ٢٠١، تفسير البيضاوي ١: ٤٨٩، تفسير أبي السعود ٤: ٢٨٩.

٤. تفسير الرازي ١٨: ٢٠١، تفسير روح البيان ٤: ٢٨٨.

٥. تفسير الرازي ١٨: ٢٠١، تفسير البيضاوي ١: ٤٩٤، والمثقل: حمل شجرة الدوم، وهي تشبه النخلة، وثمرتها في

وقيل: لما أجدبت بلاد الشام وغلّت أسعارها، جمع يعقوب بنيه، وقال لهم: اذهبوا إلى مصر، واشتروا منها طعاماً من العزيز. قالوا: يا نبي الله، كيف يطيب قلبك بأن^١ تُرسلنا إلى الفراعنة، وأنت تعلم عداوتهم لنا، ولا نأمن أن ينالنا منهم شر؟ فقال: بلغني أنّه ولي أهل مصر مَلِكٌ عادلٌ، فاذهبوا إليه، وأقرئوه مِنّي السلام، فإنّه يقضي حاجتكم، ثمّ جهّز أولاده العشر، وأرسلهم إلى مصر، وكان بين مصر وكنعان ثمانِي - أو اثني عشر - مراحل^٢.

وعن القمي: ثمانية عشر يوماً^٣، وكان يوسف أوّل من صنع القرطاس، ومع ذلك أخفى الله أمر يوسف على يعقوب، ولم يأذن ليوسف أن يخبره عن حاله إلى الأجل المعين. القمي: كان الناس من الآفاق يخرجون إلى مصر ليمتاروا^٤ طعاماً، وكان يعقوب وولده نزولاً في بادية فيها مقل، فأخذ إخوة يوسف من ذلك الثقل، وحملوه إلى مصر ليمتاروا به، وكان يوسف يتولّى البيع بنفسه^٥.

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ [٥٨]

﴿وَجَاءَ﴾ إذن ﴿إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ متارين في مصر ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ وهو في مجلس حكومته على زينة واحتشام ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف في أول نظرة لكمال فراسته، وترصّده لمجيئهم، وتقارب حال مفارقتهم وحال لقائهم، وتشابه هياتهم وزيّهم في الحالين ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ غير عارفين به لبعده عهدهم منه - عن ابن عباس: كان بين أن قذفوه في البئر وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة^٦ - ولتباين حاله عند مفارقتهم له، لأنّه كان في سنّ الحداثة وغاية الضعف والحالة التي زاده عليها من الكبر والسُلطان. عن الباقر ﷺ: «لم يعرفه إخوته لهيبة المُلْك وعزّه»^٧.

قيل: إنهم رأوه على السرير، وعليه ثياب الحرير، وفي عنقه طوقٌ من ذهب، وعلى رأسه تاجٌ من ذهب^٨. روي أنّهم كلّموه بالعبرانية، فقال لهم: من أنتم، وما شأنكم؟ قالوا: نحن قومٌ من أهل الشام رعاة، أصابنا الجهد فجننا للميرة فقال: لعلكم جئتهم عيوناً تنظرون إلى عورة بلادِي؟ قالوا: معاذ الله نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ صديق نبي اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا: كُنّا اثني عشر، فهلك منا

→ غلظ التفاحة ذات قشر صلب أحمر، وله نواة ضخمة ذات لبّ اسفنجي، يكثر في صعيد مصر وفي بعض بلاد العرب.
١. في النسخة: فان، ولم ترد في المصدر.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٥. ٣. تفسير القمي ١: ٣٤٦، تفسير الصافي ٣: ٢٩.

٤. زاد في النسخة: به. ٥. تفسير القمي ١: ٣٤٦، تفسير الصافي ٣: ٢٩.

٦. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٦. ٧. تفسير العياشي ٢: ٢١١٥/٣٤٩، تفسير الصافي ٣: ٢٩.

٨. تفسير الرازي ١٨: ١٦٦.

واحد. قال: كم أنتم هاهنا؟ قالوا: عشرة. قال: فأين الآخر الحادي عشر؟ قالوا: عند أبيه يتسلى به من الهالك. قال: فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون، وأن الذي تقولون حق؟ قالوا: نحن أهل بلاد بعيدة ولا يعرفنا هنا أحد، فأمر أن يعطى كل واحد منهم جمل بعير من الحنطة^١.

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِنْ آبَائِكُمْ أَلَّا تَزُونَ أَنِّي أُوْفِي
الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ [٥٩]

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ﴾ وبذل لهم كل ما يحتاجون إليه من الزاد ومونة السفر ﴿قَالَ﴾: دعوا بعضكم عندي رهينة ﴿أَتُنُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِنْ آبَائِكُمْ﴾ ومعه رسالة من أبيكم على صدقكم، فاترعوا بينهم فأصاب القرعة شمعون، فخلفوه عنده، ثم حثهم على إتيانه بقوله: ﴿أَلَّا تَزُونَ أَنِّي أُوْفِي﴾ وأتم لكم ﴿الْكَيْلَ﴾ ولا أنقص شيئاً من حق أحد ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ وأكرم المضيفين.

قيل: إنه لما أعطى كل واحد جمل بعير سألوا حملاً آخر لبنيامين، فسألهم عنه قالوا: هو أخونا من أبنائنا بقي عنده لخدمته. قال يوسف: أنا أعطيت على عدد الرؤوس لا عدد البعير، ثم أعطاهم حملاً آخر وشرط عليهم أن يأتوا به^٢.

عن القمي عليه السلام: قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن بنو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله الذي ألقاه نمرود في النار فلم يحترق، وجعلها الله عليه برداً وسلاماً. قال: فما فعل أبوكم؟ قالوا: شيخ ضعيف. قال: ألكم أخ غيركم؟ قالوا: لنا أخ من أبنائنا لا من أمنا. قال: فإذا رجعت إلي فأتوني به^٣.

وعن الباقر عليه السلام: «قال لهم يوسف: قد بلغني أن لكم أخوين من أبيكم، فما فعلا؟ قالوا: أما الكبير منهما فإن الذنب أكله، وأما الصغير فحلفناه عند أبيه، وهو به ضنين، وعليه شقيق. قال: فإني أحب أن تأتوني به معكم إذا جئتم تمارون»^٤.

فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَتَرَاوَدُّ عَنْهُ آبَاؤُنَا وَلَئِنْ لَفَعَلْنَا لَنُقَاتِلَنَّ * وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [٦٠-٦٢]

ثم هددهم على التخلف بقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ﴾ وخالفتهم عهدكم ﴿فَلَا كَيْلَ﴾ من الغلة ﴿لَكُمْ

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٦.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٦.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢١١٥/٣٤٩، تفسير الصافي ٣: ٣٠.

٤. تفسير القمي ١: ٣٤٧، تفسير الصافي ٣: ٣٠.

عِنْدِي» من بعد أصلاً فضلاً عن إيفائه ﴿وَلَا تَقْرَبُون﴾ ولا تدخلون عليّ، بل لا تدخلون بلادِي، وإنّما قال ذلك لعلهم بأنهم مُضْطَرُونَ إلى المراجعة للامتنار، ولكونه مأموراً من الله أن يطلب أخيه، ليعظم أجر أبيه على فراقه.

﴿قَالُوا﴾ ليوسف: ﴿سَتَرَاوَدُّ عَنْهُ آبَاءُ﴾ ونحتال في انتزاعه من يد أبيه، ونجته فيه ﴿وَإِنَّا﴾ والله ﴿لَفَاعِلُونَ﴾ ذلك غير مفرطين ولا متوانين في طاعة أمرِك.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف بعد أخذ العهد من إخوته على إتيان بنيامين، سرّاً منهم ﴿لِفِثْيَانِهِ﴾ ومماليكه الموكلين على بيع الطعام وأخذ الأثمان: ﴿أَجْعَلُوا﴾ ودسوا ﴿بِضَاعَتَهُمْ﴾ ومتاعهم الذي أخذتموه منهم ثمناً للحنطة ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ وجواليقهم تفضلاً عليهم، وإكراماً لهم، وحنناً لهم على الرجوع، وإعانة لهم على مؤنته ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ يَطْلَعُونَ على مَكْرَمَتِهِمْ و﴿يَغْرِقُونَهَا﴾، ويراعون حقّها ﴿إِذَا أَتَقَبَّلُوا﴾ ورجعوا ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ وأقاربهم، وفتحوا جواليقهم وأوارد امتعتهم إليهم تفضلاً وإحساناً ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لشكرهم ذلك الإنباع يجدّون في الوفاء بالعهد و﴿يَزْجَعُونَ﴾ إلينا مع أخيه بنيامين.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ ءَأَمْتُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَآلَهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ [٦٣ و ٦٤]

فوضع الغلمان بضاعتهم في أوعيتهم خفية منهم، ثم أذن لهم يوسف بالرجوع إلى وطنهم وأهلهم ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا﴾ من مصر ﴿إِلَى﴾ كنعان ودخلوا على ﴿أَبِيهِمْ﴾ يعقوب ﴿قَالُوا﴾ له قبل فتح الأوعية وأطلعهم على ردّ البضاعة: ﴿يَا أَبَانَا﴾ أخذ منا العهد على أن نذهب ببنيامين معنا إلى مصر، وإلاّ ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ وحرّما من الطعام فيما بعد، و [من] رجوع شمعون إليك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا﴾ إلى مصر ﴿أَخَانًا﴾ بنيامين إذن ﴿نَكْتَلُ﴾ ما نشاء من الطعام ﴿وَإِنَّا﴾ والله ﴿لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من كلّ آفة - ومكروه - وضامنون لسلامته وعوده إليك.

فامتنع يعقوب من إجابتهم ﴿قَالَ هَلْ ءَأَمْتُكُمْ عَلَيْهِ﴾ والحال أنه ليس تأمينكم على حفظه ورده ﴿إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى﴾ حفظ ﴿أَخِيهِ﴾ يوسف ورده إليّ ﴿مِن قَبْلُ﴾ وما اعتمادي على قولكم في حفظه ورده إلاّ كاعتمادي على قولكم في حفظ يوسف في الزمان السابق، وقد قلت في حقّه ما قلت، وفعلتم ما فعلتم، فلا ينبغي الوثوق بعد ما رأيت منكم بقولكم وعهدكم في حفظه، فإن أرسله معكم فلا اعتمد في حفظه إلاّ على الله.

﴿فَإِنَّ خَيْرَ مَنِ وَمَنكُمْ لِحِفْظِهِ لَكُونَهُ تَعَالَى﴾ ﴿حَافِظًا﴾ لِكُلِّ شَيْءٍ، فَاتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَأَفْوِضْ أَمْرَ حِفْظِهِ إِلَيْهِ ﴿وَهُوَ أَزْهَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ بِعِبَادِهِ، فَيَرْحَمُ شَيْئِي وَضَعْفِي، فَلَا يَرْضَى بَأَن يَجْمَعَ عَلَيَّ مُصِيبَتَيْنِ، وَفِيهِ إِشْعَارُ بَرَضَاءٍ فِي ذَهَابِهِمْ بِهِ، لِحَاجَتِهِ إِلَى الطَّعَامِ، وَإِنْسَانِهِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ فِيهِمْ، وَعَدَمُ شِدَّةِ الْحَسَدِ وَالْحَقْدِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِيَامِينَ، كَذَا قِيلَ عَنْ كَعْبٍ، لَمَّا قَالَ يَعْقُوبُ: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ حَافِظًا﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَعَزَّتِي لَأُرْزَنَ عَلَيْكَ كَلِمَهُمَا بَعْدَ مَا تَوَكَّلْتَ عَلَيَّ^١.

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْنِي هَٰذَا
بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ
يَسِيرٍ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ
يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ [٦٥ و ٦٦]

ثُمَّ قِيلَ: إِنَّ يَعْقُوبَ قَالَ لِبَنِيهِ: يَا بَنِيَّ، قَدَّمُوا أَحْمَالَكُمْ لِأَدْعُو لَكُمْ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ، فَقَدَّمُوا إِلَيْهِ^٢ ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ وَأَبْوَابَ جَوَالِقَتِهِمْ ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ الَّتِي سَلَّمُوا إِلَى مَلِكٍ مِصْرَ ثَمَنًا لِلطَّعَامِ ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ بَأَن وَضَعَتْ فِي رُؤُوسِ أَحْمَالِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ ﴿قَالُوا﴾ لَأَبِيهِمْ: ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْنِي﴾ وَلَا نَطْلُبُ بِمَدْحِنَا مَلِكٍ مِصْرَ فِي الْكُرْمِ كَذِبًا، أَوْ لَا نَطْلُبُ مِنْهُ إِكْرَامًا وَتَفَضُّلاً فَوْقَ هَذَا الْإِكْرَامِ وَالتَّفَضُّلِ، أَوْ لَا نَطْلُبُ مِنْكَ مَوْثِقَ الرَّجُوعِ ﴿هَٰذَا﴾ الْبِضَاعَةُ الَّتِي تَرَى هِيَ ﴿بِضَاعَتُنَا﴾ الَّتِي سَلَّمْنَاهَا لَهُ عَوَضَ الطَّعَامِ ﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾.

أَوِ الْمَعْنَى أَي شَيْءٍ نَطْلُبُ بَعْدَ إِيفَانِهِ الْكَيْلَ لَنَا وَرَدِّ ثَمَنِهِ إِلَيْنَا بِأَحْسَنِ وَجْهِ، فَإِذَا رَجَعْنَا إِلَيْهِ نَأْخُذُ مَا نُرِيدُ مِنَ الطَّعَامِ ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ وَنَاتِيهِمْ مَا يَكْفِيهِمْ مِنَ الطَّعَامِ ﴿وَنَحْفَظُ﴾ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ ﴿أَخَانَا﴾ بَنِيَامِينَ ﴿وَتَزَادُ﴾ عَلَى كَيْلِ أَحْمَالِ أَبَاعِرْنَا ﴿كَيْلُ بَعِيرٍ﴾ آخِرُ سَبَبٍ حُضُورِهِ عِنْدَ الْاِكْتِيَالِ، فَإِنَّ ﴿ذَلِكَ﴾ الَّذِي تَحْمِلُهُ أَبَاعِرْنَا ﴿كَيْلُ﴾ وَطْعَامُ ﴿يَسِيرٍ﴾ وَقَلِيلٌ لَا يَكْفِي لِحَاجَتِنَا، أَوْ ذَلِكَ الَّذِي يُعْطِينَا الْمَلِكُ مِنَ الزِّيَادَةِ يَسِيرٌ وَسَهْلٌ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ سَخِيٌّ كَرِيمٌ لَا يُضَاقُ بِهِ مِنْ^٣.

﴿قَالَ﴾ يَعْقُوبُ: ﴿لَنْ أُرْسِلَ مَعَكُمْ﴾ إِلَى مِصْرَ أَبْدَأُ ﴿حَتَّى تُؤْتُونِ﴾ وَتُعْطُونِي ﴿مَوْثِقًا﴾ وَعَهْدًا أَكِيدُهُ مَنْضَمًّا بِالْحَلْفِ بِاللَّهِ - أَوْ بِمُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ^٤ عَلَى قَوْلٍ - أَوْ بِالْإِشْهَادِ^٥ أَوْ بِالْإِذْنِ^٦ ﴿مِنْ اللَّهِ

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٩، عن كعب.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٩١.

٣. في النسخة: مَنَّا. ٤. مجمع البيان ٥: ٣٧٩.

٥. تفسير الرازي ١٨: ١٧١.

٦. تفسير الرازي ١٨: ١٧٠.

لَنَأْتِيَنَّيَ بِهِ» وَتَزِدُونَهُ صَحِيحاً سَالماً إِلَيَّ عَلَى أَيِّ حَالٍ ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ وَيُغْلَبَ عَلَيْكُمْ بَحِثْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى حِفْظِهِ وَإِتْيَانِهِ إِلَيَّ.

وقيل: يعني إلا أن تهلكوا جميعاً^١.

قيل: البلاء موكل بالمنطق، فإنه ﷺ قال في حق يوسف: أخاف أن يأكله الذئب، فابتلي بهذا القول، وقال هنا: إلا أن يُحَاطَ بِكُمْ، فابتلي أيضاً بهذا القول، حيث إنهم أحيط بهم وغلَّبوا عليه^٢.

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ وعاهدوه عهداً مؤكداً بالخلف على حفظه وردّه سالماً إليه، حتّمهم على الوفاء به بقوله: ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ القادر القاهر ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من التعاقد ﴿وَكَيْلٌ﴾ وشهيد، أو مراقب وكافٍ، يُثَبِّبُ عَلَى الْوَفَاءِ بِهِ، وَيُعَاقِبُ عَلَى الْخُلْفِ.

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ [٦٧]

ثم أذن ﷺ في أن يذهبوا ببنيامين معهم إلى مصر، فتهيّئوا للسفر، فلما أرادوا أن يخرجوا خاف يعقوب عليهم العين، لكونهم ذوي جمال فاتق، وكمال رائق، وهينة حسنة، وبني أب واحد، ﴿وَقَدْ قَالَ يَا بَنِيَّ﴾ أوصيكم بأنه إذا وصلتكم إلى مصر ﴿لَا تَدْخُلُوا﴾ فيها ﴿مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ للمدينة على ما أنتم عليه من العدد والهيئة ﴿وَادْخُلُوا﴾ فيه متفرقين ﴿مِنْ أَبْوَابٍ﴾ متعدّدة ﴿مُتَفَرِّقَةٍ﴾ وطرق مشتتة، ومسالك مختلفة، وأنما وصّاهم في هذه الكثرة لأنهم صاروا في السفر الأول مشتهرين في المصر بالقرب عند الملّك، وكانت تُرْفَعُ إليهم الأبصار دون الكثرة الأولى، فإنهم كانوا حين الورد مجهولين مقهورين بين الناس غير متجملين تجملهم في الثانية، وإنما كانت تلك الوصية بالنظر إلى حبّ الأبوة.

ثم التفت إلى أن التدبير لا يَزِدُ التقدير، وأن القضاء لا يُدْفَعُ بالحيل والأداء، فقال: ﴿وَمَا أُغْنِي﴾ ولا أنفعكم بتدبير في دفع إصابة العين ﴿عَنْكُمْ﴾ إذا كان ﴿مِنْ﴾ قضاء ﴿اللَّهِ﴾ يسيراً ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من الضرر. القمي: رحمه الله: أعلن بتفويضه الأمر إلى الله بقوله ﴿إِنْ أَلْحَكُمُ﴾ وما القضاء في الأمور من النفع والضرر والخير والشر لأحدٍ ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ وحده لا يُشَارِكُهُ فيه أحد، ولا يمانعه عنه شيء، فإذا كان ذلك فإني ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وإليه فوّضت جميع أموري التي منها حفظ أولادي من الآفات في جميع

الأوقات ﴿وَعَلَيْهِ﴾ تعالى ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ البتة بتبع أنبيائهم.

ثم لما أنكر بعض تأثير العين، حملوا وصية يعقوب على أنه لما علم اشتغالهم في المصر بالحسن والكمال خاف عليهم أن يحسداهم الناس، ويسعوا عليهم عند الملك، أو خاف أن يخافهم الملك الأكبر على ملكه فيحبسهم.

أقول: وإن كان هذا الوجه ممكناً ومحتملاً إلا أن إنكار تأثير العين إنكار لما هو ثابت بالشرع والتجربة، فقد روى بعض العامة عن النبي ﷺ: «العين تُدْخِلُ الرَّجُلَ فِي الْقَبْرِ، وَالْبَعِيرَ فِي الْقِدْرِ»^١. وزوي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَنْ جَبْرَنْبِلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَرَأَهُ مُغْتَمًا فَقَالَ: يَا مُحَمَّد، مَا هَذَا الْغَمُ الَّذِي أَرَاهُ فِي وَجْهِكَ؟ فَقَالَ: الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ أَصَابَتْهُمَا عَيْنٌ. فَقَالَ: صَدَقْتَ، فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ»^٢. إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة من طرق العامة والخاصة التي لا مجال لانكارها.

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوُّ عَلِيمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [٦٨]

﴿وَلَمَّا﴾ وصل أولاد يعقوب إلى مصر ﴿دَخَلُوا﴾ فيها ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبُوهُمْ﴾ وبنحو [ما] وضاهم والدهم من دخولهم من أبواب متفرقة ﴿مَا كَانَ﴾ رأي يعقوب وتدبيره في حفظهم من الابتلاء ﴿يُغْنِي﴾ وينفع ﴿عَنْهُمْ مِنْ﴾ قضاء ﴿اللَّهِ﴾ ومشيتته في حقهم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ يسير، ولا يؤدّه عنهم بوجه ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ قيل: إن الاستثناء منقطع، والمعنى: ولكن حاجة كانت ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾ وهو إظهار خوفه من أن تصيبهم العين أو يحسداهم أهل مصر^٣، وهو ﴿قَضَاهَا﴾ بتلك التوصية. عن ابن عباس: «ذلك التفرق ما كان يؤدّ قضاء الله، ولا أمراً قدّره الله^٤. وفيه تصديق الله لما قال يعقوب: «ما أغني عنكم من الله شيء» ﴿وَإِنَّهُ لَدُوُّ عَلِيمٍ﴾ بأن التدبير لا يدفع التقدير ﴿لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ ولا لاجل وحينا إليه.

وقيل: أي لدو حفظ ومراقبة لما علمناه، أو لدو علم بغوائد ما علمناه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ وهم الجهال غير العارفين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما علم يعقوب، أو أن يعقوب بهذه الصفة أو القضاء لا يؤدّ التدبير. وقيل: إن المراد أن المشركين لا يعلمون أن الله كيف أرشد أوليائه إلى العلوم النافعة لهم في

١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٩٢، تفسير روح البيان ٤: ٢٩٣.

٢ و ٣. تفسير الرازي ١٨: ١٧٦.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٩٣.

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ [٦٩]

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا﴾ مع بنيامين ﴿عَلَى يُوسُفَ﴾ وهو جالس في قصره منقبا على السرير، فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن كنعانيون، الذين أمرتنا بأن نأتي بأخيها من أبنائنا فامثلنا أمرك وأتينا به. قال: أحسستم، وستجدون جزاءكم عندي فاجلسوا. فجلسوا على حاشية البساط، فأكرمهم وأمر باحضار الطعام، وقال: فليجلس كل أخوين من أب وأم على خوان من الطعام، فجلس كل منهم مع أخيه الأيويني على خوان واحد، وبقي بنيامين فرداً لا قرين له، فبكى حتى غشي عليه، فأمر يوسف بأن يرشوا الجلاب^٢ على وجهه حتى أفاق، فقال له يوسف: يا شاب، ما كان سبب بكائك وغشيتك؟ قال: كان لي أخ من أمي يقال له يوسف وثقيد سنين متطاولة، فلما أمرت أن يجلس كل أخوين من أب وأم على خوان واحد ذكرته، وقلت في نفسي: لو كان معي أخ لأجلسني معه، فأخذتني العبرة وتغير حالي. قال يوسف: أترضى أن أكون أذاك أكل معك، فأمر أن يوضع خواناً في بيت آخر أو وراء الستر، فقام يوسف إليه، ودعا بنيامين و ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ بنيامين وضمه إلى نفسه في الطعام والمنزل والمبيت، وعين لكل اثنين من إخويه بيتاً ثم قال لبنيامين: هل تزوجت؟ قال: نعم، ولي عشرة بنين اشتقت أسماءهم من اسم أخ لي هلك.

وقيل: إنه قال: رزقت ثلاثة أولاد ذكور. قال: ما أسماؤهم؟ قال: اسم أحدهم ذنب. فقال يوسف: أنت ابن نبي، فكيف سميت ولدك بأسماء الوحوش؟ فقال: إن إخوتي لما زعموا أن أخي أكله الذئب سميت ابني ذنباً حتى إذا صحت به ذكرت أخي، فبكى وبكى يوسف. وقال: ما اسم الآخر؟ قال: دم. قال: لم سميت بهذا الاسم؟ قال: إخوتي جاءوا بقميص أخي متضمخاً بالدم، فسميته بذلك حتى إذا صحت به ذكرت أخي، فبكى وبكى يوسف. فقال: وما اسم الثالث؟ قال: يوسف، سميته به حتى إذا صحت به ذكرت أخي، فبكى وبكى يوسف وقال في نفسه: يا الهي وسيدي، هذا أخي أراه بهذا الحزن، فكيف يكون حال الشيخ يعقوب، اللهم اجمع بيني وبينه قبل فراق الدنيا. ثم قال: أتحب أن أكون أذاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى

يوسف وقام إليه وعانقه و ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ يوسف^١.

وقيل: إن يوسف مَدَّ يده إلى الطعام وهو منتقِب، فلما نظر بنيامين إلى يد يوسف بكى، فقال يوسف: مما بكانك؟ قال: أيها المَلِك ما أشبه يدك بيد أخي يوسف، فلما سَمِع منه هذا الكلام لم يتمالك وألقى التقاب من وجهه، وقال: إِنِّي أَنَا أَخُوكَ^٢.

وقيل: إن بنيامين لما جلس على الخوان جعل يأكل وَيَتَعَصَّ بأكله وَيُطِيل النظر إلى يوسف، فقال له يوسف: أراك تُطِيل النظر إليّ؟ فقال: إن أخي الذي أكله الذنب يُشبهك. فقال يوسف: أنا أخوك^٣ ﴿فَلَا تَبْتَلِيسْ﴾ ولا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ بنا فيما مضى، فَإِنَّ الله أحسن إلينا وجمعنا بالخير، وأمره أن لا يُخبرهم، بل تُخفى الحال عنهم.

عن الصادق عليه السلام: «قد كان يوسف هيأ لهم طعاماً، فلما دخلوا عليه قال: ليجلس كل بني أم على مائدة، فجلسوا وبقي بنيامين قائماً، فقال له يوسف: مالك لا تجلس؟ قال له: إِنَّكَ قلتَ ليجلس كل بني أم على مائدة، وليس لي فيهم ابن أم فقال يوسف: أما كان لك ابن أم؟ قال له بنيامين: بلى. قال يوسف: فما فعل؟ قال: زعم هؤلاء أن الذنب أكله. قال: فما بلغ من حزنك عليه؟ قال: ولد لي أحد عشر ابناً كلهم شقق^٤ له أسماء من اسمه. فقال له يوسف: أراك قد عانقت النساء، وشمنت والولد من بعده؟ قال له بنيامين: إن لي أباً صالحاً، وإنه قال [لي] تزوج لعل الله أن يُخرج منك ذرية تُثْقِل الأرض بالتسبيح. فقال له [يوسف]: تعال فاجلس معي على مائدتي. فقال إخوة يوسف: لقد فَضَّل الله يوسف وأخاه علينا حتى إن المَلِك قد أجلسه معه على مائدته^٥.

وفي رواية: أنه حين أجلسه على المائدة، تركوا الأكل وقالوا: إنا نريد أمراً ويأبى الله [إلا] أن يرفع ولد ياميل^٦ علينا^٧.

وعن القمي عليه السلام: فخرجوا وخرج معهم بنيامين، وكان لا يُؤاكلهم ولا يجالسهم ولا يكلمهم، فلما وافوا مصر دخلوا على يوسف وسلموا، فظن يوسف إلى أخيه فرعه، وجلس منهم بالبعيد، فقال يوسف: أنت أخوهم؟ قال: نعم. قال: فلم لا تجلس معهم؟ قال: لأنهم أخرجوا أخي من أمي وأبي ثم رجعوا ولم يردّوه، وزعموا أن الذنب أكله، فأليت على نفسي أن لا اجتمع معهم على أمرٍ مادمت حياً. قال: فهل تزوجت؟ قال: بلى. قال: فولد لك ولد؟ قال: بلى. قال: كم ولد لك؟ قال: ثلاثة بنين؟ قال:

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٩٧.

٢. مجمع البيان ٥: ٣٨٤، تفسير الصافي ٣: ٣٢.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢١١٦/٣٥١، تفسير الصافي ٣: ٣٣.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٩٧.

٥. في مجمع البيان: اشتقت.

٦. في تفسير العياشي: يامين.

فما سَمَّيْتُمْ؟ قال: سَمَّيْتُ واحداً منهم بالذنب، وواحداً القميص، وواحداً الدم. قال: وكيف اخترت هذه الأسماء؟ قال: لثلاث أنسى أخِي، كلِّما دعوت واحداً منهم ذكرت أخِي. قال لهم يوسف: اخرجوا، وحبس بنيامين [عنده]، فلما خرجوا من عنده قال يوسف لأخيه: ﴿أَنَا أَخُوكَ﴾ [يوسف] ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثم قال له: أَنَا أَحَبُّ أَنْ تَكُونَ عِنْدِي، فقال: لَا يَدْعُونِي إِخْوَتِي، فَإِنَّ أَبِي قَدْ أَخَذَ عَلَيْهِمْ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ أَنْ يَزِدُونِي إِلَيْهِ. قال: أَنَا احْتَالَ بِحِيلَةٍ، فَلَا تُنْكِرْ إِذَا رَأَيْتَ شَيْئاً وَلَا تُخْبِرْهُمْ. فقال: لَا^١. وفي رواية عامية: أَنَّ بَنِيَامِينَ لَمَّا عَرَفَ أَخَاهُ أَخَذَتْهُ الْغَشْوَةُ مِنَ الشُّوقِ وَالْفَرَحِ، فَلَمَّا أَفَاقَ عَانَتْهُ وَقَالَ لَهُ: لَا أَفَارِقُكَ، قَدْ عَلِمْتُ اعْتِمَامَ وَالِدِي بِي، فَإِذَا حَبَسْتُكَ أَزْدَادَ غَمِّهِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ أَشْهَرَكَ بِأَمْرِ فُطِيعٍ. قال: لَا أَبَالِي، فافعل ما بدا لك. قال: أَدَسَّ صَاعِي فِي رَحْلِكَ، ثُمَّ أَتَادَى عَلَيْكَ: بِأَنَّكَ سَرَقْتَهُ لِبَتِيهَا لِي رَدَّكَ بَعْدَ تَسْرِحِكَ مَعَهُمْ. قال: افعل.

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا
الْعِمِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ [٧٠]

ثم قال يوسف لإخوته: أَتُحِبُّونَ سُرْعَةَ الرَّجُوعِ إِلَى أَبِيكُمْ؟ قالوا: نعم، فأمر الكيَّال بكيِّل الطعام، وقال له: زِدْهُمْ وَقُرْ^٢ بَعِيرٍ، ثُمَّ جَهَّزَهُمْ بِأَحْسَنِ جَهَازٍ ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ وَأَكْمَلَ مَوْتَنَ سَفَرِهِمْ ﴿جَعَلَ﴾ بِمَبَاشَرَتِهِ أَوْ بِوِاسِطَةِ أَفْرَانِيمَ أَوْ بِبَعْضِ خَوَاصِهِ وَمَحَارِمِهِ ﴿السَّقَايَةَ﴾ وَالْمَشْرَبَةَ الَّتِي كَانَتْ مِنْ فِضَّةٍ، أَوْ مِنْ بُلُورٍ، أَوْ مِنْ زُمُرُودٍ خَضِرَاءَ، أَوْ بِأَقْوَتِهِ حُمْرَاءَ تَسَاوَى مَاتِنِي أَلْفَ دِينَاراً، أَوْ مِنْ ذَهَبٍ مَرَصَّةً بِالْجَوَاهِرِ، جَعَلَتْ صَوَاعِاً وَكَيْلًا يُكَالُ بِهِ الطَّعَامُ لِعَزَّتِهِ، أَوْ يُكَالُ بِهِ طَعَامُ إِخْوَتِهِ إِكْرَاماً لَهُمْ^٣ ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بَنِيَامِينَ وَدَسَّهَا فِي حِمْلِهِ.

ثم أمر إخوته بالمسير، ثم لما انفصل الإخوة من مصر، طلب أصحاب يوسف السَّقَايَةَ، فما وجدوها، وما كَانَ أَحَدٌ هُنَاكَ غَيْرَ الَّذِينَ ارْتَحَلُوا، فَأَخْبَرُوا يَوْسُفَ، فَأَرْسَلَ مَنْ اسْتَوْفَقَهُمْ فَوْقَهُمْ ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ وَنَادَى مَنَادٌ مِنْ قَبْلِ الْمَلِكِ اسْمُهُ أَفَارَانِيمَ عَلَى مَا قِيلَ^٤: ﴿أَيَّتُهَا الْعِمِيرُ﴾ وَقَافِلَةُ الْكَنْعَانِيِّينَ ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾.

قيل: أراد يوسف من نسبة السرقة إليهم سرقتهم إياه من أبيه^٥.

٢. الوقْر: الحمل الثقيل.

١. تفسير القمي ١: ٣٤٨، تفسير الصافي ٣: ٣٣.

٥. تفسير روح البيان ٤: ٢٩٩.

٣ و ٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٩٨.

٤٢٤..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٣

كما روي أيضا عن الصادق عليه السلام قال: «ما سرقوا وما كذب يوسف، إنما عني سرقتم يوسف من أبيه»^١.

وفي رواية: «ألتري [أنه] قال لهم حين قالوا: ماذا تَفْقِدُونَ. قالوا: نَفْقِدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ، ولم يقولوا: سَرَقْتُمْ صَوَاعَ الْمَلِكِ»^٢.

وعنه عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا كذب على مُصْلِح، ثم تلا ﴿أَيُّهَا الْعِيزِيُّ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ثم قال: والله ما سرقوا وما كذب»^٣.

وعنه عليه السلام قال: «إرادة الاصلاح»^٤.

قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ
حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ لِنَفْسِ فِي الْأَرْضِ وَمَا
كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي
رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ [٧١-٧٥]

وقيل: إن النداء كان من قبل الكياليين على ظن سرقته^٥، فلَمَّا سَمِعَتِ الإخوة هذا النداء ﴿قَالُوا﴾
للذين جاءوا لطلب السَّاقِيَةِ ﴿وَي﴾ هم ﴿أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ ازعاجاً من نسبتهم إلى السرقة مع كونهم في
غاية الشرف: ما هذه النسبة و ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ وتَعْدَمُونَ، وأي شيء ضاع منكم؟ فلَمَّا رَأَى فتيان
يوسف في وجوههم غضباً شديداً ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم ﴿تَفْقِدُ﴾ وتَعْدَمُ ﴿صَوَاعَ الْمَلِكِ﴾ وكيـله
الذي كلنا به طعامكم.

عن الباقر عليه السلام: «الصاع^٦: الطاس الذي يُشْرَبُ فيه»^٧.

ثم قال المؤذن تسكيناً لقلوبهم وإيهاماً لعدم اعتقادهم السرقة في حَقِّهم: ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ﴾ قبل
تفتيش الغلمان له ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام جُعلاً^٨ له ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ وكفيل بأن أوديه^٩ إليه من
مالي لثلاثتهمني الملك.

فأجابهم الإخوة و ﴿قَالُوا﴾ تعجباً من هذه النسبة إليهم مع ظهور الشرف والنجابة والصلاح منهم:

٢. تفسير العياشي ٢: ٢١٢٢/٣٥٤، تفسير الصافي ٣: ٣٤.

٤. الكافي ٢: ١٧/٢٥٦.

٦. في تفسير العياشي: صواع الملك.

١. تفسير القمي ١: ٣٤٩، تفسير الصافي ٣: ٣٤.

٣. الكافي ٢: ٢٢/٢٥٦، تفسير الصافي ٣: ٣٤.

٥. تفسير روح البيان ٤: ٢٩٩.

٧. تفسير العياشي ٢: ٢١٢٣/٣٥٤، تفسير الصافي ٣: ٣٤.

٩. في النسخة: كفيل لأديه.

٨. الجعل: ما يُجعل على العمل من أجر.

يا أيها الفتنية ﴿تَاهَهُ لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ وتبين لكم من حالنا أنا ﴿مَا جِئْنَا﴾ من بلدنا إليكم ﴿لِنُقْسِدَ فِي﴾ هذه ﴿الْأَرْضِ﴾ وتلك البلدة بالسرقة ﴿وَمَا كُنَّا﴾ في مدة عمرنا ﴿سَارِقِينَ﴾ فإن العلم بالأحوال المشاهدة يستلزم العلم بالغائبة ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم ﴿فَمَا﴾ عقوبة السرقة أو السارق وأي شيء ﴿جَزَاؤُهُ﴾ في شرعكم؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ في جحودكم السرقة وإنكار كون الصّواع عندهم ﴿كَاذِبِينَ﴾ فلما كانوا مطمئنين ببراءة أنفسهم ﴿قَالُوا﴾ في شرع يعقوب عقوبة السارق أو السرقة و ﴿جَزَاؤُهُ﴾ استرقاق ﴿مَنْ وُجِدَ﴾ الصّواع ﴿فِي رَحْلِهِ﴾ وأمتعته ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾.

قيل: كان في شرع يعقوب أن يُسَرَّقَ السارق سنة^١.

ثم أكدوا الحكم المذكور بعد بيانه بقولهم: ﴿كَذَلِكَ﴾ الجزاء ومثل تلك العقوبة ﴿تَجْزِي﴾ ونعاقب ﴿الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالعصيان، وعلى غيرهم بسرقة ماله.

عن الصادق ﷺ: «يعنون السنة التي كانت تجري فيهم أن يحبسه»^٢.

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا
يُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ
نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ [٧٦]

ثم روي أن غلمان يوسف قالوا للإخوة: أنيخوا حتى نفتش رجالكم، فأناخوا^٣ ﴿فَبَدَأَ﴾ المفتش بأمر يوسف ﴿بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾ وجواليقهم في التفتيش ﴿قَبْلَ﴾ تفتيش ﴿وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين دفعا للثمة.

﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ قيل: فتشوا رَحْلَ الأخ الأكبر، ثم الذي يليه، ثم وثم إلى أن بلغت النوبة إلى رَحْل بنيامين، فقال يوسف: ما أظن أن هذا أخذ شيئا. فقال فتياه: والله ما تتركه حتى ننظر في رَحْلِهِ، فإنه أطيب لنفسك ولأنفسنا، ففتحوا متاع بنيامين، فأروا الصّواع فأخذوه وما معه من الصّواع، وردّوه إلى مصر^٤.

وأخذ إخوته يَشْتُمُونَهُ بالعبرانية وقالوا: يالعين^٥، ما حملك على سرقة صّواع المليك؟ ولا يزال يتألّم منك بلاء كما لقينا من ابن راحيل. فقال بنيامين: بل ما لقي ابنا راحيل البلاء إلا منكم، فأما يوسف فقد فعلتم به ما فعلتم، وأما أنا فنسبتموني إلى السرقة. قالوا: فمن جعل الإباء في متاعك؟ قال: إن

٢. تفسير العياشي ٢: ٢٥١/٢١٦، تفسير الصافي ٣: ٣٥.

٤. في تفسير روح البيان: إلى يوسف.

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٠.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٠.

٥. في تفسير روح البيان: وقالوا له: يا لص.

كنتم سرقتم بضاعتكم الأولى وجعلتموها في رحالكُم، فأنَا جعلت الصُّوع في رَحلي. فقال روبيل: والله لقد صدق وأراد بنيامين أن يُخبرهم بخبر يوسف، فذكر وصيته له فسكت^١.

ثم ذكر الله سبحانه لطفه بيوسف ومَنه عليه بقوله: و ﴿كَذَلِكَ﴾ الكيد المعجب والتدبير البديع ﴿كَيْدَنَا﴾ وديّرنا نفعاً ﴿لِيُؤسِّفَ﴾ وتحصيلاً لغرضه حيث ألهمناه أن يسألهم عن جزاء السارق في شرعهم ليلزمهم بما التزموا به، وإلا فإنه ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ﴾ ويسترقّ أو يحبس ﴿أَخَاهُ﴾ بنيامين بالجزاء المقرّر ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ الأكبر وسنّه، أو في حكمه وقضائه، لأنّ جزاء السارق في دينه هو ضربه وتغريمه ضعف ما سرق دون الاسترقاق والحبس ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ذلك الكيد الذي علّمناه، أو يشاء تغيير دين الملك، أو أخذه بوجه آخر.

ثم مدح سبحانه رفعة مقام يوسف في العلم بقوله: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ﴾ كثيرة في العلم ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾ رَفَعَهُ وتعلّي إلى مراتب عالية من نريد تعليته بالحكمة حسب استعداد الخلق وقابليتهم، واقتضاء الحكمة والمصلحة، كما رفعنا درجة يوسف ومرتبته في العلم على درجة علم إخوته وغيرهم من أهل عصره ﴿وَفَوْقَ﴾ درجة ﴿كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ من الخلق ﴿عَلِيمٌ﴾ ويكون من كلّ صاحب علم من هو أرفع منه في العلم إلى أن ينتهي إلى الله.

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا
لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ [٧٧]

ثم أن الإخوة ﴿قَالُوا﴾ ليوسف تنزيهاً لساحتهم من صنع بنيامين: ﴿إِنْ يَسْرِقْ﴾ هو فليس هذا العمل منه ببعيد ولا عجب ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ﴾ كان ﴿لَهُ﴾ من أمّه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وكنا نحن بُرءاء منهم. فسمع يوسف الكلمة الشنيعة ﴿فَأَسْرَهَا﴾ وأخفاها ﴿يُوسُفُ﴾ منهم ﴿فِي نَفْسِهِ﴾ وقلبه ﴿وَلَمْ يُبَيِّدْهَا﴾ ولم يُظْهِرْهَا ﴿لَهُمْ﴾ بوجوه جليلاً وصفحاً.

ثم ﴿قَالَ﴾ في نفسه: يا إخوتي ﴿أَنْتُمْ شَرُّ﴾ مني ﴿مَكَانًا﴾ ومنزلة حيث سرقتموني من أبي، وفعلتم بي ما فعلتم ﴿وَاللَّهُ﴾ العالم بحقايق الأمور ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ومن كلّ أحدٍ ﴿بِمَا تَصِفُونَ﴾ وتُتَسَبِّحُونَ إليّ.

قيل: كان جدّه لأُمّه يعبد الصنم، فقالت له أمّه راحيل: خذ صنم أبي واكسره لعلّه يتزك عبادته، فأخذه يوسف وكسره وألقاه بين الجيف في الطريق^٢.

عن النبي ﷺ قال: «سرق يوسف صنماً لجده أبي أمه من فضة وذهب فكسره وألقاه على الطريق».

وقيل: كانت لإبراهيم عليه السلام منطقة^١ يتوارثها أكابر ولده، فوَرِثها إسحاق، ثم وقعت إلى ابنته، وكانت أكبر أولاده، فحضنت يوسف وهي عمته بعد وفاة [أمه] راحيل، وكانت تُحِبُّه حباً شديداً بحيث لا تصير عنه، فلما شبَّ أراد يعقوب أن ينتزعه منها، فاحتالت بأن شَدَّتْ المنطقة على وسط يوسف تحت ثيابه وهو نائم، وقالت: فقدت منطقة إسحاق، فانظروا من أخذها. ففتشوا فوجدوها مشدودة على وسط يوسف تحت ثيابه، فقالت: إنه سرقها مِنِّي، فكان مسلماً لي، وكان حُكْمُهُمْ أَنْ من سرق يُسْتَرْق، فتوسَّلت بهذه الحيلة، إلى إمساكه عند نفسها، فتركه يعقوب عندها إلى أن ماتت^٢.

عن الرضا عليه السلام قال: «كانت لاسحاق النبي منطقة يتوارثها الأنبياء والأكابر، وكانت عند عمّة يوسف، وكان يوسف عندها، وكانت تُحِبُّه فبعث إليها أبوه: أن ابعثني، إلي وأرّده إليك، فبعثت إليه: أن دعه عندي الليلة أشمّه ثم أرسله إليك غدوة، فلما أصبحت أخذت المنطقة فربطتها في حَقْوِه^٣ وألبسته قميصاً وبعثت به إليه، وقالت: سُرِقَت المنطقة فوجدت عليه، وكان إذا سرق أحد في ذلك الزمان دُفِعَ به إلى صاحب السرقة»^٤.

وفي رواية: «فقال لها يعقوب: فإنه عبدك على أن لا تبيعه ولا تهيبه، قالت: فأنأ قبله على أن لا تأخذه مِنِّي وأعتقه الساعة. فأعطاه إياه وأعتقه»^٥.

وقيل: إنه كان يسرق من مائدة أبيه ويدفعه إلى الفقراء^٦.

وقيل: إنه سرق عَنَاقاً^٧ من أبيه^٨. وقيل: دَجَاجَة، ودفعه إلى مسكين^٩.

أقول: فساد هذين القولين واضح.

وقيل: إن الإخوة اتهموه وكذبوا عليه، وكانت قلوبهم مملوءة من الغضب عليه^{١٠}.

وقيل: إن يوسف نسبهم إلى السرقة بقوله إنكم لسارقون، فكوفي بقولهم: سرق أخ له^{١١}.

ثم لما حبس يوسف بنيامين كلمه إخوته في إطلاقه، روي أنه قال له روبيل: أيها الملك لتردّ إلينا

١. المنطقة: ما يشد به الوسط.

٢. تفسير العياشي ٢: ٢١٢٥/٣٥٥، تفسير الصافي ٣: ٣٥.

٣. الخراف والجرائح ٢: ٥٣/٧٣٩، تفسير الصافي ٣: ٣٦.

٤. العناق: الأنثى من أولاد المعز والغنم من حين الولادة إلى تمام الحول.

٥. تفسير الرازي ١٨: ١٨٤.

٦. تفسير الرازي ١٨: ١٨٤.

٧. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٢.

أخانا، أو لأصيحَنَ صِيحَةً تَضَعُ مِنْهَا الْحَوَالِمَ فِي مِصْرَ، وَقَامَتْ شُعُورُ جَسَدِهِ، فَخَرَجَتْ مِنْ ثِيَابِهِ، وَكَانَ بَنُو يَعْقُوبَ إِذَا غَضِبُوا لَا يُطَاقُونَ خِلَا أَنَّهُ إِذَا مَسَّ مِنْ غَضَبٍ وَاحِدٌ مِنْهُمْ سَكَنَ غَضَبُهُ، فَقَالَ يَوْسُفُ لِابْنِهِ: قُمْ إِلَى جَنْبِهِ فَمَسَّهُ - وَفِي رِوَايَةٍ، قَالَ: خُذْ بِيَدِهِ فَمَسَّهُ - فَسَكَنَ غَضَبُهُ. فَقَالَ رُوبِيلُ: إِنَّ هَذَا لَبَدْرًا مِنْ بَذُورِ يَعْقُوبَ. فَقَالَ يَوْسُفُ: مَنْ يَعْقُوبُ؟^١

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ

الْمُحْسِنِينَ [٧٨]

رَوَى أَنَّهُ غَضِبَ ثَانِيًا فَقَامَ إِلَيْهِ يَوْسُفُ فَرَكَّضَهُ بِرِجْلِهِ، وَأَخَذَ بِتَلَابِيهِهِ، فَوَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ: أَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعِبْرَانِيِّينَ تَطْتُونُونَ أَنْ لَا أَحَدٌ أَشَدَّ مِنْكُمْ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنْ لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى تَخْلِيصِ بَنِيَامِينَ خَضَعُوا^٢ لِيُوسُفَ وَ «قَالُوا» اسْتَغْطَافًا «يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ» فِي كِتَابِ «أَبَا» يَكُونُ «شَيْخًا كَبِيرًا» فِي السَّنِّ، أَوْ فِي الْقَدْرِ وَالْدِينِ بَحِثْ يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ رِعَايَةَ حَالِهِ وَالتَّرَحُّمَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ لَهُ مَحَبَّةً شَدِيدَةً وَأَنْسَأَ تَامًا بِهَذَا الْوَلَدِ بَعْدَ هَلَاكِ أَخِيهِ مِنْ أُمِّهِ «فَخُذْ أَحَدَنَا» اسْتِعْبَادًا «مَكَانَهُ» وَعَوَضَهُ - أَوْ رَهْنًا - حَتَّى نَأْتِيكَ بِفِدَاءٍ لَكَ «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» إِلَيْنَا بِالْإِكْرَامِ وَالْمُتَفَضِّلِينَ عَلَيْنَا بِإِفَاءِ كَيْلِ^٣ الطَّعَامِ وَالْبَذْلِ الْكَثِيرِ وَرَدِّ الْبُضَاعَةِ فَاتِّمِمْ إِحْسَانَكَ بِرَدِّ أَخِيكَ.

أَوْ الْمُرَادُ «نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» إِلَى جَمِيعِ أَهْلِ مَمْلَكَتِكَ بِاعْتَاقِهِمْ وَرَدِّ أَمْوَالِهِمْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ اسْتِرْقَاقِهِمْ وَتَمَلُّكِ أَمْوَالِهِمْ عَوَضَ الطَّعَامِ، فَكُنْ مُحْسِنًا إِلَيْنَا أَيْضًا وَإِلَى أَبِيهِ الضَّعِيفِ بِإِعْتَاقِ وَلَدِهِ الَّذِي لَا يَصْبِرُ عَلَى فِرَاقِهِ^٤.

وَعَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام: «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» إِنْ فَعَلْتَ^٥.

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَطَّالِمُونَ * فَلَمَّا أَسْتَيْتُوا مِنْهُ خَلَّصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ ابْنِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ أَبْنَاكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ [٧٩-٨١]

٣. في النسخة: الكيل.

٤. في النسخة: بفراقه.

١ و ٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٢.

٥. تفسير العياشي ٢: ٣٥٠/٢١١٥، تفسير الصافي ٣: ٣٦.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿مَتَاعًا لِلَّهِ﴾ لا يمكن ﴿أَنْ نَأْخُذَ﴾ بالعبودية أو بالحبس أحداً ﴿إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا﴾ وصواعنا ﴿عِنْدَهُ﴾.

القمي: قال ﴿إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ ولم يقل: إلا من سرق متاعنا،^١ لأن أخذه إنما كان بقضية شرعكم وفواكم، فلو أخذنا البريء بدلاً عن المجرم ولو برضاه ﴿إِنَّا إِذَا لَطَّالِمُونَ﴾ في حكمكم وشرعكم وليس لنا ذلك ﴿فَلَمَّا أَشْتَبَأْشُوا﴾ من يوسف وانقطع رجاءهم ﴿مِنْهُ﴾ بالكلية في تخلص بنيامين ﴿خَلَصُوا﴾ وانفردوا من غيرهم حال كونهم ﴿نَجِيًّا﴾ ومسررين في التشاور في تدبير رجوعهم إلى أبيهم واعتذارهم عنده من عدم رد بنيامين إليه مع كونهم مضطرين إلى الرجوع لشدة انتظارهم وكمال حاجة أهلهم إلى الطعام.

ولما رأى بعضهم رجوعهم بالاتفاق ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السن - وهو روبيل، أو في الرياسة وهو شمعون، أو في العقل وهو يهوذا^٢، أو لاري على قول القمي^٣ - إنكاراً عليهم الرجوع بالاتفاق: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ يا إخواني ولم تتيقنوا ﴿أَنْ أَبَاكُمْ﴾ أبى أن يأذن في أن يسافر بنيامين معكم إلى مصر حتى أن ﴿قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتَقًا﴾ وعهداً أكيداً بالخلف المأذون فيه ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ على أن ترجعوا إليه ابنه ولا تغدروا ﴿وَمِنْ قَبْلِ مَا فَرَّقْتُمْ﴾ وقصرتم ﴿فِي﴾ العهد على إرجاع ﴿يُوسُفَ﴾ ولم تغثوا به ولم تحفظوه فيه.

عن ابن عباس: لما قال يوسف: معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، غَضِبَ يهوذا، وكان إذا غَضِبَ يقوم شعره على جسده^٤.

وفي رواية القمي: [وكانوا ولد يعقوب إذا غضبوا خرج من ثيابهم شعر و] يقطر من رؤوسهم^٥ دم أصفر^٦.

قال ابن عباس: وإذا صاح فلا تسمع صوته حامل إلا وضعت، ولا يسكن غضبه حتى يضع بعض آل يعقوب يده عليه. فقال لبعض إخوته: أكفوني^٧ أهل مصر، وأنا أكفيكم الملك. فقال يوسف ﷺ لابن صغير له: مَسَّةُ فَمَسَّةٍ فذهب غضبه، وهم أن يصيح فركض^٨ يوسف ﷺ رجله على الأرض، وأخذ بملابسه وجذبه فسقط، فعنده قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ إلى آخره.

فلما أيسوا من قبول الشفاعة، تذكروا وقالوا: إن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً عظيماً من الله، وأيضاً

١. تفسير القمي ١: ٣٤٩، تفسير الصافي ٣: ٣٦. ٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٣.

٣. تفسير القمي ١: ٣٤٩، تفسير الصافي ٣: ٣٧. ٤. تفسير الرازي ١٨: ١٨٨.

٥. في النسخة: رؤوسها. ٦. تفسير القمي ١: ٣٤٩، تفسير الصافي ٣: ٣٦.

٧. زاد في تفسير الرازي: أسواق. ٨. ركض: رفس.

نحن مُتَّهِمُونَ بواقعة يوسف، فكيف المُخْلَص من هذه الوَظْطَة؟^١. قال يهودا: ﴿فَلَنْ أُبْرَحَ﴾ ولا أفارق أبداً هذه ﴿الْأَرْضَ﴾ وتلك البلدة: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ لِي أَبِي﴾ في الانصراف إليه ﴿أَوْ يَخُكِّمَ اللَّهُ لِي﴾ بالخروج منها والرجوع إلى أبي على وجه لا يؤدِّي إلى نقض الميثاق، أو يجعل لي مخلصاً بسبب من الأسباب.

وقيل: يعني يقضي الله عليّ بالموت^٢ ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لِّلْحَاكِمِينَ﴾ لأنّه لا يحكم إلّا بالعدل والحقّ ولا يجور ولا يدهن، يا إخوتي ﴿أَرْجِعُوا﴾ أنتم ﴿إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا﴾ له ﴿يَا أَبَانَا إِنَّ أَيْتَانَكَ﴾ بنيامين ﴿سَرَقَ﴾ صواع المَلِكِ بمصر ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عليه عندك بالسرقه ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ ورأينا من استخراج الصّواع من وعائه ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ وباطن الأمر وواقع الحال به ﴿حَافِظِينَ﴾ ففعل أهل مصر رموه في وعائه ليُتَهموه بالسرقه حسداً وعداوةً.

وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ [٨٢]

وقيل: يعني ما كنا نعلم أنّ ابنك هذا يسرق، ولو علمنا ذلك منه ما ذهبنا به إلى مَلِكِ مصر، ولم نُحْضِرْهُ معنا عند المَلِكِ، وما أعطيناك العهد على إرجاعه إليك^٣، وإن لا تُصدّقنا فيما نقول لآتهامنا عندك بالكذب وخُلف العهد، ففتش عن القضية ﴿وَاسْأَلِ﴾ عنها ﴿الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ وأهل البلدة التي وقعت القضية فيها - قيل: هي مصر^٤ وقيل: هي قرية قريبة من مصر، فأنّه وقعت القضية فيها^٥ - ﴿وَأَسْأَلِ الْعَيْرَ﴾ والقافلة ﴿الَّتِي أَقْبَلْنَا﴾ وتوجّهنا إليك ﴿فِيهَا﴾ فإنهم كانوا معنا ذهاباً وإياباً، وفي الوقعة.

وقيل: يعني أسأل حيطان القرية وجدرانها والأباعر التي كانت معنا حتى يُخبروك بها، فإنك من أكابر الأنبياء فينطق الله لك الجمادات والحيوانات^٦.

وقيل: إنّ الشيء إذا ظهر ظهوراً تاماً يقال [فيه]: سل الجمادات^٧ وجميع الأشياء عنه^٨.

قيل: كان معهم قومٌ من كنعان من جيران يعقوب^٩.

ثمّ أكّدوا قولكم بالحلف بالله، ﴿وَقُولُوا^{١٠}﴾ ﴿إِنَّا﴾ والله ﴿لَصَادِقُونَ﴾ فيما نخبرك به.

ثمّ لما اخذوا دستور كيفية إخبار يعقوب بالقضية، رجعوا إلى كنعان، ورجع يهودا إلى يوسف، فقال

١. تفسير الرازي ١٨: ١٨٨.

٣. تفسير الرازي ١٨: ١٩٠.

٧. في تفسير الرازي: سل السماء والأرض.

٩. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٤.

٢. مجمع البيان ٥: ٣٩١.

٤ - ٥. تفسير الرازي ١٨: ١٩٠.

٨. تفسير الرازي ١٨: ١٩٠.

١٠. في النسخة: وقالوا.

له: لم رجعت؟ قال: إِنَّكَ اتَّخَذْتَ أَخِي رَهِينَةً، فَخَذَنِي مَعَهُ، فَجَعَلَهُ عِنْدَ أَخِيهِ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمَا. وعن الصادق عليه السلام قال: «فرجع إخوة يوسف إلى أبيهم، وتخلّف يهودا، فدخل على يوسف يكلمه في أخيه حتّى ارتفع الكلام بينهما حتّى غضب يهودا، وكان على كتفه شعره إذا غضب قامت الشعرة، فلا تزال تقذّف بالدم حتّى يَمَسَّ بعض ولد يعقوب، وكان بين يدي يوسف ابن له صغير في يده رُمَانُهُ من ذهب يلعب بها، فلَمَّا رآه يوسف قد غَضِبَ وقامت الشعرة تقذّف بالدم، أخذ الرُمَانَةَ من يد الصبيّ، ثمّ دحرجها نحو يهودا، وتبعها الصبيّ ليأخذها، فوقعت يده على يد يهودا فذهب غضبه، فارتاب يهودا، ورجع الصبيّ بالرُمَانَةِ إلى يوسف، ثمّ عاد يهودا إلى يوسف فكلمه في أخيه حتّى ارتفع الكلام بينهما، حتّى غَضِبَ يهودا، وقامت الشعرة، فجعلت تقذّف بالدم، فلَمَّا رأى ذلك يوسف دحرج الرُمَانَةَ نحو يهودا، وتبعها الصبيّ ليأخذها، فوقعت يده على يد يهودا، فسكن غضبه، فبقال يهودا: «إِنْ فِي الْبَيْتِ مَعَنَا بَعْضُ وَلَدِ يَعْقُوبَ، حَتَّى صَنَعَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» الخبر.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا
إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ
عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ [٨٣ و ٨٤]

ثم إن الإخوة التسعة لما دخلوا على يعقوب وأخبروه بقضية بنيامين حسبما لقنهم يهودا ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب على ما روى: هبوا أنه سرق، ولكن كيف عرف المَلِكُ أنَّ شرع بني إسرائيل أنَّ من سرق يُسترق؟ فما كنتم بريئين من التقصير في حقّه ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ واحتالت ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ عظيماً، وهو تهمة بنيامين بالسرقة مع أنّه بريء، أو إخراجهم معكم إلى مصر بظنّ النفع فترتب عليه هذا الضرر، أو فتواكم عند المَلِكِ بأنّ جزاء السارق استرقاقه ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ لا شكوى فيه إلى الخلق، تكليفي ووظيفتي.

قيل: لما أخبروا أبيهم بالواقعة بكى، وقال: يَا بَنِي لَا تَخْرُجُوا مِنْ عِنْدِي مَرَّةً إِلَّا وَنَقْصَ بَعْضِكُمْ، ذهبتم مرة فنقص يوسف، وفي الثانية نقص شمعون، وفي هذه المرة نقص كبيركم روبيل - أو يهودا - وبنيامين، ثم بكى وقال: ﴿عَسَى اللَّهُ﴾ وأرجو منه ﴿أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾^٢ لحسن ظنّي برحمته ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بشدّة حزني وغاية ضّعفي ﴿الْحَكِيمُ﴾ في فعله، لا يفعل بعبد إلا ما هو عين

٢. تفسير الرازي ١٨: ١٩٠.

١. تفسير القمي ١: ٣٤٩، تفسير الصافي ٣: ٣٧.

٣. تفسير الرازي ١٨: ١٩١.

التفضل والاحسان والصلاح ﴿وَتَوَلَّى﴾ وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ بوجهه كراهة لما سمع منهم، وذهب إلى بيت الأحران، وهاج حزنه على يوسف لكون مصيبتيه أصل مصائبه، ولأنه كان يعلم بحياة غيره دونه، وكان يتسلى برؤية بنيامين عن رؤيته، لكونهما من أم واحدة، وفي غاية المشابهة، فضاقت قلبه ﴿وَقَالَ يَا أَسْفَى﴾ وبأحزنا ﴿عَلَى يَوْسُفَ﴾ تعال فهذا أوانك. في الحديث: «لم تعط أمة من الأمم إننا لله وإننا إليه راجعون [عند المصيبة] إلا أمة محمد ﷺ، ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع بل قال: ﴿يَا أَسْفَى عَلَى يَوْسُفَ﴾»^١.

وعن القمي رحمه الله: إن يعقوب لم يعلم الاسترجاع، فمن هنا قال: ﴿يَا أَسْفَى عَلَى يَوْسُفَ﴾^٢.
عن الصادق عليه السلام: أنه شغل ما بلغ من حزن يعقوب على يوسف؟ قال: «حزن سبعين ثكلى بأولادها»^٣.

وروي أن يوسف قال لجبرئيل: أيها الروح الأمين، هل لك علم بيعقوب؟ قال: نعم، وهب الله له الصبر الجميل، وابتلاه بالحزن عليك، قال: فما قدر حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى. قال: فما له من الأجر؟ قال: أجر مائة شهيد، وما أساء ظنه بالله ساعة قط^٤.

وعن الصادق عليه السلام في رواية - قيل له: كيف حزن يعقوب على يوسف وقد أخبره جبرئيل أنه لم يمُت، وأنه سيرجع إليه؟ قال: «إنه نسي ذلك»^٥ الخبر، فأكثر البكاء عليه ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ وَمَحَقَّتْ سَوَادَهُمَا مِنْ الْحُزَنِ﴾ روي أنه ما جفت عينا يعقوب من يوم فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين سنة^٦ ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ممسك عن النياحة وذكر ما لا ينبغي.

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ

إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [٨٥ و ٨٦]

وقيل: يعني مملوءاً من الغيظ على أولاده، ممسكاً له قلبه^٧، أو متجرعاً غصته لا يظهرها عند أحد، ثم لأمه أو سلاه بعض ولده أو أقرانه و ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ﴾ ولا تزال ﴿تَذْكُرُ يَوْسُفَ﴾ فتجعاً عليه ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ ومريضاً أو فاسد الجسم والعقل ﴿أَوْ تَكُونَ﴾ هالكاً ﴿مِنْ الْهَالِكِينَ﴾ من شدة الحزن عليه ﴿قَالَ﴾ يعقوب لا أشكو حزني عند أحد ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي﴾ وغمي الذي لا يُطاق له ﴿وَحُزْنِي﴾ وغمي الذي يُطاق له ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لأنه لا أرجو كشف الغم الشديد، ولا تفريج الغم

٢ و ٣. تفسير القمي ١: ٣٥٠، تفسير الصافي ٣: ٣٨.

٥. تفسير العياشي ٢: ٢١٣١/٣٥٨، تفسير الصافي ٣: ٣٨.

٧. تفسير أبي السعود ٤: ٣٠٢، تفسير الصافي ٣: ٣٨.

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٦.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٩.

٦. تفسير أبي السعود ٤: ٣٠١.

الضعيف إلا منه ﴿و﴾ أنا ﴿أَعْلَمُ مِنْ﴾ لطف ﴿آله﴾ ورحمته بعباده ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولذا أرجو أن يرحمني ويكشف ما بي من الغم والهم.

وقيل: يعني أعلم بالهام الله ما لا تعلمون من حياة يوسف ولقائي إياه^١.

قيل: إن الله أوحى إليه أنه سيوصل إليه يوسف، ولكنه تعالى ما عيّن الوقت^٢.

عن الصادق ﷺ: «إن يعقوب ﷺ لما ذهب منه بنيامين نادى: يا رب، أما ترحمني، أذهب عيني، وأذهب ابني. فأوحى الله تعالى: لو أمتهم لأحييتهم لك حتى أجمع بينك وبينهما ولكن تذكر الشاة التي ذبحتها وشويتها وأكلتها، وفلان وفلان إلى جانبك صائم لم تعطهم منها شيئاً»^٣.

وروى أنه ﷺ رأى ملكاً في منامه، فسأله عن يوسف فقال: هو حي^٤.

وقيل: عليم من رؤيا يوسف أنه لا يموت حتى يخرجوا له سجداً^٥.

وعن السدي: لما أخبره أولاده بسيرة ملك مصر أحست نفسه وقال: لعله يوسف^٦.

وعن الصادق ﷺ: أن أعرابياً اشترى من يوسف طعاماً فقال له: إذا مررت بوادي كذا فناد: يا يعقوب فإنه يخرج إليك شيخ، فقل له: إنني رأيت بمصر رجلاً يقرئك السلام ويقول: إن وديعتك عند الله محفوظة لن تضيع. فلما بلغه الأعرابي خرّ يعقوب مغشياً عليه، فلما أفاق قال: هل لك [من] حاجة؟ قال: لي ابنة عم - وهي زوجتي - لم تلد، فدعا له فزّج منها أربعة أبطن في كلّ بطن اثنين^٧. وفي رواية: كان يعقوب يعلم أن يوسف حي لم يمّت، وأن الله سيظهره له بعد غيبته، وكان يخبر بنيه، وكان أهله وأقرباؤه يفتقدونه على ذكر يوسف^٨.

يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَبْتَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا

يَبْتَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ [٨٧]

وقيل: إنه ﷺ لما عليم أن بنيامين لا يسرق، وسمع أن الملك ما آذاه وما أهانه، غلب على ظنه أن الملك هو يوسف^٩، فرجع إلى أولاده باللطف، وتكلم معهم باللين والرحمة، وقال: ﴿يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا﴾ إلى مصر ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ وفتشوا بأسماءكم وأبصاركم بعضاً ﴿مِنْ﴾ أخبار ﴿يُوسُفَ﴾

٢. تفسير الرازي ١٨: ١٩٨.

٤. في تفسير أبي السعود وتفسير الصافي: ملك الموت.

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٩.

٣. الكافي ٢: ٤٨٩/٤، تفسير الصافي ٣: ٣٩.

٥. تفسير أبي السعود ٤: ٣٠٢، تفسير روح البيان ٤: ٣٠٩.

٦. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٩.

٨. الخرائج والجرائح ٢: ٩٣١، تفسير الصافي ٣: ٣٩.

٩. إكمال الدين: ٩/١٤٢، تفسير الصافي ٣: ٣٩.

١٠. تفسير الرازي ١٨: ١٩٨.

وَأَخِيهِ بَنِيَامِينَ، وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرِ الثَّالِثَ لِكَوْنِ إِقَامَتِهِ بِمِصْرَ اخْتِيَارِيَّةً.

ثُمَّ رَغِبَهُمْ فِي التَّفَتُّيشِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَبْتَاسُوا﴾ وَلَا تَقْنَطُوا ﴿مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ وَرَحْمَتِهِ وَتَفْرِيجِهِ وَتَنْفِيسِهِ.

عَنِ الْبَاقِرِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): أَنَّهُ سَتَلَ أَنْ يَعْقُوبَ حِينَ قَالَ لَوْلَدِهِ: ﴿أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ﴾ أَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ حَيٌّ وَقَدْ فَارَقَهُ مِنْذَ عَشْرِينَ سَنَةً، وَذَهَبَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ [أَنَّهُ حَيٌّ]». قِيلَ: وَكَيْفَ عَلِمَ؟ قَالَ: «إِنَّهُ دَعَا فِي السُّحَرِ أَنْ يَهْطَ عَلَيْهِ مَلِكُ الْمَوْتِ، فَهَبَطَ عَلَيْهِ تَرْيَالٌ^١ - وَهُوَ مَلِكُ الْمَوْتِ - فَقَالَ لَهُ تَرْيَالٌ: مَا حَاجَتُكَ يَا يَعْقُوبُ؟ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْأَرْوَاحِ تَقْبِضُهَا مَجْتَمِعَةً أَوْ مُتَفَرِّقَةً؟ قَالَ: بَلْ مُتَفَرِّقَةً رَوْحاً. قَالَ: فَمَرَّ بِكَ رُوحُ يَوْسُفَ؟ قَالَ: لَا، فَعِنْدَ ذَلِكَ عَلِمَ أَنَّهُ حَيٌّ، فَقَالَ لَوْلَدِهِ: ﴿أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ﴾^٢.

ثُمَّ هَدَّاهُمْ عَلَى الْيَأْسِ بِقَوْلِهِ ﴿إِنَّهُ لَا يَبْتَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ لَجَهْلِهِمْ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَكَمَالِ لُطْفِهِ وَبِعِبَادِهِ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَلَمَعْرِفَتِهِمْ بِكَمَالِ صِفَاتِهِ يَرْجُونَهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَإِنْ كَانَتْ مَعَاصِيهِمْ أَكْثَرَ مِنَ الرَّمْلِ وَالْحَصَا وَعَدَدُ نَجُومِ السَّمَاءِ، وَمَا يَرَى وَمَا لَا يَرَى، فَاثْمَلُ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ أَمْرَهُ، وَأَرَادُوا الرَّجُوعَ إِلَى مِصْرَ.

قِيلَ: كَتَبَ يَعْقُوبُ إِلَى يَوْسُفَ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

مِنْ يَعْقُوبَ إِسْرَائِيلَ اللَّهِ ابْنِ إِسْحَاقَ [ذُبِيحَ اللَّهِ] ابْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ، إِلَى عَزِيزِ مِصْرَ.

أَمَّا بَعْدُ، فَأَنَا أَهْلُ بَيْتِ مُوَكَّلٍ بِنَا الْبَلَاءِ، أَمَّا جَدِّي إِبْرَاهِيمَ فَأَنَّهُ ابْتُلِيَ بِنَارِ نَمْرُودَ فَصَبِرَ، فَجَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا [وَأَمَّا أَبِي إِسْحَاقَ فَاَبْتُلِيَ بِالذَّبِيحِ فَصَبِرَ، فَفَدَاهُ اللَّهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ]، وَأَمَّا أَنَا فَاَبْتُلَانِي اللَّهُ بِفَقْدِ وَلَدِي يَوْسُفَ، فَبِكَيْتٍ عَلَيْهِ حَتَّى ذَهَبَ بِصُرِّي وَنَحْلَ جَسْمِي، وَقَدْ كُنْتُ أَتَسَلَّى بِهَذَا الْغَلَامِ الَّذِي أَسْكَنْتَهُ عِنْدَكَ وَزَعَمْتَ أَنَّهُ سَارِقٌ، وَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَسْرِقُ، وَلَا نُلْدُ سَارِقًا فَإِنْ رَدَدْتَهُ عَلَيَّ وَإِلَّا دَعَوْتُ عَلَيْكَ دَعْوَةَ تَذَرِكِ السَّابِعِ مِنْ وَلَدِكَ. وَالسَّلَامُ^٣.

وَعَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «أَنَّ يَعْقُوبَ كَتَبَ إِلَى يَوْسُفَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

١. فِي تَفْسِيرِ الْعِيَاشِيِّ: تَرْيَالٌ، وَكَذَا الَّذِي بَعْدَهَا.

٢. تَفْسِيرُ الْقَمِي ١: ٣٥٠، تَفْسِيرُ الْعِيَاشِيِّ ٢: ٣٦٠/٢١٣٧، الْكَافِي ٨: ٢٣٨/١٩٩، عَلَلِ الشَّرَائِعِ: ١/٥٢، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ

٣. ٣٩. ٣. تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ٤: ٣٠٣، تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٤: ٣١٠.

إلى عزيز مصر، ومُظْهِر العدل، ومُوفِي الكَيْل.

عن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن، صاحب نمرود، الذي جمع له النار ليحرقه بها فجعلها الله عليه برداً وسلاماً وانجاء منها.

أخبرك - أيها العزيز - أنا أهل بيتٍ لم يزل البلاء [إلينا] سريعاً من الله ليلبونا عند السراء والضراء، وإن المصائب تابعت علي منذ عشرين سنة، أولها أنه كان لي ابن سميته يوسف، وكان شروري من بين ولدي وقرة عيني وثمرة فؤادي و [أن] إخوته من غير أمه سألوني أن أبعثه معهم [يرتع ويلعب، فبعثته معهم] بكرة فجاؤني عشاءً يكون، وجاءوا على قميصه بدم كذب، وزعموا أن الذئب أكله، فاشتد لفقدته حزني وكثر على فراقه بكائي حتى ابيضت عينا من الحزن، وإنه كان له أخ، وكنت به معجباً، وكان لي أنيساً، وكنت إذا ذكرت يوسف ضممته إلى صدري فسكن بعض ما أجد في صدري، وإن إخوته ذكروا أنك سألتهم عنه، وأمرتهم أن يأتوك به، فان لم يأتوك به منعته الميرة، فبعثته معهم ليمتاروا لنا قمحاً، فرجعوا إلي وليس هو معهم، وذكروا أنه سرق ميكيل الملك، ونحن أهل بيت لا نسرق، وقد حبسته عني، وفجعني به، وقد اشتد لفراقه حزني حتى تقوس لذلك ظهري، وعظمت به مصيبي مع مصائب تابعت علي، فمن علي بتخلية سبيله وإطلاقه من حبسك، وطيب لنا القمح، واسمح لنا في السعر، وأوف لنا الكيل، وعجل سراح آل إبراهيم^١.

ثم أعطى الكتاب ولده، وأعطاهم بضاعة من صوف وسمن^٢. وقيل: من الصنوبر والحببة الخضراء^٣. وقيل: من سويق المثل والأقط^٤. وقيل: الدراهم الزيوف^٥.

وعن الرضا ﷺ: «كانت المثل، وكانت بلادهم بلاد المثل»^٦.

فجاءوا إلى مصر، فلمّا وردوها رأوا أخاهم الذي تخلف عنهم بمصر، فذهبوا معه إلى يوسف^٧.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْفُسْرُ وَجِئْنَا بِبُضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ

فَأَوْفَ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ [٨٨]

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أعطوه كتاب يعقوب وخضعوا له و ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ والملك القادر

١. مجمع البيان ٥: ٣٩٩، تفسير الصافي ٣: ٤١.

٢ و ٣. تفسير البيضاوي ١: ٩٤، تفسير أبي السعود ٤: ٣٠٣.

٤. تفسير البيضاوي ١: ٩٤، تفسير أبي السعود ٤: ٣٠٣، الأقط: لبن محمض يجمد حتى يستحجر ويُطبخ.

٥. تفسير البيضاوي ١: ٩٤. ٦. تفسير العياشي ٢: ٣٦٣/٢١٤٠، تفسير الصافي ٣: ٤٠.

٧. تفسير روح البيان ٤: ٣١٠.

القاهر ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ﴾ وأصابتنا الشدة من الجوع والضعف والهزال ﴿وَجِئْنَا﴾ إليك ﴿بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ وعوض غير قابل للقبول لغاية قلته وحقارته و ﴿فَأَوْفٍ﴾ وأكبل مع ذلك بكرمك ﴿لَنَا الْكَثِيلُ﴾ من الطعام كما توفيه لغيرها بالأمعة المرغوبة والدراهم الجياد ﴿وَتَصَدَّقْ﴾ ومن ﴿عَلَيْنَا﴾ بقبول ما عندنا من العوض القليل والمتاع الحقير باعطاء^١ الطعام الكثير، أو باطلاق أخينا بنيامين - عن الصادق عليه السلام - «وتصدق علينا بأخينا بنيامين»^٢ - وهذا كتاب يعقوب أرسله إليك في أمره يسألك تخلية سبيله، فمَن به علينا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي﴾ أحسن الجزاء، ويثيب بفضلته أعلى الثواب ﴿الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ على المحتاجين، والمتفضلين على السائلين.

قيل: إنهم لم يقولوا: إن الله يجزيك لأنهم لم يعلموا بأنه مؤمن^٣.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ [٨٩]

ثم روي أنه لما سمع من إخوته عرض الحاجة الشديدة، وإظهار غاية المسكنة، وتضرعهم إليه وإلحاحهم لديه، اغرورقت عيناه، وسال دمه، ولما قرأ كتاب أبيه ارتعدت فرائضه، واقشعر جلده، وكثر بكائه، وعيل صبره، ولم يتمالك حتى عرفهم نفسه^٤ و ﴿قَالَ﴾ لهم تصديقاً لما أوحى الله إليه حين ألوه في الحب من قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾^٥ ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ﴾ من القبايح والشنائع ﴿يُوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ بنيامين وهل تنبّهت بسوء ما أقدمتم عليه في حقها حين كانا مهجورين تحت أيديكم من ضربكم يوسف وإلقائه في الحب، وإيذاً بكم أخيه، ونسبتكم إياه إلى السرقه، وشتكم له ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ بشدة قبحه لغروركم، أو بما ينول إليه أمر يوسف، وإنما كان كلامه هذا شفقة عليهم ونصحاً لهم في الدين، وحثاً لهم على التوبة، لا معاتبه وتثريباً عليهم، إثارة لحق الله تعالى على حق نفسه.

قَالُوا أَأَتَتْكَ لَأَنْتَ يُوْسُفَ قَالَ أَنَا يُوْسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ [٩٠ و ٩١]

١. في النسخة: واعطاء. ٢. مجمع البيان ٥: ٣٩٩، نسبه إلى القيل، تفسير الصافي ٣: ٤٠.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٣١١. ٤. تفسير الرازي ١٨: ٢٠٣.

٥. يوسف: ١٥/١٢.

ثم قيل: إنه ﷺ رَفَعَ النَّقَابَ عن وجهه، وألقى التاج من رأسه، فنظر إخوته إلى وجهه^١، و«قَالُوا» تقريراً له واستعجاباً من مقامه: «أَوَئِكَ لَأَنْتَ» أخونا «يُوسُفُ قَالَ» نعم «أَنَا» أخوكم «يُوسُفُ» الذي ظلمتموني بأعظم ظلم.

ثم بالغ في تعريف نفسه وتفخيم بنيامين بقوله: «وَهَذَا» الجالس عندي «أَخِي» من أبي وأمي «قَدْ مَنَّ اللَّهُ» وأنعم «عَلَيْنَا» بالسلامة، والعزة بعد الدلة، والاجتماع بعد الفرقة. عن ابن عباس: أي بكل عز في الدنيا والآخرة^٢.

ثم ذكر علة منة الله على نفسه وأخيه بقوله: «إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ» الله، ويخافه في معاصيه ويحفظ نفسه من ارتكاب ما يسخطه «وَيُضَيِّعُ» على الطاعة، ويتحمل أذى الناس يؤجر أجراً عظيماً «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ» ولا يبطئ «أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» وهم المتقون الصابرون.

ثم أن الإخوة خضعوا له و«قَالُوا» اعتذاراً من تفریطهم في حقّه، وتواضعاً له: «ثُمَّ تَوَاضَعُوا لَكَ» وفضلك «عَلَيْنَا» بالعلم والحلم والعقل والفضل وحسن الخلق والخلق والسعادة في الدارين «وَأِنْ كُنَّا» في الإساءة إليك «لَخَاطِئِينَ» ومتعمدين بالذنب، وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار.

قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ [٩٢]

وعن الباقر ﷺ: «قالوا فلا تفضحنا ولا تعاقبنا اليوم واغفر لنا»^٣. «قَالَ» يوسف لهم كرمًا وصفحاً: يا إخوتي «لَا تَثْرِيبَ» ولا تقصير ولا توبيخ «عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» فيما فعلتم بي فضلاً عن العتاب والعقوبة.

وقيل: اليوم متعلق بما بعد^٤ فالآية اليوم «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ» ويستتر ذنوبكم «وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». رُوي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أخذ بعضادتي^٥ باب الكعبة يوم الفتح فقال لقريش: «ما تروني فاعلاً بكم؟» قالوا: نظنّ خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت. فقال: «أقول ما قال أخِي يوسف:» «لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ»^٦.

رُوي أَنَّهُ لَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ - كِتَابَ أَبِيهِ - بَكَى وَكَتَبَ فِي جَوَابِهِ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

١. تفسير روح البيان ٤: ٣١٢.

٢. تفسير الرازي ١٨: ٢٠٤.

٣. تفسير الرازي ١٨: ٢٠٦.

٤. تفسير العياشي ٢: ٢١٣٨/٣١٣، تفسير الصافي ٣: ٤١.

٥. عضادات الباب: خشبتان تكونان على جانبيه مثبتتان في الحائط.

٦. تفسير الرازي ١٨: ٢٠٦، تفسير روح البيان ٤: ٣١٣.

إلى يعقوب إسرائيل الله من مَلِك مصر.

أما بعد، أيها الشيخ، فقد بلغني كتابك وقرأته وأحطت به علماً وذكرته فيه آباءك الصالحين، وذكرت أنهم أصحاب البلايا، فأنهم ابتلوا وصبروا وظفروا، فاصبر كما صبروا، والسلام. فلما قرأ يعقوب الكتاب قال: والله ما هذا كتاب الملوك، ولكنه كتاب الأنبياء، ولعل صاحب الكتاب هو يوسف^١.

رُوي أن إخوة يوسف لما عرفوه أرسلوا إليه: أُنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشيًا، ونحن نستحي منك بتفريطنا فيك. فقال يوسف: إن أهل مصر - وإن ملكت فيهم - كانوا ينظرون إليّ بالعين الأولى، ويقولون: سبحان من بلغ عبداً يَبِعَ بعشرين درهماً ما بلغ، ولقد شرفت بكم الآن، وعظمت في العيون، حيث علم الناس أنكم إخواني، وأني من حَفْدة إبراهيم^٢.

أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ [٩٣]

ثم قيل: إنه ﷺ سأل إخوته عن أبيه، فقال: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: ذهب عيناه. فأعطاهم قميصه الذي علّق عليه يعقوب كالتَّمِيمة^٣ حين خروجه مع إخوته، وقال لهم: يا إخواني ﴿أَذْهَبُوا﴾^٤ معكم ﴿بِقَمِيصِي هَذَا﴾ إلى كنعان ﴿فَأَلْقُوهُ﴾ واطرحوه ﴿عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾ فان فعلتم ذلك يردّ الله إليه عينه ﴿يَأْتِ﴾ إلى حال كونه ﴿بَصِيرًا﴾ وقيل: بصيراً، يعني يصير بصيراً^٥.

رُوي عن النبي ﷺ قال: «أما قوله: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ فإن نمرود الجبار لما ألقى إبراهيم في النار، أنزل الله جبرئيل بقميص من الجنة، وطئفة^٦ من الجنة، فألبسه القميص، وأقعدته على الطئفة، وقعد معه يُحَدِّثُهُ، فكسا إبراهيم ذلك القميص إسحاق، وكساه إسحاق يعقوب، وكساه يعقوب يوسف، فجعله في قَصَبَةٍ من فضة وعلّقها عليه مخافة من إخوته، فألقى في الجُبِّ والقميص في عُنْقِهِ، وكان فيه ريح الجنة، ولا يقع على مُتَلَيٍّ أو سقيم إلا صحَّ وعُوفي^٧.

ثم هيناً يوسف أسباب مسافرة أبيه وجميع أقاربه من كنعان إلى مصر وموتهم، فأعطاهم إخوانه، قال لهم: اذهبوا إلى كنعان ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ﴾ وأقاربكم ومن اتصل بكم من النساء والذراري والعبيد

٢. تفسير الرازي ١٨: ٢٠٦، تفسير روح البيان ٤: ٣١٣.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٣١٤.

٦. الطئفة: البساط، والثمرة التي فوق الرحل.

١. تفسير روح البيان ٤: ٣١٢.

٣. التَّمِيمة: ما يُعلَق في العنق لدفع العين.

٥. تفسير الرازي ١٨: ٢٠٦.

٧. تفسير روح البيان ٤: ٣١٤.

والاماء ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لايشذ منهم أحد.

رؤى أن يهودا حمل القميص وقال: أنا أحننت أبي بحمل القميص المُلطَّح بالدم إليه، فأفرحه كما أحننته، فحمله وهو حافٍ حاسرٌ من مصر إلى كنعان ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها حتى أتاه، وكانت المسافة ثمانين فرسخاً^١.

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ [٩٤]

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ﴾ وجاورت ﴿الْعِيرُ﴾ وقافلة الإخوان من حيطان بلد مصر وعمرانه، هاجت الريح، فحملت ريح القميص من مسافة ثمانين فرسخاً.

قيل: إن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير بالقميص، فأذن لها، فأنته بها، ولذا يستروح كل محزونٍ بريح الصبا، وَيَشْمَهَا المكروب فيجد بها روحاً، فلما اتصلت بيعقوب وجد ريح الجنة، فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص^٢، فلذا ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن حوله من الأهل والأقارب: ﴿إِنِّي﴾ والله ﴿لَأَجِدُ﴾ وأُشَمِّمُ ﴿رِيحَ﴾ قميص ﴿يُوسُفَ﴾ ابني ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ وتُشَبِّهُونِي إلى السَّفَه أو الخطأ في الحواس بسبب الهرم، أو إلى الكذب في القول لصدقتهموني.

عن الصادق ﷺ: «وجد يعقوب ريح قميص إبراهيم حين فصلت العير من مصر وهو بفلسطين»^٣. وعن العياشي مرفوعاً: «أَنَّ يعقوب وجد ريح قميص يوسف من مسيرة عشر ليالي، وكان يعقوب ببيت المقدس، ويوسف بمصر، وهو القميص الذي نزل على إبراهيم من الجنة» الخبر^٤. وعنه ﷺ: «كان قميص إبراهيم الذي نزل^٥ على إبراهيم من الجنة في قَصْبَةٍ من فِضَّة^٦، وكان إذا لَبِسَ كان واسعاً كبيراً، فلما فصلوا ويعقوب بالرملة ويوسف بمصر، قال يعقوب: إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يوسف، يعني ريح الجنة»^٧ الخبر.

قيل: لما انقضت أيام المحنة، أوصل الله إليه ريح يوسف من المكان البعيد، ومنع من وصول خبره إليه مع قُرب إحدى البلدتين من الأخرى في مدة ثمانين سنة، وذلك دليلٌ على أنَّ كلَّ سهلٍ في زمان المحنة صعبٌ، وكلَّ صعبٍ في زمان الاقبال سهلٌ^٨.

١. تفسير روح البيان ٤: ٣١٥.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٣١٦.

٣. مجمع البيان ٥: ٤٠٢.

٤. تفسير العياشي ٢: ٢١٤٦/٣٦٥، تفسير الصافي ٣: ٤٦.

٥. في المصدر: كان القميص الذي أنزل به.

٦. زاد في المصدر: أو حديد.

٧. تفسير العياشي ٢: ٢١٤٥/٣٦٥.

٨. تفسير الرازي ١٨: ٢٠٨.

قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ
فَارْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِمَّا لَا تَعْلَمُونَ [٩٥ و ٩٦]

فلما سمع الحاضرون عنده هذا الكلام منه مع اعتقادهم موت يوسف ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ﴾ يا يعقوب ﴿لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ وانحرافك عن الصواب الذي كنت عليه من زمان فقد يوسف باعتقاده حياته، وإفراطك في حبه وذكره ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ﴾ يهودا الذي هو ﴿الْبَشِيرُ﴾ ليعقوب بحياة يوسف وسلطته، كما عن الصادق عليه السلام، وأتى بالقميص وطرحه ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾.

وقيل: إن يعقوب أخذ القميص من يهودا وألقاه على وجهه ﴿فَارْتَدَّ﴾ ورجع إلى ما كان عليه من كونه ﴿بَصِيرًا﴾ بقدرة الله وفضله.^٢

قيل: لما عظم فرحه وزالت أحزانه، عادت قوة بصره، و ﴿قَالَ﴾ لولده وأهله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ﴾^٣ حين أُلتموني على ذكر يوسف ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ بالهام ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿أَقْرَبُ﴾ وتفضله ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف وفرحي ببقائه.

عن الصادق عليه السلام: «كتب عزيز مصر إلى يعقوب: أما بعد، فهذا ابنك [يوسف] اشترته بثمانٍ بخسٍ دراهم معدودة واتخذته عبداً، وهذا ابنك بنيامين قد سرق فاتخذته عبداً».

قال: «فما ورد على يعقوب شيء أشد عليه من ذلك الكتاب، فقال للرسول: مكانك حتى أجيئه، فكتب إليه يعقوب: أما بعد، فقد فهمت كتابك بأنك اتخذت ابني بثمانٍ بخسٍ، واتخذته عبداً، وأنت اتخذت ابني بنيامين وقد سرق، واتخذته عبداً، فأنا أهل بيت لا نسرق، ولكنا [أهل بيت] تُبتلى، وقد ابتلي أبونا إبراهيم بالنار فوقاه الله، وابتلي أبونا إسحاق بالذبح فوقاه الله، وإنسي قد ابتليت بذهاب بصري وذهاب ابني، وعسى الله أن يأتيني بهم جميعاً».

قال: «فلما ولى الرسول عنه رفع يديه إلى السماء، ثم قال: يا حسن الصُّحبة، يا كريم المعونة يا خيراً كُلِّهِ، انتني بروحٍ وفرج من عندك، فما انفجر عمود الصُّبح حتى أتني بالقميص وطُرح على وجهه، فردَّ الله عليه بصره، وردَّ عليه ولده».^٥

رُوي أن يوسف وجَّه إلى أبيه جهازاً كثيراً ومأتي راحلة، وسأله أن يأتيه بأهله أجمعين، فتهيأ [يعقوب] للخروج إلى مصر.^٦

١. إكمال الدين: ٩/١٤٢، تفسير الصافي ٣: ٤٣.

٢ و ٣. تفسير الرازي ١٨: ٢٠٩.

٥. تفسير العياشي ٢: ٣٦٦/٢١٥١، تفسير الصافي ٣: ٤٤.

٤. زاد في تفسير الصافي: منك.

٦. تفسير روح البيان ٤: ٣١٩.

وعن الباقر ﷺ - في رواية - «وردّهم إلى يعقوب في ذلك اليوم، وجّهّهم بجميع ما يحتاجون إليه، فلمّا فصلت غيرهم من مصر، وجد يعقوب ريح يوسف، فقال لمن بحضرته من ولده: إنّي لأجد ريح يوسف لولا أن تغدّون. قال: وأقبل ولده يحنّون السير بالقميص فرحاً وسروراً [بما رأوا] من حياة^١ يوسف والمُلك الذي أعطاه الله^٢، فكان مسيرهم من مصر إلى بلد يعقوب تسعة أيام [فلمّا أن جاء البشير ألقى القميص على وجهه، فارتدّ بصيراً] وقال لهم: ما فعل بنيامين؟ قالوا: أخلفناه عند أخيه صالحاً، فحمد الله يعقوب وسجّد لربه شكراً، ورجع إليه بصره، وتقوم ظهره، وقال لولده: تحوّلوا إلى مصر^٣ بأجمعكم في يومكم هذا^٤.

قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [٩٧ و ٩٨]

«قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا» بما فعلنا بك ويوسف وبنيامين «خَاطِئِينَ» ومتعمدين بالذنوب ولولا استغفارك لنا لكنّا هالكين «قَالَ» أبوهم: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» البتّة فيغفر لكم «إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ» للذنوب «الرَّحِيمُ» بالتائبين.

عن الصادق ﷺ، قال: «قال رسول الله ﷺ: خير وقت دعوتكم الله عزّ وجل فيه الأسحار» وتلا هذه الآية في قول يعقوب: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي». وقال: «آخرهم إلى السّحر»^٥.

وفي رواية عنه ﷺ: «آخره إلى السحر ليلة الجمعة»^٦.

وعنه ﷺ أيضاً: «آخرهم إلى السحر، وقال: يا ربّ إنما ذنبهم فيما بيني وبينهم. فأوحى الله [إنّي] قد غفرت لهم»^٧.

وعنه ﷺ أنّه سئل [عن يعقوب أنّه] لما قال له بنوه: «يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» فأخّر الاستغفار لهم، ويوسف لما قالوا [له]: «تَاللّهِ لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»^٨.

قال: «لأنّ قلب الشاب أرقّ من قلب الشيخ، وكانت جناية ولد يعقوب على يوسف، وجناتيتهم

١. في تفسير العياشي: من حال.

٢. زاد في تفسير العياشي: والعزّ الذي صاروا إليه في سلطان يوسف.

٣. في تفسير العياشي: تحملوا إلى يوسف.

٤. تفسير العياشي ٢: ٦٣٤٦، تفسير الصافي ٣: ٤٦.

٥. تفسير العياشي ٢: ٢١٥٤/٣٦٩، مجمع البيان ٥: ٤٠٣، تفسير الصافي ٣: ٤٦.

٦. تفسير العياشي ٢: ٢١٥٣/٣٦٨، تفسير الصافي ٣: ٤٦.

٧. يوسف ٩١/٩٢.

على يعقوب [إنما] كانت بجنايتهم على يوسف، فبادر يوسف إلى العفو [عن حقّه]، وآخر يعقوب العفو لأنّ عفوّه [إنما] كان عن حقّ غيره، فأخّره إلى السحر ليلة الجمعة^١.

وعن الشعبي، قال: «قال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ قال: أسأل يوسف، فإن عفا عنكم استغفر لكم، فأخّر الاستغفار إلى وقت الاجتماع بيوسف»^٢.

ثمّ أنتم خرجوا من كنعان متوجّهين إلى مصر، فلمّا دنوا منه أخبر بذلك يوسف، فاستقبلهم مع الملك الأكبر ريان في أربعة آلاف من الجنّ، وقيل: في ثلاثمائة ألف فارس والعظماء وأهل مصر، ومع كلّ فارس جنة من فضة وراية من ذهب، فتزينت الصحراء بهم، واصطفوا صُفُوفاً، وكان الكلّ غلمان يوسف ومراكمه، وصعد يعقوب وأولاده تلاً نظّروا إلى الصحراء مملوءة من الفرسان، مزينة بالألوان، فتعجّب من ذلك فقال له جبرئيل: انظروا إلى الهواء، فإنّ الملائكة قد حضرت سروراً بحالكهم، كما كانوا محزونين مدهً لأجلك، ثمّ نظر يعقوب إلى الفرسان فقال: إنّ فيهم ولدي يوسف: فقال جبرئيل: هو ذاك فوق رأسه الطّلة، فلم يتمالك أن دفع نفسه عن البعير، فجعل يمشي متوكّئاً على يهودا، فقال جبرئيل: يا يوسف، إنّ أباك يعقوب قد نزل لك فانزل له منزلاً، فنزل من فرسه، وجعل كل واحدٍ منهما يعدو إلى الآخر، فلمّا تقرّبا قصد يوسف أن يبدأ بالسلام، فقال جبرئيل: لا، حتى يبدأ يعقوب به لأنّه أفضل وأحقّ. فابتدأ يعقوب بالسلام، وقال: السلام عليك يا مذهب الأحران، فتعانقا وبكيا سروراً، وبكت ملائكة السماء، وماج الفرسان بعضهم في بعض وصهّلت الخيول وسبّحت الملائكة^٣.

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ يوسف لما قدم على الشيخ يعقوب دخله عزّ الملك فلم ينزل إليه، فهبط عليه جبرئيل، فقال: يا يوسف، ابسط راحتك، فخرج منها نورٌ ساطع، فصار في جوّ السماء، فقال يوسف: يا جبرئيل، ما هذا النور الذي خرج من راحتي فقال: تُرِعت النبوة من عقبك عقوبةً لما لم تنزل إلى الشيخ يعقوب، فلا يكون في عقبك نبي»^٤.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَاهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ

أَمِينٌ [٩٩]

١. علل الشرائع: ١٠/٥٤، تفسير الصافي ٣: ٤٦.
 ٢. تفسير روح البيان ١٩: ٣١٩.
 ٣. تفسير روح البيان ١٩: ٣١٩.
 ٤. في الكافي وتفسير الصافي: عليه.
 ٥. الكافي ٢: ١٥/٢٣٥، تفسير الصافي ٣: ٤٧.

ثم قيل: إنه هيا بيتاً في خارج مصر أو مَضْرِبَة هناك قعد يوسف فيه^١ وقيل: كان له في خارج مصر قصرٌ رفيع، فلما استقبل أبويه أنزلهم هناك أولاً ﴿فَلَمَّا﴾ جاء يعقوب وزوجته اسمها أليا أو ياميل، وكانت خالته ومربيته بعد أمه راحيل، ولعله كان يقول لها أمّ وسائر إخوته ﴿دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ في القصر أو البيت أو المضربة ﴿أَوَى إِلَيْهِ أَبَوَاهُ﴾ يعقوب وراحيل، أو خالته التي كانت بمنزلة أمه، وعانقهما ثم قام ﴿وَقَالَ﴾ لأبويه وإخوته وأقاربه^٢: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ حال كونكم ﴿آمِنِينَ﴾ من الجوع وإساءة الجابرة إليكم وسائر المكاره.

قيل: إنهم كانوا من قبل يخافون ملك مصر وجابرتهم، ولا يدخلونها إلا باجازتهم، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً وامراً، فدخلوا جميعاً مصر^٣. و [عن] القمي: لما وافى يعقوب وأهله وولده مصر قعد يوسف على سريرته، ووضع تاج الملك على رأسه، فأراد أن يراه أبوه على تلك الحالة، فلما دخل عليه أبواه لم يقم لهما^٤.

وَرَفَعَ أَبَوَاهُ عَلَى الْفَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ [١٠٠]

﴿وَرَفَعَ أَبَوَاهُ عَلَى الْفَرْشِ﴾ وأجلسهما على السرير المختص به إكراماً لهما، بعد أن تواضع له أبواه وإخوته ﴿وَخَرُّوا لَهُ﴾ على الأرض حال كونهم ﴿سُجْدًا﴾ له تحيةً ومكرمةً.

قيل: إن السجود كان في ذلك الزمان بمنزلة المصافحة وتقبيل اليد في هذا الزمان^٥.

وعن الصادق عليه السلام: «كان سجودهم ذلك عبادة لله»^٦.

قيل: يعني لأجل وجدانه ولقائه سجدوا شكرياً لله، وجعلوا يوسف كالقبلة. وقيل: إنه لم يسجد له

أبواه بل إنما سجد له إخوته^٧، والمراد في تعبير الرؤيا من سجود الإبرين تعظيمهما له.

وقيل: إنما سجد يعقوب لأجل أن لا يستنكف من السجود له أنفةً واستعلاءً عليه. وقيل: إن الله أمر

يعقوب بالسجود له لحكمة لا يعلمها غيره، كما أمر الملائكة بالسجود لآدم^٨.

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٠.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٠.

٥. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٠.

٧. تفسير الرازي ١٨: ٢١٢.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٠.

٤. تفسير القمي ١: ٣٥٦، تفسير الصافي ٣: ٤٨.

٦. تفسير العياشي ٢: ٢١٥٨/٣٧٠، تفسير الصافي ٣: ٤٨.

٨. تفسير الرازي ١٨: ٢١٣.

عن ابن عباس: أن يوسف لما رأى سجد أبويه وإخوته له، هاله ذلك، واقشعر جلدته منه ﴿وَقَالَ﴾
 يعقوب: ﴿يَا أَيَّتُهَا هَذَا﴾ السجود ﴿تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ التي رأيتها ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي زمن الصبي ﴿قَدْ
 جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ وصدقاً ومطابقة لما وقع الآن بعد أربعين سنة، أو ثمانين، أو عشرين.

وعن الباقر (عليه السلام): «لما دخلوا على يوسف في دار الملك، اعتنق أباه وبكى، [ورفعه] ورفع خالته
 على سرير الملك، ودخل منزله فأذهن واكتحل، وليس ثياب العز والملك، ثم خرج إليهم، فلما رأوه
 سجدوا [جميعاً] له إعظاماً وشكراً لله، فعند ذلك قال: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي
 حَقًّا﴾»^١.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ ربي صنيعه ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ وإنما لم يذكر خروجه من الجُب لأن
 لا يستحي إخوته، ولا يكون تشرياً عليهم، ولا يتألم قلب أبيه بتذكر إلقائه في الجُب، ولأنه كان
 الإحسان بإخراجه من السجن أتم، لأنه كان في الجُب مع جبرئيل، وفي السجن مع الكفار، وإنه بعد
 الخروج من الجُب صار عبداً، وبعد الخروج من السجن صار ملكاً.

ثم ذكر الإحسان الثاني بقوله: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ﴾ إلى ﴿مَنْ أَلْبَدُو﴾ والصحراء.

وقيل: إن البدو كان اسم موضع معمور من فلسطين قريباً من كنعان يسكنه يعقوب^٢، وكان ذلك
 الإحسان ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ﴾ وأفسد ﴿الشَّيْطَانُ﴾ بتسويلاته ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ وفي هذا التعبير
 مبالغة في الإحسان إلى إخوته حيث نسب ما فعله الإخوة به إلى الشيطان، وعبر عنه بالنزع.

ثم أثنى على الله بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ﴾ وذو إحسان خفي بعباده ومسبب الأسباب ﴿لِمَا يَشَاءُ﴾
 وجوده بسهولة، وإن كان عند العقول في غاية البعد والصعوبة.

ثم ذكر علة لطف تدابير به بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بجميع الخصوصيات وخفايا الممكنات
 ﴿الْحَكِيمُ﴾ ومتقن في أفعاله، أت بما هو الصواب والصلاح لعباده.

عن الغزالي: لا يستحق اسم اللطيف إلا من يعلم دقائق المصالح وغوامضها، وما دق منها ولطف،
 ثم يسأل في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف، ولا يتصور كمال ذلك في العلم
 والعقل إلا الله تعالى^٣.

عن الهادي (عليه السلام): «قال يعقوب لابنه: أخبرني بما فعل إخوتك بك حين أخرجوك من عندي. قال: يا
 أبة، أعفني من ذلك. قال: فأخبرني ببعضه. قال: إنهم لما أدنوني من الجُب قالوا: انزع القميص.

١. تفسير العياشي ٢: ٢١٥٦/٣٦٩، تفسير الصافي ٣: ٤٨.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٣.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٢.

فقلت: يا إخواني، اتقوا الله ولا تُجرّدوني، فسلوا عليّ السكّين وقالوا: لئن لم تنزع لذبحك، فنزعنا القميص وألقوني في الجُبّ عرياناً. قال: فشهِق يعقوب شهقةً وأغمي عليه، فلما أفاق قال: يا بنيّ حدثني. قال: يا أبه أسألك بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب إلّا أعفيتني، فأعفاه^١.

ورؤي أنّ يوسف قال ليعقوب: [يا أبه] لا تسألني عن صنع إخواني، واسألني عن صنع الله بي^٢. رؤي أنّ يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه، فأدخله في خزانن الورق^٣ والذهب، وخزانن الحليّ، وخزانن الثياب، وخزانن السلاح وغير ذلك، فلما أدخله في خزانن القراطيس - وهو أول من عملها - قال يعقوب: يا بني، ما أعفك^٤ عندك هذه القراطيس وما كتبت إليّ على ثماني مراحل؟! قال: أمرني جبرئيل. قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه مني فأسأله. قال جبرئيل: الله أمرني بذلك لقولك: إني ﴿أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّنْبُ﴾ قال: فهلا خفتني^٥؟

قيل: لما قدّم يعقوب على يوسف وقد سأله أولاده أن يستغفر لهم قام في مصلاه إلى الصلاة في السحر ليلة الجمعة، وكانت ليلة عاشوراء، فلما فرغ رفع يديه وقال: اللهم اغفر جرّعي على يوسف وقله صبري عنه واغفر لولدي ما أتوا به أخاهم. وقام يوسف خلفه يؤمّن، وقام إخوانه خلفهما خاشعين، فأوحى الله إليه: أنّ الله قد غفر لك ولهم أجمعين، ثم لم يزل يدعو لهم كلّ ليلة جمعة مائة و٦٠ ألف وعشرين سنة إلى أن حضرته الوفاة^٦.

قيل: ولد ليوسف من راعيل الملقبة بزليخا افرانيم وميشا وحمّة امرأة أيوب، وولد لافرائيم نون، ولنون يوشع فتى موسى، فلما نزل يعقوب في قصر يوسف جاء أولاد يوسف فوقفوا بين يدي يعقوب، ففرّح بهم وقبلهم، وحدثه يوسف بحدثه مع زليخا، وما كان بينه وبين زليخا^٧، وأخبره أنّ هؤلاء أولاده منها، فدعاها^٨ يعقوب، فحضرت وقبّلت يده، وسأله زليخا أن ينزل عندها، فقال: لا أرضى بزيستكم هذه، ولكن اصنعوا لي عريشاً من البردي والقصب مثل عريشي بأرض كنعان، فصنعوا له عريشاً كما أراد ونزل فيه في أتم سرور^٩.

ورؤي أنّ يعقوب أقام مع يوسف مائة وسبعاً - أو أربعاً - وعشرين سنة^{١٠}، وأوصى أن يدفنه

١. تفسير القمي ١: ٣٥٧، تفسير الصافي ٣: ٤٩.

٢. مجمع البيان ٥: ٤٠٧، تفسير الصافي ٣: ٥٠.

٣. الورق: الفضّة.

٤. في تفسير الرازي: ما أغفلك.

٥. تفسير الرازي ١٨: ٢١٦، تفسير روح البيان ٤: ٣٢٣.

٦. في تفسير روح البيان: جمعة في.

٧. تفسير روح البيان ٤: ٣١٨.

٨. في تفسير روح البيان: كان منه ومنها.

٩. في تفسير روح البيان: فاستدعاها.

١٠. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٣.

١١. في تفسير الرازي ١٨: ٢١٦: أقام معه أربعاً وعشرين سنة.

٤٤٦ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٣

بالشام إلى جنب أبيه إسحاق، فنقله يوسف بنفسه في تابوت من ساج فوافق يوم وفاة عيص فدُفِنَا في قبرٍ واحدٍ، وكانا في بطنٍ واحدٍ، وكان عمرهما مائة وسبعاً وأربعين سنة، ثم عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، وكان عمره مائة وعشرين سنة^١.

عن الصادق عليه السلام: قال: «دخل يوسف في السجن وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ومكث فيها ثمانين عشر سنة، وبقي بعد خروجه ثمانين سنة، فذلك مائة سنة وعشر سنين»^٢.

وعن الباقر عليه السلام: أنه سئل كم عاش يعقوب مع يوسف بمصر؟ قال: «عاش حولين».

قيل: فمن كان الحجة لله في الأرض، أيعقوب أم يوسف؟ قال: «كان يعقوب [الحجة]، وكان الملك ليوسف، فلما مات يعقوب حمله يوسف في تابوت إلى أرض الشام فدُفِنَ في بيت المقدس، فكان يوسف بعد يعقوب الحجة»

قلت: وكان [يوسف] رسولاً نبياً؟ قال: «نعم، اما تسمع قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾»^٣.

أقول: لعل الرواية محمولة على أن يوسف لم يكن حجة على جميع الناس، بل على غير يعقوب، وإنما صار حجة على الجميع بعد موت يعقوب لوضوح أنه عليه السلام كان يوحى إليه، وينزل عليه جبرئيل، ويكلمه ويؤنسه، ولا يكون ذلك إلا للنبي والرسول.

قيل: إنه عليه السلام لما جمع الله شمله، وبلغ ملكه وأمره إلى الكمال، علم أنه أشرف إلى الزوال فسأل الله الموت^٤.

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْجِفْنِي
بِالصَّالِحِينَ [١٠١]

وقيل: إنه رأى أبيه في المنام، فقال: يا يوسف، إني مشتاق إلى لقائك فأسرع إليّ إلى ثلاثة أيام. ثم انتبه من نومه ودعا إخوته، وأوصى بوصاياه، وولي يهودا ملكه، وأوصى إليه في حق أولاده، ثم ناجى ربه وقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي﴾^٥ مقداراً قليلاً ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾ والسلطنة الدنيوية، وهو ملك مصر ﴿وَعَلَّمْتَنِي﴾ بالالهام والوحي شيئاً ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وتعبير الرؤى، أو قليلاً من العلم

٢. مجمع البيان ٥: ٤٠٧، تفسير الصافي ٣: ٥٠.

٤ و ٥. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٤.

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٤.

٣. مجمع البيان ٥: ٤٠٧، تفسير الصافي ٣: ٥٠.

بحقائق الأشياء والأمور، يا ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وخالقهما بقدرتك وحكمتك ﴿أَنْتَ﴾ مع كمال الصفات ﴿وَلِيِّ﴾ والنظر في صلاحه ومدبر أموري ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ إذن ﴿تَوَفَّنِي﴾ واقبض روحي، وأخرجني من الدنيا حال كوني ﴿مُسْلِمًا﴾ وموحدًا ومطيعًا لأحكامك، مهذب الأخلاق، كريم الصفات، كاملاً من جميع الجهات ﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ والكاملين في صفات العبودية، والراقيين في أعلى درجات المعرفة والانسانية من آبائي العظام، وأوليائك الكرام، واجعلني في زمرتهم ورفقائهم.

قيل: إنَّ الصلاح مرتبة عظيمة جامعة لجميع المراتب الكمالية^١.

قيل: ما تمنى الموت نبي غير يوسف^٢.

وقيل: إنَّه ﷺ ناجى ربَّه بعد ملاقة أبيه بتلك الكلمات تشكراً لنعم الله عليه^٣.

وفي رواية عن الهادي ﷺ: «فسجد يعقوب وولده يوسف معهم شكراً لله لاجتماع شملهم، ألم تر أنه يقول في شكره ذلك الوقت: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾» الآية^٤.

قيل: إنَّ يوسف ذكر رؤياه الناعية لزليخا، ودعا بالدعاء، فعلمت أن الله يقبل دعاءه، وأن الأمر يصير إلى الفرقة، دعت الله أن يعجل وفاتها قبل وفاة يوسف^٥.

وقيل: ماتت زليخا قبل وفاة يوسف مدة مديدة، فحزن عليها، ولم يتزوج، ولما قربت وفاة يوسف أوصى إلى ولده افرانيم أن يسوس الناس^٦.

وقيل: إنَّ يوسف خرج بأهله وولده وجميع من آمن معه من مصر، ونزل عليه جبرئيل، فخرق له من النيل خليجاً إلى الفيوم^٧، ولحق به كثير من الناس، وبنوا هناك مدينتين، وسمّوهما الحرمين، وكان يوسف هناك سنين إلى أن مات، فتخاصم المصريون في مدفنه من جانبي النيل كل طائفة أرادوا أن يُدفن يوسف في جانبهم تبرّكاً بقبره الشريف، وجلباً للخصب حتّى هموا بالقتال، ثمّ تصالحوا على أن يُدفن سنة في جانب مصر، وسنة أخرى في جانب آخر من البدو، فدفن في الجانب المصري فأخصب ذلك الجانب وأجذب الجانب الآخر من البدو، ثمّ نُقل إلى الجانب البدوي فأخصب ذلك الجانب وأجذب الجانب الآخر المصري، ثمّ اتفقوا على دفنه في وسط النيل، وقَدَّروا ذلك بسلسلة، وعملوا له صندوقاً من مَرَمَرٍ^٨.

٤. تفسير القمي ١: ٣٥٦، تفسير الصافي ٣: ٤٩.

٦. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٧.

١. ٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٥.

٥. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٦.

٧. الفيوم: موضع في مصر، بينها وبين الفسطاط أربعة أيام.

٨. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٧.

قيل: إِنَّ الله تعالى حين أمر موسى بالسير ببني إسرائيل، أمره أن يحمل عظام يوسف معه حتى يضعها في الأرض المقدسة^١.

قيل: إِنَّه ﷺ لَمَّا أدرَكَته الوفاة أوصى أن يُحْمَلَ إلى مقابر آبائه، فمَنع أهل مصر أوليائه من ذلك، وكان نقل موسى عظامه للوفاء بما أوصى به فسأل موسى عمن يعرف موضع قبره، فما وَجَدَ أحداً يعرفه إلا عجوزاً في بني إسرائيل، فقالت له: يا نبي الله، أنا أعرف مكانه وأدَّلك عليه إن أنت تُخْرِجني معك ولم تُخَلِّفني بأرض مصر. قال: أفعل ذلك.

وقيل: إِنَّها قالت: أكون معك في الجنة، فكأنَّه ثَقُلَ عليه ذلك فقبل له: أعطها طَلَبَها فأعطاهَا، وقد كان موسى وعد بني إسرائيل أن يسير بهم إذا طلع القمر، فدعا ربَّه أن يؤخِّر طلوع القمر حتى يفرِّغ من أمر يوسف ففعل، فخرجت به العجوز حتى أرته إياه في ناحية من النيل - وقيل: في مستنقع ماء في ناحية [من] النيل، فقالت لهم: أنصبوا وارفعوا عنها الماء ففعلوا، فقالت: احفروا فحفروا [وأخرجوه].

وقيل: ذهب بموسى إلى عمود في شاطئ النيل في أصله سكة من حديد فيها سلسلة مربوطة بصندوق من حديد في وسط النيل، فاستخرجه موسى وفتح الصندوق، فوجد صندوقاً من مَرَمَرٍ داخلًا في ذلك الصندوق الذي من الحديد فأخرجه^٢.

وقيل: إِنَّه جاء موسى شيخ له ثلاثمائة سنة، فقال له: يا نبي الله، ما يعرف قبر يوسف إلا والدتي. فقال له موسى: قُمْ معي إلى والدتك، فقام الرجل ودخل منزله، وأتى بِقَفَّةٍ فيها والدته، فقال لها موسى: ألك علم بقبر يوسف؟ قالت: نعم، ولا أدُّلك على قبره، إلا إن دعوت الله أن يؤدَّ عليَّ شبابي إلى سبع عشرة سنة، ويزيد في عمري مثل ما مضى، فدعا لها موسى وقال لها: كم عمرك؟ قالت: تسعة مائة سنة، فعاشت ألفاً وثمانمائة سنة، فأذَّته إلى^٣ قبر يوسف، وكان في وسط النيل لِبُمرِّ النيل عليه فيصل إلى جميع مصر، فيكونوا شركاء في بركته، فأخصب الجانبان، وكان بين دخول يوسف مصر إلى يوم خروج موسى أربع مائة سنة^٤.

وعن الصادق ﷺ: «أَنَّ الله أوحى إلى موسى بن عمران، أن أخرج عظام يوسف من مصر، فاستخرجه من شاطئ النيل، وكان في صندوق مرمر، فحمله إلى الشام، فلذلك يحمل أهل الكتاب

٢. في تفسير روح البيان: فاحتمله.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٨.

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٧.

٣. في تفسير روح البيان: فأرته.

موتاهم إلى الشام، وهو يوسف بن يعقوب، وما ذكر الله يوسف في القرآن غيره^١.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ [١٠٢ و ١٠٣]

ثم لما كان الأخبار المغيبات من أعظم المعجزات، استدل سبحانه بأخبار النبي الأمي الذي لم يجالس عالماً ولم يقرأ كتاباً على صدق نبوته بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من قصة يوسف ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ والأخبار التي لا يطلع مثلك يا محمد عليها بالأسباب العادية، بل نحن ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ بتوسط جبرئيل، لأنها منحصرة في السماع من المطلعين، ومطالعة الكتب، وهما متفيان في حقك بتسليم المخالف والموافق، وفي الحضور عند وقوع القضية، وهذا أيضاً متفياً بالضرورة لوضوح أنك ما كنت في ذلك الزمان في العالم ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ عند إخوة يوسف، وحاضراً ﴿لَدَيْهِمْ﴾ لاسيما ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ وحين عزموا على ما رأوا من إلقاء يوسف في الجُبِّ، أو حين اتفقوا عليه مع كونهم في غاية التستر فيه ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به بترغيبه في الخروج معهم إلى التفرج، وبأبيه بترضيته خاطره في إرساله معهم، فمع انتفاء الحضور عندهم، وعدم كونك قارئاً للكتب، ومتعلماً من العلماء، ثبت كونك عالماً بها بالايحاء إليك من الله، ونبياً صادقاً في دعوى نبوتك، ومع ذلك ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ من اليهود والنصارى والمشركين ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم، وبالغت في دعوتهم وإظهار المعجزات لهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ بك لعنادهم وشدة لجأهم وإصرارهم على إنكار نبوتك. روي أن كفار قريش وجماعة من اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف على سبيل التعنت، فلما أخبرهم على طبق التوراة لم يسلموا، فحزن النبي ﷺ، فنزلت الآية تسلية له^٢.

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا دُكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ [١٠٤-١٠٦]

ثم لما كان من دواعي التكذيب توهم طمع المال في التبليغ، دفع الله هذا التوهم بقوله: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ﴾ يا محمد، عند تبليغ المعارف والأحكام ﴿عَلَيْهِ﴾ شيئاً ﴿مِنْ أَجْرِ﴾ ومال يعطونك مايسأله

١. من لا يحضره الفقيه ١: ١٢٣/٥٩٤، تفسير الصافي ٣: ٥١.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٨.

أهل الطمع على تعليماتهم ﴿إِنَّ﴾ القرآن وما ﴿هُوَ﴾ أو ما تبليغك ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ وِعِظَةٌ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ عامة، وبعثاً لهم على سلوك سبيل النجاة، وإِنَّمَا هو لي وعليّ أجره لا على الناس، فلا مجال لتوهم شوب غرضك في تبليغك بالدنيا.

ثم بالغ سبحانه في تسليية نبيه ﷺ في إعراض الكفار عنه وعدم اعتنائهم بمعجزاته بقوله: ﴿وَكَاثِنٌ﴾ وكثير ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ وكم من دليل واضح على وجود الصانع الحكيم وتوحيده ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهؤلاء الكافرون المعاندون ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ ويشاهدونها ﴿وَهُمْ﴾ لا يلتفتون إليها، بل هم ﴿عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ وبها لا يعتنون، وفيها لا يتفكرون، ولا يعتبرون بها.

قيل: لما سمع المشركون تلك الآية قالوا: إنا نؤمن بالله الذي خلق الأشياء، فردّهم الله بقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ﴾^١ ولا يعترفون بألوهيته ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ به في العبودية والطاعة. عن ابن عباس، أنه قال: نزلت في تنبيه المشركين^٢، لأنهم كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك.

وعنه أيضاً: هم الذين يشبهون الله بخلقه.

وعنه أيضاً: أن أهل مكة قالوا: الله ربنا وحده لا شريك له، والملائكة بناته، فلم يوحّده، بل أشركوا وقال عبدة الأصنام: ربنا الله وحده، والأصنام شُفَعَاؤُنَا عنده، وقالت اليهود: ربنا الله وحده وعزير ابن الله، وقالت النصارى: ربنا الله وحده لا شريك له والمسيح ابن الله، وقال عبدة الشمس والقمر: ربنا الله وحده، وهؤلاء أربابنا، وقال المهاجرون والأنصار: ربنا الله وحده لا شريك معه^٣. عن الباقر عليه السلام: «شرك طاعة وليس شرك [عبادة]»^٤.

وزاد القمي عليه السلام: والمعاصي التي يرتكبون، فهي شرك طاعة أطاعوا فيها الشيطان فأشركوا بالله في الطاعة لغيره، وليس بأشراك عبادة^٥.

وعن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «يطيع الشيطان من حيث لا يعلم فيشرك»^٦.

وعنه عليه السلام: «هم الذين يُلجِدون في أسمائه بغير علم فيضعونها غير مواضعها»^٧.

وعنه عليه السلام أيضاً: «هو الرجل يقول: لولا فلان لهلك، ولولا فلان لأصبت كذا وكذا، ولولا فلان

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٩.

٣. تفسير الرازي ١٨: ٢٢٤.

٤. تفسير العياشي ٢: ٢١٦٨/٣٧٣، تفسير القمي ١: ٣٥٨، تفسير الصافي ٣: ٥٢.

٥. تفسير القمي ١: ٣٥٨، تفسير الصافي ٣: ٥٢. ٦. الكافي ٢: ٢٩٢/٣، تفسير الصافي ٣: ٥٣.

٧. التوحيد: ١/٣٢٤، تفسير الصافي ٣: ٥٣.

لضاع عيالي، ألا ترى أنه قد جعل الله شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه». قيل: فيقول لولا أن من الله عليّ بفلانٍ لهلكت؟ قال: «نعم، لا بأس بهذا»^١. وعن الباقر ﷺ: «من ذلك قول الرجل: لا وحياتك»^٢. وعنهما ﷺ: «هو شرك النعم»^٣. وعن الرضا ﷺ: «شرك لا يبلغ به الكفر»^٤.

أقول: الوجه هو حمل الروايات على بيان عدم انحصار مدلول الآية بالشرك في العبادة، وإن المراد منها جميع مراتب الشرك ولو بأن يرى مع الله غيره بقوله لغيره: وحياتك، مع أن هذا الكلام ليس من الشرك في الطاعة.

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [١٠٧]

ثم هدّد الله سبحانه المشركين والكافرين بنوبة نبيه ﷺ بقوله: «أَفَأَمِنُوا» مع كفرهم وشركهم من «أَنْ تَأْتِيَهُمْ» وتنزل عليهم بسبب مشاققتهم الله ورسوله عقوبة «غَاشِيَةٌ» لهم منبسطة عليهم «مِنْ عَذَابِ اللَّهِ» بحيث لا ينجو منها أحد منهم، كالصّاعقة والخسف والطوفان «أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ» وأحوال القيامة «بَغْتَةً» وفجأة، وفي حال عدم كونهم متوقعين لها، وغير محتملين إتيانها «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» بمجيئها، ولاشتغالهم بالدنيا لا يلتفتون إليها، وفيه تأكيد معنى البغته.

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [١٠٨]

ثم أنه تعالى بعد تسليته نبيه ﷺ وذم المشركين بإعراضهم عن الآيات الدالة على توحيده وكمال صفاته، وتهديدهم عليه، أمر نبيه ﷺ بالثبات على الدعوة إلى توحيده رغمًا لأنوفهم وعدم المبالاة بجحدوهم بقوله: و «قُلْ» يا محمد للمشركين والمكذّبين لك «هَذِهِ» السبيل التي أسلكها، والطريق التي أنا فيها «سَبِيلِي» التي لا انحرف لي منها أبداً ما دمت حياً، وهي أني «أَدْعُوا» جميع

١. تفسير العياشي ٢: ٢١٦٩/٣٧٤، تفسير الصافي ٣: ٥٣.

٢. تفسير العياشي ٢: ٢١٦٣/٣٧٢، تفسير الصافي ٣: ٥٣.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢١٧٠/٣٧٤، تفسير الصافي ٣: ٥٣.

٤. تفسير العياشي ٢: ٢١٦٥/٣٧٣، تفسير الصافي ٣: ٥٣.

أهل العالم من الأبيض والأسود والعرب والعجم ﴿إِلَى﴾ توحيد ﴿الله﴾ ذاتاً وصفةً وأفعالاً، وإلى دينه وطاعته، حال كوني ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ كاملة، وْحَجَّة قاطمة، وبرهاناً واضحاً، بل على تَنَوُّر القلب وشهود به لما اعتقده وأدعو إليه، ولا أكون متفرداً بهذه الطريقة، بل ﴿أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي﴾ من الأنبياء السابقين والأولياء اللاحقين والمؤمنين الكَمَلين عليها.

روى العلامة في (نهج الحق) عن العامة قوله تعالى: ﴿أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي﴾ هو علي^١.

عن الباقر عليه السلام: «ذاك رسول الله وأمير المؤمنين والأوصياء من بعدهما»^٢.

وعنه عليه السلام: «عليّ اتبعه»^٣.

وعن الجواد عليه السلام حين أنكروا عليه حَدَاثَةِ سَيِّئِهِ قَالَ: «وما تشكرون؟ قال الله لنبيه عليه السلام: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ الآية، فوالله ما تبعه إلا عليّ وله تسع سنين، وأنا ابن تسع سنين»^٤.

ثم بالغ في الاعلان بتوحيد الله بتزويجه عن الشرك بقوله: ﴿وَسُبْحَانَ الله﴾ عما يقول الظالمون من الإشرار، ثم بالتبري منه بقوله: ﴿وَمَا أَنَا﴾ أيها الناس ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين اتخذوا لله ضدّاً ونداً وولداً.

وفي رواية عن الصادق عليه السلام في تفسير ﴿سُبْحَانَ الله﴾ قال: «تزيهه»^٥.

وفي رواية أخرى، قال: «أثَقَّة الله، أما ترى الرجل إذا عجب من الشيء قال: سبحان الله»^٦.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْاَلْفَرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ* حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ [١١٠ و ١١١]

ثم لما كان من شبهات المشركين في نبوته عليه السلام أن الله لو أراد أن يرسل رسولا لأرسل ملكاً، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ إلى الناس ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ وفي الأزمنة السابقة على إرسالك لتبليغ التوحيد والمعارف والأحكام وهداية البشر ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ مثل سائر الرجال يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق، وإنما كانوا يمتازون من غيرهم بأننا كنا ﴿نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ العلوم والمعارف

١. نهج الحق وكشف الصدق: ١٩٦.

٢. الكافي ١: ٣٥٢/٦٦، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ٣٧٨، تفسير الصافي ٣: ٥٣.

٣. روضه الواعظين: ١٠٥، تفسير الصافي ٣: ٥٣. ٤. الكافي ١: ٣١٥/٨، تفسير الصافي ٣: ٥٣.

٥. الكافي ١: ٩٢/١١، تفسير الصافي ٣: ٥٤. ٦. الكافي ٣: ٣٢٩/٥، تفسير الصافي ٣: ٥٣.

والأحكام لامتيازهم بكمال العقل ونزاهة النفس من الراذل، وتزيتهم بالصفات الحميدة والأخلاق الكريمة، وكانوا ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ من الأمصار والرساتيق، لا البوادي، ولا الملائكة، ولا الجنة^١ ولا النساء، ومع ذلك كيف يتعجب هؤلاء المشركون من إرسالك رسولا إليهم.

ثم استدلل سبحانه على رسالة هؤلاء الرجال بتعذيب مكذبيهم بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ هؤلاء المشركون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ولم يسافروا إلى البلاد ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ بنظر الاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْأُمَمِ الْمَكَذِبَةِ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بتكذيبهم أولئك الرجال المرسلين إليهم، فإن آثار نزول عذاب الاستئصال عليهم باقية إلى الآن في محالهم وأماكنهم، وفيه تهديد مكذبي النبي عليه السلام.

ثم لما كان عمدة الباعث على تكذيب الرسل حب الدنيا وزخارفها، وعظمهم الله تعالى ورغبهم في الآخرة بقوله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ ونعمها^٢ الباقية ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل ما حسن من الدنيا ونعيمها لو كان فيها حسن وفضيلة، وإنما هي ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصي، واحترزوا من مخالفة الله وأحكامه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أيها المشركون الذين تدعون لأنفسكم العقل هذه الأفضلية مع كمال وضوحها، ولا تدركون هذه الخيرية مع بداهتها، لأن العقل يحكم بالبدية بأن الباقي وإن كان في غاية القلة خير من الزائل وإن كان في غاية الكثرة، مع أن نعم الآخرة أكثر وأهنا من نعم الدنيا.

ثم لما هدّد سبحانه المشركين بالعذاب بقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وقد كانوا في أرغد عيش وطول عمر، تبه سبحانه على أن الحكمة مقتضية لتأخيرهم عنهم، كما أخر نزوله على الأمم السابقة المهلكة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ الذين كانوا قبلك من إيمان قومهم، وانقطع رجاؤهم من قبولهم التوحيد ودخولهم في دين الحق، وقومهم قد تجرأوا في تكذيبهم ﴿وَوُظِّنُوا﴾ وتوهموا ﴿أَنَّهُمْ﴾ فيما أخبروا به على لسان رسلهم من نصر لرسلهم وهلاك أنفسهم العذاب الاستئصال ﴿قَدْ كُذِّبُوا﴾ واجترأوا بما هو خلاف الواقع ﴿جَاءَهُمْ﴾ ونزل على أولئك الرسل ﴿نُصْرَتُنَا﴾ وإعانتنا لهم بنزول العذاب على قومهم ﴿فَنَجَّيْ﴾ من ذلك العذاب ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ نجاته وهم الرسل وأتباعهم المؤمنون بهم، وهلك به غيرهم ممن خالفهم وكذبهم ﴿وَلَا يُزْدُ﴾ ولا يصرف ﴿بَأْسُنَا﴾ وعذابنا ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُصْغِرِينَ﴾ والعاصين لنا بانكار التوحيد وتكذيب الرسل.

واعلم أن تفسير الآية المباركة بالوجه الذي ذكرنا بناءً على القراءة المعروفة - وهي قراءة كذبوا بالتخفيف - سليم من الاشكال. وأما سائر التفسيرات التي ذكرها المفسرون - وإن كان بعضها منقولاً

عن ابن عباس، وبعضها مروياً عن أنس بن مالك - ففيها إشكالات عظيمة لا يمكن دفعها، فلذا أعرضنا عن ذكرها، وأطرحنا تلك الروايات لعدم صحتها واعتبارها.

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ
الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [١١١]

ثم أنه تعالى بعد ذكر قصة يعقوب ويوسف مفصلاً في هذه السورة المباركة، وذكر قصص سائر الأنبياء فيها مجملاً وفي غيرها مفصلاً، بين الغرض من ذكرها بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ وبيان أحوالهم، وكيفية دعوتهم ومعاملتهم مع أمهم، ومعارضة أمهم لهم، وابتلاء المعارضين لهم بالعباد ﴿عِبْرَةٌ﴾ وعظة وفائدة عظيمة من معرفة الله بالقدرة الكاملة والحكمة البالغة، وغاية لطفه بعباده الصالحين، وشدة قهره على الكفار والمجرمين ﴿لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ وذوي العقول السليمة، فأنهم الذين يعتبرون بها ويستفيدون منها.

ثم مدح سبحانه كتابه المجيد المشتمل على تلك القصص بالصدق لتوقف الاعتبار بها على العلم به بقوله: ﴿وَمَا كَانَ حَدِيثًا﴾ وقولاً صادراً من البشر ﴿يُفْتَرَى﴾ على الله وينسب إليه كذباً ﴿وَلَكِنْ﴾ كان ﴿تَصْدِيقُ﴾ مطلق الكتاب ﴿الَّذِي﴾ نزل من السماء ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ومن قبل نزوله، ومطابقاً له، أو سبباً لكون الأخبار التي في الكتاب بنزول هذا القرآن في آخر الزمان صدقاً، لأنه لو لم ينزل لكان جميع تلك الأخبار كذباً، أو سبباً لتصديق الناس نزول الكتب السابقة من الله لثبوت صحة هذا القرآن المخبر بنزول التوراة والانجيل والزبور وصحف إبراهيم من السماء، لاشتغال هذا القرآن على الإعجاز بجهاً عديدة دون سائر الكتب، وانقطاع تواتر كون سائر الكتب نازلاً من الله، فلولا تصديق القرآن المشتمل على الإعجاز لها، لم يكن لأحد طريق إلى تصديقها وأنها مما أتى بها الرسل.

﴿و﴾ في القرآن يكون ﴿تَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين، بل تبين جميع ما يحتاج إليه البشر من العلوم والآداب، لأنه ما من علم إلا وفيه أصله، بل فيه علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، وإنما يختص استفادتها عنه بالراسخين في العلم، بل لا يعلمون شيئاً إلا من القرآن ﴿و﴾ يكون هو ﴿هُدًى﴾ ورشاداً من الضلال لمن استهدى به، ودلالة إلى جميع الخيرات الدنيوية والأخروية لمن تدبر فيه واستدل به ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وسبباً للفوز بالمراتب العالية من الكمالات الانسانية وبالدرجات الرفيعة من الثرب، وبالنعم الدائمة والراحة الأبدية ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به، العاملون بما فيه، فالكتاب الذي له هذه الصفات الجليلة والآثار الكريمة والبركات العظيمة، لا يمكن أن يكون

باختلاق البشر ومن مفترياتهم على الله، سيما إذا جاء به الأُمِّي الذي لم يقرأ كتاباً ولم يجالس عالماً، ولم يُتَلَمَّذ عند أحدٍ باتفاقٍ من أهل الانصاف من الأحناء والأعداء.

عن الصادق ﷺ: «من قرأ سورة يوسف في كلِّ يومٍ، أو في كلِّ ليلةٍ، بعثه الله يوم القيامة وجماله على جمال^١ يوسف، ولا يصيبه قرع يوم القيامة، وكان من خيار عباد الله الصالحين»^٢. وزاد العياشي: «وأومن في الدنيا أن يكون زانياً أو فحاشاً»^٣.

وعن أمير المؤمنين ﷺ: «لا تعلّموا نساءكم سورة يوسف ولا تُقرنوهن إياها، فإن فيها الفتن، وعلموهن سورة النور، فإن فيها المواعظ»^٤.

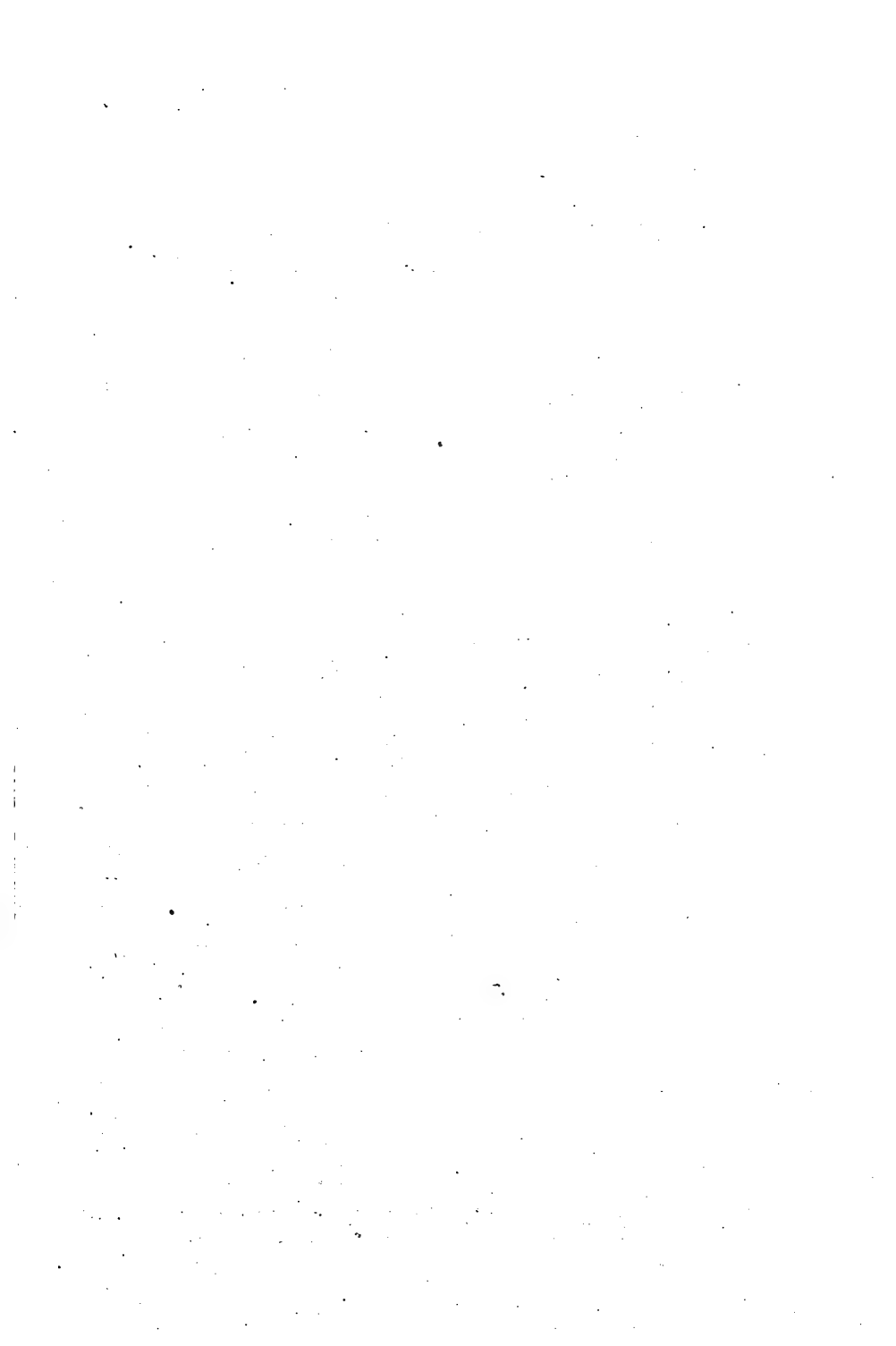
وعن الباقر ﷺ: «يُكْرَهُ لَهُنَّ تَعْلَمُ سورة يوسف»^٥.

الحمد لله على التوفيق لاتمام تفسيرها.

١. في تفسير العياشي: كجمال، وفي نواب الأعمال: مثل جمال.

٢. نواب الأعمال: ١٠٦، تفسير الصافي ٣: ٥٥. ٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠٧٣/٣٢١، تفسير الصافي ٣: ٥٥.

٤. الكافي ٥: ٢/٢١٦، تفسير الصافي ٣: ٥٥. ٥. الخصال: ١٢/٥٨٦، تفسير الصافي ٣: ٥٥.



في تفسير سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ [١]

ثم لما نبه سبحانه إجمالاً بقوله: ﴿وَكَاثِنٌ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^١ إلى آخره، على أن العالم مملوء من آيات توحيده وقدرته وحكمته وكمال صفاته، ثم وصف في آخر السورة كتابه العزيز بأنه تفصيل كل شيء، وكانت آيات أوائل سورة الرعد تفصيل الآيات السماوية والأرضية، أردف سورة يوسف بها، فابتدأها تيمناً وتبركاً بذكر أسمائه المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم أفتتحها بالحروف المقطعات من قوله: ﴿الْمَر﴾ وقد مرّ تأويلها وبيان حكمة الابتداء بها^٢.

عن الصادق عليه السلام: «معناه أنا المحيي المميت الرازق»^٣.

وعن ابن عباس: أي أنا الله أعلم وأرى^٤.

وفي نقل آخر: أنا الله الملك الرحمن^٥.

ثم أنه تعالى بعد جلب القلوب بذكر الحروف إلى الاستماع، شرع في بيان أهمّ المطالب، وهو عظمة الكتاب المجيد، الدالّ على صحّة نبوة نبيه ﷺ وصحة دين الاسلام بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المرتبة في هذه السورة المباركة ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ المنزل عليك يا محمد، ليكون معجزةً باقيةً لك إلى آخر الدهر، أو آيات الكتاب المنير الذي هو اللوح، أو الذي بشر الله الأنبياء بنزوله في آخر الزمان ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ في ذلك الكتاب من المعارف والأحكام والقصص والمواعظ هو ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت الذي يجب على الناس التمسك به والاتباع له ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ وأغلبهم، وهم

١. يوسف: ١٠٥/١٢. ٢. راجع الطريقة (١٨) من مقدمة المفسر.

٣. معاني الأخبار: ١/٢٢، تفسير الصافي: ٣: ٥٦. ٤. تفسير الرازي: ١٨: ٢٣٠، تفسير روح البيان: ٤: ٣٣٤.

٥. تفسير الرازي: ١٨: ٢٣٠.

المتبعون للشهوات ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ به بغياً وحسداً واستكباراً وعناداً.

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ [٢]

ثم أنه تعالى بعد ذم الأكثر بعدم الإيمان بالكتاب وما فيه، وكان أهم ما فيه الدعوة إلى التوحيد والمعاد، [شرع] في الاستدلال عليها بقوله: ﴿اللَّهُ﴾ والمعبود بالاستحقاق هو القادر ﴿الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ﴾ على الأرض مسيرة خمسمائة عام على ما قيل^١، بقدرته القاهرة ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ وأسطوانة مع غاية عظمة أجرامها، وأنتم ﴿تَرْوُنَهَا﴾ مرفوعة بلا عمد، فلولا قدرة الله القاهرة لا استحال رفعها وإيقاؤها مرفوعة بلا عمد.

وقيل: إن ﴿تَرْوُنَهَا﴾ صفة للعمد، والضمير راجع إليها، والمعنى أنه تعالى رفع السماوات بغير عمد مرئية^٢.

وعن الرضا عليه السلام «فتمَّ عمد، ولكن لا ترونها»^٣.

ويمكن أن يراد بالعمد غير المرئية قدرة الله تعالى. وقيل: إنها معتمدة على جبل قاف، وهو جبل من زَبَرَجَد محيطٌ بالدنيا ولا يراه أحدٌ، وعليه يكون الاستدلال برفعه ووضعه على الجبل لوضوح عدم اقتضاء طبيعتها الرفع والوضع، ولأن الاشتراك الأجسام فيها لاشتراك جميعها في مقتضيات الطبيعة، ويمكن أن يكون عمدها كونها كروية، فإن كل جزءٍ من الكرة معتمدٌ على الأجزاء الأخر.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ﴾ سبحانه ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ واستولى على عالم الوجود بالقدرة والقهر والعلم والتدبير والحفظ ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ مع عظم جرهما تحت قدرته بأن سيرهما بكيفية خاصة بارادته، فلولا كونهما مقهورين تحت إرادة القادر لامتنع اختصاصهما بالحركة دون السكون، واختصاص ﴿كُلِّ﴾ منهما بحركة خاصة، وكل منهما ﴿يَجْرِي﴾ ويسير ﴿لَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وإلى مدة معينة، تيمم فيها أدوارهما.

قيل: هي القيامة التي تكوّن فيها الشمس، وتتكدّر فيها النجوم^٤، وحينئذٍ تنقطع حركتهما، وينقضي سيرهما.

٢. تفسير الرازي ١٨: ٢٣٢.

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٣٥.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢١٨٢/٣٧٨، تفسير القمي ٢: ٣٢٨، تفسير الصافي ٣: ٥٦. ٤. تفسير الرازي ١٨: ٢٣٢.

٥. مجمع البيان ٦: ٤٢١.

عن ابن عباس: للشمس مائة وثمانون منزلاً، فالمراد بـ ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هذا. ﴿يَذُتُّرُ الْأَمْرُ﴾ في عالم الوجود وينظمه، بأن يُعطي كلَّ موجودٍ من المجرّدات والماديات والروحانيات والجسمانيات ما يحتاج إليه في بقائه وكماله، ويخصّص كلّ منهما بوضع وموضع وصفة وجليّة مناسبة له، وينظّم الدنيا بالايجاد والاعدام، والإمانة والإحياء، والإغناء والإفقار وغيرها، ولا يشغله شأن عن شأن، فانظروا - أيها العقلاء - كيف بلطفه ﴿يُفَضِّلُ الْآيَاتِ﴾ ويبيّن الدلائل على وحدانيته وكمال قدرته وحكمته وسائر صفاته ﴿لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءُ رَبَّكُمْ﴾ والحضور في القيامة عند مدبر أموركم ﴿تُوقِنُونَ﴾ فإنّ اليقين بكمال قدرته وحكمته الموجبة لتنزّهه عن اللغو والعبث، مستلزم لليقين بإعادة الخلق للحساب وجزاء الأعمال.

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد الاستدلال بالآيات السماوية، استدلّ بالآيات الأرضية بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ الواحد القادر ﴿الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ وبسطها من تحت الكعبة يوم دخو الأرض على الماء، لتثبت عليها الأقدام، ويعيش عليها الانسان، وينقلب فيها الحيوان. ثمّ كانت تكفاً بأهلها كما تكفاً السفينة، فأثقلها بأن خلق ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ بقدرته جبلاً ﴿رَوَاسِيَ﴾ وثوابت كالأوتاد لها، تمنعها عن الاضطراب والانكفاء.

وقيل: كان اضطرابها من مهابة الله وعظمته^٢.

قيل: إنّ الله خلق الماء، فأرسل عليه ريحاً هفافة، فصفقت الريح الماء، وضرب بعضه ببعض، فأبرز منه حجارة في موضع الكعبة كأنها قبة، فبسط سبحانه من ذلك الموضع جميع الأرض طولاً وعرضاً^٣.

وعن ابن عباس: أوّل جبل وضع على الأرض أبو قبيس^٤.

وقيل: أفضل الجبال جبل أحد، لقوله ﷺ: «أحد يُحِبُّنا وَنُحِبُّهُ»^٥.

ثمّ لما كانت الأنهار متولدة من الجبال، أردفها بذكرها بقوله: ﴿وَأَنْهَاراً﴾ جارية كثيرة لحياة الأرض

٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٣٨.

١. تفسير الرازي ١٨: ٢٣٣.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٣٧.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٣٣٨، وأبو قبيس: جبل مشرف على مسجد مكة.

٥. تفسير روح البيان ٤: ٣٣٨.

وَمِنْ عَلَيْهَا.

قيل: إِنَّ الأُبْحَرَةَ تتصاعد من قَعْرِ الأرض فتَقْبِلُ إلى الجبل فتحتسب، فلا تزال تتناسب فتقلب ماءً حَتَّى تحصل مياه عظيمة، ثم لكثرتها وقوتها تثْقُبُ الجبل، وتسيل على الأرض^١.

وقيل: إِنَّ الله يُنْزِلُ الأمطار والثلوج فتشربها الأرض، فتجتمع المياه الكثيرة في عُروقها، ثم تنشق عنها في المكان الذي تؤمر بالانشقاق، فيه فتظهر على وجه الأرض^٢.

وقيل: إِنَّ الله يُنْزِلُ الأمطار والثلوج لاتنفع الخلق، والمَلَكُ المُوَكَّلُ بالمياه ميكائيل وأعوانه^٣.

أقول: الظاهر أن تَكُونُ الماء في الأرض يكون بكلِّ واحدٍ من السببين، ولا ينحصر بأحدهما.

قيل: إِنَّ الأنهار العظيمة في الدنيا خمسة: الفرات، ودجلة، وسِيحُونُ بالهند، وَجِيحُونُ ببلخ، والنَّيْلُ بمصر^٤.

ثم استدلَّ سبحانه بالنباتات المتولدة من الأرض والماء بقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الشَّجَرَاتِ﴾ كالتمر والعنب والمِشْمِشِ والخَوْخِ ونظائرها ﴿جَعَلَ﴾ سبحانه وخلق ﴿فِيهَا﴾ بفضله ﴿زُجْجِينَ أَثْنَيْنِ﴾ وصنفين مختلفين بالطبع كالحارِّ والبارد، أو بالطعم كالحلو والحامض، أو باللون كالأبيض والأحمر.

قيل: إِنَّ الله خلق من كلِّ نوعٍ في بدو الخلق اثنين لا أَقَلَّ ولا أَزِيدَ، كما خلق من نوع الإنسان اثنين آدم وحواء، فكذلك القول في جميع الأشجار والزرع^٥.

ثم لما كان الليل والنهار موجودين بحركة السماوات والشَّمْسِ، وبهما ويتعاقبهما يَتِمُّ النظام ويكتمل الإتمام، استدلَّ سبحانه بهما على قُدْرته وحكمته بقوله: ﴿يُغْشِيهِ﴾ ويسرُّ الله ﴿الَّيْلَ﴾ وظلمته ﴿النَّهَارَ﴾ أو تليس ظلمة الليل ضياء النهار فتذهب به.

ثم لما كان بعض الناس يُسَيِّدُونَ الحوادث إلى الاختلافات الحاصلة في أشكال الكواكب من غير تفكير، نبه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من الحوادث ﴿آيَاتٍ﴾ عظيمة ودلالات واضحة على وحدانية الصانع وقُدْرته وحكمته ﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها حقَّ التفكر، لا لمن لا فكر له ولا تأمل، وفيه دلالة على وجوب التفكر فيها، فإن من نظر إلى فوائدها ومصالحها والحكم التي أعملت فيها، لا مناصَّ له من الإذعان بوجود صانع قادر واحد حكيم.

أما الأرض فمن حيث امتدادها ورخاوتها وملائمتها طبعها لما عليها، وكونها كالبساط لساكنيها،

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٣٨.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٣٨.

٥. تفسير الرازي ١٩: ٥.

وانشعاب المسالك والفيجاج للماشين في مناكبها وانفجار العيون، وتكون المعادن فيها، وخروج النباتات الكثيرة النافعة منها.

وأما الجبال فمن حيث رؤسها وعلوها، وخروج النباتات والمعادن والمياه الكثيرة منها، وغيرها من منافعها التي لا تحصى.

وأما الأنهار فمن حيث كثرة منافعها وحياء الأرض وما عليها بها، وحصولها في بعض الأمكنة دون بعض.

وأما الثمار فمن حيث كثرة أنواعها، واختلاف مقاديرها وألوانها وطعمها، وصلابتها ولطافتها، ومنافعها وخواصها وروائحها، واختلاف قشورها في الكثرة والقلة والغلظة والرقة والخاصية، واختلاف طبائع أجزاء كل منها من قشره ولحمه وعجمه^١ ومائه، مع تكون مجموعها ومجموع شجرها من حبة واحدة وماء واحد وأرض واحدة وهواء واحد وإشراق شمس واحدة.

وأما الليل والنهار فمن حيث كثرة فوائدهما وكثرة اختلافهما في الفصول الأربعة في الطول والقصر.

والحاصل أن الناظر في تلك الآيات بعين الاعتبار، يرى وحدة مدبرها وقدرته وحكمته.

وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ
صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [٤]

ثم بالغ سبحانه في الاستدلال بالآيات الأرضية بقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ ويقاع متلاصقات مختلفات في الصلابة والرخاوة، والارتفاع والانخفاض، وكثرة النباتات^٢ وقتلها، وقابلية الزرع وعدمها، وصلاحتها العامة [لإنبات] الأشجار بعضها دون بعض وعدم صلوحها لها بالكلية، وأمثالها. ولو لم يكن ذلك الاختلاف بإرادة القادر الحكيم، لامتنع تحققه لاشتراك القطعات في الجسمية والأرضية.

﴿و﴾ فيها «جَنَّاتٌ» وبساتين كثيرة «مِنْ أَعْنَابٍ» مختلفة بالصف واللون «وَزَرْعٌ» مختلف ألوانه وصفونه «وَنَخِيلٌ» مختلف بالصف بعضها «صِنْوَانٌ» ونخل له ساقان أو أكثر على أصل واحد «و﴾ بعضها «غَيْرُ صِنْوَانٍ» ونخل له ساق واحد.

١. العجم: جمع عجمة، وهو نوى كل شيء كالزبيب والرمان والتلع وغيرها.

٢. في النسخة: النبات.

وقيل: يعني بعضها متشابه، وبعضها غير متشابه، مع أن جميع القطعات والجئات والزروع والنخيل ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾^١ وتثبت الزروع والأشجار في أرض واحدة.

روى العلامة في (نهج الحق) عن جابر، وقال القاضي في (إحقاق الحق): أن في (كشف الغمة) نقلاً عن الحافظ أبي بكر بن مردويه، عن جابر، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «الناس من شجرٍ شتى، وأنا وأنت يا علي من شجرة واحدة» ثم قرأ النبي ﷺ الآية^٢.

﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿تُقَصَّلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ﴾ آخر ﴿فِي الْأَكْمِلِ﴾ والثمر من حيث المقدار والشكل والطعم واللون والرائحة والخواص ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الاختلاف بين القطع المتجاورة من الأرض وبين الأشجار المتحدة في المنبت والهواء والماء وإشراق الشمس ﴿لآيَاتٍ﴾ واضحة وأدلة قاطعة على وجود الصانع القادر الحكيم ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ من غير حاجة إلى التفكير.

وَأَن تَعْجَبَ فَعَجَبَ قَوْلُهُمْ أَءَدَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ لَقِيَ خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [٥]

ثم أنه تعالى بعد إثبات قدرته المستلزمة لعدم عجزه عن إعادة الخلق للحساب وحكمته الملازمة لتنزهه عن العيب، أظهر غاية التعجب من قول منكري المعاد بقوله: ﴿وَأَن تَعْجَبَ﴾ يا محمد، أو أيها الإنسان من شيء في العالم ومن عجائب الدهر ﴿فَعَجَبَ﴾ كل العجب ﴿قَوْلُهُمْ﴾ استبعاداً للبعث: ﴿أَدَا كُنَّا﴾ بعد الموت ﴿تُرَابًا﴾ بُعِثَ؟!

ثم أكدوا الإنكار وقالوا: ﴿أَوَلَمْ لَقِيَ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ونحى مرة أخرى بعود أجسادنا وعود أرواحنا إليها، مع أن الله خلقهم أولاً بلا مثال من تراب أو من طفة، ومن الواضح أن خلقهم ثانياً من التراب أهون ﴿أُولَئِكَ﴾ المنكرون للمعاد هم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ حيث أنكروا قدرته وحكمته وكذبوا وعده ﴿وَأُولَئِكَ﴾ تُجْعَلُ ﴿الْأَغْلَالُ﴾ يوم القيامة ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ ويسحبون في السلاسل.

وقيل: إن المعنى أن الكفر كالأغلال التي في الأعناق ملازمة لهم^٣ ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٤٢.

٢. نهج الحق وكشف الصدق: ١٩٥، إحقاق الحق ٣: ٣٦٠، كشف الغمة ١: ٣١٦.

٣. مجمع البيان ٦: ٤٢٦، تفسير روح البيان ٤: ٣٤٣.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ [٦]

ثم أنه تعالى بعد حكاية إنكارهم البعث حكى استهزاءهم بوعدهم النبي ﷺ بالعذاب الدنيوي بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ ويطالبونك أن تسرع إليهم ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ والعذاب الدنيوي الذي يُعَذِّبُهُمُ ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ وانتضاء مدة العافية والإمهال.

قيل: إن النبي ﷺ كلما هدّد المشكرين بعذاب القيامة أنكروا البعث، وكلّما هدّدهم بعذاب الدنيا استعجلوه وقالوا: متى يجيئنا؟ استهزاء وسخرية، فيطلبون العذاب بدل العافية والرحمة^١.

ثم ردّهم سبحانه بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وفي الأزمنة السابقة على وجودهم ﴿الْمَثَلَاتُ﴾ والعقوبات التي صارت مثلاً، ونزلت على أمثالهم، وبقيت آثارها، فكيف لا يعتبرون بها مع اطلاعهم عليها ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ لا يعاجل في إهلاكهم، لكونه تعالى والله^٢ ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ وتجاوز ﴿لِلنَّاسِ﴾ مع إصرارهم ﴿عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ وعصيانهم، وتماديهم في طغيانهم، وآلا لما بقي على ظهر الأرض من دابة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ إذا حان حين العقوبة، واقتضت حكمته تعذيبهم البتة ﴿لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والعذاب.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ

هَادٍ [٧]

ثم أنه تعالى بعد حكاية إنكار المشركين البعث ونبوة النبي ﷺ واستهزائهم به، حكى تعنتهم عليه بقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ أخرى ومعجزة باهرة زائدة على ما أتى بها من القرآن، ونبوع الماء من أصابعه، وحنين الجذع لفراقه، وتسييح الحصاة في كفّه ونظائرها ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾. ثم ردّهم سبحانه بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ وواظظ لهم ومبين لهم المعارف، من توحيد الله وقدرته وحكمته وكمال صفاته، ومعلّم لهم أحكام الاسلام وشرائعه، وآت بما يثبت صدق دعواك من المعجزات ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ﴾ في الأعصار السابقة ﴿هَادٍ﴾ من قبل الله ومنذر لهم مثلك، ولم يأتوا من المعجزات إلا مقداراً كافياً في إثبات نبوتهم، وإن كان قومهم تعنّوا عليهم، وإنما اللازم على الله إتمام الحجة وإعطاء النبي ما يثبت نبوته، ولا يحسن منه إجابة المتعنّت لانجرارها إلى ما لانهاية له، أو أخذهم بعذاب الاستئصال، وليس عليك إلا البلاغ، فلا يضيق صدرك بما يقولون.

عن ابن عباس: الهادي هو الله^١.

وعنه أيضاً: أن المراد بالهادي هو علي عليه السلام، قال: وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فقال: «أنا المنذر» ثم أوماً إلى منكب علي وقال: «أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون» رواه الفخر الرازي^٢ وغيره من مفسري العامة^٣.

وعن (المجمع): لما نزلت الآية قال رسول الله ﷺ: «أنا المنذر، وعلي الهادي من بعدي، يا علي بك يهتدي المهتدون»^٤.

وعن الباقر عليه السلام: «رسول الله ﷺ المنذر، ولكل زمان مآ هاد يهديهم إلى ما جاء به نبي الله، الهادي^٥ من بعده علي ثم الأوصياء واحداً بعد واحد»^٦.

وعن الصادق عليه السلام: «كل إمام هاد للقرن الذي هو فيه»^٧.

والقمي عليه السلام: هو رد علي من أنكر أن في كل عصر وزمان إماماً، وأنه لا تخلو الأرض من حجة^٨.

الله يعلم ما تحمّل كل أنثى وما تفيض الأرحام وما تزاد وكل شيء عنده

بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال [٩ و ٨]

ثم أنه تعالى بعد بيان كمال قدرته وحكمته، بين سعة علمه، لكمال مدخليته في البعث وجمع ذرات تراب كل جسد لأعادة خلقه، وغاية مدخليته في تهديد المعصين بقوله: ﴿الله﴾ تعالى بصفة علمه ﴿يعلم ما تحمّل كل أنثى﴾ من الذكر والأنثى، والجميل والقيح، والطويل والقصير ﴿وما تفيض الأرحام﴾ وتنقصه من أعضاء الجنين ومدة حملة التي أقلها ستة أشهر، وعدده الذي أقله واحد ﴿وما تزاد﴾ الأرحام في أعضاء الجنين وتمايتها، وفي مدة حملة التي أكثرها تسعة أشهر على ما هو المشهور المنصور^٩. وقيل: عشرة أشهر^{١٠}. وقيل: سنة^{١١}، وعند الشافعي أربع سنين^{١٢}، وعند مالك خمس سنين^{١٣}، وفي العدد^{١٤}: وهو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة على ما قيل^{١٥}.

عن أحدهما عليه السلام: ﴿وما تفيض﴾ كل حمل دون تسعة أشهر، ﴿وما تزاد﴾ كل شيء يزداد على

١ و ٢. تفسير الرازي ١٩: ١٤.

٣. تفسير الطبري ١٤: ٧٢، تفسير النيسابوري ١٤: ٦٨ (هامش الطبري)، روح المعاني ١٣: ١٠٨، وراجع: إحقاق الحق

٤. مجمع البيان ٦: ٤٢٧، تفسير الصافي ٣: ٥٩.

٥. ٨٨- ٩٢ و ٥٣٢ و ١٤: ١٦٦- ١٧١.

٦. الكافي ١: ٢/١٤٨، تفسير الصافي ٣: ٥٩.

٥. في الكافي: نبي الله، ثم الهداة.

٨. تفسير القمي ١: ٣٥٩، تفسير الصافي ٣: ٥٩.

٧. الكافي ١: ١/١٤٧، تفسير الصافي ٣: ٥٩.

١٤. أي عدد الأولاد في البطن الواحد.

٩- ١٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٤٧.

١٥. تفسير الرازي ١٩: ١٥، تفسير روح البيان ٤: ٣٤٨.

تسعة أشهر، فكَلَمَّا رأت المرأة الدم في حَمْلها من الحيض فأنها تزداد بعدد الأيام التي رأت في حَمْلها من الدم»^١.

عن الصادق عليه السلام: «مَا تَحْمِلُ كُلُّ أَنْثَى الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى، وَمَا تَقِيضُ الْأَرْحَامُ» ما كان دون تسعة وهو غيض، «وَمَا تَزْدَادُ» ما رأت الدم في حال حَمْلها ازداد به على تسعة أشهر»^٢.

وفي رواية: «مَا تَقِيضُ» [ما] لم يكن حَمَلًا، «وَمَا تَزْدَادُ» الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى جميعاً»^٣.

وعن القمي: «مَا تَقِيضُ» ما تسقط من قبل التمام، «وَمَا تَزْدَادُ» على تسعة أشهر»^٤.

وقيل: «مَا تَقِيضُ» من دم الحيض، «وَمَا تَزْدَادُ» فيه»^٥.

«وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ» وفي علمه وحكمه محدود «بِمَقْدَارٍ» وحد مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وجوده لا يجاوزه ولا يتنقص عنه، وهو تعالى «عَالِمُ الْغَيْبِ» ومطلع على كل مستور عن الحواس كالضمانر وما هو في ستر العدم «وَالشَّهَادَةِ» والحاضر عند الحواس، وهو «الْكَبِيرُ» والعظيم الذي لا يغترّب عن علمه شيء «الْمُتَعَالِ» والمستعلي على جميع الممكنات بقدرته.

فني تحقيق معنى قيل: إنَّ الكبير هو ذو الكبرياء، وذو الكبرياء عبارة عن كامل الذات، وهو عبارة عن
الكبير كامل الوجود وكمال الوجود، وأنه أزل وأبدى، فإن كل موجود محدود بالعدم السابق

واللاحق فهو ناقص، ولذا يقال لمن طال مدة وجوده: إنَّه كبير، ولا يقال: إنَّه عظيم، فالكبير أعظم من العظيم، فالدائم الأزلي الأبدى الذي يستحيل عليه العدم أولى بأن يكون كبيراً، وأيضاً نقول: إنَّ وجوده تعالى هو الوجود الذي يصدر منه كل وجود وموجود، فإن كان الذي سمَّ وجوده في نفسه كاملاً كبيراً، فالذي فاض منه الوجود لجميع الموجودات أولى بأن يكون كاملاً كبيراً، وأما المتعال فهو المبالغة في العُلَى، وهو الذي لا رُتْبة فوق رُتبته، فالعَلَى المطلق هو الذي له الفوقية بحسب الوجوب لا بالاضافة، وبحسب الوجود الذي يقارنه إمكان النقص»^٦.

وقيل: إنَّ المتعال هو الذي تنزه عن كل ما لا ينبغي، فيدُلُّ على كونه تعالى قادراً على البعث الذي أنكروه، وعلى إتيان الآيات [التي] اقترحوها، وعلى العذاب الذي استعجلوه، وإنَّما يؤخره لأجل

١. تفسير العياشي ٢: ٢١٨٩/٣٨٠، تفسير الصافي ٣: ٥٩.

٢. تفسير العياشي ٢: ٢١٩٣/٣٨١، تفسير الصافي ٣: ٥٩.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢١٩٢/٣٨١، تفسير الصافي ٣: ٥٩.

٤. تفسير القمي ١: ٣٦٠، تفسير الصافي ٣: ٥٩.

٥. تفسير البيضاوي ١: ٥٠٢.

٦. تفسير روح البيان ٤: ٣٤٩.

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَلِيلٍ وَسَارِبٍ

بِالنَّهَارِ [١٠]

ثم بالغ سبحانه في تقرير سعة علمه بقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ وَمُسْتَوْفَىٰ عِلْمُهُ إِنْ كَانَ ﴿مِنْكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ﴾ وَأَضْمَرَهُ ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ وَأَظْهَرَهُ.

عن ابن عباس: سواء ما أضمرته القلوب، وأجهرت به^٢ الألسنة^٣.

وعن الباقر (عليه السلام): «يعني السر والعلانية عنده سواء»^٤. وكل من أسر وجهه ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾ ومستتر ﴿بِأَلِيلٍ﴾ وفي الظلمات ﴿وَمَنْ هُوَ سَارِبٌ﴾ وبارز ﴿بِالنَّهَارِ﴾ وظاهر في الطرقات. وقيل: المستخفي: الظاهر، والسارب: المتواري^٥.

لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ

دُونِهِ مِنْ وَالٍ [١١]

ثم بين سبحانه أنه مع علمه بذاته بأعمال العباد وأحوالهم وقدرته على حفظهم ﴿لَهُ﴾ ملائكة ﴿مُعَقَّبَاتٌ﴾ من قبله تعالى يتعاقبون في حفظه وكلاءه ويحيطون به ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ في الليل والنهار، يعدّون عليه أعماله وأقواله، ويطلعون على أحواله و﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ من الآفات والمهالك، ويكون حفظهم له ﴿مِنْ﴾ أجل ﴿أَمْرِ اللَّهِ﴾ وحكمه به ومما أَرَادَهُ منهم.

وقيل: إن معنى (مِنْ) بمعنى باء، والمعنى: يَحْفَظُونَهُ بأمر الله^٦.

وعن الصادق (عليه السلام): «يَحْفَظُونَهُ بأمر الله، ومن ذا الذي [يَقْدِرُ أَنْ] يَحْفَظَ الشَّيْءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ»^٧.

وعن الباقر (عليه السلام): «﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾»، يقول: بأمر الله من أن يقع في زَكَاةٍ^٨ أو يقع عليه حائط، أو يُصِيبَهُ شيء، حتى إذا جاء القدر خلّوا بينه وبينه، ويدفعونه إلى المقادير»^٩.

١. تفسير الرازي ١٩: ١٧.

٢. في تفسير الرازي: وأظهرته.

٣. تفسير الرازي ١٩: ١٧.

٤. تفسير القمي ١: ٣٦٠، تفسير الصافي ٣: ٦٠.

٥. تفسير الرازي ١٩: ١٧.

٦. تفسير الرازي ١٩: ١٩.

٧. تفسير القمي ١: ٣٦٠، تفسير الصافي ٣: ٦٠.

٨. الزَكَاةُ: جنس للزَكَاةِ، وهي البشر، وجمعها: ركابا.

٩. تفسير القمي ١: ٣٦٠، تفسير الصافي ٣: ٦٠.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنهم ملائكة يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْمَهَالِكِ حَتَّى يَتَنَهَّوْا بِهِ إِلَى الْمَقَادِيرِ، فَيُخْلَوْنَ^١ بينه وبين المقادير»^٢.

وعن عمرو بن جُنْدَب، قال: كنا جلوساً عند سعيد بن قيس بصفين إذ أقبل علي عليه السلام يتوكأ على عِزَّة^٣ له بعدما اختلط الظلام، فقال سعيد: أمير المؤمنين. قال: «نعم» قال: أما تخاف أن يغتالك أحد؟ قال: «إنه ليس من أحدٍ إلَّا ومعه من الله حَفَظَةٌ من أن يتردَّى في بئرٍ، أو يخرَّ من جبلٍ، أو يصيبه حجر، أو تُصيبه دابة، فإذا جاء القدر خلَّوا بينه وبين القدر»^٤.

وعن الباقر عليه السلام: «هما ملكان يَحْفَظَانِهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ^٥ يتعاقبان»^٦.

وعن عثمان أنه قال: يا رسول الله، أخبرني عن العبد كم معه من ملك؟ فقال: «ملكٌ عن يمينك يكتب الحسنات، وهو أمين على الذي على الشمال، فإذا عَمِلْتَ حسنة كتب عشرًا وإذا عَمِلْتَ سيئة قال الذي على الشمال لصاحب اليمين: اكتب، فيقول: لا، لعله يتوب، فإذا قال ثلاثاً قال: نعم اكتب أراحنا الله منه، فيبس القرين، ما أقل مراقبته لله تعالى واستحياءه منَّا وملكان من بين يديك ومن خلفك، فهو قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ وملكٌ قابضٌ على ناصيتك، فإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبرت قصمك، وملكان على شفتيك يَحْفَظَانِ عَلَيْكَ صَلَاتَكَ عَلَيَّ، وملكٌ على فيك لا يدع أن تدخل الحية في فيك، وملكان على عينيك، فهؤلاء عشرة أملك على كل آدمي، تبدل ملائكة الليل بملائكة النهار، فهم عشرون ملكاً على كل آدمي»^٧.

وعنه عليه السلام: «يتعاقب فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر»^٨.

قيل: فائدة كون الملائكة في جوانبه لحفظه، ومعه لاحصاء أعماله وكتبتها، أن الانسان إذا عَلم به وعَلم جلالة المَلَكِ وعلو مقامه، كان إلى الحَذَرِ من المعاصي أقرب، وكذا يكون عظمة الرب في نظره أجلى، وفي قلبه أظهر^٩.

وقيل: إن الملائكة يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَتَقِيْمَتِهِ إِذَا أَذْنَبَ بِدَعَائِهِمْ لَهُ، ومَسْأَلَتِهِمْ رَبِّهِمْ أَنْ يُمَهِّلَهُ

١. في مجمع البيان: فيحلون. ٢. مجمع البيان ٦: ٤٣١، تفسير الصافي ٣: ٦١.

٣. العِزَّة: أطول من العصا وأقصر من الرمح، في أسفلها رُجٌّ كَرُجٍّ الرمح، يتوكأ عليها.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٠.

٥. في تفسير القمي وتفسير الصافي: بالليل وملكان بالنهار.

٦. تفسير القمي ١: ٣٦٠، تفسير الصافي ٣: ٦٠. ٧. تفسير الرازي ١٩: ١٨.

٨. تفسير الرازي ١٩: ١٩. ٩. تفسير الرازي ١٩: ٢٠.

رجاء أن يتوب^١.

ونُسب إلى ابن عباس أنه قال: إن المراد من المعقبات الحرس والأعوان الذين يكونون حول الملوك والأمراء ليَحْفَظُونَهُمْ من أمر الله، والمقصود بعثهم إلى أن يَطْلُبُوا الحِفْظَ من الله، ولا يَعُولُوا في دفع البلايا على الأعوان والأنصار^٢.

ثم ذكر سبحانه علة أخرى لتأخير العذاب بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنعمة ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من الشكر والأخلاق الحسنة والأحوال الحميدة بالإصرار على الكفر والصفات الرذيلة والأعمال القبيحة.

عن الباقر عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ قَضَى قَضَاءً حَتْمًا لَا يُنْعَمُ عَلَى عَبْدِهِ نِعْمَةً فَيَسْلُبُهَا إِيَّاهُ قَبْلَ أَنْ يُحْدِثَ الْعَبْدُ ذَنْبًا يَسْتَوْجِبُ بِذَلِكَ الذَّنْبِ سَلْبَ تِلْكَ النِّعْمَةِ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾» إلى آخره^٣.

وعن السجاد عليه السلام: «الذُّنُوبُ الَّتِي تُغَيِّرُ النِّعَمَ الْبَنِيَّ عَلَى النَّاسِ، وَالزَّوَالُ عَنِ الْمَعَاوِدِ^٤ فِي الْخَيْرِ وَاصْطِنَاعُ الْمَعْرُوفِ [وَكُفْرَانُ النِّعَمِ] وَتَرْكُ الشُّكْرِ» ثم تلا الآية^٥.

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سَبَبَ سُوءِ عِقَادِهِمْ وَقِبَاحَةِ أَعْمَالِهِمْ^٦﴾ ﴿سُوءًا﴾ وعذاباً ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ ولا دافع عنه ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ على أمرهم يدفع عنهم ضررهم وعذابهم المستحق. عن ابن عباس: لم تُغَيِّرِ المعقبات شيئاً^٧.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ أَلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ [١٢]

ثم أنه تعالى بعد التخويف بأنه لا مردّ لعذابه، ذكر الآيات الدالة على كمال قدرته الجامعة لجهتي النعمة والنقمة بقوله: ﴿هُوَ﴾ القادر الحكيم ﴿الَّذِي يُرِيكُمْ﴾ ويظهر لكم ﴿أَلْبَرْقَ﴾ واللّعمة الحاصلة من السحاب، ليُحْدِثَ في قلوبكم ﴿خَوْفًا﴾ من نزول الصاعقة عليكم ﴿وَطَمَعًا﴾ في نزول المطر النافع لكم.

قيل: إن المراد حال كونهم خائفين منه وطامعين فيه^٨.

٢. تفسير الرازي ١٩: ٢١ و ٢٢.

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٠.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢١٩٨/٣٨٢، تفسير الصافي ٣: ٦١.

٤. في معاني الأخبار وتفسير الصافي: عن العادة.

٥. معاني الأخبار: ٢/٢٧٠، تفسير الصافي ٣: ٦١.

٧. تفسير الرازي ١٩: ٢٣.

٦. في النسخة: عقائده وقباحت أعماله.

٨. تفسير الرازي ١٩: ٢٣.

قيل: يخاف منه من له فيه ضرر كالمسافر، ومن في خزانة^١ التمر والزبيب، ويطعم [فيه] من له نفع فيه^٢.

وعن الرضا عليه السلام: «خوفاً للمسافر، وطمعاً للمقيم»^٣.

قيل: إن البرق مركب من أجزاء مائية، وأجزاء هوائية ونارية، والغالب عليه هو الأجزاء المائية، ومن الواضح أن الماء والنار ضدان لا يمكن الجمع بينهما إلا بقدره الله القادر الحكيم^٤.

﴿و﴾ هو «يُنشِئُ» ويخلق «السَّحَابَ الثَّقَالَ» بالماء القمي: يعني يرفعها من الأرض^٥.

قيل: إن السحاب جسم مركب من الأجزاء المائية وأجزاء هوائية، وإنما يحدث هذا المركب في الجو بقدره الله^٦.

وقيل: إنه أجزاء لطيفة مائية تتصاعد مع الأبخرة إلى الطبقة الباردة من الهواء، فاذا وصلت إليها بردت فتقلت فرجعت إلى الأرض^٧.

أقول: قد مر بعض الكلام فيه، وظاهر كثير من الروايات أنه جسم غير سائر الأجسام، يحمل الماء من الأرض أو من السماء، وعلى أي تقدير فهو دال على قدرة الله تعالى، فإنه تعالى جعل لكل شيء سبباً طبيعياً لتمييز التابع للعقل الناظر إلى ما وراء الطبيعة عن قصر نظره إلى الأسباب والمحسوسات، ولا يتجاوز فكره عنها، ومما يدل على كونه بقدره الله تأثير الدعاء في وجوده على ما شوهد بالتجربة.

وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا
مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ [١٣]

ثم بين سبحانه عظمته وكبريائه بقوله: «وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ» مقروناً «بِحَمْدِهِ» وثنائه «و﴾ تسبح «الْمَلَائِكَةُ» له، خاضعين له «مِنْ خِيفَتِهِ» وخشيته لظهور أثر مهابته.

قيل: إن الرعد اسم ملك خلق من نور مهابته، ويطلق على صوته الشديد، يسوق السحاب به كما يسوق الحادي الإبل لجذانه، فاذا سبح أوقع الهيبة على الخلق كلهم حتى الملائكة^٨.

عن ابن عباس: أن اليهود سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الرعد ما هو؟ فقال: «مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ

١. في تفسير الرازي: وكمن في جرابه.

٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٥١/٢٩٤، تفسير الصافي ٣: ٦١.

٤. تفسير الرازي ١٩: ٢٤.

٦ و٧. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٢.

٥. تفسير القمي ١: ٣٦١، تفسير الصافي ٣: ٦١.

٨. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٢.

٤٧٠ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٣

بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله. قالوا: فما الصوت الذي يسمع؟ قال: «زجره السحاب»^١.

وفي (الفيح): روي «أن الرعد صوت ملك أكبر من الذباب وأصغر من الزئبور»^٢.

وعن الصادق عليه السلام: «أنه بمنزلة الرجل يكون في الإبل فيزجرها: هاي هاي، كهينة ذلك»^٣.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «أنه إذا سَمِع صوت الرعد قال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده»^٤.

وعن ابن عباس: من سَمِع [صوت] الرعد فقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير؛ فأصابته^٥ صاعقة فعلى دينه^٦.

قيل: إذا سَمِع الرعد -وتسبيحه ما يسمع من صوته - لم يبق ملك إلا رَفَعَ صوته بالتسبيح، فينزل القطر والملائكة خائفون من الله^٧.

وفي الحديث: «البرق والرعد وعيد لأهل الأرض، فإذا رأيتموه فكفوا عن الحديث وعليكم بالاستغفار»، وإذا اشتد الرعد قال صلى الله عليه وآله: «اللهم لا تغلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»^٨.

وقيل: إن الرعد هو نفس الصوت، وليس بملك، ومعنى تسبيحه دلالة هذا الصوت على وجود موجود متعالٍ عن النقص والامكان، كما هو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ»^٩.

وقيل: إن المراد من كون الرعد مسبحاً أن كل من يسمع الرعد [فإنه] يسبح الله تعالى^{١٠}.

﴿وَهُوَ تَعَالَى يُزِيلُ الصَّوَاعِقَ﴾ من السماء إلى هذا العالم ﴿فَيُصِيبُ﴾ الله ويهلك ﴿بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ إصابته وإهلاكه.

قيل: إن الصاعقة نار لا دخان لها، تسقط من السماء، وتتولد من^{١١} السحاب، وهي أقوى نيران [هذا العالم]، فإنها إذا نزلت من السحاب فربما غاصت في البحر فأحرقت الحيتان تحت البحر^{١٢}.

وفي [الحديث] النبوي السابق في بيان الرعد وأنه ملك قال: «وإذا اشتد غضبه طارت من فيه نار

١. تفسير الرازي ١٩: ٢٥.

٢. من لا يحضره الفقيه ١: ٣٣٤/١٥٠١، تفسير الصافي ٣: ٦١.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢٢٨٤/٢٢٠٢، تفسير الصافي ٣: ٦١.

٤. مجمع البيان ٦: ٤٣٤، تفسير الصافي ٣: ٦١. ٥. في مجمع البيان: فأن أصابته.

٦. مجمع البيان ٦: ٤٣٥. ٧. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٣.

٨. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٣.

٩. تفسير الرازي ١٩: ٢٦، والآية من سورة الإسراء: ٤٤/١٧.

١٠. تفسير الرازي ١٩: ٢٦.

١١. في تفسير روح البيان: في. ١٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٣.

هي الصاعقة^١.

قيل في شأن نزول الآية: إن رسول الله ﷺ بعث رجلاً إلى واحد^٢ من فرائعة العرب، قال: «فاذهب وادعُ لي» فقال: يا رسول الله، إنه أعتى من ذلك. قال: «فاذهب فادعُ لي». قال: فذهبت إليه فقلت: يدعوك رسول الله، فقال: وما الله؟ أذهَبَ هو، أم فِضَّة، أم من تُحاس؟ قال الراوي - وهو أنس -: فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره وقال: قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك، قال لي كذا وكذا قال: «فارجع إليه الثانية فادعُ» فرجع إليه فأعاد عليه مثل الكلام الأول، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «ارجع إليه» فرجع إليه الثالثة فأعاد عليه مثل ذلك الكلام، فبينما هو يكلمه إذ بعث الله سبحانه جيال رأسه فرعدت، فوقع منها صاعقة فذهبت بـقحفه رأسه، فأنزل الله ﴿وَيُزِيلُ الصَّوَاعِقُ فَيْصِبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾^٣.

عن الصادق عليه السلام: «أن الصواعق لا تُصيب ذاكرًا». قيل: من الذاكر؟ قال: «من قرأ مائة آية»^٤.

ثم ويخسب حانته المشركين بقوله: ﴿وَهُمْ﴾ مع تلك الآيات الباهرة الدالة على توحيد الله وقدرته ﴿يُجَادِلُونَ﴾ ويشدّدون الخصومة ﴿فِي﴾ توحيد ﴿الله﴾ ويكذبون الرسول الداعي إليه الواسف له بالعظمة والقدرة ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿شَدِيدُ الْحَالِ﴾ وعظيم الكَيْد لأعدائه، فأنه يهلكهم من حيث لا يشعرون.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «شديد الأخذ»^٥. وعن القمي: شديد الغضب^٦. عن ابن عباس: شديد الحول^٧. وقيل: شديد العقوبة^٨. وقيل: شديد الفقر، وهو ممثّل في القوة^٩.

عن ابن عباس: نزلت هذه الآية والتي قبلها في عامر بن الطفيل وإزید بن قيس - وهو أخو لبيد^{١٠} بن ربيعة الشاعر لأمه - وذلك أنهما أقبلا يريدان رسول الله ﷺ فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله، هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك. قال: «دعهُ، فإن يرد الله به خيراً يَهْدِهِ». فأقبل حتّى قام عليه فقال: يا محمد، مالي إن أسلمت؟ قال: «لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم» قال: أتجعل لي الأمر بعدك؟ قال: لا، ليس ذلك إليّ، إنّما ذلك إلى الله تعالى يجعله حيث يشاء. قال: أسلم على أن لك المدّر، ولي الوَيْر؟ يعني لك ولاية القرى، ولي ولاية البوادي. قال: «لا». قال: فماذا تجعل لي؟ قال: «أجعل

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٣.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٣.

٥. مجمع البيان ٦: ٤٣٥، تفسير الصافي ٣: ٦٢.

٧ و ٨. تفسير الرازي ١٩: ٢٨.

١٠. في النسخة: يعبد.

٢. في تفسير روح البيان: رجل.

٤. الكافي ٢: ٣٦٣، تفسير الصافي ٣: ٦٢.

٦. تفسير القمي ١: ٣٦١، تفسير الصافي ٣: ٦٢.

٩. تفسير أبي السعود ٥: ١١.

لك أعتة الخيل تغزو عليها» قال: أو ليس ذلك إلي اليوم؟ وكان أوصى إلى إزید إذا رأيتني أكلمه فدير من خلفه فاضربه بالسيف، فجعل يخاصم رسول الله ﷺ ويواجهه، فدار إزید خلفه ليضربه، فاختلط من سيفه شبراً ثم حبسه الله، فلم يقدر على سله، وجعل عامر يومئذ إليه، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى إزید وما يصنع بسيفه، فقال: «اللهم اكفنيهما بما شئت» فأرسل الله على إزید صاعقة في يوم صانف صاح فأحرقته، وولّى عامر هارباً، فقال: يا محمد، دعوت ربك فقتل إزید، والله لا ملأن عليك الأرض رجلاً؛ ألفاً أشعر وألفاً أمرد. فقال: «يمنعك الله من ذلك، وأبناء قيلة^١ تريد الأوس والخزرج.

فتزل عامر بيت امرأة سُلوية، فلما أصبح ضم إليه سلاحه، وخرج وهو يقول: واللات لئن أضرحت محمد إلي وصاحبه - يعني ملك الموت - لأنفذتهما^٢ برمحي، فلما رأى الله ذلك منه أرسل ملكاً فطمعه بجناحه، فأذراه بالتراب، وخرجت على ركبته غدة عظيمة في الوقت، فعاد إلى بيت السُلوية وهو يقول: غدة كغدة البعير، وموت في بيت سُلوية، ثم مات على ظهر فرسه^٣.

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ
كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَلِلَّهِ
يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْعُدُوِّ
وَالْآصَالِ [١٤ و ١٥]

ثم أنه تعالى بعد حكاية مجادلة المشركين في الله وإصرارهم على عبادة الأصنام، خصص العبادة والدعوة الحقّة المفيدة بنفسه بقوله: ﴿لَهُ﴾ تعالى خاصة ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ التي لا مجال لتوهم بطلانها، كما أن وجوده هو الحق في الموجودات، واعتقاد وجوده ووحدانيته هو الحق في الاعتقادات، وعبادته هي الحق في العبادات.

وعن ابن عباس: الدعوة الحق قول لا إله إلا الله^٤.

وقيل: يعني الدعوة المجابة غير الضائعة^٥. وقيل: يعني له دعوة المدعو إلى الحق الذي سمع^٦ فيجيب^٧.

١. في النسخة وتفسير روح البيان: قبيلة، تصحيف، وقيلة: اسم أم للأوس والخزرج قديمة، وهي قبيلة بنت كاهل.

٢. في النسخة: لأنفذتهما، والتصويب من روح البيان.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٤.

٤. تفسير الرازي ١٩: ٢٨.

٥. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٥.

٦. في تفسير الرازي: المدعو الحق الذي يسمع.

٧. تفسير الرازي ١٩: ٢٩.

﴿وَمَا أَلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون شيئاً، أو الأصنام الذين يدعون هؤلاء المشركون بالله ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ ومما سواه ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ دعاء الذين دعوهم، ولا يقضون ﴿لَهُمْ بِشْيءٍ﴾ من حوائجهم، ولا يكون دعاؤهم وعبادتهم لهم ﴿إِلَّا كَبَاسِطٌ كَفَيْنَهُ﴾ وماذ يديه ﴿إِلَى الْمَاءِ﴾ الذي في قعر البئر ﴿لِيَنْبُغَ﴾ ذلك الماء ﴿فَإَهُ﴾ من دون أن يُخرجه بدلو وحبل، ومن الواضح أن ذلك الماء لا يكون واصل إلى فيه بنفسه ﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ بصرف بسط اليد إليه واستدعائه أن يخرج من البئر ويبلغ فاه؛ لأنه جماد لا يسمع الدعاء، ولا يتحرك من محله بغير محرّك شاعر، فكذا ما يدعو المشركون من الجمادات لا يسمعون دعاءهم، ولا يستطيعون إجابتهم، ولا يقدّرون على نفعهم.

عن الباقر عليه السلام: «هذا مثّل ضربه الله للذين يعبدون الأصنام والذين يعبدون الآلهة من دون الله فلا يستجيبون لهم بشيء، ولا ينفعهم إلا كباسط كفيه إلى الماء ليتناوله من بعيد ولا يناله»^١.

ثم يبين عدم انتفاع المشركين بدعوتهم وعبادتهم بقوله: ﴿وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ وعبادتهم ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ وضياح لا يتفعون بها أبداً، ثم أنه تعالى بعد تخصيص الدعوة الحقّة بذاته المقدسة، خصّ الخضوع والانتقاد أيضاً بنفسه بقوله: ﴿وَقَدْ وَحَدَهُ﴾ يسجد ﴿وَيَخضع﴾ من في السّموات والأرض من الملائكة والجن والانس لظهور عظمتة للكلّ، ونفوذ إرادته في الكلّ، ومقهورية الجميع تحت قدرته، فإن كانت إرادته موافقة لاشتياقهم كالايجاد والاغناء والصحة، كان اتقيادهم له ﴿طَوْعاً﴾ ورغبةً ونشاطاً، وإن كانت مخالفة له كالاعدام والإفقار والإسقام، كان اتقيادهم له اضطراراً ﴿وَكَرْهاً﴾. والحاصل أن السجود على ما قيل هو الانتقاد التكويني، فإن كانت التغييرات الحاصلة في الأشياء بإرادته تعالى موافقة لطباعها يكون اتقيادها لها بالطوع، وإن كانت مخالفة لها يكون اتقيادها بالكّر. ﴿وَضِلَّالُهُمْ﴾ يسجدون بهذا المعنى لله ﴿بِالْقُدُّوْ﴾ والصباح ﴿وَالْأَصَالِ﴾ والأعصار، في أول النهار وآخره، وهما كناية عن جميع الأوقات من النهار، وإنما خصّهما بالذكر لكثرة ميلانها فيهما. عن أمير المؤمنين عليه السلام: «وسجدت له بالغدو والأصال الأشجار»^٢.

وعن القمي: ظلّ المؤمن يسجد طوعاً، وظلّ الكافر يسجد كرهاً، وهو نموهم وحركتهم^٣.
وعنه أيضاً: تحويل كلّ ظلّ خلقه الله هو سجوده لله؛ لأنّه ليس شيء إلا له ظلّ يتحرك بتحريكه، وتحويله^٤ سجوده^٥.

٢. نهج البلاغة: ١٩١/الخطبة ١٣٣، تفسير الصافي ٣: ٦٣.

٤. في المصدر: وتحريكه.

١. تفسير القمي ١: ٣٦١، تفسير الصافي ٣: ٦٢.

٣. تفسير القمي ١: ٣٦٢، تفسير الصافي ٣: ٦٣.

٥. تفسير القمي ١: ٣٨٦، تفسير الصافي ٣: ٦٣.

وقيل: إن المراد بالسجود السجود المعهود اختياراً، والعموم مخصوص بالمؤمنين^١.

عن الباقر عليه السلام: «أما من يسجد من أهل السماوات طوعاً فالملائكة يسجدون لله طوعاً، ومن يسجد من أهل الأرض فمن ولد في الاسلام وهو يسجد طوعاً، وأما من يسجد له كرهاً فمن أجبر على الاسلام، وأما من لم يسجد فظله يسجد بالغداة والعشي»^٢.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في (نهج البلاغة): «فتبارك الله الذي يسجد له من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً، ويعفر له خدأً ووجهاً، ويلقي بالطاعة إليه سُلماً وضِعْفاً، ويُعطي العباد^٣ رهبةً وخوفاً»^٤.
وقيل: إن المراد بالظل الجسد، لأنه عنه الظل، أو لأنه ظل للروح لأنه ظلماني، والروح نوراني، وهو تابع له يتحرك بحركته النفسانية، ويسكن بسكونه^٥.

وقيل: لا يبعد أن يخلق الله للظلال عقولاً وأفهاماً تسجد وتخضع بها، كما جعل للجبال أفهاماً حتى اشتغلت بتسبيح الله [حتى] ظهر آثار التجلي فيها كما قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا»^٦.
أقول: قد حققنا فيما سبق غير مرة أن الوجود ملازم للشعور، وكلما كمل الوجود كمل الشعور، وكلما ضعف ضعف، وعليه نقول: إن لكل شيء سجوداً وخشوعاً وتسبيحاً^٧ الله بحسب حاله، فجسم الكافر وروحه من حيث إنه موجود لهما سجود وتسبيح لله، ولا يدركما الكافر لفقد بصيرته وعمى قلبه.

قال الزجاج: جاء في التفسير أن الكافر يسجد لغير الله، وظله يسجد لله^٨.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَخْلُقُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [١٦]

ثم أنه تعالى بعد إقامة البراهين الكثيرة على توحيده وكمال ذاته وصفاته وغاية عظمته وتخصيص الدعوة الحق والخضوع لها^٩، أمر نبيه صلى الله عليه وآله بأن يلزم المشركين بما هو بديهي العقل والقطرة بقوله:

٢. تفسير القمي ١: ٣٦٢، تفسير الصافي ٣: ٦٣.

٤. نهج البلاغة: ٢٧٢/الخطبة ١٨٥، تفسير الصافي ٣: ٦٣.

١. تفسير الرازي ١٩: ٢٩.

٣. في المصدر: له القياد.

٥. تفسير الصافي ٣: ٦٣.

٦. تفسير الرازي ١٩: ٣٠، والآية من سورة الأعراف: ١٤٣/٧.

٨. تفسير الرازي ١٩: ٣٠.

٧. في النسخة: سجود وخشوع وتسبيح.

٩. في النسخة: به.

﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وخالفهما ومالكهما ومدبر أمورهما؟ ثم لما كان الجواب من الوضوح بمثابة [ما] لا يليق التأمل فيه، وكانوا أيضاً معترفين به، أمر نبيه ﷺ بالسرعة في الجواب بقوله: ﴿قُلْ﴾ من غير ريث وانتظار لجوابهم: هو ﴿الله﴾ وحده لا شريك له. ثم أمر نبيه ﷺ بتوبيخهم على الشرك بقوله: ﴿قُلْ أَفَأَتَّخِذُكُمْ﴾ واخترتهم مع ذلك ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ ومما سواه من مخلوقاته لأنفسكم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ ونظاراً في مصالحكم، وكلاء في أموركم مع كونهم جمادات ﴿لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا﴾ يستجلبونه ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ يدفعونه لغاية عجزهم وعدم شعورهم، فاذا عجزوا عن تحصيل النفع لأنفسهم ودفع الضرر عنهم، كانوا من تحصيل نفعكم ودفع الضرر عنكم أعجز، فاذا كانت عبادتهم والخضوع لهم عين السَّعة والعبث.

ثم لما كان المشركون يمتنعون من اتباع النبي ﷺ، ويدعون تساويهم معه في البشرية وعدم فضيلة له عليهم، وكان ذلك من عمى قلوبهم، أمر سبحانه نبيه ﷺ بالزامهم بما هو البديهي عند جميع العقلاء من عدم التساوي بين العالم والجاهل بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لمن يَدَّح في نبوتك بكونك بشراً مثلهم: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى﴾ الواقعي الذي لا بصيرة له ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ بجميع المعارف والعلوم الحقيقية؟ فأنتم ذلك الأعمى، وأنا ذلك البصير، فكيف أكون مثلكم؟ ثم تدعون أن الشرك أفضل من التوحيد، وأنا أسألكم ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ﴾ وهي شعب الشرك وأنواعه التي أنتم فيها ﴿وَالنُّورُ﴾ الذي هو التوحيد الخالص الذي أنا فيه.

ويحتمل أن يكون المقصود من الجملتين ترغيبهم إلى الإيمان، كما عن القمي حيث قال في تفسير الأعمى والبصير: يعني الكافر والمؤمن. وفي تفسير الظلمات والنور: يعني الكفر والإيمان^١. ثم أنه تعالى بعد بيان غاية خطأ المشركين في اتخاذ الأصنام أولياء، أكد ذلك ببيان عدم علّة لخطئهم ذلك إلا ما هو أوضح في البطلان مما ادّعوه بقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ قيل: يعني بل جعلوا^٢ ﴿اللهَ شُرَكَاءَ﴾ ولا وجه لذلك إلا أنهم رأوا أصنامهم ﴿خَلَقُوا﴾ أشياء ﴿كَخَلْقِهِ﴾ تعالى ﴿فَتَشَابَهَ﴾ والتبس ﴿الْخَلْقُ﴾ والخالق ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بسبب ذلك، وقالوا: إن الأصنام لما تشارك الله في الخلق، وجب أن تشاركه في الألوهية والعبادة، مع وضوح أنهم لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له.

إذن ﴿قُلْ﴾ لهم - يا محمد - إرشاداً لهم إلى الخلق، وإعلاناً بما في قلوبهم: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأرواح والأجسام والجواهر والأعراض، لا خالق غيره حتى يُشاركه في استحقاق العبادة ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الْوَاحِدُ﴾ بلا شبيهه، المتوحد بالألوهية ﴿الْقَهَّارُ﴾ لكل شيء الغالب على جميع الممكنات،

١. تفسير القمي ١: ٣٦٢، تفسير الصافي ٣: ٦٤.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٨، تفسير الصافي ٣: ٦٤.

ومنها ألهتكم وأصنامكم، فكيف يمكن أن يكون أولياؤكم شركاءه تعالى في الألوهية والعبادة؟!

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا
يُوْقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ
وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ
كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ [١٧]

ثمَّ أنه تعالى بعد ضرب المثل لنبيه ﷺ وللمشركين وللشرك والتوحيد، أولللكافر والمؤمن، وللايمان والكفر، بالأعمى والبصير، والظلمات والنور، ضرب مثلين للحق والباطل توضيحاً للحق بقوله: ﴿أَنْزَلَ﴾ الله ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ المَطْلُ^١، أو من جهة العلو ﴿مَاءً﴾ مباركاً إلى الأرض ﴿فَسَالَتْ﴾ من ذلك الماء المنزل ﴿أَوْدِيَةٌ﴾ وأراضٍ منخفضة عن الجبال والتلال، وجرى الماء فيها ﴿بِقَدَرِهَا﴾ وحدَّ سَعَتِهَا، أو بمقدارها الذي عَلمَ الله أنها النافع للناس، فيسيل ذلك الماء ﴿فَاحْتَمَلَ﴾ ذلك ﴿السَّيْلُ﴾ والماء الكثير الجاري في تلك الأودية لشدة جريانه ﴿زَبَدًا﴾ ورغواً ﴿رَابِيًا﴾ ومرتفعاً عليه، أو طافياً فوقه.

ثمَّ بعد ضرب المثل للباطل بالزبد الحاصل من الماء، ذكر الزبد الحاصل من النار بقوله: ﴿وَمِمَّا يُوْقِدُونَ عَلَيْهِ وَيَذْوِبُهُ النَّاسُ﴾ ﴿فِي النَّارِ﴾ من الفِلِزَّاتِ السبعة: الذهب، والفضة، والنحاس، والرصاص، والصُّفْر، والحديد، والرُّبْق ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ وطلباً للزينة كالقُرط والسوار والخَلْخَال وغيرها ﴿أَوْ﴾ طلب ﴿مَتَاعٍ﴾ من أثاث وآلات يُسْتَفَعُ بها كالأواني وأسلحة الحرب وأدوات الخَزْث، فإنه بعد ذَوْبِهِ ينشأ عليه ﴿زَبَدٌ مِثْلُهٗ﴾ كزبد الماء، يقال له الْخَبَثُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ المثل البديع المطابق للمثمل له ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ﴾ العالم بحقائق الأشياء لِيَبَيِّنَ ﴿الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ فإنَّ الْحَقَّ كالماء الصافي ومُذَابِ الْفِلِزِّ الْخَالِص، والباطل كالزبد والخَبَث.

ثمَّ يَبَيِّنُ سبحانه وجه الشُّبْهِ بقوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ الذي للماء ومُذَابِ الْفِلِزِّ ﴿فَيَذْهَبُ﴾ ويَعْدَمُ من بين النَّاسِ حال كونه ﴿جُفَاءً﴾ وغير مُتَمَتِّعٍ به، وإن كان على الماء والفلز المذاب في بدو حدوثه ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ في معاشهم ومعادهم كالماء الصافي الذي به حياة كل شيء، والفلز الخالص الذي صار زينةً ومَتَاعاً لهم ﴿فَيَمْكُثُ﴾ ويبقى ﴿فِي﴾ وجه ﴿الْأَرْضِ﴾ يتنفع به أهلها، فإنَّ الماء يَنْفُذُ في عُروِقِ الأرض، ثمَّ يَتَّبِعُ من العيون والآبار والقَنَوَاتِ، والفلز الخالص يدوم سنين متطاولة

﴿كَذَلِكَ﴾ المثل الذي هو في غاية المطابقة للمُثَلَّ له ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ﴾ وبيِّن ﴿الْأَمْثَالَ﴾ الآخر التي يأتي بها في كتابه الكريم لإيضاح المطالب العالية للذين لا يُدركونها إلا بذكر ما يُشابهها من المحسوسات.

قيل: إن الماء الذي به حياة الأشياء مُثَلٌّ للقرآن الذي به حياة القلوب، والأودية مُثَلٌّ للقلوب، فإن كلاً منهما يستفيض من القرآن بقدر استعداده وظرفيته، والزُّبْدُ مُثَلٌّ للهواجس النفسانية والوساوس الشيطانية، وكما أن الزُّبْدَ لا وزن له ولا نفع، كذلك الباطل لا قدر له ولا ثواب عليه، والحق والایمان يُتَنَفَّعُ به في الدنيا والآخرة، كما يُتَنَفَّعُ بالماء في الدنيا غاية الانتفاع، والكفر والباطل لا يُتَنَفَّعُ بهما لا في الدنيا ولا في الآخرة^١.

عن القمي عليه السلام يقول: أنزل الله الحق من السماء فاحتملته القلوب بأهوائها؛ ذو اليقين على قدر يقينه، وذو الشك على قدر شكّه، فاحتمل الهوى باطلاً كثيراً وجُفَاءً، فالماء هو الحق، والأودية هي القلوب، والسيل هو الهوى، والزُّبْدُ وخُبث الحلية هو الباطل^٢، والمتاع هو الحق، من أصاب الحلية والمتاع في الدين انتفع به، وكذلك صاحب الحق يوم القيامة ينفعه، ومن أصاب الزُّبْدَ وخُبث الحلية لم يُتَنَفَّعْ، وكذلك صاحب الباطل يوم القيامة لا يُتَنَفَّعُ به^٣.

وفي (الاحتجاج) عن أمير المؤمنين عليه السلام: «قد بين الله تعالى قصص المغيرين، فضرِبَ مثلهم بقوله: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَنْذَهُبْ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ فالزُّبْدُ في هذا الموضع كلام الملحدين الذين أثبتوه في القرآن، وهو يضمحل ويَبْطُلُ ويتلاشى عند التحصيل، والذي ينفع الناس منه فالنزول الحقيقي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والقلوب ثقله، والأرض في هذا الموضع هي محل العلم وقراره» الحديث^٤.

لِّلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْجُدُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمُ
جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ [١٨]

ثم بيّن سبحانه فائدة الحق والخلوص في عبادته بقوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾ اختاروا دين الحق و﴿اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ دعوته الحق بأن آمنوا بتوحيده ورسالة رسوله وعَمِلُوا بمرضاته الاستجابة ﴿الْحُسْنَى﴾ من

٢. في المصدر: والزبد هو الباطل والحلية.

٤. الاحتجاج: ٢٤٩، تفسير الصافي ٣: ٦٥.

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٦٠.

٣. تفسير القمي ١: ٣٦٢، تفسير الصافي ٣: ٦٤.

الله أو المثوبة الحسنی وهي الجنة والنعم الدائمة، أو الحالة الحسنی في مدة عمرهم وهي الإعراض عن الدنيا وفرغة القلب من همها، والأنس مع الله والالتذاذ بمناجاته، وإقبال القلب إلى الآخرة، والاشتغال بما يوجب الفوز بنعمها.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَمِعُوا دُعَاةَ رَبِّهِمْ وَلَمْ يَتَسَجَّيْبُوا لَهُ﴾ ولم يقبلوا دين الحق واتبعوا الباطل ﴿لَوْ﴾ فَرِضَ ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ في القيامة ﴿مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من النقود والأمتعة والصَّيَاعِ وَالْعَقَارِ وغيرها ﴿وَأَن مِّثْلَهُ مَعَهُ﴾ وكان لهم ضِعْفُ مَا فِي الدُّنْيَا ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أنفسهم من العذاب، وبذلوه لتخليص أنفسهم منه، ما تقبل منهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾.

عن عائشة، عن النبي ﷺ: «ليس أحد يحاسب يوم القيامة إِلَّا هَلَكَ» قلت: أو ليس يقول الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟^١ فقال: «إِنَّمَا ذَلِكَ الْغَرَضُ، ولكن من تُوقَش في الحساب يهلك»^٢.
عن الصادق عليه السلام - في تفسير سوء الحساب - قال: «هو أن لا يقبل منهم حسنة، ولا يغفر لهم سيئة»^٣.
ثم بين الله ما يترتب على سوء الحساب والمناقشة فيه بقوله: ﴿وَمَا وَاهُمْ﴾ ورجعهم بعد المناقشة في الحساب ﴿جَهَنَّمَ﴾ ﴿و﴾ هي ﴿بُشْرَى الْوَهَّادِ﴾ والمستقر الذي مهدوه لأنفسهم.

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا
الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (١٩ و ٢٠)

ثم أنه تعالى بعد إنكاره التساوي بين الأعمى والبصير، بين المراد منهما بقوله: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ﴾ ببصارة قلبه وتنور ضميره ﴿أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ من القرآن وما فيه من المعارف والأحكام هو ﴿الْحَقُّ﴾ والثابت في الواقع ﴿كَمَنْ هُوَ﴾ لظلمة باطنه وخبث ذاته والختم على قلبه ﴿أَعْمَى﴾ فاقد البصيرة بحيث لا يرى المهلكة والمأمّن، ولا يميز الضارَّ والنافع، لا والله ليس أحدهما كالآخر ﴿وَأَنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ التباين بينهما، أو نفع هذه الأمثلة، أو نصائح القرآن ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ وأصحاب العقول السليمة عن شوائب الأهوام.

قال العلامة في (نهج الحق): ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ﴾ هو علي عليه السلام^٤.

ثم وصف الله العالمين بحقانية ما أنزل، أو أولوا الأبواب بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ الذي أخذ منهم على الإيمان بتوحيده ورسالة رسله والعمل بأحكامه ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ﴾ ذلك ﴿الْمِيثَاقَ﴾ الذي

١. الانشاق: ٨/٨٤. ٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٦١.

٣. مجمع البيان ٦: ٤٤٢، تفسير الصافي ٣: ٦٥. ٤. نهج الحق وكشف الصدق: ١٩٧.

وانتهم به بالشُّرك وارتكاب المعاصي.

عن ابن عباس: يُريد الذي عاهدهم عليه حين كانوا في صُلب آدم وأشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^١.

وقيل: إن الميثاق ما واثقه^٢ المكلف على نفسه والتزم به بئذٍ وشبهه^٣.

عن الكاظم عليه السلام: «نزلت هذه الآية في آل محمد ﷺ، وما عاهدهم عليه، وما أخذ عليهم من الميثاق في الدَّر من ولاية أمير المؤمنين عليه السلام والأنمة عليه السلام بعده»^٤.

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ
الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِنْ
رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ *
جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ
يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى
الدَّارِ [٢٤-٢١]

ثم وصفهم بالعمل بأهم التكاليف بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من رَحِم آل محمد ﷺ ورَحِم نفسه. عن الصادق عليه السلام: «نزلت في رَحِم آل محمد ﷺ، وقد تكون في قرابتك»^٥ الخبر.

وعنه عليه السلام: «الرحم معلقة بالعرش تقول: اللهم صلِّ من وصلني واقطع من قطعني. وهي رحم آل محمد ﷺ، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ورحم كل ذي رحم»^٦.
وقيل: إن المراد رعاية جميع الحقوق الواجبة للعباد، فيدخل فيه [صلة الرِّحِم] وصلة القرابة الثابتة بسبب إخوة الإيمان، ومن صلَّتهم إمدادهم بإيصال الخيرات إليهم، ودفع المكاره والآفات عنهم^٧.
﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وعذابه، أو مهابته ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ بالخصوص، فلذا يحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

١. تفسير الرازي ١٩: ٤٠، والآية من سورة الأعراف: ١٧٢/٧.

٢. في تفسير الرازي: ما وثقه.

٣. تفسير الرازي ١٩: ٤١.

٤. تفسير القمي ١: ٣٦٣، تفسير الصافي ٣: ٦٦.

٥. الكافي ٢: ٢٨/١٢٥، تفسير الصافي ٣: ٦٦.

٦. تفسير الرازي ١٩: ٤١.

٧. الكافي ٧/١٢١، تفسير الصافي ٣: ٦٦.

عن الصادق عليه السلام: «هو أن تُحَسِّبَ عليهم السيئات، ولا تُحَسِّبَ لهم الحسنات، وهو الاستقصاء»^١.
وعنه عليه السلام: أنه تلا هذه الآية حين رأى رجلاً استقصى حقَّه من أخيه، وقال: «أتراهم يخافون أن يظلمهم أو يجور عليهم؟ لا ولكنهم خافوا الاستقصاء والمُدَاقَعة، فسَمَّاهُ الله سوء الحساب، فمن استقصى فقد أساء»^٢.

وعنه عليه السلام: «لو لم يكن للحساب مهولة إلا حياء العرض على الله، وفضيحة هتك الستر على المخفيات، لحقَّ للمراء أن لا يهبط من رؤوس الجبال، ولا يأوي إلى عمران، ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلا عن اضطرارٍ مُتَّصِلٍ بالتَّلف»^٣.

«وَالَّذِينَ صَبَرُوا» على طاعة الله وترك المشتهيات ومصائب الدهر «أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ» وطلباً لمرضاته ومُتَوَاتِرَاتِهِ، واستغراقاً في محبته^٤.

ثم لما كانت الصلاة والزكاة أهم العبادات، خصَّهما بالذكر بقوله: «وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ» الواجبة «وَأَنفَقُوا» على الفقراء والمحتاجين ووجوه البرِّ بَعْضاً «مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ» وأنعمنا عليهم من الأموال الزكوية بقصد الزكاة والقربة «سِرّاً» إذا لكم يكن في معرض الاتهام بترك أداء الزكاة «وَعَلَانِيَةً» وجهرًا إذا كان في معرضه.

وقيل: إن المراد الصدقات المندوبة، فإنها تُنْفَقُ سِرّاً، أو الزكاة الواجبة فإنها تودَى علانية^٥.

وقيل: إن المراد الإنفاق من جميع ما أعطاه الله من المال والعلم والجاه والقوى.

«وَيَسْذَرُونَ» ويدفعون «بِالْحَسَنَةِ» والأعمال الخيرية، أو بالتوبة «السَّيِّئَةِ» من المعاصي والخطايا.

عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: يا علي، ما من دارٍ فيها فرحة إلا تتبعها تَرْحَةٌ، وما من هم إلا وله فَرْجٌ إلا هم أهل النار. يا علي، إذا عَمِلْتَ سيئةً فاتبعها بحسنةٍ تَمْحُهَا سريعاً، وعليك بصنائع الخير فإنها تدفع مصارع السوء»^٦.

وعن النبي ﷺ، قال لمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: «إِذَا عَمِلْتَ سيئةً فاعمل بجنبها حسنةً تَمْحُهَا»^٧.

وقيل: إن المعنى يجازون الإساءة بالاحسان، والظلم بالعفو، والمنع بالعتاء، والقطع بالصلة^٨.

١. تفسير العياشي ٢: ٢٢١٧/٣٨٨، مجمع البيان ٦: ٤٤٤، تفسير الصافي ٣: ٦٧.

٢. تفسير العياشي ٢: ٢٢١٨/٣٨٨، تفسير القمي ١: ٣٦٤، تفسير الصافي ٣: ٦٦.

٣. مصباح الشريعة: ٨٥، تفسير الصافي ٣: ٦٧. ٤. في النسخة: محبة. ٥. تفسير الرازي ١٩: ٤٣.

٦. تفسير القمي ١: ٣٦٤، تفسير الصافي ٣: ٦٧. ٧. مجمع البيان ٦: ٤٤٤، تفسير الرازي ١٩: ٤٣.

٨. تفسير روح البيان ٤: ٣٦٦.

﴿أُولَئِكَ﴾ الكاملون المتصفون بتلك الصفات الحميدة ﴿لَهُمْ عُقْبَى﴾ حسنة محمودة لهذه الدار الفانية، وتلك العاقبة ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ﴾ وبساتين إقامة. وقيل: جَنَّاتٍ عَدْنٍ هي جنات في وسط الجنان، هم ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ في الآخرة ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ صَلَّحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ قيل: المراد بالآباء أعم من الأمهات، وإنما الصلاح بالإيمان والعمل^٢.

عن ابن عباس: يُريد من صدَّق بما صدَّقوا به، وإن لم يعملوا مثل عملهم^٣.
﴿وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ وأولادهم وأولاد أولادهم وإن نزلوا، تبعاً لهم، وتعظيماً لشأنهم، وليكونوا مسرورين بهم، أنسين بصحبتهن وإن لم يلبثوا في الفضل مبلغهم، كما عن ابن عباس^٤.
عن الصادق عليه السلام، أنه سُئل عن المؤمن له امرأة مؤمنة يدخلان الجنة، يتزوج أحدها الآخر؟ فقال: «إن الله حكَّم عدل، إذا كان أفضل منها خير، فإن اختارها كانت من أزواجه، وإن كانت هي خير منه خيرها، فإن اختارتها كان زوجها لها»^٥.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «أَنْ أُمَّ سَلَمَةَ قَالَتْ لَه: يَا أَبَتِي أَنْتَ وَأُمِّي، الْمَرْأَةُ يَكُونُ لَهَا زَوْجَانِ فَيَمُوتَانِ، لِأَيِّهِمَا تَكُونُ؟ فَقَالَ: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ، تَخِيرُ أَحْسَنَهُمَا خُلُقًا، وَخَيْرَهُمَا أَهْلًا. يَا أُمَّ سَلَمَةَ، إِنْ حُسِنَ الْخُلُقُ ذَهَبَ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^٦.

ثم روي عن ابن عباس: أَنَّ لَهُمْ خِيَمَةً مِنْ دُرَّةٍ مَجُوفَةٍ، طُولُهَا فَرْسَخٌ، وَعَرْضُهَا فَرْسَخٌ، لَهَا أَلْفُ بَابٍ، مَصَارِعُهَا مِنْ ذَهَبٍ^٧.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ وقيل: يَدْخُلُونَ مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْبَرِّ، كِبَابِ الصلاة، وباب الزكاة، وباب الصوم، وباب الصبر^٨. أو مِنْ أَبْوَابِ غُرْفِهِمْ وَتُصُورِهِمْ، وَهُمْ مَعَ غَايَةِ جَلَالَتِهِمْ وَعَظَمَةِ مَنَزَلَتِهِمْ يَقُولُونَ لَهُمْ تَحِيَّةً وَإِكْرَامًا وَبِشَارَةً بِدَوَامِ سَلَامَتِهِمْ مِنَ الْمَكَارِهِ: أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، وَأَمَّا يَكُونُ ذَلِكَ السَّلَامُ وَالتَّكْرِيمُ لَكُمْ ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَشِدَادَةِ الدَّهْرِ، وَأَبْشَرُوا أَنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا، فَتِلْكَ عَاقِبَةُ أَمْرِكُمْ ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ الَّتِي كُنْتُمْ فِيهَا.

روى أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله كَانَ يَأْتِي قُبُورَ الشَّهَدَاءِ رَأْسَ كُلِّ حَوْلٍ، فَيَقُولُ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ»^٩.

٢- ٤. تفسير الرازي ١٩: ٤٤.

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٦٧.

٥. مجمع البيان ٩: ٣١٨، تفسير العياشي ٣: ٦١/١٥٤، تفسير الصافي ٣: ٦٨.

٧. تفسير الرازي ١٩: ٤٥.

٦. الخصال: ٣٤/٤٢، تفسير الصافي ٣: ٦٨.

٩. تفسير الرازي ١٩: ٤٥، تفسير أبي السعود ٥: ١٨.

٨. تفسير الرازي ١٩: ٤٥.

القي: نزلت في الأئمة عليهم السلام وشيعتهم الذين صبروا^١.

عن الصادق عليه السلام قال: «نحن الصَّبر، وشيعتنا أصبر منّا، لأنّا صبرنا على ما نعلم، وهم صبروا على ما لا يعلمون»^٢.

وعن الباقر عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله - في حديث يصف فيه حال المؤمن إذا دخل الجنان والغرف - [قال]: «ثم يبعث الله له ألف ملك يهتئون بالجنة، ويزوجونه بالحوراء، فيتهون إلى أول باب من جنانه، فيقولون للملك الموكل بأبواب الجنان: استأذن لنا على ولي الله، فإن الله قد بعثنا مهتئين. فيقول الملك: حتّى أقول للحاجب، فيعلمه مكانكم. فيدخل الملك إلى الحاجب، وبينه وبين الحاجب ثلاث جنان، حتّى ينتهي إلى أول باب فيقول للحاجب: إن على باب العرصة ألف ملك أرسلهم الله رب العالمين يهتئون ولي الله [وقد سألوني أن أذن لهم عليه، فيقول الحاجب: إنه ليعظم علي أن أستاذن لأحد على ولي الله وهو مع زوجته الحوراء. قال: وبين الحاجب وبين ولي الله جنان، قال: فيدخل الحاجب إلى القيم فيقول له: إن على باب العرصة ألف ملك أرسلهم رب العزة يهتئون ولي الله] فاستأذن [لهم]. فيقوم القيم إلى الخدام فيقول لهم: إن رُسل الجبار على باب العرصة، وهم ألف ملك يهتئون ولي الله، فأعلموه مكانهم، فيعلمه الخدام مكانهم، فيؤذن لهم فيدخلون على ولي الله وهو في الغرفة، ولها ألف باب، وعلى كل باب من أبوابها ملك موكل به، فإذا أذن للملائكة بالدخول على ولي الله، فتح كل ملك بابه الذي وكل به، فيدخل [القيم] كل ملك من باب من أبواب الغرفة، فيبلغونه رسالة الجبار، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ يعني من أبواب الغرفة ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾»^٣.

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [٢٥]

ثم أنه تعالى بعد توصيف المؤمنين الذين هم أهل البصيرة وتنور القلب بالصفات الكريمة، وبيان ما يترتب عليها من الكرامة والتعم وحسن العاقبة، ذكر صفات الكفار الذين هم غمي القلوب بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ الذي أخذ عليهم بالإيمان والطاعة ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وتوكيده بالاقرار والقبول.

القي: يعني في أمير المؤمنين عليه السلام، وهو الذي أخذ الله عليهم في الذر، وأخذ عليهم رسول

الله ﷻ في غدير خم^١.

أقول: يعني هذا العهد من جملة العهود التي نقضوها.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من حبل ولاية الله ورسوله والأنمة والمؤمنين والأرحام
﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والطغيان والعصيان والظلم على العباد وتهيج الفتن بين المسلمين.
ثم بين الله نتيجة تلك الرذائل بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ والبعد عن الرحمة في الآخرة ﴿وَلَهُمْ
شُوءٌ﴾ العاقبة في هذه ﴿الْأَدَارِ﴾ الدنية، وهي جهنم وبئس القرار.

اللَّهُ يُنْشِطُ الرُّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ
يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ [٢٦ و ٢٧]

ثم لما كان مجال توهم المنافاة بين البعد عن الرحمة ووفور النعمة عليهم في الدنيا، دفعه الله
سبحانه بقوله: ﴿اللَّهُ يُنْشِطُ الرُّزْقَ﴾ ويوسع في الدنيا ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ بسنطه وتوسيعه عليه ﴿وَيَقْدِرُ﴾
ويضيق على من يشاء تقديره وتضييقه عليه على حسب اقتضاء حكمته في نظام العالم وصلاح
الأشخاص من غير مدخلة للإيمان والكفر فيه، بل كثيراً ما يكون صلاح المؤمن في الفقر والشدة؛
لأنه موجب لإقبال قلبه إلى الله، وإعراضه عن الدنيا، واستحقاقه مَثُوبَةِ الصبر، والكفر يكون من
عقوبته توفير النعم الموجب لخذلان الكافر وتبعده من الله واستغراقه في الدنيا.

ثم ونح الكفار على حبهم الدنيا وفرحهم بها بقوله: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ونعيمها ولذا نذها
﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴿وَنِعْمَهَا﴾ فِي ﴿جَنبِ﴾ الْآخِرَةِ ﴿وَنِعْمَهَا﴾ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿قَلِيلٌ وَنَفَعٌ
يسير في أيام قلائل، ثم يفنى ويزول، ولذا لا ينبغي للعاقل أن يفرح به، وعليه أن يهتم في تحصيل
الآخرة ونعيمها الدائمة التي لا انقطاع لها أبداً.

ثم أنه تعالى بعد ذم الكفار بالصفات الرذيلة، ذمهم باللجاج والتعنّت على النبي ﷺ بقوله:
﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ ومعجزة زائدة على ما أتى به، أو كمعجزات موسى
وعيسى ﷺ ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ الذي يدعي رسالته من قبله ﴿قُلْ﴾ يامحمد: قد أنزل الله عليّ من
المعجزات زائداً على ما يكتفي به العاقل المنصف في الإيمان والتصديق، كما تزعم أنه اكتفى به
جمع كثير، وإنما لا تكتفون بما أتيت لعدم قابليتكم^٢ للهداية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ﴾ ويحرف عن طريق

الحَقَّ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ ضلّالته وانحرافه عنه بسبب خيذلانه المترتب على خُبث ذاته وِذالة صفاته وسينات أعماله ﴿وَيَهْدِي﴾ إلى الحق، ويوصل ﴿إِلَيْهِ﴾ بَلْطَفه وتوفيقه ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ إلى الحق وطلبه وأعرض عن العناد واللجاج.

الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [٢٨]

ثم وصف سبحانه المهتدين بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ووحدانيته ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ وتسكن ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ عند شدائد الدنيا وزلازلها ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ وتذكر ألطافه بالمؤمنين ورحمته بالذاكرين، وكونه ولياً لهم، وناظراً في صلاحهم، ومحباً لهم بحيث لا يرضى بمساءتهم.

عن ابن عباس: يُريد أنهم إذا سمِعوا القرآن خَشَعَت قلوبهم واطمأنت. وقيل: إن علمهم بكون القرآن معجزاً، يُوجب الطمأنينة لهم بكون محمد ﷺ نبياً حقاً من عند الله. وقيل: إنه اطمأنت قلوبهم بصدق الله في وعده ووعيده^١.

﴿أَلَا﴾ تنبهوا أيها الناس أنه ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ والتفكر في عظمته وقدرته وكرمه ولطفه ورافته ﴿تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ وتستقر الأفئدة من الاضطراب والشك بنور اليقين.

عن الصادق عليه السلام: «بمحمد ﷺ تطمئن»^٢.

القمي: الذين آمنوا الشيعة، وذكر الله أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام^٣.

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ [٢٩]

ثم أنه تعالى بعد ذكر حسن حال المؤمنين في الدنيا، نبه نبيه ﷺ على حسن حالهم في الآخرة بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى﴾ التي هي شجرة عظيمة في الجنة ﴿لَهُمْ﴾ خاصة ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ ومرجع في الآخرة لهم.

عن النبي ﷺ أنه قال: «طوبى شجرة في الجنة غرسها الله بيده، ثبث الحلبي والحلل، وإن أغصانها لثرى من وراء سور الجنة»^٤.

رووي أن أصل هذه الشجرة في دار النبي ﷺ وفي دار كل مؤمن منها غصن^٥.

عن الصادق عليه السلام: «طوبى شجرة في الجنة أصلها في دار النبي ﷺ، وليس مؤمن إلا وفي داره

٢. تفسير العياشي ٢: ٢٢٢٣/٣٩٠، تفسير الصافي ٣: ٧٠.

٤. تفسير الرازي ١٩: ٥٠.

٣. تفسير القمي ١: ٣٦٥، تفسير الصافي ٣: ٧٠.

٥. تفسير الرازي ١٩: ٥٠.

١. تفسير الرازي ١٩: ٤٩.

غُصْنٍ مِنْهَا، لَا يَخْطِرُ عَلَى قَلْبِهِ شَهْوَةٌ شَيْءٌ إِلَّا أَنَاهُ بِهِ، وَلَوْ أَنَّ رَاكِبًا مُجَدَّأً سَارَ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ مَا خَرَجَ مِنْهُ، وَلَوْ طَارَ مِنْ أَسْفَلِهَا غُرَابٌ مَا بَلَغَ أَعْلَاهَا حَتَّى يَسْقُطَ هَرِمًا، أَلَا فِي هَذَا فَارْغُبُوا^١.

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام، قال: «أصلها في دار علي بن أبي طالب عليه السلام»^٢.

وعن الكاظم عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله: «أَنَّهُ سَثَلَ عَنْ طُوبَى، قَالَ: شَجَرَةٌ أَصْلُهَا فِي دَارِي، وَفَرْعُهَا عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ. ثُمَّ سَثَلَ عَنْهَا مَرَّةً أُخْرَى فَقَالَ صلى الله عليه وآله: فِي دَارِ عَلِيٍّ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّ دَارِي وَدَارِ عَلِيٍّ فِي الْجَنَّةِ بِمَكَانٍ وَاحِدٍ»^٣.

أقول: يمكن أن يقال شجرة طوبى صورة مثالية لدين الإسلام، فإن مبدأها ومنشأها الرسول وأمير المؤمنين عليه السلام، ثم انبسط منهما في قلوب المؤمنين، وكان انتفاع المؤمنين وسعادتهم الأبدية وحظوظهم به.

وقيل: إن طوبى اسم الجنة^٤. وقيل: إن طوبى مشتق من طاب كبشري^٥.

عن ابن عباس: المعنى فَرَحَ وَفَرَّةٌ عَيْنٍ لَهُمْ. وعن عكرمة: نعم ما لهم. وعن الضحاك: غبطة لهم وقيل: يعني حسنى لهم^٦.

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبِثُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

مَتَابِ [٣٠]

ثم أنه تعالى بعد بيان التوحيد والفرق بين الحق والباطل وسائر المطالب العالية التي [هي] دليل صدق نبوة النبي الأُمِّي صلى الله عليه وآله، دفع سبحانه استبعاد المشركين بنبوته بقوله: «كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ» والتقدير: كما أرسلنا إلى الأمم الكثيرة رسلاً كثيرة ليتلوا عليهم الكتب المنزلة، كذلك أرسلناك إرسالاً له شأن وفضل «فِي أُمَّةٍ» هي آخر الأمم، كما أنت آخر الرسل «قَدْ خَلَتْ» ومضت «مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ» كثيرة لتهدى تلك الأمة «وَلَبِثُوا عَلَيْهِمُ» الكتاب العظيم «الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» بتوسط جبرئيل «وَالْحَالِ أُنْ» «هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ» والله الواسع الرحمة بحيث وسعت رحمته كل شيء.

قيل: كانوا يقولون: إن محمداً يدعو إلهين، يدعو الله ويدعو آخر يسمى بالرحمن، ولا نعرف

٢. إكمال الدين: ٥٥/٣٥٨، تفسير الصافي ٣: ٧٠.

١. الكافي ٢: ٣٠/١٨٧، تفسير الصافي ٣: ٧٠.

٤. تفسير الرازي ١٩: ٥١.

٣. مجمع البيان ٦: ٤٤٨، تفسير الصافي ٣: ٧٠.

٦. تفسير الرازي ١٩: ٥٠.

٥. تفسير الرازي ١٩: ٥٠.

الرحمن إلا رحمن اليمامة، يريدون مُسيلمَةَ الكَذَابِ^١. فأمر الله نبيه ﷺ برَدِّهم بقوله: ﴿قُلْ لَهُمْ هُوَ رَبِّي﴾ وخالقي ومتولي أمورِي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أمورِي، وبه اعتمدت في العصمة من شركم والنصرة عليكم ﴿وَالْيَئِيسُ﴾ لا إلى غيره ﴿مَتَابٍ﴾ ومرجع، فيرحمني ويتنقم لي منكم، ويثبتني على مصابرتكم وإذاكم.

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتُ يَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئْسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ * وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ [٣١ و ٣٢]

ثم بين الله سبحانه عظمة شأن القرآن والكتاب الذي أنزله عليه وأوحاه إليه بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ كانت له الآثار العظيمة في العالم حتى أنه ﴿سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ بعدما قُليت به من أماكنها ﴿أَوْ قُطِعَتْ﴾ وانشقت ﴿بِهِ الْأَرْضُ﴾ فجعلت أنهاراً وعيوناً، أو تطوى به الأرض، ويسار به إلى البلدان ﴿أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتُ﴾ بعد إحيائهم به، لكان ذلك هذا القرآن، لوجود تلك الآثار العظيمة له، أو لما آمنوا به، ولا استبعاد لوجود هذه الآثار لكلام الله، فانه قادرٌ على هذه الأمور وترتيبها على كلامه.

﴿يَلِ اللَّهُ﴾ الخالق لجميع الأشياء ﴿الْأَمْرُ﴾ من التصرف والتغيير في الموجودات والقدرة على ما أراد ﴿جَمِيعًا﴾ إن شاء فعل، وإن لم يشأ لم يفعل.

روي أن أهل مكة قعدوا في فناء الكعبة، فأتاهم رسول الله ﷺ وعرض عليهم الإسلام، فقال له عبدالله بن أمية المخزومي: سِيرْ لَنَا جِبَالَ مَكَّةَ حَتَّى يَنْفَسِحَ الْمَكَانَ عَلَيْنَا، واجعل لنا فيها أنهاراً نزرع فيها، أو احي لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحق ما تقول أم باطل، فقد كان عيسى يحيي الأموات، أو سخر لنا الريح حتى نركبها ونسير في البلاد، فقد كانت الريح مسخرةً لسليمان، فلست بأهون على ربك من سليمان، فنزلت هذه الآية^٢.

عن الكاظم عليه السلام: «قَدْ وَرَّثْنَا نَحْنُ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي^٣ تُسِيرُ بِهِ الْجِبَالُ، وَتُقَطِّعُ بِهِ الْبُلْدَانَ، وَتُحْيِي بِهِ الْمَوْتِ»^٤.

١. تفسير الرازي ١٩: ٥٢.

٢. تفسير الرازي ١٩: ٥٢، تفسير روح البيان ٤: ٣٧٥.

٣. الكافي ١: ١٧٦، تفسير الصافي ٣: ٧١.

٤. زاد في الكافي: فيه ما.

ثم روي أن طائفة من المؤمنين قالوا: يا رسول الله، أجب هؤلاء الكفار إلى ما اقترحوه من الآيات، فعمى أن يؤمنوا^١، فأظهر الله سبحانه التعجب من توقع المؤمنين إيمان هؤلاء المقترحين ورجائهم فيه بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِئْسَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يقطع رجاءهم من إيمان هؤلاء، وليعلموا ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ الإيجاب على الهداية والإيمان ﴿لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ حتى هؤلاء المصرين على الكفر، ولكن إجبارهم على الهداية والإيمان خلاف الحكمة، ولذا لم يشأ ذلك، وهم باختيارهم لا يؤمنون أبداً لشدة لجاجهم وعنادهم للرسول ودين الحق.

وقيل: إن يئس بمعنى يعلم حقيقة على لغة النح^٢، أو مجازاً بعلاقة أن العلم بأن الشيء لا يكون يوجب اليأس من كونه، وعليه يكون المعنى أفلم يعلم المؤمنون أن لو شاء الله، إلى آخره. وروي أنه قرأ أمير المؤمنين والسجاد وجعفر بن محمد عليهم السلام (أفلم يبين) ونُسبت تلك القراءة إلى جماعة من الصحابة والتابعين^٣. ولا بد من حمل القراءة في الروايات على التفسير.

ثم أنه تعالى بعد بيان لجاج الكفار واقترحهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم سأل قلبه الشريف بقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرّوا على كفرهم وعنادهم ﴿تُصِيبُهُمْ﴾ وتنزل عليهم جزاء ﴿بِمَا صَنَعُوا﴾ من الكفر والافتراح عليك واستهزائهم بك ﴿قَارِعَةً﴾ وداوية عظيمة تُفرغهم وتُنجأهم من البلى والمصائب الشديدة ﴿أَوْ تَحُلْ﴾ وتنزل الداهية ﴿قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾ وبلدهم وهو مكة، ويُفزعون ويضطربون، وتصل إليهم شرارها، ويتعدى إليهم شرورها ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ من الموت أو القيامة.

وقيل: إن المعنى لا يزال كفار مكة تُصيبهم بما صنعوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من العداوة والتكذيب قارعة؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يزال يبعث السرايا فتغير حول مكة، وتختطف منهم، وتصيب من مواشيهم، أو تحل أنت - يا محمد - قريباً من دارهم بجيشك، كما حل بالحديبية حتى يأتي وعد الله، وهو فتح مكة، وقد كان الله وعده ذلك^٤ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْوَعْدَ﴾.

عن الباقر عليه السلام: «ولا يزال الذين كفروا تُصيبهم بما صنعوا قارعة، وهي النّمة، أو تحل قريباً من دارهم، فتحل بقوم غيرهم فيرون ذلك ويسمعون به، والذين حلت بهم عصاة كفار مثلهم ولا يتعظ بعضهم ببعض، ولا يزالون كذلك حتى يأتي وعد الله الذي وعد المؤمنين من النصر» الخبر^٥.

٢. تفسير الرازي ١٩: ٥٣.

٤. تفسير الرازي ١٩: ٥٤.

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٧٧.

٣. مجمع البيان ٦: ٤٤٩، تفسير الصافي ٣: ٧١.

٥. تفسير القمي ١: ٣٦٥، تفسير الصافي ٣: ٧١.

ثم لما كان اقتراح الكفار على النبي ﷺ مقروناً باستهزائه، بالغ سبحانه في تسليته بقوله: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كما استهزا قومك بك ﴿فَأَمَلَيْتُ﴾ وأمهلت ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الأخذ والعقوبة ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾ بغتة بالعقاب ﴿فَكَيفَ كَانَ عِقَابِ﴾ النازل على هؤلاء الأقوام، وكيف رأيت وسعت معاملتي معهم؟! وفي الاستفهام التعجبي^١ إشارة إلى غاية شدة عقوبتهم.

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [٣٣]

ثم وبخ الله المشركين على ضعف عقولهم بإظهار التعجب من سوء عقيدتهم بقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾ وقاهر ﴿عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾ من النفوس، مؤمنة كانت أو كافرة، وقيم عليها، وعالم ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من الطاعات والسيئات وجازيها حسب استحقاقها من الثواب والعقاب، كيف يمكن أن يكون كالأصنام التي لا قدرة ولا علم ولا شعور لها، فما أعجب كفر هؤلاء إذ سوا بين الكامل القادر على كل شيء والعالم بكل شيء، وبين الجمادات ﴿وَجَعَلُوا﴾ تلك الأصنام ﴿قُلْ﴾ العظيم المتعال ﴿شُرَكَاءَ﴾ في الألوهية والعبادة مع علمهم بعدم التساوي بينهما.

وقيل: إن المعنى أ فمن هو قائم على كل نفس بما كسبت لم يوحده ولم يعبدوه، وجعلوا لله شركاء^٢.

ثم أمر نبيه بإقامة الحجة على بطلان شركهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يامحمد، لهؤلاء المشركين ما هذه الأصنام التي تعبدونها؟ ﴿سَمُّوهُمْ﴾ وبيئوا ما يقال لهم وصفوهم بأوصافهم، فانظروا هل لهم صفة يستحقون بها العبادة، فإن لم يكن لهم اسم يُشير إلى تلك الصفة، فكيف تُشركون بهم مع الذات المستجمع لجميع الصفات الكمالية المعطى لكل شيء ما به كماله؟

وقيل: إن كلمة (سَمُّوهُمْ) كناية عن غاية حقارة الأصنام، فإن العرب تقول للشيء المستحق الذي بلغ في الحقارة إلى أن لا يكون قابلاً للذكر وتسميته باسم لا اسم له^٣: سَمَهَ بما شئت، يعني أنه أخس من أن يُسمى ويُذكر، ولكذلك إن شئت أن تضع له اسماً فافعل، فإنه في الحقارة إلى حد لا يستحق أن يلتفت إليه عاقل^٤.

٢. تفسير الرازي ١٩: ٥٦.

١. في النسخة: التعجبي.

٣. في تفسير الرازي: الحقارة إلى أن لا يذكر ولا يوضع له اسم، فعند ذلك يقال: ٤. تفسير الرازي ١٩: ٥٦.

ثم زاد سبحانه في الاحتجاج بقوله: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ﴾ قيل: إن المعنى بل أتخبرون الله^١ وتنبئونه ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ وجوده ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مع أنه عالمٌ ومحيطٌ بما في السماوات والأرض لا يُغْرَبُ عن علمه يُثقال ذرَّة، فإذا علمتم بألوهية الأصنام فقد علمتم بما لا يعلمه الله، وهو محال، فعدم علمه تعالى بألوهية هذه الأصنام وإله آخر غير ذاته المقدسة، إنما هو دليلٌ قاطعٌ على عدم ألوهية كل ما يدعون ألوهيته في الأرض ﴿أَمْ﴾ يتفوهون ﴿بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وصورة لفظ لا معنى ولا واقع لها ولا حقيقة، فيكون من قبيل لَفْلَقَةِ اللسان، أو يريدون من تسمية الأصنام باسم الإله ما يكون بذاته وصفاته في غاية البينونة مع الألوهية، فيكون من قبيل تسمية الزنجي بالكافور.

ثم نبه سبحانه على أن عقيدة الشرك ليس مما يكون نظر صاحبه إلى الدليل حتى يتكلف بيان بطلانه أو إقامه الدليل العقلي على خلافة ﴿بَلْ زُيِّنَ﴾ بتسويلات الشيطان واقتضاء الأهواء الرائعة ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ واعتقادهم الفاسد وتخيلهم الباطل، فلا تكلف نفسك باقامة الحجة العقلية على بطلان اعتقادهم، لأنهم لا يتفقهون بها ﴿وَصُدُّوا﴾ وميَّعوا ﴿عَنِ﴾ طريق الحقّ ﴿وَالسَّبِيلِ﴾ المستقيم بسلب توفيق سلوكها عنهم، فأضلَّهم الله ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ﴾ عن الهدى بالخذلان ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى الحقّ، ويوصله إلى السعادة والخير.

لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ

وَأَقِ [٣٤]

ثم بين سبحانه نتيجة ضلالهم وعاقبته بقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ شاقٌّ شديد ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ومدّة أعمارهم فيها بالقتل والأسر والخزي وسائر المصائب ﴿وَوَ﴾ والله^٢ ﴿لَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ المعدّ لهم فيها ﴿أَشَقُّ﴾ وأصعب وأخزى لغاية شدّته ودوامه ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ﴾ عذاب ﴿اللَّهُ﴾ وقهره ﴿مِنْ وَأَقِ﴾ وحافظ يقيهم ويحفظهم منه.

في حديث المعراج: ثم أتى ﷺ على وادٍ، فسمع صوتاً منكراً، فقال: «يا جبرئيل، ما هذا الصوت؟» قال: صوت جهنّم تقول: يا ربّ إئتني بأهلي وبما وعدتني، فقد كثرت سلاسلي وأغلالي وسعيري وحميمي وغساقلي وغسليني، وقد بُعد قفري، واشتدّ حرّي، إئتني بما وعدتني. قال: لك كلّ مشركٍ ومشرّكة وخبيثٍ وخبيثةٍ وكلّ جبار لا يؤمن بيوم الحساب. قالت: رضيت^٣.

٢. كذا، ولا موضع للقسم في الآية.

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٧٩.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٨٠.

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْثُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ
عُقْبَى الَّذِينَ أَتَقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ [٣٥]

ثمَّ أنه تعالى بعد توعيد المشركين بالعذاب الدنيوي والآخروي وإظهار غضبه عليهم، وعد
الموحدين بالجنة الموصوفة بالصفات العالية، وأعلن برحمته ولطفه بهم بقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي
وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ عن الشرك والمعاصي وصفتها العجيبة أنَّ فيها قصوراً وغرفاً وأشجاراً ﴿تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة من الماء واللبن والخمر والعسل و﴿أَكْثُهَا﴾ وثمراتها ﴿دَائِمٌ﴾ لا انقطاع لها
ولا نفاذ ﴿وَظِلُّهَا﴾ أيضاً دائم لا زوال له كما يزول في الدنيا بالشمس.

وقيل: إنَّ لفظ الظل كناية عن الاستراحة؛ لأنَّ الظلَّ عند العرب ممَّا يعظَّم فيه استراحتهم^١.
﴿تِلْكَ﴾ الجنة الموصوفة بالأوصاف ﴿عُقْبَى الَّذِينَ أَتَقَوْا﴾ ومالهم ونتيجة أعمالهم ﴿وَعُقْبَى
الْكَافِرِينَ﴾ ومآل أمرهم في الآخرة ﴿النَّارُ﴾ التي سخرها الجبار بغضبه.

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنْ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ
بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَابِ [٣٦]

ثمَّ أنه تعالى بعد إثبات توحيده، وبيان كثير من المطالب العالية الموافقة لما في الكتب السماوية،
استدلَّ على صحَّتها بتصديق أهل الكتاب وعلمائهم لها بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ من
التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن؛ لأنَّهم يجدونه موافقاً
لما في كتبهم، ومصدقاً له.

عن الباقر (عليه السلام): «أي يفرحون بكتاب الله إذا تلي عليهم، وإذا تلوهُ تفيض أعينهم دمعاً من الفرح
والحزن»^٢.

وعن ابن عباس: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ هم الذين آمنوا بالرسول ﷺ من أهل الكتاب كعبد
الله بن سلام وكعب وأصحابهما، ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلاً أربعون بنجران، وثمانية
باليمن، واثان وثلاثون بالحبيشة، فهم فرحوا بالقرآن كله لأنَّهم آمنوا به وصدقوه^٣.
﴿وَمِنْ الْأَحْزَابِ﴾ وهم بقية أهل الكتاب وكفرتهم الذين تحزَّبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة،
ككعب بن الأشرف وأتباعه والسيد والعاقب أشقفي نجران وأتباعهما ﴿وَمَنْ﴾ إذا سمع القرآن ﴿يُنْكِرُ

٢. تفسير القمي ١: ٣٦٦، تفسير الصافي ٣: ٧٣.

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٨١.

٣. تفسير الرازي ١٩: ٦٠.

بَعْضُهُ ﴿المخالف لشرائعهم﴾.

عن ابن عباس: آمن اليهود بسورة يوسف، وكفر المشركون بجميعه^١.
وقيل: إن المراد من الكتاب القرآن، فالمعنى أن أهل القرآن يفرحون بما أنزل على محمد ﷺ من التوحيد والعدل والنبوة والبعث والأحكام والقصاص، ومن الأحزاب: الجماعات [من] اليهود والنصارى^٢، والمشركين فإنهم يؤمنون ببعض القرآن من إثبات الله وإثبات علمه وقدرته وقصاص الأنبياء، ويتكرون بعضه من توحيده وعدم الولد له وغيرهما مما يخالف عقائدهم وأحكامهم.
ثم أنه تعالى بعد إثبات المبدأ وتوحيده، أمر نبيه ﷺ بالدعوة إليه، وصرف الناس عن مطلق الشرك بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للناس ﴿إِنَّمَا أُمرْتُ﴾ من قبل ربي ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ وأطيعه في أحكامه ﴿وَلَا أَشْرِكُ بِهِ﴾ شيئاً من خلقه من الشمس والقمر والكواكب والأصنام وغيرها من الموجودات، وأنا على حسب وظيفة رسالتي ﴿إِلَيْهِ﴾ تعالى خاصة ﴿أَدْعُوا﴾ الناس كلهم، أو المراد أخصه بالدعاء إليه، ولا أدعو معه غيره ﴿وَالَّذِينَ مَاتُوا﴾ كل أحد مني ومنكم للحساب والجزاء.
وقيل: إن المراد إنما أمرت فيما أنزل إليّ بأن أعبد الله وأوحدّه، وهو العمدة في الدين، ولا سبيل لكم إلى إنكاره، وأنا ما تنكرونه من الأحكام المخالفة لشرائعكم، فليس ببدع مخالفة الشرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام، وأنا إلى توحيده أدعو العباد وأقول: ﴿إِلَيْهِ مَأْبٍ﴾ وهذا هو المتفق عليه بين الأنبياء، وأما ما عدا ذلك من الفروع فمما يختلف بالأعصار والأمم، فلا معنى لإنكار المخالف فيه^٣.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بِعَدَمِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ [٣٧]

ثم قرّر هذا المعنى وأوضحه بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ والمراد كما أنزلنا على الرسل الذين كانوا قبلك كتاباً بلسان أمهم فيه جميع أحكام شريعتهم، كذلك آتيناك القرآن ﴿وَأَنْزَلْنَاهُ﴾ عليك حال كونه محتويّاً لجميع الأحكام التي يحتاج إليها الناس، صح أن يقال: إن هذا الكتاب بنفسه يكون ﴿حُكْمًا﴾ في كل شيء.

وقيل: إن المعنى أنه محكم لا يقبل النسخ والتغيير^٤.

١. تفسير الرازي ١٩: ٦٠.

٢. في النسخة: لاحتوائه.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٨٢.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٣٨٣.

ولما كان قومك عرباً جعلناه ﴿عَرَبِيًّا﴾ لِيَسْهَلَ عَلَيْهِمْ فَهْمُهُ وَحِفْظُهُ، إِذَنْ فَاتَّبِعْهُ وَأَعْمَلْ بِهِ ﴿وَلَكِنَّ أَتَّبَعْتُ﴾ بدع المشركين و﴿أَهْوَأَهُمْ﴾ التي يدعونك إليها، وسلكت طريقتهم الباطلة التي مالت إليها طباعهم ﴿تَبَغَّدَ مَا جَاءَكَ مِنْ﴾ قبل الله ﴿الْعِلْمِ﴾ بصحة دينك واستقامة طريقتك بالآيات الباهرة والبراهين المتقنة ﴿مَالِكَ مِنْ﴾ عذاب ﴿الله﴾ ويقمته ﴿مِنْ وَلِيِّ﴾ وناصر يدفعه عنك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ وحافظ يَحْفَظُكَ منه.

روي أن المشركين كانوا يدعونهم ﷺ إلى [اتباع ملة آبائهم المشركين، وكان اليهود يدعونهم إلى] الصلاة إلى قبلتهم [أي بيت المقدس] بعد ما حوّل عنها^١، فتوعده الله على متابعتهم. قيل: إن الغرض [منه] حث الرسول ﷺ على القيام بحق الرسالة وتحذيره من خلافها، وفيه تحذير عامة المكلفين^٢.

عن ابن عباس: الخطاب مع النبي ﷺ، والمراد أمته^٣.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ [٣٨ و ٣٩]

ثم لما كان من شبهاتهم في نبوته أنه بشر، ولا يكون النبي إلا ملكاً، فدفعه الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ كثيرة عظيمة الشأن ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ وفي الأزمنة السابقة على عصرك، كلهم كانوا من جنس البشر لا من جنس الملائكة.

ومنها أن محمداً لو كان نبياً لما كان مشتغلاً بالنساء، بل كان معرضاً عنهن مشتغلاً بالعبادة، فردهم الله بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ فقد كان لداود مائة امرأة ولسليمان ثلاثمائة مهيمة وسبعمنة سرية^٤.

ومنها أن محمداً لو كان رسولاً صادقاً، لكان يأتي بما طلبنا منه من المعجزات، فأجاب الله تعالى عنها بقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ وما صح ﴿لِرَسُولٍ﴾ من الرسل ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ ومعجزة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومشيتته التي يدور عليها أمر الكائنات.

ومن المعلوم أنه لا يجب على الله أن يأذن في إثبات المعجزة إلا بمقدار كافٍ في إثبات الرسالة

حتى لا يبقى لأحد مجال الشك والترديد فيها، وأما الزائد عليه فليس على الله بحتم، بل إن شاء أذن وإن لم يشأ لم يأذن.

ومنها أن محمداً لو كان نبياً لأنزل علينا بالعذاب الذي أوعدنا به على إنكار التوحيد ورسالته، فأبطلها سبحانه بقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ وحادث قضاء الله، أو لكل أجل من آجال الناس، أو لكل وقت من الأوقات ﴿كِتَابٌ﴾ ووقت معين مثبت عند الله في اللوح المحفوظ لا يزداد ولا ينقص، ولا يتقدم ولا يتأخر، ولا يطلع عليه أحد غيره، فنزول العذاب على الكفار ونصرة الأنبياء، وإن كانا مما قضاه الله، ولكن لهما وقت معين مكتوب، فلا يدل تأخيرهما على كون المؤخر بهما كاذباً.

ومنها أن محمداً لو كان رسولاً صادقاً لما نسخ الأحكام التي أنزل الله بها في الكتب السماوية كالنوراة والانجيل، فأزاحها الله بقوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ محوه من الأحكام، وينسخ ما يريد نسخه ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ بدله ما يشاء إثباته من الأحكام على حسب اقتضاء المصلحة في الأزمنة المختلفة والأمم المتغيرة.

وقيل: إن قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ كالمقدمة لتقرير دفع الشبهة، إما بالقول بأن الكلام مقلوب، والمعنى لكل كتاب من الكتب السماوية أجل ينزل فيه وقت يعمل به، فوقت العمل بسائر الكتب قد انقضى وحضر وقت العمل بالقرآن، أو المراد لكل حادث وقت معين قضى الله حصوله وبقائه فيه كالحياة والموت، والغنى والفقر، وغير ذلك^١. فإذا لم يتمتع أن يحيى أولاً ثم يميت ثانياً، فكيف يتمتع أن يشرع الحكم في بعض الأوقات ثم ينسخه في بعض آخر منها؟

ثم أنه تعالى بعد تقرير هذه المقدمة قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ والمعنى أنه يوجد تارةً ويعدم تارةً أخرى، ويحيي تارةً ويميت أخرى، وكذلك يشرع الحكم وينسخه حسب ما اقتضته الحكمة والمصلحة.

وقيل: يمحو من ديوان الحفظ الذين شغلهم كتب كل قولٍ وعملٍ ما يترتب عليه الجزاء ويثبت الباقي. أو يمحو سيئات التائب ويثبت مكانها الحسنات. أو يمحو قرناً ويثبت آخرين. أو يمحو الفاسدات من العالم الجسماني، ويثبت الكائنات. أو يمحو الرزق، ويثبت ويزيد فيه. أو يمحو الأجل أو السعادة والشقاوة^٢. وروى [هذا]^٣ عن جابر، عن النبي ﷺ، والظاهر تعميم المحو والاثبات لكل^٤.

١. تفسير الرازي ١٩: ٦٤.

٢. تفسير أبي السعود ٥: ٢٧.

٣. في تفسير أبي السعود: وهذا رواه.

٤. تفسير أبي السعود ٥: ٢٧.

«وَعِنْدَهُ» تعالى «أَمَ الْكِتَابِ» وأصل الكتب المحفوظه من المحو والتغيير، إذ ما من المحو والثابت إلّا فيه، ولذا يسمّى باللوح المحفوظ.

عن الصادق، عن أبيه عليه السلام، قال «قال رسول الله ﷺ: إنّ المرء ليصل رَجِمَه وما بقي من عمره إلّا ثلاث سنين، فيَمُدّه الله إلى ثلاث وثلاثين سنة، وإن المرء ليقطع رحمه وقد بقي من عمره ثلاث وثلاثون سنة، فيَنَقُصه الله إلى ثلاث سنين أو أدنى» وكان الصادق عليه السلام يتلو هذه الآية^١.

وعنه عليه السلام: «أنّه سُئل عن هذه الآية، فقال: «إنّ ذلك الكتاب كتاب يمحو الله فيه ما يشاء ويثبّت، فمن ذلك الذي يَرُدّ الدعاء القضاء، وذلك الدعاء مكتوب عليه: الذي يَرُدّ به القضاء، حتى إذا صار إلى أم الكتاب لم يُغنِ الدعاء فيه شيئاً»^٢.

أقول: هكذا الرواية في النسخة. وعنه عليه السلام: «أنّه سُئل عن قول الله تعالى: «أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ»^٣ قال: «كتبها لهم ثمّ محّاها، ثمّ كتبها لأبنائهم فدخلوها، والله يمحو ما يشاء ويثبّت وعنده أم الكتاب»^٤.

عن النبي ﷺ: «هما كتابان كتاب سوى أم الكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبّت، وأم الكتاب لا يغيّر منه شيء»^٥.

وعن الصادق عليه السلام: «الأمر^٦ أمران: موقوف ومحتوم، فما كان من محتوم أمضاء، ما كان من موقوف فله فيه المشيئة يقضي فيه ما يشاء»^٧.

وعنه عليه السلام: «إذا كانت ليلة القدر نزلت الملائكة والروح والكتب إلى سماء الدنيا، فكتبوا ما يكون من قضاء الله تبارك وتعالى [في] تلك السنة، فإذا أراد الله أن يقدم شيئاً أو يؤخره أو ينقص شيئاً [أو] يزيد [أمر الملك أن يمحو ما يشاء، ثمّ أثبت الذي أراد»^٨.

وعنه عليه السلام: «هل يمحو إلّا ما كان ثابتاً، وهل يثبّت إلّا ما لم يكن»^٩.

وعن الباقر عليه السلام، قال: «كان عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: لولا آية في كتاب الله لحدّثكم بما يكون

١. تفسير العياشي ٢: ٢٢٥٤/٤٠٠، تفسير الصافي ٣: ٧٤.

٢. تفسير العياشي ٢: ٢٢٥٣/٤٠٠، تفسير الصافي ٣: ٧٥.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٢٣٢/٢٦، تفسير الصافي ٣: ٧٤.

٤. مجمع البيان ٦: ٤٥٨، تفسير الصافي ٣: ٧٥.

٥. مجمع البيان ٦: ٤٥٨، تفسير الصافي ٣: ٧٥.

٦. تفسير العياشي ٢: ٢٢٤١/٣٩٥، تفسير القمي ١: ٣٦٦، تفسير الصافي ٣: ٧٤.

٧. تفسير العياشي ٢: ٢٢٣٩/٣٩٥، تفسير الصافي ٣: ٧٤.

إلى يوم القيامة. فقلت له: أية آية؟ قال: قول الله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^١. وعنه عليه السلام: «العلم علمان؛ فعلم عند الله مخزون لم يُطْلِع عليه أحداً من خلقه، وعلم علمه ملائكته ورسله، فما علمه ملائكته ورسله فإنه سيكون، لا يكذب نفسه ولا ملائكته ولا رسله، وعلم عنده مخزون يقدم منه ما يشاء ويؤخر ما يشاء [ويمحو ما يشاء] ويثبت ما يشاء»^٢.

أقول: لا منافاة بين تلك الروايات إلا الأخيرتين، ولا يهْمُنَا الجمع بينهما لعدم حُجَّتَيْهِمَا. ثم العجب من الفخر الرازي حيث إنَّه ينسب القول بالبداء الحقيقي إلى الشيعة. قال في تفسيره: قالت الرافضة: البداء جائزٌ على الله تعالى، وهو أن يعتقد شيئاً ثم يظهر له أنَّ الأمر بخلاف ما اعتقده، وتمسكوا فيه بقوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

ثم قال: واعلم أنَّ هذا باطلٌ؛ لأنَّ علم الله من لوازم ذاته المخصوصة، وما كان كذلك كان دخول التغير والتبدل فيه محالاً^٣، انتهى.

فإنَّ أحداً من الشيعة لم يجوز البداء الحقيقي عليه تعالى، وقوله: يكون العلم من لوازم ذاته تعالى، في غاية الفساد؛ لأنَّ اللازم مغاير في الوجود مع ملزومه، وتلك الغايرة مقتضية لكون العلم عارضاً لذاته المقدسة، وهو محالٌ، فإن الواجب لا يمكن أن يكون معروضاً لعارض أبداً، فلا بدَّ من كون العلم عين ذاته، بمعنى أنَّه يتزعم من إحاطته على الموجودات - وقبُولِهِ عليها، وحضورها عنده نحو حضور المعلول عند العلة - مفهوم العلم له، مع أنَّه ليس لهذا المفهوم خارج إلا ذاته البحت البسيط على الإطلاق، وعليه فلا يمكن القول بالبداء الحقيقي؛ لأنَّه مستلزمٌ للعلم بعد الجهل، بل مرادهم أنَّ الله تعالى يظهر ما هو في صورة البداء مع أنَّه ليس ببداء في الواقع كالنسخ في الأحكام، مع أنَّه ليس بنسخ في الحقيقة، بل هو إظهار غاية الحكم مع توهم الناس إطلاقه وأبديته من إطلاق الخطاب، بل القائل بالبداء الحقيقي هو وأصحابه الذين يروون عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ: «أنَّ الله سبحانه وتعالى في ثلاث ساعات يقين من الليل ينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء»^٤ وهذا الكتاب الذي في الرواية هو اللوح المحفوظ، ومن المعلوم من مذهبنا أنَّه محفوظ من التغيير.

وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضُ الَّذِينَ نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا

١. تفسير العياشي ٢: ٢٢٣٨/٣٩٤، تفسير الصافي ٣: ٧٥.

٢. تفسير العياشي ٢: ٢٢٤٦/٣٩٦، تفسير الصافي ٣: ٧٥.

٣. تفسير الرازي ١٩: ٦٦.

٤. تفسير الرازي ١٩: ٦٦.

الْحِسَابُ * أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ [٤٠ و ٤١]

ثم أنه تعالى بعد رفع شبهات الكفار في نبوة نبيه ﷺ، هددهم بالعذاب، وأمر نبيه ﷺ بالثبات على التبليغ، وعدم الاعتناء بترهاتهم بقوله: ﴿وَإِنَّمَا تُرْيِيكُ﴾ يا محمد ﴿بِقُصٍّ﴾ العذاب ﴿الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ نزوله عليهم في الدنيا ﴿أَوْ تَتَوَفَّيْتُكَ﴾ قبل تعذيبهم، ونعذبهم بعد وفاتك، وعلى أي تقدير لا تعتن بمقالاتهم، واشتغل بما هو وظيفتك ﴿فَأَيُّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ وبيان ما أنزل عليك وإتمام الحجة عليهم ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ومجازاة العصاة والطغاة في الدنيا والآخرة، لا عليك.

ثم أنهم كيف ينكرون نزول العذاب عليهم مع أنهم يزعمون أمارات صدق وعدنا ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ التي سكنوها^١ ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ وجوانبها باستيلاء المسلمين عليها وإحراقها بدار الاسلام، وإهلاك أهلها بالقتل، وإذلالهم بالأسر، وإجلائهم منها بالإلجاء، وذلك من أعظم الأمارات وأقوى الدلالات على أن الله ُيُنْجِزُ وعده.

عن ابن عباس: المراد من نقص أطرافها موت أشرافها وكبرائها وعلمائها، وذهاب الصلحاء والأخيار^٢.

وقيل: ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ يعني يموت أهلها، وتخریب ديارهم وبلادهم^٣.

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): «يعني بذلك ما يهلك من القرون، فسماه إتياناً»^٤.

أقول: فيكون المراد أنهم كيف أمنا من أن يحدث فيهم أمثال تلك الوقائع.

ثم أكد سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾ بما يشاء، وقد حكم بنزول الدواهي والبلايا على الكفار، وبنصرة المسلمين عليهم ﴿لَا مُعَقِّبَ﴾ ولا راد ﴿لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ بل هو نافذ في كل شيء.

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعِلَمَ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ [٤٢]

ثم بالغ سبحانه في تأكيد وعده بقوله: ﴿وَقَدْ مَكَرَ﴾ الأُمم ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بأنبيائهم^٥ وسعوا في الاضرار بهم، كما مكر كفار قومك بك ودبروا في قتلك، وصرف الناس عنك، وفي إبطال

١. في النسخة: سكنوها. ٢ و ٣. تفسير الرازي ١٩: ٦٧.

٤. الاحتجاج: ٢٥٠، تفسير الصافي ٣: ٧٦. ٥. كذا أثبتناها، وهي في النسخة غير مقروءة.

دعوتك وتكذيب نبوتك ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ﴾ بهم بأنواعه ﴿جَمِيعاً﴾ فإنه يُبطل سعيهم ويُعذبهم بأنواع العذاب من حيث لا يَشْعُرُونَ.

القمي: المكر من الله هو العذاب^١. وقيل: يعني بيده أسباب المكر وجزاؤه^٢.
ومن مكره أنه ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ﴾ وتعمل ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس من خيرٍ أو شرٍّ ويُهَيِّءُ جزاءه ﴿وَسَيَعْلَمُ أَلْكُفَارُ﴾ البتة، حين يعمل بمقتضى علمه ويوفِّي جزاء كلِّ نفسٍ على ما كسبت أنه ﴿لِمَنْ﴾ يكون من الفريقين ﴿عُقْبَى﴾ محمودة لهذه ﴿الْدَّارِ﴾ الفانية.

قيل: إن المراد سيعلم الكفار من يملك الدنيا^٣.

روي أن النبي ﷺ أمر في غزوة بدر أن تُطْرَحَ جِيفُ الْكُفَّارِ فِي الْقَلْبِ، وكان ﷺ إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليالٍ إلى أن قال الراوي: ثم مشى ﷺ وتبعه أصحابه حتى وقف على شفير القلب، وجعل يقول: «يا فلان يا فلان، هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقاً، فاني وجدت ما وعدني حقاً»^٤ الخبر.

روي أن أبا لهب قد تأخر في مكة، وعاش بعد أن جاء الخبر عن مصائب^٥ قريش بيدراً أياماً قليلة، ثم رمي بالعدسة - وهي بثرة تشبه [العدسة، من جنس] الطاعون - فقتلته، فلم يحفروا له حفرة، بل أسندوه إلى حائط، وقدفوا عليه الحجارة خلف الحائط حتى واروه، لأن العرب كانت تتشأم بالعدسة، ويرون أنها تعدي أشدَّ العدوى^٦.

وفي رواية: حفروا له ثم دفعوه بعودٍ في حفرة، وقذفوه بالحجارة [من بعيد] حتى واروه^٧.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ

عِلْمُ الْكِتَابِ [٤٣]

ثم أنه تعالى بعد حكاية استهزاء الكفار بالرسول ﷺ ومكرهم به، حكى تصريحهم بانكار رسالته بقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من المشركين واليهود لك: ﴿لَسَتْ﴾ يا محمد ﴿مُرْسَلًا﴾ من قبل الله ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على رسالتي وحاكماً ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بصدق دعواي، فإن إظهاره المعجزات الدالة على رسالتي شهادة قاطعة منه عليها، ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وإحاطة كاملة بجهات إعجاز القرآن، وهم المؤمنون المصدقون به المتدبرون فيه.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٨٩.

١. تفسير القمي ١: ٣٦٧، تفسير الصافي ٣: ٧٦.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٣٩٠.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٩٠.

٦ و ٧. تفسير روح البيان ٤: ٣٩٠.

٥. في تفسير روح البيان: مصاب.

روى العلامة في (نهج الحق) عن العامة، عن ابن عباس، قال: هو علي عليه السلام.^١

وفي (المجالس) عن النبي صلى الله عليه وآله أنه سُئل عن هذه الآية قال: «ذاك أخي علي بن أبي طالب».^٢

وعن (الاحتجاج): سأل رجل علي بن أبي طالب عليه السلام عن أفضل متقبة له فقرأ الآية وقال: «إيانا»^٣ عنى بمن عنده علم الكتاب».^٤

وعن الباقر عليه السلام قال: «إيانا عنى، وعلي أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي صلى الله عليه وآله».^٥

وعنه عليه السلام: «نزلت في علي عليه السلام، إنه عالم هذه الأمة بعد النبي صلى الله عليه وآله».^٦

عن الصادق عليه السلام: «هو أمير المؤمنين عليه السلام».^٧

وقيل: إن المراد به عبدالله بن سلام.^٨ وروى بعض العامة عن عبدالله بن سلام: أن هذه الآية نزلت في ^٩.

وقال الفخر: روي عن سعيد بن جبیر أنه يُبطل هذه الوجه، ويقول: إن السورة مكية، وإسلام عبدالله كان في المدينة ^{١٠}.

وقال القاضي في (إحقاق الحق): قد علمت فيما مر أن رواية نزول الآية في عبدالله بن سلام موضوعة، وأن عبدالله بن سلام نفسه روى ذلك في شأن علي عليه السلام.^{١١}

والعباشي: عن الباقر عليه السلام أنه قيل له: هذا ابن عبدالله بن سلام يزعم أن أباه الذي يقول الله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾؟ قال: «كذب، هو علي بن أبي طالب عليه السلام».^{١٢}

أقول: يؤيده جميع الروايات الواردة بطرق الخاصة والعامة في أن المراد بالشاهد في قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾^{١٣} علي بن أبي طالب عليه السلام.^{١٤}

١. نهج الحق: ١٨٨. ٢. أمالي الصدوق: ٨٩٢/٦٥٩، تفسير الصافي: ٣: ٧٧. ٣. في المصدر: إياي.

٤. الاحتجاج: ١٥٩، تفسير الصافي: ٣: ٧٧.

٥. تفسير العياشي ٢: ٢٢٥٥/٤٠١، الكافي ١: ٦/١٧٩، الخرائج والجرائع ٢: ٨/٧٩٩، تفسير الصافي: ٣: ٧٧.

٦. تفسير العياشي ٢: ٢٢٥٨/٤٠١، تفسير الصافي: ٣: ٧٧.

٧. تفسير القمي ١: ٣٦٧، تفسير الصافي: ٣: ٧٧.

٨. تفسير الرازي ١٩: ٦٩.

٩. تفسير الصافي: ٤: ٣٩١.

١٠. تفسير الرازي ١٩: ٦٩.

١١. إحقاق الحق ٣: ٢٨٥ - ٢٨٥ و ٤٥٢.

١٢. تفسير العياشي ٢: ٢٢٥٦/٤٠١، تفسير الصافي: ٣: ٧٧.

١٣. هود: ١٧/١١.

١٤. انظر: بحار الأنوار ٣٥ - ٣٨٦ - ٣٩٤، وإحقاق الحق ٣: ٣٥٢ - ١٤ - ٣٠٩ - ٣١٤ و ٢٠ - ٣٣ - ٣٦.

في تفسير سورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرِّكَاتِ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ [١]

قد تمّ تفسير سورة الرعد بتوفيق الله ومَنه، وبتلوها سورة إبراهيم بمناسبة تضمّن الأولى أدلة المبدأ والمعاد، وضرب مثلين للحقّ الذي هو التوحيد، والباطل الذي هو الشرك، وحكاية استهزاء الأمم السابقة برسلمهم ومكر الكفار بهم، ووعيد المتمرّدين بالعقوبة، واختتامها بحكاية إنكار كفّار مكّة رسالة الرسول ﷺ، واستدلال الله عليها بمعاجزه وإعجاز كتابه، وافتتاح الثانية بالاستدلال على رسالته بالقرآن المجيد، وتضمّنها حكاية مُعارضة الأمم رُسُلهم، وتهديد المعارضين بالعذاب، وضرب المثل للتوحيد والشرك، وذكر مكر كفّار مكّة لابطال الحقّ وتشديد الباطل، فابتدأ سبحانه فيها بذكر أسمائه الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

ثمّ افتتحها بقوله: ﴿الر﴾ وقد مرّ تأويلها وبيان الحكمة في الافتتاح بها.

ثمّ استدلّ سبحانه بكتابه الكريم على رسالة رسوله ﷺ بقوله: ﴿كِتَابٌ عَظِيمٌ الشَّانِ، مُشْتَمِلٌ عَلَى الْمَعْجَزَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى رِسَالَتِكَ﴾ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ من اللوح المحفوظ ﴿إِلَيْكَ﴾ بتوسط جبرئيل ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ كافه بتلاوته عليهم، ودعائك إياهم إلى التدبّر فيه والعمل به ﴿مِنْ﴾ أنواع الكفر والضلال التي هي مثل ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ في كونها موجبة لنهاية التحير ﴿إِلَى﴾ الإيمان والهدى الذي هو مثل ﴿النُّورِ﴾ في إضاءة طريق الحقّ وكمال إيضاحه ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ اللطيف بهم وتوفيقه وحوله. ثمّ أوضح المراد من النور بأبداله بقوله: ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ﴾ القادر ﴿الْحَمِيدِ﴾ في فعاله وأنعامه، وهو دين الاسلام. قيل: هو استئناف، كأنه قيل: إلى أي نور؟ فقال: ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾^١. وفي ذكر الوصفين إشعار بكون سالكه آمن محمود العاقبة.

اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ
شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْتَغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ [٢ و ٣]

ثم بالغ سبحانه في تفخيم شأن الصراط بإضافته إلى ذاته المقدسة، بذكر اسم الجلالة بياناً للوصفين
بقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [من] الموجودات الجسمانية والروحانية
والجوهرية والعرضية بالملكية الاشراقية.

وقيل: إن المشركين كانوا يصفون الوثن بالعزيز الحميد^١، فلذا كان مجال توهم إرادة الوثن من
الوصفين، فرفع الابهام بقول له: ﴿الله...﴾.

ثم هدّد سبحانه المنكرين للكتاب الممتنعين من الخروج من الظلمات بقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ﴾
بكتاب الله ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في الآخرة.

ثم عرّف الكافرين بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ ويختارون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ولذا نها ويؤثرونها
﴿عَلَى الْآخِرَةِ﴾ ونعمها الدائمة.

عن ابن عباس: يأخذون ما تعجل فيها تهاوناً بأمر الآخرة^٢. ولا يقنعون بضلالة أنفسهم، بل يمنعون
﴿وَيَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والدخول في دين الحق، ويطلبون لتلك السبيل ﴿وَيَبْتَغُونَهَا﴾
بشبهاتهم ﴿عِوَجًا﴾ وانحرافاً.

قيل: كانوا يقولون: إن دين الاسلام سبيل معوجة منحرفة عن الحق، لا تؤول إلى المقصود^٣.
﴿أُولَئِكَ﴾ الضالون المضلون منغمرون ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن طريق الحق غاية البعد بحيث لا
يمكن ردهم إليه.

وقيل: إن المعنى أولئك في هلاكٍ طويلٍ لا زوال له أبداً^٤.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي
مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [٤]

ثم أنه تعالى بعد المِنة على الناس بإنزال الكتاب، ذكر منه الأخرى عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ إلى
الناس ﴿مِنْ رَسُولٍ﴾ لهدايتهم ﴿إِلَّا﴾ رسولاً متكلماً ﴿بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ الذين هو فيهم وبلغتهم إن

٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٩٤.

٤. تفسير الرازي ١٩: ٧٩.

١. تفسير الرازي ١٩: ٧٧.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٩٥.

كانت رسالته عامة، أو بلغة الطائفة الذين أرسل إليهم إن كانت خاصة ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ ويوضح العلوم والمعارف والأحكام ﴿لَهُمْ﴾ بلسانهم حتى يكون فهمهم لها أسهل، ووقوفهم على مقاصدها أكمل. قيل في قوله تعالى: ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ﴾^١ وقوله: ﴿إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ دلالة على أن رسالة رسولنا عامة، ورسالة غيره من الرسل خاصة بقوم معينين^٢.

عن النبي ﷺ - في حديث -: «وَمَنْ عَلِيَ رَبِّي، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ أُرْسِلْتُ كُلَّ رَسُولٍ إِلَى أُمْتِهِ بِلِسَانِهَا، وَأُرْسِلْتُكَ إِلَى كُلِّ أَحْمَرٍ وَأَسْوَدٍ مِنْ خَلْقِي»^٣.

أقول: لا بد من حمل عموم كل رسول على غير أولى العزم، لوضوح كون رسالتهم عامة أيضاً. ثم تبه سبحانه على أنه مع ذلك تكون الضلالة بخذلانة والهداية بتوفيقه بقوله: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ﴾ عن الحق ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ ضلّاته بسلب التوفيق عنه المترتب على خُبث ذاته وسوء أخلاقه وأعماله ﴿وَيَهْدِي﴾ إلى الحق ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته بتوفيقه المترتب على طيب طيبته وحسن أخلاقه وأعماله ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره، القادر على إنفاذ مشيئته ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، لا يصدر منه إلا ما هو الأفضل والأصوب.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [٥]

ثم لما بين سبحانه حكمة إرسال النبي وإنزال الكتاب إليه، وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، بين أن إرسال موسى ﷺ أيضاً كان لذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى﴾ إلى بني إسرائيل متلبساً ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على رسالته من المعجزات التسع، وقلنا له: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ وخلّصهم من الكفر والضلال، واهداهم إلى الإيمان والمعرفة واليقين.

قيل: إن المراد بإخراج بني إسرائيل من الظلمات، إخراجهم بعد إهلاك فرعون من الجهالة التي أدت بهم إلى عبادة العجل^٤.

وقيل: إن المراد القبط^٥.

ثم أمر موسى ﷺ بوعظهم بقوله: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ والوقائع التي وقعت للأمم السابقة من العقوبات النازلة عليهم بالكفر ومعارضة الرسل.

١. إبراهيم: ١/١٤. ٢. تفسير الرازي ١٩: ٧٩، وفي النسخة: معين، بدل: معينين.

٣. الخصال: ١/٤٢٥، تفسير الصافي ٣: ٧٩. ٤. تفسير روح البيان ٤: ٣٩٧.

٥. تفسير روح البيان ٤: ٣٩٨.

وقيل: أيام الله: نعمانه وبلاياه^١، والمعنى: رغبهم في الطاعة بتذكيرهم النعم التي أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم من مصدقي الرسل، وحذرهم عن التكذيب والمخالفة بالبلايا النازلة على مكذبي الرسل.

عن الصادق عليه السلام: «بنعم الله وآلانه»^٢.

وعن الباقر عليه السلام: «أيام الله عز وجل [ثلاثة]: يوم قيام القائم، ويوم الكزة، ويوم القيامة»^٣.
ثم نبه سبحانه على علة التذكار بقوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ» المذكور من الأيام والوقائع والله^٤ «يَاتِ»
وعلامات لتوحيد الله وقدرته وعظمته، ولكن الانتفاع بها «لِكُلِّ» مؤمن «صَبَّارٍ» على الملساند والطاعات وكل «شَكُورٍ» لينعم الله.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذُبُّونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ
بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ [٦]

ثم أمر سبحانه بتذكر قيام موسى عليه السلام بأداء وظيفته بقوله: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ» وخلصكم بلطفه «مِنْ» أيدي «آلِ فِرْعَوْنَ» وقومه فانهم كانوا «يَسُومُونَكُمْ» ويزدقونكم أو يكلفونكم «سُوءَ الْعَذَابِ» وشديده من استعبادكم وتحميل الأعمال الشاقة عليكم والإهانة لكم^٥، «وَيَذُبُّونَ أَبْنَاءَكُمْ» المولودين لكم، ويكثرون القتل فيهم «وَيَسْتَحْيُونَ» ويستبقون «نِسَاءَكُمْ» من الأزواج والبنات، ليكن إماءهم «وَفِي ذَلِكَ» المذكور من الأعمال الفظيعة أو الانجاء «بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» شأنه.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ
مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ حَمِيْدٌ [٧ و ٨]

ثم أنه تعالى بعد تذكيرهم نعمة ربهم، حثهم على الشكر بقوله: «وَإِذْ تَأَذَّنَ» وأوجب «رَبُّكُمْ» على نفسه، أو المراد: واذكروا حين نادى بلسان رسله فيكم، أيها الناس والله «لَئِنْ شَكَرْتُمْ» نعمي

١. تفسير البضاوي ١: ٥١٣، تفسير أبي السعود ٥: ٣٣.

٢. تفسير العياشي ٢: ٤٠٣/٢٢٦٠، مجمع البيان ٦: ٤٦٧، تفسير الصافي ٣: ٨٠.

٣. الخصال: ٧٥/١٠٨، تفسير الصافي ٣: ٨٠. ٤. كذا، ولا موضع للقسم في الآية.

٥. في النسخة: بكم.

﴿لَا زِيْدَتْكُمْ﴾ ولأضاعفناها لكم ﴿وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ﴾ نعمة من نعماني بترك شكرها أو صرفها في معصيتي، لأسلبنها منكم، ولاعذبنيكم على الكفران، وإنما أشار إلى هذا التهديد بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ لأن دأب الكرام - على ما قيل - عدم التصريح بالوعيد، فكيف بأكرم الأكرمين^١.

عن الصادق عليه السلام: «ما أنعم الله على عبد من عبده فعرّفها بقلبه وحمّد الله ظاهراً بلسانه فتمّ كلامه حتى يؤمر له بالمزيد»^٢.

وعنه عليه السلام: «من عرف نعمة الله بقلبه استوجب المزيد من الله قبل أن يظهر شكرها على لسانه»^٣.

وعنه عليه السلام: «ما أنعم الله على عبد بنعمة صغرت أو كبرت فقال: الحمد لله، إلا أدى شكرها»^٤.

وفي رواية: «وكان الحمد أفضل من تلك النعمة»^٥.

وعنه عليه السلام في تفسير وجوه الكفر «الوجه الثالث من الكفر كفر النعم، قال: ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾»^٦.

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ زَجراً عن الكفران: يا بني إسرائيل ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الجن والإنس ﴿جَمِيعاً﴾ نعم الله فلن تضروا الله شيئاً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ﴾ عنكم وعن شكركم ﴿حَمِيدٌ﴾ في ذاته مستحق للحمد بإنعامه، وإن لم يحمده حامد، مع أنّ جميع الموجودات يُسبحه ويحمّده، وإنما يريد شكركم لاحتياجكم إلى منافعه.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخَّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا

١. تفسير روح البيان ٤: ٤٠٠.

٢. الكافي ٢: ٩/٧٨، تفسير الصافي ٣: ٨٠.

٣. الكافي ٨: ٩٨/١٢٨، تفسير الصافي ٣: ٨٠.

٤. الكافي ٢: ١٤/٧٩، تفسير الصافي ٣: ٨١.

٥. الكافي ٧: ١٣/٧٨، تفسير الصافي ٣: ٨١.

٦. الكافي ٢: ١/٢٨٧، تفسير الصافي ٣: ٨١.

وَلَنَضْرِبَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ آلِهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ [٩-١٢]

ثم بالغ ﷺ في عظمهم بتذكيرهم الوقائع العظيمة والبلايا النازلة على مكذبي الرسل بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ ولم يتلغىكم يا قوم ﴿تَبَٰؤُا﴾ الأمم ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ وفي الأعصار السابقة على عصركم من ﴿قَوْم نُوحٍ﴾ كيف أهلكوا بالطوفان ﴿وَ﴾ قوم ﴿عَادٍ﴾ كيف أهلكوا بريح صرصر عاتية ﴿وَ﴾ قوم ﴿ثَمُودَ﴾ كيف أهلكوا بالرجفة ﴿وَالَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ كقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وغيرهم من الأقوام الذين ﴿لَا يَغْلِبُهُمْ﴾ عدداً وحالاً ﴿إِلَّا أَنَّهُ﴾ لكثرتهم وقطع الأخبار عنهم.

ثم كأنه قيل: ما كان إجمال قصتهم؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿جَاءَتْهُمْ﴾ من قبل الله ﴿رُسُلُهُمْ﴾ المبعوثون لهدايتهم مستدلين ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الباهرات على صدق نبوتهم، ليخرجوهم من الظلمات إلى النور وينجوه من الكفر والجهالة ويهدوهم إلى الحق، فلما دعوا أقوامهم إليه ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ ليعضوها تضجراً من مقالة الرسل، كما عن ابن عباس وابن مسعود^١.

وقيل: وضعوها عليها تعجباً من قولهم واستهزاء بهم، أو أمراً لهم بالكف وبإطباق أفواههم^٢، أو إشارة إلى ما يصدر من الستهم من المقالة اعتناءً بشأنها، وتنبيهاً للرسل على تلقّيها والمحافظة عليها، وإقناطاً لهم عن تصديقهم والإيمان بهم.

وقيل: يعني ردّ الأقوام أيديهم في أفواه الرسل ليمنعوهم من التكلم بالدعوة^٣.

وقيل: يعني ردّ الرسل أيديهم في أفواههم تعجباً من عتوهم وعنادهم^٤ ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ بزعمكم من وجوب عبادة إله السماء وتوحيده، أو من المعجزات التي أتيت بها وأنكرناها ﴿وَأِنَّا لَفِي شَكٍّ عَظِيمٍ﴾ ﴿مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد والرسالة ﴿مُريبٍ﴾ ذلك الشك، وموقع قلوبنا في القلق والاضطراب بحيث لا يطمئن بشيء ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ إنكاراً عليهم وتعجباً من مقاتلتهم الحمقاء: ﴿أَفَبَى﴾ شأن ﴿الله﴾ من وجوده وتوحيده ووجوب الإيمان به ﴿شَكٍّ﴾ ما، مع أنه أظهر من كل شيء، لكونه ﴿قَاطِرُ السَّمَاءَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومبدعهما، لوضوح كونهما حادثين معروضين للحركة والتغيير، وكونهما حتمين مقدرين محدودين، فإذا ثبت حدوثهما فلا بد من انتهاء وجودهما إلى موجد واجب، فمن كان العالم من السماوات والأرض وما فيهما شاهداً على وجوده يكون أظهر من كل ظاهر.

٢. تفسير أبي السعود ٥: ٣٦.

١. مجمع البيان ٦: ٤٦٩، تفسير الرازي ١٩: ٨٩.

٤. تفسير أبي السعود ٥: ٣٦.

٣. تفسير الرازي ١٩: ٨٩، تفسير أبي السعود ٥: ٣٦.

ثُمَّ لَمَّا نَسَبَ الْكَفَّارُ الدَّعْوَةَ إِلَيْهِمْ نَفَوْهَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَنَسَبُوهَا إِلَى اللَّهِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ اللَّهُ إِلَيْهِ وَإِلَى تَوْحِيدِهِ بِالْأَسْتِنَا ﴿لِيُغْفِرَ لَكُمْ﴾. مَا كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ لَا مَا كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ مِنَ الْمَظَالِمِ.

وقيل: إن كلمة (مِنْ) زائدة^١، والمراد ليغفر لكم جميع ذنوبكم، وفيه بشارتكم بغاية الرحمة والكرم.

ثُمَّ بَشَّرُوهُمْ بِجَزَائِهِمْ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَيُؤَخِّرُكُمْ﴾ وَيُؤَخَّلُ مَوْتَكُمْ ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وَأَخَّرَ أَعْمَارَكُمْ الَّتِي قَدَّرَ لَكُمْ فِيهَا بَأْنَ لَا يُنْزَلُ عَلَيْكُمْ الْعُقُوبَةُ وَالْهَلَاكُ.

عن ابن عباس، قال: المعنى يمتنعكم في الدنيا بالطيبات واللذات إلى الموت^٢.

ثُمَّ اسْتَدَلَّ الْكَفَّارُ عَلَى بَطْلَانِ دَعْوَى الرِّسْلِ وَ﴿قَالُوا﴾ أَوَّلًا: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ مِنَ الْبَشَرِ، بَلْ لَا يَدَّ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا، أَوْ الْمَرَادُ لَا فَضِيلَةَ لَكُمْ عَلَيْنَا، فإِذَا سَأَلْتُمْ تَرْجِيحَ بَلَا مَرَجِّحٍ.

وَفَاتِنًا: أَنْ أَبَاءَنَا الْأَقْدَمِينَ مَعَ وَفُورِ عَقْلِهِمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ فِي أَعْمَارِهِمُ الْمُتَطَاوِلَةِ، فَلَا يَدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نَتَّبِعَهُمْ وَنَلْتَزِمَ بِمَا التَّزَمُوا بِهِ، وَأَنْتُمْ ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا﴾ وَتَصْرِفُونَا ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ مِنْ الْأَصْنَامِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ.

وَتَالثًا: يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَاتُونَا بِالْأَدِلَّةِ الْقَاطِعَةِ عَلَى دَعْوَاكُمْ وَمَا أَتَيْتُمْ بِهِ وَسَمَّيْتُمُوهُ مُعْجَزَةً، وَحَسَبْتُمُوهُ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ دَعْوَاكُمْ، فَمَا عَلِمْنَا بِكَوْنِهِ إِعْجَازًا وَخَارِجًا عَنْ طَوْقِ الْبَشَرِ، فَانْكَسَمَ صَادِقِينَ فِي دَعْوَى الرِّسَالَةِ ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وَمُعْجَزَةٍ لَا يُشَكُّ فِي كَوْنِهَا مُعْجَزَةً حَتَّى نَصَدِّقَكُمْ فِي دَعْوَى رِسَالَتِكُمْ، وَنَتَصَرَّفَ عَمَّا كُنَّا نَابِتِينَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ إِنْ زَامَا لَهُمْ وَإِبْطَالًا لِقَوْلِهِمْ: نَعَمْ ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ فِي الصُّورَةِ، وَلَا مَجَالَ لِانْكَارِهِ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ﴾ وَيُنْعِمُ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْوَحْيِ ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ نَبُوته ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ نَظَرًا إِلَى طَيْبِ طَبِيعَتِهِ وَوُفُورِ عَقْلِهِ، وَقُوَّةِ نَفْسِهِ، وَكَمَالِ صِفَاتِهِ، وَتَوَرُّقِ قَلْبِهِ، وَشَرْحِ صَدْرِهِ، فَإِنَّ النَّبِيَّةَ مُنْصَبَّةٌ يُعْطِيهِ اللَّهُ مِنْ يَرَاهُ قَابِلًا لَهُ مِنْ جِهَةِ كَمَالِ نَفْسِهِ وَصُلُوحِهِ لِلْوَسَايَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فَيُوحِي إِلَيْهِ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ دَلِيلُ التَّقْلِيدِ أَظْهَرَ فُسَادًا مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى الْجَوَابِ، أَعْرَضُوا عَنْهُ وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِلدَّفْعِ، وَأَجَابُوا عَنْ اعْتِرَاضِهِمُ الثَّلَاثَ، وَحَاصِلُهُ: إِنَّا عَبِيدُ مَرْبُوبِينَ ﴿وَمَا كُنَّا﴾ بِصَحِّحٍ ﴿لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ وَمُعْجَزَةٍ جَزْنِيَّةٍ ﴿وَلَا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ وَمُشَبِّهَةٍ فَضْلًا عَنِ السُّلْطَانِ الْمُبِينِ وَالْمُعْجَزَةِ الْعَظِيمَةِ

القاهرة التي تعتونها علينا، وإنما اللازم على الله أن يأذن في إتيان ما هو حجة ظاهرة على رسالتنا من المعجزات، وقد أتينا بها وأتممنا عليكم الحجة بها، وأما ما تظنونونه تعتاً ولجاجاً، فهي أمور زائدة والحكم فيها لله إن شاء أذن لنا في إتيانها، وإن لم يشاء لم يأذن.

ثم قيل: إن الرسل لما أجابوا عن شبهات المعترضين، هددوهم وخوفوهم بالقتل والضرب، فأجابهم الرسل بأن لا نخاف من وعيدكم، فإننا توكلنا على الله الذي هو حافظنا وناصرنا^١. **﴿وَعَلَى آفَهِ وَفَلْيَتَوَكَّلِ﴾** وإليه فليغوض الأمر **﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾** به، فكيف بنا ونحن أنبياء **﴿وَمَا لَنَا﴾** وليس يليق بنا **﴿أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى آفَهِ﴾** ولا نفوض أمورنا من الحفظ والنصر وغيرهما إليه مع أننا نرى غاية لطفه بنا، حيث إنه قد عرفنا نفسه واصطفانا بالرسالة **﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾** وأرشدنا إلى المنهج الذي شرع لنا **﴿و﴾** والله **﴿لَنَضِرَّنَّ عَلَى مَا أَدَيْتُمُونَا﴾** به من المكابرة والتكذيب والمعاداة، ثم أعلنوا بأن وظيفة كل من اتبعهم التوكل بقولهم: **﴿وَعَلَى آفَهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾**.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدَ [١٣ و ١٤]

ثم لما ألان الرسل في القول مع الأقوام، حكى الله مبالغتهم في السفة بقوله: **﴿وَقَالَ﴾** عتاة **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** من الأقوام **﴿لِرُسُلِهِمْ﴾** باللات والعزى، أو بالأصنام التي نعبدُها **﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا﴾** وديارنا **﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ﴾** ولترجعن **﴿فِي مِلَّتِنَا﴾** وإنما أمرهم بالعود مع أنهم لم يكونوا على ملتهم أصلاً لاعتقادهم أنهم كانوا قبل ادعاء الرسالة على ملتهم، أو لتغليب أتباعهم عليهم في الخطاب، أو لإرادة الصيرورة من العود.

ثم لما بلغ عناد الكفار بالرسل إلى هذا الحد **﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾** اللطيف بهم: بعزتنا **﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾** بعذاب الاستنصال هؤلاء **﴿الظَّالِمِينَ﴾** جميعاً **﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ﴾** التي سكنوها، ولنمكننكم في البلاد التي تمكثوا فيها **﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾** وبعد هلاكهم **﴿ذَلِكَ﴾** النصر على الأعداء باهلاكهم وتوريث أرضهم حق ثابت علي **﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾** ومحلي من العظمة والجلال والفهر، أو خاف موقفي عند الحساب في القيامة، أو خاف مقامي ومراقبتي إياه، أو المراد خافني **﴿وَخَافَ وَعِيدَ﴾**.

عن ابن عباس، قال: خاف ما أوعدت من العذاب^٢.

وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ
 * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيقُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ
 وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ [١٥-١٧]

ثم إن الرسل بعد يأسهم من إيمان أقوامهم تضرعوا إلى الله ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ وسألوا الفتح والنصرة عليهم، ففازوا بمقصودهم من النصر فنزل العذاب، أو سألوا من الله القضاء بينهم وبين أعدائهم ففضى لهم ﴿وَوَخَّابَ﴾ وحرّم من كلّ خير، أو خسر أو هلك ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾ ومتكبر ﴿عَنِيدٍ﴾ شديد العداوة.

عن النبي ﷺ: «يعني من أبى أن يقول لا إله إلا الله»^١.

وعن الباقر عليه السلام: «العنيد: المعرض عن الحق»^٢.

وقيل: المستفتحون هم الكفار، فأنهم سألوا النصر على الرسل وخابوا وابتلوا بالعذاب.

ثم أنه تعالى بعد بيان عاقبة الجبار في الدنيا، بين سوء حاله في الآخرة بقوله: ﴿مِنْ وَرَائِهِ﴾ وخلفه، أو من قدامه ﴿جَهَنَّمُ﴾، فإنها منزلة في الآخرة ﴿وَيُسْقَى﴾ كلما عطش فيها ﴿مِنْ مَاءٍ﴾ مخصوص، وهو القيح المختلط بالدم، أو ما يسيل من أجساد أهل النار وفروج الزواني على ما قيل^٣، سمي باسم ﴿صَدِيدٍ﴾ لصد كراهته عن تناوله.

عن الصادق عليه السلام - في تفسير صديد - قال: «يُسقى ممّا يسيل من الدم والقيح من فروج الزواني [في النار]»^٤.

وعن النبي ﷺ قال: «يقرب إليه [فيكرهه، فإذا أدنى منه شوى جهه ووقعت فزوة رأسه، فإذا شرب قطع أمعاء حتى يخرج من ذبّره]»^٥ الخبر.

﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ ويشربه قليلاً قليلاً بتكلف ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيقُهُ﴾ ولا يمكنه أن يتلعه بسهولة، بل يعضّ به فيشربه شيئاً فشيئاً بعسرة شديدة، فيطول بشربه عذابه بالحرارة تارةً وبالعطش أخرى، فمعنى ﴿وَلَا يَكَادُ﴾ ليس عدم الامكان، بل معناه الإبطاء.

ثم بالغ سبحانه في بيان غاية شدة عذابه بقوله: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ﴾ وتحيط به أسبابه ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ وجهة. وقيل: يعني من كلّ جزء من أجزاء جسده^٦، حتى أصول شعره وإبهام رجله ﴿وَمَا هُوَ

٢. تفسير القمي ١: ٣٦٨، تفسير الصافي ٣: ٨٢.

٤. مجمع البيان ٦: ٤٧٤، تفسير الصافي ٣: ٨٢.

٦. تفسير الرازي ١٩: ١٠٤.

١. التوحيد: ٩/٢٠، تفسير الصافي ٣: ٨٢.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٤٠٦.

٥. مجمع البيان ٦: ٤٧٤، تفسير الصافي ٣: ٨٢.

بِمَيِّتٍ» في الحقيقة «وَمِنْ وَرَائِهِ» وعقبه «عَذَابٌ غَلِيظٌ» وشديد غايته.
 قيل: إن في كل وقت يرد عليه عذاب أشد مما قبله. وقيل: العذاب الغليظ: قطع الأنفاس وجبها في الأجساد^١. وقيل: إنه الخلود^٢.

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ [١٨]

ثم بين سبحانه غاية خسرانهم بسبب ضياع أعمالهم الخيرية وعدم انتفاعهم بها بقوله: و«مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» وحالهم الغريبة التي هي كالمثل في الغربة «أَعْمَالُهُمْ» وقيل: إن المراد مثلهم فيما يتلى عليكم.

ثم كأنه قيل: كيف يكون مثلهم؟ أو ما بال أعمالهم التي عملوها في وجوه البر من صلة الأرحام، واعتاق الرقاب، وإغاثة الملهوفين وأمثالها؟ فأجيب بأن تلك الأعمال «كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ»^٣ ومرت «بِهِ الرِّيحُ» الشديدة بقوة وسرعة «فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ» وزمان شديد الريح، فحملته وزهبت به، فكما لا يوجد من الرماد في [ذلك] الوقت شيء، ولا يرى له أثر، فكذلك الكفار «لَا يَقْدِرُونَ» يوم القيامة «مِمَّا كَسَبُوا» وعلموا من الخيرات «عَلَى» تحصيل «شَيْءٍ» يسير منه، ولا يرون له أثراً من ثواب أو تخفيف عذاب، لكونه مع الكفر.

وقيل: إن المراد بأعمالهم عبادتهم الأصنام، وماتكفؤهم لهم دهرًا طويلاً باعتقاد الانتفاع به^٤.
 وقيل: إن المراد كلا القسمين^٥.

«ذَلِكَ» الكفر الموجب لهذا الخسران «هُوَ» بالخصوص «الضَّلَالُ الْبَعِيدُ» والانحراف غير المتناهي عن طريق الصواب والخسران العظيم الذي لا يتصور له حد.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَئُوسَ إِذْ هَبَّ نَفْسُهُ يَخْشَى اللَّهَ يَأْتَخِطُ
 جَدِيد * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [١٩ و ٢٠]

ثم لما بين سبحانه شدة عذاب الآخرة، وكان المشركون منكربين للمعاد، استدلل سبحانه عليه بقوله: «أَلَمْ تَرَ» يا محمد، أو يا عاقل ببصيرة قلبك وحكم عقلك «أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ» بقدرته «السَّمَاوَاتِ

٢. تفسير أبي السعود ٥: ٤٠.

١. ١٠٤: ١٩ الرازي.

٤. تفسير الرازي ١٩: ١٠٥.

٣. تفسير الرازي ١٩: ١٠٥، تفسير روح البيان ٤: ٤٠٨.

٥. تفسير الرازي ١٩: ١٠٥.

وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَالْحِكْمَةَ الْبَالِغَةَ والغرض الصحيح من معرفته بالوحدانية والحكمة، لتناولوا بها الدرجات والمقامات العالية والتَّعَمُّ الدائمة في الآخرة، ومن المعلوم أنَّ الذي له هذه القدرة «إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَعْدَمْكُمْ» وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَيَخْلُقْ قَوْمًا آخَرِينَ بدلاً منكم.

عن ابن عباس: هذا الخطاب مع كفار مكة، يريد أميتكم يا معشر الكفار وأخْلَقْ قَوْمًا خَيْرًا مِنْكُمْ وأطوع^١.

﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ الإذهاب والإتيان ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ الخالق للعالم ﴿بِعَزِيزٍ﴾ وصعب أو ممتنع، فإنَّ من كان قادراً على إيجاد العالم وإفناؤه، قادرٌ على إعدام الأشخاص المعينين وإيجاد أمثالهم، بل أقدر.

وَيَرْزُوا اللَّهَ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّْا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْزَرْنَا أَمْ سَبَّزْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ [٢١]

ثمَّ أنَّه تعالى بعد بيان كمال قدرته وحكمته الداليتين على المعاد، بيَّن سوء حال المشركين فيه، وافتضاح رؤسائهم، وحسرة أتباعهم على متابعتهم بقوله: ﴿وَيَرْزُوا﴾ من القبور بعد إحيائهم فيها، وظهروا ﴿لِلَّهِ﴾ وأمره وخرجوا منها للمحاسبة [مع] قادتهم وأتباعهم ﴿جَمِيعًا﴾ لا يشذَّ منهم أحدٌ، وإنَّما عبَّر بصيغة الماضي للإشعار بتحقُّق الوقوع، أو بتساوي الماضي والمستقبل إليه تعالى ﴿فَقَالَ﴾ السُّفلة ﴿الضُّعَفَاءُ﴾ العقول والآراء ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ في الأرض وترأسوا عليهم، واستتبعوهم في الكفر: أيها الرؤساء ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ في عبادة الأصنام وتكذيب الرسل وإيذانهم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ اليوم ﴿مُغْنُونَ﴾ وكافون ودافعون ﴿عَنَّْا﴾ بحقَّ تبعيتنا لكم ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قليل؟ فلما سمع الرؤساء التوبيخ من أتباعهم اعتذاراً عن إغوائهم ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ في الدنيا بتوفيقه إلى دينه الحقِّ والله^٢ ﴿لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ إليه، ولكن أضلنا بخذلانه عن سبيله، فلذا أضلناكم واخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا.

وقيل: إنَّ المراد لو هَدَانَا الله إلى طريقٍ من طرق النجاة لهديناكم إليه، وأغنيا عنكم [العذاب] كما عرَضناكم له، ولكن سدَّ علينا جميع طرق النجاة^٣. إذن ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ وعليكم في عدم النجاة ﴿أَجْزَرْنَا﴾ من العذاب ﴿أَمْ سَبَّزْنَا﴾ عليه، على أي تقدير ﴿مَا لَنَا﴾ من العذاب ﴿مِنْ مَحِيصٍ﴾

٢. كذا، ولا موضع للقسم في الآية.

١. تفسير الرازي ١٩: ١٠٦.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٤١١.

وَمَخْلَصٌ أَوْ مَهْرَبٌ.

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [٢٢]

ثم لما حكي سبحانه اعتذار رؤساء الكفر من أتباعهم، حكى اعتذار الشيطان الذي كان إغواء الجميع بوسوسته وتسويلاته بقوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ لأهل النار ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وتمت المحاسبة، واستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

قيل: عند ذلك يأخذ أهل النار في لوم إبليس، فيقوم خطيباً بينهم، ويقول: يا أهل النار ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾^١ في الدنيا في كتابه وعلى لسان رسوله على الإيمان والطاعة ﴿وَعَدَ الْحَقُّ﴾ بالثواب. قيل: إن إضافة الوعد إلى الحق إضافة الشيء إلى نفسه.^٢

وقيل: إن المعنى وعد اليوم الحق، أو الأمر الحق من البعث والجزاء على الأعمال فصدقكم^٣. كما تشهدون ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ على الكفر والمعاصي النعم الدنيوية.

وقيل: يعني وعدتكم أن لاجنة ولا نار ولا حشر ولا حساب^٤ ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ موعدي، وظهر لكم كذبي ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ﴾ شيء ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وقدرة وقهر حتى ألجئكم إلى الكفر والمعصيان، ولم يكن مني في حقكم عمل ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ إلى طاعتي بتزيين القبايح في نظركم، وترغيبكم بالتسويل إليها ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ ووافقتموني طوعاً واختياراً ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ فيما دعوتكم إليه بالكذب والباطل: لأنني كنت لكم عدواً، فعلت بمقتضى عداوتي ﴿وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ حيث اخترتم طاعتي لحبكم لها واشتهانكم إياها، مع علمكم بأنني عدو لكم لا أريد خيركم، فصدقتموني فيما كذبتكم، لكون أمري ملائماً لهواكم، وكذبتم الله فيما صدقكم لكون قوله مخالفاً لطباعكم، فأنتم أحق باللوم مني، فالיום ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ ومغيثكم مما أنتم فيه ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾ ومغيثي مما أنا فيه.

ثم قطع طمع أوليائه في إغاثته لهم بقوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ﴾ بالله في الطاعة، وجعلتموني عدلاً له في العبادة ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في دار الدنيا.

قيل: إن المراد أن إشراككم لي بالله هو الذي أطمعكم في نصرتي لكم، لأنكم تخيلتم أن لكم علي حق حيث جعلتموني معبوداً، وكنت أحب ذلك وأرغب فيه، فاليوم تبرأت منه ومنكم، فليس بيني وبينكم علاقة^١.

أو المراد أنني كفرت بالله الذي جعلتموني شريكاً له في العبادة من قبل، وحين خلق آدم، وأبیت عن السجود له، أو من قبل كفركم، فلا يمكنني أن أصرخكم لأن الكافر بمعزل عن الإغاثة والاعانة بالشفاعة^٢.

ثم بالغ في قطع أطماعهم عن إغاثة بقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.
وقيل: إنه قول الله تعالى بعد حكاية كلام إبليس^٣.

وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا يَأْذَنُ رَبُّهُمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ [٢٣]

ثم أنه تعالى بعد شرح سوء حال الأشقياء في الآخرة شرح حسن حال السعداء والأنقياء فيها بقوله: ﴿وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ووَخْدَانِيته وَرُسُلُهُ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كان المدخل هو الله أو الملائكة ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ذات أشجار وقصور ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً ﴿يَأْذَنُ رَبُّهُمْ﴾ ومليكم اللطيف بهم مكرمين ومعظمين بحيث يحيون من قبل ربهم، أو من قبل الملائكة، وتكون ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ كما قال الله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾^٤ وقال في السور السابقة: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾^٥ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ^٦.

وفي هذه التحية بشارة بالسلامة الأبدية من جميع آفات الدنيا وخسراتها، وفنون آلامها وأسقامها، وأنواع همومها وغموها، ومن عذاب الآخرة ومكاريها، وفي ذكر عاقبة الفريقين إيقاظ للمؤمنين حتى يتدبروا في عواقبهم، ويحاسبوا أنفسهم.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذَنُ رَبُّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

٢. تفسير أبي السعود ٥: ٤٣.

١. تفسير روح البيان ٤: ٤١٣.

٤. بس: ٥٨/٣٦.

٣. تفسير الرازي ١٩: ١١٥، تفسير روح البيان ٤: ٤١٣.

٥. الرعد: ٢٣/١٣ و ٢٤.

يَتَذَكَّرُونَ [٢٤ و ٢٥]

ثم لما كانت السعادة الأبدية بالإيمان بالله وتوحيده والاقرباء به، أوضح سبحانه بقاء كلمة التوحيد وكثرة فوائدها بضرب المثل بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد، ببصيرة قلبك ونور نبوتك وقوة نظرك ﴿كَيفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ بديعاً معجباً تام المطابقة للممثل له، فتعجب منه، وهو الكلمة الطيبة. قيل: إنها كلمة (لا إله إلا الله) كما عن ابن عباس^١. أو هي وسائر الأذكار كالسبح والتحميد، والتكبير والاستغفار، والقرآن والدعاء وغيرها من الكلمات الحسنة الصادرة عن المؤمن عن المعرفة وخلوص النية، كما عن آخر^٢.

وذلك المثل أنه تعالى جعل ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ صادرة من المؤمن في الطيب واللذة والحسن، والثبات في النفس، والرؤسوخ في القلب، والبقاء في العوالم الإلهية من عالم الأجسام والأرواح والمثل، والمَلَكَوت والجَبَرُوت، وفي ارتفاعها إلى العرش وفضاء عالم القرب، وفي حُسن الثمر وطيبه وكثرته ودوامه، وكثرة الانتفاع به، وهو محبة الله والتوحيد والتفويض إليه، والتوكل عليه والتسليم لأمره، والرضا بقضائه، والصبر على طاعته وبلائه، والاعراض عن غيره، والشوق إلى لقائه، وفي كون جميع هذه الثمار بتوفيقه وتأيدته ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ حسنة الصورة والمنظر والريح، والنفع والثمر وأصلها ثابتة في الأرض، وعروقها راسخة فيها بحيث لا يحتمل انقلاعها وانقطاعها ﴿وَفَوْزُهَا﴾ وغُصْنُهَا متصاعد ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ المطل^٣ أو جهة العلو ﴿تُؤْتِي أَكْثَرَهَا ثَمَرًا﴾ وتُعطي ثمرها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ من الأحيان، وكل وقت من الأوقات ﴿يَاذُنْ رَبِّهَا﴾ وإرادة خالقها وتدبير مدبرها.

عن النبي ﷺ: «أَنَّ هَذِهِ الشَّجَرَةَ الطَّيِّبَةُ النَّخْلَةُ»^٤ وهو مروى عن ابن عباس. وعنه: أَنَّ الْجَنِينَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ. وقيل: إِنَّهُ شَهْرَانِ. وقيل: سِتَّةٌ^٥؛ لَأَنَّهُ إِذَا تَرَكَ عَلَيْهَا الثَّمَرُ انْتَفَعَ بِهِ فِي جَمِيعِ أَوقَاتِ السَّنَةِ^٦. وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِالشَّجَرَةِ شَجَرَةٌ تَكُونُ لَهَا هَذِهِ الْأَوْصَافُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ تَحْصِيلُهَا وَالسَّعْيُ فِي حِفْظِهَا وَأَذْخَارِهَا لِنَفْسِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَجُودٌ فِي الْعَالَمِ وَكَانَ فَرْضِيًّا^٧.

ثم تَبَّه سبحانه على حكمة ضرب المثل بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ﴾ بتصور المحسوسات ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويفهمون المعقولات ويتصورون المعاني العالية عن الأنفهام بتطبيقها على المشهودات.

٢. تفسير أبي السعود ٥: ٤٣، تفسير روح البيان ٤: ٤١٤.

٤. مجمع البيان ٦: ٤٨٠، تفسير الصافي ٣: ٨٥.

٦ و ٧. تفسير الرازي ١٩: ١٢٠.

١. تفسير الرازي ١٩: ١٢٠.

٣. لفظ السماء مؤنث وقد يذكر.

٥. مجمع البيان ٦: ٤٨٠، تفسير الرازي ١٩: ١٢٠.

عن الصادق عليه السلام: أنه شتل عن الشجرة في هذه الآية، فقال: «رسول الله ﷺ أصلها، وأمير المؤمنين فرعها، والأئمة من ذريتهما أغصانها، وعلم الأئمة ثمرتها، وشيعتهم المؤمنون ورعها، والله إن المؤمن ليولد فتورق ورقة فيها، وإن المؤمن لميموت فتسقط ورقة منها»^١.

وفي رواية (الكمال): «والحسن والحسين ثمرها، والتسعة من ولد الحسين أغصانها»^٢. وفي رواية (المعاني): «وعُصْنُ الشجرة فاطمة، وثمرها أولادها، وورقها شيعتها»^٣. وزاد في (الكمال): «تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ» ما يخرج من علم الامام اليكم في كل سنة من كل فج عميق^٤. أقول: هذه الروايات في بيان تأويل الآية، فلا منافاة بينها.

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ [٢٦]

ثم أنه تعالى بعد ضرب المثل للقول الحق وكلمة التوحيد ضرب مثلاً للقول الباطل وكلمة الشرك والكفر بقوله: «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ» قبيحة باطلة تصدر من الشقي، وهي كلمة الشرك والكفر في قباحة الصورة، وسوء المنظر، وتنن الرائحة، وكثرة الضرر، وسرعة الزوال «كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ» قبيحة الصورة والمنظر، كريهة الرائحة، ضارة الثمرة كالحنظل، غير ضاربة بعروقها في الأرض بحيث «اجْتُثَّتْ» وانقلعت «مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ» لعدم رُسوخ عروقها فيها، فلذا «مَا لَهَا» شيء «مِنْ قَرَارٍ» وثبات فيها بحيث تُقْلَع وتزول من محلها بأخف تحريك.

قيل: إن الله شبه الايمان بالشجر؛ لأن الشجر لا بد له من أصل ثابت وفَرْع قائم ورأس عالٍ، فكذا الايمان لا بد له من تصديق في القلب، وإقرار^٥ باللسان، وعمل بالركان^٦. وشبه الكفر وعبادة الأصنام التي لا حجة عليها ولا يُنْتَفَع بها بشجرة الحنظل التي لا أصل لها حتى يكون لها قرار ولا نفع معتد به لها.

عن الباقر عليه السلام: «كذلك الكافرون لا تصعد أعمالهم إلى السماء»^٧ الخبر.

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ [٢٧]

١. الكافي ١: ٣٥٥/٨٠، تفسير الصافي ٣: ٨٥.
٢. إكمال الدين: ٣٠/٣٤٥، تفسير الصافي ٣: ٨٥.
٣. معاني الأخبار: ٦١/٤٠٠، وفيه: وورقها شيعتنا، تفسير الصافي ٣: ٨٥.
٤. إكمال الدين: ٣٠/٣٤٥، وفيه: من حج وعمرة، تفسير الصافي ٣: ٨٥.
٥. في تفسير روح البيان: قول.
٦. تفسير روح البيان ٤: ٤١٥، وفيه: وعمل بالابدان.
٧. تفسير القمي ١: ٣٦٩، تفسير الصافي ٣: ٨٦.

ثم لما ذكر الله سبحانه ثبات كلمة التوحيد في القلوب، بين ثباتها في الدارين بقوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بلفظه وتوفيقه ﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ وهو كلمة التوحيد الراسخة في نفوسهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فلا يزولون عنها ولو قُطِعُوا إرباً إرباً ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فلا يتلثمون إذا سئلوا عنها في القبر وفي الموقف.

عن ابن عباس: من داوم على الشهادة في [الحياة] الدنيا يثبته الله عليها في قبره ويلقنه إياها^١. وعن النبي ﷺ، أنه ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثم تُعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره فيقولان [له]: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله، وديني الاسلام، ونبيي محمد ﷺ، فينادي مناد من السماء أنه صدق عبدي. فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ﴾^٢ الآية. وعن الصادق عليه السلام: «أن الشيطان ليأتي الرجل من أوليانا عند موته عن يمينه وعن شماله ليُضله^٣ عما هو عليه، فيأبى الله عز وجل له ذلك، وذلك قول الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾»^٤. وقيل: إن المراد بثبت الله الذين [آمَنُوا] على الثواب والكرامة بسبب القول الثابت الذي يصدر عنهم في الدنيا والآخرة^٥. وعلى أي تقدير هو بيان لقوله: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾.

ثم لما بين سبحانه معاملته مع أصحاب الكلمة الطيبة، بين معاملته مع أصحاب الكلمة الخبيثة بقوله: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم باختيار الكفر عن كرامته، ويمنعهم عن الفوز بالثواب. عن الصادق عليه السلام: «يعني يُضِلُّهم [يوم القيامة] عن دار كرامته»^٦ وعن الحق الذي ثبت المؤمنين عليه، فلا يثبِتوا في الدنيا في مواقف الفتن، وإذا سئلوا عن دينهم في قبورهم قالوا: لا ندرى، وتذهشهم أهوال القيامة فلا يقدرون على الجواب في الموقف ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من تثبيت بعض وإضلال آخرين حسبما تقتضيه مشيئته التي هي عين حكمته البالغة ولا اعتراض عليه. عن الصادق عليه السلام في سؤال القبر: «وإن كان كافراً - إلى أن قال -: ويسلط الله عليه في قبره الحيات تنهشه نهشاً، والشيطان يغمه غماً - إلى أن قال -: وهو قول الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾»^٧.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ

٢. تفسير البضاوي ١: ٥١٨.

١. تفسير الرازي ١٩: ١٢٢.

٤. تفسير العياشي ٢: ٢٢٧٣/٤٠٧، تفسير الصافي ٣: ٨٦.

٣. في تفسير العياشي: يساره ليصده.

٦. التوحيد: ١/٢٤١، تفسير الصافي ٣: ٨٦.

٥. تفسير الرازي ١٩: ١٢٢.

٧. الكافي ٣: ٢٣٩ و ١٢/٢٤٠، تفسير الصافي ٣: ٨٦.

يَصْلَوْنَهَا وَيُشْسَ الْقَرَارُ [٢٨ و ٢٩]

ثم أنه تعالى بعد بيان فوائد كلمة التوحيد وضرر كلمة الشرك بضرب المثل، أظهر التعجب من الذين هيا لهم أسباب الهداية إلى التوحيد ودين الحق ومع ذلك اختاروا الكفر والشرك بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد، ولم تنظر ﴿إِلَى﴾ المشركين ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ التي أنعمها عليهم والهداية التي رزقهم، بعث محمد ﷺ فيهم بالرسالة، وإنزال القرآن عليهم، فأبوا عن قبولها، واختاروا مكانها ﴿كُفْرًا﴾ بالله ووَخْدَانِيته.

وقيل: يعني بدلوا شكر نعمة الله كفراً بأن وضعوه مكانه، أو بدلوا نفس النعمة كُفْراً، فإنهم لما كفروها شليت منهم، فصاروا فاقدين لها، وواجدين للكفر بدلها^١.

قيل: نزلت في أهل مكة حيث أسكنهم الله حرمه، وجعلهم قوام بيته، ووسع عليهم أبواب رزقه، وشرفهم بمحمد ﷺ فكفروا ذلك وقَحَطُوا سبع سنين، وقَتَلُوا وأَسْرُوا يوم بدر، فصاروا أذلاء مسلوبى النعمة^٢.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «هم الأفجران: بنو المغيرة، وبنو أمية، أما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمَتَّعُوا إلى حين»^٣.

وفي (المجمع): سأل رجل أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه الآية فقال: «هما الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو أمية فمَتَّعُوا إلى حين، وأما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر»^٤. وعن الصادق عليه السلام: «نزلت في الأفجرين من قريش: بنو المغيرة، وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فقطع الله دابرهم [يوم بدر]، وأما بنو أمية فمَتَّعُوا إلى حين»^٥.

﴿وَأَحْلَوْا﴾ وأنزلوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ باضلالهم عن الحق ﴿ذَارَ الْبَوَارِ﴾ والهلاك، وهي ﴿جَهَنَّمَ﴾ وهم ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويدخلون فيها مقاسين لحرمها ﴿وَيُشْسَ الْقَرَارُ﴾ والمستقر جهنم.

عن الباقر عليه السلام، أنه سئل عن هذه الآية، فقال: «ما يقولون في ذلك؟» قيل: يقولون: هما الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة. فقال: «هي والله قريش قاطبة، إن الله تعالى خاطب به نبيه ﷺ فقال: إِنِّي فَضَّلْتُ قَرِيشًا عَلَى الْعَرَبِ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْهِمْ نِعْمَتِي، وَبَعَثْتُ إِلَيْهِمْ رَسُولِي، فَبَدَّلُوا نِعْمَتِي كُفْرًا، وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ»^٦.

١. تفسير روح البيان ٤: ٤١٨.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٤١٨.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٤١٨.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٤١٨.

٥. تفسير النقي ١: ٣٧١، تفسير الصافي ٣: ٨٧.

٦. الكافي ٨: ١٠٣/٧٧، تفسير الصافي ٣: ٨٧.

وعن الصادق عليه السلام: «عنى بها قريشاً قاطبة الذين عادوا رسول الله ﷺ ونصبوا له الحرب»، وجحدوا الوصية^١.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنهم كفار قريش، كذبوا نبينهم، ونصبوا له الحرب والعداوة»^٢. ويمكن الجمع بين الروايات بأن النزول وإن كان في قريش قاطبة، ولكن لما كان الأفجران أكفرهم للنعمة صح أن يقال نزلت فيهما.

وعن الصادق عليه السلام - في رواية - «ونحن نعمة الله التي أنعم بها على عباده، وبنا يفوز من فاز»^٣. وعن (الكافي) و(القمي) عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما بال أقوام غيروا شئ رسول الله ﷺ وعدلوا عن وصيه، ألا يتخوفون أن ينزل بهم العذاب» ثم تلا هذه الآية، ثم قال: «نحن النعمة التي أنعم الله بها على عباده، وبنا يفوز من فاز يوم القيامة»^٤.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ [٣٠]

ثم فسر الله كفرانهم بقوله: ﴿وَجَعَلُوا﴾ من الأصنام ﴿فَإِن مَصِيرَكُمْ﴾ وشركاء في العبادة والشعم التي أنعم بها عليهم بأن صرفوها فيها، وقالوا: هذا الله، وهذا الشركائنا ﴿لِيُضِلُّوا﴾ ويحرفوا عباد الله ﴿عَنْ﴾ سلوك ﴿سَبِيلِهِ﴾ وقبول دينه الحق.

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بتهديدهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين المضلين: أنتم لا تتأهلون للوعظ والنصح والهداية، فأنتم مخلون وأنفسكم، إذن ﴿تَمَتَّعُوا﴾ وانتفعوا بالنعم الدنيوية قليلاً، وكُلُوا منها كما تأكل الأنعام، لاحظ لكم في نعم الآخرة ﴿فَإِن مَصِيرَكُمْ﴾ بعد خروجكم من الدنيا ﴿إِلَى النَّارِ﴾ التي سحَرها القهار بغضبه.

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً مِنْ

قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ [٣١]

ثم لما أمر سبحانه الكفار بالتمتع بالنعم الدنيوية تهديداً، أمر نبيه ﷺ بأن يأمر المؤمنين بالإعراض عن الدنيا والاقبال إلى العبادات لطفاً بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِعِبَادِيَ الَّذِينَ﴾ عرفوني ﴿وَيُؤْمِنُوا﴾ بوحدانيتي ودار جزائي، ليعرضوا عن التمتع بالمشتهيات النفسانية واللذائذ الدنيوية، ويُقبلوا إلى

١. مجمع البيان ٦: ٤٨٣، تفسير الصافي ٣: ٨٧.

٢. الكافي ١: ١٦٩، تفسير الصافي ٣: ٨٧.

٣. الكافي ١: ١٦٩، تفسير الصافي ٣: ٨٧.

٤. تفسير القمي ١: ٣٧١، تفسير الصافي ٣: ٨٧.

العبادات البدنية والمالية بأن «يُقِيمُوا الصَّلَاةَ» التي هي عمود دينهم، ومعرّاجهم إلى مقام قرب ربهم «وَيُنْفِقُوا» بعضاً «مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً» وأنعمنا عليهم في سبيلنا وتحصيل مرضاتنا «مِنْ قَبْلِ أَنْ» تنقضي مُدد أعمارهم في الدنيا و«يَأْتِيَ يَوْمٌ» عظيم «لَا يَبِيعُ» ومعاوضة «فِيهِ» حتّى يبتاع المجرم نفسه بالمال ويفتدي به عنها من العذاب «وَلَا يَخْلُدُ» وصداقة حتّى يشفّعه خليله وصديقه، أو يبدّل عنه مالاً ليخلصه من العقوبة، فعلى العاقل أن يهيئ أسباب خلاصه من العذاب في الدنيا بالقيام بوظائف العبودية وبذل الأموال في سبيله.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَذَلُولٌ كَفَّارٌ [٣٢-٣٤]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان حال السعداء، وترغيبهم في القيام بوظائف العبودية، وبيان حال الأشقياء، وترهيبهم من الشرك، نبّه على كمال قدرته وحكمته ووفور نعمته، ازدياداً لترغيب الأولين وترهيب الآخرين بقوله: «اللَّهُ» هو «الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» بقدرته «وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» نافعاً بحكمته «فَأَخْرَجَ بِهِ» من الأرض كثيراً «مِنْ» أنواع «الثَّمَرَاتِ» ليكون «رِزْقاً» ومعاش «لَكُمْ» بجوده «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ» وسلّطكم على صنّعتها واستعمالها «لِتَجْرِيَ» وتسير الفلك المصنوعة «فِي الْبَحْرِ» إلى حيث توجّهتم بها «بِأَمْرِهِ» وإرادته «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ» بأن جعلها سهلة الانتفاع بها باتحاد الجداول منها تسقي زروعكم وبساتينكم.

وقيل: لما لم يتنفع بماء البحر في الزراعات، أنعم الله على الخلق بتفجير الأنهار والعيون^١.
وقيل: زروعكم وبساتينكم^٢.

وقيل: إنّ المراد بالأنهار العظيمة الخمسة: سيحون وجيحون والفرات ودجلة والنّيل، أنزلها الله من عينٍ واحدة من عيون الجنة، فاستودعها الجبال، وأجرأها، وسخّرها للناس، وجعل فيها منافع لهم في أصناف معاشهم، وسائر الأنهار تبع لها^٣.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٤٢١.

١. تفسير الرازي ١٩: ١٢٨.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٤٢٢.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ حال كونهما ﴿ذَائِبَيْنِ﴾ ودائمين في سيرهما بحيث لا ينقطع سيرهما إلى يوم القيامة، ولا يفتران لاصلاح ما يصلحان من الأرض والنبات والأبدان والمعادن وغيرها ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ لتسكنوا فيه ﴿وَالنَّهَارَ﴾ لتبتغوا من فضله ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ بِجُودَةٍ بَعْضًا﴾ مَا سَأَلْتُمُوهُ مَا تَحْتَاجُونَ إليه مما لم يكن منافياً لحكمته، أو كل ما سألتموه بلسان الحال أو المقال على أن كلمة (من) تبيينية.

ثم نبه على أن نعمته ليست منحصرة بالمذكورات بقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ التي أنعمها عليكم جسمانية وروحانية ﴿لَا تُحْصَوْهَا﴾ ولا تقديرون على عدّها وحصرها لكثرتها وعدم إحاطة عقولكم بجميعها.

ثم ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ المستغرق في تلك النعم بالله ﴿لَظَلُومٌ﴾ وكثير العصيان لمنعمه مع أن حق نعمه الطاعة وصرف العمر في الشكر و﴿كَفَّارٌ﴾ لتلك النعم، ومبالغ في كفرانها بأن صرفها في ما يغضب المنعم ويجعل له أنداداً.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ [٣٥]

ثم لما كانت قريش مفتخرين بانتسابهم إلى إبراهيم، حكى سبحانه شدة إنكاره عبادة الأصنام بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ حباً لأولاده الساكنين في مكة من بني إسماعيل ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ الذي يسكنه^١ ذريتي ﴿آمِنًا﴾ ومحفوظاً من ورود المكّاره العمومية^٢ على أهله، وقد مرّ في سورة البقرة تفصيل المراد من جعله آمناً^٣ و﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ من ﴿أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ بأن تثبتنا على ما نكون عليه من التوحيد ودين الاسلام.

قيل: إنه ﷺ لما رأى القوم يعبدون الأصنام، فخاف على بنيّه، فدعا لهم^٤، وأنما أدخل نفسه الشريفة في الدعاء إما لإظهار هضمها، وإما لإظهار أن عصمته من العقائد الفاسدة والزلات بعناية الله وتطفه لا بنفسه، وقد استجاب الله دعاءه، فجعل البلد آمناً بالمعاني التي سبق ذكرها، وجنب كثيراً من ذراريه من عبادة الصنم، وكانت كلمة التوحيد باقية في عقبه.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أقد حَظَرَ على من مَسَّ الكفر تقلّد ما فَوَضَّه إلى أنبيائه وأوليائه بقوله

١. في النسخة: يسكنها. ٢. في النسخة: العمومي.

٣. تقدم في سورة البقرة: ١٢٦/٢.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٤٢٤.

لإبراهيم عليه السلام: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^١ أي المشركين، لأنه سَمِيَ الشرك ظلماً بقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^٢ فلما عَلِمَ إبراهيم عليه السلام أن عهد الله تبارك وتعالى اسمه بالإمامة لا ينال عبدة الأصنام قال: ﴿وَأَجْتَنِي وَيَتَى أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾^٣.

وفي رواية (الأمالى): عن النبي صلى الله عليه وآله: «فانتهت الدعوة إلي وإلى أخي علي لم يسجد أحد منا لصنم قط، فاتخذني نبياً وعلياً وصياً»^٤.

وعن الصادق عليه السلام، أنه أتاه رجل فسأله عن شيء فلم يجبه، فقال له الرجل: فان كنت ابن أبيك فأنك من أبناء عبدة الأصنام. فقال له: «كَذَبْتَ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يُنْزِلَ إِسْمَاعِيلَ بِمَكَّةَ ففعل، فقال إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَتَوَاصِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ فلم يعبد أحد من ولد إسماعيل صنماً، ولكن العرب عبدة الأصنام، وقالت بنو إسماعيل: هؤلاء شُفَعَانَا عند الله فكفرت ولم تعبد الأصنام»^٥.

وقيل: إن دعاءه كان لأولاده من صلبه، وهم إسماعيل وإسحاق^٦.

وقيل: لأولاده الذين كانوا في عصره^٧.

رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ [٣٦]

ثم بين عليه السلام أن علة سؤال عصمة أولاده من عبادة الأصنام، شيوع الشرك بين الناس بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ وصِرْنَ أسباباً لبعد غالب الخلق عن الحق، ثم أظهر غاية حبه للموحدين المطيعين لله ترغيباً للناس إلى التوحيد وطاعة الله، وإظهاراً لتبعية حبه لحب الله بقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ من الناس كان من أولادي أو غيرهم في ديني من عقائدي وأعمالي ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وبمنزلة عضو من أعضائي لقرط اختصاصه بي وحبي إياه.

ثم أظهر عطوفته بعامة الناس بشفاعته في أهل الكبائر منهم بقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ وخالف أحكامك التي بلغتها إليه، فاغفر له ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بالمؤمنين العصاة فلا تحرمه من غفرانك ورحمتك.

عن الصادق عليه السلام: «من اتقى الله منكم وأصلح فانه من أهل البيت» [قيل: منكم أهل البيت؟ قال: «منا

١. البقرة: ١٢٤/٢. ٢. لقمان: ١٣/٣١. ٣. الاحتجاج: ٢٥١، تفسير الصافي ٣: ٨٩.
٤. أمالي الطوسي: ٨١١/٣٧٩، تفسير الصافي ٣: ٨٩. ٥. تفسير العياشي ٢: ٢٢٨٧/٤١٤، تفسير الصافي ٣: ٨٩.
٦. تفسير الرازي ١٩: ١٣٢. ٧. تفسير الرازي ١٩: ١٣٣.

أهل البيت [قال فيها] إبراهيم: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾^١.

وعن الباقر عليه السلام: «من أحبنا فهو منا أهل البيت» قيل: منكم؟ قال: «منا والله، أما سمعت قول إبراهيم: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾»^٢.

وعن الصادق عليه السلام: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال: «تقدير أن تغفر له وترحمه»^٣.
قيل: إن المراد من عصاني بإقامته على الكفر فإنك غفور رحيم، يعني أنك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله عن الكفر إلى الإيمان^٤.

وقيل: إن المراد من هذه المغفرة عدم التعجيل في عقوبته وإمهاله حتى يتوب، أو عدم التعجيل في موته فتفوته التوبة^٥.

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرَّتَيْ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا
لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الشَّمَرَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ [٣٧]

ثم أنه عليه السلام بعد طلب الأمن والایمان اللذين هما أجل النعم الدنيوية والأخروية وأعلاها لأولاده، سأل وجاهتهم ومحبوبيتهم عند الناس والسعة في رزقهم بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ﴾ بعضاً ﴿مِنْ دُرَّتَيْ﴾ وأولادي وهم إسماعيل ونسله ﴿بِوَادٍ﴾ وصحراء ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ وهو وادي مكة، فإنها حجرية لا يثبت فيها شيء من الزرع ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ والكعبة العظيمة التي لا يحل انتهاكها، وإنما كان إسكاني لهم فيه ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ عند البيت، ويشغلوا بعبادتك حوله، لا لغرض دنيوي، فاذا كان غرضي ذلك ﴿فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً﴾ كثيرة ﴿مِنَ النَّاسِ تَهْوِي﴾ وتشتاق ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وتسرع إلى لقائهم محبة لهم.

عن الباقر عليه السلام: «نحن هم، ونحن بقية تلك الذرية»^٦.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «والأفئدة من الناس تهوي إلينا، وذلك دعوة إبراهيم حيث قال: ﴿فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾»^٧.

١. تفسير العياشي ٢: ٢٢٨٩/٤١٤، تفسير الصافي ٣: ٩٠.

٢. تفسير العياشي ٢: ٢٢٨٨/٤١٤، تفسير الصافي ٣: ٩٠.

٣. تفسير الرازي ١٩: ١٣٤.

٤. وفيه إلى الإسلام.

٥. تفسير الرازي ١٩: ١٣٤، تفسير الصافي ٣: ٩٠.

٦. الاحتجاج ١٦٠، تفسير الصافي ٣: ٩١.

٣. تفسير الصافي ٣: ٩٠.

وعن الباقر عليه السلام في رواية: «فنحن دعوة إبراهيم عليه السلام»^١.

وعنه عليه السلام - في رواية أخرى - «وكانت دعوة إبراهيم لنا خاصة»^٢.

وعنه عليه السلام، أنه نظر إلى الناس يطوفون حول الكعبة فقال: «هكذا كانوا يطوفون في الجاهلية، إنما أمروا أن يطوفوا بها ثم ينفروا إلينا فيعلمونا ولايتهم ومودتهم، ويعرضوا علينا نصرتهم» ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾^٣.

﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنْهُ﴾ أنواع «الشَّعْرَاتِ» والفواكه والأطعمة، بأن يجيء إليهم من البلاد البعيدة أو القرى القريبة ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ نعمك.

قيل: إنه يجتمع في مكة بدعائه عليه السلام الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية والشتوية في يوم واحد^٤. وعن ابن عباس: أن الطائف التي على ثلاث مراحل من مكة، كانت من أرض فلسطين، فلما دعا إبراهيم بهذه الدعوة رفعها الله ووضعها قريباً من الحرم^٥.

وعن الباقر عليه السلام: «أن الثمرات تُحمَل إليهم من الآفاق، وقد استجاب الله له حتى لا يوجد في بلاد المشرق والمغرب ثمرة لا^٦ توجد فيها»^٧.

وعن الصادق عليه السلام: «يعني من ثمرات القلوب»^٨ أي حبّهم إلى الناس ليأتوا إليهم ويعودوا. روي من طريق عامي: أن هاجر كانت أمة لسارة، فوهبتها لإبراهيم عليه السلام، فولدت [له] إسماعيل، فقالت سارة: كنت أرجو أن يهب الله [لي] ولداً من خليله فتمنّيته^٩ ورزقه خادمتي. وقالت لإبراهيم بعدهما عني. فنقلهما إلى مكة وإسماعيل رضيع، ثم رجع، فقالت هاجر: إلى من تكلنا؟ فقال: إلى الله، ثم دعا الله تعالى بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ الآية. ثم أنها عطشت وعطش الصبي، فانتهد بالصبي إلى موضع زمزم، فضرب بقدمه، ففارت عيناً، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «رحم الله أم إسماعيل، لولا أنها عجلت لكانت زمزم عيناً معيناً»^{١٠}.

وعن الصادق عليه السلام: «أن إبراهيم عليه السلام كان نازلاً في بلاد الشام، فلما ولد له من هاجر إسماعيل اغتمت سارة من ذلك غماً شديداً؛ لأنه لم يكن له منها ولد، وكانت تؤذي إبراهيم عليه السلام في هاجر،

١. الكافي ٨: ٣١٢/٤٨٥، تفسير الصافي ٣: ٩١.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢٢٩٩/٤١٨، الكافي ١: ٣٢٢/١، تفسير الصافي ٣: ٩٤.

٤. تفسير البيضاوي ١: ٥٢١، تفسير روح البيان ٤: ٤٢٧.

٥. تفسير روح البيان ٤: ٤٢٧، وفيه: ووضعها رزقاً للحرم.

٧. عوالي اللآلي ٢: ٢٥٨/٩٦، تفسير الصافي ٣: ٩١.

٩. في تفسير الرازي: فممنّيته.

١٠. في تفسير الرازي ١٩: ١٣٦.

١١. في تفسير القمي والصافي: بادية.

وَنَعْمه، فشكا إبراهيم ﷺ ذلك إلى الله عز وجل، فأوحى الله إليه: إِنَّمَا مِثْلُ الْمَرْأَةِ مِثْلُ الصُّلْعِ الْعُجَاءِ. إن تركتها استمتعت بها، وإن أقمتها كسرتها. ثم أمره أن يُبْعِدَ إِسْمَاعِيلَ وَأُمَّهَ عَنْهَا فقال: يا رب إلى أي مكان؟ قال: إلى حرمي وأمني وأول بقعة خلقتها من الأرض، وهي مكة.

فأنزل الله عليه جبرئيل بالبراق، فحمل هاجر وإسماعيل وإبراهيم، وكان إبراهيم ﷺ لا يَمُرُّ بموضع حسن فيه شجر ونخل وزرع إلا وقال: يا جبرئيل، إلى هاهنا؟ فيقول جبرئيل: لا امض، حتى وافى مكة، فوضعه في موضع البيت.

وقد كان إبراهيم عاهد سارة أن لا ينزل حتى يرجع إليها، فلما نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجر، فألقت هاجر على ذلك الشجر كساءً كان معها، فاستظلوا تحته، فلما سرّحهم إبراهيم ﷺ ووضعهم وأراد الانصراف عنهم إلى سارة، قالت هاجر: لم تدعنا في موضع ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع؟ فقال إبراهيم ﷺ: الله الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان حاضراً عليكم.

ثم انصرف عنهم، فلما بلغ كداء - وهو جبل بذي طوى - التفت إليهم إبراهيم، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِكَ﴾ الآية. ثم مضى وبقيت هاجر، فلما ارتفع النهار عطش إسماعيل وطلب الماء، فقامت هاجر في الوادي في موضع المسمى، فنادت: هل في الوادي من أنيس؟ فغاب إسماعيل عنها، فصعدت على الصفا ولمع لها السراب في الوادي، وظنت أنه ماء، فنزلت في بطن الوادي وسعت، فلما بلغت المسمى غاب عنها إسماعيل، ثم لَمَعَ [لها] السراب في ناحية الصفا، فهبطت إلى الوادي تطلب الماء، فلما غاب عنها إسماعيل عادت حتى بلغت الصفا، فنظرت حتى فعلت ذلك سبع مرات، فلما كانت في الشوط السابع وهي على المروة ونظرت إلى إسماعيل، وقد ظهر الماء من تحت رجله، قعدت حتى جمعت حوله رملًا، فإنه كان سائلاً فزمته بما جعلته حوله، فلذلك سُمِّيَ زمزم.

وكانت جُرْهُمُ^١ نازلةً بذي المجاز وعَرَفات، فلما ظهر الماء [بمكة] عكفت الطير والوحش على الماء، فنظرت جُرْهُمُ إلى تَعَكُّفِ الطير في ذلك المكان اتبعوها حتى نظروا إلى امرأة وصبي نازلين في ذلك الموضع، قد استظلا بشجرة، وقد ظهر الماء لهما، فقالوا لهاجر: من أنت وما شأنك وشأن هذا الصبي؟ قالت: أنا أم ولد إبراهيم خليل الرحمن، وهذا ابنه، أمره الله أن يُنْزِلَنَا ههنا، فقالوا لها: أتاؤنين أن نكون بالقرب منكما؟ [ف قالت: حتى يأتي إبراهيم] فلما زارهم إبراهيم ﷺ يوم الثالث قالت هاجر: يا خليل الرحمن، إن ههنا قومًا من جُرْهُمُ يسألونك أن تأذن لهم حتى يكونوا بالقرب

مَنَا، أَفَتَأْذَنُ لَهُمْ فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ: نَعَمْ، فَأَذْنْتُ هَاجِرَ لِحُرِّهِمْ، فَتَزَلُّوا بِالْقَرَبِ مِنْهُمْ، وَضَرَبُوا خِيَامَهُمْ، فَأَنْسَتْ هَاجِرَ وَإِسْمَاعِيلَ بِهِمْ، فَلَمَّا زَارَهُمْ إِبْرَاهِيمُ فِي الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ، نَظَرَ إِلَى كَثْرَةِ النَّاسِ [حَوْلَهُمْ]، فَشَرَّ بِذَلِكَ سُرُوراً شَدِيداً^١.

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُغْلِي وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ
وَلَا فِي السَّمَاءِ [٣٨]

ثُمَّ أَظْهَرَ ﷺ ذَلَّتَهُ وَعِلْمَهُ تَعَالَى بِحَاجَتِهِ تَقْرِيباً لِإِجَابَةِ دَعَائِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ فِي صُدُورِنَا مِنَ الْحَاجَةِ ﴿وَمَا تُغْلِي﴾ وَنُظْهِرَ بِالسُّتْنِ مِنْ مَطْلُوبِنَا لِإِظْهَارِ الْعِبَادِيَّةِ وَالْمَسْكِنَةِ وَالْإِفْتِقَارِ إِلَى رَحْمَتِكَ، وَاسْتِعْجَالِ بَنِيْلِ آيَادِكَ، لِأَنَّ تَعْلَمَ حَاجَاتِنَا.

قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مَا تُخْفِي فِي قُلُوبِنَا مِنَ الْحُزَنِ بِسَبَبِ الْفُرْقَةِ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِي إِسْمَاعِيلَ^٢، أَوْ مَا تُخْفِي مِنَ الْحُزَنِ عَلَى مَا جَرَى^٣ بَيْنِي وَبَيْنَ هَاجِرٍ حَيْثُ قَالَتْ: حِينَ الْوَدَاعِ: إِلَى مَنْ تَكَلَّمْنَا؟ وَمَا تُغْلِي مِنَ الْبُكَاءِ، أَوْ مِنْ جَوَابِهَا بِأَنِّي أَكَلِمَكُمْ إِلَى اللَّهِ^٤.

ثُمَّ أَنَّهُ ﷺ لَمَّا أَضَافَ عِلْمَهُ تَعَالَى بِالْأَمْرَيْنِ الْخَاصَيْنِ، دَفَعَ تَوْهَمَ الْإِخْتِصَاصِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ﴾ الْخَالِقِ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الْعَالَمِ بِحَقَاقَتِهَا وَدَقَاقَتِهَا ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ حَقِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ يَكُونُ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وَتَحْتُمُومِهَا ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ لِأَنَّ عِلْمَهُ عَيْنَ ذَاتِهِ، وَالْكَلَّ مَعْلُوقَ لِرَادَتِهِ. وَقِيلَ: إِنَّ الذِّيلَ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَصْدِيقاً لِإِبْرَاهِيمَ ﷺ^٥ لَا مِنْ تَمَتَّةِ كَلَامِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ
الِدُّعَاءِ [٣٩]

ثُمَّ أَنَّهُ ﷺ أَعْلَنَ بِالشُّكْرِ عَلَى نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ طَلَباً لِإِبْقَائِهَا وَازْدِيَادِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي﴾ بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ وَأَنَا ﴿عَلَى﴾ حَالِ ﴿الْكِبَرِ﴾ وَالْهَرَمِ الَّذِي يَقْتَضِي الْعَقْمَ وَالْجُرْمَانَ عَنِ الْوَلَدِ ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ بِدَعَائِي.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الشَّاءَ عَلَى اللَّهِ مِنْ كَمَالِ الدَّعَاءِ، أَثْنَى عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ وَاللَّهُ ﴿لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ﴾ وَمَجِيبُهُ، وَفِي نِسْبَةِ الْهَبَةِ بِحَالِ الْكِبَرِ إِظْهَاراً لِكُونِهَا مِنَ الْآيَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ.

١. تفسير القمي ١: ٦٠، تفسير الصافي ٩١: ٩١. ٢. تفسير الرازي ١٩: ١٣٧.

٣. في تفسير الرازي: مِنَ الْحُزَنِ الْمَتَمَكِّنِ فِي الْقَلْبِ، وَمَا تَعْلَنُ يَرِيدُ مَا جَرَى. ٤. تفسير الرازي ١٩: ١٣٧.

٥. تفسير الرازي ١٩: ١٣٨.

قيل: ولد [إسماعيل] لإبراهيم أربع وستون. وقيل: تسع وتسعون سنة^١.
وعن سعيد بن جبير: أنه لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة^٢.
قيل: إنما سَمَاهُ إسماعيل لأنه دعا الله أن يرزقه ولداً، وقال في دعائه: اسمع يا إيل، وإيل اسم الله،
فلما ولد سَمَاهُ به. وقيل: معناه بالعبرانية مُطيع^٣.
وفي ذكر إسحاق دلالة على أن هذا الشكر والثناء لم يكن في زمان إسكان إسماعيل في مكة، بل
كان بعد كثيره وولادة إسحاق، وإنما حكى الله هذا الحمد هنا بمناسبة ذكر إسماعيل لا لكونه في زمان
سائر الأدعية.
قيل: ولد له إسحاق وله تسعون^٤. وقيل: مائة واثنى عشرة سنة^٥.

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي
وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ [٤١ و ٤٠]

ثم لما ذكر أن غرضه من إسكان إسماعيل في محل البيت إقامة الصلاة عنده، سأل توفيقه وتوفيق
بعض ذريته لإقامة الصلاة بقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي﴾ بتوفيقك ﴿مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ ومواظباً عليها ﴿و﴾
بعضاً ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.

وقيل: لما أخبره الله بأن بعض ذريته يكون كفاراً، خص هذا الدعاء ببعضهم^٦.
ثم سأل استجابة دعائه بقوله: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ﴾ واستجب ﴿دُعَاءِ﴾ ثم ختم الدعاء بطلب المغفرة
التي هي أهم المقاصد الأخروية بقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾ ماصدر مني من ترك الأولى ﴿وَلِوَالِدَيَّ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ ويتحقق فيه جزاء الأعمال.

قيل: إن المراد بالديه آدم وحواء^٧. وقيل: إن المراد والداه بلا واسطة^٨، وكان الدعاء قبل النهي عن
الاستغفار للمشركين.

أقول: الحق أن المراد بالديه تارخ وزوجته أم إبراهيم، وهما كانا مسلمين، وكان أذر عمه، أو أبا
أمه، أو زوج أمه، وأما بعض الروايات المروية عن أئمتنا المعصومين عليهم السلام بطرق أصحابنا الدالة على
وقوع التحريف في الآية، وكان المنزل (لولدي)^٩ فمطروح غير معتبر، ولذا أعرضنا عنها.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٤٢٩.

١ و ٢. تفسير الرازي ١٩: ١٣٨.

٥. تفسير الرازي ١٩: ١٣٨، تفسير روح البيان ٤: ٤٢٩.

٤. تفسير الرازي ١٩: ١٣٨.

٧. تفسير الرازي ١٩: ١٤٠، تفسير أبي السعود ٥: ٥٤.

٦. تفسير الرازي ١٩: ١٣٩، تفسير أبي السعود ٥: ٥٤.

٩. راجع: تفسير العياشي ٢: ١٩٤/١٠٢٣ و ٢٣٠٣.

٨. تفسير روح البيان ٤: ٤٢٩.

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ
الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ
هَوَاءٌ [٤٢ و ٤٣]

ثمَّ أنَّه تعالى بعد إثبات التوحيد بالبراهين، وكونه ملة إبراهيم، وكون الشرك عِصْيَانَهُ، وخوف إبراهيم من عذاب الله يوم الحساب، هَدَّدَ الله المشركين بأهوال ذلك اليوم بقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ يا محمد، ولا تحتمل أن يكون ﴿غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ والمشركون من العصيان والطُغْيَانِ وعبادة الأوثان.

قيل: إن المراد دُم يا محمد على ما أنت عليه من عدم حساب الغفلة في حَقِّه تعالى^١. ويحتمل أن يكون المقصود نهى المؤمنين، والمعنى: لا تحسبوا - أيها المؤمنون - أن تأخير العذاب عن الظالمين لغفلته تعالى عن أعمالهم، بل ﴿إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ﴾ ويُمهلهم ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تَشْخَصُ وترتفع ﴿فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ وتبقى مفتوحة، لا يقدرون على تحريكها من الدهشة، وهم مع شخوص أعينهم المقتضي لوقوفهم في أماكنهم يكونون ﴿مُهْطِعِينَ﴾ ومسرعين لاجابة الداعي، أو نحو البلاء والعذاب كإسراع الأسير الخائف، أو مقبلين إلى الحساب، أو المراد ناظرين في ذلَّ وخشوع حال كونهم ﴿مُقْنِعِي﴾ ورافعي ﴿رُءُوسِهِمْ﴾ مع أنَّ حَقَّ المشاهد للبلاء أطراق رأسه كي لا يراه.

ثمَّ يَبَيِّنُ دوام شخوصهم بحيث ﴿لَا يَرْتَدُّ﴾ ولا يرجع ﴿إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ ولا تحرك أجفانهم، بل تبقى مفتوحة أبداً دائماً لدوام حيرتهم ودهشتهم ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ﴾ وقلوبهم ﴿هَوَاءٌ﴾ وخالية من العقل والقوة والأفكار والآمال، لِعِظَمِ ما ينالهم من الوحشة والدهشة والحزن.

القمي قال: تنصدع قلوبهم من الحَقِّقَاتِ^٢. قيل: ذلك عند القيام من القبور. وقيل: عند قيام الحساب. وقيل: عند تَمَيُّزِ الأشقياء من السعداء^٣.

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ
قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أُولَئِكَ تَكُونُوا أَفْسَئْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ
زَوَالٍ * وَسَكَتَتْكُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ
وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ [٤٤ و ٤٥]

٢. تفسير القمي ١: ٣٧٢، تفسير الصافي ٣: ٩٥.

١. تفسير روح البيان ٤: ٤٣١.

٣. تفسير الرازي ١٩: ١٤٢.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ تَخْوِيفِ الْمُشْرِكِينَ بِأَهْوَالِ الْقِيَامَةِ، أَمْرٌ نَبِيهِ ﷺ بِتَخْوِيفِهِمْ مِنْ عَذَابِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ يَأْذِرُ الْبَشَرَ ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ المَعْمُودُ، وَهُوَ عَذَابُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَنفُسَهُمْ بِاخْتِيَارٍ وَعَمَلٍ الْمَعَاصِي وَتَكْذِيبِ الرُّسُلِ عِنْدَ رُؤْيِهِمُ الْعَذَابِ: ﴿رُؤْسًا﴾ رُؤَا إِلَى الدُّنْيَا وَ﴿أَحْزَانًا﴾ وَأَمَلْنَا فِيهَا ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وَأَمَلٌ قَلِيلٌ ﴿ثُجْبٌ﴾ إِذْنٌ ﴿ذَعْوَتُكَ﴾ إِلَى تَوْحِيدِكَ وَطَاعَتِكَ ﴿وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ وَنَعْمَلُ بِقَوْلِهِمْ، وَتَدَارِكُ مَا فَرَطْنَا فِيهِ، فَيَقَالُ لَهُمْ تَوْبِيخًا وَتَبْكِيئًا: هِيَاتِ أَلَمْ تُهْلِكْ فِيهَا ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ﴾ وَحَلَفْتُمْ بِالْأَسْتَكْمِ، أَوْ بِلِسَانِ حَالِكُمْ ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ وَفِي زَمَانِ حَيَاتِكُمْ حَيْثُ بَنَيْتُمْ شِدِيدًا وَأَمَلْتُمْ^١ بَعِيدًا غُرُورًا وَاسْتِكْبَارًا عَلَى أَنَّهُ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ وَانْصِرَافٍ عَنِ التَّمَتُّعِ بِالْمُسْتَهْيَاتِ وَالشُّرْكِ وَتَكْذِيبِ الرُّسُلِ، أَوْ مِنْ زَوَالٍ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا وَخُرُوجٍ مِنْهَا وَرُجُوعٍ إِلَى دَارِ الْجَزَاءِ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ تَمَّتْ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةُ.

﴿وَسَكَتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بِالْكَفْرِ وَالطُّغْيَانِ كَعَادٍ وَشُمُودٍ ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بِمُشَاهَدَةِ الْآثَارِ وَتَوَاتُرِ الْأَخْبَارِ أَنَا ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ وَعَامَلْنَا مَعَهُمْ مِنَ الْإِهْلَاكِ وَالْعُقُوبَةِ بِسَيِّئَاتِهِمْ ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ﴾ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿الْأَمْثَالَ﴾ وَبَيَّنَّا لَكُمْ مِمَّا فَعَلُوا وَفَعَلَ بِهِمْ مَا يَكُونُ فِيهِ غَايَةُ الْإِعْتِبَارِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ تَحْدُثُوا أَنْفُسَكُمْ^٢ أَنَّ أَعْمَالَكُمْ كَأَعْمَالِهِمْ وَمَالَكُمْ كَمَالِهِمْ فَتَرَدَّعُوا عَمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْكَفْرِ وَالطُّغْيَانِ^٣ وَتَكْذِيبِ الرُّسُلِ، فَلَوْ رَجَعْتُمْ إِلَى الدُّنْيَا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ لَتَرَجَعْنَ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ، وَلَا يَنْفَعُكُمْ النَّصْحُ وَالْمَوْعِظَةُ.

وَقَدْ مَكُرُّوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ [٤٦]

ثُمَّ لَمَّا هَدَّدَ سَبْحَانَهُ الْمُشْرِكِينَ الْمَكْذِبِينَ لِلرُّسُولِ بِأَهْوَالِ الْقِيَامَةِ وَشِدَائِهَا وَعَذَابِهَا، بَيَّنَّ شِدَّةَ سَعْيِهِمْ وَمَكْرَهُمْ فِي إِطْفَاءِ نَوْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَإِبْطَالِ الْحَقِّ، وَبِخُفْمِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ ﴿وَقَدْ مَكُرُّوا﴾ وَسَوَّوْا بِتَبْدِيرَاتِهِمْ فِي إِخْلَالِ أَمْرِ النُّبُوَّةِ وَإِطْفَاءِ نَوْرِ الرِّسَالَةِ ﴿مَكْرُهُمْ﴾ الْعَظِيمِ الْمَقْدُورِ لَهُمْ، وَجُهْدِهِمُ الْبَلِيغِ الْمَيَسُورِ لَهُمْ، بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُهُمْ فَوْقَهُ ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ﴾ مَحْفُوظٌ وَمَكْتُوبٌ ﴿مَكْرُهُمْ﴾ لِتَجَاوِزِهِمْ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ مَكْرِهِمْ ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ فِي الْعِظَمِ وَالشَّدَّةِ ﴿لَيُزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ مِنْ أَمَاكِنِهَا وَمَقَارِهَا. قِيلَ: يَعْنِي مَسَاوِي فِي الْعِظَمِ لِزَالَتِهَا مِنْ مَحَالِّهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿لَيُزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ كُنَايَةٌ عَنْ غَايَةِ الْمَتَانَةِ

٢. فِي النُّسخَةِ: لِأَنْفُسِكُمْ.

١. فِي النُّسخَةِ: وَأَمْنْتُمْ، وَمَا أَثْبَتْنَاهُ مِنْ رُوحِ الْبَيَانِ ٤: ٤٣٣.

٤. تَفْسِيرُ الْبِيضَاوِيِّ ١: ٥٢٢، تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٤: ٤٣٥.

٣. فِي النُّسخَةِ: وَالطَّاعِينَ.

والشدة لكونه مثلاً في ذلك.

وقيل: إن كلمة (إن) نافية^١، والمعنى: وما كان مكرهم في القوة والتأثير بحدّ نزول الجبال بسببه، يعني يزول به دين محمد وحجته ودلائله، بل هو أوهن وأضعف من ذلك.

وقيل: إن المراد أن كفّار هذا العصر مكروا مكر كفّار الأعصار السابقة، كنمرود ومن حذا حذوه، وعند الله جزاء مكرهم^٢.

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ [٤٧]

ثم نبه سبحانه على أن مكر الماكرين بالرسول لا يمكن أن يكون مخلاً بأمر الرسل بقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ ولا توهمين يا محمد أن ﴿الله﴾ الحكيم القادر ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِ﴾ الذي وعده ﴿رُسُلَهُ﴾ من تعذيب أعدائهم وتصرّيتهم على معارضيتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ وغالب على أمره، وقاهرٌ على خلقه ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ من أعدائه وأعداء رسله.

قيل: إن الله قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾^٣ وقال هنا: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾، فنبه بذلك التضييتين على أنه إن لم تُقم القيامة، ولم ينتقم للمظلوم من الظالم، يلزم إما كونه غافلاً، أو مخلفاً لوعده رسله، وكلاهما محال، فالقول بعدم قيام القيامة في غاية البطلان^٤.

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [٤٨]

ثم عيّن سبحانه يوم إتيانهم العذاب أو وقت الانتقام بقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ﴾ وتغيّر هذه ﴿الْأَرْضُ﴾ وتكون صفتها ﴿غَيْرُ﴾ صفة تلك ﴿الْأَرْضِ﴾.

عن ابن عباس: هي تلك الأرض، إلا أنها تغيّرت في صفاتها، فتسير عن الأرض جبالها، وتفجر بحارها وتسوى، فلا ترى فيها عوج ولا أمت^٥.

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «يُبدّل الله الأرض غير الأرض^٦، فيبسّطها ويمدّها مدّ الأديم العكاظي، فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم يزجر الله الخلق زجرةً فاذا هم في [هذه المبدلة في] مثل

١. تفسير البضاوي ١: ٥٢٢، تفسير أبي السعود ٥: ٥٨.

٢. تفسير أبي السعود ٥: ٥٩، تفسير الرازي ١٩: ١٤٤. ٣. إبراهيم ١٤: ٤٢. ٤. تفسير الرازي ١٩: ١٤٥.

٥. تفسير الرازي ١٩: ١٤٦. ٦. زاد في مجمع البيان: والسماوات.

مواضعهم من الأولى، ما كان في بطنها كان في بطنها، وما كان على ظهرها كان على ظهرها^١.
وعنه عليه السلام: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ الثَّقْيِ^٢، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ^٣.
وفي (الكافي) عن الباقر عليه السلام: «تَبْدُلُ الْأَرْضُ خُبْزَةَ ثَقِيَّةٍ، يَأْكُلُ النَّاسُ مِنْهَا حَتَّى يَفْرَغُوا مِنَ الْحَسَابِ». قيل: إِنَّ النَّاسَ لَفِي شُغْلٍ يَوْمَئِذٍ عَنِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ؟ فَقَالَ: «إِنَّهُمْ فِي النَّارِ لَا يَشْتَغِلُونَ عَنْ أَكْلِ الصُّرْبِ وَشُرْبِ الْحَمِيمِ وَهُمْ فِي الْعَذَابِ، فَكَيْفَ يَشْتَغِلُونَ عَنْهُ فِي الْحَسَابِ؟»^٤.

وفي رواية أخرى: «أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ ابْنَ آدَمَ أَجُوفًا، وَلَا يَدَّ لَهُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، أَهَمُّ أَشَدَّ شُغْلًا يَوْمَئِذٍ أَمْ مِنْ فِي النَّارِ؟ فَقَدْ اسْتَغَاثُوا وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَإِنْ يَسْتَفْشِئُوا يُفْغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾»^٥.

وعن الصادق عليه السلام قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَرْضُ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارٍ مَا خَلَا ظِلُّ الْمُؤْمِنِ، فَإِنْ صَدَقَتْهُ نُظْلُهُ^٦.
عن الباقر - في رواية - أَنَّهُ قَالَ: «لَعَلَّكُمْ تَرَوْنَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَصِيرَ اللَّهُ أَبْدَانِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَعَ أَرْوَاحِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، وَصِيرَ أَبْدَانِ أَهْلِ النَّارِ مَعَ أَرْوَاحِهِمْ فِي النَّارِ، أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُعْبَدُ فِي بِلَادِهِ، وَلَا يَخْلُقُ خَلْقًا يَعْبُدُونَهُ وَيُوحِدُونَهُ وَيُعْظَمُونَهُ، بَلَى [وَاللَّهُ] وَلِيَّ خَلْقٍ خَلَقَ مِنْ غَيْرِ قُحُولَةٍ وَلَا إِنَاثٍ يَعْبُدُونَهُ وَيُوحِدُونَهُ وَيُعْظَمُونَهُ، وَيَخْلُقُ لَهُمْ أَرْضًا تَحْمِلُهُمْ وَسَمَاءً تَظْلِمُهُمْ، أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ وَقَالَ اللَّهُ: ﴿أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقِي جَدِيدٍ﴾»^٧.

أقول: ليس في الرواية دلالة على تغيير أرض المحشر.

وعن ابن مسعود: تَبْدَلُ بِأَرْضٍ كَالْقِصَّةِ الْبَيْضَاءِ الثَّقِيَّةِ لَمْ يُسْفَكْ فِيهَا^٨ دَمٌ، وَلَمْ تَعْمَلْ عَلَيْهَا خَطِيئَةٌ^٩.
وعن السجادة عليه السلام: «تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ، يَعْنِي بِأَرْضٍ لَمْ تُكْتَسَبْ عَلَيْهَا الذُّنُوبُ، بَارِزَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا جِبَالٌ وَلَا نَبَاتٌ، كَمَا دَحَاهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ»^{١٠}.

وعن الباقر عليه السلام قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ مِنْ

١. مجمع البيان ٦: ٤٩٨، تفسير الصافي ٣: ٩٧.

٢. العفراء: الأرض البيضاء التي لم تُوطأ، وقُرْصَةُ الثَّقْيِ: القُرْصَةُ الْمُتَّخِذَةُ مِنْ خَالِصِ الدَّقِيقِ وَبَابِهِ.

٣. مجمع البيان ٦: ٤٩٩، تفسير الصافي ٣: ٩٧. ٤. الكافي ٦: ١٢٨٦، تفسير الصافي ٣: ٩٦.

٥. الكافي ٦: ٢٨٧، تفسير الصافي ٣: ٩٦، والآية من سورة الكهف: ٢٩/١٨.

٦. نواب الأعمال: ١٤٠، بحار الأنوار ٧: ٥٧/١٢٠.

٧. تفسير العياشي ٢: ٢٣١٣/٤٣٣، الخصال: ٤٥/٣٥٩، تفسير الصافي ٣: ٩٧، والآية من سورة ق: ١٥/٥٠.

٨. في تفسير الرازي: عليها. ٩. تفسير الرازي ١٩: ١٤٧.

١٠. تفسير العياشي ٢: ٢٣٠٨/٤٢١، تفسير الصافي ٣: ٩٦.

زَبْرَجْدَةً خَضْرَاءَ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ عَنْ يَمِينِهِ، وَكَلَّمَا يَدَيْهِ يَمِينًا^١.

أقول: لا منافاة بين الأخبار، لاحتمال اختلاف الأرض باختلاف الأصناف من المؤمنين على اختلاف مراتبهم والكافرين، فبالنسبة إلى بعض المؤمنين كالفضة، وبالنسبة إلى بعض من الزبرجدة، وإلى بعض خبزة نقية، وهكذا بالنسبة إلى الكافر نار، وعلى أي تقدير ﴿وَالسَّمَاوَاتُ﴾ أيضاً تبدل غير السماوات بانقطارها، وانتثار كواكبها، وتكوير شمسها، وخسوف قمرها، وكونها أبواباً، وتكون كالتهل تارة، وكذلك هان أخرى.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام بطريق عامي: «سماوات من ذهب»^٢.

﴿وَبَرَزُوا﴾ وظهروا من قبورهم حين التبذل أو بعده ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ليحاسبهم ويجازيهم، فإذا كان الأمر إلى الغالب الذي لا يغالب والقهار الذي لا يقهر فلا مغيث لأحد غيره ولا مستجار، وكلٌّ مقهورٌ تحت قدرته، ومقلَّبٌ في قبضته، ومُسَخَّرٌ لقضائه.

وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَنْفَسُ
وُجُوهُهُمْ النَّارَ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * هَذَا
بِسَلَاغٍ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ
أُولُوا الْأَلْبَابِ [٥٢-٤٩]

ثم أنه تعالى بعد بيان قهاريته بين مقهورية الكفار له وعجزهم وذلتهم لديه بقوله: ﴿وَتَرَى﴾ يا محمد، أو أيها الراي ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ والعصاة ﴿يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾ ومشددين مع أقرانهم من الكفار المشاركين معهم في العقائد والأعمال، أو مع الشياطين المغوين لهم إلى الضلال، أو مع عقاندهم وأعمالهم المجسمة المصورة بأقبح الصور المتشكلة بأسوأ الأشكال ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ والقيود والأغلال. وقيل: إن المراد من ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ قُرِنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم في الأصفاة^٣ و﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ﴾ قيل: هو شيء يتحلب من شجر يسمى الأبهل^٤.

وقيل: يتخذ من حَمَل شجر العزعر، فيطبخ وتطلى به الإبل التي فيها الجرب، فيحرق بجذته وحرارته الجرب، وقد يصل حره إلى داخل الجوف ويتسارع فيه اشتغال النار، ولونه أسود، وريحه

٢. تفسير روح البيان ٤: ٤٣٦، تفسير الصافي ٣: ٩٦.

١. الكافي ٢: ١٠٢/٧، تفسير الصافي ٣: ٩٧.

٣. تفسير الرازي ١٩: ١٤٨، وفيه: رقابهم بالأغلال.

٤. تفسير الرازي ١٩: ١٤٨، والأبهل: شجر كبير، ورقه كالطرفاء، ونمره كالنبق.

٥٣٠ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٣

نَيَّة، فَيُطْلَى به جلود أهل النار، فيصير كالسُّرْبَال والقَمِيص، ليجتمع عليهم ألوان العذاب: لَذْعُ القَطْرَانِ وحُرْقَتُهُ، وإسراع النار في جلودهم، واللون المَوْجَش، وتتن الرياح^١، فتشتمز عنهم النفوس، لأنهم كانوا يستكبرون عن عبادة الله، فألبسهم بذلك الخزي والهوان.

وقيل: إن القَطْرَان ما يسيل من أبدان أهل النار^٢. وقيل: إنه نُحاس انتهى حره^٣. وقيل: إنه الحديد المُذاب^٤. عن الباقر: «هو الصُّفْر الحارّ المُذاب»^٥.

عن الصادق عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: قال جَبْرِئِيل: لو أن سربالاً من سراويل أهل النار عُلِق بين السماء والأرض، لامت أهل الأرض من ريحه وَوَجْهه»^٦.

﴿وَتَفْشَى﴾ وَيُغْطِي ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ التي هي أعزّ أعضائهم وأشرفها في الظاهر ﴿النَّارُ﴾ التي تَمَس جلودهم المَسْرُوتَة بالقَطْرَان؛ لأنها ما أقبلت إلى الحق.

وقيل: إن الوجوه كناية عن الأبدان، والمعنى تشمّلهم النار لأن خطاياهم شملتها^٧. وإنما يفعل ذلك بهم ﴿لِيَجْزِيَ الله﴾ في الآخرة ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ مُجرمة ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب، فيؤمّمه في أعجل وقت، ويوفي الجزاء على حسب الاستحقاق. ثم أنه تعالى بعد بيان أدلة التوحيد والمعاد، والتهديد على إنكارهما، أعلن بإتمام الحجّة على كلّ أحد بقوله. ﴿هَذَا﴾ القرآن، أو السورة، أو التذكير والمواظ على ﴿بَلَاغٌ﴾ وكفاية ﴿لِلنَّاسِ﴾ لينصّحوا ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا﴾ بالبراهين المذكورة ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ومعبود متفرّد ﴿وَلِيَذْكُرُوا﴾ ويتعظ ويسترشد ﴿أَوَلُوا الْأَلْبَابِ﴾ وذوو العقول السليمة والأذهان المستقيمة.

في (ثواب الأعمال): من قرأ سورة إبراهيم والحجر في ركعتين جميعاً في كلّ جمعة لم يصبه فقر ولا جنون ولا بلوى^٨.

الحمد لله الذي وفقني لاتمام تفسير سورة إبراهيم بمنه ولطفه.

١. تفسير الرازي ١٩: ١٤٨، تفسير البضاوي ١: ٥٢٣، تفسير روح البيان ٤: ٤٣٧.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٤٣٧. ٣. تفسير أبي السعود ٦١: ٥، تفسير روح البيان ٤: ٤٣٧.

٤. مجمع البحرين ٣: ١٤٩٣، مادة «قطر». ٥. تفسير القمي ١: ٣٧٢، تفسير الصافي ٣: ٩٨.

٦. تفسير القمي ٢: ٨١، تفسير الصافي ٣: ٩٨. ٧. تفسير روح البيان ٤: ٤٣٧.

٨. تفسير العياشي ٢: ٢٢٥٩/٤٠٣، ثواب الأعمال: ١٠٧، تفسير الصافي ٣: ٩٩.

في تفسير سورة الحجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ * رَبِّمَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا
مُسْلِمِينَ [٢١ و ٢]

ثم لما ختمت سورة إبراهيم التي فيها إثبات النبوة والتوحيد والمعاد، والإشارة إلى شبهات المشركين في النبوة ورفعها، ومكرهم في إطفاء نور الحق، وحكاية ابتلاء الأمم السابقة بالعذاب على معارضة الرسل، وبيان حكمة تأخير العذاب عن هذه الأمة، وتهديدهم بعذاب الآخرة، وحكاية دعاء إبراهيم عليه السلام لأولاده، وشكره على نعمة ولادة إسماعيل وإسحاق له، أردفت بسورة الحجر التي فيها إثبات النبوة، وتهديد منكريها بالعذاب الأخروي، وبيان حكمة تأخير العذاب الدنيوي عن الأمم، وذكر شبهات المشركين في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ودفعها، وحكاية إشارة إبراهيم عليه السلام بولادة إسحاق، وتفصيل مكر الله في حق بعض الأمم بتعذيبهم كقوم لوط وأصحاب الأيكة والججر إلى غير ذلك من المطالب المناسبة لما في السورة السابقة، فابتدأ بذكر أسمائه المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم افتحها بالحروف المقطعات بقوله: ﴿الر﴾ وقد مر تأويلها وحكمة الافتتاح بها. ثم بين عظمة القرآن بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ السورة العظيمة الشأن، أو الآيات المباركات التي نزل بها جبرئيل هي ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ الذي وعدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم بنزوله عليه، أو بشر الأنبياء السالفة بنزوله في آخر الزمان، أو آيات اللوح الحفوظ، أو آيات الكتاب الكامل الحقيق باختصاص اسم الكتاب به ﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ وموضح لمجملات الكتب السماوية، أو مبين للحق وجميع الأحكام، أو مفهم الناس جميع ما يحتاجون إليه ولو بتشريح الراسخين في العلم مبهماتهم وتبيينهم مجملاته.

ثم أنه تعالى بعد تعظيم كتابه وتوصيفه بالصفات الجليلة الموجبة لتوجه القلوب إلى حسن تلقّيه، وكمال التدبر فيه، والتصديق بنبوة النبي المتحدّث به، والاعتقاد بصحة دينه - وهو الإسلام - هدّد

منكره بقوله: ﴿وَمَا﴾ وكثيراً ما ﴿يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بمحمد ﷺ ودين الاسلام ﴿لَوْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿مُسْلِمِينَ﴾ ومتقادين لله ورسوله، ومطيعين لدين الإسلام وأحكامه.

رُوي أنه لا يزال الرب يرحم ويشفع إليه حتى يقول: مَنْ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ، فعند ذلك يتمنّون الإسلام^١.

وعن الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد من عند الله لا يدخل الجنة إلا مسلم، فيومئذ يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين»^٢.

وعن أبي موسى الأشعري، أنه قال النبي ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، واجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال لهم الكفار: ألسنتم مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا إلى النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فيغضب الله سبحانه لهم بفضلهم ورحمته، فيأثر بكل من كان من أهل القبلة في النار فيخرجون منها، فحينئذ يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين»^٣.

وقيل: إن تمنّيههم عند الموت^٤.

ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [٣]

ثم أعلن سبحانه بغضه عليهم بقوله: ﴿ذَرَهُمْ﴾ ودعهم الآن يا محمد ﴿يَأْكُلُوا﴾ كما تأكل الأنعام ﴿وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بالمستهيات الدنيوية، ويستلذوا بلذائدها كما تتمتع الهائم ﴿وَيُلْهِمُ﴾ ويشغلهم عن ذكر الله والدار الآخرة ﴿الْأَمَلُ﴾ الطويل في الدنيا، وتوقع بقائهم فيها، وتوغلهم في تعميرها وتحصيل مستهياتها من الجاه والأموال، وما يوجب استقامة الأحوال ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنعنا بهم، ووخامة عاقبتهم، وضرر غفلتهم عن الاستعداد للآخرة، إذا خرجوا من الدنيا، وعابوا ما أعد لهم في دار الجزاء من العذاب والنكال.

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَوِيَّةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا

يَسْتَعْجِرُونَ [٤ و ٥]

ثم بين سبحانه علّة تأخير عذاب الكفار مع شدة استحقاقهم له، وحكم إمهالهم والتخلى بينهم

١. تفسير روح البيان ٤: ٤٤٠.
٢. تفسير القمي ١: ٣٧٢، تفسير الصافي ٣: ١٠٠.
٣. تفسير أبي السعود ٥: ٦٤، تفسير روح البيان ٤: ٤٤٠ مرسلاً.
٤. تفسير الرازي ١٩: ١٥٤.

وبين تمتعهم بقوله: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا﴾ بعذاب الاستئصال ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من القرى وبلدة من البلدان ﴿إِلَّا وَلَهَا﴾ في الهلاك بالعباد ﴿كِتَابٌ مَغْلُومٌ﴾ وحكمة وأجل معينٌ مثبت في اللوح المحفوظ - من حكمة البالغة - لا يصح تغييره، ولا يُنسى ولا يُغفل عنه حتى يتصور التخلف والتقدم والتأخر فيه، ولذا ﴿مَا تَسْقِي مِنْ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المهلكة ﴿أَجَلَهَا﴾ وغاية المدة المضروبة لهلاكها أو موتها ﴿وَمَا يَسْتَشْخِرُونَ﴾ عن ذلك الأجل وتلك الغاية بأن تموت أو تهلك بعد مدة من انقضاءها.

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [٦ و ٧]

ثم أنه تعالى بعد بيان عظمة القرآن الدالة على صحة نبوة نبيه ﷺ، حكى سوء أدب المشركين واستهزائهم بالنبي ﷺ بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ عناداً وتجرياً على الله ورسوله واستهزاءً به: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ من ربه ﴿الذِّكْرُ﴾ والقرآن، وتدعى هذا الأمر الخارق للعادة ﴿إِنَّكَ﴾ واللات والعزى ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ مختل العقل، حيث إن مقالاتك لا تشبه مقالات العقلاء، لأن النبي لا بد أن يكون ملكاً وأنت بشر مثله، وعلى فرض أن الله جعلك نبياً ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا﴾ وهلاً تجيئنا ﴿بِالْمَلَائِكَةِ﴾ حتى يشهدوا بصدقك في دعوى الرسالة، أو يعاونوك في الإنذار والتبليغ، أو يعاقبونا على تكذيبك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك، فإن الله قادرٌ على إنزالهم وتأيدك بهم، وأنت في نهاية الاحتياج إليهم في تمشية أمرك.

مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [٨ و ٩]

ثم ردهم سبحانه بقوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ بسبب من الأسباب ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وحكمة مقتضية لانزالهم، وهو استئصالهم بالعباد ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا﴾ وعند ذلك ﴿مُنْظَرِينَ﴾ ومُنهَلين طرفه عين، كما لم تُمهل سائر الأمم المكذبة للرسول المستهزئة بهم بعد نزول الملائكة لتعذيبهم، وإنما أخرنا تعذيب هؤلاء مع غاية استحقاقهم له لما جرى قلم القضاء بإمهالهم، لازياد حُببهم، واشتداد استحقاقهم، وخروج ما في أصلابهم من ذراري المؤمنين. القمي: لو أنزلنا الملائكة لم يُنظروا وهلكوا.

ثم أنه تعالى بعد ردّ اقتراحهم وإبطال شبهتهم في نبوة نبيه ﷺ، أجاب عن مقالهم الباطلة واستهزائهم بالقرآن بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ مع عِظَم شأننا، وكمال شرفنا، وعلوّ جَنَاننا ﴿نَزَّلْنَا﴾ هذا ﴿الذِّكْرُ﴾ الذي أنكروه والقرآن الذي جحدوا نزوله عليك، ونسبوك بسبب تلك الدعوى إلى الجنون، ليكون لك معجزةً باقيةً ﴿وَإِنَّا لَهُ﴾ والله ﴿لَحَافِظُونَ﴾ من التغيير والطعن والتحريف إلى الأبد دون سائر الكتب السماوية، ولذا تطرق إليها الخلل.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ
سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ [١٠-١٣]

ثم أنه تعالى بعد الجواب عن اقتراح المشركين وشبهاتهم واستهزائهم بالنبي ﷺ، أخذ في تسليته بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ رسلاً كثيرةً ﴿مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ والفرق السابقين، وكان من دأب تلك الفرق أنه ما يبعث فيهم ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ خاص بهم أو عام ﴿إِلَّا﴾ أنهم ﴿كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وَيَسْخَرُونَ ﴿كَذَلِكَ﴾ الاستهزاء الذي سلكناه وأدخلناه في قلوب الأمم السابقة لرسلهم، ندخل الاستهزاء و﴿نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ من قومك، فيستهزئون بك ليظهر غاية حُبث ذواتهم وردالة أخلاقهم.

وقيل: إن المراد كذلك الوحي المنزل على الأنبياء مقروناً بالاستهزاء^١. أو مثل المسلك الذي سلكناه في قلوب الأمم المستهزئين برسلهم، نسلك الذكر في قلوب المجرمين من أهل مكة أو عموم المجرمين^٢، وهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ولا يصدقون بأنه كلام الله المنزل.

قيل: كانوا يسمعون القرآن بقراءة النبي ﷺ فيدخل في قلوبهم ومع ذلك لا يؤمنون به^٣، لعدم استعدادهم لقبول الحق، وكونهم من أهل الخذلان^٤.

ثم هدّد سبحانه المجرمين بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ وطريقتهم التي سلکوا فيها حتّى أهلكوا بالعذاب، أو مضت سنة الله وطريقة معاملته معهم حيث خذلهم وسلك الكفر في قلوبهم، ثم أهلكهم بعذاب الاستئصال، أو أهلكهم حين فعلوا ما فعلوا من تكذيب الرسل والاستهزاء بهم.

١. زاد في النسخة: لا. ٢ و٣. تفسير روح البيان ٤: ٤٤٥.

٥. تفسير روح البيان ٤: ٤٤٦.

٤. (به) ليس في تفسير روح البيان.

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ
أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ [١٤ و ١٥]

ثمَّ أُنْزِلَ آيَةُ الْفَتْحِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى بعد بيان استهزائهم بالنبي ﷺ ونسبته إلى ما لا يليق به، واقتراحهم عليه، وتهديدهم على الاصرار على الكفر، بين غاية عنادهم ولجاجهم بقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ويسرنا لهم الصعود إليها ﴿فَظَلُّوا﴾ وصاروا ﴿فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ وإليه يصعدون بأله أو غيرها، ويرون ما فيها من العجائب بأعينهم.

وقيل: يعني فظلَّ الملائكة يصعدون في ذلك الباب، وهم يشاهدونهم طول نهارهم^١، والله ﴿لَقَالُوا﴾ عناداً ولجاجاً وتشكيكاً في الحق: ليس الأمر في الواقع ما نرى بأعيننا، بل ﴿إِنَّمَا سُكَّرَتْ﴾ وسدَّت عن النظر، أو حُيرت، أو غُطِّيَتْ ﴿أَبْصَارُنَا﴾ بالشعبذة، وخُيِّلَ إلينا ما لا حقيقة له ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ سحرنا محمد، كما قالوه عند ظهور سائر المعجزات الباهرة، فلا فائدة في إجابة مسؤولهم فيما اقترحوه عليك.

قيل: إن في كلمة الحصر وإسناد الاسكار إلى الأبصار دلالة على أنَّ المقصود عدم سراية الاسكار إلى عقولهم، كأنهم قالوا: نحن نتحايل هذه الأشياء بأبصارنا، ولكن نعلم بعقولنا أنَّ الواقع بخلافه، ثمَّ أضربوا عن الحصر في الأبصار، وقالوا: بل جاوز ذلك إلى عقولنا بسحر سحره لنا^٢.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ
شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ [١٦-١٨]

ثمَّ بَيَّنَّ سبحانه كمال قدرته لثلاث يتوهم فيه العجز عن إتيان ما اقترحوه بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا﴾ وخلقنا ﴿فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ وقصوراً تنزلها السيارات السبع، وربَّنا تلك البروج والكواكب ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بتلك البروج والكواكب المختلفة الأشكال والكواكب المنيرة ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ إليها، أو للمتفكرين في بديع صنعها، المستدلِّين بما فيها وفي كواكبها من حسن التدبير وكمال النظام المستتب للآثار العجيبة على قدرة صانعها وحكمة مُبْدِعِهَا ومُدَبِّرِهَا ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ﴾ اقتراب ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ وجنِّ عاصٍ مطرود من الرحمة، أو من القرب من السماء، يرميه بالنجوم، كما يَحْفَظُ المنازل عن دخول من يخشى منه الفساد.

عن ابن عباس: كانت الشياطين لا تُحْجَبُ عن السماوات، فكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار

١. تفسير روح البيان ٤: ٤٤٦.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٤٤٦.

الغيوب من الملائكة، فيلقونها إلى الكهنة، فلما ولد عيسى ﷺ مُنِعُوا من ثلاث سموات، فلما ولد رسول الله ﷺ مُنِعُوا من السماوات كلها^١.

وعن الصادق عليه السلام ما يقرب منه إلى أن قال: «ورميت الشياطين بالنجوم، وقالت قريش: هذا قيام الساعة الذي كنا نسمع أهل الكتاب يذكرونه، وقال عمرو ابن أمية وكان أجزر^٢ أهل الجاهلية: انظروا إلى هذه النجوم التي يهتدى بها وتعرف بها أزمان الشتاء والصيف، فان كان رمى بها فهو هلاك كل شيء، وإن كانت ثبتت ورمى بغيرها فهو أمرٌ حدث»^٣.

وعن القمي ما يقرب منه، ثم قال: وكان بمكة يهودي يقال له يوسف، فلما رأى النجوم تتحرك وتسير في السماء خرج ونادى^٤ قريش فقال: يا معشر قريش، هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقالوا: لا. فقال: أخطأتم والتوراة، قد ولد في هذه الليلة آخر الأنبياء وأفضلهم، وهو الذي نجده في كتبنا أنه إذا ولد ذلك النبي رُجمت الشياطين، وحُجِّبوا من السماء. فرجع كل أحد إلى منزله فسأل أهله، فقالوا: قد ولد لعبد الله بن عبد المطلب، الخبر^٥.

فتحصّل أنّ أحداً من الشياطين لا يقدر أن يصعد إلى السماء ويطلع على أحوالها ﴿إِلَّا مَنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ واختلسه سراً.

عن ابن عباس، قال: يريد الخطفة اليسيرة^٦.

وقيل: إن المعنى ولكن من استرق السمع من مردة الشياطين^٧ ﴿فَأَتَّبَعُهُ﴾ ولحقه ﴿شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ ونجم كشعلة نارٍ ساطع.

عن ابن عباس: أنّ المارد من الشياطين يعلو فيرمى بالشهاب فيقتله^٨.

وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ *
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَاشٍ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا
خَازِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاحِجٍ مُنَاسٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَأَنْبَتْنَا كُفُّومَهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ [١٩-٢٢]

١. تفسير الرازي ١٩: ١٦٩.

٢. الزجر: إثارة الطير للتميم بسنوحها أو التشاؤم ببروحها.

٣. أمالي الصدوق: ٤٤٤/٣٦٠، تفسير الصافي ٣: ١٠٣.

٤. في المصدر: خرج إلى نادي.

٥. تفسير القمي ١: ٣٧٣، تفسير الصافي ٣: ١٠٤.

٦. تفسير الرازي ١٩: ١٦٩.

٧. تفسير الرازي ١٩: ١٦٩.

٨. تفسير الرازي ١٩: ١٦٩، وفيه: بالشهاب فيحرقه ولا يقتله.

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ بَدَائِعِ صَنْعِهِ فِي السَّمَاوَاتِ، بَيَّنَّ سَعَةَ قُدْرَتِهِ فِي الْأَرْضِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ وبسطناها على وجه الماء، كما عن ابن عباس^١ «وَأَلْقَيْنَا» وأوجدنا «فِيهَا» جبلاً «رَوَاسِي» وثوابت «وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» من نبات وثمار «مُؤَزَّوْنٍ» ومتقدَّر بقدر خاص. وقيل: يعني موزون بميزان الحكمة والعقل، ومتناسب بحكم العقل السليم بحسنه ومطابقتها للمصلحة^٢.

وقيل: يعني المقدَّر بالميزان، فإنَّ المعادن والنباتات كلها كذلك^٣. وعن القمي: لكلِّ ضَرْبٍ مِنَ الْحَيَوَانِ قَدَرْنَا شَيْئاً مُوزُوناً^٤. وعن الباقر عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْبَتَ^٥ فِي الْجِبَالِ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَالْجَوْهَرَ وَالصُّفْرَ وَالنَّحَاسَ وَالْحَدِيدَ وَالرُّصَاصَ وَالْكُحْلَ وَالزَّرْنِجَ، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ لِاتِّبَاعِ إِلَّا وَزناً»^٦. أقول: على هذا التفسير يكون الإنبات بمعنى الإيجاد، ومرجع ضمير «فِيهَا» [إلى] الرواسي، كما عليه بعض مفسري العامة^٧.

ثمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ تَبَسُّطِ الْأَرْضِ، وَإِلْقَاءِ الْجِبَالِ فِيهَا، وَإِنْبَاتِ الثَّمَارِ فِيهَا، ذَكَرَ خَلْقَ مَا يَعِيشُ بِهِ الْخَلْقُ فِي الْأَرْضِ دَلِيلًا عَلَى قُدْرَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا» وخلقنا «لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ» وما به قوام الحياة من الأطعمة والأشربة والألبسة «وَوَجَعَلْنَا لَكُمْ مِنْ لَشْتُمْ لَهُ بَرَاقِينَ» من العيال والعبيد والخدم والدواب، فَإِنَّ نَفْعَهُمْ لَكُمْ وَرِزْقَهُمْ عَلَيْنَا.

وقيل: إِنَّ الْمَعْنَى وَجَعَلْنَا لَكُمْ وَلِمَنْ لَسْتُمْ بِرَاقِيهِ مِنَ الْمَذْكُورِينَ مَعَايِشَ^٨. ثمَّ بَالِغُ سُبْحَانِهِ فِي تَوْضِيحِ سَعَةِ قُدْرَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ» وما من موجود «إِلَّا عِنْدَنَا» وتحت قدرتنا «خَزَائِنُهُ» شبه سبْحَانِهِ مَقْدُورَاتِهِ وما يكون وجوده بِإِفَاضَةٍ فِي الْكَثْرَةِ، وَالسَّتْرِ عَنِ الْخَلْقِ، وَالصُّونِ مِنْ وَصُولِ الْأَيْدِي إِلَيْهِ مَعَ شِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَكَمَالِ الرِّغْبَةِ فِيهِ بِفَنَاسِ الْأَمْوَالِ الَّتِي يَجْعَلُهَا السُّلْطَانُ فِي خَزَائِنِهِ.

قيل: إِنَّ الْخَزَائِنَ كُنَايَةً عَنِ الْأَعْيَانِ الثَّابِتَةِ^٩، وَالْمَاهِيَاتِ الْمَتَقَرَّرَةِ. عن السَّجَّاد عليه السلام: «أَنَّ فِي الْعَرْشِ تَمَثُّالَ جَمِيعِ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» قال: «وَهَذَا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ:

١. تفسير الرازي ١٩: ١٧٠.

٢. تفسير الرازي ١٩: ٣٧٤، تفسير الصافي ٣: ١٠٤.

٣. تفسير الرازي ١٩: ١٧٢.

٤. تفسير القمي ١: ٣٧٤، تفسير الصافي ٣: ١٠٤.

٥. في النسخة: أنبت. ٦. تفسير القمي ١: ٣٧٤، تفسير الصافي ٣: ١٠٤.

٧. تفسير الرازي ١٩: ١٧١.

٨. تفسير روح البيان ٤: ٤٥٢.

٩. تفسير روح البيان ٤: ٤٥٢.

﴿وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾^١.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ ولا نوجده ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ وحدٌ معينٌ تقتضيه الحكمة. وقيل: إن المراد بالخزانين المطر^٢، حيث إنَّه تعالى بعد بيان إعطائه المعاش ذَكَرَ المطر الذي هو سببه وأَنَّهُ عنده، أي بأمره وتدبيره وحكمته، وما يُنَزِّلُهُ إِلَّا بِحَدٍّ معين.

القمي: الخزائن الماء الذي ينزل من السماء، فَيُنْبِت لِكُلِّ ضَرْبٍ مِنَ الْحَيَوَانِ مَا قَدَّرَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْغَدَاءِ^٣.

عن ابن عباس: يُريد قدر الكفاية^٤.

قيل: إنَّ الله يُنَزِّلُ المطر كُلَّ عامٍ بِقَدَرٍ معلومٍ غير أَنَّهُ يصرفه إلى من شاء كما شاء حيث شاء^٥. أقول: يبعد كون المراد لذكره تعالى الرياح والمطر بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾ إليكم ﴿الرِّيَّاحَ﴾ التي تكون ﴿لَوَاقِحَ﴾ ومجالات للشجر وللشباب^٦، كما عن ابن عباس^٧.

وعن ابن مسعود - في تفسير الآية - : يبعث الله الرياح لثَلْفَحِ السحاب فتحمل الماء، وتُجَنِّه في السَّحَابِ، ثم أَنَّهُ يعصر السَّحَابَ وَيُدْرِهِ كما تَدْرُ اللَّفْحَةُ^٨. القمي: ثَلْفَحِ الأشجار^٩.

وقيل: إنَّ اللوَّاحِ بمعنى الحاملات، فإنَّ الريح تحمِلُ السَّحَابَ والماء^{١٠}.

وقيل: إنَّه بمعنى آتيان بالخير، كما يقال لما لا خير له عقيم^{١١}.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: لَا تَسْبُوا الرِّيحَ فَإِنَّهَا بَشَرٌ، وَإِنَّهَا تُذَرُّ، وَإِنَّهَا لَوَاقِحٌ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ خَيْرِهَا، وَتَعَوَّذُوا بِهِ مِنْ شَرِّهَا»^{١٢}.

﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ بعد إنشاء السَّحَابِ الماطر بالرياح ﴿مَاءً﴾ مباركاً نافعاً ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ وأشربناكموه، وأشربناه مواشيكم وضياعكم. قيل: هو أفصح^{١٣} من ﴿سَقَيْنَاكُمُوهُ﴾ لدلالته على جعل الماء [مُعَدَّاً] لهم يتفغنون^{١٤} به متى شاءوا^{١٥}.

١. روضة الواعظين: ٤٧، تفسير الصافي ٣: ١٠٥. ٢. تفسير الرازي ١٩: ١٧٤، تفسير الصافي ٤: ٤٥٣.

٣. تفسير القمي ١: ٣٧٥، تفسير الصافي ٣: ١٠٥. ٤ و ٥. تفسير الرازي ١٩: ١٧٤.

٦. في تفسير الرازي: عن ابن عباس: الرياح لَوَاقِحٌ للشجر وللشباب. ٧. تفسير الرازي ١٩: ١٧٥.

٨. تفسير الرازي ١٩: ١٧٥، واللَّفْحَةُ: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن، واللَّفْحَةُ: المرأة المرضعة.

٩. تفسير القمي ١: ٣٧٥، تفسير الصافي ٣: ١٠٥. ١٠ و ١١. تفسير الرازي ١٩: ١٧٦.

١٢. تفسير العياشي ٢: ٢٣١٧/٤٢٦، تفسير الصافي ٣: ١٠٥.

١٣. في تفسير روح البيان: أبلغ. ١٤. في تفسير روح البيان: يرتفقون.

١٥. تفسير روح البيان ٤: ٤٥٤.

﴿وَمَا تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ﴾ على أن تكونوا ﴿لَهُ يَخَازِنِينَ﴾ في السحاب أو القدران والآبار والعيون، بل نحن نخزنه فيها ليكون شقياً لكم، مع أن الماء غائر بالطبيعة، فنفى عن الناس ما أثبت له لجناحه.

وَأِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرَجِينَ [٢٤ و ٢٣]

ثم استدل على قدرته بظهورها في أنفسهم بقوله: ﴿وَأِنَّا﴾ والله ﴿لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ بالإحياء له ﴿وَنُمِيتُ﴾ ماله الحياة من الحيوان والنبات ﴿وَنَحْنُ﴾ الباقون بعد فناء الخلق ﴿الْوَارِثُونَ﴾ للدنيا وما فيها.

ثم بين سعة علمه بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ والمتقدمين ﴿وَمِنْكُمْ﴾ خروجاً من الأصلا ب وولادة وموتاً، أو دخولاً في الاسلام، أو في صف الجهاد، أو في الطاعة كما عن ابن عباس^١ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرَجِينَ﴾ في ذلك.

عن الباقر^٢: «هم المؤمنون من هذه الأمة».

وفي تكرير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ تأكيد ببلغ.

عن ابن عباس - في رواية - قال: كانت تصلي خلف النبي ﷺ امرأة حسنة في آخر النساء، فكان بعضهم يتقدم في الصف الأول لثلا يراها وتأخر آخرون ليروها، فاذا رجع نظر من تحت إبطيه إليها فنزلت^٣.

وقيل: كانت النساء يخرجن إلى الجماعة فيقفن خلف الرجال، فربما كان من الرجال من في قلبه ريبة يتأخر إلى آخر صف الرجال، ومن النساء من في قلبها ريبة تتقدم إلى أول صف النساء لتقرب من الرجال، فنزلت^٤.

وقيل: رغب رسول الله ﷺ في الصف الأول، فازدحموا عليه فنزلت^٥.

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [٢٥]

ثم لما بين الله سبحانه مبدأ الخلق ومماتهم، وأعلن بقدرته عليهما، بين قدرته على حشرهم من القبور للحساب والجزاء بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ القادر على الإحياء والاماتة ﴿هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ من القبور

١. تفسير الرازي ١٩: ١٧٧. ٢. تفسير العياشي ٢: ٢٦٦/٢٣٩، تفسير الصافي ٣: ١٠٦.

٣. تفسير الرازي ١٩: ١٧٨، تفسير أبي السعود ٥: ٧٣، تفسير روح البيان ٤: ٤٥٥.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٤٥٥. ٥. تفسير روح البيان ٤: ٤٥٦.

جميعاً إلى المحشر دفعةً واحدةً لجزاء الأعمال بلا تقدّم وتأخّر ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿حَكِيمٌ﴾ ومحيطٌ بحقائق الأشياء ومصالحها ومفاسدها، متقنٌ في فعاله، فلا يخلُق الخلق لعباً وعبثاً ﴿عَلِيمٌ﴾ بخفّيات السماوات والأرض، لا يعزّب عن علمه شيء، فيعلم ذرات تراب كلّ جسدٍ فيجمعه ويخلقه ثانياً بصورته الأولى، وفي تقدّم صفة الحكمة دلالة على اقتضائها الحشر للجزاء، وفي الآية ردّ على منكره.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ [٢٦ و ٢٧]

ثمّ استدلّ على الحشر يبدو خلق الانسان بغير مثال سابق من تراب بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ الأول وهو آدم ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ وطين يابس غير مطبوخ، إذا نُفِرَ كان له صوت مع الترجيع كما قيل^١، وكان ذلك الصلصال ﴿مِنْ حَمَإٍ﴾ وطين أسود متغير بطول مجاورة الماء ﴿مَسْنُونٍ﴾ ومُتَيْن على قول^٢، أو مصوّر على قول^٣، أو مصبوب ومفرغ على هيئة الانسان، كما تُفَرِّغ الصور من الجواهر المذابة في القوالب^٤ ولعله المراد من قول ابن عباس المسنون: الطين الرطب^٥، فكانه سبحانه أفرغ الحمأ فصور تمثال الانسان أجوف فيس حتى إذا نُفِرَ صَوّت.

قيل: لَمَّا صَوَّرَهُ اللهُ تركه في الشمس أربعين سنة، فصار صَلْصَالاً كَالْحَرَفِ، ولا يدري أحدٌ ما يُرَاد به، ولم يَرِ شيئاً يُشَبِّهه، فكانت الريح إذا مرّت به شَمِعَ له صَلْصَلَةٌ، فلذلك سَمَّاهُ اللهُ صَلْصَالاً^٦. ﴿وَالْجَانَّ﴾ الأول، وهو إبليس على قول^٧، أو غيره ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ عن ابن عباس: من قبل خلق آدم^٨ ﴿مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾ والشديدة الحرّ، أو لا دُحَان له، أو نافذة بلطافتها في مَسَامِ الْبَدَنِ. عن ابن مسعود: هذه السُّموم جزءٌ من سبعين جزءاً من السُّموم التي خَلَقَ اللهُ منها الجنّ^٩. وقيل: لم تكن قبل آدم خُلِقَ من تراب، وإنما خلقه الله منه ليكون عبداً خضوعاً وُضوعاً ذلواً مانلاً إلى السجود لأنّه إظهار كمال العبودية، ولَمَّا كان كلّ جنس مانلاً إلى جنسه وظاهراً فيه آثار مبدئه، تواضع آدم لله، واستكبر إبليس من التواضع^{١٠}.

١. تفسير الرازي ١٩: ١٧٩، تفسير روح البيان ٤: ٤٥٧.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٤٥٧.

٣. مجمع البيان ٦: ٥١٦، تفسير الصافي ٤: ٤٥٧.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٤٥٧.

٥. مجمع البيان ٦: ٥١٦، تفسير الرازي ١٩: ١٨٠.

٦. تفسير الرازي ١٩: ١٧٩.

٧. تفسير الرازي ١٩: ١٨٠، تفسير روح البيان ٤: ٤٥٨.

٨ و ٩. تفسير الرازي ١٩: ١٨٠.

١٠. تفسير روح البيان ٤: ٤٥٨.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [٢٨ و ٢٩]

ثم لما بين الله سبحانه خُصَاسة مبدأ خلق الانسان، بين غاية شرفه الدالة على كمال قدرة الله وحكمته بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ﴾ من بعد ﴿بَشَرًا﴾ وإنساناً أو خلقاً مجسماً يلاقي ويباشر، أو بادي البشرة؛ لأنه لا صُوف له ولا شَعْر، يكون خلقه ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ كائن ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ * وأكملت خِلقة جسده بأن خلقت أجزاء بدنه وصورته بصورة إنسانية وعدلت طباعه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ وأفضت عليه ﴿مِنْ رُوحِي﴾ الجوهرة التي هي من أمري ﴿فَقَعُوا﴾ واستقوا ﴿لَهُ﴾ حال كونكم ﴿سَاجِدِينَ﴾.

قيل: يعني اسجدوا تعظيماً وخُضوعاً لله، وجعلوا آدم بمنزلة القبلة لظهور تعاجيب آثار قدرته تعالى وحكمته فيه^١.

عن الباقر (عليه السلام)، أنه سُئل عن قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ فقال: «روح اختاره الله واصطفاه وخلقاه وأضافه إلى نفسه، وفصله على جميع الأرواح، [فأمر] فنفخ منه في آدم»^٢.
وعن الصادق (عليه السلام)، أنه سُئل عنه، فقال: «إن الله عز وجل خلق خلقاً، وخلق روحاً، ثم أمر ملكاً فنفخ فيه، فليست بالتي نقصت من^٣ الله شيئاً، هي من قدرته»^٤.

وعن الباقر (عليه السلام)، أنه سُئل: كيف هذا النفخ؟ فقال: «إن الروح متحرك كالريح، وإنما سمي روحاً لأنه اشتق اسمه من الريح، وإنما أخرجت^٥ على لفظة الروح، لأن الروح مجانس للريح، وإنما أضافه إلى نفسه لأنه اصطفاه على سائر الأرواح، كما اصطفى بيتاً من البيوت. فقال: بيتي، وقال لرسول من الرسل: خليلي وأشباه ذلك، فهو مخلوق^٦ مصنوع محدث مربوب مُدبّر»^٧.

فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ

١. تفسير روح البيان ٤: ٤٦١.

٢. التوحيد: ١/١٧٠، تفسير الصافي ٣: ١٠٨.

٣. زاد في التوحيد: قدرة.

٤. تفسير العياشي ٢: ٢٣٢٣/٤٢٧، التوحيد: ٦/١٧٢، تفسير الصافي ٣: ١٠٨. ٥. في التوحيد: أخرجه.

٦. في التوحيد: ذلك، وكل ذلك مخلوق. ٧. التوحيد: ٣/١٧١، تفسير الصافي ٣: ١٠٨.

يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ [٣٠-٣٨]

ثم خلقه الله وسواه، ونفخ فيه الروح ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ﴾ بحيث لم يشدّ منهم أحدٌ ﴿وَأَجْمَعُونَ﴾ بحيث لم يتأخّر أحدٌ في امتثال الأمر من أحد، أو المراد المبالغة في التأكيد والتعميم ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾. وإنما الاستثناء مع كونه من الجنّ لكونه مغموراً بألوفٍ من الملائكة.

وقيل: لأنه كان من جنس الملائكة الذين يتوالدون^١، والحقّ هو الأول، وعلى أي تقدير لا شبهة أنّه كان مأموراً بالسجود، ومع ذلك ﴿أَبَى﴾ وأمتنع من ﴿أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ وموافقاً لهم في الطاعة، فعاتبه الله عند ذلك وقال ﴿عَتَاباً وَتُوبِخاً لَهُ: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا كَانَ لَكَ﴾ من العذر في أَلَّا تَكُونَ﴾ موافقاً ﴿مَعَ﴾ الملائكة ﴿السَّاجِدِينَ﴾ لآدم من عرفانك بشرفهم ومنزلتهم لدي؟

﴿قَالَ﴾ إبليس: عذري في الامتناع من السجود له، أيّ علّمت أنّك خلقتني من النار التي هي أشرف العناصر وأعلاها و﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾ ومخلوقٌ كئيف ﴿خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ﴾ كائن من ﴿حَمِإٍ مَشْنُونٍ﴾ مع شرفي وفضيلتي عليه، فأنه لا يصحّ تواضع الأشرف والأفضل للأدنى والمفضول.

﴿قَالَ﴾ الله: إذن لا يجوز إقامتك في الجنة، أو في السماوات، أو في المنزل [التي] كانت لك، أو في زُمرّة الملائكة ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ﴾ قايست وعصيت، وكلّ من قاس وعصى فهو ﴿رَجِيمٌ﴾ ومطرود من دار كرامتي ومن كلّ خير ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ والدعاء بالشرّ من الملائكة والناس، أو الابعاد من الرحمة من الآن ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ ووقت جزاء الأعمال، وأما بعد ذلك فعليك العذاب الذي لا يقادر قدره.

قيل: إنّ التوقيت بيوم الدين كناية عن الدوام^٢.

ثمّ ﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿رَبِّ﴾ إذ جعلتني رجيماً وملعوناً ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾ وأمهليني في الدنيا، ولا تُعْثِنِي ﴿إِلَى يَوْمٍ﴾ القيامة الذي فيه يُحْشَرُ^٣ الناس و﴿يُبْعَثُونَ﴾ يوم البعث من القبور للحساب، وإنما سأل ذلك ليكون له فسحةٌ في إغواء بني آدم وأخذة الثأر، لا للنجاة من الموت لاستحالتها ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ﴾ جملة ﴿الْمُنْظَرِينَ﴾ والممهلين، ولكن لا إلى يوم البعث، بل ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وهو النفخة الأولى التي يُصْعَقُ فيها من في السماوات والأرض.

روي أن بين موته وبعثه أربعين سنة من سني الدنيا، وهو ما بين النفختين^٤.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٤٦٥.

٤. تفسير أبي السعود ٥: ٧٧.

١. تفسير أبي السعود ٥: ٧٥.

٣. في النسخة: يحشرون.

عن كعب: لما حضر آدم الوفاة قال: يا ربَّ سَيِّئَت بي عدوي إبليس إذا رَأني ميتاً وهو منظرٌ إلى يوم القيامة. فأجيب: أن يا آدم إنَّكَ سترِدُ الجنة ويؤخَّر اللعين إلى النَّظرة لِيَتَذوق ألم الموت بعدد الأولين والآخرين.

ثم قال آدم لَمَلَك الموت: صِف لي كيف تُذيقه الموت؟ فلمَّا وصفه قال: حسبي. فقال الناس: يا أبا إسحاق، كيف ذلك؟ فأبى الجواب فألَحَّوا فقال: يقول الله لَمَلَك الموت بعد النفخة الأولى: قد جعلت لك قوة أهل السماوات والأرضين، وألبستك اليوم أثواب الغضب كُلَّها، فانزل بغضبي على إبليس وأذقه الموت، واحمل عليه أضعا فمرارة الأولين والآخرين، وليكن معك من الزبانية سبعون ألفاً قد امتلأوا غيظاً، مع كُلِّ منهم سلسلة من سلاسل جهنم، وعُغِّل من أغلالها، وانزع روحه الثنتين بسبعين ألف كَلَاب من كلابيها، وناذِ مالكاً لِيُفتح أبواب النيران، فينزل مَلَك الموت بصورة لو نظر إليها أهل السماوات والأرضين لماتوا من هولها.

فيتهي إلى إبليس فيقول: قف يا خبيث لأذيقنكَ الموت، كم من عمرٍ أدركت وقرون أضللت، وهذا هو الوقت المعلوم. فيهرَّب اللعين إلى المشرق، فإذا هو بمَلَك الموت بين عينيه، فيهرَّب إلى المغرب، فإذا هو به بين عينيه، فيغوص البحار، فترميه البحار ولا تقبله، فلا يزال يهرَّب في الأرض ولا مَحِيص له ولا ملاذ، ثمَّ يقوم في وسط الدنيا عند قبر آدم، ويتمرَّغ في التراب من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق، حتى إذا كان في الموضع الذي أهبط آدم فيه وقد نَصبت له الزبانية الكلابيب، وصارت الأرض كالجمرة، أحتوشته الزبانية، وطعنوه بالكلاليب، ويبقى في النَّزع والعذاب إلى حيث يشاء الله^١.

عن الصادق عليه السلام، أَنَّهُ سُئل عن الوقت المعلوم، فقال: «يوم الوقت المعلوم يوم يُنْفَخ في الصُّور نفخةً واحدة، فيموت إبليس ما بين النفخة الأولى والثانية»^٢.

وعنه عليه السلام، أَنَّهُ سُئل عنه فقال: «أُتَحَسَّب أَنَّهُ يوم يُبْعَث فيه الناس؟ إن الله أنظره إلى يوم يبعث فيه قائمنا، فإذا بعث الله قائمنا كان في مسجد الكوفة، وجاء إبليس حتى يجثو بين يديه على ركبتيه فيقول: يا ويله من هذا اليوم، فيأخذ بناصيته فيضرب عنقه، فذلك يوم الوقت المعلوم»^٣.

والقمي: عنه عليه السلام، قال: «يوم الوقت [المعلوم] يوم يذبحه رسول الله ﷺ على الصخرة التي في

١. تفسير أبي السعود ٥: ٧٧، تفسير روح البیان ٤: ٤٦٦.

٢. علل الشرائع: ٢/٤٠٢، تفسير الصافي ٣: ١١٢.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢٣٢٧/٤٢٨، تفسير الصافي ٣: ١١٢.

بيت المقدس^١. قال الفيض رحمه الله: أقول: يعني عند الرجعة^٢.

قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ [٤١-٣٩]

ثم لما أمهل الله اللعين للحكم البالغة التي منها امتحان بني آدم **﴿قَالَ﴾** إبليس: **﴿رَبِّ﴾** أقسم **﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾** من التكليف بالسجود لآدم، وقد كنت تعلم أنني أعصيك فيه، أو قال: رب بسبب إغوائك إياي والتكليف الذي صار سبباً لعصيانِي، أقسم بعزتك لأعادي بني آدم و**﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾** عصيانك **﴿فِي الْأَرْضِ﴾** ودار الغرور، وأرغبهم في مخالفتك، أو لأزَيِّن لهم المقام في الأرض كي يطمئنون بها **﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾** وأبعثهم **﴿أَجْمَعِينَ﴾** إلى الضلالة بوسوستي وتسويلي وبما هيأت من سبب عصيانهم بحيث لا ينجو أحدٌ منهم من كيدي وإغواني **﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ﴾** ولكن لا عمومهم، بل أعني **﴿الْمُخْلِصِينَ﴾** الذين خصصتهم بعبوديتك وطاعتك، وطهرتهم من الرذائل والشهوات، فإنهم لا يؤثّر فيهم كيدي، ولا يتبعون وساوسي^٣ **﴿قَالَ﴾** سبحانه: **﴿هَذَا﴾** التخلص من كيدك المخصوص بالمُخْلِصِينَ **﴿صِرَاطٌ﴾** وطريق حقيقي **﴿عَلَيَّ﴾** رعايته وتقريره، وهو **﴿مُسْتَقِيمٌ﴾** لا عوج فيه. وقيل: إن المراد أن هذا الإخلاص طريق من مرّ عليه فكأنما مرّ عليّ وعلى رضواني وكرامتي. وقيل: كلمة (عليّ) بمعنى إليّ، والمراد هذا الاخلاص طريق إليّ وهو مستقيم يؤدّيه إلى كرامتي وقربي. وقيل: إن المشار إليه بكلمة (هذا) هو الصراط، والمعنى هذا الطريق في العبودية طريق عليّ مستقيم^٤.

وقيل: إن المشار إليه التفويض إلى مشيئة الله المستفاد من قول إبليس: إلا عبادك منهم المُخْلِصِينَ، وحاصله أنني أغوي بني آدم إلا من عصمه الله بتوفيقه، يدلّ ذلك على أن المُخْلِصِينَ يفوضون أمورهم إلى الله، فقال الله: هذا التفويض إليّ وإلى مشيئتي طريق عليّ مستقيم^٥.

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ [٤٢]

ثم لما كان في كلام إبليس إيهام سلطته على غير المُخْلِصِينَ، نفى سبحانه سلطته على العباد عموماً بقوله: **﴿إِنَّ عِبَادِي﴾** [سواء أكانوا مُخْلِصِينَ، أو غير مُخْلِصِينَ] **﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ﴾** بوجه من

٢. تفسير الصافي ٣: ١١٣.

٤. تفسير الرازي ١٩: ١٨٩.

١. تفسير القمي ٢: ٢٤٥، تفسير الصافي ٣: ١١٣.

٣. في النسخة: بوساوسي

٥. تفسير الرازي ١٩: ١٨٩.

الوجوه «سُلْطَانٌ» واستيلاء وقَهْرٌ «إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ» وأطاعك باختياره «مِنَ الْغَاوِينَ» والضالين بسبب خُبث ذاتهم من غير قَهْرٍ منك.

عن الباقر عليه السلام، أَنَّهُ شَتْلٌ عَنْ تَفْسِيرِهِ فَقَالَ: «قَالَ اللَّهُ: إِنَّكَ لَا تَمْلِكُ أَنْ تُدْخِلَهُمْ جَنَّةً وَلَا تَارًا»^١.
وقيل: إِنَّ المراد بالعباد في الآية خصوص الْمُخْلِصِينَ، والمقصود تحقيق ما قاله اللعين، وتفخيم شأن الْمُخْلِصِينَ، وتأكيد لانتقطاع مخالفه عنهم، وأن إغواءه الغاوين ليس بطريق القهر والسلطان، بل بطريق الاتباع بسوء الاختيار^٢.

وعن الصادق عليه السلام: «والله ما أَرَادَ بهذا إِلَّا الأئمة وشيعتهم»^٣.

وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ [٤٣ و ٤٤]

ثُمَّ هَدَدَ سبحانه الغاوين ببيان نتيجة اتِّباع الشيطان بقوله: «وَأَنَّ جَهَنَّمَ» والله «لَمَوْعِدُهُمْ» وموقفهم «أَجْمَعِينَ» في القيامة «لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ» بعدد أقسام الغاوين «لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ» وقسمة معينة وفرقة خاصة.

قيل: إِنَّ قرار جهنم مقسوم سبعة أقسام، ولكل قسم باب معين: القسم الأول جهنم، والثاني لظى، والثالث الحطمة، والرابع سعير، والخامس سقر، والسادس الجحيم، والسابع الهاوية^٤.

وقيل: إِنَّ المراد بسبعة أبواب سبع طبقات بعضها فوق بعض، وتسمى تلك الطبقات بالدركات، الطبقة الأولى لأهل التوحيد يُعَذَّبُونَ على قدر أعمالهم ثُمَّ يُخْرَجُونَ، والثانية لليهود، والثالثة للنصارى، والرابعة للصابئين، والخامسة للمجوس، والسادسة للمشركين، والسابعة للمنافقين^٥.

وهذا الاختلاف في الدركات والعذاب لاختلاف مراتب الكفر بالغلظة والخفة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «سبعة أبواب النار متطابقات»^٦.

وعنه عليه السلام: «أَنَّ جَهَنَّمَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، أَطْبَاقُهَا بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ - وَوَضَعَ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى، فَقَالَ: هَكَذَا - وَإِنَّ اللَّهَ وَضَعَ الْجَنَانَ عَلَى الْقَرْصِ، وَوَضَعَ النَّيْرَانَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، فَاسْفَلُهَا جَهَنَّمَ، وَفَوْقُهَا لَظَى، وَفَوْقُهَا الْحُطْمَةُ، وَفَوْقُهَا سَقَرٌ، وَفَوْقُهَا الْجَحِيمُ، وَفَوْقُهَا السَّعِيرُ، وَفَوْقُهَا الْهَاقِيَةُ»^٧.

١. تفسير العياشي ٢: ٢٣٢٩/٤٢٩، تفسير الصافي ٣: ١١٣.

٢. تفسير الرازي ١٩: ١٩٠.

٣. الكافي ٨: ٦/٣٥، تفسير الصافي ٣: ١١٣.

٤. تفسير الرازي ١٩: ١٩٠.

٥. الخصال: ١/٥٩٧، تفسير الصافي ٣: ١١٤.

٦. مجمع البيان ٦: ٥١٩، تفسير الصافي ٣: ١١٤.

٧. تفسير أبي السعود ٥: ٧٩.

وفي رواية: «أسفلها الهاوية»^١.

وعن الصادق، عن أبيه، عن جده عليه السلام: «أُنْ لِلنَّارِ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، بَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَقَارُونُ، وَبَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ الْمُشْرِكُونَ وَالْكَفَّارُ وَمَنْ^٢ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ طَرَفَهُ عَيْنٌ، وَبَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ بَنُو أُمِّيَّةٍ هُوَ لَهُمْ خَاصَّةٌ لَا يُزَاحِمُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ، وَهُوَ بَابُ لُطَى، وَهُوَ بَابُ سَعِيرٍ^٣ وَهُوَ بَابُ الْهَآوِيَةِ، تَهْوِي بِهِمْ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَكَلِمَا هَوَى بِهِمْ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَارَ بِهِمْ قَوْرَةٌ قَذَفَ بِهِمْ فِي أَعْلَاهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا، ثُمَّ تَهْوِي بِهِمْ [كَذَلِكَ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَلَا يَزَالُونَ] هَكَذَا أَبَدًا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ، وَبَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ مَبْغُضُونَا وَمَحَارِبُونَا وَخَاذِلُونَا، وَإِنَّهُ لَأَعْظَمُ الْأَبْوَابِ وَأَشَدُّهَا حَرًّا».

ثم قال: «والباب الذي يدخل منه بنو أمية هو لأبي سفيان ومعاوية وآل مروان خاصة، يدخلون من ذلك الباب فتحطيمهم النار فيه خطماً، لا تسمع لهم واعيَّة ولا يحيون فيها ولا يموتون»^٤.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آذِخْلُوهُمْ بِسَلَامٍ آمِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ [٤٥-٤٨]

ثم أنه تعالى بعد بيان نتيجة إغواء الشيطان، بين نتيجة أحكام عبادته بقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ والعباد المخلصين مستقرون ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ لكلٍّ منهم بساتين متعدّدة وعيون متعدّدة، وواحد منهما يقول - الله - أو الملائكة - لهم عند دخولها، أو حين الانتقال من جنة إلى جنة: ﴿آذِخْلُوهُمْ﴾ متلبسين^٥ ﴿بِسَلَامٍ﴾ من جميع الآفات والمكآره والمخوفات، أو بفتح من الله والملائكة حال كونكم ﴿آمِينَ﴾ غير خائفين من زوال النعم وانقطاع القبوضات، أو من موانع الدخول، أو من الآفات والأسقام، فيكون تأكيداً لقوله: ﴿بِسَلَامٍ﴾ على التفسير الأول.

﴿وَنَزَعْنَا﴾ وأخرجنا ﴿مَا فِي صُدُورِهِمْ﴾ وقلوبهم ﴿مِنْ غَلٍّ﴾ وحقدٍ يسيرٍ كامنٍ كان بينهم في الدنيا، وطيننا نفوسهم من الرذائل.

روي أن المؤمنين يحبسون على باب الجنة، فيقتص بعضهم^٦ من بعض، فيؤمر^٧ بهم إلى الجنة وقد نقى الله قلوبهم من الغل والغش والجدد والحسد^٨، فيكونون ﴿إِخْوَانًا﴾ في المودة والمخالصة

١. مجمع البيان ٦: ٥١٩، تفسير الصافي ٣: ١١٤.

٢. في الخصال: مَن.

٣. في النسخة: متلبساً.

٤. في تفسير الرازي: لبعضهم.

٥. في الخصال: سقر.

٦. في تفسير الرازي: لبعضهم.

٧. في تفسير الرازي: ١٩: ١٩٣.

٨. في تفسير الرازي: ٣: ١١٤.

والمخالطة، كما قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^١ وهم جالسون ﴿عَلَى سُرُرٍ مَرْفُوعَةٍ حَالِ كُونِهِمْ مُتَقَابِلِينَ﴾ ومواجهين.

عن ابن عباس: يُريد على سُرر من ذهبٍ مَكَلَّلَةٌ بِالزُّبُرِجْدِ وَالذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ، والسُرير مثل ما بين صنعاء إلى الجابية^٢.

وقيل: إن المراد من السُرير: هو المجلس الرفيع المهيأ للسُرور^٣، والمستقر الذي اطمئن إليه في حال الفرح ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ في الجنة ولا ينالهم ﴿فِيهَا﴾ من حين دخولها ﴿نَصَبٌ﴾ وعناء وتعب إلى الأبد ﴿وَمَا مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فيكون لهم بقاء لا فناء له، ونعمة لا زوال لها، وفوز لا حرمان معه.

نَبِيُّ عِبَادِي أَنَّى أَنَا الْعَفْوَُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ
الْأَلِيمُ [٥٠-٤٩]

ثم أنه تعالى بعد ذكر حُسن حال عباده المُخلصين أعلن بشمول عفوه ورحمته لكل من اعترف بعبوديته وتوحيده بقوله: ﴿نَبِيُّ﴾ يا محمد، وأخبر ﴿عِبَادِي﴾ المؤمنين مطيعيهم وعُصاتهم ﴿أَنِّي أَنَا الْعَفْوَُ﴾ للذنوب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين حتَّى لا يياسوا من عُفْواني ورحمتي.
عن النبي ﷺ، أنه مرَّ بنفرٍ من أصحابه وهم يضحكون، فقال: «أتضحكون والنار بين أيديكم؟»^٤
فنزل قوله: ﴿نَبِيُّ﴾ عبادي إلى آخره.

ثم أعلن بغضبه على العصاة بقوله: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ وفي تقديم الاعلان بالرحمة، وإضافة العباد إلى نفسه، وتأكيد الوعد بكلمة (إني) و(أنا) وتغيير أسلوب الإخبار بالوعيد، حيث لم يقل: أنا المعذب، بل أخبر بكون عذابه أليماً، دلالة واضحة على سَبَقِ رحمته وغلبتها على غضبه، وإن كان على المؤمنين التسوية بين الخوف والرجاء بحيث لا يترجح أحدهما على الآخر.

وَبَشِّرْهُمْ عَنْ صَنِيفٍ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ *
قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ
فِيمِ تَبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ [٥١-٥٥]

ثم لما كان في قصص الأنبياء وأمرهم شهادة على رحمته بأوليائه وغضبه على أعدائه، شرع في

١. الزخرف: ٦٧/٤٣. ٢. تفسير الرازي ١٩: ١٩٣، والجبابة: قرية من أعمال دمشق.

٣. تفسير الرازي ١٩: ١٩٥.

٤. تفسير الرازي ١٩: ١٩٣.

بيانها، وبدأ بقصة إبراهيم عليه السلام الذي هو أعظم منزلة بقوله: ﴿وَبَشِّرْهُمْ﴾ وأخبرهم يا محمد ﴿عَنْ﴾ قِصَّةِ ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهم الملائكة الذين جاءوا بالرحمة والسلامة على إبراهيم ولوط، وبالعذاب على قوم لوط.

قيل: كانوا اثني عشر أحدهم جبرئيل، ولم يعرفهم إبراهيم، وحسب أنهم أضيافه^١.
 ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ بصورة البشر ﴿فَقَالُوا﴾ حين الدخول: سلام الله عليك، أو تسلم عليك يا إبراهيم ﴿سَلَامًا﴾. وكان إبراهيم عليه السلام شديد الحب للضيافة، فما لبث حتى جاءهم بعجل مشوي، فلما رأى أنهم لم يمدوا أيديهم إليه خاف منهم؛ لأن المعتاد عندهم أن الضيف إذا امتنع من الأكل ظنوا أنه عدو.
 وقيل: إن سبب خوفه أنهم دخلوا عليه بغير إذن وفي غير وقت^٢، ولذا ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ وخائفون، فلما سمعت الملائكة منه ذلك ﴿قَالُوا﴾ تأمينا لحاطرة: يا إبراهيم ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ ولا تخف منا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ ونخبرك بما فيه سرور قلبك، وهو أن الله يريد أن يمن عليك ﴿بِغُلَامٍ﴾ وولد ذكر^٣ ﴿عَلِيمٍ﴾ بالمعارف والأحكام، أو بعلم النبوة، فتعجب إبراهيم عليه السلام من مقالهم، و﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿أَبَشِّرْتُمُونِي﴾ بأن يولد لي ولد وأنا ﴿عَلَى﴾ حال بعيد عادة من ذلك، وهو ﴿أَنْ مَسِّنِي﴾ وأصابني ﴿الْكَبِيرُ﴾ والهزم الذي لا يكون معه الولد.
 قيل: إن (على) بمعنى مع، أو بمعنى بعد^٤.

ثم بالغ في إظهار التعجب بقوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ من الأعجوبة، فلما رأوا استبعاد إبراهيم عليه السلام ما بشروه به ﴿قَالُوا﴾ له تأكيداً لقولهم: إِنَّا بَشِّرُنَاكَ بِالْحَقِّ والصدق، وبما هو كائن لا محالة، أو باليقين الذي لا شبهة فيه، أو بطريق حق وهو إخبار الله به ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاقِطِينَ﴾ من رحمة الله عليك، والآيسين من أن تلد وأنت شيخ كبير.

قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ
 * قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا
 أَمْرًا أَنَّهُ قَدَرْنَا لَهَا لِمَنِ الْغَابِرِينَ [٥٦ - ٦٠]

فلما سمع إبراهيم عليه السلام كلامهم التوهيم لنسبته إلى اليأس من رحمة الله ﴿قَالَ﴾ تحاشياً منها وإنكاراً عليهم: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾ اللطيف به ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ والمخطئون طريق المعرفة

٢. تفسير الرازي ١٩: ١٩٦.

١. تفسير روح البيان ٤: ٤٧٤.

٣. في النسخة: ذكور. ٤. تفسير روح البيان ٤: ٤٧٤.

والصواب، فإنهم الذين لا يعرفون سعة رحمة الله وكمال قدرته وحكمته ولطفه بعباده، فنفي عن نفسه القنوط بأبلغ وجه، وبين أن مقاله كان استعظاماً لهذه النعمة الخارقة للعادة، ثم لما عرف إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة أرسلوا لأمرٍ عظيم ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ وما شأنكم ﴿أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُرْسَلُونَ؟﴾

قيل: إنه عليم من كثرتهم وبشارتهم لرفع خوفه أنهم أرسلوا لأمرٍ آخر غير البشارة^١ ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ﴾ ﴿إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ كي نهلكهم بالعذاب لتناهيهم في الإجماع والطغيان ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ وأهله المؤمنين ﴿إِنَّا﴾ والله ﴿لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مما يصيب قومه من العذاب ﴿إِلَّا أَمْرًا تَهُ﴾ [واسمها] واهلة - كما قيل^٢ - فإن ربك قال: إِنَّا قَدْزَنَّا وقضينا ﴿إِنَّا لَمِنَ الْغَافِرِينَ﴾ والباقيين في المدينة مع الكفار، فيصيبها ما يصيبهم من العذاب لشركتها معهم في الكفر وإبداء لوط.

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُّونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أذْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦١-٦٥﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ لوطاً و﴿آلَ لُوطٍ﴾ الملائكة ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ بالعذاب ﴿قَالَ﴾ لهم لوط ﴿إِنَّكُمْ﴾ في هذه البلدان ﴿قَوْمٌ مُّكَرُّونَ﴾ لا يعرفكم أحد.

قيل: يعني أنك لا في زِي السفر، ولا من أهل الحَصَر، فأخاف أن تطرُقوني بشر^٣. ﴿قَالُوا﴾ ما جئناك بما تُتَكِنُّنا لأجله ﴿بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا﴾ فيه شُرورك ويُسفي^٤ قلبك، وهو العذاب الذي تتوعد به قومك وهم ﴿كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ وفي وقوعه يشكون ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ واليقين الذي لا مجال للريب فيه ﴿وَأِنَّا﴾

والله ﴿لَصَادِقُونَ﴾ في ما نُخبرك به من العذاب.

قيل: إن المراد بالحق الإخبار بالعذاب، وما بعده تأكيد له^٥، إذن ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ معد من المدينة ﴿بِقِطْعٍ﴾ وطائفة ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ وفي بعض منه ﴿وَاتَّبِعْ أذْبَارَهُمْ﴾ وكن من ورائهم لتسوقهم وتطلع عليهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ ولا ينظر ﴿مِنْكُمْ﴾ إلى الوراء ﴿أَحَدٌ﴾.

١. تفسير البضاوي ١: ٥٣٢، تفسير روح البيان ٤: ٤٧٥.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٤٧٦. ٣. تفسير روح البيان ٤: ٤٧٦.

٤. في النسخة: وتشقى. ٥. تفسير أبي السعود ٥: ٨٤.

قيل: إن النهي عن الالتفات كناية عن سرعة السير لاستلزام الالتفات الوقوف أو التواني^١، أو عن إيجاب التوطين على الهجرة، أو عن قطع العلاقة عما خلفه، أو عن الانصراف والتخلف.

﴿وَأَمْسُوا﴾ واذهبوا إلى ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ من جانب الله بالمضي والذهاب إليه.

عن ابن عباس: يعني الشام^٢. وقيل: يعني مصر^٣. وقيل: يعني حيث يقول لكم جبرئيل، فإنه أمرهم أن يمشوا إلى قرية قريبة لم يعمل أهلها مثل عمل أولئك القوم^٤.

وَقَصَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ * وَجَاءَ أَهْلَ
الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفَى فَلَا تَفْضَحُون * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا
تُخْزُون * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ
فَاعِلِينَ (٦٦-٧١)

ثم أخبر الله تعالى بأنه بعد إخبار الملائكة لوطاً بإهلاك قومه، أوحى سبحانه إليه بلا واسطة الملك بتعذيب قومه بقوله: ﴿وَقَصَيْنَا﴾ وأوحينا ﴿إِلَيْهِ﴾ بنحو البت ﴿ذَلِكَ الْأَمْرُ﴾ الذي أخبرته الرسل به في شأن قومه، وهو ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ﴾ الكفرة وعقبهم ﴿مَقْطُوعٌ﴾ بحيث لا يبقى منهم أحد بعدذاب الاستئصال حال كونهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾ ووقت دخول الصبح عليهم.

ثم قيل: إن امرأة لوط أخبرت أهل سدوم^٥ بقُدوم أضياف على لوط جُرد مُزد في غاية الحسن والجمال^٦ ﴿وَوَ﴾ لذا ﴿جَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ إلى باب منزل لوط وهم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ويخبر بعضهم بعضاً بأنه نزل على لوط أضياف مُردّ وضاء الوجه، فلما أتوه وسألوه أن يُسلم إليهم أضيافه ليرتكبوا الفاحشة ﴿قَالَ﴾ لوط: يا قوم ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ الشباب ﴿ضَيْفَى﴾ والنازلون عليّ في بيتي ﴿فَلَا تَفْضَحُونَ﴾ بتفضيحهم، ولا تبجلوني بالعار بالاساءة إليهم، وعمل الفاحشة بهم، فإن من أهين ضيفه فقد أهينت نفسه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوه في الاساءة إليّ والى ضيفي، وفي ارتكاب الفحشاء بهم ﴿وَلَا تُخْزُون﴾ ولا تذللوني ولا تخجلوني عندهم بارتكاب الفعلة الشنيعة بهم ﴿قَالُوا﴾ يا لوط ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ﴾ أن

١. تفسير أبي السعود ٥: ٨٤، تفسير روح البيان ٤: ٤٧٦.

٢. تفسير الرازي ١٩: ٢٠١، تفسير روح البيان ٤: ٤٧٦.

٣. تفسير البيضاوي ١: ٥٣٣، تفسير روح البيان ٤: ٤٧٦.

٥. سدوم: مدينة من مدائن قوم لوط، كان قاضيها يقال له سدوم.

٦. تفسير روح البيان ٤: ٤٧٧.

٤. تفسير الرازي ١٩: ٢٠١.

تحامي أحداً من ﴿الْعَالَمِينَ﴾.

قيل: إن التقدير ألم تقدم إليك ولم تنهك عن أن تمنع الغرباء عن تعرضنا لهم^١. ﴿قَالَ﴾ لوط: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ النسوة ﴿بَنَاتِي﴾ فتزوجهن وانصرفوا عن التعرض لأضيافي ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ وطلبين لقضاء الشهوة، فافضوها فيما أحل الله لكم دون ما حرم.

قيل: إن القوم كانوا يخطبون بناته ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفايتهم^٢.

وقيل: إن المراد بنات القوم، وأضافهن إلى نفسه لكون بنات الأمة بمنزلة بنات نبيها^٣.

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا
عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِلْمُتَوَسِّمِينَ [٧٥-٧٢]

ثم بين الله غاية شقاوتهم بقوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ وحياتك يا حبيبي محمد قسمني ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ وشدة شهوتهم التي أزال عقولهم، وفي غاية شقاوتهم وغوايتهم التي أعمتهم عن رؤية طريقة الرشد والصلاح ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ويتحIRON، فلم يؤثر فيهم النصح والارشاد إلى البنات أطيب من البنين ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ التي صاح بها جبرئيل حال كونهم ﴿مُشْرِقِينَ﴾ وداخلين في وقت طلوع الشمس.

قيل: كان ابتداء العذاب - وهو قلع جبرئيل الأرض بهم ورفعها إلى السماء - أول الصبح، ثم هوى بها إلى الأرض، وكان ختمه - وهو الصيحة - أول طلوع الشمس^٤.

﴿فَجَعَلْنَا﴾ بعد قلع البلاد الخمسة أو السبعة ورفعها إلى قريب من السماء على جناح جبرئيل وقلبها عليهم ﴿عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وسافلها عاليها، لكون هذا النحو من القلب أدخل في الهول والنضاعة ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ من حين الرفع إلى تمام الانقلاب ﴿حِجَارَةً﴾ كأنه ﴿مِنْ سِجِّيلٍ﴾ وطين متحجر عليه اسم من رمى به على ما قيل^٥. فهلكوا بأنواع من العذاب: الخسف والامطار بالحجارة والصيحة، وقيل: إن مطر الحجارة كان على الغائبين من تلك البلاد^٦ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من عصيان القوم لوطاً وطغيانهم على الله وهلاكهم بعذاب الاستئصال وإنجاء لوط وأهله والله ﴿لَآيَاتٍ﴾ وأدلة واضحة على وحدانية الله وكمال قدرته وعظمته وقهره على أعدائه، ولطفه

١. تفسير أبي السعود ٥: ٨٥، تفسير روح البيان ٤: ٤٧٧.

٢. تفسير أبي السعود ٥: ٨٦، تفسير روح البيان ٤: ٤٧٨.

٣. تفسير الرازي ١٩: ٢٠٢، تفسير أبي السعود ٥: ٨٦. ٤. تفسير روح البيان ٤: ٤٧٩.

٥ و ٦. تفسير روح البيان ٤: ٤٨٠.

بأوليائه، وإنما الانتفاع ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والمتفرسين، ومن له ذكاء وجودة ذهن، فإنهم يستنبطون كثيراً من العلوم والمعاني الدقيقة من المحسوسات والماديات^١.

عن النبي ﷺ: «اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ، وَيَنْطِقُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ»^٢.

وعنه عليه السلام - في رواية - «أَنَّ اللَّهَ عِبَاداً يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ» ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ^٣.

وعن الباقر عليه السلام، قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الآية: كان رسول الله ﷺ المتوسم، وأنا من بعده، والأئمة من ذُرِّيَةِ الْمُتَوَسِّمِينَ»^٤.

وعنه أيضاً، في هذه الآية: «قال رسول الله ﷺ: اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ»^٥.

وعنه عليه السلام: «ليس مخلوق إلا وبين عينية مكتوب، [أنه] مؤمن أو كافر، وذلك محجوب عنكم، وليس محجوباً عن الأئمة من آل محمد ﷺ»^٦.

وَإِنَّهَا لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَّالِمِينَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ [٧٦-٧٩]

ثم استشهد سبحانه بوجود بلادهم وآثارهم بقوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾ والله ﴿لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ﴾ وطريق ثابت يسلكه الناس في مسافرتهم من مكة إلى الشام، ويرون آثار تلك البلاد، فإنها لم تدرس بعد ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من وجود آثارها والله ﴿لَآيَةً﴾ وعِظَةٌ وَهَدَايَةٌ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسوله، فإنهم الذين يعرفون أن ما حاق^٧ بهم من العذاب الذي ترك ديارهم بَلَّاقِعٌ^٨، إنما كان لسوء صنيعهم وطغيانهم على الله ورسوله.

ثم ذكر سبحانه قصة هلاك قوم شعيب بقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكفر وتكذيب الرسول.

قيل: إن الأيكة ومدين واحد^٩، فإن أطراف مدين كانت أرض ذات أشجار كثيرة ملتفة بعضها ببعض، وكانت عامة شجرهم المُقَل^{١٠}.

١. في النسخة: العاديات.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٤٨١.

٣. مجمع البيان ٦: ٥٢٨، تفسير الصافي ٣: ١١٨.

٤. الكافي ١: ١٧٠/٥، تفسير الصافي ٣: ١١٨.

٥. تفسير العياشي ٢: ٢٣٤١/٤٣٥، الكافي ١: ٣/١٧٠، تفسير روح البيان ٤: ٤٨١، تفسير الصافي ٣: ١١٨.

٦. بصائر الدرجات: ١/٣٧٤، تفسير الصافي ٣: ١١٨.

٧. في النسخة: حلق، والذي أثبتناه من روح البيان ٤: ٤٨٠.

٨. أي خالية من كل شيء.

٩. تفسير روح البيان ٤: ٤٨١.

١٠. المُقَل: حمل الدَّوم، وهو يشبه النَّحْل.

عن ابن عباس: الآية شجر المقل.^١

وقيل: إن الآية اسم مكان آخر غير مدين كثير الأشجار، كانوا يسكنونها، فبعث الله إليهم شعيب كما بعثه إلى مدين فكذبوه^٢ ﴿فَأْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وعاقبناهم على تكذيبهم شعيباً.

قيل: أهلك الله أهل مدين بالصيحة، وأهل الآية بالتار، وذلك أن الله أرسل عليهم حراً شديداً سبعة أيام، فخرجوا ليستظلوا بالشجر من شدة الحر، فجاءت ريح سموم بنار فأحرقتهم^٣.

وقيل: بعث الله سحابة فالتجأوا إليها يلتمسون الروح، فبعث الله عليهم منها نارا فأحرقتهم، فهو عذاب يوم الظلة^٤.

وقيل: لما ذكر الله الآية، دلّ بذكرها على مدين، فجاء بضميرهما^٥ بقوله: ﴿وَأَنَّهُمَا لِيَإِمَامٍ مَّيِّينَ﴾ وطريق واضح لكم وللناس، تمرّون عليهما وترّون آثار العذاب فيهما. وقيل: إن ضمير التثنية راجع إلى سدوم والآية^٦.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْجِبْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَأَنَّا عَنْهَا
مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ * فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ
مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [٨٤-٨٠]

[ثم] ذكر الله قصة قوم صالح بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْجِبْرِ﴾ وهم قوم ثمود **﴿الْمُرْسَلِينَ﴾**.

قيل: الجبر اسم وإد كانوا يسكنونه^٧. وإنما نسب سبحانه إليهم تكذيب جميع المرسلين؛ لأن تكذيبهم صالحاً تكذيب لجميع الرسل، ولأنهم كانوا من البراهمة المنكرين لجميع الرسل، أو لأن المراد بالمرسلين جنس الرسل لا جميع أفرادهم، كما يقال لمن أهان عالماً: إنك مؤمن العلماء.

ثم ذمهم سبحانه بذنب أعظم من تكذيب الرسل بقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ﴾ وأرسلناهم **﴿آيَاتِنَا﴾** الكثيرة التي كانت في الناقة من خروجها من الصخرة، وعظم جثتها وظهور فصيلها عند خروجها، وكثرة شربها ولبنها **﴿فَكَأَنَّا عَنْهَا﴾** وعن النظر والتفكر في جهات إعجازها **﴿مُعْرِضِينَ﴾** وبها غير معتنين. **﴿وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾** ومساكن لأنفسهم حال كونهم **﴿آمِنِينَ﴾** من العذاب لغاية غفلتهم واغترارهم، أو من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الأعداء لغاية استحكامها **﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾**

٢- ٤. تفسير روح البيان ٤: ٤٨١.

٦. تفسير أبي السعود ٥: ٨٧.

١. تفسير الرازي ١٩: ٢٠٤.

٥. تفسير الرازي ١٩: ٢٠٤.

٧. تفسير الرازي ١٩: ٢٠٥، تفسير أبي السعود ٥: ٨٧.

مع ذلك ﴿الصَّيْحَةُ﴾ التي صاح بها جبرئيل حال كونهم ﴿مُضْطَّحِينَ﴾ بسبب تكذيبهم صالحاً، وإعراضهم عن الآيات ﴿فَمَا أَغْنَىٰ﴾ ولم ينفع في دفع العذاب ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ويحصلون من البيوت الوثيقة والأموال الوفيرة والعُدد المتكاثرة.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ
فَاصْصَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ [٨٦ و ٨٥]

ثم أنه تعالى بعد ذكر ابتلاء الأمم الماضية بالعذاب، نبه على المعاد الذي عذاب الكفار فيه أشد مع الدليل القاطع بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا﴾ خلقاً متلبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحكمة البالغة المستلزمة للمعاد، وإلا كان خلقهما عبثاً ولعباً ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ﴾ والقيامة التي تجزي فيها الناس على قدر أعمالهم، والله^١ ﴿لَآتِيَةٌ﴾ فلا ينحصر عذاب القصة بما ينزل بهم في الدنيا، فإنه بالنسبة إلى ما أعد لهم في القيامة كنسبة لا شيء إلى كل شيء، فإذا كان كذلك فلا تحزن يا محمد بتأخير العذاب عن قومك مع كونهم مكذّيبك، فإن الله سيتقم من أعدائك ويجازيهم أسوأ الجزاء على إساءتهم إليك ﴿فَاصْصَحِ﴾ وأعرض عنهم ﴿الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ والإعراض المقرون بالجلم واحتمال آذاهم ولا تعجل في الانتقام منهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ اللطيف بك ﴿هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ لك ولأعدائك ولسائر الموجودات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وأعمالهم وأحوالك ومعاملتك معهم من مكابدتهم، والصبر على إساءتهم، والصَّفْحَ عنهم، فيجازيهم بأشدّ العذاب، ويكرمك بأعلى الكرامات ويفضلك على العالمين بأفضل الثوابات، كما أكرمك في الدنيا بالنبوة، وفضلك على العالمين بأن ختم بك الرسالة.

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَتَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ [٨٧]

ثم نبه سبحانه بأفضل منته عليه بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ يا محمد، وأنزلنا عليك ﴿سَبْعًا مِنَ﴾ الآيات ﴿الْمَتَانِي﴾ وهي فاتحة الكتاب ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ الشأن.
عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله قال لي: يا محمد، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَتَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾، فأفرد الامتنان عليّ بفاتحة الكتاب، وجعلها بإزاء القرآن العظيم»^٢.

١. لا موضع للقسم في الآية.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٦٠/٣٠٢، تفسير الصافي ٣: ١٢٠.

وعن الصادق عليه السلام، أنه سئل عن هذه الآية، فقال: «هي سورة الحمد، وهي سبع آيات منها ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾»^١.

وعن أحدهما عليه السلام، أنه سئل عنها فقال: «فاتحة الكتاب»^٢.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام - في حديث - «زاد الله محمداً صلى الله عليه وآله السبع الطوال وفاتحة الكتاب، وهي السبع المثاني»^٣.

قيل: سميت بالمثاني لأنها تُقرأ بعدها السورة في الصلاة ويُنْتَى بها^٤.

وعن الصادق عليه السلام: «إنما سميت مثاني لأنها تُنْتَى في الركعتين»^٥.

وعن أحدهما عليه السلام: «يُنْتَى فيها القول»^٦. ولعل المراد منه ما قيل من أن كلماتها مثناة مثل ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ﴾^٧.

وقيل: لأن الفاتحة قسمت نصفين نصفها لله، ونصفها للعبد، فإن نصفها ثناء العبد للرب، ونصفها عطاء الرب للعبد^٨.

وقيل: لأنها نزلت مرتين: مرة بمكة في أوائل ما نزل من القرآن، ومرة بالمدينة^٩.

وقيل: إن المثاني جميع القرآن وصفته، لأنه كرر فيه الوعد والوعيد، والأمر والنهي، والثواب والعقاب والقصاص^{١٠}، والفاتحة بعض منه.

أقول: هذا القول أظهر.

وقيل: إن المثاني مأخوذ من الثناء، سميت به الفاتحة لاشتغالها على الثناء على الله، وهو حمده وتوحيده ومملكته^{١١}.

وعن الباقر عليه السلام: «نحن المثاني الذي أعطاه الله نبينا»^{١٢}.

وقال الصدوق عليه السلام: أي نحن الذين قرنا النبي صلى الله عليه وآله إلى القرآن، وأوصى بالتمسك بالقرآن وبنّا،

١. تفسير العياشي ١: ٧٦/٩٩، تفسير الصافي ٣: ١٢٠.

٢. تفسير العياشي ٢: ٢٣٤٧/٤٣٧، تفسير الصافي ٣: ١٢٠.

٣. الاحتجاج: ٢١٥، تفسير الصافي ٣: ١٢٠.

٤. تفسير العياشي ١: ٧٦/١٠٠، تفسير الصافي ٣: ١٢٠.

٥. تفسير العياشي ٢: ٢٣٤٧/٤٣٧، تفسير الصافي ٣: ١٢٠.

٦. تفسير روح البيان ٤: ٤٨٦.

٧. تفسير روح البيان ٤: ٤٨٦.

٨. تفسير العياشي ١: ٣٧٧، تفسير العياشي ٢: ٢٣٤٦/٤٣٧، التوحيد: ٦/١٥٠، تفسير الصافي ٣: ١٢٠.

٩. تفسير الرازي ١٩: ٢٠٧.

١٠. تفسير الرازي ١٩: ٢٠٧.

١١. تفسير الرازي ١٩: ٢٠٧.

١٢. تفسير القمي ١: ٣٧٧، تفسير العياشي ٢: ٢٣٤٦/٤٣٧، التوحيد: ٦/١٥٠، تفسير الصافي ٣: ١٢٠.

وأخبر أمته أنا لا نفترق حتى نرد [عليه] حوضه^١.

روي أن سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات - ليهود قريظة وأذرعات^٢ والنضير - في يوم واحد مكة، فيها أنواع من البزّ وأفارويه^٣ الطيب والجوهر وأمتعته البحر. فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقويتنا بها وأنفقناها في سبيل الله، فنزلت. وقال: قد أعطيتكم سبع آيات هي خير لكم من هذه السبع قوافل^٤.

وقيل: لما وردت قوافل قريش بمكة، وكانت فيها مطاعم وملابس كثيرة، خطر في قلب النبي ﷺ أن المؤمنين جياع غراء ويكون للمشركين هذه الأموال الكثيرة فنزلت^٥.

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ [٨٨-٩١]

ثم لما عرف الله نبيه ﷺ أعظم نعمته عليه، نهاه عن الرغبة فيما بأيدي الناس من الأمتعة الدنيوية الفانية بقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ ولا تلتفت بقلبك ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ من زخارف الدنيا وخطامها أصنافاً من الكفار و﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ كاليهود والنصارى والمجوس والمشركين بعد ما أنعمنا عليك بالرسالة والعلم والحكمة والقرآن من النعم التي عندها يستخقر جميع عالم الوجود.

عن ابن عباس: أي لا تتمن ما فضلنا به أحداً من متاع الدنيا^٦.

رُوي أنه ﷺ نظر إلى نعم بني المصطلق وقد عيس في أبوالها وأبعارها فتتقن وقرأ هذه الآية^٧. قيل: معنى عيس [في أبوالها وأبعارها: هو] أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها إذا تركت من العمل [أيام الربيع، فتكثر] شحومها ولحومها^٨.

وروي أنه ﷺ لا ينظر إلى ما يستحسن من [متاع] الدنيا^٩.

ثم أنه تعالى بعد النهي عن الالتفات إلى أموال الكفار، نهاه عن الالتفات إلى أنفسهم بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إذا لم يؤمنوا، ولا يكن لهم في قلبك قدر ومنزلة.

١. التوحيد: ٦١/١٥١، تفسير الصافي ٣: ١٢٠. ٢. (وأذرعات) ليست في المصادر.

٣. البزّ: نوع من الثياب، والأفارويه: نوافج الطيب، والنوافج: الأوعية التي يوضع فيها الطيب. وقيل: الأفارويه: تطلق على ما يعالج به الطيب، كما أن التوابل ما يعالج به الأطعمة.

٤. تفسير الرازي ١٩: ٢١٠، تفسير البضاوي ١: ٥٣٥، تفسير روح البيان ٤: ٤٨٦.

٥. تفسير روح البيان ٤: ٤٨٦. ٦-٩. تفسير الرازي ١٩: ٢١٠.

وقيل: إن المراد لا تحزن على أتباعك ومصدقك لقرهم^١ «وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ» وتواضع بنفسك «لِلْمُؤْمِنِينَ» بك المطيعين لأحكام ربك، وإن كانوا أفقر الناس، فإن تواضعك لهم أطيب لقلوبهم من ظفرهم بما يحبون من الدنيا «وَقُلْ» للناس: «إِنِّي أَنَا اللَّذِيْزُ» من عذاب الله ببيان أحكامه وشدة عقابه على عصيانه «الْمُؤْمِنِينَ» والموضح لكم جميع ما أبلغكم، وما يتعلق بالمبدأ والمعاد، وقل للمشركين: إنا نزل عليكم العذاب «كَمَا أَنْزَلْنَاهُ» من العذاب «عَلَى» اليهود «الْمُتَّقِينَ» للقرآن يجعل ما وافق التوراة منه حقاً، وما لم يوافقه باطلاً، كما عن ابن عباس^٢.

وقيل: اقتسامه بأن قال بعضهم استهزاء بالقرآن: هذه السورة لي، وقال الآخر: هذه السورة لي، أو قال بعضهم: إنه سحر. وقال آخر: إنه شعر، وقال ثالث: إنه كذب، وقال رابع: إنه أساطير. وقيل: إن المقتسمين قوم ثمود، فإنهم تقاسموا لثيبتة وأهلها^٣.

وعن ابن عباس ينقل آخر: هم الذين اقتسموا طريق مكة يصدون الناس عن الإيمان، ويقرب عددهم من أربعين^٤.

وقيل: كانوا ستة عشر [رجلاً] بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاقسموا عقبات مكة وطرقها، ويقولون لمن يسلكها: لا تتزوا بالخارج منا والمدعي للنبوّة فانه مجنون، وكانوا ينفرون الناس عنه ﷺ بأنه ساحر أو كاهن أو شاعر، والمعنى أنذرتكم مثل ما نزل بالمقتسمين^٥؛ وهم «الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ» وجزءوه إلى سحر وشعر وكهانة وأساطير. وعنهما ﷺ، قالوا: «هم قريش»^٦. وقيل: يعني مقترى^٧.

فَوَرِّكَ لَسْتَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ
عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [٩٦-٩٢]

ثم هددهم بقوله: «فَوَرِّكَ لَسْتَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ» سؤال توبيخ وتقريع «عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» من تكذيب الرسول والاستهزاء بكتابه.

ثم أمر الله نبيه ﷺ بترك المبالاة بالكفار بقوله: «فَاصْدَعْ» واشتغل «بِمَا تُؤْمَرُ» من التبليغ جهاراً،

٢. تفسير الرازي ١٩: ٢١٢، تفسير روح البيان ٤: ٤٨٩.

٤. تفسير الرازي ١٩: ٢١١.

٦. تفسير العياشي ٢: ٢٣٥٧/٤٣٩، تفسير الصافي ٣: ١٢٢.

١. تفسير روح البيان ٤: ٤٨٧.

٣. تفسير الرازي ١٩: ٢١٢.

٥. تفسير الرازي ١٩: ٢١١.

٧. تفسير الرازي ١٩: ٢١٣.

ولا تبال بكيد الأعداء» وأعرض عني المشركين» ولا تعتن بهم ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ بك وكتابك ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ آلهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء عاقبة شريكهم في الدارين.

قيل: كان المستهزون بالنبي ﷺ خمسة نفر من المشركين: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث. قال جبرئيل لرسول الله ﷺ: أمرت أن أكفيكمهم، فأومأ إلى عقيب الوليد فمرّ بئال فتعلّق بثوبه سهم، فلم ينطف تعظماً لأخذه، فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات، وأومأ إلى أخمص العاص بن وائل فدخلت فيها شوكة، فقال: لُدغْتُ لُدغْتُ، فانتفخت رجله حتّى صارت كالزّحامة، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب فعمي، وأشار إلى أنف عدي بن قيس فامتخط قيحاً فمات، وأشار إلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة، فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات^١.

وقال بعض العامة: إن الآيات نزلت في خمسة نفر ذوي شأن وخطر، كانوا يبالغون في إيذاء رسول الله ﷺ والاستهزاء به، فأهلكهم الله في يوم واحد، وكان إهلاكهم قبل بدر: منهم العاص بن وائل السهمي والد عمرو بن العاص، كان يخلج^٢ خلف رسول الله ﷺ بأنفه وفمه ويسخره، فخرج في يوم مطير على راحلته مع ابنين له، فنزل شيعياً من تلك الشعاب، فلما وضع قدمه على الأرض قال: لُدغْتُ، فطلبوا فلم يجدوا شيئاً، فانتفخت رجله حتى صارت مثل عتق البعير، فمات مكانه، ومنهم الحارث بن قيس، أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش الشديد، فلم يزل يشرب الماء حتى انقَدَ - أي انشَقَّ - بطنه، فمات في مكانه، ومنهم الأسود بن المطلب، خرج مع غلام له فأتاه جبرئيل وهو قاعد في أصل شجرة، فجعل جبرئيل ينطح رأسه على الشجرة، وكان يستغيث بغلامه، فقال غلامه: لا أرى أحداً يصنع بك شيئاً غير نفسك، فمات مكانه، وكان هو وأصحابه يتغامزون بالنبي ﷺ وأصحابه ويضغفرون إذا رأوه، ومنهم الأسود بن عبد يغوث خرج من أهله فأصابه السموم^٣ ﴿فَأَسْوَدَ﴾ حتى صار كالفحم، فأتى أهله فلم يعرفوه، فأغلقوا دونه الباب ولم يدخلوه دارهم حتى مات^٤.

قيل: إنّه كان إذا رأى المسلمين قال لأصحابه استهزاء بالصحابة: قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرى وقيصر؛ وذلك لأنّ ثيابهم رثّة وعيشهم حثّين. ومنهم الوليد بن المغيرة والد خالد بن الوليد [وعم أبي جهل] خرج يتبختر في مشيته حتى وقف على رجل يعمل السهام، فتعلّق سهمه في ثوبه، فلم ينقلب لينحيه تعظماً، فأخذ طرف رداءه ليجعل على كتفه فأصاب السهم أكحله^٥ فقطعه، ثمّ

١. تفسير الرازي ١٩: ٢١٥.

٢. خلع الشيء: حرّكه.

٣. السموم: الريح الحارة.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٤٩١.

٥. الأكحل: ورید في وسط الذراع.

ثم ينقطع الدم عنه حتى مات^١، وكان جميع ذلك في يوم واحد.

القمي^٢، قال: نزلت بمكة بعد أن نبي رسول الله ﷺ بثلاث سنين، وكان المستهزون برسول الله ﷺ خمسة: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن طلائلة الخزاعي^٣.

عن الصادق، عن آبائه، عن أمير المؤمنين^٤ عليه السلام: «فأما المستهزون فقال الله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ فقتل الله خمستهم، كل واحد منهم بغير قتلة صاحبه في يوم واحد، فأما الوليد بن المغيرة فمَرَّبَنيل لرجلٍ من خزاعة قد رآه^٥ ووضعه في الطريق، فأصابته [شظية] منه فانقطع أكله حتى أدامه، فمات وهو يقول: قتلني رب محمد، وأما العاص بن وائل السهمي فإنه خرج في حاجة له إلى موضع فتدهده تحته حجر فسقط، فتقطع قطعة قطعة، فمات وهو يقول: قتلني رب محمد، وأما الأسود بن عبد يغوث فإنه خرج يستقبل ابنه زمعة فاستظل بشجرة، فأناه جبرئيل فأخذ رأسه فنطح به الشجرة، فقال لعلامه: امنع هذا مني، فقال: ما أرى أحداً يصنع شيئاً إلا نفسك، فقتله وهو يقول: قتلني رب محمد، وأما الأسود بن المطلب^٦ فإن النبي ﷺ دعا عليه أن يعمي [الله] بصره وأن يئكله ولده، فلما كان في ذلك اليوم خرج حتى صار إلى موضع، فأناه جبرئيل بورقة خضراء، فضرب بها وجهه فعمي، وبقي حتى أكله الله ولده، وأما الحارث بن طلائلة^٧ فإنه خرج من بيته في السُّموم فتحول حبشياً، فرجع إلى أهله فقال: أنا الحارث، فغضبوا عليه فقتلوه وهو يقول: قتلني رب محمد^٨. وروى أن الأسود بن عبد يغوث^٩ أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش، فلم يزل يشرب الماء حتى انتشق بطنه، فمات وهو يقول: قتلني رب محمد. كل ذلك في ساعة واحدة، وذلك أنهم كانوا بين يدي رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، نتظربك إلى الظهر، فان رجعت عن قولك وإلا قتلناك، فدخل النبي ﷺ منزله فاعلق عليه بابه مغتماً لقولهم، فأناه جبرئيل عن الله في ساعته فقال: يا محمد، السلام يتركك السلام، وهو يقول: ﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني أظهر أمرك لأهل مكة وادعهم إلى الإيمان. فقال: يا جبرئيل، كيف أصنع بالمستهزين وما أوعدونني؟ قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ قال: يا جبرئيل، كانوا الساعة بين يدي؟ قال: كُفيتهم، فأظهر أمره عند ذلك^{١٠}.

وفي رواية: «فخرج رسول الله ﷺ فقام على حجر فقال: يا معشر قريش، يا معشر العرب، أدعوكم إلى

١. تفسير روح البيان ٤: ٤٩٢.

٢. تفسير القمي ١: ٣٧٨، تفسير الصافي ٣: ١٢٣.

٣. في الاحتجاج: الأسود بن الحارث.

٤. الاحتجاج: ٢١٦، تفسير الصافي ٣: ١٢٣.

٥. الاحتجاج: ٢١٧، تفسير الصافي ٣: ١٢٣.

٦. راش النبل: ركب عليه الريش.

٧. في الاحتجاج: الحارث بن أبي الطلالة.

٨. في الاحتجاج: الأسود بن الحارث.

شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأمركم بخلع الأنداد والأصنام، فأجيبوني تملكوا بها العرب، وتدين لكم العجم، وتكونوا ملوكاً في الجنة، فاستهزءوا منه، وقالوا: جُنَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَلَمْ يَجْشُرُوا عَلَيْهِ لِمَوْضِعِ أَبِي طَالِبٍ^١.

وعن الصادق عليه السلام: «اكتتم رسول الله ﷺ [بمكة] مختفياً خائفاً خمس سنين لم يُظهر أمره وعليه عليه السلام معه وخديجة، ثم أمره الله أن يصدع بما أمر [به] فظهر وأظهر أمره»^٢.

وفي رواية: «ثم أمره الله أن يصدع بما يؤمر، فجعل يعرض نفسه على قبائل العرب، فإذا أتاهم قالوا: كَذَّابٌ امْضِ عَنَّا»^٣.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ

السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ [٩٧-٩٩]

ثم لما أشار الله سبحانه إلى جسارة القوم على نبيه ﷺ وحببيه وضيق صدره بمقتضى الطبيعة البشرية، سلأه بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ ويحزن قلبك ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ من التكذيب والاستهزاء والإهانة، فإن الالتفات إلى أن المصائب بعين الله ومرآة من أقوى التسلية للمؤمن.

عن الصادق عليه السلام: «عليك بالصبر في جميع أمورك، فإن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ فأمره بالصبر والرفق... فصبر حتى نالوه بالعظام ورموه بها، فضاق صدره، فأنزل الله عز وجل [عليه]: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾»^٤.

ثم أمره الله بذكره الموجب لاطمئنان القلب، والاستغراق في أنوار الربوبية، والانصراف عن الدنيا ومصائبها بقوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ الله مقرباً له ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وثناءه ﴿وَكُنْ مِنَ﴾ جملة ﴿السَّاجِدِينَ﴾ والمبالغين في الخضوع له، أو من المصلين، فإن القرع إلى الله بالسجود والصلاة يفرج الهم ويكثف الكرب ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾ على أي حال كنت ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ والموت، عن ابن عباس^٥، ولا تكن في آن من آتات عمرك متوانياً في القيام بوظائف العبودية.

الحمد لله الذي وفقني لإتمام تفسير [سورة] الحجر.

١. تفسير القمي ١: ٣٧٩، تفسير الصافي ٣: ١٢٤. ٢. كمال الدين: ٢٨/٣٤٤، تفسير الصافي ٣: ١٢٢.

٣. تفسير العياشي ٢: ٤٤٠/٢٣٦٠، تفسير الصافي ٣: ١٢٢.

٤. في النسخة: جسارة القوم بنبيه. ٥. الكافي ٢: ٣/٧٢، تفسير الصافي ٣: ١٢٤.

٦. مجمع البيان ٦: ٥٣٤، تفسير الرازي ١٩: ٢١٦.

في تفسير سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [١]

ثم لما ختم سبحانه سورة الحجر بوعيد الكفار بالعذاب وتهديد المستهزئين بالنبي ﷺ باستعجال العذاب، وأمر النبي ﷺ بالاعلان برسالاته ودعوته وعدم المبالاة بمعارضيه، وتسليته بعلمه بضيق صدره، وأمره بالتوجه إليه واشتغاله بعبادته، وكان أول سورة النحل تأكيد الوعيد بنزول العذاب والنهي عن الاستعجال فيه، وبيان ما يجب الانذار به، وختمه أمر النبي بالدعوة والصبر على أذى الكفار وعدم الاعتناء بهم، وعدم ضيق صدره من مكْرهم، واهتمامه بالعبادة والأعمال الحسنة، وأهم المطالب المذكورة فيها وهو التوحيد والمعاد والنبوة موافقاً لما في الحجر، أردفها بالنحل ونظمها بعدها^١، فابتدأ سبحانه تبركاً وتعليماً للعباد بذكر أسمائه الحسنى حسب رسمه ودأبه بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم شرع فيها بتأكيده وعيد المشركين بالعذاب بقوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ وعذابه الموعود به ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ولا تطلبوا سرعة نزوله، فإنه لا خير لكم فيه ولا خلاص لكم منه.

عن ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾^٢ قال الكفار فيما بينهم: إن هذا يزعم أن القيامة قد قُرِبت فأمسكوا عن [بعض] ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن. فلما تأخرت قالوا: ما نرى شيئاً مما نخوفنا به؟ فنزل قوله تعالى: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾^٣ فأشفقوا وانتظروا يومها، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد، ما نرى شيئاً مما نخوفنا به. فنزل قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ فوثب رسول الله ﷺ ورفع الناس رؤوسهم، فنزل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾^٤ فيكون المعنى أن أمر القيامة وعذاب الكفار محقق الوقوع يجب أن ينزل منزلة الواقع.

٣. الأنبياء: ١/٢١.

٢. القمر: ١/٥٤.

١. في النسخة: أردف بالنحل ونظم بعده.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٢، تفسير الرازي ١٩: ٢١٨، ولم ينسبه إلى ابن عباس.

روي أنه لما نزلت قال النبي ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»^١ وجمع بين الوسطى والسبابة. وفي حديث آخر: «مثلي ومثل السَّاعَةِ كَقَرَسِي الرُّهَانِ»^٢. وعن الصادق عليه السلام: «إِذَا أَخْبَرَ اللَّهُ شَيْئًا أَنَّهُ كَائِنٌ، فَكَأَنَّهُ قَدْ كَانَ»^٣. وقيل: إن المراد أن حكمة [الله] تعالى بوقوع العذاب قد أتى وتحقق، وإنما لم يتحقق المحكوم به لاقتضاء الحكمة وقوعه في وقت معين لم يجز بعد^٤. وروي أيضاً أن كفار قريش كانوا يستبطنون نزول العذاب الموعد لهم سخريةً بالنبي ﷺ وتكذيباً لوعده، وكانوا يقولون: إن صح ما تقول من مجيء العذاب، فالأصنام تشفع لنا وتخلصنا منه، فنزلت^٥. ثم نزه الله تعالى ذاته عن الشريك الدافع لمراده بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيدفع ما أراد بهم من العذاب عنهم.

يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ [٢]

ثم لما كان عمدة شبهة المشركين في نبوة النبي ﷺ إنكارهم إمكان نبوة البشر مع قدرة الله على إرسال الملك، دفع الله تعالى هذه الشبهة بقوله: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ﴾. عن ابن عباس: يُريد جبرئيل^٦ وحده ﴿بِالرُّوحِ﴾ والوحي الذي به حياة القلوب. وعن الباقر عليه السلام: «يقول بالكتاب والنبوة»^٧. والقمي عليه السلام: بالقوة التي جعلها فيهم^٨. وقيل: المراد بالروح جبرئيل، والباء بمعنى مع، والمعنى يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ مع جبرئيل^٩، ويكون نزولهم صادراً مِنْ أَمْرِهِ، وإذنه ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ نزولهم عليه ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ الأنبياء الذين خصهم الله برسالته. وعن الباقر عليه السلام: أنه شغل عن هذه الآية، فقال: «جبرئيل الذي نزل على الأنبياء، والروح يكون معهم ومع الأوصياء لا يفارقهم، يُفَقِّههم ويُسَدِّدهم من عند الله»^{١٠}. وقال بعض مفسري العامة: ما ينزل ملك إلا ومعه الروح، يكون الروح رقيباً عليه كما يكون

٣. تفسير العياشي ٣/٣: ٢٣٦٢، تفسير الصافي ٣: ١٢٦.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٢.

٧. تفسير القمي ١: ٣٨٢، تفسير الصافي ٣: ١٢٧.

١٠. بصائر الدرجات: ١/٤٨٣، تفسير الصافي ٣: ١٢٧.

١ و٢. تفسير روح البيان ٥: ٣.

٤. تفسير الرازي ١٩: ٢١٨.

٦. تفسير الرازي ١٩: ٢١٩.

٩. تفسير الرازي ١٩: ٢٢٠.

الملائكة الحفظة رُقباء على بني آدم^١. وعلى أي تقدير يكون وحيهم إلى الأنبياء ﴿أَنْ أُنذِرُوا﴾ وخوفوا قومكم، واعلموا ﴿أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ ولا معبود سواي، وأنا أعاقبهم على القول بالاشراك بي في الألوهية والعبادة، وقولوا لهم: إذا كان الأمر كذلك ﴿فَاتَّقُونِ﴾ وخافوني ولا تُشركوا بي غيري. وقيل: إن الخطاب للمستعجلين على طريقة الالتفات^٢ من الغيبة إلى الخطاب، والمراد أنه إذا كان الأمر كما ذكر من أن الله يُوحى إلى الأنبياء بتوسط الملائكة توحيده، فاتقوني في الاشراك بي وفروعه التي منها الاستهزاء برسولي واستعجال عذابي.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ [٤ و ٣]

ثم لما أعلن سبحانه بتوحيده، أخذ في الاستدلال عليه بكمال قدرته وحكمته بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ خلقاً مقروناً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحكمة والصواب، والوجه الفائق، والنمط اللائق، فمن قدر على هذا الخلق العظيم؟ ﴿تَعَالَى﴾ وتقدس بذاته وصفاته ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به، وتنزه عن أن يجعل له عبيده وغيره عدلاً في الألوهية واستحقاق العبادة.

ثم أنه تعالى بعد الاستدلال بخلق السماوات والأرض، استدلل بخلق ما فيهما من البدائع، ولما كان الانسان أكمل الكل والآية العظمى، ابتدأ سبحانه بالاستدلال بخلقه بقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ الذي انطوى فيه العالم الأكبر ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ قدرة متينة متولدة من الأغذية المتشابهة الأجزاء في الصورة بعد خلق أول فرد منه من تراب ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ بعد خلقه وتربيته وتكميله في الجسم والقوى ﴿خَصِيمٌ﴾ ومعارض لخالقه ﴿مُبِينٌ﴾ ومتجاهر في خصوصته.

روي أن أبي بن خلف الجمحي أتى النبي ﷺ بعظم رميم فقال: يا محمد، أترى الله يحيي هذا بعد ما رم^٣؟ فنزلت^٤ وقيل: يعني منطيقاً مجادلاً عن نفسه، مكافحاً للخصوم، مبيناً لحجته لقنأ بها بعد أن كان نطفة لا حس لها ولا جراك، فانتقاله من أحسن الأحوال إلى أشرفها دليل على وجود مدبر قدير حكيم^٥.

القمي رحمه الله: قال: خلقه من قطرة ماء متين فيكون خصيماً متكلماً بليغاً.

١. تفسير روح البيان ٥: ٤.

٢. تفسير أبي السعود ٥: ٩٦.

٣. رم العظم: بلى.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٦.

٥. تفسير الرازي ١٩: ٢٢٦.

٦. تفسير القمي ١: ٣٨٢، تفسير الصافي ٣: ١٢٧.

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْإِغْيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ [٥-٧]

ثم أنه تعالى بعد الاستدلال بخلق الانسان، استدلل بخلق الحيوانات النافعة له، فابتدأ بخلق أنعمها بقوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ﴾ الأربعة من الإبل والبقر والضأن والمعز ﴿خَلَقَهَا﴾ نفعاً ﴿لَكُمْ﴾ وأهم نفعها أن لكم ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ وحافظ من البرد كاللباس المعمول من الشعر والصوف والوبر ﴿وَرِيحٌ﴾ لكم ﴿مَنَافِعُ﴾ أخر منها كالنسل واللبن والركوب والحرث ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كاللحوم والشحوم وسائر ما يؤكل منها.

ثم نبه سبحانه على منافعها غير الضرورية بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ ووجاهة عند الناس ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تلك الأنعام وتردونها من مراعيها إلى محال راحتها بالعشي ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تلك وترسلونها من مراحها إلى مراعيها بالغداة، فإن القضاء أمام الدور يتزين بها في الوقتين، ويعظم أهلها في أعين الناس.

وإنما قدم الراحة لأن الجمال عند عودها من مراعيها أظهر، لأنها حيثئذ ملأى البطون، حافلة الصروع، مجمعة في الحضائر، حاضرة لأهلها، وأما عند خروجها إلى المراعي فكلها جائعة عادمة اللبن، ثم تأخذ في التفرق والانتشار ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ وأمتعتكم التي لا تقديرون على حملها ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ بعيد ﴿لَمْ تَكُونُوا بِالْإِغْيَةِ﴾ ولم تتمكنوا أن تصلوا إليه مجردين عن الأثقال ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ والتعب الذي يصعب تحمله، فكيف مع استصحابها؟

عن ابن عباس: يريد من مكة إلى المدينة، أو إلى اليمن، أو إلى الشام، أو إلى مصر^١. أقول: هذا التخصيص لأن متاجر قريش كانت في زمان النزول إلى تلك البلاد^٢. ثم بين سبحانه علّة هذه الإنعامات على الإنسان بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ والله ﴿لَرءُوفٌ﴾ وكثير الوداد بكم ﴿وَرَحِيمٌ﴾ وعطوف على خلقه، ولذا أراد توسعة المعاش وتيسير الأمر عليكم بخلق الأنعام.

وَالْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ [٨]

ثم استدلل سبحانه بخلق الحيوانات التي نفعها دون الأنعام بقوله: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَالْحَمِيرَ﴾ خلقها ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ لتكون ﴿زِينَةً﴾ لكم، أو لتزينوا زينة وتعظموا بتملكها وركوبها عند الناس

﴿وَيَخْلُقُ﴾ لانتفاعكم في الدنيا ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ خلقه وعدده ومنافعه وكيفية الانتفاع به من أصناف النعم، وإنما أتى سبحانه بصيغه المضارع للدلالة على التجدد والحدوث.

القمي رحمته الله، قال: العجائب التي خلقها [الله] في البر والبحر ^١.

وقيل: هذا إخبار بأنه سبحانه يخلق من الخلاق ما لا علم لنا به، مما فيه دلالة على قدرته الباهرة الموجبة لتوحيده كنعمته الباطنة والظاهرة ^٢.

عن ابن عباس: أن عن يمين العرش نهراً من نور مثل السماوات السبع والأرضين السبع والبحار السبعة، يدخل فيه جبرئيل كل سحر فيغتسل فيزداد نوراً إلى نور، وجمالاً إلى جمال، وعظماً إلى عظم، ثم يتفضل فيخلق الله من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك، فيدخل منهم كل يوم سبعون ألف [ملك] البيت المعمور، وسبعون ألف ملك الكعبة، لا يعودون إليه أبداً إلى يوم القيامة ^٣.
وقيل: يعني يخلق الله لكم في الجنة غير ما ذكر من النعم الدنيوية ما لا يمكنكم أن تعلموه في الدنيا من النعم التي لم ترها عين وما سمعتها أذن، وما خطرت ^٤ على قلب بشر ^٥.

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ [٩]

ثم أنه تعالى بعد بيان الأدلة القاطعة على توحيده وصفاته الكمالية، بين غاية لطفه بعباده بقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ واجب بمقتضى لطفه الهداية إلى توحيده ومعارفه، بنصب الأدلة القاطعة الواضحة حتى يتبين للناس ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ والطريق المستقيم الموصول إلى كل حق وإلى كل خير، ويمتاز من سائر السبل، فإن منها مستقيماً ﴿وَمِنْهَا جَائِزٌ﴾ ومنحرف عن الحق ومؤدٍ إلى الهلاك، ولا يحصى عددها المدرج كلها تحت الجائر.

وقد أدى سبحانه ما عليه حيث أبدع هذه البدائع التي كل واحد منها نورٌ يهتدى به، وأرسل رسلاً وأنزل كتباً وأرشد إلى الاستدلال بتلك الأدلة المفضية إلى معالم الهدى، المنجية من مهاوي الردى، ألا ترى كيف بين في هذه السورة أولاً تنزهه تعالى عن توهم الاشراك.

ثم بين سر إichاء الوحي إلى الرسل، وكيفية أمرهم بانذار الناس، ودعوتهم إلى التوحيد، وتخويفهم من الشرك وزجرهم عنه، ثم عاد إلى بيان تعاليه عن الشرك بدلالة أفعاله وصنائه، فبدأ بذكر صنعه

١. تفسير القمي ١: ٣٨٢، تفسير الصافي ٣: ١٢٨. ٢. تفسير أبي السعود ٥: ٩٨.

٣. تفسير الرازي ١٩: ٢٣١، تفسير أبي السعود ٥: ٩٨، تفسير روح البيان ٥: ١٢.

٤. في النسخة: تره عين، وما سمعته أذن، وما خطر. ٥. تفسير أبي السعود ٥: ٩٨.

المتعلق بمحيط العالم بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^١. ثم يبين صنعه المتعلق بما بينهما، فبدأ بما يتعلق بأنفس المخاطبين، ثم أردفه بما يتعلق بما فيه ضرورة معاشهم، ثم بما يتعلق بمنافعهم غير الضرورية، ثم يبين قدرته على ما لا يحيط به علم البشر، وهذه غاية اللطف ونهاية الرحمة.

ثم تبه على قدرته على إلقاء الناس إلى معرفته وتوحيده وسلطته على قلوبهم بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَذَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إلى توحيده ومعارفه بالالقاء والاضطرار كما تكونون مضطرين إليه في الآخرة.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ *
يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [١٠ و ١١]

ثم استدل على توحيده وقدرته بانزال المطر وإنبات النباتات بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي﴾ بقدرته وحكمته ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ الْمُطَّلَّ﴾^٢، أو من جانب العلو، أو من السحاب ﴿مَاءً﴾ نافعا بالأمطار، فيحصل ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ تشربون ﴿وَمِنْهُ﴾ يتكون ﴿شَجَرٌ﴾ بغير صنعكم ﴿وَنَبَاتٌ ذُو ساقٍ أَوْ غَيْرُ ذِي ساقٍ فِي الْبَرَارِيِّ وَالْجِبَالِ﴾ وأنتم ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ وترعون مواشيكم، ومن منافع المطر أن الله ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ﴾ من الأرض ﴿الزَّرْعَ﴾ الذي هو أصل أغذيتكم وعمود معاشكم ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ الذي هو أشرف الأشجار من حيث كون ثمره إداماً من وجه وفاكهة من وجه ﴿وَالنَّخِيلَ﴾ الذي روي أنها خلقت من فضل طينة آدم، وأنها أكرم الأشجار على الله^٣ ﴿وَالْأَعْنَابَ﴾ التي هي بعد النخل أنفع الأشجار، وإنما جمع الأعناب للإشارة إلى كثرة أصنافها، وخص تلك الأنواع بالذكر للاشعار بفضلها.

ثم ذكر سائر الثمار بنحو العموم بقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ﴾ قيل: إنما قدم ما هو غذاء الأنعام في الذكر لحصوله بغير صنع البشر، أو للاشعار بفضيلة اغتذاء الإنسان به رياضة للنفس، أو لكون أكثر المخاطبين أصحاب المواشي دون الزرع والبستان، أو للارشاد إلى اهتمام الناس بأمر ما تحت أيديهم أزيد من الاهتمام بأمر نفسه.

ثم أنه تعالى بعد تعداد آيات وحنانيته، حث الناس إلى التفكر فيها بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من إنزال المطر وإنبات النباتات المفصلة والله ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة ودلالات واضحة على وجود صانع

٣. تفسير روح البيان ٥: ١٥.

٢. السماء مؤنث، وقد تذكر.

١. النحل: ٣/١٦.

٤. في النسخة: أن.

قديرٍ ومدبرٍ حكيمٍ ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويتعمّلون غرائب الصنع والحكم البالغة فيها، فإن من تفكّر في أن الحبة أو النواة تقع في الأرض وتصل إليها نداءة تنفّذ فيها، فينشقّ أسفلها فتخرج منه عروق تنبسط في أعماق الأرض، وينشقّ أعلاها وإن كانت متنكّسة في الوقوع، ويخرج منها ساق فيسمو، وتخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والطبّاع والخواص، وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثال على النمط المحرّر إلى غير نهاية مع اتحاد المولود واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثرات العلوية بالنسبة إلى الكل، يستدلّ على أنّ خالقها موجود لا يُشبّهه شيء في شيء من صفاته وكمالاته، فضلاً عن أن يشاركه الجمد الذي هو أحسن الأشياء في ألوهيته واستحقاقه العبادة الذي هو أخصّ صفاته، ولما كان الاستدلال بتلك الأشياء محتاجاً إلى ترتيب مقدّمات فكرية خصّ الاستدلال بها بأهل الفكر والتدبّر.

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [١٢]

ثمّ لما كان مجال توهم استناد نزول الأمطار ونبت الزروع والأشجار وأثمارها إلى الحركات الفلكية واتصالات الكواكب، دفع سبحانه التوهم بقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ وجعلهما متعاقبين لانفصاح ثماركم، وتنظيم معاشكم وغير ذلك من منافعكم ومصالحكم، كأنهما يختلفان على حسب إرادتكم ﴿وَوَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وجعلهما يدأبان في سيرهما وإنارتها، وإصلاح ما يَنَاطُ بهما صلاحه من الموجودات التي منها بأفضل وأجمل ﴿وَالنُّجُومَ﴾ في حركاتها وأوضاعها من التثليث والتربيع والارتفاع والانخفاض وغيرها ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ لكم ودائرات في مصالحكم ﴿بِأَمْرِهِ﴾ تعالى وإرادته.

وحاصل الدفع أنّ الحوادث السفلية لو كانت مستندة إلى الحركات الفلكية والكوكبية، فلا بد أن تكون تلك الحركات مستندة إلى محرّك، لعدم اقتضاء الجسمية للحركة، وإلا لتحرك كلّ جسم، ولا يمكن أن يكون فلك آخر، للزوم التسلسل المُحال، فوجب أن تكون مستندة إلى إرادة قادرٍ مدبرٍ حكيمٍ وهو الله تعالى.

ثمّ لما كانت تمامية هذا الدليل بمقدّمات عقلية، ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ والله ﴿لَآيَاتٍ﴾ وأنواع دلالات على توحيد الله وعظمته ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وقيل: إنه استدلال مستقل على توحيده، وليس متمماً للدليل السابق؛ لأن المشركين لم يكونوا شاكّين في استناد الحوادث الأرضية من نزول الأمطار وإنبات النباتات إلى الله، كما قال سبحانه: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ أَفَعَالِ اللَّهِ﴾^١ وإنما المقصود من ذكر هذا الدليل أن من هذا شأنه لا يجوز أن يتوهم له شريك من الموجودات.

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ [١٣]

ثم عاد سبحانه إلى الاستدلال بالآيات الأرضية بقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ وخلق ﴿لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الحيوانات والنباتات مسخرة لكم، أو مسخر لله تعالى حال كونه ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ وأصنافه أو تراه مختلفاً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التسخير والله ﴿لَآيَةً﴾ ودلالة واضحة على توحيد المسخر له ﴿لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ ويلتفتون إلى ذلك بأدنى التفات، ولا يغفلون عما علموا بالضرورة من العقل، فأنّا نرى في حبة من العنب طبايع مختلفة؛ لقشره طبيعة، ولعجمه طبيعة، ولحمه طبيعة، ولمانه طبيعة، بل نرى في ورقه من الورد ألواناً مختلفة مع كونها في غاية اللطافة وكون تأثير الأنجم والأفلاك والهواء والماء والشراب فيها واحداً، والطبيعة الواحدة في المادة الواحدة لا تؤثر إلا أثراً واحداً، فنعلم أن المؤثر في هذا الاختلاف ليس إلا الفاعل القادر الحكيم المختار.

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً

تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [١٤]

ثم استدلل سبحانه على توحيده بعجائب البحر بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ القادر ﴿الَّذِي سَخَّرَ﴾ لكم ﴿الْبَحْرَ﴾ وجعله تحت تصرفكم ومحل انتفاعكم باصطيادكم منه السمك ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ﴾ باصطياده ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وعذباً لطيفاً مع كون مائه مالحة زعاقاً^٢، وبالفصوص فيه لأجل أن تغوصوا فيه ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً﴾ وزينة مثل اللؤلؤ والمرجان، فتخيطونها^٣ بالثياب، ثم ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ فكانها كانت زينة ولباساً، ومحل انتفاعكم بالركوب وحمل الأمتعة ﴿وَنَ﴾ كذا ﴿تَرَى الْفُلْكَ﴾ والسفن ﴿مَوَاجِرَ﴾ وجاريات ﴿فِيهِ﴾ لتركبوها ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ من رزق الله، وتطلبوا ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وإنعامه بالتجارة وحمل الأمتعة إلى البلدان والقرى البعيدة ﴿وَلِعَلَّكُمْ﴾ تعرفون نعم الله و﴿تَشْكُرُونَ﴾ أفضاله بالاعتراف بتوحيده والقيام بعبادته.

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *

وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ [١٥ و ١٦]

ثم استدلل سبحانه بخلق الجبال وفوائدها وخلق الأنهار والسبل بقوله: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ﴾ وجعل عليها جبلاً ﴿رَوَاسِيَ﴾ وثابت كراهة ﴿أَنْ تَمِيدَ﴾ وتميل الأرض ﴿بِكُمْ﴾ وتضطرب بحيث لا تستقرون عليها، أو التقدير لئلا تميد بكم ﴿وَجَعَلَ أَنْهَارًا كَثِيرَةً وَسُبُلًا﴾ مختلفة إلى البلدان والقرى ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بها إلى مقاصدكم، أو إلى توحيد جاعلها ﴿وَجَعَلَ عَلَامَاتٍ﴾ وأمارات لتعيين الطرق بالنهار من جبل ومنهل.

وقيل: إن جماعة كانوا يَشْمُونَ التراب ويتعرفون السبل^١.

﴿وَبِالنَّجْمِ﴾ في الليل ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ في البراري والبحار إلى مقاصدهم. قيل: إن المراد جنس النجم^٢، وقيل: إنه الثريا والفرقدان وبنات النعش والجدي^٣.

عن الصادق عليه السلام: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: إِنَّ الْأَرْضَ فَخَرَتْ وَقَالَتْ: أَيُّ شَيْءٍ يَغْلِبُنِي؟ فَخَلَقَ اللَّهُ الْجِبَالَ فَأَثْبَتَهَا فِي ظَهْرِهَا أَوْتَادًا، مَنَعَهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِمَا عَلَيْهَا، فَذَلَّتْ الْأَرْضُ وَاسْتَقَرَّتْ»^٤.

وعنه عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْأَنْمَةَ أَرْكَانَ الْأَرْضِ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا»^٥.

وعن الباقر عليه السلام: «لَوْ أَنَّ الْأَمَامَ رَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ سَاعَةً لَمَاجَتْ بِأَهْلِهَا كَمَا يَمُوجُ الْبَحْرُ بِأَهْلِهِ»^٦.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ هُوَ الْجَدْيُ لِأَنَّهُ نَجْمٌ لَا يَزُولُ، وَعَلَيْهِ بَنَاءُ الْقِبْلَةِ، وَبِهِ يَهْتَدِي أَهْلُ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ»^٧.

وعن الصادق عليه السلام - في هذه الآية - قال: «لَهَا ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ، الْجَدْيُ ثَبْنِي عَلَيْهِ الْقِبْلَةُ، وَبِهِ يَهْتَدِي أَهْلُ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ»^٨.

وعنه عليه السلام: «نَحْنُ الْعَلَامَاتُ، وَالنَّجْمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»^٩.

أقول: هذا هو الباطن.

أَفَمَنْ يَخْلُقْ كَمَنْ لَا يَخْلُقْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ

١ و ٢. تفسير روح البيان ٥: ٢١.

٣. الكافي ١: ١٥٢، تفسير الصافي ٣: ١٢٩.

٤. تفسير العياشي ٣: ٢٣٧١/٥، تفسير الصافي ٣: ١٢٩.

١. تفسير روح البيان ٥: ٢١.

٢. الخصال: ٣٤/٤٤٢، تفسير الصافي ٣: ١٢٩.

٣. إكمال الدين: ٩/٢٠٣، تفسير الصافي ٣: ١٢٩.

٤. تفسير العياشي ٣: ٢٣٧٢/٦، تفسير الصافي ٣: ١٢٩.

٥. تفسير العياشي ٣: ٢٣٦٩/٥، الكافي ١: ٣/١٦١، تفسير القمي ١: ٣٨٣، مجمع البيان ٦: ٥٤٥، تفسير الصافي ٣: ١٢٩.

اللَّهُ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن
دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا
يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ [١٧-٢١]

ثمَّ أنه تعالى بعد الاستدلال ببدائع صنعه على توحيده، أنكر على من أشرك به الأصنام بقوله:
﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ هذه المخلوقات العظيمة النافعة، أو يخلق كل شيءٍ يُمكن أن يكون ﴿كَمَن لَا
يَخْلُقُ﴾ شيئاً؟ لا والله لا يمكن أن يتوهم العاقل تشابهاً بينهما ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ولا تلتفتون إلى عدم
التشابه الذي هو أوضح من كل واضح.

ثمَّ أنه تعالى بعد ذكر بعض نعمه، أشار إلى عموم نعمه بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ عليكم ﴿لَا
تُحْصُوهَا﴾ ولا تقديرون على تعدادها؛ لعدم إمكان إحاطتكم بجميعها لكثرتها، فإن كلَّ عرقٍ أو
عصب في - البدن وإن كان في غاية الصغر - نعمة عظيمة، بحيث لو اختل أحدها ليمتنى أن يُنْفِقَ
جميع الدنيا لإزالة ذلك الخلل، مع أنَّ الشُّظَّاء^١ والعروق الصغار في البدن لا يمكن إحصاؤها فكيف
بالنعم الخارجية، فإنَّ جميع ذرات الموجودات دخیل في مصالحه من غذائه ولباسه وصحته
وتكميل نفسه، وأنتم تكفرون بتلك النعم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ مع ذلك والله ﴿لَعَفُورٌ﴾ لكفرانكم و﴿رَّحِيمٌ﴾
بإدامة نعمه عليكم وعدم قطع فضله وإحسانه عنكم.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ من كفران نعمه من توطنتكم على توهين رسوله ﷺ وتخریب دينه
والاستهزاء بكتابه ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وتَجْهَرُونَ من عبادتكم الأصنام، وإيذاء الرسول، وصدكم الناس
عن دين الحق.

وقيل: إنَّ وجه التَّنْظُّم أنَّه تعالى أثبت وُحْدَانِيَّتِهِ في الآيات السابقة بإثبات قدرته الكاملة، وفي هذه
الآية بسعة علمه.

ثمَّ استدلَّ على عدم قابلية الأصنام للعبادة بعجزهم وعدم شعورهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾
ويعبدون الأصنام ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ومتجاوزين عنه ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ ولا يقديرون على إيجاد شيء
﴿وَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿يُخْلَقُونَ﴾ بتخليق الغير.

ولو تنزلنا عن لزوم كون الإله قادراً غير عاجز، وخالقاً غير مخلوق، فلا مناص من القول بلزوم كون
الإله حياً غير ميت، ومن الواضح أنَّ هؤلاء الأصنام ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ قيل: إنَّ المراد أنَّهم أموات

لا يكون عَقِيب موتهم حياة^١. وأيضاً لابد من كونه شاعراً لعبادة عابديه عالماً بأحوالهم، وهؤلاء الأصنام لا يعلمون بأحوال أنفسهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُنْعَثُونَ﴾ وفي أي وقت يحيون ويَحْشَرُونَ. وإنما ذكر سبحانه عدم شعورهم بوقت بعثهم مع أنهم لا يشعرون شيئاً، للاشعار بأنهم يحشرون لازدياد حسرة عابديهم على عبادتهم.

عن ابن عباس: أن الله يبعث الأصنام ولها أرواح ومعها شياطينها، فيؤمر بها إلى النار^٢. أقول: إلقاءها في النار ليس لتعذيبها، لأنه لا معصية لها، بل لتعذيب عابديها. قيل: إن الله وصف الأصنام بالموت وعدم الشعور مع أن الجمد لا يوصف بهما؛ لأن المشركين وصورهم بالألوهية^٣، فحسُن أن يقال: ليس الأمر كذلك، بل هي أموات لا شعور لها. وقيل: إن المراد أنهم لا يشعرون أن عبدتهم أيان يُنْعَثُونَ^٤، فكيف يكون لهم شعور بوقت جزائهم على عبادتهم؟!

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * لَا جَزَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُغْلِثُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ [٢٣ و ٢٢]

ثم أنه تعالى بعد إثبات التوحيد وتزييف عبادة الأصنام، أكد توحيده في الألوهية بقوله: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا إله إلا هو بالبراهين الساطعة والحجج الباهرة، وإذا كان الأمر كذلك ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بوَحدانية الله مع كمال وضوحها، إنما هو لكونهم لا يؤمنون ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ ولا يرجون ثواب الله على التوحيد، ولا يخافون عقابه على الشرك، ولذا ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ تابعة لهوى أنفسهم، مصرّة على تقليد أسلافهم ونصرة أباطيلهم ﴿مُنْكَرَةٌ﴾ لكل حق يخالفه ﴿وَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول قول الغير، ومرتفعون عن طاعة الرسول ﷺ.

ثم هددهم سبحانه بقوله: ﴿لَا جَزَمَ﴾ وحقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ ويخفون من الكيد برسوله ﷺ، ويضمرون من التصميم على إهانة أوليائه ﴿وَمَا يُغْلِثُونَ﴾ ويظهرون من تحزيب الأحزاب وإلقاء الشبهات في القلوب وغيرهما، فيجازيهم عليها أسوأ الجزاء ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ ولا يريد لهم خيراً، ولا يدفع عنهم شراً، بل يكلمهم إلى أنفسهم، ليظهر خبث ذواتهم، ويتناهى طغيانهم وكفرهم.

عن الباقر عليه السلام، في تأويل الآية: «﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني الرجعة ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ يعني

كافرة: ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني عن ولاية علي عليه السلام، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ يعني عن ولاية علي عليه السلام^١.

العباشي: مَرَّ الحسین بن علی عليه السلام على مساكين قد بسطوا كساء لهم، وألقوا [عليه] كسراً، فقالوا له: هلم يا بن رسول الله ﷺ، فثنى وركه فأكل معهم، ثم تلا ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾^٢.

وعن الصادق عليه السلام: «من يرى أن له على الآخر فضلاً فهو من المستكبرين» فقيل: إنما يرى أن له فضلاً عليه بالعاية إذا رآه مرتكباً للمعاصي؟ فقال: «هيهات هيهات، فلعله أن يكون قد غفر له ما أتى وهو موقوف يحاسب، أما تلتوت قصة سحرة موسى؟»^٣.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رُبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * لِيُخْلِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ [٢٥ و ٢٤]

ثم حكى سبحانه بعض شبهات المشركين بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ استهزاء بالقرآن ﴿مَاذَا أُنْزِلَ رُبُّكُمْ﴾ وأي شيء هذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، وتحدى به، وجعله دليلاً على رسالته، والقتال بعض المشركين. وقيل: إنه بعض المسلمين^٤. وقيل: إنه بعض الوفد من الحاج، قالوا للمقتسمين الذين قعدوا في طرق مكة لينفروا الناس عن الرسول ﷺ^٥. والمراد أنه ما هذا الذي يقال إنه أنزله ربكم؟

﴿قَالُوا﴾ إضلالاً لهم: ليس هو مما أنزله الله، ولا من المعجزات، بل هو «أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» وأقاصيص السابقين وأباطيلهم، وإنما قالوا ذلك القول الشنيع «لِيُخْلِلُوا» على ظهورهم «أَوْزَارَهُمْ» وأثقال معاصيهم «كَامِلَةً» وبلا نقص «يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

قيل: إن المعنى أنه يكون عاقبة إضلالهم الناس أنهم يحملون جميع أوزار أنفسهم «و» بعضاً «مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ»^٦ لأن وزر مطاوعته كان عليه، فإن الجاهل لا يتعذر فيه لتقصيره في البحث والفحص.

ثم ذم سبحانه ما يحمله بقوله: ﴿أَلَا سَاءَ﴾ وبش وزراً وجثلاً «مَا يَزِرُونَ» وما يتحملون من الأثقال، وفيه غاية الزجر عنه.

١. تفسير القمي ١: ٣٨٣، تفسير العياشي ٣: ٢٣٧٣/٦، تفسير الصافي ٣: ١٣٠.

٢. تفسير العياشي ٣: ٢٣٧٤/٧، تفسير الصافي ٣: ١٣١.

٣. الكافي ٨: ٩٨/١٢٨، تفسير الصافي ٣: ١٣١. ٤ و ٥. تفسير الرازي ٢٠: ١٨، تفسير أبي السعود ٥: ١٠٧.

٦. تفسير روح البیان ٥: ٢٦.

عن الباقِر عليه السلام قال: «مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ فِي عَلِيٍّ؟» قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» سَجَّعَ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ [فَذَلِكَ قَوْلُهُ «أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» وَأَمَّا قَوْلُهُ] «لِيُخْجِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ» لِيَسْتَكْمِلُوا الْكُفْرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ» يَعْنِي [يَتَحَمَّلُونَ] كُفْرَ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُمْ^١.

وَالْقَمِي عَلَيْهِ السلام يَحْمِلُونَ أَثَامَهُمْ - يَعْنِي الَّذِينَ غَضَبُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السلام - وَأَثَامَ كُلِّ مَنْ اقْتَدَى بِهِمْ^٢.
وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى الْهَدْيِ فَاتَّبِعْ، فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ فَاتَّبِعْ عَلَيْهِ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مِثْلَ أَوْزَارِ مَنْ أَتْبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ [شَيْءٌ]^٣».

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ
مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ [٢٦]

ثُمَّ هَدَّدَ سَبْحَانَهُ الْمَاكِرِينَ بِرَسُولِهِ ﷺ بِمِثْلِ مَا نَزَلَ عَلَى الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّذِينَ مَكَرُوا بِرُسُلِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الدَّنِيِّ بِقَوْلِهِ: «قَدْ مَكَرَ» الْكَفَّارُ «الَّذِينَ» كَانُوا «مِنْ قَبْلِهِمْ» فِي الدُّنْيَا بِرُسُلِهِمْ «فَأَتَى اللَّهَ» بِزَلَزَلٍ شَدِيدَةٍ «بُنْيَانَهُمْ» الَّذِي بَنَوْهُ لِيَمَكَرُوا بِهِ أَنْبِيََاءَهُمْ فَقَلَعَهُ «مِنْ الْقَوَاعِدِ» وَالْأَسَاطِينِ «فَخَرَّ» وَسَقَطَ «عَلَيْهِمُ السَّقْفُ» الَّذِي كَانَ لَذَلِكَ الْبِنْيَانِ «مِنْ فَوْقِهِمْ» فَهَلَكُوا جَمِيعاً بِحَيْثُ لَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ «وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ» وَمِنْ وَجْهِ لَا يَتَوَقَّعُونَ.

قِيلَ: إِنَّ الْمَرَادَ نَمْرُودَ، فَإِنَّهُ بَنَى صَرْحاً وَقَصِراً عَظِيماً بِبَابِلَ طُولُهُ خَمْسَةُ آلَافِ ذِرَاعٍ، وَعَرَضَهُ فَرَسْخَانٍ، لِيُقَابَلَ^٤ عَلَيْهِ مِنْ فِي السَّمَاءِ وَيَطْلُعَ عَلَى إِلَهِ إِبْرَاهِيمَ، فَهَبَّتْ عَلَيْهِ رِيحٌ هَائِلَةٌ فَأَلْقَتْ رَأْسَهُ فِي الْبَحْرِ، وَخَرَّ الْبَاقِي عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا سَقَطَ الصَّرْحُ تَبَلَّطَ الْأَلْسُنُ مِنَ الْفَرْعِ يَوْمئِذٍ، يَعْنِي اخْتَلَفَتِ اللُّغَاتُ فَلَمْ يَفْهَمْ أَحَدٌ لِسَانَ الْآخَرِ^٥.

وَقِيلَ: إِنَّ اللَّهَ شَبَّهَ حَالَ أَوْلَئِكَ الْمَاكِرِينَ فِي تَسْوِيَّتِهِمُ الْمَكَانِدَ وَالْمَنْصُوبَاتِ الَّتِي أَرَادُوا بِهَا الْإِقْبَاعَ بِالرُّسُلِ، وَفِي إِطْلَالِهِ تَعَالَى تِلْكَ الْحِيلَ وَالْمَكَانِدَ، وَجَعَلَهُ إِيَّاهَا سَبَباً لِهَلَاكِهِمْ، بِحَالِ قَوْمِ بَنِيَانَا وَعَمْدُوهُ بِالْأَسَاطِينِ، فَأَتَى ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ أَسَاطِينِهِ بِأَنْ ضَعُفَتْ، فَسَقَطَ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ فَهَلَكُوا^٦.

١. تفسير العياشي ٣: ٢٣٧٧/٧، تفسير الصافي ٣: ١٣١.

٢. تفسير القمي ١: ٣٨٣، تفسير الصافي ٣: ١٣١.

٣. مجمع البيان ٦: ٥٤٩، تفسير الصافي ٣: ١٣١.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٧.

٥. تفسير أبي السعود ٥: ١٠٨.

٦. تفسير أبي السعود ٥: ١٠٨.

فخوف الله الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطير بأنه سيأتيهم من العذاب مثل ما أتاهم وهم لا يحتسبون إتيانه، بل يتوقعون ما يشتهون.

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ [٢٧]

ثم هذدهم بالعذاب الآخروي بقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ ويذلهم بالعذاب، أو يفضحهم على رؤوس الأشهاد بأن يخاطبهم ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم تفضيحاً وتقريعاً واستهزاء: ﴿أَيْنَ﴾ الذين هم ﴿شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تُشَاقُّونَ﴾ وتخاصمون أنبيائي وأوليائي ﴿فِيهِمْ﴾ وفي ألوهيتهم مع أنهم أقاموا البراهين على عدم جواز عبادتهم، فالיום أدعوهم ليشفَعوا لكم^١، ويدفعوا العذاب عنكم؟ فلم يقدروا على الجواب، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ الملائكة كما عن ابن عباس، أو المؤمنون أو الأنبياء^٢ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بالتوحيد والمعارف في الدنيا بالبراهين والمكاشفة توبيخاً عليهم وشامة لهم وتقريعاً لما كانوا يهددونهم به: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ﴾ والفضيحة والهوان ﴿الْيَوْمَ وَالسُّوءَ﴾ والعذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ بالله وبآياته ورسله.

القمي: الذين أوتوا العلم الأئمة عليهم السلام، يقولون لأعدائهم: أين شركاؤكم ومن أطمعهم في الدنيا^٣.

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَاذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ [٢٨ و ٢٩]

ثم خص سبحانه المستحقين للخي والعذاب بالذين يموتون على الكفر بقوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ﴾ وتقبض أرواحهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون على قبض الأرواح، أو على تعذيب العصاة حال كونهم ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ باختيار الكفر وتعريضها للعذاب ﴿فَأَلْقَوْا السَّلَمَ﴾ وأظهروا الانقياد وأقرؤا الله بالعبودية وقالوا كذباً وتخليصاً لأنفسهم: ﴿مَا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ ونقول بالشرك. فقال الله، أو الملائكة رداً عليهم: ﴿بَلَى﴾ قلتم بالشرك و ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك وتكذيب الرسل، فيجازيكم عليه أشد الجزاء، ولا ينفعكم هذا الكذب.

٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢١.

١. في النسخة: ليشفعوكم.

٣. تفسير القمي ١: ٣٨٤، تفسير الصافي ٣: ١٣٢.

ثم يقال لهم: ﴿فَاذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي باب منها شئتم، أو كل فرقة منكم من باب حال كونكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ غير خارجين منها أبداً ﴿فَلَيْشَئْ مُتَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن قبول التوحيد وتبعية الأنبياء.

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ [٣٠]

ثم أنه تعالى بعد بيان سوء مقال الكفار وسوء عاقبتهم، بين حسن مقال المؤمنين وحسن عاقبتهم بقوله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك وعصيان الرسول تفتيشاً عن دين الاسلام، وتحقيقاً عن حال القرآن ﴿مَاذَا﴾ القرآن الذي ﴿أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على نبيكم؟

روي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أمام موسم الحج من يأتيهم بخبر النبي ﷺ، فإذا جاء الوفد لقيه المقتسمون الذين اقتسموا طرق مكة، وأمره بالانصراف وقالوا: إن لم تلقه كان خيراً لك، فإنه ساحر كاهن كذاب [مجنون]. فيقول: أنا شرّ وافد إن رجعت إلى قومي دون أن استطلع أمر محمد وأراه. فيلقى أصحاب النبي ﷺ فيخبرونه بصدقه، فذلك قوله: ﴿وَقِيلَ﴾ أي من طرف الوافدين للذين آمنوا: ماذا أنزل ربكم؟ ﴿قَالُوا﴾: أنزل ربنا ﴿خَيْرًا﴾ وكتاباً حقاً^٢.

ويحتمل أن يكون المراد بالخير المعارف والأحكام المؤدية إلى كل خير في الدنيا والآخرة، فيكون من إطلاق المسبب على سببه، أو من باب المبالغة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «عليكم بتقوى الله فإنها تجمع الخير ولا خير غيرها، ويدرك بها من الخير ما لا يدرك بغيرها من خير الدنيا والآخرة [قال الله عز وجل] ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ إلى آخره»^٣.

ثم بينوا وجه الخيرية بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في العقائد والأعمال ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ تكون ﴿حَسَنَةً﴾ في الآخرة من الجنة والنعم الدائمة والراحة الأبدية، أو المراد أنه يكون لهم في هذه الدنيا حسنة من المدح والثناء والتعظيم والغلبة على الأعداء بالحقبة والألطف الخاصة الإلهية والأنس بالله والانتقطاع عما سواه ﴿وَو﴾ بالله ﴿لَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ وأفضل من دار الدنيا، ﴿وَو﴾ بالله ﴿لَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة.

وعن الباقر عليه السلام: «﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ الدنيا»^٤.

١. في تفسير روح البيان: الرافد كفه.

٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٩.

٣. أمالي الطوسي: ٣١/٢٥، تفسير الصافي ٣: ١٣٣.

٤. تفسير العباسي ٣: ٢٣٨٣، تفسير الصافي ٣: ١٣٣.

وقيل: إن قوله: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ إلى آخره، هو كلام الله تقريراً لقول المتقين خيراً^١.

جَنَّاتٌ عَذْنٌ يَدْخُلُونَهَا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ
يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [٣٢ و ٣١]

ثم شرح سبحانه دار المتقين وبينها، قيل: كأنه قيل: أي دار هذه الدار الممدوحة؟ فأجاب سبحانه بأنها جنات خاصة تسمى «جَنَّاتٌ عَذْنٌ»^٢ هي وسط الجنان. وقيل: يعني جَنَّاتٌ إقامة وخلود^٣ «يَدْخُلُونَهَا» لها قصور مرتفعة وأشجار مثمرة كثيرة «تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» الكثيرة، أو الأربعة المذكورة في سورة محمد ﷺ، و «لَهُمْ» خاصة «فِيهَا مَا يَشَاءُونَ» من المشتبهات النفسانية والروحانية «كَذَلِكَ» الجزاء الجزيل «يَجْزِي اللَّهُ» الكريم «الْمُتَّقِينَ» في الآخرة على إيمانهم وتقواهم.

ثم بين سبحانه أن المراد بالمتقين هم الذين استمروا على التقوى إلى الموت بقوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ﴾ وتقضى أرواحهم «الْمَلَائِكَةُ» الموكلون بقبض أرواح المؤمنين، وهم ملائكة الرحمة، حال كونهم «طَيِّبِينَ» وطاهرين من دَسِّ الشرك والمعاصي، أو طيبة^٥ أنفسهم بالموت، مشتاقين إلى لقاء الله ورضوانه، أو ببشارة الملائكة إياهم بالجنة.

والقمي قال: هم المؤمنون الذين طابت مواليدهم^٦، فإذا كانوا كذلك فالملائكة «يَقُولُونَ» لهم تعظيماً وتبشيراً: «سَلَامٌ» من الله، أو مِنَّا «عَلَيْكُمْ» أيها المؤمنون، لا خوف عليكم بعد هذا اليوم من مكروه.

وقيل: إذا استدعيت نفس المؤمن جاءه ملك الموت فقال: السلام عليك يا ولي الله، الله يُقرئك السلام^٧، وقالت لهم [الملائكة]: إذا بعثتم في القيامة «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ» فإنها معدة لكم مشتقة إليكم، أو قالت لهم: ادخلوا الجنة الآن «بِمَا كُنْتُمْ» في الدنيا «تَعْمَلُونَ» من طاعة الله وترك المعاصي.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ليس أحد من الناس تفارق روحه جسده حتى يعلم إلى أي المنزلين يصير؛ إلى الجنة أم النار، أعدو هو الله أو ولي، فإن كان ولياً لله فُتِحَتْ له أبواب الجنة، وشرعت له طرقها، ونظر إلى ما أعد الله [له فيها] ففرغ من كل شغل، ووُضِعَ عنه كل ثقل، وإن كان عدواً لله فُتِحَتْ

١. تفسير الرازي ٢٠: ٢٤.

٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢٥.

٣. سورة محمد ﷺ: ١٥/٤٧.

٤. تفسير الصافي ٣: ١٣٣.

٥. في النسخة: طيبين.

٦. في تفسير القمي ١: ٣٨٥، تفسير الصافي ٣: ١٣٣.

٧. تفسير روح البيان ٥: ٣١.

له أبواب النار، وشرعت له طرقها، ونظر إلى ما أعد الله له فيها، فاستقبل كل مكروه ونزل كل شرور، وكل^١ هذا يكون عند الموت، وعنده يكون اليقين^٢، قال الله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ إلى آخره، وقال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِمَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية^٣.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [٣٤ و ٣٣]

ثم أنه تعالى بعد حكاية طعن المشركين في القرآن الذي هو أعظم المعجزات، وتهديدهم بالعذاب، بين إصرارهم على الشرك والكفر مع عدم العذر لهم في ترك الإيمان بقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ويتوقعون في ترك الإيمان بالنبي وكتابه شيئاً ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون بقبض أرواحهم، أو ليشهدوا بصدقهما ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وعذابه، أو حكمه بنزول العذاب، مع أن عند أحد الأمرين لا ينفع الإيمان ﴿كَذَلِكَ﴾ الإصرار على الكفر ومعارضة الرسول ﴿فَعَلَ﴾ الأمم الكافرة ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فابتلوا بالعذاب ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بتعذيبهم، لأنه كان حقهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإصرارهم على الكفر والطغيان الموجب لنهاية استحقاقهم له ﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ ووصل إليهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ وجزاء ما فعلوا ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب الموعود.

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ [٣٥]

ثم أنه تعالى بعد حكاية شبهتهم في النبوة وطعنهم في القرآن، حكى استدلالهم على صحة شركهم وبدعهم بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ نحن مجبورون من قبل الله في عقائدنا وأعمالنا، فلا يصدر منا إلا ما أراد الله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن لا نعبد الأصنام، ولا نحرم السائبة وأخواتها ﴿مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ﴾ ومما سواه ﴿مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فلما عبدنا الأصنام

١. في أمالي الطوسي: وترك كل سرور، كل.

٢. في النسخة: ييقين.

٣. أمالي الطوسي: ٣١/٢٧، تفسير الصافي ٣: ١٣٣، والآية من سورة النحل: ٢٨/١٦.

وَحَرَمْنَا مَا حَرَمْنَا عَلَيْنَا، إِنَّهُ تَعَالَى أَرَادَ مَنَّا تِلْكَ الْعِبَادَةَ وَالْحَرَمَةَ.

ثُمَّ أَبْطَلَ اللَّهُ دَلِيلَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ﴾ الاستدلال الذي فعل هؤلاء المشركون ﴿فَعَلَّ﴾ المشركون ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فابتلوا بالعذاب الذي هو أدلّ الدلائل على عدم رضائه تعالى بفعلهم، وقد بلغهم الرسل ذلك ﴿فَهَلْ﴾ الواجب ﴿عَلَى الرُّسُلِ﴾ شيء، ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ والبيان الموضح للحق، وقد أدوا ما عليهم، ولم يكن لهم وعليهم إجبار الناس على قبول قولهم. واعلم أن الآية وأضرابها أدلّ دليل على بطلان القول بالجبر كما عليه الأشاعرة، والعجب من بعضهم أنه قال: هذا الكلام، صدر عنهم استهزاء، ولو قالوه اعتقاداً لكان صواباً^١. وقال آخر منهم: لو قالوه معرفة بالله وتعظيماً له، لما كان فيه عيب^٢.

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ [٣٦]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الْإِشَارَةِ إِلَى تَبْلِيغِ الرُّسُلِ بَطْلَانَ الشُّرْكِ وَعَدَمَ رِضَا اللَّهِ بِهِ، وَتَعْذِيبَ الْقَائِلِينَ بِهِ، صَرَّحَ بِالْأَمْرَيْنِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِنَ الْأُمَمِ ﴿رَسُولًا﴾ خَاصًّا بِهِمْ أَوْ عَامًّا، كَمَا بَعَثْنَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَكَانَتْ رِسَالَتُهُمْ ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وَمَا يَبْعَثُكُمْ إِلَى الطَّغْيَانِ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَالدُّعَاءِ إِلَى الشُّرْكِ، وَأَمَّا أَمَمُهُمْ فَتَفَرَّقُوا ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ وَوَفَّقَهُمْ لِقَبُولِ دَعْوَةِ الرُّسُلِ وَالْإِقْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ وَنَفْيِ الْأَنْدَادِ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ﴾ شَمَلَهُ الْخِذْلَانُ وَ﴿حَقَّتْ﴾ وَثَبَتَتْ ﴿عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾.

عَنِ الْقَمِيِّ: وَرَسَخَ فِي قَلْبِهِ الشُّرْكَ فَلَمْ يَتَّعِظْ بِمَوَاعِظِ الرُّسُولِ إِلَى الْمَوْتِ، وَابْتَلَى كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِالْعَذَابِ^٣.

فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي ﴿فَسِيرُوا﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وَسَافَرُوا فِي أَطْرَافِهَا ﴿فَانظُرُوا﴾ بِعَيْنِ الْإِعْتِبَارِ ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ لِلرُّسُلِ وَكُتُبِهِمْ، كَيْ تَعْتَبَرُوا مِنْ مَشَاهِدَةِ أَثَارِ الْعَذَابِ فِي دِيَارِهِمْ.

إِنْ تَحَرَّضَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ *

٢. تفسير روح البيان ٥: ٣٢.

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٢.

٣. لم نجده في تفسير القمي.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [٣٧-٤٠]

ثم بين سبحانه رسوخ الشرك في قلوب مشركي عصر النبي بقوله: ﴿إِنْ تَخْرُسْ﴾ يا محمد ﴿عَلَى هَذَاهُمْ﴾ وتجتهد كل الجهد في إيمانهم وهدايتهم، لم يقد شيئاً ﴿فَإِنَّ﴾ الهداية والضلالة بيد الله ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ إلى الحق ﴿مَنْ يَضِلُّ﴾ عنه بخذلانه، فيبتلون بالعذاب في الآخرة، أو فيها وفي الدنيا ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أحد ﴿مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يدافع عنهم بشفاعته أو قوة قهرية.

ثم أنه تعالى بعد حكاية إنكارهم التوحيد، حكى إنكارهم البعث مقسمين عليه بقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وأغلظها، على أنه ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ﴾ من في القبور للحساب والجزاء ﴿مَنْ يَمُوتُ﴾ في الدنيا.

قيل: إنهم أنكروا النبوة لادعائهم لقوته إذا لم يكن دار جزاء، ولما لا تكون دار جزاء فلا يكون نبوة^١، فرد الله عليهم بقوله: ﴿بَلَى﴾ يكون دار جزاء، ويبعث الله من يموت البتة، لأنه تعالى حسب حكمته وعد به ﴿وَعْدًا﴾ ثابتاً ﴿عَلَيْهِ﴾ إنجازه، لامتناع الخلف في وعده، وحق البعث عليه ﴿حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بالبعث لجهلهم بقدرة الله وحكمته المقتضية لجوبه عليه ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ ويميز ﴿أَلَهُمْ﴾ المطيع والعاصي، والمحق والمبطل، والظالم والمظلوم وغيرها من الحق ﴿الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ ويتنازعون في شأنه ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بإنكار التوحيد والنبوة والبعث وتكذيب وعد الله ورسله ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿كَاذِبِينَ﴾ في جميع^٢ ما يقولون، وفي خلفهم بالله على عدم البعث.

ثم استدلل سبحانه بكمال قدرته على إمكان البعث بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ جليل أو حقير أو عزيز أو هين ﴿إِذَا﴾ اقتضى الصلاح وجوده ﴿وَأَرَدْنَاهُ﴾ هو ﴿أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ وتفيض عليه الوجود ﴿فَيَكُونُ﴾ ويوجد بلا حاجة إلى مادة ومدة ومعين وآلة ودفع مانع ومعارض، فمن كان نفاذ إرادته بهذه المثابة، كيف يمتنع عليه إعادة الخلق بعد إيجادهم أولاً بغير مثال مع أن الاعادة أهون؟.

في (الكافي) عن الصادق عليه السلام أنه قال لأبي بصير: «ما تقول في هذه الآية ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ

أَيْمَانِهِمْ؟» قال: إِنَّ الْمَشْرِكِينَ يَزْعُمُونَ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ أَنَّهُ لَا يَبْعَثُ الْمَوْتَى. فقال: «تَبَّأَ لِمَنْ قَالَ هَذَا، سَلِمَ هَلْ كَانَ الْمَشْرُوكُونَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ أَمْ بِالْبَلَّاتِ وَالْعُرَى؟».

قال: قلت: جُعِلَتْ فداك، فأوجدنيه. فقال: «يا أبا بصير، لو قد قام قائمنا بعث الله قوماً من شيعتنا، سيوفهم على عواتقهم، فيبلغ [ذلك] قوماً من شيعتنا لم يموتوا ويقولون: بُعِثَ فلان وفلان من قبورهم وهم مع القائم، فيبلغ ذلك قوماً من عدونا فيقولون: يا معشر الشيعة، ما أكذبكم! هذه دولتكم وأنتم تقولون فيها الكذب؟ لا والله ما عاش هؤلاء ولا يعيشون إلى يوم القيامة. [قال:] فحكى الله قولهم فقال: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ»^٢.

وفي رواية العياشي عنه عليه السلام ما يقرب من ذلك^٣.

والقمي عنه عليه السلام أنه قال: «ما يقول هؤلاء في هذه الآية؟ قيل: يقولون نزلت في الكفار. قال: «إِنَّ الْكُفَّارَ لَا يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ قِيلَ لَهُمْ: تَرْجِعُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيَحْلِفُونَ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾» يعني في الرجعة يؤدّهم فيقتلهم ويشفي صدور قوم مؤمنين^٤.

أقول: الظاهر أن المراد في الروايات بيان تأويل الآية، والمراد من قوله: «تَبَّأَ لِمَنْ قَالَ هَذَا» يعني قال بانحصر المراد فيه.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوءَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [٤١]

ثم لما ذكر سبحانه سوء عقائد المشركين، أشار إلى سوء معاشرتهم للمسلمين وإيذائهم لهم، ورغبتهم في الهجرة من بلادهم بقوله: «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا» من مكة وأوطان المشركين من المسلمين «فِي» سبيل «اللَّهِ» طلباً لرضاء، وحفظاً لدينه «مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا» وأودوا في سبيلي «لَنَبُوءَتِهِمْ» ولنزلتهم «فِي الدُّنْيَا» مباءة^٥ ومنزلة «حَسَنَةٌ» مرضية. قيل: هي المدينة المنورة حيث آواهم أهلها ونصروهم^٦.

روي عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في ستة نفر من الصحابة: صُهَيْب، وِلَال، وَعَمَّار، وَخَبَّاب،

١. زاد في الكافي: قبايع، وفي الصافي: قبايع، والمراد جمع قبيعة: وهي ما على طرف مقبض السيف من فضة أو ذهب.
٢. الكافي ٨: ١٤/٥٠، تفسير الصافي ٣: ١٣٥.

٣. تفسير العياشي ٣: ٢٣٨٥/٩. ٤. تفسير القمي ١: ٣٨٥، تفسير الصافي ٣: ١٣٥.

٥. في النسخة: مباءة. ٦. تفسير الرازي ٢٠: ٣٤، تفسير روح البیان ٥: ٣٦.

وعابس وجبير موليين لقريش، فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الاسلام، أما صهيب فقال لهم: اني رجل كبير، ان كنت لكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضركم، فافندى منهم بماله، فلما رآه أبو بكر قال: ربح البيع يا صهيب، وأما سائرهم فقد قالوا بعض ما أراد أهل مكة من كلمة الكفر والرجوع عن الاسلام، فتركوا عذابهم، ثم هاجروا^١.

وقيل: نزلت في المهاجرين إلى الحبشة ثم إلى المدينة، فجمعوا بين الهجرتين^٢.
 روي أن رسول الله ﷺ لما رأى ما نزل بالمسلمين من توالي العذاب عليهم من كفار قريش، قال لهم: «تفرقوا في الأرض، فإن الله سيجمعكم». قالوا: إلى أين نذهب؟ قال: «اخرجوا إلى الحبشة، فإن بها ملكاً عظيماً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه». فهاجر إليها ناس ذو عدد، قيل: كانوا فوق ثمانين، مخافة الفتنة وفراراً إلى الله تعالى بدينهم^٣.
 ثم وعدهم بالأجر الآخروي بقوله: «وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ» المعد لهم بإزاء الهجرة «أَكْبَرُ» وأعظم مما يعجل لهم في الدنيا «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» عظيم قدر أجر الآخرة لآزادوا في الصبر والمجاهدة.
 وقيل: إن ضمان الجمع راجعة إلى الكفار، والمعنى: لو علم الكفار أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدار لكفوا عن أذاهم ووافقوهم في الدين^٤.

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [٤٤-٤٢]

ثم وصف الله المهاجرين ومدحهم بقوله: «الَّذِينَ صَبَرُوا» على أذى المشركين ومفارقة الوطن الذي هو حرم الله، والمجاهدة ببذل الأموال والأنفس وسائر الشدائد في سبيل الله «وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ» اللطيف بهم خاصة «يَتَوَكَّلُونَ» في جميع أمورهم.

ثم لما كان من شبهات المشركين في النبوة أن الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله بشيراً، بل لو أراد إرسال رسولٍ لأرسل ملكاً من الملائكة، لأنهم أشرف من البشر وإخباره أقرب إلى القبول، فرد الله عليهم بقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَا» إلى سائر الأمم «مِن قَبْلِكَ» وفي الأزمنة السابقة على بعثتك رسلاً «إِلَّا» كانوا «رِجَالًا» من البشر يأكلون ويشربون وينكحون، والمائز بينهم وبين غيرهم أنا «نُوحِي

٢. تفسير روح البيان ٥: ٣٥.

١. تفسير الرازي ٢٠: ٣٤.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٣٦.

٤. تفسير الرازي ٢٠: ٣٤، تفسير البيضاوي ١: ٥٤٥، تفسير أبي السعود ٥: ١١٥، تفسير روح البيان ٥: ٣٦.

إِلَيْهِمْ» بواسطة الْمَلَكِ، وقل يا محمد لهم: إن لم تصدقوا ذلك «فَسْأَلُوا» عن صدق ما أخبركم «أَهْلَ الذِّكْرِ» والعلم بأحوال الرسل الماضية والكتب السماوية حتى تعلموا صدق ما أخبركم به «إِنْ كُنْتُمْ» في الواقع «لَا تَعْلَمُونَ» بذلك.

ثم كَانَ قائلًا قال: بما أرسل الرجال الموحى إليهم؟ فأجاب سبحانه: «بِالْبَيِّنَاتِ» والمعجزات الباهرات «وَالزُّبُرِ» والكتب.

وقيل: إن الجار والمجرور متعلقان بـ(نوحى) والمعنى: نوحى إليهم بالبينات^١ من العلوم والمعارف والأخلاق والأحكام، وبالزُّبُرِ والكتب السماوية. أو متعلقان بـ(تعلمون) والمعنى: إن كنتم لا تعلمون بالكتب السماوية والدفاتر المعروفة المتضمنة لذكر أحوال الأنبياء السابقة.

قيل: إنهما متعلقان بـ(الذكر) والمعنى: فاسألوا أهل الذكر بالبينات والزُّبُرِ، إن كنتم لا تعلمون بها^٢. عن الباقر عليه السلام، قيل له: إن من عندنا يزعمون أن قول الله: «فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ» أنهم اليهود والنصارى؟ قال: «إذا يدعوكم^٣ إلى دينهم» ثم أوما إلى صدره وقال: «نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون»^٤.

وعن السجاد عليه السلام: «على الانمة [من] الغرض ما ليس على شيعتهم، وعلى شيعتنا ما ليس علينا، أمرهم الله أن يسألونا، قال: «فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» فأمرهم أن يسألونا، وليس علينا الجواب، إن شئنا أجبت، وإن شئنا أمسكنا»^٥.

أقول: لا شبهة أن الآية في المحاجة مع المشركين والزاهمهم على ما هو طريقة العقلاء من رجوع الجاهل إلى العالم، والمراد بالعلماء في عصر النزول هم المطلعون على أحوال الرسل، فلا بد من حمل الروايتين على بيان عدم اختصاص أهل الذكر بعلماء أهل الكتاب، بل المراد عموم العلماء، ووجوب السؤال عنهم عن جميع المطالب، فلو وجب الرجوع إلى أهل الكتاب في جميع المطالب حتى الأحكام لأجابوا بأحكام دينهم ودعواكم إلى العمل بها، فالؤمنون مأمورون بالسؤال من علماء الاسلام، والأنمة أظهر مصاديقهم، بل هم المتعینون من بينهم؛ لأن علمهم مأخوذ من الرسول والقرآن، وعلم غيرهم مأخوذ من أفواه الرجال.

عن الرضا عليه السلام: «قال الله تعالى: «قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ»^٦ فالذكر

١. تفسير الرازي ٢٠: ٣٧.

٢. تفسير العياشي ٣: ٢٣٩١/١١، بصائر الدرجات: ١٧/٦١، تفسير الصافي ٣: ١٣٧.

٣. الكافي ١: ٨/١٦٥، تفسير الصافي ٣: ١٣٧.

٤. الطلاق: ١٠/٦٥ و ١١.

٥. في البصائر: يدعوهم.

رسول الله ﷺ، ونحن أهله^١.

وعن الصادق عليه السلام: «الذكر القرآن، وأهله آل محمد ﷺ»^٢.

أقول: يحتمل أن يكون المراد بيان شرفهم لا تفسير هذه الآية.

ثم بين سبحانه أن الرسول نفسه أهل الذكر بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ والقرآن الذي هو تذكرة وتنبية للغافلين ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ كافة من العرب والعجم، والأسود والأبيض ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من ربهم من العلوم والمعارف والأحكام وأحوال الماضين، وهلاك كثير منهم بالعذاب، بتلاوة هذا الكتاب عليهم، ﴿وَوُضِّحَ لِمَعَانِيهِ﴾ كلفهم يتفكرونها ﴿فِي مَطَالِبِ الْعَالِيَةِ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْمَوَاعِظِ وَالْعِبَرِ، وَمَا فِيهِ مِنْ وَجْهِ الْإِعْجَازِ حَتَّى يَرْتَدُّوا عَنْ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَاللَّجَاجِ وَاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ، وَيُؤْمِنُوا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَصَحَّةِ نُبُوَّتِكَ وَصَدَقَ كِتَابُكَ.

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ [٤٥-٤٧]

ثم هدّد المشركين الماكرين بالرسول ﷺ الساعين في الفساد بين المسلمين بقوله: ﴿أَفَأَمِنَ﴾ المشركون ﴿الَّذِينَ مَكَرُوا﴾ بالنبي ﷺ المكر ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ وسعوا خفية في إيذانه وإطفاء نوره من ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسفها بقارون لا يذانه موسى عليه السلام ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ كالصيحة والصاعقة من السماء ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به ولا يترقبون له ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ الله ويأتيهم بالعذاب وهم ﴿فِي﴾ حال ﴿تَقْلِيلِهِمْ﴾ وذهابهم وإيابهم في الأسفار والتجارة وتنظيم أمور الدنيا.

وقيل: يعني في حال تفكرهم في طرق المكر ووجوه الكيد بك^٣.

﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ الله من تعذيبهم بالهرب منه، أو التحصن بحصن منيع، أو معارضة بالانصار ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ بالعقوبة، وهو ﴿عَلَى﴾ حال ﴿تَخَوُّفٍ﴾ وتحذّر من العذاب الذي رأوا ابتلاء قوم به فصاروا وجلين من ابتلائهم به، أو على أن يتقصوا في أنفسهم وأموالهم شيئاً فشيئاً حتى يهلكوا، والمراد من ذكر الوجوه المذكورة بيان قدرته تعالى على إهلاكهم بأي وجه، ولما كان حال التقلب

٢. تفسير الصافي ٣: ١٣٧.

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٣٩، تفسير الصافي ٣: ١٣٧.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ٣٨.

والتخوف معرضاً للفرار، عبر عن إصابتهم بالعذاب بالأخذ، وفي غيرهما بالانتيان.
ثم أشار سبحانه إلى علة إمهالهم وتأخير عذابهم بقوله: ﴿فَإِنْ رَجَعْتُمْ﴾ أيها المشركون والله
﴿لَزُؤُوفٌ رَجِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة، ويمهلهم مع كمال الاستحقاق لها.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُوا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ
سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ [٤٨]

ثم لما هدّد سبحانه المشركين بأنواع العذاب، وكان الخوف متوقفاً على العلم بكمال القدرة، بين
سعة قدرته، ويحتمل أن يكون وجه النظم أنه تعالى بعد تهديد المشركين بين كمال قدرته ونهاية
عظمته ومهابته، ازدياداً للرعب في القلوب بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ والتقدير على الأول: ألم يتبين لهم
كمال قدرة الله ولم يروا، وعلى الثاني: ألم يخافوا الله، ولم ينظروا ﴿إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ له ظل
كيف ﴿يَتَفَتَّحُوا﴾ ويرجع ﴿ظِلَالُهُ﴾ وفيه شيئاً فشيئاً ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ إلى الشمال ﴿و﴾ عن
﴿الشَّمَائِلِ﴾ حال كونهم^١ ﴿سُجَّدًا﴾ ومتقادين وخاضعين ﴿لَهُ﴾ مقهورين لإرادته ﴿وَهُمْ
دَاخِرُونَ﴾ وصاغرون ومذلّون تحت مشيئته، وإنما أضاف سبحانه الظلال إلى ضمير المفرد مع أن
المراد ذوي الظلّ وهي كثيرة اعتباراً بلفظ الشيء، كما أن توصيف الظلال بالجمع وإرجاع ضمير
الجمع إليه اعتباراً بمعنى الظلال، وهو كثير.

وقيل: إن المراد باليمين يمين الفلك، وهو المشرق، لكونه أقوى الجانبين^٢ منه؛ لأنّ منه تظهر
الحركة القوية للفلك، فإذا طلعت الشمس حدث لكل شيء قائم على وجه الأرض ظلّ في طرف
المغرب، وهو شمال الفلك، فكأنه رجع من اليمين إلى الشمال، فكلماً ارتفعت الشمس ينقص ذلك
الظلّ ويرجع شيئاً فشيئاً إلى أن تبلغ وسط الفلك، فحينئذ ينعدم من الطرف، ويحدث أو يرجع في
طرف المشرق، وهو معنى (عن الشَّمَائِلِ) ثم يزداد شيئاً فشيئاً، فالرجوع من طرف اليمين واحد،
وهو حدوث الظلّ في أول طلوع الشمس أو أول الزوال، ومن طرف الشمال كثير باعتبار نقاط
الأرض حين النقص، ولذا أفرد لفظ اليمين وجمع الشمال، ولعلّ إلى ما ذكرنا يرجع ما قيل من أن
إفراد لفظ اليمين لأن نقطة مشرق الشمس واحدة، وأمّا الشمال فهي عبارة عن الانحرافات الواقعة
في تلك الظلال بعد وقوعها على وجه الأرض، وهي كثيرة^٣.

وقيل: إن لكل شيء يميناً وشمالاً، وهما جانباه، استعارة من يمين الإنسان وشماله، وذكر اليمين

مفرداً والشمال جمعاً، لأنَّ العرب إذا ذكرت صيغتي الجمع عبّرت عن أحدهما بلفظ المفرد^١.
وأما سجود الأتلال فهو انقيادها واستسلامها لإرادة الله المتعلقة بحركات الشمس موافقةً للحكمة وحسن النظام. وقيل: إنَّه انبساطها على وجه الأرض ملتصقةً بها كهيئة الساجد^٢. ولذا قيل: ظِلَّكَ يسجد لله وأنت لا تسجد له^٣.

وأما إرجاع ضمير العقلاء إليها مثل: (هم) و(الواو والنون) فلا سند فعل العقلاء إليها، ويمكن أن يكون بلحاظ أنَّ جميع الموجودات في نظره تعالى شاعرون عاقلون، وإن كانوا في نظر الظاهر غير شاعرين.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُوَّتِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ [٤٩ و ٥٠]

ثمَّ أنه تعالى بعد ذكر سجود الظلال لعظمته، ذكر سجود الحيوانات والملائكة له بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعَظِيمِ وَحْدَهُ﴾ ويسجد ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.
ثمَّ بيَّن أنَّ المراد بما في الأرض بقوله: ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ وكلَّ ما يتحرك على وجه الأرض، كما عن ابن عباس^٤.

ثمَّ بيَّن المراد بما في السماوات بقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾.
وقيل: إنَّ المراد من الدابة كلَّ ما يتحرك بالإرادة^٥ فيشمل الملائكة.
وقيل: إنَّ المراد بما في السماوات جميع ما خلق فيها. وعلى القولين يكون ذكر الملائكة من باب ذكر الخاص بعد العام إظهاراً لشرفهم وفضلهم.

وقيل: إنَّ المراد بما في السماوات الخلق الذي يقال له الروح، والمراد من الملائكة جميعهم^٦.
وقيل: إنَّ المراد من ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ ملائكة السماوات، ومن ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ المذكور في الآية ملائكة الأرض كالخفظة وغيرهم^٧.

﴿وَهُمْ﴾ مع عِظَم خَلْقِهِمْ وَعِلْو شَأْنِهِمْ وَرِفْعَةِ مَقَامِهِمْ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن السجود لله وغاية الخضوع له و﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ﴾ ومليكتهم الذي هو ﴿مِنْ قُوَّتِهِمْ﴾ بالقهر والغلبة خوف المهابة والإجلال.

٢. تفسير الرازي ٢٠: ٤٣، تفسير أبي السعود ٥: ١١٨.

٤. تفسير الرازي ٢٠: ٤٤.

٦ و٧. تفسير أبي السعود ٥: ١١٩.

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٠.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ٤٣.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٤١.

وقيل: يعني يخافون ربهم من أن يُرسل عليهم عذاباً من فوقهم^١. وعلى التقديرين هو تقرير لقوله: من يخاف الله لا يستكبر عن عبادته.

﴿وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ به من الطاعات والتدبيرات، وإنما لم يذكر الأمر وهو الله لمعلوماته، ولإظهار العظمة والجلالة.

عن النبي ﷺ: «أن الله ملائكة في السماء السابعة سجدوا منذ خلقهم الله إلى يوم القيامة، ترعد فرائضهم من مخافة الله، لا تقطر من دموعهم قطرة إلا صارت ملكاً، فإذا كان يوم القيامة رفعوا رؤوسهم وقالوا: ما عبدناك حقَّ عبادتك»^٢.

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازَهُبُونَ [٥١]

ثم أنه تعالى بعد إثبات توحيده، وبيان عظمته وقدرته ومهابته، نهى عن الشرك بقوله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ لجميع العقلاء بلسان جميع رسله ودلالة آيات توحيده ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ مع الله إلهاً آخر، فيكون مختاركم في العبادة ﴿إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ بداهة كون التعدد والتثني منافياً للأكوهمية التي لا تكون إلا لواجب الوجود الذي يمتنع أن يجامع الحدود التي هي ثلازم الاثنينية، فإذا ثبت ذلك فالحكم ومعبودكم بالاستحقاق ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له ولا يد، فإذا علمتم أيها الناس توحيدى وقدرتى وعظمتى وعدم رضاي بالاشتراك، إن كنتم راهبين من شيء ﴿فَإِنِّي﴾ خاصة ﴿فَازَهُبُونَ﴾ لعدم قدرة أحد على الاضرار على أحد مع سلطتي في عالم الوجود وقاهرتي على جميع الممكنات، وإنما عدل سبحانه من الغيبة إلى الحضور لتربته المهابة في القلوب.

وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِنَّكُمْ تَجْهَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتُّوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [٥٢-٥٥]

ثم بالغ سبحانه في تقرير ألوهيته وعظمته بقوله: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً وتدبيراً وسلطاناً ﴿وَلَهُ الدِّينُ﴾ والطاعة والالتقاد ﴿وَاصِباً﴾ وواجباً كما عن الصادق عليه السلام^٣، أو دائماً أو ثابتاً.

١. تفسير الرازي ٢٠: ٤٥، تفسير البيضاوي ١: ٥٤٦، تفسير أبي السعود ٥: ١١٩.

٢. مجمع البيان ٦: ٥٦٢، تفسير الصافي ٣: ١٣٩. ٣. تفسير العياشي ٣: ٢٣٩٦/١٣، تفسير الصافي ٣: ١٤٠.

٤. تفسير الرازي ٢٠: ٤٩، تفسير أبي السعود ٥: ١٢٠، تفسير روح البيان ٥: ٤٢، وفيه: واجباً ثابتاً.

وقيل: إن له الدين ذا كلفة، أو له الجزاء الذي لا انقطاع له^١ «أَفَغَيْرَ اللَّهِ» بعد تقرير الشؤون المذكورة له «تَتَّقُونَ» وتطيعون.

ثم أكد استحقاقه الطاعة والعبادة بقوله: «وَمَا أَحَاطَ بِكُمْ» أو يكون لكم شيء «مِنْ نِعْمَةٍ» أي نعمة كانت «فَمَنْ» فضل «اللَّهُ» هي لا من غيره.

عن الصادق (عليه السلام): «من لم يعلم أن الله عليه من نعمة [إلا] في مَطْعَمٍ أو مَلْبَسٍ، فقد قصر عمله ودنا عذابه»^٢.

«ثُمَّ إِذَا سَأَلَكُمْ الضُّرُّ» أقل مَسَاسٍ «فَإِلَيْهِ» تعالى خاصه «تَجَرَّؤُونَ» وتتضرعون في كشفه عنكم، وبه تستغيثون بصوتٍ عالٍ لخلاصكم منه.

«ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ» بعد تضرعكم إليه «إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ» ومالكهم اللطيف بهم «يُشْرِكُونَ» مع أن ترتيب الشرك الذي هو أبغض عنده من كل سوء على إنعامه عليهم بالنعم الكثيرة وإعانتهم في كشف الضَّرِّ غاية الكفران ونهاية القباحة، بل كأنهم لشيقاتهم معنا اختاروا الشرك «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ» من النعم وكشف الضَّرِّ.

ثم هددهم على كفرانهم بقوله: «فَمَتَّئُوا» أيها الفرقة الكافرة، وانتفعوا باللذائذ الدنيوية أياماً قليلة «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» سوء عاقبة كفرانكم، وهو ابتلاؤكم بأشدَّ العذاب، وفي الالتفات من الغيبة إلى الخطاب أذان بغاية السَّخَطِ، وتأكد الوعيد المنين عن الأخذ الشديد.

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ *
وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ [٥٦ و ٥٧]

ثم ذمهم على كفرانهم الآخر المُشْعِر بغاية سَفَههم بقوله: «وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ» حقيقته وقدره الخسيس من الجمادات التي اتخذوها شركاء لله، أو لا يعلمون ألوهيته، أو لا يعلمون في عبادته نفعاً ولا ضرراً، أو لا يعلمون له حقاً «نَصِيْباً» وسهماً «مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ» وأنعمنا عليهم من الزرع والأنعام تقريباً إليه «تَاللهِ لَتَسْتَلْنَ» أيها السفهاء يوم القيامة سؤال توبيخ وتقرير «عَمَّا كُنْتُمْ» في الدنيا «تَفْتَرُونَ» على الله من قولكم بأنه اتخذ الأصنام شركاء لنفسه، ورضي بالتقرب إليها.

ثم ذكر سبحانه كفرانهم الآخر بقوله: «وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ» ويقولون: إن الملائكة بنات الله، وهم

١. تفسير البياضوي ١: ٥٤٧، تفسير أبي السعود ٥: ١١٩ و ١٢٠.

٢. تفسير القمي ١: ٣٨١، تفسير الصافي ٣: ١٤٠.

خِزَاعَةً وَكِتَانَةً عَلَى مَا قِيلَ^١. وَالْقَمِي: هُم قَرِيش^٢.

ثُمَّ نَزَّ سَبْحَانَهُ ذَاتَهُ الْمَقْدَسَةَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وَتَقَدَّسَ مِنْ تِلْكَ النَّسَبَةِ، وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ إِظْهَارُ التَّعَجُّبِ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ الشَّيْعِ^٣.

ثُمَّ كَانَتْه قَالَ سَبْحَانَهُ: كَيْفَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ اللَّاتِي هُمْ يَكْرَهُنَّهْنَ ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنَ الْبَنِينَ؟!

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [٥٨ و ٥٩]

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ شِدَّةَ كَرَاهَتِهِمْ لِهِنَّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ﴾ وَأَخْبَرَ بِوِلَادَتِهَا لَهُ ﴿ظَلَّ﴾ وَصَارَ أَوْ دَامَ نَهَارَهُ كُلَّهُ ﴿وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ مِنْ شِدَّةِ الْغَمِّ وَتَشْوِيشِ الْخَاطِرِ وَالْحَيَاءِ مِنَ النَّاسِ ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وَمَمْلُوءٌ غِيظًا عَلَىٰ امْرَأَتِهِ لِأَجْلِ وَلَادَتِهَا، هَذَا حَالُهُ، وَأَمَّا عَمَلُهُ فَهُوَ أَنَّهُ ﴿يَتَوَارَىٰ﴾ وَيَخْتَفِي ﴿مِنَ الْقَوْمِ﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِمْ ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾.

قِيلَ: كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا ظَهَرَ آثَارُ الطَّلُقِ بِامْرَأَتِهِ تَوَارَىٰ وَاخْتَفَىٰ عَنِ الْقَوْمِ إِلَىٰ أَنْ يَعْلَمَ مَا يُؤَلِّدُ لَهُ، فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا ابْتَهَجَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ اُنْثَىٰ حَزَنَ وَلَمْ يَظْهَرِ لِلنَّاسِ أَيَّامًا، يَدْبِرُ فِيهَا أَنَّهُ مَا يَصْنَعُ بِمَا وَلَدَ لَهُ^٤ ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾ وَيَبْقِيهِ ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ وَإِذْلالَ لَهُ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ يُمَسِّكُهَا مَعَ الرِّضَا بِهَوَانِ نَفْسِهِ وَعَلَىٰ رِغَمِ أَنْفِهِ^٥.

﴿أَمْ يَدُسُّهُ﴾ وَيَسْتُرُهُ ﴿فِي التُّرَابِ﴾ قِيلَ: إِنَّ الْعَرَبَ^٦ كَانُوا يَحْفِرُونَ حَفِيرَةً وَيَجْعَلُونَهَا فِيهَا حَتَّىٰ تَمُوتَ^٧.

وَرَوَىٰ أَنَّ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي وَارَيْتُ ثَمَانِي بَنَاتٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ فَقَالَ ﷺ: «أَعْتَقَ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ رَقِيَّةً»^٨.

ثُمَّ أَعْلَنَ سَبْحَانَهُ نِسْبَةَ الْبَنَاتِ إِلَيْهِ مَعَ أَبَائِنَهُمْ عَنْ نِسْبَتِهَا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَا﴾ تَنْهَوْنَ أَيُّهَا الْعُقَلَاءُ

١. تفسير الرازي ٢٠: ٥٤، تفسير أبي السعود ٥: ١٢١، تفسير روح البيان ٥: ٤٣.

٢. تفسير القمي ١: ٣٨٦، تفسير الصافي ٣: ١٤٠. ٣. تفسير أبي السعود ٥: ١٣١.

٤ و ٥. تفسير الرازي ٢٠: ٥٥.

٦. وأد البنات ليست من العادات المتفشية عند جميع عرب الجاهلية، بل هي خاصة بمضر وخزاعة وتميم دون باقي القبائل. راجع: تفسير القرطبي ١٠: ١١٧. ٧ و ٨. تفسير الرازي ٢٠: ٥٥.

أنه ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ به من أن الله البنات اللاتي هذا محلهن عندهم، واختيار البنين لأنفسهم.

لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [٦٠]

ثم لما كان الاحتياج إلى الولد من صفات الممكنات، نبه على مباينة صفاته تعالى لصفات خلقه بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ والصفات الامكانية الذميمة من الحاجة إلى الولد والفرح بالذكور وكرهه البنات ﴿وَاللَّهُ﴾ الواجب الوجود ﴿الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ من مثل الممكنات والصفة الفائقة على صفات الكائنات من وجوب الوجود الملازم للكمال من جميع الجهات والتنزه عن الحاجة إلى الولد وعن سائر النقائص ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ والغالب على كل شيء، القادر على إنفاذ إرادته ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما هو الأصلح، فيجازيهم على أحكامهم السيئة وأعمالهم القبيحة حسب استحقاقهم وشناعة أعمالهم.

وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ [٦١]

ثم بين تعالى تفضله عليهم بتأخير عذابهم مع غاية استحقاقهم له بقوله: ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ ويعاقبهم على كفرانهم وعصيانهم في الأرض ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ شيئاً ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ ومتحرك بالإرادة، أما الانسان فبظلمه^١، وأما سائر الحيوانات فلأنها خلقت للانسان، فإذا هلك الانسان فلا فائدة في وجود الحيوانات، أو لأن الانسان إذا هلك انقطع المطر والنبت.

عن أبي هريرة: أنه سمع رجلاً يقول: الظالم لا يقصر إلا نفسه فقال: لا والله، بل إن الحُبَارَى^٢ لتموت في وكرها بظلم الظالم^٣.

وعن ابن مسعود: أنه قال: كاد الجُعَلُ^٤ يهلك في جحره بذنوب ابن آدم^٥. ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ﴾ ويُمهلهم ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وانقضاء العمر المقدّر لهم، ليتولدوا ويخرج من أصلابهم الذراري

١. في النسخة: فيظلمهم.

٢. الحُبَارَى: طائر طويل العنق رمادي اللون على شكل الإوزة.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ٥٩، تفسير أبي السعود ٥: ١٢٢، تفسير روح البيان ٥: ٤٥.

٤. الجُعَلُ: حشرة كالخنافس تكثر في المواضع الندية.

٥. تفسير الرازي ٢٠: ٥٩، تفسير أبي السعود ٥: ١٢٢، تفسير روح البيان ٥: ٤٥.

الذين اقتضت الحكمة وجودهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ المسمى، وانقضاء عمرهم المقدّر، وبلغ وقت هلاكهم ﴿لَا يَسْتَنْجِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً﴾، ودقيقة ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ * تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِئَنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَليَهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [٦٢ و ٦٣]

ثم أكّد سبحانه ذمهم بقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ ويثبتون ﴿فَمَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم من الشريك والبنات ﴿و﴾ مع ذلك ﴿تَصِفُ﴾ وتقول ﴿أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ وهو قولهم: ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ العاقبة ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ من الجنة والنعم، إن كان حشر في الآخرة. وقيل: هذا قول المقرّين بالبعث.
ثم ردّهم الله بقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ وحقاً ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ في الآخرة ﴿النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ ومتروكون أو منسيون فيها، أو معجلون إليها.

ثم أنّه تعالى بعد بيان غاية جهل هذه الأمة، أخذ في تسلية نبيه ﷺ بقوله: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ رسلاً كثيرة ﴿إِلَىٰ أُمَمٍ﴾ كثيرة ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ كما أرسلناك إلى هذه الأمة، فدعوهم إلى دين الحق كما دعوتهم إليه ﴿فَرِئَنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة من إنكار التوحيد والنبوة والمعاد وتكذيب الرسل والاستهزاء بهم، ولذا لم يجيبوا الرسل، وثبتوا على ما هم عليه بتسويل الشيطان ﴿فَهُمْ وَليَهُمُ﴾ وقربنهم أو مطاعهم ﴿الْيَوْمَ﴾ الذي يكذبون الرسل أو يدعوهم النبي إلى دينه، والمعنى: زين الشيطان أعمال الكفّار في الأعصار السابقة في نظرهم، وهو ولي الكفّار في عصره، أو المراد من اليوم الدنيا أو القيامة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ [٦٤ و ٦٥]

ثم أنّه تعالى بعد تهديد الكفّار بين تمامية الحجّة عليهم بإنزال القرآن بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ العظيم لغرض من الأغراض ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من التوحيد والنبوة والمعاد والحلال والحرام ﴿و﴾ ليكون ﴿هُدًى﴾ لهم من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ وسبباً للفوز بالمقامات

العالية الانسانية والدرجات الرفيعة في الجنة ﴿لَقَوْمٌ يُؤْمِنُونَ﴾ به.

ثم بين سبحانه أن القرآن العظيم رافع للاختلاف، وكان من أعظم ما اختلف فيه هو التوحيد، شرع في الاستدلال عليه بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وأنبت به فيها أنواع النبات بعد إيسها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من إنزال المطر وإحياء الأرض والله ﴿لَا يَئُودُهُ﴾ ودلائل واضحة ﴿لَقَوْمٌ يَسْمَعُونَ﴾ تلك الدلائل سماع تدبر وإنصاف.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً تُمْسِكُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ [٦٦]

ثم استدلل سبحانه على توحيده بعجائب أحوال الحيوانات بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ الثلاثة^١ والله ﴿لَعِبْرَةٌ﴾ ودلالة مؤدية إلى العلم بالحق، وهي أنا ﴿تُمْسِكُكُمْ﴾ ونشربكم ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ وبعض ما في أجوافه ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ﴾ وسرجين ﴿وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ صافياً من أجزائهما وأوصافهما و﴿سَائِغًا﴾ وسهل المرور في الحلق ﴿لِلشَّارِبِينَ﴾ قيل: خلق الله اللبن في مكان وسط بين مكان الفَرْث ومكان الدم^٢.

وعن ابن عباس: إذا استقرَّ العَلَفُ في الكَرْشِ صار أسفلهُ فَرْثًا، وأعلاه دَمًا، وأوسطه لَبَنًا، فيجري الدم في العروق، واللبن في الصُّرْعِ، ويبقى الفَرْث كما هو، وذلك هو قوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ لا يشوبه الدم ولا الفَرْث^٣.

قيل في توجيهه: إن اللبن يكون من صافي الغذاء والعلف المنجذب إلى الكبد، فيبعد تصريف الكبد فيه يجري إلى الصُّرْعِ مقدارًا منه فيصير لَبَنًا، والزائد عليه يجري في الأوردة^٤.

عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: ليس أحدٌ يَغْصُ بشرب اللبن؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا﴾»^٥.

عن النبي ﷺ: «إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وأطعنا خيراً منه. وإذا شرب لبناً فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه، فأني لا أعلم شيئاً أنفع في الطعام والشراب منه»^٦.

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ

٢. تفسير روح البيان ٥: ٤٨.

٤. تفسير البيضاوي ١: ٥٤٩.

٦. تفسير روح البيان ٥: ٤٨.

١. وهي الإبل والبقرة والضأن.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ٦٤/المسألة الثالثة.

٥. الكافي ٦: ٣٣٦، ٥، تفسير الصافي ٣: ١٤٢.

لَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [٦٧]

ثم استدلَّ سبحانه على توحيده بعجائب حالات النباتات ومنافعها بقوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَنْعَابِ﴾ نَسِيكُمْ وَطَعَمَكُمْ، حيث إنكم ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ لانتفاعكم ﴿سَكْرًا﴾ وخمراً.
عن الصادق عليه السلام: «أُتِيَ نَزْلٌ قَبْلَ آيَةِ التَّحْرِيمِ فَتَسِيخَتْ بِهَا^١». وقيل: إنها لا تذلل على حليته، لأن الخطاب للمشركين، وكان الخمر من أشربتهم^٢، بل أشار سبحانه إلى حرمة بقوله: ﴿وَرِزْقًا﴾ و طعاماً ﴿حَسَنًا﴾ من الرُّبِّ^٣ والخَلِّ والدَّيْسِ وغيرها، فإن توصيف الرزق بالحسن في مقابل السكر مع كونه حسناً عند العرب بمقتضى الشهوة، يدل على عدم كون السكر حسناً بحسب الشرع.

وقيل: إن المراد بالسكر الخَلِّ، وعليه القمي^٤ وقيل: إن المراد به مطلق الطعام^٥.
ثم لما ذكر تلك النعم التي يكون كل واحد منها دليلاً قاطعاً على توحيده، حثَّ العقلاء على التفكير فيها بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَايَةً﴾ عظيمة ودلالة واضحة على التوحيد ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فإنهم إذا التفؤوا إليها، عليموا بالضرورة أن المدبر ليس إلا الواحد الحكيم القدير.

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ [٦٨ و ٦٩]

ثم استدلَّ سبحانه بعجائب حالات النحل وإخراج العسل منها، وهو مركَّب من عجائب الحيوان والنبات بقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ وَزُبُور الْعَسَلِ، بأن ألهمها وعلمها وقرَّر في نفسها ﴿أَنْ﴾ اتَّخِذِي ﴿مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ ومساكن تأوي إليها ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ويرفعونه من الأرض من كرم أو سقف أو جدار.

وقيل: كلُّ دُبابٍ في النَّارِ إِلَّا دُبابَ الْعَسَلِ^٦. وإِنَّمَا سَمِيَتْ نَحْلًا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَحَلَ النَّاسِ الْعَسَلَ الذي يَخْرُجُ منها، ومن عجائبها أنها تبني بيوتاً مُسدَّسة متساوية الأضلاع لا يزيد بعضها على بعض بحيث لا يبقى بينها فُرَجٌ خالية، ولو كانت مُشكَّلة لغيرها لبقيت بينها بالضرورة فُرَجٌ خالية ضائعة.

١. تفسير العياشي ٣: ٢٣٩٩/١٤، تفسير الصافي ٣: ١٤٢.
٢. تفسير الرازي ٢٠: ٦٨.
٣. الرُّبِّ: عصارة الثمر والعنب المطبوخة.
٤. تفسير القمي ١: ٣٨٧، تفسير الصافي ٣: ١٤٢.
٥. تفسير الرازي ٢٠: ٦٨، تفسير البيضاوي ١: ٥٥٠، تفسير أبي السعود ١٥: ١٢٥.
٦. تفسير روح البيان ٥: ٥٠.

ثم أنه تعالى بعد بيان مسكنها بين مأكولها بقوله: ﴿ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ﴾ التي عندك من الحلو والحامض، فتأكل الأجزاء اللطيفة الحلوة الواقعة على أوراق الأشجار والأزهار، وتمص الثمرات الرطبة والأشياء العطرية، فيؤحي إليها أنك إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك ﴿فَاشْكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ والطرق التي أهلك الرجوع فيها إلى بيوتك التي في الجبال والشجر وغيرهما، حال كون تلك السبل ﴿ذُلًّا﴾ وسهلة السلوك فيها بلا اشتباه ولا انحراف، وفي ذكر ربك وإضافة السبل إليه إشعار بأنه لولا تربيته تعالى لما اهتمت إليها.

ثم بين الله تعالى نتيجة الالهامات بقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ بالقي ﴿شَرَابٌ﴾ وعسل مانع ﴿مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ﴾ حسب الاختلاف بين النحل كما قيل، فالشباب منها يقيء الأبيض، وكهلها يقيء الأصفر، وشيبيها تقيء الأحمر^١، وقد يكون الاختلاف بسبب اختلاف لون مأكولها، وخاصيته أن ﴿فِيهِ شِفَاءٌ﴾ عظيم ﴿لِلنَّاسِ﴾ وبُوء من الأوجاع التي يعرف شفاؤها منه. وقيل: هو إما شفاء بنفسه كالأمراض البلغمية، وإما مع غيره كما في سائر الأمراض، إذ قلما معجون إلا والعسل جزء منه^٢.

وقيل: إنه بنفسه أو مع الخلط بالأدوية الحارة شفاء للأمراض البلغمية، ومع الخلط بالحوامض شفاء للأمراض الصفراوية، ومع الخلط بالأدهان شفاء للأمراض السوداء، وعن (اعتقادات الصدوق) اعتقادنا في العسل أنه يشفى الأمراض البلغمية^٣.

أقول: عليه يكون تنوين الشفاء للتكثير، وفيه أن الظاهر من كونه تعالى في مقام مدحه أنه تعالى جعله بالخاصية شفاء لجميع الأمراض كالثرة الحسينية، ولا ينافي ذلك عدم ظهور هذا الأثر منه كثيراً؛ لأنه من باب المقتضي الذي يجتمع مع ألف مانع، كما لا يحصل الشفاء من التربة المباركة في بعض الموارد.

روي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي قد اشتكى بطنه؟ فقال: «اسقه عسلاً» فسقاه [عسلاً] فما زاده إلا استطلاقاً، فعاد إلى النبي ﷺ، فذكر له ذلك، فقال: «اسقه عسلاً» فسقاه ثانياً فما زاده إلا استطلاقاً، فرجع فقال: يا رسول الله، [سقيته] فما نفع؟ فقال: «أذهب فاسقه عسلاً» فقد صدق الله وكذب بطن أخيك» فسقاه فشفاه الله^٤، الخبر.

١. تفسير روح البيان ٥: ٥٢.

٢. تفسير البضاوي ١: ٥٥٠، تفسير أبي السعود ١٢٦: ٥، تفسير روح البيان ٥: ٥٢.

٣. باب ٤٤ من اعتقاداته والاحاديث الواردة في الطب.

٤. تفسير الرازي ٢٠: ٧٣، تفسير روح البيان ٥: ٥٣.

وفي الحديث: «أن الله جعل الشفاء في أربعة: الحبة السوداء، والحجامة، والعسل، وماء السماء»^١. وجاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام وشكا إليه سوء الجفط، فقال: «أترجع إلى أهل؟» قال: نعم. فقال: «قل لها تعطيك من مهرها دزهمين عن طيب نفس، فاشتريهما لبناً وعسلاً، واشربهما مع شربة من ماء المطر على الريق ترزق جفطاً»^٢.
وعنه عليه السلام: «لَعَلَّ الْعَسْلَ شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ، ثُمَّ تلا هذه الآية، وقال: «هو مع قراءة القرآن ومَضْغُ اللَّبَانِ - وهو الكُنْدَرُ - يَذِيبُ الْبَلْغَمَ»^٣.

وعنه عليه السلام: «ثَلَاثَةٌ يَزِيدُنَ فِي الْجَفْطِ، وَيُذْهِبُنَ بِالْبَلْغَمِ» وذكر هذه الثلاثة^٤.
وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنْ يَكُنْ فِي شَيْءٍ شِفَاءٌ، فَفِي شَرْطَةِ الْحَجَامِ، أَوْ فِي شُرْبَةِ عَسَلٍ»^٥.
والقمي: عن الصادق عليه السلام في تأويل الآية: «نحن والله النحل الذي أوحى الله إليه^٦ ﴿أَنْ أَتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أمرنا أن نَخَذَ من العرب شيعة^٧ ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ يقول من العجم ﴿وَمِمَّا يَغْرِشُونَ﴾ يقول من الموالي والذي ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ﴾، أي العلم الذي يخرج منا إليكم»^٨.

وعنه عليه السلام أيضاً: «النحل: الأئمة، والجبال: العرب، والشجر: الموالي عتاقة^٩، ومما يعرشون: الأولاد والعبيد ممن لم يعتق وهو يتولى الله ورسوله والأئمة، والشراب المختلف ألوانه: فنون العلم الذي قد تعلم الأئمة شيعتهم، فيه شفاء للناس [يقول: في العلم شفاء للناس] والشيعه هم الناس، وغيرهم الله أعلم بهم ما هم، ولو كان كما يزعم أنه العسل الذي يأكله الناس، إذ ما أكل منه وما شرب ذوعاهة إلا شفي، لقول الله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ ولا خلف لقول الله، وإنما الشفاء في علم القرآن لقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^{١٠} فهو شفاء ورحمة [لأهل لا شك فيه ولا مريه، وأهل أئمة الهدى الذين قال الله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾»^{١١}.
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من أمر النحل ﴿لَايَةً﴾ وحجة واضحة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في دقائق صنعه.

١ و ٢. تفسير روح البيان ٥: ٥٣.

٣. الخصال: ١٠/٦٢٣، الكافي ٦: ٢/٣٣٢، تفسير الصافي ٣: ١٤٣.

٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١١١/٣٨، تفسير الصافي ٣: ١٤٣.

٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٨٣/٣٥، تفسير الصافي ٣: ١٤٣.

٦. في المصدر: التي أوحى الله إليها. ٧. تفسير القمي ١: ٣٨٧، تفسير الصافي ٣: ١٤٤.

٨. المولى عتاقة: الذي أعتق من الرق. ٩. سورة الاسراء ١٧: ٨٢.

١٠. تفسير العياشي ٣: ٢٤٠/١٥، تفسير الصافي ٣: ١٤٤، والآية من سورة فاطر ٣٥: ٣٢.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُزِدُ إِلَى أَزْدَلِ الْعُمُرِ لَكِنِّي لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ
شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ [٧٠]

ثم استدلّ بخلقة الانسان بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ وأوجدكم ﴿ثُمَّ﴾ بعد مدّة من التعيش ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ويُميتكم على اختلاف أعماركم، فمنكم من يموت في الصّغر ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُزِدُ إِلَى أَزْدَلِ الْعُمُرِ﴾ وأخسّه وهو الهرم الذي يعود الانسان فيه إلى حال الصّغر من ضُعف البدن والقوى والعقل والفهم.
عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه قال: «أرذل العُمر خمس وسبعون سنة»^١.

وعن الصادق (عليه السلام)، عن أبيه (عليه السلام): «إذا بلغ العبد مائة سنة فذلك أرذل العمر»^٢.

أقول: لعلّ الاختلاف من جهة اختلاف الأشخاص.

﴿لَكِنِّي لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ﴾ كثير ﴿شَيْئًا﴾ من العلم أو المعلومات، وقيل: يعني لثلاث يعقل بعد عقله الأول شيئاً^٣.

عن القمي: إذا كبر لا يعلم ما علمه قبل ذلك^٤ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمقادير أعماركم ﴿قَدِيرٌ﴾ على إبقاء الهرم الغاني وإماته الشابّ القويّ الشّيط، ولو كان ذلك بمقتضى الطباع لمبالغ التفاوت هذا المبلغ.

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى
مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ [٧١]

ثم أنّه تعالى بعد ذكر تفاوت الأجال ذكر كثرة تفاوت أرزاق الناس بقوله: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ آخر ﴿فِي الرِّزْقِ﴾ والنّعم الدنيوية، حيث إنكم ترون العاقل الكيس الفطن في جميع الأمور يجتهد مدّة عمره، ويدبّر في طلب القليل من الدنيا، ولا يتيسر له، بل يعيش في غاية العسرة، والجاهل الغبيّ تثبّل عليه النّعم وتفتح عليه أبوابها، ويحصل له كلّما أراد في الحال بأيسر وجه، ولو كان المؤثّر في ازدياد الرزق العقل والتدبير والجهد، لكان الأمر بالعكس.

فعلم أنّ التفاوت بتقدير العزيز العليم، كما قال تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾^٥ فإذا علم أنّ الرازق هو الله ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ في الرزق على غيرهم ﴿بِرَادَى﴾ مُعْطَى رِزْقِهِمْ ﴿وَمَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنَ النّعم﴾ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴿من العبيد والإماء، بل كلّ من المالك

٢. تفسير القمي ٢: ٧٩، تفسير الصافي ٣: ١٤٤.

١. مجمع البيان ٦: ٥٧٤، تفسير الصافي ٣: ١٤٤.

٤. تفسير القمي ١: ٣٨٧، تفسير الصافي ٣: ١٤٥.

٣. تفسير أبي السعود ٥: ١٢٧.

٥. الزخرف ٤٣: ٣٢.

والمملوك يرتزقون من رزق الله ﴿فَهُمْ﴾ جميعاً من المالك والمملوك في الارتزاق برزق الله وتقديره ﴿فِيهِ سَوَاءٌ﴾ كُلُّ يُرْزَقُ رِزْقَهُ الْمَقْدَرُ لَهُ، وَإِنَّمَا الْفَرْقُ فِي مَجْرَاهُ: فَمَجْرَى رِزْقِ الْمَالِكِ مُلْكُهُ، وَمَجْرَى رِزْقِ الْمَمْلُوكِ يَدُ مَالِكِهِ، فَلَا يَحْسِبَنَّ الْمَلَاكُ أَنَّهُمْ رِزَاقُ مَمَالِكِهِمْ.

وقيل: إِنَّ الْمَقْصُودَ تَوْبِيخَ الْمَلَاكِ، وَالْمَعْنَى فَلَمْ يَلِزِدْ الْمَوَالِي فَضْلَ رِزْقِهِمْ عَلَى مَمَالِكِهِمْ حَتَّى يَتَسَاوَوْا فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَلْبَسِ.

عن أبي ذرٍّ، عن النبي ﷺ: «إِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ فَاكْشُوهُمْ مِمَّا تَكْتَسُونَ^١، وَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تُطْعَمُونَ» قال: فما رأى بعد ذلك عبد أحدٍ إلاَّ ورداءه كردانه وإزاره كإزاره^٢.

وقيل: إِنَّ الْآيَةَ رَدٌّ عَلَى عَبْدِ الْأَصْنَامِ^٣، حَيْثُ جَعَلُوهَا شُرَكَاءَ اللَّهِ وَسَوَّاءَ بَيْنِهِ وَبَيْنَهَا، وَتَقْرِيرُهُ أَنَّ اللَّهَ فَضَّلَ الْمَلَاكَ عَلَى مَمَالِكِهِمْ، بِحَيْثُ لَا يَقْدِرُ الْمَمْلُوكُ عَلَى ثُلُوكٍ مَعَ مَوْلَاهُ، وَلَا تَجْعَلُونَ عِبِيدَكُمْ مَعَكُمْ سَوَاءً فِي الْمُلْكِ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ هَذِهِ الْجُمَادَاتِ مَعَ اللَّهِ سَوَاءً فِي الْعِبُودِيَّةِ، فَالْمَعْنَى فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا بِجَاعِلِي رِزْقِهِمْ لِعِبِيدِهِمْ حَتَّى يَكُونُوا مَعَ عِبِيدِهِمْ فِي الْمُلْكِ وَالرِّزْقِ سَوَاءً.

عن ابن عباس: نزلت في نصارى نجران حيث قالوا: عيسى ابن الله، فالمعنى أَتُكْمَلُونَ لا تُشْرِكُونَ عِبِيدَكُمْ فِيمَا مُلْكُكُمْ فَتَكُونُوا سَوَاءً، فَكَيْفَ جَعَلْتُمْ عَبْدِي وَلَدًا لِي وَشَرِيكًا فِي الْأُلُوهِيَّةِ؟^٤ ثُمَّ لَمَّا كَانَ الشُّرْكُ يُلَازِمُ إِسْنَادَ النِّعَمِ إِلَى مَا أَشْرَكُوهُ مِنْ عَيْسَى أَوْ الْأَصْنَامِ، أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَبِغِيظَةِ اللَّهِ يَبْخَحُونَ﴾ وَيَكْفُرُونَ.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً
وَزَرَقَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ طَيِّبَاتٍ أَفْبَالًا بَاطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِغِيظَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ [٧٢]

ثُمَّ اسْتَدْلَّ سُبْحَانَهُ بِخَلْقِ الْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ وَمِنْ جَنْسِكُمْ ﴿أَزْوَاجًا﴾ لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وَتَأْنَسُوا بِهَا.

عن القمي: يعني خَلَقَ حَوَاءَ مِنْ آدَمَ^٥.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ قيل: هم الأختان^٦. وقيل: هم أولاد الأولاد^٧. وقيل: هم الأعوان والخدَم من قِبَلِ الزَّوْجَةِ فَيَشْمَلُ الْكُلَّ^٨.

٢. جوامع الجامع: ٢٤٦، تفسير الصافي ٣: ١٤٥.

٤. تفسير الرازي ٢٠: ٧٩.

٦ و٧. تفسير أبي السعود ٥: ١٢٨.

١. في جوامع الجامع: تلبسون.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ٧٩/القول الثاني.

٥. تفسير القمي ١: ٣٨٧، تفسير الصافي ٣: ١٤٦.

٨. تفسير الرازي ٢٠: ٨١.

وعن الصادق عليه السلام: «بَيْنَيْنِ وَحَقْدَةٌ» قال: «هم الحَقْدَةُ، وهم العَوْن [منهم] يعني البنية»^١.

وعنه عليه السلام في رواية أخرى قال: «الحَقْدَةُ بنو البنت، ونحن حَقْدَةُ رسول الله ﷺ»^٢.

وعنه أيضاً: «هم أختان الرجل على بناته»^٣.

ثم لما ذكر سبحانه التفضيل في الرزق ولم يبين فضله وصفه هنا بقوله: «وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ» واللذائذ كالثمار والفواكه والحبوب والحيوات والأشربة كالعسل وأمثاله.

ثم أنكر سبحانه عليهم الشرك مع ظهور دلالات التوحيد بقوله: «أَقْبِلِ الْبَاطِلِ» الذي أظهره الأصنام والشرك «يُؤْمِنُونَ» مع تلك الحجج الباهرة على التوحيد «وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ» بنسبتها إلى غيره من الأصنام والأنداد التي زعموها آلهة.

وقيل: كفرانهم النعم تحريمهم البحيرة^٤ وأخواتها^٥.

وقيل: نعمة الله رسول الله ﷺ، وكتابه ودينه، وكفرهم بها إنكارها^٦.

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [٧٤ و ٧٣]

ثم لما ذكر سبحانه الدلائل على التوحيد، وتبهم على ما رزقهم من العمر والمال والأزواج والأولاد والطيبات من المأكولات والمشروبات، ذم المشركين ووبخهم بقوله: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» مع وفور رزقه عليهم «مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا» سيراً من المطر والنبات «وَلَا يَسْتَطِيعُونَ» أن يملكوه.

وقيل: إن ضمير الجمع راجع إلى المشركين، والمعنى أن المشركين مع حياتهم وشعورهم لا يقدرّون على تملك الرزق، فكيف بالجمادات؟^٧

ثم قيل: إن المشركين كأنهم قالوا: كما أن الأصاغر يخدمون الأكابر، والأكابر يخدمون الملوك، كذلك نحن نعبد الأصنام والأصنام يعبدون الله، لأنه تعالى أجل وأعظم من أن نعبد^٨، فرد الله عليهم

١. تفسير العياشي ٣: ١٦/٢٤٠٦، تفسير الصافي ٣: ١٤٦.

٢. تفسير العياشي ٣: ١٦/٢٤٠٥، تفسير الصافي ٣: ١٤٦.

٣. مجمع البيان ٦: ٥٧٦، تفسير الصافي ٣: ١٤٦.

٤. البحيرة: الناقة كانت في الجاهلية إذا ولدت خمسة أبطن شقوا أذننها، وأعفوها من أن يُنتفع بها، ولم يمنعوها من

مرعى.

٥. تفسير الرازي ٢٠: ٨١.

٦. جوامع الجامع ٢٤٧، تفسير الصافي ٣: ١٤٦.

٧. تفسير البيضاوي ١: ٥٥١، تفسير أبي السعود ٥: ١٢٨.

٨. تفسير الرازي ٢٠: ٨٣.

بقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا اللَّهَ الْأَمْثَالَ﴾ ولا تشبهوه بخلقه، وقيل: يعني لا تجعلوا لله مثلاً، لأنه واحد لا مثل له^١ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ فساد مذهب الشرك وبطلان دليله وعظم عقوبة القائلين به، ولذا ينهاكم عنه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من الأمور المذكورة، ولو علمتموه لتركتموه، أو المراد أن الله يعلم ضرب الأمثال وأنتم لا تعلمونه.

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ [٧٥ و ٧٦]

ثم ضرب سبحانه المثل لتوضيح التباين بينه وبين ما أشركوه به بقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ بديعاً، وهو أن تفرضوا ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ لا شيء له و﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من التصرفات ﴿وَمَنْ﴾ كان حرّاً كريماً ﴿رَزَقْنَاهُ مِنَّا﴾ بإنعامنا وكرمه بطريق الملك ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ واسعاً حلالاً طيباً مرضياً عنده وعند كل أحد ﴿فَهُوَ﴾ بكرمه وسلطته في التصرف في رزقه ﴿يُنْفِقُ مِنْهُ﴾ على الغني والفقير تفضلاً وكرماً ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ وخفيةً وعلانيةً كيفما أراد، وأي قدر أراد بلا مانع وحاجز، فبعد فرض هذا المملوك العاجز، وهذا الحرّ الغنيّ الكريم، أنصفوا أيها العقلاء ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ لا والله لا تساوي بينهما أبداً، إذن فكيف تسوون بين الأصنام التي هي أعجز وأفقر من كلّ شيء، وبين الله القادر الغنيّ بالذات الكريم الذي لا تناهي لكرمه، حيث إنه يرزق من يشاء ما يشاء كيف يشاء بغير حساب.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمه غير المتناهية لا يشركه فيها غيره، ولا يليق بالحمد من سواه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ وهم المشركون ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ عدم التساوي بينهما، ولذا يعبدون الجمادات ويسوون بينها وبين خالق الموجودات، ويحمدون الأصنام، ويكفرون وليّ الأنعام.

ثم أعلم أن هذا المثل منطبق على الكافر المحروم عن عبادة الله وطاعته، والمؤمن المطيع لله القائم بعبوديته المشفق على خلقه المنفق عليهم، وكذا على الجاهل الفاقد للعلم، والعالم العارف بالله وأحكامه، فالأولان كالعبد الذليل الفاقد لكلّ شيء، والثانيان كالحرّ الواحد المتّفق.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ آخر أدلّ على المقصود، وهو أن تفرضوا ﴿رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ لا قوة له

على التكلم من حين ولادته ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ وأمره متعلق بنفسه أو بغيره ﴿وَهُوَ﴾ لعجزه في جميع الأمور ﴿كُلٌّ﴾ ويقل ﴿عَلَى مَوْلَاهُ﴾ في ما يحتاج إليه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ﴾ مولاه، وحيشما يرسله لكفاية أمر ولو كان غير مهم ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا يفعل ما فيه صلاح، إذن قولوا وأنصفوا ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ﴾ يكون منطقاً ذكياً ذا رأي وكفاية وعقل ورشد بحيث ﴿يَأْمُرُ﴾ غيره ﴿بِالْعَدْلِ﴾ وحسن الأخلاق والأعمال، وما فيه صلاح الحال والمال ﴿وَهُوَ﴾ بنفسه مضافاً إلى نفعه العام مقيم ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والمنهج القويم من صحة العقائد وحسن الأخلاق والأعمال، لا والله لا يمكن تساويهما.

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٧٧]

ثم أنه تعالى بعد بيان غاية البينة بين الجاهل العاجز والعالم القادر على كل شيء بضرب المثلين، بين كمال علمه وقدرته بقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وكان يختص به العلم بخفياتهما ﴿وَمَا أَمْرُ﴾ إيجاد ﴿السَّاعَةِ﴾ والقيامة أو جميع شؤونها بدأ وختماً عنده تعالى: ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ وحركة خفيفة للعين أو حركة الحَذَقَة من الفوق إلى التحت، أو طرف العين في السهولة والسرعة ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ وأسرع وأسهل لاحتياج حركة العين إلى آنات متعاقبة، وتوجد القيامة بأمره في آن واحد، وكلمة (أو) للابهام على المخاطبين، أو بمعنى بل، ثم قرر قدرته بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من ابتداء الخلق وإعادته.

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [٧٨]

ثم عاد سبحانه إلى الاستدلال على توحيده وقدرته وحكمته بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ﴾ بقدرته ﴿مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ بالولادة حال كونكم ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ من البديهيّات والنظريات والحسيّات والعقليّات من أمور الدنيا والآخرة ﴿وَجَعَلَ﴾ وأنشأ ﴿لَكُمْ﴾ في الأرحام ﴿السَّمْعَ﴾ لاستماع مواعظ الله والعلوم النافعة ﴿وَالْأَبْصَارَ﴾ لرؤية آيات الله ومعجزات الأنبياء وقراءة الكتب ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لفهم معارف الله ودرك العلوم العقلية ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة الولادة وتركيب الأعضاء والقوى فيكم بأن تستعملوها فيما خلقت له.

قيل: أول ما يبدو في الجنين حسّ السمع ثم البصر^١.

أَلَمْ يَزُوا إِلَى الظُّبُرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُنْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [٧٩]

ثم استدلّ سبحانه بعجائب أحوال الطيور بقوله: ﴿أَمْ﴾ و﴿لَمْ يَزُوا﴾ هؤلاء المشركون ولم ينظروا ﴿إِلَى الظُّبُرِ﴾ حال كونها ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ ومذلات للطيران ﴿فِي جَوْ السَّمَاءِ﴾ وفضائها أو هوانها بأجنحتها وأسباب طيرانها التي خلقها لها، ومع ذلك ﴿مَا يُنْسِكُهُنَّ﴾ ويَحْفَظُهُنَّ من السقوط حين قبض أجنحتهن وبسطها ووقفهن شيء^٢ ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ القادر الحكيم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من تسخير الطير للطيران وإسماها في الجوّ على خلاف طبع الجسم ﴿لآيَاتٍ﴾ وحجج باهرة على قدرة خالقها وتديره وحكمته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فانهم المستفهمون بها بالتفكر فيها.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ [٨٠]

ثم أنّه تعالى بعد الاستدلال بالنعم الداخلية على الانسان، استدلّ بالنعم الخارجية بقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ﴾ وخلق نفعاً ﴿لَكُمْ﴾ وصلاً لحالكم بعضاً ﴿مِّن بُيُوتِكُمْ﴾ وهي البيوت المبنية من الأحجار والطين والأخشاب ﴿سَكَنًا﴾ وماوى تستريحون فيه وتطمثون به وقت إقامتكم لعدم إمكان نقلها من مواضعها ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ والأدم المعمولة منها ﴿بُيُوتًا﴾ أخرى كالخيام والأحذية والفساطيط التي ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ وتستسهلون حملها ونقلها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وسيركم في البوادي والأسفار ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ ووقت حضوركم في البلد، توقّفكم في مكان تريدون الوقوف فيه ﴿وَجَعَلَ﴾ من أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا^٣ ولوازم البيت من الفرش والملاحف وأمثالهما. عن ابن عباس: يُريد طنافساً^٢ وبسطاً وثياباً وكسوة^٣ ﴿وَمَتَاعًا﴾ أخرى، فيستفّع بها ﴿إِلَى حِينٍ﴾ قضاء الزّطر، أو حين البلى، أو حين الموت، أو حين بعد حين، أو حين القيامة.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم

٢. الطَّنَافِس: جمع طَنْفَسَة: البساط والثَّمرَة فوق الرِّحْلِ.

١. تفسير روح البيان ٥: ٦٣.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ٩٢.

سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ [٨٣-٨١]

ثم لما كانت أرض الحجاز شديدة الحر، استدل على توحيدِهِ بخلق ما يُحفظ به من الحر بقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ﴾ من الأشجار والجبال والغمام ﴿ظِلَالًا﴾ يتقون به حر الشمس. القمي، قال: ما يُستظل به^١. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ ومحافظ من الحر كالكهوف والغيران والسرُوب^٢. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ وثياباً من القطن والصوف وغيرهما ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وتُحفظكم منه ﴿وَسَرَابِيلَ﴾ كالدرع والجواشين^٣ ﴿تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ﴾ وتُحفظكم من الطعن والضرب ونحوهما ممَّا يضركم في الحروب.

قيل: إن الله تعالى ذكر نِعْمه الفانضة على جميع الطوائف، فبدأ بما يخص المقيمين حيث قال: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾^٤ ثم بما يختص بالمسافرين ممَّن لهم قدرة على الخيام وأضرابها حيث قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾^٥، ثم بما يعُم من لا يقدر على ذلك ولا بما دونه^٦ إلا الظلال حيث قال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ ثم بما لا بد منه لأحدٍ حيث قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ ثم بما لا مناص عنه في الحرب حيث قال: ﴿وَسَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ﴾^٧. ثم قال: ﴿كَذَلِكَ﴾ الإتمام البالغ لِنِعْمِهِ الجسمانية ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ﴾ الدنيوية والدينية ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لتَنظُرُوا إليها وتَفَكَّرُوا فيها ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تعرفون حقَّ منعمها و﴿تُسْلِمُونَ﴾ وتقادون لربوبيته وأحكامه، أو تسلمون من الشرك.

عن ابن عباس: لعَلَّكُمْ يا أهل مكة [مكة] تُخْلِصُونَ لله الربوبية، وتعلمون أنه لا يقدر على هذه الإنعامات أحدٌ سواه^٨.

وقيل: يعني أعطيتكم هذه النعم لتفكروا فيها فتؤمنوا فتسَلِّمُوا من عذاب الله^٩.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يا محمد، وأعرضوا عن التفكّر في الآيات والنعم، ولم يقلوا قولك، وأثروا الدنيا ومتابعة الآباء ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ والتبليغ الموضح للحق لا إجبارهم على القبول، وقد

١. تفسير القمي ١: ٣٨٨، تفسير الصافي ٣: ١٤٨.

٢. السُرُوب: جمع سَرَب، الحفير تحت الأرض لا منفذ له.

٣. الجَوَشْن: الدرع.

٤ و ٥. النحل ١٦: ٨٠. ٦. في تفسير أبي السعود: ولا بأويه.

٧. تفسير أبي السعود ٥: ١٣٣. ٨. تفسير الرازي ٢٠: ٩٤.

٩. تفسير الرازي ٢٠: ٩٤.

فعلت ما عليك، وبقي ما علينا من تعذيبهم على العناد والإصرار على الكفر.

ثم ذمهم سبحانه بغاية الكفران بقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ عليهم من جميع الوجوه. ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ ويكفرونها بنسبتها إلى الأصنام وعبادتها، مع أن حق معرفة النعم أن يقرّوا بها ويشكروها بتخليص العبادة لله وصرفها فيما فيه رضاء، وقيل: نعمة الله بنوّه محمد ﷺ^١ ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لتلك النعمة والجاحدون لها.

قيل: نسبة الكفر إلى الأكثر لكون بعضهم جاهلين بصدق النبي ﷺ غير معاندين للحق^٢. وقيل: إن المراد بالأكثر الجميع^٣.

عن الصادق عليه السلام: «نحن والله نعمة الله التي أنعم بها على عباده، وبنا فاز من فاز»^٤. وفي رواية عنه عليه السلام: «يعني يعرفون ولاية علي عليه السلام»^٥.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ أَلْسَلَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [٨٤-٨٧]

ثم هدّد الكافرين بنعمته بأحوال القيامة بقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ ونحشر ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ وجماعة ﴿شَهِيداً﴾ يشهد بإيمان مؤمنيهم وكُفر كافرينهم ﴿ثُمَّ﴾ بعد الشهادة ﴿لَا يُؤْذَنُ﴾ من قبل الله ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار عن كفرهم وعصيانهم، لكذبهم وتمامية الحجّة عليهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يُطلب منهم عمل موجب لرضا ربهم عنهم وإصلاح ما فسد من أعمالهم، لكون ذلك اليوم يوم الجزاء لا العمل، بل يؤمرون بالدخول في النار ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر والطغيان ﴿الْعَذَابَ﴾ الشديد ضجّوا وسألوا تخفيفه ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ ثقل العذاب وشدّته ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ولا يمهّلون ساعة ليستريحوا، بل يزيد عذابهم مع أصنامهم ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بالله الشياطين والأصنام التي جعلوها ﴿شُرَكَاءَ هُمْ﴾ وآلهتهم ﴿قَالُوا﴾ إحالة لعذابهم إليها، أو تعجباً من حضورها، أو إظهاراً لخطابهم في عبادتها ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ﴾ الأصنام ﴿شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا﴾ في الدنيا

٢. ٣. تفسير الرازي ٢٠: ٩٥.

١. تفسير البضاوي ١: ٥٥٤، تفسير أبي السعود ٥: ١٣٤.

٥. الكافي ١: ٧٧/٣٥٤، تفسير الصافي ٣: ١٤٩.

٤. تفسير القمي ١: ٣٨٨، تفسير الصافي ٣: ١٤٩.

﴿نَدْعُوهُمْ﴾ هم ونعبدُهم ﴿مِنْ دُونِكَ﴾ ومما سواك، فأنطق الله الأصنام ﴿فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ وأجابههم بالكلام، وقالوا: ﴿إِن كُنْتُمْ﴾ في دعوى عبادتكم إيانا والله ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ بل عبدتم أهواءكم، أو لكاذبون في دعوى أننا شركاء الله في المعبودية واستحقاق العبادة ﴿وَأَلْقُوا﴾ أولئك المشركون ﴿إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ﴾ والالتقياد لربوبيته وأمره وأحكامه بعد ما كانوا في الدنيا مستكبرين ومستنكفين عنه ﴿وَضَلَّ﴾ وضاع ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَقْتَرُونَ﴾ على الله من أنه راضٍ بعبادة الأصنام، وأنه يقبل شفاعتهم في حق عبادهم وقيل: يعني ذهب [عنهم] ما زين لهم الشيطان من أن الله شريكاً وصاحبةً وولداً^١.

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ [٨٨]

ثم أنه تعالى بعد تهديد المشركين، هدّد الصادّين منهم عن سبيل الله بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا﴾ الناس ومنعهم ﴿عَنْ﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والدخول في دين الاسلام ﴿زِدْنَاهُمْ﴾ في جهنم ﴿عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ لأنهم زادوا على ضلال أنفسهم إضلال غيرهم، فعليهم مثل عذاب أتباعهم ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ في الأرض بترويج الباطل وتشديد الكفر ودعوة الناس إليه.

القمي، قال: كفروا بعد النبي ﷺ، وصدّوا عن أمير المؤمنين عليه السلام^٢.

أقول: هذا تأويل لا تفسير.

عن ابن عباس، قال: المراد بتلك الزيادة خمسة أنهار من نار تسيل من تحت العرش يُعذبون بها ثلاثة على مقدار الليل، واثنان على مقدار النهار^٣.

وقيل: زدناهم عذاباً بحيات وعقارب كأمثال البُخْت^٤ لكلّ عقرب ثلاثمائة فقرة، في كلّ فقرة ثلاثمائة قلة^٥ من سمّ، ولها انياب كالنخل الطّوال، فيستغيثون بالهرب منها إلى النار^٦.

وعن ابن جبير، قال: زيادة عذابهم هي عقارب أمثال البغال، وحيات أمثال البُخْت، تلسع إحداهنّ اللّسعة فيجد صاحبها حُمته^٧ أربعين خريفاً^٨.

١. تفسير الرازي ٢٠: ٩٧. ٢. تفسير القمي ١: ٣٨٨، تفسير الصافي ٣: ١٥٠.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ٩٨، تفسير روح البيان ٥: ٦٩. ٤. البُخْت: الإبل الحُرّاسانية.

٥. القلة: إناء من الصّخر يُشرب منه. ٦. تفسير الرازي ٢٠: ٩٨.

٧. الحمة: سمّ كلّ شيء يلدغ أو يلسع، والإبرة التي تضرب بها العقرب والزُّنُور ونحوهما.

٨. تفسير روح البيان ٥: ٦٩، تفسير أبي السعود ٥: ١٣٥، ولم ينسبه إلى ابن جبير.

وقيل: يسألون الله تعالى ألف سنة المطر ليسكن ما بهم من شدة الحر، فظهر لهم سحابة، فيظنون أنها تمطر، فجعلت السحابة تمطر عليهم بالحيات والمقارب، فيشتد ألمهم لأنه إذا جاء الشر من حيث يؤمل الخير كان أغم^١.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ
وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ [٨٩]

ثم بالغ سبحانه بتهديد المشركين بأحوال القيامة بقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ ونحشر فيه ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم وجماعة من جماعات الناس ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وجنسهم، ليكون أقطع لعذرهم لكونه بينهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ الأمم وشهدانهم.

نقل كلام الفخر الرازي في المراء من الشهيد
قال الفخر الرازي: إن كل جمع وقرن يحصل في الدنيا، فلا بد أن يحصل فيهم واحد يكون شهيداً عليهم، أما الشهيد على الذين كانوا في عصر الرسول فهو الرسول ﷺ

بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^٢، وثبت أيضاً أنه لا بد في كل زمان بعد زمان الرسول ﷺ من الشهيد، فتحصل من هذا أن عصرًا من الأعصار لا يخلو من شهيد على الناس، وذلك الشهيد لا بد وأن يكون غير جائز الخطأ، وإلا لا فتنر إلى شهيد آخر، ويمتد ذلك إلى غير النهاية، وذلك باطل، ثبت أنه لا بد في كل عصر من أقوام تقوم الحجة بقولهم، وذلك يقتضى أن [يكون] إجماع الأمة حجة^٣.

أقول: هذا عين ما قاله أصحابنا الإمامية، فانهم يقولون: إنه لا بد في كل عصر من وجود حجة معصوم، إما ظاهر مشهود، أو غائب مستور، ولولا ذلك لساخت الأرض بأهلها، ولا حجة للإجماع إلا إذا عليم موافقة رأيهم لرأي المعصوم، وذلك المعصوم هو الشهيد، وإنما الفرق بيننا وبين هذا القائل أنا نعرفه باسمه ونسبه، وهو يجحد لعصبيته.

القمي في تفسير ﴿شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ قال: يعني على الأئمة عليهم السلام، فرسول الله ﷺ شهيد على الأئمة عليهم السلام، وهم شهداء على الناس^٤.

وقال بعض العامة: المراد بذلك الشهيد هو أنه تعالى يُنطق عشرة [من] أعضاء الانسان حتى تشهد عليه، وهي: الأذنان والعينان واليدان والرجلان والجلد واللسان، قال: والدليل عليه أنه تعالى قال في

صفة الشهيد أنه من أنفسهم^١. وفيه أنه خلاف للظاهر الذي هو كالصريح في الآية خصوصاً مع قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾.

ثم يبين سبحانه عظمة شأن الرسول ﷺ الذي هو الشهيد عليهم بنزول القرآن عليه بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ العظيم الكامل في الكتابية بحيث يحق أن يخص به اسم الكتاب لكونه ﴿تَبْيَاناً﴾ وإيضاحاً وافياً ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين، أو لكل ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة، أو لكل شيء من أمور الدين والدنيا والآخرة، وما كان وما يكون وما هو كائن، كما هو الحق، وإنما يستفيد منه الراسخون في العلم الذين نزل في بيوتهم وهم النبي والمعمومون ﷺ من ولده.

عن الصادق عليه السلام، قال: «قال الله لموسى عليه السلام: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾^٢ فعلمنا أنه لم يكتب له الشيء كله، وقال الله لعيسى: ﴿وَلَا بُيُوتَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾^٣. وقال لمحمد ﷺ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^٤

وعنه عليه السلام: «أني لأعلم ما في السماوات وما في الأرض، وأعلم ما في الجنة، وأعلم ما في النار، وأعلم ما كان وما يكون» ثم سكت هنيهة فرأى أن ذلك كبر على من سمعه منه، فقال: «علمت ذلك من كتاب الله عز وجل، إن الله يقول: ﴿فيه تبيان كل شيء﴾»^٥.

وعنه عليه السلام: «نحن والله نعلم ما في السماوات وما في الأرض، وما في الجنة وما في النار، وما بين ذلك» ثم قال: «إن ذلك في كتاب الله» ثم تلا هذه الآية^٦.

وعنه عليه السلام: «أن الله أنزل في القرآن تبيان كل شيء، حتى والله ما ترك شيئاً يحتاج إليه العباد حتى لا يستطيع عبدٌ يقول: لو كان هذا [أنزل] في القرآن إلا [وقد] أنزله الله فيه»^٧. إلى غير ذلك من الروايات الدالة على أن في القرآن بيان كل شيء.

ثم لما كان أهم الأمور فائدة الهداية إلى الحق بالغ في توصيفه بها بحيث جعله عينها بقوله: ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة إلى الحق، لاشتماله على المعارف الإلهية بأكمل وجه، وعلى الأحكام الأخلاقية والعملية بآتم التفصيل، ﴿وَلِيَكُونَ رَحْمَةً﴾ للعالمين فضلاً على الخلق أجمعين، وإنما يكون حرمان الكفار بسبب تفریطهم وتقصيرهم، ﴿وَلِيَكُونَ بُشْرًى﴾ بالفيوضات الدنيوية

١. تفسير الرازي ٢٠: ٩٩.

٢. الأعراف: ١٤٥/٧.

٣. الزخرف: ٦٣/٤٣.

٤. تفسير العياشي ٢٤١٧/١٩: تفسير الصافي ٣: ١٥١.

٥. الكافي ١: ٢٢/٢٠٤، تفسير الصافي ٣: ١٥١، في المصحف: ﴿تَبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩/١٦] ولعله نقل بالمعنى.

٦. تفسير العياشي ٢٤١٦/١٨: تفسير الصافي ٣: ١٥١.

٧. الكافي ١: ١/٤٨، تفسير الصافي ٣: ١٥١.

والأخروية ﴿وَالْمُسْلِمِينَ﴾ والمؤمنين، أو المتقادين لأحكامه خاصة.

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [٩٠]

ثم لما وصف سبحانه الكتاب بكونه تبياناً وهدى، ذكر علم الأخلاق والأحكام فيه بكلمات موجزة جامعة لجميعها بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ﴾ في الكتاب الذي هو تبيان وهدى ﴿بِالْعَدْلِ﴾ والتوسط في الأخلاق وسائر الأمور، والتسوية بين الناس في الحقوق وبين أنفسكم وغيركم في الرعاية ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ إلى أنفسكم بحفظها عن ارتكاب القبائح والموبقات، والسعي في تكميلها وتعليتها إلى المراتب العالية الإنسانية، وإلى غيركم بتعليمهم العلوم الدينية، وإرشادهم إلى السعادات الدنيوية والأخروية، ومساعدتهم في أمور معاشهم ومعادهم ﴿وَالْإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ والأرحام وإعطائهم جميع ما يحتاجون إليه من العلم والمال، وكل ما يؤهلون له من الكمال، وإنما خصه بالذكر مع دخوله في عموم الاحسان تنبيهاً على أهمية صلة الرِّجَم وفضلها ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ والأمور الشديدة القباحة كالشُّرْك والزَّنا وغيرهما من الكبائر ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ وما يتنفر منه العقل السليم ويستتبعه مما لا يبلغ في الشُّبْح درجة الفُحْشِ ﴿وَالْبَغْيِ﴾ والظلم على الناس، والتعدي في أموالهم ونفوسهم وأعراضهم وتوهينهم وتضييع حقوقهم.

ثم حثهم سبحانه على العمل بما في الآية بقوله: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ الله بأمره ونهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وتتعضون.

عن ابن مسعود، أنه قال: هي أجمع آية في القرآن للخير والشر، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكُفَّت في كونه تبياناً لكل شيء وهدى^١.

وعن ابن عباس: أن عثمان بن مظعون أُلْجِمَحي قال: ما أسلمت أولاً إلا حياءً من محمد ﷺ، ولم يتقرر الإسلام في قلبي، فحضرت عنده ذات يوم، فبينما هو يحدثني إذ رأيت بصره شَخَصَ إلى السماء ثم خفضه عن يمينه، ثم عاد لمثل ذلك فسألته، فقال: «بينما أنا أحدثك إذا بجبرئيل نزل عن يميني فقال: يا محمد ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ العدل: شهادة أن لا إله إلا الله، والاحسان: القيام بالفرائض ﴿وَالْإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [أي] صلة ذي القرابة ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ الزنا ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ما لا يعرف في شريعة ولا سنة ﴿وَالْبَغْيِ﴾ الاستطالة».

قال عثمان: فوقع الايمان في قلبي، فأتيت أبا طالب فأخبرته، فقال: يا معشر قريش، اتبعوا ابن أخي تَزُودوا، ولئن كان صادقاً أو كاذباً، فإنه لا يأمر إلا بمكارم الأخلاق. فلما رأى رسول الله ﷺ من عمه اللين، قال: «يا عم، أتاثر الناس أن يتبعوني وتَدَع نفسك، وجهد عليه فأبى أن يُسلم»^١.

أقول: يعني في الظاهر نظراً إلى صلاح حفظ رسول الله ﷺ، وإلا فإنه كان من أول المسلمين وأفضلهم، لوضوح أن هذا الكلام لا يصدر إلا ممن كان مسلماً عن صميم القلب موقناً بصدق الرسول، ولذا قدّم التصديق بقوله: ولئن كان صادقاً أو كاذباً.

وعن ابن عباس: العدل: شهادة أن لا إله إلا الله، والاحسان: أداء الفرائض^٢. وفي رواية أخرى عنه: العدل: خلع الأنداد، والاحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، وأن تُحب للناس ما تُحب لنفسك، فإن كان مؤمناً أحببت أن يزداد إيماناً، وإن كان كافراً أحببت أن يصير أخاك في الاسلام^٣.

وفي رواية ثالثة، قال: العدل: هو التوحيد، و [الاحسان]: [الاخلاص فيه]^٤. وقيل: العدل في الأفعال، والإحسان في الأقوال، فلا تفعل إلا ما هو عدل، ولا تُقل إلا ما هو إحسان^٥.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «العدل: الانصاف، والاحسان: التفضل»^٦. وعن القمي: العدل شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً ﷺ رسول الله، والاحسان: أمير المؤمنين عليه السلام^٧.

وعن الباقر عليه السلام: «العدل: محمد ﷺ، فمن أطاعه فقد عدل، والاحسان: علي عليه السلام، فمن تولاه فقد أحسن، والمحسن في الجنة»^٨.

وعن ابن عباس: ﴿وَيُتَابَى ذِي الْقَرْبَى﴾ يريد صلة الرِّجَمَ بالمال، فإن لم يكن فبالدعاء^٩. وعن النبي ﷺ: «أَنْ أَعْجَلَ الطَّاعَةَ ثَوَاباً صِلَةَ الرِّجَمِ، إِنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ لَيَكُونُونَ فَقَرَاءً»^{١٠} فتمنى أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم^{١١}.

٢ و ٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٠١.

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٠٠.

٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٠١.

٦. تفسير العياشي ٣: ٢٤٢٠/٢٥٧، معاني الأخبار: ١/٢٥٧، تفسير الصافي ٣: ١٥١.

٧. تفسير القمي ١: ٣٨٨، تفسير الصافي ٣: ١٥١. ٨. تفسير العياشي ٣: ٢٤٢٢/٢١، تفسير الصافي ٣: ١٥١.

٩. تفسير الرازي ٢٠: ١٠١. ١٠. في تفسير الرازي: فجاراً.

١١. تفسير الرازي ٢٠: ١٠١.

وعن الباقر عليه السلام: «إِيَّاي ذِي الْقُرْبَى» قرباننا، أمر الله العباد بمودتنا وإيتاننا^١.
وعن الصادق عليه السلام، أنه قرأ عنده هذه الآية، فقال: «اقرأ كما أقول» **«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيَّايَ ذِي الْقُرْبَى»** **«حَقَّهُ»** إلى أن قال الراوي: قيل: فما يعني بإيتاء ذي القربى حقه؟ قال: «أداء إمام إلى إمام بعد إمام»^٢

وقيل: إن المراد بالفحشاء الزنا^٣، كما في الرواية السابقة. وقيل: البخل^٤. وقيل: كل الذنوب، سواء كانت في القول أو في الفعل، أو كبيرة أو صغيرة^٥. والمراد بالمنكر هو الكفر بالله^٦. وقيل: ما لا يعرف في شريعة ولا سنة^٧، كما في الرواية السابقة.
وقيل: المراد بالبغي الكبير والظلم^٨.

وعن القمي، في تأويله الفحشاء والمنكر والبغي: فلان وفلان وفلان^٩.
وعن الباقر عليه السلام: «الفحشاء الأول، والمنكر الثاني، والبغي الثالث»^{١٠}.
وعن الصادق عليه السلام: «وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» قال: «ولاية فلان [وفلان]»^{١١}.

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ [٩١]

ثم لما جمع الله جميع المأمورات والمنهيات التي كلها عهود الله في الآية السابقة، بالغ في التأكيد في العمل بها بقوله: «وَأَوْفُوا» أيها المؤمنون **«بِعَهْدِ اللَّهِ»** واعملوا بأحكامه **«إِذَا عَاهَدْتُمْ»** معه حين آتمتم به وسلمتم له وبايعتم رسوله.

وقيل: المراد بالعهد خصوص بيعة الرسول ﷺ^{١٢}. وقيل: هو كل ما يلزمه الإنسان على نفسه بالذم وشبهه^{١٣}. وقيل: هو اليمين^{١٤}. وعلى التفسير الأول خص سبحانه حكم نقض اليمين بالذكراهماً به بقوله: «وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ» بالله التي تحلفون بها عند المعاهدات، ولا تحثوا^{١٥} فيها **«بِعَهْدِ تَوْكِيدِهَا»** وإحكامها **«وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ»** بالوفاء بها **«كَفِيلًا»** ورقباً، فإن من حلف بالله جعله

١. تفسير العياشي ٣: ٢٤٢٢/٢١، تفسير الصافي ٣: ١٥٢.

٢. تفسير العياشي ٣: ٢٤١٩/١٩، تفسير الصافي ٣: ١٥٢.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٠١.

٤. تفسير القمي ١: ٣٨٨، تفسير الصافي ٣: ١٥١.

٥. تفسير العياشي ٣: ٢٤٢١/٢٠، تفسير الصافي ٣: ١٥١.

٦. تفسير العياشي ٣: ٢٤١٩/٢٠، تفسير الصافي ٣: ١٥٢.

٧. تفسير الرازي ٢٠: ١٠٦، تفسير روح البيان ٥: ٧٣.

٨. حيث في اليمين: لم يبر فيها وأيم.

٩. تفسير الرازي ٢٠: ١٠٧.

كفيلًا بالوفاء به.

ثم رَغِبَ في الوفاء ورَهَبَ عن الحنث بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من الوفاء والحنث، فيجازيكم على الأول بالثواب، وعلى الثاني بالعقاب.

قيل: نزلت في جماعة أسلموا بمكة، وعاهدوا الرسول، فلما رأوا غلبة قريش وضعف المسلمين جَزَعُوا واضطربوا، وهموا بقبض العهد بتسويل الشيطان، فثبتهم الله بهذه الآية على عهدهم مع الرسول ﷺ^١.

والقمي عن الصادق عليه السلام: «لما نزلت ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان من قول رسول الله ﷺ: سَلَمُوا على عليٍّ بإمرة المؤمنين، فكان مما أكد الله عليهم في ذلك اليوم، وقول رسول الله ﷺ لهما: قوما فسلما عليه بإمرة المؤمنين. فقالا: أمن الله أو من رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: من الله ومن رسوله. فأنزل الله: وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» يعني به قول رسول الله لهما، وقولهما: أمن الله أو من رسوله؟^٢. أقول: يمكن تكرّر نزول الآية.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ عُزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [٩٢]

ثم أكد سبحانه وجوب الوفاء بالعهود وحرمة نقضها بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون في عهودكم وأيمانكم ونقضها بلا مجوز شرعي وعقلاني ﴿كَالَّذِينَ﴾ غزلت الشعر والصوف وفتلت الحبل كل يوم ثم ﴿نَقَضَتْ عُزْلَهَا﴾ وفتلها ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ وإبرام وإحكام له حتى جعلته ﴿أَنْكَاثًا﴾ وخيوطاً، أو اجزاء متفرقة كالصوف المنفوش، ثم غزلت مرة ثانية، ثم فعلت ما فعلت بالغزل الأول. قيل: هي امرأة من قريش يقال لها رابطة أو ربطة^٣ أو خطيئة بنت سعد بن تميم، تُلَقَّبُ بالجرعاء^٤، أو خضراء، أو خرقاء^٥، وكانت حمقاء^٦، وكانت أعدت مغزلاً قدر ذراع في رأسه حديدة مثل إصبع، وفلكة عظيمة على قدرها، وكانت هي وجواربها تغزل من الصبح إلى نصف النهار، ثم تأمرهن

١. تفسير روح البيان ٥: ٧٣.

٢. الكافي ١: ٢٣١، تفسير الصافي ٣: ١٥٢، تفسير القمي ١: ٣٨٩ «نحوه».

٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٠٨، تفسير القمي ١: ٣٨٩.

٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٠٨.

٥. مجمع البيان ٦: ٥٩٠، تفسير البيضاوي ١: ٥٥٥.

٦. تفسير الرازي ٢٠: ١٠٨، تفسير الصافي ٣: ١٥٣.

بنقض جميع ما غزلت^١.

عن الباقر عليه السلام: «التي نقضت غزلها امرأة من بني تيم بن مرة يقال: له ربطة بنت كعب بن سعد بن تيم بن لؤي بن غالب، كانت حمقاء تغزل الشعر، فإذا غزلته نقضته، ثم عادت تغزله، فقال الله: ﴿كَأَلَيْتِ نَقَضْتُ غَزْلَهَا﴾ الآية» قال: «إن الله أمر بالوفاء، ونهى عن نقض العهد، وضرب لهم مثلاً»^٢. وعن الصادق عليه السلام في تأويلها «أَنْ عَانَشَ هِيَ نَكثَتْ أَيْمَانَهَا»^٣.

وقيل: إن المقصود تصوّر مثل المرأة التي تكون صفتها كذلك^٤، ولا يلزم وجودها في الخارج، والمراد لا تكونوا مثل هذه المرأة حال كونكم ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا﴾ وخديعة وغشاً ﴿بَيْنَكُمْ﴾ لأجل ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ وجماعة ﴿هِيَ أَزْبَى﴾ وأكثر ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ وجماعة أخرى عدداً ومالاً وقوةً وشرفاً.

وقيل: إن الجملة استفهامية إنكارية^٥، والمعنى ألتخذون؟! إلى آخره.

قيل: كانوا يحالفون الحلفاء ثم يجدون من كان أعزّ منهم وأشرف، فينقضون حلف الأولين ويحالفون هؤلاء الذين هم أعزّ، فنهاهم الله تعالى عن ذلك^٦.

وقيل: إن الأربى كفرة قریش، والأمة الأخرى جماعة المؤمنين^٧، وعلى أيّ تقدير ﴿إِنَّمَا﴾ الغرض من جعل بعض الأمم أربى، أو من الأمر والنهي أن ﴿يَبْلُوكُمْ اللَّهُ﴾ ويختبركم ﴿بِهِ﴾ بأن يظهر أنكم تمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله، أم تغتروا بكثرة قریش وشوكتهم وضعف المسلمين، أو تطيعون الله ورسوله، أو تتبعون خطوات الشيطان وتسويلاته.

والقمي: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ﴾ يعني يختبركم بعلي عليه السلام^٨.

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ﴾ الله ﴿لَكُمْ﴾ البتة ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ووقت جزاء الأعمال ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من صحة دين الاسلام، وأنه دين الحق المؤدي إلى الثواب، وبطلان غيره وأنه مؤدٍ إلى العقاب.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

١. تفسير أبي السعود ٥: ١٣٧، تفسير روح البيان ٥: ٧٥.

٢. تفسير القمي ١: ٣٨٩، تفسير الصافي ٣: ١٥٣.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٠٩.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٧٥.

٥. تفسير الصافي ٣: ١٥٣، تفسير روح البيان ٥: ٧٥.

٦. تفسير القمي ١: ٣٨٩، الكافي ١: ٢٣٢، تفسير الصافي ٣: ١٥٤.

وَلْتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [٩٣]

ثم لما ذكر سبحانه اختلاف الناس في دينه، نبه على قدرته على إيجابهم على الاتفاق على دين الاسلام، وإنما الحكمة اقتضت إيكالهم إلى اختيارهم وحصول الاختلاف بينهم حسب اختلاف طبيعتهم بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ بالمشيئة التكوينية اتفاق الناس، والله ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾ بالقهر والجبر ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقة على دين الاسلام بقدرته القاهرة ﴿وَلَكِنْ﴾ لم يشأ ذلك لمناقاة الحكمة البالغة، بل ﴿يُضِلُّ﴾ عن الحق ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ إضلاله بخذلانه وإيكاله إلى نفسه ومقتضى طبيعته لعدم قابليته للهداية والتوفيق ﴿وَيَهْدِي﴾ إلى الحق ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته بتوفيقه وطيب طبيعته وقابليته للهداية ﴿وَاللَّهُ﴾ بالتسليط ﴿لَتَسْتَلْنَ﴾ جميعاً البتة يوم القيامة سؤال تبيكت وتقرع ﴿عَمَّا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الوفاء بالعهد والأيمان ونقضها وجثها، فتجزون بما صدر عنكم.

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسُوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [٩٥ و ٩٤]

ثم أكد سبحانه النهي عن نقض العهد واتخاذ دَخْلًا وخديعة بقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ﴾ ونكراً ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ﴾ منكم أيها المؤمنون عن محجة الحق والصراط المستقيم ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ واستقرارها عليها، وإنما أفرد لفظ القدم ونكره إشعاراً بأن زلة القدم الواحدة إذا كانت مستتعبة لهذا المحذور العظيم، فكيف بزلة الأقدام الكثيرة.

وقيل: إن هذا الكلام مثل يُضْرَبُ لكل من وقع في الشدة بعد الرخاء وابتلى بالمحنة بعد التعمة^١. وقال القمي في تأويله: ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ يعني بعد مقالة النبي ﷺ في علي عليه السلام^٢.
وقيل: إن الآية السابقة في النهي عن نقض مطلق العهد واليمين، وهذه الآية في النهي عن نقض عهد الرسول^٣ وبيعته؛ لأن زلة القدم بعد ثبوتها مناسبة لنقض هذا العهد الموجب لسقوط الانسان عن درجة الايمان في مهاوي الضلال والهلاك، ولذا هددهم بقوله: ﴿وَتَذُوقُوا أَلْسُوءَ﴾ والعذاب الدنيوي ﴿بِمَا صَدَدْتُمْ﴾ ومنعتم أنفسكم أو غيركم ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ في ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والالتزام بالاسلام، أو الدخول فيه، فان ارتدادهم يكون مانعاً عن إيمان غيرهم ﴿وَلَكُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

١. تفسير الرازي ٢٠: ١١٠.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ١١٠.

٢. تفسير القمي ١: ٣٩٠، الكافي ١: ٢٣٢، تفسير الصافي ٣: ١٥٤.

وعقاب شديد.

ثم قيل: إن المشركين كانوا يَعِدُونَ ضُعفاء المسلمين ويشترطون لهم الحُطام الدنيوية عن ارتدادهم^١، فهى الله المسلمين عن الرغبة في أموال المشركين بقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ ولا تأخذوا بمقابله ومقابلة بيعة الرسول ﷺ ﴿ثَمَنًا﴾ وعوضاً من أموال المشركين، فإنه وإن كان بقدر الدنيا يكون ﴿قَلِيلًا﴾ ويسيراً ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الأجر على الوفاء بالعهد من النصر والعز في الدنيا والثواب في الآخرة ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما يَعِدُونكم من الأموال ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة الايمان، وتميزون الخير من الشر.

مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً
طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [٩٦ و ٩٧]

ثم بين سبحانه أظهر وجوه الخيرية بقوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ﴾ من الحُطام الدنيوية ﴿يَنْفَدُ﴾ ويفنى ويتقضي ﴿وَمَا﴾ أعد لكم من النعم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي خزان رحمة ﴿بَاقٍ﴾ ودائم لا تُفادله، ومن الواضح أن النعمة الباقية وإن كانت قليلة خيرٌ وأفضل من النعم الزائلة وإن كانت في غاية الكثرة. ثم لما كان الوفاء بالعهد والثبات على الايمان موقوفاً على الصبر على الفقر والشدائد، وعَد الصابرين بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الوفاء بالعهد وبيعة الرسول ﷺ وما التزموه من شرائع الاسلام ﴿أَجْرَهُمْ﴾ وثوابهم الخاص بهم ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الواجبات والمندوبات.

وقيل: يعني بما عَمِلُوا من الصبر على المذكرات، وإنما أضاف إليه الأحسن للايدان بغاية حسنه^٢. ثم حت سبحانه المؤمنين على الأعمال الصالحة بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ خالصاً لوجه الله، أي عمل كان، وأي عامل كان ﴿مِنْ﴾ صنف ﴿ذَكَرٍ﴾ أو صنف ﴿أَنْتَنَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بتوحيد الله ورسالة رسوله وصدق ما جاء به ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ﴾ ونعيشه ﴿حَيَاةً﴾ وعيشة ﴿طَيِّبَةً﴾ مرضية حسنة، وإن كان معسراً مبتلى بالأمراض والمصائب، فإنه يكون قانعاً راضياً بالقسمة، متوكلاً على الله، راجياً أجره العظيم في الآخرة، فلا يحزن على ما فاتة، ولا يفرح بما آتاه الله من الدنيا.

وقيل: إِنَّ الحياة الطيبة هو الرزق الحلال^١. وقيل: هي عبادة الله والرزق الحلال^٢. وقيل: هي حياة البرزخ^٣. وقيل: حياة الآخرة^٤.

ثم وعدهم الأجر العظيم فيها بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من العبادات الخالصة عن شوب الرياء والعجب والهوى.

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ [٩٨]

ثم لما كانت تلاوة القرآن من أحسن الأعمال، إذا كانت خالصة من الرياء والعجب الحاصلين بوساوس الشيطان، بين الله طريق الخلاص منها بقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ يا محمد، أو يا إنسان ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ والتجأ إليه ﴿مِنْ﴾ وساوس ﴿الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ والمطروود من الرحمة.

روت العامة عن ابن مسعود، قال قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالله السميع^٥ العليم من الشيطان الرجيم. فقال: «قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرانيه جبرئيل عن القلم عن اللوح المحفوظ»^٦.

وعن الصادق عليه السلام [قيل له]: كيف أقول؟ قال: «تقول: أعوذ^٧ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» وقال: «الرجيم أخبث الشياطين»^٨.

وعن [حَنَانِ بْنِ] سَدِيرٍ قال: صَلَّيْتُ خَلْفَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ [المغرب] فتعوذ بإجهار: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وأعوذ بالله أَنْ يَحْضُرُون» ثم جهر بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)^٩.

إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ

عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِمُشْرِكُونَ [٩٩ و ١٠٠]

ثم نبه سبحانه على فائدة الاستعاذة بقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ بالولاية والأمر ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فإنهم لا يؤثر فيهم أمره وتسويله، وفيه إشعار بعدم فائدة الاستعاذة القولية ما لم يكن معها استعاذة^{١٠} قلبية ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ واستيلاؤه بالتسويل والدعوة المؤثرة

٣. تفسير الرازي ٢٠: ١١٣.

١ و ٢. تفسير الرازي ٢٠: ١١٢.

٤. تفسير الرازي ٢٠: ١١٣، تفسير البضاوي ١: ٥٥٦. ٥. في تفسير البضاوي وأبي السعود: أعوذ بالسميع.

٦. تفسير البضاوي ١: ٥٥٧، تفسير أبي السعود ٥: ١٤٠، تفسير الصافي ٣: ١٥٥.

٧. في تفسير العياشي: استعذ.

٨. تفسير العياشي ٣: ٢٤٢٦/٢٣، تفسير الصافي ٣: ١٥٥.

٩. قرب الاسناد: ٤٣٦/١٢٤، تفسير الصافي ٣: ١٥٥. ١٠. في النسخة: استفادة.

في القلب ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ﴾ ويحبّونه ويطيعونه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ﴾ تعالى، أو بسبب الشيطان ﴿مُشْرِكُونَ﴾ في الأولوية والعبادة.

عن الباقر عليه السلام: «يُسَلِّطَ اللهُ من المؤمن على بدنه ولا يُسَلِّطَ على دينه، قد سَلَّطَ على أيوب فتوه خلقه، ولم يُسَلِّطَ على دينه». [قلت: تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾] قال: «الذين هم بالله مشركون: يُسَلِّطَ على أديانهم وعلى أبدانهم».

وعنه عليه السلام: أنه سئل عن هذه الآية فقال: «ليس له أن يزيلهم عن الولاية، فأما الذنوب وأشباه ذلك، فإنه ينال منهم كما ينال من غيرهم».

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [١٠١]

ثم أنه تعالى بعد ذكر القرآن، ذكر طعن المشركين فيه بقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ عن ابن عباس: أنه كان إذا نزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وآله فيها شدة، أخذ الناس بها وعملوا ما شاء الله أن يعملوا، فيشق ذلك عليهم، فينسخ الله هذه الشدة ويأتيهم بما هو ألين منها وأهون عليهم رحمة من الله تعالى، فيقول لهم كفار قريش: إن محمداً يسخر بكم، يأمركم اليوم بأمرٍ وينهاكم عنه غداً، ويأتيكم بما هو أهون عليكم، وما هو إلا مُفْتَرٍ يقوله من تلقاء نفسه، والمعنى: إذا أنزلنا آية من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلاً منها بأن نسخناها.

ثم أنه تعالى قبل نقل كلامهم بادر في الجواب عنه بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ من الناسخ والمنسوخ، والتغليب والتخفيف، وما هو مصالح العباد، فما بال هؤلاء المشركين حيث ﴿قَالُوا﴾ إذا رأوا التبديل ﴿إِنَّمَا أَنْتَ﴾ يا محمد ﴿مُفْتَرٍ﴾ على الله بدعوى نزوله منه، وكاذب في هذه النسبة، فإن بعضهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة القرآن وحقايقه وفائدة نسخ الأحكام وتبديلها، وإنه لمصالح العباد التي تتغير بتغير الزمان، وأما القليل الذي يعلمه فانما يجحده لعيناده ولجاجة.

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى
لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ
أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ

١. تفسير العياشي ٣: ٢٣/٢٤، والكافي ٨: ٢٣٨/٤٣، وتفسير الصافي ٣: ١٥٥، عن الصادق عليه السلام.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٨١.

٢. تفسير العياشي ٣: ٢٤/٢٨، تفسير الصافي ٣: ١٥٥.

الله وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [١٠٢-١٠٤]

ثم بالغ سبحانه في ردّهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ليس القرآن ممّا تقولته، بل ﴿تَوَلَّ﴾ تدريجاً جبرئيل الذي لقبه ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ وأمين الوحي ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿رَبِّكَ﴾ مقروناً ﴿بِالْحَقِّ﴾ ودلائل الصدق من إعجاز البيان واشتماله على العلوم الوفيرة والأخبار الغيبية، أو متلبساً بالحكمة البالغة ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على الايمان بأنّه كلام الله المنزل على رسوله، فإنهم إذا سمعوا الناسخ وتذكروا فيما فيه من المصالح والحكم، رَسَخَتْ عقاندهم وطمأنّت قلوبهم ﴿وَلَا يَكُونُ هُدًى﴾ ورشاداً إلى كلّ حقٍّ وخيرٍ ﴿وَيُشْرَى﴾ بالثواب ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المتقادين لأحكامه.

ثم حكى الله تعالى طعنهم الآخر في القرآن بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ أنّ محمداً كاذبٌ في دعوى نزول القرآن من الله، بل ﴿إِنَّمَا يَعْزُبُ عَنْهُ الْقَصَصُ وَالتَّوَارِيخُ الَّتِي فِيهِ﴾ ﴿بَشَرٌ﴾ قيل: أريد به سلمان الفارسي^١. وقيل: عبد لبني عامر بن لؤي^٢، وكان يقرأ الكتب^٣ وقيل: عداس غلام عتبة بن ربيعة^٤. وقيل: عبد لبني الحضرمي [صاحب] كتب واسمه جبر، وكانت قريش تقول: إنّ عبد بني الحضرمي يعلم خديجة، وخديجة تعلم محمداً^٥. وقيل: كان بمكة نصراني أعجمي اللسان اسمه بلعام. وكنيته أبو ميسرة، وكان يتكلم بالرومية^٦.

ثم ردّهم الله تعالى بقوله: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ﴾ وينسبون القرآن ﴿إِلَيْهِ﴾ أو يحيلون قولهم عن الاستقامة بادعاء أنّ القرآن بتعليمه ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ غير فصيح وغير مبين، أو غير عارفٍ بلغة العرب ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ بالغ في الفصاحة إلى حدّ الإعجاز، ثم أتبع ردّهم بتهديدهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ودلائل توحيده وكمال صفاته، ورسالة رسوله ومعجزاته التي منها فصاحة القرآن وعلومه المنطوية فيه، مع عدم اطلاع الذي حسبه مuelماً له على أقل قليل منها ﴿لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ﴾ إلى الحقّ وطريق الجنة، بل يسوقهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [١٠٥ و ١٠٦]

١. تفسير الرازي ٢٠: ١١٧، تفسير البيضاوي ١: ٥٥٧، تفسير أبي السعود ٥: ١٤١.

٢. زاد في تفسير الرازي: يقال له: يعيش.

٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٠: ١١٧.

٥ و ٦. تفسير الرازي ٢٠: ١١٧.

ثُمَّ نَفَى سَبْحَانَهُ الْكَذِبَ عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ وَأَثَبَهُ لِلْمُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ ويقول ما هو خلاف الواقع عن علم وعَمَدَ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ولا يُصَدِّقُونَهَا عِنَادًا وَلَجَاجًا، وَيَدْعُونَ أَنَّ الْآيَاتِ افْتِرَاءٌ وَكَذِبٌ، فَانْهَمِ اللّٰاتِقُونَ بِالْكَذِبِ ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الْمُتَصَفُّونَ بِأَخْبَثِ الصِّفَاتِ ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ فِي الْحَقِيقَةِ الْمُبَالِغُونَ فِي الْكَذِبِ لِعَدَمِ خَوْفِهِمْ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ، لَا النَّبِيَّ الصَّادِقَ الْمَصْدُقَ الَّذِي هُوَ أَخَوْفُ الْخَائِفِينَ وَرَأْسُ الْمُؤْمِنِينَ.

ثُمَّ لَمَّا حَكَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ تُسْبِهَاتِ الْمُشْرِكِينَ فِي صَدَقِ الْقُرْآنِ وَنُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ طَمَعًا فِي ارْتِدَادِ الْمُسْلِمِينَ، هَدَّدَ الْمُرْتَدِّينَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ كَفَرَ يَاقَهُ﴾ بِسَبَبِ تُسْبِهَاتِ الْمُشْرِكِينَ ﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ وَوَضَّحَ الْحَقُّ عَنْهُ، كَانَ مِنْ كَانَ ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ عَلَى إِظْهَارِ الْكُفْرِ بِاللِّسَانِ ﴿وَهُوَ الْحَالُ أَنَّهُ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ﴾ وَمُؤْمِنٌ ﴿بِالْإِيمَانِ﴾ وَمُسْتَقَرٌّ عَلَى التَّوْحِيدِ وَنُبُوَّةِ النَّبِيِّ وَصَدَقِ الْقُرْآنُ.

قِيلَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿مَنْ كَفَرَ يَاقَهُ﴾ بَدَلَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وَالْمَعْنَى إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ مِنْ كُفْرِ اللَّهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ اعْتِرَاضٌ بَيْنَ التَّبَدُّلِ وَتَبَدُّلِهِ^١ وَقِيلَ: بَدَلَ مِنْ ﴿الْكَاذِبُونَ﴾ وَالْمَعْنَى أُولَٰئِكَ هُمْ مِنْ كُفْرِ اللَّهِ^٢. وَقِيلَ: إِنَّهُ مَنْصُوبٌ عَلَى الذَّمِّ، وَالْمَعْنَى أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ، أَعْنِي مِنْ كُفْرِ اللَّهِ^٣.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ اسْتِنَاءِ الْمَكْرَهِينَ بَيْنَ الْكَافِرِ الْمَذْمُومِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَذْرًا﴾ وَطَابَ بِهِ نَفْسًا ﴿فَعَلَيْنَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عَظِيمٌ ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فِي الْآخِرَةِ. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي عَمَّارٍ، وَذَلِكَ أَنَّ كَفَّارَ قُرَيْشٍ أَخَذُوهُ وَأَبُوهَ يَاسِرَ وَشُمَيْةَ وَضَهَبِيًّا وَبِلَالًا وَخَبَّابًا وَسَلَامًا فَعَذَّبُوهُمْ لِيَرْتَدُّوا، فَأَبَى أَبُو عَمَّارٍ، فَرِطُوا سَمِيَّةَ بَيْنَ بَعِيرَيْنِ وَضَرَبَتْ بِحَرْبَةٍ فِي قَلْبِهَا، وَقَالُوا: إِنَّمَا أَسْلَمْتَ مِنْ أَجْلِ الرِّجَالِ وَالتَّعَشُّقِ بِهِمْ فَقَتَلُوهَا، وَقَتَلُوا يَاسِرًا، وَهُمَا أَوَّلُ قَتِيلَيْنِ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا عَمَّارٌ فَكَانَ ضَعِيفَ الْبَدَنِ فَلَمْ يُطَقْ لِعَذَابِهِمْ، فَأَعْطَاهُمْ بِلْسَانَهُ مَا أَكْرَهُهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ سَبُّ النَّبِيِّ ﷺ وَذِكْرُ الْأَصْنَامِ بِخَيْرٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ عَمَّارًا كَفَرَ. فَقَالَ: «كَلَّا، إِنَّ عَمَّارًا مُنَى إِيْمَانًا مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِيهِ، وَاخْتَلَطَ الْإِيْمَانُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ» فَآتَى عَمَّارَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَبْكِي، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُ عَيْنَيْهِ، وَقَالَ: «مَالِكُ، إِنْ عَادُوا لَكَ فَعَدُّ لَهُمْ بِمَا قُلْتَ»^٤.

الْقَمِي: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فَهُوَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، أَخَذَتْهُ قُرَيْشٌ بِمَكَّةَ فَعَذَّبُوهُ بِالنَّارِ حَتَّى أَعْطَاهُمْ بِلْسَانَهُ مَا أَرَادُوا وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ وَمَقَرَّ بِالْإِيْمَانِ ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَذْرًا﴾

فهو عبدالله [بن سعد] بن أبي سرح بن الحارث بن لؤي^١، وكان عاملاً لعثمان بن عفان على مصر^٢. وعن (الكافي): قيل للصادق عليه السلام: إن الناس يروون أن علياً عليه السلام قال على منبر الكوفة: «أيها الناس، إنكم ستدعون إلى سبي فسيوني، ثم تدعون إلى البراءة مني فلا تبرءوا مني».

فقال عليه السلام: «ما أكثر ما يكذب الناس على علي عليه السلام! ثم قال: «إنما قال: إنكم ستدعون إلى سبي فسيوني، ثم تدعون إلى البراءة مني وأنا لعلي دين محمد، ولم يقل: فلا تبرءوا مني».

فقال له السائل: [أرأيت] إن اختار القتل دون البراءة؟ فقال: «والله ما ذاك عليه وما له إلا ما مضى عليه عمار بن ياسر حيث أكرهه وقلبه مطمئن بالإيمان، فأنزل الله فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾، فقال له النبي صلى الله عليه وآله عندها: يا عمار، إن عادوا فعد فقد أنزل الله عندك، وأمرك أن تعود إن عادوا»^٣.

وعنه عليه السلام، أنه سئل: مد الرقاب أحب إليك أم البراءة من علي؟ فقال: «الرخصة أحب إلي، أما سمعت قول الله في عمار: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾»^٤.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ [١٠٧-١٠٩]

ثم ذكر الله علّة الارتداد مع وضوح الحق بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ الارتداد ﴿بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وشهواتها وآثروها ﴿عَلَى﴾ نعم ﴿الْآخِرَةِ﴾ والجنة الباقية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ ولا يوفق ﴿الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ للنتين بدين الحق، لحُب ذاتهم، ورسوخ حب الدنيا في قلوبهم.

ثم بين أنه تعالى لا يكتفي في حقهم بالكف عن توفيقهم للثبات على الإيمان، بل يخذلهم ويُميت قلوبهم [الموت] الملازم لعدم العقل والصَّم والعَمى بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ المحبون للدنيا ومزورها على الآخرة هم ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ﴾ وختم ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ فلا يعقلون شيئاً من الحق، ولا يسمعون النصيح والوعد والوعيد، ولا يبصرون الآيات والمعجزات.

عن الصادق عليه السلام: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يدعو أصحابه، فمن أراد الله به خيراً سمع وعرف ما يدعو إليه، ومن أراد به شراً طبع على قلبه فلا يسمع ولا يعقل، وهو قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ

٢. تفسير القمي ١: ٣٩١، تفسير الصافي ٣: ١٥٧.

١. تفسير القمي ١: ٣٩٠، تفسير الصافي ٣: ١٥٧.

٤. تفسير العياشي ٣: ٢٥/٢٤٣، تفسير الصافي ٣: ١٥٨.

٣. الكافي ٢: ١٧٣/١٠، تفسير الصافي ٣: ١٥٧.

طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ^١ عن وخامة عاقبتهم، وعما يرد بهم من العذاب الدائم ﴿لَا جَزْمَ﴾ وحقاً ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث ضيعوا فطرتهم وأعمارهم وصرفوها في تحصيل العذاب الدائم مع تمكنهم من صرفها في تحصيل النعم الدائمة والراحة الأبدية، فلا أخسر منهم، بل لعظم خسرانهم كأنه لا خاسر غيرهم.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثَمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنَ
بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ
مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [١١٠ و ١١١]

ثم بين سبحانه غاية لطفه بالذين عذبهم الكفار وأكروههم على الكفر بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ من أوطانهم حفظاً لدينهم ونصرةً لنبيهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ وعذبوا بحور المشركين وأكروهوا على كلمة الكفر ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ في سبيل الله ﴿وَصَبَرُوا﴾ على فتنة الكفار ومتاعب الهجرة ومشاق المجاهدة ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنَ بَعْدِهَا﴾ بلطفه وكرمه ﴿لَغَفُورٌ﴾ لما صدر عنهم من كلمة الكفر وسائر الزلات ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم ومُنِيعٌ عليهم بالجنة وسائر الخيرات.

ثم بين سبحانه أن غفرانه لهم ورحمته عليهم يكونان في وقت غاية الحاجة إليهما بقوله: ﴿يَوْمَ﴾ وقيل: إن التقدير اذكر يا محمد^٢ أو ذكرهم يوم ﴿تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ مزمنة أو كافرة برة أو فاجرة ﴿تُجَادِلُ﴾ وتخاصم دفاعاً ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ وشخصها.

عن ابن عباس: ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى يخاصم الروح الجسد، يقول الروح: يا رب، لم يكن لي يد أبطش بها ولا رجل أمشي بها، ولا عين أبصر بها. ويقول الجسد: خلقتني كالخشب، ليست لي يد أبطش [بها]، ولا رجل أمشي بها، ولا عين أبصر بها، فجاء هذا كشعاع النور فيه نطق لساني، وأبصرت عيني، ومشت رجلي. قال: فيضرب لهما مثلاً: مَثَلُ الْأَعْمَى والمُتَعَدِّ دَخَلَ حَائِطًا وَفِيهِ ثِمَارٌ، فَالْأَعْمَى لَا يُبْصِرُ الثَّمَارَ، وَالمُتَعَدِّ لَا يَنَالُهَا، فَحَمَلَ الْأَعْمَى الْمُتَعَدِّ فَأَصَابَا مِنَ الثَّمَرِ، فَعَلِيَهُمَا الْعَذَابُ^٣.

وقيل: إن المعنى أن كل نفس تُجَادِلُ نفسه، فيقول المطيع: لِمَ لَمْ أَكْثَرِ مِنْ طَاعَةِ رَبِّي؟ ويقول العاصي لنفسه: لِمَ عَصَيْتُ رَبِّي؟

٢. تفسير روح البيان ٥: ٨٧.

١. تفسير العياشي ٣: ٢٦/٢٤٣٦، تفسير الصافي ٣: ١٥٨.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٨٨.

﴿وَتَوْفَى﴾ وتعطى كاملاً ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس جزاء ﴿مَا عَمِلَتْ﴾ من الطاعة والمعصية والخير والشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بتقيص الثواب أو زيادة العقاب.

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ [١١٢]

ثم أنه تعالى بعد تهديد الكفار بالعذاب الأخروي، هذّهم بالعذاب الدنيوي بقوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ بديعاً لتبيين حال الكفار والمتردين عن دين الحق، وذكر لهم شبيهاً، وهو أن ﴿قَرْيَةً﴾ من القرى، قيل: هي مكة^١، وقيل: هي أيلة، كانت بين يثع ومصر^٢ ﴿كَانَتْ آمِنَةً﴾ من تعديات القباصة وظلم الجابرة وسائر المخوفات، وكانت ﴿مُطْمَئِنَّةً﴾ ساكنة أهلها، لا يتقلون منها إلى غيرها لحسنها، وغدوبة مانها، ولطافة هوائها، ووفور نعمها، فأنه كان ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ وما يحتاج إليه أهلها ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ كان في نواحيها من البر والبحر ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾ بأن صرفها أهلها في عصيان ربهم الذي تفضل عليهم بتلك النعم التي منها صحّة أمزجتهم، وسعة أرزاقهم، وأمنهم من المخوفات ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ﴾ وألبس أهلها ﴿لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ بسبب القحط وتهاجم الأعداء عليهم ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ من كفران النعم.

روى بعض العامة: أن أهل أيلة كانوا يستنجون بالخبز^٣.

والقمي رحمه الله، قال: نزلت في قوم كان لهم نهج يقال له البليان^٤، وكانت بلادهم خصبة كثيرة الخير، وكانوا يستنجون بالعجين، ويقولون: هو ألين لنا، فكفروا بأنعم الله واستخفوا بنعمة الله، فحبس الله عليهم البليان، فجدبوا حتى أحوجهم الله إلى [أكل] ما كانوا يستنجون به، حتى كانوا يتقاسمون عليه^٥. والعياشي عن الصادق عليه السلام: «كان أبي يكره أن يمسح يده بالينديل وفيه شيء من الطعام تعظيماً له، إلا أن يمسحها، أو يكون إلى جانبه صبي فيمسحها له. قال: وإني أجد اليسير يقع من الخوان فأتفقده، فيضحك الخادم».

ثم قال: «إن أهل قرية ممن كان قبلكم، كان الله قد وسّع عليهم حتى طغوا، فقال بعضهم لبعض: لو عمدنا إلى شيء من هذا النقي^٦ فجعلناه نستنجي به، كان ألين علينا من الحجارة» قال: «فلما فعلوا ذلك بعث الله إلى أرضهم دواباً أصغر من الجراد، فلم يدع لهم شيئاً خلقه الله [يقدر عليه] إلا أكله من

٢. تفسير روح البيان ٥: ٨٨.

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٢٧.

٤. في تفسير القمي: الثلاثان (الثرثار خ ل).

٣. تفسير روح البيان ٥: ٨٩.

٦. النقي: الدقيق الجيد الأبيض.

٥. تفسير القمي ١: ٣٩١، تفسير الصافي ٣: ١٥٩.

شجر وغيره، فبلغ بهم الجهد إلى أن أقبلوا إلى الذي كانوا يستنجون به [فأكلوه]، وهي القرية التي قال الله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^١.

قيل: وجه استعارة اللباس للجوع والخوف إحاطتهما به من جميع الجهات^٢.

وقيل: تأثيرهما في الهزال وشحوب اللون المشتملين على البدن كاللباس^٣، وقيل: إن اللباس هنا بمعنى الامساس^٤.

وقيل: إن الإذاقة بمعنى التعرف^٥. وقيل: استعير لفظ الإذاقة للإصابة لما فيها من اجتماع إدراكي اللامسة والذائقة^٦.

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ [١١٣]

ثم أنه تعالى بعد بيان سلب النعم عنهم بكفرانهم، بين ابتلاءهم بعذاب الاستتصال بتكذيبهم الرسول بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ من جانب الله ﴿رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ يعرفونه بأصله ونسبه وأخلاقه، لهدايتهم إلى الحق، وإرشادهم إلى وجوب شكر النعم وحرمة الكفران، وإخبارهم بسوء عاقبة ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما أخبرهم به من رسالته من الله، ووجوب طاعته وطاعة أحكام الله التي منها وجوب شكر النعم ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ المستأصل وأهلكهم به ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ على أنفسهم بكفران النعم والكفر بالله وبرسوله.

عن ابن عباس، قال: هذا المثل لأهل مكة، فإنهم كانوا في حرم آمن ويختطف الناس من حولهم، وما يمرّ بالهلم طيقت من الخوف، وكانت تجبى إليه ثمرات كل شيء، ولقد جاءهم رسول منهم، فكفروا بأنعم الله، وكذبوا رسول الله ﷺ، فأصابهم بدعائه - بقوله: «اللهم أعني عليهم بسبع كسيع يوسف» - ما أصابهم من القحط والجذب حتى أكلوا الجيف والكلاب الميتة والجلود والعظام المحرقة والعليز - وهو الوير والدم - يعني كانوا يخلطون الدم بأوبار الإبل ويشوونه على النار، وصار الواحد منهم يرى ما بينه وبين السماء كالدخان من الجوع، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من سرايا النبي ﷺ بعد الهجرة، حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وغيرهم، فوقعوا في خوف عظيم من أهل الاسلام حتى تركوا سفر الشام والتردد إليه، ثم أخذهم يوم بدر ما أخذهم [من العذاب]^٧.

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٢٩.

٢. تفسير العياشي ٣: ٢٧/٢٤٣٨، تفسير الصافي ٣: ١٥٩.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٢٩.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٨٩.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٨٩.

٦. تفسير أبي السعود ٥: ١٤٥.

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ [١١٤]

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ سبحانه سوء عاقبة الكفران، أمر عموم النَّاس بشكر نعمه بقوله: ﴿فَكُلُوا﴾ أيها الناس ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ وأنعم عليكم من النعم حال كونها ﴿حَلَالًا﴾ لكم من قبل الله ﴿طَيِّبًا﴾ ولذيذاً عندكم.

قيل: إن رسول الله ﷺ قطع الميرة عن أهل مكة، فكلمهم رسول الله ﷺ حين جهدوا، وقالوا: عادت الرجال فما بال النسوة والصبيان؟ فأذن ﷺ في حمل الطعام إليهم، فلما حُمل خاطبهم الله بقوله: ﴿فَكُلُوا﴾^٢ يا أهل مكة ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾.

وقيل: كأنه قال تعالى: لَمَّا تَبَيَّنَ لكم يا أهل مكة حال من كفر بأنعم الله وكذب رسوله وما حلَّ بهم^٣ ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ ولا تحرّموا بأهوانكم ما أحلَّ الله لكم ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وأحكامه تُطيعون، ورضاه تطلبون.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [١١٥]

ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ بما حرّم عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ الله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في دين الاسلام ﴿الْمَيْتَةَ﴾ وما زهق روحه بغير التذكية من كلّ حيوان برّي ﴿وَالدَّمَ﴾ مسفوحاً كان أو غيره إلا المتخلف في المذكى ﴿وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ﴾ وسائر ما يؤكل منه ﴿وَمَا أُهْلَ﴾ ورفع الصوت ﴿لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ بأن يقال عند ذبحه باللات أو العزى، أو بغيرهما من أسماء الأصنام، هذه هي المحرّمات عند الله دون ما تزعمون من البحيرة وأخواتها، وتلك المحرّمات أيضاً لا تحرّم مطلقاً، بل يجوز أكلها عند الضرورة ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ والجنى إلى أكل أحد من الأمور المحرّمة إذا كان ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ وغير متعدٍّ على مضطّرٍّ آخر، أو غير طالبٍ للذة، أو غير باغٍ على إمام زمانه ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ومتجاوز في أكله عن قدر الضرورة وسدّ الرّمق ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لا يواخذه بذلك ﴿رَحِيمٌ﴾ لا يرضى بمشقتهم والتضييق عليهم، بل يرخّص لهم في رفع اضطرارهم بأكل ما حرّم عليهم.

وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى

اللهُ الْكَذِبُ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [١١٦ و ١١٧]

ثم لما بين سبحانه حصر محرماته في شرع الاسلام في الأشياء الأربعة، نهى المشركين عن بدعتهم وتحريم ما أحله الله عليهم بهوى أنفسهم بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ أيها المشركون ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ﴾ من الأنعام المحللة عند الله بالحل تارة وبالحرمة أخرى بهوى أنفسكم، بلا إسناد إلى الوحي من الله ﴿الْكَذِبُ﴾ على الله، وذلك الكذب هو قولكم: ﴿هَذَا﴾ الحيوان الذي زهق روحه بغير التذكية، أو هذا الخنزير، أو هذا الدم المشوي ﴿حَلَالٌ﴾ لنا من قبل الله وفي حكمه ﴿وَهَذَا﴾ الحيوان الحامي أو البحيرة أو السانبة ﴿حَرَامٌ﴾ علينا، وهذا الذي في بطون الأنعام حرام على أزواجنا، فإن جميع ذلك مجرد الوصف والقول بالأنواء بلا حجة ودليل من الله.

وقيل: إن المعنى: لا يقولوا لأجل وصف ألسنتكم الكذب: هذا حلال وهذا حرام^١. وقيل: جملة ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ الْكَذِبُ﴾ من أفصح الكلام وأبلغه^٢. وقيل: إن ﴿الْكَذِبُ﴾ هو المَقُول^٣.

ثم بين سبحانه ذلك الكذب بقوله: ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ ثم لما لم يصرح سبحانه يكون كذبهم على الله صرح به بقوله: ﴿لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ ولأم (لتفتروا) لام العاقبة وقيل: إن هذه الجملة بدل من قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ الْكَذِبَ﴾ لأن وصفهم الكذب هو عين الافتراء على الله^٤.

ثم هدّد سبحانه المفترين عليه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ ولا ينجون من العذاب، أو لا يفوزون بخيرٍ ومطلوبٍ، ثم لما كان مجال توهم أن لهم الفوز بنعم الدنيا، دفعه الله سبحانه بقوله: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ تلك النعم، ومنفعة سريعة الزوال، بحيث لا يصح أن يقال لوجدانها فوز وفلاح، ولذا لا يعتني بها عاقل.

عن ابن عباس: بل متاع كل الدنيا [متاع] قليل^٥. ثم يردون بالموت والخروج من الدنيا إلى نار جهنم ﴿وَلَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يقادر قدره.

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [١١٨]

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٢، تفسير أبي السعود ٥: ١٤٧، تفسير روح البيان ٥: ٩٢. ٢. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٢.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٩٢، جوامع الجامع ٢٥٠. ٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٢.

٥. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٢.

ثُمَّ لَمَّا حَصَرَ سُبْحَانَهُ الْمَحْرَمَاتِ فِي الْأَرْبَعِ وَنَهَى عَنْ تَحْرِيمِ غَيْرِهَا، كَانَ مَجَالُ تَوْهَمِ أَنْ الْمَحْرَمَاتِ الَّتِي فِي دِينِ الْيَهُودِ زَائِدَةٌ عَلَى الْأَرْبَعِ مَعَ كَوْنِهَا مِنْ اللَّهِ، فَدَفَعَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ الَّتِي أَنْزَلْنَاهَا عَلَيْكَ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ حَيْثُ قُلْنَا فِيهَا: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ إِلَى آخِرِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ عَقُوبَةً لَهُمْ ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بِتَحْرِيمِهَا عَلَيْهِمْ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بِتَقْضِهِمِ الْمِيثَاقَ وَبِغْيِهِمْ وَارْتِكَابِهِمُ الذُّنُوبَ الْمَوْبِقَةَ.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ [١١٩]

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَعَاصِيَ الْعِظَامَ مِنَ الْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ، وَالْبِدْعَةِ فِي الدِّينِ وَأَمْثَلِهَا تَصْرِيحاً وَتَلْوِيحاً، نَبَّهَ عَلَى عِلَاجِهَا وَالسَّبَبِ الْمُنْجِي مِنَ الْعَذَابِ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ﴾ وَارْتَكَبُوا الْمَعْصِيَةَ ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ وَسَفَاهَةٍ وَعَدَمِ التَّدَبُّرِ فِي سُوءِ الْعَاقِبَةِ كَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: إِنَّا قَدْ بِالْغِنَا فِي تَهْدِيدِ الْكَفَّارِ وَالْمُفْتِرِينَ وَمُكْذِبِي الرُّسُولِ.

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ إِذَا ارْتَكَبُوا جَمِيعَ الْمَعَاصِيَ بِسَبَبِ الْغَفْلَةِ وَالْجَهْلِ أَمْدًا بَعِيدًا وَدَهْرًا دَهْرًا ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ عَنْ مَعَاصِيهِمْ وَتَدَبَّرُوا عَلَى مَا صَدَرَ مِنْهُمْ ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الَّذِي عَمِلُوا ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ عَقَانْدَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ بِأَنْ صَارُوا مُؤْمِنِينَ بِمَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ مُطِيعِينَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، فَإِذَا صَدَرَتْ مِنْهُمْ التَّوْبَةُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ وَاللَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ لِلْمَعَاصِيَ كُلِّهَا ﴿رَحِيمٌ﴾ بِالْعَصَاةِ التَّائِبِينَ مَثِيبٌ لَهُمْ عَلَى تَوْبَتِهِمْ وَإِنَابَتِهِمْ.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ
أَجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [١٢٠ و ١٢١]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِبْطَالِ مَذْهَبِ الشُّرْكَ وَشُبُهَاتِ الْمُشْرِكِينَ فِي النُّبُوَّةِ وَبِدْعِهِمْ فِي الْأَحْكَامِ وَتُفْهَاتِهِمْ يَنْعَمُ اللَّهُ، ذَكَرَ تَوْحِيدَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي كَانُوا مُفْتَخِرِينَ بِالِاتِّسَابِ إِلَيْهِ^٢، مُتَّفَقِينَ عَلَى حَسَنِ عَقِيدَتِهِ وَسِيرَتِهِ، وَذَكَرَ اتِّقِيادَهُ وَطَاعَتَهُ لِلَّهِ وَشُكْرَهُ لِنِعْمِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ﴾ وَحْدَهُ ﴿أُمَّةً﴾ مِنَ الْأُمَمِ وَاحِدًا كَالْأُلُوفِ، لِكَمَالِ تَوْحِيدِهِ وَإِيمَانِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمُعَارَضَتِهِ مَعَ جَمِيعِ النَّاسِ بِالْحَجَجِ.

عن الباقر عليه السلام: «وذلك أنه كان على دين لم يكن عليه غيره، فكانه أمة واحدة»^١.

وقيل: إنه أمة لكونه سبباً لوجود الأمة الموحدة^٢.

وقيل: إن الأمة بمعنى المقتدى، وأطلق عليه لأنه كان إماماً يؤتم به^٣.

وعن الصادق عليه السلام: «شيء فضله الله به»^٤.

وكان «قائماً لله» قائماً بما أمره. عن الباقر عليه السلام وابن عباس: «يعني مطيعاً لله»^٥ وكان عليه السلام «حنيفاً»

ومائلاً عن سائر الأديان الباطلة إلى ملة الاسلام ثابتاً عليه.

عن الباقر عليه السلام: «أما الحنيف فالمسلم»^٦.

وعن ابن عباس: أنه أول من اختن، وأقام مناسك الحج وضحى، وهذه صفة الحنيفة^٧.

«وَلَمْ يَكْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ» بل كان رأس الموحدين صغيراً وكبيراً «شاكراً» لله و«لأنبيائه»

معترفاً بها.

روي أنه عليه السلام كان لا يتغذى إلا مع ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفاً فأخّر غداءه، فجاء فوج من

الملائكة في زي البشر، فقدم له الطعام، فخلعوا إليه أن بهم جذاماً، فقال: الآن وجبت مؤاكلتكم،

شكراً لله على أن عافاني وابتلاككم^٨.

«أَجْتَبَاهُ» الله واختاره للرسالة والخلة والإمامة «وَهَذَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» والطريق الواضح

الموصل إلى كل خير وسعادة، وفي التوصيفات المذكورة تكذيب لقريش فيما كانوا يزعمون من

أنهم على ملة إبراهيم.

وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

أَنْ أَتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [١٢٢ و ١٢٣]

ثم بين سبحانه تشريفاته عنده بقوله: «وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا» مثوبة «حَسَنَةً» من الذكر الجميل،

والثناء بين الناس، والعمر الطويل، وكثرة النسل، وكون الأنبياء من ذريته، وكون خاتم الأنبياء

وأوصيائه الطيبين من نسله «وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» وذوي الدرجات العالية في أعلى

١. تفسير القمي ١: ٣٩٢، تفسير الصافي ٣: ١٦١. ٢ و ٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٤.

٤. تفسير العياشي ٣: ٢٨/٢٤٤، تفسير الصافي ٣: ١٦١.

٥. تفسير القمي ١: ٣٩٢، تفسير الرازي ٢٠: ١٣٥، تفسير الصافي ٣: ١٦١.

٦. تفسير القمي ١: ٣٩٢، تفسير الصافي ٣: ١٦١. ٧. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٥.

٨. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٥، تفسير روح البيان ٥: ٩٤.

عليين.

ثم بين الله تعالى أجل ما أوتي ﷺ بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾^١ ودينه - فإنه كان ﴿حَنِيفًا﴾ ومائلاً عن كل دين باطل - وهو دين الاسلام والصراط المستقيم الذي هداه إليه.

ثم أكد تنزيهه عن الشرك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^٢ مبالغة في إبطال مذهب الشرك، وإنما أمره ﷺ بالاتباع لأنه ﷺ كان بعده، وإلا فهو ﷺ في عالم الأنوار والأشباح كان متبوعاً لما سوى الله من الملائكة والأنبياء أجمعين.

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [١٢٤]

ثم لما أمر الله نبيه ﷺ باتباع إبراهيم، كان مجال توهم أنه خالفه في دينه بجعل الجمعة عيداً لأمته، فدفعه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ عيداً وفرض تعظيمه ﴿عَلَى﴾ بني إسرائيل ﴿الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ لا على إبراهيم وأتباعه.

قيل: إن موسى أمر اليهود أن يجعلوا يوماً واحداً في الأسبوع للعبادة، وأن يكون ذلك يوم الجمعة، فأبوا عليه، وقالوا: نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السماوات والأرض، وهو السبت، إلا شريطة منهم قد رضوا بيوم الجمعة، فأذن الله لهم في السبت، وابتلاهم بتحريم الصيد فيه، فأطاع أمر الله الذين رضوا بالجمعة، فكانوا لا يصيدون، وأما غيرهم فلم يصبروا عن الصيد، فمسخهم الله قردةً دون أولئك المطيعين^٣.

وعن ابن عباس: أمرهم موسى بالجمعة، وقال: تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوماً واحداً، وهو يوم الجمعة، لا تعملوا فيه شيئاً من أعمالكم، فأبوا أن يقبلوا ذلك، وقالوا: لا نريد إلا اليوم الذي فرغ الله فيه من الخلق، وهو يوم السبت، فجعل الله السبت لهم، وشدد عليهم فيه، ثم جاء عيسى أيضاً بالجمعة، فقالت: النصارى: لا نريد إلا أن يكون عيدنا بعد عيدهم^٤، فاتخذوا الأحد^٥.

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ وَهَذَا اللَّهُ لَهُ، فَالْآنَ لَنَا فِيهِ سَبْعٌ، الْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ»^٦.

١. تفسير أبي السموذ ٥: ١٥٠، تفسير روح البيان ٥: ٩٦.

٢. في تفسير الرازي: عيدهم بعد عيدنا. ٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٧.

القمي، قال: إن موسى أمر قومه أن يتفرغوا إلى الله في كل سبعة أيام يوماً يجعله الله عليهم، وهم الذين اختلفوا فيه^١.

وقيل: معنى اختلافهم أنهم اختلفوا على نبيهم في ذلك اليوم، لا أنهم اختلفوا فيما بينهم^٢.
 قيل: إن الجمعة أفضل الأيام، لأن السبت كان يوم الفراغ، والأحد يوم الشروع، والجمعة يوم الكمال والتمام، وهو أولى بالفرح الكامل والسرور العظيم^٣.

وقيل: إن المراد من اختلاف بني إسرائيل في السبت أنهم أحلوا الصيد فيه تارةً وحرّموه أخرى، وكان عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة^٤.

ثم وعد الله المحققين، وأوعد المبطلين بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ والله ﴿لَيَخْخُكُم﴾ في شأن المختلفين، ويقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بالحق ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ والحكومة والقضاء ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بأن يثيب المحققين ويُعاقب المبطلين.

أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ [١٢٥]

ثم لما أمر الله سبحانه نبيه ﷺ باتباع إبراهيم في الملة والدين، أمره باتباعه في الدعوة إلى الله وتوحيده وفي كيفية بقوله: ﴿أَدْعُ﴾ يا محمد ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ودينه المرضي عند خواص أمتك ﴿بِالْحُكْمَةِ﴾ والحجة القاطعة، وعوامهم بالدلائل الإقناعية ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ والنصائح الوافية والبيانات المؤثرة الكافية والحكايات النافعة، وأما المعاندون منهم الذين لا تؤثر فيهم الدعوة، وكان غرضهم المجادلة فناجزهم ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ من طرق المناظرة والمجادلة، وهو على ما قيل: اللين في الكلام، واختيار ما هو أقرب إلى الإفحام، وأيسر في الإلزام، كما فعله الخليل عليه السلام^٥.
 عن الصادق عليه السلام، أنه ذكر عنده الجدال في الدين، وأن رسول الله ﷺ والأئمة [قد] نهوا عنه، فقال الصادق عليه السلام: «لم ينه عنه مطلقاً، ولكنه نهى عن الجدال بغير التي هي أحسن، [أما تسمعون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^٦ وقوله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فالجدال بالتي هي أحسن] قد أمر به العلماء بالدين، والجدال بغير التي هي أحسن محرم حرّمه الله على شيعتنا، وكيف يحرم الله الجدال

١. تفسير القمي ١: ٣٩٢، تفسير الصافي ٣: ١٦٢. ٢. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٧.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٧. ٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٨.

٥. تفسير أبي السعود ٥: ١٥١، تفسير روح البيان ٥: ٩٧. ٦. العنكبوت: ٤٦/٢٩.

جملةً وهو يقول: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾^١ فجعل علم الصدق والايمان بالبرهان، وهل يُؤتى بالبرهان إلا في الجدل بالتي هي أحسن.

قيل: يا بن رسول الله، فما الجِدال بالتي هي أحسن، والتي ليست بأحسن؟ قال: «أما الجِدال بغير التي هي أحسن فإن تُجادل مُبطلًا، فيورد عليك باطلاً، فلا تزدَه بحجة قد نصبها الله، ولكن تجحد [قوله أو تجحد] حقاً يُريد ذلك المبطل أن يُعين به باطله، فتجحد ذلك الحق مخافة أن يكون له عليك حجة؛ لأنك لا تدري كيف المُخلص منه، فذلك حرام على شيعتنا أن يصيروا فتنة على ضُعفاء إخوانهم وعلى المبطلين، أما المبطلون فيجعلون ضُعف الضعيف منكم إذا تعاطى مجادلته وضُغف [ما] في يده حجة له على باطله، وأما الضُعفاء فتغتم قلوبهم لما يرون من ضُعف المُحق في يد المبطل.

وأما الجِدال بالتي هي أحسن، فهو ما أمر الله به نبيه ﷺ أن يُجادل به من جحد البعث بعد الموت، وإحياء الله تعالى له، فقال الله له حاكياً عنه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ وقال الله في الرد عليه: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدٌ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾^٢ إلى آخر السورة، فأراد الله من نبيه ﷺ أن يجادل المبطل الذي قال: كيف يجوز أن يبعث هذه العظام وهي رميم؟ فقال الله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أفيعجز من ابتداء لا من شيء أن يُعيده بعد أن يبلى، بل ابتدأه أصعب عندهم من إعادته. ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ أي إذا أكنم^٣ النار الحارة في الشجر الأخضر الرطب [ثم] يستخرجها، فعرفكم أنه على إعادة ما بلى أقدر، ثم قال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾^٤ أي إذا كان خلق السماوات والأرض أعظم وأبعد في أذهانكم^٥ وقدركم أن تقدروا عليه من إعادة البالي، فكيف جوزتم من الله خلق هذا الأعجب عندهم والأصعب لديكم، ولم تجوزوا ما هو الأسهل عندهم من إعادة البالي؟.

قال الصادق عليه السلام: «فهذا الجِدال بالتي هي أحسن؛ لأن فيها قطع عُذر الكافرين، وإزالة شبهتهم»^٦. ثم لما أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالدعوة، وعد المجيبين له والمهتدين بهداه بالثواب، وأوعد

١. البقرة: ١١١/٢. ٢. يس: ٣٦/٧٨ - ٨٠. ٣. في النسخة: كمن، وما أثبتناه من الاحتجاج.

٤. يس: ٨١/٣٦. ٥. في الاحتجاج وتفسير الامام العسكري: في أوهاكم.

٦. الاحتجاج: ٢١، تفسير الامام العسكري عليه السلام: ٣٢٢/٥٢٧، وفيهما: وإزالة شبههم، تفسير الصافي ٣: ١٦٣.

الضالين الذين لم يُجيبوه ولم يهتدوا به بالعقاب بقوله: ﴿إِنَّ رَيْكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ﴾ وانحرف ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ودينه بعد دعوته إليه بالحكمة والموعظة والعبير، فيعاقبه أشد العقاب ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِيْنَ﴾ إلى الحق الذي هو دين الاسلام، فيجازيهم بالثواب العظيم.

وَأَنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ *
وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ [١٢٦ و ١٢٧]

ثم لما كانت الدعوة ملازمة لايذاء النبي ﷺ والمؤمنين المستعقبين لإقدام المؤمنين على مكافاة الأعداء، أمرهم سبحانه بالعدل والانصاف في مكافاتهم بقوله: ﴿وَأَنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون وكافيتهم الأعداء على إيذائهم بكم وظلمهم عليكم ﴿فَعَاقِبُوا﴾ هم وكافوهم على ظلمهم ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ وبما يساوي^١ ما تعدوا عليكم، ولا تزيدوا على ما تعدوا عليكم، ولا تزيدوا على ما فعلوا بكم غيظاً وتشغيلاً، وإطلاق العقاب على الأذى البدوي من باب مجاز المشاكلة والازدواج.

ثم لما كان الصبر على الأذى أولى وأفضل عند الله من الانتقام، حثهم سبحانه عليه بقوله: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ﴾ أيها المؤمنون على ما نزل بكم من الأذى، وتركتم الانتقام والعقوبة بالله ﴿لَهُوَ خَيْرٌ﴾ وأفضل عند الله، وأكثر ثواباً ﴿لِلصَّابِرِينَ﴾ على المصائب والشدائد.

ثم أنه تعالى بعد التنبيه على فضيلة الصبر وحث المؤمنين عليه، أمر نبيه ﷺ الذي هو أفضل خلقه بالصبر الذي هو أفضل الأعمال وأحمرها^٢ بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ يا محمد على ما أصابك من أذى الكفار ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ وبتوقيفه وإعانتة لك عليه.

روى بعض العامة عن الصادق عليه السلام، أنه قال: «أمر الله أنبياءه بالصبر، وجعل الحظ الأعلى منه للنبي ﷺ حيث جعل صبره بالله لا بنفسه، وقال ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾»^٣.
أقول: وفيه تسلية له ﷺ.

ثم بالغ في تسليته في اغتمامه في مشاقّة الكفار وإصرارهم على معارضته بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ولا يتألم قلبك من حرمانهم عن فيض الهداية والإيمان وفوائد متابعتك، وسعيهم في تخريب أمرك وإيذائك ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ وغم شديد ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ بك ويدبرون في إطفاء نورك وإبطال دعوتك والإضرار بنفسك.

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ [١٢٨]

ثُمَّ قَوَّى سُبْحَانَهُ قَلْبَهُ الشَّرِيفَ وَأَمَنَهُ مِنْ إِضْرَارِهِمْ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بِالْوَلَايَةِ وَالتَّفَضُّلِ ﴿مَعَ﴾ الْمُؤْمِنِينَ وَ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وَتَحَرَّزُوا عَنِ الْمَعَاصِي وَمَا يَخَالِفُ رِضَاءَ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ فِي أَعْمَالِهِمْ وَمُؤَدُّونَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ تَكَالِيفِ رَبِّهِمْ، أَوْ الْمُرَادُ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا مَكَافَاةَ الْمُسِيءِ إِلَيْهِمْ، وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ إِلَى مَنْ عَادَاهُمْ وَأَسَاءَ إِلَيْهِمْ.

عن ابن عباس رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَأَى حِمْرَةَ وَقَدْ مَثَلُوا بِهِ قَالَ: «وَاللَّهِ لَأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ مَكَانَكَ» فَنَزَلَ جَبْرِئِيلُ بِخَوَاتِيمِ سُورَةِ النَّحْلِ، فَكَفَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمْسَكَ عَمَّا أَرَادَ^١.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى قَالَ: «أَمَّا وَاللَّهِ لئن أَظْفَرَنِي اللَّهُ بِهِمْ لَأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ مَكَانَكَ»^٢. وَقَالَ الْمُؤْمِنُونَ: إِنِ أَظْهَرَنَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَنَزِيدَنَّ عَلَى صُنْعِهِمْ وَلَنُمَثِّلَنَّ مِثْلَهُ لَمْ يَمَثْلِهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ بِأَحَدٍ قَطً^٣.

وَعَنِ الْقُمِيِّ، قَالَ: إِنَّ الْمَشْرِكِينَ مَثَلُوا بِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِينَ اسْتَشْهَدُوا يَوْمَ أُحُدٍ، وَفِيهِمْ حِمْرَةٌ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: أَمَّا وَاللَّهِ لئن أَدَانَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَنُمَثِّلَنَّ بِأَخْيَارِهِمْ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾^٤ يَعْنِي بِالْأَمْوَاتِ^٥.

قِيلَ: إِنَّ الْكُفَّارَ مَثَلُوا بِجَمِيعِ الْمُقْتُولِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَحَدٍ إِلَّا بِحَنْظَلَةِ الْمَلَقَبِ بِغَسِيلِ الْمَلَانِكَةِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ الرَّاهِبِ لِمَكَانِ كَفَرِ أَبِيهِ^٦.

وَعَنِ الْعِشَاشِيِّ، عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام قَالَ: «لَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا صَنَعَ بِحِمْرَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ وَإِلَيْكَ الْمَشْتَكَى وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ عَلَيَّ مَا رَأَى، ثُمَّ قَالَ: لئن ظَفَرْتَ لَأُمَثِّلَنَّ وَأُمَثِّلَنَّ. قَالَ: فَانْزَلَ اللَّهُ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ الْآيَةَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: أَصْبِرْ أَصْبِرْ»^٧.

قِيلَ: إِنَّ سُورَةَ النَّحْلِ كُلَّهَا مَكِّيَّةٌ إِلَّا هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثَ^٨.

عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النَّحْلِ فِي كُلِّ شَهْرٍ دَفَعَ اللَّهُ عَنْهُ الْمَعْرَةَ^٩ فِي الدُّنْيَا وَسَبْعِينَ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ أَهْوَنُهُ الْجُنُونُ وَالْجُذَامُ وَالْبَرَصُ، وَكَانَ مَسْكَنُهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ وَهِيَ وَسْطُ الْجَنَّةِ»^{١٠}.
الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى التَّوْفِيقِ لِاتِّمَامِ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّحْلِ، وَلَهُ الْمَنَّةُ.

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٤١، تفسير البيضاوي ١: ٥٦١. ٢. تفسير البيضاوي ١: ٥٦١، تفسير أبي السعود ٥: ١٥٢.

٣. تفسير روح البيان ٥: ١٠٠.

٤. النحل: ١٦/١٢٦.

٥. تفسير القمي ١: ٣٩٢، تفسير الصافي ٣: ١٦٤.

٦. تفسير روح البيان ٥: ٩٩.

٧. تفسير العياشي ٣: ٢٩٤/٢٩٤، تفسير الصافي ٣: ١٦٥.

٨. مجمع البيان ٥: ٥٣٥.

٩. في النسخة: شهر كفى العزم.

١٠. تفسير العياشي ٣: ٢٣٦١/٣، تفسير الصافي ٣: ١٦٥.



الفهرس

- [١٤٥] وَكُنْتُمْ لَهُ فِي الْأَنْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذُوا بِقُوَّةٍ ٥
- [١٤٦] نَسْأَلُكَ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ ٦
- [١٤٧] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا ٧
- [١٤٨] وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوُا أَنَّهُ ٧
- [١٤٩-١٥١] وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ ٨
- [١٥٢] إِنْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سِبْغًا لَّهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ١٠
- [١٥٣ و ١٥٤] وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَأَمْسُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ ١١
- [١٥٥] وَاتَّخَذَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا عِيقًا تَابًا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ ١١
- [١٥٦] أَوْ كُنْتُ لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي ١٣
- [١٥٧] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي ١٣
- [١٥٨] قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ ١٦
- [١٥٩] مِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ١٧
- [١٦٠] وَفَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ ١٩
- [١٦١ و ١٦٢] إِنْ أَصْرَبَ بِعَسَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ ٢٠
- [١٦٣] وَسَلَّمْنَاهُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاصِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَبْعُدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ ٢١
- [١٦٤-١٦٦] وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ٢١
- [١٦٧] وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَسْمَعَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْيَاقِينَةِ مَنْ يَسُوءْهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ ٢٥
- [١٦٨] وَفَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ ٢٥
- [١٦٩] فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَصَ هَذَا الْأَدْنَى ٢٦
- [١٧٠] وَالَّذِينَ يَمَسْكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أُجْرَهُ ٢٧
- [١٧١] وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ٢٧

- [١٧٢-١٧٤] وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأُشْهِدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ٢٨
- [١٧٥] وَأَتْلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٣١
- [١٧٦ و ١٧٧] وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهَا بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٣٤
- [١٧٨] مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَا رَدَّ لَهُمُ الْخَاسِرُونَ ٣٥
- [١٧٩] وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَكِنْ ٣٥
- [١٨٠] وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ٣٦
- [١٨١] وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ٣٨
- [١٨٢] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ٣٩
- [١٨٣] وَأَمْلَىٰ لَهُمْ أَنْ يَكِيدُوا يَتِيمَ ٣٩
- [١٨٤] أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِفْظٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ٤٠
- [١٨٥] أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ ٤٠
- [١٨٦] مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ٤١
- [١٨٧] يَسْتَلْزِمُونَكَ عَنِ الشَّاعَةِ ابْنَانِ مُرْسَا مَ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعَتِهَا ٤١
- [١٨٨] قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَعِزَّنِي لِلدِّينِ الَّتِي كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ ٤٣
- [١٨٩ و ١٩٠] هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا ٤٤
- [١٩١] ابْتُهِرِكُونَ مَلَأَ بَيْنَهُمَا شِيبًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ ٤٦
- [١٩٢ و ١٩٣] وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ نَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى ٤٦
- [١٩٤] إِنَّ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَثْنَا لَكُمْ فَاذْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ ٤٧
- [١٩٥ و ١٩٦] اللَّهُمَّ ارْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ٤٧
- [١٩٧ و ١٩٨] وَالَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ ٤٨
- [١٩٩] اخِذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ٤٩
- [٢٠٠] وَإِنَّمَا يَنْتَظِرُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ سَمِعَ عَلِيمٌ ٥٠
- [٢٠١ و ٢٠٢] إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُنْصَرُونَ * ٥٠
- [٢٠٣] وَإِذَا لَمْ يَأْتِهِمْ بَأْسُهُمْ قَالُوا لَوْلَا جَنَيْنَتْهَا قُلْ إِنَّمَا اتَّبَعْتُ مَا يَوْحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ٥١
- [٢٠٤] وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٥١
- [٢٠٥ و ٢٠٦] وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ ٥٣
- في تفسير سورة الأنفال ٥٥

- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَوْا اللَّهَ ٥٥
- [٢ و ٣] إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ ٥٧
- [٤ و ٦] أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتُ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * كَمَا ٥٨
- [٧ و ٩] وَإِذْ يَبْعَثُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الصَّلَاتِ فَنَحْنُ عَلَيْهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ ٦٤
- [١٠ و ١١] وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَضَمِّنَ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النُّصْرَ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ ٦٦
- [١٢ و ١٤] إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي ٧٢
- [١٥ و ١٦] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَخُفَّوْا وَلَا تُولَوْهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ ٧٥
- [١٧ و ١٨] فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلَيُبْلَى ٧٦
- [١٩] لَنْ تَسْفَحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَنَحْوُ خَيْرٍ لَكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعُدُّ ٧٧
- [٢٠ و ٢٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلُّوْا عَنَّهُ وَاتَّبِعُوا حَيْثُ تَسْمَعُونَ * وَلَا ٧٧
- [٢٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا ٧٨
- [٢٥] وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ ٨٠
- [٢٦] وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَفَكَ ٨٠
- [٢٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمَانَاتَكُمْ وَأَنْتُمْ ٨١
- [٢٨ و ٢٩] وَاعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * يَا أَيُّهَا ٨٢
- [٣٠] وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ ٨٣
- [٣١ و ٣٢] وَإِذْ تَنَادَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا ٨٧
- [٣٣] وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٨٩
- [٣٤] وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصَدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أُولَئَاءَ ٩٠
- [٣٥] وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذَرُّوا الْعَذَابَ يَمَا كُنْتُمْ ٩٠
- [٣٦ و ٣٧] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ٩١
- [٣٨] قُلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ ٩٣
- [٣٩ و ٤٠] وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلَّهِ كُلُّ شَيْءٍ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا ٩٣
- [٤١ و ٤٢] وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ فَخْصَةَ لِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى ٩٤
- [٤٣] إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَتَابِكُمْ فَلَيْلًا وَلَوْ أَرَاكُمْ كَثِيرًا لَفَاطَمْتُمْ وَلَتَنْزَعُنَّ فِي ٩٧
- [٤٤] وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَفَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ ٩٧
- [٤٥ و ٤٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاتَّبِعُوا وَأَذْكُرُوا أَنَّ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ يُفْلِحُونَ * ٩٨

- [٤٨ و ٤٩] وَإِذْ زَعَىٰ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي ٩٩
 [٥٠ و ٥١] أُولُو قُرْبَىٰ إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرُبُونَ لَهُمْ وَيَصْلَحُونَ ١٠٢
 [٥٢] كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ١٠٢
 [٥٣] ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبَرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُفْخِرُوا بِمَا بَنَوْا لَهُمْ ١٠٣
 [٥٤-٥٥] كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَمْلَكْنَاهُمْ بُدُوبِهِمْ ١٠٣
 [٥٦ و ٥٧] إِنَّا بَنَا نُفُوسَهُمْ فِي الْخَبْرِ فَشَرُّوهُمْ مِنْ خَلْقِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ * وَإِنَّمَا ١٠٤
 [٥٩] وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِلَهُمْ لِأَتَّعِزُّوهُمْ ١٠٥
 [٦٠] وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَغْنَوْا مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُزْهِيُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ ١٠٥
 [٦١] وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٠٦
 [٦٢ و ٦٣] وَالْمُؤْمِنِينَ * وَاللَّيْلِ نَبِّئْ قُلُوبَهُمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ ١٠٧
 [٦٤] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠٨
 [٦٥] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ ١٠٨
 [٦٦] لَأَنْ خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ ١٠٩
 [٦٧] مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُنْثَىٰ حَتَّىٰ يُنْخَسَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ ١١٠
 [٦٨-٧١] لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكَلَّمُوا مِمَّا ١١١
 [٧٢] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ١١٤
 [٧٣] وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ ١١٥
 [٧٤ و ٧٥] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ ١١٥
 في تفسير سورة براءة ١١٩
- [١] إِيْرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١١٩
 [٢] فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَإِنَّ اللَّهَ ١٢٠
 [٣] وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ إِنَّ اللَّهَ بَرِءٌ مِنَ ١٢٤
 [٤] إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ ١٢٥
 [٥] فَإِذَا تَسَلَّحُوا لَلْأَشْهُرِ الْحَرُمِ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ ١٢٦
 [٦] وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ ١٢٦
 [٧] كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ ١٢٧
 [٨] كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةَ يَرْصُونَكُمْ بَأْوَئِهِمْ ١٢٧

- [٩] اَشْرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَنَصَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٢٧
- [١٠-١٢] لَا يَزِيدُكُمْ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا ١٢٨
- [١٣] أَلَا تَقَابَلُونَ فَوَمَا نَكَحُوا آبَائَهُمْ وَهُمَا يَخْرِجُ الرَّسُولَ وَهُمْ يَدْعُوكُمْ أُولَ ١٢٩
- [١٤ و ١٥] قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ ١٣٠
- [١٦] أَلَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ ١٣١
- [١٧ و ١٨] مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى النَّفْسِ بِالْكَفْرِ ١٣١
- [١٩] أَلَحَقْتُمُ بِنِجَابَةِ الْحَاجِّ وَعِمَارَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ١٣٢
- [٢٠-٢٢] الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ ١٣٤
- [٢٣ و ٢٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحْبَبْتُمْ الْكُفْرَ ١٣٤
- [٢٥ و ٢٦] أَفَلَمْ نَصْرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ ١٣٦
- [٢٧] ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٤١
- [٢٨] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ ١٤١
- [٢٩] قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ١٤٢
- [٣٠] وَقَالَ الْيَهُودُ عَزَّيْزُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ ١٤٤
- [٣١] اتَّخَذُوا أَحْسَانَهُمْ رُءُوسًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا ١٤٥
- [٣٢] يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُبَيِّنَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ١٤٥
- [٣٣] هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ١٤٦
- [٣٤ و ٣٥] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْوُحْيَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ ١٤٨
- [٣٦] إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ ١٥٠
- [٣٧] إِنَّمَا النَّسِيءُ وَبَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ عَامًا وَيُحَرِّمُونَ ١٥١
- [٣٨ و ٣٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ اتَّقُوا اللَّهَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ إِلَى ١٥٢
- [٤٠] إِلَّا أَنْ تَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِينَ إِذْ هُمَا فِي ١٥٣
- [٤١] اتَّقُوا خِيفَانَا وَقَالُوا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ ١٥٩
- [٤٢] أَلَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السَّعَةُ ١٦٠
- [٤٣] عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ ١٦١
- [٤٤] لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ ١٦١
- [٤٥] إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَاتَّابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي ١٦١

- [٤٦] وَلَوْ أَنزَلُوا الْحُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ تَبَاعَثَهُمْ فَتَبَيَّنَهُمْ وَقِيلَ [١٦٢] [٤٧] إِنْ خَرَجُوا مِنْكُمْ فَمَا رَأَوْكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْشَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ [١٦٢] [٤٨] أَفَلَا تَتَنَبَّهُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَلْيَأْتِا لَكُمْ الْأُمُورُ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ [١٦٢] [٤٩] أَوْ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذَن لِي وَلَا تَفْتَنِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنْ جَهَنَّمَ [١٦٣] [٥٠] إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ [١٦٤] [٥١] أَفَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَصِيرَةٌ إِنْ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَىٰ أَفْتِنَتِكُمْ كُلِّ الْمُؤْمِنِينَ * [١٦٤] [٥٢] أَفَلَمْ يَنْفَعُوا طَوْعًا أَنْ كَرِهْنَا أَنْ يَنْفَعَلْ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَآسِفِينَ [١٦٥] [٥٣] أَوْ مَا مَنَعَهُمْ أَنْ نَفْعَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتٍ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ [١٦٦] [٥٤] فَلَا تُفْعِلْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ [١٦٦] [٥٥] أَوْ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَيْمَكُكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ [١٦٧] [٥٦] أَوْ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا [١٦٧] [٥٧] وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ [١٦٩] [٦٠] إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَالِيِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ وَفِي [١٦٩] [٦١] أَوْ مِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيُقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ [١٧١] [٦٢-٦٣] أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ مِنْ مُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنْ لَّهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ [١٧٣] [٦٤] لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبْ طَائِفَةٌ [١٧٥] [٦٥] الْمُتَنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْتِرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَتَّبِعُونَ عَنِ [١٧٥] [٦٦] وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ [١٧٦] [٦٧] كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْفَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا [١٧٦] [٧٠] أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ [١٧٧] [٧١] وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْتِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ [١٧٨] [٧٢] وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ حَيَاتٍ نَجْوَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ [١٧٩] [٧٣] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاعْلِظْ عَلَيْهِمْ وَمَا أُوْاهُمْ جَهَنَّمَ [١٧٩] [٧٤] يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمُوا بِمَا [١٨٠] [٧٥] أَوْ مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ لَا تُنَافِقُوا وَلَكِنِ اتَّخَذُوا الصَّالِحِينَ * [١٨٣] [٧٦] وَأَنْفَعَتُهُمْ بِنَافَىٰ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَقُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا [١٨٤] [٧٧] الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ [١٨٥]

- [٨١] أَوْرَحَ الْمُخْلَقُونَ بِمَقْعِدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ ١٨٦
- [٨٢] فَلْيَبْضُكُوا قَلِيلًا وَلْيَنْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١٨٧
- [٨٣] فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنَكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ ١٨٧
- [٨٤] وَلَا تَضَلَّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ ١٨٨
- [٨٥] وَلَا تُجِيبْ أَمْوَالَهُمْ وَأَنْوَالَهُمْ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا ١٩٠
- [٨٦] وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ ١٩١
- [٨٧ و ٨٨] وَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * لَكِنْ ١٩١
- [٨٩ و ٩٠] أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ ١٩٢
- [٩١ و ٩٢] أَلَيْسَ عَلَى الصَّعَاءِ وَلَا عَلَى الْمُرْسَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ ١٩٢
- [٩٣ و ٩٤] إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَنْتَازِعُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ وَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ١٩٤
- [٩٥] سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِعَرَضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ ١٩٥
- [٩٦] يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِعَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ عَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُرْضَى عَنْ الْقَوْمِ ١٩٦
- [٩٧ و ٩٨] الْأَعْرَابُ أَشَدَّ كُفْرًا وَبِقَافًا وَأَجْدَرُ الْأَبْلَغُ لِمَا نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ١٩٦
- [٩٩] وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ ١٩٧
- [١٠٠] وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ١٩٧
- [١٠١] وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِلْفَاقِ ٢٠٠
- [١٠٢] وَأَخْرَجُوا عَنْهُمْ يَدُورِيهِمْ خَطُوعًا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرُ سَبِيلًا عَنِ اللَّهِ أَنْ ٢٠٠
- [١٠٣] اخْذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ ٢٠١
- [١٠٤] أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ ٢٠١
- [١٠٥] أَوْفَلِ أَهْمَلُوا فَمَيَّزَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتَرَدُونَ إِلَى عَالِمٍ ٢٠٣
- [١٠٦] وَأَخْرَجُوا مُرَجُوعَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِنَّمَا يُعَذِّبُهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ٢٠٤
- [١٠٧ و ١٠٨] وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَادًا لِمَنْ ٢٠٤
- [١٠٩] أَلَمْ يَأْتِ بَنِيَانَهُ عَلَى نَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَسَ بَنِيَانَهُ ٢١٠
- [١١٠] لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقْصَعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ٢١٠
- [١١١] لِأَنَّ اللَّهَ تَشَتَّرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْحَقَّةُ يَفْعَلُونَ فِي ٢١١
- [١١٢] أَتَالَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ الْمَاجِدُونَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أَلَا يَرَوْنَ ٢١٢
- [١١٣- ١١٥] مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ ٢١٣

- [١١٦] إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعْطِي وَيُمْسِكُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ٢١٦
- [١١٧] أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٢١٦
- [١١٨] وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِقُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ٢١٩
- [١١٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ٢٢١
- [١٢٠ و ١٢١] مَا كَانَ لِلْأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ٢٢٣
- [١٢٢] وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا ٢٢٤
- [١٢٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ٢٢٦
- [١٢٤ و ١٢٥] أَنْ إِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَمْ حَرَجْتُ إِلَيْنَا آيَاتٌ ٢٢٦
- [١٢٦] أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ ٢٢٧
- [١٢٧] وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنْ أَجْدِثٍ أَنْ يَضُرُّوهُ ٢٢٧
- [١٢٨ و ١٢٩] أَلَمْ يَأْتِ الْفَقْدَ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ٢٢٨
- في تفسير سورة يونس ٢٣١
- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّبُّ الْكَرِيمُ ٢٣١
- [٢] أَكُنَّا لِلنَّاسِ عَجَبًا أَمْ تَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرَ النَّاسَ وَنُبَشِّرَ الَّذِينَ ٢٣١
- [٣] إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى ٢٣٢
- [٤] إِلَهِهِمْ رَبِّكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ٢٣٣
- [٥] هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّحْمَ سَيْئًا وَالْفَقْرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٢٣٤
- [٦] إِنَّ فِي آخِلَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ ٢٣٤
- [٧ و ٨] إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْخِرُونَ لِقَاءَنَا رِزْقًا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ ٢٣٥
- [٩ و ١٠] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يُهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ ٢٣٥
- [١١] وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضَّلَ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَتَنَّهُ ٢٣٦
- [١٢] وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ ٢٣٧
- [١٣ و ١٤] وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا ٢٣٧
- [١٥] وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يُؤْخِرُونَ لِقَاءَنَا آتَتْ بِقُرْآنٍ غَيْرِ ٢٣٨
- [١٦] قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ٢٣٩
- [١٧] فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اتَّخَذَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٢٤٠
- [١٨] وَيُضِلُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا ٢٤٠

- [١٩] وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِي ٢٤٢
- [٢٠] وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغِيبُ فِيهِ فَأَنْتَضِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ ٢٤٣
- [٢١] وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ صَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ ٢٤٣
- [٢٢ و ٢٣] هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ ٢٤٤
- [٢٤] إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ٢٤٥
- [٢٥] وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٢٤٦
- [٢٦] لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ ٢٤٧
- [٢٧] وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَوَهَّمُكُمْ ذَلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ ٢٤٨
- [٢٨] وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ ٢٤٩
- [٢٩ و ٣٠] فَكُفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَائِلِينَ * هنَالِكَ تَبْلَوْا ٢٤٩
- [٣١-٣٣] قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ ٢٤٩
- [٣٤ و ٣٥] قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ ٢٥١
- [٣٦ و ٣٧] وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا ٢٥١
- [٣٨] أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَفَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ ٢٥٢
- [٣٩] إِنْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ ٢٥٣
- [٤٠] وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ٢٥٣
- [٤١] وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ ٢٥٣
- [٤٢ و ٤٣] وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمْعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ * وَمِنْهُمْ ٢٥٤
- [٤٤ و ٤٥] إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ * وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ ٢٥٥
- [٤٦ و ٤٧] وَإِنَّمَا تَرِيَّتُكَ بَعْضُ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّمَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ ٢٥٥
- [٤٨ و ٤٩] وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَا أَتْلُوكَ لِغَفَى صَرًّا وَلَا ٢٥٦
- [٥٠-٥٣] قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ تَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُخْرِمُونَ * ٢٥٧
- [٥٤] وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا لَلْعَذَابِ لَمَّا وَرَأُوا ٢٥٨
- [٥٥ و ٥٦] أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْأَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا ٢٥٩
- [٥٧] إِنَّا إِنَّمَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِدَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبِقَاءٍ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدَى ٢٥٩
- [٥٨] قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ لَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ٢٦٠
- [٥٩] قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالَ قُلِ اللَّهُ أَنْزَلَ ٢٦٠

- [٦٠] وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتُزِعُونَ عَلَى اللَّهِ إِلْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَهُ فَضْلٌ عَلَى ٢٦١
- [٦١] وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا ٢٦٢
- [٦٢] إِلَّا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٢٦٢
- [٦٣-٦٤] الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا ٢٦٣
- [٦٥] وَلَا يَحْزَنُونَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْمِرَّةَ فِيهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٢٦٤
- [٦٦] إِلَّا إِنَّ فِيهِ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَشْعُرُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ ٢٦٥
- [٦٧-٦٨] ذُرِّيَّةٍ مِنْكُمْ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا تَحْزَنُونَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ٢٦٥
- [٦٩-٧٠] قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَنْتُزِعُونَ عَلَى اللَّهِ إِلْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا ٢٦٦
- [٧١] وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّ كَانَ كَثِيرٌ عَلَيْكُمْ مَعَافِي وَتَذَكِيرِي ٢٦٧
- [٧٢-٧٤] فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا سَأَلْتُكُمْ مِنْ آخِرٍ إِنْ آخِرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٢٦٨
- [٧٥-٧٧] ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا ٢٦٩
- [٧٨-٨٢] قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَنَّا وَحَدَّثَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبَرِيَاءُ فِي ٢٦٩
- [٨٣-٨٦] لَمَّا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ٢٧٠
- [٨٧] وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ ٢٧١
- [٨٨-٨٩] وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ٢٧٢
- [٩٠] وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودُهُ نَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا ٢٧٣
- [٩١-٩٢] قَالُوا يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي وَاسْجُدِي وَارْكَعِي وَاسْجُدِي ٢٧٤
- [٩٣] وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِيقَاتٍ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا ٢٧٦
- [٩٤-٩٥] فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ٢٧٦
- [٩٦-٩٧] إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى ٢٧٧
- [٩٨] فَلَوْلَا كَانَتْ ذُرِّيَّةً آمَنَتْ فَتَقْتَحُوا بِمِثْلِهَا إِلَى قَوْمِ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَفَفْنَا عَنْهُمْ ٢٧٧
- [٩٩] وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآتَى مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى ٢٨٥
- [١٠٠] وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرُّوحَ عَلَى الَّذِينَ لَا ٢٨٥
- [١٠١] قُلْ تَنظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُفْعِلُ الْآيَاتِ وَاللُّذُرِّ عَنْ قَوْمٍ ٢٨٦
- [١٠٢] أَفَلَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَى مَا يَفْعَلُ ٢٨٧
- [١٠٣] ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ٢٨٧
- [١٠٤-١٠٦] قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شكٍ مِنْ رَبِّي فَلَا أَغْبِئُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ ٢٨٨

- [١٠٧] وَإِنْ يَنْسَنِكَ اللَّهُ يَصْرِ فَلَا كَافِيَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَرْذَكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ٢٨٩
- [١٠٨] قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَنْفَعِي ٢٨٩
- [١٠٩] وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُفَّكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَافِكِينَ ٢٩٠
- في تفسير سورة هود ٢٩١
- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْكِتَابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْكَ حَكِيمٌ خَبِيرٌ ٢٩١
- [٢-٤] أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخْبِئْكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَيَنْبِئُكُمْ * وَإِنْ أَسْتَعْتَفِرُوا مِنْ رَبِّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا ٢٩٢
- [٥] أَلَا إِلَهُهُمُ يَتَنَوَّنَ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخَفُّوا مِنْهُ أَلَّا يَجِيْنَ يَسْتَغْفِرُونَ لِيَتَابَهُمْ يَظْلَمُونَ مَا ٢٩٢
- [٦] وَمَا مِنْ ذَاتَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رُفْقَهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ ٢٩٣
- [٧] وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ٢٩٤
- [٨] وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ ٢٩٦
- [٩ و ١٠] وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ تَرَفَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ * وَلَئِنْ ٢٩٧
- [١١ و ١٢] إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * فَلَمَّا ٢٩٨
- [١٣] أَلَمْ يَقُولُوا اتَّقُوا اللَّهَ قُلْ فَأْتُوا بِعَهْدِي بِسُورٍ مِثْلِهِ مَقَرَّاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ ٢٩٩
- [١٤] فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فاعْمَلُوا إِنَّمَا أَزِلُّ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ ٣٠٠
- [١٥ و ١٦] مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا نُوْفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا ٣٠٠
- [١٧] أَفَلَمْ يَكُنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا ٣٠١
- [١٨] وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٣٠٤
- [١٩] الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٣٠٥
- [٢٠ و ٢١] أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ٣٠٥
- [٢٢ و ٢٣] لَاجِرْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٣٠٦
- [٢٤] مِثْلَ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَشْتَرِيَانِ مِثْلًا أَفَلَا ٣٠٦
- [٢٥-٢٨] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي ٣٠٧
- [٢٩] ذَرَا قَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِلَّا جَزَاءَ الْوَعْدِ الَّذِي عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِضَارِدٍ إِلَيْهِمْ ٣٠٨
- [٣٠ و ٣١] ذَرَا قَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ ٣٠٩
- [٣٢ و ٣٣] قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ ٣٠٩
- [٣٤] وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ ٣١٠
- [٣٥] أَلَمْ يَقُولُوا اتَّقُوا اللَّهَ قُلْ إِنْ أَنْتُمْ تُحِبُّونَ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ٣١٠

- [٣٦] وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَتَّبِعِ الْبَاقِيَ ٣١١
- [٣٧ و ٣٨] وَأَضْمَعَ أَلْفُكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تَحَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعَذَّرُونَ ٣١١
- [٣٩] فَتَسْتَوِي عَلَىٰ عَدَاةٍ مِّنْ يَّأْبُوهَ عَذَابٌ مُّجْزِيهِ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّثِيمٌ ٣١٢
- [٤٠] حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ٣١٣
- [٤١-٤٣] وَقَالَ أَزْكُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُزَاسَهَا إِنَّ رَبِّي لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَهِيَ ٣١٦
- [٤٤] قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ يَا سَمَاءُ ائْقِي وَاغِيضِي الْمَاءَ وَفُضِيَ الْأَمْرُ ٣١٩
- [٤٥-٤٧] وَتَأَذَّىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّهُ أَتَيْتَنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّكَ لَاحِقٌ وَأَنْتَ أَحْكَمُ ٣٢٠
- [٤٨] قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأَمَّا ٣٢١
- [٤٩] بَنُوكَ مِنْ أَتْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِمْ إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ ٣٢٣
- [٥٠ و ٥١] وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودَا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا ٣٢٤
- [٥٢] وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ ٣٢٤
- [٥٣] قَالُوا يَا هُودَا مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ ٣٢٥
- [٥٤-٥٦] إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسْمٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآتِهُدَا أَنِّي بَرِيءٌ ٣٢٥
- [٥٧] إِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا ٣٢٦
- [٥٨] وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ ٣٢٧
- [٥٩ و ٦٠] وَبَنُوكَ عَادَ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * ٣٢٨
- [٦١] وَإِلَىٰ مُؤَدِّ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ ٣٢٩
- [٦٢-٦٤] قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ٣٢٩
- [٦٥ و ٦٦] لَنَعْفُوهُمَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا ٣٣٢
- [٦٧ و ٦٨] وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَانِبِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْتَبُوا ٣٣٢
- [٦٩-٧١] وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا قَدْ لَبِثَ أَنْ جَاءَ ٣٣٣
- [٧٢-٧٤] قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * ٣٣٥
- [٧٥-٨١] إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنتَبٍ * يَا إِبْرَاهِيمُ اقْرِضْ عَنْ هَذَا إِيَّاهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ ٣٣٦
- [٨٢ و ٨٣] فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَحَابٍ ٣٣٩
- [٨٤] وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا ٣٤٣
- [٨٥] وَيَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمِلَّةَ الْإِصْبَاطَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا ٣٤٤
- [٨٦] تَقِيَتْ اللَّهَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ٣٤٤

[٨٧ و ٨٨] قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَبْغُوا آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي ٣٤٥

[٨٩-٩٣] أَوْ يَأْتُوا قَوْمَ لَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ ٣٤٦

[٩٥ و ٩٤] أَوْلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ٣٤٨

[٩٦-٩٩] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ ٣٤٨

[١٠٠] ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ٣٤٩

[١٠١-١٠٣] وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ ٣٤٩

[١٠٤-١٠٧] وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ * يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُعِيُّ ٣٥١

[١٠٨] وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ٣٥٣

[١٠٩] فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَبْعَثُ اللَّهُ لَكُمْ بَعِثُوا لَكُمْ بَعِثُوا لَكُمْ بَعِثُوا لَكُمْ بَعِثُوا ٣٥٣

[١١٠] وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاسْتَخْلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِي ٣٥٤

[١١١] وَإِنْ كَلَّا لَأَكِيدَنَّ فِيهِمْ رَبِّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٣٥٥

[١١٢ و ١١٣] فَاسْتَفْتِمُ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا ٣٥٥

[١١٤] وَأَنِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُ الْشَّيْئَاتِ ٣٥٦

[١١٥ و ١١٦] وَأَضْمِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَبْصُرُ أَجْرَ الْمُخْسِنِينَ * فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ ٣٥٨

[١١٧] وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ يَكْفُرُونَ ٣٥٩

[١١٨ و ١١٩] وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ ٣٥٩

[١٢٠-١٢٢] أَوْ كَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَنْبُئُ بِهَ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ٣٦١

[١٢٣] وَفِي غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ٣٦١

في تفسير سورة يوسف ٣٦٣

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ يَكُنِ الْأَنْبَاءُ الْأَنْبَاءُ ٣٦٣

[٢ و ٣] إِنْ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ٣٦٣

[٤] إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ٣٦٤

[٥] قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ ٣٦٥

[٦] وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ٣٦٦

[٧] لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ٣٦٨

[٨] إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غَضَبٌ إِنَّهُ يَأْتَانَا فَى صَلَاحٍ ٣٦٨

[٩] أَتَقْتُلُونَا يُونُسَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبُلْ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعِيدِهِ ٣٦٩

- [١٠] قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَغْتُلُوا يَوْسُفَ وَالْقَوْمُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ ٣٦٩
- [١١ و ١٢] قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يَوْسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا ٣٧٠
- [١٣ و ١٥] قَالَ إِنِّي لَبِئْسَ نَاسِئِينَ أَنْ تَهْبِئُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ٣٧٠
- [١٦ و ١٨] وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِشُ وَتَرَكْنَا يَوْسُفَ ٣٧٤
- [١٩ و ٢٠] وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ ٣٧٦
- [٢١] وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ ٣٧٩
- [٢٢ و ٢٤] وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَرَاوَدَتْهُ ٣٨٠
- [٢٥ و ٢٩] وَاتَّخَفْنَا لِيَابِهَا وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سِيَدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا ٣٨٥
- [٣٠ و ٣٢] وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ٣٨٨
- [٣٣ و ٣٦] قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ٣٩١
- [٣٧ و ٣٨] قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِنَاوِيلِهِ قُلْ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذِكُّمَا مِمَّا ٣٩٦
- [٣٩] يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ٣٩٨
- [٤٠] مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ ٣٩٨
- [٤١] يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَخَذْتُمَا فَسْفَى رَبِّهِ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخِرُ فَوَيْلٌ ٣٩٩
- [٤٢] وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِثْمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاءَ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ٤٠٠
- [٤٣] وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ ٤٠١
- [٤٤ و ٤٨] قَالُوا أَضْغَاتٌ أُخْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأُخْلَامِ بِعَالَمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا ٤٠٢
- [٤٩] أَنْتُمْ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَيَفِي يُعْصِرُونَ ٤٠٤
- [٥٠] وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْتَوِينِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَأَل ٤٠٥
- [٥١] قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِي يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْ خَافْتُ أَنْ يُسَاءَ إِلَيَّ مَا عَمِلْتُ عَلَيْهِ مِنْ ٤٠٦
- [٥٢] ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ٤٠٦
- [٥٣] وَمَا أَتَى نَفْسِي إِلَّا الْفَقْسُ لِأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ ٤٠٧
- [٥٤] وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْتَوِينِي بِهِ أَسْتَخْلِفُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا ٤٠٨
- [٥٥] قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ٤٠٩
- [٥٦] وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوهُ مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا ٤١٠
- [٥٧] وَلَا تَجْرُ الْأَجْرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ٤١٠
- [٥٨] وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ٤١٥

- [٥٩] وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ اِنتَوِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَلاَ تَقْرَءُونَ أَنَّى أُوْفَى ٤١٦
- [٦٠-٦٢] فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُون * قَالُوا سُبْحَانَكَ عَنَّا أَبَاهُ ٤١٦
- [٦٣ و ٦٤] فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَيْبِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَن مَّعَ الْكَيْلِ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلُ ٤١٧
- [٦٥ و ٦٦] وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ ٤١٨
- [٦٧] وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَى ٤١٩
- [٦٨] وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أُوْبُهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً ٤٢٠
- [٦٩] وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا ٤٢١
- [٧٠] فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِي ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْهَا ٤٢٣
- [٧١-٧٥] قَالُوا وَأَتَيْنَا عَلَىٰهِمْ مَاذَا نَقْعِدُونَ * قَالُوا نَقْعِدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ ٤٢٤
- [٧٦] فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ رِغَاءِ أَخِي ثُمَّ اسْتَخَرَهَا مِنْ رِغَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَا ٤٢٥
- [٧٧] قَالُوا إِنْ يَشِرْ فَقَدْ سَرِقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلٍ فَأَسْرَمَهَا يُوْسُفَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا ٤٢٦
- [٧٨] قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٤٢٨
- [٧٩-٨١] قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن أُنْخِذَ إِلَّا مِنْ وَجْدِنَا مَتَاعِنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا نَطَّلَمُونَ * فَلَمَّا ٤٢٨
- [٨٢] وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ٤٣٠
- [٨٣ و ٨٤] قَالَ بَلْ سَوَّيْتُ لَكُم أَنفُسَكُمُ أَمْرًا فَصَبِّرْ جَمِيلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ ٤٣١
- [٨٥ و ٨٦] قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوْسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * ٤٣٢
- [٨٧] يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّنُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا ٤٣٣
- [٨٨] فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأُهْلْنَا الصُّرُوحَ وَحِثْنَا بِبِضَاعَةٍ ٤٣٥
- [٨٩] قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ٤٣٦
- [٩٠ و ٩١] قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوْسُفَ قَالَ أَنَا يُوْسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن ٤٣٦
- [٩٢] قَالَ لَا تَرْتِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بَغْيُ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ٤٣٧
- [٩٣] أَذْهَبُوا بِمِقْيَصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتَوْنِي بِأَهْلِكُمْ ٤٣٨
- [٩٤] وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُون ٤٣٩
- [٩٥ و ٩٦] قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ الْغَاةَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ٤٣٩
- [٩٧ و ٩٨] قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ٤٤١
- [٩٩] فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوْسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ٤٤٢
- [١٠٠] وَرَزَقَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ ٤٤٣

[١٠١] رَبِّ فَذَرْنِي مَنِ الْمَلِكِ وَعَلَّخْتَنِي مِنْ قَابِلِ الْأَعْدَابِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ ٤٤٦

[١٠٢ و ١٠٣] ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ ٤٤٨

[١٠٤-١٠٦] وَمَا نَسَأَلَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي ٤٤٩

[١٠٧] أَنْتُمْ لِمَا أَنْتُمْ غَائِبَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمْ الشَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا ٤٥١

[١٠٨] أَقُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتُمْ يُضِلُّوا اللَّهُ وَمَا ٤٥١

[١٠٩ و ١١٠] وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٤٦٥

[١١١] أَفَلَمْ يَكُنْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لَأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ خَدِيدًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ ٤٥٤

في تفسير سورة الرعد ٤٥٧

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْقَرْنِ يَكُ آيَاتِ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ٤٥٧

[٢] اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْفَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٤٦٨

[٣] وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ ٤٥٩

[٤] ذُرَى الْأَرْضِ فَمَنْعَ مُتَجَاوِرَاتٍ وَجَعَلَ مِنَ الْأَنْبَارِ وَزُرُوعًا وَنَجِيلًا مِثْلًا ٤٦١

[٥] وَإِنْ تَعْجَبَ فَمَجِبٌ قَوْلُهُمْ أَمَّا كُنَّا فَرَبًّا أَوْ لَا لَقَدْ خَلَقْنَا أَجْلًا لَكَ الَّذِينَ ٤٦٢

[٦] وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْهَيْبَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ ٤٦٣

[٧] يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ ٤٦٣

[٨ و ٩] اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ ٤٦٤

[١٠] سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَنَارًا ٤٦٦

[١١] اللَّهُ مُعَذِّبَاتٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُوكَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ لَا يَغَيِّرُ مَا ٤٦٦

[١٢] هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ٤٦٨

[١٣] وَيُنْشِئُ الرِّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْعَاصِفَ مِنْ خِفَّتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا ٤٦٩

[١٤ و ١٥] اللَّهُ دَعَاَهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كِتَابًا ٤٧٢

[١٦] أَقُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَتَأْخُذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا ٤٧٤

[١٧] أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا ٤٧٦

[١٨] لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي ٤٧٧

[١٩ و ٢٠] أَلَمْ يَنْعَلُمْ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٤٧٨

[٢١-٢٤] وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ ٤٧٩

[٢٥] وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ٤٨٢

- [٢٧ و ٢٨] اللَّهُ يُنْطِقُ الرُّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ٤٨٣
- [٢٨] الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ٤٨٤
- [٢٩] الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا ب..... ٤٨٤
- [٣٠] كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِهَا أُمَّةٌ لَنْتَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا ٤٨٥
- [٣١ و ٣٢] وَلَوْ أَنَّهُ قَرَأْنَا سُورَةَ الْإِنْشَاءِ أَوْ قُضِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ الْعَمَلُ بَلْ فِيهِ ٤٨٦
- [٣٣] أَفَمَنْ هُوَ قَابِئٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ ٤٨٨
- [٣٤] لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ ٤٨٩
- [٣٥] مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ٤٩٠
- [٣٦] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَحْزَابُ ۖ مِنْ يُنْكِرُ ٤٩٠
- [٣٧] وَكَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكُمْ عَرَبًا وَآلِينَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ٤٩١
- [٣٨ و ٣٩] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرُسُلِنَا أَنْ ٤٩٢
- [٤٠ و ٤١] وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضُ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَيْدُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا ٤٩٥
- [٤٢] وَلَقَدْ نَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ ٤٩٦
- [٤٣] وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلٌ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ ٤٩٧
- ٤٩٩ في تفسير سورة إبراهيم.
- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرِّكَابُ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ لُطْحَيْمَ النَّاسِ مِنَ الطُّلَمَاتِ ٤٩٩
- [٢ و ٣] اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ ٥٠٠
- [٤] وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي ٥٠٠
- [٥] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الطُّلَمَاتِ إِلَى التُّورِ ٥٠١
- [٦] وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ٥٠٢
- [٧ و ٨] وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ ٥٠٢
- [٩ و ١٢] أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودُ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ٥٠٣
- [١٣ و ١٤] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ٥٠٦
- [١٥ و ١٧] وَاسْتَغْنَوْا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيَسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ ٥٠٧
- [١٨] مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ٥٠٨
- [١٩ و ٢٠] أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ ٥٠٨
- [٢١] وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الصُّفَّاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ ٥٠٩

- [٢٢] وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ ٥١٠
- [٢٣] وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ٥١١
- [٢٤ و ٢٥] أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَضَلَّتْهَا نَابِتٌ وَفَرَعُهَا ٥١١
- [٢٦] وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ ٥١٣
- [٢٧] يَبْقَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٥١٣
- [٢٨ و ٢٩] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ ٥١٤
- [٣٠] وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ٥١٦
- [٣١] قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُعْمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ٥١٩
- [٣٢ و ٣٤] اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٥١٧
- [٣٥] وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ ٥١٨
- [٣٦] رَبِّ إِنِّي أَضَلُّ كَثِيرًا مِنْ التَّائِبِينَ فَصْنِئْ لِي سَبِيلًا وَأَجْعَلْ لِي ٥١٩
- [٣٧] رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِ بَوَادِ غَيْرِ ذِي رِزْقٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا ٥٢٠
- [٣٨] رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ ٥٢٣
- [٣٩] الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَحْمَةَ رَبِّي لَسَمِيعٌ ٥٢٣
- [٤٠ و ٤١] رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي ٥٢٤
- [٤٢ و ٤٣] وَلَا تَحْسَبِ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيُزِمَّهُمْ تَنَجُّصَ فِيهِ ٥٢٥
- [٤٤ و ٤٥] وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ يَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى أَجَلٍ ٥٢٥
- [٤٦] وَفَدَّ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرَهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِلْزُّلِّ مِنْهُ ٥٢٦
- [٤٧] فَلَا تَحْسَبِ اللَّهُ مُخِلًّا وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ٥٢٧
- [٤٨] يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ٥٢٧
- [٤٩ و ٥٢] أَرَأَيْتَ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِلُهُمْ مِنْ فَخْرَانِ ٥٢٩
- في تفسير سورة الحجر ٥٣١
- [١ و ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّبُّكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ * رَبُّمَا يَوْمُ الَّذِينَ ٥٣١
- [٣] ذُرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَبِلَهُمْ الْأَمْثَلُ نَسُوفٌ يَعْلَمُونَ ٥٣٢
- [٤ و ٥] وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قُرْبَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَكْلُومٌ * مَا نَسِيبُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا ٥٣٢
- [٦ و ٧] وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا قُلْنَا بِالْمَلَايِكَةِ ٥٣٣
- [٨ و ٩] مَا نُنْزِلُ الْمَلَايِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نُزِّلُ الذِّكْرَ وَلَئِنْ ٥٣٣

- [١٣-١٠] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ ٥٣٤
- [١٥ و ١٤] وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعُوجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ ٥٣٥
- [١٨-١٦] وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ ٥٣٥
- [٢٢-١٩] وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ * ٥٣٦
- [٢٤ و ٢٣] وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ ٥٣٩
- [٢٥] وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٥٣٩
- [٢٧ و ٢٦] وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَاةُ خَلْقُنَاهُ مِنْ ٥٤٠
- [٢٩ و ٢٨] وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَايِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَاذًا ٥٤١
- [٣٨-٣٠] نَسْجَدَ لِلْمَلَايِكَةِ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ٥٤١
- [٤١-٣٩] قَالَ رَبِّ بِمَا أغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٥٤٤
- [٤٢] إِنَّ عِبَادِي لَنِسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَايِينَ ٥٤٤
- [٤٤ و ٤٣] وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ ٥٤٥
- [٤٨-٤٥] إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي ٥٤٦
- [٥٠-٤٩] إِنِّي عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ ٥٤٧
- [٥٥-٥١] وَنَبِّئُهُمْ عَنْ صَيْبٍ إِنْزَاهِيم * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ ٥٤٧
- [٦٠-٥٦] قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٥٤٨
- [٦٥-٦١] فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جُنُنَا بِمَا ٥٤٩
- [٧١-٦٦] وَفَضَّلْنَا إِبْرَاهِيمَ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنْ دَاوِدَ هُوَ الْأَمْرُ مَقْضُوعٌ مُصْحِحِينَ * وَجَاءَ أَهْلُ ٥٥٠
- [٧٥-٧٢] الْمَعْرُوكَ إِنَّهُمْ لَمَي سَكَرْتَهُمْ بِمَعْمَرٍ * فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا ٥٥١
- [٧٩-٧٦] وَإِنَّا لَنَسْبِلُ مَعِيبٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ * وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ ٥٥٢
- [٨٤-٨٠] وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ * وَاتَّبَيْنَاهُمْ آبَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا ٥٥٣
- [٨٦ و ٨٥] وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ٥٥٤
- [٨٧] وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَتَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ٥٥٤
- [٩١-٨٨] لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَآخِضْ ٥٥٦
- [٩٦-٩٢] فَتَرَى أَنَّكَ لَتَسْتَلْهُمُ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ٥٥٧
- [٩٩-٩٧] وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَصِئُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنْ ٥٦٠
- ٥٦١ في تفسير سورة النحل

- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَنَّى أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنَّا بَشَرُكُونَ ٥٦١
- [٢] يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا ٥٦٢
- [٣ و ٤] خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَنَّا بَشَرُكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ ٥٦٣
- [٥ و ٧] وَاللَّعَلَّكُمْ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ٥٦٤
- [٨] وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحُمَيْرِ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٥٦٤
- [٩] وَعَلَى اللَّهِ قُدُسُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ٥٦٥
- [١٠ و ١١] هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * ٥٦٦
- [١٢] وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُوسُ مُسْتَخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ٥٦٧
- [١٣] وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ٥٦٨
- [١٤] وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً ٥٦٨
- [١٥ و ١٦] وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَالنَّهَارُ وَسُبُلًا لَكُمْ تَهْتَدُونَ ٥٦٩
- [١٧ و ٢١] أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ٥٦٩
- [٢٢ و ٢٣] إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ٥٧١
- [٢٤ و ٢٥] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ ٥٧٢
- [٢٦] قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ ٥٧٣
- [٢٧] ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٥٧٤
- [٢٨ و ٢٩] الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ ٥٧٤
- [٣٠] وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ٥٧٥
- [٣١ و ٣٣] جَاءَتْ عَذَابُ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ ٥٧٦
- [٣٣ و ٣٤] هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ خَافَلَ الَّذِينَ ٥٧٧
- [٣٥] وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا ٥٧٧
- [٣٦] وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّالِحَاتِ فَمِمَّثِلُ مَنْ ٥٧٨
- [٣٧ - ٤٠] إِنْ تَعْرِضْ عَلَى هَذَا هُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي عَن بَيْضٍ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * ٥٧٨
- [٤١] وَالَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْنِيَنَّ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرًا ٥٨٠
- [٤٢ - ٤٤] الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي ٥٨١
- [٤٥ - ٤٧] أَفَأَمَّا الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ ٥٨٣
- [٤٨] أَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَّبِعُونَ ظِلَّاهُ عَنِ الْجَبِينِ وَالسَّمَاءِ ٥٨٤

- [٥٠ و ٤٩] وَرَبِّ سَجْدَ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا ٥٨٥
- [٥١] وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِنِى فَاذْهَبُونَ ٥٨٦
- [٥٥-٥٢] وَلَوْ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الْكَذِبُ وَإِصَابُ الْقَوْمِ تَتَّقُونَ * وَمَا ٥٨٦
- [٥٦ و ٥٥] وَيُجْعَلُونَ لِمَا لَا يَفْعَلُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاهِلُ لَتُسْفَلَنَّ عَنْكَ كُنْتُمْ تَقْتُرُونَ * ٥٨٧
- [٥٨ و ٥٩] وَإِذَا بُسِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ ٥٨٨
- [٦٠] لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَفِي الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ ٥٨٩
- [٦١] وَلَوْ يُوَاحِدُ اللَّهُ النَّاسَ كُلَّهُمْ مَا تُرِكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ ٥٨٩
- [٦٢ و ٦٣] وَيُجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْفُرُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ ٥٩٠
- [٦٤ و ٦٥] وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً ٥٩٠
- [٦٦] وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَتُسْفِيَكُمْ بِمَا فِى بُحُونِهِ مِنْ بَيْنِ ذَرْبٍ وَذَمِّ لَبَنًا ٥٩١
- [٦٧] وَمِنْ نَمَرَاتِ النَّحِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَلِكَ ٥٩١
- [٦٨ و ٦٩] وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا ٥٩٢
- [٧٠] وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَكَّلْكُمْ وَبَيْنَكُمْ مَن يَزِيدُ إِلَىٰ أَزْدَلِ الْعُمَرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ ٥٩٥
- [٧١] وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الْأَرْزَاقِ عَمَّا الْذِينَ فَضَّلَا بَرَادَىٰ رِزْقِهِمْ ٥٩٥
- [٧٢] وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً ٥٩٦
- [٧٣ و ٧٤] وَيَتَذَكَّرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا ٥٩٧
- [٧٥ و ٧٦] فَصَبَّ اللَّهُ مَلَأَ عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ٥٩٨
- [٧٧] وَفِي غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا نُفِى السَّاعَةِ إِلَّا كَلَشَحٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ٥٩٩
- [٧٨] وَاللَّهُ أَشْرَحَكُمْ مِنْ بُحُونِ أَلْمَهَابِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ ٥٩٩
- [٧٩] أَلَمْ يَزِدْ إِلَى الصَّغِيرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوْ السَّمَاءِ مَا يُعْصِيكُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِى ٦٠٠
- [٨٠] وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ٦٠٠
- [٨١-٨٣] وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ ٦٠٠
- [٨٤-٨٧] زَيْمٌ نَبْعٌ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِدَ أَنْ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * ٦٠٢
- [٨٨] الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ رِزْقَانَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا ٦٠٣
- [٨٩] زَيْمٌ نَبْعٌ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِدَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى ٦٠٤
- [٩٠] إِلَّا اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ ٦٠٦
- [٩١] وَأَوَلَوْ لَا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٦٠٨

- [٩٢] وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَضَتْ غَرْلَهَا مِنْ بَغْدٍ قُوَّةً أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا
 ٦٠٩
 [٩٣] وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُفْعَلُ مِنْ شِئَاءٍ مَنْ شِئَاءُ
 ٦١٠
 [٩٤ و ٩٥] وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَوَلَّى قَدَمٌ بَعْدَ نُيُوبِهَا وَتَذَرُوا السُّوءَ بِمَا
 ٦١١
 [٩٦ و ٩٧] مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ أَتَيْنَا مِنْ أَجْرِهِمْ بِأَحْسَنِ مَا
 ٦١٢
 [٩٨] فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الْأَعْيُنَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ
 ٦١٣
 [٩٩ و ١٠٠] إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُ
 ٦١٣
 [١٠١] وَإِذَا بَدُلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاتَّخَذْنَا بِهَا نَصْرًا لَكُمْ أَوْ كُنَّا نُنْزِلُهَا وَإِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ
 ٦١٤
 [١٠٢-١٠٤] قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى
 ٦١٤
 [١٠٥ و ١٠٦] إِنَّمَا يَغْتَبِرَ الْعَذَابَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ *
 ٦١٥
 [١٠٧-١٠٩] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 ٦١٧
 [١١٠ و ١١١] ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُضِيَتْ أُمُورُهُمْ وَأُجْرُوا أَنَّ رَبَّكَ مِنْ
 ٦١٨
 [١١٢] وَصَرَبَ اللَّهُ مَلَائِكَةً كَانَتْ أُيمَةً مُصَمِّمَةً بِأَرْبَابِهَا رِزْقَهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
 ٦١٩
 [١١٣] وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ
 ٦٢٠
 [١١٤] فَكَلُوا مِنْهَا زَكَاةً فَكَذَّبُوهَا فَكَلُوا مِنْهَا زَكَاةً فَكَذَّبُوهَا فَكَلُوا مِنْهَا زَكَاةً فَكَذَّبُوهَا
 ٦٢١
 [١١٥] إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلُ الْبَيْتِ إِلَّا بِمَا
 ٦٢١
 [١١٦ و ١١٧] وَلَا تَقُولُوا لِمَا يُصِفُ السُّوءَ لَكُمْ كَذِبًا وَهَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيُفْتَنُوا
 ٦٢١
 [١١٨] وَإِلَى اللَّهِ يَرْجِعُ مَا قَضَيْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ
 ٦٢٢
 [١١٩] ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ قَالُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ
 ٦٢٣
 [١٢٠ و ١٢١] إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * نَاكِرًا لِلْعُلَمَاءِ
 ٦٢٣
 [١٢٢ و ١٢٣] وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
 ٦٢٤
 [١٢٤] إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَكْتُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ
 ٦٢٥
 [١٢٥] أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ
 ٦٢٦
 [١٢٦ و ١٢٧] وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ *
 ٦٢٨
 [١٢٨] إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ
 ٦٥٩
 ٦٣١